# دولة الإسلام في الأندلس

تأليف

محمد عبد الله عنان

مكتبة الخانجي

القاهرة

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م،

مطبعة المدني - القاهرة

٥ مجلدات

ترقيم الكتاب موافق للمطبوع

العصر الأوَّل - القسم الأوَّل

من الفتح إلى بداية عهد الناصر

- - - - - - - - - - - -

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

(١/١)



الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

رقم الإيداع: ٨٩٨٨ / ٩٠

الترقيم الدولى: ٤ - ٠٨٢ - ٥٠٥ - ٩٧٧

مطبعة المدني

المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية.

القاهرة.

ت: ٤٨٩٧٨٥١

(٢/١)

نموذج من صفحات الجزء المخطوط من تاريخ ابن حيان المحفوظ بمكتبة جامع القرويين بفاس

(٣/١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

تصدر اليوم الطبعة الرابعة من كتاب " دولة الإسلام في الأندلس "، وقد أتيح لنا بعون الله وتوفيقه، أن نكمل تاريخ الأندلس منذ بدايته إلى نهايته، وأن تظهر عصوره الأربعة على النحو الآتي:

العصر الأول – ويشمل تاريخ فتوح إفريقية والأندلس، وعصر الولاة، ثم تاريخ الدولة الأموية الأندلسية منذ قيامها في ظل الإمارة، ثم قيام الخلافة الأموية، وانحلالها على يد الدولة العامرية، ثم انهيارها وسقوطها، وبدء قيام دول الطوائف الأندلسية: ٢٢ – ٤٥٠ هـ (٦٤٣ – ١٠٥٨ م)

وهذا العصر، هو الذى نقدمه اليوم إلى القارئ في طبعته الجديدة.

العصر الثاني – " دول الطوائف "، ويشمل تاريخ الأندلس منذ قيام دول الطوائف الأندلسية، في أوائل القرن الخامس الهجرى، حتى سقوطها على

يد المرابطين في أواخر هذا القرن: ٤٢٥ – ٥٠٢ هـ (١٠٣٣ – ١١٠٨ م) .

العصر الثالث – " عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس " ويشمل

تاريخ هاتين الدولتين المغربيتين العظيمتين، منذ بدايته حتى نهايته، وتاريخ الأندلس الكبرى في ظلهما، ثم انهيارها عقب انهيار سلطان الموحدين فى الأندلس، في أوائل القرن السابع الهجرى: ٥٠٠ – ٦٦٨ هـ (١١٠٦ – ١٢٦٩ م) .

العصر الرابع – " نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين "، ويشمل تاريخ مملكة غرناطة آخر دول الإسلام في الأندلس، منذ قيامها حتى سقوطها،

ثم تاريخ الأمة الأندلسية المغلوبة تحت نير اسبانيا النصرانية، بعد أن غدت طائفة الموريسكيين أو العرب المتنصرين، وما نزل بها من محن التنصير المغصوب، ومختلف ضروب الاضطهاد المفجعة، حتى إخراجها نهائيا من



الأراضي الإسبانية، وذلك في بداية القرن السابع عشر الميلادى: ٦٣٥ – ١٠١٩ هـ (١٢٣٧ – ١٦١٠ م) .

وقد أتيح لنا إلى جانب هذه العصور الأربعة من تاريخ الأندلس، أن

نصدر في نفس الوقت مؤلفا خاصا عن الآثار والنقوش الأندلسية الباقية، فى شبه الجزيرة الأندلسية، وذلك بعنوان " الآثار الأندلسية الباقية، في اسبانيا والبرتغال ".

وتشغل هذه العصور الأربعة تسعة قرون من حياة الأمة الأندلسية، زاخرة بالأحداث والعبر والمآسى المشجية، لم نأل جهداً في سردها، وتحليلها، وإسنادها إلى مصادرها الوثيقة.

وقد أنفقت في كتابة هذه العصور الأربعة، من تاريخ الأمة الأندلسية، خمسة وعشرين عاماً، قمت خلالها بست عشرة رحلة في اسبانيا والمغرب، لم أدخر خلالها وسعاً في البحث والتنقيب، وتقصى مختلف المصادر والوثائق،

ودراسة الخطوطات العربية، والوثائق القشتالية، في مختلف مواطنها.

ولقد كان لهذا التجوال المتكرر، في ربوع الأندلس القديمة، والزيارات المتعددة للقواعد الأندلسية الذاهبة، ولاسيما القواعد الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية،

وبلنسية، وشاطبة، ومرسية، وسرقسطة، وطليطلة، وبطليوس، وماردة، وأشبونة،

وباجة وغرناطة، وألمرية، ومالقة، وغيرها، وهذه الدراسات المستفيضة لآثارها ونقوشها الأندلسية الباقية، وهذه المشاهدات لطبائع الإقليم، والبقاع، والأوساط التي حلت فيها الأمة الأندلسية، وعاشت عدة قرون، ووضعت أسس

حضارتها العظيمة – كان لذلك كله في نفسى أعمق الآثار، وقد أمدني بكثير من

الحقائق والفكر الجديدة.

وأود أن أنوه هنا، بأنه فضلا عن استيعاب المصادر القشتالية واللاتينية القديمة، والمصادر الغربية الحديثة، إلى جانب المصادر العربية الختلفة العامة

والخاصة، قد أتيح لى أن أنتفع بكثير من المصادر المخطوطة الهامة، مما عثرت
عليه خلال بحوثي في المجموعات الإسبانية (ولاسيما مجموعة الإسكوريال ومجموعة
أكاديمية التاريخ) ، والمجموعات المغربية في الرباط وفاس، وأن أنتفع فى
هذا القسم من تاريخ الأندلس، بوجه خاص، بثلاث قطع مخطوطة نادرة



من مؤلف ابن حيّان القيم في تاريخ الأندلس، وهو كتاب " المقتبس في تاريخ
رجال الأندلس " أو " المقتبس في أخبار أهل الأندلس ".
القطعة الأولى - وتشمل حوادث سنى ١٨٠ - ٢٣٢ هـ، أعنى عصرى الحكم
ابن هشام وعبد الرحمن بن الحكم، وتقع في نحو مائة صفحة (ص ٨٨ - ١٨٩)
من القطع الكبير، وهى عبارة عن بداية السفر الثاني من كتاب " المقتبس ":
ويرجع الفضل في انتفاعى بهذا القسم، إلى صديقي العلامة المرحوم الأستاذ ليفى
بروفنسال، وكان قد عثر عليه في مكتبة جامع القرويين بفاس، وقد اختفى
الآَن هذا القسم ولا نعرف مكان وجوده.
القطعة الثانية - وهى تأتي مباشرة بعد القطعة الأولى، وتشمل حوادث
سنى ٢٣٣ - ٢٦٧ هـ، أعنى بقية عصر عبد الرحمن بن الحكم، ومعظم عهد
ولده الأمير محمد، والبوادر الأولى للثورة الكبرى، وتقع في ٩٥ لوحة أعنى
مائة وتسعين صفحة من القطع الكبير، وهى عتيقة بالية كثيرة الخروم،
متساقطة الحوافي، مكتوبة بخط أندلسي قديم، وقد كتب في نهايتها " كمل
السفر الثاني بحمد الله تعالى، يتلوه الثالث، مبتدأ نجوم عمر بن حفصون

كبير
الثوار بالأندلس ".
وهى تحتوى على تفاصيل ومعلومات هامة عن بلاط قرطبة
وأحواله في هذا العصر، وعن الصقالبة والوزراء والعمال.
وقد عثرت على هذه
القطعة في مكتبة جامع القرويين بفاس، وحصلت منها على صورة فتوغرافية،
وانتفعت بها منذ الطبعة الثالثة من الكتاب انتفاعأ عظيما، وذلك بالرغم من
صعوبة المراجعة في هذه المخطوطة البالية (١) .
ويتلو هذا القسم المخطوط الذى يشتمل على السفر الثاني من " المقتبس "،
السفر الثالث، الذى قام بنشره المستشرق الإسباني الأب الأوغسطينى ملشيور
أنتونيا عن مخطوطة المكتبة البودلية بأكسفورد (باريس سنة ١٩٣٧) ، وهو
يشتمل على عهد الأمير عبد الله بن محمد، وحوادث الفتنة الكبرى من سنة
٢٧٥
إلى سنة ٢٩٨ هـ، قبيل عهد الناصر بعامين.
القطعة الثالثة - وهي تتعلق بأعظم اكتشاف من نوعه من كتاب " المقتبس "،

---

(١) وقد قام صديقي الدكتور محمود علي مكي أخيراً بتحقيق هذه القطعة
ونشرها، وسوف
تظهر قريبا.

*(١/٧)*

وهو العثور على " السفر الخامس " منه المتعلق بعهد عبد الرحمن الناصر.
ان هذا الاكتشاف يتعلق بأعظم قطعة مخطوطة عثر بها البحث حتى اليوم
من هذا المؤلف الكبير.
وقد تم العثور عليها منذ أعوام قلائل بين موجودات
الخزانة الملكية بالرباط، وقد كان من حسن الطالع أن أتيح لنا الاطلاع عليها

ودراسة محتوياتها دراسة وافية.

وهى عبارة عن جزء ضخم من كتاب " المقتبس " يقع في مائة وخمسة وثمانين ورقة كبيرة تضم ٣٧٠ صفحة، ولا يحمل المخطوط عنوانا لأنه ناقص

من أوله.

ولكن لا يصعب على من يعرف منهج ابن حيان التاريخى وأسلوبه النقدى، ومصادره التي يقتبس منها، أن يدرك لأول وهلة أنه أمام جزء كبير من المقتبس.

ومن جهة أخرى، فإنه مما يقطع بصحة هذا الاستنتاج، ما قرأناه في حوادث سنة ٣٢٧ هـ، عن موقعة الخندق، من قول المؤلف خلال حديثه عمن قتل من المسلمن في الموقعة "وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والمحشودة، فافترطنا فيهم إلى جدنا حيان الأمثل طريقة أبا سعد مروان بن محمد بن حيان رحمه الله".

ويضم هذا المجلد الضخم السفر الخامس من كتاب " المقتبس "، وذلك حسبما ورد في ختامه.

وهو يتعلق جميعه بعصر عبد الرحمن الناصر.

ومن ثم كانت

أهميته البالغة، بيد أنه مع ضخامته لا يشمل عصر الناصر كله، وهو يبدأ من

سنة ٣٠٠ هـ وينتهى في سنة ٣٥٠ هـ.

بل تنقص هذا السفر الخامس من " المقتبس "

في البداية نحو ستين صفحة، وهو يبدأ بحوادث سنة " سبع وثلاثمائة "، وينتهى

بحوادث سنة ٣٣٠ هـ وإن كان يتناول أحيانا بعض الحوادث التي وقعت قبل ذلك أو بعد ذلك حتى سنة ٣٤٠ هـ.

والمخطوط قديم، ومكتوب بخط أندلسي جميل، ولكنه لا يحمل تاريخ

كتابته (١) .

وقد قضينا في دراسة هذا المخطوط والنقل منه فترات طويلة، وانتفعنا

---

(١) هذا وقد كتبت عن هذا الاكتشاف بحثا مفصلا، نشر بمجلة معهد الدراسات الإسلامية
بمدريد في المجلد الثالث عشر (سنة ١٩٦٥ - ١٩٦٦) .
ثم ألقيت بعد ذلك عنه محاضرة
بالإنجليزية بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن في ربيع سنة ١٩٦٧

(٨/١)

بمحتوياته أعظم انتفاع، في هذه الطبعة الرابعة من كتابنا، وما نقلناه منه يرى الضياء لأول مرة.

وتوجد إلى جانب ذلك قطعة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيّان في مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة كوديرا) ، تقع في ١٣٦ صفحة صغيرة، وتشتمل على حوادث سنى ٣٦١ - ٣٦٤ هـ، وهي أواخر عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله، وتحتوى على معلومات هامة عن الشؤون المالية والإدارية في
هذا العصر.

فإذا ذكرنا بعد ذلك كله، ما نقله الكتاب والمؤرخون اللاحقون مثل
ابن بسام صاحب الذخيرة وابن عذارى صاحب البيان المغرب، وابن الخطيب، في الإحاطة، وأعمال الأعلام، والمقرى في نفح الطيب، من الفصول والشذور العديدة، من تاريخ ابن حيان، أدركنا أننا قد ظفرنا في الواقع بقدر كبير، وربما بمعظم محتويات هذا التاريخ العظيم الجامع، الذى يعتبر بحق من أعظم مصادر التاريخ
الأندلسي، وأكثرها اتزانا، وأقواها من حيث الروح التحليلية والنقدية،

ولا سيما فيما يتعلق بحوادث سقوط الخلافة الأموية، وأوائل عهد الطوائف، وهو العصر الذى أدركه ابن حيان وعاش فيه، وشاهد أحداثه المثيرة، وترك لنا
عنها أبدع الصور وأقواها.
ونكتفى بهذه الإشارة إلى المصادر المخطوطة، وهى عديدة ذكرت فى مواضعها، وكذلك المصادر الأخرى من عربية وقشتالية وغيرها، فقد ذكرت كذلك في مواضعها، وسوف نثبتها جميعا في نهاية الكتاب في ثبت خاص.
وأما المصادر والنصوص والوثائق اللاتينية والقشتالية، فقد راجعت معظمها في مدريد، في المكتبة الوطنية، وقسم المحفوظات التاريخية، وكذلك في مكتبة
معهدنا المصرى بمدريد، وهى تضم مجموعة نفيسة من مصادر التاريخ الأندلسي.

- - -

ولا بد لى أن أكرر هنا ما سبق أن ذكرته في مقدمة الطبعة الأولى، وهو أني بذلت في كتابة هذا المؤلف الذى يمتزج فيه تاريخ الشرق والغرب، والإسلام والنصرانية، جهداً خاصا لتمحيص الروايات والنصوص العربية والإفرنجية، واستخراج الرواية الراجحة، وتكوين الرأى المستقل مهما يكن هذا الرأى



ومما تجدر ملاحظته أن تاريخ الأندلس كتاريخ الحروب الصليبية، يمتاز في كثير
من الأحيان بتباين واضح، بين الرواية الإسلامية والرواية النصرانية، وقد تتأثر
هذه الرواية أو تلك، بالمؤثرات القومية أو الدينية، ولكن الرواية الإسلامية فيما يتعلق بتاريخ الأندلس، تبدو على العموم أقل تحاملا، وأكثر دقة واعتدالا.

وأما الرواية النصرانية فكثيرا ما يشوبها الإغراق والتحامل، وينقصها الإنصاف والدقة.

ويرجع ذلك إلى أن الروايات النصرانية الأولى، التي كتبت عن تاريخ اسبانيا المسلمة، كانت من تصنيف بعض الأحبار المتعصبين، وإلى أن مؤرخي

اسبانيا المحدثين، لبثوا حتى أواخر القرن الثامن عشر يكتبون تاريخ اسبانيا من

ناحية واحدة، ويرجعون إلى المصادر النصرانية دون غيرها، ويجتنبون كل بحث

أو تنقيب في المصادر العربية، وذلك بالرغم من أن تاريخ اسبانيا المسلمة يشغل

أعظم مكانة في تاريخ اسبانيا في العصور الوسطى، ويكون صفحة من أمجد صفحاته.

وقد نعى النقد الإسبانى الحديث نفسه هذا المسلك على مؤرخي اسبانيا النصرانية، فمثلا يقول العلامة المستشرق الإسباني جاينجوس في مقدمة ترجمته

لكتاب نفح الطيب: " إن ماريانا وأكابر المؤرخين الإسبانيين تحدوهم عاطفة بغض قومى عميق، أو نزعة تعصب دينى، أبدوا دائما أبلغ الإحتقار لمؤلفات العرب..

فكانوا يرفضون وسائل البحث التي تقدمها لهم الوثائق التاريخية العربية الكثيرة، ويهملون المزايا التي قد تترتب على المقارنة بين الروايات النصرانية والإسلامية، ويؤثرون أن يكتبوا تواريخهم من جانب واحد.

وقد ترتب على

هذا الروح الضيق الذى يطبع كتاباتهم أثر واضح.

ذلك أن تاريخ اسبانيا فى

العصور الوسطى، ما يزال بالرغم من كل ما أفاض عليه النقدة المحدثون،

معتركا
من الخرافة والمتناقضات ".
وقد أرسل العلامة جاينجوس هذه الصيحة منذ نحو قرن.
ومع ذلك فإن
فريقا من المؤرخين والمفكرين الإسبان، ما زال حتى عصرنا يعتبر تاريخ
الأمة
الأندلسية صفحة بغيضة من التاريخ القومى، وأن القضاء على الأمة
الأندلسية وعلى
حضارتها إنما هو نصر قومى باهر، وأن مطاردات ديوان التحقيق المروعة
لبقايا الأمة
المغلوبة، إنما هى عمل إنقاذ وسلام.
وينسى هذا الفريق أو يتناسى كل المزايا،
وكل الجهود الإنتاجية، وكل التراث الحضارى، وكل التقدم الإنسانى الذى

(١٠/١)

حققه المسلمون في اسبانيا، بل نجد في العصر الحديث عالما إسبانيا مثل
المستشرق
سيمونيت، يبرر، بل ويمجد العمل الوندلى الذى ارتكبه الكردينال خمنيس
مطران طليطلة، بجمع الكتب العربية من المسلمن بعد سقوط غرناطة بقليل،
وقد بلغت زهاء مائة ألف أو تزيد، والاحتفال بإحراقها أكداسا في ميادين
غرناطة، لكى تحرم الأمة المغلوبة بذلك من غذائها الروحى والفكرى.
على أن البحث الغربى الحديث، استطاع أن يستدرك كثيراً من شوائب هذا
النقص، الذى يكتنف تاريخ اسبانيا في العصور الوسطى، فدرست الكتب
والوثائق العربية منذ أوائل القرن الماضى، وتبوأت المصادر الإسلامية مكانها
إلى
جانب المصادر النصرانية، وترجم البعض منها إلى اللغات الأوربية، وظهرت

طائفة كبيرة من الكتب والبحوث النقدية بمختلف اللغات الأوربية ومنها
الإسبانية،
تكشف للغرب عن كثير من الحقائق المتعلقة بتاريخ الأندلس، وأحوال
المجتمع
الإسلامي في اسبانيا، وتكشف بالأخص عن القسط البارز، الذى ساهمت به
المدنية الإسلامية بالأندلس، في بناء الحضارة الإسبانية الحديثة، وحضارة
عصر
الإحياء الأوربى.
هذا وقد راعيت في سائر فصول هذه القصة الأندلسية المشجية، أن أسلك
سبيل التبسط المعتدل، بعيدأ عن الإيجاز المخل، بعيدا في الوقت نفسه عن
الإسهاب
والتفاصيل الكثيرة، إلا ما دعت إليه المناسبات الهامة أو المواقع الحاسمة،
حريصا
خلال ذلك كله على أن أبرز الحوادث والشخصيات والصور في إطارها
النقدى،
الذى تدعمه الوثائق والنصوص والقرائن، بعيدا كل البعد عن التأثر بالعاطفة
أو الأهواء أو الاتجاهات القومية أو الدينية من أى نوع، وإني لأرجو أن أكون
قد وفقت في ذلك، إلى تأدية رسالة الحق والصدق والاعتدال، في كتابة هذه
الصفحات المشرقة المؤسية معا من تاريخ الأمة الأندلسية.
وقد حرصت إلى جانب تاريخ اسبانيا المسلمة، أن أكتب في نفس الوقت
تاريخ اسبانيا النصرانية، فاستعرضت منذ البداية نشأة المملكة النصرانية
الأولى،
تم تاريخ الممالك النصرانية اللاحقة، ثم تناولت تاريخها تباعا في عصورها
المتعاقبة،
وعنيت بعد ذلك بتتبع أحداث المعركة الأبدية المضطرمة، التي نشبت بين
الأندلس

المسلمة وبين هاته الممالك النصرانية، وهى التي غدت فيما بعد محور
التاريخ الأندلسى

(١١/١)

كله، ثم تحولت من جانب اسبانيا النصرانية إلىَ ما يسميه المؤرخون الإسبان
" معركة الاسترداد " La Reconquista، وانتهت إلى نتيجتها الطبيعية
المحتومة،
أعنى إلى القضاء على دولة الإسلام في اسبانيا.
وهذه الطبعة الجديدة من " دولة الإسلام في الأندلس " تتضمن بعض
الإضافات والنصوص الجديدة، التي استطعنا أن نقتبسها بالأخص من "
السفر
الخامس " من تاريخ ابن حيان، وهو الذي يتضمنه مخطوط المكتبة الملكية
الذى
سبق ذكره، وقد كنا لحسن الطالع، أول من وفق إلى مراجعته والانتفاع به.
وقد نقلنا منه كثيرا من النصوص والوثائق الهامة، ولا سيما كتاب الناصر عن
فتنة
ابن مسرة، وكتابه عن موقعة الخندق، وغيرهما من الوثائق الرسمية التي ترى
الضياء لأول مرة في البحوث الأندلسية.
كا تتضمن هذه الطبعة فصلين جديدين
ينشران لأول مرة، الأول عن نظم الحكم والأوضاع السياسية والعسكرية
والاقتصادية في عصر الإمارة والخلافة، والثاني عن الحركة الفكرية
الأندلسية.
هذا إلى ما تتضمنه هذه الطبعة أيضا من النصوص والتعليقات الكثيرة،
المستمدة
من المصادر النصرانية والقشتالية، وهو أثر من آثار المراجعة المستمرة التي
عكفت عليها في مدريد، خلال رحلاتي المتوالية إلى شبه الجزيرة الإسبانية.

ولقد تمنيت في ختام مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب، أن يكون صدوره
" بداية مشجعة تبعث إلى اهتمام الباحثين بهذه الصفحة المجيدة من تاريخ
الإسلام
في الغرب ".
وإنه لمما يدعو إلى الغبطة، ما يلاحظ من تقدم الدراسات الأندلسية
وانتعاشها في العهد الأخير، وذلك سواء في ميدان الكتابة والتصنيف، أو
ميدان نشر الآثار الأندلسية المخطوطة، وهو نشاط تساهم القاهرة في قسميه
بأوفى نصيب.
القاهرة في المحرم سنة ١٣٨٩
الموافق مارس سنة ١٩٦٩ محمد عبد الله عنان

(١٢/١)

الكتاب الأول
فتوح العرب في إفريقية والأندلس وغاليس
وعصر الولاة في الأندلس
٢٢ - ١٣٨ هـ: ٦٤٣ - ٧٥٥ م

(١٣/١)

الفصل الأول
فتوح العرب في إفريقية
الصراع بين الدولتين الإسلامية والرومانية.
اتجاه الفتوح الإسلامية نحو الغرب.
غزو برقة.
جرجير حاكم إفريقية الروماني.
موقعة سبيطلة وهزيمة الروم.
فتح سبيطلة عقد الصلح.

إفريقية
وقت الفتح الإسلامى.
أحوالها في ظل الحكم الروماني.
انتقالها إلى الدولة الشرقية.
فتحها على يد
الوندال.
كلمة بربر مدلولها.
إستعادة الدولة الشرقية لإفريقية.
ضعفها وانحلالها.
وقف الفتوح
العربية واستئنافها على يد الدولة الأموية.
موقعة حصن الأجم.
إفتتاح سوسة وحصن جالولاء.
ولاية
عقبة بن نافع الفهرى لإفريقية.
افتتاحه لأقطار المغرب.
بناؤه لمدينة القيروان.
ولاية أبي المهاجر
الأنصارى.
ولاية عقبة الثانية.
سيره ثانية إلى المغرب.
ثورة البربر وقيام كسيلة بن لمزم.
هزيمته
المسلمين واستيلاؤه عل القيروان.
ولاية زهير البلوى.
زحفه عل القيروان.

مقتل كسيلة وافتتاح

القيروان.

هجوم الروم من البحر على برقة.

هزيمة العرب ومقتل زهير.

مسير حسان بن النعمان إلى

إفريقية.

غزو العرب لقرطاجنة واستيلاؤهم عليها.

فقدهم إياها ثم استردادهم لها.

ثورة البربر وقيام

الكاهنة القتال بين العرب والبربر.

هزيمة العرب ارتدادهم إلى برقة.

عود حسان إلى غزو المغرب.

انصراف البربر عن الكاهنة وهزيمتها.

تنظيم حكومة إفريقية وتجديد القيروان.

عزل حسان وولاية

موسى بن نصير.

نشأة موسى وحياته الأولى.

الخلاف على تاريخ توليته لإفريقية.

عود البربر إلى

الثورة.

هزيمتهم وسحق ثورتهم.

فتح موسى لطنجة.

ولاية طارق بن زياد لها.

إنشاء موسى

للأسطول.

غزو العرب لجزائر البليار وصقلية وسردانية.

كان الصراع الذى نشب بين الدولة الإسلامية الناشئة، وبين الدولة الرومانية الشرقية، يضطرم حيثما تبسط الدولة الشرقية سلطانها.
وكانت بسائط الشام مهاد
المعارك الأولى بين الدولتين، وكانت أول قطر غنمته الخلافة من أراضي الدولة
الرومانية؛ ثم افتتح العرب مصر بعد الشام، وهي أيضا ولاية رومانية، وكان افتتاحها في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، على يد عمرو بن العاص،
وذلك في المحرم سنة عشرين من الهجرة (ديسمبر سنة ٦٤٠ م) .
ولما كانت مصر
تتصل من الغرب بأملاك أخرى للدولة الرومانية هى الولايات الإفريقية، فقد كان
من الطبيعى أن يتخذ العرب مصر قاعدة لافتتاح إفريقية، توطيداً لسلطانهم في مصر

(١٤/١)

والشام، وإتماما لسلسلة الفتوحات العربية.
غير أن تقدمهم نحو الغرب كان
محفوفا بمشاق وصعاب لم يألفوها في فتوحهم الأولى، فقضوا زهاء نصف قرن
في معارك عنيفة مع الروم (الرومان) والبربر، وأصيبوا إلى جانب انتصاراتهم،
باكثر من هزيمة شديدة، وواجهوا عدة ثورات محلية عنيفة، وانهار سلطانهم الفتي غير مرة، قبل أن يستقر نهائيا في إفريقية.
وبدأ العرب فتوحهم في إفريقية عقب افتتاحهم لمصر مباشرة.
ففى سنة

اثنتين وعشرين من الهجرة، أعنى بعد افتتاح مصر بنحو عامين، سار عمرو ابن العاص غرباً إلى برقة، فافتتحها وصالح أهلها على الجزية، ثم افتتح طرابلس
(أو إطرابلس) بعد أن حاصرها شهراً ولجأ سكانها إلى سفنهم في البحر، ولكنه
تركها بعد اغتنام ما فيها (١) .
وفى خلافة عثمان توغل العرب في قفار إفريقية.
وفى سنة سبع وعشرين (٦٤٧ م) (٢) سار عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذى
خلف عمراً في ولاية مصر إلى إفريقية في نحو عشرين ألف مقاتل (٣) ، وسارت
معه حامية برقة بقيادة عقبة بن نافع، وكان عمرو قد ولاه على تلك الأنحاء (٤) .
وقصد الغزاة بادئ بدء إلى طرابلس وهى يومئذ أغنى وأمنع ثغور إفريقية (٥) .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (طبعة لجنة ذكرى جب) ص ١٢١، وأبو الفداء
(مصر) ج ١ ص ١٦٤، وابن الأثير (مصر) ج ٣ ص ١٠.
(٢) هذه هى رواية ابن عبد الحكم (ص ١٨٧) و@ى أقدم رواية. ويوافقه البلاذرى، وهو
معاصر له تقريبا، ولكنه يضيف إلى ذلك أن هناك رواية بوقوع هذه الغزوة سنة ٢٨هـ، وثالثة
بوقوعها سنة ٢٩ (فتوح البلدان – مصر – ص ٢٢٦،.
ويضع الطبرى تاريخ هذه الغزوة فى
سنة ٢٧هـ متفقا مع ابن عبد الحكم والبلاذرى (مصر ج ٥ ص ٤٨ و٤٩) .

ولكن ابن الأثير يضح
ْتاريخها في سنة ٢٦ هـ (ج ٣ عن ٣٣) .
(٣) فتوح مصر ص ١٨٤.
(٤) فتوح البلدان ص ٢٢٤.
(٥) يطلق العرب اسم إفريقية على الأقطار الواقعة شمال هذه القارة دون مصر.
وذكر ياقوت
في معجمه أن حد إفريقية من برقة شرقا إلى طنجة الخضراء غربا،، وعرضها من البحر إلى الرمال التي
في أول السودان (معجم البلدان في مقال إفريقية) .
وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول، إفريقية ويمتد
من حدود مصر الغربية إلى شرق الجزائر، والثاني المغرب الأدنى ويشمل قطر الجزائر تقريبا،
والثالث المغرب الأقصى ممتدا من غرب الجزائر إلى المحيط، ويشمل إقليم مراكش وطنجة.
وكانت
كلمة إفريقية تطلق أيضا في العصور الوسطى بمعنى أخص على إقليم تونس وما يليه.



ولكن الروم تقدموا إلى لقاء المسلمين في مائة وعشرين ألف مقاتل (١) بقيادة جريجوريوس أو جرجير حاكم إفريقية الروماني (٢) .
وتختلف الرواية الإسلامية
في أمر جرجير هذا، ويقول البعض إنه كان من الفرنج وليس من الروم، وإنه كان ملك الفرنجة في إفريقية ما بين طرابلس وطنجة، وإن سبيطله كانت دار ملكه.

والحقيقة أن إفريقية كانت في ذلك الحين ولاية رومانية، تخضع
لقيصر (إمبراطور) قسطنطينية، وكان جرجير أو جريجوريوس حاكمها من
قبل
الإمبراطور.
على أن حاكم إفريقية الروماني، كان يتمتع وقتئذ بكثير من
الإستقلال، نظراً لضعف السلطة المركزية في عاصمة الدولة الشرقية.
وهكذا
كان شأن جرجير، فقد كان حاكما بأمره في ولايته.
ولما علم العرب بتحرك
جرجير، تركوا حصار طرابلس وساروا إلى لقاء الروم، ونشبت بين الجيشين
مدى أيام معارك شديدة في ظاهر سبيطلة (سوفيتولا) بالقرب من أطلال
قرطاجنة
القديمة، وهى عاصمة إفريقية يومئذ، فهزم الروم هزيمة شديدة، وقتل قائدهم
جريجوريوس، وأسرت إبنته (٢٨ هـ - ٦٤٨ م) (٣) .
ثم حاصر عبد الله سبيطلة،
وافتتحها وخربها، وبث جيوشه في تلك الأنحاء حتى قفصة.
ثم عقد الصلح
مع أهلها على أن يؤدوا الجزية.
وقضى في تلك الغزوات خمسة عشر شهرا،
ولكنه لم ينشئ في البلاد المفتوحة حكومة جديدة.
ولم يتخذها قاعدة إسلامية.
ثم عاد إلى مصر بعد أن أنشأ حامية في برقة وأخرى في زويلة (٤) .
ويجب قبل أن نمضى في الكلام على افتتاح إفريقية أن نذكر كلمة عما كانت
عليه أحوالها وظروفها وقت الفتح الإسلامى.
كانت إفريقية منذ زوال قرطاجَنّة
القديمة، في أوائل القرن الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن الخامس بعده ولاية

رومانيةء تخضع لسلطة رومة أولا، ثم بعد سقوطها لسلطة قسطنطينية أو الدولة

---

(١) أبن الأثير ج ٣ ص ٣٤ - Gibbon: Roman Empire, Ch. Li،

(٢) ابن خلدون - كتاب العبر - ج ٦ ص ١٠٧.

(٣) روى ابن عبد الحكم أن ابنة جريجوريوس وقعت بعد أسرها في نصيب رجل من الأنصار، ولكنها انتحرت أثناء الطريق (فتح مصر ص ١٨٥) .

(٤) ابن عبد الحكم ص ١٨٣.

(١٦/١)

الرومانية الشرقية؛ ولما غزت القبائل الجرمانية رومة واستولت على معظم أقطار
الدولة الرومانية الغربية، نفذ الوندال إلى غاليا أو غاليس (جنوبى فرنسا) ثم
إلى اسبانيا، واستقر الوندال حيناً في جنوبي اسبانيا في ولايات الأندلس، التي
سميت يومئذ باسمهم " فانداليتا " Vandalita أو فاندلوسيا Vandalusia أى بلد
الوندال (١) .

وكان البربر أو سكان إفريقية، قبل الفتح الروماني، يدينون بالوثنية،
ولكن رومة استطاعت منذ أوائل القرن الرابع، أن تفرض النصرانية على معظم
القبائل.

ويقول لنا ابن خلدون من جهة أخرى، إن القبائل البربرية كانت وقت
الفتح الإسلامى تدين باليهودية، وإنهم تلقوها منذ أقدم العصور عن بني إسرائيل

عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه منهم، وكان من هؤلاء قبائل جبل أوراس
وملكتهم الكاهنة (٢) .
وكان الفتح الروماني شديد الوطأة على القبائل المغلوبة،
وكانت النظم الإدارية والمالية التي فرضتها عليهم رومة غاية في التعسف والشطط،
مع ما يقترن بها من اقتضاء الضرائب والمغارم الفادحة، فكان البربر يتوقون إلى
التخلص من نيرها، وقد نزعوا فعلا إلى الثورة في عهد الإمبراطور تيودوسيوس
في أواخر القرن الرابع، ونادوا بأحد زعمائهم ملكاً عليهم، ولكن الثورة أخفقت وأخمدت.
ولما انتقلت إفريقية إلى سلطان قسطنطينية بعد سقوط رومة، كانت
قد اضمحلت ثروتها، واضطربت نظمها، ومزقتها الخلافات الدينية، وضعف
سلطان الدولة عليها، وكثر الخوارج من الحكام والزعماء المحليين.
وفى أوائل
القرن الخامس، عبر الوندال البحر من اسبانيا إلى إفريقية، بقيادة ملكهم
جنسريك، وافتتحوها في سنة ٤٢٩ م، وعاونهم البربر (٣) حباً في التخلص من
نير رومة.
ولكن الوندال عاثوا في إفريقية أيما عيث، وخربوا المدن والمنشآت

---

(١) سوف نفصل في حاشية لاحقة أصول هذه التسمية وفقا لمختلف الروايات.
(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧.
(٣) يطلق العرب كلمة " البربر " على سكان " إفريقية " أعني برقة إلى

المحيط، وأصل
التسمية مجهول.
ولكن المحقق أنها كانت موجودة قبل الفتح الإسلامي بعصور بعيدة.
وترجعها الرواية
اللاتينية إلى أقدم العصور.
فكان يطلقها اليونانيون القدماء على الأمم ذات اللغات واللهجات المعقدة
بوجه عام وحيثما وجدت، وعلى الأمم الغريبة عن لغة اليونانيين وحضارتهم.
وكان يطلقها الرومان
عل شعوب الإمبراطورية خلا إيطاليا وولاياتها، ثم انتهوا إلى تحديد معنى
الكلمة بإطلاقها على القبائل=

(١٧/١)

الرومانية، واستقروا سادة في البلاد المفتوحة مدى قرن، عانى الربر فيه أمر
ضروب العسف والطغيان.
وفى سنة ٥٣٤ م بعث يوستنيان، إمبراطور (قيصر)
الدولة الشرقية قائده الشهير بليزاريوس إلى إفريقية على رأس جيش ضخم
فافتتحها
وحطم سلطان الوندال وأجلاهم عنها؛ ومن ذلك الحين عادت إفريقية إلى
سلطان
الدولة الشرقية، وظلت كذلك حتى الفتح الإسلامى:
وكانت إفريقية يومئذ في حال يرثى لها من الانحلال والتفكك، يسود
الاضطراب نظمها وإدارتها، وتمزقها الأهواء والمطامع والفتن، وكانت عصور
من الطغيان والجور والمصادرة قد عصفت بمواردها، ولكن الثروات كانت مع
ذلك تتكدس في بعض الثغور والمدن؛ وكانت الدولة الشرقية قلما تعنى
بإصلاح
هذه الأقطار أو إعداد وسائل الدفاع عنها، وإنما كانت ترى فيها قبل كل

شيء

موردا للكسب على نحو ما قدمنا، فكان البربر على استعداد للتخلص من هذا النير المرهق، ومعاونة الفاتحين الجدد.

ولكن العرب شغلوا حيناً عن متابعة الفتح حينما عصفت ريح التفرق بالخلافة الإسلامية، ونشب الخلاف بين على بن أبي طالب، الذى ولى الخلافة على أثر

مقتل عثمان، في مستهل سنة ٣٥هـ (٦٥٥ م) ، وبين خصمه ومنافسه القوى معاوية بن أبي سفيان والى الشام، واضطرمت ثورة الخوارج التي كادت أن تزعزع أسس الدولة الإسلامية الناشئة، وشغلت الجزيرة العربية بضعة أعوام، بتلك الحوادث والفتن الداخلية.

وكان مقتل أمير المؤمنين على بن أبي طالب

في رمضان سنة ٤٠هـ خاتمة هذا النضال المؤلم، فآلت الخلافة إلى معاوية، وقامت

الدولة الأموية في الشام لتفتتح في تاريخ الإسلام عصراً جديداً.

وكانت الدولة الأموية، تتشح إلى جانب ثوبها الخلافي، بأثواب الملك

---

= المتوحشة أو المعادية خارج الإمبراطورية بأسرها.

ثم حرفها العرب عند الفتح من اللاتينية وأطلقوها

على الأمم والقبائل التي تسكن إفريقية (خلا مصر) راجع (Gibbon.

.ibid, Chap

Li ((note

ويقول ابن خلدون في أصل هذه التسمية، إن أحد ملوك التتابعة العرب لما غزا المغرب وإفريقية،

ورأى هذا الجيل من الأعاجم، وسمع رطانتهم تعجب من ذلك وقال ما أكثر بربرتكم فسموا

بالبربر.

والبربرة بلسان العرب هى اختلاط الأصوات غير المفهومة، ومنه يقال بربر الأسد إذا
زأر بأصوات غير مفهومة (كتاب العبر ج ٦ ص ٨٩) .

(١٨/١)

الإمبراطورى، وهكذا قدر لها أن تكون منشئة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى.
وما كادت تستقر الأمور الداخلية، حتى نشطت سياسة الفتح مرة أخرى. وكانت
الخلافة في نفس الوقت الذى تسير فيه جيوشها نحو الشمال وتقترب من عاصمة
الدولة الشرقية، تتجه ببصرها نحو الغرب، حيث كانت فتوحها في إفريقية
ما تزال بحاجة إلى التوسع والتوطد.
وهكذا وجه معاوية عنايته إلى إتمام فتح إفريقية.
وكان الروم قد عادوا إلى الأرض المفتوحة عقب انسحاب العرب، فعاد إلها
الجور والإرهاق، وأثقل كاهل البربر بما فرض عليهم من الأعباء
والمغارم الجديدة، فاتصل زعماؤهم بالعرب واستحثوهم إلى العود واستئناف الفتح.
ففى سنة ٤٥هـ (٦٦٥ م) سار معاوية بن حُديج التجيبى (١) إلى إفريقية
وهزم الروم عند حصن الأجم، وتفرق الغزاة في مختلف الأنحاء، فسار عبد الله
ابن الزبير إلى سوسة وافتتحها، وافتتح عبد الله بن مروان حصن جالولاء،
وافتتحت عدة أخرى من البلاد والحصون.
وفى سنة خمسين (٦٧٠ م) (٢) قام العرب بأعظم فتح في إفريقية بقيادة عقبة
ابن نافع الفهرى.

وكان عقبة جندياً عظيماً، خبيراً بتلك الأنحاء والمسالك، وكان يتولى قيادة حامية برقة منذ فتحها، فاختاره الخليفة (معاوية) لولاية إفريقية، وبعث إليه بعشرة آلاف مقاتل ليتم فتحها.

فجاز عقبة وهاد برقة، وتوغل غربا

حتى المغرب الأقصى، وافتتح جميع العواصم والثغور الإفريقية تباعاً، وهزم جيوش الروم والبربر في مواقع عديدة، وتوغل في مفاوز المغرب الأقصى، ثم

---

(١) وذكر بعض المؤرخين أن معاوية بن حديج كان في ذلك الحين واليا على إفريقية (ابن

الأثير ج ٣ ص ١٨٤) ، وذكر البلاذري أنه ولي بعد ذلك على مصر سنة ٥٠هـ، وأنه هو الذى

بعث عقبة بن نافع إلى إفريقية (ص ٣٢٧) ، وذكر الطبرى أن معاوية بن حديج ولى مصر وعزله

معاوية سنة ٥٠هـ (ج ٦ ص ١٣٤) .

ويضع ابن الأثير تاريخ ولاية ابن حديج لمصر

سنة ٤٧هـ.

على أن صاحب النجوم الزاهرة الذى عنى عناية خاصة بتعداد ولاة مصر يقول: إن

حاكم مصر من سنة ٤٥ – ٤٨هـ هو عقبة بن عامر الجهنى (النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٣٠) ، وإن الذي وليها بعده هو مسلمة بن مخلد الأنصارى، واستمر في ولايتها حتى سنة ٦٢هـ، وفى

ولايته وقع فتح إفريقية الكبير.

(٢) هذه هي الرواية الراجحة، ولكن ابن عبد الحكم يضع تاريخ هذه الغزوة في سنة ٤٦هـ.

أنشأ مدينة القَيرُوان لتكون عاصمة للولاية الإسلامية الجديدة، وحصنا للدفاع عنها، وقاعدة لرد الروم والبربر.

ولم يمض قليل على قيام عقبة بذلك الفتح الكبير.

حتى عزله والى مصر

مسلمة بن مخلد الذى جمع له معاوية بين حكم مصر والمغرب (١) ، وولى مكانه

على إفريقية أبا المهاجر الأنصارى، فلبث في ولايتها عدة أعوام لم تقع فيها حوادث

تذكر.

ثم عزل أبو المهاجر وأعيد عقبة سنة ٦٢هـ في بدء خلافة يزيد بن معاوية.

وكانت البلاد المفتوحة ما تزال تضطرم بعوامل الخروج والثورة.

وكان الروم

والبربر كلاهما يترقب الفرص، ولكن عقبة شغل عن توطيد الدولة الفتية بفتوحات جديدة، وعاد فاخترق المغرب إلى أقصاه، ووصل إلى ساحل المحيط

هذه المرة.

وهنا تقول الرواية العربية، إن عقبة لما انتهى إلى المحيط دفع فرسه إلى الماء حتى بلغ نحره، ثم قال: " اللهم إني أشهدك أن لا مجاز، ولو وجدت مجازا لجزت " (٢) .

ففى ذلك الحين ثار البربر بقيادة زعيم لهم يدعى كسيلة بن لمزم (٣) كان قد اعتنق الإسلام وحالف العرب ثم تغير عليهم، وانضمت إليه جموع كثيرة من الروم والبربر، وانتهز فرصة تفرق المسلمين في مختلف الأنحاء، وانقض بجموعه

على جيش عقبة، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة هزم فيها المسلمون، وقتل عقبة وجماعة من القادة (سنة ٦٢هـ) وزحف كسيلة على القيروان واستولى

عليها، وارتد حاكها زهير بن قيس البلوى بقواته القليلة إلى برقة، وكادت بذلك تذهب دولة العرب في إفريقية.

ولما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ هـ) اعتزم أن يعمل لاستعادة
إفريقية، فولى عليها زهير بن قيس البلوى، وكان منذ سقوط القيروان يتولى الدفاع عن برقة، وأمده بجيش ضخم، فزحف زهير على القيروان سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) والتقى على مقربة منها بجيش كسيلة، فهزم البربر بعد معركة شديدة

---

(١) ويضع ابن عبد الحكم تاريخ هذا العزل في سنة ٥١ هـ، ويقول الطبري إنه وقع فى
سنة ٥٠ هـ (ج ٦ ص ١٣٤) .

(٢) ابن عبد الحكم في ١٩٩، وابن الأثير ج ٤ ص ٤٢.

(٣) هذه هي تسمية ابن عبد الحكم (ص ٢٠٠) وابن خلدون (ج ٦ ص ١٠٨) ولكن
ابن الأثير يسميه كسيلة ابن كمرم.



قتل فيها كسيلة وكثير من أصحابه، ودخل زهير القيروان وترك فيها حامية للدفاع
عنها، وفرق جنده لإخضاع الثوار في مختلف الأنحاء.

ولكن الروم انتهزوا
فرصة توغل المسلمين غربا، وأمدهم قيصر قسطنطينية (١) بأسطول من صقلية، فنزلوا في قرطاجَنة ثم زحفوا.
على برقة في جموع عظيمة، وعلم زهير بتلك
المفاجأة، فارتد للدفاع عن برقة، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة هزم فيها

المسلمون، وقتل زهير ومعظم ضباطه، وذهب المغرب من قبضة المسلمين
مرة
أخرى.
وكان وقع هذا الخطب شديداً في حكومة دمشق، وكانت تشغل يومئذ
بمحاربة ابن الزبير وصحبه الخوارج عليها، فمضت أعوام أخرى قبل أن
تتمكن
من العناية بشئون إفريقية، فلما انتهت الثورة وقتل ابن الزبير، وجه عبد الملك
عنايته إلى استعادة إفريقية، فولى عليها حسان بن النعمان الغسانى سنة ٧٣
هـ (٢)
(٦٩٢ م) وسيره إليها في جيش ضخم كان أعظم قوة سيرتها الخلافة إلى
إفريقية، فاخترق حسان برقة وقصد قرطاجَنة عاصمة إفريقية الرومانية،
وكانت لا تزال
في يد الروم ولم يغزها المسلمون بعد لحصانتها واتصالها بالبحر، وقربها من
صقلية
حيث كانت ترسل إليها الأمداد بسرعة، فحاصرها بشدة ثم اقتحمها واستولى
عليها، ولكن الإمبراطور سير إليها جيشا بقيادة حاكمها يوحنا، يعاونه أسطول
من صقلية، وقوة من القوط أرسلها ملك اسبانيا القوطى الذى أزعجه اقتراب
العرب من بلاده، فانسحب العرب وارتدوا إلى القيروان، حتى إذا جاءتهم
الأمداد أعادوا الكرة على قرطاجنة، وهزموا الروم والقوط هزيمة شديدة، ففروا
إلى سفنهم، وخربت قرطاجنة وهدمت حصونها القوية.
ثم سار حسان
غربا وهزم الروم والبربر في عدة مواقع، واستعاد الإسلام سلطانه فيما بين
برقة والمحيط (٣) .
وعاد حسان إلى القيروان لينظم جيشه.
وكان البربر والقبائل الجبلية قد

---

(١) كان إمبراطور قسطنطينية في ذلك الحين يوستنيان الثاني، ٦٨٥ - ٦٩٥ م.
(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٠٠؛ ولكن ابن الأثير يضع تاريخ توليته في سنة ٧٤هـ.
(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٣، ومعجم ياقوت تحت كلمة قرطاجنة، وكذلك: Gibbon
.ibid, Chap
١



اجتمعوا منذ مقتل زعيمهم كسيلة، في مفاوز المغرب الأقصى، تحت لواء امرأة
من قبيلة جراوة يعتقدون فيها السحر والكهانة وتعرف بالكاهنة (١) ، وكانت تقيم ملكها في جبل أوراس.
فسار حسان لقتالها وخرجت اليه بجموعها، فالتقيا
عند نهر نينى، ونشبت بينهما موقعة هائلة هزم فيها العرب هزيمة شديدة، وقتل
منهم جمع كبير، وارتد حسان إلى برقة.
وسارت الكاهنة شرقا حتى قابس
واستولت على كثير من البلاد والحصون، وبسطت سلطانها على معظم إفريقية
مدى خمسة أعوام.
ولبث حسان في برقة حتى أمده عبد الملك بالجند، فزحف
على المغرب ثانية سنة ٧٩هـ (٦٩٨ م) ، ولم تر الكاهنة وسيلة لوقفه إلا أن تحول
البلاد إلى خراب بلقع، فهدمت جميع المدن والحصون، وأحرقت جميع القرى

والضياع الواقعة في طريق المسلمين، ولكن ذلك لم يثن حسانا عن عزمه، فتابع
سيره حتى أقاصى المغرب في وهاد ومفاوز صعبة.
وكان البربر قد سئموا نير
الكاهنة وعسفها، فهرع الكثير منهم إلى حسان يطلبون حمايته، وتفرقت جموع الكاهنة، وأدركها المسلمون بجبل أوراس فمزقت جموعها وقتلت.
واستأمن
البربر على الإسلام والطاعة، وأن يمدوا المسلمن باثنى عشر ألف مقاتل.
وولى حسان جبل أوراس ابنَ الكاهنة بعد أن استوثق من طاعته، ثم عاد إلى القيروان بعد أن محق كل مقاومة وقضى على كل نزعة إلى الخروج والثورة . (٢)
ولبث حسان بن النعمان بإفريقية حينا، ينظم شؤونها العسكرية والإدارية والمالية، وينشئ الدواوين ويرتب الخراج والجزية، ويوطد سلطان الحكم الجديد في الثغور والنواحى.
ثم جدد مدينة القيروان وأنشأ بها المسجد الجامع (٣) ، ولبث

---

(١) ويسميها ابن خلدون دهيا بنت ماتية بن تيفان (ج ٦ ص ١٠٩) ويسميها بعض المؤرخين
الأوربيين داميا؛ راجع Aschbach: Geschicchte der Omaijaden in Spanien.
B.
١.
٢١
(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٤، وابن خلدون ج ٦ ص ١٠٩.
وفي روايته من حيث
التاريخ شيء من التناقض، فهو يؤرخ غزوة حسان الأولى وفتح قرطاجنة

بسنة ٧٩هـ ثم يؤرخ حرب
الكاهنة المرة الثانية بعد أن يذكر أنها لبثت تحكم افريقية خمسة أعوام بسنة
٧٤هـ - ولعل هذا تحريف
في النقل أو الطبع، إذ يقتضى أن يكون هذا التاريخ طبقا لرواية ابن خلدون
هو سنة ٨٤هـ.
ولكن
ابن عبد الحكم وهو أقدم رواية وثيقة يؤرخ غزوة حسان الأولى بسنة ٧٣هـ
ويؤرخها ابن الأثير
بسنة ٧٤هـ - وينقض رواية ابن عبد الحكم عن مقتل الكاهنة تاريخ هذه
الواقعة (ص ٢٠١) .
(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠، وابن عبد الحكم ص ٢٠١.



فى منصبه حتى توفى عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ (٧٠٥ م) فخلفه ابنه الوليد بعهد منه، وولى عمه عبد الله بن مروان على مصر، فعزل حسانا عن ولاية إفريقية، واختار لولايتها موسى بن نصير اللخمى، وكانت إفريقية تابعة لمصر في شؤون الحكم والولاية كما بينا.
وكانت ولاية موسى بن نصير
لإفريقية سنة ٨٩هـ (٧٠٨ م) .
ويجب قبل أن نمضى في الكلام عن حوادث إفريقية، أن نقول كلمة عن الرجل الذى قدر أن يجوز الإسلام على يديه لأول مرة إلى القارة الأوربية، وأن
يكتب فيها صفحة من أمجد صفحاته.
كان موسى بن نصير من أعظم الزعماء والقادة
الذين وجهتهم الخلافة إلى الغرب.
ومع أن الرواية الإسلامية تتبع حياته بإفاضة منذ

ولايته لحكم إفريقية، فإنها لا تقدم إلينا عن نشأته وحياته الأولى تفاصيل
شافية، شأنها نحو كثير من زعماء الإسلام في القرن الأول من الهجرة.
بيد أننا نعرف مع
ذلك أنه من التابعين، وأنه ولد سنة ١٩هـ في خلافة أمير المؤمنين عمر، في
قرية
من قرى الجزيرة، أو بوادي القرى في شمالى الحجاز على قول آخر.
وأما عن
نسبته، فتقول الرواية إنه ينتسب إلى بكر بن وائل، وان أباه نصيرا كان ممن
سباهم خالد بن الوليد في موقعة عين التمر (سنة ١٢هـ) (١) .
وقيل إنه ينتسب
بطريق الولاء إلى بني لخم، وان أباه نصيراً كان على حرس معاوية بن أبي
سفيان.
ثم كان وصيفا لعبد العزيز بن مروان فأعتقه (٢) .
وأما عن حياة موسى الأولى فلا تذكر الرواية سوى القليل.
وكل ما نعرفه
منها أنه تقلب في بعض المناصب الحربية والإدارية الهامة، قبل أن يعهد إليه
بحكم
إفريقية، وأنه قاد بعض الحملات البحرية في عصر معاوية بن ألى سفيان،
وغزا
قبرص وغيرها من الجزر القريبة (٣) .
وفى بعض الروايات أن عبد الملك بن
مروان حينما ولى أخاه بشرا على البصرة في سنة ٧٣هـ، وكيان يتولى قيادة
الجند

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٢، و" أخبار مجموعة في فتح الأندلس " ص ٣،
وأبو المحاسن

في النجوم الزاهرة (مصر) ج ١ ص ٢٣٥.
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٧٦، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٠٩، والبلاذري في
فتوح
البلدان ص ٢٣٢.
(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٥.

*(٢٣/١)*

بمصر، ندب موسى بن نصير لمعاونته، وكان يومئذ بمصر في خدمة أميرها عبد العزيز بن مروان صديقه وحاميه، وأن موسى لبث وزيراً ومستشارا لبشر أيام ولايته للبصرة.

فلما وُلى الحجاج حكم العراق في سنة ٧٥ هـ، اتهم موسى
باختلاس أموال البصرة، ولم ينقذه من بطش الحجاج سوى تدخل عبد العزيز ابن مروان، وكان قد وفد يومئذ على الشام بأموال مصر، وهرع إليه موسى مستجيرا به.

ثم عاد موسى إلى مصر مع عبد العزيز بن مروان، ولبث بها يتبوأ
لديه أسمى مراتب النفوذ والثقة حتى عين حاكما لإفريقية (١) .

وتختلف الرواية في تاريخ ولاية موسى بن نصير لإفريقية اختلافا بينا،
فالبعض يقول إنها كانت في سنة ٧٨ أو ٧٩ هـ في عهد عبد الملك، ويقول
البعض
الآخر إنها كانت في سنة ٨٦ أو سنة ٨٩ هـ في عهد ابنه الوليد (٢) ؛
ونحن نؤثر
الأخذ بالقول الثاني لأنه أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث في إفريقية، ولأن معظم الروايات تجمع على أن حسان بن النعمان والى إفريقية لبث على ولايتها حتى
وفاة
عبد الملك، وقد توفى عبد الملك في شوال سنة ٨٦ هـ.

وكان عبد العزيز بن

مروان أمير مصر قد توفى قبل ذلك سنة ٨٥ هـ، وندب عبد الملك ولده عبد الله أميرا

---

(١) وردت هذه التفاصيل في كتاب " الإمامة والسياسة " المنسوب لابن قتيبة.
ومع أن هذه
النسبة يحيط بها كثير من الشك، فإن الكتاب يتضمن كثيرا من الأخبار والتفاصيل المفيدة عن رجالات
الإسلام في عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية (راجع الكتاب المشار إليه - طبع مصر - ج ٢
ص ٦٠ وما بعدها) .
وقد اعتبره المستشرق الإسباني جاينجوس Gayangos قديما وصحيحا، وإن كان يشك في نسبته لابن قتيبة لعدة أسباب وجيهة؛ وانتفع به المستشرق الألمانى فايل Weil، والمستشرق الإيطالى أمارى Amari.
ويرى دوزى أن الكتاب غير قديم وغير صحيح، وأنه يحتوى
على أخطاء تاريخية وروايات خيالية غير معقولة، وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون ابن قتيبة صاحب
هذا التصنيف الضعيف؛ ويرى المستشرق هاماكر ويوافقه دوزى أن هذا الكتاب وأمثاله من الكتب
التاريخية الحماسية (مثل الكتب التي نسبت للواقدى) ، قد ألفت أيام الحروب الصليبية لبث الحماس
في نفوس المسلمين، وتذكيرهم بأمجاد أسلافهم وبطولاتهم الخارقة.
راجع دوزى:
Recherches sur l'Histoiret Littérature de l'Espagne au .moyen àge; V
.I

.p
٢١
(٢) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم (ص ٢٠٣) ، ويتبعه صاحب كتاب الإمامة
والسياسة (ج ٢ ص ٦٢) ، وابن الأبار في الحلة السيراء (ليدن ص ٧٠) ، والحميدى في جذوة
المقتبس (مصر ص ٣١٧) ، والنجوم الزاهرة (ج ١ ص ١٨٨) ، ويقول بالثانية ابن الأثير
(ج ٤ ص ١٤٤ و٢٠٦) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٧٦) .
وابن عذارى في البيان المغرب (ج ١ ص ٢٣) .

(٢٤/١)

على مصر ، فدخلها في جمادى الآخرة سنة ٨٦ هـ قبيل وفاة أبيه بأشهرقلائل.
وعزل
عبد الله، حسان بن النعمان عن ولاية إفريقية، واختار لولايتها موسى بن نصير.
وكانت ولاية موسى لإفريقية على أرجح الأقوال في سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) .
وكان موسى بن نصير قد اخترق مفاوز إفريقية من قبل، وسيره عبد العزيز ابن مروان في سنة ٨٤ هـ إلى برقة، فافتتح درنة وسبى من أهلها جموعاً غفيرة.
وكان البربر لا يزالون على اضطرابهم وتمردهم، يتحينون الفرصة للثورة كلما سنحت.
فما كاد موسى يلي الحكم حتى نزعوا إلى الثورة شأنهم عند كل تغيير في الحكم، ولكنهم أخطأوا تقدير عزم الحاكم الجديد وصرامته.
وسرعان

ما سحقت الثورة في كل ناحية، ومزق موسى جموع الثوار بيد من حديد، ودوخ هوارة وزَناتة وكتامة وصِنهاجة وغير ها من القبائل البربرية القوية، ثم سار إلى طنجة وهى آخر معقل اعتصم به الثوار، ولم يكن غزاها العرب بعد، فافتتحها، وولى عليها جندياً عظيما هو طارق بن زياد الليثى، وأثخن في مفاوز

المغرب الأقصى، وطهرها من العصاة والمتآمرين، وأحرز في تلك الغزوات من الغنائم والسبى ما لا يحصى، واستمال إليه وجوه القبائل، وحشد في جيشه آلافا من البربر المسالمين، واهتم بنشر الإسلام بين البربر اهتماماً عظيماً، فأقبلوا

على اعتناقه وذاع بينهم ذيوعاً كبيراً، وهبت ريح من الأمن والسكينة على البلاد

المفتوحة.

وكان الروم (الرومان) بعد أن أخفقوا في الحرب البرية، ويئسوا من

استرداد إفريقية، قد لجأوا إلى غزو الثغور ونهبها، فابتنى موسى داراً عظيمة للصناعة (بناء السفن) على مقربة من أطلال قرطاجنة، وأنشأ أسطولا ضخماً لحماية الثغور.

وكان العرب قد بدأوا غزواتهم البحرية الأولى في تلك المياه قبل

ذلك بعدة أعوام، وسير موسى ابنه عبد الله في السفن إلى الجزر القريبة فغزا جزائر البليار (الجزائر الشرقية) وكانت يومئذ من أملاك ملك اسبانيا القوطى، وافتتح مَيُورقة ومِنُورقة (٧١٠ م) ولكنه لم يكن فتحاً مستقراً (١) .

وسارت

---

(١) تعرف هذه الغزوة بغزوة الأشراف لكثرة من اشترك فيها من أكابر المسلمين.

وورد

في كتاب " الإمامة والسياسة " أن هذه الغزوة التي قادها عبد الله بن موسى

كانت خاصة بصقلية

لا بميورقة (ج ٢ ص ٧٣) .

*(٢٥/١)*

حملات بحرية أخرى إلى صقلية وسردانية وعاثت في ثغورها، وعادت مثقلة بالسبى والغنائم.

وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمالى إفريقية كله في البر

والبحر، ولم يبق من ثغوره بيد النصارى بعد افتتاح طنجة سوى ثغر سبتة (١)

الواقع في نهاية البحر الأبيض المتوسط شرقى طنجة، وكانت يومئذ من أملاك

اسبانيا، ويحكمها زعيم من القوط أو الفرنج يدعى الكونت يوليان.

وكانت سبتة

قد استطاعت لمنعتها الطبيعية ويقظة حاكمها، أن ترد هجمات العرب، رغم مجاورتهم

لها من الجنوب والغرب، وكان موسى يتوق إلى افتتاح هذا المعقل الحصين. على

أن مشاريعه في الفتح لم تكن تقف عند سبتة بل كانت تجاوزها إلى ما وراء ذلك

البحر الشاسع، الذى عرف العرب كثيراً عن شواطئه الشرقية والجنوبية، ولكنهم

لم يعرفوا بعد شيئاً أو لم يعرفوا سوى القليل عن شواطئه الشمالية والغربية:

أجل، كان موسى يتوق إلى افتتاح ما وراء ذلك البحر من الممالك والأمم المجهولة.

---

(١) ومقابلها الإفرنجى هو Ceuta

الفصل الثاني

إسبانيا قبل الفتح الإسلامى

أصل القوط.

نزوحهم من الشمال إلى الجنوب.

عبورهم نهر الدانوب.

يهزمون الإمبراطور

ديسيوس.

هزيمتهم على يد الإمبراطور قسطنطين ثم الإمبراطور فالنس.

زحف الهذن على القوط.

دخولهم في طاعة الإمبراطور.

ثورة القوط في عهد هونوريوس.

زعيم القوط ألاريك.

عقدهم

الصلح مع الإمبراطور واندماجهم في الجيش الرومانى.

استقرارهم في غاليس.

فاليا أول ملوكهم.

تيودريك الأول يعاون الدولة في محاربة آتيلا.

تيودريك الثاني يفتتح إسبانيا من يد الوندال.

قيام مملكة القوط في اسبانيا.

اعتناقهم للنصرانية.

اسبانيا وقت الفتح الإسلامى.

المجتمع الإسباني.

استئثار القوط بالسيادة والثراء.

نفوذ رجال الدين.

بؤس الشعب وانحلال الجيش.

ركون القوط

الى الرفاهة والدعة.

يهود اسبانيا.

اضطهاد الكنيسة لهم وإرغامهم على التنصير.

محاولتهم الثورة

والمبالغة في إرهاقهم.

ملك القوط وتيزا والخوارج عليه.

تفرق المملكة ونشوب الثورة.

مقدم

العرب إلى شواطىء الجزيرة.

محاصرة العرب لسبتة.

زعيم الثورة ردريك.

الحرب بينه وبين وتيزا.

مقتل وتيزا واستيلاء ردريك على الملك.

الكونت يوليان حاكم سبتة والخلاف في شأنه.

الاتفاق بينه

وبين وتيزا عل الإستنجاد بالعرب.

قصة فلورندا إبنة الكونت يوليان.

أقوال الرواية الإسلامية

في شأنها.

إنكار الرواية الإسبانية لصحتها.

ما يرجحها في نظر التاريخ.

كانت اسبانيا (١) في الوقت الذى امتد فيه سلطان العرب إلى الشواطىء القريبة منها، وإلى الجزر المجاورة لها، خاضعة لنير القوط وكانت قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون كإفريقية، ولاية رومانية تخضع لسلطان رومة.

فلما اضمحل
سلطان رومة، وغزتها القبائل البربرية الجرمانية في أوائل القرن الخامس
الميلادى،

---

(١) لا يستعمل العرب اسم " اسبانيا " للإشارة إلى شبه الجزيرة المعروفة بهذا
الإسم، وانما يطلق
العرب اسم " الأندلس " على شبه الجزيرة كلها (راجع الروض المعطار –
مصر – ص ١) .
وفي بعض
الروايات العربية أن التسمية نسبة لملك من الرومان اسمه إشبان بن طيطش
غلب الأفارقة على ملك
الأندلس، وباسمه سميت إشبانية.
وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان فحرف.
وأنه هو الذى بني إشبيلية،
وأن " اشبانية " كانت تطلق على إشبيلية التي كان ينزلها اشبان هذا.
ثم غلب الاسم، بعده عل الأندلس
كله، فالعجم يسمونه إشبانية (نفح الطيب عن الرازى ج ١ ص ٦٧) ؛ وذكر
ابن حيان أن
الإشبانيين ينسبون إلى إشبان وفسر منشأهم بخرافة دينية (نفح الطيب ج ١
ص ٦٩) .
ولم تنفرد
الرواية الإسلامية بذكر " إشبان Espan " هذا ولكن تذكره أيضا رواية
ألفونسو العاشر القشتالية،
فتقول لنا انه ابن أخ للملك هرقل، وأنه هو الذى عمر جزيرة قادس واتخذها
مقرا له.
راجع:

.Primera Cronica General de Espana (Ed
.Pidal) Vol, I
.p
١٠

*(٢٧/١)*

اقتسمت هذه القبائل أملاك رومة الغربية، واستولت على إيطاليا وفرنسا
واسبانيا
وكانت اسبانيا من نصيب القوط.
والقوط هم إحدى هذه القبائل أو الشعوب البربرية.
التي هبطت من شمال
أوربا، وقوضت صروح الإمبراطورية الرومانية.
وتقول الأساطير القديمة
إنهم نزحوا من اسكندناوة، وهى رواية يؤيدها كثير من القرائن والشواهد.
ويذكر المؤرخ تاسيتوس أنهم كانوا منذ ظهور النصرانية إلى أواخر القرن
الثاني، يسكنون شواطىء البلطيق الجنوبية، وأن قبائل عديدة من الوندال
كانت تسكن
على ضفاف نهر "أودر".
وهنالك من المشابهات بين القوط والوندال، في الدين
والعادات والأخلاق والتقاليد، ما يدل على أنهما يرجعان في الأصل إلى شعب
أو
جنس عظيم واحد.
وفى عهد الإمبراطور اسكندر سيفروس (٢٢٢ - ٢٣٥ م)
ظهرت طلائع القوط في ولاية "داسيا" (١) الرومانية، وأغارت على بعض
مدنها، وكان هذا نزوحهم الثاني حيث استقروا عندئذ في إقليم " اليوكرين ".
وفى عهد

الإمبراطور ديسيوس عبروا نهر الدانوب وخربوا ولاية ميزيا (٢) الرومانية، ثم تقدموا إلى قلب البلقان، فسار ديسيوس لقتالهم ولكنه هزم ومزق جيشه (٢٥٠ م)

وسار القوط إلى اليونان فعاثوا فيها وخربوها.

ولم ينقطع عيثهم حتى نشط

الإمبراطور قسطنطين الكبير لقتالهم ورد عدوانهم، فحاربهم في عدة مواقع وهزمهم هزيمة شديدة، وردهم إلى أقاصى داسيا (سنة ٣٢٢ م) وفرض عليهم شروطا فادحة.

ثم حاربهم الإمبراطور فالينس قيصر قسطنطينية وهزمهم فى

سنة ٣٦٩ م.

وفى سنة ٣٧٥ م زحف الهون من المشرق على القوط ومزقوهم، ففروا إلى ضفاف الدانوب.

واستغاثوا بالإمبراطور وطلبوا الدخول في طاعته، فأجابهم إلى ذلك، واستقروا حيناً في ولاية تراقية، ولكنهم ثاروا مراراً من

جراء قسوة الحكام الرومانيين وعسفهم (٣) .

وفى عهد الإمبراطور هونوريوس، قام القوط بثورة أعظم وأبعد أثرا

بقيادة زعيمهم " ألاريك "، وخربوا تراقية واليونان، ثم عبروا إلى إيطاليا

---

(١) كانت ولاية داسيا تقع في شرقى حوض الدانوب وتشغل مكان رومانيا والمجر.

(٢) كانت ولاية ميزيا تقع في وسط البلقان وتشغل مكان بلغاريا الحديثة.

(٣) XXV & Gibbon, Ibid, Chap X, XIV



وافتتحوا رومة ونهبوها (سنة ٤١٠ م) .

ولكن زعيمهم ألاريك توفى في نفس

هذا العام فارتدوا إلى الشمال.

ثم عقدوا الصلح مع الإمبراطور، واندمجوا في الجيش

الإمبراطورى، وقاموا بقمع الثورات المحلية في غاليا أو غاليس (١) (جنوبى فرنسا)

وشمالى اسبانيا، ثم استقروا في أواسط فرنسا وجنوبها، فيما بين نهرى اللوار والجارون، واتخذوا تولوز (تولوشة) عاصمة لهم.

وأقطع الإمبراطور ملكهم

" فاليا " حكم هذا القطر، وقامت بذلك مملكة قوطية تابعة للدولة الرومانية.

وعاون القوط الدولة على محاربة الوندال والآلان والسوابيين (٢) ، وعاونها بالأخص ملكهم تيودريك الأول ولد ألاريك، على هزيمة آتيلا التتر ى وبرابرته الهون في موقعة شالون (سنة ٤٥١ م) .

ثم عبر خلفه وأخوه تيودريك الثاني

إلى اسبانيا، لانتزاعها من الوندال والسوابيين المتغلبين عليها، مشترطاً على الدولة أن يحتفظ بما يفتتحه من اسبانيا لنفسه ولعقبه.

وحارب الوندال والسوابيين

وهزمهم (سنة ٤٥٦ م) ، وافتتح اسبانيا ما عدا ركنها الشمالى الغربى (جليقية) ، الذى استعصم به الوندال حيناً.

ولم تأت نهاية القرن الخامس حتى ملك القوط شبه

الجزيرة كلها، وامتد ملكهم من اللوار إلى شاطىء اسبانيا الجنوبى.

ولكن

الفرنج غزوهم من الشمال، وأجلوهم عن فرنسا في أعوام قلائل، فاستقروا فى اسبانيا، واتخذوا طليطلة دار ملكهم، ووضعوا لمملكتهم الجديدة نظماً وقوانين خاصة، تتأثر بروح الحضارة والأنظمة الرومانية، وكانوا أيضاً قد اعتنقوا النصرانية منذ أواخر القرن الرابع، كما اعتنقها الوندال وغيرهم من الشعوب البربرية، التي تقاسمت تراث رومة وأملاكها.

ولبث القوط زهاء قرنين سادة

لإسبانيا حتى الفتح الإسلامى (٣) .

---

(١) هكذا يسميها ابن الأثير.
ويسميها البكرى، " بلاد غاليش " وهو اسمها الروماني:
La Gaule
(٢) ويبدي ابن خلدون دقة في تسمية هؤلاء البربر، فيسميهم " القندلس والآبيون والشوابيون "
(ج ٢ ص ٢٣٥) .
(٣) يقدم المؤرخون المسلمون عن تاريخ اسبانيا قبل الفتح الإسلامى روايات غامضة أكثرها
خرافي.
ولكن بعضها يقترب من التاريخ.
فابن الأثير مثلا يشير في روايته عن القوط إلى غزوهم
لمقدونية ومحاربة قسطنطين الأكبر لهم.
ثم يذكر زعيمهم " ألريق " (ألاريك) وكيف غزا رومة، وكيف استقر القوط أولا
في غاليس (أى غاليا) ثم انتقلوا إلى اسبانيا.
غير أنه يذكر ثبت ملوكهم=



ولنعرض بعد ذلك إلى حالة اسبانيا وقت الفتح.
كانت المملكة القوطية تجوز
دور انحلالها قبل ذلك بأمد طويل، وكان المجتمع الإسباني يعاني صنوف الشقاء
والبؤس، وقد مزقته عصور طويلة من الظلم والإرهاق والإيثار.
ولم يكن القوط
في الحقيقة أمة بمعنى الكلمة، فإنهم لم يمتزجوا بسكان الجزيرة، ذلك الامتزاج

الذى يجعل الغالب والمغلوب، والحاكم والمحكوم، أمة واحدة.
بل كان القوط
يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة، وينعمون بإحراز الإقطاعات والضياع الواسعة، ومنهم وحدهم الحكام والسادة والأشراف.
أما سواد الشعب الأعظم، فقوامه طبقة
متوسطة رقيقة الحال، وزراع شبه أرقاء يلحقون بالضياع، وأرقاء للسيد عليهم حق الحياة والموت.
والى جانب السادة والأشراف، يتمتع رجال الدين بأعظم
قسط من السلطان والنفوذ، ذلك أن القوط كانوا أتقياء مؤمنين رغم خشونتهم، وكان للأحبار عليهم أيما تأثير، وقد استطاعوا أن يوجهوا القوانين والنظم، وأن
يصوغوا الحياة العقلية والاجتماعية، وفقا لمثل الكنيسة وغاياتها.
ثم استغلوا هذا
النفوذ في إحراز الضياع وتكديس الثروات، واقتناء الزراع والأرقاء.
وهكذا
كانت ثروات البلاد كلها تجمع في أيدى فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين، اختصت بترف العيش ومتاع الحياة، وكل نعم الحرية والكرامة والاعتبار.
أما الشعب فقد كان في حالة يرثى لها من الحرمان والبؤس، يعاني أمر ضروب
الظلم والعسف والإرهاق، ويُخص وحده دون الطبقات الممتازة، بأعباء المغارم والضرائب الفادحة، ومشاق العمل، والسخرة في ضياع الأشراف والأحبار، وتسلبه فروض العبودية والرق، كل شعور بالعزة والكرامة.
ولم يكن الشعب
كما قدمنا سوى كتلة مهيضة من طبقة فقيرة وسطى، ومن جمهرة من الزراع شبه

الأرقاء والأرقاء، ومع ذلك فقد كان يقع عليه إلى جانب هذه الفروض
والمغارم

---

= في كثير من التحريف والخلط (ج ٤ ص ٢١٢ و٢١٣) .
وقال ابن حيان بعد أن ذكر أصل اسم
اسبانيا ٥ " وغلب على هؤلاء الإشبانيين من عجم رومة أمة يدعون
البشتولقات (الوندال) وملكهم طلويش
بن بيطة وذلك من بعث المسيح.
ثم دخلت عليهم أمة القوط " (نقله المقرى في نفح الطيب ج ١ ص
٦٩) .
وأقرب الروايات إلى الصحة هى رواية ابن خلدون، فهو يقول متفقا مع الرواية
اللاتينية:
" إن القوط قد امتلكوا القطر الأندلسي لمئتين من السنين قبل الإسلام.
بعد حروب كانت لهم مع
اللطنيين، حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن تنصرف القوط
إلى الأندلس " (ج ٤ ص ١١٦) .

*(٣٠/١)*

الفادحة، عبء الحرب والدفاع عن الوطن.
وكما أن الجيوش الرومانية كانت
وقت ظهور الإسلام، قد فقدت وحدتها وروحها القومي وقوتها المعنوية،
لتكوينها من الرعايا الأجانب والمرتزقة، فكذلك كان الجيش الإسباني منذ
العهد
الروماني، قوامه الزراع شبه الأرقاء واليهود.
فلما حل القوط في اسبانيا وذاقوا
نعم السلم، بعد مشاق التجوال والغزو، وتبوأوا مراكز الغلبة والسيادة، اعتمدوا

في الدفاع عن ملكهم الجديد على هذا الجيش، الذى تموج صفوفه بجماعات مضطهدة ناقمة على سادتها.

" ولاريب أن شبه الأرقاء كانوا في الجيش أكثر

بكثير من الأحرار، وهذا ما يعنى أن الدفاع عن الدولة كان يعهد به إلى أولئك

الذين يؤثرون ممالأة العدو على الذود عن ظالميهم، (١) .

أما القوط أنفسهم فقد

فقدوا منذ بعيد خلالهم الحربية القوية، وركنوا إلى حياة النعماء والدعة، وفتت في عزائمهم وشجاعتهم نعومة الجو وترف العيش، ولم يعودوا بعد أولئك الغزاة

الأشداء الذين أخضعوا رومة، وتوغلوا فيما بين الدانوب والمحيط، " بل كان خلفاء

ألاريك يحتجبون بصخور البرنيه غارقين في سبات السلم، لا يعنون بتحصين مدينة، ولا يعبأ شبابهم بتجريد سيف " (٢) .

وكان يهود الجزيرة كتلة كبيرة عاملة، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل، يعانون أشنع ألوان الجور والاضطهاد.

وكانت الكنيسة منذ اشتد

ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود، وتتوسل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة.

ففى عصر الملك سيزبوت (٣) فرض التنصر على اليهود أو النفى أو المصادرة، فاعتنق النصرانية كثير منهم كرها ورياء (سنة ٦١٦ م) .

ثم توالت عليهم مع

ذلك صنوف الاضطهاد والمحن، فركنوا إلى التآمر وتدبير الثورة، وتفاهموا مع إخوانهم يهود المغرب على المؤازرة والتعاون.

ولكن المؤامرة اكتشفت قبل

نضجها (٦٩٤ م) .

وكان ذلك في عهد الملك إجيكا، فقرر أن يشتد في معاقبتهم، واجتمع مؤتمر الأحبار طليطلة للنظر في ذلك، وأجاب الملك إلى ما طلبه، وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج على الدولة يأتمرون بسلامتها، ولأنهم ارتدوا

---

(١) Dozy: Histoire des Musulmans de l'Espagne (1932)
.Vol
.I
.p
٢٦٩
(٢) Gibbon, Ibid, Chap.
.L1
(٣) ويسميه ابن الأثير، سيسفوط (ج ٤ ص ٢١٣) .

(٣١/١)

عن النصرانية التي اعتنقوها من قبل؛ وقرر أن ينزع أملاكهم في سائر
الولايات
الإسبانية، وأن تحول إلى جانب العرش، وأن يشردوا ويقضى عليهم بالرق
الأبدى للنصارى، وأن يهبهم الملك عبيداً لمن شاء، وألا يسمح لهم باسترداد
حرياتهم ما بقوا على اليهودية، وأن يحرر أرقاؤهم من النصارى ويمنحون
بعض
أملاكهم، وأن ينزع أبناؤهم منذ السابعة ويربون على دين النصرانية، وألا
يتزوج
عبد يهودى إلا بجارية نصرانية، ولا تتزوج يهودية إلا بنصراني (١) .
وهكذا
عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أيما عصف، فكانوا قبيل الفتح
الإسلامى

ضحية ظلم لا يطاق، وكانوا كباقى طوائف الشعب المهيضة يتوقون إلى الخلاص
من هذا النير الجائر، ويرون في أولئك الفاتحين الذين يتركون لهم حرية الضمائر
والشعائر مقابل جزية ضئيلة ملائكة منقذين (٢) .
هكذا كانت حال اسبانيا حينما افتتح العرب إفريقية واقتربوا من شواطىء الأندلس.
وكان على عرش اسبانيا يومئذ الملك وتيزا (٣) خلف الملك إجيكا وولده.
وكان يحكم مملكة مزقها الخلاف وشعباً أضناه العسف.
وتحمل بعض
الروايات الإسبانية القديمة على وتيزا، وتصفه بأنه كان ملكاً خليعاً فاجراً، مغرقا
في شهواته، وأنه كان على رأس بلاط منحل وضيع الخلال.
ويقول البعض
الآخر إنه كان بالعكس ملكاً فاضلا حسن السيرة، وافر الحكمة والعدالة، وإنه عل على رد المظالم وإقامة العدل (٤) .
والمرجح المتداول، أنه أحسن السيرة فى
بداية عهده، ورد إلى اليهود سابق حقوقهم وامتيازاتهم، ولكنه حاول أن يحد
من سلطة الأشراف والأحبار، وأن يجمع السلطة في يد العرش، فسخط عليه
الأشراف ورجال الدين، ودبروا في سقاطه ثورة بعد ثورة، ولكنه أخمدها

---

(١) راجع كتاب " تاريخ لانجدوك " Histoire de Languedoc، تأليف الراهب
Dom Vissette (الطبعة الجديدة ج ١ ص ٧٥٠ و ٧٥١) ، وهذا المؤلف موسوعة ضخمة من

ستة عشر مجلدا، ويشتمل على وثائق وتفاصيل هامة عن تاريخ اسبانيا قبل
الفتح الإسلامى، وغزوات
من العرب الأولى لإسبانيا وفرنسا.
(٢) Dozy: Hist.
: V.
I.
p.
٢٦٨
(٣) ويسميه العرب " غيطشة ".
(٤) يقول بالرواية الأولى سبستيان الشلمنقى وردريك الطليطلى، ويقول
بالرواية الثانية
إيزيدور الباجى؛ ويوافقه في هذا ابن عذارى المراكشى (البيان المغرب ج ٢
ص ٤) .
وراجع:
Dozy: Recherche, V.
١ p.
١٦

(٣٢/١)

جميعاً، وهدم جميع المعاقل والحصون الداخلية لكى يحطم سلطان خصومه
ويجردهم
من وسائل الدفاع والمقاومة، فلم يزدهم البطش والهزيمة إلا ضماً إلى الخروج
والثورة.
وكان في مقدمة خصومه الذين يخشى بأسهم دوق تيودوفريد الذى نفاه
أبوه الملك إجيكا إلى قرطبة، فزاد على ذلك أن سمل عينيه مبالغة في النكاية
به، وحاول أن يفعل ذلك مع بلاجيوس ولد فافيلا دوق كانتابريا، ولكنه

استطاع
الفرار من نقمته (١) .
وكان الشعب من جهة أخرى يرزح أبداً تحت نير الجور
والإرهاق، فكان عرش القوط يرتجف فوق بركان مضطرم من السخط.
وتقول الرواية النصرانية إن الزعماء الناقمين انتهزوا فرصة اقتراب أسطول
إسلامى
من جنوب اسبانيا ورفعوا لواء الثورة، وإن وتيزا استطاع أن يرد هذا الأسطول
وإن تيودومير قائد الأسطول القوطى هزم المسلمين في معركة بحرية كبيرة
وذلك
في سنة ٧٠٨ م (٢) .
وكان العرب كما قدمنا قد طوقوا أسوار سبتة معقل القوط
في الضفة المقابلة من البحر، وأمد وتيزا حاكمها الكونت يوليان بأشجع جنده،
فانتهز خصومه فرصة ضعفه في الداخل ليدبروا الثورة مرة أخرى.
وقاد الثورة
عندئذ زعيم جرىء هو رُدريك ابن دوق تيودوفرد الذى سمل وتيزا عيني أبيه،
فكان يحفزه باعث الانتقام أيضا، وكان يتزعم حزباً قوياً، والتف حوله رجال
الدين والأشراف والأسر الرومانية، فجمع جيشاً كبيراً ونادى بنفسه ملكاً.
ووقعت بين الفريقين حرب أهلية شديدة.
وهنا تختلف الرواية فيقال إن وتيزا
قتل في هذا النضال وخلص الملك لمنافسه، وفي رواية أخرى أن ردريك ظفر
به
وسمل عينيه انتقاماً لأبيه، ويقال أيضاً إنه ارتد إلى إحدى الولايات الشمالية
وامتنع بها حتى وفاته.
ويختلف المؤرخون كذلك في تاريخ ولاية ردريك الملك، فيقول البعض، ومنهم
ردريك الطليطلى، إنه تولى سنة ٧١١ م، وحكم مع
وتيزا قسما من اسبانيا، وإنه لما توفى وتيزا في سنة ٧١٣ م، استأثر بالحكم

مدى

---

(١) Dom Vissette: Ibid, V.
١.
p 756
(٢) أورد هذه الرواية إيزيدور الباجي Isidorus Pacensis ونقلها ألمؤرخ
الألمانى يوسف
أشباخ في كتابه Geschichte der Omajaden in Spanien (ج ١
ص ٢٦) .
والظاهر أن المقصود
هنا هو الحملة البحرية التي جهزها موسى بن نصير بقيادة ابنه عبد الله سنة
٨٩ هـ (٧٠٨ م) وهى
المعروفة بغزوة الأشراف.
ولكن المسلمين لم يهزموا يومئذ في أية معركة بحرية، وقد غزوا جزائر
البليار كما قدمنا.

(٣٣/١)

عام آخر حتى فتح اسبانيا، ويقول إيزودور الباجى، إن ردريك ظفر بالعرش
فى
أواخر سنة ٧١١ م وإنه لم يحكم قبل الفتح سوى عام واحد (١) ؛ وفي
الروايتين
تحريف ظاهر، ولا بد أن ردريك ولى الملك قبل سنة ٧١١، إذ كان فتح
العرب
لاسبانيا في صيف هذا العام نفسه.
وعلى أى حال فإن المعركة استمرت مدى
حين بين ردريك وولدى وتيزا، وهما إيفا وسيزبوت يعاونهما عمهما

أوباس (٢) أسقف طليطلة وإشبيلية ورأس الكنيسة، والتفت حولهما رجال
الدين وكل أنصار الحكم القديم.
وكان ردريك قوى الجانب وافر الشجاعة
والعزم، فاستطاع أن يخمد الثورة في كل ناحية، واستتب له الأمر حينا،
ومع ذلك فقد بقي عرش القوط مضطربا يهتز في يد القدر، وكان الخطر
يجثم فى
ناحية أخرى.
ذلك أن خصوم ردريك اتجهوا بأبصارهم إلى خارج الجزيرة.
وكان الكونت
يوليان حاكم سبتة والمضيق، محط أنظارهم ومساعيهم.
وقد اختلف في أمر
الكونت يوليان اختلافا بينا، فالروايات العربية القديمة كلها تشيد بذكره،
وبالدور العظيم الذى أداه في الفتح، وينكر وجوده بعض أكابر المؤرخين
الإسبان
مثل ماسدى وغيره، لأن ذكره لم يرد لأول مرة إلا في روايات القرن الثاني
عشر.
على أنه مما يعزز إجماع الرواية العربية، إشارة إيزودور الباجى، صاحب
أقدم
رواية إسبانية عن الفتح، إلى شريف نصرانى كان يصحب موسى في كل
غزواته.
كذلك تختلف الرواية في صفة الكونت، فيقال إنه لم يكن تابعا لملك القوط،
وإن سبتة كانت في ذلك الحين ما تزال تابعة لقيصر الدولة الشرقية، ولكن
حاكمها
الكونت رأى لبعدها وعزلتها أن يستظل بحماية اسبانيا (٣) .
على أنه يبدو من أقوال
الرواية العربية، وهى في نظرنا أقوى وأرجح، أن الكونت يوليان كان قوطيا

اسبانيا، وأنه كان يرتبط ببلاط طليطلة بصلات وثيقة.

وتؤيد الرواية العربية

---

(١) Dom Vissette: Ibid, V.

١.

p.

٧٨٦ وذلك نقلا عن Rodericus Tolétanus Chronicon و Isidorus

Pacensis

(٢) يسمى ابن القوطية أولاد وتيزا كما يأتي: المند.

ورملة.

ثم أرطباس.

ولعل أرطباس

هو أوباس.

ولكن صاحب " أخبار مجموعة في فتح الأندلس " أصح وأدق فهو يسميهما

شبشرت وأبة باعتبار أنهما اثنان فقط (ص ٨) .

(٣) Dozy: Recherches: V.

١.

p.

٦٠ - ٦٥، Hist: V.

١.

p.

٢٧٠

(٣٤/١)

بعض التواريخ النصرانية المتأخرة، فيقول لنا ردريك الطليطلى، ولوقا التطيلى،

إن الكونت يوليان كان حاكماً لسبتة، وهى يومئذ من أملاك العرش القوطى،

وإنه كان رجلا شجاعاً، ولكنه كان مغامراً منتقماً، وإنه كان من أقارب الملك
قامبا (١) .
ويقول لنا ألفونسو العاشر في تاريخه العام إن الكونت يوليان كان من
أكابر الأشراف الذين يرجع أصلهم إلى القوط، وإنه كان قريبا للملك وتيزا (٢)
.
ولما نشب الخلاف الداخلى حول العرش، انضم الكونت إلى أنصار الحكم
القديم
وأنصار الملك وتيزا.
وكان غنيا شديد البأس، كثير الأتباع والجند، يعتصم
بالبحر، بعيداً عن سلطة العرش، ويقبض على مفتاح اسبانيا بحكمه لسبتة
والمضيق.
وكان من خصوم الحكم الجديد يخشى عواقبه على مركزه وسلطانه.
فاتصل به إبنا وتيزا وباقى الزعماء الخوارج، واستقر الرأى على الاستنجاد
بالعرب
جيران الكونت، وهذا هو التعليل التاريخى للتحالف الذى عقد بين يوليان
وموسى
ابن نصير وانتهى بفتح العرب لإسبانيا.
ولكن الرواية – والرواية الإسلامية بنوع
خاص – تقدم إلينا تعليلا آخر، فتقول لنا إن يوليان كان يعمل بدافع الانتقام
الشخصى أيضا.
فقد كانت له إبنة رائعة الحسن تدعى فلورندا أوكابا، أرسلها
إلى بلاط طليطلة جريا على رسوم ذلك العصر، لتتلقى ما يليق بها من
التربية بين
كرائم العقائل والفرسان، فاستهوى جمالها الفتان قلب ردريك فاغتصبها وانتهك
عفافها.
وعلم الكونت بذلك فاستقدم ابنته إليه وأقسم بالانتقام، ونزع ردريك

ذلك العرش الذى اغتصبه.
فلما نشبت الحرب الأهلية بين ردريك وخصومه، والتجأ هؤلاء الخصوم إليه،
رأى الفرصة سانحة للعمل، ولم ير خيرا من الاستنصار
بالعرب ومعاونتهم على فتح اسبانيا.
والرواية الإسلامية تجمع على قبول هذه القصة والأخذ بها، مع أخذها في
الوقت نفسه بالعوامل السياسية التي ذكرناها (٣) .
ولكن الرواية النصرانية تتردد

---

(١) Camille Julian: Histole de la Gaule p.
٧٢٧
(٢) Pr.
Cronica General (Ed.
Pidal) Vol.
١.
p.
٣٠٧
(٣) يتناقل المؤرخون المسلمون هذه القصة منذ أقدم العصور، فتراها في
رواية ابن عبد الحكم
الذى كتب تاريخ فتح الأندلس بعد وقوعه بنحو قرن فقط (أخبار مصر
وفتوحها ص ٢٠٥) .
وذكرها
ابن حيان مؤرخ الأندلس (نقله نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩) ، وابن القوطية
القوطى في " افتتاح
الأندلس " (ص ٨) – وهو يصف يوليان بأنه كان تاجرا من تجار العجم لا
حاكما لسبتة، ويعلل=

فى قبولها، وتنكرها معظم الروايات الإسبانية الحديثة، وتعتبرها أسطورة صاغتها
الأغاني والقصص القديمة.
وهكذا نجد ماريانا وماسدى أعظم مؤرخي إسبانيا فى
مقدمة المنكرين لصحتها.
ويذهب البعض الآخر مثل مونتيخار وغيره إلى أبعد
من ذلك، فينكر شخصية الكونت يوليان ذاته، ويعتبرها شخصية خيالية،
ويعتبر القصة كلها خرافة وأسطورة فقط (١) .
ويقول كوندى إن اسم كابا
(فلورندا) ووصيفتها أليفا وكل أشخاص هذه الرواية تدل على أن القصة كلها
إنما هى خرافة موريسكية (٢) اشتقت من الأساطير والأغانى العامية التي كانت
ذائعة بين المسلمين والنصارى (٣) .
وإنكار الرواية الإسبانية لمثل هذه القصة معقول ظاهر الحكمة، فهى تأبى
الاعتراف بواقعة تسجل خيانة الوطن على نفر من زعماء اسبانيا الأوائل، وهى
خيانة كان من أثرها أن افتتح العرب اسبانيا وحكمها الإسلام قروناً طويلة. على
أننا نجد في القصة ما يبعث إلى إنكارها، فوقوعها ممكن معقول في مثل الظروف
التي كانت تجوزها اسبانيا يومئذ، من خلاف في الرأى، وتنازع على السلطة،
وانحلال أخلاقى واجتماعى.
ولسنا من جهة أخرى نلمس في الرواية الإسلامية
أثر الاختراع.

فليس ثمة ما يدعو إليه.
وليس من المعقول أن تخترع الرواية
الإسلامية قصة مفادها أن المسلمن لقوا في فتح اسبانيا معاونة لم يتوقعوها، وأن
هذه المعاونة سهلت لهم سبل الفتح، ولعلهم لم يقدموا بدونها على الاضطلاع به، أو لعلهم كانوا يتعرضون للإخفاق والفشل.
هذا إلى أن بعض الروايات الإسبانية
ْالقديمة، ومنها ما هو قريب من الفتح، يشترك مع الرواية العربية في سرد قصة فلورندا والأخذ بها.

---

= وقوع الفتح بخروج أولاد وتيزا وخيانتهم.
وكذا صاحب أخبار مجموعة (ص ٥) .
وابن الأثير
(ج ٤ ص ٢١٣) .
وابن خلدون (ج ٢ ص ٢٣٦ وج ٤ ص ١١٧) .
وعبد الواحد المراكشى
في " المعجب " (ص ٦) .
وابن عذارى المراكشى في " البيان المغرب " (ج ٢ ص ٨) .
وصاحب
الروض المعطار في " وصف جزيرة الأندلس " المنشور بالقاهرة ١٩٣٧ (ص ٧) .
(١) راجع الهامش في: Aschbach: ibid, I٢٨.
.p
(٢) نسبة إلى الموريسكيين Moriscos أو العرب المتنصرين، وهم بقية الأمة الأندلسية المغلوبة

بعد سقوط غرناطة (١٤٩٢ م) وانتهاء دولة الإسلام في الأندلس.
Historia de la Dominacion de los Arabes en Espana (٣)

(٣٦/١)

فمن ذلك ما ورد في رواية إيزيدور الباجى الذى عاش في أوائل القرن الثامن، وما ذكره ردريك الطليطلى في روايته، من أن الكونت يوليان ثار لاعتداء ردريك
على ابنته أو زوجه، واعتزم أن ينتقم لنفسه بدعوة العرب إلى فتح اسبانيا، وهى قصة يرددها أيضاً التاريخ العام الذى وضع بأمر الملك ألفونسو العالم فى
أواخر القرن الثالث عشر (١) .
ففى هذه الروايات الإسبانية النصرانية كلها تأييد
لهذه القصة الشهيرة.
كذلك يختلف النقد الأوربى الحديث في أمر هذه القصة، فيرى البعض أنها أسطورة لا يصح الأخذ بها، ويرى البعض الآخر أنها معقولة
لا أثر للاختراع فيها (٢) .
ونحن مع هذا الفريق نرى قصة فلورندا حادثاً طبيعيا
معقولا، ونرى في إجماع الرواية الإسلامية على تدوينها دليلا آخر على صحتها.
ومهما كان من أمر يوليان، ومهما كان من بواعث غضبه ونقمته على مليكه، فقد كان تدخله أكبر عامل في تذليل فتح المسلمين لشبه الجزيرة الإسبانية، والقضاء على مملكة القوط.

---

(١) Pr.
Cronica General ; Vol.
I.

.p

.C ،٨٠٧

.Julian, ibid

.p

– ٧٥٧

.Gibbon, ibid

.Chap

(LI (Note

(٢) قال الفيلسوف جيبون في تعليقه على تلك القصة: " طالما كانت أهواء

الملوك يطبعها

الجموح والعبث.

ولكن هذه القصة المعروفة، وإن كانت روائية في ذاتها، لم تؤيدها الأدلة

الكافية، وتاريخ اسبانيا يقدم من بواعث المصلحة والسياسة ما هو أليق بتفكير

السياسى القديم (يريد الكونت

يوليان) .Gibbon, ibid, L1

ويسخر فولتير في تاريخه العام من القصة ويقول: " إن الاغتصاب

صعب التنفيذ صعب التدليل، فهل يتحالف الأحبار من أجل فتاة ".

ولكن المؤرخ المستشرق دوزى

يروى القصة ويأخذ بها في شرح حوادث الفتح .Dozy: Histoire V

.I

.p

٢٧١ وكذا يرويها ويأخذ

بها المستشرق كاردون في كتابه: Histoire de l'Afrique et de

.l'Espagne p

.٦٥

(٣٧/١)

الفصل الثالث

فتح أسبانيا

المفاوضة بين موسى بن نصير والكونت يوليان.

استئذان موسى الوليد في الفتح.

فكرة يوليان

وأصحابه في استدعاء العرب.

حملة تمهيدية إلى الجزيرة الخضراء.

حملة الفتح.

طارق بن زياد.

عبوره

الى الأندلس واختراقه الجزيرة الخضراء.

تأهب ردريك ملك القوط لملاقاة العرب.

مكان اللقاء بينهما.

موقعة شذونة أو وادي لكة.

تفرق الجيش القوطى.

هزيمة القوط ومقتل ردريك.

الخطاب الذي

ينسب إلى طارق والشك في صحته.

هل أحرق طارق سفن الحملة.

اللقاء الثاني بين القوط والعرب فى

استجة.

هزيمة القوط الثانية.

زحف طارق على طليطلة.

إفتتاح قرطبة وغرناطة ومالقة.

معاونة

اليهود للمسلمين.

افتتاح تدمير وعقد الصلح مع أميرها.

طارق يخترق الأندلس.

كلمة أندلس وأصلها.

استيلاء طارق على طليطلة.

اختراقه قشتالة وليون وجبال أستورية.

عوده إلى طليطلة.

موسى وموقفه

من الفتح.

أوامره لطارق.

يقود حملة جديدة إلى اسبانيا.

استيلاؤه على شذونة وقرمونة واشبيلية.

حصاره لماردة وافتتاحها.

غضبه على طارق ثم عفوه عنه.

مسيرهما إلى الشمال وافتتاحهما لسرقسطة

وطركونة وبرشلونة.

مسير طارق إلى جليقية.

موسى يخترق البرنيه ويغزو سبتمانيا.

افتتاحه لأربونة

وقرقشونة ووادي الرون.

مشروعه في اختراق الأمم النصرانية شرقا إلى مقر الخلافة.

إعتراض

حكومة دمشق.

مسيره لإخضاع جليقية.

استدعاؤه وطارق إلى دمشق.

بواعث هذا الإستدعاء.
افتتاح
عبد العزيز بن موسى لبلنسية ولبلة.
معاهدته مع تيودمي ر.
إشبيلية عاصمة الأندلس.
إستخلاف موسى
لولده عبد العزيز.
سفره وطارق إلى المشرق.
ما أصاب المسلمون من غنائم الأندلس.
مصير موسى
واختلاف الرواية في شأنه.
وفاته وخلاله.
مصير طارق.
مصير الكونت يوليان والأمراء المحالفين
للعرب.
سارة القوطية وحفيدها المؤرخ.
في الوقت الذى كانت شبه الجزيرة الإسبانية تجوز فيه هذه الحوادث والأزمات
الخطيرة، كان العرب قد أتموا فتح المغرب الأقصى، واستولوا على ثغر
طنجة،
وأشرفوا على شواطىء الأندلس من الضفة الأخرى من البحر، ولم يبق لإتمام
فتح افريقيه سوى ثغر سبتة الذى يقع مقابل طنجة في الطرف الآخر من
اللسان
المغربى.
وكانت سبتة قد استطاعت لمنعتها وسهر حاكمها الكونت يوليان، أن
تحبط كل محاولة لأخذها.
وكان موسى بن نصير بتوق إلى افتتاح هذا الثغر

المنيع، وتطهير افريقية من البقية الباقية من العدو.
وبينا هو يرقب الفرص
لتحقيق هذه الأمنية، إذ جاءته رسالة من الكونت يوليان نفسه يعرض فيها

(٣٨/١)

تسليم معقله، ويدعوه إلى فتح اسبانيا، وجرت بينهما المفاوضة في هذا
المشروع
الخطير.
وتختلف الرواية في أمر هذا الاتصال، فيقال إن موسى ويوليان اتصلا
بالمراسلة، وقيل إنهما اتصلا بالمقابلة الشخصية، وإن الكونت استدعى موسى
الى سبتة، وهنالك وقعت المفاوضة بينهما.
وقيل أخيرا إنهما اجتمعا في سفينة
في البحر (٢).
وعلى أي حال فقد استجاب موسى لدعوة الكونت، واهتم
بمشروعه أعظم اهتمام، وكان قد وقف على أحوال اسبانيا وخصبها وغناها،
واستطاع أن يقدر أهمية مثل هذا الفتح، وجليل مغانمه ومزاياه، فلما علم من
يوليان وحلفائه ما تعانيه اسبانيا من الخلاف والشقاق، وما يسودها من
الانحلال
والضعف، ورأى مما يعرضه يوليان من تسليم سبتة وباقى معاقله، وتقديم
سفنه
لنقل المسلمين في البحر، ومعاونته بجنده وإرشاده، أن الفوز ميسور محقق،
كتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر المشروع، فكتب إليه الوليد أن
يختبره
بالسرايا، أعنى بالحملات الصغيرة بادىء بدء، وأل ايزج بالمسلمين إلى أهوال
البحر، بيد أن المسلمين كانوا قد خاضوا قبل ذلك غمر المعارك البحرية في
هذه

المياه، وغزوا صقلية وسردانية، ثم غزوا جزائر البليار (الجزائر الشرقية)
كما قدمنا، وكان البحر الذى يفصل بين إفريقية والأندلس مجازا ضيقا سهل
العبور.

ولبث موسى حينا بطنجة يهيئ عُدة الفتح، والظاهر أن يوليان وحلفاءه
لم يقصدوا بدعوة موسى أن يمتلك العرب اسبانيا، وأن يحكموها، بل كان
مشروعهم أن يستعينوا بالعرب على محاربة المغتصب وإسقاطه، واستخلاص
الملك
لأنفسهم.

وكان اعتقادهم أن العرب متى امتلأت أيديهم بالأسلاب والغنائم، قفلوا
إلى إفريقية.

وهو فرض معقول يؤيده سير الحوادث في اسبانيا، فقد كان
الخوارج على ردريك يقصدون إلى انتزاع الملك من يده.
وتحقيق أطماعهم
يالحلول مكانه.

أما الفرض الآخر - وهو أنهم كانوا يقصدون بالفعل تسليم
وطنهم إلى العرب - فمعناه أنهم كانوا يعملون للقضاء بانفسهم على
مشاريعهم
وأطماعهم، وهو مما يصعب قبوله وتعليله (٢) ، والظاهر أن موسى بن
نصيركان من جانبه

---

(١) راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٣، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦.

(٢) قدم ابن الأثير في روايته ما يفيد صحة الفرض الأول (ج ٤ ص ٢١٤)
.
وكذا صاحب =

يؤكد ليوليان أنه لايقصد بالغزو سوى مجد الفتح وكسب الغنائم، وأنه لا ينوى إنشاء دولة مسلمة فيما وراء البحر.

ونزل موسى على نصح الخليفة في اختبار الفتح

الجديد بالسرايا، وبدأ مشروعه بمحاولة صغيرة، فجهز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس، بقيادة ضابط من البربر يدعى طريف بن مالك، فعبروا البحر من سبتة في أربع سفن قدمها يوليان، إلى البقعة المقابلة التي سميت جزيرة طريف

باسم قائد الحملة، وذلك في رمضان سنة إحدى وتسعين (يوليه سنة ٧١٠ م) ، وجاست الحملة خلال الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان، فأصابت كثيراً من الغنائم، وقوبلت بالإكرام والترحيب، وشهدت كثيرا من دلائل خصب الجزيرة وغناها، ثم عادت في أمن وسلام، وقص قائدها على موسى نتائج رحلته، فاستبشر بالفوز، وجد في أهبة الفتح.

وفى شهر رجب سنة اثنتين وتسعين (إبريل سنة ٧١١ م) جهز موسى جيشا من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثى، وكان يومئذ حاكماً لطنجة كما قدمنا (١) .

ومن الغريب أن الرواية الإسلامية لا تحدثنا

عن فاتح الأندلس بشيء قبل ولايته لطنجة، بل إنها لتختلف في أصله ونسبته، فقيل هو فارسى من همذان، كان مولى لموسى بن نصير، وقيل إنه من سبى

البربر، وقيل أخيراً إنه بربرى من بطن من بطون نفزة، وهذه فيما يظن أرجح رواية، وهى رواية يؤيدها صاحب البيان المغرب، بإيراد نسبة طارق مفصلة. ويبدو منها أن طارقاً تلقى الإسلام عن أبيه زياد عن جده عبد الله، وهو أول اسم عربى إسلامى نسبته، ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال أسماء بربرية

محضة حتى ينتهى إلى نفزة، وهى القبيلة التي ينتمى إليها (٢) .

---

= " أخبار مجموعة " (ص ٨) ، والمقرى (ج ١ ص ١٢٠) .
ومن جهة أخرى فإن البحث الحديث
يؤيده ويرجحه.
راجع دوزى: Dozy: Hist, V.
١.
p.
٢٧٢، وأيضا جيبون حيث يقول:
" يظهر أن الكونت لا يستحق وصمات الخيانة والخسة والغدر مطلقة، فإن
التاريخ لم يثبت أنه كان
يريد تسليم بلاده للعرب.
وإنما كان مشروعه أن يستعين بهم على قلب الحكومة وإسقاط ردريك حتى
يكون له في حكومة هو منشؤها مكانة أسمى " Gibbon: ibid.
Chap.
L1.
(note)
(٢) يقول صاحب البيان المغرب إن ولاية طارق لطنجة كانت في سنة ٨٥هـ
(ج ٢
ص ٢٨) ، ولكن الظاهر أنه وليها بعد ذلك ببضعة أعوام.
(٢) راجع البيان المغرب (ج ٢ ص ٦) وفيه ترد نسبة طارق هكذا: - طارق
بن زياد
ابن عبد الله بن ولغو ين ورفجوم بن نيرغاس بن ولهاص بن يطومث بن نفزا؛
وراجع أيضا نزهة =



وتقدم إلينا الرواية الإسلامية التي يسوقها الينا صاحب كتاب " الإمامة
والسياسة " وصفا لشخص طارق خلاصته أنه كان " رجلا طويلا أشقر ،

بعينيه
قبل أى حول وبيده شلل " (١) .
فإذا صحت هذه الرواية، فإنها يمكن أن تقدم
الينا دليلا آخر على انتماء طارق إلى الجنس البربرى.
فالبربر حسبما شهدنا من
التجوال في بعض ربوعهم بالمغرب، يكثر بينهم الطول والشقرة.
وكان طارق جنديا عظيما ظهر في غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته،
وقدر موسى مواهبه ومقدرته واختاره لحكم طنجة وما يليها، وهى يومئذ
أخطر بقاع المغرب الأقصى وأشدها اضطربا، ثم اختاره لفتح الأندلس.
فعبر البحر من سبتة بحيشه تباعا في سفن يوليان القليلة، ونزل بالبقعة
الصخرية
المقابلة التي ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم أعنى جبل طارق، وذلك في يوم
الإثنين
الخامس من رجب سنة ٩٢هـ (٢٧ إبريل سنة ٧١١ م) (٢) .
واخترق طارق
المنطقة المجاورة غرباً بمعاونة يوليان وإرشاده، وزحف على ولاية الجزيرة التي
كان يحكها تيودومير القوطى عامل ردريك واحتل قلاعها، بعد أن هزم شراذم
من القوط تصدت لوقفه.
وبادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طليطلة
بالخطر الداهم.
وكان ردريك يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج في الولايات
الشمالية، فهرع إلى طليطلة شاعراً بفداحة الخطر المحيق بعرشه وأمته،
وبعث
قائده اديكو لرد العدو حتى يستكمل أهبته.
ولكن طارقا هزمه ثم اخترق بسائط
" الفرنتيره " (١) معتزماً السير صوب عاصمة القوط.

وكان رُدريك أو رذريق أو لذريق كا يسميه العرب (٤) ، أميراً شجاعاً وافر المقدرة والعزم، ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغض

---

= المشتاق للشريف الإدريسى حيث يقول إنه بربرى من زناته (طبع رومة ص ١٧٩) ، وكذلك

ابن خلدون (ج ٤ ص١١٧) ، والمقرى (نفح الطيب ج ١ ص ١١٩) .

(١) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٤.

وذقل إلينا المقرى ما يفيد أن طارقا كان ضخم

الهامة، وفي كتفه ٤ الأيسر شامة (ج ١ ص ١٠٧) .

(٢) المقرى (ج ١ ص ١١٩) ، والبيان المغرب؛ وهناك خلاف على الشهر الذى عبر

فيه طارق.

(٣) الفرنتيره La Frontera، هى المنطقة الوسطى والغربية في المثلث الإسبانى.

(٤) ويسميه الواقدى باسم آخر هو (الأدرينوق) ؛ راجع الطبرى ج ٨ ص ٨٢.



والسخط (١) .

وكان عرشه يرتجف فوق بركان من الخلاف، وكانت اسبانيا

قد مزقت شيعا وأحزابا، يتطلع كل منها إلى انتزاع السلطان والملك، وكان أهم

هذه الأحزاب وأقواها حزب العرش القديم الذى يلتف حول ولدى وتيزا

(غيطشة) .

ومع ذلك فقد اعتصم القوط حين الخطر الداهم بنوع من الاتحاد، واستطاع

ردريك أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة، وحشد

هؤلاء رجالهم وأتباعهم، فاجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدره بعض الروايات

بمائة ألف (٢) ، ويقدره مؤرخ أندلسي متأخر بتسعين ألف (٣) ، وسار ردريك

نحو الجنوب للقاء المسلمين، وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأهبة العظيمة، فكتب إلى موسى يستنجد به، فأمده بخمسة آلاف مقاتل، فبلغ المسلمون

اثنى عشر ألفاً، وانضم إليهم يوليان في قوة صغيرة من صحبه وأتباعه. كان القوط أضعاف المسلمين، وكان المسلمون يقاتلون في أرض العدو في هضاب ومفاوز شاقة، ولكن قائدهم الجرىء تقدم إلى الموقعة الحاسمة بعزم.

فكان اللقاء بين الجيشين في سهل الفرنتيره Frontera على ضفاف نهر وادي

لكه أو وادي بكه.

وقد اختلف البحث الحديث في تحديد المكان والنهر الذى

يحمل هذا الاسم الذى تورده الرواية العربية.

فذكر البعض أنه هو نهر "جواداليتى"

Guadalete (وادي لكه) الذى يصب في خليج قادس على مقربة من مدينة شريش، وأن اللقاء حدث على ضفته الجنوبية شمالى مدينة شذونة.

وذكر البعض

الآخر، وهى الرواية الراجحة فيما يرى البحث الحديث، أن اللقاء قد حدث جنوبى بحيرة " خَندة " Janda الصغيرة المتصلة بنهر بارباتى Barbate الصغير

---

(١) Cardonne: ibid.

p.

(٢) راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٤؛ والمقرى ج ١ ص ١٢٠.
ويقدره في مكان آخر
بسبعين ألف (ص ١١٢) .
ويأخذ جيبون بهذه الرواية فيقدر جيش القوط بتسعين ألف أو مائة
ألف (الفصل الحادى والخمسون) .
ولكن ابن خلدون يقدره بأربعين ألف فقط، وهو في نظرنا
أقرب إلى المعقول (ج ٤ ص ١١٧) .
(٣) هذه هي رواية على بن عبد الرحمن بن هذيل صاحب كتاب " تحفة
الأنفس وشعار أهل
الأندلس " وهو من كتاب القرن الرابع عشر الميلادى (مخطوط بالإسكوريال
رقم ١٦٥٢ دير نبور -
لوحة ٤٨) وهو مؤلف فريد في بابه يتحدث عن الجهاد والمغازى والصوائف
والفروسية وأحوالها
وشروطها.
وبه نبذ تاريخية مفيدة.
وقد نشره المستشرق مرسييه.

*(٤٢/١)*

خريطة:
مواقع معركة وادي لكه وخط سير طارق.

*(٤٣/١)*

الذى يصب في المحيط على مقربة من رأس " طرف الغاز " (١) وأن الرواية
العربية
تقصد هذا النهر بما تورده من إسم وادي لكه أو وادي بكه.

ففى هذا السهل
الصغير الذى تحده من الجنوب سلسلة من التلال العالية، وعلى ضفاف
بحيرة خنده ونهر
" بارباتى " تلاقى العرب والقوط، والإسلام والنصرانية، وذلك في الثامن
والعشرين
من شهر رمضان سنة ٩٢ (١٧ يوليه سنة ٧١١ م) (٢) .
وفرق النهر بين الجيشين
مدى أيام ثلاثة شغلت بالمعارك البسيطة.
وفى اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت
بينهما معركة عامة.
وظهر ردريك وسط الميدان في حلل ملوكية فوق عرش
تجره الخيل المطهمة، وهو منظر يثير سخرية الفيلسوف جيبون ولاذع تهكمه
إذ
يقول: " ولقد يخجل ألاريك (مؤسس دولة القوط) عند رؤية خلفه (ردريك)
متوجا باللآلىء، متشحا بالحرير والذهب، مضطجعاً في هودج من العاج "
(٣) .
واستمرت المعركة هائلة مضطرمة بين القوى النصرانية الضخمة، وبين القوة
المسلمة المتواضعة نحو أربعة أيام (٤) .
ولكن الجيش القوطى كان رغم كثرته مختل
النظام منحل العرى، وكان يقود جناحيه إيفا وسيزبوت خصما ردريك (٥) ،

---

(١) يقول دوزى إن هذا النهر يحمل اليوم اسم سلادو Salado (ج ١ ص
٢٧٣ هامش)
وهو خطأ لأن هذا الإسم يطلق على نهر آخر يقع شمالى نهر بارباتى.
ويسميه ابن القوطية " وادي
بكه " (ص ٧) .

وراجع: الأستاذ ليفى بروفنسال: Histoire de l'Espagne Musulmane
.p
١٥ & ١٦.
(١٩٤٤) والهوامش.
(٢) تجمع الرواية الإسلامية تقريبا على أن الموقعة كانت في هذا التاريخ.
ولكن ابن حيان
مؤرخ الأندلس يقول إنها كانت في السابع من ربيع الأول سنة ٩٢ هـ (المقرى
عن ابن حيان ج
ص ١١٦) ولعله ينفرد بهذا الخلاف.
(٣) تشير معظم الروايات الإسلامية إلى هذا المنظر؛ فيقول الطبرى نقلا عن
الواقدى:
" فزحف الأدرينوق في سرير الملك، وعلى الأدرينوق تاجه وقفازه وجميع
الحلة التي كان يلبسها
الملوك " (ج ٨ ص ٨٢) ، والمقرى (ج ١ ص ١١٢) ، وابن الأثير (ج ٤
ص ٢١٢) ،
وابن عذارى (ج ٢ ص ٩) .
(٤) قال الرازى: " كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان،
فاتصلت
الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال.
ثم هزم الله المشركين فقتل منهم خلق عظيم
أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الأرض، قالوا: وحاز
المسلمون من عسكرهم
ما يجل قدره، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها في
أصابعهم، ويعرفون
من دونهم بخواتم الفضة، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس " (المقرى ج ١

ص ١٢١) .

(٥) أخبار مجموعة (ص ٨) .

*(٤٤/١)*

وتتكون صفوفه من أتباعهما وأتباع حلفائهما من الأمراء والزعماء الناقمين، الذين تظاهروا بالإخلاص وقت الخطر، وكلهم يتحين الفرصة للإيقاع بالملك المغتصب (١) ، فكانت الخيانة تمزق جيش القوط شر ممزق.

واستمال يوليان

والأسقف أوباس وهما في صف المسلمين كثيراً من جند القوط، وبثا بدعايتهما

في الصفوف الموالية لردريك كثيراً من عوامل الشقاق والتفرق، فأخذ كل أمير يسعى في سلامة نفسه.

وتمكن الجيش الإسلامى على ضآلة عدده، بجلده وثباته

واتحاد كلمته، من جيش القوط، فلم يأت اليوم السابع من اللقاء حتى تم النصر

لطارق وجنده، وهزم القوط شر هزيمة، وشتتوا ألوفاً في كل صوب.

أما ردريك آخر ملوك القوط، فقد اختفى عقب الموقعة، ولم يعثر له بأثر.

ويقول إيزويدور الباجى إنه بقي في ميدان الحرب حتى قتل مدافعاً عن عرشه وأمته.

وتقول بعض الروايات النصرانية الأخرى إنه فر عقب الهزيمة على ظهر جواده، ولكنه غرق في مياه النهر.

وتميل التواريخ الإسلامية إلى تأييد هذه

الرواية، وتقول لنا إن ملك القوط مات غريقاً، وإنهم عثروا على جواده وسرجه الذهبى، ولم يعثر إنسان بجثته.

وتزعم بعض الروايات النصرانية أيضا

أن ردريك استطاع أن يلوذ بالفرار، ولكنه قتل بعد ذلك، أو أنه فر إلى بعض

الأديار في البرتغال وترهب، وعاش متنكراً حيناً من الدهر.
وينفرد صاحب كتاب
الإمامة والسياسة بين المشارقة برواية أخرى، وهى أن طارقاً ظفر بجثة ردريك، فاحتز رأسه وبعث بها إلى موسى بن نصير، وبعث بها موسى إلى الخليفة، ويتابعه في هذه الرواية كاتب أندلسي هو صاحب كتاب تحفة الأنفس الذى تقدم
ذكره (٢) .
هذا إلى روايات كثيرة أخرى.
ولكن المرجح في هذه الروايات
كلها هو أن ردريك فقد حياته في الموقعة التي فقد فيها ملكه، وأنه مات قتيلا أو غريقاً على الأثر (٣) .

---

(١) ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٤) والمقرى (ج ١ ص ١٢١) ودوزى (ج ١ ص ٢٧٢) .
(٢) راجع كتاب الامامة والسياسة ج ٢ ص ٧٥ و ٧٦.
ووردت هذه الرواية في كتاب
تحفة الأنفس في المخطوط المتقدم ذكره (لوحة ٤٨) .
(٣) راجع في مصير ردريك، C.
Julian: Histoire de la Gaule p.
Gibbon, ibid – ٧٥٠
Chap.
LI.
notes &، وراجع من المصادر الإسلامية: ابن الأثير حيث يقول إنه غرق في نهاية الموقعة
(ج ٤ ص ٢١٤) .

والمقرى حيث يقول إنه رمى بنفسه مختارا إلى النهر، وقد ثقلته الجراح (نفح الطيب=

(٤٥/١)

هكذا كانت موقعة شذونة التي دالت فيها دولة القوط، بعد أن لبثت زهاء ثلاثمائة عام منذ قيامها في غاليس، وغنم الإسلام فيها ملك إسبانيا.
وتحيط الرواية
الإسلامية حوادث الفتح بطائفة كبيرة من الأساطير والقصص التي لا يستطيع المؤرخ أن يقف بها (١) .
بيد أنه يجدر بنا في هذا المقام أن نذكر ما تعرضه الرواية
من أن طارقا خطب جنده قبيل نشوب المعركة الحاسمة، كما أنه يجدر بنا أن نورد
نص هذا الخطاب الشهير الذى ينسب لفاتح الأندلس، والذى يعتبر نموذجا بديعا
من الفصاحة والحماسة الحربية وهو:
يا أيها الناس: أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم.
وليس لكم
والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم.
وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا، ذهبت ريحكم وتعوضت.
القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة.
من أمركم، بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز
الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت.

وإنى لم أحذركم أمرا أنا عنه
بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها للنفوس، أبدأ بنفسى، واعلموا
أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا، فلا ترغبوا
بأنفسكم عن نفسى، فما حظكم فيه بأوفى من حظى.
وقد بلغكم ما أنشات هذه
الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان.

---

= ج ١ ص ١٢١) .
وقال ابن الأبار في الحلة السيراء إنهم عثروا على جواد ردريك وسرجه من
ذهب وزبرجد وإحدى نعليه وغاب شخصه، فما وجد حيا ولا ميتا (ليدن ص
٣١) .
وهذه أيضا
رواية صاحب " أخبار مجموعة " (ص ٦) ، وقال ابن عذارى إن ردريك
اختفى ولم يعرف له موضع
ولا وجدت له جثة، وإنما وجد له خف مفضض، فقالوا إنه غرق وقالوا إنه قتل
(ج ٢ ص ١٠) ؛
وتردد بعض التواريخ الغربية هذه الرواية (كامى جوليان في تاريخ " غاليس "
ص ٧٥٨) .
وتقول
بعض الروايات الإسبانية إنه فر إلى مغار ناسك، والبعض الآخر إنه ألقى
حيا إلى بئر ملأى بالأفاعى
حيث صاح: " وإنها تلتهم الجزء الذى ثقلته بالخطايا " (جيبون الهامش في
الفصل الحادى والخمسين) .
(١) راجع رواية ابن عبد الحكم عن فتح الأندلس (ص ٣٠٤ وما بعدها) فقد
تخللها بعض
هذه الأساطير، ولكن المقرى يستوعب الكثير منها نقلا من مختلف الروايات

(نفح الطيب ج ٦
ص ١١٤ وما بعدها) .



والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوى التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك
هذه الجزيرة أصهارا وأختانا، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه
بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم.
والله تعالى ولىّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين.
أيها الناس:
ما فعلت من شيء فافعلوا مثله، إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه
وأمثل دونه، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا، فتفشلوا وتذهب ريحكم، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير.
وإياكم إياكم أن ترضوا
بالدنية، ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة، والراحة من المهنة والذلة، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا، والله معكم ومفيدكم، تبوءوا بالخسران المبين، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين، وهأنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتى " (١) .
ويشير صاحب كتاب تحفة الأنفس إلى خطبة طارق في قوله: " لما التقى العرب والقوط، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال، فرأى طارق ما الناس فيه من

الشدة، فقام يعظهم ويحضهم على الصبر ويرغبهم في الشهادة، وبسط في آمالهم "، ثم
يورد نص الخطبة (٢) .
ثم تنوه الرواية الإسلامية بما كان لهذا الخطاب من أثر فعال في إذكاء همم المسلمين وشجاعتهم وثقتهم، ودفعهم إلى طريق النصر والظفر.
على أنه يسوغ لنا أن نرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق؛ فإن معظم المؤرخين المسلمين، ولاسيما المتقدمين منهم لايشير إليها، ولم يذكرها ابن عبد الحكم

---

(١) هذا، ومما ينسب لطارق أيضا من قصيدة قالها في الفتح:
ركبنا سفينا بالمجاز قصيرا عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوسا وأموالا وأهلا بجنة إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا
(٢) كتاب تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس؛ المخطوط المتقدم ذكره لوحة ٤٨.



ولا البلاذرى، وهما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية؛ ولم تشر إليها المصادر الأندلسية الأولى، ولم يشر إليها ابن الأثير وابن خلدون، ونقلها المقرى عن مؤرخ لم يذكر اسمه.
وهى على العموم أكثر ظهوراً في كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين.
وليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة، فنحن نعرف أن كثيرا من قادة الغزوات الإسلامية الأولى، كانوا يخطبون جندهم فى الميدان؛ ولكن في لغة هذه الخطبة، وروعة أسلوبها وعباراتها، ما يحمل على الشك في نسبتها إلى طارق، وهو بربرى لم يكن عريقاً في الإسلام والعروبة.

والظاهر أنها من إنشاء بعض المتأخرين، صاغها على لسان طارق مع مراعاة
ظروف المكان والزمان.
وتشير الرواية الإسلامية في هذا الموطن إلى واقعة أخرى جديرة بالتأمل والبحث؛ وهى واقعة قد يغلب عليها لون الأسطورة، وإن كانت مع ذلك تعرض
علينا في ثوب التاريخ الحق؛ تلك هى واقعة إحراق السفن التي نقل عليها طارق
جيشه من الشاطىء الإفريقى إلى شاطىء الأندلس.
ونحن نعرف مما تقدم أن
الكونت يوليان هو الذى قدم السفن التي ركبها العرب إلى الأندلس في بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك، ثم في حملتهم الغازية بقيادة طارق.
وهنا تذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى الشاطىء الأندلسي، حتى
أمر بإحراق السفن التي عبر عليها جيشه، وذلك لكى يدفع جنده إلى الاستبسال
والموت، أو النصر المحقق، ويقطع عليهم بذلك كل تفكير في التخاذل والارتداد.
فما مبلغ هذه الرواية من الصحة؟ إن جميع الروايات الإسلامية التي تحدثنا عن فتح
الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة، ولا تذكرها الرواية الإسلامية إلا فى موطن واحد، فقد ذكر الشريف الإدريسى في معجمه الجغرافى " نزهة المشتاق "
عند الكلام على جغرافية الأندلس، أن طارقا أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس (١) ، وقد نقلت بعض التواريخ النصرانية المتأخرة هذه الرواية

عن الإدريسى فيما يرجح.
وفيما عدا ذلك فإن جميع الروايات الإسلامية تمر عليها
بالصمت المطلق.
وقد يقال إن في الخطاب المنسوب إلى طارق ما يؤيد صحة هذه الرواية،

---

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (المختصر) ، طبع رومة، ص ١٧٨.

(٤٨/١)

فطارق يستهله بقوله: " أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو
أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر..
"، وفي ذلك ما يمكن أن يحمل
على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ
الإفريقى،
أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التي حملته في عرض البحر إلى اسبانيا،
ولكنا
رأينا أن هذا الخطاب لا يمكن الاعماد عليه من الوجهة التاريخية، كوثيقة
بعيدة عن
شوائب الريب.
ولو صح أن طارقا ألقى في جنده مثل ذلك الخطاب، فقد نجد
تفسيراً لأقوال طارق في أن السفن كانت ملكاً للكونت يوليان، وفي أنها لم
تكن
تحت تصرف الغزاة في جميع الأوقات.
ومع ذلك كله فإن رواية الشريف الإدريسى عن واقعة إحراق طارق للسفن
ليست من الأمور المستحيلة، وهى عمل بطولة يتفق مع بطولة فاتح
الأندلس.
على أنها تبتى عرضة لكثير من الريب، فقد دونت لأول مرة في القرن

الخامس
الهجرى.
أعنى بعد فتح الأندلس بأكثر من ثلاثة قرون، ولم تؤيدها أية
رواية إسلامية أخرى (١) .
وعلى أثر الموقعة الحاسمة التي غلب فيها الجيش القوطى ومزق، ساد
الرعب
على القوط، فامتنعوا بالحصون والجبال، وقصدوا إلى الهضاب والسهول.
وذاعت
أنباء النصر في طنجة وسبتة وما جاورهما من أراضي العدوة، فعبر إلى
الجيش
الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين من العرب والبربر.
وزحف طارق بحيشه
شمالا.
وكانت بقية الجيش القوطى قد اجتمعت عند إستجة لتحاول رد الجيش
الفاتح، فالتقى الجيشان هناك ثانية، وهزم القوط مرة أخرى، ولم يبق إلا أن
يستولى الفاتحون على المدن والقواعد الحصينة واحدة بعد الأخرى.
وكان يوليان وأصحابه إلى جانب المسلمين، يعاونهم بالنصح والإرشاد
كما قدمنا، ففى إستجة وضعت خطة السير، وتقرر أن يسير طارق بنفسه
إلى
طليطلة عاصمة المملكة القوطية، وأرسل طارق مغيثاً الرومى مولى الوليد بن

---

(١) يقدم لنا التاريخ الحديث مثلا بديعا للفاتح الذي يحرق السفن التي عبر
عليها جيشه
لكى يقطع على جيشه كل تفكير في الرجعة والارتداد، هو مثل المستكشف
الإسباني هرناندو كورتيث
فاتح المكسيك.

فقد أمر هذا الفاتح الشهير، حينما أشرف على شواطىء المكسيك.
مستكشفا فاتحا فى
سنة ١٥١٩ م.
بإحراق سفينه التي قدم عليها جيشه من اسبانيا.
ومن الغريب أن يكون بطل هذا الحادث
إسبانيا، وهو ما يحملنا على الظن بأنه قد تأثر في عمله بالمثل الذي ينسب
لطارق فاتح الأندلس.

(٤٩/١)

عبد الملك إلى قرطبة في سبعمائة فارس، فاقتحم أسوارها الحصينة واستولى
عليها
دون مشقة، وأرسل حملات أخرى إلى غرناطة وإلبيرة ومالقة، فافتتحت مالقة
وفر سكانها إلى الجبال، ثم لحق جيشها بالجيش المتجه إلى إلبيرة وغرناطة،
فحوصرت غرناطة قليلا وفتحت، ثم فتحت إلبيرة.
وكان اليهود يعاونون
المسلمين في كل هذه الفتوح، فكان المسلمون يضمون إليهم في كل مدينة من
المدائن المفتوحة حامية صغيرة لحفظها.
ثم سار المسلمون بعد ذلك شرقاً نحو
ولاية مرسية، وكانت تسمى يومئذ تيودمير (أو تدمير) باسم أميرها، وقاعدتها
مدينة أوريولة، وكان تيودمير جندياً كبيراً، وافر العزم والبأس، فالتقى
بالمسلمين ونشبت بينه وبينهم معارك شديدة هلك فيها معظم رجاله، فارتد إلى
أوريولة، وامتنع بها، وعرض النساء، حسبما تقول الرواية، على الأسوار
بأثواب الرجال إيهاما بكثرة جنده، واستطاع بثباته وجلده، أن يعقد الصلح مع
المسلمين بشروط حسنة أنقذت بها مدينته من السبى والجزية (١) .
وسار طارق في بقية الجيش إلى طليطلة مخترقاً هضاب الأندلس (٢) وجبال

---

(١) ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) .
والبيان المغرب (ج ٢ ص١٣) .
وسنورد فيما بعد نص
هذه المعاهدة.
(٢) يطلق المؤرخون والجغرافيون العرب كلمة " الأندلس " على شبه جزيرة
إيبيريا المكونة
من اسبانيا والبرتغال (ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة الأندلس.
والروض المعطار ص ١) .
وتطلق
في الرواية العربية أيضا على اسبانيا المسلمة، التي كانت عقب الفتح تشمل
كل إسبانيا ما عدا جليقية
وولايات جبال البرنيه.
ولكن " الأندلس " تطلق في العصور المتأخرة وفي الجغرافية الحديثة على
ولايات الأندلس الواقعة في جنوبى إسبانيا بين نهر الوادي الكبير والبحر،
وبين ولاية مرسيه وإشبيلية؛
وما زالت " الأندلس " تحتل في تقسيم اسبانيا الإدارى الحاضر نفس هذه
المنطقة.
والرواية
العربية تعلل هذه التسمية بصور مختلفة فتقول مثلا إنها سميت أندلس باسم
أول من سكنها من قديم
الزمان وهم قوم من الأعاجم يقال لهم أندلوش (نفح الطيب ج ١ ص ٦٧) .
ويقول ابن الأثير إن
النصارى يسمون الأندلس إشبانة باسم اشبانس أحد ملوكها، وهذا هو اسمها
عند بطليموس (ج ٤
ص ٢١٢) .
ولكن ابن خلدون يقدم لنا تعليقا أدق فيقول إنها سميت "الأندلس" باسم

"قندلس" ولعلها

فندلس، ومن الواضح أنه يقصد الفندال أى الوندال (ج ٢ ص ٢٣٥ في تاريخ القوط) .

ويقدم لنا

البكرى خلاصة دقيقة لهذه المسميات الجغرافية التاريخية فيقول في وصفه لجزيرة الأندلس، " إن اسمها

في القديم إباريه Iberia من وادي إبره، ثم سميت بعد ذلك باطقة Baetica، من وادي بيطى وهو نهر

قرطبة.

ثم سميت إشبانية من إسم رجل ملكها في القديم كان اسمه إشبان.

وقيل سميت بالإشبان سكنوه

في أول الزمان على جرية النهر وما والاه.

وقال قوم إن اسمها هو في الحقيقة إشبارية Hisperia

(٥٠/١)

سيرّا مورينا (جبل الشارّات) التي تفصل بين الأندلس وقشتالة، بإرشاد يوليان وأصحابه.

وكان القوط قد فروا منها نحو الشمال بأموالهم وآثار قديسيهم.

ولم يبق

بها سوى اليهود وقليل من النصارى، فاستولى طارق عليها، وأبقى على من بقى

من سكانها، وترك لأهلها عدة كنائس، وترك لأحبارها حرية إقامة الشعائر الدينية، وأباح للنصارى من القوط والرومان اتباع شرائعهم وتقاليدهم، واختار لحكمها وإدارتها أوباس مطرانها السابق وأخا الملك وتيزا.

وتابع طارق زحفه

شمالا، فاخترق قشتالة ثم ليون في وهاد ومفاوز صعبة، وطارد فلول القوط

حتى أسترقة؛ فلجأت إلى قاصية جليقية واعتصمت بجبالها الشامخة.

وعبر طارق

جبال أشتوريش (أستورياس) (١) واستمر في سيره حتى أشرف على ثغر خيخون الواقع على خليج بسكونية (غسقونية) فكان خاتمة زحفه ونهاية فتوحاته، ورده عباب المحيط عن التقدم فعاد إلى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى

بوقف الفتح.

وكان ذلك لعام فقط من عبوره إلى اسبانيا.

وقد اختلف المؤرخون في تعليل البواعث التي حملت موسى على أن يصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح، فقيل إن موسى لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده ومبعوثه، فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه، تحول إعجابه به إلى حسد.

وغيرة، وخشى أن ينسب ذلك الفتح العظيم إليه دونه، فكتب إليه ألا يتقدم

---

من إشبرش وهو الكوكب المعروف بالأحمر.

وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماه الأندليش من الذين

سكنوها ".

والأندليش هم الوندال Vandals.

(أبو عبيد البكرى في جغرافية بلاد افريقية والمغرب

طبعة دى سلان) .

وهذا هو التعليل الذى يأخذ به دانفيل Danville إذ يقول إن الاشتقاق مأخوذ من

كلمة فاندالوسيا Vandalusia أى بلد الوندال، (نقله جيبون عن كتاب ممالك أوربا في هامش

الفصل الحادى والخمسين) .

وهذا ما يقرره الغزيرى أيضا في معجم مخطوطات الإسكوريال

.Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis II, p)
(٢٣٧
(١) وهنا تذكر الرواية العربية أن طارقا انتهى إلى مدينة المائدة خلف جبال أستوريه
واستولى على مائدة سليمان بن داود، وهى خضراء من زبرجد حافاتها منها وأرجلها ثلثمائة وخمسة وستون.
ويقال إن هذه المائدة غنمها الرومان من المشرق أو بيت المقدس في بعض غزواتهم ثم نقلوها إلى رومة،
فغنمها القوط حين افتتحوا رومة، ثم أحرزها العرب عند فتح اسبانيا.
وذكر ابن الأثير أن أحد
ملوك اسبانيا في عهد الوندال غزا بيت المقدس وأحرز المائدة (ج ٤ ص ٢١٢) .
وذكر صاحب
الروض المعطار، كما ذكر بعض مؤرخي الإفرنج، أن هذه المائدة هى من نفائس ملوك القوط،
وأن العرب عثروا بها في كنيسة طليللة وهو أقرب إلى المعقول.
(الروض المعطار ص ٥) .



حتى يلحق به، ويتوعده بالعقاب إذ توغل بعد بغير إذنه (١) .
ولكن البعض
يعلل غضب موسى على طارق ولحاقه به، بأن طارقا خالف الأوامر الصادرة إليه بألا يجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط (٢) .
وهذا تعليل حسن يتفق
وما أثر عن موسى من الحيطة والحذر، فقد ينكب المسلمون إذا توغلوا في أراض

ومسالك مجهولة.

على أن ذلك لا يمنع من أن يكون للغيرة أثرها أيضاً في نفس

موسى وفي تصرفه.

وعلى أى حال فقد عبر موسى البحر إلى اسبانيا في عشرة

آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر، في سفن صنعها خصيصا لذلك،

يحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله

آلكونت يوليان، وذلك في رمضان سنة ثلاث وتسعين (يونيه سنة ٧١٢ م) .

وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شَذُونة (٣) ، ثم سار إلى قَرْمونة

وهى

يومئذ من أمنع معاقل الأندلس، فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه.

وقصد

بعدئذ إلى إشبيلية أعظم قواعد الأندلس.

فافتتحها بعد أن حاصرها شهرا.

ثم سار

إلى ماردة وحاصرها مدة، وقتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين في

كمين

دبره النصارى.

وانتهت بالتسليم في رمضان أو شوال سنة أربع وتسعين، على

أن تكون أموال الغائبين والكنائس، غنيمة للمسلمين دية لمن قتل منهم.

وقصد

موسى بعدئذ إلى طليطلة فالتقى بطارق على مقربة منها وكان قد سار إلى

استقباله.

فأنبه وبالغ في إهانته، وزجه مصفداً إلى ظلام السجن بتهمة الخروج

والعصيان، وقيل بل هم بقتله أيضا (٤) .

ولكنه ما لبث أن عفا عنه ورده إلى منصبه (٥) .

---

(١) هذه هى رواية ابن عبد الحكم (ص ٢٠٧) ، وصاحب أخبار مجموعة (ص ١٥) ، وابن القوطية (ص ٩) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٧) ، وابن حيان مؤرخ الأندلس (نفح الطيب ج ١ ص ١٢٦) ، وبغية الملتمس للضبى (ص ١١) ، والحميدى في جذوة المقتبس (طبع مصر) ص هـ.

(٢) البيان المغرب (ج ٢ ص ١٥ و١٨) .

(٣) Medina Sedonia، ويسميها ابن الأثير مدينة سالم (ج ٤ ص ٢١٥)
.

ولكن
شدونة أو شذونة تسمية أكثر ذيوعا.

(٤) ابن عبد الحكم (ص ٢٠٨) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) ، والمقرى
في نفح
الطيب (ج ١ ص ١٢٧) ، والحميدى في جذوة المقتبس (ص ٦) .

(٣) ينفرد ابن عبد الحكم برواية عن إطلاق سراح طارق، هى أن طارقا
استجار بمغيث
الرومى وكان عائدا من الأندلس إلى المشرق، ووعده بمائة عبد إذا ما هو أبلغ أمره إلى الوليد بن عبد الملك، فقام مغيث بالرسالة وبادر الوليد بالكتابة إلى موسى أن يطلق سراح طارق ويتوعده إذا أساء اليه=

(٥٢/١)

ووضع الإثنان خطة لافتتاح ما بقى من إسبانيا.

ثم زحفا نحو الشمال الشرقى.

واخترقا ولاية أراجون (الثغر الأعلى) وافتتحا سرقسطة وطركونة وبرشلونة وغيرها من المدائن والمعاقل.

ثم افترق الفاتحان، فسار طارق نحو الغرب ليغزو
جليقية، وليتم القضاء على فلول القوط.

وسار موسى شمالا فاخترق جبال البرنيه
(جبال البرت أو البرتات أو الممرات) (١) ، وغز اولاية لانجدوك أو سبتمانيا التي
كانت تابعة إذ ذاك لملوك القوط، واستولى على قرقشونة (كاركاسون) وأربونة (ناربون) .
ثم نفذ إلى مملكة الفرنج وغزا وادي الرون (رذونة) حتى مدينة
لوطون أو لوذون (ليون) ، فاضطرب أمراء الفرنج وأخذوا في الأهبة لرد الغزاة؛
ويقال إن المعارك الأولى بن العرب والفرنج وقعت في تلك السهول على مقربة
من أربونة (٢) .
وهنا فكر القائد الجرىء في أن يخترق بجيشه جميع أوربا غازياً فاتحا، وأن
يصل إلى الشام من طريق قسطنطينية، وأن يفتتح في طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها.
وهو ما يجمله ابن خلدون في تلك العبارة القوية: " وجمع أن يأتي
المشرق على القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويخوض مابينها
من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم، مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار
الخلافة " (٣) .
وكان موسى يقدر تنفيذ مشروعه العظيم بجيش ضخم يقتحم البرنيه، يؤيده
من البحر أسطول قوى، فيبدأ بافتتاح مملكة الفرنج ثم يقصد إلى مملكة
اللومبارد (٤) في شمالى إيطاليا، فيخترقها فاتحا إلى رومة قاعدة النصرانية، فيفتتحها
ويقضى فيها على كرسى النصرانية.
ويتابع سيره بعدئذ شرقاً إلى سهول الدانواب،

---

= وحمل مغيث هذا الكتاب إلى الأندلس، فأفرج موسى عن طارق ورده إلى منصبه (ص ٢١٠) ، وذكر الطبرى أن طارقا ترضى موسى فرضى عنه وقبل منه عذره (ج ٨ ص ٩٠) .

(١) البرت أو البرتات محرفة عن الاسبانية Puerta، ومعناها الباب.

وسميت الجبال بهذا

الاسم لأنها تحتوى على خمسة أبواب أو ممرات طويلة كانت تستعمل للعبور والغزو.

وسنعود إلى

تفصيل ذلك.

أما تسميتها بجبال البرانس فهو خطأ جغرافى حسبما نوضح بعد.

٢١) ابن حيان مؤرخ الأندلس (نقله المقرى في نفح الطيب ج ١ ص ١٢٨) ، والبيان

المغرب (ج ٢ ص ١٤) .

ومعظم الروايات على أن موسى وقف في زحفه عند أربونة.

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧، ونفح الطيب ج ١ ص ١٣٠.

(٤) في الجغرافية العربية بلاد اللنبرد أو أنكبردية.

(٥٣/١)

متخنا في القبائل الجرمانية التي تسيطر على ضفافه، ثم يخترق أراضي الدولة

البيزنطية حتى قسطنطينية فيستولى عليها، ثم يعبر إلى آسيا الصغرى قاصدا إلى

دمشق فيصل بذلك أملاك الخلافة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب من طريق

الشمال، كما اتصلت من طريق الجنوب (١) .

ولم يك ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم، فقد كان الإسلام يومئذ في ذروة الفتوة والقوة والبأس، وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلت.

وكانت أمم الغرب من جهة أخرى يسودها الضعف والانحلال، وكانت مملكة الفرنج وهى أضخمها وأقواها يمزقها الخلاف والتفرق، وقد بدأ العرب غزوها بالفعل.

ولم تستطع النصرانية أن توحد جهودها لرد الإسلام، ولم تقم فيها زعامة قوية تجمع كلمتها وتنظم قواها في جهة دفاعية موحدة.

ولم تكن

أوربا في ذلك الحين سوى مزيج مضطرب من الأمم والقبائل المتنافرة، تمزقها المطامع والأهواء المختلفة.

فكان الإسلام يستطيع غزوها وفتحها.

ولم يكن حلما وإغراقاً ما تصوره موسى بن نصير واعتزمه.

ولكن سياسة الإحجام والتردد

التي اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح الغربية، والتي كادت تحول دون فتح اسبانيا، أودت بذلك المشروع البديع، وكتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى يحذره

من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة، ويأمره بالعود، فارتد موسى مرغما آسفا، ولكنه تمهل في العود حتى يتم إخضاع معاقل جليقية التي اعتصمت بها

فلول القوط، ويطهر اسبانيا بأسرها من كل خروج ومقاومة، فاخترق جليقية واستولى على معظم معاقلها، ومزق كل قوة تصدت لمقاومته، ولم يبق من النصارى

سوى شراذم يسيرة اجتمعت حول زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو، ولجأت إلى قاصية جليقية؛ وبينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها، إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقا، ويأمرهما بتعجيل العودة ولعل أقوى

البواعث
التي حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما نمى إليه من خلاف موسى
وطارق، وخوفه أن ينتهى هذا الخلاف، بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم في تلك
الأقطار

---

(١) Cardonne: ibid.
V.
I.
p.
٩٦ - ٩٧.
ويقول الفيلسوف جيبون تعليقا على هذا
المشروع إنه تمكن مقارنته بخطة مثراديتيس ليفتتح ما بين القرم ورومة، أو
خطة قيصر ليفتتح
المشرق ثم يعود من طريق الشمال.
ويفوق هذه المشاريع جميعا مشروع هانيبال الذى نفد بنجاح عظيم
(الفصل الحادى والعشرون) .



الجديدة المجهولة التي افتتحوها (١) .
أو لعله خوف الوليد أن يفكر موسى بما عرف
من طمعه ودهائه، في الاستقلال بذلك الملك الجديد النائى، وهو أفضل
تعليل
يقبله النقد الحديث ويرجحه.
وربما كان من هذه البواعث أيضا ما بلغ الوليد
عن وفرة الأموال والتحف التي اغتنمت من الأندلس، وخوفه أن تمتد إليها يد
التبديد.

ومهما كانت العوامل التي دفعت، الوليد إلى استدعاء فاتحى الأندلس، فلا ريب أنه كان خطراً على مستقبل الإسلام في اسبانيا.
ذلك أن هذه الشراذم
النصرانية الصغيرة التي نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية، لم تلبث أن
نمت وقويت، وكانت منشأ المملكة النصرانية التي قامت في الشمال، ولبثت قرونا تكافح دولة الإسلام في اسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها.
وفى ذلك الحين كان عبد العزيز بن موسى قد افتتح منطقة الساحل الواقعة بن مالقة وبلنسية، وأخمد الثورة في إشبيلية وباجة، وافتتح لبلة وغيرها من المعاقل والحصون، وأبدى في معاملة البلاد المفتوحة كثيرا من الرفق والتسامح، والاعتدال في تطبيق الأحكام وفرض الضرائب.
ولنا في معاهدته مع تيودمير خير
شاهد باعتدال السياسة الإسلاميقولهيها وتسامحها.
وإليك نص هذه المعاهدة، حسبما نقله إلينا الغزيرى في معجمه، نورده نموذجاً للوثائق السياسية الإسلامية
في عصر الفتح:
" نسخة كتاب الصلح الذى كتبه عبد العزيز بن موسى لتدمير عبدوش -
بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد العزيز إلى تدمير، أنه نزل على الصلح، وأنه
له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه، ولا أحد من النصارى عن أملاكه.
وأنهم لا يقتلون ولا يسبون، أولادهم ولا نساؤهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا تحترق كنائسهم ما تعبد ونصح، وأن الذى اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن، أوريوالة وبلنتلة ولقنت ومولة وبقسرّة وأنة ولورقة.
وأنه لا يأوى
لنا عدوا، ولا يخون لنا أمناً ولا يكتم خبرا علمه.
وأنه عليه وعلى أصحابه دينارا

(١) لم توضح الرواية الإسلامية أسباب هذا الاستدعاء.
ولكن الغزيرى نقل في معجمه عن
بعض أوراق مخطوطة في الإسكوريال في سبب الاستدعاء هذه الفقرة: " ولما
علم الوليد بن عبد الملك
ما حدث لطارق بن زياد وموسى بن نصير من الخلاف بعث فيهما فانصرفا
إلى المشرق ".
ويعتقد
الغزيرى أن الأوراق التي عثر بها ونقل منها هذه الفقرة إنما هى من تاريخ
الرازى لقرائن ذكرها.
راجع Casiri: ibid ; V.
II.
p.
٣٢٨



كل سنة، وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير، وأربعة أقساط طلاء، وأربعة
أقساط خل، وقسطى عسل، وقسطى زيت، وعلى العبد نصف ذلك.
كتب
في أربع من رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة.
شهد على ذلك..
.
الخ " (١) .
واتخذ موسى بن نصير أهبته للعود إلى دمشق نزولا على أوامر الخليفة.
فنظم حكومة الأندلس قبل رحيله ما استطاع، وجعل حاضرتها إشبيلية (٢)
لاتصالها بالبحر وكانت حاضرتها أيام الرومان، واختار لولايتها ولده عبد

العزيز، واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك، كا استخلف على
إفريقية
عبد الله أكبر أولاده.
وفى شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين (أغسطس ٧١٥ م)
قفل راجعاً إلى المشرق وطارق معه، وفي ركبه من نفيس التحف والغنائم
ما لا يقدر ولا يوصف، ومن أشراف السبى عدد عظيم (٣) .

---

(١) نقل الغزيرى هذا النص في معجمه عن بعض مخطوطات الإسكوريال،
وقرنه بترجمة
لاتينية (Casiri: ibid.
V II.
p.
١٠٥)
هذا وقد أورد لنا العذرى نصا آخر لهذا الأمان في كتابه " ترصيع الأخبار
وتنويع الآثار "؛
على نفس المدن السبعة، جاءت شروطه على النحو الآتى: " ألا يقدم ولا
يؤخر لأحد من أصحابه
بسوء، وأن لا يسبون، ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم، ولا يقتلون ولا
تحرق
كنائسهم، ولا يكرهون على دينهم؛ وأنه لا يدع حفظ العهد، ولا يحل ما انعقد،
ويصحح
الذى فرضناه عليه، وألزمناه أمره، ولا يكتمنا خبرا علمه، وأن عليه وعلى
أصحابه غرم الجزية
من ذلك على كل حر دينار..
الخ " ثم يلى ذلك شهود هذا الأمان " (راجع " نصوص عن الأندلس "
وهى عبارة عن أوراق منقولة من كتاب " ترصيع الأخبار " ومنشورة بعناية

الدكتور عبد العزيز
الأهوانى، وصادرة عن معهد الدراسات الإسلامية بمدريد – ص ٤ و٥) .
(٢) اقتبس العرب اسم " إشبيلية " من اسمها اللاتينى " هسبالى " Hispali،
ثم حرف الإسبان
هذا الاسم إلى " سفيليا " Sevilla، وهو الذى يطلق عليها في الجغرافية
الحديثة.
(٣) تفيض الرواية الإسلامية في وصف ما أصابه المسلمون في الأندلس من
الغنائم الجليلة
والسبى الذى لا يحصى.
وتقول إن موسى بن نصير حمل إلى دمشق من التحف والذخائر من الذهب
والدر والياقوت والزبرجد ما لا يقدر؛ منها مائدة سليمان السالفة الذكر؛ وأما
السبايا فيقال إنه
حمل منها ثلاثين ألفا، بينهم مئات من أشراف القوط والوصفاء المختارين،
من ذو الشباب الغض
والجمال الباهر ذكورا وإناثا.
وذكر ابن القوطية أن موسى بن نصير عاد ومعه من أبناء الملوك
والعجم أربعمائة، على رؤوسهم تيجان الذهب وفي أوساطهم مناطق الذهب
(ص ١٠) .
ونقل المقرى
عن بعض المؤرخين أن العرب وجدوا في طليطلة حين فتحوها من الذخائر
والأموال ما لا يحصى، فمن ذلك مائة وسبعون تاجا من الذهب الأحمر
مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الكريمة، ووجد فيها
ألف سيف ملوكى، ومن الدر والياقوت أكيال، ومن أوانى الذهب والفضة ما
لا يحيط به وصف
(نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ و١٣٥ و١٣٦) .

وقد اختلفت الرواية العربية في مصير موسى بن نصير، واختلف الرواة فى أمر لقائه بالخليفة؛ فقيل إنه وصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك، وقدم إليه الأخماس والغنائم؛ فأكرمه وأحسن إجازته، وقيل بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء سليمان بن عبد الملك أخيه عرش الخلافة، وأن سليمان غضب
عليه ونكبه (١) .
على أنه يمكن التوفيق بين القولين أعنى وفود موسى على الوليد
ابن عبد الملك ثم نكبته على يد سليمان.
وهنالك ما يرجح لدينا أنه لحق بالوليد
قبيل وفاته، فإن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواة فتوح الأندلس، يقول لنا إن موسى بن نصير مر بمدينة الفسطاط في أواخر شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين
في طريقة إلى دمشق (٢) .
وقد توفى الوليد في منتصف جمادى الآخرة من هذا العام
أعنى بعد وصول موسى إلى كل مصر بأكثر من شهرين ونصف.
ولما كانت مسافة
السفر بين الفسطاط ودمشق لا تتجاوز في هذا العصر بضعة أسابيع، فإن الوقت
كان يكفى لمقدم موسئ على الوليد قبل وفاته بأسابيع.
على أن الرواية من جهة
أخرى تكاد تجمع على أن سليمان سخط على فاتح الأندلس ونكبه.
ذلك أن موسى
وصل إلى الشام والوليد في مرض موته، فكتب إليه سليمان ولى العهد أن يتمهل

في السير، رجاء أن يموت الوليد بسرعة، فيقدم عليه في صدر خلافته بما
يحمل من
التحف والغنائم الكثيرة، فأبى موسى وجد في السير حتى قدم والوليد حى فسلم
إليه الأخماس والغنائم.
ثم توفى الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفا أخاه سليمان على
كرسى الخلافة.
فغضب سليمان على موسى، وزاد في حقده عليه، ما قدمه فى
حقه طارق ومغيث من مختلف التهم (٣) .
وفى الحال أمر، بعزله واتهمه وبنيه
باختلاس مقادير عظيمة من المال والتحف، وقضى عليه بردها، وبالغ في
إهانته
وتعذيبه، ثم ألقاه إلى ظلام السجن.
واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب
من نقمة سليمان.
وكان من أخصائه وذوى النفوذ عنده، فيروى أن يزيداً

---

(١) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١١) ، وصاحب
كتاب
الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٩٣ و٩٤) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٨١) .
ويقول بالرواية
الثانية ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٦) ، والحميدى في جذوة المقتبس (ص ٦)
، وابن خلدون
(ج ٤ ص ١١٨) .
(٢) فتوح مصر ص ٢١١.
(٣) أخبار مجموعة ص ٢٩.

قال له: " لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكائد الحروب ومدارة الدنيا.
فقل لى كيف حصلت في يد هذا الرجل بعد ما ملكت الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار، وتيقنت بعد المرام واستصعابه، واستخلفت بلاداً أنت اخترعتها، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك.
ثم إنك علمت
أن سليمان ولى عهد وأنه الوالى بعد أخيه، وقد أشرف على الهلاك لامحالة، وبعد
ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة، وأحقدت مالكك ومملوكك ".
وما زال
يزيد بسليمان حتى عفى عن موسى، وأعفاه من الغرامة الفادحة التي قضى بها عليه، ويقال بل عفا عن حياته، ولم يعفه من الغرامة، وإن موسى استطاع أن يفتدى
نفسه ببعض ما فرض عليه، وإن سليمان عفا عنه بعد ذلك (١) ، وأقر ابنه عبد الله
على إفريقية وابنه عبد العزيز على الأندلس.
وتبالغ بعض الروايات فتقول إن
سليمان أمير على معاقبة موسى وتغريمه، حتى كان يطوف أحياء العرب مع حراسه
ليسأل بعض المال ليفتدى نفسه، وإنه لبث على تلك الحال حتى توفى في منتهى
البؤس والذلة بوادي القرى في شمال الحجاز حيث ينسب مولده، وذلك سنة سبع وتسعين (٢) .

بيد أنه لا يوجد ما يبرر الأخذ بمثل هذه الرواية المغرقة.
والصحيح المعول
عليه أن سليمان عفا عن موسى، وأقاله من محنته؛ وتوفى موسى بعد ذلك بقليل
في سنة سبع وتسعين (وقيل في سنة تسع وتسعين) وهو في طريقه إلى الحج مع
سليمان، وقد جاوز الثمانين من عمره.

---

(١) هذه هى رواية ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١٣) .
وهى رواية يؤيدها البلاذرى
(فتوح البلدان ص ٢٣٠) .
(٢) يراجع في مصير موسى بن نصير: فتوح مصر (ص ٢١١) ، وأخبار مجموعة
(ص ٢٩ و٣٠) ، وابن القوطية (ص ١٠ - ١١) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٦) ، والمقرى عن ابن حيان وابن بشكوال والحجارى، (نفح الطيب ج ١ ص ١٣٤ و١٣٥) ، وابن
خلكان (ج ٢ ص ١٨١) ، وكذلك كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٨٦، ٨٩ و٩٣، ٩٦) .
هذا ويبدى المستشرق دوزى ريبه في صحة الروايات والقصص التي قيلت
عن مصير موسى بن نصير، ويقول إنه لا يوجد ثمة ما يبررها، لأن موسى
كان يتمتع بحماية يزيد بن المهلب صديق سليمان
وصاحب النفوذ لديه، ويستشهد برواية البلاذرى إلى أشرنا إليها، وأيضا برواية مؤرخ نصرانى
معاصر هو إيزيدور الباجى (Dozy, Hist.
V.
I.

.p
(١٣٤ - ١٣٥)

(٥٨/١)

هذا ما ترده الرواية الإسلامية عن مصير موسى بن نصير.
ومهما كان
من الأمر، فإن فاتح الأندلس لم يلق الجزاء الحقَ، بل غمط حقه وفضله
أشنع
غمط، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والنكران، أنها لم تقدر البطولة في هذا
الموطن قدرها، ولم تقدر عظمة الفتح الباهر الذى غنمته على يد رجلها
وقائدها.
وكان موسى بن نصير من أعظم رجال الحرب والإدارة المسلمين في القرن
الأول للهجرة.
وقد ظهرت براعته الإدارية في جميع المناصب اتتى تقلدها، كما ظهرت
براعته الحربية في جميع الحملات البرية والبحرية التي قادها.
على أن
هذه المواهب تبدو بنوع خاص في حكمه لإفريقية، حيث كانت الحكومة
الإسلامية تواجه شعباً شديد المراس، يضطرم بعوامل الانتقاض والفتنة، وإذا
كان موسى قد أبدى في معالجة الموقف وإخماد الفتنة كثيرا من الحزم والشدة،
فقد أبدى في الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب، وبراعة في سياستها
وقيادتها.
وكان موسى فوق مواهبه الإدارية والعسكرية غزير العلم والأدب، متمكنا من
الحديث والفقه، عالماً بالفلك مجيداً للنثر والنظم.
غير أن هذه
المواهب والخلال البديعة كانت تشوبها نزعة قوية إلى الطغيان والبطش،
وشهوة

الحقد والحسد (١) .
وإلى موسى بن نصير يرجع الفضل الأول في عبور الإسلام إلى أوربا من
الغرب وقيام دولته فيها، بعد أن اخفقت محاولته في العبور إليها من المشرق
عن
طريق قسطنطينية.
ومع أن سيل الفتح الإسلامى رد غير بعيد في سهول بلاط
الشهداء، فإن الإسلام استطاع مع ذلك أن يستتقر في إسبانيا قروناً، يبهر
بضوء
مدنيته الزاهرة جميع الأمم الأوربية في العصور الوسطى.
هذا ما كان من شأن موسى ومصيره، فماذا كان مصير طارق؟ هذا ما تمر
عليه الرواية الإسلامية بالصمت.
وكل ما هنالك أنها تشير إلى ما كان من نية
سليمان بن عبد الملك في تعيينه والياً للأندلس مكان موسى، وكيف عدل عن
ذلك
حينما وقف من مغيث الرومى فاتح قرطبة، على ماكان يتمتع به طارق في
الأندلس
من عظيم الهيبة والنفوذ، وذنك توجساً مما قد يجيش به من أطماع ومشاريع
نحو ذلك

---

(١) نفع الطيب (ج ١ ص ١٣٣ و١٣٤) .



القطر النائى من أقطار الخلافة (١) .
وقد كان مغيث يحقد على موسى وطارق منذ
الفتح ويسعى إلى منافستهما والإيقاع بهما، وكان لوقيعته ومساعيه ضدهما
أكبر

الأثر في استدعائهما إلى دمشق.
وإذا كانت هذه الرواية لا تلقى ضوءا كافيا
على مصير طارق، فإنها قد تسمح لنا مع ذلك أن نعتقد أن طارقاً لم يلق
مثل المصير
المحزن الذي لقيه موسى، وأنه بالعكس قد استقبل في بلاط دمشق استقبالا
حسناً، وربما أحسن الخليفة فوق ذلك إثابته، بدليل أنه فكر في تعيينه واليا
للقطر
الذى ساهم في افتتاحه بأعظم قسط.
ولكن الرواية الإسلامية لا تحدثنا بعد ذلك عن طارق بشىء، ولا تذكر
لنا أين ومتى توفى، بل تسدل على نهايته حجابا عميقا من الصمت (٣) .
وليس في وسعنا إزاء هذا الغموض الذي يحيط بسيرة طارق أن نتحدث
عن صفاته وخلاله، وكل ما نستطيعه في هذا الموطن هو أن ننوه بخلاله
العسكرية
الباهرة، التي ظهرت بوضوح في حروب المغرب وفتح الأندلس، وهو بهذه
الخلال يتبوأ مكانته بين أعظم الفاتحين المسلمين.
أما مصير الكونت يوليان الذي مهد لفتح الأندلس، فلم تشر إليه الرواية
الإسلامية.
وفى بعض الروايات أنه عاد بعد الفتح إلى سبتة وأقطع ما حولها من
الأراضي، وقُلد إمارتها جزاء خدماته.
ولكنه بقى نصرانيا هو وبنوه الأقربون، ثم دخل عقبه في الإسلام بعد ذلك.
وتقول الرواية الكنسية الإسبانية إنه قتل بيد
مواطنيه في معركة نشبت بينه وبينهم، أو أنه قتل بعد ذلك بأعوام في ولاية
الحر
الثقفى بيد العرب لريبة في ولائه.
وتقول هذه الرواية أيضاً إن العرب أعدموا
ابنى وتيزا وأفراد أسرته لمثل هذا السبب (٣) .

وهذا ما تنفيه الرواية الإسلامية

وتؤكد عكسه.

فالمصادر الإسلامية تجمع كلها على أن العرب أحسنوا معاملة

إيفا (أو إيبا) وسيزبوت ابنى وتيزا وعمهما أوباس؛ فأما أوباس فقد عين

كما تقدم مطراناً لطليطلة، وأقطع إيفا وسيزبوت ما كان لأبيهما من الضياع.

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٥.

(٢) ولا نعرف مصدرا لما يقوله السيد أمير على من أن طارقا لقى نفس

المصير التعس الذي

قيل إن موسى لقيه وأنه مات في فقر وضعة: p.

History of the Saracens ١٢٢

(٣) - Cronica General ; Vol.

II.

P.

٣٢٤.

Cardonne: ibid.

V.

I.

p.

٨٥

Gibbon, ibid.

Ch.

Scott: Moorish Empire, V - - Li.

I.

p.

٢٥٩

ثم توفى إيفا أكبر الأخوين بعد ذلك بأعوام عن إبنة تدعى سارة وولدين صغيرين، فاغتصب سيزبوت ميراثه وضياعه، فبادرت سارة بالسفر مع أخويها إلى دمشق، وشكت عمها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، فأنصفها وقضى لها برد ميراث أبيها، وبعث بذلك إلى والى الأندلس أبي الخطار الكلبى.

وتزوجت سارة في دمشق من سيد عربى يدعى عيسى بن مزاحم، ورزقت منه بولدين هما إبراهيم وإسحاق.

ثم عادت مع زوجها إلى الأندلس، وأحرز

ولداها، مكانة ممتازة.

وإليها ينتمى نسب ابن القوطية القرطبى المؤرخ، نسبة إلى

لقبها العربى وهو سارة " القوطية " (١) .

---

(١) تضطرب معظم الروايات العربية في ذكر ابناء وتيزا، فتقول إنه ترك ثلاثة بنين وتسميهم

المند ورملة وارطباس.

والظاهر أن الخطأ في اعتبارها أواباس (ولعله هو أرطباس) ابنا لوتيزا.

والمند هو إيفا ورملة هو سيزبوت.

(راجع فتح الأندلس لابن القوطية ص ٥ و٦) : والمقرى

(ج ١ ص ١٢٥) ، ولكن صاحب " أخبار مجموعة " يقرر أنهما اثنان.

وب يسميهما ششبرت وأبة، وهو تعريب حسن للاسمين (ص ٨) ، وكذا ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٣) .

الفصل الرابع

إسبانيا بعد الفتح الإسلامي

(١) آثار الفتح الإسلامى.

سياسة العدل والتسامح.

أقوال النقد الغربى الحديث في ذلك.

الحرية الدينية.

المجتمع الإسلامى الجديد.

عناصر الضعف فيه.

العرب والبربر والمولدون.

الخصومة بين اليمنية والمضرية.

أسباب هذه الخصومة.

رأى ابن خلدون في تعليلها.

الخصومة بين

العرب والبربر.

أثر دعوة الخوارج في إذكائها.

(٢) الأقاليم الأندلسية الجديدة.

تفرق القبائل

في المدن المختلفة.

منازل البربر في شبه الجزيرة.

ولاية عبد العزيز بن موسى.

تنظيمه للحكومة

الجديدة.

زواجه بأرملة ردريك.

التوجس من سياسته.

مقتله.

بواعث هذه الجريمة.

ولاية أيوب

ابن حبيب اللخمى.

نقل قاعدة الحكم إلى قرطبة.

ولاية الحر الثقفى.

قمعه للمنازعات والفتن.

غزوه

لسبتمانيا وافتتاحه لقواعدها.

محاربته لثوار الشمال.

الإضطراب في قرطبة.

ولاية السمح بن مالك.

فصل حكومة الأندلس عن إفريقية.

فكرة عمر بن عبد العزيز في جلاء المسلمين عن الأندلس.

إصلاحات السمح ومنشآته.

غزوه لسبتمانيا.

زحفه على تولوشة.

كان فتح الإسلام لاسبانيا فاتحة عصر جديد، وبدأ تطور عظيم في حياتها العامة وفي نظمها الاجتماعية.

وقد كانت لعهد الفتح كما رأينا ترزح في غمر مرهقة

من الجور والعسف، وكانت أقلية باغية من الأمراء والنبلاء تسود شعباً بأسره وتستغله أشنع استغلال، وتفرض عليه رسوم الرق والعبودية، وتستبيح منه كل الحريات والحرم.

فجاء الإسلام ليقضى على ذلك كله، وليحمل نعم العدل

والحرية والمساواة إلى الناس جميعاً، وليعطى كل ذى حق حقه، وليقمع البغى والظلم.

وبالرغم من أن العرب شغلوا حيناً بتوطيد الفتح الجديد وتوسيعه، فإنهم

استطاعوا في أعوام قلائل أن يقمعوا عناصر الشر والفوضى، وأن ينظموا

إدارة
البلاد المفتوحة، وأن يبثوا في الجزيرة روحا جديدا من العزم والأمل، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة بعد ركودها، وهبت ريح من الرخاء والدعة، على مجتمع أضناه العسف والفاقة مدى عصور.
قضى الفتح على سلطان الطبقات الممتازة، فتنفس الشعب الصعداء، وخف عن كاهله ما كان ينوء به من الأعباء والمغارم.
وفرض المسلمون الضرائب

(٦٢/١)

بالمساواة والاعتدال والعدل، بعد أن كان يفرضها حكم الهوى والجشع، وأمن الناس على حياتهم وحرياتهم وأموالهم.
وترك الفاتحون لرعاياهم الجدد حق اتباع
قوانينهم وتقاليدهم، والخضوع لقضائهم وقضاتهم، واختاروا في معظم الأحوال لهم حكاما من أبناء جنسهم، يعهد إليهم بسن الضرائب المطلوبة، والإشراف على
النظام والسكينة.
أما في شأن الدين وحرية العقائد والضمائر، فقد كانت السياسة الإسلامية مثلا أعلى للتسامح.
فلم يظلم أحد أو يرهق بسبب الدين أو الاعتقاد، وكان أداء الجزية هو كل ما يفرض على الذميين من النصارى أو اليهود، لقاء
الاحتفاظ بدينهم وحرية عقائدهم وشعائرهم.
ومن دخل الإسلام منهم سقطت
عنه الجزية، وأصبح كالمسلم سواء بسواء في جميع الحقوق والواجبات.
ونرى
في هذا الموطن أن نقدم طائفة من الأقوال والآراء التي يعلق بها المؤرخون والنقدة

الغربيون، على سياسة الفتح الإسلامى وآثاره في اسبانيا.
يقول العلامة المستشرق
رينهارت دوزى:
" لم تكن حال النصارى في ظل الحكم الإسلامى مما يدعو إلى كثير من
الشكوى
بالنسبة لما كانت عليه من قبل.
أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يتحلون بكثير
من التسامح.
فلم يرهقوا أحداً في شؤون الدين.
ولم تكن الحكومة – إذا لم تكن
مغرقة في الدين – لتشجع إسلام النصارى، إذ كانت خزانة الدولة تخسر
بإسلامهم
كثيرا.
ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم
وعدلهم، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج وانقضى القرن الثامن كله
في سكينة، وقلما نشبت فيه ثورة.
كذلك لم يبد رجال الدين في العصور الأولى كثيراً
من التذمر، وإن كانت لديهم أكثر البواعث لذلك.
وهذا ما تؤيده روح
الرواية اللاتينية التي كتبت سنة ٧٥٤ في قرطبة، والتي تنسب لإيزيدور
الباجى، فإن كاتبها رغم كونه من رجال الدين، يبدى نحو المسلمين من
العطف، ما لم يبده
أى كاتب إسبانى آخر قبل القرن الرابع عشر ".
ويواصل دوزى عن آثار الفتح
الإجتماعية: " كان الفتح العربى من بعض الوجوه نعمة لإسبانيا.
فقد أحدث فيها

ثورة إجتماعية هامة، وقضى على كثير من الأدواء التي كانت تعانيها البلاد منذ
قرون..
وحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى، ووزعت الأراضي توزيعاً كبيرا، فكان ذلك حسنة سابغة، وعاملا في ازدهار الزراعة إبان الحكم العربي.
ثم كان الفتح عاملا في تحسين أحوال الطبقات المستعبدة،

(٦٣/١)

إذ كان الإسلام أكثر تعضيداً لتحرير الرقيق من النصرانية، كما فهمها أحبار المملكة القوطية.
وكذا حسنت أحوال أرقاء الضياع، إذ غدوا من الزراع
تقريبا، وتمتعوا بشىء من الإستقلال والحرية " (١) .
ويقول الأستاذ لاين بول: ا" أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة العصورالوسطى، بينما كانت أوربا تتخبط في ظلمات الجهل، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية ".
" ماكان المسلمون كالبرابرة من القوط أو الوندال، يتركون وراءهم الخراب والموت.
حاشا، فإن الأندلس لم تشهد قط أعدل وأصلح من حكمهم.
ومن
الصعب أن نقول أنى اكتسب العرب تلك الخبرة الفائقة بالشئون الإدارية، فقد خرجوا من الصحراء إلى الغزو، ولم يفسح لهم تيار الفتح مجالا يدرسون فيه إدارة الأمم المفتوحة " (٢) .
ويقول المستشرق الإسباني جاينجوس: " لقد سطعت في اسبانيا (الأندلس) أول أشعة لهذه المدنية، التي نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية.

وفى مدارس قرطبة وطليطلة العربية، جمعت الجذوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء، وحفظت بعناية.
وإلى حكمة العرب، وذكائهم، ونشاطهم، يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها " (٣) .
رقال المؤرخ الأمريكى سكوت: " في أقل من أربعة عشر شهراً، قضى

---

(١) Dozy: Histoire, V.
II, p.
٢٧٧ - ,٢٧٨
ويذكر دوزى من جهة أخرى أن الفتح أعقبته
فترة من الفوضى نهب فيها المسلمون عدة أماكن، وأحرقوا عدة مدن وشنقوا بعض الأشراف، وقتلوا الأطفال بالخناجر، ولكن الحكومة العربية قمعت في الحال هذه الفظائع (ج ٢ ص ٢٧٥) .
ويندد من جهة أخرى بقضاء العرب على حرية الكنيسة، واستئثارهم بتكوين المجالس الدينية، وتعيين
الأساقفة وعزلهم.
ثم يقول إن العرب بعد أن توطد سلطانهم، كانوا أقل احتراما للمعاهدات المعقودة
(ج ٢ ص ٢٨١) .
ونقول نحن إن دوزى لم يعتمد في سرد هذه الفظائع إلا على الرواية النصرانية وهى
متحاملة مغرضة تحمل طابع المبالغة، خصوصا فيما يتعلق بقتل الأطفال. أما تنديده بقضاء العرب على
سلطة الكنيسة فليس مما يمكن تبريره، لأن سياسة الفتح المستنيرة، وبواعث توطيد دعائم الدولة
الجديدة، تقضى بأن يأخذ الغالب بزمام كل السلطات ق البلد المفتوح.

(٢) Lane - Poole: The Moors in Spain, Ch.
I
(٣) P.
Gayangos: History of the Mohammedan Dynasties in
Spain V.
I.
p.
VIII & VII

(١/٦٤)

على مملكة القوط قضاء تاما، وفي عامين فقط وطدت سلطة المسلمين فيما
بين
إلبحر الأبيض المتوسط وجبال البرنيه.
ولا يقدم لنا التاريخ مثلا آخر اجتمعت
فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت في هذا الفتح..
.
وقد كان المظنون
في البداية أن الغزو إنما هو أمر مؤقت فقط.
ولم يتوقع أحد أن يكون احتلال
البلاد دائما.
فلما استقرت الجماعات المستعمرة، وفتحت الثغور لتجارة المشرق، وأقيمت
المساجد، أدرك القوط فداحة الخطب الذى نزل بهم.
ولكن اعتدال
حكامهم الجدد خفف من ألم الهزيمة.
وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس.
وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل، كمكا يسمح للملحد

أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة، والأحبار يزاولون شؤونهم في سلام.
أما أقوال الكتاب النصارى التي ينسبون فيها للعرب أفظع المثالب، فهى
محض
مبالغة أو افتراء " (١) .
أجل، لم يك ثمة ما يدعو لأن يعتبر الفتح الإسلامى لاسبانيا كارثة قومية
يفزع لها الشعب ويأسو، بل كان كل ما هنالك بالعكس يدعو إلى اعتباره نذير
الخلاص والأمل.
ألم يكن شعار الفاتحين التسامح والعدل والمساواة؟ لقد كان
تسامح الإسلام نبراساً يشع بضوئه المنقذ في هاتيك المجتمعات التي أضناها
الإرهاق
الدينى، ولم ير الإسلام بأساً من أن يستقبل النصارى واليهود إلى جانب
المسلمين
في مجتمع واحد، يسوى فيه بينهم في جميع الحقوق والواجبات، ولم ير بأساً
من
أن تقوم الكنائس والبيع إلى جانب المساجد، ألم يكن ذلك أبدع وأروع ما فى
سياسة الفتح الإسلامى؟ لقدكانت حرية الضمائر رالعقائد والفكر، وما زالت
منذ
أقدم العصور لا أثمن ما تحرص عليه الشعوب الكريمة وتذود عنه.
فإذا ذكرنا أن هذا التسامح الذى أبداه الإسلام نحو الأمم المغلوبة، وهذا
الاحترام لضمائر الناس وعقائدهم، وهذه الحرية التي تركها لهم في إقامة
شعائرهم، إنما جاءت بعد عصور طويلة من الاضطهاد الدينى، اتخذت فيها
مطاردة الضمائر
والعقائد أشنع الأساليب والصور، استطعنا أن نقدر ما كان لذلك الانقلاب من

---

(١) Scott: ibid, V.
I.

.p

.٢٦٤ & ٢٦٠

وينوه باحث أمريكى حديث آخر هو الدكتور

لى Lea بتسامح العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى، وترفعهم عن

الخصومات الدينية، وبغض

الأجناس أو التفرقة بينها.

راجع: History of the Inquisition in Spain V.

.I

.p

٣٥٦

*(٦٥/١)*

أثر عميق في نفسية الشعوب المغلوبة وعواطفها، وما كانت تحبو به حكم

الإسلام

من التأييد والرضى.

ويبدى كثير من العلماء الإسبان أنفسهم مثل هذا التقدير، والإشادة باعتدال

السياسية الإسلامية وآثار مسلكها المستنير.

ذلك أن العرب تركوا الشعب المغلوب

دون مضايقة، يحيا حياته الخاصة في نظمه وتقاليده.

وهذا ما يسلم به المستشرق

سيمونيت، بالرغم من كونه من أشد العلماء الإسبان تحاملا، فهو يقول لنا "

إنه

فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية، فإن النصارى الإسبان احتفظوا في

ظل حكم

الإسلامى بنوع من الحكومة الخاصة، واحتفظ الناس بأحوالهم القديمة دون

تغيير

كبير، وفيما يتعلق بالتشريع، فإنهم قد احتفظوا في باب النظم الكهنوتية بقوانين
الكنيسة الإسبانية القديمة، واحتفظوا في الناحية المدنية بالقوانين القوطية أو قانون
التقاضى " Fuero Juzgo "، يخضعون لها في كل ما له علاقة بحكومتهم. وهى
حكومة بلدية محلية، وما لم يكن يتعارض مع القوانين والسياسة الإسلامية " (١) .
وفيما يتعلق بالناحية النظامية يقول العلامة ألتاميرا، إن أغلبية الشعب
الإسباني الرومانى والقوطى بقيت في ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائها (وهم
الأقماط أو الكونتات Condes) وقضائها وأساقفتها وكنائسها، وبالجملة بقيت
محتفظة بما يشبه استقلالها المدنى الكامل.
وقنع الولاة بأن يفرضوا في النصارى
المحكومين الضرائب الشرعية " (٢) .
ويقول المستشرق كارديناس: " إن الفضل يرجع إلى تسامح الولاة والأمراء
الأوائل، في أنه خلال العصور الأولى من الحكم الإسلامى، كان الشعبان
– المسلمون والمستعربون (النصارى) – يعيشان جنباً إلى جنب عيشة حرة ".
" واستطاع المستعربون في ظل الحكم الإسلامى أن يحتفظوا باستقلالهم،
ولغتهم وعاداتهم وقوانينهم، وأحياناً بأساقفتهم وكونتاتهم، وأن يسهروا على
صيانة الفنون القوطية التي كان العرب أنفسهم يقتبسون من أساليبها " (٣) .

---

(١) D.
Francisco J.
Simonet: Historia de los Mozarabes de Espana
V.

.I

.p

.١٠٦

(Madrid 1897)

.R (٢)

Altamira y Crevea: Historia de Espana y de la Civilizacion

.T "Barcelona 1900" Espanola

.I

.p

.٢١٧

.O (٣)

Almagro y Cardenas: La Cultura Arabigo - Sevillana

"Sevilla 1894"

.p

.١٠

*(٦٦/١)*

ونكتفى بما تقدم من أقوال المؤرخين والمفكرين الغربيين في الإشادة باعتدال السياسة الإسلامية وتسامحها.

وفى أقوالهم أبلغ رد على ما ينسبه بعض الأحبار

والعلماء المتعصبين لحكم المسلمين، من ضروب التعصب والطغيان المدنى والدينى.

غير أن هذا الدولة الجديدة التي أنشأها الإسلام في اسبانيا، كانت تحمل منذ البداية جرثومة الخلاف الخطر.

وكان هذا المجتمع الجديد الذى جمع الإسلام

شمله ومزج بين عناصره، يجيش بمختلف الأهواء والنزعات، وتمزقه فوارق

الجنس والعصبية.
كانت القبائل العربية ما تزال تضطرم بمنافساتها القديمة الخالدة، وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش، يبغضون قادتهم ورؤساءهم العرب، وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطةّ والمغانم الكبيرة، واحتلالهم لمعظم القواعد والوديان الخصبة، وكثيراً ما رفعوا لواء العصيان والثورة.
وكان المسلمون الإسبان وهم
" المولدون أو البلديون " (١) محدثين في الإسلام، يشعرون دائماً بأنهم رغم إسلامهم، أحط من الوجهة الاجتماعية، من سادتهم العرب.
ذلك أن العرب رغم
كون الإسلام يسوى بن جميع المسلمين في الحقوق والواجبات، ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات، كانوا يشكون في ولاء المسلمين الجدد، ويضنون عليهم بمناصب الثقة والنفوذ، هذا إلى أن العربى في الأقطار القاصية التي افتتحها
بالسيف، لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس، التي كانت دائما من خواص
طبيعته، فكان مثل الإنكليزى السكسونى يعد نفسه أشرف الخليقة (٢) .
على أن
الخلاف بن العرب أنفسهم كان أخطر ما في هذا المجتمع الجديد من عوامل التفكك
والانحلال، فقدكانت عصبية القبائل والبطون، ما تزال قوية حية في الصدور، وكان التنافس على السلطان والرياسة بن الزعماء والقادة، يمزق الصفوف ويجعلها
شيعا وأحزاباً، وكانت عوامل الغيرة والحسد تعمل عملها في نفوس القبائل والبطون المختلفة.
وأشد ما كانت تستعر نار ذلك الخلاف والتنافس بين اليمنية
والمضرية، وذلك لأسباب عديدة ترجع إلى ما قبل الإسلام.

منها أن الرياسة كانت
لعصور طويلة قبل الإسلام في حمير وتُبع، أعظم القبائل اليمنية، وكانت لهم دول
ومنعة وحضارة زاهرة، بينما كانت مضر بدوا متأخرين يخضعون لحمير ويؤدون

---

(١) ابن القوطية - افتتاح الأندلس - ص ٣٠.
(٢) Ameer Ali: ibid, p.
١١٨

(٦٧/١)

الجزية لهم.
وكان بينهما خصومات وحروب مستعرة طويلة الأمد، إذ كانت
حمير تعمل للاحتفاظ برياستها وسلطانها، وتجاهد مضر في سبيل استقلالها وحريتها.
ولنا في " أيام " العرب ووقائعها المشهورة، أمثلة رائعة من هذا النضال. قال
ابن خلدون: " واستمرت الرياسة والملك في هذه الطبقة اليمانية أزمنة وآماداً،
مما كانت صبغتها لهم من قبل، وأحياء مضر وربيعة تبعاً لهم - فكان الملك بالحيرة
للخم في بني المنذر، وبالشام لغسان في بني جفنة، ويثرب كذلك في الأوس والخزرج.
وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا ظواعن بادية وأحياء ناجعة.
وكانت في بعضهم رياسة بدوية وراجعة في الغالب إلى أحد هؤلاء. ثم نبضت
عروق الملك، وظهرت قريش على مكة ونواحى الحجاز، أزمنة عرفت فيها

منهم
ودانت الدول بتعظيمهم.
ثم صبغ الإسلام أهل هذا الجيل، فاستحالت صبغة
الملك إليهم وعادت الدول لمضر من بينهم، واختصت كرامة الله بالنبوة بهم،
فكانت فيهم الدول الاسلامية كلها، إلا بعضاً من دولها قام بها العجم اقتداء
بالملة
وتمهيداً للدعوة " (١) .
وهكذا أسفر النضال لظهور الإسلام عن تحول في الرياسة، إذ انتهت إلى
قريش زعيمة المضرية، بعد أن لبثت عصوراً طويلة في اليمنية، وانقلبت
الآية، فأصبحت المضرية تعمل على الاحتفاظ برياستها، واليمنية تجاهد
في انتزاعها منها.
وكانت مسألة اللغة أيضاً من أسباب ذلك الخلاف.
ذلك أن
لسان حمير، كان أصل اللغة العربية التي اعتنقتها مضر، وأسبغت عليها
آيات باهرة
من الفصاحة والبيان، ونزل بها القرآن الكريم على النبى القرشى المضرى
صلى الله عليه وسلم، فكانت
اللغة من مفاخر مضر، تغار عليها وتحافظ على سلامتها ونقائها، بينما
فسدت لهجات
القبائل الأخرى بالاختلاط وضعف بيانها.
وفى ذلك قول ابن خلدون: " ولهذا
كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها، لبعدهم عن بلاد العجم من
جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان
وبنى أسد وتميم.
وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وأياد وقضاعة
وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة

الملكة

بمخالطة الأعاجم " (٢) .

أضف إلى هذا وذاك ما كان بين الفريقين من تباين شديد

---

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٣٩ و ٢٤٠.

(٢) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ٤٨٧.

*(٦٨/١)*

فى الطبائع والخلال، مما كان يذكى بينها أسباب النفور والتباعد.

وقد كان

الإسلام مدى حين عاملا قوياً في جمع الكلمة، وتوطيد الصفوف، وتلطيف أسباب الخصومة، ولاسيما في شبه الجزيرة العربية.

ولكن ما كاد ينقضى العصر

الأول، حتى هبت كوامن الخصومة والنضال من مرقدها، وعادت تعصف بوحدة المجتمع الإسلامى، وكان هذا الخلاف أخطر وأشد في الأقطار

القاصية التي

افتتحها الإسلام، ففتحت أمام القبائل والأجناس الختلفة، التي تعمل معا تحت لوائه، مجالا واسعا للتنافس والتطاحن.

وكان هذا هو بالأخص شأن المجتمع

الإسلامى المضطرم المتنافر، الذى قام عقب الفتح في اسبانيا.

وكانت إفريقية وهى أقرب قطر إسلامى لإسبانيا، وتتبعها حكومة الأندلس من الوجهة الإدارية، تفيض أيضاً بعناصر اضطراب خطرة.

فقد نزح إليها

الدعاة الخوارج منذ أواخر القرن الأول، وذاعت مبادئ الخوارج الثورية بن البربر بسرعة، لحداثة عهدهم بالإسلام، وتعددت نحلهم وطوائفهم، واشتد الخلاف والجدل فيما بينهم، وفسد من جهة أخرى مابينهم وبين العرب من

علائق

الإخاء والمودة، وكثر نزوعهم إلى الثورة.

وهذا ما يصفه ابن خلدون في قوله:

" ثم نبضت فيهم (أى البربر) عروق الخارجية، فدانوا بها، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق، وتعددت طوائفهم، وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية.

وفشت هذه البدعة، وعقدها رؤوس النفاق من العرب، وجرت

إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاء على الأمر، فاختلفوا في كل جهة، ودعوا

إلى قائدهم طغام البربر، تتلون عليهم مذاهب كفرها، ويلبسون الحق بالباطل فيها، إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائسها.

ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمر

العرب " (١) .

واشتد تحريض الخوارج على حكومة الأمويين في إفريقية، بعد

أن أخفقوا في مقاومتها في العراق، وتوالت الثورات والحروب الأهلية حينا.

وكان لذلك كله صداه في اسبانيا، وخصوصا بن البربر الذين يتألف منهم معظم

الجيش، فاضطرب أمر الحكم والنظام في الأندلس، وذكا الخلاف بين الزعماء

والقادة على نحو ما قدمنا، ولبثت حكومة اسبانيا العسكرية مدى حين عرضة للخروج والثورة، وذهب ضحية الفتنة جماعة من الحكام والزعماء كما نفصل بعد.

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠.

عنى الفاتحون عقب الفتح بتنظيم شؤون الحكم والإدارة، فقسمت اسبانيا على ضوء تقسيمها القديم أيام الرومان والقوط، في المبدأ، إلى أربع ولايات كبيرة على رأس كل منها حاكم محلى يعينه الحاكم العام، ويُسئل أمامه مباشرة عن أعماله وشئون إدارته.

أما حاكم الأندلس أو واليها العام، فكان تعيينه فى

المبدأ راجعا إلى حاكم إفريقية يختاره بموافقة الخليفة.

وكانت الولاية الأولى تشمل إقليم الأندلس، الممتد بين البحر المتوسط ونهر الوادي الكبير، وما يلى هذا النهر حتى نهر وادي أنة أو وادي يانة، وأشهر مدنها

قرطبة، وإشبيلية، ومالقة، وإستجة، وجيان.

وتشمل الثانية جميع اسبانيا الوسطى، من البحر المتوسط شرقا إلى حدود البرتغال غربا (لوزيتانيا) ، ثم إلى نهر دويره

(دورو) شمالا، وأشهر قواعدها طليطلة، على نهر تاجُه، وقونقة وشقوبية، وبلنسية، ودانية، ولقنت، وقرطاجنة، ومرسية، ولورقة، وبسطة.

وتشمل

الثالثة جليقيةولوزيتانيا (البرتغال القديمة) ، وأشهر قواعدها ماردة، ويابرة، وباجة، وأشبونة، وقلمرية، ولك، وأسترقة، وشلمنقة وغيرها.

وتمتد

الرابعة من نهر دويره إلى جبال البرنيه (جبال البرت أو الممرات) على ضفتى نهر إبره (إيبرو) ، وغربا إلى جليقية.

وأشهر قواعدها سرقسطة، وطرطوشة، وطركونة، وبرشلونة، وأرقلة (أرجل) ، وبلد الوليد، ووشقة، وببشتر

وغيرها.

ولما اتسع نطاق الفتوح الإسلامية شمالا، أنشئت ولاية خامسة شمالى جبال البرنيه شاملة لأربونة، ونيمة (أونومشو) ، وقرقشونة، وبزييه، وأجده، وماجويلون (أو مقلون) ، ولوديف (١) .

ففى هذه الولايات والقواعد الجديدة تفرقت القبائل والعشائر المختلفة، فنزلت قبائل دمشق بكورة قرطبة، وحمص بإشبيليقولبلة وأنحائهما، وقنسرين بجيان وأنحائها، وفلسطين بشذونة والجزيرة وريُّه ومالقة وأنحائها، وقبائل اليمن بطليطلة
وأراضيها، ونزل الفرس بشريش وأحوازها، والعراقيون، بكورة البيرة (غرناطة) ،

---

(١) يقدم لنا أبو عبيدة البكرى في وصفه للأندلس تفصيلا لهذا التقسيم، ويسميه تقسيم
قسطنطين.
وهو يقوم على تقسيم اسبانيا إلى ست وحدات إدارية، تقترب في أوضاعها مما ذكر.
(راجع الروض المعطار - الترجمة الفرنسية ص ٢٤٦) .

*(٧٠/١)*

والمصريون بتدمير وماردة وأشبونة وأراضيها، واستقر الحجازيون بالقواعد الداخلية (١) .
وأما البربر فقد نزل أغلبهم بالأطراف الغربية في نواحى ماردة وبطليوس وأراضي البرتغال، ونواحى الثغر الأوسط شمالى طليطلة فيما وراء نهر التاجُه، وفى
يعض أنحاء الثغر الأعلى، وفي قطاع قونقة والسهلة، ونزلت أقليات منهم بين
القبائل العربية، بنواحى شاطبة ولقنت، وفي أحواز شذونة وأراضي الفرنتيرة (٢) .
ويلاحظ من الناحية الإقليمية، أن القبائل العربية قد احتلت معظم البقاع والوديان الخصبة في شبه الجزيرة، وأن البربر نزلوا أو بعبارة أخرى أنزلوا بالعكس في معظم الأقاليم والهضاب القاحلة، ولم يحتلوا من البقاع الخصبة

سوى
القليل.
وقدكان هذا التقسيم المجحف للأقاليم المفتوحة عاملا آخر في ازدياد الشقاق
بين العنصرين الفاتحين – العرب والبربر –.
وسنرى فيما بعد كيف كان استقرار
البربر في تلك الأطراف الوعرة النائية، من العوامل التي شجعتهم على تحدى
السلطة
المركزية، ورفع لواء الثورة من آن لآخر.
وقد ذكرنا أن موسى بن نصير قبل رحيله إلى المشرق في شهر ذى الحجة
سنة ٩٥، اختار ولده عبد العزيز لولاية الأندلس، فكان أول ولاتها من
المسلمين، وأنه استخلف ولده عبد الله في ولاية إفريقية، وأن سليمان بن عبد
الملك
أقر هذا الاختيار.
فقضى عبد العزيز بن موسى في ولايته زهاء عامين عنى فيهما
بتحصين الثغور، وقمع الخروج والعصيان، وافتتح عدة أماكن وحصون،
وأبدى همة في تنظيم الحكومة الجديدة وإدارتها، وأنشأ ديوانا لتطبيق الأحكام
الشرعية وتنسيقها، لتوافق مشارب الرعايا الجدد، ولتجمع حولها كلمة
المسلمين
من مختلف القبائل، وشجع الزواج بين العرب والإسبان، وتزوج هو بالملكة
إيجلونا (٣) أرملة ردريك ملك القوط، واختار في إشبيلية عاصمة، الأندلس

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٩.
(٢) يقدم لنا ابن حزم في كتاب " الجمهرة " بيانا مفصلا عن القبائل والبطون
البربرية التي
نزلت في شبه الجزيرة، والنواحى التي نزلت بها.
راجع " جمهرة أنساب العرب " (القاهرة)

ص ٤٦٤، ٤٦٥.
(٣) ويسميها العرب " إيلة " أو أم عاصم.
وقال الواقدى، ونقله ابن عبد الحكم، إنها كانت
ابنة ردريك لا زوجته (أخبار مصر ص ٢١٢) ، وكذا ورد في البيان المغرب
(ج ٢ ص ٢٢) .

*(٧١/١)*

الجديدة، دير " سانتا روفينا " ليكون مقاما له ولزوجه، وفيه أجريت أول
تعديلات على الطراز العربى، ووفد عليه المهاجرون من مصر والشام
والعراق
وفارس، فأحيوا بالجزيرة سبل الزراعة والصناعة والتجارة.
ولكنه لم يستطع
أن يوفق بين مختلف القبائل، ولا أن يهدىء من فورة الجند.
هذا إلى ما ثار من
ريب حول مقاصده ونياته، بانقياده إلى زوجه، واتخاذه نوعاً من رسوم الملك،
حتى قيل إنه تنصر، وقيل إنه كان يبغى الملك ويسعى إليه بتحريض زوجه،
ويعمل للاستقلال بإسبانيا (١) .
وهذا ما يراه المستشرق سيمونيت، إذ يقول إن عبد العزيز بن موسى كان
يدبر مشروعا يرمى إلى الاستقلال بإسبانيا، والى أن يؤسس مملكة أو إمارة
مستقلة فوق أنقاض المملكة القوطية، وقد كان مما يدفعه إلى هذا العزم،
فضلا
عن طموحه الشخصى، تحريض زوجه إيجلونا، التي كانت تضطرم رغبة فى
استرداد تاجها القديم، وأسباب أخرى تتعلق بالسياسة العليا.
ولم يكن يخفى عليه
أن سلطان خلفاء المشرق، غدا قاصراً عن أن يسيطر على هذا القطر
الغربى، الذى كان سكانه الوطنيون أقل انحطاطا من الأمم الأخرى التي

فتحها المسلمون، والذى كان يقدم إلى الفاتحين بعدده وحضارته مزية عظيمة
. (٢)
وبالرغم من أنه
ليست لدينا أدلة حاسمة على مشروع عبد العزيز بن موسى في الاستقلال
باسبانيا، فإنه يبدو ممكنا ومعقولا في الظروف التي كانت تجوزها اسبانيا
يومئذ.
وعلى أى
حال، فإن خصومه شنوا عليه وعلى تصرفاته دعاية قوية انتهت بالثورة،
فوثب
به جماعه من الجند على رأسهم وزيره حبيب بن أبي عبدة الفهرى، وقتلوه
أثناء
صلاته بأحد مساجد إشبيلية، وذلك في رجب سنة ٩٧ (يناير ٧١٦ م) ،
وبعثوا
برأسه إلى دمشق.
ومن المرجح أن يد الخلافة لم تكن بعيدة عن هذه المؤامرة، وأن سليمان بن
عبد الملك هو روحها والمحرض عليها، فمن المعقول أن يتوجس
سليمان ريبة من عبد العزيز ومقاصده، بعد الذى أنزله بأبيه موسى، وأن يرى
التخلص منه وسيلة لتأمين الخلافة على سلطانها في ذلك القطر الجديد.
وفى اهتمام

---

(١) ابن الأثير، ج ٥ ص ٨.
وراجع C.
.Julian: ibid, p
٧٧٨
(٢) F.
J.

.Simonet: Historia de los Mozarabes de Espana, Vol
.I
.p
١٤٧

(٧٢/١)

الجناة بإرسال رأس القتيل إلى دمشق اتهام واضح للخليفة.
وقد عزل سليمان، عبد الله بن موسى بن نصير عن إفريقية، في نفس الوقت.
الذى قتل فيه عبد العزيز، وهو ما يؤيد هذا الفرض.
أيضا.
والواقع أن أكثر من رواية إسلامية وثيقة يلقى
تبعة هذه الجريمة على سليمان، ويتهمه البعض صراحة بأنه مدبرها، بل لقد
ذهب
بعضهم إلى القول بأن سليمان لم يكتف بأن حمل الجناة إليه رأس عبد
العزيز، وأنه
عرضها على أبيه موسى زيادة في إيلامه والتشفى منه (١) ، على أن
سليمان لم يعدم
من الرواة من يبرئه من ارتكاب هذه الجريمة، فقد ذكر لنا صاحب " أخبار
مجموعة " أن سليمان أسف لمقتل عبد العزيز، أو بعبارة أخرى أنه برىء من
تبعة
مقتله، وهى الرواية الوحيدة من نوعها، وهى رواية ظاهرة الضعف (٢) .
وعلى أثر مقتل عبد العزيز، اتفق الزعماء في إشبيلية على تولية أيوب بن
حبيب
اللخمى، وهو ابن أخت موسى بن نصير، وكان عاقلا صالحا، فهدأت
الخواطر
نوعاً، ولبث في ولايته ستة أشهر نقلت خلالها قاعدة الحكم من إشبيلية إلى

قرطبة
باتفاق الجماعة (٣) .
ثم أقاله محمد بن يزيد الذى خلف عبد الله بن موسى فى
ولاية إفريقية، وعين لولاية الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفى، فقدمها فى
ذى الحجة سنة ٩٧ في جماعة كبيرة من وجوه إفريقية.
وأنفق الحر صدر ولايته
في قمع الفتن والمنازعات التي كانت قائمة بين العرب والبربر، وإصلاح
الجيش، ومطاردة الخوارج والمعتدين من الجند، وتنظيم الإدارة وتوطيد الأمن،
وكان
صارماً جائراً شديد الوطأة.
ثم سار نحو الشمال في جيش ضخم ليستعيد المدن
والحصون الشمالية التي غزاها المسلمون من قبل، فعبر جبال البرنيه واخترق
ولاية
سبتمانيا (٤) أو لانجدوك في ربيع سنة ٧١٨ (٩٩هـ) ، وكانت مدن سبتمانيا
قرقشونة

---

(١) راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٢ و٢١٣؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٢
و٢٣؛ وابن
الأثير ج ٥ ص ٨، وابن القوطية (ص ٤١) وهو صريح في أن سليمان هو
الذى دبر الجريمة
وعهد بتنفيذها إلى جماعة معينة من الجند، وابن خلدون وهو صريح أيضا
في أن الجريمة تمت
بتحريض سليمان (ج ٤ ص ١١٨) .
(٢) راجع أخبار مجموعة ص ٢٢.
(٣) وهناك رواية أخرى في أن الذى نقل قاعدة الحكم إلى قرطبة هو الحر
الثقفى، راجع

البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤ و٢٥، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٦.
(٤) سميت كذلك لاحتوائها على المدن السبعة أربونة وقرقشونة وأجدة وبيزييه
ولوديف
ونيمة وماجويلون.

(٧٣/١)

وأربونة وبزييه ونيمة تابعة لمملكة القوط، وكانت تخلفت عن الطاعة بعد أن
غزاها المسلمون لأول مرة بقيادة موسى بن نصير على نحو ما قدمنا.
فافتتحها
الحر واستولى عليها، وتابع زحفه حتى ضفاف نهر الجارون.
ولكنه اضطر أن
يعود أدراجه، إذ علم أن النصارى في منطقة نافار الجبلية (نبره أو بلاد
البشكنس) ، قد نظموا حركة مقاومة خطيرة، وأن الأمور قد اضطربت فى
قرطبة.
وكان النظام قد اختل، وعادت المنازعات والدسائس تعمل عملها، فى تقويض
الأمن والسكينة، فأنفق الحر حينا آخر في قمع الفتنة، حتى عزله
أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، في منتصف سنة مائة لقسوته وصرامته،
واضطراب النظام في عهده، فكانت ولايته سنتان وثمانية أشهر، سادت فيها
القلاقل والفتن.
واختار عمر بن عبد العزيز لولاية الأندلس السمح بن مالك الخولانى.
وقرر
أن تكون الأندلس ولاية مستقلة عن إفريقية تابعة للخلافة مباشرة، لما رآه من
أهميتها واتساع شؤونها، وكانت إلى ذلك الحين تابعة لعامل إفريقية وإليه
تعيين
ولاتها.
ويقال إن عمر بن عبد العزيز فكر في إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين

قاطبة عنها، لانقطاعهم بها، وعزلتهم فيما وراء البحر عن باقى أقطار الخلافة، فقيل له إن المسلمين قد تكاثروا بها واستقروا، فعدل عن مشروعه.

" قالوا

وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بوار إلا أن يستنقذهم الله برحمته " (١) .

وقدم السمح إلى الأندلس في رمضان سنة مائة (إبريل سنة ٧١٩) مزوداً بنصح الخليفة في أن يتبع الرفق والعدل، وأن يقيم كلمة الحق

والدين.

وكان السمح حاكما وافر الخبرة والحكمة والعقل.

فقبض على زمام

الأمور بحزم وهمة، وبادر بقمع المنازعات والفتن، وإصلاح الإدارة والجيش.

وخمس جميع أراضي الأندلس التي فتحت عنوة، أعنى مسحها وقرر عليها الخراج

بنسبة الخمس.

ويقول لنا العلامة ألتاميرا، فيما يتعلق بتوزيع أراضي الأندلس ما يأتى:

" وقد ترك الفاتحون للإسبان الذين أسلموا أو خضعوا، سواء أكانوا جندا

---

(١) أورد هذه الرواية صاحب البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٥) ، ونقلها المقرى عن ابن حيان

مؤرخ الأندلس (ج ٢ ص ٥٦) ، وأشار إليها ابن الأثير أيضاً (ج ٥ ص ١٨٢) .



أم نبلاء – حقوقهم في ملكية أملاكهم كلها أو بعضها، مع فرض ضريبة عقارية عليهم مشابهة للخراج هى (الجزية) ، على الأراضي المنزرعة

والأشجار
المثمرة، واتبعت هذه القاعدة نحو بعد الديار، كما حدث في الامتياز الذى منح
لمدينة " قُلُمرية "، وأبيح لهؤلاء الملاك فوق ذلك حرية التصرف في أملاكهم، وهو حق كان وفقا للقوانين الرومانية القديمة مقيدا أيام القوط.
وأما مازاد عن
الخمس في الأراضي التي استولى عليها الفاتحون، فقد وزع بين الرؤساء والجند، وبين القبائل التي يتألف منها الجيش.
" وقد روعى في توزيع الأراضي أن تخصص الولايات الشمالية، وهى جليقية وليون والأستراياس للبربر، وأن تخصص الولايات الجنوبية، أعنى الأندلس للقبائل العربية.
وكان يفرض على العمال الملازمين siervos من القوط، الذين
يشتغلون بزرع الأرض، أن يدفعوا للسيد أو القبيلة المالكة ثلثى أو ثلاثة أخماس
المحصول.
وكان من أثر ذلك أن تحسنت أحوال المزارعين، كما أنه أدى في نفس الوقت إلى تقسيم الملكية وتمزيق الملكيات الكبيرة.
كذلك تحسنت حال العبيد، لأن المسلمين كانوا يعاملونهم بأفضل مما كان الإسبان الرومان والقوط، ولأنه
كان يكفى أن يدخل العبد في الإسلام ليغدو حرا " (١) .
وأنشأ السمح قنطرة قرطبة الشهيرة، على نهر الوادي الكبير، تحقيقا لرغبة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وأبدى في جميع أعماله حزما ورفقا وعدلا، فالتف الزعماء حوله، وخبت الفتنة وهدأت الخواطر، واستقر النظام والأمن.
وكان السمح فوق كفايته الإدارية جندياً جريئاً وقائداً عظيماً.
فلما انتهى من

مهمة التنظيم والإصلاح، تأهب لاستئناف الغزو، وتوطيد سلطان الخلافة فى الولايات الجبلية، والقواعد الشمالية، التي لم يستطع أن يتمم إخضاعها الحر الثقفى.

فزحف على لانجدوك (سبتمانيا) في أواخر سنة ٧١٩ م في جيش ضخم، وفى جماعة كبيرة من وجوه الزعماء والقادة، واخترق جبال البرنيه من الشرق من

ناحية روسيون، واستعاد أربونة وقرقشونة ومعظم قواعد سبتمانيا وحصونها، وعاث في تلك الأنحاء، وشتت كل قوة تصدت لمقاومته.

ووقعت هذه الغزوة

---

(١) R.

Altamira.

Historia de Espana.

V.

I.

p.

٢١٧ - ٢١٨

(٧٥/١)

الشاملة في سنة ٧٢٠ م (١٠١ هـ) .

ويقول إيزيدور الباجى إن العرب اجتاحوا

يومئذ غاليس القوطية كلها وجميع قواعد سبتمانيا (١) .

ثم اتجه السمح بعد ذلك

نحو الشرق ليغزو مملكة الفرنج الجنوبية أو أكوتين، وزحف توا على قاعدتها تولوشة (تولوز) (٢) ، وبدأ بذلك النضال بين العرب والفرنج في بسائط غاليس

قوياً رائعاً.

---

(١) Dom Vissette: ibid.
V.
I.
p.
٧٨١
(٢) ويسميها ابن عذارى طرسونة (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥) وهو
تحريف ظاهر لأن
طرسونة كانت من أعمال تطيلة في شمال شرق الأندلس (راجع معجم
ياقوت) .

(٧٦/١)

الفصل الخامس
غاليس بين العرب والفرنج
(١) مملكو الفرنج.
نزوحهم من الشمال إلى فرنسا.
كلوفيس أول ملوكهم.
كلوتير الثاني.
داجوبرت.
نمو مملكة الفرنج.
ضعف سلطان العرش.
الزعماء المحليون.
محافظ القصر.
الأسرة
الكارلية.

نفوذها وتقدمها في الرياسة.
المعارك الأهلية.
قيام إمارة أكوتين.
ببين دى هرشتال محافظ
القصر.
حفيده تودفالد يخلفه.
ولده كارل مارتل ينتزع السلطة لنفسه.
الدوق أودو أمير أكوتين.
السمح يغزو إمارته.
موقعة تولوشة ومقتل السمح.
(٢) انتخاب عبد الرحمن الغافقى للرياسة.
إخماده للفتنة في الشمال.
ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى.
رد الأندلس إلى حكومة إفريقية.
سير عنبسة
الى الشمال.
غزوه لسبتمانيا.
استيلاؤه على قرقشونة.
غزوه لوادي الرون.
تفاهم أودو مع المسلمين.
أقوال ايزودور الباجى.
كمين الفرنج لعنبسة ومقتله.
تتابع الولاة على الأندلس.
عزرة بن عبد الله
الفهرى.
يحيى بن سلمة الكلبى.

عثمان بن أبي نسعة الخثعمى.
حذيفة بن الأحوص القيسى.
الهيثم
ابن عبيد الكلابى.
اضطراب شؤون الأندلس.
غزو الفرنج لمواقع المسلمين.
اجتماع فلول القوط
في جليقيه.
إصلاحات الهيثم.
عبوره إلى سبتمانيا.
غزوه لوادي الرون وبرجونية.
ولاية محمد
ابن عبد الله الأشجعى.
ولاية عبد الرحمن الغافقى الثانية.
مواهبه وخلاله.
بوادر الثورة في الشمال.
منوسة حاكم الولايات الشمالية.
غموض شخصيته.
أطماعه ومشاريعه.
تفاهمه مع أودو دوق أكوتين
وتحالفه معه.
اقترانه بلامبيجيا ابنة الدوق.
ارتياب عبد الرحمن في موقفه وتصرفاته.
إرساله جيشا إلى
الشمال.
فرار منوسة ومقتله وأسر زوجه.

مخاوف أودو.
تأهب عبد الرحمن للغزوة الكبرى.
سيره
إلى الشمال.
زحفه على مدينة آرل واستيلاؤه عليها.
اختراقه لأكوتين.
موقعة الدردون وهزيمة
الفرنج.
استيلاء عبد الرحمن على بوردو.
سيره ثانية إلى وادي الرون.
استيلاؤه على ليون وبيزانصون
وصانص.
زحفه غربا نحو اللوار.
أقوال الفيلسوف جيبون.
يجدر بنا قبل أن نمضى في تتبع الغزوات الإسلامية لتلك الأنحاء، أن نقول كلمة عن مملكة الفرنج تمهيداً لما سيجىء من لقاء العرب والفرنج وتطور العلائق
بينهما.
كان الفرنج (أو الفرنك) شعبة من القبائل الجرمانية استقرت منذ أواخر القرن الخامس للميلاد، بين نهر الرَّين والبحر في إقليم فلاندر وما إليه (البلجيك
الحديثة) ، ثم على ضفاف الرين الوسطى والموزل.
وفى نهاية القرن الخامس كان
زعيم هذه القبائل أمير شجاع مقدام يدعى كلوفيس بدأ حكمه في مدينة "تورنى".

وفى سنة ٤٨٦ م غزا شمال فرنسا وانتزعه من يد الحاكم الرومانى
سباجريوس، وكان قد أقام به دولة مستقلة، ثم حارب قبائل " الألمانى "
القاطنة شرق نهر
الرين، وافتتح أراضيها حتى بافاريا.
وفى سنة ٥٠٧ م حارب كلوفيس القوط، وكانوا قد استقروا كما قدمنا في
القسم الجنوبى من فرنسا المسمى بغاليا (أو غاليس)
وقتل ملكهم ألاريك، واستولى على الأراضي الواقعة ما بين اللوار والبرنيه،
عدا ولاية سبتمانيا (لانجدوك) التي بقيت في يد القوط.
واعتنق كلوفيس النصرانية
وأذاعها بين قبائله الوثنية، وجعل باريس مقر ملكه الشاسع، وبذا قامت مملكة
الفرنج القوية أصل فرنسا الحديثة.
وتابع أبناء كلوفيس وخلفاؤه من بعده سياسة
الفتح، وافتتحوا برجونية وأواسط ألمانيا وشمالى إيطاليا.
ثم وقعت الحرب
الأهلية حينا بين أمراء الفرنج الذين اقتسموا تراث كلوفيس، حتى جاء كلوتير
الثاني سنة ٦١٣ م فبسط سلطانه على غاليس كلها (فرنسا) (١) ، واستأنف
الفتح
لإخضاع باقى الإمارات الفرنجية الواقعة شرقى الرين.
وسار ولده داجوبريت
في أثره، وجمع كلمة الفرنج تحت لواء واحد، وغلبت سلطة الفرنج على ألمانيا
الغربية ثانية، وهذبت النصرانية التي جاهد في إذاعتها الفرنج بين هذه القبائل
المتوحشة، كثيراً من خشونتها، وقضت على كثير من رسومها الوثنية.
ولكن داجوبيرت كان آخر ملك من الفرنج الميروفنجية - أسرة
كلوفيس (٢) - استطاع أن يقبض على زمام السلطة المركزية بيد قوية.

ذلك أن
نظام الإقطاع والعشائر، كان يسود هذه المملكة الشاسعة، وكانت جمهرة من
الأمراء والدوقات والكونتات تتقاسم السلطة في مختلف الولايات والأنحاء،
وكلما
ضعف سلطان العرش اشتد نفوذ أولئك الزعماء المحليين.
وكان أولئك الزعماء قد استطاعوا خلال العصور المتعاقبة، أن يحدوا تباعا
من سلطة العرش، وأن يحرزوا لأنفسهم كثيرا من الامتيازات والسلطات، فلما
جاء كلوفيس استطاع بعزمه وصرامته، أن يقبض على السلطة المركزية بيد
قوية، وأن يبسط على مملكة الفرنج كلها سلطانا مطلقا، واستطاع بعض
خلفائه

---

(١) تطلق كلمة غاليس في الرواية الإسلامية على جنوب فرنسا، وهى تعريب
حسن لكلمة
Gaule أو Gaulia (راجع ابن الأثي رج ٤ ص ٢١٣) .
وتسمى فرنسا أيضا في الجغرافية
العربية بالأرض الكبيرة.
(٢) The Merovingians، نسبة إلى مؤسس أسرتهم الملك مرفيج جد
كلوفيس.

(٧٨/١)

حتى داجوبيرت أن يبسطوا مثل هذا السلطان حيناً.
ولكن خلفاء داجوبيرت
كانوا رجالا ضعاف الخلال والعزائم، ينغمسون في نعماء الترف والملاذ،
فضعف
سلطان العرش، وانهارت السلطة المركزية القوية التي كان يقبض عليها،
واسترد

الأشراف والزعماء المحليون استقلالهم وامتيازاتهم.
هذا إلى أن ما استطاع العرش
أن يحتفظ به من السلطات، امتدت إليه سلطة جديدة في القصر ذاته، هى
سلطة
محافظ القصر.
وكان هذا المنصب في المبدأ متواضعا، ليست له أية صفة سياسية
أو إدارية، تقتصر مهامه على النظر في شؤون القصر المنزلية، ولكنه غدا
منذ
أوائل القرن السابع، أعنى منذ أخذت سلطة العرش في الضعف، منصبا
هاماً، يتولاه رجال أقوياء يتطلعون إلى السلطان، وتؤازرهم عصبية الأسرة
والثروة، وأصبح بمضى الزمن أهم مناصب الدولة السياسية والإدارية، يستأثر
صاحبه بكل
السلطات الحقيقية، وإليه منتهى الأمر في أخطر شؤون الدولة، يباشرها باسم
العرش ومن ورائه، ولا يباشر الملك إلى جانبه غير رسوم الملك الإسمية،
ويلتف
حوله الزعماء والأكابر، ويباشر في معظم الأحيان سلطة الملك الحقيقية،
خصوصاً
إذا كان الملك طفلا قاصراً، فهو عندئذ يغدو الملك الحقيقى باسم الوصى
أوالنائب.
وكانت الأسرة الكارلية (١) القوية قد اختصت بهذا المنصب الخطير، منذ
عهد الملك داجوبيرت، وأخذت تهدد بنفوذها وقوتها مصير الأسرة الميروفنجية
الملكية.
وكانت أقوى بطون الفرنج في أوستراسيا (مملكة الفرنج الغربية) ، تملك
ضياعاً شاسعة ما بين نهرى الرَّين والموز وتتزعم جماعة النبلاء، وترعاها
الكنيسة
لنفوذها وسلطانها، ويمنح زعيمها محافظ القصر لقب " دوق الفرنج " تنويها

برياسته وسلطانه، الذى أصبح فوق سلطان العرش.
وكان انحلال الأسرة الميروفنجية
وانهيار سلطانها على هذا النحو، سببا في تفرق كلمة الفرنج وانحلال
الإمبراطورية
الفرنجية الشاسعة، وتطلع الزعماء إلى الاستقلال والرياسة، أسوة بما انتهى
إليه
محافظ القصر، فاضطرمت الحرب الأهلية حيناً بين الفرنج في أوستراسيا
والفرنج
في نوستريا (الفرنج الشرقية) ، وأسفر هذا الصراع عن استقلال ولاية أكوتين
في غاليا الجنوبية، وكذا استقلال معظم الولايات الألمانية، برياسة طائفة من

---

(١) Carlovingians أو Carolingians، نسبة إلى أعظم ملوكها كارل
الأكبر
٢والإمبراطور شارلمان.

(٧٩/١)

الأمراء الأقوياء.
ثم آل منصب المحافظ في أواخر القرن السابع إلى أمير مقدام
جرىء من الأسرة الكارلية، هو ببين دى هرشتال، فحارب الفرنج الخوارج
في فريزيا وسكسونيا وبافاريا وأخضعهم، ولبث محافظا للقصر يحكم مملكة
الفرنج
في الشرق والغرب بقوة وعزم، مدى سبعة وعشرين عاماً، تم توفى سنة ٧١٥
م
موصياً بمنصبه لحفيده الطفل تودفالد، ولد ابنه جريمولد الذى قتل قبل وفاته.
وكان لببين ولد آخر من زوجته " ألفايده " ابنه راتبود زعيم فريزيا الوثنى، وهو
كارل (أو شارل) مارتل، تركه أبوه فتى قوياً في نحو الثلاثين من عمره، وكان

من الطبيعى أن يكون هو محافظ القصر بعد وفاة أخويه الكبيرين جريمولد ودروجو.

ولكن ببين تأثر بتحريض زوجه الأولى " بلكترود " وأوصى بالمنصب لحفيده، فكان محافظ القصر طفلا هو تودفالد، يحكم مكان الملك الميروفنجى وهو طفل

أيضاً، بواسطة بلكترود التي عينت وصية على حفيدها.

وكان أول ما فعلت

بلكترود أن قبضت على كارل مارتل، وزجته إلى السجن لتأمن شره ومنافسته.

ولكن أشراف أوستريا ساءهم أن تتولى الحكم امرأة.

فثاروا ونادوا بأحد زعمائهم

" راجنفرد " محافظاً للقصر، ونشبت الحرب بين الفريقين، وهزم حزب بلكترود، فارتدت مع حفيدها إلى كلونية، وقبض راجنفرد على زمام الحكم.

وفى تلك الأثناء فر كارل مارتل من سجنه، والتف حوله جماعة من أنصار أبيه، وحارب النوستريين، فاستغاث راجنفرد بالدوق أودو أمير أكوتين القوى، فلم يغنه ذلك شيئاً، وانتهى كارل بأن هزمه ومزق قواته، واضطره إلى التسليم والصلح.

أما بلكترود فقد عقدت الصلح أيضاً، ونزلت عن كل حقوقها.

وغدا كارل مارتل منذ سنة ٧٢٠ م محافظاً للقصر لا ينازعه منازع، يحكم جميع الفرنج

في أوستراسيا ونوستريا (١) .

وهكذا كانت مملكة الفرنج حينما عبر المسلمون إلى غاليا أو غاليس (فرنسا) لثالث مرة بقيادة السمح بن مالك، وغزوا ولاية سبتمانيا القوطية، واستولوا على قواعدها، وزحفوا على مدينة تولوشة (تولوز) عاصمة أكوتين.

وكان أودو

---

(١) راجع في تاريخ مملكة الفرنج ونشأتها وعصر الأسرتين الميروفنجية

والكارلية:

.Zeller: Histoire de l'Allemagne Ch

VII وكذلك Hodgkin: Charles the Great،

.Ch

III & II

*(٨٠/١)*

دوق أكوتين أحد أعضاء الأسرة الميروفنجية، أقوى أمراء الفرنج في غاليا
وأشدهم بأساً.
وكان أثناء الاضطراب الذى ساد مملكة الفرنج، قد استقل بأكوتين
وبسط حكمه على جميع غاليس الجنوبية، من اللوار إلى البرنيه، والتف حوله
القوط والبشكنس (النافاريون) ، وأخذ يطمح إلى انتزاع ملك الفرنج أو ملك
أسرته، ويعد العدة لقتال كارل مارتل المتغلب عليه.
ولكنه اضطر أن يشتغل عن
مشروعه برد خطر العرب الداهم.
استولى السّمح على سبتمانيا وأقام بها حكومة إسلامية، ووزع الأراضي بين
العرب والسكان، وفرض الجزية على النصارى، وترك لهم حرية الاحتكام إلى
شرائعهم، ثم زحف نحو الغرب ليغزو أكوتين كما قدمنا، فقاومه البشكنس
والغسقونيون سكان هذه الأنحاء أشد مقاومة.
ولكنه مزق جموعهم وقصد إلى
تولوشة.
وكان الدوق أودو قد جمع في تلك الأثناء جيشاً ضخماً وسار لرد العرب،
وعلم السمح بذلك فارتد عن مهاجمة تولوشة ليلقى جيش الدوق رغم تفوقه
على
جيشه في العدد.
والتقى الفريقان بظاهر تولوشة، ونشبت بينهما معركة هائلة

سالت فيها الدماء غزيرة، وكثر القتل في الجيشين، وأبدى المسلمون رغم قلتهم
شجاعة خارقة، وتراوح النصر حيناً بين الفريقين.
ولكن السمح سقط قتيلا من
فوق جواده، فاختل نظام الفرسان المسلمين، ووقع الإضطراب في الجيش كله،
وارتد المسلمون إلى سبتمانيا بعد أن فقدوا زهرة جندهم، وسقط منهم عدة من الزعماء الأكابر، وذلك في التاسع من ذي الحجة سنة اثنتين ومائة (٩ يونيه سنة ٧٢١ م) (١) .
وعلى أثر مقتل السمح اختار الجيش أحد زعمائه، عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى للقيادة العامة، فارتد عبد الرحمن إلى الجنوب تواً، وأقرته " الجماعة " واليا للأندس، حتى يأتي الحاكم الجديد.
فلبث في منصبه فترة وجيزة، ولكنه
استطاع خلالها أن يخمد بوادر الخروج التي ظهرت في الولايات الجبلية الشمالية،

---

(١) يضع كوندى وهو ينقل عن مصادر عربية اسبانية لم يبينها، تاريخ الموقعة في سنة ١٠٣ هـ
Conde: ibid.
I.
p.
٧٢)) .
ولكن المصادر العربية التي بين أيدينا تجمع كلها على أن الموقعة كانت سنة ١٠٢ هـ) نفح الطيب عن ابن بشكوال وابن حيان ج ٢ ص ٥٦، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٥،
وابن خلدون ج ٤ ص ١١٨) .

ومعظم المصادر الفرنجية على أن الموقعة كانت سنة ٧٢١ م (١٠٢ هـ)
متفقة بذلك مع الرواية الإسلامية.
راجع Dom Vissette: ibid ; I.
p.
٧٨١ & ٧٨٤

(٨١/١)

وأن يستبقى الجزية على أربونة وغيرها من قواعد سبتمانيا.
ولبث يخمد الفتن، ويصلح الأمور حتى قدم عنبسة بن سحيم الكلبى، الذى
اختاره بشر بن صفوان
الكلبى والى إفريقية، واليا للأندلس.
وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد جعل
الأندلس ولاية مستقلة كما قدمنا، تتبع الخلافة مباشرة.
ولكن خلفه يزيد بن
عبد الملك لم يقر هذا التعديل، فعادت الأندلس تابعة في إدارتها لإفريقية كما
كانت.
وقدم عنبسة بن سحيم الكلبى إلى الأندلس في صفر سنة ١٠٣.
وأنفق حيناً في تنظيم
الإدارة، وضبط النواحى، وإصلاح الجيش، وإعداده لغزوات جديدة.
وفى
أواخر سنة ١٠٥ هـ (أوائل سنة ٧٢٤ م) سار عنبسة في الجيش إلى الشمال
غازياً، وعبر جبال البرنيه (١) مرة أخرى، وغزا سبتمانيا التي فقد المسلمون
كثيرا من
معاقلها، منذ هزيمة تولوشة، واستولى على قرقشونة ونيمة وما بينهما من
القواعد، وارتد القوط عن محالفة الفرنج إلى محالفته.
وتابع زحفه شمالا في وادي الرون

ونفذ إلى برجونية حتى مدينة أوتون فغزاها وخربها (أغسطس سنة ٧٢٥ م) ، ثم غزا مدينة صانص.

وخشى أودوق أكوتين أن يهاجمه المسلمون مرة أخرى، فسعى إلى مفاوضتهم ومهادنتهم.

وبسط المسلمون سلطانهم قويا في شرق جنوبى

فرنسا.

وفى ذلك يقول إيزيدور الباجى: " كان نجاح عنبسة راجعاً إلى الجرأة والبراعة، أكثر منه إلى القوة والكثرة.

وكان لينه ورفقه وحسن معاملته للسكان، عاملا في تقوية سلطان الإسلام في جنوبى فرنسا ".

ولكن قضى نكد الطالع أن

ينكب المسلمون مرة أخرى.

فإن عنبسة حين عوده إلى الجنوب، داهمته قبل

أن يجتمع إليه جميع جيشه، جموع كبيرة من الفرنج، فأصيب أثناء الموقعة التي

نشبت بجراح بالغة توفى على أثرها، وذلك في شعبان سنة ١٠٧ هـ (ديسمبر سنة

٧٢٥، فارتد الجيش إلى الداخل، وعاد الاضطراب إلى الجزيرة مرة أخرى.

---

(١) يحسن بنا أن نشير هنا إلى أن بعض الكتاب والباحثين يسمون جبال البرنيه خطأً بجبال

" البرانس " ذلك لأن جبال البرنيه تسمى في الجغرافية العربية حسبما قدمنا بجبال البرت أو البرتات.

أما جبال " البر انس " فهى سلسلة أخرى من الجبال الإسبانية، تقع شرقى ماردة، وجنوبى طليطلة، وهى التي تعرف في الجغرافية الحديثة بجبال المعدن Sierra de Almaden، لوقوعها على مقربة من

مدينة " المعدن ".
وسيمت في الجغرافية العربية " بالبرانس " نسبة لقبيلة البرانس البربرية، التي كان منزلها في الأندلس على مقربة من هذه الجبال (راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ و١٦٣
سيث يشير إلى الحملات التي جردت لمقاتلة الثوار في منطقة جبال البرانس)
.

(٨٢/١)

وتوالى على الأندلس مدى الأعوام الخمسة التي تلت وفاة عنبسة، ستة ولاة أولهم عزرة بن عبد الله الفهرى (١) ، الذى تولى قيادة الجيش عقب وفاة عنبسة، فلبث في منصبه شهرين فقط.
ثم يحي بن سلمة الكلبي، ولاه بشر بن صفوان عامل
إفريقية، فقدم الأندلس في شوال سنة ١٠٧، وامتد حكمه عامين ونصف لم تقع
فيهما حوادث أو غزوات تذكر.
ثم توفى بشر بن صفوان، وخلفه في ولاية
إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى، فولى على الأندلس عثمان بن أبي نسعة
الخثعمى، فقدمها في شعبان سنة ١١٠، ولبث في منصبه ستة أشهر فقط ثم عزل، وخلفه حذيفة بن الأحوص القيسى فلم تطل ولايته سوى أشهر أيضا، فخلفه الهيثم
ابن عبيد الكلابى أو الكنانى، ولاه أيضا عبيدة السلمى عامل إفريقية، فقدم الأندلس
في المحرم سنة ١١١ هـ.
وكان تتابع الولاة على هذا النحو سببا في تفاقم الخلل
والاضطراب في شؤون الجزيرة، وتفاقم الخلاف بين الزعماء والقبائل.

وكان
تخلف المسلمين عن الغزو من جهة أخرى مشجعا للفرنج على مهاجمة
القواعد
الشمالية، مشجعة للخوارج من القوط والبشكنس على تنظيم قواتهم.
وكان أخطر
أولئك الخوارج شراذم القوط التي لجأت كما أسلفنا إلى قاصية جليقية،
واجتمعت
هناك حول زعيم يدعى بلايو أو بلاى، ولم يعن الولاة بتتبعها والقضاء عليها،
إما احتقاراً لشأنها أو لوعورة الجبال التي امتنعت بها، ففى أثناء اضطراب
الشؤون
وانشغال الولاة، كانت هذه الشراذم تنمو وتشتد داخل هضابها النائية، وكانت
هى نواة هذه المملكة النصرانية القوية التي نشأت سراعاً، واشتد ساعدها،
حتى
غدت قبل قرن تنافس الإسلام وتنازعه سيادة اسبانيا.
فلما ولى الهيثم حاول أن يقمع الفوضى، وأن يرد النظام.
وكان الهيثم حازما
قوى العزم، ولكن صارماً شديد الوطأة، فطارد الشغب والفوضى بشدة،
واضطهد معظم الزعماء والمخالفين له في الرأى، وبالأخص اليمنية، وتتبع
كثيرين
منهم بالسجن والمطاردة، وقاد حملة ضد " منوسة " وهو حسبما نوضح بعد
زعيم
بربرى غامض الشخصية، كان حاكماً لمنطقة الأسترياس وظهرت منه
أعراض
التمرد، ولكنه لم يوفق إلى القضاء عليه.
ثم سار في الجيش إلى الشمال ليقمع

---

(١) يرى بعض المؤرخين أن عزرة لم يكن من ولاة الأندلس، أو أن ولايته كانت غير
رسمية (المقرى عن ابن بشكوال ج ٢ ص ٥٧؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦) .

(٨٣/١)

أعراض الثورة التي بدأت في الولايات الجبلية، وليستأنف الغزو؛ فعبر البرنيه، واخترق سبتمانيا إلى وادي الرون وغزا ليون (لوذون) وماسون (١) وشالون الواقعة
على نهر الساؤون، واستولى على أوتون وبون، وعاث في أراضي برجونية الجنوبية.
ولكن هذا الفتح الكبير لم يكن ثابت الأثر، فقد أدى اختلاف القبائل
وتمرد البربر إلى تفكك الجيش الفاتح، وإلى تخلف المدن المفتوحة عن قبضة الفاتحين.
فعاد الهيثم إلى الجنوب، ولم يلبث أن توفى بعد أن حكم الأندلس مدى
عامين، فاختارت " الجماعة " مكانه محمد بن عبد الله الأشجعى حتى يعين
الوالى الجديد (٢) ، فلبث في منصبه شهرين، حتى عين عبد الرحمن بن
عبد الله الغافقى واليا للأندلس، عيمنه عبيدة بن عبد الرحمن السلمى والى
إفريقية بمصادقة الخليفة هشام بن عبد الملك
في صفر سنة ١١٣هـ (إبريل سنة ٧٣١) (١) فكانت ولايته الثانية. وكانت ولايته
الأولى سنة ١٠٣هـ على أثر كل مقتل السمح كما قدمنا.
وكان عبد الرحمن جندياً عظيماً
ظهرت كل مواهبه الحربية في غزوات غاليا، وحاكماً قديراً بارعاً في شؤون الحكم
والإدارة، ومصلحاً كبيراً يضطرم رغبة في الإصلاح، بل كان بلا ريب أعظم

ولاة الأندلس وأقدرهم جميعاً.
ووتجمع الرواية الإلامية على تقديره والتنويه برفيع
خلاله، والإشادة بعدله وحلمه وتقواه (٤) .
فرحبت الأندلس قاطبة بتعيينه

---

(١) لعل ماسون هى التي يسميها ابن عذارى منوسه (راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧) .
(٢) يقدم كوندى رواية أخرى عن مصير الهيثم، فيقول إن أمر عسفه وجوره نمى إلى الخليفة
هشام بن عبد الملك، فانتدب محمد بن عبد الله الأشجعى للتحقيق معه.
فلما تحقق صحة التهم المنسوبة إليه
عزله وسجنه وصادر أمواله، وأطلق الذين اعتقلهم ظلما.
ويقول كوندى أيضا إن الأشجعى هو الذى
اختار عبد الرحمن الغافقى لولاية الأندلس، لما تحقق من شجاعته وحزمه
بتفويض لديه من الخليفة Conde.
.ibid
.V
.I
.p
.٨١
ويأخذ دوزى بهذه الرواية (Hist.
.V
.I
.p
. (١٣٧
وكوندى يستقى روايته من بعض

المصادر العربية الإسبانية، ولكنه لا يعين هذه المصادر.
على أن المصادر العربية التي أمامنا تجمع
على أن ولاية الهيثم اختتمت بوفاته، وأن الأشجعى خلفه باختيار الجماعة
(البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ عن ابن بشكوال، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٩) .
(٣) تختلف الرواية الاسلامية في تارخ ولاية عبد الرحمن، فيقول الضبى إن تعيينه كان فى
حدود سنة ١١٠هـ (بغية الملتمس رقم ١٠٢١) ، وكذا ابن بشكوال (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦) .
ويقول ابن عذارى إنه كان في صفر سنة ١١٢ (ج ٢ ص ٢٨) ، وابن حيان إنه كان في صفر
سنة ١١٣ (نفح ج ٢ ص ٥٦) .
وهى أرجح رواية فيما نعتقد وبها أخذنا لاتفاقها مع سير
تواريخ الولاة المتقدمين.
(٤) راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٦، ٢١٧ وبغية الملتمس رقم ١٠٢١، والحميدى فى
جذوة المقتبس ص ٦ و ٢٥٥.



وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه، وجمعت هيبته كلمة القبائل، فتراضت مضر
وحمير، وعاد الوئام نوعاً في الإدارة والجيش، واستقبلت الأندلس عهداً جديدا.
وبدأ عبد الرحمن ولايته بزيارة الأقاليم المختلفة فنظم شئونها، وعهد بإدارتها إلى
ذوى الكفاية والعدل، وقمع الفتن والمظالم ما استطاع، ورد إلى النصارى
كنائسهم وأملاكهم المغصوبة، وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالعدل

والمساواة، وقضى صدر ولايته في إصلاح الإدارة، ومعالجة ما سرى إليها عهد أسلافه من عوامل الاضطراب والخلل.

وعنى بإصلاح الجيش وتنظيمه
عناية خاصة، فحشد الصفوف من مختلف الولايات، وأنشأ فرقاً قوية مختارة من فرسان البربر بإشراف نخبة من الضباط العرب، وحصن القواعد والثغور الشمالية، وتأهب لإخماد كل نزعة إلى الخروج والثورة (١) .

وكانت الثورة في الوقع توشك أن تنقض في الشمال، وبطلها في تلك المرة زعيم مسلم هو حاكم الولايات الشمالية.

فمن هو ذلك الزعيم الثائر؟ إن الرواية
الإسلامية تلتزم الصمت إزاء شخصية هذا الزعيم، وإزاء الحوادث التي اقترنت باسمه.

وكل ما هنالك أن صاحب البيان المغرب يقول لنا في حديثه عن ولاية الهيثم بن عبيد الكنانى " وهو إلذى غزا أرض منوسة " (٢) .

ثم يردد المقرى هذه العبارة
في قوله مشيراً أيضا إلى الهيثم " وغزا أرض منوسة فافتتحها " (٣) .

ويبدو لأول
وهله من استقراء هاتين الإشارتين القصيرتين، أن " منوسة " تنصرف فيما يرجح
إلى المكان، ومنوسة قد تكون مدينة " ماسون " وهى التي غزاها الهيثم ضمن، غزواته في أرض فرنسا.

ولكن معظم الروايات النصرانية والفرنجية المعاصرة، تحدثنا في نفس الوقت عن شخصية زعيم مسلم يدعى Munuza "منوزا"
أو Munez " مونز "، وهو كما يبدو مطابق لاسم " منوسة "، تسرد لنا سلسلة من الحوادث الهامة التي اقترنت باسمه.

وفى موطن واحد فقط تقول
الرواية النصرانية إن منوسة كان زعيماً نصرانياً من زعماء منطقة الأسترياس،

وأنه كان حاكماً لمدينة خيخون (٤) .

ولنسلم نحن بهذه المطابقة بين الإسمين،

---

(١) Conde ; ibid V.

I.

p.

٨٢ & ٨٣

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩.

(٤) Cronica General ; Vol.

I.

p.

٣١٩ & V.

II.

p.

٣٢٤

*(٨٥/١)*

فتقول إن منوسة، كان وفقا لأقوال هذه الروايات النصرانية والفرنجية، زعيما مسلما يحكم بعض ولايات البرنيه الغربية وسبتمانيا فيما وراء البرنيه باسم حكومة الأندلس، وذلك حوالى سنة ٧٢٥ إلى سنة ٧٣٠ م (١) .

وكان الدوق

أودو أمير أكوتين منذ اجتاح المسلمون أراضيه، ورأى خطر الفتح الإسلامى يهدد ملكه يسعى إلى مهادنة المسلمين والتقرب من حكومة الأندلس، ويحاول في نفس الوقت أن يجمع الحلفاء من حوله لمقاومتها إذا اقتضى الأمر.

فلما

تولى منوسة حكم الولايات الشمالية.
وهى تجاور أكوتين من الشرق والجنوب، سعى الدوق إلى التفاهم معه.
وكان منوسه كما تصفه الرواية النصرانية المعاصرة، زعيما قوى المراس،
كثير الأطماع، نافذ الهيبة في هاتيك الوهاد، ولم يكن
عل اتفاق مع حكومة الأندلس.
ذلك أنه كان من أقطاب البربر الذين عبروا
الأندلس مع طارق بن زياد (٢) ؛ وقد سبق أن شرحنا عوامل الخلاف بين
العرب والبربر، وكيف حقد البربر على العرب لاستئثارهم بمغانم الفتح
والرياسة.
وعلى ضوء هذه التفاصيل، نعود فنتساءل من يكون " منوسة "؟ هل يكون
هو عثمان بن أبي نسعة الخثعمى الذى ولى إمارة الأندلس قبل ذلك بثلاثة
أعوام حسبما قدمنا، ولم يطل أمد ولايته سوى أشهر قلائل؟ وهل يكون
اسم " منوسة " Munuza تحريفاً نصرانياً للقب " نسعة " العربى؟ إذا صح
أن
منوسة كان زعيما بربريا كما تصفه الروايات النصرانية المعاصرة، وهى
وحدها
مصدر التعريف عنه، فيكون من المشكوك فيه إذن أن يكون منوسة، هو
عثمان
ابن أبي نسعة الخثعمى والى الأندلس (٣) .
ذلك أن عثمان بن أبي نسعة كان زعيما

---

(١) ويقول ألتاميرا إن " منوسه " Munuza هو الحاكم البربرى الذى تركه
موسى
ابن نصير في خيخون في منطقة الأسترياس وكان حاكما لمدينة أوفيدو، وأنه
أي منوسة قد اضطر عقب
فشله في القضاء على بلايو الزعيم القوطى، وهزيمته في موقعة كوفادونجا أن

يخل منطقة الأسترياس.
راجع: Altamira: ibid.
T.
I.
p.
٢٢١ - ٢٢٣
(٢) هذه هى رواية إيزيدور الباجى وقد نقلتها بعض الروايات النصرانية
المتأخرة؛ راجع
Dom Vissette: ibid, V.
I.
p.
٧٩٤ & II.
p.
١٢٩ و Dozy: Histoire,V.
I.
p.
١٦٠ et notes
(٣) كنت من قبل أعتقد كبعض الباحثين أن " منوزا " (منوسة) هو تحريف
لاسم ابن
أبى نسعة؛ وأنهما اسمان لشخص واحد.
وهذا ما يقوله في الواقع يوسف كوندى (V.
I.
p.
٨٠)
ولكنى أصبحت بعد الذى قرأته من مختلف التفاصيل والتعليقات التي أوردتها
الروايات النصرانية المعاصرة، وبعد مقارنتها بأقوال الرواية الإسلامية عن ابن

أبي نسعة، أشك في صواب هذا الرأى.
والمرجح
كما يبدو من مختلف الشروح المتقدمة أن منوسة كان فعلا من زعماء البربر
المتمردين على حكومة قرطبة.



عربيا ينتسب إلى خثعم إحدى البطون العربية العريقة (١) ، ولم يفز بإمارة
الأندلس
في تلك الفترة سوى زعماء العرب، ولم تسند إلى أحد من البربر.
هذا إلى أن
الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن مصير عثمان بن أبي نسعة رواية أخرى غير
التي
تقدمها إلينا الرواية النصرانية عن مصير "منوسة"، فهى تقول لنا ان ابن أبي
نسعة
ولى الأندلس في شعبان سنة ١١٠هـ (٧٢٨ م) واستمرت ولايته خمسة شهور
أو
ستة ثم عزل، وانصرف إلى القيروان فمات بها (٢) .
أما " منوسة " فقد مات
محارباً، ومات قتيلا كما سنرى.
وعلى أي حال فقد تفاهم دوق أكوتين ومنوسة، وقوت المصاهرة بينهما
أواصر الصداقة والتحالف.
ذلك أنه كانت للدوق ابنة رائعة الحسن تدعى لامبجيا
(أو منينا أو نوميرانا على قول بعض الروايات) فرآها منوسة أثناء بعض
رحلاته
في أكوتين أو أنه أسرها في بعض غاراته عليها.
تقول الرواية: " وكانت لامبجيا

أجمل امرأة في عصرها، كما كان منوسة أقبح رجل في عصره، وكانت نصرانية
متعصبة، ولكن أطماع الوالد غلبت على كل شيء، فارتضى مصاهرة الزعيم المسلم ".
وكما يحيط الغموض بشخصية منوسة، فكذلك يحيط بشخصية لامبجيا
وظروف زواجها من الزعيم المسلم، فتقول الرواية مثلا، إن منوسة بعد أن أسر
لامبجيا، وشغف بها حبا وتزوج بها، حمل بتأثيرها ونفوذها على محالفة أبيها
الدوق ومناوأة حكومة الأندلس، وتقول أيضا إن ابنة الدوق أكوتين التي
تزوجها منوسة لم تكن لامبجيا التي اشتهرت بفائق حسنها، بل كانت أختها " منينا "
التي كانت من قبل زوجة لفرويلا القوطى أمير أستورية، كما تورد لنا غير ذلك
من الأنباء والتفاصيل التي يقع معظمها في حد الأساطير (٣) .
وهكذا اجتمعت عوامل الحب والسياسة لتوثيق عرى التحالف بين الزعيم المسلم وبين الدوق أودو.
وكان أودو، فضلا عما يهدده من خطر الغزو الإسلامى، يخشى بأس
خصمه القوى كارل مارتل زعيم الفرنج، وكذا كان كارل مارتل

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٣٩.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨.
(٣) راجع خلاصة الروايات النصرانية والفرنجية في موسوعة Bayle V. IV.
والتعليقات.

ينقم على أودو نفوذه واستقلاله بالجنوب، وقد غزا بالفعل أكوتين غير مرة
وهزم أميرها.
فكان أودو في الواقع بين نارين، يخشى الفرنجة في الشمال، والعرب في
الجنوب.
وكانت جيوش كارل مارتل تهدده وتعيث في أرضه
(سنة ٧٣١) في نفس الوقت الذى سعى فيه منوسة إلى محالفته، والاستعانة
به على
تنفيذ مشروعه في الخروج على حكومة الأندلس، والاستقلال بحكم الولايات
الشمالية.
وقد رأى منوسة اكتساباً للوقت كتماناً لحقيقة مشروعه، أن يسبغ على
محالفته مع الدوق صفة هدنة عقدت بينه وبين الفرنج، ولكن عبد الرحمن
أمير
الأندلس ارتاب في أمر الثائر ونياته، وأبى إقرار الهدنة التي عقدها.
وعندئذ
كشف منوسة القناع، وأعلن الثورة، فأرسل عبد الرحمن إلى الشمال حملة قوية
بقيادة ابن زيان لتأديب الزعيم الثائر، والتحوط لسلامة الولايات الشمالية،
فاستعصم منوسة بمواقعه الجبلية، وتحصن في عاصمة إقليمه " مدينة الباب
" (١) ، الواقعة على منحدر جبال البرنيه، وكان يظن أنه يستطيع أن يتحدى
الجيش
الإسلامى، وأن يعتصم بالصخر، كما اعتصم به الزعيم القوطى"بلاجيوس"
(بلايو)
ولكنه كان مخطئاً في تقديره، فقد نفذ ابن زيان بجيشه إلى مدينة الباب،
وحاصر
الثائر في عاصمته، ففر منها إلى شعب الجبال الداخلية، فطارده ابن زيان
من
صخرة إلى صخرة، حتى أخذ وقتل مدافعاً عن نفسه، وتحطمت أطماعه

ومشاريعه

(١١٣هـ – ٧٣١ م) (٢) ، وأسرت زوجه الحسناء لامبجيا، وأرسلت إلى بلاط دمشق، واستقبلها الخليفة (هشام بن عبد الملك) بحفاوة وإكرام، وزوجت هناك من أمير مسلم لا تذكر لنا الرواية اسمه (٣) .

---

(١) واسمها بالقشتالية Ciudad de la Puerta، وقد كانت تقع على أحد ممرات البرنيه

وتسمى أحيانا "بويكاردا ".

(٢) تمر الرواية الإسلامية على هذه الحوادث كلها بالصمت كما قدمنا، ولا تذكر لنا أى

تفصيل أو لمحة تلقى الضياء عل شخصية منوسة، ويوافق دوزى على أن ت Munuza هو اسم

للزعيم البربرى المتقدم الذكر.

راجع: Dozy: Histoire V.

II.

p.

١٢٩ & note، وكذلك

Lévi – Provençal: Hist.

de l'Espagne Musulmane 1944 p.

٤٣ & note.

(٣) Dom Vissette: ibid, I.

p.

٧٦٤.

وتحيط الرواية سيرة لامبجيا وزوجها بكثير

من القصص الخيالية الشائقة، التي اتخذت فيما بعد مستقى لخيال بعض الشعراء والكتاب.

غير أن معظم
هذه القصص لا يخرج عن حد الأساطير.

(٨٨/١)

هذا، وهناك في شأن "منوسة" وزوجه رواية أخرى، أوردها الحبر ماريانا
كبير مؤرخي إسبانيا، فقد ذكر أن منوسة كان زعيماً نصرانياً اختاره المسلمون
لحكم المنطقة الواقعة غرب البرنيه، ولكنه كان صارماً يشتد في معاملة
النصارى، وأنه كان للدون بلاجيوس زعيم جليقية القوطى أخت بارعة الحسن،
شغف بها
منوسة حباً، ولكن بلاجيوس لم يوافق على زواجها منه، فاحتال منوسة، وبعثه
في مهمة إلى قرطبة، وأسر الأميرة أثناء غيبته وتزوج بها قصراً، فأسر
بلاجيوس
وأخته هذه الإهانة، ولبثا يرتقبان الفرص حتى استطاعت الأميرة فراراً من
أسرها
وسارت مع أخيها إلى جبال جليقية حيث اعتصم بلاجيوس مع أنصاره،
وأعلن
الخروج والثورة، فأخطر منوسة حكومة قرطبة، فأرسلت حملة لتأديب الثائر
بقيادة " علقمة ".
ولكن بلاجيوس استطاع مع أنصاره القلائل، أن يعتصم
بشعب الجبال، فارتد المسلمون منهزمين، وقتل علقمة، وارتاع منوسة لفوز
خصمه، وخشى انتقام مواطنيه، فحاول الفرار إلى الجنوب، ولكنه وقع فى
يد شرذمة من الفلاحين النصارى فقتلوه، ويضع ماريانا تاريخ هذه الحوادث
في سنة ٧١٨ م (١) .
ولكن رواية ماريانا هذه ظاهرة الضعف، أولا لأنه ليس بمعقول أن تعهد
حكومة الأندلس المسلمة بحكم ولاية من ولاياتها إلى زعيم نصرانى.
وثانياً لأن

هذه الرواية تخالف في مجموع تفاصيلها كل ما كتبته الروايات المعاصرة عن شخصية منوسة، وعن مصاهرته لأمير أكوتين.

وثالثاً لأن تاريخ هذه الحوادث

متأخر عن التاريخ الذى يعينه ماريانا بأكثر من عشرة أعوام.

ولما قتل منوسة، وانهارت مشاريعه، ورأى أودو ما حل بحليفه، واستشعر الخطر الداهم تأهب للدفاع عن مملكته، وبدأ الفرنج والقوط في الولايات الشمالية

بالتحرك لمهاجمة المواقع الإسلامية.

وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لمقتل السمح

وهزيمة المسلمين عند أسوار تولوشة، ويتخذ العدة منذ بدء ولايته لاجتياح مملكة

الفرنج كلها.

فلما رأى الخطر محدقاً بالولايات الشمالية، لم ير بدا من السير إلى الشمال، قبل أن يستكمل كل أهبته.

على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيش سيره

---

(١) Mariana في تاريخ اسبانيا العام – الترجمة الفرنسية ج ٣ ص ٥ وما بعدها.



المسلمون إلى غاليس (فرنسا) منذ الفتح.

وفى أوائل سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة

١١٤هـ) سار عبد الرحمن إلى الشمال مخترقا ولاية أراجون (الثغر الأعلى) ونافار

(بلاد البشكس) وعبر البرنيه من طريق بنبلونة، ودخل فرنسا في ربيع سنة ٧٣٢ م، وزحف تواً على مدينة آرل الواقعة على نهر الرون، لتخلفها عن

أداء
الجزية، واستولى عليها بعد معركة عنيفة، نشبت على ضفاف النهر بينه
وبين قوات
الدوق أودو.
ثم زحف غربا وعبر نهر الجارون، وانقض المسلمون كالسيل على
ولاية أكوتين (١) ، يثخنون في مدنها وبسائطها، فحاول أودو أن يقف
زحفهم، والتقى الفريقان على ضفاف نهر الدردون، فهزم الدوق هزيمة فادحة،
ومزق
جيشه شر ممزق.
قال إيزيدور الباجى: " والله وحده يعلم كم قتل في تلك الموقعة
من النصارى ".
وطارد عبد الرحمن جيش الدوق حتى عاصمته بوردو (بردال) .
واستولى عليها بعد حصار قصير (٢) ، وفر الدوق في نفر من صحبه إلى
الشمال، وسقطت أكوتين كلها في يد المسلمين.
ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون كرة أخرى
واخترق الجيش الإسلامى برجونية واستولى على ليون وبيزانصون (٣) ،
ووصلت
سرياته حتى صانص، التي تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط.
وارتد عبد الرحمن
بعد ذلك غربا إلي ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ثم يقصد إلى عاصمة
الفرنج (٤) .

---

(١) كانت إمارة أكوتين في ذلك الحين تمتد بين نهر الرون شرقا وخليج
غسقونية (بسكونية)
غربا، وبين نهر اللوار شمالا ونهر الجارون جنوبا، وتشمل من مقاطعات
فرنسا الحديثة جويان

وبيرجور وسانتونج وبواتو وفنده وجزءا من أنجو.

(٢) Dom Vissette: ibid, V.

I.

p.

٧٩٦

(٣) وهى مسقط رأس الشاعر الفرنسي الأشهر فكتور هوجو.

(٤) يقدم المستشرق كاردون شرحا آخر لسير عبد الرحمن، فيقول إنه زحف أولا على

آرل وحاصرها فبادر الكونت إلى إنجادها، فلقيه عبد الرحمن وهزمه وألجأه إلى الفرار، ثم عبر

عبد الرحمن نهر الجارون واستولى على بوردو.

وكان الكونت قد جمع جيشا جديدا وحاول رده فهزم

مرة أخرى، ثم اخترق عبد الرحمن وبيرجور وسانتونج وبواتو وهو يثخن في تلك الأنحاء حتى انتهى

إلى تور Cardonne: Hist.

de l'Afrique et de l'Espagne - I - 129 ولكن عبد الرحمن اقتحم

وادي الرون أيضا كما بينا، وقد شرحنا سيره طبقا لجميع الروايات مجتمعة، وطبقا للمواقع الجغرافية

التي تتعلق بهذه الغزوة.

وقد يكون أن عبد الرحمن لم يسر بنفسه شمالا نحو برجونية، ولكن الجيش الإسلامى اقتحم هذه الأنحاء بلا ريب.

(٩٠/١)

وتم هذا السير، وافتتح نصف فرنسا الجنوبى كله من الشرق إلى الغرب، فى بضعة أشهر فقط.

قال إدوارد جيبون: " وامتد خط الظفر مدى ألف ميل

من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار.
وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل
العرب إلى حدود بولونيا وربى اسكتلندا.
فليس الرَّين بأمنع من النيل أو الفرات، ولعل أسطولاً عربيا كان يصل إلى
مصب التيمز دون معركة بحرية، بل ربما
كانت أحكام القرآن تدرس الآن في معاهد أكسفورد وربما كانت منابرها
تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة ".

---

(١) Gibbon: ibid, Ch – LII

(٩١/١)

الفصل السادس

بلاط الشهداء

معركة الاسلام والنصرانية.
تحول هذه المعركة إلى سهول فرنسا.
العرب والفرنج على أطلال
الدولة الرومانية.
حلول الفرنج في فرنسا.
خواص المجتمع الفرنجي.
انحلال عصبيته بالاستقرار.
تفككه وتنافره.
خطر القبائل الجرمانية الوثنية.
الدولة الإسلامية.
انتظامها وتماسكها.
تفرق
الفرنج.

سيل الفتح الإسلامى.
عبد الرحمن الغافقى وجيشه.
كيف يصوره الشاعرسوذى.
اختراق
عبد الرحمن لفرنسا.
موقف الدوق أودو.
كارل مارتل محافظ القصر.
تمهله في لقاء العرب.
ما تقوله
الرواية في ذلك.
اتجاه أودو إلى كارل.
مسير كارل للقاء العرب.
اجتياح العرب لأكوتين.
أين
التقى العرب والفرنج.
هجوم المسلمين على مدينة تور.
وصول الفرنج إلى اللوار.
ارتداد عبد الرحمن
الى ما وراء النهر.
حالة الجيش الإسلامى.
وفرة غنائمه وخطرها على نظامه.
بدء القتال.
المعارك المحلية.
المعركة العامة.
مهاجمة الفرنج لمعسكر الغنائم.
ارتداد الفرسان المسلمين لحمايته.

اختلال نظام المسلمين.

مقتل عبد الرحمن الغافقى.

الذعر في الجيش الإسلامى.

رجحان كفة الفرنج.

افتراق الجيشين.

اختلاف في القيادة الإسلامية.

تقرير الانسحاب.

ارتداد المسلمين إلى الجنوب.

توجس كارل مارتل.

أقوال الرواية الكنسية.

مبالغتها في التقدير والتصوير.

وصفها لحوادث اللقاء الحاسم.

صمت الرواية

الأندلسية.

وصفها لحوادث الغزوة الإسلامية.

وصفها للجيش الإسلامى.

حديثها عن الموقعة

الحاسمة.

أقوال المستشرق كاردون.

تحفظ الرواية الإسلامية ومغزى هذا التحفظ.

بلاط الشهداء.

لون الموقعة الدينى.

أقوال المؤرخين المسلمين عنها.

موقف الرواية النصرانية.

مبالغتها في تصوير

هزيمة المسلمين وتقدير خسائرهم.

ما يدحض هذا الإغراق.

إحجام الفرنج عن مطاردة العرب.

خسارة

المسلمين بمقتل عبد الرحمن.

النقد الحديث وبلاط الشهداء.

كيف: ينوه بأهميتها في خلاص النصرانية من

سلطان الإسلام.

تأملات.

أجل، كان اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية، وبين الشرق والغرب

على وشك الوقوع.

وكان اجتياح الإسلام للعالم القديم سريعاً مدهشاً، فإنه لم يمض

على وفاة النبى العربى نصف قرن، حتى سحق العرب دولة الفرس الشامخة،

واستولوا على معظم أقطار الدولة الرومانية الشرقية، من الشام إلى أقاصى

المغرب،

وقامت دولة الخلافة قوية راسخة الدعائم فيما بين السند شرقاً والمحيط غرباً،

وامتدت شمالا حتى أواسط آسيا الصغرى.

وكانت سياسة الفتح الإسلامى منذ

توطدت دولة الإسلام، ترمى إلى غاية أبعد من امتلاك الأقطار، وبسطة

السلطان

والملك.

فقد كان الإسلام يواجه في الأقطار التي افتتحها من العالم القديم أنظمة

(٩٢/١)

راسخة مدنية واجتماعية ٤، تقوم على أصول وثنية أو نصرانية.

وكانت النصرانية

قد سادت أقطار الدولة الرومانية منذ القرن الرابع.

فكان على الخلافة أن تهدم هذا
الصرح القديم، وأن تقيم فوق أنقاضه في الأمم المفتوحة، نظماً جديدة تستمد روحها من الإسلام، وأن تذلل النصرانية لصولة الإسلام، سواء بنشر الإسلام بين الشعوب المفتوحة، أو بإخضاعها من الوجهتين المدنية والاجتماعية لنفوذ الإسلام وسلطانه.

وكان هذا الصراع بين الإسلام والنصرانية قصير الأمد فى
الشام ومصر وإفريقية، فلم يمض نصف قرن حتى غمر الإسلام هذه الأمم بسيادته ونفوذه، وقامت فيها مجتمعات إسلامية قوية شاملة، وغاضت الأنظمة
والأديان القديمة.

ثم دفعت الخلافة فتوحها إلى أقاصى الأناضول من المشرق، وجازت إلى اسبانيا من المغرب.

فأما في المشرق فقد حاول الإسلام أن يعبر إلى
الغرب عن طريق قسطنطينية، وبعثت الخلافة جيوشها وأساطيلها الزاخرة إلى عاصمة الدولة الشرقية مرتين، الأولى في عهد معاوية بن أبي سفيان في سنة ٤٩هـ
(٦٦٩ م) والثانية في عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ (٧١٧ م) ، وكانت
قوى الخلافة في كل مرة تبدى في محاصرة قسطنطينية، غاية الإصرار والعزم والجلد، ولكنها فشلت في المرتين، وارتدت عن أسوار قسطنطينية منهوكة خائرة، وأخفق مشروع الخلافة في افتتاح الغرب من تلك الناحية، ولقى الإسلام هزيمته
الحاسمة في المشرق أمام أسوار بيزنطية، وقامت الدولة الشرقية في وجه الإسلام
حصناً منيعا يحمى النصرانية من غزوه وسلطانه.

ولكن جيوش الإسلام جازت

إلى الغرب عن طريق اسبانيا، وأشرفت من هضاب البرنيه على باقى أمم
أوربا
النصرانية، ولولا تردد الخلافة وخلاف الزعماء، لاستطاع موسى بن نصير أن
ينفذ مشروعه في اختراق أوربا من الغرب إلى المشرق، والوصول إلى دار
الخلافة
بطريق قسطنطينية، ولكان من المرجح أن تلقى النصرانية يومئذ ضربتها
القاضية، وأن يسود الإسلام أمم الشمال كما ساد أمم الجنوب، ولكن الفكرة
غاضت فى
مهدها لتوجس الخلافة وترددها.
على أن الفتوح التي قام بها ولاة الأندلس بعد ذلك في جنوب فرنسا، كانت
طورا آخر من أطوار ذلك الصراع بين الإسلام والنصرانية.
فقد كانت مملكة
الفرنج أعظم ممالك الغرب والشمال يومئذ، وكانت تقوم في الغرب بحماية
النصرانية،

(٩٣/١)

على نحو ما كانت الدولة الرومانية في الشرق، بل كانت مهمتها في هذه
الحماية
أشق وأصعب، إذ بينما كان الإسلام يهدد النصرانية من الجنوب، كانت
القبائل
الوثنية الجرمانية تهددها من الشمال والشرق.
وكانت الغزوات الإسلامية
تقف في المبدأ عند سبتمانيا ومدنها، ولكنها امتدت بعدئذ إلى أكوتين
وضفاف
الجارون، ثم امتدت إلى شمال الرون وولاية برجونية، وشملت نصف فرنسا
الجنوبى كله، وهكذا بدا الخطر الإسلامى على مصير الفرنج والنصرانية قوياً

ساطعاً، وبدت طوالع ذلك الصراع الحاسم، الذى يجب أن تتأهب لخوضه أمم الفرنج والنصرانية كلها.
كانت المعركة في سهول فرنسا إذاً بين الإسلام والنصرانية، بيد أنها كانت من الجانب الآخر بين غزاة الدولة الرومانية، والمتنافسين في اجتناء تراثها.
كانت بين العرب الذين اجتاحوا أملاك الدولة الرومانية في المشرق والجنوب.
وبين الفرنج الذين حلوا في ألمانيا وغاليس (فرنسا) .
والفرنج هم شعبة من
القبائل البربرية التي غزت رومة وتقاسمت تراثها، من وندال وقوط وآلان وشوابيين.
فكان ذلك اللقاء بين العرب والفرنج في سهول فرنسا، أكثر من نزاع
محلى على غزو مدينة أو ولاية بعينها: كان هذا النزاع في الواقع أبعد ما يكون مدى
وأثرا، إذ كان محوره تراث الدولة الرومانية العريض الشاسع، الذى فاز العرب منه بأكبر غنم، ثم أرادوا أن ينتزعوا ما بقى منه بأيدى منافسيهم غزاة الدولة الرومانية من الشمال.
وكانت هذه السهول الشمالية، التي قدر أن تشهد موقعة الفصل بين غزاة الدولة الرومانية، تضم مجتمعاً متنافراً، لم تستقر بعد قواعده ونظمه على أسس
متينة.
ذلك أن القبائل الجرمانية التي عبرت نهر الرين وقضت على سلطان رومة في الأراضي المفتوحة، كانت مزيجاً مضطرماً من الغزاة الظمأى إلى تراث رومة
من الثروة والنعماء.
وكان القوط قد اجتاحوا شمالى إيطاليا منذ القرن الخامس، وحلوا في جنوبى غاليس واسبانيا.
ولكن هذه الممالك البربرية لم تكن تحمل عناصر

البقاء والاستقرار، فلم يمض زهاء قرن آخر حتى غزا الفرنج فرنسا، وانتزعوا
نصفها الشمالى من يد حاكمه الرومانى المستقل بأمره، وانتزعوا نصفها
الجنوبى
عن القوط، وحلت في غاليس سلطة جديدة ومجتمع جديد.
وكان الغزاة في كل

(٩٤/١)

مرة يقيمون ملكهم على القوة وحدها، ويقتسمون السلطة في نوع من الإقطاع،
فلا يمضى وقت طويل حتى تقوم في القطر المفتوح عدة إمارات محلية، ولم
يعن
الغزاة بإقامة مجتمع متماسك ذى نظم سياسية واجتماعية ثابتة، ولم يعنوا
بالأخص
بأن يندمجوا برعاياهم الجدد.
فكان سكان البلاد المفتوحة من الرومان والغاليين، الذين لبثوا قرونا يخضعون
لسلطان رومة، ما تزال تسود فيهم لغة رومة وحضارتها، ولكن القبائل
الجرمانية الغازية كانت تستأثر بالحكم والرياسة، وتكون وحدها
مجتمعا منعزلا، لبثت تسوده الخشونة والبداوة أحقاباً، قبل أن يتأثر بمدنية
رومة
وتراثها الفكرى والاجتماعى.
وكان اعتناق الفرنج للنصرانية منذ عهد كلوفيس، أكبر عامل في تطور هذه
القبائل وتهذيب عقليتها الوثنية وتقاليدها الوحشية.
ثم
كان استقرارها بعد حين في الأرض المفتوحة، وتوطد سلطانها وتمتعها
بالنعماء
والثراء، بعد طول المغامرة والتجوال، وشظف العيش، وحرصها على حياة
الدعة والرخاء، عوامل قوية في انحلال عصبيتها الحربية وفتور شغفها

بالغزو، وإذكاء رغبتها في الاستعمار والبقاء.
وهكذا كانت القبائل الجرمانية التي عبرت
الرّين تحت لواء الفرنج واستقرت في غاليس، قد تطورت في أوائل القرن
الثامن، إلى مجتمع مستقر متماسك نوعا.
ولم تكن غاليس قد استحالت عندئذ إلى فرنسا، ولكن جذور فرنسا المستقبلة
كانت قد وضعت، وهيئت الأسباب والعوامل
لنشوء الأمة الفرنسية.
بيد أن هذا المجتمع رغم تمتعه بنوع من الاستقرار والتماسك، كان وقت أن
نفذ العرب إلى فرنسا، فريسة الانحلال والتفكك، وكان الخلاف
يمزقه كما قدمنا.
وكانت أكوتين وباقى فرنسا الجنوبية، في يد جماعة من الأمراء
والزعماء المحليين، الذين انتهزوا.
ضعف السلطة المركزية، فاستقلوا بما في أيديهم
من الأقاليم والمدن.
ثم كانت القبائل الجرمانية الوثنية، فيما وراء الرين من جهة
أخرى، تحاول اقتحام النهر من آن لآخر، وتهدد بالقضاء على مملكة الفرنج.
فكان الفرنج يشغلون برد هذه المحاولات ويقتحمون النهر بين آونة وأخرى
لدرء
هذا الخطر، ولإرغام القبائل الوثنية على اعتناق النصرانية.
فكانت المسألة الدينية
أيضاً عاملا قويا في هذا النضال الذى يضطرم بين قبائل وعشائر تجمعها
صلة
الجنس والنسب.
ولم ينقذ مملكة الفرنج من ذلك الخطر، سوى خلاف القبائل
الوثنية وتنافسها وتفرق كلمتها (١) .

---

(١) راجع Creasy: Decisive Battles of the World, Ch.
VII (الفصل السابع) =



هكذا كانت مملكة الفرنج والمجتمع الفرنجى في أوائل القرن الثامن، أعنى حينما انساب تيار الفتح الإسلامى من اسبانيا إلى جنوبى فرنسا.

وكان قد مضى منذ
وفاة النبى العربى، إلى عهد هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية (سنة ٧٣٢ م) ، مائة عام فقط.

ولكن العرب كانوا خلال هذا القرن، قد افتتحوا جميع الأمم
الواقعة بين السند شرقاً والمحيط غرباً، واكتسحوا العالم القديم، في فيض مدهش
من الظفر الباهر، واستولوا على جميع أقطار الدولة الرومانية الجنوبية، من الشام
إلى أقاصى المغرب واسبانيا، وعبروا البرنيه إلى أواسط فرنسا، هذا بينما أنفقت
القبائل الجرمانية الشمالية، أكثر من ثلاثة قرون في افتتاح أقطار الدولة الشمالية، ومحاولة الاستقرار فيها.

وبينما قامت الدولة الإسلامية ثابتة وطيدة الدعائم، وقامت
في جميع أقطار الخلافة حكومات محلية قوية، ومجتمعات إسلامية مستنيرة، وجيوش غازية منظمة، إذا بمعظم القبائل الجرمانية غزاة رومة من الشمال، ما يزال إذا استثنينا مملكة الفرنج، على حاله كل من البداوة والتجوال والتفرق. وكان الفرنج هم قادة القبائل الجرمانية في هذا الصراع، الذى نشب في سهول فرنسا، وآذن طوره الحاسم بعبور المسلمين إلى فرنسا في ربيع سنة ٧٣٢ م.

وكان سيل الفتح الإسلامى، ينذر باجتياح فرنسا منذ عشرين عاماً، أعنى مذ عبر

المسلمون جبال البرنيه بقيادة موسى بن نصير لأول مرة واستولوا على سبتمانيا، ثم اقتحموا بعد ذلك وادي الرون وأكوتين غير مرة.
ولكن مملكة الفرنج كانت
يومئذ تشغل بالمعارك الداخلية، وتقتتل حول السلطان والرياسة، حى ظفر كارل مارتل بمنصب محافظ القصر، وأنفق أعواماً أخرى في توطيد سلطانه، بينما
كان خصمه ومنافسه أودو أمير أكوتين، يتلقى وحده ضربات العرب. فلما
استفحل خطر الفتح الإسلامى، وانساب نحو الشمال حتى برجونية، فزع الفرنج
وهبت القبائل الجرمانية في أوستراسيا ونوستريا لتذود عن سلطانها وكيانها.
وكان الخطر داهماً حقيقياً في تلك المرة، لأن المسلمين عبروا البرنيه عندئذ في أكبر جيش حشد، وأتم أهبة اتخذت منذ الفتح.
وكان على رأس الجيش
الإسلامى قائد وافر الهمة والشجاعة والمقدرة هو عبد الرحمن الغافقى، وهو أعظم

---

= ففيه استعراض حسن لأحوال المجتمع الجرمانى في هذا العصر، وعرض شائق لحوادث موقعة تور.
وراجع أيضا Zeller: Hist.
de l'Allemagne, p.
٦٧



جندى مسلم عبر البرنيه.
وكان قد ظهر ببراعته في القيادة منذ موقعة تولوشة، حيث استطاع إنقاذ

الجيش الإسلامى من المطاردة عقب هزيمته ومقتل قائده
السمح، والارتداد إلى سبتمانيا.
وتبالغ الرواية الفرنجية في تقدير جيش عبد الرحمن
وأهبته، فتقدره بأربعمائة ألف مقاتل، هذا غير جموع حاشدة أخرى صحبها
لاستعمار
الأرض المفتوحة.
وهو قول ظاهر المبالغة.
وتقدره بعض الروايات العربية
بسبعين أو ثمانين ألف مقاتل، وهو أقرب إلى الحقيقة والمعقول.
وقد أثارت هذه
الغزوة الإسلامية الشهيرة، وهذا الجيش الضخم، خيال الشاعر، الأوربى
الحديث، فنرى الشاعر الإنجليزى سوذى يقول في منظومته عن ردريك آخر
ملوك القوط.
" جمع لا يحصى.
" من شأم وبربر وعرب، وروم خوارج.
" وفرس وقبط وتتر عصبة واحدة.
" يجمعها إيمان، هائم راسخ الفتوة.
" وحمية مضطرمة، وأخوة مروعة.
" ولم يك الزعماء، " أقل ثقة بالنصر، وقد شمخوا بطول ظفر
" يتيهون بتلك القوة الجارفة، " التي أيقنوا أنها كما اندفعت، " حيثما كانوا بلا منازع، ستندفع ظافرة إلى الأمام، " حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق، " يطاطىء الرأس إجلالا لاسم محمد، " وينهض الحاج من أقاصى المنجمد، " ليطأ بأقدام الإيمان، الرمال المحرقة، " المنتثرة فوق صحراء العرب وأراضي مكة الصلدة " (١) .
ونفذ عبد الرحمن في جيشه الزاخر إلى فرنسا، في ربيع سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ١١٤ هـ) ، واقتحم وادي الرون وولاية أكوتين، وشتت قوى الدوق أودو،

وأشرف بعد هذا السير الباهر على ضفاف نهر اللوار.

وتقول بعض الروايات

---

Southy: Roderic the last of the Goths (١)

(٩٧/١)

الكنسية، إن أودو هو الذى استدعى عبد الرحمن إلى فرنسا، ليعاونه على محاربة

خصمه كارل مارتل (١) .

ولكن هذه الرواية مردودة غير معقولة، لما قدمنا من أن

أودو هو الذى بادر إلى مقاومة عبد الرحمن ورده، وكانت مملكته وعاصمته أول غنم

للمسلمين.

وكان ملك الفرنج يومئذ تيودوريك الرابع، ولكن ملوك الفرنج كانوا

في ذلك العصر أشباحاً قائمة فقط.

وكان محافظ القصر كارل مارتل هو الملك

الحقيقى، يستأثر بكل سلطة حقيقية، وعليه يقع عبء الدفاع عن ملكه وأمته.

وكان منذ استفحل خطر الفتح الإسلامى يتخذ أهبته ويحشد قواه.

ولكن عبد الرحمن

سار إلى قلب فرنسا قبل أن يتحرك للقائه.

وترد الرواية الإسلامية هذا التمهل إلى

خطة مرسومة مقصودة.

فتقول في هذا الموطن: " فاجتمعت الفرنج إلى ملكها

الأعظم قارلة وهذه سمة لملوكهم، فقالت له ما هذا الخزى الباقى في الأعقاب.

كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها،

واستولوا
على بلاد الأندلس، وعظيم ما فيها من العدة والعدد، بجمعهم القليل وقلة
عدتهم
وكونهم لا دروع لهم.
فقال لهم ما معناه: الرأى عندى أن لا نعترضهم فى
خرجتم هذه، فانهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم
نيات تغنى كثرة العدد، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم
حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا في الرياسة،
ويستعين
بعضهم ببعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر " (٢) .
ونستطيع أيضاً أن نفسر
تمهل كارل مارتل بأنه كان يقصد إلى ترك خصمه ومنافسه أودو دون إغاثة،
حتى يقضى المسلمون على ملكه وسلطانه، فيتخلص بذلك من منافسته
ومناوأته.
وعلى أى حال فإن عبد الرحمن كان قد اقتحم أكوتين وجنوبى فرنسا كله،
حينما
تأهب كارل مارتل للسير إلى لقائه.
وجاء الدوق أودو بعد ضياع ملكه، تمزيق

---

(١) موسوعة Bouquet: Recueil des Historiens de la Gaule et de la France،
رواية القديس رنى Vol.
III.
p.
٣١٠.
وراجع أيضا موسوعة: Bayle: Dictionnaire

Abderame تحت كلمة Historique et Critique

(٢) المقرى عن الحجارى فْى المسهب (نفح الطيب ج ١ ص ١٢٩) .

ويورد الحجارى هذه

الرواية بمناسبة عبورموسى بن نصير إلى فرنسا.

ولكن ظاهر من اسم با قارلة (كارل) أن الأمر

يتعلق بالغزوة الكبيرة التي نتحدث عنها؛ وإليها ترجعها الرواية الكنسية اللاتينية.

راجع:

.Gibbon: ibid, Ch

LII حيث يورد نفس هذه الفقرة في كلامه عن موقعة تور.



قواته يطلب العون والنجدة من خصمه القديم أعنى كارل مارتل (١) .

وكان كارل

قد حشد جيشا ضخماً من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة، والعصابات

المرتزقة فيما وراء الرين، يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها، وجله جند غير

نظاميين، نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب، وتتسدل شعورهم الجعدة، فوق أكتافهم العارية.

وسار زعيم الفرنجة في هذا الجيش الجرار نحو الجنوب

لملاقاة العرب في حمى الهضاب والربى، حتى يفاجىء العدو في مراكزه قبل أن

يستكمل الأهبة لرده.

وكان الجيش الإسلامى قد اجتاح عندئذ جميع أراضي

أكوتين، التي تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور

وسانتونج

وبواتو، وأشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية، حيثما يلتقى بثلاثة من فروعه هى " الكريز " و" الفيين " و" الكلين ".

ومن الصعب أن نعين بالتحقيق، مكان ذلك اللقاء الحاسم في تاريخ الشرق والغرب، والإسلام والنصرانية.

ولكن المتفق عليه أنه السهل الواقع بين مدينتى

بواتييه وتور، حول نهرى كلين وفيين فرعى اللوار، على مقربة من مدينة تور.

والرواية الإسلامية مقلة موجزة في الكلام عن تلك الموقعة العظيمة، وليس فيما لدينا من المصادر العربية عنها أى تفصيل شامل، وإنما وردت تفاصيل للرواية

الإسلامية عن الموقعة، نقلها إلينا المؤرخ الإسباني كوندى سنعود إليها بعد. وتفيض

الرواية الفرنجية والكنسية بالعكس في حوادث الموقعة، وتقدم إلينا عنها تفاصيل

شائقة، ولكن يحفها الريب وتنقصها الدقة التاريخية.

وقد رأينا أن نحاول وصف

الموقعة أولا مما لدينا من أقوال الروايتين، ثم نعود بعد ذلك إلى ذكر كل منهما.

انتهى الجيش الإسلامى في زحفه إلى السهل الممتد بن مدينتى بواتييه وتور كما

قدمنا، واستولى المسلمون على بواتييه، ونهبوها وأحرقوا كنيستها الشهيرة. ثم

هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى، واستولو عليها وخربوا

كنيستها أيضا.

وفى ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى إلى اللوار، دون أن
يشعر المسلمون بمقدمه بادئ بدء، وأخطأت الطلائع الإسلامية تقدير عدده
وعدته.
فلما أراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار، لملاقاة العدو على ضفته اليمنى،
فاجأه كارل مارتل بجموعه الجرارة.
وألفى عبد الرحمن جيش الفرنج يفوقه فى

---

(١) Dom Vissette, ibid, V.
p I.
٧٩٥



الكثرة، فارتد من ضفاف النهر ثانية إلى السهل الواقع بين تور وبواتييه.
وعبر
كارل اللوار غربى تور، وعسكر بجيشه إلى يسار الجيش الإسلامى بأميال
قليلة، بين نهرى كلين وفيين فرعى اللوار.
وكان الجيش الإسلامى في حال تدعو إلى القلق والتوجس، فإن الشقاق كان
يضطرم بين قبائل البربر التي يتألف منها معظم الجيش، وكانت تتوق إلى
الانسحاب
ناجية بغنائمها الكبيرة.
وكان المسلمون في الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا
الجنوبية أثناء سيرهم المظفر، ونهبوا جميع كنائسها وأديارها الغنية، وأثقلوا
بما
لا يقدر ولا يحصى، من الذخائر والغنائم والسبى، فكانت هذه الأثقال النفيسة
تحدث الخلل في صفوفهم، وتثير بينهم ضروب الخلاف والنزاع.
وقدر عبد الرحمن

خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأهبته، وخشى مما تثيره في نفوس الجند من
الحرص والانشغال، وحاول عبثا أن يحملهم على ترك شيء منها.
ولكنه لم يشدد
في ذلك خيفة التمرد.
وكان المسلمون من جهة أخرى، قد أنهكتهم غزوات أشهر
متواصلة، مذ دخلوا فرنسا، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم،
فى كثير من القواعد والمدن المفتوحة.
ولكن عبد الرحمن تأهب لقتال العدو
وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة.
وبدأ القتال في اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢ م (أواخر
شعبان سنة ١١٤ هـ) فنشبت بين الجيشين معارك محلية مدى سبعة أيام أو
ثمانية، احتفظ فيها كل بمراكزه.
وفى اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة، فاقتتلا
بشدة وتعادل، حتى دخول الليل.
واستأنفا القتال في اليوم التالى، وأبدى كلاهما
منتهى الشجاعة والجلد، حتى بدا الإعياء على الفرنج، ولاح النصر في جانب المسلمين.
ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة إلى معسكر الغنائم الإسلامى، وخشى
عليه من السقوط في أيديهم، أو حدث كما تقول الرواية أن ارتفعت
صيحة مجهول في المراكز الإسلامية، بأن معسكر الغنائم سوف يقع في يد العدو.
فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية
الغنائم، وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم، فدب الخلل في صفوف
المسلمين.

وعبثا حاول عبد الرحمن أن يعيد النظام وأن يهدئ روع الجند، وبينما هو يتنقل
أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها، إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى

(١٠٠/١)

بحياته، فسقط قتيلا من فوق جواده، وعم الذعر والاضطراب في الجيش الإسلامى، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين، وكثر القتل في صفوفهم.
ولكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليل، وافترق الجيشان دون فصل.
وكان ذلك
في اليوم الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢ م (أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ) (١) .
وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الإسلامى، واختلف الرأى
وهاجت الخواطر، وسرى التوجس والفزع.
ورأى الزعماء أن كل أمل في النصر
قد غاض، فقرروا الانسحاب على الأثر.
وفى الحال غادر المسلمون مراكزهم، وارتدوا في جوف الليل وتحت جنح الظلام، جنوبا صوب قواعدهم في سبتمانيا، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم غنماً للعدو.
وفى فجر الغد، لاحظ كارل وحليفه
أودو سكون المعسكرات العربية، فتقدما منها بحذر وإحجام، فألفياها خاوية خالية إلا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب، فذبحوا
على الأثر وخشى كارل الخديعة ولكن فاكتفى بانسحاب العدو، ولم يجرؤ على مطاردته، وآثر العود بجيشه إلى الشمال.
هذه هى أصدق صورة لحوادث تلك الموقعة الشهيرة، طبقا لمختلف الروايات.
والآن نورد ما تقوله الرواية الفرنجية الكنسية ثم الرواية الإسلامية.

أما الرواية الفرنجية الكنسية فيشوبها كثير من المبالغة والتحامل والتعصب، وهى تصف مصائب فرنسا والنصرانية من جراء غزوة العرب، في صور مثيرة
محزنة، وتفصل حوادث هذه الغزوة فتقول إحداها: " لما رأى الدوق أودو أن الأمير شارل (كارل) قد هزمه وأذله، وأنه لا يستطيع الانتقام، إذا لم يتلق النجدة من إحدى النواحى، تحالف مع عرب اسبانيا، ودعاهم إلى معاونته ضد
الأمير شارل وضد النصرانية، وعندئذ خرج العرب وملكهم عبد الرحمن، من

---

(١) تجمع معظم الروايات الفرنجية والكنسية على أن الموقعة كانت في أكتوبر سنة ٧٣٢ م.
وهذا التاريخ يوافق بالهجرية شعبان سنة ١١٤.
بيد أن الرواية الاسلامية تختلف في تحديد هذا
التاريخ؛ فالبعض يقول إنها كانت سنة ١١٥ هـ (ابن عبد الحكم ص ٣١٧، والضبى في بغية الملتمس
رقم ١٠٢١، وابن عذارى في البيان المغرب ج ١ ص ٣٧؛ ولكنه يعود فيذكر أن الموقعة كانت
سنة ١١٤هـ (ج ٢ ص ٢٨) .
ولكن ابن الأثير (ج ٥ ص ٧٤) ، وابن خلدرن (ج ٤ ص ١١٩)
والمقرى عن ابن حيان (ج ١ ص ١٠٩ وج ٢ ص ٥٦) متفقون عل انها كانت سنة ١١٤هـ؛
ويقول الأخيران إنها كانت في رمضان سنة ١١٤ هـ، وهو أصح تعيين يتفق مع الرواية الغربية.

اسبانيا، مع جميع نسائهم وأولادهم وعددهم وأقواتهم، في جموع لا تحصى ولا تقدر، وحملوا كل ما استطاعوا من الأسلحة والذخائر، كأنما عولوا على البقاء في أرض فرنسا، ثم اخترقوا مقاطعة جيروند، واقتحموا بوردو، وقتلوا الناس، ونهبوا الكنائس، وخربوا كل البسائط، وساروا حتى بواتييه..

.

" (١) .

وتقول أخرى: " ولما رأى عبد الرحمن أن السهول قد غصت بجموعه، اقتحم الجبال، ووطى السهول بسيطها ووعرها، وتوغل مثخنا في بلاد الفرنج، وسحق بسيفه كل شيء، حتى أن أودو حينما تقدم لقتاله على نهر الجارون وفر

منهزما أمامه، لم يكن يعرف عدد القتلى سوى الله وحده، ثم طارد عبد الرحمن

الكونت أودو، وحينما حاول أن ينهب كنيسة تور المقدسة ويحرقها، التقى بكارل

أمير فرنج أوستراسيا، وهو رجل حرب منذ فتوته، وكان أودو قد بادر بإخطاره.

وهناك قضى الفريقان أسبوعاً في التأهب، واصطفا أخيراً للقتال، ثم وقفت أمم الشمال كسور منيع، أو منطقة من الثلج لا تخترق، وأثخنت

في العرب بحد السيف ".

" ولما أن استطاع أهل أوستراسيا (الفرنج) ، بقوة أطرافهم الضخمة، وبأيديهم الحديدية، التي ترسل من الصدر تواً ضرباتها القوية، أن يجهزوا على جموع كبيرة من العدو، التقوا أخيراً بالملك (عبد الرحمن) وقضوا على حياته. ثم دخل الليل ففصل بين الجيشين، والفرنج يلوحون بسيوفهم عالية احتقارا للعدو.

فلما استيقظوا في فجر الغد، ورأوا خيام العرب الكثيرة كلها مصفوفة أمامهم، تأهبوا للقتال معتقدين أن جموع العدو.

جاثمة فيها.
ولكنهم حينما أرسلوا
طلائعهم، ألفوا جموع المسلمين، قد فرت صامتة تحت جنح الليل، مولية
شطر
بلادها.
على أنهم خشوا أن يكون هذا الفرار خديعة يعقبها كمين من جهات أخرى،
فأحاطوا بالمعسكر حذرين دهشين.
ولكن الغزاة كانوا قد فروا، وبعد أن اقتسم
الفرنج الغنائم والأسرى فيما بينهم بنظام، عادوا مغتبطين إلى ديارهم " (٢) .

---

(١) هذه هى رواية القديس دنى Saint Denis - وردت في موسوعة
.Bouquet
ووردت
في هذه الموسوعة أيضا أقوال آخرين من الرواة الأحبار.
(٢) هذه هى رواية إيزيدور الباجى وهو معاصر للموقعة.
راجع Creasy: ibid , Ch.
VII
و Hodgkin,Charles the Great;Ch.
III، وكذلك Gibbon: ibid ,Ch.
LII ففيها
تنقل هذه التفاصيل أو تلخص.

*(١٠٢/١)*

وأما الرواية الإسلامية فهى ضنينة في هذا الموطن كل الضن كما أسلفنا.
ويمر
معظم المؤرخين المسلمين على تلك الحوادث العظيمة، بالصمت أو الإشارة

الموجزة
كما سنرى.
غير أن المؤرخ الإسبانى كوندى يقدم إلينا خلاصة من أقوال ينسبها
الى الرواية الأندلسية المسلمة (١) ، عن غزو فرنسا وعن موقعة تور، ونحن
ننقلها
مترجمة فيما يلى:
" لما علم الفرنج وسكان بلاد الحدود الإسبانية بمقتل عثمان بن أبي نسعة،
وسمعوا بضخامة الجيش الإسلامى الذى سير إليهم، استعدوا للدفاع جهدهم،
وكتبوا إلى جيرانهم يلتمسون الغوث.
وجمع الكونت وسيد هذه الأنحاء (يريد
أودو) قواته وسار للقاء العرب، ووقعت بينهم معارك سجال.
ولكن النصر كان
إلى جانب عبد الرحمن بوجه عام، فاستولى تباعاً على كل مدن الكونت.
وكان
جنده قد نفخ فيهم حسن طالعهم المستمر، فلم يكونوا يرغبون إلا في خوض
المعارك، واثقين كل الثقة في شجاعة قائدهم وبراعته.
" وعبر المسلمون نهر الجارون، وأحرقوا كل المدن الواقعة على ضفافه،
وخربوا جميع الضياع، وسبوا جموعاً لا تحصى، وانقض هذا الجيش على
البلاد
كالعاصفة الخربة فاجتاحها، وأذكى اضطرام الجند، نجاح غزواتهم، واستمرار
ظفرهم وما أصابوا من الغنائم.
" ولما عبر عبد الرحمن نهر الجارون اعترضه أمير هذه الأنحاء، ولكنه
هزمه
ففر أمامه وامتنع بمدينته.
فحاصرها المسلمون ولم يلبثوا أن اقتحموها، وسحقوا
بسيوفهم الماحقة كل شيء.

ومات الكونت مدافعاً عن مدينته، واحتز الغزاة
رأسه (٢) .
ثم ساروا مثقلين بالغنائم في طلب انتصارات أخرى، وارتجت بلاد

---

(١) لم نقف في أى المصادر العربية التي بين أيدينا، على أصل هذه
التفاصيل التي يقول كوندى
إنه اقتبسها من الرواية العربية، ولم يذكر هو مصدر اقتباسه.
ولعله نقلها عن بعض مخطوطات
الإسكوريال أو المجموعات الخاصة وقد فقدت آثارها اليوم، كما فقدت
مخطوطات كثيرة من المجموعة
الأندلسية بالإسكوريال.
ولعله أيضا نقل شيئا منها من شذور لابن حيان وابن بشكوال كانت موجودة
في عصره ولم تصل الينا.
ويلوح لنا أن الحجارى في كتابه " المسهب " قد تناول هذه الحوادث
بالتفصيل حيث نقل المقرى عنه شذرة تفيد ذلك.
(نفح الطيب ج ١ ص ١٣٩) ، ولعل كوندى وقف
على شىء منها.
على أننا لم نعثر خلال بحوثنا في مجموعة الإسكوريال على أثر لمثل هذه
المخطوطات
أو الأوراق.
راجع حديث كوندى عن مصادره: Conde: ibid, V.
I Prologo, p.
٢٠ & ٢١.
(٢) هذا خلط بين، لأن الكونت أودو لم يقتل عندئذ، بل فر إلى الشمال،
وعاد لقتال
عبد الرحمن في تور كما قدمنا.

الفرنج كلها رعباً لاقتراب جموع المسلمين، وهرع الفرنج إلى ملكهم قلدوس
في طلب الغوث، وأخبروه بما يأتيه الفرسان المسلمون من العيث والسفك،
وكأنهم
في كل مكان، وكيف أنهم أحتلوا واجتاحوا كل أقاليم أربونة وتولوشة وبردال
(١)
وقتلوا الكونت.
فهدأ الملك روعهم ووعدهم بالغوث العاجل.
وفى سنة ١١٤هـ
سار على رأس جموع لاتحصى للقاء المسلمين.
وكان المسلمون قد اقتربوا عندئذ
من مدينة تور، وهنالك علم عبد الرحمن بأمر الجيش العظيم الذى سيلقى.
وكان
جيشه قل دب إليه الخلل، لأنه كان مثقلا بالغنائم من كل ضرب.
ورأى عبد الرحمن
وأولوا الحزم من زملائه أن يحملوا الجند على ترك هذه الأثقال، والاقتصار
على أسلحتهم وخيولهم، ولكن خشوا التمرد أو أن يثبطوا عزائم الجند،
واستسلموا
لرأى الواثقين المستهترين.
واعتمد عبد الرحمن على شجاعة جنده، وحسن طالعه
المستمر.
ولكن الأضطراب خطر خالد على سلامة الجيوش.
نعم إن الجند يحملهم
ظمأ الغنم، قد أتوا جهوداً لم يسمع بها، فطوقوا مدينة تور، وقاتلوا حصونها
بشدة رائعة، حتى سقطت في أيديهم أمام أعين الجيش القادم لإنقاذها،

وانقض

المسلمون على أهلها كالضوارى المفترسة، وأمعنوا القتل فيهم.

قالوا، ولعل الله

أراد أن يعاقب المسلمين على تلك الآثام، وكان طالعهم قد ولى.

" وعلى ضفاف نهر " الأوار " (اللوار) اصطف رجال اللغتين، والتقى المسلمون والنصارى، وكلاهما جزع من الآخر، وكان عبد الرحمن ثقة منه بظفره

المستمر، هو البادئ بالهجوم، فانقض بفرسانه على الفرنج بشدة، وقابله الفرنج

بالمثل.

ودامت المعركة ذريعة مروعة طوال اليوم حتى جن الليل.

وفرق بين

الجيشين.

وفى اليوم التالى استؤنف القتال منذ الفجر بشدة، وشق بعض مقدمى المسلمين طريقهم إلى صفوف العدو وتوغلوا فيها.

ولكن عبد الرحمن لاحظ والمعركة

في أوج اضطرامها، أن جماعة كبيرة من فرسانه، غادرت الميدان بسرعة لحماية

الغنائم المكدسة في المعسكر العربى، لأن العدو أخذ يهددها.

فأحدثت هذه الحركة

خللا في صفوف المسلمين، وخشى عبد الرحمن عاقبة هذا الاضطراب، فأخذ يثب من صف إلى صف يحث جنوده على القتال، ولكنه ما لبث أن أدرك أنه

يستحيل عليه ضبطهم، فارتد يحارب مع أشجع جنده حيثما استقرت المعركة،

---

(١) مدينة بوردو.

حتى سقط قتيلا مع جواده وقد أثخن طعانا.
وهنا ساد الخلل في الجيش الإسلامى
وارتد المسلمون في كل ناحية، ولم يعاونهم على الانسحاب من تلك المعركة الهائلة
سوى دخول الليل.
" وانتهز النصارى هذه الفرصة فطاردوا الجنود المنهزمة أياماً عديدة، واضطر المسلمون أثناء انسحابهم أن يحتملوا عدة هجمات، واستمر الصراع
بين مناظر مروعة حتى أربونة.
" وقد وقعت هذه الهزيمة الفادحة بالمسلمين، وقتل قائدهم الشهير عبد الرحمن سنة ١١٥ هـ.
ثم أن ملك فرنسا حاصر مدينة أربونة، ولكن المسلمين دافعوا عنها
بشجاعة فائقة، حتى أرغم على رفع الحصار، وارتد إلى داخل بلاده وقد أصابته
خسائر كبيرة " (١) .
وأورد المؤرخ كاردون من جهة أخرى في كلامه عن الموقعة، فقرة ذكر
أنه نقلها عن ابن خلكان جاء فيها: "لما استولى العرب على قرقشونة خشى
قارله (كارل) أن يتوغلوا في الفتح، فسار لقتالهم في الأرض الكبيرة (فرنسا)
في جيش ضخم، وعلم العرب بقدومه وهم في لوذون (ليون) وأن جيشه يفوقهم
بكثرة، فعولوا على الارتداد.
وسار قارله حتى سهل أنيسون دون أن يلقى أحداً
اذ احتجب العرب وراء الجبال وامتنعوا بها، فطوق هذه الحبال دون أن يدرى
العرب، ثم قاتلهم حتى هلك عدد عظيم منهم، وفر الباقون إلى أربونة. فحاصر

قارلة أربونة مدة، ولم يستطيع فتحها فارتد إلى أراضيه، وأنشأ قلعة وادي
رذونة
(الرون) ، ووضع فيها حامية قوية لتكون حداً بينه وبين العرب " (٢) .
ونعود بعد ذلك إلى الرواية الإسلامية فنقول إن المؤرخين المسلمين يمرون
على
حوادث هذه الموقعة الشهيرة إما بالصمت أو الإشارة الموجزة.
ويجب أن نذكر
بادىء بدء أن موقعة تور، تعرف في التاريخ الإسلامى بواقعة البلاط أو بلاط

---

(١) Conde: ibid , Vol.
I, p.
٨٦ - ٨٨
(٢) راجع: Cardonne: ibid, V.
I.
p.
١٢٩ - ١٣١.
وقد بحثنا طويلا في كتاب وفيات
الأعيان لابن خلكان في مظان وجود هذه التفاصيل فلم نعثر بها.
ولعل كاردون وقد كتب في أواسط
القرن الثامن عشر، واستعان بمخطوطات عربية في المكتبة الملكية في
باريس، قد نقل عن نسخة
لابن خلكان فيها زيادات عن النسخة التي بين أيدينا.
ولسنا نعلم من جهة أخرى أن لابن خلكان
مؤلفا تاريخيا آخر يمكن أن يحتوى مثل هذه التفاصيل.

الشهداء، لكثرة من استشهد فيها من أكابر المسلمين والتابعين.
وفى هذه التسمية
ذاتها، وفي تحفظ الرواية الإسلامية، وفي لهجة العبارات القليلة التي ذكرت
بها
الموقعة، ما يدل على أن المؤرخين المسلمين، يقدرون خطورة هذا اللقاء
الحاسم
بين الإسلام والنصرانية، ويقدرون فداحة الخطب الذى نزل بالإسلام في
سهول
تور.
ويدل على لون الموقعة الدينى ما تردده الأسطورة الإسلامية، من أن الأذان
لبث عصوراً طويلة يسمع في بلاط الشهداء (١) .
ونستطيع أن نحمل تحفظ المؤرخين
المسلمين في هذا المقام، على أنهم لم يروا أن يبسطوا القول في مصاب جلل
نزل
بالإسلام، ولا أن يفيضوا في تفاصيله المؤلمة، فاكتفوا بالإشارة الموجزة، ولم
يكن ثمة مجال للتعليق أيضا، ولا التحدث عن نتائج خطب، لاريب أنه كان
ضربة للإسلام ولمطامع الخلافة ومشاريعها.
وإذا استثنينا بعض الروايات الأندلسية
التي كتبت عن الموقعة في عصر متأخر، والتي نقلناها فيما تقدم، فإن
المؤرخين
المسلمين يتفقون جميعا في هذا الصمت والتحفظ.
وهذه طائفة من أقوالهم وإشاراتهم
الموجزة:
قال ابن عبد الحكم، وهو من أقدم رواة الفتوح الإسلامية وأقرب من
كتب عن فتوح الأندلس ما يأتى: " وكان عبيدة (يريد والى إفريقية) قد ولى
عبد الرحمن بن عبد الله العكى على الأندلس، وكان رجلا صالحا فغزا عبد

الرحمن

إفرنجة، وهم أقاصى عدو الأندلس، فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم..

.

ثم خرج

إليهم غازيا فاستشهد وعامة أصحابه، وكان مقتله فيما حدثنا يحي عن الليث

في سنة

خمسة عشر ومائة " (٢) .

ولم يذكر الواقدى والبلاذرى والطبرى وهم أيضا من أقدم

رواة الفتوح شيئاً عن الموقعة.

وقال ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث عشرة ومائة

مرددا الرواية ابن عبد الحكم.

" ثم إن عبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن

ابن عبد الله، فغزا إفرنجة وتوغل في أرضهم وغنم غنائم كثيرة.

ثم خرج غازيا

ببلاد الفرنج في هذه السنة (أعنى ١١٣ هـ) ، وقيل سنة أربع عشرة ومائة

وهو

الصحيح، فقتل هو ومن معه شهداء " (٣) .

وينسب ابن خلدون الموقعة خطأ

لابن الحبحاب والى مصر وإفريقية فيقول: " وقدم بعده (أي بعد الهيثم) محمد

---

(١) المقرى عن ابن حيان (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦) .

(٢) فتوح مصر وأخبارها ص ٢١٦ ٢١٧.

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٦٤.

ابن عبد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة، وغزا إفرنجة وكانت له فيهم وقائع، وأصيب عسكره في رمضان سنة أربع عشرة فولى سنتين " (١) .

ولدينا من الرواية الأندلسية ما قاله صاحب " أخبار

مجموعة " عند ذكر ولاة الأندلس وهو: " ثم (أى وليها) عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى، وعلى يده استشهد أهل البلاط الشهداء، واستشهد معهم

واليهم

عبد الرحمن " (٢) .

ونقل الضبى في ترجمة عبد الرحمن ما ذكر ابن عبد الحكم عن

الموقعة (٣) .

وقال الحميدى وهو من مؤرخي الأندلس في حديثه عن عبد الرحمن:

" وعبد الرحمن الغافقى هذا من التابعين..

.

استشهد في قتال الروم بالأندلس سنة

خس عشرة ومائة " (٤) .

وقال ابن عذارى المراكشى: " ثم ولى الأندلس

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى، فغزا الروم واستشهد مع جماعة من عسكره سنة ١١٥، بموضع يعرف ببلاط الشهداء " (٥) وقال في موضع آخر " ثم

ولى

الأندلس عبد الرحمن هذا (أى الغافقى) ثانية وكان جلوسه لها في صفر سنة

١١٢

فاقام والياً سنتين وسبعة أشهر وقيل وثمانية أشهر، واستشهد في أرض العدو

فى

رمضان سنة ١١٤ " (٦) .

وقال المقرى فيما نقل: " قدم عبد الرحمن بن عبد الله

الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية، فدخلها (أى الأندلس)

سنة ثلاث عشرة، وغزا الإفرنجة وكانت له فيهم وقائع، وأصيب عسكره في رمضان سنة أربع عشرة في موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة " (٧).

ونقل في موضع آخر: " وذكر أنه قتل (والإشارة هنا خطأ إلى السمح بن مالك)
في الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط، وكانت جنود الإفرنجة قد
تكاثرت عليه، فأحاطت بالمسلمين فلم ينج من المسلمين أحد.
قال ابن حيان،

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٩، وفي نسبته الموقعة لمحمد بن الحبحاب خطا بين لأن
ابن الحبحاب كان عامل مصر، ولم يندب لولاية إفريقية سوى سنة عشرة ومائة.
ولم يل هو
أو ولده الأندلس قط (راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٧).
(٢) أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ٢٥.
(٣) بغية الملتمس رقم، ١٠٢١.
(٤) جذوة المقتبس (طبع القاهرة) ص ٢٥٦.
(٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧.
(٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨.
(٧) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩.



فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن ".
ونقل عن ابن حيان: " قال

دخل الأندلس (أى عبد الرحمن) حين وليها ولايته الثانية من قبل ابن الحبحاب فى

صفر سنة ثلاث عشرة ومائة، وغزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمة إلى أن استشهد، وأصيب عسكره في موضع يعرف ببلاط الشهداء.

قال ابن بشكوال

وتعرف غزوته هذه بغزوة البلاط " (١) .

هذه الفقرات والإشارات الموجزة، التي تكاد تتفق جميعا في اللفظ والمعنى، هى ما ارتضت الرواية الإسلامية أن تقدمه إلينا في هذا المقام، وإن كان فى تحفظها ذاته ما ينم عن تقديرها لرهبة الحادث وخطورته وبعد آثاره.

وإذا كان

صمت الرواية الإسلامية تمليه فداحة الخطب الذى أصاب الإسلام في سهول تور، فإن الرواية النصرانية تفيض بالعكس في تفاصيل الموقعة إفاضة واضحة، وتشيد

بظفر النصرانية ونجاتها من الخطر الإسلامى، وترفع بطولة كارل مارتل إلى السماكين.

وتذهب الرواية النصرانية، ومعظم كتابها من الأحبار المعاصرين، فى تصوير المسلمين إلى حد الإغراق، فتزعم أن القتلى من المسلمين فى الموقعة بلغوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألفاً، في حين أنه لم يقتل من الفرنج سوى

ألف وخمسمائة.

ومنشأ هذه الرواية رسالة أرسلها الدوق أودو إلى البابا جريجورى الثاني، يصف فيها حوادث الموقعة وينسب النصر لنفسه، فنقلتها التواريخ النصرانية

المعاصرة واللاحقة، كأنها حقيقة يستطيع العقل أن يسيغها.

بيد أنها ليست سوى

محض خرافة، فإن الجيش الإسلامى كله، لم يبلغ حين دخوله فرنسا على

أقصى
تقدير، أكثر من مائة ألف (٢) .
والجيش الإسلامى لم يهزم في تور ولم يسحق، بالمعنى الذى تفهم به الهزيمة
الساحقة، ولكنه ارتد من تلقاء نفسه بعد أن لبث طوال
المعركة الفاصلة، يقاتل حتى المساء محتفظا بمراكزه أمام العدو، ولم يرتد
أثناء
القتال ولم يهزم.
ومن المستحيل أن يصل القتل الذريع في جيش يحافظ على ثباته
ومواقعه، إلى هذه النسبة الخيالية.
ومن المعقول أن تكون خسائر المسلمين فادحة
في مثل هذه المعارك الهائلة، وهذا ما تسلم به الرواية الإسلامية.
ولكن مثل هذه

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦.
(٢) وهذا التقدير يأخذ به بعض الؤرخين الغربيين أيضا، مثال ذلك المؤرخ
الفرنسى
Mezeral.
راجع التعليقات في موسوعة Bayle، تحت كلمة Abderame.

(١٠٨/١)

الخسائر لا يمكن أن تعدو بضع عشرات الألوف في جيش لم يزد على مائة
ألف.
وأسطع دليل على ذلك هو حذر الفرنج وإحجامهم عن مطاردة العرب عقب
الموقعة، وتوجسهم أن يكون انسحاب العرب خديعة حربية، فلو أن الجيش
الإسلامى انتهى إلى أنقاض ممزقة، لبادر الفرنج بمطاردته والإجهاز عليه.
ولكنه

كان مايزال من القوة والكثرة إلى حد يخيف العدو ويرده (١) .
على أن خسارة
المسلمين كانت بالأخص فادحة في نوعها، تتمثل في مقتل عبد الرحمن
وجمع كبير
من زعماء الجيش وقادته.
بل كان مقتل عبد الرحمن أفدح ما في هذه الخسارة، فقد كان خير ولاة
الأندلس، وكان أعظم قائد عرفه الإسلام في الغرب، وكان
الرجل الوحيد الذى استطاع بهيبته وقوة خلاله، أن يجمع كلمة الإسلام فى
اسبانيا، فكان لمقتله في هذا المأزق العصيب، ضربة شديدة لمثل الإسلام
ومشاريع
الخلافة في افتتاح الغرب (٢) .
ويعلق النقد الحديث على هذا اللقاء بين الإسلام والنصرانية أهمية كبرى،
وينوه بخطورة آثاره وبعد مداها في تغيير مصاير النصرانية وأمم الغرب، ومن
ثم في تغير تاريخ العالم كله.
وإليك طائفة مما يقوله أكبر مؤرخي الغرب
ومفكريه في هذا المقام:
قال إدوارد جيبون، إن حوادث هذه الموقعة " أنقذت آباءنا البريطانيين
وجيراننا الغاليين (الفرنسيين) من نير القرآن المدنى والدينى، وحفظت جلال
رومة وأخرت استعباد قسطنطينية، وشدت بأزر النصرانية، وأوقعت بأعدائها
بذور التفرق والفشل " (٣) .
ويعتبر المؤرخ أرنولد الموقعة " إحدى هاته المواقف

---

(١) قال ادوارد جيبون تعليقا على مزاعم الرواية الفرنجية " ولكن تلك القصة
الخرافية يمكن
ردها بحذر القائد الفرنسى (كارل مارتل) إذ توجس من شراك المطاردة
ومفاجآتها ورد حلفاءه

الألمان إلى أوطانهم.

ان سكون الفاتح ينم عن فقد الدماء والقوة، وأن أشنع تمزيق للعدو لا يقع
حين التحام الصفوف، وإنما حين الانسحاب وتولية الأدبار ".

(٢) راجع موسوعة Bayle تحت كلمة Abderame، ففيها أيضا إنكار
الرواية الفرنجية
عن خسائر العرب.

وفى هذه الموسوعة تعليقات وملاحظات مفيدة لطائفة من المؤرخين الفرنسيين
تجمع كلها على التنديد بمبالغة الرواية الفرنجية.

وراجع أيضا Dom Vissette: ibid , V.
I.
p.
٧٩٧
حيث يدحض مزاعم الروايات النصرانية.

(٣) Chh – Romann Empiree.
LII.

(١٠٩/١)

الرهيبة لنجاة الإنسانية وضمان سعادتها مدى قرون " (١) .

ويقول السير إدوار
كريزى: " إن النصر العظيم الذى ناله كارل مارتل على العرب سنة ٧٣٢
وضح
حدا حاسما لفتوح العرب في غرب أوربا، وأنقذ النصرانية من الإسلام، وحفظ
بقايا الحضارة القديمة، وبذور الحضارة الحديثة، ورد التفوق القديم للأمم
الهندية
الأوربية على الأمم السامية " (٢) .

ويقول فون شليجل في كلامه عن الإسلام

والإمبراطورية العربية: " ما كاد العرب يتمون فتح إسبانيا حتى تطلعوا إلى
فتح غاليا وبرجونية.
ولكن النصر الساحق الذى غنمه بطل الفرنج كارل مارتل
بين تور وبواتييه وضع لتقدمهم حداً، وسقط قائدهم عبد الرحمن في الميدان
مع
زهرة جنده.
وبذا أنقذ كارل مارتل بسيفه أمم الغرب النصرانية من قبضة الإسلام
الفتاكة، الهدامة إلى الذروة " (٣) ، ويقول رانكه: " إن فاتحة القرن الثامن من
أهم عصور التاريخ، ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا، وقد
وثبت
الوثنية كرة أخرى إلى ما وراء الرّين فنهض إزاء ذلك الخطر فتى من عشيرة
جرمانية هو كارل مارتل، وأيد هيبة النظم النصرانية المشرفة على الفناء، بكل
ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم، ودفعها إلى بلاد جديدة " (٤) .
ويقول زيلر:
" كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية.
وقد عاون هذا النصر
زعيم الفرنج على توطيد سلطانه، لا في غاليا وحدها ولكن في جرمانيا التي
أشركها في نصره " (٥) .
على أن هناك فريقاً من مؤرخي الغرب لا يذهب إلى هذا
الحد في تقدير نتائج الموقعة وآثارها.
ومن هذا الفريق المؤرخان الكبيران سسموندى
وميشليه، فهما لايعلقان كبير أهمية على ظفر كارل مارتل.
ويقول جورج فنلى:
" إن أثرة الكتاب الغاليين قد عظمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة
ناهبة من
عرب اسبانيا، وصورته كانتصار باهر، ونسبت خلاص أوربا من نير العرب

إلى شجاعة الفرنج، في حين أن حجاباً ألقى على عبقرية ليون الثالث
(إمبراطور
قسطنطينية) وعزمه، مع أنه نشأ جنديا يبحث وراء طالعه، ولم يكد يجلس
على

---

(١) History of the Roman Commonwealth
(٢) Decisive Battles of the World
(٣) Philosophie der Geschichte
(٤) History of the Reformation
(٥) Histoire de l'Allemagne.

.

(١/١١٠)

العرش حتى أحبط خطط الفتح، التي أنفق الوليد وسليمان طويلا في تدبيرها "
(١)
ونحن مع الفريق الأول نكبر شأن بلاط الشهداء أيما إكبار، ونرى أنها
كانت أعظم لقاء بين الإسلام والنصرانية، وبين الشرق والغرب، ففى سهول
تور وبواتييه فقد العرب سيادة العالم بأسره، وتغيرت مصائر العالم القديم كله،
وارتد تيار الفتح الإسلامى أمام الأمم الشمالية، كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام
أسوار قسطنطينية، وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم
الغرب، واخضاع النصرانية لصولة الإسلام.
ولم تتح للإسلام المتحد فرصة أخرى، لينفذ
الى قلب أوربا في مثل كثرته وعزمه واعتزازه، يوم مسيره إلى بلاط الشهداء.
ولكنه أصيب غير بعيد بتفرق الكلمة، وبينما شغلت إسبانيا المسلمة
بمنازعاتها
الداخلية، إذ قامت فيما وراء البرنيه إمبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة،

تهدد الإسلام في الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ.

---

(١) Byzantine Empire

(١/١١١)

الفصل السابع

الأندلس بين المد والجزر

صدى بلاط الشهداء.

اهتمام الخلافة بحوادث الأندلس.

تعيين عبد الملك بن قطن واليا للأندلس.

مسير ابن قطن إلى الشمال.

محاربته للثوار في الثغر الأعلى وبسكونية.

غزوه لأكوتين.

هزيمته أثناء

العودة.

صرامته وعزله.

ولاية عقبة بن الحجاج.

حزم عقبة وإصلاحاته.

غزوه لجليقية.

تحصينه

لقواعد الثغر.

غزواته في غاليس.

حوادث أكوتين.

عبد الرحمن اللخمى فارس الأندلس يغزو آرل.

تحالف مورنتوس دوق بروفانس مع العرب.

غزو القوات المتحدة لبرجونية.

اضطرام البربر بعوامل

الثورة.

إخماد الثورة في المغرب الأقصى.

ولاية إسماعيل بن عبيد الله للمغرب.

عودة الثورة بزعامة

ميسرة المدغرى.

استيلاء الثوار على طنجة.

الحرب بين العرب والبربر.

مصرع ميسرة.

موقعة

الأشراف.

ولاية كلثوم بن عياض لإفريقية.

الخلاف بين زعماء العرب.

مسير كلثوم إلى المغرب.

استئناف الحرب بين العرب والبربر.

هزيمة العرب ومقتل كلثوم.

امتناع الشاميين بسبتة.

ولاية

حنظلة بن صفوان لإفريقية.

الثورة في إفريقية الوسطى.

قتال حنظلة للثوار.

هزيمة البربر

ومصرع زعمائهم.

كان للخطب الجلل الذى أصاب الإسلام في بلاط الشهداء وقع عظيم فى بلاط دمشق، وفي جميع أرجاء العالم الإسلامى، وكان ارتداد الإسلام أمام أسوار

قسطنطينية قد وقع للمرة الثانية قبل ذلك بأربعة عشر عاما فقط، فكانت نكبة
البلاط تتمة الفشل المؤلم، الذى أصاب مشاريع الخلافة في افتتاح أمم
الغرب.
ْعلى أنها لم تكن خاتمة الفتوح الإسلامية في فرنسا.
وأثار هذا الخطب في نفس هشام بن عبد الملك، أيما اهتمام بشئون الأندلس
ومصير الإسلام في الغرب، فاختار عبد الملك بن قطن الفهرى واليا
للأندلس،
وأمره أن يعمل على حماية شبه الجزيرة، وتوطيد هيبة الإسلام في تلك
الأقطار

(١١٢/١)

النائية.
فعبر عبد الملك إلى اسبانيا، في جيش منتخب من جند إفريقية، في أواخر
سنة ١١٤هـ (١) .
كان ثوار المقاطعات الشمالية قد انتهزوا فرصة مقتل عبد الرحمن
وانحلال جيشه، وحاولوا أن ينزعوا عنهم نير الإسلام، فسار عبد الملك إلى
الثغر
الأعلى (أراجون) وهزم الثوار في عدة مواقع، ثم عبر البرنيه إلى بسكونية
(بلاد
البشكنس) (٢) سنة ١١٥ هـ (٧٣٣ م) ، وكانت دائما أشد المقاطعات
الجبلية
مراساً، وأكثرها خروجاً وانتقاضاً، فعاث فيها وشتت جندها وألجأهم إلى طلب
الصلح (٣) .
ثم سار إلى لانجدوك، وكان الفرنج منذ موقعة البلاط، يتطلعون إلى
استردادها، ويكثرون من الإغارة عليها، فنظم حامياتها، وحصن قواعدها.
ثم أغار على أراضي أكوتين وعاث فيها، فاعترضه الدوق أودو ورده، ولم

يخاطر
عبد الملك بالتوغل في أرض الفرنج لصغر جيشه فارتد إلى الجنوب، ولكنه
أثناء عبوره جبال البرنيه، هاجمته العصابات الجبلية البسكونية، وأصابته في
قتالها
خسارة كبيرة، فعاد إلى قرطبة دون أن يتمكن من إخضاعها.
ولم يطل عهد عبد الملك بعد عوده، فقد كان صارماً، شديد الوطأة، كثير
الظلم
والبطش (٤) .
فسخط عليه الزعماء وأولو الرأي، ودب الخلاف بين القبائل، وبدت
بوادر الفتنة.
هذا إلى أنه لم يوفق إلى إخماد الثورة في الولايات الشمالية، وتوطيد
سلطان الإسلام فيها.
فعزل في رمضان سنة ١١٦ لسنتين من ولايته.
واختار
عبيد الله بن الحبحاب عامل إفريقية، مكانه لولاية الأندلس.
عقبة بن الحجاج
السلولى.
فدخلها في شوال سنة ١١٦ (أواخر سنة ٧٣٤ م) .
وكان عقبة من
طراز عبد الرحمن الغافقى جندياً عظيماً، نافذ العزم والهيبة، محمود الخلال
والسيرة، كثير العدل والتقوى (٥) ، فأقام النظام والعدل، ورد المظالم، وقمع
الرشوة

---

(١) المقرى ج ٢ ص ٥٨، ابن الأثير ج ٥ ص ٦٤,
ولكن ابن عبد الحكم يقول إن ولاية ابن
قطن كانت سنة ١١٥هـ (ص ٢١٧) .

وهذا يرجع إلى أنه يقول كما قدمنا بوقوع بلاط الشهداء سنة ١١٥.
(٢) بسكونية أو بسكونس أو بلاد االبشكنس بالعربية هى vasconia
القديمة، وقد كانت
تشمل الرقعة الممتدة في غرب البرنيه بحذاء الشاطىء إلى شرق الأسترياس،
وكانت أهم أجزائها
ذلك العصر ولاية نافار التي يسميها العرب أحانا نبره، وكانت عندئذ إمارة
مستقلة يحكمها على
الأرجح زعيم أو أمير قوطى، ويشمل من مقاطعات اسبانيا الحديثة نافار
وبسكاية Vizcaya
(٣) المقرى ج ٢ ص ٥٨.
(٤) المقرى ج ١ ص ١١٠؛ وعن ابن بشكوال ج ٢ ص ٥٨.
(٥) المقرى ج ٢ ص ٥٨؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨.

*(١١٣/١)*

والاختلاس، وعزل الحكام الظلمة وألقاهم في غيابة السجن، وأقام مكانهم
جماعة من ذوى الحزم والنزاهة، وأنشأ كثيرا من المدارس والمساجد.
فاستقرت
الأحوال وخبت الفتنة، وتراضت القبائل.
واعتزم عقبة في الوقت نفسه أن يعيد
عهد الجهاد والفتوح العظيمة، وأن يوطد سلطان الإسلام في الولايات
الشمالية، وفى غاليس (فرنسا) .
فنظم الجيش وزاد في قواته وأهبته، وغزا جليقية وتوغل
فيها، واستولى على كثير من مواقعها، ولكنه لم بستطع أن يسحق بقية
النصارى
التي اجتمعت حول الزعيم القوطى بلاى (أو بلايو) ، وما زالت معتصمة
بأقاصى

الجبال في شعب عرفت لمنعتها " بالصخرة "، متحدية كل أمير وقائد مسلم
(١) .
وحصن عقبة جميع المواقع الإسلامية على ضفاف نهر الرون، واتخذ ثغر
أربونة
قاعدة للجهاد والغزو، فحصنها وبعث إليها بالجند والمؤن والذخائر.
وتقول
الرواية الإسلامية إن عقبة لبث طوال حكمه الذى امتد خمسة أعوام مثابرا
على
الجهاد والغزو، وأنه كان يخرج للغزو كل عام، حتى عاد نهر الرون رباط
المسلمين أو معقل فتوحاتهم (٢) ، بعد أن كان الفرنج قد استردوا ما بيد
المسلمين
في تلك الأنحاء.
ولا تفصل الرواية الإسلامية حوادث هذه الغزوات، ولكن
الروايات الفرنجية المعاصرة تلقى عليها شيئا من الضياء، وإليك ملخص
الغزوات
الإسلامية في غاليس في تلك الفترة حسبما تقصه علينا تلك الروايات:
رأى الفرنج على أثر ما أصاب المسلمين في بلاط الشهداء، أن الفرصة قد
سنحت لإخراجهم من فرنسا.
ولكن كارل مارتل شغل حينا بمحاربة القبائل
الوثنية فيما وراء الرّين، في فريزيا وسكسونية، وشغل أودو برد العرب حينما
غزوا أكوتين مرة أخرى بقيادة ابن قطن.
ثم توفى أودو في العام التالى (سنة
٧٣٥ م) ، وتخلص كارل مارتل بذلك من منافسه القوى، وبادر إلى غزو
أكوتين
ودخل بوردو عاصمتها، وأقام هونالد ولد أودو دوقا مكان أبيه، على أن تكون
أكوتين تابعة للمملكة الفرنجية.

وفى تلك الأثناء ولى الأندلس عقبة بن الحجاج، وأخذ ينظم الأهبة لاسترداد الثغور الإسلامية الشمالية.

وفى سنة ٧٣٥ م (١١٧هـ)

غزا العرب مدينة آرل للمرة الثانية، بقيادة عبد الرحمن بن علقمة اللخمى والى

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩.

(٢) المقرى ج ٢ عى ٥٨؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩.

(١١٤/١)

أربونة، الموصوف بأنه " فارس الأندلس في عصره " تنويها بشجاعته الفائقة (١)

واستولوا عليها.

وكانت الولايات المجاورة لسبتمانيا الواقعة حول ضفاف الرون، وكلها مزيج من القوط والبرجونيين، تنزع إلى الخروج على كارل مارتل، وتحاول التخلص من نير الفرنج، وكان الدوق مورنتوس أو مورنت أمير

بروفانس أقوى زعماء هذه المنطقة، يحكم ما بين نهر الرون وجبال الألب، ويسعى

إلى توطيد استقلاله.

وتوزيع ملكه على نحو ما كان يفعل أودو في أكوتين، فاتصل بالعرب وتحالف معهم.

وفى سنة ٧٣٦ م عبر الدوق وعبد الرحمن اللخمى

الرون في جيش مشترك، واستولوا على مدينة أفنيون ورغم حصانتها (٢) . واخترق

العرب بعد ذلك إقليم دوفينه، استولوا على أوسيز وففييه وفالانس وفيين وليون وغيرها، وغزوا برجونية وحصلوا على غنائم لا تحصى (٣) .

وعلم كارل مارتل

بذلك أثناء انشغاله بالحرب في سكسونية، فبعث أخاه شلدبراند في جيش ضخم
ليصد العرب، ثم لحق به جيش آخر، وزحف الفرنج على أفنيون في كثرة
وهاجموها بشدة حى سقطت في أيديهم، وقتلوا حاميتها المسلمة، وتحصن العرب
في أربونة، فسار إليها كارل مارتل، وحاصرها فقاومه المسلمون أشد مقاومة.
وردوا كل هجماته.
وأرسل بقية في الحال جيشا لإنقاذ المدينة، فقصدها من
جهة البحر.
وجاز إلى الشاطى قبل أن يشعر به الفرنج حتى صار على مقربة
من أربونة.
فلما علم كارل بمقدم هذا الجيش الجديد، بادر إلى لقائه ونشبت بينه
وبين العرب موقعة هائلة، فيما بين البحر وأربونة، هزم فيها العرب هزيمة
شديدة، وطاردهم الفرنج حتى الشاطىء، فلم ينج منهم سوى شراذم قليلة لجأت
إلى السفن، وذلك في ربيع سنة ٧٣٧ م (١١٩هـ) ومع ذلك فلم تسلّم أربونة
ولم يهن عزمها.
فاضطر عندئذ كارل مارتل إلى رفع الحصار عنها، وارتد إلى مهاجمة المواقع
الإسلامية الأخرى، فاستولى على بزييه وأجده وماجلونة وخرب قلاعها
ومعاهدها، وأحرق نيمة وآثارها الرومانية الفخمة، فغدت جميعا أطلالا دارسة، بعد أن
كانت أيام المسلمين زاهرة باسمة، وحول السهل الواقع غرب سبتمانيا وشمالها إلى
قفر بلقع ليحول دون تقدم المسلمين.
وهنا وصلته الأنباء بوفاة تيودوريك الرابع

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩ و٦٢.
(٢) وهى في الرواية العربية " صخرة أبنيون " (راجع نفح الطيب ج ١ ص
١٢٨ ) .
(٣) Dom Vissette: ibid, V.
I.
p.
٨٠٣

(١١٥/١)

ملك الفرنج الميروفنجى (سبتمبر سنة ٧٣٧) ، فارتد مسرعاً إلى عاصمة
ملكه
ليتقى تدابير خصومه، ولم يقم ملكا جديداً على العرش رغم وجود أعضاء
من الأسرة الميروفنجية، بل آثر أن يترك العرش خاليا، حتى تمهد الظروف
له
أو لبنيه اعتلاءه، وتتويج سلطان محافظ القصر الفعلى بألقاب الملك.
وفى ذلك الحين كان عقبة بن الحجاج يتأهب لاستئناف الغزو، واسترداد
ما انتزعه كارل مارتل من قواعد سبتمانيا.
ففى ربيع سنة ٧٣٨ م (١٢٠هـ) عبر
عقبة جبال البرنيه في جيش ضخم ونفذ إلى سبتمانيا، وعبر الرون واسترد
مدينة
آرل للمرة الثالثة أو الرابعة.
ثم استولى بمعاونة الدوق مورنتوس على أفنيون وعدة
معاقل أخرى قى بروفانس.
وكان كارل في ذلك الحين قد عاد إلى محاربة
السكسونيين، فبعث لقتال العرب جيشا بقيادة أخيه شلدبراند، واستغاث
بصهره وحليفه لوتيراند ملك اللومبارد (١) ، فغزا بروفانس من جهة الشرق

ليضيق على قوات الدوق، ثم أسرع كارل إلى الرون بجيش ثالث، وزحفت الجيوش المتحدة على مواقع المسلمين، فاضطر عقبة إلى إخلاء بروفانس والارتداد
الى ما وراء الرون، واستولى الفرنج أيضا على معظم سبتمانيا، ولم يبق منها بيد
المسلمين سوى أربونة، ورقعة ضيقة من الأرض على الشاطىء بين أربونة والبرنييه، ومزقت قوى الدوق مورنتوس، وطارده الفرنج في شعب الجبال، ففر ناجياً
بحياته، واستولى الفرنج على أراضيه، واصطدم عقبة حين عبوره البرنييه إلى الأندلس بعصابات قوية من البسكونيين والقوط، حاولت بتحريض الفرنج أن تسد دونه ممرات الجبال، فتكبد في تمزيقها بعض الخسائر، ولكنه ارتد بجيشه سالما إلى قرطبة.
وكان هذا اللقاء الأخير بين العرب والفرنج في سهول
الرون في سنة ٧٣٩ م (١٢١هـ) (١) .
ثم تولى عقبة بن الحجاج بعد ذلك بقليل، وقدمت الجماعة مكانه عبد الملك ابن قَطَن، فولى الأندلس للمرة الثانية.
وقيل بل ثار ابن قطن على عقبة في جمع

---

(١) يسمى العرب لومبارديا أنكبردة، واللومبارد بالأنكبرد، محرفة عن التسمية القديمة
(لانجوبارد) Langobard (راجع معجم ياقوت الجغرافى ج ١ ص ٢٦٢) ،
(٢) رجعنا في تفصيل هذه الغزوات والوقائع إلى ما ورد في موسوعة Bouquet من أقوال
الرواة والمؤرخين المعاصرين من الأحبار وغيرهم.
راجع أيضا: Dom Vissette: ibid , V.
I.

كبير من أنصاره، وكان عقبة قد ولاه على أثر عزله، قيادة الجيش في
الشمال، فلبث يتحين الفرص للخروج والثورة.
فأسر عقبة وقتل، أو أسر حتى توفى، وانتزع ابن قطن ولاية الأندلس لنفسه،
ووقع هذا الانقلاب سنة ١٢٢ هـ (١) ، وقيل بل سنة ١٢٣.
قال الرازى: " ثار أهل الأندلس بأميرهم عقبة في صفر
سنة ثلاث وعشرين، في خلافة هشام بن عبد الملك، وولوا عليهم عبد الملك
بن
قطن ولايته الثانية، وكانت ولاية عقبة ستة أعوام وأربعة أشهر، وتوفى
بقرمونة
في صفر سنة ثلاث وعشرين واستقام الأمر لعبد الملك " (٢) .
وعلى أى حال فقد
كان هذا الانقلاب بالنسبة للأندلس فاتحة عهد من الاضطراب والفتن والحرب
الأهلية المتصلة كما سنرى.
ويجب لكى نعرف عوامل هذا الاضطراب، أن نعود إلى حوادث إفريقية
قبل ذلك بثلاثة أعوام أو أربعة.
ففى سنة ١١٦هـ عُين عبيد الله بن الحبحاب عامل
مصر والياً لإفريقية، وقد بينا فيما سلف كيف كان البربر يضطرمون سخطاً
على
سادتهم العرب، وشرحنا طرفاً من عوامل هذا السخط، وبينا كيف أن دعوة
الخوارج ذاعت بين البربر منذ أواخر القرن الأول، فأقبلو على اعتناقها لما
تضمنت
من مبادئ الحرية والديمقراطية، والحث على مقاتلة الغاصبين للرياسة والحكم.

كذلك رأينا كيف استبسل البربر في الدفاع عن حرياتهم، وانقضوا على الفاتحين
غير مرة، وحطموا سلطانهم، وفتكوا بقادتهم وجيوشهم، ولم يخضعوا لنير العرب إلا بعد كفاح رائع، استطال زهاء نصف قرن.
ومع أن الأمر استتب
للعرب آخر الأمر، واستطاعوا أن يفرضوا سلطانهم ودينهم على البربر، وأن يتخذوهم جندا لجيوش الخلافة في الغرب، فإن البربر لبثوا يعتبرون العرب أجانب
غاصبين لحرياتهم، ولبثت القبائل البربرية القاصية، تضطرم دائما بنزعات الخروج والثورة.
وكانت مثل هذه العواطف تحفز البربر في اسبانيا، إلى مخاصمة
العرب وألسخط عليهم والتربص بهم، خصوصاً لأنهم رغم قيامهم بمعظم أعباء
الفتح، لم يفوزوا بكثير من مغانمه، واستأثر العرب دونهم بالسلطان والحكم.
وفى ذلك يقول ابن خلدون: " ثم نبضت فيهم (أى البربر) عروق الخارجية

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩.
(٣) المقرى عن الرازى (نفح الطيب ج ١ ص ١١٠) .
راجع أيضا عن مصير عقبة، نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨، وابن الأثير ج ٥ ص ٩٢، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٩.



فدانوا بها، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق، وتعددت طوائفهم، وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية.
وفشت هذه البدعة وعقدها رؤوس
النفاق من العرب، وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاء على الأمر،

فاختلوا في كل جهة، ودعوا إلى قاندهم طغام البربر، تتلون عليهم مذاهب كفرها، ويلبسون الحق بالباطل فيها، إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائسها. ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمر العرب " (١) .

ويصف دوزى موقف البربر من العرب فيما يأتى: " اعتنق البربر سكان الأكواخ الحقيرة، كل التعاليم بحماسة لا توصف، ولا ريب أنهم لجهالتهم وسذاجتهم، لم يدركوا شيئاً من تضارب المذاهب ودقائقها، مما تدركه وتسيغه أذهان مستنيرة، فمن العبث إذاً أن نبحث عن أى الفرق كانوا يفضلون الانضمام

إليها، وعما إذا كانوا من الحرورية أو الصفرية أو الإباضية، فقد اختلف الرواة في ذلك.

ولكنهم كانوا يفقهون من المبادئ.

ما يسمح لهم باعتناق المبادئ الثورية

والديمقراطية، ومشاطرة الآمال الخيالية التي يذيعها فقهاؤهم في المساواة العامة، وما يقنعهم بأن ظالميهم كانوا آثمين نصيبهم النار.

ولماكان الخلفاء منذ عثمان جميعاً

غاصبين غير مؤمنين، فلم يكن جريمة أن يثوروا على المظالم الذى يسلبهم أراضيهم

ونساءهم.

فقد كان هذا حقاً بل كان واجباً.

ولما كان العرب قد أبعدوهم عن

السلطة، ولم يتركوا لهم إلا ما عجزوا عن أخذه منهم، أعنى حكم القبائل، فقد اعتقدوا بسهولة أن نظرية سيادة الشعب، وهى نظرية يعتنقونها في ظل استقلالهم

الوحشى منذ غابر العصور، إنما هى نظرية عريقة في الإسلام عريقة في الإيمان.

وأن أقل بربرى يمكن رفعه إلى العرش برأى الجماعة.

وهكذا كان هذا الشعب

الذى بولغ في ظلمه، يثيره متعصبون أنصاف فقهاء وأنصاف جند، وينزع إلى رفع هذا النير باسم الله وباسم النبى، وباسم هذا الكتاب المقدس (القرآن) الذى اعتمد عليه آخرون في إقامة الطغيان الرائع " (٢) .

فلما ولى عبيد الله بن الحبحاب إفريقية، كانت القبائل البربرية تضطرم بعوامل الثورة ولاسيما في المغرب الأقصى، فسير عبيد الله إلى مواطن الثورة في قاصية

المغرب جيشاً بقيادة حبيب بن أبي عبيدة الفهرى، فأثخن في هاتيك الأنحاء ومزق

________

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠.

(٢) Dozy: Hist.

V.

I.

p.

١٤٩ - ١٥٠

(١١٨/١)

جموع الثائرين، وعاد مثقلا بالغنائم والسبى، وسادت السكينة حيناً في المغرب الأقصى.

وسير ابن الحبحاب حبيباً في معظم قواته في غزوة بحرية إلى سردانية وصقلية، وعين ولده إسماعيل واليا للمغرب الأقصى.

ولكن هذه السكينة كانت

ظاهراً خلباً فقط، فقد كان البربر يتوقون إلى الانتقام ويرقبون الفرص. وكان

إسماعيل يحفزهم ويثيرهم بعسفه وسوء تصرفه، وذاع فوق ذلك أنه ينوى أن

يعتبر
مسلمى البربر كالنصارى فيئاً وغنيمة، وأن يفرض الأخماس عليهم.
فذكا الهياج
واستفحل، وانتهز البربر فرصة غياب الجيش والقادة في صقلية، فأعلنوا الثورة والتفوا حول داعية من الخوارج الصفرية، وهو سقاء يدعى ميسرة المدغرى، وانقضوا على طنجة وهزموا حاميتها، وقتلوا قائدهم عمر بن عبد الله، واستولوا عليها ودعوا لميسرة بالخلافة.
ثم زحفوا على السوس وهزموا إسماعيل بن عبيد الله
وقتلوه، فقويت جموعهم واستفحل شأنهم، وذاعت الدعوة الخارجية في قفار المغرب ذيوعاً كبيراً، واضطرب سلطان العرب في معظم النواحى.
فسير ابن
الحبحاب في الحال جيشاً إلى المغرب الأقصى بقيادة خالد بن حبيب،
واستدعى
حبيب بن أبي عبيدة وجيشه من صقلية، ووقعت بين خالد والبربر بقيادة
ميسرة
معارك شديدة غير حاسمة في ظاهر طنجة، تم ارتد ميسرة إلى طنجة حينا،
واغتاله
بعض أنصاره لأمور نقموها منه، وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتى، وهو من
بطون زناتة.
فبرز لقتال العرب ثانية، ونشبت بين الفريقين في مكان يعرف بوادي
سلف، معارك هائلة هزم فيها العرب، وقتل خالد بن حبيب وجماعة كبيرة من الزعماء والقادة، وسميت الموقعة لذلك بغزوة الأشراف (أوائل سنة ١٢٣هـ)
(١) .
فلما رأى هشام بن عبد الملك عجز ابن الحبحاب عن ضبط الأمور، استدعاه وأقاله، واعتزم أن يخمد ثورة البربر بأى الوسائل، فعين لولاية إفريقية كلثوم ابن عياض القشيرى (٢) ، وسيره إليها في جيش ضخم من عرب الشام،

بقيادة

ابن أخيه بَلْج بن بشر القشيرى (جمادى الثانية سنة ١٢٣) واجتمعت إليه أثناء

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٧ و٢١٨؛ ابن الأثير ج ٥ ص٧٠؛ ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠

(٢) هكذا يسميه ابن الأثير (ج ٥ ص ٧٠) ، وابن خلدون (ج ٦ ص ١١١) ، والمقرى

(ج ٢ ص ٥٨) ولكن ابن عبد الحكم يسميه كلثوم بن عياض القيسي (ص ٢١٨،.

وكذا بلج

ابن بشر فيسميه القسيى بدلا من القشيرى (ص ٢١٩) .

*(١١٩/١)*

مسيره قوات أخرى من مصر وطرابلس، حتى بلغ جيشه زهاء سبعين ألفا (١) .

وكان حبيب بن أبي عبيدة قد وقف بحيشه في منتصف الطريق، مترددا لما رآه

من استفحال أمر البربر، فاستوقفه كلثوم حتى يصل إليه.

وكان حبيب وزعماء

العرب في إفريقية، يتوجسون شرا من غلبة الشاميين، فاستقبلوا كلثوما وبَلْجا بفتور وأبدى بلج بالأخص جفاء وخشونة في معاملة أهل القيروان، وثارت بينه وبين حبيب مناقشات عاصفة، وكاد الخلاف يضطرم بين الفريقين، ويرتد العرب لقتال بعضهم بعضا لولا أن غلبت الحكمة إزاء الخطر الداهم (٢) . فسارت

القوات المتحدة لقتال البربر، وسار البربر لقتالهم من طنجة في جموع زاخرة

بقيادة خالد بن حميد الزناتى، ونشبت بين الفريقين على مقربة من طنجة في مكان
يعرف بوادي سبسر، معارك هائلة كان النصر فيها حليف البربر، فمزق العرب
للمرة الثالثة، وقتل كلثوم وحبيب وكثير من الزعماء والقادة (٣) .
وارتدت فلول
العرب إلى القيروان، وفر بلج بن بشر ونفر من الزعماء، منهم ثعلبة بن سلامة
الجذامى وعبد الرحمن بن حبيب في بقية من جند الشام إلى سبتة، فامتنعوا بها
واستغاثوا والى الأندلس عبد الملك بن قطن، ووقعت هذه النكبة في أواخر سنة ١٢٣ أو أوائل سنة ١٢٤هـ (٧٤١ م) .
عندئذ سير هشام بن عبد الملك والى مصر، حنظلة بن صفوان الكلبى واليا لإفريقية، فقدمها في ربيع الثاني سنة ١٢٤.
وكانت دعوة الخوارج قد سرت
أيضاً إلى إفريقية الوسطى، بعد أن خرج المغرب الأقصى من قبضة الخلافة، وثار البربر في كثير من النواحى.
وخرج منهم في ناحية قابس زعيم يدعى عكاشة
الفزارى.
وخرج في غرب القيروان زعيم آخر هو عبد الواحد بن يزيد الهوارى.
فحشد حنظلة كل قواته، ولقى الفزارى أولا، وهزمه وبعد معركة عنيفة ومزق جموعه.
ثم التقى بجيش عبد الواحد على مقربة من القيروان بمكان يعرف بالأصنام،

---

(١) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٥٨.

(٢) ابن عبد الحكم (ص ٢١٩) ، وابن الأثير (ج ٥ ص ٧٠) وراجع أيضا

دوزى:
.Hist, V
.I
.p
٣٤٥
(٣) يتفق ابن عبد الحكم (ص ٢٢٠) وابن الأثير (ج ٥ ص ٧١) وابن
خلدون (ج ٦
ص ١١١) ، على أن كلثوم بن عياض قتل في الموقعة، ولكن المقرى يقول
نقلا عن ابن حيان إنه
فر مع بلج إلى سبتة، وعبر إلى الأندلس حيث توفى (ج ٢ ص ٥٨ - ٥٩)
.

(١٢٠/١)

ويقال إن جموع البربر بلغت يومئذ ثلاثمائة ألف، وبلغ العرب أربعين ألفاً فقط
(١) .
ونشب بين الفريقين قتال رائع ثبت فيه العرب، ومزق البربر وقتلت منهم
جموع
عظيمة، وقتل عبد الواحد وأسر الفزارى وقتل بأمر حنظلة.
وكانت هذه الموقعة
الشهيرة سنة ١٢٥هـ (٨٤٢ م) .
وليس من موضوعنا أن نتتبع ما تلا من الحوادث في إفريقية (٢) ، ويكفى
أن نقول إن ثورة الخوارج لبثت على اضطرامها، وظهر الثوار والمتغلبون فى
كل ناحية، ولبثت إفريقية عصراً آخر فريسة الاضطراب والفوضى،
واضمحلت
سيادة العرب " ثم زالت غير بعيد لتحل مكانها سيادة المستعربين من البربر
والموالى.

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ٧١.
(٢) يفصل ابن خلدون هذه الحوادث في ج ٦ ص ١١١ وما بعدها، وكذلك ابن عبد الحكم
في أخبار مصر وفتوحها ص ٢٣٣ وما بعدها.

*(١/١٢١)*

الفصل الثامِنُ

الحرب الأهلية

صدى حوادث إفريقية في الأندلس.
استغاثة الشاميين بابن قطن.
إعراضه عن دعوتهم.
ثورة
البربر في الأندلس.
مفاوضة ابن قطن لبلج زعيم الشاميين واستقدامهم.
سير القوات المتحدة لمحاربة
البربر.
هزيمة البربر في شذونة وقرطبة.
سحق ثورتهم.
مطالبة ابن قطن الشاميين بالجلاء.
ثورة
بلج بن بشر وادعاؤه ولاية الأندلس.
مقتل ابن قطن وولاية بلج.
ثورة أمية وقطن ابنى عبد الملك.
الخصومة بين الشاميين والعرب المحليين.
لقاء الفريقين في ظاهر قرطبة.

مصرع بلج وانتصار
الشاميين.
ولاية ثعلبة بن سلامة.
ضعف حكومة قرطبة.
خروج الزعماء في مختلف النواحى.
استئناف الحرب بين الشاميين وخصومهم.
هزيمة ثعلبة ثم فوزه.
مقدم أبي الخطار الوالى الجديد.
قبضه على زمام السلطة.
تفرقته للشاميين.
ضمه لولاية تدمير إلى الأندلس.
مطاردته للزعماء الخوارج.
سكون الفتنة.
تعصب أبي الخطار لليمنية.
الصميل بن حاتم زعيم المضرية.
ثورة المضرية والجذامية.
الحرب بين الفريقين.
هزيمة أبي الخطار.
ولاية ثوابة بن سلامة.
ثورة أبي الخطار.
زحفه على
قرطبة.
فشله وهزيمته.
الخلاف بين اليمنية والمضرية.
ولاية عبد الرحمن اللخمى لشؤون الحكم.
الاتفاق

على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى.
كان لهذه الفتنة التي اضطرمت في إفريقية، بين العرب والبربر.
وما اقترن
بها من الأحداث الخطيرة، صداها في شؤون الأندلس.
وكانت الأندلس تتبع
يومئذ إفريقية من الوجهة الإدارية، فكان لاضطراب الحكم في إفريقية أثره فى اضطراب الحكم في الأندلس، كما كان لثورة البربر في المغرب.
أثرها في تحريك
البربر في الضفة الأخرى من البحر.
وقد سبق أن بينا كيف كان البربر في شبه
الجزيرة الإسبانية يجيشون سخطا على العرب.
لما استأثروا به دونهم من مغانم
السيادة والحكم، وكيف كانت عصبية القبيل تمزق وحدة العرب أنفسهم، وكيف كانت عوامل التنافس والتنازع، تضطرم باستمرار بين اليمنية والمضرية.
وسنرى الآن كيف كان صدى هذه العوامل المختلفة قوياً بارزاً في حوادث الأندلس، وفي اضطراب شئونها، وتمزيق وحدتها.
وكيف انحدرت الأندلس
من جرائها، إلى معترك خطر من الفتن، والحروب الأهلية الطاحنة، والفوضى.
تولى عبد الملك بن قطن الفهرى إمارة الأندلس للمرة الثانية على أثر وفاة عقبة بن الحجاج سنة ١٢٢ أو ١٢٣هـ، وثورة البربر يومئذ على أشدها في المغرب

الأقصى.
فلما هزم الجيش العربى في مفاوز طنجة للمرة الثالثة، وقتل كلثوم
ابن عياض والى إفريقية ومعظم قواده، فر بَلْج بن بشر في بقية من جند
الشام إلى
سبتة، وامتنع بها حسبما أسلفنا، فطاردهم البربر وشددوا الحصار عليهم حتى
جهدوا وأشرفوا على الهلاك.
واستغاث بلج وزملاؤه بعبد الملك بن قطن ورجوه
أن يعاونهم على العبور إلى الأندلس.
وكان عبد الملك مضريا شهد موقعة الحَرَّة (١)
قبل ذلك بستين عاماً، وشهد ما ارتكبه جند يزيد في المدينة من رائع السفك
والإثم، فكان يبغض الشاميين أشد البغض، وكان فوق ذلك يخشى مطامعهم
ومنافستهم، فأبى إغاثتهم بادىء ذى بدء، وعاقب بالجلد والقتل زعيما من بني
لخم، أمدهم
ببعض المؤن، ولكنه من جهة أخرى خشى عاقبة تصرفه، وأن يتهمه الخليفة
بالعمل على إهلاك جنده.
ولم يمض قليل حتى اضطرته الحوادث نفسها إلى استدعاء
بَلْج وأصحابه.
ذلك أن ثورة البربر كان لها في الأندلس أكبر صدى، فتحرك
البربر في معظم الأقاليم الشمالية.
وعصفت بالأندلس ريح ثورة بربرية دينية
سياسية، كتلك التي عصفت بإفريقية، وإن كانت دونها شدة، واضطرمت الثورة
بالأخص في جليقية وماردة وقورية وطَلْبيرة، وحشد الثوار جموعهم واختاروا
لهم إماما، واعتزموا الزحف على طليطلة وقرطبة ثم الجزيرة، ليمهدوا لبربر
العدوة سبيل القدوم إلى اسبانيا، ومعاونتهم على سحق العرب.
واستطاع البربر، وهم في عنفوان ثورتهم، أن يهزموا كل الحملات، التي
وجهها ابن قطن

لإخضاعهم.
وهنا ارتاع ابن قطن، وفكر في الحال أن يستعين بجند الشام
المحصورين في سبتة، وهم زهاء عشرة آلاف، فكتب إلى بلج يدعوه إلى
معاونته، واشترط عليه للعبور إلى الأندلس، أن يغادرها متى صلحت حال
جنده، وانتهت
الثورة.
فقبل بَلْج وقدم الرهائن من أصحابه لتنفيذ هذا الميثاق.
وعبر بَلْج وأصحابه
إلى الأندلس (سنة ١٢٣ هـ) ، وقدمت إليهم المؤن والثياب.
وانضموا إلى قوات
ابن قطن بقيادة ولديه أمية وقطن.
والتقت القوات المتحدة بالبربر أولا في شذُونة
(مدينة سدونيا) فهزم البربر، وأصاب الشاميون منهم غنائم كثيرة.
ثم وقع
القتال في ظاهر قرطبة مع جموع البربر الزاحفة عليها، فهزموا أيضا بعد
مقاومة

---

(١) هى ضاحية المدينة الشرقية وتعرف بحرة واقم، وكانت موقعة الحرة سنة
٦٣ هـ؛ وفيها
هاجم جند يزيد بن معاوية المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرى، واستباحوها
وقتلوا من أهلها جموعا
كبيرة، ونهبوا الأموال، وسبوا الذرية، وهتكوا الأعراض؛ وكانت من أشنع
الوقائع.

شديدة، ثم هزم البربر للمرة الثالثة، في وادي سليط على مقربة من طليطلة، وكانوا قد بدأوا حصارها.

وبذلك سحقت الثورة، ومزق البربر وطوردوا فى
كل مكان، وانتعش بلج وأصحابه وقويت نفوسهم واشتدت شوكتهم (١) .

وعندئذ طالب ابن قَطَن بتنفيذ الميثاق وجلاء الشاميين عن الأندلس متوجسا من بقائهم.

ولكن بَلْجا كانت تحدوه أطماع أخرى، فماطل في الجلاء وسوّف، ثم كشف القناع فجأة، وادعى أنه أمير الأندلس الشرعى بعهد من عمه كلثوم، وأيده في ذلك ثعلبة بن سلامة وغيره من الزعماء.

ثم نادى الشاميون بخلع ابن قطن
وتولية بلج، وانحازت إليه اليمانية، ووثب بلج وأصحابه على ابن قطن وهو فى
قلة من جنده فقبضوا عليه بقصره بقرطبة، وكان شيخاً قد أشرف على التسعين
فلم يرحموا شيخوخته بل قتلوه وصلبوه ومثلوا بجثته، فتم الأمر بذلك لبلج بن بشر
القشيرى، وتولى إمارة الأندلس في أوائل ذى القعدة سنة ١٢٣ هـ (سبتمبر سنة ٧٤١ م) (٢) .

ولكن الفتنة لم تنته بعد.

فإن أمية وقَطَن ابنى عبد الملك فرا إلى الشمال، وحشدا جموعهما في سرقسطة، وآزرهما البلديون (العرب المحليون) والبربر، وانضم إليها جماعة من الزعماء، الذين أنكروا فعلة بلج بعبد الملك، مثل عبد الرحمن
ابن حبيب الفهرى كبير الجند، وكان من أنصار بلج قبل الانقلاب، وعبد الرحمن
ابن علقمة اللخمى، حاكم أربونة " فارس الأندلس في عصره "، وكان قوى البأس كثير الأتباع.

وانقسمت الأندلس بذلك إلى معسكرين كبيرين، معسكر
الشاميين (٣) المتغلبين على الحكم، ومعسكر العرب والبربر المحليين الذين
اعتبروا
الشاميين دخلاء غاصبين، فعظمت الفتنة واشتد الاضطراب، وسار أمية
وقطن
وأنصارهما إلى قرطبة لقتال الشاميين في جيش قيل إنه بلغ نحو مائة ألف،
وتأهب بلج وأنصاره للدفاع في نحو عشرين ألفاً، والتقى الفريقان على مقربة
من قرطبة في شوال سنة ١٢٤ (أغسطس سنة ٧٤٢ م) ونشبت بينهما
معارك

---

(١) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٥٩، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٠
و ٣١، وراجع
أيضا: Dozy: Hist.
V.
I.
p.
١٦٨
(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٢٠، وابن الأثير ج ٥ ص ٩٢.
(٣) ويعرف هؤلاء الجند الشاميون أيضا " بالطالعة البلجية " نسبة إلى
زعيمهم بلج (ابن
الأبار في الحلة السيراء - ليدن - (ص ٥١) .

*(١٢٤/١)*

شديدة، وأبدى الشاميون شجاعة وجلداً.
ولكن عبد الرحمن اللخمى صمم
على قتل بلج، فحمل بجند أربونة على الشاميين، وشق بينهم طريقاً إلى مكان

بلج، وأثخنه طعاناً توفى منها بعد أيام.
ومع ذلك فقد انتصر الشاميون على
البلديين انتصاراً باهراً فارتدوا منهزمين.
وعاد الشاميون ظافرين إلى قرطبة، وقدموا عليهم ثعلبة بن سلامة العاملى،
وكان من أصحاب بلج الذين عبروا
معه إلى الأندلس كما قدمنا.
فتولى إمارة الأندلس، وقيل في إمارته ما قيل
في إمارة بلج، من أنه وليها بعهد من الخليفة، أو من كلثوم والى افريقية
يليها بعد بلج، وكانت ولايته في شوال سنة ١٢٤ (١) .
فقبض ثعلبة على
زمام الأمور بحزم، وحاول أن يضبط النظام والأمن، وأبدى كثيرا من
اللين والاعتدال، ولكن سلطان الحكومة المركزية كان قد تضعضع، وانقسمت
الأندلس إلى مناطق عديدة للنفوذ، ولبثت الغلبة في الأقاليم الوسطى
والشمالية، لجماعة من الزعماء الخارجين على حكومة قرطبة، مثل أمية
وقطن ابنى
عبد الملك، وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى، وعبد الرحمن اللخمى حاكم
أربونة، واستمر يؤازر هذا الفريق سواد العرب المحليين والبربر.
ولم تمض أشهر قلائل حتى
اضطرمت الحرب مرة أخرى بين الفريقين المتنازعين، ونشبت بينها مواقع
عديدة على مقربة من ماردة، فهزم الشاميون أولا واعتصم ثعلبة بقلعة ماردة،
ولكنه عاد فكر على خصومه وهزمهم هزيمة شنيعة، وأسر وسبى منهم
جموعا
كبيرة، وعاد ظافرا إلى قرطبة، وقرر إعدام الأسرى ليلقى على خصومه درسا
قاسياً.
ولكنه قبل أن يتمكن من تنفيذ عزمه، قدم إلى قرطبة حاكم جديد
للأندلس، هو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى، بعثه حنظلة بن صفوان

والى
إفريقية، إجابة لجماعة من زعماء الأندلس، خشوا من عواقب الفتنة، وما قد
تؤدى
إليه من استظهار نصارى الشمال، وإغارتهم على الأراضي الإسلامية (٢) ،
وقيل
إن الذى اختار أبا الخطار لولاية الأندلس، هو هشام بن عبد الملك (٣) ،
اختاره
قبيل وفاته بقليل، إذ توفى في ربيع الثاني سنة ١٢٥.
وقدم أبو الخطار إلى الأندلس

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢ و٣٣؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٩ و٦٠؛
وابن الأثير
ج ٥ ص ٩٥.
(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢١؛ وأخبار مجموعة ص ٤٥؛ وابن الأبار في
الحلة السيراء
ص ٤٦؛ وكذلك Dozy: Hist , V.
I p.
١٦٨
(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ١٠٠؛ وابن الأبار ص ٤٨.

(١٢٥/١)

فى رجب، ولم يكن مضى على ولاية ثعلبة سوى عشرة أشهر، فقبض في
الحال
على زمام السلطة.
وأفرج عن جموع الأسرى والسبايا، التي اعتزم أن يزهقها
وينكل بها ثعلبة، واهتم برد السكينة والنظام، وإخماد شوكة الزعماء الخارجين،

ففرق الشاميين في مختلف الكور تمزيقا لعصبتهم، وأنزل جند الشام بإلبيرة (غرناطة) ، وجند حمص بإشبيليقولَبْلة، وجند فلسطين بشذونة والجزيرة، وجند الأردن برَيُّه، وجند قنسرين بجيان، وجند مصر بعضهم في أكشُونبة وباجة والبعض في تدمير.

ونذكر أن ولاية تدمير (مرسية) كانت قد تركت عند

الفتح لصاحبها تيودمير، وفقا للمعاهدة التي عقدت بينه وبين عبد العزيز بن موسى (١) ، ولكن تيودميركان قد توفى، وخلفه في حكم الولايقولده أتاناجلد. واعتبر أبو الخطار.

أن نص المعاهدة، كان قصرا على تيودمير، وأنه لا يسرى على

خلفائه، وطالب أتاناجلد بتأدية الجزية لحكومة قرطبة، وأنزل جند مصر قسرا بقواعد تدمير، وأقطعهم أراضيها، وبذلك فقد القوط آخر معاقلهم الحرة فى الجنوب، وضمت تدمير إلى باقى ولايات الأندلس، تحت سلطان الحكومة المركزية (٢) .

وتتبع أبو الخطار الزعماء الخارجين، فقبض على ثعلبة ونفاه إلى

إفريقية مع نفر من زملائه، وأعلن أمية وقطن ابنا عبد الملك الطاعة، وتفاهما

مع أبي الخطار، فولاهما حكم بعض الولايات الشمالية.

أما عبد الرحمن بن

حبيب فاستطاع أن يتقى المطاردة وفر إلى تونس، وهناك أقام حينا يرقب الحوادث، حتى سنحت له فرصة الوثوب وانتزاع إمارة إفريقية من حنظلة ابن صفوان على ما سيجىء.

وأما عبد الرحمن اللخمى فلبث مستقلا برباط

الثغر في أربونة وما جاورها.

وسلك أبو الخطار في البداية سبيل الحزم والاعتدال، وسوى بين جميع القبائل في المعاملة، فرضى الجميع واجتمعت الكلمة على تأييده وطاعته، وسكنت الفتنة

واستقر النظام حينا.

ولكن نزعة العصبية ما لبثت أن حملته كما حملت أسلافه من قبل، فمال إلى قومه اليمانية، وتنكر لخصومهم من المضرية، واضطرمت الأحقاد

---

(١) أوردنا نص هذه المعاهدة في ص ٥٥ و ٥٦ من هذا الكتاب.

وراجع في توزيع القبائل على

الكور، ابن الأبار في الحلة السيراء ص ٤٦.

وكذلك: Conde: ibid, V.

I.

p.

١١٢

(٣) Conde: ibid, quot isodorus,V.

I.

p.

١١٢ (note) وكذلك Aschbach: ibid.

V.

I.

p.

٩٢

(١٢٦/١)

والمنافسات القديمة.

وحدث أن اعتدى أبو الخطار على زعيم من زعماء المضرية بالإهانة والضرب لأنه تدخل لحماية رجل من بني قومه.

وهذا الزعيم هو الصُّمَيل

ابن حاتم بن شمر الكلابى، وجده شمر بن ذى الجوشن من أشراف الكوفة، وكان قد
اشترك في قتل الحسين بن على في كربلاء، ثم نزح بأسرته إلى الشام خيفة الانتقام، فلما ولى كلثوم بن عياض القشيرى حكم إفريقية.
كان الصميل بين أشراف الشام
الذين انتظموا في جيش بلج القشيرى، ثم جازوا معه إلى الأندلس (١) . وكان
الصميل فارساً شجاعاً وزعيماً ذا نجدة، يلتف حوله المضرية وبعض اليمنية، من خصوم أبي الخطار ومنافسيه مثل جذام ولخم.
فلما اعتدى أبو الخطار عليه
بعث إلى قومه في مختلف الأنحاء، وأيدته المضرية وحلفاؤهم في الخروج، وتفاهم مع باقى الزعماء الناقمين على أبي الخطار، ومنهم ثوابة بن سلامة الجذامى
زعيم جذام، وكان يمنيا ولكنه كان يحقد على أبي الخطار.
لأنه عزله عن ولاية
إشبيلية.
وتكفل ثوابة بمحاربة أبي الخطار، وقدّمته المضرية، وزحف بجموعه على قرطبة، فلقيه أبو الخطار بقواته في شذونة على ضفاف وادي لكه في رجب
سنة ١٢٧. ونشبت بين الفريقين معارك شديدة انتهت بهزيمة أبي الخطار وأسره، ودخل ثوابة قرطبة وارتضته المضرية أميراً للأندلس مكان أبي الخطار، ووافق
عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أمير إفريقية على هذا الاختيار.
وكان قد استطاع
فى تلك الفترة أن ينتزع ولاية إفريقية من حنظلة بن صفران.
ولكن أبا الخطار

استطاع أن يفر من سجنه بمعونة نفر من أصدقائه.
فذهب إلى باجة وحشد
جموعه وقصد إلى قرطبة، فلقيه الصميل في المضرية وثوابة في أنصاره من
اليمنية، ووقعت بينهما معركة غير حاسمة، وعندئذ دعا بعض اليمنية من
فريق ثوابة
إلى وقف القتال، ونعى على أنصار أبي الخطار أنهم يقاتلون ثوابة.
مع أنه يمنى
منهم، وقد عفا عن أبي الخطار وعف عن دمه حين كان في قبضته؛
فأحدثث هذه
الدعوة أثرها، وانفض عن أبي الخطار جنده.
واضطر أن يعود إلى باجة وهنالك
لبث ينتظر مجرى الحوادث (٢) .
ولم يمض سوى قليل حتى توفى ثوابة في أوائل سنة تسع وعشرين ومائة.

---

(١) ابن الأبار في الحلة السيراء ص ٤٩؛ والمقرى عن ابن حيان في نفح
الطيب ج ٢ ص ٦٢.
(٢) المقرى ج ٢ ص ٦٠ و٦١، وابن الأثير ج ٥ ص ١٢٦، والبيان
المغرب ج ٢
ص ٣٥ و٣٦.



بعد أن حكم الأندلس زهاء عام ونصف.
وهنا نشب الخلاف بين الزعماء والقبائل
كرة أخرى، وأصرت اليمنية على أن يكون الأمير منهم خلفاً لأميرهم المتوفى،
وأصر
الصميل أن يكون الأمير من المضرية، واشتد النزاع بين الفريقين، ووقعت

بينهما مصادمات ومعارك عديدة، ولبثت الأندلس بضعة أشهر دون أمير رسمى، وتولى الأحكام فيها عندئذ عبد الرحمن بن كثير اللخمى باتفاق الفريقين.

ولما تفاقم
الخلاف، وخشى الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية، اتفقوا على تولية يوسف
ابن عبد الرحمن الفهرى أحد زعماء المضرية، فولى إمارة الأندلس في ربيع الثاني
سنة ١٢٩ (يناير ٧٤٧) دون مصادقة أو مراجعة من دمشق أو إفريقية. وكانت حكومة دمشق قد اضطربت يومئذ شئونها، وأخذت نذر السوء تبدو في الأفق، وشغلت الخلافة الأموية بما يهددها من خطر داهم على سلطانها، وضعف إشراف الحكومة المركزية على الولايات النائية، فاستقلت إفريقية والأندلس كل بشئونها، حتى يستبين المصير، وتستقر الأمور.

(١٢٨/١)

الفصل التاسع

خاتمة عصر الولاة

أصل يوسف الفهرى.

عبد الرحمن بن حبيب واستيلاؤه على إفريقية.

استئثار يوسف بالسلطة.

تحرك اليمنية.

خروج أبي الخطار وابن حريث.

التقاء المضرية واليمنية في شقندة.

هزيمة اليمنية ومقتل
زعمائها.

استقرار الأمر ليوسف والصميل.

ولاية الصميل لسرقسطة.
إصلاحات يوسف الإدارية
والمالية.
تقسيم اسبانيا الجديد.
إصلاحه للجيش.
إرساله جيشا إلى الشمال.
ثورة البشكنس والقوط.
استيلاء الفرنج على المواقع الإسلامية في سبتمانيا.
اضطراب أمر الخلافة في المشرق.
سخط الزعماء على
يوسف والصميل.
عبد الرحمن اللخمى فارس الأندلس.
محاولته الخروج ومصرعه.
الثورة فى
إشبيلية وسحقها.
ثورة عروة بن الوليد في باجة.
استيلاؤه على إشبيلية.
هزيمته ومصرعه.
ثورة
ثورة المضرية واليمنية بقيادة عامر العبدري.
فراره إلى الشمال وتحالفه مع الحباب الزهرى وتميم الفهرى.
محاصرة الثوار الصميل في سرقسطة.
هزيمة الصميل واستيلاء الثوار على سرقسطة.
إدعاء عامر لولاية
الأندلس.
ولاية الصميل لطليطلة.

مسير يوسف إلى سرقسطة واستيلاؤه عليها.
أسر زعماء الثورة
ومصرعهم.
اجتماع يوسف والصميل في طليطلة الإخطار بمقدم عبد الرحمن الأموى.
مسيره إلى
قرطبة.
ببين ملك الفرنج وأنزيموند أمير القوط يحاصران أربونة.
القتال بين ببين وأمير أكوتين.
مصرع أنزيموند.
خيانة النصارى في أربونة.
سقوطهافى يد الفرنج.
انتهاء سيادة الإسلام فيما وراء
البرنيه.
نصارى الشمال.
امتناعهم بهضاب جليقية.
إغارتهم على الأراضي الإسلامية.
نمو المملكة
النصرانية.
ويجب أن نقف قليلا عند شخصية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى هذا، الذى اختارته " الجماعة " واليا للأندلس، واستقل بولايتها زهاء عشرة أعوام، وكان آخر هذا الثبت من أمرائها، وعلى يده انتقلت إلى عهد جديد، ودولة جديدة. فمعظم الروايات على أنه ولد عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع
الفهرى فاتح إفريقية.
ويؤيد هذا القول من مؤرخي الأندلس ابن القوطية،
وابن حزم، والرازى، وابن الفرضى.

ولكن ابن حيان يرتاب في هذه النسبة
ويقول لنا إنه لم يقف على ما يؤيد بنوة يوسف لعبد الرحمن بن حبيب، أو صلته
بهذا الفرع (١) .
بيد أن اتفاق معظم مؤرخي الأندلس، ولا سيما المتقدمين منهم

---

(١) نقل ابن الأبار في الحلة السيراء أقوال ابن القوطية وابن حيان وابن حزم في هذه
النقطة - الحلة السيراء ص ٥٣ و ٥٤ - وراجع أقوال ابن الفرضى والرازى في نفح الطيب ج ٢ =

(١٢٩/١)

على صحة هذه النسبة يجعلها في نظرنا أقوى وأرجح.
وإذن فيوسف بن عبد الرحمن
خاتمة ولاة الأندلس هو ولد عبد الرحمن بن حبيب، الذى تتبعنا أخباره فيما تقدم
خلال الحروب الأهلية، التي اضطرمت منذ قدوم بَلْج القشيرى إلى شبه الجزيرة.
وقد أسلفنا أنه فر إلى تونس اتقاء لنقمة أبي الخطار، وهنالك لبث يرقب الحوادث
مدى حين، فلما جاءت الأخبار إلى إفريقية بمقتل الخليفة الوليد بن يزيد بن
عبد الملك (فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦) ، رأى عبد الرحمن الفرصة سانحة
للعمل، فدعا أنصاره وحشد جموعه لقتال حنظلة بن صفوان والى إفريقية، وزحف على
القيروان، وخشى حنظلة عاقبة الفتنة، فانسحب مع أصحابه إلى الشام دون
قتال، ودخل عبد الرحمن القيروان (سنة ١٢٧ هـ) وأعلن ولايته لإفريقية،

وأيدته
المضرية، وبعث إلى الثغور عمالا من أقاربه وأصهاره.
ولم يختر يزيد بن الوليد، الذى ولى الخلافة عقب مقتل أبيه، والياً لإفريقية
نزولا غلى حكم الواقع.
فلما
خلفه مروان بن محمد بعد ذلك بأشهر، كاتبه عبد الرحمن وهاداه وأظهر له
الطاعة
فأقره على ولايته (١) .
ولبث عبد الرحمن مستقلا بحكم إفريقية أكثر من عشرة
أعوام، وفي عهده وقعت بإفريقية ثورات وقلائل كثيرة، فأخمدها جميعاً وغزا
صقلية وسردانية.
ولما دالت دولة بني أمية أعلن الطاعة لبنى العباس، ودعا لهم
بإفريقية.
ولكنه لم يلبث أن قتل غيلة في شهر ذى الحجة سنة ١٣٨ (٧٥٥ م) .
وأما ابنه يوسف فقد فر منه مغضباً لأمور نقمها عليه، ودخل الأندلس يبحث
وراء طالعه في حوادثها، وكان مثل أبيه فارساً هماماً وخطيباً مفوهاً (٢) .
فلم يلبث
أن ظهر بين أنجاد المضرية وسادتهم، ولازم الصميل وصادقه حتى عظم
نفوذه، وانتهى بأن ظفر بإمارة الأندلس في ربيع الثاني سنة ١٢٩، وهو يومئذ
في السابعة
والخمسين من عمره.
وكانت مصاير الخلافة الأموية تهتز يومئذ في يد القدر، وقد شغلت بما
يواجهها
من خطر الفناء الداهم عن حوادث الأندلس، فلم تحاول تدخلا أو اعتراضا
على
ما يحدث في ذلك القطر النائى، ولم يكن يوسف بحاجة إلى مصادقة أو

مراجعة.

---

= ص ٦١.
ويقر ابن عذارى هذه النسبة أيضا (البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٧) وكذلك صاحب
أخبار مجموعة (ص ٢١) .
(١) البلاذرى في فتوح البلدان ص ٢٣٣.
(٢) نفح الطيب (عن الرازى) ج ٢ ص ٦١، وابن الأبار في الحلة السيراء ص ٥٥.

(١٣٠/١)

وكان المتفق عليه بين اليمنية والمضرية أن يتعاقبا في الولاية فيمكث يوسف عاما
فقط ثم يُرد الأمر إلى اليمنية (١) .
ولكن المضرية وعلى رأسهم الصميل مرجع
الزعامة والأمر يومئذ، لم يفكروا بلا ريب في تمكين اليمنية من الرياسة بأى الصور،
وكذلك لا ريب في أن يوسف بن عبد الرحمن لم يفكر بعد أن ظفر بالإمارة أن
ينزل عنها طائعاً مختاراً، بل بادر منذ البداية إلى استخلاص جميع السلطات
لنفسه، فنزع ولاية ريُّه من يحيى بن حريث الجذامى أحد الزعماء اليمنية، وكان
ينافسه ويعارض إمارته، فأقطع ريه ثمناً لموافقته.
فلما نزعت منه ريه ثار قومه من
اليمنية والتفوا حوله.
وهنا أيضا ظهر أبو الخطار الأمير المعزول على مسرح

الحوادث، وكان يقيم كما تقدمنا في باجة، بغرب الأندلس.
فلما علم بتولية يوسف
وخروج ابن حريث، تحرك للعمل، وفاوضه ابن حريث ولكنهما لم يتفقا، إذ أصركل منهما على ترشيح نفسه للإمارة، بيد أنهما اجتمعا على قتال يوسف ابن عبد الرحمن، وحشد كل منهما جموعه من الفريق الذى يؤازره، وزحفا على
قرطبة.
وحشد يوسف والصميل جموع المضرية، وبالغ كل فريق في الأهبة،
والتقيا أخيرا في شقندة بالقرب من قرطبة (سنة ١٣٠ هـ - ٧٤٧ م) ونشبت بينهما موقعة هائلة تبالغ في روعتها الرواية الأندلسية، إذ تقول لنا: " إنه لم يك
بالمشرق ولا بالمغرب، حرب أصدق منها جلاداً ولا أصبر رجالا، طال صبر بعضهم على بعض إلى أن فنى السلاح، وتحاذبوا بالشعور، وتلاطموا بالأيدى،
وكلّ بعضهم عن بعض " (٢) .
واستمر القتال حيناً سجالا بين الفريقين، ثم داهمت
المضرية ذات يوم جموع اليمنية على غرة، فأوقعت بها، وأسر أبو الخطار وابن حريث وكثير من أصحابهما، وقتلوا جميعاً بأمر الصميل، وجردت اليمنية من
زعمائها، واستقر الأمر ليوسف، ولكنه كان يخشى الصميل، لأنه كان بنفوذه وكثرة عصبته، يقبض على ناصية الموقف، فرأى أن يبعده عن قرطبة، وأقطعه
ولاية سرقسطة وأعمالها، فسار الصميل إلى سرقسطة واستقل يوسف بالأمر.
ونشط يوسف إلى ضبط النظام، وإصلاح الشئون في ظروف صعبة.
وكانت السلطة المركزية قد اضمحلت، وهبت ريح الفتنة من كل صوب.

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٣.
(٢) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٦١.

(١٣١/١)

واستقل كثير من العمال بالنواحى، وتحرك النصارى في الولايات الشمالية، وعصف
القحط فوق ذلك بالأندلس سنة ١٣٣هـ (٧٥٠ م) ، واستطال زهاء عامين،
فأجدبت السهول والوديان، وأمحلت الزراعة، وفتك الجوع بالمدن والقرى،
وهبطت عندئذ على شواطى الأندلس عصابات بحرية ناهبة كثيرة من أمم الشمال،
وعاثت في الشواطيء والثغور والمدن القريبة (١) .
ولكن يوسف أبدى في مغالبة
هذه الصعاب والمحن همة فائقة، فطاف بالأقاليم وعزل الحكام العابثين، وقمع
المظالم والفوضى ما استطاع، وأصلح الطرق الحربية، لتكون ممهدة لحملاته حيثما
اضطر إلى الحرب، وعدل نظام الضرائب فاقتضى ثلث الدخل من كل ولاية،
ولكنه أمر بمراجعة السجلات القديمة، واستبعاد الأموات منها، وكانت الضرائب
ما تزال تجبى طبقاً للإحصاء القديم، فكان في ذلك إرهاق للسكان، لأن عددهم
تناقص منذ الفتح، فقرر يوسف أن تجبى الضرائب عن الأحياء فقط، وأسقطها عمن
توفوا، واكتسب بذلك عطف كثير من النصارى (٢) .
وأعاد يوسف أيضاً تنظيم
الأقاليم الإدارى، فقسم اسبانيا إلى خمس ولايات كما كانت أيام القوط، وكما

قسمت عند الفتح مع تعديل في حدودها، فأصبحت كما يأتى: ولاية الأندلس وهى ولاية " باطقة " Baetica القديمة، وتقع بين نهر وادي يانة والبحر الأبيض

المتوسط، وأشهر قواعدها قرطبة، وقرمونة، وإستجة، وإشبيلية، وشَذُونة، ولَبْلَة، ومالقة، وإلبيرة، وجيان.

وولاية طليطلة، وهى ولاية قرطاجنة

القديمة، وتمتد من جبال قرطبة في شمال شرقى ولاية الأندلس حى نهر دويره (الدورو) ، وجبال وادي الحجارة شمالا، أشهر قواعدها طُلَيطلة، ومرسية، ولوَرقَة، وأوريولة، وشاطبة، ودانية، ولَقنت، وبلنسية، وشَقُوبية، ووادي الحجارة، وقُونْقَة.

وولاية ماردة وهى ولاية اوجدانيا أو جلِّيقية القديمة،

وتمتد فيما وراء نهر وادي يانة شرقاً حى المحيط، وأشهر قواعدها ماردة، وباجة،

وأُشبُونة، وأسترُقه، وسمُّورة، وشلمنقة.

وولاية سَرَقُسطة، وهى ولاية

كانتبريا القديمة، وتمتد من منابع نهر التَّاجُه شرقاً، على ضفتى نهر إيبرو حتى

---

(١) إيزودور الباجى.

راجع: Aschbach: ibid,V.

I.

p.

١٠٢، وكذا البيان المغرب

ج ٢ ص ٣٨.

(٢) Conde: ibid,V.

I.

.p

.Aschbach,quot – ١٢١

.Isidorus,ibid

.V

.I

.p

١٠١

(١٣٢/١)

جبال البرنيه وبلاد البشكنس، وأشهر قواعدها سرقسطة، وطركونة، وجيرندة، وبرشلونة، وأرقلة، ولاردة، وطُرطُوشة، ووشقة.

ثم ولاية أربونة وهى

ولاية الثغر، وتقع شمال شرقى جبال البرنيه حتى البحر، وتشمل مصب نهر

الرون،

وأشهر قواعدها أربونة، ونيمة، وقَرْقشونة، وأجدة، وبزييه، وماجلونة (١) .

وعنى يوسف بتنظيم الجيش وإصلاحه أشد عناية، وحشد قوات جديدة

ليستطيع قمع الثورة في الداخل وحماية الحدود الشمالية، وسير إلى الشمال

جيشا

بقيادة ولده محمد أبي الأسود، وسليمان بن شهاب، والحصين العقيلى.

وكان

النصارى قد انتهزوا فرصة الاضطراب الداخلى، وأغاروا على الأراضي

الشمالية،

واستولوا على كثير من القلاع والحصون، ووصلوا في تقدمهم حتى ضفاف

نهر

دويره (الدورو) .

وثار البشكنس والقوط فيما وراء البرنيه واستدعى أميرهم الكونت

آنزيموند، ملك الفرنج ببين الملقب " بالقصير " لمحاربة المسلمين، وكان آنزيموند
هذا من نبلاء القوط، فانتهز فرصة اضطراب الحوادث في اسبانيا، واستولى على قواعد سبتمانيا المسلمة، وهى نيمة وأجدة وماجلونة وبزييه وما حولها، وأنشأ
منها مملكة صغيرة، والتف حوله السكان النصارى، واستطاع بمؤازرة الزعماء المحليين، أن يقضى على سلطان المسلمين في تلك الأنحاء.
ولكنه رأى أنه لايستطيع
الاحتفاظ مملكته الصغيرة، والعرب على مقربة منه في أربونة أقوياء يخشى بأسهم، وكذلك توجس شرا من جاره أمير أكوتين، إذ كان يطمح إلى ضم هذه الأراضي إلى أملاكه، فلم خيراً من الانضواء تحت لواء ملك الفرنج ببين، واستدعائه لمعاونته (٢) .
وكان ببين قد خلف أباه كارل مارتل كحافظ للقصر الفرنجى، ولكنه لم يلبث أن قبض على مليكه شلدريك الثالث آخر الملوك الميروفنجية، وزج به إلى
ظلام الدير، وانتزع العرش لنفسه (٧٥١ م) .
فلما استدعاه آنزيموند، استجاب
لدعوته، ورحب بتلك الفرصة ليتم ما بدأه أبوه من إجلاء المسلمين عن غاليس،
وغز الانجدوك، وهاجم المواقع الإسلامية مع حليفه آنزيموند، وفتك بالمسلمين في تلك الأنحاء (٧٥٣ م) .
وقاومته الحاميات الإسلامية أشد مقاومة، ولكنها
لم تثبت طويلا لعزلتها، وحرمانها من كل معاونة ومدد، واستولى الفرنج على تلك

---

(١) سبق أن أشرنا إلى تقسيم اسبانيا الإدارى الذى أورده البكرى، راجع

الهامش في ص ٧٠
(٢) Dom Vissette: ibid, V.
I.
p.
٨٢٢

(١٣٣/١)

القواعد والمعاقل كلها خلا أربونة، فإنها لبثت بيد المسلمين أعواماً أخرى. ولم
يستطع الجيش الذى سيره يوسف إلى الشمال، أن يحقق الغاية المنشودة،
بل رد بخسارة فادحة وقتل قائده سليمان بن شهاب، ونجا الحصين العقيلى وفرسانه
بصعوبة (١) .

وترك الشمال لمصيره، واستغرقت الثورات والحروب الداخلية اهتمام
يوسف وكل نشاطه وموارده.
ذلك أن الأحقاد والمنافسات القديمة التي هدأت حيناً بتولية يوسف، عادت
فاضطرمت حين استأثر يوسف وحليفه الصميل بكل سلطة وولاية، وكان المفهوم أن
ولاية يوسف لإمارة الأندلس إنما هى حل مؤقت لحالة طارئة حتى يأتى الأمير
الشرعى الذى يختاره الخليفة، ولكن الخلافة الأموية لقيت مصرعها غير بعيد
(١٣٢هـ - ٧٥٠م) ، وتفاقم الاضطراب الذى سرى إلى شؤون إفريقية والأندلس
قبل ذلك بأعوام، وأصبح تراث الخلافة الأموية نهباً مباحاً لكل طامع ومتغلب.
وكان بالأندلس عدة من الزعماء النابهين ذوى الجاه والعصبية، ينقمون من

يوسف
والصميل استئثارهما بالسلطة، ويرى كل منهم أنه أولى بها وأجدر، وكان
يوسف يعمل من جهة أخرى لتوطيد سلطانه في ذلك القطر البعيد، الذى
رفعه
القدر إلى ولايته ورياسته، والذى يضارع بضخامته وأهميته ملكاً عظيماً.
وكان
أقوى أولئك الخصوم والزعماء المنافسين ليوسف، عبد الرحمن بن علقمة
اللخمى
حاكم ثغر أربونة الملقب " بفارس الأندلس " تنويهاً بفائق شجاعته (٢) .
وكان قد
اشترك في الحرب الأهلية قبل ذلك بأعوام حسبما قدمنا.
ثم ارتد بجنده إلى أربونة،
واستعصم بها يرقب الحوادث والفرص.
فلما تولى يوسف إمارة الأندلس،
واضطربت شؤون الشمال، أخذ يدبر العدة لعبور البرنيه ومحاربة يوسف،
ولكن
لم يلبث أن اغتاله بعض أصحابه وحملوا رأسه إلى يوسف، وتمت هذه
الخيانة بوحى
يوسف وتحريضه على الأرجح، وانهارت تلك المحاولة في مهدها (٣) .
وخرج
على يوسف في إشبيلية يوسف بن عمرو بن يزيد الأزرق، وكثر جمعه وقوى
أمره،
فزحف إليه يوسف وقاتله حتى هزمه وقتله.
وخرج عليه في باجة عروة بن الوليد

---

(١) ابن الأبار في الحلة السيراء ص ٥٨.

وكذا Conde: ibid, V.

I.

127 p و Aschbach:

ibid,V.

I.

p.

١٠٢ ويضع صاحب أخبار مجموعة تاريخ هذه الحملة بعد ذلك بنحو عامين

ص ٧٦ و ٧٧.

(٢) ابن القوطية ص ٤٣.

(٣) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٦٢، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٩.

(١٣٤/١)

المعروف بالذمى لتحالفه مع أهل الذمة، والتف حوله النصارى فضلا عن أنصاره

من العرب والبربر، وسار إلى إشبيلية فاستولى عليها.

واتسع نطاق الثورة فى

تلك الأنحاء، فوجه إليه يوسف جيشاً لقتاله فهزمه عروة، فسار إليه يوسف

بنفسه، ووقعت بينهما معارك شديدة انتهت بهزيمة عروة وأسره، ثم بقتله مع

نفر من أصحابه.

بيد أن ثورة أخطر وأوسع نطاقا كانت تدبر عندئذ في الشمال

لخلع يوسف والصميل وسحق سلطانهما.

وكان روح هذه الثورة ومدبرها زعيم

مضرى شديد البأس والجاه، هو عامر بن عمرو بن وهب العبدرى، وكان عامر

عريق الحسب والعصبية، وافر الجاه والأتباع، يتزعم مضر ويقودها خلال

الحوادث، وكان صديقاً ليوسف الفهرى قبل ظفره بالإمارة، يتولى مثله قيادة

الجيش، فلما وُلِّى يوسف نزعها منه، وكان كباقى الزعماء ينقم من يوسف
والصميل
استئثارهما بالسلطة واستبدادهما بالشئون.
فلما اضطرمت الأندلس بالفتن واتسع
نطاق الثورة، أخذ يدبر وسائل الخروج على يوسف، وكان يبسط نفوذه على
الجزيرة الخضراء، ثم انتقل إلى قرطبة يرقب الحوادث، وكاتب الخليفة
العباسى
أبا جعفر المنصور، وعرض عليه أن يدعو له بالأندلس، وأن يحكمها باسمه،
إذا بعث إليه بمرسوم إمارتها.
وكان يتودد فوق ذلك إلى اليمانية، وينعى على
يوسف والصميل إسرافهما في سفك دمائهم يوم شَقُندة، فالتفت حوله اليمنية
والمضرية.
ولم يكن يوسف يجهل حركاته وتدابيره، فلما هم بمطاردته والقبض
عليه، فر إلى الشمال في كثير من أتباعه.
وكان ثمة زعيمان قرشيان آخران هما
الحباب بن رواحة الزهرى من بني كلاب، وتميم بن معبد الفهرى، قد رفعا
لواء
الثورة في ولاية سرقسطة، فتفاهم معهما عامر وتحالف، واجتمع إليه جيش
كبير من اليمنية والمضرية والبربر، وزحف عامر والحباب الزهرى على
سرقسطة،
حيث كان الصميل، وضيقا عليه الحصار.
فاستغاث الصميل بحليفه يوسف.
ولكن
يوسف لم يستطع أو لم يُرد إنجاده بغية القضاء على سلطانه (١) .
فاضطر الصميل أن
يلقى خصومه في أنصاره وأتباعه القلائل.

ونشبت بين الفريقين مدى أشهر معارك
عديدة، انتهت بهزيمة الصميل وانسحابه من سرقسطة في فل أنصاره، فدخلها
عامر وحليفه، واستوليا عليها (سنة ١٣٦ هـ - ٧٥٣ م) .
وعمت الثورة كورة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨ و٤٣.

(١٣٥/١)

سرقسطة وما إليها، ودعا عامر لنفسه بولاية الأندلس، بمرسوم زعم أنه تلقاه
من أبي جعفر المنصور، وخرج الشمال كله عن قبضة يوسف الفهرى.
أما الصميل فارتد إلى طليطلة التي أسند إليه يوسف ولايتها بدلا من
سرقسطة،
وكان يوسف قد أنهكت قواه واستنفدت موارده تلك الحروب والثورات المتوالية،
فاضطر أن يلزم السكينة حينا.
وبسط عامر سلطانه زهاء عامين، على كورة
سرقسطة.
وفى أواخر سنة ١٣٧هـ (٧٥٤ م) سار يوسف إلى سرقسطة في جيش
كبير، وحاصرها بشدة حتى ضاق أهلها بالحصار ذرعا، ورأوا أن يتقوا
مصائب الحصار، بتسليم عامر وابنه وهب والحباب الزهرى إلى يوسف،
فحملهم يوسف معه في الأصفاد، وارتد صوب طليطلة، ثم أمر بهم فقتلوا
أثناء
الطريق، وتخلص يوسف بذلك من آخر الزعماء الخوارج عليه (١) .
ولكنه لم يقدر
أن خطرا آخر سيأتيه من خارج الجزيرة، وينذر جميع مشاريعه وتدابيره
بالانهيار.
ذلك أنه ما كاد يجتمع بصديقه وحليفه الصميل في ظاهر طليطلة، حتى أقبل

عليه
رسول من قرطبة يحمل كتاباً من ولده عبد الرحمن، خلاصته أن فتى من بني
أمية
يدعى عبد الرحمن بن معاوية قد نزل بساحل الأندلس في ثغر المُنكّب
Almunecar،
واجتمع إليه أشياع بني أمية في كورة إلبيرة (غرناطة) ، وانتشرت دعوته فى
جنوب الأندلس بسرعة.
وذاع الخبر في جيش يوسف فأحدث فيه ذعرا
واضطراباً، وتفرق كثير من جنده.
وقيل إن نبأ مقدم الأمير الأموى انتهى إلى
يوسف أثناء سيره إلى الشمال ليقاتل نصارى جلّيقية، وبعد أن سحق الثوار
فى
سرقسطة (٢) .
وعلى أى حال فقد بادر يوسف والصميل فيمن بقى من الأشياع
والجند بالسير إلى قرطبة، ليدبرا الخطط لرد هذا الخطر الجديد، وكان ذلك
في أواسط سنة ١٣٨هـ (أواخر سنة ٧٥٥ م) .
وفى أثناء هذه الفتن والقلاقل المتواصلة، استولى الفرنج كما قدمنا على جميع
القواعد والأراضي الإسلامية في سبتمانيا ولانجدوك، وهى التي تكون ولاية
الثغر أو رباط الثغر، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى أربونة.
وكانت

---

(١) راجع في تفصيل هذه الحوادث، ابن الأبار في الحلة السيراء ص ٥٢؛
وابن الأثير ج هـ
ص ١٤٠ و١٨٤، والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ و٤٤؛ وكذا في :Dozy
.Hist: V
.I

.p
١٨٥ & ١٨٤
(٢) ابن القوطية ص ٢٠؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٤.

(١٣٦/١)

أمنع قلاع المسلمين فيما وراء جبال البرنيه، وقد استطاعت أن ترد غزوات الفرنج
أيام كارل مارتل.
فلما فقدت أربونة بطلها المدافع عنها أعنى عبد الرحمن اللخمى فارس الأندلس، وسقطت أراضي الثغر كلها في يد النصارى، زحف ببين ملك الفرنج
ومعه حليفه الكونت آنزيموند القوطى أمير سبتمانيا على أربونة، وطوقها بقوات
كثيفة وضرب حولها الحصار الصارم (سنة ٧٥٥ م) .
وكانت أربونة في غاية
المنعة والحصانة، فاعتزم المسلمون الدفاع عنها لآخر نسمة، واضطر ببين خلال
الحصار أيضاً، أن يرتد عنها بقسم من جيشه لمحاربة أمير أكوتين حفيد الدوق
أودو، ورده عن الأراضي الفرنجية، وترك آنزيموند لمتابعة الحصار. ولكن
آنزيموند قتل أثناء ذلك غيلة تحت أسوار أربونة، فعاد ببين لاستئناف الحصار
وهاجم المدينة المحصورة مراراً، ولكن المسلمين استطاعوا أن يقاوموا الفرنج،
وأن يردوا كل هجماتهم مدى أربعة أعوام، رغم عزلتهم وانقطاع صلتهم
بالأندلس، وعدم تلقيهم أى مدد من أولى الأمر في قرطبة، لاشتغالهم بالحرب

الأهلية.
وكان اتصال المدينة بالبحر يسهل على المسلمين تلقى بعض المؤن، وتحمل ويلات الحصار.
فلما رأى ببين أنه لا يستطيع أخذ المدينة بالحرب لجأ إلى الخديعة والخيانة، وتفاهم مع أهلها القوط، وقطع لهم عهوداً مؤكدة أنهم إذا عاونوه على أخذها، فإنه يترك لهم حرية التمتع بقوانينهم، ويمنحهم حقوقاً ومزايا
كثيرة، فعمل القوط على إضرام الثورة داخل المدينة، ثم انقضوا ذات يوم على حراسها المسلمين وقتلوهم وفتحوا أبوابها، فدخلها الفرنج وفتكوا بسكانها المسلمين أيما فتك، وخربوا مساجدها ومعاهدها ودورها وذلك في سنة ٧٥٩ م (١٤٢هـ) (١) .
وسقطت بذلك آخر المعاقل الإسلامية في غاليس في يد النصارى، وانهارت سيادة الإسلام فيما وراء جبال البرنيه، بعد أن استمرت هنالك زهاء نصف قرن، وعادت قوى النصرانية، فاحتشدت وراء تلك الآكام تتربص بالإسلام في الأندلس، بينما كانت قوى الإسلام داخل شبه الجزيرة يمزق بعضها بعضا.
وحذا نصارى الشمال حذو الفرنج في الاستفادة من تمزق الإسلام بالأندلس، ونريد بنصارى الشمال تلك البقية الباقية من القوط الذين ارتدوا أمام الفتح الإسلامى

---

(١) Dom Vissette: ibid, V.
I.
p.
٨٢٧

الكتابُ الثاني

الدّوْلة الأمويَّة في الأندَلسْ

القسم الأول

عَصْرُ الإمارة

من عبْد الرحمن الداخل إلى عبْد الرحمن بن الحَكم

١٣٨ - ٢٣٨ هـ: ٧٥٦ - ٨٥٢ م

(١٣٩/١)

الفصل الأول

مصرع الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

اضمحلال الدولة الأموية إبان فتوتها.

عوامل هذا الاضمحلال.

السياسة الأموية.

ما أثارته

وسائلها من السخط.

استغلال الشيعة لهذه العاطفة.

اضطرام العصبية والخلافات القومية.

خلاف

العرب والبربر.

خلاف العرب فيما بينهم.

وهن دعائم الدولة الأموية.

العوامل الخفية التي عملت على

تقويضها.

الخصومة بين بني أمية وآل البيت.

تقدم الدعوة الشيعية.

ظهور الشيعة في النواحى.

أئمة
الشيعة بعد الحسين.
محمد بن على ولد العباس.
أبو مسلم الخراسانى أعظم دعاة الشيعة.
إضطرام الدعوة
في خراسان.
إستنجاد أميرها نصر بن سيار بالخليفة.
غزو أبي مسلم الخراسانى وفرار أميرها.
استيلاء
أبى مسلم على خراسان وفارس.
وفاة إبراهيم الإمام والدعوة لأخيه عبد الله بن محمد.
غزو الشيعة
العراق.
نزول أبي العباس عبد الله بن محمد بالكوفة.
من هو السفاح.
مسير مروان الثاني لقتال
الشيعة.
لقاء الأموية والشيعة على ضفاف الزاب.
هزيمة مروان.
فراره ومصرعه.
ذهاب الدولة
الأموية وقيام الدولة العباسية.

كانت الدولة الأموية دولة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى، ففى ظلها امتدت الفتوح الإسلامية شرقاً إلى السند وغرباً إلى المحيط الأطلنطى وإسبانيا،
ووصلت الإمبراطورية الإسلامية إلى ذروة ضخامتها وقوتها، متماسكة

الأجزاء،
وثيقة العرى، موحدة السلطان والإدارة.
ولكن الدولة الأموية لم تنعم طويلا
بطور فتوتها ومنعتها ووحدتها، ولم تأت فاتحة القرن الثاني للهجرة حتى كانت هذه
الدولة الشامخة التي لم تجز بعد طور الفتوة، قد هرمت سراعاً وأدركها الانحلال
والوهن، وتصدع صرح وحدتها الباذخ.
واختتم ثبت الخلفاء الأقوياء من بنى
أمية، بالوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان (٨٦ - ٩٩هـ) ثم بأخيهما هشام. ومنذ
عصر هشام بن عبد الملك، نجد عوامل الانحلال والتفكك، تعمل عملها في هذا
الصرح العظيم، فلم يمض طويل حتى اضطرمت الأندلس بالفتن وخرجت من
حظيرة الإمبراطورية، ولم يبق للخلافة عليها سوى سلطة إسمية، واستقل الزعماء
المتغلبون بحكم إفريقية، بعد أن خرجت أطرافها القصوى عن قبضة الخلافة،
واضطرب سلطان الخلافة في الولايات الشرقية النائية مثل خراسان وفارس، وأخذ
ملك بني أمية يهتز فوق بركان مضطرم من الدعوات الخصمية، التي لبثت قبل



ذلك بنصف قرن تعمل في الخفاء، ثم لاح لها أن الفرصة قد آذنت بالانفجار.
ولهذا الانحلال الذى سرى إلى الدولة الأموية، قبل أن تستكمل أطوار نموها

وئوطدها، أسباب خاصة، ترجع إلى الظروف التي قامت فيها، وإلى الآثار
الدينية والمعنوية، التي أثارتها السياسة الأموية في الجزيرة العربية.
ثم إلى نتائج
تلك المعركة الخالدة التي نشبت بين مختلف العناصر والقوى، التي اشتركت
في بناء
الإمبراطورية الإسلامية.
فقد استطاع بنو أمية أن ينتزعوا الخلافة والملك، خلال
معركة اعتبرها فريق كبير من الأمة العربية، خروجا على آل البيت ذوى
الحق
الشرعى في الخلافة، وبوسائل لم تكن دائماً نزيهة ولا عادلة.
وكان لما ارتكبه
بنو أمية خلال هذه المعركة من الأحداث المثيرة، أسوأ وقع في نفوس الأمة
العربية.
فقد فتك بنو أمية بآل البيت وشيعتهم أشنع فتك، وكان مقتل الحسين
ابن على في كربلاء (سنة٦١هـ) (١) ، ومقتل عدة من أبنائه وإخوته أشهر
حوادث
الفتك بآل البيت وأروعها.
ومع أن مصرع الحسين وآله، لم يكن سوى نتيجة
للصراع السياسى الذى اضطرم وبين آل البيت وبين بني أمية منذ خلافة
على،
فقد كان لهذا الحادث أعظم وقع في العالم الإسلامى، ولم يمض عامان على
تلك
المأساة المؤلمة، حتى أرسل يزيد بن معاوية (سنة ٦٣ هـ) جنده إلى المدينة
بقيادة
مسلم بن عقبة المرِّى، لمعاقبة أهلها على خروجهم عن طاعة بني أمية،
فاقتحم

الجند الأمويون مدينة الرسول، وعاثوا فيها واستباحوا الحرم المقدسة، وارتكبوا أشنع صنوف الكبائر والإثم (٢) ، ثم ساروا بعد ذلك إلى مكة فحاصروها، وضربوا البيت الحرام بالمنجنيق والنار.

وكان لهذه الحوادث وأمثالها أثر عميق فى
الأمة الإسلامية، وألفى الشيعة صحب آل البيت ودعاتهم، في تلك الأحداث المثيرة، غذاء للتشهير بالسياسة الأموية وأساليبها، وأصيبت هيبة الخلافة الأموية
من هذه الناحية، بصدع لم تنهض من بعده، وذكت عوامل السخط عليها.

---

(١) كان مقتل الحسين بن على في كربلاء في العاشر من المحرم سنة ٦١هـ، وهويوم
" عاشوراء " الذى اتخذته الخلافة الفاطمية بمصر يوم حزن وأسى؛ وكانت تقام في ذلك اليوم بمدينة
القاهرة طائفة من المراسم والاحتفالات المؤثرة.
(راجع كتابى الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة
الفاطمية - الطبعة الثانية - ص ٣٥٤) .
(٢) وتعرف هذه الموقعة الشهيرة بموقعة الحرة أو حرة واقم، وهى ضاحية المدينة الشرقية،
وقد سبقت الإشارة إليها.



واستغل الشيعة هذه العاطفة لبثِّ دعوتهم وتدعيم قضيتهم، وحشد العناصر الناقمة
في صفوفهم.

وكان اضطرام العصبية والخلافات القومية من جهة أخرى، يعمل
عمله لتمزيق روابط هذه الإمبراطورية الشاسعة.

ففى إفريقية كانت ثورات البربر
القومية، تستنفد قوى الخلافة ومواردها بلا انقطاع، وكان الخلاف بين العرب
والبربر في الأندلس، يهدد مصير الإسلام والخلافة في ذلك القطر النائى،
ويفت
في عضد الزعماء والقادة، ويبعث الاضطراب والوهن إلى صفوف الغزاة.
وكان
العرب أنفسهم قدوة سيئة في تفرق الرأى والكلمة.
فكانت المعركة الخالدة بين
مضر وحمير، وبين مختلف القبائل والبطون، تمزق أوصال الوحدة العربية،
وتقوض دعائم هذه العصبية القومية، التي دفعت يوم اتحادها وتماسكها، سيل
الفتوح الإسلامية إلى أقاصى المشرق والمغرب.
كانت الخلافة الأموية تسيطر على دولة عظيمة مترامية الأطراف.
ولكن
سلطانها الحقيقى كان محدود المدى داخل هذه الإمبراطورية الشاسعة، وكان
فوق ذلك يقوم على دعائم مضطربة.
وفى ذلك ما يفسر تلك الظاهرة التي يعرضها
سقوط الدولة الأموية.
فبينا هى تبدو في أوج قوتها وفتوحها، إذ بها تنهار فجاة، وتبدو في الحال
مظاهر ضعفها وتفككها، ويبدو ما كان يحيط بسلطانها
الشاسع من عوامل مصطنعة، وما كان يهدده من عوامل الهدم الخفية،
المعنوية
والنفسية.
وكانت هذه العوامل الخفية في الواقع أخطر ما يهدد سلطان بني أمية، فإن
تلك الأحقاد المرة التي أثارتها السياسة الأموية في نفوس خصومها، كانت
تسرى وتجيش، وتحيط ملك بني أمية بسياج خطر من الحفيظة والبغض.
وكانت

هذه الخصومة الخطرة التي يغذيها ظمأ الانتقام، هى عماد الدعوة الشيعية التي
لبثت تشق طريقها منذ مقتل علىّ، ثم مقتل بنيه من بعده.
ثم تأثلت هذه الخصومة
وتوطدت منذ أوائل القرن الثاني من الهجرة.
واستطاع الشيعة أن يظهروا فى
النواحى، ولاسيما في العراق وخراسان، وأن يدبروا عدة ثورات محلية خطيرة.
وقد أخمدت هذه الحركات الأولى في سيل من الدماء.
ولكن القمع كان يذكى
النضال، وإراقة الدم تذكى ظمأ الانتقام.
ولم تكن المعركة متكافئة من الوجهة
المادية، فلم يك للشيعة جيوش منظمة أو موارد يعتد بها، ولكن خطر المعركة كان يجثم في نواحيها المعنوية.
واشتد هذا الخطر حينما ضعف أمر العمال فى

(١٤٢/١)

النواحى، واتسع الأمر على الحكومة المركزية، وانحل سلطانها في الأنحاء النائية، وأضحى عرضة للانتقاض والانهيار.
ولبث دعاة الشيعة زهاء نصف قرن ينظمون دعوتهم، ويضعون لها الأصول والقواعد، ويحشدون لها الصحب والأنصار في سائر النواحى، وكانت كغيرها من الدعوات السرية الثورية، تلقى في الخفاء تأييداً كبيراً.
وليس من موضوعنا
أن نتحدث عن مبادئ الشيعة ورأيهم في الإمامة ومساقها (١) .
ويكفى أن نقول
إن اختلاف الشيعة فيما بينهم، على حق الإمامة ومساقها في ولد على، لم يحل دون

إجماعهم على خصومة بني أمية، ولا دون استمرار الدعوة الشيعية وتقدمها.
وكانت إمامة الشيعة قد انتقلت بعد مقتل الحسين إلى أخيه، محمد بن على
بن
أبى طالب المعروف بابن الحنفية (٢) .
فلما توفى سنة ٨١هـ، قام بها ولده أبو هاشم
عبد الله بوصية منه.
واستمر أبو هاشم أيام الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان قائماً
بأمر الشيعة، يفدون عليه ويؤدون له الخراج.
ثم توفى مسموماً سنة ٩٨هـ
بتحريض سليمان بن عبد الملك فيما يقال، وأوصى بالإمامة إلى ابن عمه
محمد
ابن على بن عبد الله بن العباس كبير عقلاء الشيعة يومئذ.
والعباس هو ابن عبد المطلب
عم النبى.
وتقدمت الدعوة الشيغية على يد محمد بن على تقدما كبيراً، وظفرت
في ذلك الحين بأعظم دعاتها السياسيين، ونعنى أبا مسلم الخراسانى.
وقد كان
أبو مسلم شخصية عظيمة، وكان يتمتع بمقدرة ومواهب فائقة.
ولكن الغموض
محيط مع ذلك بأصله ونشأته، وتختلف الرواية في أمره اختلافاً كبيراً، حتى
أنها
لتختلف فيما إذا كان من الأحرار أو الموالى.
فيقول البعض إنه حر، يرجع إلى
أصل فارسى رفيع المنبت، وإنه ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة، واسمه الحقيقى
إبراهيم بن عثمان بن بشار.
ويقول البعض إنه من الموالى، وأصله من أصبهان، واسمه إبراهيم.

وقيل بل كان عبداً لبكير بن ماهان أحد عمال السند، وإنه
استصحبه إلى مكة في زيارته لإبراهيم الإمام، فأعجب إبراهيم بذكائه وفطنته
واشتراه منه.
وأما تسميته بأبى مسلم، فيقال إنه سمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم،

---

(١) أورد ابن خلدون في مقدمته شرحا حسنا لمبادىء الشيعة ومساق الإمامة
عند مختلف فرقهم
(المقدمة صى ١٦٤ - ١٦٨) .
ويتناولها الشهرستانى في " الملل والنحل " بشيء من التفصيل؛
وكذلك عبد القاهر البغدادى في كتابه " الفرق بين الفرق ".
(٢) وهو أخو الحسن والحسين من الأب فقط.
ويعرف بابن الحنفية نسبة لأمه خولة بنت
جعفر بن قيس المعروف بالحنفية.

(١٤٣/١)

واتخذ كنيته أبا مسلم، وقيل إن إبراهيم الإمام هو الذى سماه بهذا الإسم.
ولعل
أرجح رواية في شأن هذا الداعية الكبير أنه كان فتى مغموراً، ولد بمرو في
أسرة
رقيقة الحال، ونشأ بأصبهان، واتصل منذ فتوته ببعض نقباء الشيعة في
الكوفة، فآنسوا فيه ذكاء خارقاً، وحماسة تضطرم لآل البيت وقضيتهم، وسار
معهم إلى
محمد بن على بن عبد الله بمكة، فأعجب بذكائه وعزمه، واختاره داعية
للشيعة
في خراسان، موطنه وأصلح ميدان لنشاطه.
ولا ظهر أبو مسلم وقوى أمره، وكثر

أنصاره، ادعى أنه من آل البيت من ولد سليط بن عبد الله بن عباس (١) .
ولما توفى
محمد بن على، وخلفه في الإمامة ولده إبراهيم الملقب بالإمام بعهد منه (سنة ١٢٦ هـ)
استمر أبو مسلم في مهمته، يبث الدعوة، ويحشد لها الأنصار.
وكانت خراسان
كما قدمنا أخصب ميدان للدعوة الشيعية لبعدها عن الحكومة المركزية، وتعاقب
الفتن فيها بن المضرية واليمنية.
وكان أميرها من قبل بني أمية نصر بن سيار فى
مأزق صعب، يستنجد عبثاً بحكومة دمشق، ويشهد تفاقم الحوادث عاجزاً، وحركة الشيعة تشتد، وتجتاح خراسان بسرعة.
ويروى أن نصر بن سيار كتب
إلى مروان بن محمد الخليفة يومئذ، هذا الشعر الفياض بالنبوءة والنذير يستنجد
به، ويستحثه للدفاع عن عرشه وتراث أسرته:

أرى تحت الرماد وميض نار..
.
ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكى..
.
وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم يطفها عقلاء قوم..
.
يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعرى..

.

أأيقاظ أمية أم نيام

فان كانوا لحينهم نياماً..

.

فقل قوموا فقد حان القيام

فقرى عن رحالك ثم قولى..

.

على الإسلام والعرب السلام (٢)

وكان أبو مسلم رجل الموقف يدير الخطط بقوة وبراعة، فلم يمض بعيد حتى ألفى الفرصة سانحة للعمل الحاسم، فاعتزم أمره ووثب في صحبه على نصر بن سيار

---

(١) راجع في أصل أبي مسلم وسيرته، ابن الأثير ج ٥ ص ٩٥ - ٩٧، وابن خلكان

ج ١ ص ٣٥٢ - ٣٥٤، وابن خلدون ج ٣ ص ١٠٠ و١١٧ - ١٢٠.

(٢) تروى هذه الأبيات بصورة أخرى.

راجع مروج الذهب للمسعودى (بولاق) ج ٢ ص ١٥٩.

(١٤٤/١)

وقوات بني أمية وهزمهم في عدة معارك (سنة١٢٩ - ١٣٠هـ) " واستولى على

مرو وسمرقند وخراسان ونيسابور، وطرد منها عمال بني أمية، وفر نصر بن سيار إلى العراق.

وبسط أبو مسلم سلطانه على خراسان وفارس، ورفع فيهما

لواء الشيعة الأسود، ودعا لأبى العباس عبد الله بن محمد بن على المعروف

" بالسفاح " أخى إبراهيم الإمام وخلفه.

وكان الخليفة الأموى مروان بن محمد، قد هاله ما رأى من تغلغل الدعوة الشيعية في النواحى، فقبض على إبراهيم الإمام، وهو يومئذ بإحدى قرى الشام، وزجه إلى السجن حتى مات (سنة ١٣٢هـ) ، وزعم أخوه عبد الله أبو العباس وأصحابه، أنه أوصى إليه بالإمامة من بعده.
فدعا
له أبو مسلم في خراسان وفارس حسبما تقدم.
ثم سير أبو مسلم جيشاً إلى العراق
فلقيه أميرها ابن هبيرة في قواته، ووقعت بين الفريقين على ضفاف الفرات معارك شديدة، هزم فيها ابن هبيرة وفر إلى الشمال.
واستولى الشيعة على
العراق، ودعوا لأبى العباس بالخلافة (ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ) ، ونزل أبو العباس عبد الله " السفاح " بالكوفة، واستقر بها يرقب الحوادث.
وفى ذلك الحين كان مروان بن محمد أو مروان الثاني (١) ، الذى ولى الخلافة
سنة ١٢٧هـ، يتأهب للدفاع عن ملك بني أمية، الذى تصدع صرحه سراعاً، فحشد جيشاً ضخماً، وسار شرقاً حتى وصل إلى ضفاف نهر الزاب، وهو فرع من دجلة يتصل به في الضفة الشرقية جنوب شرقى الموصل، وسار للقائه قائد
المسوّدة (الشيعة) في الشمال، أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدى، وأمده أبو العباس بجيش آخر بقيادة عمه عبد الله بن على، وبلغت قوات الشيعة كلها
زهاء عشرين ألفاً، وبلغت القوات الأموية زهاء مائة وعشرين ألفاً.
ولكن
حماسة الشيعة كانت تغنى عن الكثرة، وكان تعاقب الظفر يذكى عزائمهم ويضاعف
قواهم، وكان الجيش الأموى على ضخامته قد خبت عزائمه، واختلت صفوفه

وغاضت قواه المعنوية.
والتقى الفريقان على ضفة الزاب اليسرى ونشبت بينهما
معركة شديدة حاسمة، انتهت بهزيمة الجيش الأموى وتمزيقه، وذلك في
الحادى
عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٢ هـ (٢٥ يناير ٧٥٠ م) ، وغرق في النهر
آلاف
من جند الشام، وعدة من زعمائه وقادته، واستولى الشيعة على أسلابه، وفر

---

(١) يعرف مروان بن محمد أيضا بمروان الجعد، وحمار الجزيرة، أو مروان
الحمار.

(١٤٥/١)

مروان في فل من صحبه إلى الشام، فسار في أثره عبد الله بن على،
وحاصر دمشق
واقتحمها في الخامس من رمضان من نفس العام.
وفر مروان إلى فلسطين ثم إلى
مصر.
فبعث " السفاح " في أثره جيشا بقيادة عمه صالح بن على، فلحق به فى
مصر، وظل يطارده من مكان إلى مكان، حتى ظفر به في قرية بوصير
على
مقربة من الجيزة.
وهنالك مزقت البقية الباقية من أنصار بني أمية، وقتل مروان
آخر الخلفاء الأمويين بالمشرق، وأرسل رأسه إلى "السفاح" وذلك في السابع
والعشرين من ذى الحجة سنة ١٣٢هـ (٦ أغسطس سنة ٧٥٠ م) .
وهكذا انهارت دعائم الدولة الأموية بسرعة مدهشة، وقامت على أنقاضها
دولة بني العباس.

ولا ريب أن أكبر الفضل في تحطيم ذلك الصرح الشامخ، يرجع إلى جهود تلك الشخصية العظيمة ونعنى أبا مسلم الخراسانى.

كان أبو مسلم

إحدى هذه العبقريات الشاملة، التي تتفتح في معترك الإنقلابات الحاسمة، وتقوم على سواعدها الدول العظيمة.

وكانت دعوة الشيعة وإمامة آل البيت

مبعث هذا الانقلاب وروحه.

ولكن بني العباس ما كادوا يتبوأون ذلك الملك

الباذخ، حتى غلبت عليهم عصبية الأسرة، وألفوا في أبي مسلم منافساً تخشى عواقبه، وفي الدعوة الشيعية خطراً يجب القضاء عليه.

فلم تمض أعوام قلائل

حتى قتل أبو مسلم (شعبان سنة ١٣٧هـ) ، قتله أبو جعفر المنصور أخو أبي العباس

وخلفه.

ثم تتبع زعماء الشيعة وولد على بن أبي طالب بالقبض والمطاردة، حتى مزق شملهم وسحق دعوتهم.

واستخلص بنو العباس تراث بني أمية لأنفسهم.

وقامت تلك الدولة العباسية الزاهرة، تصل تاريخ الإسلام في المشرق، وتسير به إلى عصر جديد من العظمة والبهاء.

(١٤٦/١)

الفصل الثاني

بعث الدولة الأموية في الأندلس

موقف الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية.

يوسف الفهرى حاكم بأمره.

مطاردة بني العباس

لبنى أمية.
المذبحة الرائعة.
من هو السفاح.
نجاة عبد الرحمن بن معاوية.
فراره وظروفه المؤثرة.
تجوله
في برقة وإفريقية.
نجاته من قبضة عبد الرحمن بن حبيب.
التجاؤه إلى المغرب الأقصى.
إرساله لبدر
مولاه إلى الأندلس.
مفاوضة بدر الزعماء.
سعى أبي عثمان وعبد الله بن خالد لتأييد عبد الرحمن.
موقف الصميل بن حاتم.
عبور عبد الرحمن إلى الأندلس.
توجس يوسف الفهرى واختلال جيشه.
تقدم الدعوة الأموية.
الزعماء المؤيدون لعبد الرحمن.
عود يوسف والصميل إلى قرطبة.
عرض يوسف
على عبد الرحمن وكتابه إليه.
رفض عبد الرحمن لهذا العرض.
مبايعة ريه وشذونة وإشبيلية لعبد الرحمن.
زحفه على قرطبة.
خروج يوسف والصميل لملاقاته.
لقاء الفريقين في موقعة المسارة.

هزيمة
يوسف والصميل.
دخول عبد الرحمن قرطبة ومبايعته بالإمارة.
الموقف بعد المسارة.
مهمة عبد الرحمن
الفادحة.
معركة الدولة والإمارات المستقلة.
الأخطار التي تحيق بالأندلس.
الكفاح المستمر.
بينما كانت حوادث هذا الانقلاب الحاسم في مصاير الإسلام تجرى في
المشرق،
كانت حوادث الأندلس تؤذن بانقلاب عظيم آخر في مصاير الإسلام في ذلك
القطر النائى.
وكانت الفتن والحروب الأهلية المتعاقبة التي فصلنا أخبارها، تدفع
بالأندلس إلى مصير مجهول تخشى عواقبه، وتعصف تباعا بمنعة الإسلام
فى
الغرب، وتشجع الفرنج ونصارى الشمال على اقتطاع الأطراف النائية،
والتوغل
في الأراضي الإسلامية.
وكان من عناية القدر أن تولى أمر الأندلس في ذلك
المأزق العصيب، رجل قوى حازم هو يوسف بن عبد الرحمن الفهرى.
ولكن
ولاية يوسف لم تكن حلا نهائياً للأزمة، لأنه تولى دون مصادقة شرعية من
السلطة
العليا، ولأن منافسيه من الزعماء والخوارج لم يقروا بولايته، ولم يخلدوا إلى
السكينة، وأخيراً لأن السلطة العليا التي يرجع إليها أمر الأندلس، ونعنى

خلافة
دمشق قد انهارت غير بعيد، وقامت على أنقاضها دولة وخلافة جديدتان،
والحقيقة أن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى كان حاكماً بأمره في الأندلس.
وكانت
الأندلس في ذلك الحين إمارة أو دولة مستقلة، يتوقف مصيرها ومصير
السلطات
فيها على سير الظروف والحوادث.
وكان للانقلاب الذى وقع في المشرق صداه

(١٤٧/١)

فى الأندلس، إذ قام بعض الخوارج على يوسف يدعو لبنى العباس، طمعاً فى
الرياسة على نحو ما بينا، ولكنه كان صدى ضعيفاً لم يحدث أثره، واستمر
يوسف
ثابتاً في مركزه، يناهض الخارجين عليه بقوة وعزم.
ولاريب أنه كان يحرص
على ذلك السلطان الذى ألقى إليه به القدر، بل لعله كان يعمل لغاية أتم
وأبعد، هى أن يؤسس بالأندلس مملكة مستقلة قوية، يتبوأ عرشها، وأسرة
ملوكية
جديدة من بنيه وعقبه، يلقى إليها بهذا التراث الباذخ.
على أن حوادث المشرق كانت تتمخض عن عوامل ومفاجآت أخرى.
ذلك
أن بني العباس بعد أن ظفروا بملك بني أمية ومزقوا شمل أسرتهم، أخذوا فى
تتبع من بقى من أمرائهم وزعمائهم، حتى لا تقوم لفلهم قائمة بعد.
وعهد
أبو العباس عبد الله " السفاح "، إلى عمه عبد الله بن على وهو بالشام، تنظيم
هذه

المطاردة الدموية (١) .
فتتبع وجوه بني أمية ومواليهم في كل مكان، وأمعن فى
مطاردتهم وسفك دمائهم، وقتل منهم جماعة كبيرة من الأمراء والسادة، ولم
يبق
حتى على النساء والأطفال، ولما شعر أن كثيرين منهم فروا ولاذوا بالاختفاء،
زعم
أن أبا العباس قد ندم على ما فرط منه في حقهم، وأنه يشملهم بعفوه وأمانه،
فخدع كثيرون منهم بهذا الوعد، ولبوا دعوة عبد الله إلى الظهور، واستطاع
بهذه
الوسيلة أن يقتل منهم نحو سبعين رجلا آخر.
وكانت مأساة هائلة ارتكبت خلالها
ضروب مروعة من القسوة، ومثل بكثير من الضحايا أشنع تمثيل، وألقيت
جثثهم للكلاب، واستخرجت رفات الخلفاء الأمويين من مثواها وبددت، ولم
تترك جريمة مثيرة، أو لون من العقاب أو المهانة، إلا كان فلٌّ بني أمية لها
فرائس وضحايا (٢) .
وهنا يسوغ لنا أن نتساءل، من هو " السفاح "؟ أهو أبو العباس عبد الله
ابن محمد أول خلفاء بني العباس؟ أم هو عمه عبد الله بن على؟ هذا ما
تختلف

---

(١) وقد أشار أحد الشعراء من دعاة بني العباس وهو سديف بن ميمون إلى
هذه المطاردة فى
شعر أنشده بين يدى أبي العباس وفيه يقول:
لا يغرنك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا
(٢) راجع طرفا من فضائع هذه المطاردة في ابن خلدون ج ٣ ص ١٣٢

و١٣٣؛ وابن
الأثير ج ١ ص ١٦١.



الرواية الإسلامية في شأنه.
ويتفق معظم المؤرخين المسلمين، مثل الطبرى، وابن الأثير، وابن خلكان، وابن خلدون (١) على أن " السفاح " إنما هو لقب أبى العباس عبد الله بن محمد أول الخلفاء العباسيين.
ويذكر لنا الطبرى وابن الأثير كيف أن أبا العباس، هو الذى أطلق على نفسه هذا اللقب حينما ألقى خطابه الأول بمسجد الكوفة على أثر مبايعته بالخلافة، إذ تال للناس في ختام خطابه -: "فاستعدوا فأنا السفاح المبيح، والثائر المنيح " (٢) .
ولكن هناك روايات أخرى ومنها رواية قديمة هى رواية صاحب " أخبار مجموعة في فتح الأندلس " تذكر لنا أن لقب "السفاح " لم يطلق على أبي العباس ولكنه أطلق على عمه عبد الله بن على (٣) .
ولهذه الرواية ظاهر من الوجاهة فيما ارتكبه عبد الله بن على من الفتك الذريع ببنى أمية، وتتبعهم بالقتل في سائر الأنحاء دون هوادة.
ولكن من الذى يحمل في الواقع تبعة هذه المطاردة الدموية المروعة؟ إن الذى أوصى بمطاردة بني أمية والفتك بهم هو أبوالعباس ذاته، وهو أول من اجتنى ثمار الجريمة، وتلقى تراث القتلى، ولم

يكن
عمه عبد الله بن على سوى منفذ لإرادته وأمره، وعلى ذلك فهو أحق بأن
يحمل ذلك اللقب الذى يتفق مع تبعاته ونتائج لسياسته، وهو لقب يخصه به
جمهرة من الثقاة المؤرخين.
ولكن هذه المطاردة الدموية الشاملة لم تجتث الشجرة من أصلها، وشاء القدر
أن تفلت بعض فروعها من يد الجناة، وأن تزكو لتستعيد أصلها الراسخ فى
أرض أخرى.
وكان ممن نجا من المذبحة الهائلة فتى من ولد هشام بن عبد الملك
هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام.
وكان وقت أن حلت النكبة بأسرته يقيم مع
أهله وأخوته، في قرية تعرف بدير خنان من أعمال قنسرين، وفيها كان مولده
قبل ذلك بنحو عشرين عاماً سنة ١١٣ من الهجرة (٧٣١ م) ، وقيل بل كان
مولده بالعليا من أعمال تدمير.
وتوفى أبوه معاوية شاباً في أيام أبيه هشام بن

---

(١) راجع الطبرى ج ٩ ص ١٢٣، وابن خلكان في الوفيات ج ١ ص ٣٥٤؛
وابن
الأثير ج ٥ ص ١٤٥ و١٥٥، وابن خلدون ج ٣ ص ١٢٨ و ١٣١ و١٧٣.
(٢) الطبرى ج ٩ ص ر ١٣٢؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٥٥.
(٣) راجع " أخبار مجموعة في فتح الأندلس " ص ٤٨؛ وراجع أيضا كتاب
الإمامة
والسياسة ج ٢ ص ١٤٨.

(١٤٩/١)

عبد الملك في سنة ١١٨ هـ، فكفله وأخوته جدهم هشام (١) .
ولما انهار صرح

الخلافة الأموية، وأمعن الظافر في مطاردة بني أمية، فر عبد الرحمن بأهله ووولده
إلى ناحية الفرات، وحل هناك ببعض القرى واختفى بها حيناً يدبر أمره، ولكن جند المسوّدة ما لبثت أن حلت بتلك الجهة تستقصى آثار بني أمية، فبادر عبد الرحمن
بالفرار.
وتنقل إلينا الرواية على لسانه قصة مؤثرة عن حوادث فراره، وتصف
لنا كيف أدركته خيل المطاردين على ضفة النهر مع أخيه الصبى، فوثبا إلى النهر
واستطاع عبد الرحمن أن يقطعه سباحة إلى الضفة الأخرى، ولكن الغلام عجز عن
قطعه وعاد إلى الضفة الأولى، حيث وعده المطاردون بالأمان، ولكنه ما كاد يقع
في أيديهم حتى انقضوا عليه وقطعوا رأسه أمام عينى أخيه، وقلبه يتفطر روعة
وأسى (٢) .
ولما أن أمن عبد الرحمن خطر مطارديه، سار مختفياً إلى الجنوب، قاصداً إلى المغرب.
وتقول لنا الرواية أيضا، إن المغرب كان مقصده منذ الساعة
الأولى، وإن نفسه كانت تحدثه بما سيكون له في الأندلس من شأن، وإن بني أمية
كانوا قبل مصرعهم، يهجسون بمثل هذه النبوءة ويرددونها (٣) .
واخترق عبد الرحمن فلسطين ومصر، ولحق به مولياه بدر وسالم، أنفذتهما
إليه أخته أم الأصبغ بشىء من المال والجوهر، تم جاز إلى برقة والتجأ إلى أخواله
بنى نفزة، وهم من برابرة طرابلس، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح، وأقام

لديهم طويلا يرقب الفرص.
والظاهر أن محاولة الاستيلاء على إفريقية لم تكن
بعيدة عن ذلك الذهن الجرىء المغامر، وقد كانت إفريقية في الواقع منذ ربع
قرن مطمح الخوارج والمتغلبين.
وكان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى قد انتزعها
لنفسه في سنة ١٢٧ هـ، ولما دالت دولة بني أمية دعا لبنى العباس كما
قدمنا، ولكن
الفتى الأموى لم يجد على ما يظهر أية فرصة للعمل في هذا السبيل.
وكان عبد الرحمن
ابن حبيب يخشى على سلطانه من ظهور بني أمية في إفريقية، فطارد
اللاجئين إليها
منهم، وقتل ولدين للوليد بن يزيد بن عبد الملك، واعتقل آخرين وصادر
أموالهم.

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦.
(٢) أورد هذه الرواية صاحب أخبار مجموعة (ص ٥١ - ٥٣) .
وكذلك أوردها ابن حيان
مؤرخ الأندلس ونقلها المقرى (نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ و٦٣) .
(٣) أخبار مجموعة ص ٥١؛ نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢؛ والبيان المغرب ج
٢ ص ٤٣، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢١.

(١/١٥٠)

ولما شعر بظهور عبد الرحمن الأموى حاول القبض عليه، ولكن عبد الرحمن
استطاع
أن يتجنب المطاردة، وفر مع صحبه إلى المغرب الأقصى، وتجول حيناً في
تلك

الأنحاء، ولقى كثيراً من الصعاب والخطوب، وكان يرى الموت والأسر ينذرانه في كل خطوة.

وأقام حيناً متخفياً عند شيخ من شيوخ البربر يدعى وانسوس، كانت له فيما بعد لديه حظوة، ثم نزل عند قوم من زناتة على شاطىء البحر، ولحق حينا بمليلة وغيرها، وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس وأخبارها، ويرقب فرص العبور إليها.

وفى أواخر سنة ١٣٦ هـ (٧٥٣ م) لاحت له فرصة العمل، وقوى أمله ما علمه

من اشتداد الخلاف بين المضرية واليمنية، فبعث بدراً مولاه إلى الأندلس ليسبر

غور شئونها، وليحاول بث دعوته بين أنصار بني أمية وأهل الشام، فنزل بدر بساحل إلبيرة (كورة غرناطة) وكانت منزل جند الشام كما أسلفنا، وفيها تجتمع عصبة بني أمية.

وكانت رياسة الأمويين (أو المروانية) والشاميين يومئذ

لزعيمين من موالى بني أمية، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله

ابن خالد.

فاجتمع بدر بأبى عثمان وأبلغه رسالة عبد الرحمن، وناشده العمل لنصرته، وبث دعوته بين أصدقائه وشيعته، ولاسيما بين اليمنية، وهم خصوم يوسف الفهرى ومنافسوه (١) .

فاستجاب أبو عثمان لهذه الدعوة، وكانت بينه وبين

الصميل مودة وصداقة، ففكر في التماس عونه في ذلك المشروع، وسار إليه مع

عبد الله بن خالد في طليطلة، وكان الصميل قد ارتد إليها منهزماً عن سرقسطة وفى

نفسه مرارة من يوسف لأنه قصر في غوثه وإنجاده، ففاوضاه في أمر عبد

الرحمن
وطلبا منه العون والتأييد.
ولكن الصميل أبدى تردداً وفتوراً، واقترح أن يتزوج
عبد الرحمن من ابنة يوسف، وأن ينزل آمناً في ظله، ثم صرفهما ببعض
الوعود
الغامضة (٢) .
وكان الصميل يحرص في الواقع على أن تبقى السلطة ليوسف،

---

(١) يروى لنا ابن حيان قصة اتصال بدر باليمانيين على النحو الآتى: قال
لهم، ما رأيكم
في رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم، فيقيم أودكم، ويدرككم آمالكم؛
فقالوا: ومن لنا به
في هذه الديار.
فقال بدر: ما أدناه منكم، وأنا الكفيل به.
ثم ذكر لهم خبر عبد الرحمن ومكان
وجوده، وأنه يقدم نفسه إليهم، فقالوا: فجيء به أهلا، إنا سراع إلى طاعته،
وأرسلوا بدرا
بكتبهم يستدعونه (راجع الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٥٣) .
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٥؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٤؛ وابن القوطية
ص ٢٣.



لأنه مستأثر في ظله بالنفوذ والسلطان، ويشاركه في تدبير الأمر وحكم
الأندلس، فعاد أبو عثمان وزميله إلى إلبيرة ونشطا إلى بث الدعوة فيها، وحث
اليمنية على
القيام للأخذ بالثأر، وبثا عمالهما في أنحاء الأندلس يدعون إلى تأييد عبد

الرحمن
الأموى.
وعاد بدر إلى عبد الرحمن على مركب خاصة جهزها أبو عثمان ومعه عدة
من أنصار الأموية، وأفضى إليه بنتائج رحلته، فاستبشر عبد الرحمن، وعبر
البحر معهم إلى الأندلس، ونزل بساحل إلبيرة في ثغر المُنكَّب Almunecar
1)) ، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨هـ (سبتمبر سنة ٧٥٥ م) ، فاستقبله
أبو عثمان
وأنزله بمقامه في طرُّش Torrox، وهى قرية تقع غربى المنكب على مقربة
من
البحر، فاستقر بها ينظم دعوته ويدبر خططه (٢) .
وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أثناء ذلك في الشمال يعسكر بجيشه
تحت
أسوار سرقسطة، وقد استعصم بها عامر العبدرى والحباب الزهرى.
فلما تم له
الأمر بالاستيلاء على سرقسطة والقبض على الزعيمين الثائرين وإعدامهما
علي نحو
ما فصلنا، ارتد بجيشه صوب طليطلة.
وبينا هو في الطريق على مقربة منها، إذ أتاه رسول أوفده على جناح السرعة
ولده عبد الرحمن بن يوسف، الذى استخلفه
على قرطبة، ومعه كتاب ينبؤه فيه بمقدم عبد الرحمن الأموى، وانتشار دعوته
فى
في جنوب الأندلس، فذعر يوسف، وذاع النبأ في الجيش، فسرى إليه الخلل،
وتسللت العناصر الناقمة، ولم يبق منه سوى فلول يسيرة.
فهرول يوسف فى
بقية جنده إلى طليطلة، ليبحث مع الصميل في خير الوسائل لرد هذا الخطر.
وكانت الدعوة الأموية في ذلك الحين قد اجتاحت جنوبى الأندلس، والتف

حول
عبد الرحمن عدة من زعماء القبائل والجند، منهم تمام بن علقمة اللخمى (١)
، وقد
أخذ له بيعة جند فلسطين، ويوسف وبن بخت وقد أخذ له بيعة جند الأردن،
وجدار بن عمرو المذحجى من زعماء ريُّه، وحسان بن مالك الكلبى من
زعماء

---

(١) وما تزال المنكب كما كانت ثغرا من ثغور الأندلس الجنوبية.
وهى مدينة كبيرة بيضاء
تقع على خليجين متجاورين كقوسين في البحر، وتحميها الجبال من الخلف.
وربما كان موقعها
الحصين من البر والبحر، هو الذى حدا بعبد الرحمن إلى اختيارها للنزول في
شاطىء الأندلس.
فضلا
عن قربها لمركز دعوته.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٦؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٥؛ وأخبار
مجموعة ص ٧٦.
(٣) لعله أخ لعبد الرحمن بن علقمة اللخمى والى أربونة، المعروف بفارس
الأندلس الذى
فصلنا أخباره فيما تقدم.



إشبيلية، وحشد أبو عثمان وعبد الله بن خالد حوله جموعاً كبيرة من الأموية
وأهل
الشام.
وعاد يوسف والصميل إلى قرطبة ليدبروا الأمر معاً، وأشار الصميل على

يوسف بمصانعة عبد الرحمن وملاطفته وإغرائه بمصاهرته، فأرسل إليه يوسف
وهو ما يزال بطرُّش وفداً يعرض عليه أن يزوجه ابنته، ويقطعه كورة إلبيرة (غرناطة) أو كورة ريه أو يقطعه ما بينهما، وبعث إليه هدية وشيئاً من المال، وكتاباً طويلا يرغبه فيه بمحالفته.
وينقل إلينا منه صاحب البيان المغرب هذه
الفقرة: " أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب، وتأبش من تأبش إليك، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر، ونقض الأيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا، وبه جل وعلا نستعين عليهم.
ولقد كانوا معنا فى
ذرى كنف ورفاهية عيش، حتى غمضوا ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفا، وجنحوا إلى النقض، والله من ورائهم محيط.
فإن كنت تريد المال وسعة الجناب.
فأنا أولى بك ممن لجأت إليه، أكنفك وأصل رحمك، وأنزلك معى إن أردت أو بحيث تريد، ثم لك عهد الله وذمته بى، ألا أغدرك ولا أمكن منك ابن عمى صاحب إفريقيقولا غيره..

.

."

ولكن عبد الرحمن لم يخدع بوعود يوسف وعهده، فأبى عرضه ورد رسله، وكان يسمو بأطماعه إلى أبعد من ذلك وأرفع، وكان
سلطان الأندلس كلها مطمح آماله (١) .
وكان قد آنس عندئذ ذيوع دعوته وقوة
أنصاره، فسار في صحبه من طرّش إلى ريُّه، فبايعه عاملها عيسى بن مساور، ثم إلى شذونة فبايعه عاملها علقمة بن غياث اللخمى، ثم إلى إشبيليه، فبايعه
كبيرها أبو الصباح بن يحيى اليحصبى زعيم اليمنية، وانضم إليه أثناء تجواله

كثير
من الأنصار والجند، واجتمع له في إشبيلية زهاء ثلاثة آلاف فارس، وذاعت
دعوته في غربى الأندلس كله، وأقبلت إليه المتطوعة من كل صوب، من
المضرية
واليمنية وأهل الشام.
ولما رأى أنه يستطيع البدء بمناجزة يوسف سار في قواته
صوب قرطبة، وكان ذلك في فاتحة ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (أوائل سنة
٧٥٦ م)
وفى ذلك الحين كان يوسف والصميل قد حشدا جموعهما، ومعظمها من
الفهرية والقيسية، وكان جند يوسف قد وهن، وتفرق معظمه خلال الفتن
والغزوات المتوالية، وجاءت دعوة عبد الرحمن الأموى فزادته تفرقاً وضعفاً.

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٧؛ وأخبار مجموعة ص ٧٩ و ٨٠.

(١٥٣/١)

وخرج يوسف بقواته إلى المسارّة في ظاهر قرطبة من الغرب، على ضفة نهر
الوادي الكبير، وكان عبد الرحمن قد أشرف بجيشه على ضفة النهر الجنوبية،
فى
قرية مقابلة تسمى " بلَّة نوبة " (فليا نويفا 1) (Villanueva) .
وفرق النهر بين
الجيشين مدى أيام ثلاثة، وفي اليوم الرابع وهو يوم الخميس تاسع ذى
الحجة، هبط ماء النهر وانحسر في بعض المواضع، فتأهب الفريقان للحرب،
ولم تنجح
محاولة يوسف في سبيل عقد الصلح، وصمم عبد الرحمن على القتال في
اليوم التالى
أعنى يوم الجمعة، وكان يوم الأضحى، متيمنا في ذلك بذكرى موقعة مرج

راهط الشهيرة، التي انتصر فيها جده مروان بن الحكم، على قوات عبد الله ابن الزبير، التي يقودها الضحاك بن قيس الفهرى، وذلك في يوم الأضحى – وقد كان الجمعة أيضاً – سنة ٦٤ هـ.

وفى اليوم التالى دفع عبد الرحمن قواته لاقتحام

النهر، وكان أول من اقتحمه منهم جند بني أمية، وكان يوسف يتفوق على خصومه بكثرة فرسانه، ولكن التفرق كان يسود جنده، وكانت جموع عبد الرحمن

تضطرم على قلتها عزماً وحماسة، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ولكن قصيرة، فلم يأت الضحى حتى مزقت خيل يوسف، وهزم جيشه هزيمة شديدة، ونهبت

أسلابه، وقتل كثير من وجوه القيسية والفهرية (٢) .

وفر يوسف صوب طليطلة، حيث كان ولده عبد الرحمن، وفر الصميل صوب جيان.

ودخل عبد الرحمن

الأموى وصحبه قرطبة دون معارضة، وحمل جنده ما استطاع على الاعتدال والقناعة، وحمى أسر خصومه وحريمهم وأموالهم من العيث، وصلى الجمعة في الجامع، ثم نزل بالقصر، وبويع في الحال بالإمارة، وذلك في العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨هـ (١٣ مايو سنة ٧٥٦ م) (٣) .

كان يوم المسارّة بالنسبة لعبد الرحمن فاتحة الظفر لا غايته، فقد استطاع بعد أحداث وخطوب جمة أن يجوز إلى الأندلس، وأن يفتتح عاصمتها، وأن ينتزع إمارتها لنفسه، ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه بعد.

وكان ثمة بينه وبين مُلْك

---

(١) ابن القوطية ص ٢٦.

(٢) ويبالغ البعض في تقدير عدد القتلى فيقدره بسبعين ألفا (ابن القوطية ص ٢٧) .

(٣) يفرد صاحب أخبار مجموعة فصلا مسهبا لهذه الموقعة، وكيفية تقسيم الجيشين المتحاربين
وأسماء القادة في كل منها (ص ٨٦ - ٩٠) .
وراجع أيضا ابن القوطية ص ٢٦ - ٢٨؛ ونفح
الطيب ج ٢ ص ٦٥ و٦٦؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٨ و٤٩.

(١٥٤/١)

الأندلس الحقيقى مراحل بعيدة، وكان ملك الأندلس قد غدا منذ انحلال الخلافة
الأموية، كما رأينا، نهباً مشاعاً يتنازعه الزعماء والمتغلبون، وكانت الفتن المتوالية
قد عصفت بالسلطة العليا، واقتصت من أطرافها، واستقل الزعماء الأقوياء
بكثير من النواحى، وقضى يوسف الفهرى معظم ولايته في إخماد الفتنة،
واستخلاص الرياسة، ولكنه لم يوفق إلى إخماد كل عناصر النزاع والخروج. فلما
ظهر الفتى الأموى في الميدان، كان صرح الأندلس يهتز فوق دعائمه
الواهنة، وكان توطيده يتطلب كثيراً من العزم والعمل القوى.
وكان يوم المسارّة حاسما في مصاير الأندلس، وكان فاتحة عهد جديد فى تاريخها.
ولكن المهمة كانت فادحة، والمعركة شاقة مشعبة النواحى.
وكما أن يوم
المسارة كان فاتحة الظفر، فقد كان فاتحة الكفاح أيضا.
ذلك أن الأندلس كانت
يومئذ بسيطاً من الفتن المتأججة، وكانت الثورة تجثم في كل ناحية، وانحلت عرى
العصبية القديمة الشاملة، وانتثرت فرقا وشيعا صغيرة، فلم تبق الخصومة

قاصرة
على المضرية واليمنية فقط، ولكن غدت كل قبيلة وكل بطن تلتف حول
زعامتها
ومصالحها الخاصة.
وكانت هذه القوى المنتثرة المستقلة برأيها وهواها، تتمسك
باستقلالها المحلى، وتأبى الخضوع لأية سلطة عامة.
وكان عبد الرحمن يرمى إلى
إحياء دولة الإسلام في الأندلس موحدة متماسكة، كما كانت قبل أن تمزقها
الحرب الأهلية، فكانت المعركة في الواقع معركة الدولة والإمارات المستقلة،
معركة السلطة المركزية والإقطاع المحلى: معركة الرياسة الشاملة، والعصبية
المتناثرة.
وكان البربر عنصراً قوياً في الفتنة، يحتفظون دائماً ببغضهم القديم
للعرب، ويحرصون على ما انتزعوه منهم خلال الفتنة من النواحى والضياع.
ثم
كان هنالك ما هو أشد خطراً على دولة الإسلام في الأندلس، ونعنى اسبانيا
النصرانية التي استطاعت أن تخرج سراعاً من غمر الهزيمة والفوضى، وأن
تنتظم
إلى مملكة جديدة في الشمال، وكذلك مملكة الفرنج القوية التي استطاعت
أثناء الفتنة
أن تنتزع الأراضي الإسلامية فيما وراء البرنيه.
وكان نصارى الشمال والفرنج
يتربصون يومئذ بالأندلس، ويرون في تفرقها وضعفها فرصة صالحة للعمل،
ويتصلون بكثير من الزعماء والخوارج، ويمدونهم بالنصح والعون، ويتخذونهم
وسائل لتحقيق مشاريعهم في تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها.

كان عبد الرحمن غداة ظفره الأول، يواجه هذه الخطوب والأخطاركلها، وكان عليه أن يقارعها جميعاً، لكى يغنم رياسة الأندلس القوية المتحدة.

ولكن

ذلك الأمير الفتى الذى لم يكن يجاوز السادسة والعشرين يوم ظفره، كان رجل الموقف، قد شحذت من عزمه الخطوب والمحن، وأعدته لحياة النضال والمغامرة.

فقضى بقية عمره – اثنين وثلاثين عاما – في كفاح مستمر، لا ينتهى من معركة

إلا ليخوض أخرى، ولا يقمع ثورة إلا تليها ثورة، ولا يسحق خارجاً إلا ليعقبه خارج، ولم تبق بالأندلس ناحية أو مدينة إلا ثارت عليه، ولا قبيلة إلا نازعته فى

الرياسة، ولم تبق قوة خفية أو ظاهرة إلا عملت لسحقه.

فكانت الأندلس طوال

عهده بركاناً يتأجج بضرام الحرب والثورة والمؤامرة.

ولكنه صمد لتلك الخطوب

كلها، واستطاع بكثير من الذكاء والإقدام والعزم والجلد، أن يغالب تلك الأخطار والقوى، وأن يقبض على مصاير الأندلس بيده القوية، وأن يحيى سلطان أسرته المندثر، في ذلك القطر النائى، ليستقر ويزدهر أكثر من قرنين.

وكان تفرق خصومه أهم عامل في ظفره، فلم تك ثمة زعامة شاملة بعد يوسف

والصميل، يجتمع الخصوم حولها، وكانت القوى الخصيمة منتثرة في النواحى والمدن، تعمل كل بمفردها حول زعيمها المحلى، وكانت فوق ذلك يعارض بعضها بعضاً في معظم الأحيان، وقد استطاع عبد الرحمن أن يقدر هذا الظرف

وأن يستغله، فعمد إلى لقاء معارضيه في الميدان فرادى، واستطاع أن يخمد

ثوراتهم، وأن يحطم قواهم بالتعاقب، وهو في كل مرة يزداد قوة ومنعة، ويزداد خصومه ضعفاً وتفرقاً، حتى قضى عليهم جميعاً.

(١٥٦/١)

الفصل الثالث

ولاية عبد الرحمن الداخل

- ١ -

بدء المعارك الداخلية.

القتال بين يوسف والصميل وبين عبد الرحمن.

إذعانهما إلى طلب الصلح.

وعودهما إلى قرطبة.

فرار يوسف وسجن الصميل.

يوسف يستأنف الحرب.

هزيمته وفراره.

مصرعه في طليطلة ومقتل ولده عبد الرحمن.

فرار ولده محمد إلى طليطلة.

هزيمته وأسره.

مصرع

الصميل.

تأملات عن يوسف والصميل.

ثورة القاسم بن يوسف في الجزيرة الخضراء.

استيلاؤه

على إشبيلية.

مهاجمة عبد الرحمن لإشبيلية.

هزيمة القاسم وأسره.

ثورة عبد الغافر اليمنى في إشبيلية

وإخمادها.
استئنافها على يد حيوة بن ملامس.
عبد الرحمن يقاتله ويهزمه.
ثورة هشام بن عزرة الفهرى
بطليطلة وامتناعه بها.
ظهور العلاء بن مغيث واضطرام الثورة في باجة.
شهر الدعوة العباسية واتساع
نطاق الثورة.
مسير عبد الرحمن لمقاتلة العلاء وحلفائه.
لقاؤهما في قرمونة.
هزيمة الثوار ومصرعهم.
إرسال رؤوسهم إلى إفريقية ومكة.
استئناف حصار طليطلة.
تسليمها ومصرع زعمائها.
ثورة المطرى
بلبلة.
هزيمته ومقتله.
ثورة أبي الصباح في إشبيلية.
إستدراجه إلى قرطبة ومقتله.
ظهور الفاطمى
البربرى ودعوته.
ثورته في غرب الأندلس.
هزيمته لقوات عبد الرحمن.
مسير عبد الرحمن لقتاله.
التجاؤه إلى الجبال.
خطة عبد الرحمن لتفريق جموعه.

عود الثورة إلى إشبيليقولبلة.
مسير عبد الرحمن
لقتال الثوار.
تفرق الثوار وهزيمتهم.
عود عبد الرحمن لقتال الفاطمى.
التجاؤه إلى شنت برية.
اغتياله وانهيار دعوته.
وكان أول ما عنى به عبد الرحمن من أدوار ذلك النضال بعد يوم المسارة،
هو أن يتعقب يوسف والصميل أقوى خصومه وأخطرهم.
وكان يوسف قد فر
عقب الموقعة صوب طليطلة، وفر الصميل إلى جيان معقل قومه.
وحشد يوسف
في طليطلة ونواحيها ما استطاع من أنصاره، بمعاونة عامله عليها هشام بن
عزرة
الفهرى، ووافاه الصميل بمن حشد من المضرية.
ثم سارا في قواتهما إلى جيان
ثم إلى إلبيرة (غرناطة) ، واجتمع أهل هذه الأنحاء حول يوسف، ونزل
يوسف بإلبيرة يتأهب لمحاربة عبد الرحمن.
ولكنه ما كان يستقر في إلبيرة، حتى
بادر عبد الرحمن بالسير إليه، وترك حماية قرطبة لحليفه وقائده أبي عثمان.
ولما علم
يوسف مسيره إليه، بعث ابنه عبد الرحمن في بعض قواته إلى قرطبة،
فاقتحمها
وأسر أبا عثمان ونفراً من أهل عبد الرحمن وحريمه، ثم غادرها في الحال
خشية

المفاجأة.

ولكن عبد الرحمن الأموى لم يلو في طريقه على شيء، وقصد إلى إلبيرة
توا، وحاصر يوسف والصميل.

فلما شعرا بأن المقاومة عبث، فاوضاه في الصلح
والتسليم بالأمر له، ونبذ كل دعوى في الولاية والسلطة، على أن يؤمنهما في
النفس
والمال والأهل، وأن يُؤمن حلفاؤهم وأصدقاؤهم جميعاً، وأن يُسمح لهما بسكنى
قرطبة تحت رعايته ورقابته، فأجابهما عبد الرحمن إلى الصلح على ذلك،
وعلى أن
يقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمداً أبا الأسود رهينة لديه، يعتقلهما في
قصر
قرطبة برفق وإكرام، حتى تطمئن النفوس وتستقر الأمور، وتم عقد الصلح بين
الفريقين في صفر سنة ١٣٩هـ، وأفرج عن أبي عثمان وباقى الأسرى الذين
أسرهم
ولد يوسف، وتصافى الفريقان، وقفل يوسف والصميل مع عبد الرحمن إلى
قرطبة، وانفض جندهما (١) .

ونزل يوسف بشرقى قرطبة في قصر الحر الثقفى
أحد الولاة السابقين، ونزل الصميل بداره بالربض (الضاحية) ، وأبدى
عبد الرحمن نحوهما عطفاً وليناً، وهو مع ذلك يشدد عليهما الرقابة، ويحرص
على
تجريدهما من كل سلطة وقوة.

وكان في قرطبة فل من عصبة يوسف وأنصاره
السابقين، الذين نالوا على يديه جاها وحظوة، يتطلعون إلى العهد السابق،
ويلومون يوسف على تسليمه واستكانته، ويحرضونه على استعادة مركزه

وسلطانه، وكان يوسف من جهة أخرى يشعر أنه في شبه اعتقال، وأن عبد الرحمن يضيق
الخناق عليه، ويؤلب عليه صنائعه، ينازعونه في أملاكه وأمواله لدى القضاء، والقضاء يميل إلى غبنه وإعناته، حتى ذهب معظم أملاكه، وهو يشعر أن عبد الرحمن من وراء ذلك الاضطهاد (٢) .
عندئذ عول على الفرار، وكاتب
أنصاره في ماردة وطليطلة، ثم فر إلى ماردة، وكان بها معظم أهله وأصهاره (سنة ١٤١هـ) ، وهناك حشد أنصاره من العرب والبربر، حتى اجتمع له زهاء عشرين ألفاً، وتخلف الصميل ولم ويوافقه، فقبض عليه عبد الرحمن وألقاه في غيابة
السجن بتهمة التحريض والتآمر.
وبينا كان عبد الرحمن يحشد جنوده، سار يوسف
بقواته إلى إشبيلية، وعليها عبد الملك بن عمر بن مروان المعروف بالمروانى، فحاصره في إشبيلية حتى أتاه ولده عبد الله بالمدد، ثم وقعت بينهما معارك شديدة

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦؛ وأخبار مجموعة ص ٩٣ و ٩٤؛ والبيان المغرب
ج ٢ ص ٥٠.
(٢) المقرى عن ابن حيان (نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦) ، وأخبار مجموعة ص ٩٥.



قتل فيها كثير من الفريقين، وارتد يوسف منهزما بفلوله.
وكان عبد الرحمن
الأموى يرابط عندئذ بقواته في حصن المدوّر، الواقع على مقربة من غربى

قرطبة، على نهر الوادي الكبير، فوافته الأخبار بهزيمة يوسف وفراره، فتوقف
عن مطاردته، وسار يوسف إلى طليطلة، ولبث يتردد في أنحائها
مدى أشهر، وهو يحاول أن ينظم قواته مرة أخرى، ولكن بعض الخونة من
أنصاره أو مواليه ائتمروا به، واغتالوه ذات يوم على مقربة من طليطلة،
وحملوا
رأسه إلى عبد الرحمن في قرطبة (سنة ١٤٢هـ) .
والظاهر أن هذه الجريمة لم تكن
بعيدة عن وحى عبد الرحمن.
وانتهت بذلك حياة يوسف الحافلة المضطربة، وأمن
عبد الرحمن شره وخطره، وقتل ابنه عبد الرحمن المعتقل لديه، ورفع رأسيهما
فوق
الرماح أمام القصر ليلقى الرعب في قلوب الخوارج والمخالفين (١) .
أما ولد يوسف
الآخر وهو محمد أبو الأسود، فقد استطاع أن يفر من سجنه، وقصد تواً إلى
طليطلة
معقل عصبة أبيه وتحصن بها، فبعث عبد الرحمن في أثره جيشاً بقيادة تمام
بن علقمة
وعينه والياً لطليطلة، فحاصرها حتى سلمت، وأسر محمد بن يوسف ثانية
وجىء
به إلى قرطبة، واستولت جنود عبد الرحمن على طليطلة (ذى الحجة سنة
١٤٢) ، وسحق بذلك وكر الثورة الفهرية.
وزج محمد إلى السجن ثانية وادعى العمى حتى
استطاع الفرار بعد محنة طويلة، وعاد يرفع علم الثورة كما سيأتى.
واستطاع أخوه
الأصغر القاسم بن يوسف أن يفر من طليطلة متنكراً قبل سقوطها.
وأما الصميل، فلبث يرسف في سجنه مدى أسابيع أخرى حتى دس عليه عبد

الرحمن من قتله
داخل السجن خنقا (أواخر سنة ١٤٢هـ) (٢) .
وهكذا انتهت بذهاب يوسف والصميل مرحلة خطيرة من الإضطراب
والقلاقل.
كان يوسف شخصية قوية وزعيما ممتازاً، وقد استطاع أن يحكم الأندلس
زهاء عشرة أعوام في ظروف عصيبة، وأن يسهر على وحدتها وسلامتها بقوة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥١؛ وأخبار مجموعة ص ١٠٠.
ولكن كوندى يورد عن
مصرع عبد الرحمن بن يوسف رواية أخرى هى أنه كان عند مقتل أبيه حرا
طليقا، وقتل في معركة
دموية نشبت بينه وبين جنود تمام بن علقمة والى طليطلة ( Conde: ibid,
V.
I.
p.
١٧٤) وهى
رواية ظاهرة الضعف.
(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧؛ وابن الأبار في الحلة السيراء ص ٥٠؛
والبيان المغرب
ج ٢ ص ٥١، وأخبار مجموعة ص ١٠١.

(١٥٩/١)

وذكاء، وأن يدرأ عنها خطر نصارى الشمال والفرنج، ولما فقد يوسف رياسة
الأندلس في يوم المسارة، لبث مع ذلك أخطر قوة تهدد طالع عبد الرحمن
الأموى
وسلطانه، ولبث روح الثورة والمعارضة مدى أعوام أخرى.

وكان الصميل زعيما
قوى العصبية، نافذ الرأى والكلمة، وافر الدهاء والمكر، يخشى بأسه ووحيه.
فكان ذهابهما من الميدان فوزاً لعبد الرحمن، وخطوة كبيرة في سبيل استقرار
رياسته وتوطدها.
وقطع عبد الرحمن أعوامه التالية في كفاح مستمر، يتلقى وثبات الخوارج
عليه
من كل صوب.
وكان أول الخوارج عليه بعد مصرع يوسف والصميل، القاسم
ابن يوسف وحليفه رزق بن النعمان الغسانى.
وكان القاسم حينما فر من طليطلة كما
قدمنا، قد سار إلى الجزيرة الخضراء، والتجأ إلى شيخها رزق بن النعمان
صديق
أبيه، وحشد حوله جمعاً من الأنصار والمرتزقة، واستولى بمعونة حليفه على
شذونة، ثم سارا في قواتهما إلى إشبيلية، ولم تكن بها قوة تدافع عنها، فاستوليا
عليها دون مشقة، فبادر عبد الرحمن الأموى في قواته إلى إشبيلية، ونشبت
بينه
وبين الخوارج معارك عنيفة، قتل فيها رزق بن النعمان ومزق جنده، ودخل
عبد الرحمن إشبيلية ضافراً، وذلك في أواخر سنة ١٤٣هـ.
أما القاسم فالتجأ بقواته
إلى شذونة، وبعث عبد الرحمن في أثره تماماً والى طليطلة، فطارده حتى
أسره
ومزق قواته (١) .
ولبث عبد الرحمن بإشبيلية بضعة أشهر، ولكنه ما كاد يغادرها إلى قرطبة
حتى
نشبت فيها ثورة أخرى، بقيادة عبد الغافر اليمانى زعيم اليمانية، واستولى عبد
الغافر

على ما جاور قرطبة من الأنحاء، وكثرت جموعه ولا سيما من البربر، وأصبح
يهدد قرطبة.
فخرج عبد الرحمن لقتاله، والتقيا بوادي قيس على مقربة من قرطبة، فاستمال عبد الرحمن حلفاء عبد الغافر من البربر وانفض عنه جندهم، واقتتل الفريقان فهزم عبد الغافر هزيمة شديدة، وفر إلى لَقَنت، وطارد عبد الرحمن جنده حتى قتل منهم ألوفاً عديدة (سنة ١٤٤ هـ) .
ورفع لواء الثورة من بعده في إشبيلية أيضاً، حيوة بن ملامس الحضرمى

---

(١) Conde: ibid, V.
I.
p.
١٧٨، وأخبار مجموعة ص ١٠١.

(١٦٠/١)

كبير زعمائها، وتغلب على إشبيلية وإستجة وكثير من نواحى الغرب (٢) ، والتف
حوله أهل هذه الأنحاء واستفحل أمره.
فسار إليه عبد الرحمن، ونشبت بينهما
معارك عنيفة مدى أيام، ودافع الثوار عن أنفسهم بمنتهى البسالة، حتى كادت الدائرة تدور على عبد الرحمن، ولكن التفرق دب أخيراً إلى صفوف الثوار، ولحقهم الإعياء والملل، فوقعت عليهم الهزيمة، وفر زعيمهم حيوة، وكتب إلى عبد الرحمن يلتمس منه العفو والأمان (سنة ١٤٤هـ - ٧٦١م) (٢) .
وعلى أثر ذلك نشبت الثورة في طليطلة.
وكان عبد الرحمن قد اختار لولايتها
تمام بن علقمة، ثم عينه لحجابته فكان أول حجابه، وخلفه في ولاية طليطلة

حبيب بن عبد الملك.
وكانت المدينة ما تزال تضطرم بعناصر الثورة وفيها كثير من
أنصار الفهرية، فلم يلبث أن قام زعيمهم هشام بن عزرة الفهرى، ولد عزرة
أمير الأندلس السابق، وأعلن الثورة وامتنع بالمدينة.
فسار إليه عبد الرحمن
وحاصره مدى أشهر، حتى اضطر إلى طلب الصلح، وقدم ولده رهينة بحسن
طاعته، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه، وآثر أن يهادنه مؤقتاً.
ولكنه ما كاد يصل
إلى قرطبة حتى عاد هشام إلى الثورة، فارتد إليه عبد الرحمن ليعاقبه على
نكثه، وحاصره ثانية وقتل ابنه، وأطلق رأسه بالمنجنيق داخل الأسوار، ولكنه
لم يظفر
بحمل الثائر على التسليم، فعاد إلى قرطبة ليضاعف أهباته، بيد أنه لم
يستطع أن
يعود تواً إلى طليطلة، إذ نمى إليه عندئذ خبر حادث داهم الخطر يتطلب كل
جهوده وقواه.
ذلك أن داعية من خصوم بني أمية هو العلاء بن مغيث اليحصبى (٣) ،
وكان
من وجوه باجة وله بها رياسة وعصبة، كاتب أبا جعفر المنصور، واتصل
برسله

---

(١) كورة " الغرب " كانت تقع غربى إشبيلية، حتى جنوبى البرتغال ما بين
لبلة وولبة
والمحيط، وقد حرفت في الإفرنجية إلى كلمة Algarve.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٣، والمقرى ج ٢ ص ٧٣.
ويذكر كوندى أن حيوة بن
ملامس كان بالعكس صديقا حميما لعبد الرحمن، وبالغ في الاحتفاء به يوم

نزوله بإشبيلية، وأنه توفى
بعد ذلك بقليل فرثاه عبد الرحمن بأبيات مؤثرة (Conde: ibid, V.
I.
p.
١٧٩) ، ولكن كوندى يخلط
هنا في الوقائع.
والحقيقة أن حيوة بن ملامس كان من أصدقاء عبد الرحمن لأول مقدمه
وكانت له لديه
منزلة، وينقل إلينا ابن الأبار بيتين ينسب قولهما إلى عبد الرحمن في امتداح
حيوة وجوده ووفائه
(الحلة السيراء ص ٣٣ و ٣٤) .
ولكنه غدا بعد من ألد خصومه ومنافسيه.
وله أخبار أخرى ستجيء.
(٣) وقيل الحضرمى (أخبار مجموعة ص ١٠٧) .
والجذامى (البيان المغرب ج ٢ ص ٥٣) .

(١٦١/١)

فى إفريقية، واستصدر منه سجلا بولايته للأندلس، ثم ارتد إلى الأندلس، وعاد إلى باجة في قوة كبيرة، ودعا لبنى العباس، ورفع العلم الأسود، وأعلن أنه قد عين أميرا للأندلس من قبل المنصور (١) (سنة١٤٦هـ) .
وكان الخليفة العباسى
يحاول بهذه الدعوة، أن يحطم مشاريع بني أمية فيما وراء البحر، وأن يبسط سلطانه الإسمى على الأندلس.
وقد رأينا أن عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على
إفريقية، دعا لبنى العباس حينما انهار سلطان بني أمية، وكاتب الخليفة العباسى

فأقره على حكم إفريقية، فكانت إفريقية تابعة لبنى العباس من الوجهة النظرية،
وهكذا كان شأن العلاء بن مغيث، فقد رأى أن يستظل في ثورته بالدعوة
العباسية، لكى يسبغ عليها لونا من الشرعية، ولم يكن للخليفة العباسى
اعتراض على محاولة
لا يتحمل تبعتها من الوجهة المادية، وإن كان يعضدها من الناحية المعنوية،
وقد
أرسل بالفعل سجلا إلى الثائر بما طلب.
وكان بعض الزعماء الخوارج على يوسف
ابن عبد الرحمن، قد استظلوا بالدعوة العباسية كما قدمنا.
وسنرى كيف يشهر
الخوارج على عبد الرحمن الأموى هذه الدعوة في حوادث وخطوب أخرى (٢)
.
واضطرمت باجة وما حولها بنار الثورة، وهرعت القبائل والأحزاب
المختلفة إلى الانضواء تحت اللواء الأسود، ولاسيما الفهرية واليمنية وجند
مصر، واستفحل أمر العلاء وكثر جمعه، وانضم إليه أمية بن قطن
وأصحابه.
وأعلن غياث
ابن علقمة الثورة في شذونة محالفا للعلاء.
فخرج عبد الرحمن من قرطبة في جميع
قواته، وبعث بدرا مولاه في بعضها إلى شذونة، فحاصرها حتى أذعن غياث
لطلب الصلح.
وسار عبد الرحمن إلى قرمونة ما بين قرطبة وإشبيلية نظرا لمناعتها، واتخذ
موقف الدفاع، فسار إليه العلاء في جموعه، وهاجم قرمونة مرارا، وحاصرها
مدى أسابيع حتى وهنت قوى جنده، وعندئذ انقلب عبد الرحمن من
الدفاع إلى الهجوم، وداهم العلاء في صفوة جنده، ونشبت بين الفريقين
معارك

شديدة مدى أيام، حتى هزم العلاء ومزق جيشه، وقتل منهم آلاف عديدة، وكان العلاء نفسه بين القتلى؛ وأسر ابن قطن.

وجمع عبد الرحمن رؤوس الزعماء

والقادة من خصومه ورقمها بأسمائهم.

وحملها بعض رسله إلى القيروان، فألقيت

في أسواقها سرا، أثارت وأثارت هناك دهشة وارتياعا، ووضعت رأس العلاء في سفط،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤.

(٢) راجع ابن القوطية ص ٣٢؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٢١٣؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢.

*(١٦٢/١)*

ومعها اللواء الأسود وسجل المنصور للعلاء، وحمله بعض التجار الثقاة إلى مكة، حيث كان المنصور يؤدى فريضة الحج في العام التالى (سنة ١٤٧ هـ)

.

وألقى

أمام سرادق المنصور، وحمل إليه فارتاع لرؤيته، وقال ما معناه: " ما في هذا الشيطان مطمح، فالحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر " (١) .

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يسحق هذه الدعوة الخطرة، وكان أخطر ما فيها أنها لم تكن دعوة حزب أو قبيلة، وإنما كانت دعوة عامة تدعمها الصبغة

الشرعية، ولم يك أصلح منها لجمع خصوم عبد الرحمن من سائر الأحزاب والقبائل

تحت لواء واحد (٢) .

ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة كانت الثورة التي يثير ضرامها

هشام الفهرى في طليطلة، قد استفحلت واتسع نطاقها.
فأرسل عبد الرحمن قائديه
بدراً وتمام بن علقمة في جيش كبير إلى طليطلة، فطوقها وشدد الحصار
عليها
حتى ضاق أهلها ذرعاً، واضطروا إلى طلب الصلح، على أن يسلموا الزعماء
الثائرين، وقبضوا على هشام وعدة من أصحابه، فأخذوا إلى قرطبة مصفدين
معذبين، ثم صلبوا بأمر عبد الرحمن، وتم بذلك سحق الثورة في طليطلة إلى
حين
(سنة ١٤٧ هـ - ٧٦٤ م) .
وفى أوائل سنة ١٤٩ هـ - ٧٦٦ م، خرج سعيد اليحصبي المعروف بالمطرى
بمدينة لَبْلة، مطالباً بثأر اليمانية الذين قتلوا مع العلاء، فهرعت إليه اليمانية
وقوى
جمعه.
ثم سار إلى إشبيلية فاستولى عليها، وارتد عنها واليها عبد الملك بن عمر
المروانى لقلة جنده، ولبث ينتظر المدد.
وكانت إشبيلية مطمح كل ثائر لقربها من
قرطبة، ولأنها لبثت مدى أعوام من أهم مراكز الثورة في الأندلس.
وخرج فى
الوقت نفسه غياث بن علقمة اللخمى بمدينة شذونة ناكثاً لعهده.
فسار عبد الرحمن
أولا إلى إشبيلية، وانقلب المطرى إلى قلعة رعواق القريبة وامتنع بها، فحاصره
عبد الرحمن وقطع علائقه مع بقية أنصاره، فلما ضاق الثائر بالحصار ذرعا،
حاول
الخروج ليشق له طريقاً بين الجيش المحاصر، ووقعت بين الفريقين معركة
شديدة
قتل فيها المطرى، وارتدت فلوله إلى القلعة، وقدموا عليهم.

خليفة بن مروان،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤؛ والمقرى ج ١ ص ١٥٦ وج ٢ ص ٦٧؛
وأخبار
مجموعة ص ١٠٢ و١٠٣؛ وابن القوطية ص ٣٣.
(٢) Dozy: Hist, V.
I.
p.
٢٣٤

(١٦٣/١)

فاستمر عبد الرحمن في محاصرة الخوارج، حتى أذعنوا لطلب الصلح، وسلموا
اليه قائدهم فقتله، واستولى على القلعة وهدمها، ثم سار إلى شذونة فحاصرها
حتى.
أذعن أهلها لطلب الأمان.
وفى العام التالى عادت الثورة فاضطرمت في إشبيلية، ومدبرها وزعيمها
في تلك المرة أبو الصباح بن يحيى اليحصبى، صديق عبد الرحمن وحليفه،
وكان
أبو الصباح زعيم اليمنية في إشبيلية يوم قدوم عبد الرحمن إلى الأندلس،
فكان فى
طليعة من هرعوا يومئذ لتأييده ونصرته، وقاتل معه يوم المسارة، وغدا إلى
جانب
أبى عثمان وعبد الله بن خالد، من خاصة أعوانه وأركان دولته.
ولكن عبد الرحمن
كان يحقد عليه ويتوجس منه، لحديث نقل عنه يوم المسارة بوجوب التخلص
من

عبد الرحمن بعد التخلص من يوسف الفهرى ورد الأمر إلى اليمنية (١) .
وكان
عبد الرحمن قد ولاه إشبيلية، ثم عزله عنها لما ظهر من عجزه عن قمع
الفتنة،
فغضب أبو الصباح وأظهر الخلاف، واجتمع إليه أنصاره، ورأى عبد الرحمن
أن يأخذه بالحيلة والملاطفة، فبعث إليه تمام بن علقمة يدعوه إلى قرطبة
للتفاهم،
ويبذل له ما شاء من الوعود، فسار أبو الصباح إلى قرطبة في أربعمائة من
رجاله،
واستقبله عبد الرحمن بالقصر، وعاتبه على ما كان منه، فأغلظ أبو الصباح
فى
الجواب، ولامه على النكث بوعوده له، فأمر الفتيان بقتله، فقتل طعناً
بالخناجر
وانفض جمعه (سنة ١٥٠هـ) .
ولم يمض قليل على ذلك حتى نشبت فتنة خطيرة من نوع جديد، شغلت
عبد الرحمن مدى الأعوام التالية، وكان نشوبها في شمال شرقى الأندلس بين
البربر،
وزعيمها ومثير ضرامها، داعية بربرى خطر يدعى شقنا أو شقيا بن عبد
الواحد،
وأصله من بربر مكناسة، وكان فقيها يعلم الصبيان، فزعم ذات يوم أنه سليل
النبى
ومن ولد فاطمة والحسين، وتسمى بعبد الله بن محمد.
فذاعت دعوته بين الناس
وفي تلك المنطقة، وكانوا أكثرية بها.
والخصومة بين العرب والبربر قديمة مؤثلة
كما بينا، وقد كان البربر دائماً على قدم الأهبة للثورة ضد العرب.

ولما آنس
الدعى الفاطمى قوة جمعه، سار إلى شَنت بريّة (٢) .
فاستولى عليها وجعلها مركزه

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦؛ وابن القوطية ص ٣٠.
(٢) شنت برية وبالإسبانية Santaver من الكور الأندلسية القديمة التي اندثرت، وكان
موقعها يشغل مقاطعة قونقة اليوم، وقاعدتها شنت برية تقع شرقى وادي الحجارة.
وسميت كذلك
عن اسمها القديم Santebria.

*(١٦٤/١)*

العام، ثم سار في جموعه غرباً واستولى على ماردة وقورية ومدلين، وعلى جميع
المنطقة الواقعة حولها بين نهرى التاجُه ووادي يانة، فقويت دعوته وعظم أمره، واشتد بغيه وعيثه في تلك الأنحاء، وأخذت العناصر المخالفة لعبد الرحمن من العرب
في التحرك أيضاً.
فعهد عبد الرحمن إلى والى طليطلة أن يقمع ثورة الدعى، فبعث
إلى شنت برية جيشاً بقيادة سليمان بن عثمان، فخرج إليه الفاطمى في قواته، فهزمه هزيمة شديدة، وأسر قائده سليمان وقتله، وزاد هذا الظفر في سلطانه وبغيه.
فسار إليه عبد الرحمن بنفسه في العام التالى (سنة ١٥٢هـ) ، واقتحم منطقة الثورة، ونشبت بينه وبين البربر وقائع عديدة ثبت فيها البربر، وامتنع الثائر بالجبال، ولم يجد عبد الرحمن سبيلا إلى مطاردته.

فارتد إلى قرطبة، وبعث إلى شنت برية
مولاه بدراً ليتابع القتال، فاستمر الفاطمى ممتنعاً بصحبه في الجبال، محاذراً لقاء
الجيش المهاجم.
وعاد عبد الرحمن لقتاله بنفسه في العام التالى (سنة ١٥٤هـ) ، وشدد في محاصرته ومطاردته، ولكنه لم يفلح أيضاً في حمله على مغادرة مواقعه، ثم بعث لقتاله في العام التالى مولاه عبيد الله بن عثمان، فخرج الفاطمى للقائه واستمال جنده البربر، وبث الخلاف إلى صفوفه، فانحل عسكره وأثخن فيه الفاطمى، ففر عبيد الله واستولى الثائر على معسكره وأسلاب جيشه، وقتل جماعة كبيرة من
وجهاء جنده (سنة ١٥٥هـ) (١) .
وهكذا فشلت الحملات المتوالية لإخماد الثورة في تلك المنطقة الوعرة، فعاد عبد الرحمن بجيش جديد إلى شنت برية، ولكنه لجأ عندئذ إلى وسيلة جديدة لتمزيق
شمل الثوار، فاستقدم إليه كبير البربر في شرقى الأندلس واسمه هلال الميديونى، وأقره على ما بيده من الأنحاء، وأصدر له عهداً بولاية الأنحاء التي غلب عليها
الفاطمى، وفوض إليه أمر استخلاصها منه، وكان لتلك الحيلة أثرها في بث الخلاف إلى صفوف البربر، فانفض عن الفاطمى كثير من أنصاره، واضطر أن ينسحب من شنت برية إلى الشمال ليعتصم بالجبال مرة أخرى، وبينا عبد الرحمن
يجد في مطاردته ويقتحم معاقله وضياعه، وينكل بأنصاره حيثما وجدوا، إذ بلغه
نشوب الثورة في إشبيليةولبلة وباجة، وقوامها اليمنية من عصبة أبي الصباح

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦ و٥٧؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٢٢٤؛ وابن

خلدون
ج ٤ ص ١٢٣.

(١٦٥/١)

وأنصاره.
وكان على رأس الثورة في إشبيلية زعيمها القديم حيوة بن ملامس
الحضرمى، وفي باجة عبد الغافر اليحصبي، وفي لبلة عمر بن طالوت،
وهما من أبناء
عمومة أبي الصباح، وانضم إليهم كثير من البربر، فحشد الثلاثة جموعهم
واعتزموا
السير إلى قرطبة في غيبة عبد الرحمن، وكان قد استخلف عليها مولاه بدرا
. (١)
فعاد عبد الرحمن إلى قرطبة مسرعاً، ثم غادرها تواً إلى لقاء الثوار، فالتقى
بهم فى
وادي منبس على نهر "بمبيزار" أحد فروع الوادي الكبير، ونشبت بين الفريقين
في المبدأ عدة معارك محلية.
ثم لجأ عبد الرحمن إلى الحيلة والخديعة، فعهد إلى جماعة
من وجهاء البربر من جنده، أن يتصلوا بزملائهم البربر من جند العدو، وأن
يقنعوهم بخطأ تصرفهم في نصرة اليمنية، وأنه إذا تغلب عليه العرب، كانت
العاقبة وبالا عليهم أيضاً، فانسل الرسل إلى معسكر العدو تحت جنح
الظلام، وخاطبوا أبناء جنسهم بما تقدم، وأخذوا عليهم العهود والمواثيق.
وفى اليوم
التالى نشبت بين الفريقين موقعة عامة.
فنكث البربر وتقاعدوا عن القتال، فهزم
الثوار شر هزيمة، وكثر القتل في جموعهم حتى قتل منهم زهاء ثلاثين ألفا
. (٢)

وهلك معظم الزعماء الثائرين، وفر عبد الغافر وركب البحر إلى المشرق، وقرن

عبد الرحمن ظفره باجراء دموى آخر، إذ قبض على ثلاثين من وجهاء إشبيلية ممن كانوا في جيشه وأمر بهم فأعدموا (سنة ١٥٧ - ١٥٨ هـ) .

وفى العام التالى عاد عبد الرحمن إلى مطاردة الفاطمى، فالتجأ الثائر إلى الجبال

كعادته، ولم يجد عبد الرحمن سبيلا إلى اللحاق به، فغزا قورية وأثخن في تلك الأنحاء، وكان أمر الفاطمى قد ضعف خلال هذه الأعوام وتضاءل جمعه، ولكنه لبث يسيطر على شنت برية وماردة، ولبثت دعوته خطرا يهدد سلام الأندلس.

فوجه عبد الرحمن لقتاله في العام التالى حملة قوية أخرى بقيادة تمام ابن علقمة وعبيد الله بن عثمان، فلقيهما الفاطمي ووقعت بينهما معارك شديدة، رجحت فيها كفته، ثم التجأ إلى حصن شبطران بقرب شنت برية، فحاصره تمام

وعبيد الله مدى أشهر، ولم يظفروا منه بطائل، فعادا إلى قرطبة، وخرج الفاطمى

عل أثر عودهما إلى شنت برية، ونزل بقرية من أعمالها تسمى قرية العيون،

---

(١) ويقول ابن الأثير إنه كان يستخلف عليها ولده سليمان (ج ٦ ص ٣) .

(٢) ابن القوطية ص ٣١ و ٣٢.

(١٦٦/١)

وهنالك ائتمر به اثنان من أصحابه هما أبو معن داود بن هلال وكنانة بن سعيد، وانقضا عليه ذات يوم وقتلاه، واحتزا رأسه وحملاها إلى عبد الرحمن في قرطبة، وبذلك انفضت جموعه، وخبت ثورته، بعد أن لبثت زهاء عشرة أعوام تحمل

الدمار والسفك إلى شرقى الأندلس وغربيها، وتهدد سلطان عبد الرحمن بشر العواقب، وحققت الخيانة في لحظة واحدة ما لم تحققه الحملات والبعوث المتعاقبة في أعوام طويلة.

ولعل هذه الضربة الناجعة لم تكن بعيدة عن أصبع عبد الرحمن أو وحيه، وقد كانت الخيانة والجريمة من بعض أسلحته فى مقارعة خصومه، وكانتا تحققان له في بعض الأحيان من الظفر ما لا تحققه أى الوسائل.

وكان مصرع الفاطمى وانتهاء ثورته سنة ١٦٠هـ (٧٧٦ م) (١) .

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١١؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٧.

(١٦٧/١)

الفصل الرابع

موقعة رونسفال أو باب شزروا

الثورة في الشمال.

تحالف ابن يقظان والى برشلونة والحسين الأنصارى والى سرقسطة.

هزيمة

جيش عبد الرحمن وأسر قائده.

سعى ابن يقظان لدى ملك الفرنج واستدعاؤه لغزو اسبانيا.

تلبية

شارلمان للدعوة.

اتصال الزعماء الخوارج بالفرنج.

سياسة الفرنج في تشجيع الثورة في الأندلس.

صلة الخلافة العباسية بهذه السياسة.

الصراع بين الأندلس والفرنج.

اللون الدينى لهذا الصراع.

أقوال
الروايات اللاتينية في تأييد هذه الخاصة.
مسير شارلمان إلى اسبانيا.
اختراقه لنافار وحصاره لبنبلونة.
مقاومة البشكنس.
سقوط المدينة في يد الفرنج.
مقدم سليمان وتسليمه للرهائن.
زحف شارلمان على
سرقسطة.
مقدم بقية الجيش الفرنجي.
تطور الحوادث.
تحول الحسين وامتناعه بسرقسطة.
فشل
شارلمان في أخذها.
اعتقاله لسليمان وارتداده.
بواعث هذا الارتداد الفجائى.
عود شارلمان إلى
مهاجمة بنبلونة وتخريبها.
بدء المسير للعود.
عيشون ومطروح ولدا سليمان.
تحالفهما مع الحسين
الأنصارى.
سيرهما في قواتهما في أثر الفرنج.
مسير شارلمان إلى البرنيه.
أبواب البرنيه.
رونسفال

أو باب شزروا.
مفاجأة الجيش الفرنجى وفصل مؤخرته.
من هم الذين هاجموه.
المسلمون أم البشكنس.
المسلمون هم الذين دبروا الهجوم.
معاونة البشكنس.
وصف الرواية اللاتينية للهجوم.
تمزيق مؤخرة
الجيش الفرنجى.
مصرع الفرسان والسادة الفرنج.
أنشودة رولان وبعدها عن التاريخ الحق.
مكانتها في أدب الفروسة.
لماذا لم ينتقم شارلمان لهزيمته.
مقارنة بين الروايتين العربية واللاتينية.
في ذلك الحين كانت ثمة حوادث هامة أخرى تقع في شمال الأندلس.
وقد
تتبعنا ثورة الفاطمى والبربر إلى نهايتها حرصا على صلة الحديث.
ونعود الآن
بضع سنين إلى الوراء.
ففى سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) ثار سليمان بن يقظان الكلبى
(أو الأعرابى) والى برشلونة (أو برشنونة) (١) وجيرونة (جيرندة) ، والحسين
ابن يحيى الأنصارى والى سرقسطة، وهو من ولد سعد بن عبادة، وتحالفا
على
قتال عبد الرحمن وخلعه.
وكان استمرار الثورة في الجنوب، وانشغال عبد الرحمن
الدائم بقمعها، وطبيعة الشمال الجبلية ومنعته، مما يذكى عوامل الثورة في

الولايات
الشمالية، ويشجع مشاريع الزعماء الخوارج.
وكان عبد الرحمن يشتغل يومئذ
بمقاتلة الفاطمى، فأرسل إلى الشمال جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامى،
فهزمه

---

(١) وهو تعريب مطابق لأصلها اللاتينى Barcenona

(١٦٨/١)

سليمان وأسره وتفرق جيشه (١٥٨هـ - ٧٧٥ م) (١) .
واستفحل أمر الثورة فى
الشمال، ولكن زعماء الثورة وعلى رأسهم سليمان بن يقظان لم يطمئنوا إلى
ذلك
النصر المؤقت لما يعلمونه من عزم عبد الرحمن وبأسه وروعة انتقامه،
ففكروا فى
الاستنصار بملك الفرنج.
وسار سليمان (وتسميه الرواية اللاتينية ابن الأعرابى)
مع نفر من صحبه الخوارج، إلى لقاء شارلمان أو كارل الأكبر في ربيع سنة
٧٧٧ م
(١٦٠هـ) ، وكان يومئذ يقيم بلاطه في مدينة بادربورن من أعمال وستفاليا
(شمال
غربى ألمانيا) ، ويعقد الجمعية الكبرى، حيث كانت جموع السكسونيين
المغلوبة
تعمّد للنصرانية، بعد أن شتت شارلمان شملهم وفر زعيمهم فيدوكنت؛ فهنا
وفد
عليه سليمان وصحبه، وعرض عليه المحالفة على قتال عبد الرحمن، واقترح

عليه
غزو الولايات الأندلسية الشمالية، وتعهد بمعاونته، وبأن يسلمه المدن التي يحكمها
هو وصحبه من قبل أمير قرطبة ولاسيما سرقسطة، وأخيراً بأن يسلمه أسيره القائد
ثعلبة بن عبيد.
وتضيف الرواية اللاتينية إلى ذلك أنه كان مع ابن الأعرابى ولد ليوسف الفهرى حاكم الأندلس السابق جاء ومعه صهره ليسعيا كذلك إلى خلع عبد الرحمن، وتقول الرواية الإسبانية النصرانية، إن الذى دعا شارلمان إلى غزو اسبانيا هو
ألفونسو أمير إمارة ليون النصرانية (جليقية) .
ولكن الروايتين العربية والفرنجية
(اللاتينية) كلتاهما صريحة في أن الدعوة جاءت من سليمان بن يقظان (الأعرابى)
وحلفائه.
والرواية العربية تقول لنا بمنتهى الوضوح، إن سليمان استدعى
قارله (كارل أو شارلمان) ملك الفرنج إلى بلاد المسلمين، ووعده بتسليم برشلونة أوسرقسطة (٢) .
وتوافق الرواية اللاتينية على ذلك، وتزيد أن سليمان

---

(١) ويقدم إلينا الرازى بعض تفاصيل عن ذلك.
فيقول لنا إن سليمان بن يقظان الكلبى
(وهو الأعرابى) كان من زعماء سرقسطة، فلما ولى الثغر بدر مولى عبد الرحمن الداخل نقله إلى
قرطبة، فحرضه البعض عل القيام بثأر قومه اليمانية فخرج من قرطبة إلى سرقسطة ودخلها.

وخرج
لمحاربة ثعلبة بن عبيد سنة أربع وستين ومائة، ونزل مدينة طرسونة، ووالى
حربه، واضطرب
على باب سرقسطة بمعسكره، فافترس سليمان بن يقظان غفلته، وافتراق أهل
الجيش، فهجم عليه
وأسر ثعلبة بن عبيد، وبعث به إلى ملك الفرنج.
وأهم مفارقة في رواية الرازى هو التاريخ
المتأخر الذى يقدمه إلينا عن هذه الموقعة، وذلك حسبما يتضح بعد من سير
الحوادث (وقد نقل
إلينا هذه الرواية العذرى في كتابه ترصيع الأخبار الذى سبقت الإشارة إليه
ص ١٢٥) .
(٢) أخبار مجموعة ص ١١٢ و١١٣، وابن الأثير ج ٦ ص ٥ و٢١، وابن
خلدون
ج ٤ ص ١٢٤.

(١٦٩/١)

وحلفاءه أعلنوا خضوعهم لملك الفرنج وانضواءهم تحت حمايته (١) .
ولبى ملك الفرنج دعوة الثوار المسلمين ووافق على عروضهم.
وبعث إليه
سليمان بأسيره ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن، عنواناً للثقة والتحالف، فسجن
فى
إحدى القلاع الفرنسية.
وفى رواية أخرى أنه سلمه إليه عقب مقدمه إلى اسبانيا.
على أى حال فقد كان حصول هذا الأسير، وهو من خاصة عبد الرحمن
وأكابر
وزرائه في يد ملك الفرنج، ضربة لعبد الرحمن، ورهينة قيمة يمكن استغلالها.

وكان سليمان زعيم أولئك الخوارج يعمل مستقلا لنفسه، ويرى قبل كل شىء
إلى
تحطيم سيادة قرطبة، وإلى الاستقلال بما في يده تحت حماية ملك الفرنج.
ولكن
ملك الفرنج كانت له مشاريع أخرى.
وكانت السياسة الفرنجية ترمى إلى تعضيد
روح الثورة والخلاف في إسبانيا المسلمة، ولاسيما منذ انهارت سيادة الإسلام
فى
جنوبى فرنسا وارتد المسلمون إلى ما وراء البرنيه.
وبدأ تطبيق هذه السياسة منذ
عهد ببين أبي شارلمان.
وكان سليمان بن يقظان زعيم الثورة في الشمال يتصل بملك
الفرنج منذ سنة ٧٦٠ م، أعنى منذ استيلائه على أربونة واتصال الحدود
الفرنجية
بحدود اسبانيا المسلمة، ويسعى بهذا التحالف إلى تأييد استقلاله.
وهكذا بدأت
العلائق تنتظم بين الزعماء المسلمين، الخوارج على حكومة قرطبة، وبين
الفرنج
المتربصين بدولة الإسلام في الأندلس، فكان الزعماء الخوارج كلما حاولوا
الثورة
والاستقلال بحكم مدينة أو ولاية، اتجهوا إلى الفرنج يستمدون عونهم
ومناصرتهم، وكان الفرنج يسارعون إلى تلبية هذه الدعوات، ويتخذونها ذريعة
للتدخل فى
شؤون اسبانيا المسلمة، وإذكاء روح التفرق فيها، وسنرى كيف استطاع ملوك
الفرنج تنفيذ هذه السياسة في فرص عديدة متعاقبة.
والظاهر أن الخلافة العباسية

في المشرق لم تكن بعيدة عن تأييد هذه السياسة في المغرب، والتوصل بذلك إلى
مناوأة بني أمية الذين استطاعوا أن ينتزعوا هذا القطر النائى من أقطار الخلافة، ويقيموا فيه دولتهم الذاهبة على دعائم جديدة، فإن الرواية الفرنجية تحدثنا عن

---

(١) تراجع أقوال الرواية اللاتينية في مؤلف العلامة الأستاذ بيدال: Ramon Menendez Pidal: La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (Espana – Calpe, Madrid ١٩٥٩) p. ١٧٩ – ١٨٠ وهو مؤلف ضخم جامع، وأحدث ما أخرجه العلامة الإسبانى، وهو يتناول حوادث موقعة باب الشزرى بإفاضة شافية وتحليل ممتع.
وراجع أيضا موسوعة بوكيه Bouquet. Vol. V. p. ١٤، ٤٠ & ١٤٢ وكذلك Reinaud: Invasions des Sarrazins, en France, p. ٩٤



علائق المنصور وببين وتقول لنا، إن ببين بعث في سنة ٧٦٥ م سفارة إلى بغداد، ورد المنصور بإرسال سفراء إلى ملك الفرنج وفدوا عليه بعد ذلك بثلاثة أعوام، وقضوا حينا في البلاط الفرنجى في مدينة متز (١) .

وسار شارلمان ولد ببين على
سياسة أبيه، فكان بينه وبين الرشيد فيما بعد تلك المكاتبات والسفارات الشهيرة
التي فصلتها الرواية الفرنجية أيضاً، والتي نعود إليها في مقامها المناسب.
وسنرى
فيما بعد، أنه في الوقت الذى كان فيه يعقد هذا التحالف بين ثوار الشمال
وبين
ملك الفرنج، كانت ثمة محاولات تبذل لنشر الدعوة العباسية في الأندلس
حيث
نزل عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى في تدمير يدعو
للخلافة
العباسية على نحو ما نفصل بعد.
وكانت إسبانيا المسلمة تجوز إزاء هذا الخطر الأجنبى الذى يتربص بها ظرفا
من أدق ظروفها، فقد كانت مصايرها تهتز في يد القدر، وكان الإسلام يجوز
فيها
معركة الحياة والموت، بعد أن كان قبل ذلك بحقبة يسيرة يتدفق إلى ما وراء
البرنيه
بقوة، ويسود معظم أنحاء فرنسا الجنوبية.
وكانت مملكة الفرنج بالعكس قد
توطدت دعائمها، وانتزعت من الإسلام كل معاقله في فرنسا، بعد أن لبث
مدى
حين يزعجها ويهدد وجودها.
وبينما اجتمعت كلمة الفرنج بزعامة الأسرة القارلية
القوية، إذا بالإسلام في اسبانيا تعصف به ريح التفرق من كل صوب وتمزقه
شر
ممزق، وإذا بالأندلس تغدو بركانا من القلاقل والحروب الأهلية.
وكان كارل

الأكبر (شارلمان) مذ ولى العرش (سنة ٧٦٨ م) يشغل عن التدخل في اسبانيا
المسلمة، بمحاربة القبائل الوثنية السكسونية فيما وراء الرين ليرد خطر اعتدائها على
مملكته، وليخضعها إلى سلطانه.
وكانت غزوات الأسرة القارلية تتخذ فيما رواء
الرّين منذ عهدكارل مارتل، جد كارل الأكبر، لوناً دينياً عميقاً كالذى تتخذه
حروب الفرنج مع العرب في غاليس.
ذلك أن حروب الفرنج فيما وراء الرين
كانت تتخذ مظهر حماية النصرانية، من خطر الوثنية المتدفق من المشرق، وكانت
حروبهم في غاليس تتخذ مظهر حماية النصرانية، من وثبات الإسلام المتدفق من
الجنوب.
وكانت الكنيسة روح هذه المعارك توحى بها وتذكيها، إلى جانب شهوة
الظفر والفتح.
فلما ظفر الفرنج برد تيار الإسلام إلى ما وراء البرنيه، واستولوا

---

(١) Reinaud: ibid.
p.
٨٩ & ٩٢

(١٧١/١)

على جميع ثغوره ومعاقله في فرنسا، وفترت تلك النزعة الدينية العميقة، التي
جعلت غاليس مدى نصف قرن مسرحا لصراع العرب والفرنج، بقيت الأطماع
والبواعث السياسية، تحفز الفرنج إلى قتال الإسلام ومطاردته، وانتزاع اسبانيا

أو على الأقل ولاياتها وثغورها الشمالية من قبضته، لتكون معقلا لدرء فورانه
ووثباته من الجنوب.
وتشير الروايات اللاتينية إلى غايات السياسة الفرنجية من التدخل في شؤون
اسبانيا المسلمة، وتحدثنا عن هذا المزج بين الغايات الدينية والدنيوية.
فأما عن
الناحية السياسية فإن إجنهارت مؤرخ شارلمان يقول لنا إن الحملة التي نظمها
الملك
الفرنجى إلى اسبانيا كان يقصد بها مهاجمة قرطبة.
وإنه ليبدو من ضخامة الجيش
الذى حشده شارلمان، أن الأمر لم يكن متعلقا فقط بالاستيلاء على المدن
التي وعد
سليمان بن يقظان بتسليمها، وأن شارلمان كان يرمى بالعكس إلى السيطرة
على
اسبانيا كلها، أو على الأقل نصفها الشمالى.
ويقول لنا "أبَدَال " وهو مؤرخ حملة
شارلمان الإسبانية، إن الأمر لم يكن متعلقا بغاية دينية قوامها تحطيم دولة
"كافرة "
ولكن الحملة كانت ترمى إلى غاية سياسية قوامها أن يوضع حد لأخطار
الغزوات
الإسلامية لفرنسا.
ويرى الأستاذ بيدال أن شارلمان لم تكن له غاية دينية خالصة
في أية حملة من حملاته، وأن الباعث كان دائماً سياسياً، ولكنه يبطن في
ثنيته الغاية
الدينية.
ذلك لأن المشكل الوحيد لإخضاع شعب " كافر " هو حمله على اعتناق
النصرانية، وهذا ما وقع بالنسبة لحملات شارلمان ضد " الأفار " (١) ، وضد

" السكسونيين ".
ومن ثم فقد كان مسير شارلمان إلى اسبانيا يبطن الغاية الدينية إلى جانب الغاية
السياسية، وهذا ما تؤيده الرواية اللاتينية Anales Mettenses، التي كتبت في حياة
شارلمان، وفيها "أن كارلوس قد هزته شكاوى النصارى الإسبان الذين نكل بهم المسلمون فسار بجيشه إلى هنالك ".
ويضيف الأستاذ بيدال إلى ذلك " انه وإن كان
الإسلام يتسم حقا بالتسامح، إلا أن النصارى واليهود في اسبانيا كانوا يعانون ضغطا وإرهاقا في ظل الحكومة الإسلامية، ومن ثم فقد كان للنصارى المستعربين

---

(١) الأفار أو الأفاريين Avars هم مجموعة من القبائل القوية كانت تسكن حوض نهر
الدانوب الأوسط.
وقد حطمهم شارلمان وانتهى الأمر بتنصيرهم (٧٩١ - ٧٩٥ م) .

*(١٧٢/١)*

أن يستقبلوا شارلمان كمحرر لهم ".
وتؤيد هذه النزعة الدينية للحملة، روايات
لاتينية كثيرة أخرى معاصرة ولاحقة.
بيد أن أقطع دليل على روح الحملة الدينية
هو أن شارلمان قد أبلغ البابا هادريان بأمرها قبل أن يضطلع بها، وأن البابا بارك
عزيمته ووعده بإقامة الصلوات، لكى يعود ظافرا إلى مملكته (١) .
وكان كارل حينما استدعاه الخوارج المسلمون لغزو اسبانيا، قد انتهى من

الحرب في سكسونية، وهزم القبائل الوثنية الجرمانية، وأخضع زعيمها القوى
" فيدوكنت " وألجأه إلى الفرار، فجاءت الدعوة إليه في وقت ملائم.
وانتظر
كارل حتى مضى الشتاء، ثم سار إلى الجنوب وقت أعياد الفصح في أكوتين
على مقربة من بوردو.
وفى فاتحة ربيع سنة ٧٧٨ م، جمع قواته المؤلفة من فرنج
نوستريا ومن الجرمان واللونبارد وفرق من بريتانيا وأكوتين، واخترق ولاية
أكوتين، وقرر أن يفتتح الغزوة الإسبانية توا حتى لا يفاجئه الشتاء، وقسم
جيشه
الضخم إلى قسمين، عبر أحدهما جبال البرنيه من الناحية الشرقية، وعبرها
القسم
الثاني بقيادة كارل نفسه من الناحية الغربية، من الطريق الرومانى القديم فوق
آكام
"جان دى لابور" الشاهقة التي تشرف على مفاوز رونسفال الوعرة، على أن
يجتمع الجيشان على ضفاف نهر الإيبرو أمام سرقسطة حيث يلتقى شارلمان
بحلفائه
المسلمين.
وكان عبوره لجبال البرنيه من " باب الشزرى " في شهر أبريل على
الأرجح.
واخترق شارلمان بلاد البشكنس أو نافار الحديثة، وحاصر عاصمتها
بنبلونة، وهى قلعة النافاريين، واستولى عليها بعد قليل.
وقد كان أولئك النافاريون
دائماً شعبة خاصة من " البشكنس "، وكانت بنبلونة دائما مدينة البشكنس منذ
أيام سترابون (٢) .
وقد كان البشكنس دائما يحاولون الاحتفاظ باستقلالهم منذ أيام
القوط، وكثيراً ما لجأوا في سبيل ذلك إلى الخروج والعصيان، والامتناع

بهضابهم
وجبالهم الشاهقة.
وكان هذا شأنهم حينما وفد شارلمان بقواته الضخمة، فقد كانوا
يحرصون على هذا الاستقلال، ولا يودون الخضوع لأية جهة، لا إلى الفرنج،
ولا إلى مملكة (جليقية) ، ولا إلى إمارة قرطبة الإسلامية.
ومن ثم فقد
اضطر شارلمان إلى محاصرة بنبلونة وأخذها بالعنف.
وهنا تبرز هذه الحقيقة، وهى

---

(١) راجع: R.
M.
Pidal: ibid, p.
١٨١، ١٨٢، ١٨٣ & ١٨٤.
(٢) R.
M.
Pidal: ibid, p.
١٨٦

(١٧٣/١)

أن شارلمان بغزو بلاد البشكنس، كان يحارب أمة من النصارى، وهو في
ذلك
لم تكن تحدوه سوى بواعث السياسة والفتح.
ولم تكن النزعة الدينية خاصة بارزة
في تلك الغزوة.
أما الجيش الفرنجى الذي اخترق شرقى البرنيه، فقد كان يسير فى
منطقة يسيطر عليها الفرنج، مذ تقلص عنها سلطان المسلمين، منذ أيام ببين

والد شارلمان، ومن ثم فقد كان يخترق بلادا صديقة، يرحب أهلها بمقدمه، أملا في عونه وحمايته.

وتقول لنا بعض الروايات اللاتينية (١) إن سليمان بن يقظان (ابن الأعرابى) ، كان يتردد عندئذ بانتظام على بنبلونة، وإنه وفقا لتعهداته سلم الرهائن إلى شارلمان، وإنه قد وفد كذلك على بنبلونة أبو ثور بن قسى حاكم وشقه، وقدم أخاه وولده

رهينة، وقد بقيت هذه الرهائن في معسكر شارلمان حتى وقعت النكبة.

بيد أنه

توجد روايات أخرى مفادها أن الرهائن سلمت فيما بعد، حين وفود شارلمان على

سرقسطة.

وعلى أى حال، فقد سار شارلمان بعد استيلائه على بنبلونة ومعه سليمان إلى سرقسطة (٢) ، وهى معقد المشروع كله حسبما اتفق عليه في بادربورن؛ وكان

القسم الآخر من الجيش، قد اخترق في تلك الآونة منطقة جيرندة (جيرونة) وبرشلونة، واتجه غربا إلى سرقسطة حيث انضم إلى القوات التي يقودها شارلمان، وكان شارلمان، يعتقد حينما سار إلى سرقسطة أنه سيلقى هناك حلفاءه المسلمين على

أهبة لمعاونته وتحقيق رغباته في الاستيلاء على المدينة الكبرى.

ولكن الحوادث

كانت تطورت عندئذ، ودب الخلاف بين الخوارج المسلمين.

وكان الحسين بن

يحيى الأنصارى والى سرقسطة حليف سليمان منذ البداية، وكان عضده فى مشروعه لاستدعاء الفرنج، وبالرغم من أنه لم يذهب إلى بادربورن، ولا إلى بنبلونة، فقد كان موافقاً على الحلف الذى عقده سليمان مع شارلمان، وعلى العهود

التي قطعها له.

والظاهر أن الحسين نقم عل سليمان موقف الصدارة والزعامة الذى

انتشح به إزاء الفرنج، فنشبت بينهما الخصومة، أو أنه خشى عاقبة التورط فى

حلف الفرنج.

فعدل موقفه في آخر لحظة حينما شعر بمسير الفرنج إلى مدينته

والظاهر أيضاً أنه لم يكن في سرقسطة حينما أقبل إليها الجيش الفرنجى؛ إذ

تقول

---

(١) R.

M Pidal: ibid, cit.

Anales Breves.

p.

١٨٧

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥.

(١٧٤/١)

لنا الرواية الإسلامية، إنه سبق إليها سليمان، وتحصن بها، فلما أشرف

شارلمان مع

حليفه سليمان على سرقسطة، رفض الحسين أن يستقبله، وألفى المدينة

محصنة

متأهبة للدفاع والمقاومة، فعبر نهر الإيبرو إلى الضفة الأخرى، وقدم إليه

سليمان رهائن عدة من الأعيان والأكابر، وفي مقدمتهم ثعلبة بن عبيد قائد

عبد الرحمن

وكان أسيرا لديه حسبما تقدم.

ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا لإقناع الحسين بفتح

أبواب سرقسطة، ولم يستطع شارلمان من جهة أخرى الاستيلاء عليها، وردت

المدينة المحصورة كل هجماته بشدة (١) ، وعجز سليمان أن يحقق شيئا من
وعوده فى
تسليم المدن والحصون الواقعة في تلك المنطقة.
ولم يشأ ملك الفرنج أن يخوض فى
تلك الوهاد والهضاب الصعبة معارك لم يتأهب لخوضها، وارتاب من جهة
أخرى
في نية سليمان وموقفه، فقبض عليه (٢) ، وارتد بجيشه نحو الشمال الشرقى
فى
طريق العودة.
وكان ذلك في شهر يوليه سنة ٧٧٨ م (شوال سنة ١٦١هـ) .
بيد أن هذه الوقائع ينقصها شىء من الوضوح.
ذلك أنه لم تقع بين الفريقين
معارك ذات شأن.
فهل ارتد ملك الفرنج من تلقاء نفسه، أم اضطر مرغماً إلى
الارتداد لبواعث وأسباب لا نعلمها؟ .
يقول الأستاذ بيدال " إن الانسحاب لا شك فيه.
ولكن فشل حملة الملك
الفرنجى لا تفسرها لنا هجمات المحصورين.
إذ كيف يرتد هذان الجيشان الفرنجيان
اللذان يضمان هذه الجموع من جند بريتانيا ونوستريا وبافاريا ولومبارديا؟
وكيف يرتد كارل وهو في عنفوان قوته بهذه السهولة؟ كيف يرتد هذا العاهل
القوى وجيشه العظيم ما يزال سليما لم يمس، دون أن يخضع الحسين، ودون
أن يفتتح أواسط إسبانيا؟ " (٣) .
إن الروايات اللاتينية تحاول أن تلقى الضوء على ذلك الغموض؛ فيقول لنا
"أبدال " السالف الذكر، إن شارلمان قدر أنه قد يجد نفسه وحيدا في قلب
شعب

معاد، مع صعوبة التموين لجيشه العظيم.
بيد أنه يوجد تعليل آخر أقوى وأوضح، تقدمه إلينا رواية لاتينية أخرى في
نصها الآتى: " إن السكسون المارقين حينما

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١٣.
(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥.
(٣) R.
M.
Pidal: ibid.
؛ p 188

*(١٧٥/١)*

علموا أن الملك كارلوس في منطقة سرقسطة، قد شقوا الطاعة، وخربوا
وأحرقوا
الأراضي حتى ضفاف الرين.
ونمى ذلك إلى كارلوس وهو في اسبانيا، فلما وقف
عليه عاد مسرعاً إلى فرنسا " (١) .
وربما كان في ذلك خير تفسير لانسحاب
شارلمان، وتركه سرقسطة لمصيرها.
ارتد شارلمان على رأس قواته المجتمعة وفي ركابه سليمان أسيره وعدد من
الرهائن
وسار شمالا نحو بلاد البشكنس.
وكان النافاريون في تلك الأثناء قد جمعوا فلولهم، واعتزموا الدفاع عن
حاضرتهم بنبلونة وعن حرياتهم التالدة، خصوصا وقد
شجعتهم وقفة سرقسطة وصاحبها الحسين ضد الملك الفرنجى، وانضم إليهم
كثير

من المسلمين من أبناء الأنحاء المجاورة، للتعاون في دفع العدو المشترك، ولكن شارلمان

هاجم بنبلونة بعنف، ولم تجد بسالة النافاريين وحلفائهم المسلمين شيئا، فتركوا المدينة، وتفرقوا في مختلف الأنحاء؛ واستولى شارلمان على بنبلونة للمرة الثانية، وهدم حصونها وأسوارها حتى لا تعود إلى المقاومة إذا عاد إلى تلك الأنحاء، ولكى

يمهد لجيشه طريق العود المأمون إلى فرنسا.

وغادر شارلمان بنبلونة متجهاً إلى جبال البرنيه من طريق هضاب رونسفال المؤدية إلى باب الشزرى.

فما الذى حدث عندئذ؟ تقول الرواية العربية إن

شارلمان " لما أبعد من بلاد المسلمين واطمأن، هجم مطروح وعيشون إبنا سليمان فى

أصحابهما، فاستنقذا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة " (٢) .

وفى هذه الكلمات القليلة

تشير الرواية العربية إلى النكبة الهائلة التي أصابت الجيش الفرنجى أمام باب الشزرى

والتي تقدم إلينا الروايات اللاتينية اللاحقة تفاصيلها.

والظاهر أيضا من الرواية العربية أن ولدى سليمان، حينما قبض شارلمان على

أبيهما، عادا إلى الاتفاق مع الحسين بن يحيى على مقاومة الفرنج، وجمعا في الحال

قوات أبيهما وأتباعه، وسارا بجيشهما في أثر ملك الفرنج يحاولان مهاجمته وإنقاذ أبيهما

من أسره.

وكان شارلمان في ذلك الحين قد غادر بنبلونة بعد تخريبها متجهاً صوب جبال البرنيه، ليعبرها كرة أخرى إلى فرنسا، وكان عبوره من نفس الطريق

التي أتى منها، أعنى من مفاوز رونسفال.
ويقع ممر رونسفال Roncesvalles،

---

(١) R.
M.
Pidal: ibid ; cit.
Chronicon Moissiocense ; p.
١٨٩
(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥.

(١٧٦/١)

الذى يسمى بالعربية " باب شيزروا " (١) ، أو باب الشزرى، في طرف
البرنيه
الغربى شمال شرقى بنبلونة، وعلى قيد عشرين كيلومتر منها، وهو أحد
ممرات
عدة كانت تستعمل منذ عهد الرومان لاختراق البرنيه من الشمال أو الجنوب.
وهى نفس الممرات أو الأبواب التي كان يستعملها العرب للعبور إلى غاليس
(٢) .
وقد لبثت هذه الجبال الوعرة الشاهقة على ممر القرون حاجزا منيعا يفصل
بين
شبه الجزيرة الإسبانية وبين غاليس، ولا يتأتى للغزاة، عبوره إلا خلال هذه
الممرات الشهيرة.
ففى مفاوز رونسفال الوعرة، وتجاه ممر البرنيه المسمى
بهذا الاسم أعنى باب شيزروا، وقعت المفاجأة الهائلة.
ذلك أن الجيش الفرنجي
ما كاد يبدأ عبور الجبال، حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على

مؤخرته، وهاجموه بشدة رائعة، وفصلوا عنه مؤخرته، وانتزعوا منها الأسلاب والأسرى، وفيهم سليمان بن يقظان.

والرواية العربية صريحة في أن

المسلمين هم الذين دبروا هذا الهجوم الفجائى، على مؤخرة الجيش الفرنسى، ولكن بعض الروايات اللاتينية التي تتحدث عن الموقعة، تقول لنا إن الذين

---

(١) هذه هى تسمية الشريف الإدريسى، وهى مشتقة من الاسم الرومانى القديم Portus Ciserei

أو Portus Sizarae

(٢) يقدم لنا الشريف الإدريسى وصفا دقيقا لجبال البرنيه التي تسمى في الجغرافية العربية

بجبال البرت أو البرتات كما قدمنا، وللأبواب الرومانية التي كانت بها فيقول: " وطول هذا الجبل

من الشمال إلى الجنوب مع سير تقويس سبعة أيام، وهو جبل عال جدا صعب الصعود، وفيه أربعة

أبواب فيها مضايق يدخلها الفارس بعد الفارس.

وهذه الأبواب عراض لها مسافات وهى منحرفة الطرق.

وأحد هذه الأبواب الباب الذى في ناحية برشلونة ويسمى " برت جاقة " (جاكا) ؛ والباب

الثاني الذي يليه يسمى " برت أشبرة "؛ والباب الثالث منها يسمى " برت شيزروا " Roncesvalles

وطوله في عرض الجبل خمسة وثلاثون ميلا؛ والباب الرابع منها يسمى " برت بيونة ".

ويتصل بكل برت

منها مدن في الجهتين، فما يلى برت شيزروا مدينة بنبلونة؛ والباب المسمى

جاقة عليه مدينة جاقة.
(راجع
نزهة المشتاق للشريف الإدريسى؛ وكذا وصف الإدريسى لجغرافية الأندلس
ص ٦٥ من طبعة Saavedra)
وظاهر أن كلمة برت تعنى الباب أو الممر، وأصلها من الإسبانية Puerta
وقد سميت جبال البرنيه
بالعربية البرتات نسبة إلى الأبواب والممرات المذكورة.
والجغرافية الحديثة لا تختلف كثيرا عما تقدم، وفيها أن الأبواب والممرات
خمسة: (١) ممر برنيان، بين برشلونة وأربونة (٢) ممر
بوكيردا الموصل إلى شرطانية (٣) الممر بين بنبلونة وسان جان دى بييدبور
(ويسميها الإدريسى
شنت جوان) وهو باب شيزروا (٤) ممر تولوز (طلوشة) إلى بيونة (٥) ممر
جاكا.
وكانت هذه
الأبواب أو الممرات تستعمل لاختراق الجبال حين الغزو إلى فرنسا ومنها في
طريق العودة.

*(١٧٧/١)*

هاجموا مؤخرة شارلمان حين ارتداده، هم البشكنس النصارى انتقاما لما أنزله
الفرنج ببلادهم وعاصمتهم بنبلونة من العيث والتخريب.
وإليك ما تقوله هذه
الرواية: " إن شارلمان عاد من سرقسطة إلى بنبلونة، وهدم أسوار هذه المدينة
من أساسها لكى لا تستطيع الثورة عليه وقرر العودة، وبدأ يجوز شعب
البرنيه.
وهنا، وفى أرفع نقطة هجم البشكنس، وقد كانوا يكمنون في المؤخرة، وأوقعوا
الخلل

في الجيش كله، فساده أيما اضطراب وجلبة، وبالرغم من أن الفرنج أبدوا تفوقهم على البشكنس، سواء في السلاح أو الروح المعنوية، فقد بقوا هم الأضعف
بسبب رداءة الموقع وعدم التكافؤ في وضع المعركة " (١) .
وهنا يحق لنا أن نتساءل إزاء هذا التناقض بين الروايتين، من هم الذين دبروا هذا الهجوم على مؤخرة الجيش الفرنجى؛ أهم المسلمون وحدهم حسبما تقرر الرواية العربية، أم هم البشكنس وحدهم حسبما تقرر الرواية الفرنجية؟ يقول الأستاذ
بيدال، إنه لمن غير المعقول، بل ومن المستحيل أن يقوم البشكنس وحدهم بمهاجمة
مؤخرة جيش عظيم كجيش شارلمان، والأكثر احتمالا هو أنهم يبحثون عن العون
ضد المعتدى الخارجى، وإنه لكذلك من غير المعقول أن يستطيع إبنا سليمان وحدهما
انتزاع الأسرى من الجيش الفرنجى، وذلك في الأرض المكشوفة ما بين سرقسطة
وبنبلونة، وإنه لا يمكن الاعتقاد بأى حال بأن يسمح جيش شارلمان لنفسه أن يُفاجأ مرتين في أيام قليلة، وإذا فلا بد أن البشكنس والمسلمين معاً قد فاجأوه في شعب البرنيه: البشكنس الذين أثارهم تخريب بنبلونة، والمسلمون الذين يحاولون
استنقاذ ابن الأعرابى والرهائن (٢) .
ثم يقول العلامة الإسباني " إنه باستعراض سائر الروايات يبدو أن هناك حقيقة
تاريخية، وهى أن المسلمين تعاونوا مع البشكنس في موقعة باب الشزرى، وأن أنشودة رولان، وهى مستمدة من أناشيد معاصرة للنكبة، هى أصح من الرواية اللاتينية "Anales Regios".

ونقول نحن إن هذا الاستعراض لمختلف الروايات

يدلى بأن المسلمين هم الذين دبروا الهجوم على مؤخرة الجيش الفرنجى، وإنه

---

(١) Anales Regios hssta 829; cit.

por R.

M.

Pidal: ibid ; p.

١٩١ & ١٩٢

(٢) R.

M.

Pidal: ibid ; p.

١٩٣&١٩٤.

وراجع أيضا Conde: ibid, V.

I.

p.

٢٠١

و Dozy: Hist.

V.

I.

p.

٢٤٣ & notes.

وهل أدل على أن العرب هم الذين مزقوا مؤخرة

الفرنج من أنشودة رولان الشهيرة، التي نتحدث عنها بعد.

خريطة:
مواقع غزوة شارلمان لسرقسطة ومعركة باب الشزرى.

(١٧٩/١)

فيما يرجح قد اشتركت معهم جموع كبيرة من البشكنس في هذا الهجوم، وإن مضمون أنشودة رولان حسبما نقدمه بعد، يؤكد هذا الاستنتاج في إسناد الدور الرئيسى في الموقعة إلى المسلمين.
وقد وصفت لنا إحدى هذه الروايات اللاتينية، تعاون المسلمين والبشكنس في الهجوم، وفيها " أن جيش شارلمان كان يتكون من خمسة آلاف فارس من ذوى
الأسلحة الثقيلة وعدد مماثل من المشاة، وأن المؤخرة كانت تتكون من ألف فارس ومعها دواب الحمل، وأن الكمين وقع في الأماكن الصاعدة من الطريق المعبد.
وقد تعاون بشكنس بنبلونة والمسلمون ولاسيما مطروح وعيشون ولدى ابن الأعرابى، وكان هذا التحالف ضرورياً، لأن المسلمين كانوا في حاجة إلى المعرفة الدقيقة لهذه الوهاد وهو ما يتقنه البشكنس، وكان البشكنس بحاجة إلى مقدرة المسلمين في التنظيم العسكرى، وهما معاً قد استطاعا أن يسحقا مؤخرة هذه الصفوف التي ارتجت لها سائر إسبانيا " (١) .
وقع هذا الهجوم الفجائى من المسلمين على مؤخرة الجيش الفرنجي بمعاونة البشكنس، فأسفر عن أروع نتيجة يمكن تصورها.
ذلك أن الفرنج لم يحسنوا
الدفاع عن أنفسهم في تلك الشعاب الضيقة المنحدرة.
وقد فصلت مؤخرة الجيش
الفرنجي، وانتزعت منها الأسلاب والأمتعة وفي مقدمتها الخزانة الملكية، وكذلك
الرهائن، وفي مقدمتهم سليمان، ومزقت المؤخرة نفسها شر ممزق، وهلك

خلال
المعمعة الهائلة عدد عظيم من سادة الجيش الفرنجى وفرسانه، ولم تسمح
المفاجأة
المذهلة بأى عمل أو محاولة منظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة.
وكانت نكبة مروعة
لبث صداها يتردد مدى عصور في أمم الغرب والنصرانية.
وتضع الرواية الفرنجية تاريخ الموقعة في ١٨ أغسطس سنة ٧٧٨ (ذى
القعدة
سنة ١٦١هـ) (٢) .
وقد رأينا فيما تقدم كيف تقنع الرواية العربية بالإشارة إليها فى

---

(١) Anales Regios, cit.
por R.
M.
Pidal: ibid.
p.
١٩٧
(٢) ولكن الرواية العربية تقدم تاريخها عن ذلك فتضعها في سنة ١٥٧هـ
(٧٧٤ م) وهى
رواية ابن الأثير (ج ٦ ص ٥) والمقرى في نفح الطيب (ج ٢ ص ٧٣) .
والظاهر من نص
الرواية العربية أنها تتصرف هنا إلى بداية الحوادث لا إلى الموقعة ذاتها، وقد
وقعت فيما بعد، وهو ما يفسر التباين بين التاريخين.
ولا ريب أن الرواية الفرنجية أقرب إلى الصحة والتحقيق لأنها
معاصرة قريبة من الحوادث.

عبارات موجزة، وإن كانت مع إيجازها في منتهى الدقة، وكيف أن الرواية
اللاتينية الفرنجية والكنسية تفيض بالعكس في تفاصيلها إفاضة واضحة، وقد
أشرنا
فيما تقدم إلى بعض هذه الروايات التي اقتبسنا بعض نصوصها، وربما كانت
رواية إجنهارت (أينهارت) مؤرخ شارلمان، عن الموقعة، هى أدق هذه
الروايات
وأوثقها، فقد كتبت في سنة ٨٢٩ م بعد وفاة شارلمان بقليل، واعتمد فيها على
كثير من أقوال المعاصرين وشهود العيان.
وهو يفصل لنا حوادثها ويذكر من
هلك فيها من الأمراء والسادة، ومنهم إيجهارد رئيس الخاص، وأنسلم محافظ
القصر، وهردولاند حاكم القصر البريتانى، وكثير من الرؤساء ورجال الخاص
والحاشية.
وهردولاند، هو رولان Roland بطل الأنشودة الشهيرة، التي
نظمت فيها بعد عن هذه الموقعة، واستمدت من أناشيد معاصرة لها، والتي
ما زالت أثراً خالداً لقريض الفروسية في العصور الوسطى.
بيد أن أنشودة رولان
تنحرف في كثير من مناحيها إلى الأسطورة.
وقد اتخذت الأسطورة من حوادث
الموقعة موضوعا لقصة حربية حماسية حرفت فيها الوقائع الأصلية أيما
تحريف، ولكنها تستبقى مكان الموقعة، وبعض أشخاص التاريخ.
وقد رأينا أن نورد
فيما يلى خلاصة هذه القصة أو الأنشودة الشهيرة:
" غزا شارلمان إسبانيا، ولبث يحارب فيها سبعة أعوام، حتى افتتح ثغورها
ومدنها، ما عدا سرقسطة، وهى معقل الملك العربى مارسيل.

وكان يعسكر
بجيشه بجوار قرطبة، حين جاءته رسل مارسيل يعرض عليه الطاعة، بشرط أن
يجلو الفرنج عن إسبانيا، فعقد شارلمان مجلسا من البارونات ومنهم رولان ابن أخيه.
وكان رولان يرى أن تستمر الحرب، ولكن فريقاً آخر من السادة برآسة جانلون
كونت مايانس، كان يرى الصلح والمهادنة، فغلب رأى هذا الفريق، لأن
الفرنج سئموا الحرب والقتال، وأرسل جانلون إلى الملك مارسيل ليعقد معه
شروط الهدنة.
فأغراه مارسيل واستماله بالتحف والذخائر، واتفق معه على الغدر
برولان وفريقه.
ثم عاد إلى شارلمان وزعم أن مارسيل قبل شروط الفرنج، وبذا
قرر شارلمان الإنسحاب.
وتولى رولان قيادة المؤخرة.
وكان معه الأمراء
الإثنا عشر، وزهرة الفروسية الفرنجية.
ولما وصل الجيش إلى قمة الممرات
الجبلية رأى أوليفر أحد الأمراء، جيشاً من العرب، يبلغ أربعمائة ألف مقاتل.



فتضرع إلى رولان أن ينفخ في بوقه ليدعو شارلمان إلى نجدته، فأبى رولان،
وانقض الجيش المهاجم على مؤخرة الفرنج، ونشبت بينهما عدة معارك هائلة.
واستمر رولان يأبى طلب النجدة حتى مزق جيشه ولم يبق منه سوى ستين
رجلا، وعندئذ نفخ في بوقه يدعو شارلمان: ثم قتل بقية أصحابه، ولم يبق سوى رولان
وأوليفر واثنين آخرين.

ولما شعر العرب أن شارلمان سيرتد بجيشه لقتالهم، قرروا
الانسحاب.
وكان زملاء رولان الثلاثة قد قتلوا، وأثخن رولان نفسه جراحا
حتى أشرف على الموت.
ولكنه استطاع أن ينفخ في بوقه مرة أخرى قبل أن
يموت، وأن يسمع صرخة شارلمان الحربية، وسمع شارلمان صوت البوق
على
بعد مراحل عديدة.
فعاد مسرعا وطارد جيش العدو وسحقه.
ودفن الفرنج
قتلاهم، وعوقب جانلون الخائن أروع عقاب.
وتوفيت ألده، خطيبة رولان
حينما علمت بموته ".
هذه هى خلاصة القصة التي ترددها أنشودة رولان الشهيرة.
وهى أبعد
ما يكون عن وقائع التاريخ الحق.
بيد أنها تتخذ مادتها من بعض هذه الوقائع، ومن الذكريات والروايات الشفوية
المتناقلة، والأناشيد الحربية المعاصرة.
وهى
نورمانية الأصل، ظهرت لأول مرة في القرن الحادى عشر، أعنى بعد
الموقعة
بنحو ثلاثة قرون، ودونت أولا في بعض القصص اللاتينية، ثم دونت بالنظم
فى
ملحمة طويلة تبلغ أربعة آلاف بيت بعنوان " أنشودة رولان " Chanson de
Roland
ولبثت تعتبر مدى عصور من أعظم الآثار الأدبية، ومن روائع القريض

الحربى.
وكانت حوادث هذه الموقعة الشهيرة مستقى خصبا لكثير من الكتاب والشعراء، وكانت بالأخص مستقى لقصص الفروسية والملاحم الحماسية المغرقة، التي تملأ
فراغا كبيرا في الأدب الفرنجى في العصور الوسطى (١) .
ومما يلفت النظر في حوادث الموقعة أن شارلمان، لم يحاول بعد أن أفاق من الصدمة الأولى، أن يعجل بالانتقام لنكبة جيشه ومقتل فرسانه، وأن يعود فيطارد تلك العصابات التي تحدته واجترأت عليه سواء من المسلمين أو البشكنس.

---

(١) راجع حوادث هذه الموقعة الشهيرة في أخبار مجموعة ص ١١٢ و١١٣، وابن الأثير
ج ٦ ص ٥ و٢١، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤، وراجع أيضا Bouquet ; Vol.
V.
R.
M.
Pidal: La Chanson de Roland.
Cap.
VI.
p.
١٧١ - ٢١٥؛p.
٢٠٨&،١٤،٢٦،٤٢
وReinaud: ibid: p.
وHodgkin: Charles the Great p ٩٥،٩٦.
١٤١ - ١٥٢

(١٨٢/١)

وتعليل ذلك هو أن شارلمان شغل قبل كل شيء بخطورة الأنباء التي وصلته عن
تحرك السكسونين، وهم ألد أعداء الفرنج وأخطرهم، فارتد أدراجه مسرعا
ليخوض معهم حرباً جديدة استطالت زهاء سبع سنين، حتى تمت هزيمة زعيمهم
فتكنت (أو فيدوكنت) نهائيا، وأرغم على التنصير في سنة ٧٨٥ م (١) .
ولم يبق بيد شارلمان، بعد استنقاذ المسلمين للرهائن، سوى ثعلبة بن عبيد
قائد عبد الرحمن، وقد لبث فترة أخرى معتقلا بفرنسا، حتى تمت المفاوضة
بشأنه، وأطلق سراحه لقاء فدية كبيرة.
وهكذا اختتمت محاولة شارلمان غزو اسبانيا المسلمة والتدخل في شئونها،
بنكبته والقضاء على زهرة جنده، وقد أسبلت هذه النكبة مدى حين سحابة على
مجده الحربى.
بيد أنها لم تكن كما سنرى آخر محاولة من نوعها لعاهل الفرنج، فإن السياسة
الفرنجية لبثت بالرغم من هذه الصدمة المؤلمة، ترقب سير الحوادث
في الأندلس لتجد فيها ثغرة تتخذها وسيلة لتحقيق غاياتها.
*****
ونستطيع بعد أن استعرضنا أدوار هذه الموقعة الشهيرة التي تركت في عصرها
أعظم صدى في الروايات الفرنجية (اللاتينية) والكنسية المعاصرة واللاحقة، وبعد
أن سجلنا ممهداتها وحوادثها تفصيلا.
أن نعود فنلقى نظرة مقارنة على موقف
الروايات العربية واللاتينية إزاء الموقعة، وكيف تعاملها كل منها.

وأول ما يلفت النظر هو حسبما قدمنا، إيجاز الروايات العربية، ق الوقت الذى تميل فيه الروايات اللاتينية إلى الإفاضة الواضحة.

وقد كان خليقا بالرواية

العربية أن تبسط القول في حوادث موقعة لها من الخطورة البالغة ما لموقعة " باب

الشزرى " خصوصاً وقد كان التفوق فيها للجانب الإسلامى.

ولكن الرواية العربية

لم تنظر إلى الموقعة إلا من حيث ارتباطها بحوادث الأندلس، ومن جهة أخرى

فإنها لم تكن على علم تام بما يدور في الناحية الأخرى من جبال البرنيه، في مملكة

الفرنج الشاسعة، ولم تقف على آثار الصدى الهائل الذى أحدثه تمزيق جيش شارلمان داخل مملكة الفرنج، وفي سائر الأمم المتصلة بها، ولاسيما القبائل السكسونية ألد أعداء الفرنج يومئذ.

---

(١) R.

M.

Pidal: ibid, p.

١٩٩

(١٨٣/١)

وثمة فرق واضح آخر بين الروايتين العربية واللاتينية، هو أن الأولى تنوه بأن شارلمان قاد حملته إلى اسبانيا استجابة لدعوة الخوارج المسلمين ليعمل معهم

ضد إمارة قرطبة، وأن الثانية تنوه بأن حملة شارلمان إنما كانت موجهة إلى إخضاع البشكنس.

ومع ذلك فإن الرواية العربية على إيجازها تقدم إلينا ممهدات الموقعة وعناصرها

الأساسية بمنتهى الدقة، بل إن العلامة المؤرخ الأستاذ بيدال، وهو آخر من تناول

حوادث هذه الموقعة من النقدة المحدثين بإفاضة، وبأسلوبه النقدى الرائع، يقرر

لنا أن الرواية العربية هنا، هى أرقى بكثير من الرواية اللاتينية، وأنها فيما يتعلق

بغزوة شارلمان لإسبانيا، أبعد من أن تنحدر إلى الغموض والتناقض، وأنها

بالعكس تقدم إلينا بعض أنباء في منتهى الأهمية والجدارة.

ويدفع الأستاذ بيدال ما يرمى به بعض الباحثين مثل باسيه وغيره، الرواية

العربية من أخطاء وسابقات تاريخية، ويؤكد بالعكس أنه لا تناقض بين النصوص

العربية واللاتينية، وكل ما هنالك أن كلا منهما يركز اهتمامه في نقط معينة، وكلتاهما

تتفق مع الأخرى في الحوادث الرئيسية (١) .

---

(١) R.

M.

Pidal: ibid, p.

١٧٧، ١٧٨



الفصل الخامس

ولاية عبد الرحمن الداخل

عبد الرحمن وحوادث الشمال.

ظهور الصقلبى في شرقى الأندلس.
استئنافه للدعوة العباسية.
تحالفه مع ابن يقظان ثم خلافه معه.
مسير عبد الرحمن إلى قتال الصقلبى.
التجاؤه إلى بلنسية.
مصرعه
وانهيار دعوته.
ثورات محلية مختلفة.
حوادث الشمال.
مصرع ابن يقظان.
مسير عبد الرحمن إلى
سرقسطة وحصارها.
خضوع الحسين الأنصارى.
عبد الرحمن يغزو نافار وشرطانية.
قتله لعيشون
ابن سليمان.
عود الحسين إلى الثورة.
إرسال عبد الرحمن حملة لقتاله.
حصار سرقسطة وثبات الحسين.
مسير عبد الرحمن إلى قتاله.
هزيمته ومصرعه.
تفاهم عبد الرحمن مع شارلمان وسعيه إلى مصاهرته.
ائتمار
الوافدين من الأموية بعبد الرحمن.
صرامته في إخماد هذه المؤامرات.
حديث ينسب إليه عنها.

فرار
محمد بن يوسف الفهرى وثورته في طليطلة.
مسير عبد الرحمن لقتاله.
موقعة قسطلونة.
هزيمة محمد
وفراره.
استئنافه الثورة في قورية.
هزيمته ووفاته.
أخوه أبو القاسم.
خروجه ثم خضوعه.
انتهاء
الثورة.
خاتمة الكفاح الرائع.
بينما كانت هذه الحوادث الخطيرة تجرى في الشمال، كان عبد الرحمن الأموى
في الجنوب يكافح الثورة في مختلف الأنحاء.
وكانت ثورة البربر قد شغلته
واستنفدت معظم قواه أعواماً متوالية.
بيد أنه ما كاد يفرغ من سحقها حتى ظهر
في شرقى الأندلس خطر جديد قوامه الدعوة العباسية.
ذلك أن عبد الرحمن بن حبيب
الفهرى أحد زعماء الفهرية، وهو المعروف بالصقلبى نظرا لطوله وشقرته
وزرقة
عينيه، عبر البحر من إفريقية إلى الأندلس في قوة كبيرة، ونزل بساحل تدمير
(مرسية) في شرق الأندلس، ودعا للخليفة العباسى (سنة ١٦١ هـ) .
ويجب
أن نذكر أن عبد الرحمن بن حبيب هذا هو غير سميه عبد الرحمن بن حبيب

المتغلب
على إفريقية الذى فصلنا أخباره من قبل، فقد قتل هذا المتغلب على إفريقية
منذ
سنة ١٤٠هـ، بعد أن خرج على طاعة بني العباس (١) .
ولا نعرف علاقة الصقلبى

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١١.

(١٨٥/١)

بيوسف بن عبد الرحمن الفهرى، وربما كان من أبناء عمومته (١) .
بيد أنه كان من
زعماء الفهرية وزعماء الثورة على بني أمية.
وكانت حركة الصقلبى في تدمير، كحركة العلاء بن مغيث من قبل في باجة،
ولكنها كانت أشد خطراً، لأن
الصقلبى سعى إلى التفاهم مع زعيم الثورة في الشمال سليمان بن يقظان
وتحالف
معه (٢) .
والظاهر أن هذا التحالف كان بعد عبور الفرنج إلى إسبانيا وموقعة باب
شيزروا.
ولكن ابن يقظان لم يف بوعده في إمداده لقتال عبد الرحمن الأموى، فغضب
منه وسار لقتاله، فهزمه ابن يقظان في ظاهر برشلونة.
فعاد إلى تدمير
ولبث مدى أشهر ينظم قواته وأهبته، ولكن عبد الرحمن لم ينتظر حتى
يهاجمه، بل سار بنفسه، وهاجمه بشدة، وأحرق سفنه الراسية بالساحل، حتى
لا يجد
سبيلا إلى الفرار، فارتد الصقلبى بفلوله إلى جبال بلنسية واستعصم بها، وهنا

لجأ عبد الرحمن إلى سلاح الاغتيال مرة أخرى، فدس على الصقلبى بعض أصدقائه

فاغتاله وحمل رأسه إليه، وانهارت بذلك دعوته وثورته (سنة ١٦٢ و١٦٣ هـ: ٧٧٨ - ٧٧٩ م) .

ووقعت بعد ذلك عدة ثورات محلية عنى عبد الرحمن بقمعها قبل أن يسير إلى

الشمال، فقد ثار دحية الغسانى ببعض حصون إلبيرة (غرناطة) ، وكان دحية من أصدقاء عبد الرحمن ومن قادته، ولكنه نكث بعهده ولحق بالفاطمى، فلما هلك الفاطمى، فر إلى إلبيرة وأعلن بها الثورة، فأرسل عبد الرحمن إليه جيشا ضيق عليه الحصار حتى أخذ وقتل.

وثار إبراهيم بن شجرة بحصن مورور،

---

(١) يقول دوزى إنه كان صهرا ليوسف الفهرى متزوجا بإحدى بناته (ج ١ ص ٢٤٢)

ولكنه لم يبين مصدرا لقوله، ولم نجد في المراجع العربية ما يؤيده.

(٢) يقدم إلينا دوزى ثورة ابن يقظان وحلفائه وعلاقة الصقلبى به في صورة أخرى، فيقول

لنا، إن هذا التحالف كان يضم ابن يقظان والحسين بن يحيى والصقلبى

ومحمد بن يوسف الفهرى، وانهم اتفقوا جميعا على استدعاء الفرنج إلى

اسبانيا، وساروا جميعا إلى لقاء شارلمان في بادربورن، واتفق على أن يقوم ابن يقظان بمعاونة شارلمان في غزوته بينما يقوم الصقلبى بحشد البربر في إفريقية

ثم يعبر بهم إلى تدمير ليشغل عبد الرحمن بحركته (دوزى ج ١ ص ٢٤٠ - ٢٤١) .

ولكنا لا نوافق

دوزى على هذا التصوير أولا لأن المصادر العربية تشير إلى مثل هذا

التحالف الرباعى، وتتفق
جميعا في اعتبار حركة الصقلبى حركة مستقلة لا علاقة لها بغزوة الفرنج،
ومن جهة أخرى فإنه لا يوجد
في الروايات اللاتينية المتعلقة بغزوة شارلمان لإسبانيا ما يشير إلى هذا
التحالف، وثانيا لأن محمد بن يوسف
الفهرى أحد أركان هذا التحالف لم يفر من سجنه كما سنرى إلا بعد ذلك
ببضعة أعوام.
راجع:
ابن الأبار في الحلة السيراء ص ٥٧، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٨، وابن
الأثير ج ٦ ص ٢٦.

(١٨٦/١)

فبعث إليه عبد الرحمن مولاه بدراً، فهاجمه وقتله.
وثار في طليطلة القائد السلمى، وكان من خاصة عبد الرحمن، ثم فر من
قرطبة خشية بطشه به لأمور نقمها منه، والتفت حوله العناصر الخارجة في
تلك الأنحاء، فسير إليه عبد الرحمن جيشا قويا
بقيادة حبيب بن عبد الملك، فحاصره حيناً ثم قتل.
وثار في الجزيرة الخضراء
واليها الرماحس بن عبد العزيز الكنانى، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه،
وداهمه
قبل أن يستكمل أهبته، ففر الرماحس وعبر البحر إلى المشرق (سنة ١٦٣ -
١٦٤) (١) .
وفى العام التالى تأهب عبد الرحمن لقمع الثورة في الشمال.
وكان الخلاف قد
وقع بين زعيمى الثورة بعد تفاهمهما على أثر نكبة الجيش الفرنجى في موقعة
باب

الشزرى، وتربص الحسين بن يحيى الأنصارى بزميله سليمان بن يقظان،
ودس
عليه ذات يوم من قتله بالمسجد الجامع، وانفرد بالأمر في سرقسطة وما
حولها (٢) .
فسار عبد الرحمن إلى سرقسطة في جيش ضخم وضيق الحصار عليها (سنة
١٦٥ هـ -
٧٨١ م) .
ووفد عليه عندئذ عيشون بن سليمان، وكان قد فر عقب مقتل أبيه
إلى أربونة، وانضم إليه بمن معه في مقاتلة الحسين، فلما اشتد الحصار
بالحسين
طلب الصلح، وقدم ابنه سعيداً رهينة، فأجابه عبد الرحمن إلى ملتمسه، وأقره
واليا على سرقسطة.
ثم تحول عن سرقسطة إلى الشمال الشرقى، واخترق بلاد
البشكنس (نافار) ليعاقب أهلها على عيثهم وعدوانهم، وغزا عاصمتها بنبلونة،
وأثخن فيها وخرب قلاعها، وغزا قلهرّة وبقيرة (فكيرا) ، واجتاح ولاية
شرطانية (٣) ، وأرغم أميرها على تقديم الطاعة وأداء الجزية (٤) .
ثم عاد إلى
قرطبة ظافراً بعد أن وطد هيبة الحكومة المركزية في الشمال نوعاً، وألقى
على
النصارى درسا يذكرهم بأن الإسلام قد استرد منعته وسلطانه في اسبانيا.
وكان
سعيد بن الحسين قد فر من معسكر الأمير أثناء الطريق، ولما حل عبد
الرحمن
بقرطبة توجس شرا من عيشون بن سليمان، وكان قد عاد في ركابه، فأمر به

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١٢، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٠، والبيان المغرب

ج ٢ ص ٥٨.

(٢) يقول لنا العذرى نقلا عن الرازى أن قتل الحسين لسليمان كان بتحريض من حكومة
قرطبة، وذلك على أن يولى سرقسطة (فى كتابه ترصيع الأخبار الذى سبقت الإشارة إليه ص ٢٦) .

(٣) شرطانية بالإفرنجية Cerdagne وبالإسبانية Cerdana، وهى ولاية كبيرة في شمال
شرق إسبانيا.

(٤) أخبار مجموعة ص ١١٤، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٢.

(١٨٧/١)

فقتل.

ولما رأى الحسين بن يحيى أن عبد الرحمن قد ارتد عنه، وعاد إليه ولده سالما، نكث بعهده وعاد إلى الثورة، وعاث فسادا في سرقسطة وأعمالها، فاعتزم
عبد الرحمن أن يعود إلى قتاله، وأن ينكل به وبأنصاره ق تلك المرة. فبعث إلى
الشمال جيشاً كثيفاً بقيادة غالب بن تمام بن علقمة، فخرج الحسين إلى لقائه، ووقعت بينهما معارك شديدة هزم فيها الحسين، وأسر ولده يحيى وعدة من صحبه، فأرسلوا إلى قرطبة حيث أمر عبد الرحمن بإعدامهم، وامتنع الحسين بالمدينة
واستمر غالب في حصاره.

وفى العام التالى (سنة ١٦٧هـ - ٧٨٣ م) سار
عبد الرحمن بنفسه إلى سرقسطة وحاصرها بشدة، وضربها بالمجانيق ضرباً عنيفاً حتى
هدم أسوارها، واقتحمها عنوة، وقبض على الحسين وجماعة من صحبه،

وقتلهم

جميعاً، وشرد كثيراً من أهلها، وفر سعيد ولد الحسين، وعين عبد الرحمن

قائده

ثعلبة بن عبيد واليا لسرقسطة، وكان قد افتداه من أسر الفرنج حسبما تقدم.

وركدت بذلك ريح الثورة في الشمال مدى حين (١) .

وشغل عاهل الفرنج شارلمان مدى حين عن شؤون إسبانيا، لأن القبائل

السكسونية عادت فنكثت طاعته، وعاد لقتاله خصمه القوى فيدوكنت،

واستمرت

الحرب بينهما زهاء سبعة أعوام وانتهت بهزيمة السكسونيين، وخضوع زعيمهم

وإرغامه على التنصير (سنة ٧٨٥ م) .

بيد أن عبد الرحمن رأى أن يتفاهم مع زعيم

الفرنجة، وأن يؤثر صداقته ومداراته على خصومته، فبعث إليه يطلب عقد

الصداقة معه، ويكاشفه برغبته في مصاهرته، فأجابه شارلمان إلى السلم ولم

تتم

المصاهرة (٢) .

وفى بعض الروايات أن شارلمان هو الذى عرض على عبد الرحمن أن

يزوجه ابنته فاعتذر عبد الرحمن باعتلال صحته (٣) .

واستمر السلام عقودا بين

الزعيمين حتى وفاة عبد الرحمن.

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٩.

(٢) المقرى عن ابن حيان (ج ١ ص ١٥٥) .

ولا تقدم الرواية لنا تفصيلا عن مشروع

المصاهرة هذا، ولكن الظاهر أن عبد الرحمن طلب الاقتران بإحدى بنات

شارلمان، والمرجح أنها

" هروترود " كبرى بناته، وكانت وحدها تصلح للزواج في ذلك الحين.

ويرى رينو أن المقصود
بهذه الإشارة إنما هو عبد الرحمن الثاني أو عبد الرحمن الأوسط حفيد عبد
الرحمن الداخل، فقد كانت
علائقه بملك الفرنج (شارل الأصلع) على ما يرام، ركان هذا الاتصال بين
الأمراء الفرنج والمسلمين
ذائعا (Reinaud: ibid , p.
٩٨)
(٣) راجع: Scott: Moorish Empire, V.
I.
p.
٤٠

(١٨٨/١)

ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة نمى إليه خبر مؤامرة خطيرة دبرت لسحقه،
بزعامة ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية، وهذيل ولد الصميل بن حاتم.
ولم
تكن هذه أول مؤامرة من نوعها، فقد دبرت قبل ذلك ببضعة أعوام سنة
١٦٣هـ
مؤامرة أخرى، وعلى رأسها أيضا اثنان من أقطاب بني أمية، الذين وفدوا على
الأندلس حينما تألق طالع عبد الرحمن، هما عبد السلام بن يزيد بن هشام
المعروف
باليزيدى، وهو ابن عم عبد الرحمن، وعبيد الله بن أبان بن معاوية وهو ابن
أخيه، وذلك بمعاونة أبي عثمان كبير الدولة.
وكان عبد الرحمن مذ تم له الأمر، يسعى إلى
استقدام فل بني أمية من المنفى، ويدعوهم إليه ليكونوا له عوناً وعصبة،
ويظلهم

برعايته، ويغدق عليهم من نعمه، ويختارهم لمختلف المناصب.
ولكن روحاً سيئاً
من الحقد والحسد، كان يحفز أولئك الأقارب لمناوأة ذلك الذى هيأت له الأقدار
أن يفوز دونهم، بتراث بني أمية في الأندلس.
فائتمروا به غير مرة، وشجعهم
على ذلك بعض الخوارج الناقمين والمنافسين الطامعين، ولكن عبد الرحمن كان
يكتشف الخطر قبل وقوعه، ويسحقه بكل ما أوتى من شدة وصرامة، فلم يحجم
حينما وقف على المؤامرة الأولى، عن قتل ابن عمه عبد السلام اليزيدى وعبيد الله
ابن أخيه أبان، وعفا عن أبي عثمان لمكانته وسابق صنيعه.
ولم يحجم حينما وقف
على المؤامرة الثانية، عن قتل المغيرة ابن أخيه الوليد، وزميله هذيل بن الصميل
ومن معهما، ونفى أخاه الوليد وأسرته إلى المغرب.
وقد نقل إلينا مؤرخ أندلسى
عن بعض موالى عبد الرحمن، أنه دخل عليه أثناء قتله المغيرة ابن أخيه، وهو
مطرق شديد الغم فرفع رأسه وقال: " ما عجبى إلا من هؤلاء القوم.
سعينا فيما
يضجعهم في مهاد الأمن والنعمة وخاطرنا بحياتنا، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا
ويسر الله تعالى أسبابه، أقبلو علينا بالسيوف.
ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا

الله تعالى به، حتى أمنوا وردت عليهم أخلاف النعم، هزوا أعطافهم، وشمخوا بآنافهم، وسموا إلى العظمى، فنازعونا فيما منحه الله تعالى، فخذلهم الله بكفرهم
النعم، إذ أطلعنا على عوراتهم، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا في البرىء منهم، وساء أيضاً ظنه فينا، وصار يتوقع من تغيرنا عليه
ما نتوقع نحن منه " (١) .

---

(١) الحجارى في كتابه " المسهب "؛ ونقله المقرى في نفح الطيب (ج ٢ ص ٧٢ و٧٣) .

(١٨٩/١)

وفى ذلك الحين فر أبو الأسود محمد بن يوسف الفهرى من سجنه، ورفع لواء الثورة في طليطلة.
وكان محمد سجيناً في قرطبة منذ مقتل أبيه، ثم فراره
وأسره ثانية في حوادث طليطلة سنة ١٤٢ هـ كما قدمنا.
وتظاهر محمد عندئذ
بالعمى، وأتقن حيلته حتى جازت على جميع الموكلين بسجنه، وأشفق عبد الرحمن
عليه فأبقاه ولم يقتله كأخيه، وأنفق محمد في أسره أعواماً طويلة حتى أهمل شأنه، ولم يعد يكترث أحد به، وعرف بالأعمى.
ثم سنحت له فرصة الفرار على يد
بعض مواليه المتصلين به، ففر من سجنه الواقع على النهر الكبير، وجاز النهر
سباحة، ولحق بطليطلة سنة ١٦٨ هـ وأعلن الثورة.
والتفت حوله جموع كبيرة من

الفهرية والقيسية، ومن إليهم من عناصر الخروج والثورة، وسار في قواته
صوب جيان، فخرج عبد الرحمن إلى قتاله، ووقعت بينهما معارك عديدة،
كان
النصر فيها لعبد الرحمن.
ولكن أبا الأسود لبث حيناً محتفظاً بمراكزه وقواته.
ثم
نشبت بينهما على مقربة من قسطلونة في الوادي الأحمر، بمكان يعرف
بمخاضة
الفتح، معركة شديدة حاسمة، ولجأ عبد الرحمن إلى الخديعة، فاتفق مع بعض
قادة أبي الأسود على التقاعد والغدر، فهزم أبو الأسود هزيمة شديدة، وقتل
من
جنده عدة آلاف، وغرق عدد كبير في النهر، وطارده عبد الرحمن حتى قلعة
رباح، ومزق جيشه كل ممزق (ربيع الأول سنة ١٦٨هـ - ٧٨٤ م) (١) .
ولكن
محمداً لم يخضع ولم يهن عزمه، فارتد إلى جهة الغرب ونزل بقورية، وعاد
يحشد
قواته لاستئناف القتال، وقوى أمره وبسط سلطانه على تلك الأنحاء، فسار عبد
الرحمن
لقتاله ثانية، وهاجم قورية ومزق شمل قواته (سنة ١٦٩ هـ - ٧٨٥ م) ، ففر
في نفر من صحبه إلى بعض قرى طليطلة، وهنالك توفى لأشهر قلائل (سنة
١٧٠ هـ) .
فقام مكانه أخوه أبو القاسم بن يوسف، واقترن بزوجته، وعاد ينظم الثورة
في طليطلة.
فسار عبد الرحمن لقتاله قبل أن يستفحل أمره، ولم ير أبو القاسم بدا
من الخضوع والتماس الصلح والعفو، فأجابه الأمير إلى ملتمسه، وصحبه
معه إلى

قرطبة، ورد إليه بعض أموال أسرته (٢) ، وطويت بذلك آخر مرحلة في ثورة

---

(١) يضع الرازى تاريخ هذه الموقعة في أول ربيع الأول سنة ١٦٨ (ابن الأبار في الحلة
السيراء ص ٥٧) ويتبعه في ذلك ابن الأثير فيضع تاريخها سنة ١٦٨هـ. ولكن صاحب البيان
المغرب يجعل تاريخها في سنة ١٦٩هـ (ج ٢ ص ٥٩) .
(٣) ابن الأبار ص ٥٦ و٥٧؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٢ و ٥٩ و ٦٠، ويروى
ابن الأثير أن عبد الرحمن لم يبق على أبي القاسم بل قتله (ج ٦ ص ٢٦) .

(١٩٠/١)

الفهرية، بل كانت آخر ثورة قام بقمعها عبد الرحمن، ولم يعش بعدها سوى عدة أشهر.
وهكذا أنفق عبد الرحمن جميع حكمه - ثلاثة وثلاثين عاما - في كفاح مستمر.
وكانت مهمة عظيمة دونها خطوب فادحة.
أن يطمح فتى شريد، يعمل القتل
الذريع في أسرته وعصبته، وحيد ليس له أنصار ولا صحب، إلى افتتاح قطر
عظيم زاخر بالقادة والجند، وأن يخضع ذلك القطر في حروب لا يخمد
أوارها، وسيول من الدماء لا تنقطع، وأن يقيم ملكاً على بركان يضطرم من الثورة والمؤامرة
والخصومة: تلك هى قصة عبد الرحمن الأموى، وهى قصة عجيبة ليست من
حوادث التاريخ العادية، ولايقدم إلينا التاريخ كثيرا من أمثالها.
ولكن عبد الرحمن
كان رجل الموقف، وكانت حوادث الجزيرة (إسبانيا) وظروفها، وتمزق

شملها، وتطلعها إلى زعامة قوية توحد كلمتها وقواها، وتسير بها نحو السلام والأمن، تفسح مجال الطموح والعمل لذهن جرىء مغامر كذهن عبد الرحمن.

وكان عبد الرحمن يجمع إلى فيض جرأته، كثيراً من الذكاء والدهاء والعزم، ولم يكن عليه أن يخاطر بأكثر من تلك الحياة التي كادت تزهق غير مرة، وكان يحملها في كفه أمام مطارديه خلال القفر الشاسع.

ولكن الغنم كان عظيما:

كان ملكا بأسره، وكان بعث أسرة هَوَت ومجد عريض دثر.

وسنعرض

في الفصل القادم طرفا من خلال تلك الشخصية الباهرة، التي تتبوأ مكانها بين

أسطع شخصيات التاريخ الإسلامى.

(١٩١/١)

الفصل السادس

خلال عبد الرحمن ومآثره

(١) وفاة عبد الرحمن الداخل.

شخصيته.

أساليبه.

إقدامه وجرأته وقسوته.

بطشه بآله

وأصدقائه.

نزعته الميكافيللية.

تعليقات دوزى على سياسته.

خلاله الباهرة.

وصفه بصقر قريش.

(٢) نوع رياسته.

قطعه الدعاء لبنى العباس.
إحجامه عن التلقب بالخلافة.
أقوال ابن خلدون فى
ذلك.
نظام الحكومة في عهده.
حجابه وأعوانه.
استرابته بالعرب بعد الثقة فيهم.
اصطناعه الموالى
والبربر.
سياسته نحو النصارى.
مقدرته الإدارية.
عنايته بالجيش والأسطول.
تفكيره في غزو الشام.
منشآته بقرطبة.
الرصافة.
السور الكبير.
المسجد الجامع.
(٣) كرمه وتواضعه.
نقش خاتمه.
خلاله الأدبية.
نثره وشعره.
(٤) عناصر المجتمع الأندلسي.
العرب والبربر والمولدون.
النصارى المعاهدون واليهود.

- ١ -

توفى عبد الرحمن الأموى في الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ

(٢ أكتوبر سنة ٧٨٧ م) (١) وهو في نحو الثامنة والخمسين من عمره، بعد أن
حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عاماً ملؤها الخطوب والفتن.
فخلفه ولده هشام
بعهد منه لأيام قلائل من وفاته.
وانتظم بذلك سلك الدولة الأموية بالأندلس بعد
أن تصرم بالمشرق، واستؤنفت حياة تلك الدولة الزاهرة، التي بلغ الإسلام على
يدها ذروة الفتح والظفر، والتي ذهبت سراعاً كالحلم في عنفوان قوتها.

---

(١) يختلف المؤرخون في تاريخ وفاة عبد الرحمن.
ويستفاد من أقوال صاحب أخبار مجموعة
أنها وقعت في أوائل سنة ١٧٢هـ (ص ١١٦) .
ويوافقه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد على
ذلك، فيقول إنها وقعت في ١٢ جمادى الأولى سنة ١٧٢ هـ (العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠١) .
ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يضعها في ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٧١هـ (البيان المغرب ج ٢ ص ٧٢) .
وهذه أيضا رواية ابن الأبار (الحلة ص ٣٧) .
على أننا نرجح الرواية الأولى لقدمها، وهى أيضا رواية
ابن عذارى حيث يضع وفاة عبد الرحمن في ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٧٢هـ (البيان المغرب ج ٢
ص ٦٠) .
ويضعها كل من ابن خلدون (ج ٤ ص ١٢٤) ، والمراكشى (المعجب ص ٩) فى
سنة ١٧٢هـ دون تعيين الشهر.

ويضعها ابن الأثير في ربيع الآخر سنة ١٧١، ولكنه يرجح وقوعها
سنة ١٧٢هـ (ج ٦ ص ٣٧) .

*(١٩٢/١)*

كان سقوط الدولة الأموية بالمشرق مأساة من أروع مآسى التاريخ الإسلامى،
وكانت تلك الشخصية التي قامت على كاهلها دعائم الدولة الجديدة، من
أعظم
شخصيات الحرب والسياسة.
كان عبد الرحمن الأموى يتمتع بعبقرية ممتازة وخلال
نادرة.
وكان قرين جده العظيم معاوية بن أبي سفيان، ينشئ مثله دولة، ولكن
في ظروف أسوأ من ظروفه، ويهزم الخطوب والحوادث، ويسحق خصومه فى
كل ميدان، ويوثر مثل السياسة العملية على كل اعتبار، ويذهب توا إلى
الغاية
بأى الوسائل.
وكانت المحنة المروعة التي نزلت بأسرته، والظروف العصيبة التي
يواجهها، والخصومات والأحقاد المستعرة التي تحيط به، تحمل خلاله القوية
إلى
ذروة التطرف، وتدفعه إلى التذرع بأشد الوسائل.
فنراه يقرن وافر العزم
بفيض من الجرأة والمغامرة واحتقار الخطر، ويقرن وافر الدهاء بنزوع إلى
الخيانة والغدر والفتك، ويقرن وافر الحزم والصرامة بنزوع إلى القمع الذريع،
ويذهب في الانتقام إلى حدود مروعة من القسوة.
ومع ذلك فقد كان عبد الرحمن
وفياً يحفظ العهد والصنيعة لمن أخلص له، وإن لم يحجم لأقل ريب أو بادرة
عن

الفتك بأعز أصدقائه وأقرب الناس إليه.
وقد رأينا هذه الخلال واضحة بارزة، فى كثير مما تقدم من حوادث حياته
ونضاله، فرأيناه مرارا يلجأ إلى الغدر والاغتيال
للتخلص من خصومه، ورأيناه في مواطن كثيرة يزهق دون تردد، كل من وقع
في يده من أولئك الخصوم أو من ولدهم وصحبهم الأبرياء.
وذهب عبد الرحمن فى
صرامته وقسوته إلى البطش بكثير من أصدقائه، الذين آزروه يوم مقدمه،
شريدا
لا عصبة له، وقاتلوا معه وقادوه إلى الظفر والحكم، وكان قد أولاهم في المبدأ
ثقته وجعلهم عماد دولته.
ومن هؤلاء بدر مولاه الذي جاب معه القفر وخاض
الغمار، وكان مثالا للشجاعة والدهاء وبعد النظر، فإنه قدر في البداية خلاله
وكفايته
وولاه القيادة واختصه بأسمى المناصب والمهام، ولكنه تغير عليه في أواخر
عهده، لما أبداه من التذمر وعدم الرضى، ولما وجهه إليه من عتاب خشن
تجاوز فيه حد
اللياقة، فنكبه وجرده من مناصبه وأمواله، وشرده عن قرطبة إلى قاصية
الثغر، ولم يستمع إلى تضرعه حتى مات في فقر وضعة (١) .
ومنهم أبو عثمان رأس أنصاره،

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٩ و ٧١، حيث يورد طرفا من الرسائل التي
تبادلها
عبد الرحمن وبدر، والتي انتهت بنكبة بدر.
وراجع الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٥٣.

وأول من تلقاه وآواه يوم مقدمه، فإنه جعله كبير دولته، فلما توطد أمره جرده
من نفوذه، ولما وقعت المؤامرة التي دبرها بعض الوافدين من بني أمية، واتهم
أبو عثمان بالاشتراك في تدبيرها استراب به، ولم ينقذه من بطشه إلا عظم
صنيعه
لديه.
ولما ثار ابن أخت أبي عثمان في بعض حصون إلبيرة، لم يتردد عبد الرحمن
في قتله حين ظفر به.
وكذا تغير عبد الرحمن على عبد الله بن خالد، صهر أبي عثمان
وزميله في مؤازرة عبد الرحمن ونصرته، وكان من وزرائه، ثم اعتزل
المنصب، وتوارى لما رأى من غدر عبد الرحمن بزعيم اليمنية أبي الصباح،
وكان
أبو الصباح هو الذى جمع كلمة اليمنية في إشبيلية حول عبد الرحمن وقاتل
معه بصحبه، ثم انحرف عنه لأمور نقمها منه، فاستدرجه عبد الرحمن إلى
قرطبة وفتك به فى
نفس مجلسه بالقصر، ناكثا لعهوده كما قدمنا (١) .
بل لم يحجم عبد الرحمن عن
الفتك بذويه وخاصة أسرته، حينما نمى إليه أنهم يأتمرون به، فقتل ابنى أخيه
عبيد الله بن أبان والمغيرة بن الوليد، وابن عمه عبد السلام اليزيدى حسبما
فصلنا.
والخلاصة أن عبد الرحمن كان يلجأ في تحقيق غاياته إلى أروع الأساليب
والوسائل، وكان طاغية مسرفاً في البطش والسفك، مكيافيلليا (٢) بكل معانى
الكلمة.
ولكن تلك الخلال المثيرة التي كان يحفزها ويذكيها الخطر الداهم، كانت
عنوان قوته ووسيلة ظفره.
يقول دوزى: " لقد دفع عبد الرحمن ثمن ظفره
غاليا، ذلك الطاغية الغادر الصارم المنتقم، الذي لا تأخذه رأفة.

ولم يبق زعيم
عربى أو بربرى، يجرؤ على مواجهته صراحة، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خفية.
ولم يك ثمة رجل يرغب في خدمته ".
ثم يقول: " كان هم عبد الرحمن
الدائم أن يذل العرب والبربر إلى الطاعة، وأن يرغمهم على التعود على النظام
والسلام، وقد لجأ في تحقيق هذه الغاية إلى جميع الوسائل، التي لجأ إليها ملوك
القرن الخامس عشر لسحق الإقطاع.
بيد أنه كان مصيرا محزنا ذلك الذى دفع
القدر إليه اسبانيا، وكانت مهمة محزنة تلك التي كان على خلفاء عبد الرحمن أن
يضطلعوا بها.
ذلك أن الطريق الذى رسمه لهم مؤسس الأسرة، كان طريق الطغيان
يؤيده السيف.
ولكن من الحق أن نقول إن ملكاً لا يستطيع أن يحكم العرب والبربر

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ و ٧١.
(٢) نسبة إلى مكيافيللى صاحب المذهب السياسى المشهور، وخلاصته أن للأمير أن يتذرع
في تحقيق الغاية بأى الوسائل، ومنها الغدر والخيانة والسفك وكل ما إليها.

(١٩٤/١)

بغير هذه الوسيلة، وإذا كان العنف والطغيان ثمة في ناحية، ففى الناحية الأخرى

يوجد الاضطراب والفوضى " (١) .

على أن عبد الرحمن كان إلى جانب هذه الصفات المثيرة، يتمتع بكثير من الخلال الباهرة، وقد أجمل ابن حيان مؤرخ الأندلس خلاله في تلك العبارات القوية، قال: " كان عبد الرحمن راجح الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولايسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، تم لاينفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً، بعيد الغور، شديد الحذر

قليل الطمأنينة، بليغاً، مفوهاً، شاعراً، محسناً، سمحاً، سخياً، طلق اللسان " (٢) .

وهذا التصوير الرائع الذى يقدمه لنا ابن حيان عن خلال تلك الشخصية الممتازة، إنما هو صورة بارزة من صور العظمة والبطولة، توضحها في جملتها، وفي تفاصيلها

حياة عبد الرحمن في جميع أدوارها.

ويشبهه ابن حيان أيضا بأبى جعفر المنصور في قوة الشكيمة، ومضاء العزم، وفى القسوة والصرامة والاجتراء على الكبائر (٣) .

وإذا كانت هذه الصفات والخلال القوية المثيرة معا، لا تحمل على الحب، فإنها تحمل على الإعجاب بلا ريب.

بل إن المتأمل ليشعر بعطف خاص نحو هذه

الشخصية الفريدة، ويرجع ذلك بلا ريب إلى تلك الحياة المؤثرة، التي خاض عبد الرحمن غمارها، وتلك المحن الأليمة التي نزلت بأسرته، وتلك الجهود الفادحة

التي بذلها لاسترداد حقه وحق أسرته في الحياة والرياسة.

وكانت هذه الحياة

المؤثرة وما انتهت إليه من النتائج الباهرة، تحمل ألد خصوم عبد الرحمن على احترامه

والإعجاب به، حتى لقد سماه أبو جعفر المنصور " صقر قريش " في حديث طريف تنقله إلينا الرواية، وهو أن المنصور قال يوما لبعض أصحابه، " من صقر
قريش من الملوك؟ " قالوا: أمير المؤمنين الذى راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء.
قال ما صنعتم شيئا.
قالوا فمعاوية، قال ولا هذا.
قالوا

---

(١) Dozy: Hist.
V.
I.
p.
٢٤٥، ٢٤٨
(٢) نقله نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧.
(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦.



فعبد الملك بن مروان، قال لا.
قالوا فمن يا أمير المؤمنين؟ قال: صقر قريش
عبد الرحمن بن معاوية، الذى تخلص بكيده عن سنن الأسنة وظباة السيوف، يعبر
القفر، ويركب البحر، حتى دخل بلدا أعجميا منفردا بنفسه، فمصر الأمصار، وجند الأجناد، ودون الدواوين، وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدة
شكيمته.

إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلل له صعبه، وعبد الملك
ببيعة أبرم عقدها، وأمر المؤمنين بطلب عزته واجتماع شيعته، عبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيد برأيه، مستصحب لعزمه، وطد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور وقتل المارقين، وأذل الجبابرة الثائرين (١) .
هذا وأما عن شخصه، فقد وُصف عبد الرحمن، بأنه كان مديد القامة، نحيف القوام، أعور، أخشم (٢) له ضفيرتان، أصهب (٣) ، خفيف العارضين، له خال في وجهه (٤) .

- ٢ -

كانت الأندلس حتى ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى، ولاية من ولايات الخلافة الأموية.
فلما انهار سلطان بني أمية، انفرد يوسف بالأمر، وغدت
الأندلس في عهده إمارة مستقلة.
وتلقى عبد الرحمن الأموى تراث الإمارة
كما خلفه يوسف، ولم ينشئ رغم كونه سليل بني أمية، لنفسه شيئا جديدا من رسوم الملك.
وتلقبه الرواية الاسلامية أحياناً بالأمير، وأحيانا بالإمام (٥) ، ويلقب
أيضا بصاحب الأندلس (٦) .
ويعرف بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل
الأندلس من أمراء بني أمية وحكمها، ويعرف أيضا بعبد الرحمن الأول، لأنه أول
أمراء ثلاثة من بني أمية بهذا الاسم حكموا الأندلس، هم عبد الرحمن الداخل،

---

(١) راجع أخبار مجموعة ص ١١٨ و١١٩؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٦١ و٦٢، وبين الروايتين اختلاف يسير في الألفاظ.

(٢) هو الذى فقد حاسة الشم.

(٣) من الصهبة والصهوبة وهى احمرار الشعر.
(٤) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٣٧,
(٥) راجع أخبار مجموعة ص ١٠٠ - ١٠٤ حتى نهاية الحديث عن عبد الرحمن، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥١ وما بعدها، وص ٦٠، حيث ينعت عبد الرحمن بالإمام، وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤، والروض المعطار (القاهرة ١٩٣٧) ص ١٨٦.
(٦) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٧، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٠.

(١٩٦/١)

وحفيده عبد الرحمن الأوسط (ابن الحكم) ، ثم عبد الرحمن الناصر.
وكانت الدعوة العباسية قد انتهت إلى الأندلس حين مقدم عبد الرحمن، وذاعت في منابرها، ودعى في الخطبة لبنى العباس في كثير من النواحى، ثم دعى لهم فى قرطبة ذاتها، ودعى عبد الرحمن الداخل نفسه لأبى جعفر المنصور مدى أشهر، وكان ذلك رغم غرابته وتناقضه، عملا من أعمال السياسة.
ولكن جماعة من بنى أمية الذين وفدوا على الأندلس، وعلى رأسهم عبد الملك المروانى، اعترضوا على هذا التصرف، ونوهوا بما أثم به بنو العباس في حق بني أمية، وما زالوا بعبد الرحمن حتى قرر قطع ذكر بني العباس من الخطبة (١٣٩هـ) ، فقطعت من سائر منابر الأندلس (١) .

ولكن عبد الرحمن لم يحاول أن يتخذ سمة الخلافة قط، رغم كونه
سليل أقيالها.
ويرجع ذلك إلى اعتبارات دينية وسياسية، يجملها ابن خلدون فى
قوله، إن بني أمية بالأندلس " تلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من
القصور عن ذلك، بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة، والبعد عن
دار الخلافة التي هى مركز العصبية، وأنهم إنما منعوا بإمارة القاصية أنفسهم
عن
مهالك بني العباس " (٢) .
ويقول لنا في موضع آخر إن عبد الرحمن لم يتخذ سمة
الخلافة تأدبا منه في حق الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب (٣) .
ويقول المسعودى
ان الخلافة لم يكن يستحقها عند بني أمية إلا من كان مالكا للحرمين، ولذلك
سموا بالخلائف، حتى بعد أن تسموا بالخلافة ولم يخاطبوا بالخلفاء (٤) .
وعلى أى
حال فإن بواعث السياسة العملية، هى التي حملت عبد الرحمن على سلوك
هذا
المسلك، والحرص على عدم التورط في رسوم لم يحن الوقت لاتخاذها،
والدخول
بذلك مع الخلافة العباسية القوية في منافسة لا تؤمن عواقبها.
وأما عن نظام الحكومة، فقد اتبع عبد الرحمن الداخل سنة أسلافه بالمشرق
في تبسيط الرسوم والنظم، وأنشأ منصب الحجابة، ولكنه لم ينشىء مناصب
الوزارة، بل استعاض عنها بأعوان وأشياخ يعاونونه في القيام بمهام الحكم،
وليست
لهم سمة الوزارة، وإنما هم أقرب إلى الخاصة وأهل الشورى.
واختار أعوانه فى

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٨، وابن الأبار في الحلة السيراء (ليدن) ص ٣٣.

(٢) المقدمة ص ١٩٠.

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢.

(٤) المسعودى في مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٧٨.



البداية من أصدقائه، الذين استقبلوه يوم مقدمه، وآزروه وقاتلوا معه، فولى حجابته تمام بن علقمة، ثم ولاها من بعده ليوسف بن بخت الفارسى مولى عبد الملك

ابن مروان، ثم عبد الكريم بن مهران الغسانى، ثم عبد الرحمن بن مغيث ولد مغيث فاتح قرطبة، وولاها في آخر أيامه لمنصور الخصى، فلم يزل في حجابته

حتى توفى.

وعين لمشورته أبا عثمان عبيد الله بن عثمان كبير أنصاره، وصهره

عبد الله بن خالد، فكانا مدى حين دعامة حكومته.

وكان من أعوان حكومته

أيضا جدار بن عمرو، وأبو عبدة حسان بن مالك زعيم إشبيلية، وشهُيد بن عيسى

ابن شهيد، وعبد السلام بن بسيل الرومى، وهما من موالى بني أمية، وثعلبة ابن عبيد الجذامى الذى ولاه سرقسطة فيما بعد، وعاصم بن مسلم الثقفى وهو من

خاصة أنصاره يوم المسارّة.

وولى قيادة عسكره مولاه بدرا، وتمام بن علقمة، وعبد الملك المروانى، وثعلبة بن عبيد، وغيرهم من خاصة عصبته، وقد كان

عبد الرحمن يتولى بنفسه قيادة الجيش، في معظم الوقائع والحروب التي

نشبت
بينه وبين خصومه كما رأينا.
وولى عبد الرحمن على الكور والثغور جماعة مختارة من
أصدقائه، وذوى رحمه الوافدين عليه حسبما فصلنا في مواضعه.
وعلى الجملة فقد
كانت حكومة عبد الرحمن الداخل تقوم في البداية بالأخص على العصبية
والموالاة، وكانت عربية في بنائها وروحها، ولكن الخصومة المستعرة التي
شهرها زعماء
القبائل والبطون المختلفة على عبد الرحمن، والثورات المستمرة التي عملوا
على
إضرامها من حوله، ونكثهم المتكرر بعهودهم، حمله على الاسترابة بالعرب
والحذر منهم، فمال عنهم إلى اصطناع الموالى والبربر، ولاسيما بربر العُدوَة
(المغرب)
وحشد حوله من الموالى والبربر والرقيق آلافاً مؤلفة، لتكون له وقت الحاجة
عونا يركن إليه ويثق به.
وكان ذلك قاعدة للسياسة التي سار عليها خلفاء عبد الرحمن
الداخل من بعده، والتي بلغت ذروتها في عهد عبد الرحمن الناصر، كما
نفصل
في موضعه (١) .
وأما عن سياسة عبد الرحمن نحو رعاياه النصارى (المستعربين) ، ونحو
نصارى الشمال، فقد كانت سياسة اعتدال ومهادنة.
وكان من الواضح أنه نظراً
لاشتغاله المستمر بأمر الثورات الداخلية، لم يفكر في غزو أرض النصارى،
وأنه

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦، وج ٢ ص ٦٧.

كان يرحب بعقد السلم والمهادنة معهم.
وهذا الأمان الذى يقال إن عبد الرحمن
أصدره لجيرانه نصارى قشتالة يؤيد هذه السياسة وهذا نصه:
" بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن، للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة، ومن تبعهم من سائر البلدان.
كتاب أمان وسلام، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل، ومثلها من البغال، مع ألف درع وألف بيضة ومثلها من الرماح، في كل عام إلى خمس سنين، كتب بمدينة قرطبة ثلاث صفر
عام اثنين وأربعين ومائة (٧٥٩ م) " (١) .
وكان عبد الرحمن الداخل يتمتع بمواهب إدارية باهرة، فاستطاع خلال الاضطراب الشامل أن يوطد دعائم الحكم والإدارة، وأن يقمع كثيراً من ضروب
الفساد والبغى، وأن يؤيد هيبة القانون والنظام.
ولما توطد سلطانه وخبا ضرام
الثورة نوعاً، استطاعت الأندلس أن تتمتع في ظل حكومته بأمن وطمأنينه ورخاء
لم تعرفها منذ بعيد، ولو لم يُشغل عبد الرحمن طوال عهده بقمع الثورة والفتن الداخلية، لاستطاع كأسلافه الفاتحين الأوائل، أن يبعث الأندلس خلقا جديدا، وأن يجعل منها حديقة يانعة.
على أنه ذلل الصعب ومهد الطريق لعقبه، واستطاع
أن يضع دعائم تلك المملكة، التي غدت على يد بنيه أعجوبة العصور

الوسطى.
وينوه ابن حيان مؤرخ الأندلس بمقدرة الداخل وكفاياته الإدارية فيقول إنه "
دون
الدواوين، ورفع الأواوين، وفرض الأعطية، وعقد الألوية، وجند الأجناد، ورفع
العماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، وأخذ للسلطان عدته " (٢) .
وعنى عبد الرحمن بالجيش عناية خاصة، فحشد المتطوعة والمرتزقة من كل
صوب، وبلغت قواته مائة ألف مقاتل (٣) ، هذا عدا حرسه الخاص الذى
أنشأه

---

(١) أورد ابن الخطيب في كتاب الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) نص هذا
الكتاب ونقله
عنه الغزيرى في فهرسه.
راجع Casiri: Bibliotheca Arabico – Hispana Escurialenses
.Vol
.II
.p
.١٠٤
بيد أننا نرتاب عل الأقل في صحة الأرقام التي وردت به لضخامتها بالنسبة
لموارد النصارى في هذا العصر.
(٢) نقله نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥.
(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤.

(١٩٩/١)

من الموالى والبربر والرقيق حسبما قدمنا ويبلغ زهاء أربعين ألفا (١) .
كذلك عنى
عبد الرحمن في أواخر عهده بأمر القوات البحرية، فأنشأ عدة قواعد لبناء

السفن
في بعض الثغور النهرية والبحرية، مثل طركونة وطرطوشة وقرطاجنة
وإشبيلية
وغيرها (٢) .
ويقال إن عبد الرحمن الداخل لما توطد ملكه، وكثرت قواته وعدته، فكر في
استرداد ملك بني أمية بالشام، والرحيل إلى المشرق ببعض قواته، واستخلاف
ولده سليمان على الأندلس، وأيده في ذلك خاصة أسرته ومواليه.
وكان ذلك في سنة ١٦٣هـ.
ولكن اضطرام الثورة في سرقسطة حال بينه وبين
ذلك العزم، وتوفى قبل أن تسنح فرصة لتنفيذه (٣) .
وقد تكون هذه أمنية جالت
بذهن عبد الرحمن، ولكنا لا نجد في ظروف حياته التي انقضت كلها في
إخماد
الفتن والثورات المحلية، ما يسمح باعتبار مثل هذه الأمنية مشروعاً جدياً تتخذ
العدة لتنفيذه.
واستطاع الداخل أيضاً أن يعنى بالحاضرة الأموية الجديدة أعنى قرطبة،
فحصنها وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض اليانعة.
وكان أول ما أنشأ بها في عهده
منية الرُّصافة وقصرها المنيف.
وكان قصر الإمارة بناء قديماً ساذجاً يرجع إلى عهد
القوط، فرأى عبد الرحمن أن ينشئ ضاحية ملوكية جديدة، تليق بحاضرة
ملكه، وتعيد ذكرى بهاء بني أمية بالمشرق، فأنشأ في شمال غربى قرطبة
قصراً
فخماً تحيط به حدائق زاهرة، وجلب إليها مختلف الغروس والبذور والنوى
من الشام وإفريقية، وسمى تلك الضاحية الجديدة بالرُّصافة تخليداً لذكرى
الرُّصافة التي أنشأها جده هشام بالشام، واتخذها مقاماً ومنتزهاً ومركزاً

للإمارة، وكانت حدائق الرصافة أماً لحدائق الأندلس، ومنها انتشرت بالأندلس غروس
الشام وإفريقية (٤) .
وفى سنة ١٥٠هـ بدأ عبد الرحمن بإنشاء سور قرطبة الكبير، واستمر العمل فيه مدى أعوام (٥) .
وأنشأ عبد الرحمن في قرطبة وفي باقى مدن الأندلس
مساجد محلية عديدة، وبدأ في أواخر أيامه (سنة ١٧٠ هـ - ٧٨٦ م) بإنشاء المسجد

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧.
(٢) Reinaud: ibid , p.
١٢٠
(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦، وج ٢ ص ٧٦.
(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٧.
(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣.



الأموى الجامع بقرطبة، وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة، وجلب إليه الأعمدة
الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد.
ولكنه توفى قبل إتمامه، فأتمه ولده
هشام، وزاد فيه من بعده ملوك بني أمية، حتى غدا أعظم مساجد الأندلس،
وبلغ ما أنفقه عليه الداخل وحده زهاء مائة ألف دينار (١) .
وأنشأ عبد الرحمن
أيضا في قرطبة داراً للسكة، تضرب فيها النقود على نحو ما كانت تضرب فى

دمشق أيام بني أمية وزناً ونقشاً.

- ٣ -

وكان عبد الرحمن الأموى جواداً، جم البساطة والتواضع، يؤثر لبس البياض ويعتم به، يصلى بالناس أيام الجمع والأعياد، ويحضر الجنائز ويصلى عليها، ويعود المرضى، ويزور الناس ويخاطبهم، ولم ينحرف عن هذه الديمقراطية

إلا في أواخر عهده، حينما نصحه بعض خاصته بالترفع، استبقاء لهيبة الملك، والحذر من بوادر العامة وشر المتآمرين (٢) .

وقد كان في نقش خاتمه " عبد الرحمن

بقضاء الله راض " و" وبالله يثق عبد الرحمن وبه يعتصم " ما ينم عن ذلك التواضع

الجم (٣) ، حيث لم يتخذ لقب المظفر أو الناصر أو المنصور وما إليها.

بقى أن نتحدث عن ناحية أخرى من خلال عبد الرحمن البديعة، هى الناحية الأدبية.

كان عبد الرحمن شاعراً جيد النظم، ناثراً فصيح البيان، قوى الترسل، عالماً بالشريعة، وكان يعتبر من أعظم بني مروان مكانة في البلاغة والأدب (٤) .

وقد انتهت إلينا بعض رسائله وفيها تبدو قوة بيانه وفيض بلاغته.

ومن ذلك رسالة

موجزة وجهها إلى سليمان بن يقظان حين خروجه عليه: " أما بعد، فدعنى من

معارض المعاذير، والتعسف عن جادة الطريق، لتمدن يداً إلى الطاعة، والاعتصام

بحبل الجماعة، أو لألقين بناتها على رصف المعصية، نكالا بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد ".

ومنها رسائله إلى بدر مولاه، يزجره عن تمرده وانحرافه

وقد كتب إليه حين ألحف في طلب العفو والمنة: " لتعلم أنك لم تزل بمقتك

حتى

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٠.

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧.

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٠، ونفح الطيب ج ٢ ص ٧٦.

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٠ و٦٢؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٩؛
والمراكشى فى
المعجب ص ١٠.

*(٢٠١/١)*

ثقلت على العين طلعتك، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك، ثم زدت
إلى
أن ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر..
.
."

ومن
أقواله لأصحابه يوم المسارّة يشحذ هممهم للقتال: " هذا اليوم هو أس ما يبنى
عليه، إما ذل الدهر وإما عز الدهر، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون، تربحوا
بها بقية أعماركم فيما تشتهون " (١) .

وانتهى إلينا من نظم عبد الرحمن ما يدل على قوة شاعريته ورقة خياله.
فمن ذلك
قوله حين بلغه أن بعض أصدقائه يمن عليه، ويزعم أنه لولاه لما صار الملك
إليه:

سعدى وحزمى والمهند والقنا..
.
ومقادير بلغت وحال حائل

إن الملوك مع الزمان كواكب..

.

نجم يطالعنا ونجم آفل

والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا..

.

أيروم تدبير البرية غافل

ويقول قوم سعده لا عقله..

.

خير السعادة ما حماها العاقل

وأشاد بعضهم أمامه بموقف الغمر بن يزيد بن عبد الملك في مجلس عبد الله ابن على جلاد بني أمية، ونعيه عليه إثمه في حقهم وسفكه لدمائهم، وفقده لحياته ثمناً لجرأته، فأنشد عبد الرحمن:

شتان من قام ذا امتعاص (٢) ..

.

فشال ما قال واضمحلا

ومن غدا مصلتا لعزم (٣) ..

.

مجرداً للعداة نصلا

فجاب قفراً وشق بحراً..

.

ولم يكن في الأنام كلاّ

فبز ملكاً وشاد عزاً..

.

ومنبراً للخطاب فصلا

وجند الجند حين أودى..

.

ومصر المصر حين أجلى

ثم دعا أهله جميعاً..

.

حيث انتأوا أن هلم أهلا (٤)

ومن قوله في التشوق إلى ربوع الشام، وهو رقيق مؤثر:

أيها الركب الميمم أرضى..

.

أقر من بعضى السلام لبعضى

إن جسمى كما علمت بأرض..

.

وفؤادى ومالكيه بأرض

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨ - ٧٠، - حيث يورد عدة من رسائل عبد الرحمن وأقواله.

(٢) يريد الغمر بن يزيد بن عبد الملك.

(٣) يريد نفسه أى عبد الرحمن الداخل.

(٤) هكذا يوردها المقرى (نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨) ؛ ولكن صاحب البيان المغرب

يوردها بصورة أخرى ج ٢ ص ٦١) .

(٢٠٢/١)

قدر البين بيننا فافترقنا..

.

وطوى البين عن جفونى غمضى

قد قضى الله بالفراق علينا..

.

فعسى باجتماعنا سوف يقضى

ورأى بروض الرصافة وهى الضاحية الجديدة التي أنشاها، نخلة منفردة، فأثار منظرها في نفسه ذكرى وشجناً وأنشد (١) :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة..

.

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهى في التغرب والنوى..

.

وطول التنائى عن بنيى وعن أهلى

نشأت بأرض أنت فيها غريبة..

.

فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلى

سقتك غوادي المزن من صوبها..

.

الذى يسح ويستمرىء السماكين بالويل (٢)



هذا ويجب أن نستعرض هنا، وقبل اختتام الكلام على عصر عبد الرحمن الداخل، عناصر المجتمع الأندلسي، الذى كان خلال هذه الأحداث والخطوب التي توالت عليه منذ أيام الفتح، قد استقر، وأخذت جذوره في التوطد والرسوخ، وأخذت عناصره المختلفة، يؤدى كل منها دوره في غمرة الحوادث، مستهديا

بعواطفه وأمانيه ومثله الخاصة.

وقد سبق أن أشرنا بإيجاز إلى أن المجتمع الإسلامى الذى قام في شبه الجزيرة

عقب الفتح، كان يتألف من عناصر رئيسية ثلاثة، هى العرب، والبربر، والمولدون.

كما أشرنا إلى عناصر الشقاق والتفرق التي كانت تعمل في صفوف
هذا المجتمع الإسلامى الجديد.
كانت البطون العربية التي اشتركت في الفتح، واستقرت في شبه الجزيرة
تضطرم منذ البداية بروحها القبلى المتأصل، ولم تستطع قط أن تتحرر من
هذا

---

(١) وينسب هذا الشعر أيضا لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن مروان، وكان من الداخلين
إلى الأندلس (راجع الحلة السيراء ص ٣٤) .
(٢) يورد ابن الأبار في هذا الموطن رواية يفهم منها أن هذه النخلة هى أول نخلة غرست
بالأندلس، ومنها تولد جميع النخيل بالأندلس فيما بعد، وإذا فيكون عبد الرحمن الداخل هو أول
من نقل غراس النخيل بالأندلس فيما نقل من غراس الشام إلى الرصافة (الحلة السيراء ص ٣٥) .
ولكن يحق لنا أن نلاحظ أن العرب فتحوا الأندلس قبل ذلك بنحو ثمانين عاما، ومن قبلها فتحوا
إفريقية؛ ومن المعقول أن يكون النخل قد نقل إليها فيما نقلوا من غراس بلادهم؛ وقد نقلوه قبل ذلك
إلى مصر منذ الفتح.
وإذا كان النخيل قد غرس بإفريقية عقب افتتاحها، أفلا يكون من المرجح أنه قد نقل منها إلى الأندلس عقب افتتاحها أيضا؟ وقد كان أول ما عنى به العرب في الأندلس تنظيم
الزراعة وغرس الحدائق.

الروح النكد، الذى أشاع فيما بينها عوامل الشقاق والتنابذ، وأثار فيما بينها غير
مرة ضرام الحرب الأهلية.
وقد رأينا كيف عانت الأندلس في أواخر عهد
الولاة من هذه الحرب الأهلية، التي اضطرمت بن المضرية واليمنية وبين البلديين
والشاميين، وكيف كادت تودى بسلامة الأندلس ومنعتها.
ثم رأينا كيف قضى
عبد الرحمن الداخل معظم عهده في مكافحة الثورات المتعاقبة التي شهرها في وجهه
زعماء القبائل والبطون في سبيل الاحتفاظ بسلطانهم المحلى.
وهكذا كانت القبائل
العربية في الأندلس منقسمة على نفسها، وإن كانت الرياسة قد بقيت فيها على يد
الدولة الأموية الجديدة التي قامت في شبه الجزيرة.
بيد أن العرب لم يكونوا بين
كتلة الأمة الأندلسية أغلبية، بل كانوا بالعكس أقلية تتمثل بالأخص في الأرستقراطية
العربية التي استأثرت بمعظم مغانم الفتح، واستولت حينا على أزمة الحكم، واحتلت في شبه الجزيرة معظم البقاع الخصبة.
وقد ذكر لنا ابن غالب في " فرحة
الأنفس "، كثيراً من البطون العربية التي استقرت بالأندلس، وبعض من كان ينتمى إليها من الأسر الأندلسية النابهة، وذكر لنا من منازلها، بلنسية وأوريولة
وإشبيلية وغرناطة ووادي آش (١) .
وكانت الأرستقراطية العربية تستقر بالأخص فى

القواعد والمدن الكبيرة، ولا سيما في قرطبة، وتترك العمل في ضياعها
الشاسعة
للموالى والبربر، وكان أمراء بني أمية منذ عهد عبد الرحمن الداخل يعملون
على
مقارعة هذه الأرستقراطية القوية وإخضاعها، حتى جاء عبد الرحمن الناصر،
فقضى على سلطانها السياسى والاجتماعى، ورفع إلى مكانها الموالى
والصقالبة، ثم جاء المنصور بن أبي عامر، فعمل على تمزيقها وتشتيتها،
وخلق أرستقراطية
جديدة من البربر تقوم مكانها، ومن ذلك الحين تغيض الأصول العربية فى
شبه الجزيرة تباعا، وتضمحل مكانتها وأهميتها.
ويرجع انكماش العنصر العربى في الأمة الأندلسية، أولا إلى كونه يمثل
الطبقة الممتازة وهى تكون الأقلية دائما، وثانيا إلى أن الهجرة العربية إلى شبه
الجزيرة لم تكن هجرة غزيرة، وقد توقفت تقريبا منذ القرن الثالث الهجرى، ولم
يكن ما ينسب للأمراء والكبراء من كثرة النسل، لامتلاء قصورهم بالجوارى،
مما يعوض هذا النقص العنصرى.
وإلى جانب الأقلية العربية الأرستقراطية، يجب أن نذكر طائفة الموالى التي

---

(١) نقله المقرى في نفح الطيب ج ١ ص ١٣٦ و١٢٧.

(٢٠٤/١)

كانت تنتمى اليها أولا وتشد بأزرها، ثم انقلبت عليها فيما بعد حينما تمكنت
واشتد
نفوذها.
وقد نمت هذه الطائفة بمر الأيام.
وظهر منها كثير من القادة والزعماء
النابهين، الذين شغلوا أعظم المناصب في الدولة وفي الجيش، مثل بني

شُهيد، وبنى
مغيث وبنى عَبْدَه، وبى جهور، وبنى بسيل، وهم الذين شغلوا مناصب القيادة والحجابة أجيالا.
والى جانب هؤلاء، يجب أن نذكر طائفة الصقالبة
الأجانب التي ظهرت أهميتها منذ أيام عبد الرحمن الداخل، وبلغت ذروة تضخمها ونفوذها أيام عبد الرحمن الناصر.
وقد كان بنو أمية يؤثرون اصطناع
هؤلاء الموالى والإفادة من عونهم وتأييدهم.
وأما العنصر الثاني الذى كانت تتكون منه الأمة الأندلسية فهو عنصر البربر.
وقد قام البربر حسبما رأينا بأكبر قسط في فتح الأندلس، وفي الغزوات التي اضطلعت بها الجيوش الاسلامية فيما وراء البرنيه، وكانوا في معظم الأحيان أغلبية
في تلك الجيوش، وإن كانت القيادة قد لبثت على الأغلب في أيدى القادة والضباط
العرب.
وكانت هجرة القبائل البربرية إلى شبه الجزيرة أسرع وأشد كثافة من
هجرة العرب، أولا لقرب منازلهم في العدوة من شبه الجزيرة، وثانيا لشعورهم بما كان لهم من فضل في أعمال الفتح، وثالثا لما كان يحفزهم من آمال في البحث
وراء طالعهم في هذا القطر الجديد، الذى كانت وديانه الخضراء تجذبهم من بواديهم المقفرة.
وقد استمرت هجرة البربر على هذا المنوال أجيالا، بينما كانت
هجرة العرب من منازلهم البعيدة في شبه الجزيرة العربية وفي الشام بطيئة محدودة
أضف إلى ذلك ما عمد إليه أمراء بني أمية، منذ عهد عبد الرحمن الداخل

من

اصطناع البربر إلى جانب الموالى والصقالبة، والاستعانة بهم في تدعيم

سلطانهم، لاسترابتهم بالقبائل العربية.

وقد بلغت هذه السياسة كما سنرى فيما بعد ذروتها

في عهد المنصور بن أبي عامر، حيث انثالت القبائل البربرية على شبه

الجزيرة، واحتل زعماؤها معظم المناصب الكبيرة، وأضحى سواد الجيش مؤلفا

منها.

وقد

كانت معظم البطون البربرية المهاجرة تنتمى بالأخص إلى زناتة ومصمودة

ومكناسة

ونفزة والبرانس، واشتهرت من هذه البطون بالأخص، مدغرة ومديونة

ومكناسة وهوارة.

ومنها خرج فيما بعد أمراء كثير من القواعد والثغور، وقامت

من بينها ممالك من دول الطوائف.

وقدكان البربر أكثرية في الشمال الغربى، وفى

وسط الأندلس في منطقة جبال المعدن (أو جبال البرانس) ، وفي أراضي

السهلة

(٢٠٥/١)

ووادي الحجارة، ومنطقة شرقى إشبيلية والفرنتيرة، وهى مناطق تمتاز على

الأغلب بهضابها الوعرة، وهو ما كان يشجع البربر في أحيان كثيرة على

الثورة

ومقاومة الحكومة المركزية للمحافظة على استقلالهم المحلى (١) .

والعنصر الثالث الذى كانت تتكون منه الأمة الأندلسية هو عنصر المولدين،

وهم القوط والإسبان الذين أسلموا منذ الفتح، ودخلوا حظيرة المجتمع الإسلامى

إلى جانب زملائهم العرب والبربر، مؤثرين أن يتمتعوا في ظل الإسلام بمزايا

المساواة والثقة، والتحرر من القيود والأعباء التي تلاحق الذميين.
ويعرف
أولئك المولدون في الإسبانية بالخوارج أو المرتدين Renegados، أى الذين ارتدوا عن دينهم القديم، وهو النصرانية، ويسمون أحيانا بالمسالمة أو الأسالمة أو أسالمة أهل الذمة، متى كان إسلامهم حديثا.
وكان المولدون يكونون بين
السكان كتلة كبيرة ربما كانت الأغلبية، وقد كان إسلامهم سريعاً، ولم يأت
جيل
أو اثنان حتى استطاعوا الاندماج في المجتمع الإسلامى، وأضحى من
الصعب
تمييزهم من المسلمين الأصليين، وغدوا بمضى الزمن عنصرا من أهم
عناصر السكان
إن لم يكن أهمها جميعاً، سواء من حيث الكثرة أو المستوى الاجتماعى
والحضارى.
وإلى جانب هذه العناصر الأساسية الثلاثة، التي كانت تتكون منها الأمة الأندلسية، كان ثمة عنصران آخران هما المستعربون أو النصارى المعاهدون Mozarabes
وهم النصارى الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم القديم، ولبثوا يعيشون في المدن والأراضي المفتوحة تحت الحكم الإسلامى، وقد كانت منهم ثمة أقليات كبيرة في بعض المدن مثل طليطلة وقرطبة، واليهود، وقد رأينا كيف ساعدوا
الفاتحين
المسلمين وقت الفتح، وتعاونوا معهم في حفظ المدن المفتوحة وإدارتها، وقد كانت منهم أقليات في معظم المدن الأندلسية، تتمتع بحماية الحكومات
الإسلامية
ورعايتها.
وقد ازدهرت هذه الأقليات اليهودية فيما بعد، وظهرت منها شخصيات

بارزة تولت مناصب كبيرة في الدولة، وغلب نفوذها في بعض المناطق، كما
حدث
في مملكة غرناطة البربرية، وظهرت كذلك في ميدان العلوم والآداب، ونبغ
منها
علماء نابهون مثل ابن ميمون وغيره.
تلك هى العناصر المختلفة التي كانت تتألف منها الأمة الأندلسية.
وسوف نعود
من آن لآخر إلى التحدث عن هذه العناصر في مختلف المواطن
والمناسبات.

---

(١) يحدثنا ابن حزم تفصيلا عن منازل البربر في الأندلس.
راجع جمهرة أنساب العرب
(القاهرة) ص ٤٦٣ - ٤٦٧.



الفصل السابع
المملكة النصرانية الشمالية
منذ قيامها إلى ولاية ألفونسو الثاني
بعث المملكة النصرانية في الشمال.
اجتماع فلول النصارى في الهضاب الشمالية.
الدوق بتروس
وبلاجيوس.
نشوء المملكة النصرانية.
صمت إيزيدرو الباجي عن ذكرها.
أقوال الرواية الإسلامية.
امارة جليقية والصخرة.

رأى لابن خلدون في شأنها.
إغفال الفاتحين لأمرها.
حملات المسلمين عليها.
ارتدادهم عن تلك الهضاب.
اجتماع النصارى حول بلاجيوس.
حملة ابن أبي نسعة على جليقية.
إغارة
النصارى على الأراضي الإسلامية.
غزو عقبة بن الحجاج لجليقية.
نمو المملكة النصرانية.
وفاة
بلاجيوس.
ولده فافيلا.
إمارة كانتابريا.
تحالفها مع جليقية.
اتحادهما تحت ولاية ألفونسو الأول.
ألفونسو الأول أو الكاثوليكى.
اجتياحه للأراضي الإسلامية.
استيلاؤه على أسترقة.
أخوه فرويلا
أمير كانتابريا.
استيلاء ألفونسو على مدينة لك.
حملة يوسف الفهرى لإنقاذ أربونة.
القتال بينه وبين
البشكنس.
عبور ألفونسو لنهر دويرة.

وفاة فرويلا.
وفاة ألفونسو.
فرويلا الأول.
استيلاؤه
على شلمنقة وشقوبية وسمورة وقشتالة.
اختلاف الرواية الإسلامية في تاريخ هذه الغزوة.
خطر
المملكة النصرانية.
عبد الرحمن الأموى يرسل حملة إلى جليقية.
غزو ألبة والقلاع.
ما تقوله الرواية
النصرانية عن موقعة بونتومو.
ثورات النصارى على فرويلا.
غزوه لنافار.
بطشه وسفكه.
إنشاؤه لمدينة أوبييدو.
وفاته.
انقسام المملكة.
ولاية أورليوس للولايات الشرقية.
ولاية سيلو
للولايات الغربية.
وفاة أورليوس.
ولاية سيلو على المملكة كلها.
الصلح بينه وبين المسلمين.
وفاة سيلو.
اضطراب المملكة.

قيام مورجات ولد ألفونسو الأول.
فرار ألفونسو ابن فرويلا إلى
ألبة.
تحالف مورجات مع المسلمين.
أقوال الرواية الاسلامية.
وفاة مورجات.
ولاية برمند الأول
لجليقية.
تحالفه مع ألفونسو.
تخلى برمند وولاية ألفونسو على المملكة كلها.
أسطورة القديس يعقوب
وقيام مدينة شنت ياقب.
عزلة المملكة الشمالية.
خواص مجتمعها.
نقف الآن قليلا في تتبع أخبار دولة الإسلام في الأندلس، لنأتى على أخبار
دولة متواضعة أخرى، قامت في اسبانيا إلى جانب الدولة الإسلامية في نوع
من
الخفاء والصمت، ولم يشعر المسلمون بمولدها ولا نموها في أعوامها الأول،
ولم يقدروا أهميتها حين شعروا وجودها، ولم يعنوا بأمرها إلا حينما نمت
وانتظمت
إلى قوة تستطيع العدوان والمقاومة: تلك هى المملكة الإسبانية النصرانية التي
يجب أن تأخذ منذ الآن مكانها في تاريخ شبه الجزيرة، إلى جانب دولة
الإسلام
فيها.
ولم يكن قيام هذه المملكة الناشئة، سوى طور جديد في حياة تلك المملكة

القوطية التي سحقها العرب عند فتح الأندلس (٩٢ هـ - ٧١١ م) ، والتي
قامت
بعد ذلك تستأنف حياتها ضئيلة متواضعة، في قاصية اسبانيا الشمالية الغربية
وفيما وراء الصخر، ثم لبثت تنمو بطيئة ولكن ثابتة، حتى رسخت دعائمها
فى
هاتيك الهضاب، وبدأت بعد ذلك معركة الحياة والموت، مع تلك المملكة
الإسلامية التي قامت في الجنوب، على أنقاض مملكة القوط القديمة، وهى
معركة
تشغل منذ الآن حيزاً كبيراً في تاريخ الإسلام في اسبانيا.
وقد نشأت المملكة الإسبانية النصرانية في ظروف كالأساطير، ونشأت فى
نفس الوقت الذى افتتح فيه العرب اسبانيا، وسحقوا دولة القوط القديمة.
ففى
موقعة شَريش التي مزق فيها جيش القوط وقتل آخر ملوكهم ردريك (لذريق)
(٩٢ هـ) ، فرت شراذم قليلة من الجيش المنهزم إلى الشمال، واختفت فيما
وراء
تلك الجبال الشمالية، التي وقف عندها تيار الفتح الإسلامى، واجتمعت
بالأخص
في هضاب كانتابريا (نافار وبسكونية) في الشرق، وفي هضاب أشتوريش
(١)
في الغرب، واجتمع فل النصارى في الهضاب الشرقية تحت لواء زعيم يدعى
الدوق بتروس، واجتمع فلّهم في الهضاب الغربية في جليقية تحت لواء زعيم
يدعى بلاجيوس أو بلايو.
وكان بتروس ينتمى إلى أحد الأصول الملكية، وكان
من قادة الجيش في عهد وتيزا ملك القوط، ثم في عهد خلفه ومغتصب ملكه

ردريك.

أما بلاجيوس أو بلايو فيحيط الغموض بأصله ونشأته، ولكن يبدو
مما تنسبه إليه الرواية من ألوان الوطنية والبسالة والبطولة، أنه كان رفيع
المنبت

والنشأة، وتقول بعض الروايات إنه ولد الزعيم فافيلا (٢) الذى قتل الملك وتيزا
في هضاب جليقية، وإنه كان لذلك من خاصة الملك ردريك وقادته.
وهذا

ما يردده سيمونيت إذ يقول في أصل بلاجيوس ما يأتى؛ " وكان الحزب
المتمسك

بدينه ووطنه، المنكر لخيانة أولاد وتيزا، قد اختار له رئيساً رفيع المواهب هو
الدون بلايو بن فافيلا، من سلالة القوط الملكية.

ويقول البعض إنه ولد من
يدعى فريمندو، وحفيد للملك ردريك، وقد حارب إلى جانب ردريك.
ثم

رأى فيه الأحبار والأكابر الذين التفوا حوله، أنه جدير بالعمل على إحياء
مملكة

---

(١) في الجغرافية الحديثة " أستورية " Asturias

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٦، حيث يقول "وملكوا عليهم (أى الجلالقة)
بلاى ابن فافلة ".

(٢٠٨/١)

القوط " (١) .

وتعرف الرواية الإسلامية بلايو وتحدثنا عنه وتسميه (بلاى) ، وتصفه أحياناً
بأنه أمير أو ملك، وتنعته غالباً بأنه " علج من علوج النصارى " (٢)
وتتبع أخباره مع المسلمين: ولكنها لا تلقى ضياء كثيراً على أصله أو أحوال

مملكته الصغيرة.
ذلك لأن المسلمين لم ينتبهوا قط إلى ما وراء الهضاب الوعرة، التي امتنع بها هذا الزعيم وفله، والتي نشأت فيها جذور المملكة النصرانية
الشمالية، التي غدت غير بعيد خطرا على دولة الإسلام في اسبانيا.
ومن الغريب
أن راوية نصرانياً كبيراً معاصراً هو إيزيدور الباجى، وهو حبر عاصر الفتح الإسلامى، وكتب روايته منذ منتصف القرن السابع، ووصل في كتابتها حتى سنة
٧٥٤ م (٣) ، لم يذكر لنا في روايته شيئاً عن قيام تلك المملكة النصرانية الصغيرة فى
الشمال، ولا عن زعيمها أو ملكها بلايو، ولا عن غزوات المسلمين لها، مع أن
إيزيدور يتتبع أخبار الغزوات الإسلامية كلها، منذ الفتح حتى منتصف القرن الثامن، سواء في اسبانيا أو في مملكة الفرنج، ويقدم إلينا عنها كثيراً من التفاصيل والملاحظات الهامة.
وقد يرجع ذلك إلى أن إيزيدور وهو يقيم فى
الجنوب في مدينة باجة، كان يجهل قصة هذه المملكة النصرانية الناشئة، ولكن
ما نراه من عنايته بتدوين أخبار الغزوات الإسلامية في فرنسا، وأخبار مملكة أكوتين، يحملنا على الاعتقاد بأنه لم يكن يجهل أخبار مملكة جليقية
النصرانية، وهى أقرب إليه من فرنسا، وأن أسباباً أخرى لعلها ترجع إلى انتماء أميرها بلايو
إلى حزب ردريك الذى كان يبغضه المؤرخ، هى التي حملته على إغفال أخبارها (٤) .
وعلى أى حال فإن الرواية الإسلامية، تذكر لنا كيف نشأت المملكة النصرانية

---

(١) F.
J.
Simonet cit.
Saavedra ; Historia de los Mozarabes de Espana،
Vol.
I.
p.
١٤٨..
ويقول المؤرخ المستشرق كاردون إن بلاجيوس ينتمى إلى أصل ملكى، وانه
الأمير الوحيد الذى نجا من فتك العرب (راجع Cardonne: ibid , I.
p.
١٠٥.
) ، بيد أن كاردون
لا يقول لنا من أين استقى هذه الرواية.
(٢) راجع أخبار مجموعة ص ٢٨، ونفح الطيب ج ١ ص ١١٠.
(٣) وقد كتبت باللاتينية بعنوان Isidorus Pacensis Chronicon.
ونشرت ضمن المجموعة
التاريخية الكنسية الإسبانية الكبيرة المسماة Espana Sagrada تصنيف
الأب P.
Enrique
Florez.
الجزء الثامن.
ونشر دوزى منها مقتطفات في كتابه: Recherches: V.
I.
p.
٤ - ١٤

مع تعليقات.
(٤) راجع: Aschbach: ibid, I.
p.
١٤٢

(٢٠٩/١)

الإسبانية في الهضاب الشمالية، بعد أن سحقت في موقعة شريش، فقد لجأت
شراذم قليلة من القوط عقب الفتح إلى الجبال الشمالية، وامتنعت في مفاوز
جبال
أشتوريش (أستورية) ، وقامت إمارتان نصرانيتان صغيرتان في كانتابريا
وجلِّيقية.
وكانت إمارة كانتابريا التي أسسها الدوق بتروس، لوقوعها في الطرف
الغربى من جبال البرنيه في سهول نافار وبسكونية، عرضة لاقتحام الفاتحين
لها حين
سيرهم إلى فرنسا وحين عودهم منها.
ولكن إمارة جلِّيقية Galicia، كانت تقع
في أعماق جبال أشتوريش الوعرة، بعيداً عن غزوات الفاتحين، وسميت
جليقية
لأنها قامت على حدود الولاية الرومانية القديمة التي كانت تسمى بهذا الإسم.
ففى هذه الهضاب النائية المنيعة اجتمع بلايو وصحبه، وعددهم لا يتجاوز
بضع
مئات حسبما تقول الرواية، ولجأوا إلى مغار عظيم في آكام كوفادنجا، تحيط
به
وديان سحيقة خطرة، ويعرف في الرواية الإسلامية باسم (الصخرة) (١) .
ويقول لنا ابن خلدون في الفصل الذى يخصصه (لملوك الجلالقة) ، إن هذه
الإمارة الصغيرة التي كانت مهد المملكة النصرانية، لا تمت بصلة إلى القوط،

وإن ملوك الجلالقة ليسوا من القوط، لأن أمة القوط كانت قد بادت ودثرت
لعهد الفتح الإسلامى (٢) .
بيد أنه يصعب علينا أن نقبل هذا الرأى على إطلاقه، فمن المحقق أن فلول
النصارى التي لجأت إلى الشمال كانت مزيجاً من القوط والإسبان
المحليين، ولكن الظاهر مما انتهى إلينا من أقوال الروايتين المسلمة
والنصرانية، أن الزعماء ولاسيما بلاجيوس كانوا من القوط، وأن ملوك الجلالقة
يمتون إلى
القوط بأكبر الصلات.
ولم يعن المسلمون لأول عهد الفتح بأمر هذه الشراذم الممزقة عناية كافية.
وكان فاتحا الأندلس موسى وطارق، قد قاد كل منهما حملة إلى جليقية لسحق
البقية الباقية من فلِّ القوط، ولكنهما لم يتمكنا من تحقيق غايتهما لاستدعائهما
إلى
دمشق كما أسلفنا.
وكان إغفال أمر هذه الفلول الباقية بعد ذلك من أعظم أخطاء
الفاتحين.
بيد أنه لما كثرت ثورات النصارى في الشمال، وبالأخص في بسكونية
(أو بلاد البشكنس) ، اهتم ولاة الأندلس بقمعها وتأمين الولايات الشمالية،

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧.
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩، وهو يعارض هنا رأي ابن حيان في أن
المملكة النصرانية
يرجع أصلها إلى القوط.



وسير الحرُّ بن عبد الرحمن الثقفى والى الأندلس في سنة ٩٨ هـ (٧١٨ م)
جيشاً

الى الشمال لإخضاع النصارى، فاجتاح المسلمون بلاد البشكنس وهضاب
أشتوريش، وأوفدوا حليفهم الأسقف أوباس وهو أخو الملك وتيزا إلى بلايو
ليقنعه بالتسليم وعبث المقاومة، فأبى بلايو ولجأ إلى كهوفه المنيعة في
صخرة
كوفادنجا، ونفذ المسلمون إلى أعماق الجبال وحاولوا عبثا أن يستولوا على
مراكز
العدو، وحالت بينهم وبينه الوديان السحيقة والآكام الرفيعة، وحوصر بلايو
وأصحابه في " الصخرة " مدى حين، وقطعت عنهم المؤن، وتساقطوا تباعا
من
الجوع، حتى لم يبق منهم على قول الرواية سوى ثلاثين رجلا وعشر نساء
(١) .
وتزعم بعض الروايات النصرانية أن بلايو كر على المسلمين، وأنهم هزموا
هزيمة
شديدة وفقدوا ألوفا كثيرة، ووقع أوباس في أيدى مواطنيه فعاقبوه على خيانته
بالموت (٢) .
وقد أتيح لنا أن نزور هذه المنطقة الوعرة – منطقة كوفادنجا – وأن نشهد
الصخرة المنيعة، التي تقول الرواية إن بلايو وأصحابه امتنعوا في مغارها،
والتي
تثوى في جانب منها إلى اليوم رفات بلايو.
والحق أننا شهدنا من الوادي الذى
تشرف عليه الصخرة، والذى يقال إن المسلمين رابطوا فيه لمحاصرة
النصارى، أروع منظر يمكن تصوره من الصخور الوعرة، والآكام الرفيعة
المدببة، وأدركنا
كيف عجز المسلمون عن اقتحام مثل هذا المعقل المنيع.
ولما رأى المسلمون وعورة الهضاب وقسوة الطبيعة، ارتدوا عن جلّيقية
محتقرين شأن هذه الشرذمة الممزقة الجائعة.

فقويت لذلك نفس بلايو وأصحابه، وانضم إليهم كثير من النصارى في
كانتابريا وسهول جليقية، واختاروه ملكا
عليهم لما رأوا من بسالته وبراعته وقوة عزمه، وألفى بلايو الفرصة سانحة
لتوطيد
سلطانه وتوسيع أملاكه، فأخذ يغير على الأراضي الإسلامية الشمالية، وبدا
لحكومة الأندلس خطر هذه العصابات الجبلية التي أخذت تنتظم إلى قوة
يخشى
بأسها.
ولكن اضطراب الشئون الداخلية حال مدى حين دون مطاردتها وغزوها.
وفى سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) في عهد أمير الأندلس الهيثم بن عبيد، بعث
حاكم ولاية البرنيه وهو يومئذ الزعيم المسلم الذى تعرفه الرواية النصرانية باسم

---

(١) أخبار مجموعة ص ٢٨؛ وكذلك Dozy: Hist , II.
p.
١٢٩
(٢) Cardonne: ibid , I.
p.
١٠٩، Aschbach: ibid;I.
p.
١٤٥

*(٢١١/١)*

منوسة أو مونس - جيشا إلى جبال أشتوريش لغزو جليقية وسحق أميرها
بلايو.
ولكن بلايو استطاع أن يصمد للمسلمين كرة أخرى، وأن يهزمهم
هزيمة شنيعة.

ولما رأى بلايو منعة معقله وقوة عصبته، اخترق بسكونية وهاجم
قوات المسلمين في الوقت الذى كانت تتأهب فيه للسير إليه، ومزق بعض
وحداتها، ثم ارتد إلى هضابه فاستعصم بها.
ولما اضطربت شؤون الأندلس
بعد مقتل أميرها عبد الرحمن الغافقى وارتداد جيشه في بلاط الشهداء (١١٤هـ
–
٧٣٢ م) ، وشغل الولاة برد جيوش الفرنج، عن الأراضي الإسلامية فى
سبتمانيا، كثرت غارات العصابات الجليقية على الأراضي الإسلامية في
شمال
نهر دويرة (دورو) وفي منطقة أسترقة، وعانى المسلمون في تلك الأنحاء كثيرا
من عيث النصارى.
ولما تولى عقبة بن الحجاج حكومة الأندلس في سنة ١١٦هـ
(٧٣٤ م) ، ورأى خطر العصابات الجليقية وشدة عيثها في الأراضي
الإسلامية، سار إلى جليقية وغزاها مرة أخرى في سنة ٧٣٥ أو ٧٣٦ م
(١١٨هـ) واستولى
على بعض مواقعها، ولكن النصارى امتنعوا كعادتهم في الجبال ولم يبلغ
عقبة منهم
أمراً.
ولما اضطرمت الأندلس بالفتن ونشبت الحرب الأهلية، بين مختلف الزعماء
والقبائل، ازداد النصارى جرأة وتحرشاً بالمسلمين وعيثاً في أراضيهم، ولم
تستطع
حكومة قرطبة أن تسعفهم بالعون والمدد لاشتغالها بالشئون الداخلية.
وكانت
سلطة الحكومة المركزية ضعيفة في تلك الأنحاء النائية، وكان سكانها
ومعظمهم
من البربر، يكثرون من الخروج والثورة سخطاً على العرب، واستئثارهم بالحكم

والسيادة.
وكان النصارى من رعايا حكومة قرطبة، يدسون الدسائس ويرتكبون
شتى الخيانات، ويشجعون بذلك بلايو وعصبته على الإغارة والعيش في
أراضي
المسلمين، وكانت الإمارة النصرانية الناشئة تنمو خلال ذلك ويشتد ساعدها،
ويهرع النصارى إلى لواء بلايو من مختلف الأنحاء.
ويقول العلامة ألتاميرا: " كان كفاح بلايو وزملائه الأشراف، يرجع
إلى الرغبة في استرداد جزء من الأراضي المفقودة، ومن جهة أخرى فإن
احترام
الفاتحين لدين المغلوبين وعاداتهم، لم يجعل في البداية للمعركة لونا دينيا أو
عنصريا، بل كان مدارها من جانب الأشراف ورجال الدين، استرداد الأملاك
وشيء
من هيبة الملك " (١) .

---

(١) R.
Altamira: Historia de Espana, Vol.
I.
p.
٢٢٤

(٢١٢/١)

واستمر بلايو في حكم إمارة جليقية زهاء تسعة عشر عاماً، وتوفى سنة
٧٣٧ م.
ولكن بعض الروايات النصرانية تضع تاريخ وفاته بعد ذلك، فتقول
إنه لبث حتى ولاية عبد الرحمن بن يوسف الفهرى للأندلس (١٢٧ - ١٣٧
هـ)

(٧٤٥ – ٧٥٥ م) ، وأن الموقعة التي نشبت بين منوسة وبلايو كانت بين سنتى ٧٤٦ و ٧٥١ (١) ، وهى رواية ظاهرة الضعف، لأن منوسة قتل في سنة
١١٤ هـ (٧٣٢ م) كما قدمنا، والرواية الإسلامية واضحة دقيقة في ترتيب الوقائع والتواريخ في هذا الموطن.
وخلف بلايو ولده فافيلا، ولكنه توفى
بعد حكم لم يطل أمده سوى عامين (سنة ٧٣٩ م) .
وكان الدوق بتروس أمير
كانتابريا قد توفى في ذلك الحين أيضاً، وخلفه ولده ألفونسو دوق كانتابريا، ونمت هذه الإمارة النصرانية الصغيرة أيضا واشتد ساعدها، وقويت أواصر التحالف بينها وبين جلّيقية بتزوج أميرها ألفونسو من ابنة بلايو واسمها أرموزندة
أو هرمزندة.
فلما توفى فافيلا ولد بلايو، اختار الجلالقة ألفونسو دوق كانتابريا
ملكاً عليهم، واتحدت الإمارتان، وقامت منهما مملكة نصرانية واحدة، هى مملكة ليون النصرانية أومملكة جلّيقية في الرواية الإسلامية، وتمتد من بلاد البشكنس
شرقاً إلى شاطى المحيط غرباً، ومن خليج بسكونية شمالا إلى نهر دووة جنوباً، وتشمل مناطق شاسعة من القفر والهضاب الوعرة، وتحتجب وراء الجبال بعيدة
عن سلطان المسلمين وغزواتهم (٢) .
ويعتبر ألفونسو دوق كانتابريا، أو ألفونسو الأول الملقب بالكاثوليكى
مؤسس المملكة النصرانية الشمالية، وأصل ذلك الثبت الحافل من ملوك قشتالة (٣) ، الذين لبثوا قرونا يدفعون حدودهم إلى الجنوب تباعاً في قلب المملكة الإسلامية، ثم انتهوا بالقضاء عليها والاستيلاء على غرناطة آخر معاقلها (١٤٩٢ م) .

وحكم
ألفونسو في ظروف حسنة، فقد كانت الحرب الأهلية تمزق الأندلس، وكان
أمر الولايات الشمالية فوضى، والضعف يسود المسلمين في تلك الأنحاء،
وكان
ثمة منطقة عظيمة من القفر والخراب تفصل بين جليقية وبين الأراضي
الإسلامية، فاجتاحها ألفونسو بجموعه، وقتل من بها من المسلمين القلائل،
ودفع النصارى

---

(١) Aschbach: ibid , I.
p.
١٤٨ - ١٤٩
(٢) Aschbach: ibid , I.
p.
١٥٢ و Dozy: Hist, V.
II.
p.
١٣٠
(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩.

(٢١٣/١)

إلى الشمال.
ولما حل القحط بالأندلس (سنة ١٣٣هـ - ٧٥٠ م) واشتد عصفه
بالولايات الشمالية الغربية، جلا كثير من المسلمين عن تلك الأنحاء، واشتد
ساعد
النصارى فيها، ورفعوا لواء الثورة، وفتكوا بالمسلمين، ونادوا بألفونسو ملكا
عليهم (١) ، وانتهز ألفونسو الفرصة فغزا أَسْتُرقة واستولى عليها من يد

المسلمين، واستولى على كثير من البلاد والضياع المجاورة، وضمها لأملاكه
(١٣٦هـ -
٧٥٣ م) .
وهكذا نمت تلك المملكة النصرانية التي نشأت في ظروف كالأساطير
واتسعت حدودها، واشتد بأسها بسرعة مدهشة، ولم يأت منتصف القرن الثامن
حتى بدأت تناهض الإسلام في الأندلس وتغالبه، وتغير على معاقله
وأراضيه.
وعهد ألفونسو بإمارة كانتابريا وهى القسم الشرقى من مملكته، إلى أخيه
فرويلا (أو فرويلة) ، فكان يغير أيضا على الأراضي الإسلامية المجاورة،
ويعيث فيها قتلاً ونهباً وسبياً، ثم يعود مسرعاً إلى الجبال خشية أن يلحق به
المسلمون.
بيد أن المسلمين كانوا في شغل شاغل من الفتنة والحروب الداخلية، وكان
يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أمير الأندلس يعنى يومئذ بقمع الثورة فى
الشمال، فانتهز ألفونسو تلك الفرصة وغزا مدينة لُك (لوجو) الحصينة وهى
أقصى
معاقل المسلمين في الشمال الغربى وافتتحها سنة (١٣٧هـ - ٧٥٤ م) ،
وكان
يوسف قد انتهى من إخماد الثورة في الشمال، وأراد إنجاد المدينة المحصورة،
فجاءته
الأنباء بمقدم عبد الرحمن الأموى، فهرول إلى الجنوب وترك لُك لمصيرها.
وكان أيضا قد أرسل قبل أن يغادر الشمال قوة من جنده بقيادة الحصين بن
الدجن
وسليمان بن شهاب لإنجاد ثغر أربونة، الذى كان يحاصره الفرنج يومئذ،
ففاجأها
النصارى قبل أن تعبر البرنيه، ونشبت بين الفريقين معركة مزق فيها
المسلمون

وقتل قائدهم سليمان بن شهاب، وارتد فلهم إلى الجنوب (سنة ٧٥٦ م) (٢) .
والظاهر أن الذى هاجم المسلمين في تلك الموقعة هو فرويلا وحلفاؤه أو
رعاياه
البشكنس.
وعبر ألفونسو نهر دويرة (دورو) غير مرة، وعاث في أراضي
المسلمين مراراً، وكان يقتل كل من وقع في يده من المسلمين، ويسوق
النصارى
معه إلى الشمال.
ولبث مع أخيه فرويلا كلٌّ يعمل من جانبه على توسيع المملكة

---

(١) أخبار مجموعة ص ٦١ و٦٢.
(٢) راجع ابن الأبار في الحلة السيراء ص ٥٨؛ وكذلك Aschbach: I
ibid ; I.
p.
١٥٥
والهوامش.

(٢١٤/١)

النصرانية، حتى توفى فرويلا سنة ٧٦٤ م (١٤٦هـ) ، وتولى أخوه ألفونسو
من بعده حكم المملكة كلها، ولكنه لم يعش طويلا، وتوفى في العام التالى
(٧٦٥ م) (١)
فخلفه ابنه فرويلا الأول.
وكان عبد الرحمن الأموى يكرس كل جهوده وقواه
لقمع الثورة الخطيرة التي نظمها العلاء بن مغيث باسم الدعوة العباسية، فرأى
فرويلا الفرصة سانحة لغزو الأراضي الإسلامية (٢) فعبر نهر دويرة في
جيش ضخم

وغزا لُك وبُرتقال وشَلَمنقة وشَقُوبية وآبلة وكورة وقشتالة (٣) ، واستولى عليها من المسلمين، وعاث في تلك المنطقة سفكاً وتخريباً وضمها إلى أملاكه، فصارت جزءا من مملكة جلّيقية، حتى استعادها المسلمون بعد ذلك بنحو قرنين

في عهد الحاجب المنصور.

وتختلف الرواية الإسلامية في تعيين تاريخ هذه الغزوة

فيضعها ابن الأثير قبل ذلك بأعوام في حوادث سنة ١٤٠هـ (٧٥٨ م) ويقول إن الذى قام بها هو تدويلية (تدفيليا) ابن أذفنش (ألفونسو) ، ولكن ألفونسو توفى بعد ذلك كما رأينا (٤) ، ويضعها ابن خلدون بعد سنة ١٤٢ هـ وهى التي

يعينها تاريخا لوفاة ألفونسو، في عهد فرويلا، وقد تولى فرويلا الملك بعد وفاة أبيه حسبما تقول الرواية النصرانية في سنة ٧٦٥ م (١٤٧هـ) (٥) .

وعلى أى حال

فقد كانت هذه الغزوة أعظم فتح قام به النصارى يومئذ في الأراضي الإسلامية، بعد افتتاح الفرنج لسبتمانيا واستيلائهم على أربونة أمنع مواقع ولاية " الثغر " قبل

ذلك بأعوام قلائل.

وهنا ظهر خطر المملكة النصرانية واضحاً جلياً.

ولم يكن عبد الرحمن الأموى

بغافل عن ذلك الخطر، وكان رغم اشتغاله المتواصل بقمع الثورة والفتن الداخلية، يتحين الفرص لدرئه، ففى سنة ١٤٨ هـ (٧٦٦ م) أرسل بعض قواده إلى

---

(١) يضع ابن خلدون (ج ٤ ص ١٨٠) وفاة ألفونسو (أدفونش) في سنة ١٤٢هـ (٧٦٠م) .

(٢) ينسب أشباخ هذه الغزوة لفرويلا الكبير (ج ١ ص ١٥٦) معتمدا على

رواية ردريك
الطليطلى، ولكن الرواية الاسلامية وهى أقدم من ذلك، تجمع على أنها وقعت
بعد ذلك في عهد فرويلا
ابن ألفونسو.
(٣) تراجع الأسماء الفرنجية لهذه الأماكن في جدول الأعلام التاريخية
والجغرافية الملحق
بنهاية الكتاب.
(٤) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٦.
(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ و ١٨٠؛ وكذلك المقرى عن ابن حيان في
نفح الطيب
ج ١ ص ١٥٥.

(٢١٥/١)

الشمال على رأس قوة كبيرة، فسارت حتى حدود جليقية، واشتبكت مع
النصارى
والعصاة في عدة مواقع، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى (١) .
وفى سنة ١٥٠هـ
(٧٦٧ م) بعث عبد الرحمن جيشاً بقيادة مولاه بدر إلى ألبة والقلاع (٢) ،
وهى
المنطقة الواقعة بين بلاد البشكنس وجبال كانتابريا، على ضفاف نهر إيبرو
فى
الطرف الشرقى من مملكة جليقية، فغزاها وتوغل فيها وأرغمها على أداء
الجزية، وقبض على كثير من العصاة في تلك الأنحاء (٣) .
وتقص الرواية النصرانية علينا
بعد ذلك نبأ موقعة كبيرة وقعت بين المسلمين والنصارى في بونتومو من
أعمال

جليقية، وتقول لنا إن عبد الرحمن أرسل في سنة ٧٧٣ م (١٥٧هـ) جيشاً كبيراً
إلى الشمال بقيادة حاجبه عامر، أو تمام بن علقمة على يظهر، فلقيه النصارى
بقيادة فرويلا في بونتومو، ونشبت بين الفريقين موقعة هائلة، هزم فيها المسلمون
وقتل منهم عدد عظيم تقدره الرواية بأربعة وخمسين ألفاً وأسر قائدهم (٤) . ولم تشر
الرواية المسلمة إلى أن موقعة بهذه الخطورة نشبت بين المسلمين والنصارى، ولاسيما في هذا التاريخ، الذى كان عبد الرحمن مشتبكا فيه مع الدعى الفاطمى
في معارك تقتضى كل جهوده وموارده، والرواية النصرانية تبدى كعادتها فى هذا الموطن مبالغة تسبغ عليها كبير ريب.
وكان فرويلا طاغية شديد البطش، ولم يكن حكمه موفقاً، فقد اضطرمت فى جليقية الغربية نار ثورة كبيرة أيدها المسلمون فيما يظهر، وأخمدها فرويلا بعد جهد، ولكنه فقد كثيراً من أرضه التي افتتحها في تلك الأنحاء، وعادت إلى

---

(١) Conde: ibid , I.
p.
٢٠٧
(٢) تطلق الرواية الإسلامية اسم "ألبة والقلاع" على ولايتى قشتالة القديمة Castille وآلفا Alava
معربة عن اللاتينية القديمة Alava et Castella Vetula.
وكانت "ألبة والقلاع" تشمل في العصور
الوسطى، جميع المنطقة الواقعة بين نهر دويرة جنوبا والبحر شمالا، وبين نافار (بلاد البشكنس)

وأراجون (الثغر الأعلى) شرقا ومملكة ليون غربا؛ وألبة هى في الواقع إحدى
ولايات بلاد
البشكنس، وتمتد غربا حتى"برغش" وشمالا حتى خليج بسكونية، وجنوبا حتى
نهر إيبرو.
وأما
"القلاع" أو قشتالة Castella أو Castille فقد كانت تشمل باقى المنطقة
من برغش شمالا إلى ما بعد
نهر دويرة (الدورو) وجبال واد الرملة Guadarrama جنوبا، وحتى موقع
مدينة مدريد عاصمة
إسبانيا الحديثة.
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٦.
(٤) Aschbach: ibid ; I, p.
١٥٩ والهوامش.

(٢١٦/١)

خريطة:
المملكة الإسبانية النصرانية.

(٢١٧/١)

المسلمين، ونشبت ضده في نافار في الشرق ثورة أخرى، فأخمدها بشدة،
واجتاح نافار وأخضعها، وكان من أسراه في تلك المعارك فتاة حسناء من
أسرة
كريمة تدعى مونيا فأحبها وتزوجها، ورزق منها بولده ألفونسو، الذى تولى
العرش فيما بعد، وكان مسرفاً في الانتقام والسفك، قتل كثيرا من أفراد أسرته
وقتل أخاه بيده، وكان الشعب يبغضه ويلتف حول " أورليوس " ابن عم
فرويلا.

وأنشأ فرويلا مدينة أوبييدو التي غدت فيما بعد حاضرة جليقية، ولكنه لم يتخذها قاعدة للحكم، ولبث في مدينة كانجاس حاضرتها الأولى، حتى هلك

قتيلا في ثورة جديدة نشبت سنة ٧٧٥ م (١) .

ولما توفى فُرُويلا كان ولده من مونيا ألفونسو طفلا، فافترقت كلمة الشعب، وانحازت منه أغلبية كبيرة إلى أورليوس أو أورالى (٢) ولد فرويلا أخى ألفونسو الأول واختارته للملك، ولكنه لم يحكم إلا في الولايات الشرقية في نافار وبسكونية، حيث كان يحكم أبوه من قبل، وانحازت جليقية الغربية إلى سيلو أو شيلون (٣) زوج أروزندا إبنة ألفونسو الأول، وانقسمت المملكة بذلك إلى إمارتين.

ولكنهما تهادنتا ولم تقع بينهما حرب ولا منافسة.

وفى سنة

٧٧٨ م غزا شارلمان بلاد البشكنس في طريقه إلى سرقسطة حسبما قدمنا، فاضطر

أورليوس أن يسعى إلى محالفة المسلمين.

ولم تقع في ذلك الحين فيما يظهر حروب

بين المسلمين ومملكة جليقية، لاشتغال كل منهما بشئونه الخاصة.

وتوفى أورليوس

سنة ٧٨١ م، فاختار البشكنس مكانه سيلو لأن ألفونسو ولد فرويلا كان لا يزال

طفلا، واتحدت المملكة مرة أخرى.

ولبث سيلو ملكاً على جليقية المتحدة ثلاثة

أعوام أخرى، وفي عهده عقد الصلح بين المسلمين والنصارى.

ولكن نشبت

بعض ثورات محلية في جليقية نجح في إخمادها، وتوفى بعدئذ بقليل سنة ٧٨٤ م (٤) .

وتوفى سيلو دون عقب، ولكنه أوصى بالملك لألفونسو ولد فرويلا الطفل

---

(١) يضع ابن خلدون وفاة فرويلا في سنة ١٥٨ (٧٧٥ م) متفقا بذلك مع الرواية النصرانية
(ج ٤ ص ١٨٠) .
(٢) هكذا تسميه الرواية العربية وهى تعتبره ملكا لجليقية كلها (راجع ابن الأثير ج ٦ ص ١٢) .
(٣) وهو اسمه في الرواية العربية.
ويعتبره ابن خلدون خطأ ولد فرويلا الكبير
(ج ٤ ص ١٨٠) .
(٤) يضع ابن خلدون وفاة سيلو أو شيلون سنة ١٦٨هـ (٧٨٤ م) متفقا أيضامع الرواية
النصرانية (ج ٤ ص ١٨٠) .
وكذا ابن الأثير (ج ٦ ص ٢٢) .

*(٢١٨/١)*

وبالوصاية عليه لزوجه أروزندا.
ولكن الأشراف لم يرضوا عن حكم طفل
وامرأة، وانضم إليهم فريق من الشعب، ولم تلبث جلّيقية أن اضطرمت بثورة قوية على رأسها زعيم يدعى مورجات - وفي الرواية العربية مورقاط - وهو ولد غير شرعى لألفونسو الأول من جارية عربية، فاستولى على جليقية الغربية، وانضم إليه كثير من الأشراف والزعماء الذين اشتركوا في محاربة فرويلا
خشية أن يستقر الملك لابنه فيبطش بهم فيما بعد، ففر ألفونسو إلى ألبة حيث عصبة أمه وعشيرتها، وقد كانت بسكونية حسبما تقدم.
ورأى مورجات أن

يوطد مركزه وسلطانه بالتحالف مع المسلمين، وتحالف حزب ألفونسو مع الفرنج أعداء المسلمين، واتخذ مورجات قاعدة حكمه في مدينة برافيا في قاصية
جليقية.
وكان رجال الدين ومن إليهم من النصارى والمتعصبين.
يبغضونه ويثيرون
الشعب عليه، لأنه بالغ في التودد إلى المسلمين والتقرب إليهم، ولأنه يمت إليهم
بصلة الدم بواسطة أمه العربية.
ولكنه استطاع مع ذلك أن يحكم مملكته الصغيرة
حتى وفاته في سنة ٧٨٩ م (١) .
وتشير الرواية العربية إلى طرف من هذه الحوادث، وتقول لنا إن مورقاط (مورجات) وثب على أذفنش (ألفونسو) فقتله، ولكن ألفونسو لم يقتل كما قدمنا.
وسنرى أنه يتولى الملك ويخوض مع المسلمين في الأعوام التالية كثيراً من الوقائع.
وتقول الرواية العربية أيضاً، إن المسلمين انتهزوا فرصة الاضطراب الذى وقع
في جليقية، من جراء هذه الحوادث، فسار إليها وإلى طليطلة وغزاها وأثخن فيها (٢) ، وهذا ما لا تشير إليه الرواية النصرانية.
والظاهر أن المسلمين أغاروا
على ألبة والقلاع، لأنهم كانوا على وئام وتحالف مع مورقاط أمير جليقية.
ووقعت هذه الغزوة حسبما تشير الرواية العربية حوالى سنة ١٦٩هـ (٧٨٦ م) أى في أواخر عهد عبد الرحمن الداخل.
وكان طبيعياً بعد أن توفى مورجات عميد الثورة ومغتصب الملك، أن يعود العرش إلى صاحبه الشرعى، أعنى ألفونسو ولد فرويلا.

ولكن الأشراف لبثوا

---

(١) Aschbach: ibid , I.
p.
١٦٥ - ١٦٦

(٢) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٨٠، ويسمى
مورقاط
هنا بسمول قاط وهو تحريف أو خطأ مطبعى على ما يظهر.

(١/٢١٩)

فى توجسهم من نقمة ألفونسو، واختاروا للملك برمند (أو برمودو) ، وهو ولد
لفرويلا وأخ لأروليوس، الذى تولى إمارة البشكنس من قبل.
وكان قد هجر
الحياة الدنيا إلى عزلة الدير، فتولى الملك على غضاضة منه، ولكنه لم يحكم
على
ما يظهر إلا في غربى جليقية، حيثما كان يسود نفوذ مورجات، ولبث ألفونسو
أميرا على الأنحاء الشرقية.
وفى ذلك الحين كان أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن
يتأهب لغزو الشمال، فخشى برمند خطر الإنقسام على مستقبل المملكة، وعقد
الصلح مع ألفونسو وولاه قيادة الجيش، ولم تمض ثلاثة أعوام حتى ضاق
ذرعا
بمهام الملك فتنازل عن العرش مختاراً لألفونسو، وارتد إلى حياة الدير
والعزلة، وتولى ألفونسو الملك في أواخر سنة ٧٩١ م (١٧٥هـ) (١) باسم
ألفونسو الثاني.
وبذلك عادت المملكة النصرانية إلى اتحادها مرة أخرى.
وفى أواخر عهد ألفونسو الثاني، الملقب " بالعفيف " el Casto، وقع

حدث دينى كان له فيما بعد أثر عميق في توجيه مصاير المملكة النصرانية، هو اكتشاف قبر القديس ياقب، وهو القديس يعقوب أو يعقوب الحوارى.
وتذكر الأسطورة أنه لما قتل بأمر هيرود الثاني ملك بيت المقدس، حمل تلاميذه
جثته في مركب جاز به البحر المتوسط إلى المحيط، ثم حملتهم الرياح شمالا حتى
انتهوا إلى موضع في قاصية جليقية، ودفنوا جثمان القديس في سفح تلال هنالك.
ومضت العصور، وغاض القبر ولم يعلم مكانه، حتى كانت سنة ٨٣٥ م، حيث
زعم القس تيودمير أسقف إيريا أنه اكتشف القبر، هداه إليه ضوء نجم، وحمل النبأ في الحال إلى الملك، فأمر أن يبنى فوق هذه البقعة كنيسة، وذاعت الأسطورة في جميع الأنحاء، وصدقها المؤمنون دون تردد، وهرعوا يحجون إلى
البقعة المقدسة، وقامت حول المزار المزعوم مدينة نمت بسرعة، وغدت مدينة شنت ياقب Santiago de Compostela المقدسة، وأنشئت فيما بعد فوق القبر
مكان الكنيسة الساذجة كنيسة جامعة (كتدرائية) ، غدت من أعظم كنائس اسبانيا ضخامة وروعة وفخامة.
وكان لقيام هذه المدينة المقدسة أثر كبير
في إذكاء الحماسة الدينية والعاطفية القومية في إسبانيا، وغدا القديس ياقب

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٠، وهو يتفق هنا مع الرواية النصرانية في الوقائع والتواريخ
وراجع أيضا Aschbach: I.

.p

١٩٢ - ١٨٨

*(٢٢٠/١)*

" حامى " اسبانيا كلها، وغدا قبره من أشهر المزارات النصرانية في أوربا.

وينوه الأستاذ ألتاميرا بأهمية هذا الحدث الدينى، وأثره في حضارة هذه

المنطقة من اسبانيا، فيقول: " وقد بعث هذا الاكتشاف في النصارى أيما

سرور، وانتظمت وفود عظيمة، جاءت لتحج إلى القبر، لا من الأراضي

الإسبانية

وحدها، ولكن من الخارج أيضاً، وهكذا بدأ تيار من الزيارات والمؤثرات

الأوربية في جليقية، وكان لها أعظم تأثير في العادات والآداب " (١) .

وقد أتيح لنا أن نزور مدينة شنت ياقب، وهى من أعجب وأجمل المدن

الإسبانية، ذات طابع خاص بها، وهى أشد المدن الإسبانية احتفاظا بهذا

الطابع

الخاص.

وطابعها القدم المشبع بالجلال والوقار، وهى تبدو بشوارعها المعقودة،

وميادينها التي تغص بالصروح التاريخية، مدينة قديمة عريقة حقا.

وأروع

ما تقع عليه العين كنيستها العظمى، التي تقوم في وسطها وتبدو بواجهاتها

الفخمة

وصرحها الشامخ، وبرجها العظيم، أثراً من أعظم الآثار الدينية.

وقد نشأت هذه المملكة النصرانية الشمالية، مستقلة في ظروفها وفي

خواصها، ولبثت آمادا طويلة بعيدة عن الإتصال بالأمم النصرانية الأخرى،

ولم تنشأ

بينها وبين جيرانها المسلمين علائق سياسية أو اجتماعية قوية تؤثر في

نظمها وخواصها، فاستمرت تحتجب بوعر الجبال وعباب المحيط، تسود فيها

القديمة ونظمها، واستمر الجلالقة دهرا ينتسبون إلى القوط، ويسمون أنفسهم قوطا، وتسير حكوماتهم على سنن السياسة القوطية ونظمها، فالعرش مطلق يقبض على زمام السلطتين التشريعية والتنفيذية، ولا يستطيع الأشراف الحد من
سلطانه إلا بالثورة، أو باستعمال حقهم في الانتخاب، واستمرت خواص المجتمع
القديم كما كانت أيام القوط: أقلية غنية قوية تستأثر بنعم الثروة والجاه، وأكثرية
فقيرة مستعبدة ترزخ تحت جور العرش، واستغلال الأشراف والسادة، بيد أن هذه الأكثرية استطاعت أن تشق طريقها إلى الحرية، حينما اشتدت معركة الحياة
والموت بين الإسلام والنصرانية في اسبانيا، واضطرت المملكة أن تلجأ إلى الأكثرية للذود عن حدودها وحياتها، وانقلب الرقيق القديم جنداً يثور ضد

---

(١) R.
Altamira: Hist.
de Espana; Vol.
I.
p.
٢٣٩
وتعرف الرواية الإسلامية هذه الأسطورة وتشير إليها.
راجع الروض المعطار (صفة جزيرة
الأندلس) ص ١١٥.

سادته، ويرغمهم على احترامه ومصانعته.
هكذا نشأت المملكة النصرانية
الشمالية، ونمت واتسعت حدودها فيما بين الجبال والقفر، حتى أصبحت تمتد من بلاد البشكنس شرقاً إلى المحيط غرباً، ومن المحيط شمالاً إلى ما بعد
ضفاف
نهر دويرة جنوباً، وتشمل عدة مناطق وقواعد، كانت قبل ذلك بفترة يسيرة فى قبضة الإسلام.
وهنا نقف في تتبع أخبار المملكة النصرانية عند هذا الحد، لنستأنفه فى مواطنه فيما سيأتى.

(٢٢٢/١)

الفصل الثامن
هشام بن عبد الرحمن والحكم بن هشام
(١) ولاية العهد.
هشام يخلف أباه عبد الرحمن.
خلاله.
خروج أخويه سليمان وعبد الله.
خضوع
عبد الله.
مطاردة سليمان وعبوره إلى المغرب.
الثورة في الشمال.
إخمادها.
عدوان النصارى.
غزو
جليقية وهزيمة النصارى.
غزو المسلمين الثغر الفرنجى.

المسلمة.

تحرشهم بالمملكة الإسلامية.

موقف الخلافة العباسية من هذه السياسة.

اتحاد الغاية بينها وبين

الفرنج.

إنتهاز الفرنج لاضطراب الحوادث الداخلية.

غزوهم للثغر الأعلى ومحاصرتهم لبرشلونة.

دفاع المسلمين الباسل عنها.

سقوطها في أيدى الفرنج.

إنشاء الفرنج للثغر القوطى.

ائتمار الفقهاء

والأعيان بالحكم.

اكتشاف المؤامرة وسحقها.

الثورة في ماردة.

الثورة في طليطلة.

تعيين عمروس

ابن يوسف حاكما لها.

واقعة الحفرة.

حصار الفرنج لطرطوشة.

تحرك نصارى الشمال.

عيثهم فى

أراضي المسلمين.

مسير الحكم لمحاربتهم.

غزو المسلمين لقطلونية.

عقد الهدنة بين الحكم وشارلمان.

بواعث هذا الصلح.

الثورات المحلية.
القحط في الأندلس.
غزو المسلمين لجليقية.
سخط أهل
قرطبة على الحكم.
تحريض الفقهاء.
تحرك العامة وزحفهم على القصر.
واقعة الربض.
إخماد الثورة
وتمزيق الثوار.
معاقبة أهل الربض ونفيهم.
مسير الأندلسيين إلى الإسكندرية وافتتاحهم لإقريطش.
بلاغ الحكم عن الثورة وشعره فيها.
تحوطاته بعد إخمادها.
مرض الحكم ووفاته.
وصيته لولده
عبد الرحمن.
أخلاق الحكم وصفاته.
توطيده لهيبة الملك.
إصطفاؤه للصقالبة.
أبهته وفخامته.
شعره.
رجال دولته.
الحاجب عبد الكريم.
قومس أهل الذمة.
ازدهار العلوم والآداب.

عباس بن فرناس
ويحيى الغزال.
- ١ -
خلف عبد الرحمن الداخل ولدُه هشام بعهد منه، ولم يكن أكبر ولده، بل كان أكبرهم سليمان والى طليطلة، ولم يك يومئذ ثمة نظام خاص لولاية العهد،
بل كانت ولاية العهد كما هو مأثور، حقا مفوضا للأمير أو الإمام، يجريه وفقا

(٢٢٣/١)

للمصلحة العامة (١) ، ولم يكن انحصاره في ولد الأمير أو أسرته، سوى تقليد
من تقاليد السياسة والعصبية، سارت عليه الدولة الأموية، فوضعت بذلك فى الدول الإسلامية أسس الأسر الملوكية، والعروش المتوارثة.
وكان من الطبيعى
بعد أن ظفر عبد الرحمن الأموى، بإحياء تراث أسرته المندثر في المشرق، أن
يصل ما انقطع، وأن تقوم من هذا الفرع الأموى، أسرة ملوكية جديدة تتعاقب في العرش، وتعيد بالأندلس مجد الدولة الأموية الذاهب.
وهكذا اختار عبد الرحمن لولاية العهد من بين بنيه الأحد عشر، ولده هشاماً، وآثره بهذا الاختيار لما توسمه فيه من المزايا والمواهب الخاصة. وكان
مولده بقرطبة في سنة ١٣٩ هـ - ٧٥٦ م (٢) .
وكانت أمه - وهى " أم ولد " (٣)
بارعة في الحسن تدعى"حلل" (٤) - أحب نساء عبد الرحمن إليه، وأكثرهم نفوذا

لديه، وكان هشام حينما توفى أبوه مقيما بماردة مقر ولايته، فأخذ البيعة له أخوه
عبد الله المعروف بالبلنسى، ولكن على غضاضة منه، لأنه مثل أخيه
سليمان، كان يرى نفسه أحق بولاية العهد من أخيه الأصغر.
ودخل هشام قرطبة لأيام
قلائل من وفاة أبيه، وبويع في مستهل جمادى الأولى سنة ١٧٢هـ (٧٨٨ م)
، وكان حينما ولى العرش في الثالثة والثلاثين من عمره، بيد أنه كان عاقلا حازما
وافر الشجاعة والعزم، كثير العدل والتقوى، جم التواضع والرفق.
وتشيد الرواية
الإسلامية بجميل خلاله، وتنوه بالأخص بورعه، وتواضعه، وحبه للخير،
فيقول لنا ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد إنه " كان أحسن الناس وجهاً،
وأشرفهم نفسا، الكامل المروءة، الحاكم بالكتاب والسنة، الذى أخذ الزكاة
على حلها، ووضعها في حقها، لم يعرف عنه هفوة في حداثته، ولا زلة في أيام
صباه ".
وقيل بلغ من تواضعه أن كان يطوف شوارع قرطبة مختلطاً بالرعية يسمع
المظالم بنفسه، ويعود المرضى، ويشهد الجنائز، وربما كان يخرج في الليالى
المظلمة الممطرة، فيلقى بصرر المال في المساجد لمن وجد فيها بغية
تعميرها بالمصلين،

---

(١) يعقد ابن خلدون في مقدمته، فصلا عن ولاية العهد في الأمة الإسلامية، (ص ١٧٥
وما بعدها) .
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٢؛ وابن الأبار في الحلة السيراء ص ٣٧.
(٣) هى الجارية إذا رزقت من سيدها بولد، وعندئذ لا يجوز بيعها ولا هبتها.

(٤) وفي رواية " حوراء ".
وفى رواية أخرى " جمال ".

(٢٢٤/١)

ويسعى إلى غوث البائس والمسكين بمختلف الوسائل (١) .
وكان يذهب مذهب
عمر بن عبد العزيز، في تحرى الحق والعدالة، فكان يبعث إلى الكور بقوم
من
ثقاته، للتحرى عن مسلك العمال وسيرهم بين الرعية، فإذا انتهى إليه حيف
من
أحدهم أسقطه واشتد في عقابه (٢) .
وكانت ولاية هشام نذير فوره جديدة من الثورات المحلية.
ذلك أن سليمان
أكبر أخوته لم يقر إمارته، ودعا لنفسه في طليطلة وما جاورها، وكذلك أخوه
عبد الله البلنسى لم يخلد إلى الرضى، بالرغم مما بذله هشام لاسترضائه، ولم
يلبث
أن لحق بأخيه سليمان في طليطلة، وتحالفا على العصيان والثورة، وسار
سليمان
خفية إلى قرطبة ليحاول إضرام الثورة ضد أخيه، فلم يظفر بشىء، وطارده
الجند، ففر إلى ماردة وحاول أن يعتصم بها، ولكن رده عاملها.
وكان هشام قد
بعث جيشا لحصار طليطلة وإخضاعها، ففر سليمان إلى جبال بلنسية، ولجأ
إلى
بعض ثغور تدمير.
ولما رأى عبد الله البلنسى ما حل بأخيه من الفشل والهزيمة، خشى عاقبة
الخروج، وارتد إلى قرطبة يلتمس الصفح من أخيه، فعفا عنه هشام

وأكرم مثواه، وبعث جيشا بقيادة ولده معاوية لمطاردة سليمان وصحبه، فتوغل في أنحاء تدمير (مرسية) واضطر سليمان إلى طلب الأمان والعفو، فأجابه هشام
إلى طلبه، على أن يعبر بأهله وولده إلى المغرب، وأعطاه ستين ألف دينار صلحا
على تركة أبيه.
وسار معه أخوه عبد الله، وأقاما بعدوة المغرب، وانتهت بذلك
ثورة الأخوين (سنة ١٧٤ هـ - ٧٩٠ م) (٣) .
واعتقد ثوار الشمال في نفس الوقت أن الفرصة قد سنحت بوفاة عبد الرحمن
لإضرام نار الثورة كرة أخرى، فخرج بطرطوشة سعيد بن الحسين الأنصارى،
وكان قد التجأ إليها منذ مصرع أبيه، والتف حوله اليمنية، وأخرج عاملها من قبل
هشام، يوسف العبسى، فعارضه موسى بن فرقوق في المضرية ودعا لهشام (٤) ،

---

(١) راجع في التنويه بخلال هشام وصفاته، أخبار مجموعة ص ١٢٠ و ١٢١؛ وابن الأثير
ج ٦ ص ٣٧؛ والعقد الفريد (مصر سنة ١٩٢٨) ج ٣ ص ٢٠٢؛ والمعجب لعبد الواحد
المراكشى ص ١٠.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٧، وأخبار مجموعة ص ١٢٧.
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٤ و٦٥.
٤١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤.

وخرج أيضا مطروح بن سليمان بن يقظان بثغر برشلونة، والتفت حوله جموع كبيرة، واستولى على سرقسطة ووشقة، وقوى أمره، وبسط سلطانه على الولاية كلها، فسير إليه هشام جيشا كبيرا بقيادة عبيد الله بن عثمان، فسار إلى
طرطوشة وانتزعها من يد الثوار، وحاصر سرقسطة وفيها مطروح وصحبه، وضيق عليها الخناق حتى ضاق أهلها ذرعا بالحصار، وفي ذات يوم اغتال مطروحا
بعض أصحابه واحتزوا رأسه، وقدموها إلى ابن عثمان، فبعث بها إلى هشام، ودخل سرقسطة ظافراً (سنة ١٧٥ هـ) (١) ، وقضى بذلك على الثورة في تلك الأنحاء.

وكان نصارى الشمال، منذ اشتد ساعدهم، يكثرون من الإغارة على البلاد الإسلامية والعيث فيها، ويشتد هذا العيث والعدوان كلما اضطرمت الأندلس بالفتن الداخلية، وشغلت حكومة قرطبة عن حماية الأطراف النائية.
وكان
الفرنج جرياً على سياستهم المأثورة، يشجعون النصارى من البشكنس والجلالقة
على مواصلة التحرش بالمملكة الإسلامية، وكان هشام كأبيه يقدر خطورة هذه
الدسائس الفرنجية، وتحدوه من جهة أخرى نزعة قوية إلى الجهاد والغزو، فما كاد ينتهي من القضاء على الثورة الداخلية، حتى سير إلى الشمال جيشاً قويا من أربعين ألف مقاتل بقيادة عبيد الله بن عثمان، فاخترق ألبة والقلاع (قشتالة
القديمة) ، واجتاح جليقية، وهزم الجلالقة بقيادة ملكهم برمودو (أو برمند) وحلفاءهم البشكنس، ومزق جموعهم (سنة ١٧٥هـ - ٧٩١ م) ، وعاد إلى قرطبة
مثقلا بالغنائم والسبى.

ولم يمض قليل على ذلك حتى سارت إلى جليقية حملة
أخرى بقيادة يوسف بن بخت، وهزم برمودو مرة أخرى، وقتلت جموع كبيرة من النصارى، وعلى أثر ذلك تنازل برمودو عن العرش لألفونسو الثاني ولد فرويلا، وأمير جليقية الشرقية، ولجأ إلى عزلة الدير.
وفى العام التالى أعنى في سنة ١٧٦هـ (٧٩٢ م) تأهب هشام لمحاربة الفرنج، واستئناف عهد الجهاد والغزو، فسير إلى الشمال جيشاً كثيفاً.
بقيادة حاجبه
عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث (٢) .
فعبر البرنيه من ناحية قطلونية، واستولى

---

(١) العذرى في كتاب " ترصيع الأخبار " (ص ٢٦ و ٢٩) .
(٢) وهو حفيد مغيث الرومى فاتح قرطبة.

*(٢٢٦/١)*

أثناء سيره على مدينة جيرونة (جرندة) الحصينة في قاصية شمال شرقى إسبانيا، وكان الفرنج قد استولوا عليها منذ سنة ٧٨٥ م من يد مطروح بن سليمان.
وكان
حكام هذه الأنحاء التي لبثت تضطرم بالثورة على حكومة قرطبة، منذ غزوة شارلمان الأولى لإسبانيا، قد استقلوا بما في أيديهم من المدن، وجنحوا إلى محالفة
الفرنج جيرانهم من الشمال، والتماس حمايتهم.
ومن ذلك أن أبا ثور صاحب
مدينة وشقة، الذى سبق ذكره في حوادث باب الشزرى، بعث رسله إلى تولوشة
عاصمة أكوتين يطلب التحالف من ملكها الدوق لويس ابن شارلمان (٧٩٠

م) (١) .
واستولى الحاجب عبد الملك بعد ذلك على عدد آخر من المعاقل والحصون، ثم نفذ
إلى سبتمانيا، وزحف على أربونة قاعدة الثغر الإسلامى القديم.
وتقول الرواية
الإسلامية إن المسلمين افتتحوا خلال تلك الغزوة أربونة (٢) ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة لا تذكر شيئاً عن ذلك الفتح، وتذكر أن المسلمين ارتدوا عن
أربونة لمناعتها إلى قرقشونة.
وكان شارلمان (أو كارل الأكبر) ملك الفرنج يشتغل
يومئذ بمحاربة خصومه السكسونيين بعيدا عن فرنسا، فتأهب ولده لويس أمير أكوتين لصد العرب، وأوفد لمحاربتهم جيشا بقيادة جيوم كونت دى تولوز، فالتقى الفريقان في مكان يسمى "فيل دنى " على ضفاف نهر أوربينا بين أربونة
وقرقشونة، ونشبت بينهما موقعة غير حاسمة، ارتد المسلمون على أثرها إلى الجنوب مثقلين بالغنائم والسبى، وقدرت أخماس السبى وحدها بخمسة وأربعين ألفاً من الذهب، وأرغم الأسرى النصارى على حمل أو جر أحمال من الأحجار
والتراب من سور أربونة حتى قرطبة، وأمر هشام أن يُبنى منها جناح جديد للمسجد الجامع تخليداً لتلك الغزوة الشهيرة.
وكانت منطقة رندة، المعروفة بإقليم " تاكرنّا "، أو " تاكرنى " (٣) ، وفيها يحتشد البربر، مهد الفتن والقلاقل المتوالية.
ففى سنة ١٧٨ هـ (٧٩٤ م) أثار
البربر هنالك ضرام الفتنة مرة أخرى، وخلعوا الطاعة وعاثوا في تلك الأنحاء، فسير إليهم هشام حملة بقيادة عبد القادر بن أبان بن عبد الله، فأخمد الثورة دون

رأفة، وأباد جموع البربر، وخرب بلادهم وضياعهم، وفرقهم في الأنحاء

---

(١) راجع R.

M.

Pidal: ibid, p.

٢٠٣

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٥؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٤، ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٨.

(٣) راجع معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٥٣.

*(٢٢٧/١)*

والقبائل تمزيقا لعصبتهم، وبقيت هذه المنطقة عدة أعوام قفرا خرابا.

وفى ربيع سنة ١٧٩ هـ (٧٩٥ م) سير هشام إلى جليقية حملة أخرى بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، أخى الحاجب، فاخترق المسلمون مفاوز جليقية حتى أستُرقة، ففر السكان النصارى إلى رؤوس الجبال، وتأهب ألفونسو ملك جليقية للقاء المسلمين، على رأس جيش من الجلالقة وحلفائهم البشكنس، ونشب القتال بين الفريقين في قاصية جليقية، في المكان المعروف بالصخرة، وانتصر الجلالقة في البداية في بعض الوقائع المحلية، وقتل جماعة من

المسلمين في كمين دبر لهم، ولكن النصارى هزموا في النهاية، وعاث المسلمون فى

جليقية، وأصابوا كثيراً من الغنائم، ثم ارتدوا إلى الجنوب بعد أن مزقت قوى الجلالقة وسكنوا إلى حين، وساد الأمن في الولايات الشمالية (١) .

وكانت هذه آخر غزوة سيرها هشام، إذ توفى عقب ذلك بقليل في الثالث من صفر سنة ١٨٠ هـ (١٨ إبريل سنة ٧٩٦ م) في نحو الأربعين من عمره، بعد أن حكم نحو ثمانية أعوام.

وكان أبيض، أشهل، مشرباً بالحمرة، وبعينيه
حول، وكنيته أبو الوليد ويلقب بالرضا (٢) .
وفى عهده ساد الأمن والاستقرار
ربوع الأندلس بالرغم مما وقع خلاله من الثورات المحلية.
وكان هشام إلى جانب
رفقه وتواضعه، حازماً، صارماً في الحق، حريصا على توطيد النظام
والعدالة، فلم يتردد في القبض على ابنه الأكبر عبد الملك وزجه إلى السجن
لما ثبت لديه من
ائتماره به، فبقى في سجنه أعواماً طويلة حتى توفى بعد وفاة أبيه (٣) .
وكان فوق
شغفه بالجهاد والغزو، محباً للإصلاح والإنشاء، فعنى بإتمام مسجد قرطبة
الجامع
الذى بدأ بإنشائه أبوه وتوفى قبل إتمامه، وأنشأ عدة مساجد أخرى، وزين
قرطبة بكثير من الأبنية والحدائق الفخمة، وجدد قنطرة قرطبة الشهيرة التي
بناها السمح بن مالك على النهر الكبير، وأنفق في تجديدها أموالا عظيمة،
وكان

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٦، وابن الأبار في الحلة السيراء ص ٧٢,
ويقول ابن الأثير
إن الذى قاد هذه الحملة هو عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث (ج ٦ ص
٤٨) .
وراجع ابن
خلدون ج ٤ ص ١٢٥,
(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٦، وابن الأبار ص ٣٧، والبيان المغرب ج ٢
ص ٦٢.
(٣) ابن الأثير ج ٦ ص ٤١.

يشرف على إصلاحها بنفسه (١) ، وعلى الجملة فقد كان عهده زاهراً، وافر الأمن
والرخاء.
وكان هشام شديد الورع والتقوى، وكان شغفه بالجهاد وإعلاءكلمة الدين
من أخص مظاهر تقواه، وكان ينفق الأموال الطائلة في افتداء أسرى
المسلمين، حتى لم يبق في عهده منهم في قبضة العدو أحد، ويرتب في
ديوانه أرزاقا لأسر
الجند المتوفين في الجهاد (٢) .
وفى عصره اتخذت السياسة الأموية إجراء يشهد
ببعد نظرها، إذ جعلت العربية لغة التدريس في معاهد النصارى واليهود. وكان
لذلك الإجراء بالرغم من بساطته، أثر عميق في التقريب بين أصحاب
المذاهب المختلفة، وفى بث روح التفاهم والوئام بينها، ولاسيما بين المسلمين والنصارى، وكان من
أثره أيضاً أن كثر اعتناق النصارى للإسلام بعد أن وقفوا على أصوله
وتفاصيله، وقربت مسافة الخلاف بينهم وبين الفاتحين، ولم يكن ذلك بعيداً في الواقع عن غاية
السياسة الأموية (٣) .
وكان هشام يؤثر مجالس العلم والأدب ولاسيما الحديث والفقه على غيرها.
وفى عصره ذاع مذهب مالك (٤) .
وكان الإمام مالك، وهو معاصر لهشام، يعجب بسيرته وخلاله، ويشيد بعدله وتقواه، وكانت تجمع بين الرجلين
على بعد المزار عاطفة مشتركة هى بغض بني العباس، وكان قد رحل إلى
المشرق عدة من فقهاء الأندلس، منذ أيام عبد الرحمن الداخل، وفي مقدمتهم

زياد بن عبد الرحمن، وعيسى بن دينار، وسعيد بن أبي هند، ويحيى بن
يحيى الليثى، فدرسوا على مالك بالمدينة، واستقوا من علمه واجتهاده، ونقلوا
عنه كتابه
" الموطأ "، وذاع مذهب مالك على يدهم في الأندلس في عصر هشام.
وكان
هشام كثير الإجلال لمالك ومذهبه، فزاد ذلك في ذيوعه وتوطده، وغدا
مذهب أهل الأندلس الغالب، وكانوا قبل ذلك يعملون بمذهب الأوزاعى إمام

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٨، وابن الأثير ج ٦ ص ٤٩.
وما تزال هذه القنطرة العربية
قائمة حتى اليوم على نهر الوادي الكبير خلف الجامع الأموى، محتفظة
بعقودها القديمة، بالرغم
مما توالى عليها من ضروب الإصلاح والتجديد.
(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٠.
(٣) راجع Scott: ibid, I.
p.
٤٣٣
(٤) الإمام مالك بن أنس، أبو عبد الله، أحد أصحاب المذاهب الأربعة
الشهيرة (٩٥ -
١٧٩هـ) وترجمته في ابن خلكان ج ١ ص ٥٥٥ - ٥٧.

(٢٢٩/١)

أهل الشام (١) .
وفى عصر هشام قوى نفوذ الفقهاء ورجال الدين، وتربعوا
في أهم المناصب، وكثر تدخلهم في شؤون الدولة، خلافا لما كان عليه عبد
الرحمن

الداخل من إقصائهم والتحرز من تدخلهم ونفوذهم، وكان لذلك أثر غير
محمود
ترتبت عليه فيما بعد نتائج سياسية واجتماعية خطيرة.
- ٢ -
وخلف هشاماً ولدُه الحكم بعهد منه، وبويع عقب وفاة أبيه بأيام قلائل
في الثامن من صفر سنة ١٨٠ هـ (أبريل ٧٩٦ م) ، وهو في السادسة
والعشرين
من عمره، وكان مولده بقرطبة سنة ١٥٤ هـ (٧٧١ م) ، وأمه أم ولد تدعى
زخرف، وكان طاغية، حازماً، شجاعاً، شديد الوطأة على خصومه والخارجين
عليه، وكانت تحدوه مع ذلك نزعة إلى الإنصاف والعدالة (٢) .
وهو أول من
أظهر فخامة الملك بالأندلس، وأسرف في تأييد هيبته، وجدد عهد أجداده
بالمشرق ببذخه وروعته، واستكثر من المماليك والبطانة.
وكان ميالا إلى اللهو، مولعاً بالصيد، يؤثر مجالس الندماء والشعراء، على
مجالس الفقهاء والعلماء.
وآنس الفقهاء تصدع مركزهم الذى سما في عهد أبيه هشام، وكانت سياسة
الحكم
ترمى إلى الحد من نفوذهم، وإبعادهم عن التدخل في شؤون الدولة، وكانوا
بالعكس يرمون إلى انتزاع السلطة السياسية ليحكموا الأمة من وراء العرش
بواسطة
جمهورية دينية، فجاءت سياسة الحكم ضربة قاضية على أمانيهم، وثارث
نفوسهم
سخطاً على الأمير الفتى، وأخذوا يلوحون بسبه والتعريض به من فوق
المنابر، ويوغرون عليه صدور العامة بالدس والوقيعة، ويسبغون على
دعايتهم ثوب
الوعظ والإرشاد، والحض على التمسك بأحكام الدين.

وكان الحكم بإسرافه فى
مجالى اللهو والبذخ، يسبغ على أقوالهم قوة، وكانت دعايتهم قوية بالأخص
بين
البربر والمولدين (أو مسلمى الإسبان) ، إذ كان هؤلاء يبغضون العرب
لكبريائهم
واستئثارهم بالمناصب والنفوذ، وكانوا دائماً على أهبة الخروج والعصيان كلما
سنحت الفرصة.
وكان لتحريض الفقهاء وسعايتهم كما سنرى آثار بعيدة المدى (٣) .

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٢٠؛ والاستقصاء ج ١ ص ٦١، ونفح الطيب ج
٢ ص ١٥٨؛
وراجع أيضاً Dozy: Hist.
، I.
p.
٢٨٦ & ٢٨٧
(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٥.
(٣) راجع المعجب ص ١١؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٩، وكذلك Dozy:
Hist,I.
p.
٢٨٨
وألتاميرا Hist.
de Espana, Vol.
I.
p.
٢٢٧

وفى بداية عهد الحكم، في صيف سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) سار الحاجب
عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث غازياً بالصائفة إلى ألبة والقلاع، (قشتالة
القديمة) واستولى على قلعة قلهُرّة الواقعة على نهر إيبرو، وأثخن في بلاد
البشكنس
(نافار) ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبى.
ولكن سرعان ما اضطر الحكم إلى ترك
الجهاد والغزو، ليعنى بمقاومة بوادر الخروج والثورة التي أخذت تتفتح حوله
من كل صوب.
وكان الثغر الأعلى (أراجون) موطن الخطر في تلك المرة،
وكانت تؤازره وتذكيه عوامل خارجية في منتهى الخطورة.
ذلك أن الحكم ما كاد
يجلس على عرش أبيه، حتى عول عماه سليمان وعبد الله على التحرك مرة
أخرى.
وكانا يقيمان في عدوة المغرب منذ أيام أخيهما هشام، يرقبان الفرص.
واتصل
عبد الله بابن الأغلب صاحب إفريقية وخاطبه في مشروعهما، ولكنه لم يلق
على
ما يظهر منه تأييداً، فاتجه الأخوان وجهة أخرى.
وكانت مدائن الثغر الأعلى (١)
وفى مقدمتها سرقسطة ما زالت، منذ أيام عبد الرحمن الداخل تفيض بعوامل
الفتنة،
ففى سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ م) ثار بالثغر الأعلى بهلول بن مروان المعروف
بأبى
الحجاج ودخل سرقسطة، وثار حاكم مدينة وشقة في نفس الوقت.

فعبر سليمان
وعبد الله سراً إلى الأندلس، وسار عبد الله إلى الثغر الأعلى يؤلب البلاد، ويحشد
الأنصار لمقاتلة الحكم، ثم عبر جبال البرنيه إلى بلاد الفرنج، وسعى إلى مقابلة
شارلمان (كارل الأكبر) في مدينة إيكسلا شابيل حيث كان يعقد بلاطه يومئذ، والتمس إليه العون والمؤازرة، فأكرم ملك الفرنج وفادته، واستجاب إلى دعوته، وألفى الفرصة سانحة للتدخل في شؤون الأندلس، وتحقيق مطامعه القديمة. وسير شارلمان جيشاً مع ولده لويس أمير أكوتين، فعبر البرنيه واستولى على مدينة جيرونة (جيرندة) ، ثم توغل في ولاية الثغر الأعلى، بممالأة بعض الزعماء الخوارج، وقيل إن الأخوين عبد الملك وعبد الكريم ابنى عبد الواحد

---

(١) قال ياقوت في معجمه الجغرافى " الثغر "، كل موضع قريب من أرض العدو يسمى ثغرا،
كأنه مأخوذ عن الثغرة " وهى الفرجة في الحائط ".
وكان رباط الثغر أيام فتح الأندلس يشمل
أربونة وما حولها، باعتبارها أقصى ولاية في اسبانيا المسلمة، مما يلى أرض الفرنج، فلما سقطت
أربونة في يد النصارى ارتد " ثغر " الأندلس إلى ما رواء جبال البرنيه؛ فأصبح " الثغر " يطلق على ولاية
سرقسطة وما جاورها حتى برشلونة والبحر شرقا، وهذا هو " الثغر الأعلى "، ويشمل عدا سرقسطة
لاردة، وتطيلة، ووشقة، وطرطوشة، وطركونة وغيرها؛ ويقابل "أراجون"، من ولايات اسبانيا
الحديثة.

وسميت طليطلة وأعمالها " بالثغر الأوسط " لمجاورتها لمملكة ليون النصرانية (جليقية) .

(٢٣١/١)

ابن مغيث انضما يومئذ إلى عبد الله في ثورته، وأنهما سارا إلى سرقسطة، ولكن
أبا صفوان حاكمها من قبل الحكم، استطاع أن يهزم الخوارج، وأن يأسر زعيمهم
عبد الكريم، وأن الأخوين عادا بعد ذلك إلى الطاعة واستأمنا في أوائل سنة ١٨٦هـ
فأمنهما الحكم، ووفدا على قرطبة وقدما خضوعهما وإخلاصهما (١) . وقد نجد
ما يؤيد هذه الرواية في أنه لم يرد للأخوين ذكر خلال هذه الأعوام الخمسة، مع أنهما كانا دائماً في الطليعة في قيادة مختلف الحملات والغزوات. وعلى أى
حال فقد بادر الحكم بالسير إلى الشمال لرد هذا الخطر الجديد. والظاهر أن
الفرنج لم يلقوا الحوادث ممهدة في ذلك الجزء المضطرم من الأندلس، وخشوا من جهة أخرى من نكث حلفائهم المسلمين، وتكرار مأساة باب الشزرى، فارتدوا إلى الشمال بعد أن حاصروا مدينة وشقة حيناً (٧٩٧ م) ، تاركين الأمور
لمصيرها، ولما رأى الزعماء الخوارج عبث المقاومة، عادوا إلى الطاعة، واسترد
الحكم سلطانه على سرقسطة ووشقة ولاردة وغيرها.

---

(١) وردت هذه الرواية منسوبة إلى الرازى مؤرخ الأندلس، في أوراق

مخطوطة عن تاريخ

الأندلس من سنة ١٨٠ إلى سنة ٢٣٢هـ عثر بها صديقى العلامة المرحوم " ليفى بروفنسال "

عميد كلية الجزائر والأستاذ بجامعة باريس سابقا.

وقد تفضل بإطلاعى عليها ونقلت عنها.

ولم نكن

نعرف وقتئذ بالتحقيق من هو مؤلف هذا المخطوط؛ ولكن تبين فيما بعد من مقارنة الروايات التي

يوردها عن مؤرخي الأندلس السابقين مثل الرازى وابن القوطية وابن الفرضى، ثم ابن حزم وأحمد

ابن خالد، كما تبين منه مما تتسم به كتاباته وتعليقاته من الرزانة والدقة، أن هذه الأوراق المخطوطة، إنما هى قطعة من مؤلف مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان، وهو المسمى " المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ".

وتحتوى هذه القطعة على كثير من المعلومات والتفاصيل الحسنة عن حوادث العصر الذى

نتحدث عنه وعن شخصياته.

وقد حصلت بعد ذلك بأعوام من مكتبة القرويين بفاس، على نسخة

مصورة من قطعة كبيرة مخطوطة من تاريخ ابن حيان المشار إليه تبين أنها تتمة للجزء المتقدم، إذ تبدأ حوادثها من سنة ٢٣٣هـ وتنتهى في سنة ٢٦٧هـ وهى عبارة عن جزء كبير يقع في مائة

وتسعين صفحة كبيرة.

وهى قديمة بالية متآكلة الحوافى.

وقد انتفعت بها منذ الطبعة الثالثة من الكتاب

انتفاعا عظيما حسبما يرى القارىء بعد هذا.

ثم ظهرت أخيرا قطعة كبيرة من " المقتبس " تتعلق

بعصر الناصر وتحفظ بالمكتبة الملكية بالرباط، وقد أشرنا إليها وإلى
محتوياتها في مقدمة الكتاب.
وقد انتفعنا بها في هذه الطبعة الجديدة أعظم انتفاع حسبما يرى القارىء بعد.
وقد نشرت من قبل
قطعة أخرى من تاريخ ابن حيان بعناية المستشرق الإسبانى أنتونيا، وهى
تتعلق بالأخص بحوادث
عصر الفتنة الكبرى (٢٥٠ - ٣٠٠هـ) .
وتوجد قطعة صغيرة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان
بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد، وهى تتعلق بأحوال الخلافة وحوادث الأندلس
في سنى ٣٦٢ -
٣٦٥هـ أيام الحكم المستنصر.

(٢٣٢/١)

وفى ذلك الحين كان سليمان بن عبد الرحمن قد استطاع أن يحشد أنصاره
ولاسيما
من البربر، وهرع إليه أخوه عبد الله البلنسى بعد فشله في الشمال، وسار
الخوارج
إلى قرطبة يحاولون الإغارة عليها، فالتقوا بجند الحكم على مقربة منها في
مكان
يسمى " فنجيط " وذلك في شوال سنة ١٨٢ هـ، فهزم سليمان.
ثم التقى الجمعان
ثانية بالقرب من إستجَّة في صفر سنة ١٨٣، فهزم سليمان مرة أخرى بعد
قتال
عنيف، وفر في أصحابه متجها إلى ماردة، فبعث الحكم الجند في أثره،
فطاردته
حتى قبض عليه.

وجيء به إلى الحكم، فأمر بإعدامه، وأعدم معه عدة من زعماء
الفتنة، وأرسلت رؤوسهم إلى قرطبة حيث طيف بها (سنة ١٨٤ هـ – ٨٠٠ م)
.
وفر أخوه عبد الله إلى بلنسية فاختفى بها، ولكنه لم ير في النهاية مناصا من طلب
العفو، فعفا عنه الحكم وأصدر له أماناً خاصاً، وذلك على أن يبقى في بلنسية
وتجرى عليه أرزاقه، وبعث عبد الله إلى الحكم بابنه عبيد الله فأكرمه الحكم
وزوجه إحدى أخواته، وركن عبد الله إلى السكينة طوال عهد الحكم (١) .
وهكذا انتهت المرحلة الأولى من الحوادث التي اقترنت بثورة سليمان وأخيه
عبد الله، ولم يجن الفرنج فيها كبير غنم، ولكن ذلك لم يثن شارلمان عاهل الفرنج
عن عزمه ومشاريعه.
ذلك أن سياسة التدخل في شؤون إسبانيا المسلمة، كانت أصلا
من أصول السياسة الفرنجية، وكان الفرنج ينظرون بعين التوجس، إلى قيام
هذه الإمارة الإسلامية الجديدة فيما وراء البرنيه، وإلى توطدها ونموها، ويخشون
بالأخص أن يضطرم الإسلام بفورة جديدة من الجهاد والغزو، فينساب تيار
الفتح الإسلامى إلى غاليس كرة أخرى، وقد حاول شارلمان ضربته الأولى فى
عهد عبد الرحمن الداخل فباء بالهزيمة والفشل، ونكب في مفاوز رونسفال (باب
الشزرى) .
ولما عبر المسلمون جبال البرنيه في عهد هشام وغزوا سبتمانيا، تجددت
مخاوف الفرنج وتجددت مشاريعهم لتأمين حدودهم الجنوبية، وكانوا يلتمسون
الفرصة كلما اضطرمت الأندلس بالثورة.
وهنا يجدر بنا أن نتساءل، هل كان

لسياسة الخلافة العباسية أثر في صوغ هذه السياسة الفرنجية نحو الأندلس أو الإيحاء
بها؟ لقد رأينا كيف كانت الخلافة العباسية تحاول بث دعوتها في الأندلس على يد
بعض الزعماء الخوارج، وكيف كانت هذه الدعوة تحدث أثرها في إضرام نار

---

(١) مخطوط ابن حيان المشار إليه لوحة ٩٠.

(٢٣٣/١)

الفتنة.
على أن الخلافة العباسية، كانت من جهة أخرى تتصل بالمملكة الفرنجية بصلات سياسية.
وترجع الرواية الفرنجية هذه الصلة إلى عهد المنصور، وتقول
لنا إن ببين ملك الفرنج أرسل إلى المنصور سفارة رد عليها المنصور بمثلها، وتضيف الرواية الفرنجية إلى ذلك أنه كانت ثمة بعدئذ مكاتبات وسفارات بين الرشيد وبين شارلمان ولد ببين، ومع أن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئا عن هذه العلائق بين ملك الفرنج والخليفة العباسى، فإن في تفاصيل الرواية الفرنجية، وفى طبيعة الحوادث التي كان يجوزها الشرق والغرب يومئذ، ما يحملنا على الاعتقاد
في صحتها (١) .
وهذه العلائق ذاتها تلقى ضوءاً على موقف السياسة العباسية، من حوادث الأندلس في ذلك الحين.
فقد كانت الخلافة العباسية ترى في قيام إمارة
قرطبة الأموية في الغرب منافسا لها في سيادة العالم الإسلامى، ولم يكن يسوءها أن
تتعثر هذه الإمارة الفتية في معترك من الصعاب والفتن، وأن تشغل بمقارعة

أعدائها في الداخل والخارج.

وإذاً فقد كانت الخلافة العباسية تشاطر السياسة

الفرنجية نفس الغاية التي ترمى إليها بالنسبة لإمارة قرطبة، وهى العمل على إضعافها

وتحطيمها إن أمكن، ولما كانت الدولة العباسية لا تستطيع أن تعمل لتحقيق هذه

الغاية بطريق مباشر، فقد كان في وسعها على الأقل أن تعمل لتأييدها بطريق الدعوة والتحريض.

ولم يكن بعيداً أن يجد الخليفة العباسى، وهو يبسط حكمه

على ملايين من النصارى، وفي أرضه يقع القبر المقدس، وسيلة للتفاهم مع إمبراطور الفرنج وحامى النصرانية، وأن يجد عاهل الفرنج ما يشجعه على إذكاء

تحرشه بإمارة قرطبة، في رفق الخليفة برعاياه النصارى، هذا فضلا عن أن السياسة الفرنجية تعمل بذلك على تحقيق غايتها الأصلية من مناوأة الإسلام في اسبانيا

وإضعاف سيادته ونفوذه، وحماية حدود مملكة الفرنج الجنوبية.

وإذاً فمن المحتمل

أن يكون لهذه السفارات والمراسلات السياسية، التي تقول الرواية الفرنجية بوقوعها بين الرشيد وشارلمان، صلة بهذه المرحلة من تدخل الفرنج في شؤون اسبانيا المسلمة، واعتدائهم المتكرر على أراضيها.

وقد وقع الغزو الفرنجى لشمال

اسبانيا في عهد الحكم بين سنتى ١٨١ و١٨٥هـ، أعنى في أواسط عهد الرشيد

---

(١) تناولت موضوع العلائق بين الرشيد وشارلمان في فصل خاص في

كتابى " مواقف حاسمة
في تاريخ الإسلام " (الطبعة الرابعة ص ٢١٨ - ٢٢٤) .

(٢٣٤/١)

(١٧٠ - ١٩٣هـ) .
والواقع أن في اتحاد المصلحة والغاية بين الخليفة العباسى
وعاهل الفرنج، ما يسبغ على هذا الفرض تأييداً.
ولما كانت السياسة الفرنجية ترمى قبل كل شىء إلى تأمين غاليس (جنوب
فرنسا) من خطر الغزو الإسلامى، فقد رأت أن تنشىء في قاصية اسبانيا
الشمالية
الشرقية مما يلى جبال البرنيه، ولاية فرنجية جديدة تكون سدا بين الغزاة وبين
مملكة الفرنج، وأنشئت هذه الولاية التي سميت " بالثغر القوطى " أو الثغر
الإسبانى
في البداية، من مدن جيرونة (جيرندة) وأوزونة وسولسونة، وما حولها
مما اقتطعه الفرنج من أراضي اسبانيا المسلمة، التي كانت تابعة لرباط الثغر
الإسلامى القديم.
ولما عاد الاضطراب إلى الثغر الأعلى، وشغلت حكومة قرطبة
بأمر الثورات الداخلية المتوالية، ألفى الفرنج الفرصة سانحة لدفع غزواتهم
نحو
الجنوب، وكان شارلمان يطمح بالأخص إلى افتتاح ثغر برشلونة المنيع
ليكون
معقلا لحماية أملاكه الجنوبية، وحلقة اتصال بحرى سهل بينها وبين فرنسا.
وعمد
شارلمان قبل البدء في تنفيذ مشروعه إلى عقد محالفة بينه وبين أمير جليقية
ألفونسو
الثاني (سنة ٧٩٨ م) ، لكى يكتسب ولاء البشكنس ومعاونتهم.

وفى سنة ٨٠١ م

(١٨٥ هـ) سير شارلمان إلى اسبانيا جيشاً ضخماً لافتتاح برشلونة بقيادة ولده لويس أمير أكوتين، وانقسم هذا الجيش إلى قسمين، سار أحدهما بقيادة حاكم جيرونة لمحاصرة برشلونة، وسار الآخر بقيادة جيوم كونت دى تولوز ليرابط جنوب غربى برشلونة بين لاردة وطركونة، ليحول دون وصول أى مدد إلى المدينة المحصورة.

وكان الحكم يشغل يومئذ بمطاردة الخوارج عليه وفي مقدمتهم

عمه عبد الله، وكان والى برشلونة، سعدون الرعينى، في مأزق حرج، يتطلع عبثاً إلى قدوم المدد، وهو في ثغره القاصى بعيداً عن كل عون ومساعدة، ولم يكن له ما يؤمل من معاونة زملائه ولاة الثغر الأعلى، ومعظمهم يضمر الخروج

على حكومة قرطبة، ويرى في اضطراب الأمور ملاذاً.

ومع ذلك فقد صمدت

برشلونة، وصمم واليها الشجاع على المقاومة، ولبثت حيناً تعانى أمر ضروب

الحرمان والجوع، دون أن يأتيها المدد المنشود.

ثم تفاقم الأمر وجاء جيش

جديد من الفرنج بقيادة لويس ليشدد الحصار على المدينة، فرأى سعدون الرعينى

أن يحاول التماس المدد بنفسه من قرطبة، وغادر برشلونة تحت جنح الظلام،

(٢٣٥/١)

وحاول أن يخترق خطوط العدو، ولكنه ضبط وأسر، ولم تستطع برشلونة ثباتاً بعد أن هلك ألوف من أهلها، وفتحت ثغرات عديدة في أسوارها، فاضطرت

إلى التسليم بعد أن ذاقت ويلات الحصار سبعة أشهر.

واتخذ الفرنج من برشلونة
مكان جيرندة، قاعدة للثغر القوطى الذى نما فيما بعد، وكان الفرنج يعينون حكامه
من الكونتات الذين ينتمون إلى أصل قوطى أو فرنجى.
ولم يلبث أولئك الحكام، حينما شعروا بقوتهم وبعدهم عن سلطان مملكة الفرنج، أن أعلنوا استقلالهم، وغدا
الثغر الفرنجى إمارة نصرانية هى إمارة قطلونية، التي اندمجت فيما بعد في مملكة
أراجون القوية، وخسر الإسلام بفقد برشلونة أمنع ثغوره في قاصية اسبانيا، وارتدت حدود الأندلس إلى الثغر الأعلى، بعد أن كانت تجاوز جبال البرنيه (١) .
وفى سنة ١٨٩ هـ (٨٠٥ م) اكتشف الحكم مؤامرة خطيرة دبرت لخلعه، وكان من ورائها رهط الفقهاء الذين قضى الحكم على نفوذهم، مثل يحيى بن يحيى الليثى، وعيسى بن دينار، وطالوت الفقيه، وغيرهم من زعماء المالكية.
وقد
رأينا كيف سخط الفقهاء على الحكم لتصدع نفوذهم القديم، وأثاروا عليه وعلى خلاله دعاية قوية، واتهموه من فوق المنابر بالقسوة والخروج على أحكام الدين، وكيف كان الحكم، بمرحه وبذخه، وشغفه باللهو والشراب، يسبغ على دعايتهم
قوة.
وكان ثمة فريق آخر من أعيان قرطبة ينقم على الحكم صرامته وطغيانه.
وكان هؤلاء وهؤلاء يتربصون بالحكم ويلتمسون الفرصة للإيقاع به، وكان في موقف الشعب القرطبى، ما يشجعهم على تدبير مشاريعهم، إذ كان الشعب
متأثراً بدعاية الفقهاء في حق الحكم، وبما كان يبديه الحكم من ترفع عن الشعب، فكان أهل قرطبة يبغضون الحكم وبلاطه.

وهكذا ائتمر الفقهاء والأعيان بالحكم

واتفقوا على خلعه، وكان في مقدمة المتآمرين مالك بن يزيد بن يحيى

التجيبى، وموسى بن سالم الخولانى، وأبو كعب بن عبد البر وأخوه عيسى،

ويحيى

ابن مضر القيسى الفقيه وغيرهم، وكان بينهم بعض المروانية من أقارب

الحكم، ومنهم محمد بن القاسم المروانى الذى اختاره المتآمرون لرياستهم،

ووعدوه بأن

---

(١) تضع الرواية الإسلامية تاريخ سقوط برشلونة في سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م)

متفقة بذلك

مع الرواية الفرنجية، وقد وردت عنه نبذة حسنة في مخطوط ابن حيان الذى

أشرنا إليه (ص ٩٠) .

وراجع ابن الأثير ج ٦ ص ٥٥؛ وكذلك Scott: ibid , V.

I.

p.

٤٤٨ - ٤٥٢؛ و Altamira

Hist.

de Espana: Vol.

I.

p.

٢٤١

(٢٣٦/١)

يكون خلف الحكم في الإمارة (١) ، ولكنه خشى العاقبة وبادر بإبلاغ الحكم،

واكتشفت المؤامرة قبل نضجها، وقبض الحكم على عدد كبير من المتآمرين.

واستطاع بعضهم الفرار، مثل يحيى بن يحيى، وعيسى بن دينار.

وأعدم الحكم
منهم اثنين وسبعين رجلا، وأبدى في إعدامهم قسوة ظاهرة، إذ صلبهم على شاطىء النهر تجاه مشارف القصر، وكان من بين القتلى عماه مسلمة المشهور
بكليب، وأمية، ابنا عبد الرحمن بن معاوية، قتلهما لارتيابه في سلوكهما، فأثار
هذا الإجراء الدموى في قرطبة أيما ارتياع، وأسبغ على خلال الحكم ريباً، وأذكى
الحفيظة على الأمير في نفوس الخاصة والعامة معاً.
وشعر الحكم بخطورة هذا
الأثر، فحصن قرطبة ورمم أسوارها، واحتفر الخنادق حولها، وفرض على الشعب حكم إرهاب يزيد في حفيظته.
ولم تمض أشهر على ذلك حتى اضطرمت
في قرطبة فورة من السخط، وثار العامة في الرَّبض (الضاحية) بزعامة رجل منهم يقال له ديبل، وكان الحكم غائباً يشرف على محاصرة الثوار في ماردة، فعاد مسرعاً إلى قرطبة، وقبض على زعيم الفتنة وعدة كبيرة من أنصاره، وصلبوا
جميعاً ومثل بهم، وسحق الهياج دون رأفة، وهدأت العاصمة إلى حين (٢) .
وفى العام التالى، سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) ، نشبت الثورة في ماردة بقيادة زعيمها أصبغ بن عبد الله بن وانسوس، فسار الحكم إلى قتاله، ولكنه ارتد عنه حينما وقف على نبأ الهياج في قرطبة.
وترددت الحملات والبعوث بعد
ذلك إلى ماردة لإخماد الثورة، واستمر زعيمها أصبغ على مقاومته بضعة أعوام، وكان ذا وجاهة وبأس، يلتف حوله مواطنوه البربر وهم كثرة في ماردة وما حولها، ولكنه اضطر أخيراً إزاء حزم الحكم وصرامته إلى طلب الأمان والصلح، فأجابه الحكم إلى طلبه، وعادت ماردة إلى الطاعة (٣) .

وكانت طليطلة حاضرة القوط القديمة، وقاعدة "الثغر الأوسط" (٤) ما تزال

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٧٣؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٦٦؛ ولكن ابن القوطية
يذكر أن المتآمرين بايعوا شخصاً آخر من أبناء عمومة الحكم.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٣؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٨٦، ومخطوط ابن حيان
المشار إليه ص ٩٨.
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٤، ومخطوط ابن حيان المشار إليه ص ٩٩.
(٤) تسمى طليطلة وأعمالها في الجغرافية الأندلسية " بالثغر الأوسط " حسبما تقدم.

*(٢٣٧/١)*

منذ الفتح تفيض بعوامل الهياج والثورة، وكان بين أهلها كثرة من المولدين أو النصارى الذين دخلوا في الإسلام، والمستعربين أو النصارى المعاهدين. وقد سبق
أن عنينا بالتعريف بهذين العنصرين، اللذين اضطلعا بأدوار خطيرة في تاريخ اسبانيا المسلمة، وأوضحنا أن العرب والبربر، وهما العنصران اللذان تعاونا فى
فتح اسبانيا، لم يكونا أغلبية بين الشعب الأندلسي الذى تكون بعد الفتح بمضى
الزمن، وكان العرب بالأخص أقلية في معظم المدن الكبيرة، لكن هذه الأقلية العربية كانت تستأثر بالحكم، وخصوصاً في الأقاليم الوسطى والجنوبية القريبة من
قرطبة مركز الإمارة والسيادة.
وكان البربر من جانبهم أغلبية في بعض المناطق الغربية

والشمالية، وكانوا حيثما غلبت كثرتهم وسلطتهم، يتحدون في معظم الأحيان مع
المولدين، وأحياناً مع النصارى المعاهدين أنفسهم، على مناوأة حكومة قرطبة.
أما "المولدون" فكان معظمهم حسبما أسلفنا من الإسبان والقوط الذين اعتنقوا الإسلام منذ الفتح تباعاً، واندمجوا في المجتمع الإسلامى، وقد كانوا كثرة فى بعض المدن القوطية العريقة مثل طليطلة وبعض مدن الثغر الأعلى، وقد برزت
منهم بعض الأسر القوية ذات السلطان والبأس، مثل بني قسيّ زعماء الثغر الأعلى
وبنو حفصون زعماء ريُّه، ويصفهم المستشرق سيمونيت بأنهم كانوا بعد اندماجهم
في المجتمع الإسلامى أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين الخلص أنفسهم (١) .
وأما النصارى المعاهدون أو المستعربون كما يسمون بالإسبانية Mozarabes، فهم
حسبما أشرنا من قبل النصارى الإسبان الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم، وبقوا فى المدن الأندلسية المفتوحة تحت الحكم الإسلامى.
وبالرغم مما كانت تسبغه الحكومة
الإسلامية عليهم من أسباب الرعاية، وما كان لهم في كثير من الأحيان من الحظوة
والتمتع بثقة الأمراء، وتولى كثير من الوظائف الهامة، فقد كانوا على العموم عنصراً قليل الولاء للحكومة الإسلامية، وكانوا في المدن البعيدة في كثير من الأحيان، يحالفون الثوار من المسلمين والبربر والمولدين، ويمالئونهم، ويعملون على عقد الصلات بينهم وبين الملوك النصارى، سعياً إلى مناوأة حكومة قرطبة
وخلق الصعاب في وجهها.

وسنرى أى دور خطير يلعبه أولئك النصارى
المعاهدون في قرطبة في عهد عبد الرحمن بن الحكم، لإثارة الفتن
والاضطراب فى
المملكة الإسلامية.

---

(١) Simonet: Hist.
de los Mozarabes, Vol.
I.
p.
٣٦٢

(٢٣٨/١)

هذا، وفضلا عما كان للمولدين والنصارى المعاهدين من كثرة ظاهرة فى
مدينة طليطلة، فإن أهل طليطلة على وجه العموم، لم ينسوا سالف عزهم
ومجدهم
أيام أن كانت مدينتهم دار ملك القوط، وكانوا يعتزون بكثرتهم وثروتهم
وحصانة مدينتهم (١) ، وتحدوهم روح من التمرد والخروج المستمر على
حكومة
قرطبة.
وقد رأينا كيف كانت طليطلة مركز الثورة، وملاذ الزعماء الخوارج
منذ عهد عبد الرحمن الداخل.
وفى عهد الحكم عادت طليطلة إلى سابق سيرتها، وثار فيها في سنة ١٨١هـ
(٧٩٧ م) عبيدة بن حميد، فوجه الحكم قائده عمروس
ابن يوسف لمحاربته، وكان يقود الجيش في طلبيرة، فالتقى بالثوار في عدة
مواقع، ولما رأى ثبات الثوار لجأ إلى سلاح الغيلة، واستمال بعض وجهاء
المدينة بالمنح

والوعود، ودفعهم إلى اغتيال عبيدة بن حميد، وبذا أخمدت الثورة إلى حين، وأذعنت المدينة الثائرة لسلطان الحكم.

ولكن هذا الهدوء المؤقت لم يطل أمده، ولم تمض بضعة أعوام حتى عادت طليطلة إلى الثورة، ولم ير الحكم وسيلة

لإخضاعها سوى تعيين عمروس بن يوسف حاكماً لها.

وكان عمروس " مولداً " من

أهل وشقة، ذا وجاهة وبأس، وكان قد ظهر في الثغر الأعلى، وأظهر طاعة الحكم ودعا له، خلافاً لكثير من زعماء الثغر الخوارج، فسر الحكم بمسلكه ودعاه

إلى خدمته، واختاره للقيادة، ثم اختاره لولاية طليطلة ليعالج المدينة الثائرة، ويعمل على إخضاعها، ولوحظ في هذا الاختيار أن عمروس مولد، وأن معظم

أهل طليطلة من المولدين.

وكتب الحكم إلى أهل طليطلة يقول: "إني قد اخترت

لكم فلاناً وهو منكم لتطمئن قلوبكم إليه، وأعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا وموالينا، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم".

ودخل عمروس طليطلة، فأنس به أهلها، وتظاهر أمامهم ببغض بني أمية والموافقة على خلع طاعتهم، واستمالهم برفقه ولينه، ثم أنشأ بموافقهم في ظاهر طليطلة قلعة حصينة بحجة إيواء الجند والموظفين فيها

بعيداً عن أهل المدينة وحرصاً على راحتهم، وبعث إلى الحكم يستقدم إليه الجند

سراً، فسير الحكم جيشاً بقيادة ولده عبد الرحمن لمقاتلة نصارى الشمال في الظاهر، ثم عرج هذا الجيش حين العودة على طليطلة، وخرج عمروس لملاقاة الأمير

---

(١) إن إلقاء نظرة على موقع طليطلة فوق المنحدر الصخرى الوعر المشرف

على منحنى نهر
التاجه، والنهر محيط بها من كل نواحيها تقريباً، وبقية الأسوار الهائلة التي كانت تحيط بها، كل ذلك يدل على ما كانت عليه هذه المدينة التالدة من الحصانة في تلك العصور.

(٢٣٩/١)

وتحيته، ومعه وجوه المدينة، فأكرمهم عبد الرحمن ولاطفهم.
وهنا دبرت
المؤامرة التي هلك فيها وجوه طليطلة وأعيانها، وفي بعض الروايات أن الذى دبرها
وأوعز بتنفيذها هو الحكم، في خطاب أرسله سراً إلى عمروس مع ولده عبد الرحمن، وفى البعض الآخر أن الذى دبر الكمين هو عمروس.
وعلى أى حال فقد
نفذت المؤامرة بأن أقام عمروس في القلعة الجديدة، وليمة حافلة دعا إليها ألوفاً
من الكبراء والأعيان، ورتب الدخول من باب والخروج من باب آخر، منعاً للزحام، وجعل الخدم يقتادون المدعوين إلى غرف الطعام عشرة عشرة، وكلما دخل منهم فوج أخذوا إلى ناحية معينة، وضربت أعناقهم، وألقيت جثثهم إلى حفرة عظيمة، حفرت خصيصاً في مؤخرة القصر، وأصوات الطبول والمزامير تحول دون سماع استغاثتهم، ولم يفطن أحد إلى الحقيقة المروعة إلا بعد أن تعالى
النهار، ولم يبد للداخلين أثر في الخروج، ولم يسمع لهم ضجيج، فعندئذ فطن البعض إلى الكمين، وتصايح القادمون ونكصوا على أعقابهم، وهلك في تلك المذبحة التي تعرف بواقعة " الحفرة " عدد كبير من وجوه طليطلة وأعيانها يقدره البعض ببضع مئين والبعض الآخر ببضعة آلاف، وكانت ضربة شديدة للمدينة الثائرة جردتها من زعامتها، وأضعفت من شأنها، وقضت مدى حين

على روح الثورة فيها، وكانت وقعة الحفرة في سنة ١٩١ هـ (٨٠٧ م) (١) .
وفى ذلك الحين غزا الفرنج بقيادة لويس ولد شارلمان (٢) ، ولاية الثغر
الأعلى مرة أخرى، وحاصروا مدينة طرطوشة (سنة ١٩٢ هـ) ، فبعث الحكم
جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده عبد الرحمن، فارتد الفرنج إلى أراضيهم، ثم
عادوا
إلى حصار طرطوشة في العام التالى بقيادة لويس أيضاً، وعاد المسلمون إلى
قتالهم بقيادة عبد الرحمن، ومعه في تلك المرة عمروس عامل الثغر الأوسط،

---

(١) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٦٥، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ و١٢٧،
والبيان
المغرب ج ٢ ص ٧١ و٧٢، وفيه أن من هلك في مذبحة الحفرة، بلغ زهاء
سبعمائة فقط.
وجاء
في مخطوط ابن حيان السابق ذكره، رواية عيسى بن أحمد الرازى، أن الذى
دبر الكمين هو الأمير
عبد الرحمن، وأنه هو الذى أولم الوليمة، وأنه هلك في المذبحة زهاء خمسة
آلاف (ص ٩٣) .
وراجع أيضاً Dozy: Hist.
I.
p.
٢٩١ - ,٢٩٤
(٢) وتسميه الرواية العربية خطأ برذريق أو لذريق بن قارله (ابن الأثير ج ٦
ص ٦٦
والبيان المغرب ج ٢ ص ٧٤) .

وعبدون عامل الثغر الأعلى، في قواتهما، ونشبت بين المسلمين والفرنج عدة
وقائع انتهت بهزيمة الفرنج وإنقاذ طرطوشة، وذلك في سنة ١٩٣هـ (٨٠٩ م)
.
وعمد نصارى الشمال كعادتهم إلى انتهاز كل فرصة سانحة للإغارة على
أراضي
المسلمين، وشجعهم انشغال حكومة قرطبة بقمع الثورات المختلفة، وكان ملك
جليقية يومئذ ألفونسو الثاني، الملقب بالعفيف، أميراً شديد التعصب لدينه
ووطنه، وكانت حملاته المتوالية إلى أراضي المسلمين يطبعها لون دينى
عميق، وعبر
ألفونسو نهر دويرة (دورو) إلى أراضي المسلمين غير مرة، وعاث فيها قتلا
ونهباً
وسبياً، وكانت حملاته تتجه بالأخص إلى أطراف الثغر الأدنى، والى المنطقة
الواقعة
بين نهرى دويرة والتَّاجُه، لبعدها عن حكومة قرطبة، وضعف وسائل الدفاع
فيها، وتوغل ألفونسو في حملاته حتى قُلُمْرية (قلنبرية) وأشبونة، وعانى
المسلمون في تلك الأنحاء كثيراً من جراء غزوات النصارى، وترامت إلى
الحكم
آلامهم واستغاثتهم، ورفع إليه شاعره عباس بن ناصح الجزيرى قصيدة يصف
فيها آلام أهل الثغر ومصائبهم.
ففى صيف سنة ١٩٤هـ (٨١٠ م) (١) ، سار
الحكم غازياً بنفسه إلى أراضي ألبة والقلاع، وتوغل فيها مما يلى وادي
الحجارة
غرباً، وأثخن في تلك الأنحاء، وهزم النصارى في عدة وقائع، وقتل وسبى
منهم
جموعا كثيرة، واطمأنت نفوس المسلمين في الثغر بزجر النصارى وردهم إلى
داخل أراضيهم.

وسير الحكم في العام التالى جيشاً إلى الثغر الأعلى بقيادة عمه عبد الله
البلنسى، فغزا قطلونية، وهاجم مدينة برشلونة، وهزم الفرنج، ولكنه لم يحرز
فتوحا
ثابتة.
وشعر الفرنج، كما شعر المسلمون بعقم هذه الحملات المخربة، وآثر
الفريقان التفاهم والمهادنة، ويقول لنا ابن حيان إنه كان ثمة باعث آخر على
التعجيل
بعقد السلم بين العاهلين، هو استفحال أمر إدريس بن إدريس بن عبد الله
الحسنى
بأرض العدوة (المغرب) ، وتقاطر الوفود من إفريقية والأندلس إلى
بيعته، وتوجس الحكم من مصاير هذه الحركة الجديدة بالمغرب (٢) .
وهكذا عقد

---

(١) هذه رواية صاحب البيان المغرب (ج ٢ ص ٧٥) ويضع ابن الأثير
تاريخ هذه
الغزوة في سنة ١٩٦هـ.
(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه ص ١٠٠.
ويسمى ابن حيان هنا ملك الفرنج باسمه
الصحيح " قارله بن ببين ".
وراجع الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧١ و٧٢.



السلم بين شارلمان والحكم، واستمر معقوداً حتى وفاة شارلمان بعد ذلك
بأعوام
قلائل في سنة ٨١٤ م.
ووقعت في تلك الأثناء عدة ثورات محلية، فثار حزم بن وهب في باجة، وامتد

سلطانه حتى أشبونة، فسير إليه الحكم ولده هشاماً، فقاتل الثوار حتى أذعنوا لطلب الأمان.

وعادت طليطلة إلى الثورة في سنة ١٩٧هـ لأعوام قلائل

من واقعة الحفرة، فرأى الحكم أن يسير إليها بنفسه، فسار في قواته من طريق منحرفة كأنه يقصد الشمال، ثم تحول إليها فجأة، ولم تكن الثورة يومئذ، فى مثل عنفها القديم، فلم يجد الحكم مشقة في دخول المدينة الثائرة وإخضاعها (سنة ١٩٩هـ) .

وثارت بعد ذلك ماردة بقيادة زعيمها مروان بن يونس

الجليقى، فبعث الحكم إليها ولده عبد الرحمن في الجند فأخضعها.

وفى سنة ١٩٧هـ (٨١٢ م) عصف بالولايات الشمالية قحط شديد، وعانى المسلمون في تلك الأنحاء كثيراً من ضروب الحرمان والبؤس، ومات منهم خلق

كثير، وعبر البحر إلى العدوة الكثير منهم، فبادر الحكم إلى إغاثتهم ومعاونة المنكوبين منهم، وتخفيف الويل عنهم، وفرق الصدقات الواسعة والأموال الكثيرة

في الضعفاء والمساكين، وأبناء السبيل، وفي ذلك يمتدحه شاعره عباس بن ناصح

الجزيرى بقوله:

نكد الزمان فآمنت أيامه..

.

من أن يكون بعصره عسر

طلع الزمان بأزمة فجلت له..

.

تلك الكريهة جوده الغمر

وكانت آخر غزوة قام بها الحكم في الشمال في سنة ٢٠٠هـ (٨١٥ م) إذ سير

الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى جلِّيقية في جيش ضخم، وكان
الجلالقة وحلفاؤهم البشكنس ما يزالون على عدوانهم وعيثهم بالأراضي الإسلامية
المجاورة، فتوغل المسلمون في أراضي جليقية، وأثخنوا فيها، ونشبت بينهم
وبين النصارى موقعة شديدة على ضفاف نهر أرون استمرت عدة أيام، وانتهت
بهزيمة النصارى، وقتل منهم عدد كبير، ووقع في الأسر جماعة من أمرائهم
وأكابرهم، وارتد النصارى إلى الداخل، واعتصموا بالوهاد والربى، وعاد
الحاجب إلى قرطبة ظافراً (١) .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٩؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٧٧.

(٢٤٢/١)

وفى أواخر عهد الحكم اضطرمت بقرطبة ثورة خطيرة كادت أن تزعزع
عرشه، وكان الشعب القرطبى ينقم على الأمير طغيانه وصرامته وكبرياءه، وكان
بين أهل قرطبة كثير من " المولدين " الذين يبغضون السلطة الحاكمة،
لشعورهم بنقص في مركزهم الإجتماعى وفي حقوقهم العامة، وكان الفقهاء من
جهة أخرى، وفي مقدمتهم جماعة من المحرضين البارعين مثل طالوت المعافرى
وغيره، يعملون على إذكاء سخط العامة على الحكم وبلاطه، بما يرمون به الحكم
من جنوح إلى المعاصى، واقتراف للإثم، وانهماك في اللهو والشراب، فكانت
بين الأمير وبين أهل قرطبة وحشة تشتد على ممر الأيام، وزاد في سخط العامة

ما فرضه الحكم على المواد الغذائية، من عشور مرهقة، وكان العامة
يجاهرون
بذم الأمير والخوض في سيرته، ويجتمعون في المساجد ليلا لتجريحه والطعن
عليه، ووصلت بهم الجرأة إلى أن كانوا يتعرضون له في الطريق، وينعتونه
علنا
" بالمخمور ".
وحدث ذات يوم أن خرج الأمير إلى الصيد، وشق سوق "الربض"
فتعرضوا له بالقول، وصفقوا عليه بالأكف، فأمر بالقبض على عشرة من
زعمائهم وصلبهم.
ويقول لنا ابن القوطية، إن أولئك الذين قبض عليهم وصلبوا
كانوا من زعماء مؤامرة دبرت ضد الحكم، وكان منهم بعض أعلام القوم، مثل
يحيى بن نصر اليحصبى، وموسى بن سالم الخولانى وولده (١) .
وهنا ازداد الهياج،
وبدت أعراض الثورة، وتحفز العامة للوثوب، وأكثروا من التعرض لجند
الأمير وحرسه والاعتداء عليهم، وشعر الحكم بخطورة الموقف، فحصن
القصر
واتخذ أهبته.
وفى ذات يوم اضطرمت نار الثورة فجأة، وذلك على أثر مشادة
وقعت بين أحد مماليك الحكم وبين صيقل عهد إليه بصقل سيفه، فتباطأ
الصيقل،
فقتله المملوك، فثار العامة في الحال، وهرعوا إلى السلاح، وكان أشدهم
تحفزاً
وهياجاً أهل "الربض" الجنوبى في الضفة الأخرى من النهر، وهى ضاحية
قرطبة
الجنوبية المسماة (شَقُندة) ، وكانت كثرتهم من الأوغاد والسفلة، وكان ذلك
في اليوم الثالث عشر من رمضان سنة ٢٠٢ هـ (٢٥ مارس ٨١٨ م) (٢) ،

وزحفت

---

(١) ابن القوطية في " افتتاح الأندلس " ص ٥٠ و ٥١.
(٢) تختلف الرواية الإسلامية في تاريخ هذه الموقعة اختلافاً بينا، فتضع معظم الروايات
الأندلسية تاريخها في سنة ٢٠٢هـ؛ ويعين ابن الأبار اليوم والشهر الذى وقعت فيه فيقول إنها وقعت =

(٢٤٣/١)

جموع الثوار إلى القصر من كل ناحية، وتأهب الحكم في حرسه وغلمانه لردها، وبعث ابن عمه عبيد الله البلنسى صاحب الصوائف، والحاجب عبد الكريم، فى
قوة من الفرسان والمشاة، فاستقبلت الجموع الزاحفة، وردتها إلى الوراء بعد أن نفذت إلى فناء القصر، ثم شقت طريقها إلى النهر واقتحمته إلى الضاحية الثائرة، وأضرمت النار في عدة من أنحائها، ونجحت هذه الوسيلة في تفرقة شمل الثوار، إذ ما كادت ألسنة اللهب تبدو، حتى هرع الكثير منهم إلى دورهم
يحاولون إطفاء النار وإنقاذ الأهل والولد.
وهنا احتاط الجند بالثوار من كل ناحية
وأمعنوا فيهم قتلا حتى أفنوا منهم خلقاً كثيراً، وطاردوهم في كل مكان، ونهبت دورهم، وأسر منهم عدد كبير، وفر من استطاع، ومنهم بعض الفقهاء والمحرضين مثل طالوت وغيره، والتجأ البعض إلى طليطلة، واستمر القتل والنهب
ثلاثة أيام حتى مزقوا كل ممزق، وصلب الحكم تجاه قصره على شاطىء النهر
ثلاثمائة رجل من الثوار، صفوفاً منكسة، إرهاباً لأهل قرطبة.

ثم كف الجند
عنهم، ونودى بالأمان وهدأت الفتنة، وأمر الحكم بديار الثوار فهدمت عن
آخرها، ولا سيما "الرَّبَض"، القبلى الذى كان مهد الفتنة، وقام على الهدم ربيع
القومس عامل أهل الذمة وقائد الغلمان الخاصة، فمسح أحياء الثوار مسحاً، وغدت
ألوف كثيرة منهم دون مأوى، وأمر الحكم بخروجهم من قرطبة في الحال، وأن

---

= في يوم الأربعاء ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ (الحلة السيراء ص ٣٩) ؛ ويوافقه ابن عذارى في تاريخها
في نفس العام (ج ٢ ص ٨٧) ؛ وتؤيد هذا التاريخ عدة روايات وردت في مخطوط ابن حيان
الذى بين أيدينا، ومنها رواية الرازى (ص ١٠٣ و ١٠٤) .
ولكن ابن الأثير يضع تاريخ واقعة
الربض في سنة ١٩٨هـ، وإن كان يشير أيضاً إلى ما قيل من وقوعها في سنة ٢٠٢هـ (ج ٦ ص ١٠١
و١٠٢) ؛ ويأخذ المشارقة بهذه الرواية؛ فنرى المقريزى مثلا يضع مقدم الأندلسيين الذين نزحوا
على أثر الواقعة إلى الإسكندرية في سنة ١٩٩هـ، ويشير إلى اشتراكهم في الحرب الأهلية التي كانت
تضطرم يومئذ بها في سنتى ٢٠٠ و٢٠١هـ (راجع خطط المقريزى – مصر – ج ١ ص ٢٧٨ – ٢٨٠)
وذلك مما قد يعزز رواية ابن الأثير في حدوث الواقعة سنة ١٩٨هـ؛ ويميل دوزى أيضاً إلى الأخذ
بهذه الرواية (ج ١ ص ٢٩٦ – ٢٩٧) ، ويستشهد بما يرويه المقريزى من الوقائع المادية.

على أننا
نميل من جانبنا إلى الأخذ بالرواية الأندلسية لقدمها واتفاقها، وكونها أقرب
إلى ميدان الحوادث
وأقرب إلى التحقيق.
وأما رواية المقريزى، فقد يحمل ما ورد فيها إلى اضطراب في ذكر الحوادث،
خصوصاً وأن الحرب الأهلية المصرية التي يشير إلى اشتراك الأندلسيين فيها
قد استمرت من سنة
١٩٩ إلى سنة ٢٠٥هـ، مما يمكن معه أن نوفق بين أقواله وبين حدوث واقعة
الربض في سنة ٢٠٢هـ
(وراجع النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦٩ و١٧٨) .

(٢٤٤/١)

لا أمان لمن لديه تخلف منهم.
وبدأ رحيلهم في العشرين من رمضان (٢٠٢هـ)
فتفرقوا في الثغور والكور، ولجأت جموع منهم إلى طليطلة لمخالفة أهلها على
الحكم يومئذ، وعبر البحر كثير منهم إلى عدوة المغرب، واتجهت جماعة
كبيرة
منهم قوامها زهاء خمسة عشر ألفاً إلى المشرق في عدة من السفن، ورست
في مياه
الإسكندرية، وكانت مصر تضطرم يومئذ بنار الحرب الأهلية التي نشبت بين
السّرى بن الحكم وبين خصومه حول ولايتها، فنزل الأندلسيون إلى الثغر
واستقروا فيه، واشتركوا في الحرب الأهلية، واستمرت الفتنة بمصر،
والأندلسيون
بالإسكندرية، حتى قدم عبد الله بن طاهر إلى مصر أميراً عليها من قبل
الخليفة
المأمون، فسار إلى الإسكندرية وحاصرها، واضطر الأندلسيون إلى الإذعان

والصلح، وغادروا الإسكندرية في سفنهم، وساروا إلى جزيرة إقريطش (كريت) ، بقيادة زعيمهم أبي حفص عمر بن عيسى البلوطى، وافتتحوها، ونزلوا
بها (٢١٢هـ - ٨٢٧ م) ، وأسسوا بها دولة صغيرة زاهرة استمرت زهاء قرن وثلث، حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة من المسلمين سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) .
هكذا كانت ثورة " الربض " التي كادت أن تحمل الحكم وعرشه، وكانت ثورة شعبية بمعنى الكلمة، ولكنها كانت دون تنظيم ودون زعامة، وقد أدرك الحكم خطورتها، ولم تأخذه في إخمادها هوادة ولا رأفة، وأصدر عقب إخمادها كتاباً إلى الكور يشرح فيه الواقعة وظروفها.
وقد رأينا أن ننقل نصه فيما يلى كوثيقة
سياسية وديوانية هامة من وثائق العصر:
" بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فإن الله ذوالفضل والمنن، والطول والعدل، إذا أراد إتمام أمر وتهميه، لمن جعله أهله وكفيه، سدده وأعزه، وأنفذ قضاءه بفلحه، ولم يجعل لأحد من خلقه قوة على عناده ودفاعه، حتى يمضى فيه حكمه
له وعليه كما شاء، وختم في أم الكتاب لا مبدل لكلماته عز وجل، وإنه لما كان
يوم الأربعاء لثلاث عشرة من شهر رمضان، تداعى فسقة أهل قرطبة وسفلتهم، وأذنبتهم من الشرطانيين، ألد الفئة، المعلوجى شراً وبطراً، عن غير مكروه سيرة، ولا قبيح أثر، ولا نكر حادثة، كان منا فيهم، فأظهروا السلاح، وتلينوا للكفاح، وهتفوا بالخلعان، وتأنقوا بالخلاف، ومدوا عنقاً إلى ما لم يجعله الله له أهلا من التأمير على خلقه، والتسور في حكمه.
فلما رأيت ذلك من

غدرهم وعدوانهم، أمرت بشد جدار المدينة، فشد بالرجال والأسلحة، ثم أنهضت الأجناد خيلا ورجالا، إلى من تداعى من الفسقة في أرباضها، فأقحموا

الخيل في شوارعهم وأزقتهم، وأخذوا بفوهاتها عليهم، ثم صدقوهم الحملات، وكورهم بالسَّدَّات المتواليات، فما صبر العبدان أن كشفوا السوءات، ومنحوا أكتافهم المتواليات، وأمكن الله منهم ذوى البصائر المؤيدات، فأسلمهم الله بجريرتهم، وصدعهم ببغيهم، وأخذهم بنكثهم، فقتلوا تقتيلا، وعموا تدميراً، وعروا تشويهاً وتمثيلا، جزاء عاجلا على الذى نكثوه من بيعتنا، ودفعوه من طاعتنا، ولعذاب الآخرة أخزى وأشد تنكيلا.

فلما قتلهم الله بجرمهم فيها، وأحسن العون عليهم لنا، أمسكت عن نهب الأموال، وسبى الذرية والعيال، وعن قتل من لا ذنب له من أهل البراءة والاعتزال، ازدلافاً إلى رضى الله ناصرى

عليهم ذى العزة والجلال، تهنأت صلحه وفلحه، واستورعت حمده وشكره، فاحمدوا الله ذا الآلاء والقمع، معشرة الأولياء والرعية، الذى أتاح لنا ولجميع المسلمين في قتلهم وإذلالهم، وقمعهم وإهلاكهم، مما أعظم به علينا المنة، وخصنا

فيه بالكفاية، وتمم علينا وعليكم به النعمة، فقد كانوا أهل جرأة مقدم، وذعرة ضلالة، واستخفاف بالأئمة، وظهير إلى المشركين، وحطوط إليهم، وتحنن لدولتهم، فلله الحمد المكرور، والاعتراف المذخور، على قطع دابرهم، وحسم شرهم، أحببت إعلامك بالذى كان من صنع الله عليهم لولائك بنا، ومكانك منا، لمشاركتنا في نصرته، وتحمد الله ومن قبلك من شيعتنا ومعتقدى طاعتنا، على جميل صنعه فيه، وتشيعوا شكره عليه إن شاء الله (١) .

ومن نظم الحكم في واقعة الربض قوله:

رأيت صدوع الأرض بالسيف واقعاً..

.

وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا

فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة..

.

أبادرها مستنضى السيف دارعا

---

(١) نقلنا هذه الوثيقة عن مخطوط ابن حيان المشار إليه (ص ١٠٣ و ١٠٤)

.

وتراجع

حوادث واقعة الربض في ابن الأبار (الحلة السيراء ص ٣٩ و ٤٠) ، والبيان المغرب (ج ٢

ص ٧٧ و ٧٨) ، والمعجب للمراكشى (ص ١١) ، وابن الأثير (ج ٦

ص ١٠١ و ١٠٢) ، وابن القوطية ص ٥١ و ٥٢.

ويورد ابن خلدون والمقرى عن الواقعة روايات محرفة متداخلة فى

حوادث سابقة (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦، ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٦) .

ووردت

في مخطوط ابن حيان عنها تفاصيل كثيرة منسوبة إلى الرازى وغيره (ص ١٠٣ - ١١٠) .

(٢٤٦/١)

تنبيك أنى لم أكن في قراعهم..

.

بوان وقد ما كنت بالسيف قارعا

وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم..

.

فوافوا منايا قدرت ومصارعا

فهذى بلادى إننى قد تركتها..

.

مهاداً ولم أترك عليها منازعا

وإنى إذ أجادر أجراعاً عن الردى..

.

فما كنت ذا جيد عن الموت جارعا

خرج الحكم ظافراً من تلك الثورة الشعبية بعد أن سحقها سحقاً.

ومع ذلك

فقد لبث أهل قرطبة على تحديهم له، ولبثوا يتغامزون عليه، ويقدحون فى سيرته.

وقد وصف لنا كاتب قريب من العصر، موقف أهل قرطبة بعد الواقعة من الحكم في قوله: " فأكثروا الخوض، وأطالوا الهمهمة، وفزع رؤوسهم الى السمر في مساجدهم بالليل، مستخفين من السلطان، مدبرين عليه، وقد كان

خائفاً من ثورتهم، متهمماً لدخلتهم، حذراً منهم، مستعداً لهم، مرتقباً لوثبتهم، مرتبطاً الخيل على باب قصره، نوباً بين غلمانه..

.

."

ثم إنه استكثر من العبيد

والسلاح، وعززهم بالأحرار، يرابطون دائماً حول القصر، واستشعر الناس من ذلك الهيبة والخوف، وركنوا إلى السكينة، وفرض الحكم العشور على جميع

الناس بقرطبة وبالكور، فزاد في نفورهم منه، وبغضهم له (١) .

وأثارت حوادث الربض، واستكانة الشعب، من جهة أخرى، قريض الشعراء الأحرار، من خصوم الحكم، والناقمين على عسفه وطغيانه، وصدرت في ذلك قصائد كثيرة تنعى مسلك أهل قرطبة واستكانتهم، ومن ذلك قول الشاعر غريب بن عبد الله من قصيدة طويلة:

يا أهل قرطبة الذين تواكلوا..

.

جد الدفاع من التواكل أفضل

جد الدفاع لو انكم دافعتم..

.

يوم الهياج لكم أعز وأجمل

إن التواكل وهنة ومذلة..

.

والجد فيه الصنع والمتمهل

صرتم أحاديث العباد وكنتم..

.

عوناً لهم في كل هم ينزل

أمسى عبيدكم الذين ملكتم..

.

ملكوا عليكم والأمور تحول

ومرض الحكم بعد ذلك واستطالت به العلة، فاستتاب عنه في أواخر عهده عبد الرحمن أكبر أولاده لتدبير الأمور (٢) ، واختاره لولاية عهده، وأخذ له البيعة

---

(١) مخطوط ابن حيان المشار إليه ص ١٠٥ و ١١٠.

(٢) ابن الأبار في الحلة السيراء ص ٤١.

*(٢٤٧/١)*

بالفعل، واختار أخاه المغيرة ليخلفه من بعده، ولكن المغيرة تنازل فيما بعد عن حقه في ولاية العهد.

وكان الحكم أول أمير من أمراء بني أمية بالأندلس أخذ

البيعة في حياته لولى عهده، وذلك خشية وقوع الخلاف بعد موته.
ثم توفى
الحكم في السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦هـ (٢٢ مايو سنة ٨٢٢ م) ، وقد بلغ الثانية والخمسين من عمره، ودفن مع آبائه في مقبرة القصر المعروفة
بالروضة.
وترك من الولد تسعة عشر من الذكور واثنين وثلاثين من الإناث.
وقيل إن الحكم أبدى حين مرض موته أسفه وندمه، لما أوقعه بأهل الربض من بالغ النكال والشدة، وصرح بأنه كان خيراً لو لم يفعل ما فعله (١) .
ولما شعر الحكم بدنو أجله استدعى ولده عبد الرحمن، وألقى إليه وصيته، وفيها يقول: " إنى وطدت لك الدنيا، وذللت لك الأعداء، وأقمت أود الخلافة، وأمنت عليك الخلاف والمنازعة، فاجر على ما نهجت لك من الطريقة، واعلم أن أولى الأمور بك، وأوجبها عليك، حفظ أهلك، ثم عشيرتك، ثم الذين
يلونهم من مواليك وشيعتك، فهم أنصارك وأهل دعوتك، ومشاركوك فى حُلوِك ومرِّك، فبهم أنزل ثقتك، وإياهم واس من نعمتك، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى مراتبهم من عوام رعيتك، الذين لا يزالون ناقمين على الملوك
أفعالهم، مستثقلين لأعبائهم، فاحسم عللهم ببسط العدل لكافتهم، واحسام أولى الفضل والسداد لأحكامهم وعمالاتهم، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة، وإن رأيت فيمن يرتقى من صنائعك رجلا لم تنهض به سابقة، ويشف بخصلة، وتطمح نفسه وهمته، فأعنه واختبره، وقدمه واصطنعه، ولا يريبنك خمول أوله، فان أول كل شرف خارجيته، ولا تَدَعن مجازاة المحسن بإحسانه، ومعاقبة
المسيء بإساءته، فإن عند التزامك لهذين، ووضعك لهما مواضعهما، يرغب فيك، ويرهب منك.

وملاك أمرك كله بالمال، وحفظه، بأخذه من حله، وصرفه في حقه، فإنه روح الملك المدبر بجثمانه، فلا تجعل بينك وبينه أحداً، فى الإشراف على اجتنائه وادخاره، والتثقيف لإنفاقه وعطائه.

وختام وصيتى

إياك بإحكامك في أحكامك، فاتق الله ما استطعت، وإلى الله أكلك، وإياه استحفظك، فقد هان على الموت إذ خلفنى مثلك " (٢) .

---

(١) ابن القوطية ص ٥٥.

(٢) نقلنا نص هذه الوصية عن مخطوط ابن حيان.

وقد وردت فيه برواية الرازى ومعاوية

هشام الشبينسى في نصين مختلفين حاولنا أن ننسق بينهما.

(٢٤٨/١)

وكان الحكم أميراً قوى النفس، وافر العزم، فطناً، حسن التدبير، واسع الحيلة، نافذ الرأى والحزم، صارماً يؤثر وسائل الطغيان المطلق، شديد الاستئثار

بسلطانه، حريصاً على حمايته من كل تدخل أو نفوذ.

وكان مثل جده عبد الرحمن

الداخل يلتمس الغاية بأى الوسائل، ويذهب في صرامته وطغيانه إلى حد القسوة

والقمع الذريع، ولم يكن يحجم مثله عن الالتجاء إلى وسائل لا تقرها المبادئ الأخلاقية القويمة.

وكان شغوفاً بأبهة الملك، مسرفاً في مظاهر البذخ الطائل، كثير الترفع عن العامة، ولم يكن كأبيه وجده محبباً إلى الشعب، بل كان بالعكس

مكروهاً من الكافة، وكان الفقهاء يبثون هذا البغض في نفوسهم بوسائلهم الخاصة، لما عمد إليه الحكم من سحق سلطانهم ونفوذهم.

ومع ذلك فقد كان

الحكم بالرغم من عسفه وطغيانه، أميراً مستنيراً، يؤثر العدل، ويحرص على إقامته، ويختار لقضائه أفضل الناس، وأكثرهم نزاهة وورعاً، وكان يسلط قضاته

على نفسه، وعلى ولده وخاصته.

وكان قاضيه محمد بن بشير من أعظم القضاة

نزاهة واستقلالا في الرأى والحكم (١) .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن الحكم كان أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس، والواقع أنه أول من أنشأ بالأندلس بلاطاً إسلامياً ملوكياً بكل معانى الكلمة، ورتب نظمه ورسومه، وأقام له بطانة ملوكية فخمة، فاستكثر من الموالى والحشم، وأنشأ الحرس الخاص، وفي عهده ظهر الصقالبة لأول مرة في البلاط بكثرة، وكان جده عبد الرحمن الداخل أول من وضع سياسة اصطفاء الموالى لاسترابته

بالعرب كما قدمنا، وتوسع حفيده الحكم في تطبيق هذه السياسة، فاستكثر من الموالى والصقالبة، وعهد إليهم بمعظم شؤون القصر والخاص.

وكان هؤلاء

الصقالبة (٢) على الأغلب من الرقيق والخصيان، الذين يؤتى بهم بالأخص من بلاد

الفرنج وحوض الدانوب وبلاد اللونبارد ومختلف ثغور البحر الأبيض

النصرانية، وكان يؤتى بهم أطفالا من الجنسين ويربون تربية إسلامية، ثم يدربون على أعمال

البطانة وشئون القصر، وقد سما شأنهم فيما بعد، وتولوا مناصب الرياسة والقيادة،

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٢٤؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٠؛ والمعجب ص ١١.

(٢) يرى البعض أن كلمة صقالبة قد اشتقت في الأصل من كلمة Esclave الإفرنجية.
ومعناها الرقيق أو الأسير.
راجع Reinaud: ibid , p.
٢٣٧

(٢٤٩/١)

وبلغ عددهم في عهد الحكم زهاء خمسة آلاف (١) .
وكان للحكم فرقة من الحرس
الخاص معظمهم من فيء أربونة ورثهم عن والده هشام، وقد أبلوا في الدفاع عنه يوم الربض أحسن البلاء، فأعتقهم جميعاً، وأغدق عليهم صلاته (٢) .
وكان
الحكم فارساً مجيداً، يعشق الفروسية والصيد، وكانت له ألفا فرس من الجياد الصافنات مرتبطة على شاطىء النهر تجاه القصر، يشرف عليها جماعة من العرفاء
البارعين (٣) .
وكانت له شرطة قوية منظمة، وله عيون يطالعونه بأحوال الناس.
وعلى الجملة فقد كان الحكم أميراً عظيم السلطان والهيبة، يسطع بلاطه، كما تسطع
خلاله، ويثير من حوله بهاء الملك وروعته، وقد شبهه بعضهم بأبى جعفر المنصور في قوة الملك، وتوطيد الدولة، وقمع الأعداء (٤) .
وكان الحكم فوق ذلك خطيباً مفوهاً، وشاعراً مجيداً، نظم الشعر في مختلف المناسبات، من أحداث الحرب والسياسة، والفخر والغزل وغيرها.
وقد أوردنا
فيما تقدم شيئاً من نظمه في واقعة الربض، ومن قوله في الفخر:
غناء صليل البيض أشهى إلى الأذن..

.

من اللحن في الأوتار واللهو والردن

إذا اختلفت زرق الأسنة والقنا..

.

أرتك نجوماً يطلعن من الطعن

بها يهتدى السارى وينكشف الدجى..

.

وتستشعر الدنيا لباساً من الأمن

وإن تجد الأبطال حصناً ومعقلا..

.

فما لى غير السيف في الأرض من حصن

قذفت بهم في فضا الأرض فانزوت..

.

له الأرض واستولى على السهل والحزن

ومن قوله في الغزل:

قضب من البان ماست فوق كثبان..

.

ولَّيْن عنى وقد أزمعن هجرانى

ناشدتهن بحقى فاعتزمن على ال..

.

عصيان لما خلا منهن عصيانى

ملكننى ملكاً ذلت عزائمه..

.

للحب ذل أثير موثق عانى

من لى بمغتصبات الروح من بدنى..

.

يغصبننى في الهوى عزِّى وسلطانى

---

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ص ٧٥؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ و ١٦٠؛ وابن
الأثير ج ٦ ص ١٢٨.

(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه (ص ١٠٦) .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٢٩، والبيان المغرب ج ٢ ص ٨١.

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٧؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨؛ ونفح الطيب ج ١
ص ١٥٩.

(٢٥٠/١)

على أن هذه الخلال الباهرة التي كان يتمتع بها الحكم، لم تكن دون نواح قائمة
هى دائماً مما يغلب لدى الطغاة الأقوياء، وقد ذكر لنا ابن حزم أنه كان من المجاهرين بالمعاصى السفاكين للدماء.
ويزيد ابن حزم على ذلك أن الحكم كان يخصى
من اشتهر بالجمال من أبناء رعيته، ليدخلهم إلى قصره ويصيرهم من خدمه، ومن
هؤلاء طرفة بن لقيط، وهو من أسرة نابهة تصرف أبناؤها في الولايات
الرفيعة، ومنهم نصر صاحب منية نصر، وهو الذى غدا في عهد ولده عبد الرحمن من أعظم
رجالات الدولة مكانة ونفوذاً (١) .
وكان الحكم مديد القامة، أسمر، نحيفاً، وكان يلقب بالحكم المنتصر، وبالحكم الربضى، نسبة إلى ما حدث منه في واقعة الربض.
وكانت حكومة الحكم تضم طائفة من الشخصيات البارزة في تاريخ الأندلس

في ذلك العصر، فتولى حجابته (رياسة الوزارة) عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث قائد أبيه من قبل، وكان جندياً عظيماً، قاد عدة غزوات مظفرة إلى بلاد النصارى، وكان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً (٢) .

وخلفه في الحجابة

عبد العزيز بن أبي عبْدَة، وكان قائداً كبيراً وسياسياً بارعاً.

وكان بين قواده

ووزرائه أيضا، اسحاق بن المنذر، والعبّاس بن عبد الله.

وفى عهد الحكم

أنشى بالدولة منصب خاص لإدارة شؤون أهل الذمة (النصارى واليهود) ينعت

صاحبه بالقومس (٣) ، وعين فيه ربيع بن تدلف القومس، قائد الغلمان الخاصة

ومتولى قهرمة الأمير الحكم وشئونه الخاصة، وكان طاغية ظلوماً يبغضه الجميع، وقد أمر الحكم بقتله قبيل وفاته، فنفذ فيه الحكم ولى العهد عبد الرحمن، وتم

إعدامه وسط الاغتباط العام.

وذكر البعض أن هذا المنصب أنشئ في عهد

---

(١) مخطوط ابن حيان السالف الذكر ص ١٢٨.

وراجع رسالة ابن حزم المسماة " نقط

العروس " المنشورة بعناية الدكتور شوقى ضيف في مجلة كلية الآداب

(ديسمبر سنة ١٩٥١) ، ص ٧٣.

وكذلك نفح الطيب ج ١ ص ١٦٠.

(٢) ابن الأبار في الحلة السيراء ص ٧٢.

(٣) مخطوط ابن حيان.

والقومس تعريب للكلمة اللاتينية Comes، وتعرب أحياناً بكلمة
" قمط "، أعنى " الكونت " Comte باللغة الحديثة.

(٢٥١/١)

عبد الرحمن الداخل (١) .
ولكن الظاهر أنه لم يرتب بصورة ثابتة وتحدد اختصاصاته
إلا في عهد الحكم.
وكان عصر الحكم، بالرغم مما غشيه من الاضطرابات والفتن، عصراً
ازدهرت فيه الآداب والعلوم، وظهر فيه عدد جم من أكابر الكتاب والشعراء
والعلماء.
وكان في مقدمتهم شاعر الحكم الأثير لديه، وقطب الشعر في عصره، عباس
بن ناصح الثقفى الجزيرى، وكان فضلا عن براعته في الشعر والأدب، بارعاً
في علوم اللغة، وفي الهندسة والفلسفة والفلك، وكانت له منزلة خاصة
عند الحكم، وله في مديحه أشعار كثيرة.
وقد ولاه الحكم قضاء الجزيره بلده
ومسقط رأسه، ثم وليه من بعده ولده عبد الوهاب بن عباس، وكان مثله
شاعراً نابهاً، وتوفى أواخر عهد الحكم (٢) .
وكان من أعلام عصر الحكم أبو القاسم عباس بن فرناس، وهو فيلسوف
وعلامة رياضى من نوع فذ، وقد ولد في مقاطعة تاكرنا من أصل بربرى، برع
منذ فتوته في الفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية، وهو أول من استنبط
بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وبرع أيضاً في الموسيقى، وصنع آلة
فلكية تعرف " بالميقاتة " لتعريف الوقت، وله مخترعات كثيرة أخرى.
وروى
بعضهم أنه حاول أن يخترع أداة للطيران، فصنع لنفسه جناحين بهيئة
مخصوصة، وحاول الطيران من ناحية الرُّصافة، فحلق في الهواء، ثم وقع في
مكان طيرانه

على مسافة بعيدة، واشتهر أمره بذلك حتى قال فيه مؤمن بن سعيد الشاعر:
يطم على العنقاء في طيرانها..
.
إذا ما كسى جثمانه ريش قشعم
وذكر عبد الحميد بن بسيل الوزير، قال: " أبدع عباس بن فرناس طول أمده إبداعات لطيفة واختراعات عجيبه، وضرب بالعود، وصاغ الألحان الحسنة، وكان مع ذلك مجيداً للشعر، حسن التصرف في طريقته، كثير المحاسن
جم الفوائد ".
وأثار ابن فرناس باختراعاته المدهشة ريب الجهلاء، فكثر الطعن في عقيدته، واتهم بالزندقة، ولكن القضاء لم يجد سبيلا إلى إدانته، وعاش طويلا
وعاصر من بعد الحكم، ولده عبد الرحمن، وتوفى في عهد حفيده الأمير محمد بن

---

(١) ابن القوطية ص ٣٨.
ويقول إن أول من تولى " القماسة " هو ارطباس ابن وتيزا.
(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٢٨ و ١٢٩.
وراجع تاريخ العلماء والرواة لابن الفرضى
رقم ٨٨١ (طبع مصر ص ٣٤٠) .

(٢٥٢/١)

عبد الرحمن (١) ونظم كثيراً من مختار الشعر في العهود الثلاثة.
وسوف نعود إلى ذكره.
ومن أعلام عصر الحكم أيضاً، يحيى الغزال الجيانى، وهو أبو زكريا يحيى ابن الحكم البكرى، نسبة إلى بكر بن وائل، وأصله من مدينة جيان، ولقب

بالغزال لجماله وظرفه وتأنقه، وكان شاعراً جزلا مطبوعاً، وبرع بالأخص فى الغزل، وله في النسائيات كثير من رقيق النظم، وكان فوق ذلك عالماً بالفلك والفلسفة، وله أرجوزة طويلة في أبواب العلوم لم تصل الينا، وكان كثير التعريض بالفقهاء والحملة عليهم، حتى سخطوا عليه، ورموه بالزندقة، لصراحته وحر تفكيره.

وهو القائل فيهم:

لست تلقى الفقيه إلا غنيّا..

.

ليت شعرى من أين يستغنونا

تقطع البر والبحار طلاب ال..

.

رزق والقوم ها هنا قاعدونا

إن للقوم مضرباً غاب عنا..

.

لم يصب قصد وجهه الراكبونا

وله في ذكر النفس والروح قصيدة، أثارت حول عقيدته شبها وريباً، يقول فيها:

يا ليت شعرى أى شيء محصل..

.

يرى شخص من قد مات وهو دفين

أهو هو أم خلق شبيه بما رأ..

.

ى فقل للقلوب النائمات عيون

وكيف يرى والعين قد مات نورها..

.

وواقعه شبه الوقار سكون

لئن كانت الأرواح من بعد بيتها..

.

بهن إلى ما خلفهن حنين

وقال يمدح الحكم في قصيدة مطلعها:

كأن الملوك الغُلّب عندك خُضَّعاً..

.

خواضع طير يتقى الصقر لُبّد

تقلب فيهم مقلة حكمية..

.

فتخفض أقواماً وقوماً تُسوِّد

واشتهر الغزال فوق ذلك بأصالة الرأى، وحسن التدبير، واللباقة، والدهاء

وقد رشحته هذه الصفات فيما بعد، في عصر عبد الرحمن بن الحكم للقيام

ببعض

المهام الدبلوماسية الخطيرة، وهو ما سوف نعود إليه في موضعه.

---

(١) المخطوط السابق الذكر ص ١٣١؛ ١٣٢.

(٢٥٣/١)

الفصل السادس

عبد الرحمن بن الحكم

ولاية عبد الرحمن بن الحكم.

الثورة في تدمير.

شغب أهل الذمة.

غزو ألبة والقلاع.

وفاة الحاجب عبد الكريم.

نكبة جديدة للفرنج.

حوادث الثغر الأعلى.
ثورة البرْبر في ماردة.
مغامرات محمود بن عبد الجبار وأخته جميلة العذراء.
ثورة هاشم الضراب في طليطلة.
مسير الجند
إليها ومصرع الضراب.
محاصرة طليطلة وثبات الثوار.
تعاقب الحملات إليها.
حصارها للمرة الثانية.
وخضوعها.
الصوائف.
غزو عبد الرحمن لنافار.
خروج والى تطيلة وتحالفه مع النصارى.
بنى قسى
وأصلهم.
مسير عبد الرحمن إلى الشمال.
زحفه على نافار واقتحامه لبنبلونة.
هزيمة الثوار والنصارى.
وفاة ألفونسو الثاني.
النورمانيون أو المجوس.
بدء ظهورهم في المياه الإسبانية.
غزوهم لثغر أشبونة.
إقتحامهم للنهر حتى إشبيلية.
غزوهم لها وعيثهم فيها.
الحرب بين المسلمين والغزاة.
هزيمة النورمانيين

وانسحابهم.

اهتمام حكومة قرطبة بأمر الأسطول.

غزو جليقية.

حوادث الثغر الأعلى.

غزو ميورقة.

الحملات البحرية الأندلسية إلى شواطىء فرنسا وكورسيكا وسردانية.

الحرب بين المسلمين والبشكنس.

مجتمع النصارى في قرطبة.

كيف يصفه المستشرق سيمونيت.

حملته على الحكومة الإسلامية.

الغلاة

المتعصبون.

بغضهم للمسلمين وتحاملهم على الإسلام.

مجاهرتهم بسب النبى.

عقاب المعتدين.

دسائس

الأحبار وتفاقم الفتنة.

أقوال العلامة ألتاميرا.

مجتمع الأساقفة وحزم الحكومة.

قصة الفتاة فلورا.

وفاة عبد الرحمن.

صفاته وخلاله.

روعة البلاط الأموى في عهده.

ترتيب الوزارة.

وزراؤه وكتابه

وقضاته.

اصطفاؤه للموالى والصقالبة.
الفتى نصر.
نفوذ الفتيان والجوارى.
منشآته.
الأمن والرخاء
في عهده.
أدبه وشعره.
حمايته للعلوم والآداب.
استقدامه لزرياب نابغة الموسيقى.
شغفه بجمع
الكتب.
سفارة قيصر قسطنطينية إليه.
بواعث هذه السفارة.
سفارة عبد الرحمن إلى القيصر وكتابه إليه.
يحيى الغزال في بلاط بيزنطية.
سفارته إلى ملك النورمانيين.
لما توفى الحكم، خلفه عبد الرحمن أكبر أولاده بعهد منه، وكان ينوب عنه في الحكم أثناء مرضه حسبما قدمنا، وبويع في اليوم التالى لوفاة أبيه، في السابع
والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ (مايو ٨٢٢ م) ، وأخذ له البيعة بالقصر الحاجب عبد الكريم، وكان حينما ولى العرش في الحادية والثلاثين من عمره، إذ
كان مولده بطليطلة في سنة ١٧٦هـ (٧٩٢ م) ، وأمه أم ولد تدعى " حلاوة "،
وكان أحب أبناء الحكم إليه، وقد عنى بتربيته وتثقيفه عناية خاصة.
وشغف

عبد الرحمن، منذ فتوته بالأدب والحكمة، ودرس الحديث والفقه، فكان ذهناً مستنيراً (١) ، وكان فوق ذلك أميراً رفيع الخلال والكفاية، وافر الخبرة بشؤون

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٣٥.

(٢٥٤/١)

الحرب والإدارة، يحسن اختيار الرجال للمناصب، فكان يحشد حوله خيرة رجال الدولة من الوزراء والقادة والولاة والقضاة (١) .

وفى فاتحة ولايته، عاد عبد الله البلنسى، عم أبيه، إلى الثورة مرة أخرى، واحتل كورة تدمير مطالباً بإقطاعها (سنة ٢٠٧هـ) ، والتف حوله جمع كثير، وكان

يزمع الزحف إلى قرطبة بالرغم من ضعفه وشيخوخته، ولكن المرض عاجله، وتوفى في العام التالى (سنة ٢٠٨هـ) ، فاحتل عبد الرحمن كورة تدمير، وتكفل

بأهله وولده، وانتهت بذلك آخر مرحلة في فتنة طالما تكرر حدوثها منذ وفاة عبد الرحمن الداخل.

ولكن تدمير لبثت مع ذلك تضطرم بنار ثورة داخلية من نوع جديد. ذلك

أن فتنة نشبت فيها بين المضرية واليمنية، من جراء موت مضرى قتله يمانى، واستفحل الشر بينهما، وقتل كثير من الفريقين، فبعث عبد الرحمن إليهم حملة بقيادة يحيى بن عبد الله، وعينه والياً على تدمير، ولكنه لم يفلح في إخضاع الولاية الثائرة.

واستمرت الفتنة على أشدها، وغلب على تدمير أبو الشماخ زعيم

اليمنية، ولبث بضعة أعوام يتحدى سلطة قرطبة، والبعوث تتردد إليه في كل عام، دون أن تنال منه منالا، ولم تهدأ الفتنة إلا في سنة ٢١٣ هـ، حيث خضع

أبو الشماخ وغيره من الزعماء، وطلبوا الأمان، وعادوا إلى الطاعة.

وحدثت في قرطبة عقب جلوس عبد الرحمن بأيام قلائل، فتنة شعبية من نوع ما حدث أيام الربض.

ذلك أن وفوداً من أهل الذمة وغيرهم قدمت من إلبيرة

تطالب برفع المغارم التي فرضها عليهم ربيع الأسقف، وانضم إليهم كثير من أهل

قرطبة النصارى، وساروا إلى القصر في ضجة كبيرة، فأرسل إليهم عبد الرحمن

قوة من الفتيان لتهدئتهم فاعتدوا عليها، فبعث عندئذ الجند إليهم، ففتكوا بهم

وقتل منهم خلق كثير، وفر الباقون في مختلف الأنحاء، وكان ذلك في المحرم

سنة ٢٠٧ هـ (٢) .

وبدأ عبد الرحمن برنامجه في الغزو والجهاد مبكراً، فبعث في صيف سنة

٢٠٨هـ (٨٢٣ م) حملة إلى ألبة والقلاع بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد

ابن مغيث، وكان ألفونسو الثاني ملك جليقية (أو ليون) قد أغار على

---

(١) مخطوط ابن حيان ص ١٣٨.

(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه، وابن الأثير ج ٦ ص ١٣٠.



مدينة سالم Medinaceli من أعمال الثغر الأعلى، وحذت حذوه بعض القبائل الجبلية

من أهل بسكونية، فأغارت على أطراف الثغر وعاثت فيها، فاخترق الحاجب

بسائط ألبة والقلاع، وهزم النصارى في عدة مواقع، وعاث في ألبة وخرب

مدينة ليون وأحرق حصونها، واشترط على النصارى أن يدفعوا جزية كبيرة،

وأن يطلقوا أسرى المسلمين، وأن يسلموا بعض زعمائهم كفالة بسكينتهم، وعاد

الحاجب إلى قرطبة مثقلا بالغنائم والسبى.
وكانت هذه آخر غزوة قام بها هذا
الوزير النابه والقائد المظفر، الذى قاد معظم الغزوات الكبرى إلى أرض
العدو، منذ عهد هشام بن عبد الرحمن، إذ توفى عقب عوده إلى قرطبة بقليل
في المحرم
سنة ٢٠٩هـ (٨٢٤ م) (١) .
وفى هذا العام (٨٢٤ م) أصيب الفرنج بهزيمة ساحقة في أحواز بنبلونة، فى
سفح جبال البرنيه، عند باب شزروا، حيث نكب جيش شارلمان من قبل،
ويبدو من أقوال الرواية الفرنجية أن المسلمين كان لهم دور كبير في إيقاع
هذه
الهزيمة.
ذلك أن لويس ملك الفرنج أرسل قواته بقيادة الكونتين أزنار وإبلو
لمهاجمة البشكنس وإخضاعهم، فاستغاث البشكنس بجيرانهم المسلمين،
والظاهر
أن الذى لبى نداء البشكنس هم بنو موسى أو بنو قسيّ أصحاب تطيلة، وأن
هذه
المعاونة كانت بموافقة حكومة قرطبة.
وعلى أى حال فقد أحرز المسلمون
والبشكنس على الفرنج نصراً ساحقاً، وأسر القائدان أزنار وإبلو، ثم أطلق
سراح
الأول وأرسل الثاني إلى قرطبة حيث اعتقل بعض الوقت.
وقد أثار هذا الحادث
ذكريات موقعة باب شزروا الكبرى التي نكب فيها الفرنج أيام الأمير عبد
الرحمن
الداخل، قبل ذلك بستة وأربعين عاماً (٢) .
وتولى قيادة الصائفة بعد الحاجب عبد الكريم (٣) ، أمية بن معاوية بن

هشام، ولكنه لم يسر إلى أرض العدو، بل سار إلى شنت برية، ثم إلى تدمير ليعمل
على تهدئة الثورة.
وكانت حوادث الشمال قد عادت تتطلب اهتمام قرطبة، وكان

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٦١؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٤.
(٢) راجع: R.
M.
Pidal: ibid, Vol.
I.
p.
١٩٥، وكذلك كوندى: Conde: ibid ؛
Vol.
I.
p.
٢٦٤ & ٢٦٥
(٣) كانت معظم الحملات والغزوات الإسلامية الكبرى، تنظم في الصيف باعتباره خير
الفصول للقيام بمثل هذه الغزوات، ولهذا كانت تسمى بالصائفة والصوائف.

(٢٥٦/١)

الفرنج في الثغر القوطى قد تحركوا، وأغاروا على أطراف الثغر الأعلى، بقيادة
أميرهم برنهارت صاحب برشلونة، وهو ولد جيوم دوق تولوز، فسير
عبد الرحمن إلى الشمال جيشاً كبيراً بقيادة عبيد الله بن عبد الله البلنسى، فاخترق

الثغر الأعلى إلى أراضي الفرنج (٢١٢هـ - ٨٢٧ م) واجتاح ولاية قطلونية، وهزم الفرنج في عدة مواقع، وسار حتى جرُندة (جيرونة) ، ولكنه لم يحاول أن يحرز فتوحاً ثابتة، فارتد إلى الجنوب بَعد أن مزق شمل النصارى في تلك الأنحاء (١) .

وشغلت عبد الرحمن في الأعوام التالية عدة ثورات محلية خطيرة، وكانت الفتنة

تضطرم في نفس مواطنها، القديمة، في طليطلة، وماردة، حيث كانت عناصر

الخروج والثورة تحتشد وتعمل بعيدة عن العاصمة، ممتنعة بالوهاد والوعر، قريبة من

النصارى، تتلقى منهم الوحى والعون في أحيان كثيرة.

ففى ماردة ثار البربر بقيادة

زعيمين من زعمائهم هما محمود بن عبد الجبار بن راحلة، وهو من بني طريف من

مصمودة، وسليمان بن مرتين، وانضم إليهم النصارى المعاهدون.

وألفى لويس ملك

الفرنج فرصة جديدة للدس والتحريض على حكومة قرطبة، فبعث إلى الثوار يشجعهم

ويعدهم بالمدد والعون (٢) .

وكان محمود زعيماً قوياً ومغامراً جريئاً، فوثب بعامل

ماردة وقتله، وعاث في تلك الأنحاء قتلاً ونهباً وتخريباً، وتوالت إليه بعوث

عبد الرحمن، فكان في كل مرة يعتصم بالمدينة، فإذا غادره الجند عاد إلى عيثه

وسفكه.

وفى سنة ٢١٨هـ (٨٣٣ م) سار إليه عبد الرحمن بنفسه، فغادر ماردة

في صحبه ومعه زميله سليمان، وخرجت مع محمود أخته جميلة العذراء،

وهى
فارسة بارعة الحسن، اشتهرت يومئذ في جميع أنحاء الأندلس برائع جمالها، كما
اشتهرت بالشجاعة والنجدة والفروسية، ولقاء الفرسان ومبارزتهم (٣) ، ونزل الثوار
بحصن فرنكش على ضفة نهر وادي يانة.
ثم غادر سليمان زميله، واستقل محمود
بالعمل، وزحف في جموعه على بطليوس، ثم على أكشونبة (٤) ثم سار إلى باجة، فقاتَلَه أهلها، ولكنه تغلب عليهم بمعاونة أخته جميلة، وبسط محمود سلطانه على

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٨٥؛ ومخطوط ابن حيان ص ١٨٠.
(٢) Scott: ibid , Vol.
I.
p.
٤٨٢
(٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٤٦٦.
(٤) بطليوس بالإسبانية Badajoz، وأكشونبة Ocsonoba

(٢٥٧/١)

باجة، وهو يقاتل خصومه من حوله، وبعوث الأمير تتردد إليه، حتى لحقه الإعياء واليأس، ففر مع أخته وصحبه إلى جليقية، واستجار بملكها ألفونسو الثاني، فرحب به وأكرم وفادته، وأنزله بأطراف مملكته.
وبعد حين رأى الثائر أن
يعود إلى الطاعة فكاتب عبد الرحمن، ووقف ألفونسو على هذه المحاولة، فخشى

إن أفلت الثائر منه أن ينقلب حرباً عليه، فسار إليه وأحاطت به الجند من كل ناحية، ودافع محمود عن نفسه دفاع الأبطال، ولكنه قتل أخيراً، وأسر أهله وصحبه، وكانت أخته الحسناء جميلة بين الأسرى (٢٢٥ هـ - ٨٤٠ م) .
ووقعت
جميلة في نصيب كبير من كبراء النصارى، فحملها على اعتناق النصرانية
وتزوج
منها، وكان من ولدها فيما بعد أسقف شنت ياقب (١) .
واضطرمت طليطلة بالثورة في نفس الوقت، ففى سنة ٢١٤هـ (٨٢٩ م)
ثار بها زعيم من العامة يدعى هاشم الضراب، وكان هاشم في طليطلة أيام
واقعة
الحفرة، تم أخذ بين الرهائن إلى قرطبة، فاشتغل بها حداداً مدى حين وعرف بالضراب، ثم غادرها إلى طليطلة، وهناك اجتمع إليه عدد كبير من الأوغاد والسفلة، فأخذ يغير بهم على الأنحاء المجاورة، حتى اشتد بأسه وطار صيته، وهرع إلى لوائه أهل الشر والبغى من كل صوب، وسار إلى البربر في شنت برية، فأغار عليهم وأوقع بهم، فبعث عبد الرحمن الجند لقتاله بقيادة محمد بن رستم، عامل الثغر الأدنى، فنشبت بينه وبين الثوار عدة وقائع غير حاسمة.
وفى العام التالى بعث عبد الرحمن إلى عامله بالمدد، فزحف على الثوار
والتقى بهم
على مقربة من حصن سمسطا بمجاورة رورية، ونشبت بين الفريقين موقعة عنيفة هزم فيها الثوار، وقتل هاشم الضراب وكثير من أصحابه، وذلك فى سنة ٢١٦هـ (٨٣١ م) .
ولكن طليطلة استمرت مع ذلك على اضطرامها، وكان على عبد الرحمن أن يخوض معارك أخرى لإخضاعها.
ففى سنة ٢١٩هـ (٨٣٤ م) أرسل إليها
جيشاً بقيادة أخيه أمية بن الحكم، فحاصرها وانتسف ما حولها من الزروع، ولكن المدينة الثائرة لم تهن ولم تخضع، فرحل عنها، وأبقى بعض قواته بقيادة

(١) وردت هذه التفاصيل الشائقة في مخطوط ابن حيان (ص ١٨٢ و١٨٣ و١٨٤) .

وراجع ابن القوطية ص ٦٧.

(٢٥٨/١)

ميسرة الفتى في قلعة رباح (١) الواقعة في جنوبها استعداداً في لمحاصرتها، فخرج

عندئذ أهل طليطلة لقتال ميسرة، فظهر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، فارتدرا

إلى داخل المدينة، وعادوا إلى الاعتصام بأسوارها المنيعة.

وفى العام التالى (سنة

٢٢٠ هـ) سار إليهم عبد الرحمن بنفسه، فثبتت في وجهه المدينة الثائرة، فترك

الجند في قلعة رباح، وسار إلى الغرب في أحواز ماردة، ليطارد سليمان بن مرتين

زعيم البربر، وكان بعد أن تخلف عن زميله محمود بن عبد الجبار، يتزعم الثورة

في تلك الأنحاء، فحاصره عبد الرحمن، وحدث أن قتل الثائر في سقطة مميتة عن

جواده، فانفضت جموعه وخبت ثورته.

وسير عبد الرحمن في العام التالى حملة

أخرى إلى طليطلة بقيادة أخيه الوليد بن الحكم، فضرب حولها الحصار

الصارم، واستمر على حصارها حتى جهد أهلها، وضاقوا بالحصار ذرعاً، ثم هاجمها

بعد ذلك واقتحم أسوارها، وخضعت المدينة الثائرة، بعد أعوام عديدة من

فتن وثورات مستمرة، كان يغذيها خلالها روح التمرد المتأصل في شعبها،

ودسائس البربر والنصارى من أهلها، وتحريض الفرنج والجلالقة، وكان
خضوعها في رجب سنة ٢٢٢هـ (٨٣٧ م) (٢) .
واستطاع عبد الرحمن بعد إخماد الثورة في مختلف النواحى، أن يستأنف
أعمال الجهاد والغزو، فعكف في الأعوام التالية على تسيير الصوائف أو
حملات
الغزو الصيفية متعاقبة في كل عام إلى الشمال، تارة إلى أطراف الثغر
الأعلى، حيث تشتبك مع الفرنج، وتثخن في أراضيهم، وتارة إلى ألبة والقلاع،
حيث
تغير على أراضي البشكنس، أو أطراف مملكة ليون (جليقية) ، وتولى عبد
الرحمن
قيادة الصائفة بنفسه إلى جليقية في سنة ٢٢٥هـ (٨٤٠ م) .
وفى سنة ٢٢٧هـ
(٨٤٢ م) سار عبد الرحمن إلى الشمال، وكان موسى بن موسى بن قسىّ
والى
تُطيلة (٣) من أعمال الثغر الأعلى (أراجون) ، قد خرج عن طاعته وتحالف
مع
غرسية (٤) أمير نافار، وأوقع الإثنان بجند الأمير في الثغر، وعاثا في
أنحائه.

---

(١) ومقابلها بالإسبانية Calatrava
(٢) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ١٤١ و ١٥٠ و١٥٣ و ١٦١، والبيان المغرب
ج ٢
ص ٨٥ و٨٦ و٨٧.
(٣) وهى بالإسبانية Tudela
(٤) وهى بالإسبانية Garcia

وتقول الرواية في سبب نقض موسى الطاعة، أن عبد الرحمن كان قد ولى
عبد الله بن كليب على سرقسطة، وعامر بن كليب على تُطيلة، فأغار عبد
الله على
أموال ينقة بن ونقة أخي موسى لأمه، واعتدى عامر بن كليب على أملاك
موسى وخيله، وانتهب أمواله، وخرب حدائقه، فعندئذ أعلن الخروج
والعصيان، وكان ذلك في سنة ٢٢٦هـ (١) .
فسار عبد الرحمن إلى بلاد البشكنس
(نافار) ، وتوغل فيها حتى بنبلونة، وعاث فيها نسفاً وتخريباً، وسبى من
أهلها جموعاً كثيرة.
ولا بد لنا هنا من التعريف بهذا الزعيم الثائر موسى بن موسى، إذ هو
سوف يحتل منذ الآن فصاعداً، هو وأبناؤه ة حيزاً كبيراً في تاريخ الثورة على
حكومة قرطبة.
فهو وفقاً لابن حيان، وابن حزم، موسى بن موسى بن فرتون
ابن قسيّ (أو القسوى) .
وكان جده الأعلى، الكونت قسيّ Kasi من أشراف
القوط، وكان وقت الفتح "قومس" Comes الثغر الأعلى، فلما غزا المسلمون
أراضيه سار إلى الشام، واعتنق الإسلام على يدى الخليفة الوليد بن عبد
الملك، وذلك لكى يحتفظ في ظل الغزاة الجدد، بأملاكه وسلطانه الإقطاعى،
واعتبر
بإسلامه على يدى الخليفة من مواليه، وانحاز بطريق هذا الولاء إلى جانب
المضرية.
وعدا أولاده وأحفاده من بعده زعماء المولدين في الثغر الأعلى.
وكانوا من أنجاد
الزعماء والفرسان، يمتازون بالجرأة والإقدام والشجاعة، ويعتزون دائماً بأصلهم

القوطى النصرانى، وكانت لهم دائماً علائق مصاهرة مع جيرانهم من الأمراء النصارى، من البشكنس وغيرهم، وكان إسلامهم في الواقع مظهراً سطحياً لاغتنام السلطان
والنفوذ، وكانوا لا يشعرون بالولاء نحو حكومة قرطبة، يصانعونها متى وجبت المصانعة، احتفاظاً بمركزهم وسلطانهم في الثغر، ولكنهم لا يحجمون عن انتهاز
أية فرصة للثورة عليها، ومحالفة أعدائها من النصارى.
وسنرى فيما بعد أى
دور خطير قامت به هذه الأسرة المتمردة الخطرة، في ثورة المولدين الكبرى على قرطبة (٢) .

---

(١) نصوص عن الأندلس للعذرى في الأوراق المنثورة من كتاب " ترصيع الأخبار " ص ٢٩.
(٢) راجع المقتبس لابن حيان، الجزء المطبوع بعناية المستشرق أنتونيا ص ١٦ و١٧.
وكذلك جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٤٦٧ و٤٦٨، حيث يقدم لنا شجرة
كاملة لنسبة بني قسى، منذ جدهم الأعلى حتى أواخر القرن الثالث الهجرى.



وفى العام التالى سار عبد الرحمن إلى الشمال مرة أخرى، ومعه ولداه المطرِّف
ومحمد، واستخلف ولده المنذر على قرطبة، وبدأ عبد الرحمن بمحاصرة تُطيلة حتى أخضعها، ثم زحف على بلاد البشكنس مرة أخرى، ولقيه غرسية وحليفه موسى بن موسى في جموع كبيرة، فهزم البشكنس وحلفاؤهم هزيمة شديدة، وقتل منهم عدد جم، وفر موسى وحليفه غرسيّة جريحين، وسار عبد الرحمن

إلى
بنبلونة فأثخن فيها وخربها، واضطر البشكنس إلى طلب الأمان والصلح، وعاد
عبد الرحمن إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطد هيبة الإسلام وحكومته في تلك الأنحاء
(٢٢٨ هـ - ٨٤٢ م) (١) .
ولم يكن لهذه الغزوات في الواقع نتائج مستقرة، وكانت تقصد في الغالب إلى إيقاع الرعب في قلوب نصارى الشمال، وتخريب
بلادهم، وإنهاك قواهم، حتى يلزموا السكينة، ويكفوا عن عدوانهم وعيثهم في أراضي المسلمين.
وفى نفس هذا العام الذى سحقت فيه نافار وخربت (٨٤٢ م) ، توفى ألفونسو الثاني الملقب بالعفيف بعد أن حكم مملكة ليون (جليقية) إحدى وخمسين عاما، إذ تولى الملك في سنة ٧٩١ م، أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن، وخلفه ولده
راميرو الأول، أو رذمير كما تسميه الرواية العربية.
وقد اقتصرنا فيما تقدم
على أن نسرد من أخباره وأخبار مملكته، ما له صلة بسير الحوادث في اسبانيا
المسلمة، أما أخبار مملكة ليون الداخلية، فسنفصلها عند الكلام على تاريخ المملكة النصرانية الشمالية.
وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم، عرفت الأندلس لأول مرة خطراً جديداً لم يسبق لها أن عرفته أو توقعت حدوثه: ذلك هو خطر الغزوات النورمانية البحرية.
كانت سيادة البحار الشمالية منذ بداية العصور الوسطى في يد " الفيكنج " Vikings أو النورمانيين، وكان أولئك النورمانيون أمة بحرية عريقة، تمرست منذ غابر العصور في ركوب البحر ومقارعة أهواله، ووطنهم الأصلى هو

اسكندناوة، وربما دانيماركه، وشواطى ألمانيا الشمالية، ولذا عرفوا بالنورمانيين

---

(١) البيان المغرب ج ٣ س ٨٨ و ٨٩؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٦٧ و ١٧٢ و ١٨٠، ومخطوط ابن حيان ص ١٨٥.

*(٢٦١/١)*

أى أهل الشمال (١) .
واشتهر النورمانيون بجرأتهم في جوب البحار الشمالية، وبراعتهم في مغالبة قسوة الجليد وأهوال اللجة والطبيعة، ولم يأت القرن الثامن
الميلادى حتى كانت حملاتهم البحرية الناهبة، تثخن في شواطىء الجزر البريطانية.
وكان جدب الوطن، وشظف العيش، وروح المخاطرة، تدفع بهم دائماً إلى عرض البحار، وتجعلهم خطراً دائماً على الشواطىء والثغور المجاورة.
وفى
أوائل القرن التاسع وصلت حملاتهم الناهبة إلى شواطىء بلاد الفرنج (فرنسا) ، ثم نفذت جموع منهم إلى شمال فرنسا.
وغزوا مصب اللوار ومصب الجارون، وأنشأوا لهم عدة مراكز وقواعد في تلك الأنحاء.
وهنا بدأ تطلع النورمانيين إلى اسبانيا.
والأندلس بنوع خاص.
وكانت
نعماء الأندلس، وما اشتهرت به من الخصب والغنى، تثير جشع أولئك الغزاة المغامرين، ولم تكن الأندلس تحسب حساباً لذلك الخطر الداهم المستتر معاً، لأنها
لم تعرف النورمانيين من قبل، ولا تعرف لهم بقربها أرضاً أو مستقراً.
وتطلق

الرواية الإسلامية على أولئك الغزاة المجهولين إسم "المجوس"، بيد أنها تعرفهم
أيضاً "بالأردمانيين" أى النورمانيين، وقد ترجع هذه التسمية إلى أن النورمانيين
كانوا في العهد الذى عرفهم فيه عرب الأندلس لأول مرة " مجوساً " أى وثنيين
لم يعتنقوا النصرانية بعد.
وكان ظهور النورمانيين في المياه الإسبانية، لأوّل مرة في سنة ٨٤٣ م.
ففى تلك السنة خرج أسطول نورمانى من نهر الجارون
وعاث في شواطىء مملكة جليقية، فبعث ملكها راميرو (رذمير) إليهم جيشاً
ردهم وأحرق كثيراً من سفنهم، فانقلب النورمانيون عندئذ إلى مياه إسبانيا الغربية
والجنوبية، يجوبونها في طلب السبى والغنيمة، واقتحموا شواطىء الملكة
الإسلامية (الأندلس) في غزوتهم الأولى.
وتضع الرواية الإسلامية هذه الغزوة في سنة ٢٣٠ هـ، وتحدثنا عنها بإفاضة،
فتقول لنا إن أسطولا مجوسياً (نورمانياً) قوامه زهاء ثمانين مركباً، رسا في مياه
أشبونة (٢) في أواخر سنة ٢٢٩ هـ (يوليه أو أغسطس سنة ٨٤٣ م) ، فكتب
عاملها وهب الله بن حزم إلى عبد الرحمن بن الحكم ينبئه بالخطر، فكتب عبد الرحمن

---

(١) وهى بالإفرنجية Norsmen أو Normanen
(٢) لشبونة Lisboa عاصمة البرتغال الحديثة.

(٢٦٢/١)

إلى عمال الثغور بالتحوط والأهبة.
ولبث النورمانيون في مياه أشبونة ثلاثة عشر
يوماً التحموا خلالها مع المسلمين في عدة وقائع، ثم ساروا بأسطولهم جنوباً
إلى
قادس، ثم شذونة، ثم اخترقوا النهر الكبير (الوادي الكبير) حتى إشبيلية.
وكان ظهور هذه السفن الغازية، وأولئك الغزاة الشقر في قلب الأندلس، مفاجأة
مروعة، ولم يكن للأندلس يومئذ أسطول قوى تدفع به شر الغزوات البحرية،
ولم تتخذ في الثغور لردها أهبات خاصة.
ونزل النورمانيون في ظاهر إشبيلية فى
أوائل المحرم سنة ٢٣٠هـ (سبتمبر سنة ٨٤٣ م) (١) وكانت يومئذ دون
أسوار
تحميها من العدوان المفاجىء، وكانت مفاجأة مروعة لأهلها، الذين لم يتخذوا
أية أهبة خاصة للدفاع عن أنفسهم، وعبثاً حاول المسلمون رد الغزاة.
واقتحم
النورمانيون إشبيلية وأمعنوا في أهلها سفكاً ونهباً وسبياً، وعاثوا فيها مدى
سبعة
أيام أشنع عيث، ثم غادروها وعسكروا في ظاهرها، في قرية طلياطة الواقعة
غربى إشبيلية.
وفى تلك الأثناء بعث الأمير عبد الرحمن قوات من الخيل على عجل
لإنجاد إشبيلية بقيادة عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم، وجعل على قوات
قرطبة
حاجبه عيسى بن شهيد، وهرع المسلمون من كل صوب للجهاد ورد الغزاة.
وقاد القوات المتحدة نصر الخصى، وتلقى النورمانيون المدد في سفن جديدة
قدمت إليهم، ونشبت بين الفريقين في البداية بضع معارك محلية، تفوق فيها

الغزاة.

وفى الخامس والعشرين من صفر سنة ٢٣٠هـ، نشبت بينهما معركة حاسمة تجاه قرية طلياطة، وكان على رأس قوات المسلمين محمد بن رستم، فهزم النورمانيون بعد قتال عنيف، وقتل منهم نحو ألف وأسر نيف وأربعمائة، وأحرق من سفنهم ثلاثون، وكان قائدهم بين القتلى، وارتد النورمانيون إلى سفنهم، وتحصنوا بها، وقتل المسلمون أسراهم أمام أعينهم، وصلبوا على جذوع

النخل، ثم أقلعت سفن الغزاة مرتدة إلى الجنوب، والمسلمون من ورائهم يطاردونهم، ويفتدون أسرى المسلمين منهم بمختلف السلع، وانتقم النورمانيون لأنفسهم أثناء ارتدادهم بالإغارة على لبلة وباجة، ثم انتهوا ثانية إلى ثغر أشبونة

حيث غادروا مياه الأندلس مع باقى سفنهم، بعد أن لبثوا بضعة أسابيع يبثون فيها الرعب والروع.

---

(١) يضع ماريانا غزوة النورمانيين الأولى لإشبيلية في سنة ٨٤٧ م (راجع تاريخه العام -

الترجمة الفرنسية - ج ٢ ص ٨٤) .

*(١/٢٦٣)*

واستطالت غزوة النورمانيين، منذ نزولهم بأرض إشبيلية، إلى أن تمت هزيمتهم وإقلاعهم، إثنين وأربعين يوماً، عانى فيها المسلمون محناً وشدائد كثيرة، ارتجت لها ربوع الأندلس كلها.

فلما انقشعت الغمة، بادر الأمير عبد الرحمن

فبعث بالكتب إلى سائر الآفاق معلنة هذا النصر على العدو المغير، وبعث بها

بالأخص إلى أمراء العدوة، ومعها طائفة من رؤوس أكابر النورمانيين القتلى.

وأغدق الأمير ثناءه وصلاته على نصر الخصى فتاه الأثير لديه، وكان قائد قواته
العام في تلك المعركة الكبرى (١) .
وكان لهذه المفاجأة المروعة أثرها في حمل حكومة الأندلس على الاهتمام بأمر
الأسطول والتحصينات البحرية، فابتنى عبد الرحمن حول إشبيلية سوراً ضخماً، وأنشأ بها داراً عظيمة للصناعة، واهتم بصنع السفن الحربية الكبيرة، وحشد لها
المقاتلة من شواطىء الأندلس، فكانت نواة الأسطول الأندلسي الكبير الذى بلغ في عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتى سفينة.
وعلى أى حال فقد أدرك
النورمانيون أن الأندلس لم تكن فريسة هينة.
وتحدثنا الرواية الإسلامية بأنهم
عقب هزيمتهم في هذه الغزوة الأولى سعوا إلى الصلح مع أمير الأندلس، وبعثوا
رسلهم في طلب السلم والمهادنة، وأن الأمير الأندلسي عبد الرحمن بعث كاتبه يحيى
الغزال إلى ملكهم ليرد السفارة، وهى رواية سنعود إلى تفصيلها (٢) .
ولم يمض قليل على رد الغزاة النورمانيين، حتى بادر عبد الرحمن إلى استئناف
الغزو، فسير بالصائفة إلى الشمال جيشاً بقيادة ولده هشام.
ومعه الوزير عيسى
ابن شهيد، فاخترق قشتالة القديمة، وسار صوب نافار وغزا بنبلونة، ووافاه هناك موسى بن موسى والى تطيلة، فقدم طاعته، ومنح الأمان، وأقر على ولايته.
وفى العام التالى سير عبد الرحمن بالصائفة قواته مرة أخرى إلى الشمال،

(١) راجع في تفاصيل هذه الغزوة، البيان المغرب ج ٢ ص ٨٩ و ٩٠، والعذرى فى
الأوراق المنثورة من " ترصيع الأخبار " ص ٩٨ - ١٠٠، وفي النويرى: نهاية الأرب (القسم
الخاص بتاريخ الأندلس) وقد نقل دوزى روايته؛ Recherches: II: p. ٣٣٧ - ٣٣٨ وكذلك فى
الملحق Appendice 37؛ وفي ابن القوطية (ص ٦٣ - ٦٧) ؛ وابن الأثير ج ٧ ص ٧، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٩.
وفى مخطوط ابن حيان عنها تفاصيل كثيرة نقلت عن محمد بن أحمد
الرازى وأخيه عيسى ومعاوية بن هشام الشبينسى.
(٢) راجع رواية النويرى المشار إليها في دوزى: Recherches: App. ٣٧

(٢٦٤/١)

بقيادة ولده محمد، فاخترق بسائط جليقية، وحاصر عاصمتها ليون، ولجأ النصارى إلى الجبال، ثم ارتد عنها بعد أن عاث فيها قتلا وتخريباً (سنة ٢٣١هـ - ٨٤٥ م) .
وعصف بالأندلس في العام التالى قحط شديد، وهلكت الزروع والماشية، وقاست البلاد من ويلاته مدى أشهر.
وفى سنة ٢٣٣ هـ (٨٤٧ م) ظهر بالثغر الفرنجى، في شمال شرقى إسبانيا، زعيم يدعى جيين دى تولوز، وهو فيما يرجح من تسميه الرواية العربية، غليالم بن برباط بن غليالم، وكان قد أعلن الخروج والثورة على ملك الفرنج
شارل الأصلع، ووفد في العام السابق على بلاط قرطبة، يلتمس التأييد

والعون، فاستقبله عبد الرحمن بترحاب، وأمده بعونه، فعاد إلى الثغر وعاث فيه بقواته، وحاصر برشلونة وخرب حصونها، وهاجم جرندة، وكتب عبد الرحمن إلى
عامله على طرطوشة عبد الله بن يحيى، وعامله على سرقسطة عبد الله بن كليب، فى إمداده وتأييده في ثورته ضد ملك الفرنج (١) .
بيد أنه يبدو من أقوال الرواية
الفرنجية أنه وقعت على إثر ذلك مفاوضات بين عبد الرحمن وشارل الأصلع، انتهت بعقد الهدنة والسلم بينهما.
وفى نفس هذا العام نقض موسى بن موسى بن قسى (القسوى) العهد، وعاد إلى الثورة، وعاث في أحواز تطيلة وطرسونة وبرجة من أعمال الثغر الأعلى، وظاهره أخوه لأمه فرتون إنيجز (ابن ونقة) أمير بنبلونة، فبعث إليه عبد الرحمن
جند الصائفة بقيادة عباس بن الوليد المعروف بالطبلى، فطاردته حتى أرهق وأعلن عوده إلى الطاعة، وقدم ولده إسماعيل رهينة كفالة بولائه، فقبل عبد الرحمن
طاعته، وأقره على ولايته تطيلة، ودخل معه في هذا الصلح أخوه فرتون إنيجز (٢)
وفى سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) بعث عبد الرحمن قوة بحرية كبيرة إلى جزيرتى ميورقة ومنورقة وهما أكبر الجزائر الشرقية (جزائر البليار) لغزوهما، ومعاقبة

---

(١) وردت هذه الرواية في قطعة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان، عثرت بها في مكتبة
القرويين بفاس، وحصلت منها على نسخة مصورة حسبما أشرت إلى ذلك من قبل.
وهى التي تبدأ
حوادثها منذ سنة ٢٣٣هـ، وتنتهى بحوادث سنة ٢٦٧هـ، وسوف نقتبس منها

منذ الآن فصاعدا فى

مختلف المواطن التي نتناول حوادثها.

(لوحة ١٨٩ ب من المخطوطة المذكورة) .

(٢) لوحة ١٨٩ ب و ١٩٠ أمن المخطوط المذكور، وهو يسمى هنا أمير

بنبلونة بابن رنقة.

وهو تحريف، والصواب ابن ونقة Inequiz

(٢٦٥/١)

أهلهما لتعرضهم لسفن المسلمين المجاهدين والإضرار بهم، فأخضعهما

المسلمون

وأثخنوا فيهما، وأصابوا كثيراً من السبى، وبعث أهلهما إلى الأمير يطلبون

الأمان

ودفع الجزية، ويتعهدون بالولاء والطاعة، فأجابهم إلى ما طلبوا.

وكانت مياه

اسبانيا الشرقية قد غدت منذ عهد هشام مركزاً للحملات البحرية المتجهة نحو

الشمال والشرق، وكان قوام هذه الحملات في الغالب جماعات من البحارة

والمجاهدين، الذين يجوبون هذه المياه طلباً للغنيمة والسبي، ويثخنون في

الثغور

والجزر النصرانية القريبة.

ففى سنة ٨٠٦ م (١٩١ هـ) في عهد الحكم، غزت

إحدى هذه الجماعات البحرية الأندلسية المغامرة جزيرة كورسيكا (قورسقة) ،

فبعث

ببين ابن شارلمان ملك إيطاليا أسطولا لقتالهم، فهزموه واستولوا على كثير من

الغنائم

والسبى.

ولم يمض عامان على ذلك، حتى عاد البحارة المسلمون إلى غزو شواطىء

كورسيكا وسردانية، ثم توالت غزواتهم لها بعد ذلك.
وفى سنة ٨٣٦ م (٢٢١ هـ)
خرج أسطول أندلسي من ثغر طرّكونة والجزائر الشرقية، وسار إلى مياه فرنسا الجنوبية، وهاجم المسلمون ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضي وأثخنوا فيها.
وكان على عرش فرنسا يومئذ لويس ابن شارلمان، وكان ملكاً ضعيفاً عاجزاً، فلما توفى سنة ٨٤٠ م، اضطربت أحوال المملكة، وضعفت حماية الثغور، فانتهز
البحارة المجاهدون هذه الفرصة، وغزوا ولاية بروفانس عند مصب نهر الرون، وهاجموا مدينة آرل وخربوها، ثم توالت غزواتهم في تلك المياه بعد ذلك، وكان من أثرها أن قامت مستعمرات عربية كثيرة في بروفانس وفي أنحاء أخرى
في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا، وسوف نعود إلى حديث هذه المستعمرات العربية النائية في قلب أوربا.
وفى سنة ٢٣٧ هـ (٨٥١ م) ، اضطرمت الحرب في الشمال بين المسلمين والغسقونيين أو الجاشقيين كما تسميهم الرواية الإسلامية وهم فرع من البشكنس، وكان هؤلاء قد أغاروا على الأراضي الإسلامية المجاورة، في قاصية الثغر الأعلى، فتصدى لردهم موسى بن موسى والى تطيلة، وكان يومئذ على ولائه لحكومة
قرطبة، ووقعت الحرب بين المسلمين والبشكنس، في جنوبى بنبلونة على مقربة
من بقيرة، فهزم المسلمون أولا، وأثخن قائدهم موسى جراحاً، ولكنه أستأنف المعركة في اليوم التالى، وكر على العدو بشدة، فهزم البشكنس شر

(٢٦٦/١)

هزيمة، وقتل منهم عدد جم، وتسمى هذه الموقعة في الرواية الإسلامية بموقعة

البيضاء، وهى محلة صغيرة مجاورة لبقيرة (١) .
وفى أواخر عهد عبد الرحمن، هبت على نصارى قرطبة ريح شديدة من التعصب، ولاحت في الأفق بوادر فتنة دينية واجتماعية خطيرة.
ولم يك في نظم
الحكم الإسلامى، ما يقصد إلى إيذاء النصارى المستظلين بلوائه، ولم تشذ حكومة
قرطبة عن سياسة التسامح الإسلامى المأثور، ولم تحاول تدخلا في شؤون النصارى
الدينية أو تعرضاً لعقائدهم أو شعائرهم، بل كان النصارى في قرطبة وغيرها، أحراراً في عقائدهم وشعائرهم، والاحتكام إلى شرائعهم وقضاتهم، وكثيراً ما تبوأوا مناصب الثقة والمسئولية في الجيش وفي الإدارة، وكثيراً ما حاربوا مع
إخوانهم المسلمين جنباً إلى جنب، وكانت أغلبية كثيرة منهم تشتغل بالتجارة فى
الثغور والمدن، ويشتغل عامتهم في ضياع المسلمين دون إكراه ولا عنت، وكانت
منهم مجتمعات زاهرة رغدة في قرطبة وغيرها، بل كثيراً ما بهرتهم الفصاحة العربية فانطلقت بها ألسنتهم ووضعوا بها كتبهم، وكثيراً ما تخلقوا بأخلاق المسلمين
وعاداتهم، ونهجوا نهجهم في الحياة الخاصة.
بيد أنه كان ثمة فريق آخر من
النصارى المتعصبين الذين ويرون في سادتهم المسلمين أجانب غاصبين، معتدين
على دينهم وأوطانهم، وكان أولئك الغلاة يبغضون إخوانهم من النصارى المعتدلين، ويرمونهم بالمروق والخيانة، وكان رجال الدين، وهم في الأصل مبعث التعصب ودعامته، يبذرون بذور الشقاق، ويضرمون نار الفتنة،

ويوغرون
قلوب الغلاة والمتطرفين، باسم الدين، وكانوا يبغضون المسلمين أشد البغض
ويسخرون من دينهم ونبيهم، ويجاهرون بهذا التحامل والبغض للنبى العربى
وتعاليمه، ويعتمدون في معرفتهم للإسلام ونبيه، على طائفة من الخرافات
والأباطيل
التي يتناقلها القسس في كل عصر ومكان.
يقول دوزى: " ولم يك ثمة أيسر
عليهم، وقد كانوا يعيشون بين المسلمين من الوقوف على الحقيقة، ولكنهم
كانوا يرفضون أن يستقوا من المصادر التي كانت لديهم، وكان يسرهم أن
يعتقدوا وأن يعيدوا كل الخرافات السخيفة التي أذيعت عن نبى مكة " (٣) .

---

(١) ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩٣ أ.
وبقيرة هى بالإسبانية Viguera.
(٢) Dozy: Hist, I.
p.
٣١٧ et suiv..
ويخصص دوزى لهذا البحث حيزاً كبيراً، وتحمله
نزعة من التعصب في إيراد الوقائع ووصفها، وهو يعتمد هنا بالأخص على
مصادر كنسية معاصرة.

(٢٦٧/١)

ويقدم إلينا المستشرق سيمونيت، وهو عمدة العلماء الإسبان في الكتابة عن
تاريخ (النصارى المعاهدين) Los Mozarabes التفاصيل الآتية، عما
يصفه بأنه
" البطولة التي تذرعت بها النصرانية في قرطبة في مقاومة فورات الإلحاد
الإسلامى ".

ويرى سيمونيت أن قرطبة كانت من المعسكرات الرئيسية للحرب المدمرة التي شهرها الإسلام على النصرانية.
وبالرغم عن أنه يعترف بأن الإسلام لبث مدى
قرن يحتفظ بقدر من التسامح نحو المستعربين، وقت أن كان في حاجة إلى خدماتهم
ومعاونتهم، فإنه يقول إن الإسلام لما شعر بقوته، لم يبد تسامحاً إزاء انتعاش الروح النصرانى، الذى بدا يسيطر على فريق كبير من الشعب النصرانى.
ثم يتحدث
سيمونيت بعد ذلك عن "المظالم وصنوف الاضطهاد التي كان النصارى يقاسونها، ليس فقط من عامة أهل قرطبة بل من حكومة قرطبة ذاتها ".
ثم يقول: " وقد
كانت هذه السياسة منافية للعهود والقوانين التي منحت للوطنيين (الإسبان) أيام
الفتح.
وقد كان الطغيان الإسلامى شديد الوطأة على ضمائر النصارى الوطنيين وأملاكهم وكرامتهم معاً ".
وينعى سيمونيت على أمراء قرطبة، أنهم احتفظوا بحقوق وامتيازات ضد النصارى لإخضاعهم، وأنهم كانوا مثل القوط يدعون لأنفسهم حق تعيين الأساقفة وعزلهم، وحق عقد المجالس الدينية التي يمثلهم فيها بعض المسلمين أو
النصارى المرتدين، ويسندون وظائف الأساقفة في أحيان كثيرة إلى رجال من طراز منحط، يملقون الأمراء ويخدمونهم.
ولم يك استبداد الأمراء أقل وطأة على أملاك المستعربين وثرواتهم، إذ كانوا حرصاً على سلامتهم يؤدون للخزانة مزايا عظيمة، في شكل جزية وضرائب تنبو عن طاقتهم.
وقد كان تسامح المسلمين لايغتنم في الظروف العادية إلا بالعرق

والدم.
ثم جاءت الأيام التي كان يقاسى فيها النصارى كل شىء، ليحتفظوا بحرية دينهم، وينتزع كل يوم منهم مغارم أكبر، هذا فضلا عن الضرائب العادية، وقد كانت فادحة في ذاتها تفرض عليهم بمختلف الحجج والأعذار.
وقد وصلت هذه المغارم إلى ذروتها في عصر عبد الرحمن الثاني الأمير الباذخ، ومحمد الأول الأمير القاسى، الذى حصل من نصارى قرطبة بواسطة الكونت
سواندا على مبلغ مائة ألف " سويلدو ".

(٢٦٨/١)

ويتحدث سيمونيت بعد ذلك عن تعصب المسلمين، ويقول إن تعصب العرب ضد الأجانب وامتهانهم لهم، وصل إلى الذروة في النصف الأول من القرن التاسع، وكذا وصل إلى الذروة تزمت البربر الوحشى، وتزمت الإسبان المسلمين (المولدين) الذين اتخذوا الارتداد عن دينهم سبيلا إلى بلوغ الرخاء، وكانوا لكى يمحوا ذكرى أصولهم المسيحية، أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين
أنفسهم.
كان هؤلاء وهؤلاء يمعنون في إهانة النصارى واضطهادهم بشتى المظاهر، ولاسيما رجال الدين والقساوسة، وكانت موجة هذا الاضطهاد تشتد كلما جاءت
الأخبار بانتصار نصارى الشمال، أو قيام المولدين في طليطلة أو غيرها.
هكذا يتحدث سيمونيت عن "تعصب" المسلمين ضد رعاياهم وإخوانهم النصارى المعاهدين.
ومع ذلك فإن سيمونيت يعترف بأن كثيراً من نصارى
قرطبة، كانوا يخدمون في الجيش الإسلامى جنداً أو ضباطاً، وأن كثيراً منهم وصل إلى وظائف هامة في البلاط والقصر الملكى، وفي قصور أكابر

المسلمين، ويصف سيمونيت تأثير المجتمع الإسلامى، وعظمته ولغته وتقاليده، فى
نفوس النصارى في قوله:
" هذا، وقد كان يأسر الشباب النصرانى مظهر العظمة المادية والحضارية، التي تفوقت بها قرطبة المسلمة على قرطبة النصرانية، وما كانت تقترن به هذه
العظمة من المظاهر الأدبية والفنية، التي بثها عبد الرحمن بحبه للشعر والفلسفة
والموسيقى.
وكان من مظاهر تأثر الشباب النصرانى أنهم كانوا يكتبون ويتكلمون العربية، محتقرين دراسة اللغة والآداب اللاتينية، وهو أمر كان شديد الخطر على وطنيتهم ودينهم.
وفى النصف الأول من القرن التاسع، لم تكن اللغة والآداب العربية فقط، بل وكانت الأفكار والتقاليد الإسلامية، قد انتشرت بين المستعربين الإسبان، وهذا ما تشير إليه وثيقة هامة كتبها نصرانى قرطبى معاصر هو ألبرو القرطبى Alvaro Cordubense في سنة ٨٥٤ م عنوانها Indicalo Luminoso، وفيها
يصف بقوة وبلاغة، الذعر الذى أصاب " الأشراف الكرماء البواسل الذين كانوا يحتفظون بالعاطفة المسيحية والوطنية الإسبانية "، وكيف أن شباناً من



النصارى يمتلئون حياة وقوة وفصاحة، يتقنون اللغة العربية، ويبحثون بشغف عن الكتب العربية ويدرسونها بعناية، ويمتدحونها بحماسة، هذا في حين أنهم يجهلون جمال الآداب الكنسية، ثم يبدى ألمه من أن النصارى يجهلون شريعتهم
ولغتهم اللاتينية، وينسون لغتهم القومية (١) .

وهذه التفاصيل التي يقدمها إلينا العلامة سيمونيت عن أحوال المجتمع
النصرانى
في قرطبة، هى تفاصيل مفيدة قيمة، ولكنها تنم عن كثير من التحامل،
وتصور
وجهة نظر الكنيسة بأسلوب مغرق متزمت.
وهى تغضى عن تلك الحقيقة الهامة، وهى أن النصارى المستعربين وهم من
رعايا الحكومة الإسلامية، ويتمتعون تقريباً
بكامل حقوق إخوانهم المسلمين، يدينون لهذه الحكومة بالطاعة، واحترام
القانون والنظام.
ولئن كانت ثمة بعض قيود لحقوقهم، فإن سن هذه القيود
لا يرجع إلى عدم التسامح، ولكنه يرجع إلى روح العصر ذاته.
بيد أن العوامل الدينية لم تكن وحدها مبعث هذا التحامل، الذى يضطرم به
نصارى قرطبة نحو الحكومة الإسلامية، بل كان للعوامل الاجتماعية أيضاً
أثرها
في إذكائه.
ذلك أن القسس والمتعصبين كان يحفظهم ويثيرهم، ما يحيط بالحكم
الإسلامى من مظاهر الإعزاز والسؤدد، وما تبديه الهيئة الحاكمة من مظاهر
الأبهة
والفخامة، وما ينعم به المجتمع الإسلامى، من حياة رغدة رفيعة.
وكان يذكى
هذا الحقد في نفوسهم ما يعانونه من خشونة عامة قرطبة وتعريضهم
وتحاملهم.
وهكذا بلغ تعصب النصارى أقصاه في عهد عبد الرحمن، وبدا منذراً بشر
العواقب.
وكان في وسع أولئك المتعصبين في المدن البعيدة عن قرطبة مثل
طليطلة وغيرها، أن يرفعوا علم الثورة، وأن يقاتلوا حكامهم وجهاً لوجه، ولكن

الثورة في قرطبة كانت أمراً عسيراً.
فحاولوا عندئذ أن يبثوا بذور الفتنة الطائفية
والفوضى الدينية والاجتماعية، وأن يحاولوا الاستشهاد بطريق الاشتباك
والتحدى.
وعمد القسس والمتعصبون إلى تحقيق غايتهم بوسيلة بسيطة خطيرة معاً،
وهى
المجاهرة بسب النبى العربى ودينه، وهى جريمة شنعاء تعرض مرتكبيها
لعقوبة
الموت، وأخذ بعض الغلاة من القسس والمتعصبين الهائمين ينزلقون عامدين
إلى

---

(١) راجع هذا الفصل في مؤلف سيمونيت الضخم: Historia de los
Mozarabes de
.Espana
.Vol
.I
.p
٢٥٨ - ٢٧٢

(٢٧٠/١)

هذا المنحدر الخطر، ويوجهون السب المثير إلى النبى العربى في الطرقات
جهراً، فإذا أخذوا أمام القضاة كرروا سبابهم بمنتهى الإصرار والجرأة.
وحاول القضاة
في البداية استعمال الرفق واللين، وإقناع أولئك العابثين بالعدول عن أقوالهم،
ولكنهم ألفوا أنفسهم أمام سلسلة مدبرة من الجرائم المماثلة، فلم يترددوا عندئذ
في الحكم على القاذفين بالموت، وهكذا أزهق بتلك الطريقة عدة من القسس

والمتعصبين في فترة وجيزة من صيف سنة ٨٥١ م (٢٣٧هـ) ، وكان الأحبار يكرمون رفات القتلى، ويسبغون عليهم صفة الشهداء، ويزيدون بذلك فى اضطرام الفتنة.

وكان في مقدمة المنظمين لهذه الحركة قس من قرطبة يدعى "أولوخيو"، كان يعمل على تحريض أولئك "الشهداء" المزعومين، ودفعهم إلى براثن الموت.

ويصف لنا العلامة المتزن ألتاميرا، تلك المؤامرة المنظمة فيما يأتى: " اتبع الأمراء المسلمون سياسة التسامح الدينى منذ الفتح.

وكان أشراف العرب يحترمون

النصارى، ولكنهم لم يستطيعوا منع الدهماء في أوقات الحماسة المغرقة، من إهانة

القسس حينما يسيرون في الشوارع فرادى أو في مواكبهم.

وكانت هذه الحوادث

وأمثالها تثير سخط النصارى، وأدى ذلك بمضى الزمن إلى حقد الورعين ولاسيما

القساوسة.

وحاول النصارى عن طريق آخر، أن يحدثوا فورات تحطم النير الإسلامى.

فطلبوا الاستشهاد بالطعن في محمد أمام الناس والسلطات، وأعدموا

لأن القانون يعاقب بالموت على ذلك.

ولم يقتصر الاندفاع في ذلك الطريق على

المدنيين، بل اندفع فيه كذلك قساوسة عقلاء مسالمون، وكان من هؤلاء أولوخيو

وألبارو، ولم يجد هؤلاء طريقة أفضل للاحتجاج على الإسلام من الطعن فيه، وتقديم حياتهم قرباناً للدين الكاثوليكى " (١) .

وأدرك عبد الرحمن دقة الموقف

وخطورته، ورأى أن يعالجه بالحزم والتفاهم معاً، فاستدعى مجلساً من الأساقفة، عقد في قرطبة برآسة ريكافرد مطران إشبيلية، ومثل الأمير فيه أحد كتابه النصارى، وهو جومث بن أنطونيان بن خوليان عامل أهل الذمة (٢) ، وشرح للأساقفة

---

(١) R.
Altamira: Hist.
de Espana , Vol.
I.
p.
٢٣٠
(٢) ويسميه ابن القوطية قومس بن انتنيان بن يليانة وقد اعتنق الإسلام فيما بعد (ص ٨٣) .
وكذلك يذكره الخشنى في كتاب قضاة قرطبة ويسميه أيضاً قومس بن انتنيان. راجع كتاب قضاة قرطبة
(القاهرة) ص ١١١.

(٢٧١/١)

ما يمكن أن يترتب على أعمال المتطرفين وسبهم للنبى من العواقب الخطيرة بالنسبة
للنصارى.
ولم يعترض المجلس على مبدأ الاستشهاد في ذاته، ولكنه أصدر قراره باستهجان مسلك أولئك المتطرفين، وتحذير النصارى المخلصين من حذو مسلكهم، ووجوب اعتقال كل مخالف (١) .
ولكن قرار الأساقفة لم يكف لتسكين فورة
التعصب المزبد، وتمادى المتطرفون أنصار أولوخيو في غيهم، وزج إلى

السجن
منهم كثيرون، ومنهم أولوخيو نفسه، وكان بين المعتقلين بضع فتيات مسلمات
بمولدهن من آباء مسلمين وأمهات نصارى، ولكن أضلهن الأمهات والقسس،
ودفعن إلى التنصر وسب النبى، وكان منهن فتاة رائعة الحسن تدعى فلورا،
عرفها
أولوخيو وهام بها حباً.
وقصة هذه الفتاة حسبما يرويها سيمونيت، توضح لنا طريقة التحدى
والاستثارة
التي اتبعها المتطرفون لإحداث الشغب.
فقد كانت فلورا ابنة مسلم من زوجه
النصرانية، وتوفى أبوها وهى ما تزال طفلة، فربتها أمها على مبادىء
المسيحية.
وكانت بالرغم من جمالها تبدى تحفظاً ونسكاً، وتزور الكنائس خفية لخوفها
من
أخيها الأكبر، وهو مسلم شديد التعصب.
ثم فرت من دار أهلها، وتتبها أخوها
في كل مكان، فعادت إلى منزلها، وأعلنت لأخيها تمسكها بدين النصرانية،
ولم
ينجع في ردها الضرب والوعيد.
فأخذها أخوها إلى القاضى، وأبلغه بأن أخته
القاصر قد ضلت واعتنقت الدين المسيحى، وأنها تسب النبى ودينه، واعترفت
فلورا بأنها نصرانية منذ طفولتها، ومتمسكة بدينها.
ومع أن هذا الاعتراف
بالردة يستحق عقوبة الموت، فإن القاضى اكتفى بتقرير ضربها ضرباً مبرحاً،
أملا في أن تعود إلى صوابها.
فاحتملت الفتاة العقوبة بجلد، وحملت إلى دارها

منهوكة القوى، وصبرت أياماً حتى برئت من مرضها، ثم فرت من الدار ذات ليلة، وسارت هائمة على وجهها، حتى لجأت إلى دار نصرانى في بلدة " مرتش "
القريبة، والظاهر أن القس أولوخيو رآها هنالك، وأعجب بجمالها وحشمتها وورعها، وشعر نحوها بحب سماوى عميق.
ثم عادت فلورا بعد حين إلى قرطبة مواجهة كل خطر، معتزمة الاستشهاد، ولجأت إلى كنيسة سان إثيسكولو، وكانت قد لجأت إليها أيضاً فتاة نصرانية

---

(١) Dozy: ibid , Vol. I. p. ٣٤٠.

(٢٧٢/١)

أخرى تدعى ماريا، وكانت إبنة رجل نصرانى من لبلة، وأم مسلمة تنصرت. وربيت ماريا في الدير تربية دينية خالصة، كما ربى أخوها الأكبر فيه. ولما توفى
أخوها وجدت عليه وجداً شديداً، وسارت إلى قرطبة تبغى الاستشهاد، ولجأت إلى نفس الكنيسة التي لجأت إليها فلورا.
واعتزمت الفتاتان أمرهما وذهبتا إلى
دار القضاء، وقالت فلورا للقاضى إنها إبنة مسلم، ولكنها اعتنقت النصرانية وأخلصت لها، وأن المسيح هو الإله الحق، وأن النبى محمد، هو نبى زائف... الخ (١) .
وكذلك قالت ماريا إنها تؤكد من كل قلبها أن يسوع هو الرب الحقيقى، وأن الإسلام دين الشيطان.

فأمر القاضى بإيداعهما السجن.
وكان فيه بطريق
الصدفة أولوخيو مقضياً بحبسه أيضاً، فعكف على وعظ الفتاتين، وحثهما على
الاستشهاد في سبيل المسيح.
وحاول القاضى نصح الفتاتين، ولكنهما أصرتا على موقفهما وعلى مطاعنهما.
وأخيراً أصدر القاضى حكمه بإعدامهما، وذلك في ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥١، وأخذتا إلى ساحة الإعدام، وهنالك أبدت كلتاهما إشارة الصليب، ثم أعدمتا بقطع
الرأس، وألقيت جثتاهما إلى النهر، واستطاع النصارى العثور على جثة ماريا وحدها، فأخذوها مع رأسى الفتاتين.
ونظمت فلورا فيما بعد في سلك القديسين (٢) .
هكذا يروى سيمونيت قصة فلورا وزميلتها، ومهما كان في أسلوبه من
رواء القصة المشجية، فإن في وقائعها ما يلقى ضوءاً على خيوط المؤامرة التي
دبرها نصارى قرطبة، وفي مقدمتهم القسس، لإثارة الفتنة الطائفية والإخلال بالنظام والأمن، وهى محاولة لا يمكن لأية حكومة منظمة أن تغضى عنها.
واستمرت هذه الفتنة المضطرمة مدى حين، وتذرعت حكومة قرطبة فى
إخمادها بالحزم والشدة، وزهق من المتعصبين عدة أخر، ومن بينهم أولوخيو الذى
نظمه النصارى فيما بعد في ثبت " القديسين ".
وهكذا شغل عبد الرحمن في أواخر عهده بتلك الفتنة الدينية الخطيرة، ولكن المتعصبين لم يحققوا منها ما أملوا، وكانت بالعكس مثار السخط والإنكار من جانب
النصارى المعتدلين، الذين يقدرون تسامح الحكومة الإسلامية ورفقها

ورعايتها.

---

(١) لم نر مجالا لإيراد بقية المطاعن إلى أوردها سيمونيت على لسان فلورا وهى مطاعن مقذعة.

(٢) Simonet: Hist.

de los Mozarabes, Vol.

I.

p.

٤١٣ - ٤٢٢

(٢٧٣/١)

وتوفى عبد الرحمن بن الحكم في الثالث من ربيع الثاني سنة ٢٣٨هـ (٢٣ سبتمبر ٨٥٢ م) في الثانية والستين من عمره، بعد أن حكم إحدى وثلاثين عاماً

وبضعة أشهر.

وكان أسمر طويلا، وسيم المحيا، أشم، أقنى، أعين، أسود

العينين، بهى الطلعة، بهيج الزى، كبير اللحية.

نقش خاتمه: " عبد الرحمن

بقضاء الله راض " (١) ، ويكنى أبا المطرِّف، ويعرف بعبد الرحمن الأوسط أو

الثاني، والأول هو جده عبد الرحمن الداخل، والثالث هو عبد الرحمن

الناصر.

وكان مثل أبيه الحكم، أميراً وافر البأس والعزم، رفيع الخلال، يسمو بمكانته

ويحتجب عن العامة، ويعشق مظاهر البذخ والفخامة.

وفى عهده وصل البلاط

الأموى إلى درجة لم تسبق من البهاء والروعة، وبدت الأرستقراطية العربية فى

أبدع مظاهرها، وسطعت الفروسية الأندلسية، وتجلت خلالها الباهرة التي غدت
فيما بعد مثلا يحتذى في مجتمعات العصور الوسطى، وعنها اقتبست فروسة النصرانية
فيما تلا من العصور.
ورتبت رسوم المملكة أبدع ترتيب، ورفع من شأن الوظائف
العامة، وأحيطت بسياج من الهيبة والمسئولية، وجعل " أحكام السوق " منصباً
مستقلا عن ولاية المدينة، واتبعت رسوم الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب
الخدمة (٢) ، ووضعت خطة الوزارة المنظمة.
وتنوه الرواية الإسلامية بمقدرة عبد الرحمن، وحسن اختياره لرجالات حكومته.
فيقول لنا الرازى: " وانتقى الرجال للأعمال، واستوزر الأكفاء، من أهل
الاكتفاء، وقدوة الأبطال ذوى الغناء، فظهر في أيامه جلة
الوزراء وكبار الفقهاء ".
وكان من وزرائه عدة من أعظم وألمع رجالات العصر، مثل الحاجب عبد
الكريم، والقائد عيسى بن شُهيد، ويوسف بن بخت، وهاشم بن عبد العزيز،
وعبد الرحمن بن رستم، وحسن بن عبد الغافر بن أبي عبده، ومحمد بن
السليم، وعمد بن عبد السلام بن بسيل، وعبد الواحد بن يزيد
الإسكندرانى، وغيرهم.
وكان الوزراء يختلفون إلى القصر بطريقة منظمة للبحث
والمداولة وإبرام الشئون في جناح خاص، سمى " بيت الوزارء "، وانتهت

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٢٢؛ وابن حيان عن الرازى، المخطوطة الأولى ص ١١١؛

والثانية لوحة ١٩٤ ب.

(٢) ابن الأبار في الحلة السيراء ص ٦١؛ والبيان المغرب ج ٢ ص٩٣.

(٢٧٤/١)

أرزاق الوزراء يومئذ إلى ثلاثمائة وخمسين ديناراً في الشهر (١) .

وتفيض الرواية في مناقب هذه الجمهرة من الوزراء والقادة، الذين اجتمعوا في بلاط عبد الرحمن بن الحكم، وتصفهم بأنهم "عصابة من سراة الوزراء، أولى
الحلوم والنهى، لم يجتمع مثلها عند أحد من الخلفاء قبلهم ولابعدهم ".
ويتقدم هذا
الثبت الحافل رجلان، كان لهما في تنظيم حكومة عبد الرحمن وسياسته أعظم الأثر، أولهما الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث حاجب أبيه الحكم من قبل، وهو الذى يصفه الرازى بأنه " أكمل من حمل هذا الاسم، وأجمعهم لكل جملة حسنة ".

وكان عبد الكريم، فضلا عن براعته الإدارية، مثل جده مغيث فاتح قرطبة، من أعظم قادة هذا العصر، وقد قاد حسبما تقدم في مواضعه، عدة من الحملات
الغازية المظفرة.

ولما توفى في سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) خلفه في الحجابة سفيان بن عبد ربه وهو من البربر، ولم تكن له نباهة سابقة، ثم عيسى بن شُهيد، وهو ثانى الرجلان.

وكان عيسى من أعيان موالى بني أمية، وكان أيضاً من وزراء الحكم، أوصى به ولده عبد الرحمن، فلما ولى الأمر قدمه على خاصته، ثم ولاه
خطة الخيل، ثم خلع عليه رتبة الوزارة، وعهد إليه بالنظر في المظالم، وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة.

ثم ولاه الحجابة بعد سفيان.
واشتهر عيسى
بالحلم والوقار وحصافة الرأى، والمعرفة والجزالة، وقاد كثيراً من الصوائف
المظفرة.
بيد أنه استهدف لخصومة الفتى نصر الخصى المسيطر على شؤون القصر،
والأثير لدى الأمير بمظاهرته لحظيته طروب، فلبث يدس له ويعمل على
إقصائه
من الحجابة، حتى تم له ذلك، حينما مرض عبد الرحمن وطال احتجابه.
وعين
مكانه للحجابة عبد الرحمن بن رستم.
فلما أبل الأمير من مرضه أنكر ما وقع، وأنحى باللائمة على نصر، وأعاد
عيسى بن شهيد إلى الحجابة، فلم يزل على حجابته
حتى توفى عبد الرحمن.
قال ابن القوطية: " لم يختلف أحد من شيوخ الأندلس
في أنه ما خدم ملوك بني أمية فيها أحد أكرم من عيسى بن شهيد غاية، ولا
أكرم اصطناعاً، ولا أدعى لذمته.
ولقد كان الحاجب قبله عبد الكريم
ابن عبد الواحد بن مغيث بهذه الصفة، على زيادة خصاله وأدواته على
عيسى،

---

(١! ابن القوطية ص ٦١، و٦٢، وكذلك مخطوط ابن حيان ص ١٤٤.
ومخطوط القرويين
لوحة ١٩٦ أ.

إلا في باب كرم الصنيعة واستتمامها، فلم يك تفصله درجة " (١) .
وتولى الكتابة للأمير عبد الرحمن عدة من الكتاب المبرزين، في مقدمتهم الحاجب
عبد الكريم، وقد كان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً جزلاً، وعبد الله بن محمد
ابن أمية بن أبي حوثرة، ومحمد بن أبي سليمان الزجالى وهو من برابرة نفزة،
وكان كاتباً بارعاً، واشتهر بقوته في الحفظ حتى أنه سمى " بالأصمعى "،
واشتهر أبناؤه من بعده في ميدان الكتابة.
وكان ممن كتبوا للأمير عبد الرحمن أيضاً الأسقف جومث (قومس) بن أنطونيان
عامل أهل الذمة، وكان أديباً بارعاً، وكاتباً مقتدراً، وكان عبد الرحمن يعهد
إليه بالمهام الخطيرة، وخدم من بعده ولده الأمير محمد (٢) .
واجتمعت في عهد الأمير عبد الرحمن أيضا جمهرة من جلة الفقهاء والقضاة،
رحل معظمهم إلى المشرق في طلب العلم وانتقاء الرواية، ومن هؤلاء محمد بن
يوسف بن مطروح، ومحمد بن حارث، وعبد الأعلى بن وهب، وبقى بن
مخلد، ومحمد بن وضاح، ويحيى بن إبراهيم بن مدين، وعيسى بن دينار،
ويحيى بن يحيى.
وقد اشتهر بعض هؤلاء من قبل في عهد أبيه الحكم.
وكان يتقدم
هذه الجمهرة من الفقهاء في المكانة والنفوذ، عبد الأعلى بن وهب، ويحيى
ابن يحيى، وعبد الملك بن حبيب.
وكان يحيى بن يحيى عميد الفقهاء وشيخ قرطبة
الأول، وأصله من برابرة مصمودة، ودرس في المشرق على مالك، والليث بن سعد
وابن وهب وغيرهم، وتولى الفتيا بعد عيسى بن دينار، ولبث حتى وفاته فى
سنة ٢٣٤هـ يتبوأ أسمى مكانة.

وكان ممن اهتموا بالتحريض على ثورة الربض
وفر عقب إخماد الثورة إلى طليطلة، ثم استأمن الحكم فأمنه وعاد إلى قرطبة.
وخلفه في علمه ومكانته عبد الملك بن حبيب، وغدا أثير الأمير، لا يقدم
عليه أحداً، ولا يعدل بمشورته أحد.
وكان عبد الملك فوق براعته في الفقه
والحديث، متقدماً في علوم اللغة، والعلوم القديمة، بارعاً في الأدب، وكتب
كتباً في إعراب القرآن وشرح الحديث وفي الأنساب وغيرها (٣) .

---

(١) تاريخ ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩٦ أوب و١٩٧ أو ١٩٨ أ.
(٢) راجع قضاة قرطبة للخشنى ص ١١١.
(٣) تاريخ ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ٢٠١ ب و٢٠٢ أ.

*(٢٧٦/١)*

ويخصص ابن حيان لذكر قضاة عبد الرحمن، وأخبارهم، ونوادرهم
والتعريف بهم، نبذاً طويلة رأينا أن نكتفى بالإشارة إليها (١) .
وحذا عبد الرحمن حذو أبيه أيضاً، في اصطفاء الموالي والصقالبة، وابتاع
أنصبة أخوته من مماليك أبيه " العجم "، وكانوا خمسة آلاف مملوك، ثلاثة
آلاف
فارس يرابطون إزاء باب القصر، فوق الرصيف، وألفا رجل على أبواب
القصر
وكانوا يسمون " الخرص " لعجمتهم (٢) .
وسما نفوذ الفتيان يومئذ في البلاط، وكان زعيمهم الفتى نصر المتصرف في
شؤون القصر الخاص، وكان يتمتع بأعظم
نفوذ في القصر والدولة، بمؤازرة طروب جارية عبد الرحمن.
وكان نصر هذا ويكنى أبو الفتوح، من الفتيان المختارين الذين اشتهروا
بالجمال

والظرف، وأمر الحكم بخصيهم، وأصله من أبناء الأحرار الذين حشدوا للخدمة
داخل القصر، وكان أبوه من أسالمة أهل الذمة (المولدين) من أهل قرمونة (٣) .
ولما ولى عبد الرحمن، قدمه على سائر خاصته، وغدا مدبر أمر داره، ومشاركاً
لأكابر وزرائه في تصريف الشئون.
وتضاعف نفوذه ومكانته بمحالفته لجارية
عبد الرحمن الأثيرة طروب، صاحبة النفوذ القوى.
وكان من أشهر أعمال نصر
قيادته لجيوش الأندلس التي حشدت لمقاتلة النورمانيين في أراضي إشبيلية، وانتصاره عليهم.
واستمر نجم نصر في صعود، ونفوذه في تمكن، حتى غدا أعظم
رجال الدولة، وأمضاهم أمراً، وكان مرهوب الجانب، يخشاه الأكابر والخاصة.
توفى فجأة في أواخر سنة ٢٣٣هـ (٨٤٨ م) ، " أرقى ما كان في غلوائه، وأطمع ما هو بالاحتواء على أمر سلطانه، أرهب ما كان الناس له، وأخوفهم لعدوانه، إذ نال من أثرة مولاه الأمير عبد الرحمن واصطفائه، فوق ما ناله خادم خاص، مع أمير رشيد ".
فتنفس الناس الصعداء، وسروا لوفاته، والتخلص من طغيانه (٤) .

---

(١) مخطوط القرويين اللوحات ٢٠٢ أحتى ٢١١ أ.

(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٤٥.

(٣) ابن حزم في رسالة نقط العروس ص ٧٣.
ويقول ابن حزم إن نصراً هذا هو الذى
تنسب إليه " منية نصر " وهى ضاحية جميلة كانت تقع على النهر، على

مسافة قصيرة من شرقى قرطبة.

(٤) تاريخ ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩١ ب.

(٢٧٧/١)

واستكثر عبد الرحمن أيضاً من اقتناء الجوارى الحسان، وكان كلفاً شديد الشغف بهن، وكان يعنى باختيارهن من أطيب العناصر والأصول، واجتمعت لديه منهن نخبة بارعة في الحسن والخلال، مثل طروب أم ولده عبد الله، ومؤمرة

أم ولده المنذر، وشفاء أم ولده المطرِّف، وفخر ومتعة وغيرهن، وأنجب عبد الرحمن من الولد عدداً ضخماً بلغ وفقاً لابن حزم مائة، خمسين من الذكور، ومثلهم من الإناث، وذكر الرازى أن عدد أولاده من الذكور أربعون، وسماهم

واحداً واحداً، وأن عدد بناته ثلاثة وأربعون، ذكر أسماءهن جميعاً (١) . وبلغ

الجوارى كالفتيان من النفوذ مبلغاً عظيماً.

واشتهرت من بينهن طروب حظية

عبد الرحمن الأثيرة لديه، وقد اشتد نفوذها في أواخر أيامه، وظاهرت نصراً الفتى، فكانت لهما الكلمة النافذة في معظم الشئون، وكان عبد الرحمن يشغف بها

أعظم شغف، وهو القائل فيها:

إذا ما بدت لى شمس النها..

.

ر طالعة ذكرتنى طروبا

وعنى عبد الرحمن بالمنشآت العامة أعظم عناية، فزاد في مسجد قرطبة الجامع

بهوين جديدين من جانب القبلة، وقام على عمارته الفتى نصر.

وما زال هذا
الجامع الشهير قائماً إلى اليوم بسائر عقوده الإسلامية، وأروقته ومحاريبه.
ولكنه
حول منذ القرن السادس عشر إلى كنيسة قرطبة العظمى (كتدرائية) ، وبالرغم
من أن الهياكل قد أقيمت في سائر عقوده الجانبية، وأقيم في وسطه مصلى
عظيم
على شكل صليب، فإنه ما زال يحمل بالإسبانية اسمه الإسلامى القديم "
المسجد
الجامع " Mezqnita Aljama، وقد أزيلت قبابه ومعظم زخارفه الإسلامية،
لتحل مكانها الزخارف النصرانية.
ولكن محاريبه الفخمة، مازالت تحتفظ بنقوشها
الإسلامية، وآياتها القرآنية.
ويقع جامع قرطبة في طرف المدينة الجنوبى وسط شبكة من الدروب
الأندلسية
القديمة، على مقربة من القنطرة الرومانية العربية القائمة على نهر الوادي
الكبير.
ويبلغ طوله ١٨٥ متراً وعرضه ١٣٥ متراً.
وله عدة أبواب كبيرة فخمة، مازالت تحتفظ بكثير من نقوشها الإسلامية.
ويعرف بابه الرئيسى المقابل لصحنه

---

(١) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ، ص ٩٠، وابن حيان
(مخطوط
القرويين) لوحة ١٩٤ ب و١٩٥ أ.

" بباب النخيل " Puerta de las Palmas، ويقع صحنه في ناحيته
الشمالية ويعرف
بفناء النارنج Patio de los Naranjos، وهو صحن مستطيل شاسع يزدان
بعدد
من أشجار البرتقال (أو النارنج) ، وهو الآن صحن الكنيسة.
وقد هدمت منارة
الجامع، وهى التي أقامها عبد الرحمن الناصر بجوار الصحن، وأقيم مكانها
برج
الأجراس الحالى (١) .
وأنشأ عبد الرحمن أيضاً مسجد إشبيلية الجامع، كما ابتنى سورها الكبير عقب
غزو النورمانيين لها، ووضع نظاماً جديداً للسِّكة وجعلها أندلسية مستقلة، بقيم
وأوزان جديدة.
وكان أهل الأندلس يتعاملون من قبل بما يحمل إليهم من نقد
المشرق، أو بنقود تسك على نظامه، في دار السكة التي أنشأها عبد الرحمن
الداخل.
وأنشأ أجنحة ومشارف عديدة للقصر، وجلب إليه الماء العذب من
قنن الجبال، وأنشأ على النهر الأعظم مما يلى سور القصر والمدينة رصيفاً
عظيماً (٢) .
كما أنشأ بقرطبة عدة من الحدائق الغناء.
وحذت جواريه حذوه، فأنشأن في قرطبة
عدة مساجد سميت بأسمائهن.
ويشير سيمونيت إلى عظمة قرطبة في عصر عبد الرحمن ويقول " إن عبد
الرحمن
كان يعشق البذخ الطائل، وفي عهده حفلت قرطبة بطائفة من المساجد
والقصور
والقناطر والمنشآت المختلفة.

وقد وصف قرطبة وعظمتها في عهده نصرانى معاصر
شهير وهو سان أولوخيو، إذ يقول إن عبد الرحمن أسبغ على عاصمة مملكته لوناً
خارقاً من العظمة، ورفع من ذكرها، وأفاض عليها حلل المجد، وأغدق عليها
الثروات، وملأها بجميع مظاهر المتعة الدنيوية إلى حدود لا تصدق " (٣) .
وكانت أيام عبد الرحمن أيام سكينة وأمن ورخاء، وفيها ازدهرت الزراعة
والصناعة والتجارة، وورد على الأندلس كثير من الأمتعة والسلع الفاخرة،
وزخرت الأسواق بالبضائع.
وزاد الدخل زيادة عظيمة، وبلغت الجباية وحدها

---

(١) راجع وصفاً مسهباً لجامع قرطبة وتاريخه وخواصه الأثرية في كتابى: " الآثار الأندلسية
الباقية في اسبانيا والبرتغال " (الطبعة الثانية) ص ٢٠ - ٣٤.
(٢) كان القصر الأموى القديم يقع على ضفة النهر على مقربة من الجامع، ويحتل موقعه اليوم
القصر الأسقفى والسجن المحلى، والحدائق المجاورة التي ما زالت إلى اليوم، تسمى حدائق القصر
Huertas del Alcazar، والمرجح أنها تقوم مكان حدائق القصر القديمة.
(٣) Simonet: ibid , Vol. I. p. ٣٦٦

(٢٧٩/١)

زهاء ألف ألف دينار في السنة، واستطاع الأمير أن ينفق بسخاء على تسيير
الحملات الغازية، وإقامة المنشآت المختلفة (١) .

وكان عبد الرحمن بن الحكم أديباً حسن التثقيف، وكاتباً بليغاً مشرق البيان، عالما بالشريعة والحكمة (الفلسفة) ، مجيداً للنظم، نصيراً للعلوم والآداب، يحتشد

حوله جمهرة من أكابر العلماء والأدباء والشعراء، مثل العلامة الرياضى والفلكى

عباس بن فرناس، ويحيى الغزال، وشاعره الخاص عبد الله بن الشمر بن نمير، وكان صديقه مذ كان ولياً للعهد، وكان بارعاً في الأدب والشعر والمنطق والتنجيم، وكان يكشف لعبد الرحمن نجمه وطالعه (٢) ، وعباس بن ناصح الجزيرى شاعر

أبيه الحكم، وعبيد الله بن قرلمان بن بدر مولى الداخل، وكان من جلسائه وخاصته وكان أديباً بارعاً، وشاعراً مجيداً.

وغيرهم.

ومن نظمه قوله:

ولقد تعارض أوجه لأوامر..

.

فيقودها التوفيق نحو صوابها

والشيخ أن يحو النهى بتجارب..

.

فشباب رأى القوم عند شبابها

وقوله وقد خرج غازياً إلى جلّيقية:

فكم قد تخطيت من سبسب..

.

ولاقيت بعد دروب دروبا

ألاقى بوجهى سموم الهجـ..

.

ير إذ كاد منه الحصى أن يذوبا

تدارك بى الله دين الهدى..

.

فأحييته وأمتُّ الصليبا

وسرت إلى الشرك في جحفل..

.

ملأت الحزون بها والسهوبا

ومن قوله في الغزل:

قتلتنى بهواكا..

.

وما أحب سواكا

من لى بسحر جفون..

.

تديره عيناكا

وحمرة في بياض..

.

تكسى به وجنتاكا

أعطف على قليلا..

.

واحينى برضاكا

فقد قنعت وحسبى..

.

أن أرى من رآكا

---

(١) راجع ابن القوطية ص ٦٧، وابن الأبار ص ٦١، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ و٩٤، وأخبار مجموعة ص ١٣٦، ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ و١٦٣؛ وابن الأثير ج ٧ ص ٢٢؛

وفى مخطوط ابن حيان عما تقدم نبذ وتفاصيل حسنة (ص ١٣٨ و ١٤٢ و ١٤٤) .
(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٥٦ و ١٥٧.

(٢٨٠/١)

واشتهر عبد الرحمن بحنوه الجم على قرابته وذوى رحمه بدرجة لم يجاره فيها أحد من أهل بيته، فكان يوليهم وافر عطفه، ويجرى عليهم الصلات السخية. وفى أيامه وفد من المشرق على الأندلس عدد من قرابته المروانية (بنى أمية) ، فاستقبلهم جميعا أجمل استقبال، وأنزلهم أكرم منزل، وأجرى عليهم الأرزاق والإقطاعات الواسعة.

وكان عبد الرحمن يعشق الفلك والتنجيم، ويشغف بدراسته، وكان العلامة الرياضى ابن فرناس، وعبيد الله بن الشمر، وعبد الواحد بن إسحاق الضبى من أساتذته في ذلك الفن، وكان يقربهم ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة، وله معهم قصص ونوادر كثيرة.

وكان أيضا يعشق الغناء والموسيقى، ويجمع حوله
عدداً من أكابر الفنانين يجرى عليهم الأرزاق الواسعة.
ووفد عليه من المشرق
أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب نابغة الغناء والموسيقى، وكان زرياب
من تلاميذ الفنان الشهير إسحاق الموصلى مغنى الرشيد، فلما ظهر نبوغه وشعر
أبو إسحاق بخطورة منافسته، تحيل في صرفه وإبعاده، فغادر بغداد إلى المغرب، وكتب إلى الحكم أمير الأندلس يستأذنه في الوفود عليه.
فأذن له واستدعاه، ولكن زرياب ما كاد يصل إلى المغرب حتى علم بوفاة الحكم، وكاد ينثنى عن
عزمه في العبور إلى الأندلس، لولا أن جاءه كتاب عبد الرحمن بدعوته

والترحيب

به فسار إلى قرطبة واستقبله عبد الرحمن بمنتهى الإكرام والحفاوة، وأجرى عليه الأرزاق الواسعة، وجعله من خاصة بطانته.

وبهر زرياب أهل الأندلس

ببراعته في الغناء والموسيقى، وطار صيته في كل مكان، وأضحى قطب الفن الذى لا يجارى، وأخذ عنه أهل الأندلس فنونه وإبداعه، وتشبهوا به في مظاهر زيه وإناقته وطرائق معيشته.

وتوفى في ربيع الأول سنة ٢٣٨ هـ

(أغسطس ٨٥٢ م) قبيل وفاة عبد الرحمن بأسابيع قلائل.

وكان لزرياب

وفنه أعظم الأثر في تكوين الفن الأندلسي في ظل الدولة الأموية، ثم في ظل دول الطوائف (١) .

وشغف عبد الرحمن أيضاً بجمع الكتب، وأوفد شاعره عباس بن ناصح إلى المشرق للبحث عن الكتب القيمة واستنساخها، فجمع له منها طائفة كبيرة،

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها، وابن خلدون في المقدمة ص ٢٥٧.



وكان أول من عنى بجمعها من أمراء الأندلس، وكانت جهوده في هذا السبيل نواة لإنشاء مكتبة قرطبة العظيمة.

* * *

وفى عهد عبد الرحمن سما شأن حكومة قرطبة الإسلامية، وأخذت تتبوأ مكانتها من الهيبة والنفوذ، بين مختلف القصور والحكومات النصرانية، وتغدو مركز التوجيه للدبلوماسية الإسلامية في الغرب.

والظاهر أن الدولة البيزنطية، خصيمة الدولة العباسية في المشرق، كانت
تعتقد أنها تستطيع أن تصل بتفاهمها
مع حكومة قرطبة الإسلامية، إلى بعض النتائج العملية في مقاومة
خصيمتهما
المشتركة.
ففى سنة ٨٤٠ م (٢٢٥ هـ) وفد على قرطبة سفير من قبل قيصر
قسطنطينية الإمبراطور تيوفيلوس (توفلس) ، يدعى قرطيوس، ومعه كتاب
وهدية فخمة، فاستقبله عبد الرحمن بحفاوة، وكان القيصر يتوجه في كتابه إلى
أمير الأندلس، باسم الصداقة القديمة التي كانت قائمة بين الأوائل من خلفاء
بنى
أمية وقياصرة بيزنطية، ويشكو مر الشكوى من فعال الخليفة المأمون وأخيه
المعتصم وعيثهما في أراضيه، ويشير إليهما في كتابه بابن مراجل وابن ماردة
(١)
تحقيراً وازدراء، كما يشكو إليه من استيلاء أبي حفص البلوطى وعصبته
الأندلسية
على جزيرة إقريطش (كريت) وهى من أملاكه، ويطلب إليه عقد أواصر
المودة والصداقة بينهما، ويرغبه في ملك أجداده بالمشرق، ويستنهض همته
لاسترداده، ويتنبأ له بقرب انهيار الدولة العباسية، وزوال سلطانها، ويعده
بنصرته في ذلك المشروع.
وقد رد عبد الرحمن على سفارة تيوفيلوس بمثلها، وأوفد
كاتبه وصديقه الشاعر يحيى الغزال إلى قسطنطينية ومعه يحيى بن حبيب
المعروف
بالمنيقلة بكتاب وهدية إلى الإمبراطور.
وقد سبق أن أشرنا إلى الغزال وإلى
شخصيته الممتازة وإلى بارع خلاله وظرفه، وكان الغزال قد جاوز الستين
يومئذ

ولكنه كان مايزال يحتفظ بكثير من إناقته وروائه.

وسار الغزال وصاحبه يحيى

ومعهما السفير البيزنطى إلى المشرق عن طريق تدمير (مرسية) ، فوصلوا إلى

قسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة، عاينوا فيها الأهوال من اضطراب البحر وروعة

الموج.

واستقبل الإمبراطور السفير الأندلسي بحفاوة، وقدم الغزال إليه كتاب

---

(١) مراجل هى أم المأمون، وماردة هى أم المعتصم، وكلتاهما جارية وأم ولد.

(٢٨٢/١)

عبد الرحمن وهديته.

ويرد عبد الرحمن في كتابه على ما جاء في كتاب الإمبراطور

تفصيلا، ويشير مثله إلى المأمون والمعتصم بابن مراجل وابن ماردة، وإليك

ما يرد به عبد الرحمن على ما يدعوه إليه الإمبراطور من وجوب العمل لاسترداد

ملك أجداده بالمشرق، وهى أهم فقرات الخطاب:

" وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابن ماردة، وحضضت عليه من الخروج

إلى ما قبله، وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله، وزوال سلطانهم،

وما حضر من وقت رجوع دولتنا، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا، فإننا نرجو

في ذلك عادة الله عندنا، ونستنجز موعوده إيانا، ونمترى حسن بلائه لدينا،

بما جمع لنا من طاعة من قبلنا، من أهل شامنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا

وثغورنا، وما لم نزل نسمع ونعترف أن النقمة تنزل بهم، والدائرة تحل عليهم من أهل

المغرب بنا وعلى أيدينا، فيقطع الله دابرهم، ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى " (١) .

وأدى الغزال سفارته خير أداء، وعمل على إحكام الصلة والمودة بين الإمبراطور وبين مليكه، وسحر البلاط البيزنطى بكياسته وظرفه، وبديع صفاته، وقدمه الإمبراطور إلى زوجه الإمبراطورة تيودورا وإلى ولده الأمير ميخائيل الذى تولى العرش فيما بعد، وكان يومئذ فتى يافعاً، فأنست به الإمبراطورة وسحرته برائع جمالها، وسحره الأمير الفتى بظرفه وبارع خلاله. وقال فيه قصيدته التي مطلعها:

وأغيد لين الأطراف رخص..

.

كحيل الطرف ذو عنق طويل

ترى ماء الشباب بوجنتيه..

.

يلوح كرونق السيف الصقيل

من أبناء الغطارف قيصرى..

.

العمومة حين ينسب والخؤول

وعاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر، وقد بهرته مظاهر الحضارة البيزنطية وروعة البلاط البيزنطى.

---

(١) ورد هذا الخطاب بنصه كاملا كما وردت تفاصيل هذه السفارة في مخطوط ابن حيان

ص ١٦١ و١٦٢ و١٦٣؛ ونشر الأستاذ ليفى بروفنسال قصة هذه السفارة بالفرنسية، ومعها نص

الخطاب بالعربية في فصل خاص، في المجلد الثاني عشر من مجموعة Byzantion التي تصدر في بروكسل

بعنوان: Ambassades entre Cordoue et Byzance "Echange d
.au IXe
Siècle كما نشرها
أيضاً في رسالة خاصة.
وراجع أيضاً نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢، حيث يشير إلى هذه السفارة
إشارة موجزة.

(٢٨٣/١)

هذا وقد أوفد الغزال بعد ذلك بقليل في سفارة أخرى أغرب وأعجب، وذلك أنه
على أثر غزو النورمانيين (المجوس) لولايات الأندلس الجنوبية الغربية
واقتحامهم إشبيلية، وردهم عنها، ثم هزيمتهم ومطاردتهم، بعث ملكهم
رسله إلى عبد الرحمن بن الحكم في طلب المهادنة والصلح، فأجابه عبد
الرحمن إلى
طلبه، وبعث الغزال مع الرسل إلى ملكهم ليرد السفارة، ويعلمه بقبول الصلح.
وتقدم إلينا الرواية الإسلامية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة.
وهى رواية
أديب أندلسي عاش في القرن الثالث عشر الميلادى، هو أبو الخطاب عمر
ابن الحسن بن دحية البلنسى، أوردها في كتابه "المطرب من أشعار أهل
المغرب"
في حديثه عن الغزال.
وهو يذكر لنا أن عبد الرحمن أوفد مع الغزال، يحيى بن حبيب
لمرافقته في تلك السفارة، وأنهما خرجا معاً إلى البحر المحيط عن طريق شلب
(١)
في مركب خاص أعد لهما، وسارت مع مركب الرسل النورمانيين.
ويصف
لنا ما لقيه السفيران المسلمان من أهوال البحر وروعته، وكيف أنهما جازا تلك

الشدائد سالمين ووصلا إلى بلاد المجوس.

ثم يصف لنا بلاد المجوس بأنها " جزيرة
عظيمة في البحر المحيط "، وعلى مقربة منها " جزائر كثيرة منها صغار وكبار، أهلها كلهم من المجوس، وما يليهم من البر أيضا لهم مسيرة أيام، وهم مجوس، وهم اليوم على دين النصرانية ".

ويبدو من وصف طريق الرحلة، وأوصاف تلك الجزر، أن القطر الذى قصده الغزال ورفيقه، هو الدانماركة، ويؤيد ذلك أن الدانماركة كانت في ذلك الوقت مستقر ملك النورمان (المجوس) ، وكان ملكهم عندئذ يشمل الدانماركة وما حولها
من الجزائر، وقسماً من إسكندناوة وألمانيا الشمالية.

وكان يجلس على عرش
النورمان في ذلك الوقت (نحو سنة ٨٤٤ أو ٨٤٥ م) ملك يسمى " هوريك ".

وكان النورمان يومئذ أحداثاً في النصرانية، حسبما تقول الرواية الإسلامية.

ولقى
السفير المسلم من ملك النورمان على ترحاب وعطف، وأفرد لإقامته وزملائه منزلاً حسناً.

وقدم إليه الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن وهديته من الثياب والآنية، فوقعت لديه أحسن موقع.

ولقى الغزال في البلاط النورمانى كله، كثيراً من

---

(١) شلب Silves هى بلدة أندلسية قديمة تقع في جنوب غربى البرتغال على مقربة من
المحيط الأطلنطى.

الإعجاب والعطف، واستقبلته " نود " ملكة النورمان، فراعه حسنها، وشملته بعطفها، ورآها بعد ذلك مراراً، ونظم في حسنها شعراً رقيقاً، يورده لنا ابن دحية، وفيه يخاطبها بقوله:

يا نود يا رود الشباب التي..

.

تُطلع من أزرارها الكوكبا

وعاد الغزال إلى الأندلس بعد رحلة دامت عشرين شهراً، وكان عوده عن طريق شنت ياقب.

ويقول لنا ابن دحية إنه كان يحمل من ملك النورمان كتاباً إلى صاحبها، وهو ملك جليقية وليون.

والظاهر أنه كان كتاب توصية وجواز، لكى يستطيع السفير المسلم وزملاؤه اختراق المملكة النصرانية الشمالية، في طريقهم إلى الأندلس.

وقد اخترق الغزال بالفعل مملكة ليون، وسار إلى طليطلة، ومنها إلى قرطبة.

والمرجح أن وصوله إلى قرطبة، كان سنة ٢٣٢هـ (أواخر سنة ٨٤٦ م) .

وعاش الغزال بعد ذلك زهاء عشرين عاماً أخرى، وتوفى في سنة ٢٥٠هـ.

وقد بلغ الرابعة والتسعين من عمره، إذ كان مولده في سنة ١٥٦ هـ (١) ، وأدرك خمسة من أمراء بني أمية بالأندلس أولهم عبد الرحمن الداخل، وآخرهم محمد ابن عبد الرحمن.

وكان مدى نصف قرن يتبوأ الزعامة في الشعر والأدب والحكمة، ويتبوأ في بلاط قرطبة أسمى مقام من النفوذ والثقة والتقدير (٢) .

---

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى (مصر) رقم ٨٨٧.

(٢) راجع رواية ابن دحية كاملة في كتابه " المطرب من أشعار أهل المغرب

" المنشور
بعناية وزارة المعارف سنة ١٩٥٤ (ص ١٣٨ - ١٤٩) .
ونقلها دوزى في كتابه:
.Recherches, Vol
.I
App, XXXIV، وأشار إليها المقرى في الفصل الذى أورده عن الغزال
وأخباره (نفح الطيب ج ١ ص ٤٤١ وما بعدها) .
وقد كان البحث يتجه من قبل إلى أن رواية
ابن دحية عن هذه السفارة قد تكون تكراراً أو تحريفاً للرواية الخاصة بسفارة
الغزال إلى قسطنطينية، ولكن يتضح من مراجعة رواية ابن دحية كاملة في
كتابه المنشور، ودراسة المعالم الجغرافية التي
أوردها عن طريق سفر الغزال وطريق عودته عن طريق شنت ياقب ومملكة
جليقية - وعن موقع
مملكة النورمان، يتضح من ذلك كله أنه لا توجد الآن ذرة من الريب في
صحة القول بأن السفارة
كانت فعلا إلى " بلاد المجوس " أو النورمان، أو بعبارة أخرى إلى الدانماركة.

(٢٨٥/١)

الكتابُ الثاني

الدّوْلة الأمويَّة في الأندَلسْ

القسم الثاني

عَصْرُ الإمَارَة

من محمد بن عبد الرحمن إلى عبد الله بن محمد

وعَهْد الفتنة الكبْرى

٢٣٨ - ٣٠٠ هـ: ٨٥٢ - ٩١٢ م

(٢٨٧/١)

الفصل الأوّل
ولاية محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
وطوالع الثورة الأولى
محمد بن عبد الرحمن.
ظروف توليته والتمهيد لها.
الثورة في طليطلة.
مسير محمد إلى طليطلة.
استعانة الثوار بملكى ليون ونافار.
موقعة وادي سليط.
تحريضات النصارى المتعصبين.
غزوة
ألبة والقلاع.
عود إلى محاربة طليطلة وإخضاعها.
غزوة النورمانيين.
عيثهم في جنوبى الجزيرة.
ارتدادهم من طريق الشمال.
غزو المسلمين لنافار وألبة والقلاع.
موسى بن موسى وسيادته في الثغر
الأعلى.
الحرب بينه وبين أردونيو.
مصرع موسى.
ولده لب ومحالفته للنصارى.
أخوته الثلاثة.
غزو المسلمين لألبة والقلاع.

هزيمة المسلمين.
عود إلى غزو ألبة.
هزيمة النصارى.
الثورة في ماردة
وإخمادها.
احتماء بني قسى بملك النصارى.
الثورة في قواعد الثغر الأعلى.
استيلاء بني قسى على تطيلة
وسرقسطة.
مسير محمد الثغر الأعلى.
استيلاؤه على تطيلة.
غزوه لنافار.
زحف المنذر إلى سرقسطة.
غزوه لنافار ثانية.
عوده إلى غزو الثغر الأعلى.
افتتاح المنذر لحصن روطة.
استيلاؤه على لاردة.
خضوع سرقسطة.
الخلاف بين بني قسى.
خروج محمد بن لب في سرقسطة وتحالفه مع النصارى.
سير المنذر إلى سرقسطة واستيلاؤه عليها.
الهدنة بين المسلمين والنصارى.
عود ابن مروان إلى الثورة
في ماردة.
سير محمد لقتاله.
تحالف ابن مروان مع ملك ليون.

هزيمة جيش الأندلس وأسر قائده.
عيث ابن مروان بنواحى الغرب.
التجاؤه إلى ملك ليون.
زحف المنذر على بطليوس وإحراقها.
الثورة في شنت برية وبنو ذو النون.
ظهور ابن حفصون في جبل ببشتر.
بواعث الفتنة في كورة
ريه.
غزو ابن حفصون لكورة ريه.
محاربة ابن حفصون وأسره.
فراره واستئنافه الثورة.
سير
المنذر لقتاله.
محاصرة الحامة.
وفاة محمد بن عبد الرحمن وعود المنذر إلى قرطبة.
خلال محمد.
عنايته بالجيش والأسطول والمنشئات الدفاعية.
نظام البلاط في عهده.
حجابه ووزراؤه.
أعماله
الإنشائية.
المسجد الجامع ومنية الرصافة.
شخصه وخلاله.
أدبه وبلاغته.
عطفه على العلماء والأدباء.
حمايته لبقى بن مخلد.

نفوذ الفقهاء في عهده.
تسامحه نحو النصارى.
ترك عبد الرحمن بن عبد الحكم، مملكة زاهرة موطدة الأركان، تنعم بالاستقرار والهدوء.
ولكن هذا الاستقرار الظاهر، كان يحجب كثيراً من التيارات الخفية،
التي تهدد أمن المملكة وسلامتها.
ذلك أن الهزات العنيفة التي توالت على الأندلس
في عهد عبد الرحمن، تركت آثارها العميقة في هذا الصرح الباذخ.
وكانت الثورات المحلية المتعاقبة، وغزوات النورمانيين، ودسائس النصارى المتعصبين، كلها تنذر بأن الاستقرار المؤقت الذى تنعم به المملكة، لم يكن سوى

*(٢٨٨/١)*

هدنة خادعة، حققتها سياسة قوية حازمة.
وكانت عناصر الإضطراب والغدر
تجثم هنالك في صدور المنافقين والطامعين، وتنذر حكومة قرطبة وعرش بني أمية
بأعظم الأخطار.
تولى محمد بن عبد الرحمن الملك عقب وفاة أبيه، في الرابع من ربيع الآخر سنة ٢٣٨هـ (٢٤ سبتمبر سنة ٨٥٢ م) ، ودخل القصر وأبوه مسجى على سريره، فاقتعد لفوره سرير الملك، وأخذ له البيعة الحاجب عيسى بن شُهيد.
وكان يومئذ
قد جاوز الثلاثين بقليل.
وكان مولده في شهر ذى القعدة سنة ٢٠٧هـ (إبريل سنة ٨٢٣ م) .
وأمه أم ولد تدعى بهير (١) .

وكانت ظروف ولايته ممهدة من
قبل، وكان والده عبد الرحمن قد استخلفه بقصر الإمارة، حينما اعتزم أن ينيبه عنه
في سنة ٢٢٦هـ، وهو يومئذ فتى في العشرين من عمره، ثم ولاه ثغر
سرقسطة، فضبطه وأحسن إدارته، وصحب والده إلى بنبلونة في غزوته
المظفرة سنة ٢٢٨هـ، وقاد ميمنة الجيش، وأثنى عليه والده في كتاب الفتح،
فاشتهر اسمه بين الناس، ثم ندبه أبوه بعد ذلك لمقابلة رسل ملك الفرنج قارله
(كارل) بن ببين القادمين
إليه.
وأخيراً كلفه بالركوب إلى البلاط بصفة منتظمة، ليرفع إليه الكتب الواردة
بعد تلخيصها بمعرفته، وقد تم هذا الإجراء بتوصية الحاجب عيسى بن شهيد
ونصحه، وذلك لتمكين أمر محمد ومكانته، وتوهين ما كان يحاوله نصر الخصى
الأثير لدى الأمير، وحليف حظيته طروب المتغلبة عليه، من ترشيح ولدها
عبد الله لولاية العهد، وتمكين أمره.
ولم يكن ذلك دون اختيار وتثبت.
ذلك أن عبد الرحمن، كان حسبما يحدثنا
عيسى الرازى " قد كشف عن مذاهب ولده، ولداً ولداً، وعجم أخلاقهم
اختباراً، فوجد محمداً راجحاً لهم بخلاله ".
فاختاره ليخلفه من بعده، وأوعز إلى وزرائه وأكابر دولته، بأنه صاحب ولاية
عهده، والمفوض إليه
الأمر من بعده، وكلفهم جميعاً، ومعهم القاضى وأهل الشورى، بالركوب إليه
وغشيان مجلسه أيام الجمع في المسجد الجامع، وأبدى على الجملة بما لا
يدع مجالا
لأى شك، بإيثاره على جميع ولده، وتفرده دونهم بخلافته في ملكه.
وفضلا عن ذلك كله، فقد كانت لمحمد عيون من الصقالبة بالقصر

يطالعونه

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦.

(٢٨٩/١)

بالأخبار في وقتها.
فما توفى والده، وافاه في مساء نفس اليوم رسول من قبل
حبيب الخصى، يستدعيه إلى القصر بسرعة، فبادر إلى القصر متنكراً وقد
أخفى
سلاحه تحت ثيابه، خوفاً من دسائس أخيه ومنافسه عبد الله، لتمكن نفوذ أمه
داخل
القصر.
وكان الصقالبة قد كتموا موت الأمير، وأغلقوا أبواب القصر، وثارت
بينهم مناقشات عنيفة حول ولاية العرش، وانتهى الأمر بتفضيل محمد وتقرير
استدعائه.
وخرج محمد من غرفة أبيه المسجى إلى مجلس البيعة، واستدعى إخوته
التسعة والأربعين، وعمومته، وأهل بيته، وعظماء المملكة.
وأخذت له البيعة
دون خلاف (يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول ٢٣٨ هـ) ، ثم أخذت له بيعة
الكافة في المسجد الجامع أياماً متوالية (١) .
أوردنا هذه التفاصيل لنقف على نوع الإجراءات التي كانت تتخذ لتقرير
ولاية العهد، في إمارة قرطبة الأموية، ثم لنقف على الدور الذى أخذ
يضطلع به الفتيان الصقالبة منذ الآن فصاعداً في مسألة خلافة العرش، وهو
دور كان له أثره الحاسم في كثير من المواطن.
وكان محمداً أميراً ذكياً فطناً بالأمور (٢) ، تولى والأفق الذى ظلل عصر
أبيه

العظيم مازال يحتفظ بلمعانه، وملوك اسبانيا النصرانية يحسبون حسابه، ويشعرون
بأنه خلف كفء لأبيه، وملوك العدوة القريبين من الأندلس يخطبون وده، وملك الفرنج يسعى إلى عقد السلم معه.
وأقر محمد حاجب أبيه عيسى بن شهيد، ومعظم الوزراء الذين كانوا يتولون خدمة أبيه على خططهم ومراتبهم، وصنع نظاماً جديداً للوزارة، تتميز فيه الخطط الرفيعة على غيرها، ويمتاز فيه الوزراء بنوع من التعظيم والتجلة، وقدم
الوزراء من أهل الشام على غيرهم من الأندلسيين والبربر، وأعلاهم في الجلوس
على أرائكهم ببيت الوزارة.
وكان بنفسه يشرف على أعمال الوزارة والكتاب، ويدقق في أعمالهم وتصرفاتهم وحساباتهم (٣) .
ولما توفى عيسى بن شهيد، خلفه فى
الحجابة عيسى بن الحسن بن أبي عبدَة، وكان بالرغم من رثاثة هيئته وزيراً قوياً،

---

(١) ابن حيان عن أحمد بن محمد الرازى، وعيسى بن أحمد الرازى، ومعاوية بن هشام
الشبينسى؛ مخطوط القرويين اللوحات ٢١٥ إلى ٢٢٠ ب.
(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١.
(٣) ابن حيان عن أحمد الرازى؛ مخطوط القرويين لوحة ٢٢٣.



وافر الفطنة والذكاء، صائب الرأى والتقدير.
وكان هاشم بن عبد العزيز من

بين وزراء الأمير محمد، أشدهم خصومة ومنافسة للحاجب ابن أبي عبدة، وكان فى
نفس الوقت أحب وزراء الأمير إليه، وأكثرهم حظوة لديه، فلم يلبث أن غلب نفوذه على سائر الوزراء.
ويقول لنا ابن عبد البر إن هذه الحظوة التي استأثر بها
الوزير هاشم لدى الأمير محمد، كان لها أثر سيىء في تصرفات الأمير، وأنه أى هاشم
قد أفسد عليه أمره، " فشرّهه، وصلفه، وحمله على غير المنهج من محمود
طرقه، وعدل عن اختيار ثقات العمال، من الشيوخ والكهول أولى النهى والأصول، إلى
الأحداث من أولى الشر والخيانة ودناءة الأصول.
فلم يلبث الأمر أن فسد بذلك
إلى أبعد حال..
فنجمت الفتنة بأكثر البلاد، وكثر في الأرض الفساد في المملكة " (١) .
وفى أقوال ابن عبد البر عن هذا التحول في سياسة الأمير محمد وفي أساليب حكمه
مبالغة، ينقضها ما أورده صاحب البيان المغرب وغيره عن صفاته (٢) . وعلى أى
حال فسوف نرى أى دور خطير يلعبه الوزير هاشم بن عبد العزيز، الذى تولى
الحجابة فيما بعد، في ميدان الحرب والسياسة في عهد الأمير محمد.
وقد شاء القدر أن يكون عهد محمد بداية عصر من أخطر عصور التاريخ
الأندلسي، وأشدهم خطراً على ملك بني أمية، وعلى دولة الإسلام في الأندلس.
ذلك أنه ما كاد يتبوأ العرش، حتى بدأت طلائع تلك الثورة الجارفة، التي قدر
له أن يضطلع بكفاحها طوال حكمه، الذى امتد خمسة وثلاثين عاماً، والذى

يصفه ابن حيان بقوله: " والمشوب آخره بالتنكيد، المنصرم عن فرقة الجماعة، ونجوم النفاق بكل جهة ".

ففى منتصف ربيع الثاني سنة ٢٣٨ هـ، يعنى لأيام قلائل فقط من وفاة عبد الرحمن، وولايه محمد، تحرك أهل طليطلة التي ما فتئت تفيض بعوامل الثورة.

وكان بها عندئذ سعيد بن الأمير محمد، والعامل عليها حارث بن بزيع. وكان
جماعة من المارقين وأهل الشر، قد اجتمعوا في الهضبة القريبة من المدينة المسماة
" جبل الأخوين " بزعامة مسوقة بن مطرّف، وهو أحد الزعماء الخوارج الذين فروا من قرطبة، فلما وقفوا على وفاة الأمير عبد الرحمن، كاتبوا أهل طليطلة وحرضوهم على الوثوب بسعيد ومن معه.

فاضطرمت الثورة داخل المدينة،

---

(١) نقله ابن حيان، مخطوط القرويين اللوحة ٢٢٢ أ.

(٢) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١١١.

(٢٩١/١)

وساعدهم ابن مطرف بحشوده من الخارج، وانتهى الأمر بهزيمة جند الأمير، واستطاع سعيد أن يغادر المدينة، ولكن الثوار أسروا عاملها حارثاً، ورفضوا إطلاق سراحه حتى أطلقت حكومة قرطبة رهائنهم المعتقلة هناك (١) .

وفى صيف
العام التالى (سنة ٢٣٩ هـ - ٨٥٣ م) بعث الأمير محمد أخاه الحكم في جند الصائفة
إلى قلعة رباح، وكانت قد أقفرت وخربت وغادرها معظم أهلها، عقب مهاجمة أهل طليطلة الخوارج لها، وقتلهم كثيراً من أهلها، فاحتلتها جند الأمير،

وقامت بإصلاح أسوارها، واستدعى أهلها الفارون وأمنوا، وفعل الحكم مثل ذلك بحصن شندلة، الواقع على النهر المسمى بهذا الإسم Jandula، وهو من

أفرع الوادي الكبير، وجالت جند الأمير في تلك المنطقة تطهيراً من الثوار، وخرجت منها حملة سارت جنوباً، فلقيتها عصابات الخوارج من أهل طليطلة فى

فحص أندوجر، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة هزم فيها جند الأمير، وردوا بخسارة فادحة (شوال سنة ٢٣٩ هـ) .

وعلى أثر ذلك خشى أهل مدينة

جيّان القريبة على أنفسهم من عيث الخوارج، فغادرها كثير منهم إلى الجبال، وابتنى الأمير محمد لهذا السبب حصن " أندة " على مقربة جيان، وضم إليه العرب المقيمين على الطاعة، وسمى المكان لذلك " أندة العرب " (٢) .

وعندئذ شعر محمد بما يهدد العاصمة من الأخطار، وأراد أن يلقى على ثوار طليطلة، درساً عميق الأثر، فسار إليها في المحرم سنة ٢٤٠هـ (يونيه ٨٥٤ م)

على رأس قوة كبيرة.

وكانت أول حملة يقودها بنفسه بعد تبوئه الملك.

وكان

عماد الثورة في طليطلة جمع كبير من المولدين والنصارى، الذين تحركهم روايات

المتعصبين، عن الاضطهاد الذى يلقاه إخوانهم في قرطبة، وكانوا يتطلعون دائماً

إلى عون ملك النصارى، فلما استشعروا عزم محمد على قتالهم، بادروا بالاستعانة

بأردونيو (أردن) ملك ليون، وكذلك بملك نافار، وأمدهم أردونيو بقوة على رأسها

الكونت غاتون (٣) .
وكان تدخل النصارى على هذا النحو لتأييد الثورة ضد
حكومة قرطبة، عاملا في إذكاء حماسة المسلمين، فهرعت جموع كبيرة إلى
جيش
الأمير، ومنهم كثير من الفرسان الأشراف وذوى الحسب، وسار محمد صوب

---

(١) ابن حيان عن الرازى في مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ أ.
(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ ب.
(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٧.
ويقول صاحب البيان
إن الكونت غاتون هو أخ لملك ليون.

*(٢٩٢/١)*

طليطلة في بعض قواته، وترك بقية جيشه الكثيف مستتراً بالتلال التي تظلل
وادي
سليط، وهو الوادي الذى يخترقه النهر المسمى بهذا الإسم Guazalete،
وهو أحد
أفرع التاجُه الجنوبية، فلما رأى أهل طليطلة قلة الجيش المحاصر، خرجوا
لقتاله
ومعهم حلفاؤهم النصارى وهم على ثقة من الظفر، فارتد محمد بجنوده نحو
وادي
سليط متظاهراً بالهزيمة، وعندئذ برزت قوات الأندلس من مكامنها، وأطبقت
على الثوار وحلفائهم النصارى، وكانت موقعة هائلة مزقت فيها جموع
الطليطليين
والإسبان في ساعات قلائل من الصباح إلى الضحى، وقتل منهم مقتلة
عظيمة تقدرها

الرواية الإسلامية بأحد عشر ألفاً، وقيل بل عشرين ألفاً، وأسر منهم كذلك عدد

جم، بينهم كثير من القساوسة وقد أعدموا على الفور، ورصت رؤوس القتلى، وأذن فوقها لصلاة الظهر.

وكان نصراً عظيماً.

وفى هذه الموقعة يقول شاعر العصر عباس بن فرناس:

ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف..

.

لهوم الفلا عبل القبائل ملتف

إذا أومضت فيه الصوارم خلتها..

.

بروقاً تراءى في الغمام وتستخفى

كأن ذرى الأعلام في ميلانها..

.

قراقير في يم عجزن عن القذف

بكى جبلا وادي سليط فأعولا..

.

على النفر العبدان والعصبة الغلف

يقول ابن يوليس لموسى وقد ونى..

.

أرى الموت قدامى وتحتى ومن خلفى

قتلنا لهم ألفاً وألفاً ومثلها..

.

وألفاً وألفاً بعد ألف إلى ألف

سوى من طواه النهر في مستلجِّه..

.

فأغرق فيه أو تهدهد من جرف

لقد نعمت فيه غزاة نسورنا..

.

وسمعت الدقات قصفاً على قصف (١)

على أن الفتنة في طليطلة لم تهدأ ولم تخمد، فقد استمر تحريض النصارى المتعصبين فيها على أشده، وأضحت المدينة الثائرة موئلا لطائفة من القسس المتعصبين مثل أولوخيو وصحبه، يبثون دعايتهم المضطرمة في طليطلة وما جاورها

من الأنحاء، ويصورون مصير النصارى في ظل الحكم الإسلامى بأشنع الصور، ويدعون إلى التحرر من الاضطهاد الدينى والاجتماعى، وكان صدى هذه

---

(١) ينقل لنا ابن حيان عن موسى الرازى تفاصيل هذه الموقعة - مخطوط القرويين

لوحة ٢٦٠ أوب و ٢٦١ أ.

وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٧ و ١١٤.

وكذلك: Dozy

.Histoire, V

.I

.p

٣٥٥



الدعوة يتردد قوياً في العاصمة الأندلسية، ويبث القسس تحريضهم ودعايتهم المسمومة، مثلما كانوا يفعلون أيام عبد الرحمن بن الحكم (١) .

وكان محمد يرقب
هذه الفتنة حذراً من عواقبها، وعواقب تمرد المدينة الثائرة، ومن ثم فقد لبث
متأهباً لمقارعتها، وشحن قلعة رباح وطلبيرة على مقربة منها بالجند والعدد.
وسير الأمير محمد كذلك الصوائف والحملات الغازية إلى الثغر الأعلى.
ففى
سنة ٢٣٩ هـ (٨٥٣ م) سير جيشاً بقيادة موسى بن موسى بن قسيّ والى
تطيلة
إلى ألبة والقلاع.
وكان موسى أيام الأمير عبد الرحمن، من زعماء الثورة فى
الشمال، وتحالف مع النصارى حسبما تقدم، وقاتله عبد الرحمن حتى تمكن
من
إخضاعه.
ولكنه عاد في أواخر عهده إلى سابق مكانته من زعامة الثغر الأعلى،
واستطاع أن يوطد استقلاله في تطيلة وما جاورها، مع التظاهر في نفس
الوقت
بالولاء لحكومة قرطبة، اتقاء لخصومتها.
فسار إلى ألبة والقلاع وعاث فيها، وهزم النصارى في عدة مواقع، وافتتح
بعض الحصون، ثم عاد بعد ذلك فاتجه
صوب ثغر برشلونة، وانتزع بعض حصونه من أيدى النصارى، وتضع بعض
الروايات تاريخ هذه الغزوة في سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) .
بيد أنه يبدو من أقوال
الرازى أنها وقعت قبل سنة ٢٤١ هـ (٢) .
وفى صيف سنة ٢٤١هـ (٨٥٥ م) سار محمد بنفسه إلى ألبة والقلاع، وقد
كتب إلى موسى بن موسى وأهل الثغور بالاحتشاد والسير في حملته، فعاث
فى
بسائط ألبة والقلاع، وافتتح كثيراً من حصون النصارى.

وفى العام التالى بعث
موسى بن موسى إلى أحواز برشلونة، فغزاها وخرب برشلونة وافتتح بعض حصونها، وأسر بعض أمرائها (٣) .
بيد أن اهتمام الأمير لبث في الوقت نفسه بالأخص موجهاً إلى طليطلة، فبعث
ولده المنذر إلى المدينة الثائرة في قوة كبيرة فحاصرتها وعاثت في أحوازها (٢٤٢هـ) ، ولم يجرأ الثوار هذه المرة على مغادرة مدينتهم.
ولكنهم خرجوا في العام التالى إلى
طلبيرة لمقاتلة الحامية الأندلسية بها، فخرج إليهم قائدها مسعود بن عبد الله،

---

(١) يفيض دوزى في شرح أدوار هذه الفتنة الدينية وأعمال دعاتها: Dozy: Hist ؛ V. I. p. ٣٥٦ - ٣٦٢
(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٦١ ب.
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٨.



وأوقع بهم وقتل منهم عدة مئات أرسلت رؤوسهم إلى قرطبة.
وسارت جند
الصائفة في الوقت نفسه إلى طليطلة، فنازلتها وعاثت في أحوازها، وانتسفت زروعها وأقواتها.
ورأى الأمير محمد أن يتابع معاقبة أهل طليطلة.
فخرج إليهم بنفسه في صيف

سنة ٢٤٤ هـ (٨٥٨ م) ، وحاصر المدينة الثائرة، وتأهب أهلها لقتاله بالرغم مما أصابهم
من نقص في القوى، وشح في الأقوات، واعتمدوا على حصانة مدينتهم. ولجأ
محمد إلى الحيلة فهدم مهندسوه قواعد القنطرة الكبيرة مع تركها قائمة ثم انسحب
بجنوده، وهنا خرج أهل طليطلة لقتاله، فلما احتشدوا على القنطرة سقطت بهم
في نهر التاجه وغرق منهم عدد جم (١) .
ولم يترك محمد هذه المرة وسيلة رائعة
إلا استعملها لسحق المدينة الثائرة، فخرب حصونها ومعالمها، وأوقع بأهلها
قتلاً وتشريداً، حتى اضطروا إلى طلب الأمان والصلح، وأذعنوا للخضوع
والطاعة، وهم يعتزمون النكث في قرارة أنفسهم متى سنحت الفرص (٢٤٥ هـ –
٨٥٩ م) .
وهكذا لبثت طليطلة عصراً تضنى حكومة قرطبة بتمردها وثوراتها المتوالية؛
وكانت حاضرة القوط القديمة تشعر دائماً بقوتها ومنعتها الطبيعية، وكانت فوق
ذلك مثوى التيارات النصرانية الخطرة حسبما بينا، تنساب إليها من نصارى
الشمال، ومن النصارى المعاهدين بقرطبة، ومن أهلها أنفسهم.
والواقع أن طليطلة كانت
بوعورة موقعها علي المنحدر الصخرى الممتد نحو نهر التاجه، وإحاطة النهر بهذا
المنحدر الوعر، ثم بحصونها القوية، وأسوارها العالية الضخمة، من أمنع مدن
العصور الوسطى.
وما تزال إلى اليوم حين نتأملها ونتجول فيها، تذكرنا بموقعها
الصعب، وطرقها الصخرية الوعرة، وبقية أسوارها وحصونها المنيعة، بما كان

لها من سابق الحصانة والقوة فيما خلا من العصور.
وهكذا أخمدت ثورة المولدين والنصارى المعاهدين في طليطلة إلى حين،
وتأهب محمد في الوقت نفسه لقمع شغب النصاري المتعصبين في قرطبة
وغيرها،

---

(١) يقدم إلينا ابن حيان عن هدم القنطرة قصة أخرى، فيقول إن جنود محمد
حاولوا هدم
القنطرة تحت أنظار أهل المدينة، وأنهم سخروا من هذه المحاولة، وأيقنوا
بعقمها.
ثم خرجوا
للقتال، واحتشد الكثير منهم فوق القنطرة، فانهارت تحت أقدامهم وهوت بمن
فوقها إلى النهر، وهدمت صخورها عليهم من كل ناحية (مخطوط القرويين
لوحة ٢٦٢ أ) .

(٢٩٥/١)

وإخماد نزعتهم الثورية الخطيرة.
وحوكم القس أولوخيو الذى أشرنا من قبل
إلى دعايته وتحريضه أيام عبد الرحمن، وكان ما يزال معقد الدسائس الدينية،
وقضى بإعدامه كما قضى بإعدام صاحبته ومعاونته الفتاة ليوكريسيا (مارس
سنة
٨٥٩ م) .
ورأى النصارى فتنتهم تنهار وركنوا إلى السكينة، وخبت جذوة
تعصبهم، التي لبثت أعواماً طويلة تضطرم في قرطبة، ولم يبق من حماستهم
سوى
الذكرى (١) .
ولم يكد ينتهى الأمير محمد من إخضاع طليطلة، حتى دهم الأندلس خطر

النورمانيين مرة أخرى.

ففى نفس هذا العام (٢٤٥ هـ - ٨٥٩ م) انحدر النورمانيون
(وهم الأردمانيون أو المجوس كما تسميهم الرواية الإسلامية) في سفنهم نحو
شواطىء
جليقية، وعاثوا في شاطىء اسبانيا الغربى.
وتقدر الرواية الإسلامية أسطول
النورمان في هذه المرة باثنين وستين مركباً، وطاردتهم السفن الأندلسية،
وكانت دائماً
على قدم الأهبة تجوس خلال المياه الغربية بصفة مستمرة استعداداً لرد أولئك
الغزاة
الخطرين، مذ فاجأوا الأندلس بغاراتهم المخربة أيام عبد الرحمن.
ووصلت بعض
سفن النورمانيين جنوباً حتى تجاه مدينة باجة، وهنالك استطاعت السفن
الأندلسية
أن تقضى على طلائع الغزاة، وأن تنتزع سفينتين من سفنهم المحملة بالغنائم
والسبى، بيد أنهم انقضوا على الشواطىء الجنوبية، ووصلوا إلى مصب نهر
الوادي
الكبير، ثم انحدروا جنوباً حتى مياه الجزيرة الخضراء.
وفى تلك الأثناء كانت القوات الأندلسية قد سارت إلى الغرب بقيادة الحاجب
عيسى بن الحسن بن أبي عبدة، وهرع الناس إلى جيش الأمير من كل
صوب، وتقدم الأسطول بقيادة أميرى البحر حشحاش وابن شكوح، وقد عبىء
أحسن
تعبئة، وجهز بالأنفاط وفرق الرماة الكثيفة، ورد الغزاة أولا عن إشبيلية بعد
عدة معارك برية وبحرية.
ثم نشبت بين الفريقين بعد ذلك معركة بحرية شديدة
تجاه شاطىء شذونة، وغنم المسلمون في البداية مركبين آخرين، ولكن السفن

النورمانية تكاثرت على جناح الأسطول الذى يقوده حشحاش، وغلبت عليه، وقتل أمير البحر المسلم فوق سفينته، تم انحدر النورمانيون صوب الجزيرة الخضراء

واقتحموها، وأحرقوا مسجدها الجامع، وعاثوا فيها سفكاً ونهباً، وسارت

---

(١) Dozy: Hist, V.

I.

p.

٣٦١ - ٣٦٢

*(٢٩٦/١)*

بعض سفنهم إلى شواطىء العدوة (عدوة المغرب) وعاثت فيها، ثم نزلوا بشاطىء

الأندلس الجنوبى، وسارت سفنهم قبالتهم على ساحل تدمير حتى أوريولة، فدخلوها، وعاثوا في تلك الأنحاء نهباً وسبياً، واشتبكوا مع القوات الأندلسية فى عدة معارك برية وبحرية عنيفة، حطمت فيها بعض سفنهم، وقتل كثير من المسلمين، واستمر عيث النورمانيين على هذا النحو أشهراً حتى خبت فورتهم، وفقدوا كثيراً من سفنهم.

فارتدوا نحو الشمال على طول شواطىء اسبانيا الشرقية، ونفذت منهم قوة خلال نهر إبره إلى نافار، واقتحموا عاصمتها بنبلونة وأسروا

ملكها غرسية، ولم يطلقوه إلا لقاء فدية كبيرة، وأغارت قوات أخرى منهم على الجزائر الشرقية وشواطىء بروفانس حيث عبروا مصب الرون، وخربوا آرل ونيمة وفالانس.

وهكذا لم تكن الغزوة النورمانية في هذه المرة مفاجأة مثلما كانت الغزوة الأولى، ولم يكن عيث الغزاة على نفس النطاق الواسع.

وهذا ما يسجله لنا ابن حيان فى

ختام حديثه عنها، إذ يقول: " فلم يكن لهم في هذه الكرّة الإنبساط في البحر، والإضرار بأهل السواحل ما جرت به عادتهم، ولم يجدوا في السواحل مطمعاً لشدة ضبطها، ولاقوا مع ذلك من البحر هولا عطبت له من مراكبهم أربعة عشر
مركباً بناحية البحيرة من الجزيرة، فنكبوا عن حائط الأندلس، واعتلوا إلى جهة الفرنجة، فلم يلقوا ظفراً، وأسرعوا الانصراف إلى بلدتهم بالخيبة، فلم تكن لهم بعد بالأندلس إلى اليوم عودة " (١) .

وفى العام التالى أعنى سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) بعث محمد حملة إلى الولايات الشمالية بقيادة حاكم طرطوشة.

ويقول لنا ابن حيان إن الأمير محمد هو الذى غزا
بالصائفة بنفسه في تلك السنة.

وكان غرسية ملك نافار، قد تحالف عقب انطلاقه
من أسر النورمان مع أردونيو ملك ليون، وأغارت قواتهما المتحالفة على الأراضي
الإسلامية.

وعلى أى حال فقد زحفت القوات الأندلسية على نافار، ولم تكن قد

---

(١) تختلف الرواية الإسلامية في تاريخ هذه الغزوة النورمانية الثانية لشواطىء الأندلس، فيضعه الرازى في سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) .
ويتابعه في ذلك ابن الأثير وابن عذارى.
ويضعها هشام
ابن معاوية الشبينسى في سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ، وقد أخذنا بالرواية الأولى لأنها أرجح وأكثر
اتفاقاً مع سير الحوادث.
راجع في تفاصيل الغزوة، ابن حيان في مخطوط القرويين (لوحة ٢٦٣

أوب و ٢٦٤ أ، والعذرى في " الأوراق المنثورة من ترصيع الأخبار " ص ١١٨ و ١١٩، وابن الأثير ج ٧ ص ٢٨، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٩.

(٢٩٧/١)

أفاقت بعد من ضربة النورمانيين، وغزت بنبلونة وخربت حصونها.
ولم تقو
جموع غرسية على رد المسلمين، واستمر المسلمون بضعة أسابيع يخربون بسائط
نافار وينتسفون قراها وحصونها، وكان من بين الأسرى فرتون ولد غرسية، فأخذ إلى قرطبة حيث اعتقل زهاء عشرين عاماً (١) .
وفى صيف سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) سارت حملة أندلسية أخرى إلى ألبة والقلاع.
وكان موسى بن موسى قد طلب إلى محمد أن يكون طريق الحملات الغازية عن غير منطقته، نظراً لما يتجشمه في مقارعة النصارى من جهد، وما يصيب أراضيه من الدمار، فأجابه الأمير إلى طلبه، وسارت الحملة من طريق آخر، وعاثت في أراضي النصارى.
وكان موسى بن موسى بن قسيّ يومئذ، قد بسط نفوذه على بسائط قواعد الثغر الأعلى، وأصبح سيداً لتطيلة ووشقة وسرقسطة وأحوازها.
وكان هذا
الزعيم القوى الذى يرجع حسبما أسلفنا إلى أصل نصرانى، وله مصاهرة وقرابة مع الأمراء النصارى، ينتهز كل فرصة لتدعيم استقلاله، وكان يتشح بلقب الإمارة، ولم يكن يدين لحكومة قرطبة إلا بنوع من الولاء الإسمى.
وكانت
علائقه مع أردونيو ملك ليون جاره من الغرب، تتردد بين الخصومة والتحالف وفقاً للظروف.
وكان أردونيو ينظر إلى اتساع ولايته من ناحية الغرب بعين القلق، وموسى

من جانبه يحرص على تحصين قواعده وحدوده؛ ففى سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢ م) سار موسى في قواته إلى الغرب لتحصين قواعده الغربية ومعه صهره غرسية أمير
نافار، وحاول أردونيو من جانبه أن يحبط هذه الحركة، فهاجم بعض الحصون
التابعة لموسى وفي مقدمتها حصن " البلدة " الواقع على نهر إبره على مقربة من
قلهرّة، ونشبت بين الفريقين معركة جرح فيها موسى جراحاً خطيرة، وهزمت
قواته وقتل منها عدد كبير من المسلمين والنصارى، وقتل صهره غرسية، وهدم
أردونيو حصن البلدة وغيره من الحصون التي تحمى أراضي ابن قسى، ولم يمض
سوى قليل حتى توفى موسى نفسه متأثراً بجراحه، وكانت وفاته نذيراً بتطور
الحوادث في الثغر الأعلى.
وذلك أن موسى بن موسى كان بالرغم من استقلاله عن حكومة قرطبة،

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ و ١٠٠، ومخطوط القرويين اللوحة ٢٦٣ أ.

(٢٩٨/١)

يقف بقواعده وقواته في الشمال الشرقى، سداً منيعاً في وجه النصارى. فلما توفى
أعلن ولده لب خضوعه لأردونيو ملك ليون، وتحالف معه ضد المسلمين، وزحف
على وادي الحجارة يبغى الاستيلاء عليها، فرده عنها حاكمها ابن سالم. وأصابته

خلال المعركة جراح توفى منها وهو في طريق العودة إلى تطيلة، وحل أخوته
الثلاثة إسماعيل ومطرِّف وفرُتون مكان أبيهم في حكم القواعد الشمالية.
وهنا رأت
حكومة قرطبة أن تضاعف أهباتها لرد النصارى عن الولايات الشمالية.
ففى
صيف سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٣ م) سار عبد الرحمن ابن الأمير محمد على رأس
حملة
كبيرة إلى ألبة والقلاع، ومعه القائد عبد الملك بن العباس القرشى، فجاس
خلالها
وخرب بسائطها.
واشتبك النصارى بقيادة ملكهم أردونيو مع المسلمين في معركة
عنيفة، وهزموا على أثرها هزيمة شديدة، وقتل عدة من قوادهم (١) .
ولم يمض
عامان حتى سير محمد ولده عبد الرحمن مرة أخرى، إلى غزو ألبة والقلاع
(٢٥١هـ - ٨٦٥ م) .
ويقول لنا ابن حيان إن الذى كان على رأس هذه الغزوة
هو المنذر بن عبد الرحمن، وكانت قيادة الجيش للحاجب عيسى بن الحسن
بن
أبى عبدة.
وعلى أى حال فقد سار المسلمون بحذاء نهر إبره، واستولوا على معظم
حصون أكابر النبلاء والسادة في تلك المنطقة.
وحاول أردونيو كعادته أن يعترض
سبيل المسلمين عند العودة، وقد كمن لهم في موضع يسمى "بفج المركور"
على مقربة
من نهر إبره، أفرغ جهده في تحصينه، فنشبت بينه وبين المسلمين على
ضفاف

النهر معركة شديدة، كانت الدائرة فيها على النصارى، فقتل وأسر منهم عدد
كبير
وغرق الكثير منهم في النهر، ومزقوا كل ممزق (٢) .
وفى العام التالى سارت حملة
أخرى إلى الشمال بقيادة الحكم بن محمد، فعاث في أرض النصارى، واستولى
على بعض الحصون.
وكانت هذه الغزوات المتوالية قد هدت من قوى النصارى، ومزقت شملهم
وخربت بلادهم، فركنوا إلى السكينة، وتوفى ملكهم أردونيو فى
الوقت نفسه (٨٦٦ م) فخلفه ولده ألفونسو الثالث الذى لقب فيما بعد
بألفونسو الكبير.

- ٢ -

كان حرياً، بعد أن هدأت ثائرة النصارى في الشمال، أن تتمتع حكومة قرطبة

---

(١) ابن حيان في مخطوط القرويين لوحة ٢٦٥ أ.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٢.
ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٥ ب.



بفترة من السلام والدعة.
ولكن الخطر كان يجثم في ناحية أخرى.
ذلك أن عوامل
الانتقاض والثورة كانت تجتمع من جديد في شمال غربى الأندلس، في
المناطق
الجبلية التي ألفت الثورة واتخذتها شعاراً لها.
ولم تكن حكومة قرطبة بغافلة عن
هذه النذر.

وكانت ماردة وبها عدد من زعماء المولدين المتمردين، في مقدمة
القواعد التي يشك في ولائها وطاعتها.
ففى سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) خرج الأمير
محمد على رأس جنده من قرطبة، متظاهراً بالسير إلى طليطلة، ولكنه عرج
في منتصف الطريق فجأة على طريق ماردة، ودهمها قبل أن تستعد للقائه،
فتحصن
بها أهلها.
ثم اقتحمها محمد، ووقع بين الفريقين قتال عنيف انتهى بسحق الثوار
وإذعان المدينة، وطلب الزعماء الثائرون الأمان وفي مقدمتهم عبد الرحمن بن
مروان
الجليقى، وابن شاكر، ومكحول، وغيرهم، وهم من أكابر الفرسان والسادة،
فنقلهم الأمير بأموالهم وأهلهم إلى قرطبة، وولى على ماردة سعيداً بن عباس
القرشى، وهدم حصونها وأسوارها (١) .
وكانت الحوادث تتطور في الثغر الأعلى في نفس الوقت تطوراً خطيراً.
وكان
الأمير محمد قد استطاع عقب وفاة موسى بن موسى أن يسترد سلطانه في
تلك
الأنحاء، وأن ينتزع القواعد الشمالية من أبنائه، ويعين لها حكاماً من قبله.
وكان
بنو موسى أو بنو قسى، نسبة إلى جدهم الأعلى الكونت قسى القوطى،
يرجعون
كما أسلفنا إلى أصل نصرانى، وكانت هذه الأسرة المتمردة الشديدة المراس،
كباقى الأسر القوية المولدة، تبغض حكومة قرطبة، وتميل إلى مناوأتها
والتحالف
ضدها مع النصارى، وكان بنو قسى أصهاراً لملك نافار النصرانى، حيث
كان

غرسية زوجاً لابنة موسى المسماة " أوْرِية " Oria، فلما توفى موسى وانتزعت حكومة قرطبة قواعده من يد بنيه، لجأ هؤلاء حيناً إلى حماية ملك ليون، حتى تسنح لهم فرصة العمل ومعاودة الجهاد.

على أن حكومة قرطبة لم تلق في حكامها

الذين اختارتهم للقواعد الشمالية ما كانت تؤمل من ولاء وإخلاص.

ففى سنة ٢٥٥ هـ

(٨٦٩ م) ثار سليمان بن عبدوس في مدينة سُرية وهى من أعمال سرقسطة، فسار إليه الحكم بن الأمير محمد، وحاصر سرية وهدم أسوارها بالمجانيق، وأرغم

الثائر على الخضوع والطاعة، وبعث به إلى قرطبة.

وفى العام التالى (٢٥٦هـ)

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٦٢، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣، ومخطوط القرويين

لوحة ٢٦٨ أ.

(٣٠٠/١)

ثار عمروس بن عمر بن عمروس أحد زعماء الثغر، وغدر بموسى بن غلند عامل وشقه وانتزعها منه.

وعمروس هذا هو حفيد عمروس بن يوسف

بطل واقعة الحفرة بطليطلة، وقد كان بنو عمروس مثل بني قسى مولدين

من أصل نصرانى، لا يشعرون بأى ولاء حقيقى لحكومة قرطبة.

فسير عامل

الثغر عبد الوهاب بن أحمد بن مغيث الجند لمقاتلة الثائر، فلما انتهت إلى وشقة

فر عنها عمروس، وأسر بها حفيده لب بن زكريا بن عمروس، وقتل وعلق

رأسه على سور المدينة.
وفى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١ م) أرسل محمد حملة جديدة
إلى الثغر الأعلى بقيادة عبد الغافر بن عبد العزيز، فطارد فلول عمروس، وقبض
على ولده زكريا وأبنائه وجماعة من أهله، وقتلهم على باب مدينة سرقسطة، وقفل
إلى قرطبة ورؤوسهم مرفوعة بين يديه (١) ، ولاح أن الثورة قد أخمدت في الشمال
ولكن الواقع أن الثورة عادت لتضطرم في الشمال بأقصى شدتها. ذلك أن
القوات الأندلسية ما كادت تعود إلى قرطبة حتى ظهر بنو قسى في الميدان مرة
أخرى، وزحف مطرف وأخوه إسماعيل ابنا موسى بن موسى على تطيلة،
فانتزعاها من حاكمها عبد الوهاب بن مغيث، كما انتزعا سرقسطة من ولده محمد
إبن عبد الوهاب، وملك مطرف تطيلة في صفرسنة ٢٥٨ هـ (٨٧١ م) ، وملك
اسماعيل سرقسطة في ربيع الأول من نفس العام.
وهنا عول محمد على أن يخرج
إلى الثوار بنفسه.
فسار في العام التالى على رأس جيشه (٢٥٩ هـ - ٨٧٢ م)
وعرج في طريقه على طليطلة، حيث عقد لأهلها الأمان وأخذ الرهائن. ثم سار
إلى الثغر الأعلى، وزحف تواً على تطيلة واستولى عليها.
وقبض فيها على مطرف
ابن موسى وأبنائه.

وفى رواية أخرى أن مطرفاً كان قد ملك وشقة إلى جانب
تطيلة واستقر بها، وأن عمروساً صاحب وشقه السابق استطاع أن يؤلب
أهلها على
مطرف، وانتهى بأن انتزعها منه، وقبض عليه وعلى ولده وزوجته وهى بنت
غرسية ملك نافار وتزوجها.
فلما قدم الأمير في جيشه سارع عمروس بإعلان
طاعته، والتمس الأمان، فأجابه الأمير إلى ما طلب، وأقره على ولاية وشقة
وأعمالها، وتسلم منه مطرِّفاً وأولاده (٢) .
واتجه الأمير بعد ذلك إلى نافار فخرب

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣، ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٩ أ.
(٢) هذه هى رواية عيسى بن أحمد الرازى، نقلها إلينا ابن حيان في مخطوط
القرويين
لوحة ٢٧٠ ب.

(٣٠١/١)

بسائطها، ثم عاد إلى قرطبة وأمر بقتل الثائر مطرف وبنيه الثلاثة: ورفعت
رؤوسهم
على باب القصر.
وفى العام التالى (٢٦٠ هـ) سير محمد إلى الشمال مع ولده المنذر
جيشاً بقيادة هاشم بن عبد العزيز.
فزحف المنذر إلى سرقسطة وعاث في نواحيها، وانتسف أشجارها وزروعها،
وجعلها قاعاً صفصفاً، ولكنه لم يستطع انتزاعها
من يد المتغلب عليها اسماعيل بن موسى.
وكان أخوه فُرتون قد حل في تطيلة
مكان أخيه مطرف، وتحالف الثائران مع ألفونسو الثالث ملك ليون، فسار

المنذر إلى وشقة، ثم إلى بنبلونة عاصمة نافار، وعاث في تلك الأنحاء،
ولكن
جهوده لم تسفر عن أية نتائج مستقرة (١) .
وشغلت حوادث الشمال وثورة بني موسى حكومة قرطبة أعواماً طويلة.
ففى
سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) سار المنذر مرة أخرى إلى الثغر الأعلى، وعاث في
بسائط
سرقسطة وتطيلة، ولكنه لم يظفر بالاستيلاء عليهما.
ثم زحف على بنبلونة، فخرب بسائطها، وأتلف زرعها، وقتل كثيراً من أهلها.
وفى العام التالى
(٢٦٥ هـ) ، عاد المنذر إلى غزو الثغر الأعلى، وحاصر مدينة سرقسطة
وسائر
بلاد بني قسيّ، وعاث فيها إتلافاً وتخريباً.
ومع ذلك فقد لبث الشمال بعيداً عن
سلطان قرطبة بضعة أعوام أخرى.
وكانت جنبات الأندلس الأخرى تضطرم
في الوقت نفسه بسلسلة من الثورات المدمرة حسبما نفصل بعد، ولكن حكومة
قرطبة كانت تعلق على قواعد الثغر الأعلى أهمية خاصة، لوقوعها على
حدود
الممالك النصرانية.
ففى سنة ٢٦٨ هـ (٨٨٢ م) سير الأمير محمد ولده المنذر إلى
الشمال على رأس جيش ضخم، ومعه القائد هاشم بن عبد العزيز.
وكان المنذر
قائداً مجرباً ذا شجاعة وبأس، وكان يعتزم هذه المرة أن يسحق الثورة
وزعماءها
في الشمال.

فزحف تواً على سرقسطة، ولما لم ينجح في اقتحامها، تحول إلى
الحصون الواقعة حولها فخربها واستولى عليها، وافتتح حصن روطة أمنع
حصونها
وأسر به عبد الواحد الروطى " أشجع أهل عصره " (٢) ثم استولى على
لاردة
وما حولها من الأنحاء، وانضم إليه محمد بن لب بن موسى، وكان ساخطاً
على
عميه لاستئثارهما دونه بالسلطان.
ولما رأى إسماعيل بن موسى صاحب سرقسطة

---

(١) مخطوط القرويين لوحة ٢٧٢ أ.
(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٢٢، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧.
وفى رواية أخرى أن
هاشم بن عبد العزيز اشترى حصن روطة من صاحبه عبد الواحد ولم يفتتحه
(العذرى في كتاب
" ترصيع الأخبار " ص ٣٥) .

(٣٠٢/١)

عبث المقاومة، أعلن خضوعه وطاعته للأمير وقدم رهائنه.
وزحف المنذر بعد
ذلك على ألبة واخترقها إلى قشتالة (القلاع) ، وتأهب النصارى للقائه بقيادة
ملكهم
ألفونسو الثالث.
ولكن جرت مفاوضة بين الفريقين انتهت بعقد الهدنة، وعاد
المنذر إلى قرطبة ظافراً.
وما كاد المنذر يرتد إلى قرطبة، حتى نشب الخلاف بن إسماعيل بن موسى

وابن أخيه محمد بن لب، وكان إسماعيل يحقد عليه لتحالفه مع المنذر.
وانتهى
القتال بينهما إلى انتصار محمد بن لب، واستيلائه على سرقسطة، وأسره
لعمه
إسماعيل.
وحكم محمد سرقسطة باسم الأمير محمد.
ولكن الأمير أراد أن ينتزع
ولايتها منه، فسخط عليه وأعلن خروجه عن طاعته، وتحالف مع ألفونسو
الثالث
ملك ليون.
فبادر الأمير محمد بإرسال قواته مرة أخرى بقيادة ولده المنذر
وهاشم بن عبد العزيز، إلى الثغر الأعلى (٢٧٠هـ - ٨٨٣ م) .
فسار المنذر إلى
سرقسطة واستولى عليها بعد قتال عنيف، وأخرج منها محمد بن لب.
وفى رواية
أخرى أن محمداً بن لب سلم سرقسطة صلحاً وفقاً لاتفاق تم بينه وبين المنذر
نظير
قدر كبير من المال (١) .
وكان من ضباط جيش الأمير في تلك الغزوة عمر بن
حفصون الزعيم الخارج الذى سيجىء ذكره فيما بعد.
ثم اخترق المنذر ألبة لمقاتلة
النصارى حلفاء الثائر.
ولكن المفاوضات انتهت بعقد الهدنة بين الفريقين.
وأرسل
ألفونسو الثالث سفيراً إلى قرطبة هو القس دولثديو ليضع قواعد الصلح مع
أمير

الأندلس، فنجح السفير في مهمته وعاد إلى أوبييدو عاصمة ليون، ومعه رفات
القس أولوخيو وصاحبته ليوكريسيا، وهما اللذان أعدما بقرطبة قبل ذلك بنحو عشرين عاماً، ونظمهما النصارى في سلك القديسين.
ولنترك الآن حوادث الثغر الأعلى لحظة لنستعرض ما حدث خلال هذه الأعوام المليئة بالفتنة في أنحاء الأندلس الأخرى.
ففى ماردة وبطليوس عادت
الثورة إلى الاضطرام.
وذلك أن عبد الرحمن بن مروان الملقب بالجليقى - لانتمائه

---

(١) نقل إلينا هذه الرواية العذرى في كتابه " ترصيع الأخبار " وفيها أن محمداً بن لب تقاضى
نظير تسليمه سرقسطة خمسة عشر ألف دينار.
وكان ذلك في سنة ٢٦١ هـ (الأوراق المنثورة من الكتاب المذكور ص ٣٥) .
هذا وقد أورد لنا العذرى تفاصيل كثيرة عن موسى بن موسى بن قسى
وأولاده وأحفاده، وثوراتهم، وما خاضوه من الوقائع المختلفة في الثغر الأعلى زهاء نصف قرن
(الأوراق المذكورة ص ٢٩ - ٤٠) .



إلى أسرة من المولدين أصلها من ولاية جليقية في شمال البرتغال - استطاع أن يفر
من قرطبة مع نفر من صحبه.
وكان بنو الجليقى قد استقروا بماردة منذ أمد طويل، وتولى أبوه مروان بن يونس الجليقى حكم ماردة أيام الأمير عبد الرحمن، ولما اضطرمت

الثورة بماردة قتله أهلها (سنة ٣١٢ هـ) .
وكان ولده عبد الرحمن طموحاً لا يشعر
بالولاء نحو حكومة قرطبة، فانتظم في سلك الخوارج، واشترك في الثورة ضد
الأمير محمد.
فلما أخمدت الثورة وتم إخضاع ماردة في سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م ()
قبض الأمير على عبد الرحمن الجليقى ونقله مع باقى الزعماء الثائرين إلى
قرطبة حسبما
تقدم.
وكان فرار الجليقى من قرطبة في أوائل سنة ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) على أثر
مشادة وقعت بينه وبين القائد هاشم بن عبد العزيز كبير الوزراء أهانه خلالها
وصفعه؛
فغادر قرطبة خفية مع جمع من أنصاره، واستولى على قلعة ألانية (أو قلعة
الحنش) (١)
في جنوبى ماردة وتحصن بها، واستولى زميله في الخروج والعصيان مكحول
ابن عمر على قلعة جلّمانية (٢) القريبة منها.
واجتمع إليهما جمع غفير من المارقين
والمتمردين، واشتد عيثهما في سائر الأنحاء المجاورة.
وعندئذ سار الأمير لقتال الثائرين
في قوة كبيرة.
فلما علما بمقدمه استغاثا بزميلهما القديم سعدون بن عامر المعروف
بالسرنباقى، وهو أيضاً من زعماء الثوار المولدين، وكان يعيش في كنف
ألفونسو
الثالث ملك ليون في مدينة برتقال جنوبى جليقية، فسار إليهما في قوة من
صحبه، وانضم إلى قوات ابن مكحول.
فضرب الأمير الحصار حول القلاع الثائرة، وقطع
عنها الماء، واشتد في ذلك، وجنده ترهق المحصورين كلما طلبوا الحصول

على

الماء والمؤن خارج الأسوار.

فلما ضاقوا بالحصار ذرعاً، اضطر عبد الرحمن الجليقى

أن يستجير بعبد الله ولد الأمير، وأن يوسطه في الشفاعة والإذعان إلى طلب الأمان.

وكان عبد الله لين العريكة محباً للسلم، فتوسط لدى والده الأمير، وألح حتى

أسعفه بما طلب، ووافق على منح الأمان للثائر، على أن ينزل له عن

قلعة الحنش، وينصرف وقومه إلى بطليوس، وكانت يومئذ خالية مجردة من

الحصون فينزلون بها، ويقومون بتعميرها.

فقدم ابن مروان رهائنه وهم ولده

محمد وثلاثون من أكابر قومه، وسار إلى بطليوس وصحبه، ونزلها وأخذ في تعميرها

---

(١) هى بالإسبانية Alange.

(٢) هى بالإسبانية Jurumena، وهى تقع على مقربة من غربى بطليوس.

(٣٠٤/١)

وماكاد الأمير يرتد أدراجه إلى قرطبة، حتى حشد ابن مروان أنصاره من كل ناحية

ومعظمهم من أهل الشر والمولدين الناقمين، وأخذ في تحصين بطليوس،

وإعدادها للدفاع والمقاومة، وبعث جواسيسه إلى قرطبة، يتعرفون أخبار الأمير

ويترصدون حركاته، ويبعثون بها إليه تباعاً.

ثم عقد حلفاً مع ألفونسو الثالث

ملك ليون.

وكان يدعو أنصاره إلى مذهب دينى جديد هو خليط من تعاليم الإسلام

والنصرانية.
واستمر على هذا النحو زهاء عام آخر، وهو يغير على الأنحاء
المجاورة ويرهق أهلها، ويستلب أموالهم ومتاعهم.
فلما اشتد عيثه، وضج المسلمون في تلك الأنحاء من شره وعدوانه، وجاهر
هو من جانبه بالعصيان وخلع الطاعة، اعتزم الأمير محمد أن يعاقبه ويقمع
شره
بطريقة حاسمة، فجهز إليه حملة كبيرة برياسة ولده المنذر، وجعل قيادتها
لوزيره
الأثير هاشم بن عبد العزيز.
وسارت هذه الحملة صوب بطليوس في شهر شعبان
سنة ٢٦٢ هـ (٨٧٦ م) ، فلما علم ابن مروان بمقدم جند الأمير، وشعر
بصعوبة
الدفاع عن بطليوس لاتساعها، غادرها مع قواته، وانضم إليه كثير من
المولدين
من الأنحاء المجاورة ممن خشوا بطش قوات الأمير بهم، ونزل بحصن كركى
أو
كركو القريب وامتنع به، وبعث إلى سعدون السرنباقى في طلب النجدة.
وسار
المنذر وهاشم إلى بطليوس، فألفياها خالية، فسارا في أثره، واحتل هاشم
حصن منت
سلود (منت شلوط) الواقع جنوبى بطليوس خوفاً من أن يحتله الثوار، وضرب
المنذر الحصار حول حصن كركى.
وفى تلك الأثناء قدم سعدون السرنباقى
في صحبه، ومعه قوة كبيرة من النصارى أمده بها ملك ليون، واشتبك في
طريقه
بمدينة قُلُمرية بحاميتها، وهم قوم من البربر من بني دانس من مصمودة،

وفتك

بهم، وكانوا على الطاعة، فبعثوا إلى هاشم بن عبد العزيز يستغيثون به.

ووقف

هاشم من طلائعه على مقدم سعدون وقواته، وما فعله بأهل قلمرية، فخرج إلى لقائه متحمساً تواقاً إلى الانتقام، وكان سعدون قائداً مجرباً وافر الجرأة، وكانت لديه فرق مختارة من الفرسان والرماة، فرتب معظم قواته وراء التلال، وتقدم للقاء قوات هاشم، واعتقد هاشم أنه يستطيع سحق الثوار بأيسر أمر، والتقى الفريقان في مخاضة النهر جنوبى بطليوس، وفاجأت خيل سعدون

قوات

الأندلس وأرهقتها، وكثر فيها القتل، وتقدم هاشم بن عبد العزيز إلى المعمعة،

(٣٠٥/١)

بعيداً عن مركز قيادته، فأصابته جراح، وأحاطت به فرسان العدو، وكادت

تجهز

عليه، لولا أن عرفه بعضهم، فقبض عليه، وحمله معه سعدون أسيراً إلى

حصن

منت سلود، وكانت قوات الأمير قد غادرته.

وكانت هزيمة قوات الأندلس، وأسر قائدهم على هذا النحو، في الثاني عشر من شهر شوال سنة ٢٦٢ هـ (يونيه

سنة ٨٧٦ م) .

ولما علم المنذر بن محمد بما وقع لجنده من الهزيمة وأسر هاشم، وكان مقيماً على حصار الجليقى، شدد في الحصار أياماً أخر، ثم انصرف قافلا ببقية الجند إلى قرطبة.

وسار الجليقى وسعدون ومعهما أسيرهما القائد هاشم

غرباً، وهما يعيثان فساداً في الأرض.

وحصل الجليقى أولا على هاشم، وكان

يؤمل أن يتخذه أداة للمساومة مع الأمير، ولكن سعدون استرده منه فيما بعد، خوفاً من غضب سيده وحاميه ملك ليون، وتوجه به سعدون بالفعل إلى ألفونسو

الثالث، فتسلمه وحصل في يده، واستمر أسيراً لديه بمدينة أوبييدو زهاء عامين، حتى تم الإفراج عنه لقاء فدية كبيرة بلغت مائة وخمسين ألف دينار (١) .

واستمر ابن مروان أعواماً وهو يسيطر على منطقة بطليوس، ويعيث فى أنحائها فساداً، ويخرج منها للإغارة على ناحية الغرب حتى أشبونة، وجنوباً حتى

باجة وأطراف أكشونبة، ثم أن بعض أصحابه اختلفوا معه، وغادروه إلى بلدهم ماردة بعد أن حصلوا على أمان من الأمير.

ولما شعر بقلة جمعه، وخشى مطاردة

الأمير وانتقامه، عول على أن يحذو حذو صاحبه سعدون في الالتجاء إلى ملك

جليقية، فقبل الملك النصرانى ملتمسه، وأنزله مع صحبه حصن بطرسة بوادي دويره على مقربة من ليون، ولبث في كنفه أعواماً.

ثم دب الخلاف بينهما بسبب

غارة قام بها ملك جليقية في منطقة بطليوس ومعه ابن مروان، وفيها بالغ الملك

النصرانى في قتل المسلمين، ومعظمهم من أصحاب ابن مروان ورعاياه السابقين (سنة

٢٦٦هـ - ٨٧٩ م) .

فغادره ابن مروان مغضباً، وعاد إلى منطقة بطليوس، ليستأنف غاراته وعيثه في أراضي النواحى المجاورة.

وفى سنة ٢٧١ هـ (٨٨٥ م)

سير إليه الأمير محمد ولده المنذر في قوة كبيرة، فزحف على بطليوس، ففر

منها

---

(١) لخصنا ما تقدم من رواية عيسى بن أحمد الرازى المسهبة التي نقلها إلينا ابن حيان؛ وقد
وردت في مخطوط القرويين في اللوحات ٢٦٧ أوب و٢٧٣ أوب و٢٧٤ أوب و٢٧٦ ب
و٢٧٧ أحتى ٢٨٠ أ.
وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٤ و١٠٥.

(٣٠٦/١)

ابن مروان وتحصن بجبل " أشيروغيره " (١) فأحرق المنذر بطليوس ودمر حصونها
وفى العام التالى سارت حملة أخرى بقيادة الوزير هاشم إلى " أشيروغيره " لقتال
ابن مروان، فحاصره حينا ثم ارتد عنه دون إخضاعه.
ولما أعيا الأمير أمره، انتهى أخيراً إلى قبول شروطه في الاستقلال بحكم بطليوس وما جاورها، والإعفاء من المغارم والفروض (٢) .
ووقعت في ذلك الحين ثورات محلية أخرى، فخرج في شنت برية (٣) مظفر ابن موسى بن ذى النون وزحف على طليطلة، فلقيه جندها فهزمهم، وقوى أمره في تلك الجهة، وأضاف إلى شنتبرية ما حولها من البلاد والحصون.
ويرجع ظهور بني ذى النون، وهم سادة مملكة طليطلة أيام الطوائف، إلى ذلك العهد.
وخلاصة ما تقدمه إلينا الرواية في ذلك، هو أن جدهم ذا النون
(أو زنون) بن سليمان الهوارى، كان زعيماً لشنت برية من أعمال قونقة، ومر به الأمير محمد في بعض غزواته إلى الثغر، وقد مرض له خصى من أكابر فتيانه، فتركه عند ذى النون حتى يحدث الله فيه أمره.

فاعتنى به ذوالنون حتى برئ من
علته، وصحبه بنفسه إلى الأمير بقرطبة، فكافأه الأمير بأن أقره على ناحيته.
واستقام ذو النون على الطاعة حتى توفى، وخلفه ولده موسى، فنبذ الطاعة،
وانتظم في سلك الخوارج، ولما توفى سار ولده مظفر على خطته، وأضحى
بنو
ذو النون من زعماء الفتنة في الثغر الأوسط (٤) .
وخرج أسد بن الحرث بجهة رندة (٥)
وأخذ ضرام الفتنة ينساب إلى كل ناحية، ونشط النصارى في الشمال،
يتربصون
لإذكاء الفتنة، وانتهاز الفرصة السانحة للإغارة على الأراضي الإسلامية.
وانبعثت من هذا الضرام شرارة في الجبال الجنوبية، قدر لها أن تستفحل
بسرعة، وأن تغدو أخطر ما يهدد سلام الأندلس وعرش بني أمية.
ففى جبل
بُبَشتر (٦) ، فيما بين رندة ومالقه، ظهر عمر بن حفصون أعظم ثوار
الأندلس،

---

(١) واسمه بالإسبانية Esparragosa.
وهو يقع بين نهر وادي يانة وجبال المعدن.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٥ و١٠٦ و١٠٨.
وراجع Dozy: Hist ; V
.II
.p
٨ - ١١
(٣) وهى بالإسبانية Santaver وهى تقع جنوب شرقى وادي الحجارة.
وهى غير شنتمرية الشرق.
(٤) مخطوط القرويين لوحة ٢٧٢ ب.

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١.
(٦) وبالإسبانية Bobastro.

(٣٠٧/١)

وأشدهم مراساً، وأخطرهم جانباً.
وكانت سلسلة الجبال الواقعة بين رندة
ومالقة مأوى الأشقياء والعصاة.
وكان عمر سليل أسرة من المولدين ترجع إلى أصل
نصرانى قوطى.
وقد سجلت لنا الرواية الأندلسية نسبته، فجده عند الفتح هو
ألفونسو القس، وجده الرابع جعفر هو أول من اعتنق الإسلام من أسرته (١)
.
ونشأ
بيتهم في تاكرنَّا من أعمال رندة.
وكان والده حفصون ذا مال ووجاهة.
ونشأ
ولده عمر فاسداً سيء السيرة، عنيفاً يعتدى على النفس والمال، ولم يلبث أن
هجر أسرته وأطلق العنان لأهوائه وغيه، والتف حوله جماعة من أهل الفساد
والبغى، فألف منهم عصابة معتدية ناهبة، ونزل بمكان منيع بجبل بُبَشتر
الواقع
شمال شرقى جبال رندة، وكان ذلك في سنة ٢٦٧ هـ (٨٨٠ م) .
وقد وصف
لنا ابن حيان مؤرخ الأندلس ابن حفصون عند ذكر الخوارج في تلك العبارة
الجامعة: " إمامهم وقدوتهم عمر بن حفصون، أعلاهم ذكراً في الباطل،
وأضخمهم بصيرة في الخلاف، وأشدهم سلطاناً، وأعظمهم كيداً، وأبعدهم
قوة " (٢) .

ويشرح لنا الرازى البواعث الأولى لهذه الفتنة التي اضطرمت في كورة ريُّه
والجزيرة، فيقول لنا إن السبب في تحريكها يرجع إلى عنف يحيى بن عبد الله
ابن يحيى عامل الأمير محمد في كورة ريه، في مطالبته لأهلها ببقايا عشور
تأخرت
عليهم، واشتطاطه في ذلك وإرهاقهم، فامتنعوا عليه واعتصموا بجبالهم،
وتأهبوا
للدفاع عن أنفسهم.
فحشد يحيى بن عبد الله قواته لقتالهم، واستدعى أخاه أحمد
ابن عبد الله عامل كورة الجزيرة بقواته لمعاونته في حربهم، ونشبت بين قوات
الأمير وبين الخوارج معارك عنيفة قتل فيها كثير من الفريقين، وكان ذلك فى
سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) .
وفى العام التالى سار بالصائفة إلى كورة ريه عبد الله
ابن الأمير محمد، وعلى قيادة الجيش الحاجب هاشم بن عبد العزيز، وكان
قد
أطلق سراحه من الأسر، وعاد إلى سابق مكانته لدى الأمير محمد، واستأنف
القيادة لأول مرة، فاشتد في مطاردة الخوارج، ومزق جموعهم، وأنشأ عدة

---

(١) قال ابن خلدون عن ابن حيان إنه عمر ابن حفصون بن عمر بن جعفر
بن دميان بن فرغلوش
ابن أدفونش القس (ج ٤ ص ١٣٤) .
وزاد عليها صاحب البيان المغرب اسما آخر (ج ٢ ص ١٠٨) .
(٢) ابن حيان في المقتبس، وهو السفر الثالث المطبوع بعناية المستشرق
الأب ملشيور أنتونيا
(باريس ١٩٣٧) ص ٩.

من الحصون لمدافعتهم، ولكن الفتنة لم تقمع، وظلت سحب الخروج
والعصيان
قائمة، وعمت الفوضى كورة ريه بأسرها.
في هذا الأفق المضطرم ظهر ابن حفصون، وكانت حوادث ريه مقدمة هذه
الفتنة الهائلة التي تزعمها في جنوبى الأندلس، والتي يصفها الرازى بأنها "
طمت
على جميع فتن الأندلس، بعمومها وامتداد أيامها، ودفع أهل الشرور منهم
نحوها " (١) .
وأخذ ابن حفصون ينتهز كل فرصة للإغارة على أطراف إقليم ريه
ويوسعها تخريباً وسبياً ونهباً، ثم يعتصم بأوكاره في جبل ببشتر، فلما اشتد
عيثه
وعدوانه، سار إليه عامل ريه، عامر بن عامر في بعض قواته، فهزمه ابن
حفصون
وقوى بذلك أمره، وهرع إلى لوائه كثير من أهل الشر والعصاة.
وعزل الأمير
عامل ريه المهزوم، وبعث إليها بعامل جديد هو عبد العزيز بن عباس، فسار
إلى
قتال ابن حفصون للمرة الثانية، فامتنع الثائر بقلاعه، ووقعت الهدنة بين
الفريقين (٢) .
وعندئذ سير محمد وزيره هاشم بن عبد العزيز إلى كورة ريه في قوة
كبيرة، فشدد الحصار على ابن حفصون، وجد في أثر العصاة والخوارج،
وأسر
الكثير منهم، وما زال حتى أرغم ابن حفصون على التسليم مع سائر
عصابته، وحملهم جميعاً إلى قرطبة.
فعفا محمد عن الثائر وضمه إلى جيشه، لما آنسه من
براعته وقوة مراسه.

ولما سار المنذر إلى الثغر الأعلى سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) لقتال
محمد بن لب، كان ابن حفصون من ضباط جيشه.
بيد أنه لم يكن راضيا كل
الرضى عن منصبه، وكانت نفسه الوثابة تنزع دائما إلى الخروج والعمل
الحر، فلم يلبث أن فر من جيش الأمير مع نفر من صحبه، ولم يلبث أن
عاد إلى معاقله فى
ببشتر، واستأنف ثورته، ومن حوله جمع كبير من الخوارج والبغاة (٨٨٤ م) .
ولبث ابن حفصون مدى عامين يعيث في هذه المنطقة فساداً، ويبث من
حوله
الذعر والروع.
وفى صيف سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م) ، خرج المنذر إلى كورة ريه
لقتال ابن حفصون، وبدأ الزحف على مدينة الحامّة في شمال شرقى مالقة،
وفيها
الثائر ابن حمدون حليف ابن حفصون، فسارع ابن حفصون إلى إنجاد حليفه،
واجتمع الثائران بمدينة الحامة لمقاتلة جند الأمير، فحاصر المنذر الحامة
مدى

---

(١) ابن حيان عن عيسى بن أحمد الرازى.
مخطوط القرويين لوحة ٢٨٣ أوب.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧.

*(٣٠٩/١)*

شهرين، ولما أشرفت مؤن المدينة المحصورة على النفاد، خرج ابن حفصون
وحليفه
في جندهما، واشتبكا مع جند الأمير في معركة عنيفة، هزم فيها الثوار وجرح
ابن حفصون، وارتد مع أصحابه ثانية إلى الحامة واستعصم بها.

وبينما المنذر
مقيم على حصار الحامة، إذ جاءته الأنباء من قرطبة بوفاة أبيه الأمير
محمد.
وكانت وفاته في ٢٩ صفر سنة ٢٧٣ هـ (أوائل أغسطس سنة ٨٨٦ م) فارتد
لفوره
إلى قرطبة، تاركاً الحامّة لمصيرها، وتنفس ابن حفصون الصعداء، وانتهز
الفرصة السانحة للإغارة على معظم الحصون الواقعة في تلك المنطقة، ولم
يمض
سوى قليل حتى استطاع أن يبسط سلطانه على ريُّه ورندة وإستجّة وغيرها.
- ٣ -
كان الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم من خيرة أمراء بني أمية وأوفرهم
ذكاء وفطنة (١) .
وقال الرازى: " ولمحمد في سلطانه الآثار الجميلة، والآيات
الجزيلة، والفتوح العظيمة، والعناية بمصالح المسلمين، والتهمم بثغورهم،
والضبط
لأطرافهم، والتوجيه لمصالحهم " (٢) ، وكان محمد يرجو أن يجرى على سنن
أبيه من الإصلاح والإنشاء، ولكن الحوادث سارت على غير ما يشتهى،
وسرت
الفتنة إلى سائر أنحاء الأندلس، واضطر أن ينفق حكمه الطويل في غزوات
متعاقبة
وكفاح مستمر.
وكان عليه أن يصون عرش بني أمية، وأن يحمى سلطان الدولة
الإسلامية في الأندلس من الانهيار.
وكانت مهمة شاقة، ولكنه أبدى في الاضطلاع
بها جلداً وبراعة، فكانت الصوائف لغزو أرض النصارى، والحملات التأديبية
لقمع الثوار، تتوالى دون كلل، وذلك بالرغم مما كانت تنتهى إليه في معظم

الأحيان

من النتائج السلبية.

وكان الأمير محمد يعشق الجهاد والكفاح، ويقود الجيش

بنفسه كلما سنحت الفرص.

وكان ولده المنذر ساعده الأيمن في تلك المهمة الخطيرة.

واهتم محمد بأمر الجيش والأسطول، وكان اهتمامه بتقوية الجيش ضرورة، أملتها

الظروف العصيبة التي كانت تجوزها المملكة يومئذ.

وتلقى الأرقام التي يقدمها

إلينا ابن حيان نقلا عن معاوية بن هشام، عن عدد الفرسان الذين يحشدون فى

مختلف الكور والمدن لغزوات الصوائف، ضوءاً على مدى قوة الجيش الأندلسى

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١.

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٢٢ أ.

*(٣١٠/١)*

يومئذ، وقد كانت هذه الأرقام، تفرض على النواحى، ويؤخذون بها غير

منتقصين لها، إلا لعذر قاهر أو لجدب بين.

ومن ذلك كورة إلبيرة (غرناطة)

ألفان وتسعمائة، وجيان ألفان ومئتان، وقبرة ألف وثمانمائة، وباغة تسعمائة،

وتاكرنا ميتان وتسعة وستون، والجزيرة مايتان وتسعون، وإستجة ألف

ومايتان، وقرمونة مائة وخمسة وثمانون، وشذونة ستة آلاف وسبعمائة

وتسعون، وريُّه ألفان وستمائة وسبعة، وشريش ثلاثمائة واثنان وأربعون،

وفحص البلوط

اربعمائة، ومورور ألف وأربعمائة وثلاثة، وتدمير مايتان..

.

أما قرطبة العاصمة

فكانت تترك لاجتهادها وهمتها، ويحشد أبناؤها بطريق التطوع خلافاً لأهل النواحى

الأخرى.

وكانت هذه الفرق تسمى بفرق الفرسان المستنفرين ويجرى "استنفارهم" أوقات الصوائف، أو كلما بدرت من العدو حركة اعتداء على أهل الثغور. فاذا ذكرنا أن هذه الأرقام تتعلق بنواحى الأندلس فقط، وإذا ذكرنا بعد ذلك حشود المشاة المستنفرة والمتطوعة، استطعنا أن نقدر ضخامة الجيوش التي كانت

الدولة الأندلسية تستطيع تعبئتها يومئذ (١) .

وأما الأسطول فقد عمل محمد، على

إنشائه، لحماية الشواطىء الغربية ولغزو مملكة جليقية من ناحية البحر.

وفى سنة ٨٦٦ م

(٢٥٢ هـ) سارت السفن الأندلسية بالفعل إلى شواطى جليقية بقيادة أمير البر عبد الحميد بن مغيث، ووصلت إلى مصب نهر منهو.

ولكنه لم يوفق إلى تحقيق

بغيته، إذ عصفت الرياح بالسفن فتفرقت وغرق معظمها في المياه الغربية (٢) .

وعنى محمد كذلك بتحصين أطراف الثغور، وأقام عدة من المحلات والقلاع الدفاعية، المنيعة فابتنى حصن شنت إشتيين لحماية مدينة سالم، وابتنى حصن طلمنكة

وحصن مجريط بمنطقة وادي الحجارة، للدفاع عن طليطلة، وكان شديد الإستخبار عن الثغور، والبحث في مصالحها.

وبالرغم مما كان يقتضيه الجهاد المتواصل من النفقات الضخمة، فقد كان

الأمير محمد يبذل وسعه لتخفيف الضرائب عن كاهل شعبه، وقد رفع عن
أهل
قرطبة ضريبة " الحشود "، واكتفى بدعوتهم إلى التطوع والجهاد في سبيل الله،

---

(١) مخطوط القرويين لوحة ٢٥٤ ب.
وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١١١.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٦، و Aschbach: Geschichte der
Omajaden in
.Spanien ; B
.I
.s
٢٩٣

*(٣١١/١)*

فأقبلوا على تعضيده وتأييده (١) .
وأما عن العشور فقد أبدى محمد تشدداً في اقتضائها
وقد نصح له وزيره عبد الرحمن بن غانم صاحب المدينة، بأن يسقط العشور
متى
عدمت الغلات، لأن العشور إنما تفرض على الغلات إذا وهبها الله، فإذا لم
يزرع
بذر ولم يستغل زرع وجب إسقاطها، فلم يستمع إليه محمد في البداية وعزله،
وعين مكانه حمدون بن بسيل، وكان فظاً ظلوماً، فاشتط في تحصيل
العشور، حتى ضج الناس بالدعاء عليه، ووصل صريخهم إلى الأمير،
وتوالت في نفس
الوقت أعوام الجدب والقحط، فاضطر الأمير أن يسقط عن الناس جملا من
العشور، حتى يتنفس مخنقهم، ويستطيعوا مواجهة أعباء الحياة، ومواصلة

نشاطهم العمرانى، وأعلن الناس عندئذ بشكره ومدحه الشعراء (٢) .
وكان الأمير
محمد بارعاً في الشئون المالية، دقيقاً في مراجعة الدخل والخرج، وقد ساعده ذلك
على ضبط شئون الخزانة العامة (٣) .
وفى عهده أصيبت الأندلس بالقحط مرتين، الأولى بين سنتى ٢٥١ و٢٥٥ هـ، والثانية في سنة ٢٦٠ هـ، وكان قحطاً شديداً
استمر بضعة أعوام، وكثر بسببه الغلاء والموت.
ولكن الأندلس استطاعت أن
تصمد للمحنة، وأن تتغلب عليها.
وفى عهده سار بلاط قرطبة على سنن الاعتدال، ومجانبة البذخ الذى ساد فى
أيام أبيه عبد الرحمن، وضعف نفوذ الجوارى والصقالبة في القصر، ومع ذلك فقد
استمر النظام الإدارى الذى كان قائماً في عهد عبد الرحمن بتفاصيله تحت إشراف
الأمير وتولى زمام الأمور نفس الرجال الذين تولوها من قبل، واجتمعت السلطات في أيدى أسرتى بني شُهيد وبنى أبي عَبْدة، أعظم الأسر القرطبية يومئذ، وتولى الحجابة لمحمد في البداية عيسى بن شهيد حاجب أبيه من قبل.
وقد أشرنا
من قبل إلى هذا الوزير النابه غير مرة.
ثم خلفه في الحجابة عيسى بن الحسن
ابن أبي عبدة، فكان من أرجح الوزراء عقلا وإصابة، وكان طوال خدمته هدفا لمنافسة هاشم بن عبد العزيز ودسائسه، وقد خلفه هاشم بالفعل في الحجابة، ولبث

يضطلع بها أعواماً طويلة حتى وفاة الأمير محمد، وكان هاشم بن عبد
العزيز
ينتمى إلى أسرة من المولدين، وكان من أعظم رجالات الحرب والسياسة فى

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ و١١٢، وأخبار مجموعة ص ١٤١ و١٤٢.
(٢) ابن حيان - مخطوط القرويين لوحة ٢٣٠ أو٢٥٥.
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٠.

*(٣١٢/١)*

عصره، وقد تولى القيادة الفعلية لكثير من الغزوات والحملات حسبما فصلنا،
وكان من قبل من وزراء الأمير عبد الرحمن، فلما صار الأمر إلى ولده
محمد، غدا من
بين وزرائه أكثرهم حظوة لديه، وغدا من خاصة جلسائه وندمائه، وكان هاشم
فوق
ذلك أديباً متمكناً وكاتباً بليغاً، وشاعراً مطبوعاً، يقرب الأدباء والشعراء، وبيد
أنه
كان حاد الطبع قليل التحفظ، لا يحسن اصطناع الرجال، حتى أنه لما نكب
فى
غزوة الجليقى وحمل أسيراً إلى ملك ليون (سنة ٢٦٢هـ) لم يجد كثيراً من
المدافعين
عنه في محنته، وسخط عليه الأمير محمد، وأنحى عليه باللوم، وكان يقول "
هذا
أمر جناه علينا فألحق بنا غضاضة، واستزاد برأيه فضيع وصاتنا، ولم يحكم
تدبير ما صيرنا في يده من أمرنا ".
ولم يدافع عن هاشم، ويستدر عطف

الأمير عليه سوى صديقه الوليد بن غانم صاحب المدينة أعنى حاكم قرطبة، وقد أقنع الأمير بأن يولى وزيره المنكوب عطفه، وأن يستخدم ولده مكانه، حتى
يتم إطلاق سراحه.
وقد لبث هاشم بن عبد العزيز أسيراً في أوبييدو عاصمة ليون
زهاء عامين، حتى تم افتداؤه وإطلاق سراحه لقاء فدية ضخمة حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل (١) .
وكان من وزراء الأمير محمد، أمية بن عيسى بن شهيد، وكان من أجل وزرائه
وآثرهم لديه، وأخصهم بخدمته، والوليد بن غانم المتقدم الذكر، وكانا يتعاقبان في منصب ولاية المدينة، وهو من أهم مناصب الدولة يومئذ، لما يتطلبه من الحزم
وقوة الشكيمة، والنزاهة في نفس الوقت.
ومنهم تمام بن عامر الثقفى الشاعر
الأديب، وكان مؤرخاً راوية كتب أرجوزة طويلة في فتح الأندلس، وقد اشتهر ببراعته في لعبة الشطرنج، وكانت من أسباب حظوته لدى الأمير، وتمكن منزلته لديه، وقد ذاعت في أيامه ذيوعاً عظيماً.
ومنهم كذلك سليمان
ابن وانسوس، وهو من أشرف البيوتات البربرية، وكان جده رئيساً مطاعاً بماردة، وقد ثار فيها أيام الحكم بن كل هشام، وكان أديباً وافر الوجاهة، وقد تولى خطة السوق وهو اسم ولاية الحسبة يومئذ.
وكان من الوزراء الكتاب
عبد الملك بن عبد الله بن أمية، وكان كاتباً بليغاً (٢) .

---

(١) ابن حيان في مخطوط القرويين لوحة ٢٢٨ أوب و ٢٣٠ أو٢٣٥ ب.
(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٣٠ ب و ٢٣٢ أو٢٣٣ ب و٢٣٥ أ.

وكانت تربط الأمير محمد بأمراء المغرب المعاصرين ولا سيما بنو رستم أمراء
تاهرت، وبنو مدرار أمراء سجلماسة وغيرهما، علائق مودة وصداقة متينة
العرى.
فكانوا يستمدون منه العون والنصح في شئونهم، وكان هو من جانبه شديد
الاهتمام بأخبارهم وأحوالهم، وتتردد إليهم رسله وكتبه في البحث عن أخبار
بنى العباس بدار مملكتهم، وأخبار ولاتهم وعمالهم بالشام وإفريقية.
وكان
شارل الأصلع ملك فرنسا (إفرنجة) يقدر خلاله ويتودد إليه، وربما تبادلا
المراسلة والهدايا (١) ، والظاهر أن ملك فرنسا كان يؤثر سياسة السلم مع
حكومة
قرطبة خشية أن يتكرر غزو المسلمين لسبتمانيا.
وكانت تربطه في الوقت نفسه علائق
مودة ببنى قسى سادة الثغر الأعلى، الذين ظهروا بمغامراتهم فيما وراء جبال
البرنيه.
وعلى الرغم من أن وقت الأمير محمد لم يتسع كثيراً للأعمال الإنشائية، لما
زخر
به من الفتن والغزوات المتوالية، فقد قام منها بطائفة حسنة.
وكان في مقدمتها
منشآته بالمسجد الجامع، فقد عنى أولا بإتمام الزيادة التي بدأها أبوه عبد
الرحمن
في وسطه وأقام فيها المقصورة، وكان أول من اتخذها هنالك من الخلفاء،
وأصلح
جناحه القديم الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل، وجدده وأعاده إلى رونقه القديم.
ولما تمت هذه الزيادات والإصلاحات ركب الأمير إلى الجامع وزاره في

موكب
فخم، وأشادت بعمله الشعراء.
وأصلح محمد جامع إستجّة وجامع شذونة، ومساجد عديدة أخرى في مختلف
الأنحاء، وأنشأ زيادات كثيرة بالقصر وملحقاته
امتازت بالجمال والإناقة.
وعنى بتجديد منية الرُّصافة التي أنشأها جده الأعلى
عبد الرحمن الداخل، وجدد حدائقها ومتنزهاتها، وزودها بالأشجار والغراس
النادرة، وجعلها منتدى نزهه وأسماره.
وفى ذلك يقول عباس بن فرناس
من قصيدة:
كان قصور الأرض بعد تمامه..

.
بنواً لذرى أخفى شخوصاً من الدر
وتنتشر الأبصار منها إلى مدى التنزه بالأطيار والوحش والزهر
فأعجب من أفنانها الغرر التي..

.
يقيل بهن البرد في وعوة الحر
هم بأخفى سرها غير كاتم صداها فأخفى السر بها من الجهر
كأن الذى يخفى الحديث بنجوها..

.
على أخفض الأصوات يشدو على وتر

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١١.
ويسمى ملك فرنسا هنا خطأ بفردلند.

وأنشأ محمد له كذلك منية خاصة في مكان ضيعته المسماة " كنتش " الواقعة جنوب غربى قرطبة، عرفت " بمنية كنتش " وعنى بتجميلها، وجعلها كذلك موطنا لنزهه ومسراته.

وهى التي يقول فيها ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد:

ألما على قصر الخليفة فانظرا..

.

إلى منية شيدت لأزهرا

هى الزهرة البيضاء في الأرض ألبست لها الزهرة الحمراء في الجو مغفرا (١)

وكان الأمير محمد ربع القوام، أبيض مشرباً بحمرة، أوقص (٢) ، يخضب بالحناء.

وكان كثير الأناة والحلم، عطوفاً في أخوته وآل بيته، وقد عنى منذ ولايته بشئون الأكابر من أخوته، فأعدّ لهم الدور الفخمة خارج القصر، ووهبهم

الضياع المغلة، وأجرى عليهم الأرزاق الواسعة، واستعمل من يصلح منهم للأعمال البعيدة.

وكان فوق رجاحة عقله، أديباً، يشغف بالبيان، بليغاً في كتبه، محسناً في توقيعه.

بيد أنه لم يكن شاعراً مثل أبيه وجده.

وكان مكرماً لأعلام

الناس، وذوى العلم والحجى منهم، يرفع مجالسهم، ويكثر من رعايتهم، ويستشعر مع ذلك الحذر من منافستهم وتحاسدهم، ويأبى الإصغاء لسعاياتهم.

وكان يجمع حوله صفوة من الشعراء والعلماء (٣) مثل عباس بن فرناس، ومؤمن

ابن سعيد، وابن عبد ربه، وهم من أقطاب الشعر في عصره، ومن العلماء عبد الله

ابن حبيب أعظم علماء الأندلس في عصره، وقد توفى في صدر ولايته، وبقىّ بن مخلد

وعيسى بن دينار، ومحمد بن عمر بن لبابة، ومحمد بن عبد السلام الخشنى، وغيرهم.

وقد اشتهر في عصره بالأخص الفقيه الورع العلامة بقىّ بن مخلد، وكان فقيهاً حر الذهن، واسع الأفق، نشأ في قرطبة، ورحل إلى إفريقية والمشرق، ودرس دراسة مستفيضة.

ولما عاد إلى الأندلس، حقد عليه فريق من فقهائها، لغزارة علمه، وتفوقه عليهم، ولاسيما في أساليب الحديث والرواية، وحاولوا

اتهامه بالزندقة، والإيقاع به لدى الأمير، فاستجار بقى بالحاجب هاشم بن عبد العزيز، وكتب إلى الأمير يناشده الله في دمه، ليرى رأيه فيه بعد سماع حجته، فأسعفه هاشم وشرح للأمير قضيته، وعقد له الأمير مجلساً لمناجزته خصومه

فتناظروا بين يديه، ودحض بقىّ تهم خصومه بقوة، وألزمهم الحجة، واستبان

---

(١) مخطوط القرويين في اللوحات ٢٤٣ - ٢٤٧.

وراجع أيضا البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٠.

(٢) أعنى قصير العنق.

(٣) أخبار مجموعة ص ١٤٥.

*(٣١٥/١)*

الأمير فضله وتفوقه، وأسبغ عليه حمايته ورعايته، وأعلى منزلته.

ولبث بقى

عمدة العلماء والفقهاء والمحدثين بالأندلس حتى توفى في سنة ٢٧٦ هـ، في عهد

الأمير عبد الله بن محمد (١) .

وكان للفقهاء في عصر الأمير محمد نفوذ كبير في بلاط قرطبة، وفي صوغ سياستها نحو النصارى.

وكان محمد ينحو نحو أبيه عبد الرحمن في سياسة التسامح نحو

النصارى، وكان من أثر ذلك أن أقر الأسقف جومث قومس أهل الذمة على ولايته كما كان في عهد أبيه، وذلك بالرغم من اعتراض الفقهاء وسخطهم؛ وبالرغم مما كان ينقل إليه من نعى المشارقة على بني أمية استخدام

النصارى فى

بلاطهم وتوليتهم أعلى المناصب (٢) .

وترك محمد من الولد ثلاثة وثلاثين من البنين وإحدى وعشرين من البنات (٣) .

---

(١) مخطوط القرويين اللوحة ٢٤٣ ب، و٢٥٣ ب.

وراجع ترجمة بقى بن مخلد فى

ابن الفرضى، تاريخ العلماء والرواة بالأندلس، رقم ٢٨٣، وكذلك البيان

المغرب ج ٢ ص

١١٢ و١١٣.

(٢) أشار ابن القوطية إلى ذلك في رواية أوردها عن حديث جرى بين القائد

ابن أبي عبدة

وبين محمد بن الكوثر أحد كتاب الأندلس، وصف فيه ابن الكوثر " أنه من

عجائب الزمان أن

يكون صاحب قلم بني أمية الأعلى وكاتبها العظيم قومس نصرانى ".

وكتب إليه " أن من أعجب

العجب أن يبلغ خلايف بني العباس بالمشرق أن بني أمية اضطروا في

كتابتهم العظمى وقلمهم الأعلى

أن يولوا قومساً النصرانى ابن انتنيان ابن يليانه النصرانية " (واسمه بالإسبانية

جومث بن أنتونيو

ابن خوليان) - راجع افتتاح الأندلس ص ٨٢ و٨٣.
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦.

(٣١٦/١)

الفصل الثاني

ولاية المنذر بن محمد بن عبد الرحمن

وبداية ثورة المولدين

ولاية المنذر.

تأهبه لقمع الفتنة.

الحاجب هاشم بن عبد العزيز.

طغيانه وتوجس المنذر منه.

سجنه ومصرعه.

حملة إلى طليطلة والثغر الأعلى.

اشتداد أمر بن حفصون وأطماعه.

قضية المولدين

وأثرها في ازدياد سلطانه.

خروج المنذر لمحاربته.

استيلاؤه على أرشدونة وباغة.

محاصرته لابن

حفصون في ببشتر.

إذعان الثائر ثم نكثه.

عود المنذر لمحاصرته.

مرض المنذر ووفاته.

رواية عن اغتيال المنذر.

رفع الحصار عن ببشتر.

صفات المنذر وخلاله.

وصل المنذر بن محمد بجيشه إلى قرطبة لأيام قلائل من وفاة أبيه، عائداً
من
مقاتلة ابن حفصون.
وفى الحال أعلنت بيعته في الثامن من ربيع الأول سنة ٢٧٣ هـ
(أغسطس سنة ٨٨٦ م) .
وكان في الرابعة والأربعين من عمره.
وكان مولده فى
قرطبة سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) ، وكان منذ فتوته.
أثيراً عند أبيه بين أبنائه الثلاثة
والثلاثين، مستأثراً بثقته وولايته عهده.
يختاره لجلائل الأمور، ويندبه لقيادة
الجيش كلما جد الخطب.
وقد أبلى المنذر حسبما رأينا بلاء حسناً، في مقاتلة الثوار
والخوارج، وحينما تولى العرش، كانت الفتنة قد تفاقمت، وعمت الثورة معظم
الأنحاء؛ وكان المنذر رجل الموقف فتأهب لإتمام المهمة التي بدأها، من
العمل
على سحق الثورة، وتأييد النظام والأمن، وحماية العرش والدولة، من كيد
الخوارج والطامعين.
وعهد المنذر بحجابته إلى القائد هاشم بن عبد العزيز حاجب أبيه وقائده،
وكان هذا الوزير القوى، في أواخر عهد الأمير محمد، قد استأثر بالسلطة،
وأصبح أقوى رجل في الدولة.
وكان المنذر يخشاه ويتوجس من نفوذه وسلطانه،
وكان خصوم هاشم يكثرون من السعاية في حقه وإحفاظ المنذر عليه،
وتحذيره من
أطماعه.
فلما توفى الأمير محمد، رأى المنذر أن يستمر هاشم في حجابته براً منه

بذكرى أبيه، وأملا في تحسن الأمور؛ ولكن الظاهر أن الحاجب استمر فى طغيانه، ولم يكترث للقوى المتألبة عليه، وأذكت مساعى خصومه في نفس المنذر

(٣١٧/١)

توجسه القديم منه، وسخطه عليه، فلم يمض سوى قليل حتى اعتزم المنذر أمره، وأمر بالقبض على هاشم وأولاده وصحبه، ثم دس عليه في سجنه من قتله، وهدم
داره، واستصفى أمواله، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ٢٧٣ هـ، أعنى لشهرين فقط من ولايته.
وكانت ضربة جريئة تنبىء عن قسوته وصرامته.
واستمر أولاد الحاجب القتيل في السجن، حتى أطلقوا بعد وفاة المنذر أيام أخيه
الأمير عبد الله، وردت إليهم أموالهم (١) .
وفى تلك المحنة يقول هاشم بن عبد العزيز
من شعر نظمه في سجنه:
سأرضى بحكم الله فيما ينوبنى..
.
وما من قضاء الله للمرء مهرب
فمن يك أمسى شامتاً بى فإنه..
.
سينهل في كأسى وشيكاً ويشرب
وندب المنذر لحجابته مكان الحاجب المقتول، عبد الرحمن بن أمية بن شهيد
وقد لبث بنو شهيد حسبما رأينا عصراً يستأثرون بمناصب الحجابة والكتابة.
وسير المنذر بعد ذلك بقليل حملة إلى طليطلة.
وكانت قد عادت إلى الثورة، واجتمع إلى أهلها كثير من البربر المنفيين من

مدينة ترجيله أو ترجاله (٢) ، الواقعة
جنوبى غربى طلبيرة، فهزم الثوار وقتل منهم ألوف (٣) .
وفى نفس هذا العام
أيضاً، غزا محمد بن لب زعيم الثغر الأعلى السابق، ألبة والقلاع، وقاتل
النصارى
وهزمهم، وكان قد نزل عن سرقسطة حسبما تقدم وعاد إلى سابق ولائه (٤) .
على أن أعظم ما كان يشغل المنذر، هو القضاء على ابن حفصون عماد
الثورة
ومثير ضرامها في الجنوب.
وكان ابن حفصون مذ بلغته وفاة الأمير محمد ورحل
عنه المنذر، قد اشتد بأسه وقويت نفسه، وأخذ يعمل لإخضاع القواعد
والحصون
الجنوبية كلها، فبسط سلطانه على كورة ريه بأسرها، وامتد سلطانه إلى
أرشدونة
ومالقة وجيان وإستجة وغيرها.
واجتمع إليه المغامرون والخوارج من سائر أقطار
الأندلس، وأخذ يطمح إلى الاستيلاء على الأندلس كلها، وأظهر الدعوة لبنى
العباس، وكاتب ابن الأغلب أمير إفريقية (تونس) في ذلك، ولكن ابن الأغلب

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ و١١٩.
(٢) وهى بالإسبانية Trujillo.
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٩.
(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨.

لم يستجب إلى دعوته (١) .
ولم يكن ابن حفصون ثائراً عادياً يعتمد فقط على
أساليب العنف، ولكنه كان صاحب دعوة سياسية يدعو الكافة إلى اعتناقها.
وقد
كان ابن حفصون حسبما قدمنا مولّداً، يمثل في ثورته، كل ما يجيش به
المولدون
نحو العرب الفاتحين ونحو حكومة قرطبة من الحفيظة والبغض.
وقد أشرنا من
قبل في حديثنا عن عناصر الأمة الأندلسية، إلى أولئك المولدين – وهم
الإسبان
الذين أسلموا منذ الفتح – وبينا كيف كانوا يؤلفون عنصراً من أهم عناصرها،
من حيث الكثرة والمستوى الإجتماعى، وقد كانوا بالرغم من اندماجهم في
المجتمع
الإسلامى يحتفظون دائماً، بنزعة إستقلالية واضحة، ويبغضون العرب والبربر
معاً، وقد ظهرت هذه النزعة الاستقلالية بالأخص في الثغر الأعلى، حيث
لبث
بنو موسى، وبنو عمروس، وبنو الطويل، وهم جميعاً من الأسر المولدة
القوية، عصراً يتحدون السلطة المركزية ويقاومونها.
وكانت ثورة ابن حفصون زعيم
المولدين في الجنوب، هى المرحلة الثانية لتلك النزعة الثورية التي رفع
المولدون
لواءها ضد حكومة قرطبة.
وهكذا كان ابن حفصون يدعو المولدين ومن إليهم
من عشاق الخروج والفوضى، إلى تأييد قضية الإستقلال والحرية، ويذكرهم
بما ينالهم من عسف السلطان، وانتزاعه لأموالهم، وتكليفهم فوق طاقتهم،
وكيف

أذلتهم العرب واستعبدتهم، وقضت على حرياتهم واستقلالهم؛ وأنه إنما ينهض ليأخذ بثأرهم، ويرفع عنهم نير الطغيان والعبودية.
وناهيك بما كانت تبثه هذه
الدعوة المثيرة، في نفوس سكان هذه المناطق الجبلية من الحماسة والتعلق بقضية
الحرية، وهى لا تعنى في نظرهم سوى التفانى في مقاتلة حكومة قرطبة. وهكذا
كانت الجموع الغفيرة تحتشد حول ابن حفصون ودعوته، ويشتد نفوذه ويمتد
سلطانه بسرعة، وبالرغم من أن حكومته كانت تقوم على الخروج والثورة،
وكان معظم صحبه من أهل البغى والشر، فقد كان الأمن يسود المناطق التي يسيطر
عليها، وكان صارماً في أحكامه وعقوباته، شديداً على كل مخالف ومستهتر،
وكان فوق ذلك كله متودداً لأصحابه، متواضعاً يكرم الشجعان ويثيبهم، فكانت
هذه العوامل كلها مما يقوى نفوذه ويوطد سلطانه (٢) .

---

(١) ابن حيان في المقتبس (القسم المطبوع) ص ٩٣.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٧ و١١٨.

(٣١٩/١)

وبلغ ابن حفصون في زحفه إلى المنطقة الوسطى أحواز جيان، وما يليها من
الغرب، واستولى على باغة " بريجو " (١) وأسر حاكمها، واستولى على قبرة،
الواقعتين في جنوبى غربى جيان، وعلى حصن أشرس الواقع في شمال كورة ريه.
وسير المنذر بعض قواته إلى تلك الأنحاء، فاستردت حصن أشرس وبعض القرى

المجاور لقبرة.
وفى ربيع العام التالى (٢٧٤ هـ - ٨٨٧ م) خرج المنذر بنفسه في قواته
معتزماً أن يسحق الثائر، وأن يقضى على الثورة في الجنوب، وزحف تواً على
كورة ريه، وحاصر أرشدونة الواقعة في جنوب غربى لوشة حتى سلمت،
وقبض
على عيشون حاكمها من قبل الثائر وعلى صحبه؛ وافتتح حصون جبل باغة
(بريجو)
وأسر بها بني مطروح حلفاء الثائر، وهم حرب وعون وطالوت، وبعث بهم
جميعاً إلى قرطبة حيث قتلوا صلباً، وصلب مع عيشون خنزير وكلب، إمعاناً
فى
التمثيل به.
وكان ابن حفصون أثناء ذلك ممتنعاً بقلاعه في ببشتر، فطوقه المنذر بقواته
وشدد في حصاره، وقطع كل علائقه مع الخارج.
فلما ضاق الثائر ذرعاً بالحصار
وشعر بنفاد أقواته، لجأ إلى الخديعة وعرض التسليم والخضوع، وطلب الصلح
والأمان، على أن يسير بأهله وولده إلى قرطبة، فأجابه الأمير إلى طلبه،
وعقد
له الأمان، وأمده بالثياب والدواب والمؤن، وطلب الثائر من الأمير مائة بغل
لتحمل أهله ومتاعه فزوده بها، وبعث بها ابن حفصون إلى قلاعه، ورفع
المنذر
الحصار عن ببشتر، وقفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة.
ولكن ابن حفصون فر من
الجيش تحت جنح الظلام، وعاد إلى ببشتر وامتنع بها، بعد أن قويت نفسه
بما
حصل من الأمداد.
فاستشاط المنذر حنقاً لتلك الخيانة المثيرة، وارتد راجعاً

بجنده إلى ببشتر، وضرب حولها الحصار مرة أخرى، معتزماً ألا يبرحها حتى يقبض على الثائر حياً أو ميتاً، واستمر الحصار ثلاثة وأربعين يوماً.

ومرض
المنذر أثناء ذلك، واستقدم أخاه عبد الله من قرطبة لينوب عنه في متابعة الحصار، ولم يأت منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ (يونيه ٨٨٨ م) حتى قضى المنذر نحبه في
أسوار ببشتر، بعد حكم لم يطل سوى عامين، وفي بعض الروايات أن المنذر توفى قتيلا بتدبير أخيه عبد الله، وأن عبد الله رغبة منه في التخلص من أخيه واعتلاء
العرش مكانه، حرض طبيبه (حجامه) على قتله، ففصده الطبيب بمبضع مسموم

---

(١) وهى بالإسبانية Priego.

(٣٢٠/١)

أثناء حصاره لببشنر، فتوفى من أثر السم.
ويؤيد هذه الرواية من مؤرخي
الأندلس، ابن القوطية وابن حزم، ويرى ابن حزم بنوع خاص أنها رواية معقولة
يؤيدها خلق عبد الله وسياسته الدموية.
ذلك أنه قتل فيما بعد اثنين من أبنائه، وهما
محمد والد الناصر والمطرِّف، ثم قتل أخوين له وهما هشام والقاسم، فليس غريباً
أن يكون هو مدبر جريمة يرتفع بها إلى العرش (١) .
وعلى أثر وفاة المنذر، رفع الحصار عن بُبَشتر للمرة الثانية، وقفل الجيش راجعاً إلى قرطبة، وأنقذ ابن حفصون من خطر محقق، وعاد ينظم شئونه،

ويوطد سلطانه في الأنحاء الجنوبية.

وكان المنذر أميراً وافر العزم والحزم، ذا شجاعة وبأس، وكان خلال الفتنة التي ثار ضرامها في أيام أبيه، معقد آمال الحكومة والجيش، وكان زعماء الفتنة

يهابونه ويخشون جانبه، لما عرف من حدته وصرامته، وكان موته تحت أسوار

ببشتر ضربة مؤلمة لحكومة قرطبة.

ولو امتد به الأجل قليلا لاستطاع أن يقضى

على ابن حفصون وأضرابه من زعماء الفتنة، ولأمنت الأندلس شر تفاقمها بعد

ذلك.

وكان المنذر فوق ذلك يعشق مجالس الشعر والأدب، ينشده الشعراء قصائدهم ويجزل لهم العطاء.

وكان من شعراء دولته ابن عبد ربه صاحب العقد

الفريد والعكى وغيرهما (٢) .

وكان المنذر أسمر طويلا، جعد الشعر، كث اللحية، بوجهه أثر جدرى (٣) ،

---

(١) ابن القوطية في افتتاح الأندلس ص ١٠٢، وابن حزم نقلا عن ابن حيان في رسالة

" نقط العروس " ص ٧٨ و ٧٩.

وينقل صاحب البيان المغرب أقوال ابن حزم ج ٢ ص ١٠٦ و ١٦١.

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣؛ وابن الأثير ج ٣ ص ١٤٠، وابن الأبار في الحلة

السيراء ص ٩٠.

(٣) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤٥؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١١٦.

الفصل الثالث

ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

١ - ثورة المولدين والعرب

عبد الله يلى العرش في ظروف صعبة.

استفحال الثورة وامتدادها إلى زعماء العرب والبربر.

ابن حفصون يحاول التفاهم مع الأمير.

نكثه ومسير عبد الله إلى قتاله.

الثورة في جيان.

عيث

ابن حفصون واشتداد غاراته.

مسير عبد الله إلى قتاله.

موقعة بلاى.

هزيمة ابن حفصون وفراره.

أهمية موقعة بلاى وأثرها الحاسم.

أقوال الشعر فيها.

ثورة القبائل العربية بعد المولدين.

الثورة

في كورة ريه واستفحالها.

سوار بن حمدون القيسى.

استيلاؤه على إلبيرة وغرناطة.

مصرعه.

قيام سعيد بن جودى مكانه.

الحرب بين العرب والمولدين.

تفاهم سعيد مع الأمير.

مصرعه وشاعريته.

محمد بن أضحى.

تفاقم الثورة بين القبائل العربية.

الثورة في جيان وتدمير.

امتداد الفتنة إلى إشبيلية.

بنو عبدة وبنو حجاج وبنو خلدون.

رياسة بني عبدة.

ثورة كريب بن خلدون وعيثه في أحواز إشبيلية.

ثورة بني حجاج.

مصرع أمية والى إشبيلية.

الإضطراب والفوضى.

مسير المطرف بن عبد الله إلى

إشبيلية وهزيمته للثوار.

حكم إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون المدينة.

مصرع كريب

وانفراد إبراهيم بالحكم.

خروجه على الأمير وعوده إلى الطاعة.

دولة بني حجاج في إشبيلية

وقرمونة.

وفاة إبراهيم وخلاله.

خلف المنذر على العرش، أخوه عبد الله بن محمد، وبويع في نفس اليوم الذى توفى فيه أخوه، في محلة الجيش تحت أسوار بُبشتر، في منتصف صفر

سنة ٢٧٥ هـ (يونيه ٨٨٨ م) .

وكان مولده بقرطبة في نفس العام الذى ولد فيه

أخوه المنذر، أعنى في سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤) وأمه أم ولد تدعى بهار، وكان

حينما تولى الملك في السادسة والأربعين من عمره.
وعلى أثر البيعة ارتد عبد الله مع جيشه عائداً إلى قرطبة، ومعه جثمان أخيه
المنذر، فدفن بمقبرة القصر، واستتم عبد الله البيعة دون أن يعارضه أحد من
أخوته العديدين.
وبدأ عبد الله حكمه الطويل المضنى في ظروف قاتمة، والخلاف يمزق
أوصال
المملكة، وعرش بني أمية يهتز تحت ضربات الخوارج والمتغلبين.
ويصف لنا
ابن الأثير عهد الأمير عبد الله في هذه العبارة الجامعة: " وفي أيامه امتلات
الأندلس

(٣٢٢/١)

بالفتن، وصار في كل جهة متغلب، ولم تزل كذلك طول ولايته " (١) .
والحقيقة أن الثورة كانت قد استفحلت، واندلع لهيبها في كل ناحية، ولم تبق
قاصرة على المناطق الجبلية، بل تجاوزتها إلى القواعد والمدن الكبيرة، مثل
إشبيلية
وبطليوس وجيان ولورقة ومرسية وغيرها، ولم تبق كذلك قاصرة على زعماء
المولدين الذين تحدوهم نحو حكومة قرطبة عاطفة بغض طبيعى، ولكنها
امتدت
الى زعماء القبائل العربية أنفسهم، إذ رأوا الفرصة سانحة لاستقلالهم، وتدعيم
سلطانهم، وظهر البربر في الوقت نفسه في الميدان، فاستعصم كثير من
زعمائهم
بالحصون النائية، ونشبت المعارك العنصرية القديمة بين العرب والمولدين
حيثما
التقت حشودهم، كما حدث في كورة ريُّه وإشبيلية، ونشبت مثل هذه
الخصومات

بين العرب والبربر، وفيما بين العرب أنفسهم، واستقل زعماء العرب بإلبيرة
وجيان ومنتيشة ولورقة ومدينة سالم، واستقل زعماء المولدين بالثغر الأعلى
وبطليوس
وباجة وجيان ومرسية، وغدت إشبيلية مسرحاً للتنافس الدموى بين العرب
والبربر، وبسط ابن حفصون سلطانه على معظم الأنحاء الجنوبية الغربية فيما
بين
البحر ووادي شَنيل، وهكذ عمت الثورة معظم جنبات الأندلس، ولم يبق
لحكومة قرطبة سلطان حقيقى إلا في منطقة العاصمة وأحوازها.

- ١ -

كان عبد الله يواجه هذه الخطوب كلها.
وكان يرى إخماد الفتنة مسألة حياة
أو موت بالنسبة لسلطان العرش، وكانت هذه مهمته الشاقة التي كرس لها كل
جهوده.
وكان يرى أن الثورة في الجنوب هى أخطر ما يواجه العرش، وأن
ابن حفصون قد غدا قوة يخشى بأسها، وأنه يجب أن تكرس الجهود لتحطيم
ثورته
وسحق قواه.
وكان ابن حفصون يشعر من جانبه، بأنه يواجه قوة العرش كلها، ومن ثم فقد
حاول عقب ارتقاء الأمير عبد الله أن يحصل على هدنة يستطيع خلالها
أن ينظم شئونه ويوطد سلطانه؛ فبعث إلى قرطبة ابنه حفصاً مع جماعة من
أصحابه
ليعقدوا السلم باسمه مع عبد الله، على أن يستقر في منطقة ببشتر في طاعة
الأمير، فاستجاب عبد الله إلى طلبه، ورد ابنه وصحبه رداً جميلا وأجزل لهم
الصلات، وبعث معهم عبد الوهاب بن عبد الرؤوف والياً من قبله على كورة
ريُّه ليكون مع

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤٥.

(٣٢٣/١)

ابن حفصون شريكاً في حكمها، ولكن لم تمض بضعة أشهر، حتى نكث
ابن حفصون العهد وطرد عامل الأمير، وأغار على البلاد المجاورة، واستولى
على
أرشدونة، وعاث فساداً في تلك المنطقة، فسار إليه الأمير عبد الله في سنة
٢٧٦ هـ
(٨٨٩ م) واجتاح منطقة ببشتر وخربها، ولكنه لم ينل من الثائر مأرباً؛ ولما
ارتد
إلى قرطبة خرج ابن حفصون في أثره، وتوغل حتى إستجة واستولى عليها،
فبعث إليه عبد الله الجند فردته عنها.

ولبثت الثورة على اضطرامها في الجنوب.

وخرج خير بن شاكر في جيّان، وطرد منها عامل الأمير واستولى عليها،
فسارت إليه جند الأندلس بقيادة أحمد
ابن محمد بن أبي عبدة، وحاصرته وقتلت كثيراً من أصحابه، وخربت معظم
دور
جيان، ثم عادت دون إخضاعه.

وهنا بعث ابن حفصون جماعة من أصحابه إلى جيان
بحجة معاونة ابن شاكر، ولكنهم فتكوا به وحملوا رأسه إلى ابن حفصون،
فبعث
بها إلى الأمير عبد الله سعياً إلى مصانعته ومطاولته (١) .

ولكن الأمير لم يخدع بسعيه.

وسار ابن حفصون إلى جيان فعاث فيها وانتهب أموالها، وأذل أهلها، وساد
الذعر والفوضى في تلك الأنحاء.

ودفع ابن حفصون غاراته شمالا حتى أحواز قرطبة، وبلغ من جرأته أن
حاول إحراق مخيم الأمير في ضاحية شَقُندة على مقربة من العاصمة.
فعندئذ عول
الأمير عبد الله على أن يخرج لقتاله مرة أخرى، فحشد ما استطاع من قواته،
واتجه
نحو الجنوب إلى ناحية قبرة Cabra حيث حشد الثائر قواته في معقل بلاى
و" بَلِيّ " (بولى) (٢) ، وكان حصن بلاى من أمنع حصون قبرة الواقعة على
مقربة
من جنوب شرقى قرطبة.
وقد افتن ابن حفصون في تقويته وتحصينه، وجعله
مركزاً للسيطرة على كورة قبرة كلها، والإغارة على المدن والحصون القريبة من
قرطبة، وتهديد أطراف العاصمة ذاتها.
وكانت قوات الثوار تبلغ زهاء ثلاثين
ألفاً، ولا تعدو قوات الأندلس ثمانية عشر ألفاً، بل أربعة عشر ألفاً على قول

---

(١) ابن حيان في المقتبس ص ٩٢ و٩٣.
(٢) هى بالإسبانية Poley أو Polei، وما يزال موقعها قائما معروفاً إلى
اليوم تحتله قرية
أجيلار Aguilar الحديثة الواقعة جنوبى قرطبة.



ابن حيان (١) .
ووقع اللقاء بين الفريقين على ضفاف نهير الفوشكة أحد فروع
نهر الوادي الكبير (٢) على قيد مسافة قصيرة من بلاى، في الثاني من
صفر سنة
٢٧٨ هـ (١٦ مايو سنة ٨٩١ م) .

وقاد جند الأندلس القائد عبيد الله بن محمد
ابن أبي عبدة.
وتولى ابن حفصون قيادة جنده بنفسه.
ونجح فرسان الأندلس فى
هزيمة الجناح الأيمن للثوار وتمزيقه، فدب الذعر إلى باقى القوات الثائرة، وركنت إلى الفرار، وهرعت الخيل في آثارهم فقتلت كثيراً منهم، وفر ابن حفصون في بعض قواته إلى حصن بلاى معولا على الامتناع به، ولكن هجره
معظم جنده، مؤثرين الفرار على حصار غير مأمون العاقبة، فلما رأى ابن حفصون
عبث المقاومة ارتد في نفر من صحبه إلى شعب الجبال الجنوبية، بعد أن فقد معظم
قواته، وقتل من الثوار أثناء الموقعة وخلال المطاردة ألوف عدة، واحتل عبد الله
حصن بلاى وقتل من جنده زهاء ألف، واستولت جند الأمير على محتوياته.
وكانت موقعة بلاى موقعة فاصلة في معنى من المعانى، وفيها أصيب ابن حفصون
بضربة أليمة لم يصب بمثلها من قبل.
ولم ير الأمير مطاردة الثائر جنوباً، ولكنه
آثر أن يزحف غرباً إلى إستجة التي كانت تدين بطاعته، فحاصرها أياماً حتى
سلمت والتمس أهلها العفو والأمان (٣) .
وسار الأمير بعد ذلك في أثر ابن حفصون إلى ببشتر قاعدته الرئيسية، وكان الثائر قد التجأ إليها عقب الهزيمة، واجتمع إليه كثير من أنصاره من أهل الجزيرة.
وعاث الأمير في تلك المنطقة، ولم يخرج ابن حفصون إلى لقائه، ولكنه

حينما ارتد
جيش الأندلس أدراجه، حاول مطاردته، واشتبك مع مؤخرته في معركة هزم
فيها ورد على أعقابه (ربيع الأول سنة ٢٧٨ هـ) .
وعلى أثر هذه الغزوة الموفقة،

---

(١) ابن حيان في المقتبس ص ١٠٤.
ويقول ابن عبد ربه وهو معاصر للمعركة، وربما
شهدها بنفسه مع الأمير، إن قوات الأندلس كانت ثمانية عشر ألف منهم
أربعة عشر ألفاً من أهل قرطبة
وأربعة آلاف من حشم الأمير ومواليه (راجع العقد الفريد، طبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر
ج ٤ ص ٤٩٨) .
(٢) ويسمى بالإسبانية Las Carchenas (لاس كارشيناس) .
(٣) يورد لنا ابن حيان رواية ضافية وتفاصيل كثيرة عن موقعة بلاى
(المقتبس ص ٩٤ - ١٠٥) .
وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦ و١٢٧، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥.
ويضع دوزى تاريخ
الموقعة في ١٥ إبريل سنة ٨٩١ م.
ولكن إبريل يوافق شهر المحرم سنةْ ٢٧٨ هـ.
وقد حدثت الموقعة
في بداية صفر.
راجع: Dozy: Hist ; V.
II.
p.
٦٨ - ٧٣

اختار الأمير عبد الله قائده البطل عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة للوزارة، إثابة
له وتكريماً، وعرفاناً لما أسداه إلى العرش وإلى الدولة ببراعته وبطولته (١) .
وقد أشاد الشعراء بذكر موقعة بلاى وإستجة، وما أحرزه الأمير فيها من النصر الباهر، فمن ذلك قصيدة طويلة لابن عبد ربه يقول فيها:
نجا مستكناً تحت جنح من الدجى..

.

وليس يودى شكرنا أنعم الجنح
يودون أن الصبح ليل عليهم..

.

ونحن نود الليل لو أنه صبح
أقادح نار كان طعم وقودها..

.

بعينك فانظر ما أضاء لك القدح
محا السيف ما زخرفت أول وهلة..

.

ودونك فانظر بعد ذلك ما يمح
فكم شارب منكم صحى بعد سكرة..

.

وما كان لولا السيف من سكره يصح
كأن " بلايا " والخنازير حولها..

.

مقطعة الأوصال أنيابها كلح
ديار الذين كذبوا رسل ربهم..

.

فلاقوا عذاباً كان موعده الصبح

فيا وقعة أنست وقيعة راهط..

.

ويا عزمة من دونها البطن والنطح

ويا ليلة أبقت لنا العز دهرنا..

.

وذلا على الأعداء صل به الترح

بدولة عبد الله ذى العز والتقى..

.

يخبر في أدنى مقاماته المدح (٢)

ولابن عبد ربه قصيدة أخرى يهنىء فيها الأمير بفتح بلاى هذا مطلعها:

الحق أبلج واضح المنهاج..

.

والبدر يشرق في الظلام الدّاج

والسيف يعدل ميل كل مخالف..

.

عميت بصيرته عن المنهاج

ومنها:

لما حفلن إلى " بلاى " عشية..

.

أقوت معاهدها من الأعلاج

فكأنما جاشت خلال ديارهم..

.

أسد العرين خلت بسرب نعاج

ونحى ابن حفصون ومن يكن الردى..

.

والسيف طالبه فليس بناج

في ليلة أسرت به فكأنما..

.

خيلت لديه ليلة المعراج

هذى الفتوحات التي أذكت لنا..

.

في ظلمة الآفاق نور سراج

---

(١) راجع المقتبس ص ١٠٠.

(٢) راجع هذه القصيدة بأكملها في المقتبس ص ٩٧ - ٩٩.

*(٣٢٦/١)*

خريطة:

موقعة بلاى ومنطقة ثورة ابن حفصون.

*(٣٢٧/١)*

- ٢ -

وهنا نقف قليلا في تتبع ثورة المولدين وزعيمهم ابن حفصون، لنعطف على أخبار الثورات التي قام بها الزعماء العرب في الوقت نفسه، في مختلف القواعد

والثغور.

كانت المناطق الجنوبية في الوقت الذى تجيش فيه بثورة المولدين في الغرب، تجيش في الشرق بثورة أخرى عمادها القبائل العربية.

وكانت سياسة اصطفاء

الموالى التي جرى عليها بنو أمية في الأندلس منذ بداية أمرهم، قد أخذت

تحدث

أثرها في نفوس القبائل العربية، وأضحت هذه القبائل ترى في سياسة حكومة قرطبة نوعاً من الطغيان والمهانة.

ولما ثار ضرام الفتنة على يد المولدين في الثغر

الأعلى وفي المناطق الجنوبية، ألفت القبائل العربية الفرصة سانحة للقيام بدورها، والانتصاف لعصبيتها وكرامتها.

وكانت كورة إلبيرة مركز نشاطهم في الجنوب، ففى سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٩ م)

ثار في ناحية البراجلة من كورة إلبيرة يحيى بن صقالة

القيسى، وكان ذا وجاهة ومال، والتفت حوله البيوتات العربية، واشتد فى مطاردة المولدين والنصارى (١) ، فثاروا به ولم يلبث أن قتل في بعض المواقع

التي نشبت بينه وبينهم، فتصدر لزعامة العرب عندئذ سوّار بن حمدون القيسى، وكان سوار زعيماً مجرباً.

وافر الشجاعة والبأس، فهرعت العرب إلى لوائه، وأغار على حصون المولدين والنصارى في تلك المنطقة، فانتزع معظمها، وامتدت

رياسته حتى قلعة رباح، وجعل مركزه في حصن منت شقند (٢) على مقربة من إلبيرة

ثم زحف على إلبيرة وفيها جعد بن عبد الغافر واليها من قبل الأمير، ونشبت بين

الفريقين معركة هائلة، فهزم جعد وأسر، وقتل كثير من أصحابه (٢٧٦ هـ) ، وتعرف هذه الموقعة بواقعة المدينة (٣) .

ثم أطلق سوار جعداً فتحالف مع ابن حفصون

على قتاله.

وقوى أمر سوار واشتد ساعده وكثر أنصاره، فسار إلى غرناطة

واستولى عليها واتخذها قاعدة له، ونشبت بينه وبين المولدين وزعيمهم

ابن حفصون عدة معارك، هزم فيها ابن حفصون وقتل بعض قواده.

وكان سوار

---

(١) ابن حيان في المقتبس ص ٥٥.

(٢) ويسميها ابن حيان منت شاقر (المقتبس ص ٥٥) .

(٣) المقتبس ص ٥٥ و٥٧.

*(٣٢٨/١)*

فوق فروسيته شاعراً جزلاً فصيحاً يأسر الجموع بذلاقته.
ولكن رياسته لم تطل
سوى نحو عام، إذ قتل في كمين دبره له خصمه القديم جعد والى إلبيرة،
وحفص بن المرة قائد ابن حفصون.
فقد خرج سوار ذات يوم من غرناطة إلى
بعض غاراته في نفر قليل من أصحابه، وكان حفص قد رتب قواته في أماكن
مستورة على مقربة من المدينة، فانقضت على سوار وفتكت به وبأصحابه
ومثل
بجثته.
فخلفه في رياسة العرب سعيد بن سليمان بن جودى السعدى زعيم قبيلة
هوازن، وكان مثل صديقه سوار بطلاً شجاعاً وفارساً مجرباً، وشاعراً أديباً،
وخطيباً مفوهاً، قد تفقه مع فروسيته في فنون العلم والأدب (١) ، فالتفت
حوله
القبائل، واشتدت وطأته على المولدين وزعيمهم ابن حفصون وهزمه مراراً،
وأسره ابن حفصون في بعض الوقائع ثم أطلقه لقاء فدية كبيرة.
ولما رأى الأمير
عبد الله غلبة العرب على كورة إلبيرة، أقر سعيداً على ولايتها فحكمها باسم
الأمير، واستمرت زعامته بضعة أعوام حتى قتل غيلة في دار عشيقته
اليهودية، وذلك فى

أواخر سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) ، ويقال إنه قتل بتدبير الأمير عبد الله، وكان من أهم أسباب قتله أبيات من الشعر قالها في ذم بني أمية جاء فيها:

يا بني مروان جدوا في الهرب..

.

نجم الثائر من وادي القصب

يا بني مروان خلوا ملكنا..

.

إنما الملك لأبناء العرب

ولسعيد بن جودى شعر كثير، وقد أورد لنا ابن الأبار بعض قصائده، وهى تنم عن مقدرته وقوة شاعريته (٢) .

ولما قتل سعيد بن جودى، قام بأمر العرب من بعده في كورة إلبيرة، محمد ابن أضحى الهمذانى صاحب حصن الحامّة (الحمة) ، وأقره الأمير عبد الله على

رياسته، ونشبت بينه وبين ابن حفصون وقائع عديدة كانت سجالاً بينهما؛ ولبث سعيد على رياسته لتلك المنطقة، حتى قضى عليها الناصر في بداية عهده، واستولى على الحامة وغيرها من النواحى الثائرة في تلك المنطقة (٣)

.

---

(١) المقتبس ص ٦٠ و ٦١,

(٢) راجع في أخبار سوار بن حمدون وسعيد بن جودى، ابن الأبار في " الحلة السيراء "

(ليدن) ص ٨٠ - ٨٧؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤١، والمقتبس ص ٢٩ و ٣٠.

(٣) الحلة السيراء ص ٨٥، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٣٩.

واتسع نطاق الثورة بين القبائل والبطون العربية والمولدين، فخرج في مدينة ابن السليم (شذونة) (١) منذر بن ابراهيم، واستقل برياستها إلى أن قتله بعض أتباعه؛ وخرج آخرون من الزعماء في كورة جيان، وكان أشدهم مراساً عبيد الله

ابن أمية بن الشالية، وهو من زعماء المولدين.

وقد خرج في منطقة جبل شمنتان

وما يليها، وامتد سلطانه حتى حصن قسطلونة (٢) ، وقوى أمره وأنشأ له بلاطاً

وجيشاً، وحالف ابن حفصون وصاهره بأن زوج ابنته من جعفر ولد ابن حفصون.

واستمر ابن الشالية ممتنعاً بمعاقله، طوال أيام الأمير عبد الله، ولم تنته ثورته إلا في أوائل عهد الناصر حيث عاد إلى الطاعة، وعينه الناصر والياً لمنطقة شمنتان.

وثار سعيد بن مستنه في باغة، وقوى أمره، فسار إليه الأمير عبد الله في سنة

٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) عقب موقعة بلاى، وغزا حصن كركبوليه، الواقع بين قرطبة

وجيان، وهو معقله وأمنع حصونه، واشتد في حصاره حتى اضطر إلى التسليم، وهدم الأمير جميع حصونه (٣) .

وثار بغربى الأندلس اثنان من زعماء المولدين

أيضاً هما بكر بن يحيى بن بكر، ثار بشنتمرية الغرب وحصنها واستقل بها، وبسط

سلطانه على ما حولها، وتشبه بالأمراء، فأنشأ له بلاطاً وحكومة، وكان جواداً يأوى أبناء السبيل ويحفظ الطرق، وفي أواخر عهد الأمير عبد الله عاد إلى الطاعة.

وعبد الملك بن أبي الجواد، وقد ثار في باجة وميرتلة وكان كلاهما من أتباع

عبد الرحمن الجليقى وأنصاره.
وثار في لَبْلة عثمان بن عمرون وأخرج منها
عامل الأمير، وامتدت الفتنة إلى المنطقة كلها.
وغلب إسحاق بن إبراهيم العقيلى
المعروف بابن عطاف على حصن منتيشة من أعمال جيان وامتنع به،
مستظلا مع
ذلك بطاعة الأمير.
وفى شرقى الأندلس خرج ديسم بن إسحاق في كورة تدمير
وغلب على مدينتى مرسية ولورقة، واستفحل أمره، وكان أديباً يصل الأدباء
والشعراء.
وسير إليه الأمير عبد الله في سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦ م) حملة بقيادة عمه
هشام بن عبد الرحمن بن الحكم، فاخترقت ولاية تدمير وعاثت فيها وهاجمت
مرسية
وأرغمتها على دفع الخراج، ونشبت بينهم وبين قوات ديسم في ظاهر لورَقة،

---

(١) Medina Sidonia.
وهذه تسمية ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) .
(٢) جبل شمنتان هو بالإسبانية Somontin، وهو يقع شمالى جيان بين
مدينة لينارس
الحديثة ونهر الوادي الكبير؛ وحصن قسطلونة هو بالإسبانية Castalona.
(٣) المقتبس ص ١٠٦.

*(٣٣٠/١)*

معركة هزم فيها الثوار، بيد أنها لم تكن معركة حاسمة (١) .
وقامت ثورات محلية
أخرى في بعض القواعد والحصون، بيد أنها كانت على الأغلب ثورات قليلة

الخطورة، محدودة الأثر، وكانت حكومة قرطبة تراها في المحل الثاني، ولم تكن

ثورة القبائل العربية تصطبغ بتلك المرارة التي كانت تطبع ثورات المولدين والبربر.

ولبث كثير من أولئك الزعماء الخوارج على رياستهم واستقلالهم حتى بداية عصر الناصر (٢) .

- ٣ -

وكانت إشبيلية، أعظم القواعد الأندلسية بعد قرطبة، في أثناء ذلك، مسرحاً لفتنة دموية استطال أمدها.

وكان سكان إشبيلية مزيجاً من العرب والمولدين

والنصارى، وكانت منزل عدد كبير من البيوتات العربية العريقة التي تمتاز بالثراء

والعصبية.

وبالرغم مما كان يسود بين هذه العناصر في معظم الأحيان من عوامل الجفاء والشقاق، فقد استطاعت إشبيلية أن تحافظ على سكينتها وولائها مدى حين.

فلما أخذت القبائل العربية في ولاية الأمير عبد الله تجيش بعوامل الخروج والثورة، هبت ريح الاضطراب على إشبيلية وسرت إليها عوامل الفتنة، وظهر الزعماء

المتطلعون إلى الرياسة على مسرح الحوادث.

وكان بنو أبي عبدة، وبنو حجاج، وبنو خلدون، يومئذ أعظم البيوتات العربية في إشبيلية.

فأما بنو أبي عبدة فكان منهم

كثير من رجال الدولة والقادة، وكان زعيمهم يومئذ أمية بن عبد الغافر بن أبى عبدة، وكان من وجوه القوم المقربين لدى حكومة قرطبة.

وأما بنو حجاج

فإنهم يرجعون بنسبتهم إلى لخم، ويتصلون في الوقت نفسه من ناحية الأمومة بملوك
القوط، وذلك عن طريق سارة القوطية حفيدة وتيزا ملك القوط (٣) ، وكان زعيم بيتهم يومئذ عبد الله بن حجاج وأخوه إبراهيم.
وأما بنو خلدون فإنهم
ينتسبون إلى العرب اليمانية في حضرموت، وإليهم ينتسب المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون، وكان زعيم بيتهم يومئذ كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد (٤) .

---

(١) المقتبس ص ١١٨.
(٢) راجع في تفاصيل هذه الثورات، المقتبس ص ٩ - ١١ و١٦، وكذلك البيان المغرب
ج ٢ ص ١٣٩ - ١٤١.
(٣) راجع " دولة الاسلام في الأندلس " ص ٦٠ و٦١.
(٤) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨٠ و٣٨١، وابن الأبار في الحلة السيراء ص ٩٦.

(٣٣١/١)

وكان هنالك إلى جانب هذه الأسر العربية الصميمة، عدد من الأسر المولدة القوية
الغنية.
وكان التنافس بين العرب والمولدين في النفوذ والرياسة، من أهم أسباب الاضطراب في المجتمع الأندلسي يومئذ.
وكانت الرياسة في إشبيلية قديمة في بيت أبي عبدة، حيث كان جدهم أبو عبدة
واليها من قبل عبد الرحمن الداخل، وكان حفيده أمية بن عبد الغافر واليها فى

الوقت الذى نتحدث عنه، وكان الأمير عبد الله قد أرسل إلى جانب أمية ولده محمداً، ليكون عضداً أدبياً له في حكم المدينة.

وفى سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) كان

بنو خلدون أول من رفع لواء الثورة في إشبيلية، وخرج زعيمهم كريب بن

عثمان

ابن خلدون في أنصاره وحلفائه من المولدين والبربر، الذين رأوا أن يعملوا

على

إذكاء المعركة بين الأسر العربية، وتحالف مع ابن مروان الجليقى الثائر

ببطليوس.

وعاث كريب وأصحابه في أحواز إشبيلية وقطعوا السبل، ولكنه لم ينل من

المدينة

مأرباً.

ثم ثار المولدون ضد العرب اليمانية لمقتل واحد من كبرائهم، وتحرك

بنو حجاج في نفس الوقت.

وخشى أمية العاقبة فدس على زعيمهم عبد الله

ابن حجاج من قتله، فحل في الحال مكانه أخوه إبراهيم، وحمى وطيس الفتنة، واشتد بنو حجاج وأنصارهم من العرب في قتال أمية، وقتل أمية في النهاية

مدافعاً

عن نفسه.

فأرسل الأمير عبد الله إلى إشبيلية حاكماً جديداً من قبله، هو عمه هشام

ابن عبد الرحمن، ولكنه لم ينجح في تهدئة المدينة الثائرة، وقتل الثوار ولده، وسادت الفوضى، واضطرب حبل الأمن في إشبيلية وما جاورها، فعندئذ

أرسل عبد الله ولده المطرِّف، ومعه الوزير عبد الملك بن عبد الله بن أمية

على

رأس حملة قوية إلى إشبيلية (٢٨٢ هـ – ٨٩٥ م) .

فلما أشرف المطرف على إشبيلية

وثب بالقائد عبد الملك فقتله، وندب للقيادة مكانه أحمد بن هاشم بن عبد
العزيز، وأرسل إلى والده الأمير عبد الله محضراً يبرر فيه تصرفه، ونشبت
الموقعة بين
المطرف وبين الثوار خارج المدينة، فهزمهم وردهم إلى سور المدينة، وقتل
منهم عدد كبير، وأسر إبراهيم بن حجاج وخالد بن خلدون وغيرهما من زعماء
الفتنة، ولم يطلق سراحهم حتى أذعنت المدينة الثائرة لمطالبه، وسلمت الخراج
المطلوب، وقدم زعماء الفتنة رهائن من الولد والأهل، واتُفق على أن يشترك

(٣٣٢/١)

فى حكم المدينة إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون باسم الأمير وفي
طاعته (١) .
وكان كريب طاغية شديد الوطأة فنفر منه الشعب.
أما إبراهيم فكان رفيقاً دمث
الخلق فكثر أنصاره، ورجحت كفته، واستطاع في الوقت نفسه أن يحصل من
الأمير عبد الله سراً على عهد بولاية المدينة.
ثم اعتزم أمره ودبر مقتل كريب
ابن خلدون وأخيه خالد، وانفرد بحكم إشبيلية (٢٨٢ هـ) (٢) ، وأقره عبد الله
على
ولاية إشبيلية وقرمونة.
وسطع نجم بني الحجاج وقوى أمرهم، وطالب إبراهيم
الأمير بالإفراج عن ولده عبد الرحمن، المعتقل رهينة في قرطبة، فلما تباطأ
الأمير
في إجابته خلع الطاعة وتحالف مع ابن حفصون (٣) ، وسار معه في قواته
لمقاتلة
قوات الأندلس (٢٨٩ هـ) حسبما نفصل بعد.
وقدر الأمير عبد الله خطورة هذا

التحالف وتوجس من عواقبه، وعاد فأجاب رغبة إبراهيم، وأفرج عن ولده عبد الرحمن ورده إليه مكرماً (٢٨٩ هـ) ، فجنح إبرهيم إلى الطاعة مرة أخرى، وارتضى أداء الجزية للأمير، ونبذ حلف ابن حفصون، وقنع الأمير من جانبه
بهذا المظهر من الخضوع والطاعة، واستقرت الأمور في إشبيلية (٤) .
وأبدى إبراهيم بن حجاج في إدارة ولايته همة وبراعة، واتخذ سمة الملوك وأنشأ له بلاطاً، وحرساً خاصاً قوامه خمسمائة فارس غير المشاة، وحصن مدينة
قرمونة، وجعل بها مرابط خيله (٥) ، وفرض الضرائب وأصلح نظم الحكم والقضاء، وعمل على توثيق أواصر المودة بينه وبين حكومة قرطبة.
وكان يبعث بالأموال
والهدايا إلى الأمير عبد الله، ويمده بجنده في بعض غزواته.
وكان إبراهيم فوق
ذلك رضى الخلق، محبوباً من الشعب، جواداً يقصده الشعراء وينشدونه مدائحهم

---

(١) يقول ابن خلدون إن كريباً انفرد أولا بحكم إشبيلية، وسعى ابن حجاج إلى انتزاعها
منه، فتحالف مع ابن حفصون، ثم جنح إلى مصانعة كريب فأشركه معه في حكم المدينة (كتاب العبر
ج ٧ ص ٣٨١) .
وراجع المقتبس ص ١١١.
(٢) أو في أوائل سنة ٢٨٦ هـ، على رواية ابن حيان (المقتبس ص ٨٤) .
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٩.
(٤) المقتبس ص ١٣١.
(٥) وما تزال مدينة قرمونة تحتفظ حتى اليوم ببعض الأبواب والأطلال

الأندلسية القديمة
التي تدل على حصانتها أيام المسلمين، وما زالت بالأخص تحتفظ بباب "
إشبيلية " الشهير كاملا
بعقده العظيم وشرفته العربية الرائعة.

(٣٣٣/١)

فيجزل صلاتهم؛ وكان ممن مدحه شاعر العصر أبو عمر بن عبد ربه
صاحب
العقد الفريد، ومما قاله في مديحه:
ألا أن إبراهيم لجة ساحل..
.
من الجود أرست فوق لجة ساحل
فإشبيلية الزهراء تزهو بوجهه..
.
وقرمونة الغراء ذات الفضائل
إذا ما تحلت تلك من نور وجهه..
.
غدت هذه للناس في زى عاطل
واستمر إبراهيم بن حجاج في حكم إشبيلية وقرمونة، حتى توفى سنة ٢٩٨ هـ
(٩١٠ م) (١) في سن الثالثة والستين، فخلفه في حكم إشبيلية ولده عبد
الرحمن، وفى حكم قرمونة ولده محمد حتى انتهت دولتهم في بداية عهد
الناصر (٢) .

---

(١) ابن الأبار في الحلة السيراء ص ٩٧.
ويضع ابن عذارى وفاته في سنة ٢٨٨ هـ (البيان
المغرب ج ٢ ص ١٣٢) والرواية الأولى أرجح.

وراجع أخبار ابن حجاج في المقتبس
ص ١١ - ١٤.
(٢) راجع في تفاصيل ثورة بني حجاج، ابن خلدون في كتاب العبر ج ٤ ص
١٣٥
وج ٧ ص ٣٨٠، ٣٨١؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٢٨ - ١٣٥؛ وابن
الأبار في الحلة
السيراء ص ٩٦ و٩٧.

(٣٣٤/١)

الفصل الرابع
ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن
٢ - ذروة الفتنة الكبرى
عود إلى ثورة المولدين.
ابن حفصون يعود إلى الميدان.
عود الصوائف إلى غزوه.
إستيلاؤه
عل إستجة.
مسير أبان بن عبد الله لقتاله.
المعارك في الجزيرة الخضراء.
تحالف ابن حفصون ومحمد
ابن لب.
ابن حفصون يعلن اعتناقه النصرانية.
تفرق أنصاره.
التحالف بين ابن حجاج وابن
حفصون.
الحرب بين جند الأندلس وابن حفصون.

هزيمة الثوار وانتهاء حلفه مع ابن حجاج.
توالى
الحملات والصوائف لقتال ابن حفصون.
استقلال ابن مروان ببطليوس.
ثورة ابن تاكيت في الثغر
الأدنى.
محاصرة جند قرطبة لمادرة.
الخلاف بين ابن مروان وابن تاكيت.
وفاة ابن مروان واستمرار
بنيه في حكم بطليوس.
بنو ذو النون في طليطلة.
استيلاء بني قسى عليها وحكمهم لها.
سقوطها في يد
ابن الطربيشة.
بنو ذو النون في شرقى طليطلة.
استيلاء ابن يحيى الأنقر على سرقسطة.
بنو قسى فى
تطيلة وطرسونة.
غزوات لب في ليون ونافار.
وفاة لب وولاية أخيه عبد الله.
ظهور محمد بن
عبد الله الطويل في الثغر الأعلى.
القتال بينه وبين بني قسى.
أفول نجم بني قسى.
غزوات الطويل
في أراضي النصارى.

مصرعه وذهاب دولته.
الأمير عبد الله ومقارعته للثورة.
انتهاز ملك ليون
لمشاغل حكومة قرطبة.
استيلاؤه على سمورة.
ظهور ابن القط في أحواز طليطلة.
زعمه بأن هو
المهدى.
القتال بينه وبين ملك ليون.
مصرع ابن القط وتفرق شمله.
تفاهم ملك ليون مع الثوار.
افتتاح الجزائر الشرقية.
وفاة الأمير عبد الله.
خلاله وصفاته.
صرامته وعدله وتقشفه.
حجابه
وقواده.
اصطفاؤه للموالى.
أولاده.
مأساة ولديه محمد والمطرف.
اغتيال المطرف لأخيه محمد.
حكم
عبد الله بإعدام المطرف.
بطشه بأخوته.
أقوال ابن حزم في صرامته وسفكه للدماء.
صفة الأمير عبد الله

وخلاله.

أدبه وشاعريته.

اصطفاؤه للعلماء والشعراء.

شعراء العصر وأدباؤه وفقهاؤه.

لم تشغل ثورة القبائل العربية في إشبيلية وباجة وإلبيرة وتدمير وغيرها، حكومة قرطبة عن متابعة الجهاد لإخماد ثورة المولدين.

وقد كانت ثورة المولدين في الواقع

أخطر وأشد رسوخاً، وأبعد أثراً.

وقد استطاع زعيم ثورة المولدين في الجنوب

عمر بن حفصون، أن يستغرق معظم جهود حكومة قرطبة منذ أواخر عهد الأمير

محمد، ولكن هزيمة الزعيم الثائر في موقعة بلاى (بولى) سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م)

وما ترتب عليها من تضعضع قواته، فلت من عزيمته ووضعت حداً مؤقتاً لطغيانه.

بيد أن حكومة قرطبة لم تركن إلى هذه الهدنة المؤقتة، فقد كانت تعرف

(٣٣٥/١)

ابن حفصون وتعرف مبلغ خطره، ومقدرته على العدوان والبغى، وكان ابن حفصون من جانبه، يعمل جاهداً لتنظيم قواه واستكمال أهبته، لاستئناف صراعه المرير مرة أخرى.

ومن ثم فإنه لم يمض عامان على موقعة بلاى، حتى عادت الصوائف تتردد لغزو ابن حفصون ومطاردته.

ففى سنة ٢٨١ هـ (٨٩٤ م) سار المطرف بن الأمير

عبد الله في جند الأندلس إلى كورة ريه، وحاصر ابن حفصون في ببشتر

معقله، وعاث في بسائطه.

وآثر ابن حفصون في البداية أن يستعصم بمعقله، ثم خرج إلى
لقاء المطرف فهزم، وقتل في هذه الموقعة حفص بن المرة أشجع قواد ابن
حفصون
وأشدهم مراساً (١) .
فلما عادت جند الأمير إلى قرطبة، عاد ابن حفصون يدبر
خطط العدوان، ثم جمع جموعه وزحف على إستجة، واستولى عليها للمرة
الثانية، وذلك في سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) (٢) .
وإستجة تقع جنوب غربى العاصمة على
مسافة غير بعيدة عنها، فبادر الأمير عبد الله باستقدام الجند من النواحى،
وفى
العام التالى (٢٨٥ هـ) سير ولده أبان لقتال ابن حفصون ومعه القائد أحمد
بن
أبى عبدة.
واخترقت الحملة الجزيرة الخضراء، وعكفت على مهاجمة الحصون
الخارجية حتى وصلت إلى طريف، ثم ارتدت إلى ببشتر ثم إلى أرشدونة ثم
إلى
إلبيرة وحصن شلوبانية، ونشبت بينها وبين قوات ابن حفصون عدة معارك
محلية، ثم عادت إلى قرطبة عن طريق وادي آش (٣) .
ولكن هذه المعارك
لم تسفر عن أية نتيجة حاسمة، واقتنعت حكومة قرطبة بأنه لا بد من
مضاعفة
الأهبة لكى تستطيع أن تضع حداً لعدوان الزعيم الثائر.
وفى سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) عقد ابن حفصون ومحمد بن لب زعيم بني قسى
حلفاً متبادلا، وأرسل محمد ولده لباً في بعض قواته إلى ابن حفصون ليوثق
هذا التحالف، ولكن لباً لم يلبث أن تلقى نبأ موت أبيه أمام أسوار طليطلة،
فغادر ابن حفصون دون أن يبرم أمراً، وهكذا فشل هذا التحالف قبل نضجه

(٤) ، وفى سنة ٢٨٦ هـ (٨٩٩ م) أعلن عمر بن حفصون اعتناقه للنصرانية هو وسائر

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٢.
وراجع Dozy: Hist.
؛ V.
.II, p
.٨٤
(٢) المقتبس ص ١٠٨.
(٣) المقتبس ص ١٢٢.
(٤) المقتبس ص ١٢٧.

(٣٣٦/١)

أفراد أسرته، واتخذ له إسماً نصرانياً هو صمويل، وكان أبوه قد فعل ذلك منذ أعوام، ولم يخلص عمر بن حفصون للإسلام قط، وكان يسرُّ النصرانية دائماً، ولم يمنعه من إعلانها سوى خوفه من تفرق أنصاره، وقد تحقق ماكان يخشاه إذ
هجره كثير من أنصاره، وتبرأوا من فعلته، وخرج عليه بعض قواده المسلمين، وامتنعوا بحصونهم، وبعثوا بطاعتهم إلى الأمير، واشتد السخط عليه في شائر جنبات الأندلس، ورأى المسلمون في قتاله نوعاً من الجهاد (١) .
وحاول ابن
حفصون من جانبه، أن يقوى مركزه بعقد محالفات جديدة، ففاوض ألفونسو الثالث ملك ليون وبنى قسيّ، كما فاوض بعض أمراء المغرب، ولكن العون الحقيقى جاء من ناحية أخرى.
ذلك أن إبراهيم بن حجاج سيد إشبيلية وقرمونة، لما ساءت العلائق بينه وبين الأمير عبد الله بسبب رفضه إطلاق سراح ولده، قطع

الجزية، وأعلن استقلاله، وتحالف مع ابن حفصون (٢٨٨ هـ - ٩٠٠ م) ، وغدا
الإثنان قوة يحسب حسابها (٢) .
وتوجست حكومة قرطبة شراً من هذا التحالف، فبعث الأمير إلى ابن
حفصون يعرض عليه شروطاً مغرية للصلح، فقبل الثائر هذا العرض، وبعث
إلى قرطبة أربع رهائن من أصحابه، منهم خازنه وحليفه سعيد بن مستنة الثائر من
قبل في باغة 3) Priego) .
بيد أنه لم يمض قليل على ذلك، حتى حدث خلاف فى
تنفيذ الشروط بين الفريقين، وعاد ابن حفصون فأعلن الخلاف وتأهب للحرب،
وعاونه حليفه ابن حجاج بقوة من الفرسان، وسارت جند الأندلس بقيادة أحمد
ابن أبي عبدة، وخرج ابن حفصون من إستجة التي اتخذها قاعدة لملاقاته. واشتبك
الفريقان في "إستبة" الواقعة جنوبى إستجة، على مقربة من نهر شنيل، فهزم
جند الأندلس في البداية، وقتل منهم بضع مئات، ولكنهم عادوا فكروا على
قوات ابن حفصون بعنف، وأوقعوا بها هزيمة شديدة (٢٨٩ هـ - ٩٠٢ م) ،
وعلى أثر ذلك أمر الأمير عبد الله بقتل رهائن ابن حفصون، ما عدا ابن
مستنة، إذ افتدى حياته بالخضوع والطاعة.
وخشى إبراهيم بن حجاج على

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣، والمقتبس ص ١٢٨.
وراجع دوزى: Hist; V.
II.
p.
٨٤ & ٨٥.
وكان ابن حفصون أيضاً يتكلم " الأعجمية "، وهى الإسبانية القديمة أو

الرومانش.
(٢) المقتبس ص ١٢٩.
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٤، ودوزى: Hist.
، V.
II.
p.
٨٦.

(٣٣٧/١)

ولده، ففاوض الأمير في الصلح، فأجابه إلى طلبه، وأطلق سراح ولده
عبد الرحمن وعاد إلى سابق ولائه (١) .
وتوالت حملات الأمير بعد ذلك على ابن حفصون.
ففى سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م)
سار أبان بن الأمير عبد الله، ومعه القائد أحمد بن أبي عبدة إلى ريُّه، فعاث
فى
تلك الناحية وهزم ابن حفصون في عدة مواقع.
وفى العام التالى (٩٠٥ م) خرجت
الصائفة لقتال ابن حفصون فاستولت على بعض حصونه، وأوقعت بقواته
هزيمة
شديدة في وادي بلون على مقربة من جيان، وقتل كثير من جنده (٢) .
وفى
سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٨ م) سارت جند الأندلس إلى ببشتر معقل الثائر، وعاثت
في تلك المنطقة.
وفى سنة ٢٩٧ هـ (٩١٠ م) سارت حملة قوية بقيادة أحمد بن أبى
عبدة إلى كورة ريه، واشتبكت مع قوات ابن حفصون في عدة معارك شديدة،
ثم سارت شمالا إلى حصون إلبيرة وجيان وحاصرت منتلون حيناً، وحاول

ابن حفصون من جانبه أن يهاجم حصن جيان، فردته جند الأندلس وطاردته.
وفى العام التالى غزت جند الأندلس منطقة ببشتر مرة أخرى.
ورد ابن حفصون
بأن أغار وحليفه ابن مستنة، الذي خلع الطاعة مرة أخرى، على بسائط قبرة
وبعض قرى قرطبة، فلقيته جند الأندلس وهزمته.
وسارت في العام التالى
(سنة ٢٩٩ هـ) حملة أخرى إلى ببشتر فعاثت في بسائطها (٣) ، وهكذا
استمرت
حملات الأندلس متوالية متلاحقة على ابن حفصون زهاء ثلاثين عاماً.
وبالرغم
من أن حكومة قرطبة استطاعت أن تعمل باستمرار على مناهضته وإحباط
خططه
وإنهاك قواه، فإنها لم تفلح في القضاء عليه، وإخماد الحركة الثورية
المضطرمة، التي استطاع أن يحمل لواءها بقوة وجلد وعزم لا مثيل لها.
- ٢ -
وقد أشرنا من قبل، إلى خروج عبد الرحمن بن مروان الجليقى بمدينة بطليوس
منذ أيام الأمير محمد، وكيف أن حكومة قرطبة فشلت في إخضاعه، وانتهى
الأمر باستقلاله ببطليوس وما جاورها.
ولما تولى الأمير عبد الله، لم ير مناصاً من

---

(١) راجع دوزى: Hist.
، V.
II.
p.
٨٦ - ٨٨

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٤.
(٣) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٨ - ١٥٣.

(٣٣٨/١)

إقراره على استقلاله بتلك القاعدة المنيعة، وهكذا لبث ابن مروان سيد بطليوس
بلا منازع.
فحصنها وجملها، وبسط حكمه على الأنحاء المجاورة، وكان من حلفائه
في تلك المنطقة حسبما قدمنا يحيى بن يحيى بن بكر الثائر بمدينة شنتمرية
الغرب (١)
بولاية أكشونبة، وعبد الملك بن أبي الجواد الثائر بمدينة باجة Beja.
وكان يحيى
زعيماً مقداماً، فحصن شنتمرية، وأقام بها حكومة منظمة، وضبط الأمور
وقمع
أهل الشر (٢) .
وفى سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) نكث ابن مروان بعهده، وعاون
كريب بن خلدون الثائر باشبيلية، على مهاجمة المدينة ونهب أحوازها.
ولم يمض
قليل على ذلك حتى ثار البربر في الثغر الأدنى (٣) بزعامة محمد بن تاكيت
المصمودى
وزحف على ماردة في شرقى بطليوس، واستولى عليها، فسارت إليه الجند من
قرطبة، فتقدم لإنجاده ابن مروان، ولبث الحصار مدة ارتحلت بعدها جند
الأمير
خائبة.
وكان بماردة جموع من العرب والبربر من قبائل كتامة ومصمودة، فسعى
ابن تاكيت في إخراج العرب وكتامة منها، واستقل بها مع شيعته.
ولم يلبث أن

ثار الخلاف بينه وبين جاره ابن مروان، ونشبت بينهما الحرب، فهزمه ابن
مروان
وظهر عليه.
ثم توفى عبد الرحمن بن مروان بعد قليل، فخلفه في حكم بطليوس
ابنه مروان، واشتد في مطاردة البربر، ولكن ولايته لم تدم سوى شهرين، فخلفه
على بطليوس حفيد لابن مروان يدعى عبد الله، واستمر بنو مروان سادة
بطليوس حتى انتزعها منهم عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ،
وقضى
على دولتهم (٤) .
وكانت طليطلة قاعدة الثغر الأوسط، قد سقطت في يد بني ذى النون أيام
المنذر.
وكان بنو ذى النون من أكابر زعماء البربر في تلك المنطقة، وينتمون إلى
قبيلة هوارة، وكان زعيمهم موسى بن ذى النون قد ظهر في عهد الأمير
محمد،

---

(١) Santa Maria de Algarve، وهذا بخلاف شنتمرية الشرق أو
شنتمرية ابن رزين
التي اشتهرت أيام الطوائف وتعرف في الإسبانية باسم Albarracin.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤١.
(٣) هو في جغرافية الأندلس عبارة عن المنطقة الغربية الواقعة، بين نهر
دويرة ونهرر التاجه
ومن مدنها قورية وقلمرية وشنترين وغيرها، وأما الثغر الأعلى فهو عبارة عن
سرقسطة وأعمالها
من المدن الشمالية المتاخمة لحدود نافار وليون وقطلونية.
ويشمل الثغر الأوسط طليطلة وأعمالها.
(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٠، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٣ و ١٣٤.

واستقل بشنت برية حسبما ذكرنا من قبل.
ثم زحف على طليطلة في قوة كبيرة من
البربر، واستطاع بممالأة بعض زعمائها أن يستولى عليها، وذلك في سنة
٢٧٤ هـ (٨٨٨ م) .
وحكم بنو ذى النون طليطلة بضعة أعوام، ثم غلبهم عليها محمد بن لب بن
موسى
كبير بني قسى وزعيم الثغر الأعلى، وكان بنو قسى قد فقدوا زعامتهم يومئذ
في الثغر
الأعلى بخروج سرقسطة من أيديهم ووقوعها في يد أبي يحيى التجيبى حسبما
نذكر
بعد، فتحولوا إلى الثغر الأوسط واستولوا على طليطلة سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٧ م)
.
وبعث محمد بن لب ولده لبّا إلى أحواز جيان، فهاجم حصن قسطلونة
واستولى عليه.
والظاهر أن كانت ثمة لتلك الحملة علاقة بمشروع التحالف بين
بنى قسى وابن حفصون حسبما قدمنا، ولكن محمداً بن لب لم يلبث أن قتل
بعد
ذلك بعامين تحت أسوار سرقسطة، وهو يحاول انتزاعها من التجيبيين (١) ،
ولم
يستطع ولده لب أن يستمر في حكم طليطلة فأبعد عنها حيناً.
ولكن أهل طليطلة
عادوا فدعوه إلى حكمها، فبعث إليهم أخاه المطرف فتولى حكمها.
ثم خرج عليه
محمد بن إسماعيل بن موسى من أبناء عمومته، فحكمها حتى مصرعه في

سنة ٢٩٣ هـ
(٩٠٦ م) قتيلا بيد أهلها.
وعندئذ تولى حكم طليطلة زعيم من البربر المحليين هو
ابن الطربيشة، وهو حليف ابن ذى النون، واستمر في حكمها حتى انتزعها
منه
عبد الرحمن الناصر في أوائل حكمه.
واستمر بنو ذى النون أبناء موسى وهم الفتح
ويحيى ومطرف بعد وفاة أبيهم، في حكم المناطق الواقعة في شرقى طليطلة،
مثل
إقليش ووبذة ثم قلعة رباح (٢) وغيرها، إلى نهاية عهد الأمير عبد الله وأوائل
عهد الناصر.
وكان مطرِّف أشهرهم وأنجبهم، وقد استمر معتصماً بوبذة حتى
استنزله الناصر منها، ثم ولاه عليها واستقام بها شأنه، وحضر مع الناصر
واقعة
الخندق (٣) .
وكان لبنى ذى النون هؤلاء فيما بعد شأن، وكانت لهم أيام الطوائف
في طليطلة دولة سطعت مدى حين.
أما لُبُّ بن محمد فاستقر في تطيلة، وكان النزاع يضطرم في الثغر الأعلى
منذ أعوام طويلة بين التجيبيين وبنى قسى.

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣.
(٢) وهى بالإسبانية على التوالى: Uclés, Huete, Calatrava.
(٣) ابن حيان في المقتبس ص ١٩.

وتذكر لنا الرواية في أصل نباهة بني تجيب، أنه لما ثار بنو قسى في الثغر الأعلى، واحتلوا قواعده، نُوه للأمير محمد بن عبد الرحمن، بأولاد عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن المهاجر التجيبى، فاستدعاهم، وبنى لهم قلعة أيوب على مقربة من سرقسطة، وعين لضبطها عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبى، وبنى لهم قلاعا حصينة في شميط ودَرَوْقه، وفُرتش، ونصبهم لمحاربة بني قسى، وعقد لهم على قومهم، وأجرى عليهم أرزاق الغزو.

ولما انتزع الأمير المنذر سرقسطة من محمد بن لب بن موسى في سنة ٢٧٠ هـ، توالى عليها عمال الأمير؛ وكان عليها في بداية عهد الأمير عبد الله واليها أحمد

ابن البراء، فتظاهر محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز (وهو المعروف بأبى

يحيى وبالأنقر) بمهاجمة والده عبد الرحمن والخروج عليه، والتجأ إلى سرقسطة

تحت كنف ابن البراء وحمايته، وفي ذات يوم وثب بحاميه ابن البراء وقتله غيلة، واستولى على سرقسطة، وكان ذلك في رمضان سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م)

وفقاً لرواية العذرى، أو في سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) وفقاً لرواية ابن حيان.

وكان وثوب أبي يحيى الأنقر بابن البراء على هذا النحو، فيما يبدو بتفاهم مع

الأمير عبد الله، إذ كان يشك في ولاء حاكمه.

ومن ثم فقد أقره الأمير عبد الله

على حكم سرقسطة وأعمالها (١) .

وحاول محمد بن لُبّ أن ينتزع سرقسطة من أبي يحيى، فهاجمها وحاصرها غير مرة، حتى قتل تحت أسوارها سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) حسبما أسلفنا.

قال ابن حيان: " وهوى نجم القسويين (بنى قسى) بعد مهلك محمد واعتورهم الإدبار، وغشيتهم دولة الجماعة، وجمع الثغر كله لأبى يحيى " (٢) .

ولبث
أبو يحيى على استقلاله بسرقسطة، حتى وفاته في عهد الناصر سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) .
ولما توفى محمد بن لُبّ، خلفه ولده لب في تطيلة وما جاورها.
والظاهر أنه
آثر يومئذ مهادنة الأمير والانضواء تحت لوائه، وأقره عبد الله على حكم تطيلة
وطرسونة وما جاورها.
وشغل لُب في الأعوام التالية بغزو أراضي النصارى

---

(١) " نصوص عن الأندلس ".
من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار للعذرى
ص ٤١.
وابن حيان في المقتبس ص ٨٥ و ٨٦.
(٢) المقتبس ص ٨٧.

(٣٤١/١)

المجاورة، فغزا في سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) أرض ليون واستولى على بعض حصونها، وهزم ألفونسو الثالث في معركة نشبت بينهما، ثم غزا ناحية بليارش Pallars، واستولى على حصون إيلاس ومولِه وقشتيل، وقتل بها كثيراً من النصارى.
وفى العام التالى خرج لب لمحاصرة سرقسطة، وخرب ما حولها من القرى ولكنه لم ينل منها مأرباً.
وفى سنة ٢٩٤ هـ (٩٠٦ م) ، غزا لب نافار
وزحف على طريق بنبلونة، فحشد سانشو (شانجه) ملك نافار كل قواته، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة، هزم فيها لب وقتل كثير من جنده.

وكان
لب زعيماً مقداماً وافر الجرأة والشجاعة، وتوفى شاباً في الثانية والثلاثين من عمره، فكانت وفاته ضربة شديدة لسلطان بني قسيّ.
وخلفه في تُطيلة أخوه
عبد الله بن محمد بن لب (١) ، وسار على أثره من الانضواء تحت لواء الأمير، ومتابعة الإغارة على أرض النصارى.
وهنا ظهر على مسرح الحوادث في الثغر
الأعلى زعيم جديد هو محمد بن عبد الملك بن شبريط المعروف بالطويل، وسمى
بذلك لطوله الفائق.
وكان بنو شبريط أو بنو شبراط من أكبر أسر المولدين بالثغر، وكان منزلهم بوشقة وبربشتر (٢) وكان عميدهم شبريط قد ظهر في أواخر المائة الثانية في عصر الحكم بن هشام، وتغلب حيناً على وشقة.
ولكن بني قسى غلبوا على تلك
الأنحاء دهراً، وحجبوا بني شبريط وغيرهم من أعيان المولدين عن الظهور. فلما
اضمحل شأن بني قسى، عاد بنو شبريط إلى الظهور، واستطاع الطويل أن يستقر
في وشقة تراث أسرته، وذلك منذ بداية عهد الأمير عبد الله، ثم حاول أن يتوسع
بالإغارة على بعض أملاك جيرانه بني قسى، فاستولى على لاردة، ولكنه اضطر
إلى إعادتها إلى محمد بن لب باشارة الأمير عبد الله، ثم وقع الخلاف بينه وبين
لب بن محمد على بعض الحصون المجاورة، ونشب بينهما قتال هزم فيه الطويل.

ومضت بعد ذلك عدة أعوام، شغل فيها الطويل على ما يظهر بمحاربة جيرانه
النصارى في منطقة البرنيه، في أحواز نافار وجاقة، وسوبرابى وبليارش وغيرها.
ولما توفى لب بن محمد، رأى الطويل الفرصة سانحة لتنفيذ خطته ومشاريعه، فزحف
على أراضي بني قسى مرة أخرى، واستولى على لاردة وبربشتر وحصن منتشون (٣) .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ و١٤٥؛ وراجع دوزى Hist.
؛ V.
II.
p.
٩٣
(٢) ابن حزم في جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٤.
(٣) راجع ابن حيان في المقتبس ص ٨٧، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٤٨ و١٤٩.

(٣٤٢/١)

(٢٩٥ هـ - ٩٠٧ م) وركد أمر بني قسى في الثغر من ذلك الحين. بيد أنهم
استمروا في بعض القواعد والحصون حتى قضى الناصر على دولتهم في سنة ٣١٢ هـ
(٩٢٤ م) .
أما الطويل فقد قوى أمره واشتد بأسه، وكان قد تزوج من دونيا سانشا
الحسناء ابنة الكونت أسنار أحد سادة أراجون، وحفيدة غرسية إنيجيز ملك

نافار.
وتعرف الروايات النصرانية، من جراء هذه المصاهرة، محمداً الطويل
معرفة حسنة، وتذكره بإفاضة وتسميه " الملك الطويل " (١) .
وعكف الطويل
بعد ذلك على الإغارة على الأراضي النصرانية المجاورة، فخرج في سنة ٢٩٦
هـ
(٩٠٨ م) إلى منطقة بليارش، وعاث فيها وقتل كثيراً من النصارى، واستولى
على حصن روطة وهدمه، ثم استولى على حصن منت بطروش.
وفى العام
التالى خرج الطويل إلى منطقة بليارش مرة أخرى، وعاد مثقلا بالغنائم والسبى
(٢) .
ولما رأى عبد الله بن لب قوة الطويل واشتداد بأسه، آثر مهادنته، وفي أواخر
سنة ٢٩٨ هـ (٩١١ م) تحالف الإثنان على غزو نافار والزحف إلى
عاصمتها بنبلونة، وسار كل منهما في طريق مستقل، وأغار الطويل على
بعض الحصون، وهدم
الكنائس، ولكنه ارتد حينما علم بان سانشو ملك نافار يسير لقتاله.
وغزا عبد الله
في طريقه حصوناً أخرى، وقتل وسبى كثيراً من النصارى.
وفى العام التالى
(٩١٢ م) غزا الطويل أراضي برشلونة ونشبت بينه وبين صاحبها الكونت
سنير
Sunier معركة هزم فيها الكونت وقتل كثير من أصحابه (٣) ، ولكن
الطويل لم يلبث
أن قتل في العام التالى (٣٠١ هـ - ٩١٣ م) .
والظاهر أنه قتل خلال غزوة أخرى
قام بها في قطلونية (٤) ، فخلفه أولاده في حكم أراضيه (٥) .

(١) نشر العلامة المستشرق ف.
كوديرا بحثاً ضمنه سيرة الطويل حسبما تعرضها المصادر
اللاتينية والعربية، وذكر فيه تفاصيل شائقة.
راجع البحث المذكور في مجلة أكاديمية التاريخ
بمدريد: (١٩٠٠) T.
B) XXXVI.
R.
A.
H.
Mohamed Atauil, rey moro de Huesca (
p.
٣١٦ - ٢٤.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٩ و١٥٠.
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٢ و١٥٣ و١٥٤.
(٤) يذكر لنا ابن عذارى تاريخ وفاة الطويل في حوادث سنة ٣٠١ هـ.
ولكنه لا يقول
لنا أين قتل ومن الذى قتله (ج ٢ ص ١٧٠) .
(٥) يذكر لنا الأستاذ كوديرا في بحثه السالف الذكر أسماء أبناء الطويل وهم
أربعة من
الذكور هم عبد الملك، وعمروس، وفورتونيو، وموسى، وابنة تسمى دونيا
بلاسكيتا.

(٣٤٣/١)

- ٣ -

وكان عهد الأمير عبد الله يدنو عندئذ من نهايته، ولم تشهد الأندلس منذ

عهد عبد الرحمن الداخل فترة كهذه، عمت فيها الفتنة وسرى ضرامها إلى كل
ولاية
وقاعدة، ولم ينكمش سلطان الدولة الأموية بالأندلس قدر انكماشه في تلك
الفترة.
وكان على الأمير عبد الله أن يكافح دون هوادة لإنقاذ الدولة والعرش من
خطر
الانهيار، فقضى حكمه الذى استطال خمسة وعشرين عاماً في سلسلة لا
نهاية لها
من الفتن والغزوات والمعارك المستمرة، مزقت خلالها أوصال المملكة،
واهتزت
أسس الدولة إلى الأعماق، ونضبت قواها ومواردها.
وبالرغم من أن الأمير
عبد الله لم يوفق إلى القضاء على الثورة في سائر النواحى، فإنه استطاع أن
يقضى
على الخطر الداهم، وأن يمزق شمل الثوار، وأن يستميل نفراً من أخطر
زعمائهم، وأن يبسط سلطان العرش من الناحية الإسمية على الأقل، على
بعض القواعد
الهامة مثل إشبيلية وسرقسطة.
وكان لهذه النتائج الأولى أثرها فيما بعد في عهد
خلفه عبد الرحمن الناصر، في التمهيد للقضاء على عناصر الثورة، وتوطيد
سلطان
الدولة والعرش.
ويحاول الوزير المؤرخ ابن الخطيب أن يلقى ضوءاً على أسباب ذيوع الثورة
في الأندلس في هذا العصر في قوله: " والسبب في كثرة الثوار بالأندلس
يومئذ
ثلاثة وجوه: الأول، منعة البلاد وحصانة المعاقل، وبأس أهلها بمقاربتهم

عدو الدين، فهم شوكة وحدٌّ بخلاف سواهم.
والثاني، علو الهمم، وشموخ
الأنوف، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب
والبرابرة، أشرافاً يأنف بعضهم من الإذعان لبعض.
والثالث، الاستناد عند الضيقة
والاضطرار إلى الجبل الأشم، والمعقل الأعظم من مَلِك النصارى، الحريص
على
ضرب المسلمين بعضهم ببعض.
فكان الأمراء من بني أمية يرون أن اللجاج فى
أمورهم، يؤدى إلى الأضلولة، وفيها فساد الأموال، وتعذر الجباية، وتعريض
الجيوش إلى الانتكاب، وأولياء الدولة إلى القتل.
ولا يقوم السرور بغلبة الثائر، بما يوازنه من ترحة هذه الأمور " (١) .
ولم تترك مقارعة الثورة لعبد الله فرصة للقيام بغزوات في أراضي النصارى.

---

(١) أعمال الأعلام (طبع بيروت) ص ٣٦.



وشغلت البعوث والصوائف كلها أعواماً متوالية، بمحاربة الخوارج والثوار فى
مختلف الأنحاء.
ولم يقم النصارى من جانبهم بغزوات ذات شأن في الأراضي
الإسلامية.
وشغل ألفونسو الثالث ملك ليون (جليقية) الذى خلف أباه أردونيو
على العرش في سنة ٨٦٦ م بتنظيم مملكته وتوطيد حدودها، منتهزاً فرصة
الاضطراب
الذى ساد المملكة الإسلامية.
وكان من أعظم أعماله استيلاؤه على مدينة سمُّورة وهى

من أمنع مدن الحدود الشمالية الغربية، وذلك في سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣ م) (١)
.
وحصن
ألفونسو سمورة وأسكنها النصارى، واتخذها قاعدة للإغارة على الأراضي
الإسلامية
المجاورة ومعظم سكانها من البربر (٢) .
ولما اشتدت الفتنة وعمت سائر النواحى، ظهر في أحواز طليطلة وطلبيرة،
أحمد بن معاوية المعروف بابن القط، وهو من
ولد هشام بن عبد الرحمن، ودعا لنفسه بين البربر في تلك الأنحاء، وزعم أنه
المهدى، وكان عالماً ومشعوذاً وافر الذكاء والعزم، فالتفت حوله جموع غفيرة
من البربر، وأعلن الجهاد وقصد إلى سمورة لافتتاحها، وكتب إلى ألفونسو
رسالة
عنيفة يدعوه فيها إلى الإسلام وينذره بالويل إذا أبى.
وكان ألفونسو يومئذ فى
قواته على مقربة من سمورة، فسار إلى لقاء المهدى وقواته، ودارت الموقعة
فى
مخائض نهر دويرة أمام سمورة، فهزم النصارى أولا وارتدوا، وحاصر المهدى
سمورة.
ولكن حدث عندئذ أن انسحب زعماء البربر في قواتهم خشية من
تفوقه عليهم وغدره بهم.
وصمد ابن القط فيمن بقى معه، ثم نشبت بينه وبين
النصارى موقعة ثانية قاتل فيها ببسالة حتى قتل ومزقت قواته، واحتز رأسه
وسمر فوق أحد أبواب سمورة.
وكان ذلك في شهر رجب سنة ٢٨٨ هـ (يوليه
سنة ٩٠١ م) وبذا انهارت حركته ووطد ألفونسو سيادته في تلك الأنحاء (٣)
.

وكان ألفونسو الثالث يعمل على انتهاز كل فرصة لإذكاء الفتنة والاضطراب في المملكة الإسلامية، وكان يقصده الثوار وفي مقدمتهم عميدهم ابن حفصون، للتحالف معه ضد حكومة قرطبة؛ واستدعاه أهل طليطلة في أواخر عهد الأمير

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٧.

(٢) المقتبس ص ١٠٩.

(٣) راجع تفاصيل حركة ابن القط وموقعة سمورة، في المقتبس ص ١٣٣ - ١٣٩، وكذلك في ابن الأبار، الحلة السيراء ص ٩١ - ٩٢؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٤٤، ودوزى:

Hist.

V ؛.

II.

p.

١٣٢ - ١٣٤.

(٣٤٥/١)

عبد الله ودفعوا إليه الجزية، واستولى في عودته على بعض الحصون.

وكانت هذه

أول غزوة للنصارى على ضفاف نهر التاجُه، بيد أنها كانت غزوة عابرة ولم تخلف

أثراً ثابتاً.

وأما الثغر الأعلى فقد كان بنو قسيّ، وفي مقدمتهم لب بن محمد بن لب، يحاربون ألفونسو ويحاربهم من وقت إلى آخر.

وكان من الحوادث البارزة في عهد الأمير عبد الله افتتاح الجزائر الشرقية (جزائر البليار) .

وقد رأينا فيما تقدم كيف أرسل عبد الرحمن بن الحكم في سنة
٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) حملة بحرية إلى ميورقة لغزوها، ومعاقبة أهلها على
تعرضهم
لسفن المسلمين وكيف تعهد أهلها بالجزية والولاء.
وفى أواخر عهد الأمير عبد الله
في سنة ١٩٠ هـ (٩٠٣ م) سار عصام الخولانى إلى ميورقة في قوة بحرية
من
المجاهدين، فحاصرها تباعاً، وكان عصام قد حملته الرياح قبل ذلك وهو
في طريقه إلى الحج إلى ميورقة فعرفها، واختبر أحوال هذه الجزائر الغنية،
وأدرك سهولة فتحها وعرض مشروعه على الأمير عبد الله، فأقره وأمده
بالسفن
والقطائع.
ولما وفق إلى فتحها أقره الأمير على ولايتها.
ومن ذلك الحين تدخل
الجزائر الشرقية في حظيرة المملكة الإسلامية (١) .
وكان أيضاً من الحوادث البارزة في هذا العهد الحافل بالخطوب والمحن،
المجاعة الشديدة التي وقعت في سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) والتي قاست الأندلس
منها
الشدائد والأهوال.
- ٤ -
وتوفى الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن في مستهل ربيع الأول سنة
٣٠٠ هـ
(أكتوبر سنة ٩١٢ م) في الثانية والسبعين من عمره، بعد أن حكم خمسة
وعشرين
عاماً ملؤها الاضطراب والفتن.
وكان أميراً ورعاً جم التقشف والتواضع، جواداً

محباً للخير، كثير البر بالفقراء وذوى الحاجات، يفرز لهم سهماً من مال الجبايات (٢) ، عالماً أديباً فصيحاً رفيع البيان، ينظم الجيد من الشعر.
وكان بالرغم
مما شغله، طوال حكمه من الفتن والخطوب، شديد العناية بشئون الحكم وتوطيد
أركانه، وتعرف أحوال الشعب ورغباته، وكان من أشد الناس حرصا على

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤.
(٢) المقتبس ص ٣٣ و ٣٤.

(٣٤٦/١)

إقامة العدل، وقمع الظلم والبغى، وسحق الظلمة.
وكان يجلس للفقراء يوماً فى
كل أسبوع بباب أنشأه عند ركن القصر خصيصاً لذلك وسماه باب العدل، ليقضى في مظالم الناس بنفسه، وليستمع إلى كل ذى حاجة ومظلمة، وأنشا باباً
حديدياً يتمكن الناس بواسطته من تقديم شكاويهم وظلاماتهم حتى لا يحرم بذلك
ضعيف من مخاطبته (١) .
وكان لصرامته وشدة وطأته على الطغاة وأهل السلطان، أثر كبير في شيوع العدل في عهده، والحد من بغى ذوى الجور والظلم، كما كان
لبالغ تقواه وتواضعه، واحتشامه وتقشفه في حياته الخاصة، وفي مظاهره وحياته
الملوكية، أثر كبير في تقويم الأخلاق ودعم الفضيلة، والاقتصاد في اللهو والملاذ، فى عصر كثرت فيه الخطوب والمحن.
وتولى الحجابة في بداية عهد عبد الله، عبد الرحمن بن أمية بن شهيد حاجب

أخيه المنذر، ثم تولاها من بعده سعيد بن محمد بن السليم حيناً، ثم عزله عبد الله
في أواخر عهده، ولم يول أحداً من بعده لحجابته، واقتصر في تدبير شؤون الدولة
على الوزراء والكتاب، وبالأخص على بدر الخصى الصقلبى وكان يؤثره ويوليه ثقته (٢) .
وكان من حسن الطالع أن استطاع الأمير عبد الله، أن يعتمد في مواجهة الفتنة
الغامرة التي أحاقت بعرشه وملك أسرته، على عون نفر من أكابر رجال الحرب
والسياسة، الذين أبدوا في معالجة الخطوب مقدرة فائقة.
وكان في مقدمة أولئك
الرجال بنو عَبْدة وهم من صميم موالى بني أمية.
وقد تولى عدة منهم الوزارة
والقيادة للأمير عبد الله، ومنهم عبيد الله محمد بن أبي عبدة، الظافر في موقعة
بلاى، وأحمد بن محمد بن عيسى بن أبي عبدة، وسلمة بن على بن أبي عبدة، وقد اضطلع كلاهما بقيادة كثير من الصوائف.
وينسب أعظم الفضل إلى هؤلاء
القادة في مقارعة الفتنة، وإنقاذ العرش والدولة (٣) .
وتولى القيادة والوزارة منهم
أيضاً عبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة، وعبد الله بن محمد بن أبي عبدة ولد
القائد الشهير (٤) .
وكان من وزراء الأمير عبد الله أيضاً، عبد الملك بن عبد الله

---

(١) راجع المقتبس ص ٣٤، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٨.
وقد استعملت هذه الوسيلة فى
كثير من العصور لإيقاف الأمير على مظالم رعاياه بطريقة مباشرة.
(٢) ابن حيان في المقتبس ص ٤.
(٣) المقتبس ص ٢٩.
(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٦، و١٥٧، وأخبار مجموعة ص ١٥١.
وكذلك
المقتبس ص ٦.

(٣٤٧/١)

ابن أمية، وقد قتله ولده المطرف أثناء حملة إشبيلية حسبما أسلفنا.
والزعيم البربرى
سليمان بن وانسوس وزير أبيه من قبل، وكان من أقدر وزرائه وأعقلهم، عزله عن الوزارة ثم اضطر لإعادته للإستعانة بخبرته ونصحه (١) .
وكان الأمير عبد الله، إلى جانب هؤلاء الوزراء والقادة، الذين يمثلون العصبية العربية أو البربرية، يعتمد على ولاء الموالى والفتيان، ويقدم الموالى الشاميين على البلديين، أسوة بما رتبه أبوه الأمير محمد، وكان من زعماء الفتيان
في بلاطه ريّان صاحب الطراز، وبدر الوصيف وزميله أفلح.
وسنرى فيما بعد
كيف نما نفوذ أولئك الفتيان في بلاط قرطبة، واستفحل في عهد الناصر حتى غلب على كل نفوذ آخر (٢) .
ورزق الأمير عبد الله من الولد إثنا عشر إبناً وثلاثة عشر بنتاً (٣) .
ووقعت
داخل الأسرة الملكية في عهده عدة حوادث محزنة أسبغت على اسمه وخلاله

سحباً

قاتمة.

من ذلك مصرع ولديه محمد والمطرّف.

وكان محمد أكبر أبنائه وولى عهده، وكان أخوه الأصغر مطرف يحقد عليه، ويرى أنه أحق بولاية العهد لما كان والده

يحبوه به من ثقته، ويعهد إليه به من جلائل الأمور والغزوات، فما زال يدس فى

حق أخيه ويغرى أباه عليه ويتهمه بممالأة الثوار، والاتصال بابن حفصون، حتى توجس منه أبوه الأمير شراً، وأمر باعتقاله في جناح من القصر.

ولما تواترت

الأدلة بعد ذلك على براءته، واعتزم عبد الله إطلاق سراحه، بادر مطرف إليه في معتقله، وأثخنه طعاناً حتى أجهز عليه.

وهنا تختلف الرواية فيقال إن الأمير

عبد الله حزن أشد الحزن لمصرع ولده الأكبر، وهم بقتل أخيه وقاتله مطرف، لولا أن ثناه عن ذلك رجال دولته، ويقال من جهة أخرى إن مطرِّفاً لم يرتكب جريمته إلا بوحى أبيه وموافقته (٤) .

وكان مصرع محمد في شوال سنة ٢٧٧ هـ

---

(١) راجع ابن الأبار في الحلة السيراء ص ٦٦ و٦٧.

(٢) راجع الحلة السيراء ص ٦٥، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٣.

(٣) يذكر لنا صاحب البيان المغرب أسماء أبناء الأمير عبد الله وبناته (ج ٢ ص ١٥٦) .

(٤) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٦ و١٥٧ و١٦٠

و١٦١.

ويقول صاحب البيان إن محمداً خرج بالفعل على أبيه، وفر إلى ابن

حفصون، ثم عفا
عنه أبوه وعاد إليه، حى انتهت وشاية أخيه باعتقاله (ص ١٥٤ و١٥٥) .
وذكر ابن الأثير
أن الأمير عبد الله قتل ولده محمداً في حد من الحدود (ج ٨ ص ٢٤) .

(٣٤٨/١)

(٨٩١ م) وهو في السابعة والعشرين من عمره، فتولى أبوه عبد الله كفالة ولده
الرضيع عبد الرحمن، وكان قد مضى على مولده ثلاثة أسابيع فقط، وأسكنه
معه
في قصره، ولما بلغ أشده وظهرت نجابته، عنى بتعليمه وتربيته، وقربه إليه
وأولاه ثقته ثم جعله كاتب سره (١) .
وقد شاء القدر أن يخلف الطفل اليتيم فيما بعد
جده على العرش، وأن يغدو أعظم خلفاء الأندلس.
ولم تذهب جريمة المطرف دون عقاب.
ذلك أنه لم تمض بضعة أعوام حتى
ساءت العلائق بين مطرف وبين أبيه، ولما سار المطرف على رأس الصائفة
إلى
إشبيلية في سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) ، ومعه الوزير عبد الملك بن أمية، وثب
المطرف
بالوزير لعداوة بينهما وقتله، وأثمر سعى خصوم المطرف هذه المرة، وصُور
لأبيه
كما صور أخوه من قبل، في صورة الخارج عليه المتربص به، فقضى
بإعدامه، وقطع رأسه وبذا كفر عن دم أخيه ودم الوزير (٢) .
واستراب عبد الله أيضاً بإخوته، وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما قيل من أن أخاه
المنذر توفى قتيلا، وأنه هو الذى أوحى إلى طبيبه بتدبير قتله.
وبطش عبد الله

بأخوين آخرين له هما هشام والقاسم ابنا محمد بن عبد الرحمن.
فأما هشام فاتهم
بالتآمر على أخيه، فقبض عليه وقضى بإعدامه (٢٨٤ هـ) .
وأما القاسم فقبض
عليه وزج إلى السجن، ثم دس عليه عبد الله من قتله بالسم.
واعتقل كذلك عدة
من أمراء بني أمية وأكابر رجال الدولة، وقتل بعضهم.
وقد أسبغت هذه الوقائع
الدموية سحابة قاتمة على خلال الأمير عبد الله وسيرته، ولم ينجح في
محوها ورعه
وزهده وحبه للخير.
وقد نعى عليه الفيلسوف ابن حزم هذا الإسراف في البطش
في أقوال استشهد بها ابن حيان وغيره من مؤرخي الأندلس، وجاء فيها أن
الأمير
عبد الله " كان قتالا تهون عليه الدماء، مع الذى كان يظهره من عفته، فإنه
احتال على أخيه المنذر على إيثاره إياه، وأوطأ عليه حجامه بأن سم له
المبضع الذى
فصده به وهو نازل بعسكره على ابن حفصون، فكانت فيه منيته وتطوق دمه.
ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد آخر، محمداً والد الخليفة الناصر لدين
الله،

---

(١) المقتبس ص ٤٠.
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧.

وأخاه عدوه المطرف، ثم قتل أخوين له معاً أيضاً، قتل هشاماً بالسيف، والقاسم
أخاه بالسم، إلى من قتله غيرهم " (١) .
وتجمل الرواية خلال الأمير عبد الله وصفاته في العبارات الآتية: " وكانوا يعدونه من أصلح خلفاء بني أمية بالأندلس، وأمثلهم طريقة، وأتمهم معرفة، وأمتنهم ديانة، لكنه كان منغص الحال بدوام الفتنة، وتضييق نطاق الخطة، ونقصان مقدار التزكية، حتى كان يتخلله الرياء تحت قناع تقواه، والبخل يطوقه
طبيعة ليست له تحط من قدره " (٢) ويزيد ابن حيان على ذلك قوله: " وغمصوا
دينه بما كان من هون الدماء عليه، وإسراعه إلى سفكها، حتى من ولديه وإخوته
ومن خلفهما من صحابته ورعيته، أخذاً لأكثرهم بالظنة، مقوياً في إيثامهم بالشبهة " (٣) .
وكان للأمير عبد الله بالرغم من هذا الجانب المظلم، خلال مشرقة، منها أدبه وفصاحته وشاعريته.
وتنوه الرواية بهذه الموهبة فيقول لنا صاحب أخبار مجموعة، إن الأمير عبد الله كانت له توقيعات بليغة، وأشعار بديعة في الغزل والزهد، لا يكاد أن يقع مثلها أو تنسب إلى من تقدّمه نظيرها (٤) .
ويقول ابن حيان " كان
متصرفاً في فنون، متحققاً منها بلسان العرب، بصيراً بلغاتها وأيامها، حافظاً للغريب من الأخبار، آخذاً من الشعر بحظ وافر " (٥) .
ويقول صاحب البيان المغرب
إنه كان شاعراً مطبوعاً له أشعار حسان (٦) ، ومن شعره في الغزل قوله:
يا مهجة المشتاق ما أوجعك..

.

ويا أسير الحب ما أخشعك

ويا رسول العين من لحظها..

.

بالرد والتبليغ ما أسرعك

تذهب بالسر فتأتى به..

.

في مجلس يخفى على من معك

---

(١) راجع نقط العروس لابن حزم ص ٨٧ و ٧٩، والمقتبس ص ٤١، وكذلك ص ١٢٢، وابن الأبار في الحلة السيراء ص ٦٩، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ و ١٦١.

(٢) ابن حيان، نقلا عن عيسى بن أحمد الرازى، في المقتبس ص ٣٣، والبيان المغرب

ج ٢ ص ١٦٠.

(٣) المقتبس ص ٣٩.

(٤) أخبار مجموعة ص ١٥٢.

(٥) المقتبس ص ٣٤.

(٦) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٩.



كم حاجة أنجزت إبرازها..

.

تبارك الرحمن ما أطوعك

وقوله:

ويحى على شادن كحيل..

.

في مثله يخلع العذار

كأنما وجنتاه ورد..

.

خالصة النور والبهار

قضيب بان إذا تثنى..

.

يدير طرفاً به أحوار

فصفو ودى عليه وقف..

.

ما اطّرد لليل والنهار

ومن قوله في الزهد:

يا من يراوغه الأجل..

.

حتى م يلهيك الأمل

حتى م لا تخشى الردى..

.

وكأنه بك قد نزل

أغفلت عن طلب النجاة..

.

ولا نجاة لمن غفل

هيهات يشغلك المنى..

.

ولا يدوم لك الشغل

فكأن يومك لم يكن..

.

وكأن نعيك قد نزل

وكان يؤثر مجالس العلماء والشعراء، ويعظمهم ويقربهم ويستدعيهم، ويرتاح لمديحهم.
قال ابن حيان: " وكان مجلس الأمير عبد الله قبل الخلافة وبعدها، أعمر مجالس للفضائل، وأنزهها من الرذائل، وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعالم ".
وكان في مقدمة أصدقائه وجلاسه زعيم شعراء العصر، أبو عمر أحمد ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وكان شاعر الدولة الأموية، ومادح أمرائها منذ الأمير محمد حتى الناصر؛ وموسى بن محمد بن حُدير المعروف بالزهد؛
وسعيد بن عمرو العكى، وعبيد الله بن يحيى بن إدريس الخالدى، وسعيد ابن عبد ربه ابن أخى صاحب العقد؛ وكلهم من أكابر الشعراء والكتاب.
وكان من أخص وزرائه في تلك المجالس العلمية، الوزيران العالمان الأديبان عبد الملك بن جَهور، وعبد الملك بن شُهيد.
وكان من عادته أن يلجأ إلى العلماء
وأهل الرأى في المشورة، ويستعين بآرائهم وأحكامهم فيما يواجه من أحداث وخطوب، وكان بقىّ بن مخلد فقيه العصر وأعظم علمائه أكثرهم حظوة لديه، وكان يبجله ويزوره في داره، ويقتبس منه، ويستمع لنصحه (١) .

---

(١) المقتبس ص ٣٤ و٣٨ و٤١ و٤٢.



ولم يتسع عهد الأمير عبد الله الفياض بالثورات والفتن للأعمال الإنشائية، بيد أنه يمكن أن نذكر من منشآته القليلة " الساباط " الموصل بين القصر والمسجد
الجامع، وهو عبارة عن ممر مسقوف مبنى فوق عقد كبير يفضى من القصر إلى

الجامع، ويتصل به على مقربة من المحراب.

وكان الأمير عبد الله بن محمد، أبيض، أصهب، مشرباً بحمرة، أزرق العينين، أقنى الأنف، يخضب بالسواد، إلى الطول أميل (١) .

ووصفه ابن حيان

بقوته: " كان جميل الطلعة، ضخماً، مهيباً، نبيلاً " (٢) .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٤، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٥.

(٢) المقتبس ص ٣٦.

(٣٥٢/١)

الفصل الخامس

المملكة الإسبانية النصرانية

خلال القرن التاسع الميلادى

ألفونسو الثاني ملك جليقية.

النضال بين الأندلس وبين المملكة النصرانية.

موقعة الصخرة.

غزو ألفونسو للأراضي الإسلامية.

غزو الحكم لجليقية.

غزو المسلمين لألبة والقلاع.

راميرو الأول.

الحرب الأهلية في جليقية.

غزو محمد بن عبد الرحمن لجليقية.

وفاة راميرو وولاية ولده أردونيو.

تحالف أردونيو مع الثوار المسلمين.

غزو الأمير محمد لألبة والقلاع.

التحالف بين موسى بن موسى

وملك نافار.
الحرب بين أردونيو وبنى قسى.
هزيمة موسى ومصرعه.
تحالف لب بن موسى مع
أردونيو.
غزو أردونيو لأراضي المسلمين.
غزوة المنذر بن محمد لنافار.
غزوات أخرى لألبة
والقلاع.
وفاة أردونيو وولاية ولده ألفونسو الثالث.
الحرب الأهلية في جليقية.
اتساع المملكة
النصرانية في عهد ألفونسو الثالث.
توغله في أراضي المسلمين.
عقد السلم بينه وبين محمد بن
عبد الرحمن.
أحوال المملكة النصرانية.
نفوذ الكنيسة في توجيه العرش الإسبانى.
معارك بين المسلمين
والنصارى.
الثورة ضد ألفونسو.
نزوله عن العرش.
وفاته وخلاله.
مملكة نافار.
أصلها ونشأتها.
مدافعة البشكنس عن استقلالهم.

تحالف نافار مع بني قسى.

المصاهرة بين الأسرتين.

التنافر بين

نافار وليون.

سانشو ملك نافار.

الحرب بين سانشو وبنى قسى.

- ١

تحدثنا فيما تقدم عن نشأة المملكة الإسبانية النصرانية عقب افتتاح المسلمين لاسبانيا، كيف نمت هذه المملكة الوليدة المحتجبة فيما وراء الجبال الشمالية، بخطوات بطيئة ولكن ثابتة، وكيف شغل عنها ولاة الأندلس فلم ينهضوا لسحقها،

انتقاصاً لشأنها وخطرها، حتى غدت في أواخر القرن الثامن عاملا يحسب حسابه،

وبدأت حكومة قرطبة تنظر إلى هذه القوة الجديدة التي توالت غزواتها للأراضي

ْالإسلامية بعين الاهتمام والتوجس، وتخصص لمقارعتها شطراً كبيراً من جهودها

ومواردها.

وقد انتهينا في أخبار هذه الحقبة من تاريخ المملكة الإسبانية النصرانية، إلى عصر ألفونسو الثاني الملقب بالعفيف، الذى تولى الملك سنة ٧٩١ م (١٧٥ هـ) .

(٣٥٣/١)

وكان ألفونسو الثاني ملكاً حازماً مقداماً، فضبط المملكة ونهض بها نهضة شاملة، وحصن ثغورها وقواعدها، وعمل على تحسين شئونها الاجتماعية، وجعل عاصمتها

مدينة "أوبييدو" Oviedo.

وكانت مملكة جليقية أو مملكة أشتوريش (أستورياس)

كما كانت تسمى يومئذ، تمتد من ولاية بسكونية شرقاً إلى المحيط غرباً، ومن خليج

بسكونية شمالاً حتى نهر دويرة جنوباً، ولكنها لم تكن عندئذ كما كانت أيام ألفونسو

الكاثوليكى تشمل ولاية نافار أو بلاد البشكنس، التي استطاعت أن تستقل بنفسها، وقامت بها غير بعيد مملكة نصرانية مستقلة أخرى.

واستطال حكم ألفونسو الثاني زهاء نصف قرن.

عاصر فيه ثلاثة من أمراء

الأندلس، هم هشام بن عبد الرحمن، وولده الحكم، وحفيده عبد الرحمن، وتوالت فيه مراحل النضال بين الأندلس والمملكة النصرانية، فنشبت الحرب بينهما مراراً عدة، وتبادلا الغزو كلٌّ لأراضي الآخر مراراً؛ وكانت أهم الأحداث

البارزة في حلقات هذا النضال، هزيمة الجلالقة والبشكنس بقيادة ألفونسو الثاني

على يد المسلمين في موقعة الصخرة في قاصية جليقية في سنة ٧٩٥ م (١٧٩ هـ) .

وفى سنة ٨١٠ م (١٩٣ هـ) في عهد الحكم بن هشام عبر ألفونسو الثاني بقواته

نهر دويرة، وغزا الأراضي الإسلامية، وتوغل في سيره حتى قُلُمرية وأشبونة، وعاث في تلك الأنحاء أيما عيث، ورد الحكم على ذلك بنفسه في صيف العام التالى

غازياً إلى جليقية، وتوغل في منطقة وادي الحجارة، وأثخن في تلك الأنحاء عقاباً

للنصارى وزجراً لهم على عدوانهم.

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم سارت الجيوش الأندلسية، بقيادة الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث في سنة ٨٢٣ م (٢٠٨ هـ) ، غازية إلى ألبة
والقلاع، على أثر غزو ألفونسو الثاني للثغر الأعلى، وإغارته على مدينة سالم، وهزم المسلمون النصارى في عدة مواقع، وعاثوا في أراضي جليقية، وخربوا
مدينة ليون، وأملوا على النصارى صلحاً شديداً قاسياً (١) .
ولما توفى ألفونسو الثاني في سنة ٨٤٢ م، خلفه على العرش ولده راميرو الأول
أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية.
على أنه لم يخلفه دون نضال ذلك أن

---

(١) راجع في تفاصيل الحروب والغزوات المتقدمة " دولة الإسلام في الأندلس " الفصل
السابع من القسم الأول من الكتاب الثاني ص ٢٠٨ وما بعدها، وكذلك المراجع.



راميرو حينما توفى أبوه كان في ولاية بردوليا الشرقية، التي عرفت فيما بعد بقشتالة
(كاستيليا) Castilla نظراً لكثرة قلاعها، يرقب حركات المسلمين. وكان
عبد الرحمن بن الحكم يقوم عندئذ بغزوته الكبرى في الثغر الأعلى، ويثخن في بلاد
البشكنس، وكان ألفونسو يخشى أن يتدفق هذا السيل المخرب إلى أحواز
جليقية، ولكن عبد الرحمن ارتد إلى قرطبة بعد أن غزا بنبلونة، وخربها،

وسحق البشكنس
وحلفاءهم ثوار الثغر الأعلى.
وتوفى ألفونسو بعد ذلك بقليل؛ فوثب في أوبييدو
زعيم من الأشراف يدعى الكونت ريوتيانوس واستولى على العرش، وعلم راميرو
بذلك وهو في بردوليا فهرع إلى جليقية، وجمع جيشاً في مدينة " لك " وسار الى أشتوريش ليقاتل المغتصب.
ولقيه ريوتيانوس في قواته على ضفاف نهر
نارسياس، وما كادت المعركة تضطرم بين الفريقين، حتى هجر ريوتيانوس معظم جنده، وهزم هزيمة شديدة، وقبض عليه، وسملت عيناه، واعتقل بقية حياته في أحد الأديار، واسترد راميرو عرشه، وأطاعته سائر جليقية وأشتوريش.
ولكن علاقة العرش بالأشراف لبثت على توترها، ولم تمض أعوام قلائل حتى دبر الأشراف ثورة جديدة ضد راميرو (٨٤٥ م) .
ثم تلتها في سنة ٨٤٨ م
ثورة أخرى، واستطاع راميرو في كل مرة أن يخمد الثورة، وقبض على معظم الزعماء والخوارج وأعدم الكثير منهم.
ومما تجدر ملاحظته بهذه المناسبة أن حكومة قرطبة كانت في معاملتها للزعماء
الخوارج عليها، تبدو أكثر اعتدالاً وتسامحاً.
فقد كانت تعفو أحياناً عن الثوار، وكانت تؤثر اصطناع القادرين والأكفاء منهم، وكانت في عقابهم أقل قسوة
ونكالاً.
وقد يرجع ذلك إلى ظروف الأحوال في الأندلس، فقد كانت
الثورات شعبية أو قبلية على الأغلب.
أما في جليقية فكان زعماء الثورة من

الأشراف والزعماء الإقطاعيين الأقوياء، وكان خطرهم على العرش أشد
وأدعى
إلى التوجس والحذر (١) .
وشغلت المملكة النصرانية في بداية عهد راميرو، كما شغلت المملكة
الإسلامية، برد خطر النورمانيين الذين فاجأوا الأندلس بغارتهم المخربة في
سنة ٨٤٢ م حسبما

---

(١) Aschbach: Geschichte der Omajaden In Spanien, B.
I.
s.
٢٥٣

(٣٥٥/١)

أسلفنا.
وشغلت حكومة قرطبة بالأخص حيناً بتحصين أطراف المملكة، وإصلاح
ما تخرب من أعمالها.
وما كاد أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ينتهى من ذلك، حتى نشط إلى
استئناف غزو المملكة النصرانية ورد غارات النصارى، فسير ولده
محمداً في سنة ٨٤٧ م إلى جليقية فاخترق بسائطها، وحاصر مدينة ليون،
وعاث
في تلك المنطقة.
وتقول بعض الروايات النصرانية، إن المسلمين التقوا براميرو
على مقربة من مدينة سالم، وهزموه هزيمة شديدة، واستولوا على عدد من
الحصون، وعلى كثير من الغنائم والأسرى.
وفى رواية أخرى أن راميرو التقى
بالمسلمين على مقربة من كلافينجو بجوار قلهرّة، وأنه هزمهم بالرغم من قلة

جنده، وتتسب هذا النصر إلى خرافة خلاصتها أن راميرو رأى القديس ياقب
في نومه ليلة المعركة ووعده بالنصر (١) .
على أن الروايات الإسلامية لا تذكر
شيئاً من هذه الموقعة وهذا النصر المزعوم.
وأنفق راميرو بقية عهده القصير في العمل على تنظيم شؤون مملكته وتوطيد
الأمن فيها، وأنشأ عدداً من الكنائس والأديار، ثم توفى في ديسمبر سنة ٨٥٠
م
بعد حكم دام نحو ثمانية أعوام، تاركاً عرش أشتوريش وبردوليا لولده أردونيو.
- ٢ -
وتولى أردونيو عرش المملكة النصرانية عقب وفاة أبيه بقليل، وبدأ أعماله
بتحصين المدن المتاخمة لحدود المسلمين، مثل تودة وليون وأسترقة، وأصلح
باقى
القلاع والحصون تأهباً للدفاع، وأخمد الثورة في ولاية بسكونية، وفرض عليها
سلطانه.
ولما ظهرت أعراض ثورة المولدين في الأندلس في بداية عهد الأمير
محمد بن عبد الرحمن، وقامت طليطلة بثورتها على حكومة قرطبة، أرسل
أردونيو
مدداً إلى الثوار، ولكن جيش الأندلس هزم الثوار وحلفاءهم النصارى في
موقعة
وادي سليط شر هزيمة (٨٥٤ م) .
وفى العام التالى غزا الأمير محمد ألبة والقلاع
وعاث فيها، ولكن الأندلس شغلت بعد ذلك بظهور النورمانيين وغزوهم لثغور
الأندلس وبسائطها القريبة، فوقف سير الصوائف إلى الشمال بضعة أعوام.
ولكن أردونيوكان يواجه عندئذ خطر قوة جديدة، أخذت تنمو وتشتد فى
الولايات الشمالية.
ذلك أن موسى بن موسى بن قسيّ، استطاع أن يبسط سلطانه

(١) Aschbach: ibid , B.

I.

s.

٢٥٩.

(٣٥٦/١)

على الثغر الأعلى، وأن ينشىء فيه إمارة مستقلة قوية، واقترن غرسية أمير نافار
بابنة موسى وتحالف معه، ليستعين به على مقاومة المسلمين، ومقاومة جيرانه
النصارى من الغرب.

وفى أوائل عهد الأمير محمد، عبر موسى جبال البرنيه
بقواته، وغزا جنوبى فرنسا، واضطر ملكها شارل الأصلع إلى مهادنته
ومسالمته، وأغدق عليه الهدايا والتحف.

ولما رأى أردونيو نهوض قوة موسى وخطرها عليه، اضطر أن يسعى إلى
محالفته، ولكنه ما لبث أن تركه مغضباً إذ كان موسى يؤازر
البشكنس الثائرين عليه بتحريض صهره أمير نافار، ولم ير أردونيو في النهاية بداً
من مخاصمة موسى ومحاربته، وهاجم أردونيو بعض الحصون الغربية
التابعة لموسى، فسار موسى لقتاله ومعه صهره غرسية ملك نافار في قواته، ونشبت بين الفريقين
معركة شديدة هزم فيها موسى وجرح وقتل صهره غرسية.

ثم توفى موسى متأثراً
بجراحه (٨٦٢ م) .

وكانت ضربة شديدة أصابت سلطان بني قسيّ في الشمال.

ولما شعر لب بن موسى عقب وفاة أبيه بقوة المملكة النصرانية، وخطرها، على
سلطان أسرته، سعى إلى مهادنة أردونيو ومحالفته على قتال المسلمين، وردهم
عن الولايات الشمالية.

وانتهز أردونيو فرصة اشتغال حكومة قرطبة بأمر النواحى الثائرة، فعبر نهر دويرة بقواته، وغزا مدينة قورية وأسر واليها، ثم غزا شلمنقة، وهزم المسلمين، وعاث في تلك الأنحاء (١) .

فسير محمد جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده المنذر، فاخترق
ألبة والقلاع، وهزم النصارى في كل موطن، ووصل إلى بنبلونة، وعاث فى نواحيها.

وتوالت حملات الأندلس بعد ذلك على ألبة والقلاع، ونشبت بين
المسلمين وأردونيو معارك متعاقبة، هزم فيها النصارى جميعاً حسبما فصلنا ذلك فى
موضعه (٢) .

وأراد محمد أن يقضى نهائياً على مملكة جليقية فسير السفن إلى المياه
الغربية لغزوها من البحر، ووصل الأسطول الأندلسي بالفعل إلى مصب نهر منهو، ولكن العواصف ثارت وحطمت السفن، وفشل المشروع في المهد
(٨٦٦ م) .

ولزم أردونيو عقب هزائمه المتوالية السكينة بقية عهده، ثم توفى في شهر
مايو

---

(١) Cronica General (Ed.
Pidal) Vol.
II.
p.

.٣٦٦

(٢) راجع تفاصيل هذه المعارك في أخبار أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن (ص ٢٩٤ - ٢٩٩ وص ٣١١) .

*(٣٥٧/١)*

سنة ٨٦٦ م، واختار قبيل وفاته ولده البكر ألفونسو لولاية عهده، فخلفه على العرش باسم ألفونسو الثالث ولما يبلغ الرابعة عشر من عمره.

- ٣ -

وما كاد الملك الفتى يجلس على العرش، حتى ثار عليه الكونت فرويلا حاكم ولاية جليقية وولد الملك برمند، مطالباً بالعرش، وسار في قواته إلى أوبييدو، ففر ألفونسو إلى ولاية ألبة، واستولى فرويلا على القصر، وأعلن نفسه ملكاً. ولكن الأشراف القوط الذين يرون في العرش رمزهم وملاذهم، لم يرقهم هذا الاغتصاب، فثاروا على فرويلا وقاتلوه حتى قتل، وعاد ألفونسو إلى أوبييدو ظافراً واسترد عرشه.

ولم يمض قليل على ذلك حتى دبر أخوة ألفونسو، وهم فرويلا ونونيو برمند وأدفاريوس مؤامرة لعزله وانتزاع العرش منه، ولكن المؤامرة افتضحت قبل نضجها، وقبض ألفونسو على أخوته وعاقبهم بسمل أعينهم واعتقالهم، ولم ينج من بطشه سوى برمند إذ فر إلى أسترقة واستولى عليها، واستطاع بمؤازرة المسلمين أن يستقل بحكمها بضعة أعوام (١) .

وكان حكم ألفونسو الثالث الذى استطال أربعة وأربعين عاماً، فاتحة عهد جديد من القوة والنهوض بالنسبة للمملكة النصرانية، وكان ألفونسو أميراً وافر العزم والكفاية، فاستطاع خلال حكمه الطويل بالحروب والزواج أن يدفع حدود

مملكته
حتى جبال البرنيه شرقاً، وعبر نهر دويرة إلى أراضي المسلمين مراراً، ووصل
في غزواته إلى ضفاف التاجُه، وغزا عدة من المدن الإسلامية المتاخمة مثل
ماردة
وقلمرية وبازو وقورية وشلمنقة، ومع أنه لم يستطع أن يضم هذا البسيط إلى
مملكته، فانه استطاع أن يشدد الضغط على الأندلس من هذه الناحية، وأن
يرد
تيار الغزوات الإسلامية.
وفى سنة ٨٧٨ م حاول المسلمين غزو ليون وأسترقة،ْ فبادر ألفونسو إلى
لقائهم، وهزمهم في موقعتين على مقربة من سمورة، وأرغم
أخاه برمند على الفرار من أسترقه، والالتجاء إلى المسلمين.
وفى سنة ٨٨١ م غزا
ألفونسو أراضي المسلمين وعبر دويرة والتاجه، ووصل في زحفه حتى أحواز
ماردة ووادي أنة، وهو مدى لم يبلغه أحد من أسلافه.
وتقول الرواية النصرانية

---

(١) Cronica General: ibid.
Vol.
II.
p.
٣٧٦ - Aschbach: ibid.
B.
I.
s.
٣٠١

(٣٥٨/١)

أنه التقى بالمسلمين عند سفح جبل أريفر من جبال سيرّا مورينا (جبل الشارّات)
وهزمهم وقتل منهم عدة آلاف وهى موقعة لم تشر إليها الروايات الإسلامية (١) .
وكانت ريح الثورة تهب يومئذ على معظم جنبات الأندلس، وتشغل حكومة قرطبة بمقارعة بني قسى في الثغر الأعلى.
وتحالف محمد بن لب زعيم الأسرة الثائرة
مع ألفونسو الثالث، ليستعين به على قتال المسلمين، ولكن المسلمين نجحوا فى
انتزاع سرقسطة معقل ابن لب، وزحفوا على ألبة لمقاتلة النصارى، وعندئذ آثر ألفونسو أن يعقد السلم مع المسلمين، وعقدت بالفعل بينه وبين الأمير محمد بن
عبد الرحمن حسبما فصلنا من قبل، معاهدة صلح استمرت ردحاً طويلاً.
ذلك أن ملك النصارى رأى بالرغم مما كان يشغل حكومة قرطبة من ثورات متعاقبة، أن يقنع بتأمين حدوده وأراضيه من خطر الغزو الإسلامى، وأن يتفرغ
لشئون مملكته الداخلية، وكانت هذه الشئون تستغرق جل اهتمامه، وكانت الأزمات والقلاقل السياسية والاجتماعية تتعاقب، لأسباب وبواعث تتعلق بنظم المجتمع النصرانى وظروفه.
وقد وقعت في عهد ألفونسو عدة ثورات محلية ترجع
بالأخص إلى المبالغة في فرض الضرائب على الضياع، وثار أصحاب الضياع لهذا
الجور غير مرة في أنحاء مختلفة، وطالبوا بالحد من تغريمهم على هذا النحو لصالح

الكنيسة ورجال الدين، ولكن هذه الثورات الإقطاعية أخمدت تباعا، وصودرت معظم الضياع لصالح الكنيسة، واستمر العرش في الإغداق على الأديار ورجال
الدين.
ومما تجدر ملاحظته أن الملوكية الإسبانية، كانت تدين منذ نشأتها بمنتهى الولاء
والطاعة للكنيسة والكرسى الرسولى.
وكانت البابوية تتمتع في توجيهها بأعظم
نفوذ.
وكان العرش الإسباني يشعر دائماً بأنه يستمد سلطانه من الكنيسة، ويرجع إلى البابوية في كل أمر يمس شؤون السلطة الروحية.
ومن ذلك أن ألفونسو الثالث
كتب إلى البابا يوحنا الثامن يستأذنه في عقد المؤتمر الكهنوتى وتعيين الأساقفة، فأذن له، وطلب إليه أن يبعث بفرقة من الفرسان للمعاونة في محاربة المسلمين
في صقلية وجنوب إيطاليا.
وعقد المؤتمر الكهنوتى بالفعل في أوبييدو سنة ٨٧١ م
ونظمت فيه شؤون الكنيسة الإسبانية.
وكان ألفونسو الثالث ملكاً تقياً ورعاً، وكانت

---

(١) Aschbach: ibid , B.
I.
s.
٣٠٣

الكنيسة ورجال الدين يحظون منه بأوفر قسط من الرعاية والإغداق، وكان هذا
الجود المغرق يحمله على الإسراف في فرض الضرائب على الطوائف المدنية، وبذا
يبث إليها بذور السخط والانتقاض (١) .
وفى أواخر عهد ألفونسو نشبت الحرب بينه وبين بني قسى سادة الثغر الأعلى، وأغار زعيمهم محمد بن لب غير مرة على أراضي المملكة النصرانية ونافار.
وكذلك نشبت الحرب بين ألفونسو وبين ابن القط المعروف بالمهدى الذى تزعم
البربر في منطقة سمورة حسبما فصلنا ذلك في موضعه.
ولكن هذه المعارك التي
وقعت يومئذ بين المسلمين والنصارى لم تتسم بالطابع الرسمى، وكان يضطلع بها
الزعماء الخوارج على حكومة قرطبة، ومن ثم فقد استمر التهادن بين حكومة قرطبة وبين المملكة النصرانية طوال عهد الأمير محمد، فابنه الأمير المنذر، ثم
أخيه الأمير عبد الله.
وبالرغم من أن ألفونسو لم يكن يترك فرصة لإذكاء الفتنة
في المملكة الإسلامية وتعضيد الخوارج عليها، فإنه التزم عهده المعقود معها، ولم يقم بغزوات ذات شأن في الأراضي الخاضعة لها.
ودبرت عدة مؤامرات لخلع ألفونسو وانتزاع العرش منه.
وكان المتآمرون
من خاصة أسرته.
وحاول المتآمرون لأول مرة تمكين أولاده وزوجه خمينا من
الحكم، ولكن ألفونسو استطاع أن يقف على المؤامرة وأن يقضى عليها.

وقبض
على ولده غرسية واعتقله في قلعة أوبييدو.
ولكن هذا الفشل لم يفت في عضد
المتآمرين، فدبروا مؤامرة جديدة برياسة الملكة خمينا، وهى امرأة ذات أطماع
تهيم بالسلطان، واشترك في تدبيرها الكونت نونيو صاحب برغش وأولاد الملك
الثلاثة وهم: أردونيو وفرويلا وجند سالفوس، وانضم إليهم قسم من الجيش
وفريق
كبير من الشعب، وسيطروا على كثير من المعاقل.
وخشى ألفونسو عاقبة الحرب
الأهلية فقبل شروط الثوار، ونزل عن العرش لولده الأكبر غرسية، وعين
أردونيو حاكماً لجليقية، وفرويلا حاكما لأشتوريش، ووقع ذلك في سنة ٩١٠
م، وبذا اختتم ألفونسو عهده الذى استطال أربعة وأربعين عاماً.
ولم يمض قليل على
ذلك حتى توفى في شهر اكتوبر من نفس العام وقد جاوز الثامنة والخمسين
من عمره (٢) .

---

(١) Aschbach: ibid, B.
I.
s.
٣٤٦ & ٣٥٢
(٢) Cronica General: ibid, Vol.
II.
p.
٣٨٢

وتشيد الرواية بخلال ألفونسو الثالث، وتصفه بالحزم والشجاعة، وتقول لنا إنه كان خصماً عنيداً للمسلمين شديد الوطأة في محاربتهم، ولكنه حينما عقد السلم

مع حكومة قرطبة احترم عهده والتزم الوفاء به.

وكان ألفونسو في الوقت نفسه

نصيراً للآداب والعلوم يجزل صلاته لأهل العلم، وكان من سعة أفقه أن عهد بتربية ولده أردونيو إلى بعض العلماء المسلمين (١) ، وكان حسبما أسلفنا تقياً ورعاً

يخص الكنيسة بأوفر رعايته وعطائه، وقد أنشأ كثيراً من الكنائس والأديار، وابتنى كنيسة شنت ياقب الشهيرة.

وقد رأينا كيف حمله إسرافه في الإغداق على

الكنيسة ورجال الدين، على المبالغة في فرض الضرائب على الضياع، فكان ذلك

من عوامل الإنتقاض والثورة على سياسته، وبذل ألفونسو جهوداً كبيرة فى تحصين مدن الحدود، وفي مقدمتها برغش وسمورة وسيمانقة (شنت منكش) ، وزودها بالسكان والجند، لكى تغدو سداً منيعاً ضد غزوات المسلمين.

ومنذ وفاة ألفونسو تسمى المملكة الإسبانية النصرانية مملكة ليون، بعد أن كانت تسمى مملكة أشتوريش وجلّيقية، وقد نقل ابنه وخلفه غرسية قاعدة المملكة من أوبييدو إلى مدينة ليون لتوسط موقعها بين جلّيقية وأشتوريش، وتسبغ الرواية النصرانية على ألفونسو الثالث لقب (ألفونسو الكبير) El magno، لما امتازت به المملكة النصرانية في عهده من القوة والنهوض والاتساع، وماتمتعت

به خلال عهده الطويل من السلم والرخاء.



إلى جانب مملكة أشتوريش أو مملكة ليون الإسبانية الشمالية، كانت تقوم فى غربى البرنيه في بلاد البشكنس الجبلية، إمارة أو مملكة نصرانية أخرى هى

مملكة
نافار (نبرّة) .
ويحيط الغموض بأصل هذه المملكة الصغيرة ونشأتها.
وكل
ما نعرفه من ذلك هو أن قبائل البشكنس، كانت حتى أواخر القرن الثامن
الميلادى
تخضع لبعض السادة الإقطاعيين التابعين لمملكة الفرنج، وربما حكمها
دوقات
كانتابريا أو أمراء أشتوريش.
وكانت قاعدتهم مدينة بنبلونة الحصينة، التي
حكمها المسلمون ردحاً من الزمن، ثم فقدوها في أواخر القرن الثامن أيام
غزوات
الفرنج لاسبانيا الشمالية.
وكانت بلاد البشكنس أو نافار منذ الفتح ميداناً للغزوات

---

(١) Aschbach: ibid , B.
I.
s.
٣٥٢



الإسلامية والفرنجية.
وقد حاول أمراء جليقية غزوها غير مرة، وضمها إلى
المملكة النصرانية.
ولكن قبائل البشكنس كانت تتفانى دائما في الذود عن استقلالها.
ولما شغلت المملكة النصرانية بمنازعاتها الداخلية، لبثت نافار مدى حين

مقصد
الصوائف الإسلامية، واجتاحها المسلمون مراراً.
وفى نهاية القرن الثامن الميلادى في نحو سنة ٧٩٩ م، ظهر في نافار زعيم
من
السادة يدعى أزوارو جعل نفسه أميراً مستقلاً.
ولما توفى سنة ٨٣٦ م خلفه أخوه
سانشو.
ولكن أميراً آخر من الزعماء البشكنس هو غرسية إنيجيز بن إنيجو أريستا
تغلب عليه وانتزع منه الإمارة.
وتعرف الرواية الإسلامية إنيجو أريستا هذا
وتسميه " ونقه بن شانجه ملك البشاكسة " (١) .
وهنا تبدو نافار لأول مرة في صورة
المملكة المستقلة، ويبدأ ثبت ملوكها المتعاقبين.
ومما يجدر ذكره أن مملكة نافار
الناشئة، رأت أن ترتبط برباط التحالف والمصاهرة مع إمارة إسلامية مجاورة
هى
إمارة بني قسى سادة الثغر الأعلى، وهم حسبما قدمنا يرجعون إلى أصل
نصرانى
أو قوطى.
وقد تزوج إنيجو أريستا رأس الأسرة النافارية بأرملة موسى بن فرتون
ابن قسى، وتزوج موسى بن موسى من إبنة غرسية إنيجيز، وتزوج غرسية
وإخوته من بنات لب بن موسى بن فرتون، وتزوج بعض إخوة موسى وأبنائه
من بنات أمراء نافار (٢) .
وهكذا كانت وشائج التحالف والمصاهرة تربط بين الأسرتين المسلمة
والنصرانية، وتوثقت هذه الوشائج واستطالت دهراً.
وكذلك رأى غرسية إنيجيز

أن يتحالف مع عمر بن حفصون زعيم الفتنة في الأندلس.

وكانت علائق نافار

بجارتها المملكة النصرانية الكبيرة أو مملكة ليون يشوبها الكدر.

ذلك أن مملكة نافار

الصغيرة كانت دائماً تخشى مطامع ليون وغدرها، وقد حارب غرسية إنيجيز أردونيو ملك ليون، إلى جانب صهره موسى بن موسى، في موقعة البلدة وقتل سنة ٨٦٢ م حسبما أسلفنا.

وخلف غرسية ولده فرتون الذى لبث أسيراً في قرطبة ردحاً طويلاً.

ثم خلفه

ولده سانشو غرسية.

وفى رواية أن سانشو هذا لم يكن ولداً لفرتون أو لغرسية

---

(١) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٦٨.

(٢) جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٨.

*(٣٦٢/١)*

ولم يكن من أمراء البيت المالك، ولكنه متغلب من نوع آخر انتزع الملك لنفسه.

وعلى أى حال فقد استقر سانشو غرسية ملكاً على نافار.

وهو أول من تلقب

من أمراء نافار بألقاب الملك، وبه تبدأ مملكة نافار الحقيقية.

وقد حكم سانشو

حتى سنة ٩٢٦ م، وخاض مع المسلمين أيام الأمير عبد الله عدة حروب ووقائع، وشغل حيناً بقتال بني قسى الذين تصرمت علائقهم مع مملكة نافار، وهاجم لب

ابن محمد بن لب زعيم بني قسى نافار غير مرة، ونشبت بينه وبين سانشو

على
مقربة من بنبلونة وقائع متوالية انتهت بهزيمة لب ومقتله في سنة ٩٠٧ م،
فخلفه
أخوه عبد الله في رياسة تطيلة وما جاورها، واستمر في محاربة نافار وهزم
سانشو
في سنة ٩١١ م، وتقول الرواية الإسلامية إن شانجه بن غرسية البشكنسى
صاحب بنبلونه أعنى سانشو غرسية، غزا مدينة تطيلة في سنة ٣٠٣ هـ
(٩١٤ م) ، فقتل كثيراً من المسلمين، وأسر أميرها عبد الله بن محمد بن لب
بن موسى
القسوى.
فدخلها أخوه مطرِّف بن محمد في اليوم التالى، وقام مكان أخيه.
وقد كان عبد الله وأخوه مطرف من أبطال الثغر الأعلى، وكانت لهما غزوات
عديدة مظفرة في أراضي النصارى (١) .
وشغل سانشو أيضا بقتال الطويل وغيره
من زعماء الثغر الأعلى حسبما فصلنا ذلك في موضعه.
وسنعرض في فصل قادم
إلى حروبه مع عبد الرحمن الناصر.

---

(١) المقتبس لابن حيان - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية بالرباط
لوحة ٦١ أ، وهو الذى أشرنا في مقدمة الكتاب إلى اكتشافه بين محفوظات
الخزانة الملكية.



فهرست الموضوعات (١)

..
..
..
..
..
..
..
..
..
..
..
..
..
..
..
..
..
.
٥

الكتاب الأول

فتوح العرب في إفريقية والأندلس وغاليس

وعصر الولاة في الأندلس

الفصل الأول: فتوح العرب في إفريقية..

..
..
..

..

..

..

١٢٩

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الأول - عصر الإمارة

من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن بن الحكم

---

(١) رأينا أن نكتفى بأن نثبت هنا فهرس الموضوعات والخرائط لهذا القسم الأول من الكتاب.

أما ما عدا ذلك من الملاحق والفهارس المختلفة الأخرى، فسوف نثبتها في نهاية القسم الثاني من الكتاب.

(٣٦٤/١)

الفصل الأول: مصرع الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية..

..

..

..

.

١٤٠

الفصل الثاني: بعث الدولة الأموية بالأندلس..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..



(٣٦٥/١)

الفصل الخامس: المملكة الإسبانية النصرانية

خلال القرن التاسع الميلادى..

..

..

..

***

فهرست الخرائط

(٣٦٦/١)

دولة الإسلام في الأندلس

الخلافة الأمَوِيّة والدّوْلة العَامِريّة

تأليف

محمد عبد الله عنان

العصر الأوّل - القسم الثاني

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

(٣٦٧/١)



الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

رقم الإيداع: ٩٠لم٨٩٨٨

الترقيم الدولى: ٤ - ٠٨٢ - ٥٠٥ - ٩٧٧

مطبعة المدني

المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية.

القاهرة.

ت: ٤٨٩٧٨٥١

(٣٦٩/١)

الكتاب الثاني

الدّوْلة الأموَّية في الأندَلسْ

القسم الثالث

عبد الرحمن الناصر

وقيام الخلافة الأموية بالأندلس
٣٠٠ - ٣٥٠ هـ: ٩١٢ - ٩٦١ م

(٣٧١/١)

الفصل الأول
ولاية عبد الرحمن الناصر
وقيام الخلافة الأندلسية
ولاية عبد الرحمن حفيد الأمير عبد الله.
نشأته وحداثته.
أخذ البيعة له.
حزمه في معالجة
الثورة.
غزو قلعة رباح وإخضاعها.
خروج عبد الرحمن لغزو الثوار.
غزوة المنتلون.
غزوه
لمعاقل ابن حفصون في ريه والبيرة.
سحق الثورة في إشبيلية.
عوده لغزو كورة ريه.
محاصرته
لقرمونة وإخضاعها.
مولد ولى العهد الحكم.
القحط بالأندلس.
أقوال ابن حيان.
إخضاع أوريولة
ولبلة.

ابن حفصون يطلب الصلح ويجاب إليه.
عهد الناصر له.
وفاة عمر بن حفصون.
مبالغة
النقد الغربى في تصوير شخصيته.
أبناؤه يخلفونه في معاقله.
مطاردتهم وإخضاع ببشتر آخر
معاقلهم.
استخراج جثة الثائر وصلبها.
إعدام ابنته أرخنتا.
كتاب الناصر عن فتح ببشتر.
محاصرة
طليطلة وإخضاعها.
إخضاع بطليوس ونهاية بني الجليقى.
إخضاع بني ذى النون.
تمزيق الثوار فى
شرقى الأندلس.
إسبانيا النصرانية وتربصها بالأندلس.
عيث النصارى في أراضي المسلمين.
غزو
أردونيو ليابرة وماردة وبطليوس.
غزو المسلمين لأراضي ليون.
موقعة شنت إشتيبن وهزيمة
المسلمين.
عود المسلمين إلى غزو ليون.
موقعة مطرانية وهزيمة النصارى.

مسير عبد الرحمن إلى
ليون.
استيلاؤه على أوسمة وشنت إشتيبن.
توغله في أراضي نافار.
موقعة جونكيرا وهزيمة
النصارى.
إستيلاء النصارى على بقيرة وفتكهم بالمسلمين.
مسير عبد الرحمن إلى الثغر الأعلى.
غزوه
لنافار واستيلاؤه على بنبلونة.
هزيمة النصارى.
وفاة أردونيو وولاية ولده راميرو.
راميرو
يشجع ثوار طليطلة.
محاصرة الناصر لطليطلة.
محاولة راميرو إنجادها.
سقوطها في يد الناصر.
غزو الناصر لقشتالة.
مسيره إلى أوسمة.
التماس طوطة للصلح.
غزو ألبة والقلاع.
غزوة بحرية
إسلامية للثغر الفرنجى.
الصلح بين الناصر وراميرو.
تحالف بني هاشم أصحاب الثغر الأعلى مع النصارى.
مسير عبد الرحمن إلى مقاتلة الثوار.

محاصرته لسرقسطة.
خروج أمية بن إسحاق والتجاؤه للنصارى.
سقوط سرقسطة وخضوع محمد بن هاشم.
عهد الناصر له بالأمان.
غزو عبد الرحمن لنافار وخضوع
ملكتها طوطه.
تأهب عبد الرحمن لمحاربة راميرو.
نفوذ الصقالبة في القصر والجيش.
مسير
عبد الرحمن إلى ليون.
تحالف ليون ونافار.
زحف عبد الرحمن على سمورة.
موقعة الخندق وهزيمة
المسلمين.
أقوال الروايات العربية.
رواية المسعودى.
رواية ابن حيان.
كتاب الناصر عن الغزوة.
رواية ابن الخطيب.
الروايات النصرانية.
رواية ألفونسو الحكيم.
الروايات الأخرى.
آثار
الموقعة.
عود المسلمين لغزو ليون.
وفاة راميرو وجلوس أردونيو.

الصلح بين الأندلس وليون.
بعض الحوادث الداخلية.
حريق قرطبة.
المحل والقحط.
الدعوة الفاطمية واجتياحها للمغرب.
جزع
حكومة قرطبة.
استيلاء عبد الرحمن على سبتة.
خضوع المغرب الأقصى لعبد الرحمن.
خطر الفاطميين
على الأندلس.
السفن الفاطمية تغزو ألمرية.
غزوات عبد الرحمن لشواطىء المغرب.
أثر الدعوة
الفاطمية في بعث فكرة الخلافة الأندلسية.
عبد الرحمن يتخذ سمة الخلافة.
الوثيقة الخاصة بذلك.
ابن مسرة.
حركته وحقيقة أمرها.
أقوال ابن حيان عنها.
مطاردة منتحليها.
كتاب الناصر في شأنها.

*(٣٧٢/١)*

- ١ -

مضى زهاء قرن منذ استقر ملك بني أمية بالأندلس، وتوطدت أسس الدولة

الجديدة، وأخذت تزهو وتزدهر في عهد عبد الرحمن بن الحكم.
ولكن عوامل
الإنتقاض والتفكك، سرت فجأة إلى هذا الصرح القوى، ولبثت الأندلس مدى
النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى (أواخر القرن التاسع الميلادى)
تضطرم
بسلسلة لا نهاية لها من الثورات والفتن، حتى لاح مدى لحظة أن ملك بني
أمية
أضحى على وشك الانهيار.
توفى الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أمير الأندلس في مستهل
ربيع
الأول سنة ٣٠٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩١٢ م) بعد حكم طويل عاصف،
مزقت فيه
أوصال المملكة ونضبت مواردها، فخلفه في نفس اليوم على العرش حفيده
عبد الرحمن ابن ابنه محمد، غير متجاوز الثالثة والعشرين من عمره، وذلك
بالرغم
من وجود أعمامه وأعمام أبيه.
وكان الأمير عبد الله قد اختار محمداً أكبر أولاده
لولاية عهده، فوجد عليه أخوه المطرِّف وقتله حسبما تقدم.
وولد عبد الرحمن
قبيل مقتل أبيه بأسابيع قلائل في ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ (ديسمبر سنة
٨٩٠ م)
وأمه جارية إسبانية نصرانية تدعى ماريا أو مزنة حسبما تسميها الرواية
العربية، فنشأ الطفل اليتيم في كفالة جده مرموقاً بعين العطف والرعاية،
وأسكنه جده معه
بالقصر دون ولده.
وما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته، وأبدى بالرغم

من حداثته تفوقاً في العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنه، ودرس القرآن
والسنة وهو طفل لم يجاوز العاشرة، وبرع في النحو والشعر والتاريخ، ومهر
بالأخص في فنون الحرب والفروسية، وأقبل عليه جده الأمير يخصه بحبه
وثقته، ويرشحه لمختلف المهام، ويندبه للجلوس مكانه في بعض الأيام والأعياد لتسليم
الجند عليه، وهكذا تعلقت آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه، وأضحى ترشيحه
لولاية العهد أمراً واضحاً مقضياً، بل يقال إن جده قد رشحه بالفعل لولاية
عهده وذلك بأن برىء بخاتمه إليه، حينما اشتد عليه المرض إشارة منه باستخلافه (١)

---

(١) وردت هذه التفاصيل الأخيرة في أوراق مخطوطة عن بداية عهد الناصر، نشرت بعناية
الأستاذ ليفى بروفنسال بعنوان: Una Cronica Anonima de Abd Al - Rahman III،
Al - Nasir (Madrid 1950) p. ٢٩ - ٣٠

(٣٧٣/١)

وما كاد الأمير عبد الله يسلم أنفاسه الأخيرة حتى بويع حفيده عبد الرحمن بالملك.
وجلس عبد الرحمن للبيعة، يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول في قاعة " المجلس
الكامل " بقصر قرطبة، فكان أول من بايعه أعمامه، وأعمام أبيه، وتلاهم أخوة
جده، وقد مثلوا أمامه وعليهم الأردية والظهائر البيض عنوان الحزن على

الأمير
الراحل، وتكلم بلسانهم عمه أحمد بن عبد الله فقال: " والله لقد اختارك الله
على علم
للخاص منا والعام، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا، فأسأل الله إيزاع
الشكر، وتمام النعمة، والهام الحمد ".
وتتابع للبيعة بعد ذلك وجوه الدولة
والموالى، ثم أهل قرطبة من الفقهاء والأعيان، ورؤساء البيوتات، واستمرت
بيعة الخاصة على هذا النحو حتى الظهر، وعندئذ نهض الأمير الجديد
فصلى على
جثمان جده، ثم واراه في مدفنه بالروضة، ومعه الوزراء ورجال الدولة.
وجلس
لتلقى البيعة في المسجد الجامع صاحب المدينة الوزير موسى بن محمد بن
حُدير، والقاضى أحمد بن زياد اللخمى، وصاحب الشرطة العليا ابن وليد
الكلبى، وصاحب الشرطة الصغرى، أحمد بن محمد بن حدير، وصاحب
أحكام السوق
محمد بن محمد بن أبي زيد، فاستمرت بضعة أيام.
وكذلك أنفذت الكتب بأخذ
البيعة إلى العمال في سائر الكور، وأخرج الأمناء إلى البلاد لأخذها، وتتابعت
الردود بإنجازها من جميع النواحى (١) .
وساد البشر يوم البيعة في القصر والمدينة، وتوسم الجميع في الأمير الفتى
آيات العظمة واليمن، وعلقوا على ولايته أكبر
الآمال.
وفى ذلك يقول معلمه شاعر العصر ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، يوم
أن تولى عبد الرحمن الملك في مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ:
بدا الهلال جديداً..

.

والملك غض جديد

يا نعمة الله زيدى..

.

ما كان فيك مزيد

إن كان للصوم فطر..

.

فأنت للدهر عيد

إمام عدل عليه..

.

تاجان: بأس وجود

يوم الخميس تبدى..

.

لنا الهلال السعيد

فكل يوم خميس..

.

يكون للناس عيد

وكانت الأندلس عندئذ أشد ما تكون حاجة إلى السكينة بعد أن هزتها الثورة

---

(١) الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٣١.

(٣٧٤/١)

إلى الأعماق، وتجاذبتها الأعاصير من كل صوب، وكان الأمير الفتى يرى أن خطة

التردد والرفق التي اتبعها أجداده نحو الزعماء الخوارج كانت سياسة خطرة، ولم

تكن ناجعة، وأنه لابد لاستتباب الأمن واستقرار السكينة، من سحق الثورة

وزعمائها
بأى الوسائل.
ومن ثم فإنه لم تمض على جلوسه أسابيع قلائل حتى بعث حملته الأولى إلى
المناطق الثائرة بقيادة الوزير عباس بن عبد العزيز القرشى، فقصدت إلى
منطقة قلعة رباح
وكان قد ثار بها الفتح بن موسى بن ذى النون من زعماء البربر، ومعه حليفه
الرياحى
المعروف بأرذبلش، فوقعت بين جند الأمير وبين العصاة معارك شديدة، هزم
فيها الفتح بن موسى، وارتد مغلولا إلى معاقله، وقتل أرذبلش، وبعثت رأسه
إلى قرطبة، فرفعت فوق باب السدة، وطهرت قلعة رباح وأحوازها من
الثورة، وذلك في شهر ربيع الآخر (١) .
وسارت حملة أخرى نحو الغرب، واستردت مدينة إستجة من أيدى العصاة
أتباع ابن حفصون (جمادى الأولى) ، وهدمت أسوارها وقنطرتها الواقعة على
نهر شنيل، حتى تعزل وتغدو بذلك عاجزة
عن التمرد والخروج.
وفى شعبان سنة ٣٠٠ هـ (مارس سنة ٩١٣ م) خرج عبد الرحمن للغزو
وتولى
القيادة بنفسه، فأثار ظهور الأمير الفتى في الصفوف حماسة الجند وأكبروا
شجاعته وإقدامه.
وسار عبد الرحمن أولا إلى الجنوب الشرقى، ومعه جند كورة
إلبيرة وزعماؤها، وكان ابن حفصون قد نزعهم حصونهم ومعاقلهم، فالتجأوا
إلى الأمير، وألقوا بطاعتهم إليه، واتجه صوب كورة جيان في وسط الأندلس،
حيث كانت الثورة على أشدها، وحيث كان ابن حفصون أخطر الزعماء
الخوارج
يبسط سلطانه على طائفة من الحصون القوية؛ فاستولى على حصن مَرتُش
الواقع

في طريق جيان، وسير في نفس الوقت بعض قواته إلى مالقة لإنجادها، وكان
يهددها الزعيم الثائر، فاحتلتها وأمنتها.
وقصد عبد الرحمن بعد استيلائه على
مرتش، إلى حصن مونت ليون (حصن المنتلون) القريب منها، وكان يمتنع به زعيم من المولدين هو سعيد بن هذيل، فضربه بشدة، وهاجمه حتى اقتحمه، وأذعن الزعيم الثائر إلى التسليم والطاعة ومنح الأمان (رمضان سنة ٣٠٠ هـ).
وتعتبر هذه الغزوة أول غزوات عبد الرحمن، وتسمى عادة بغزوة المنتلون.

---

(١) الأورق المخطوطة السالفة الذكر ص ٣٣.

(٣٧٥/١)

واتجه عبد الرحمن بعد ذلك إلى حصن شمنتان، الواقع على مقربة من بياسة، وبه
عبد الله بن الشالية، فاستسلم الثائر دون مقاومة، وطلب الأمان، ونزل عن جميع حصونه ومعاقله.
واستولى عبد الرحمن بعد ذلك على حصن منتيشة من يد
صاحبه ابن عطاف.
وافتتح سائر الحصون النى كانت بيد ابن حفصون من كورة
جيان، وطهرها من آثار الخروج والعصيان.
وقدم إليه سائر الزعماء الخوارج
طاعتهم، فتقبلها وعفا عنهم.
وسار عبد الرحمن بعد ذلك جنوبا إلى كورة ريُّه، فاحتل منها سائر الحصون التي تدين بالطاعة لابن حفصون، واقتحم أمنع هذه الحصون، وهو حصن شبليس بعد قتال عنيف، وقتل من كان به من أصحاب الثائر، وفر أمامه

جعفر
ابن حفصون ليلا ولحق بأبيه، ثم استولى عبد الرحمن على حصن إشتيبن
على مقربة
من إلبيرة.
واتجه بعد ذلك إلى وادي آش فاحتل حصونها، ثم توغل في شعب
جبل الثلج (سيرًا نفادا) وافتتح ما هنالك من المعاقل والحصون.
وحاول ابن
حفصون أن يزحف على غرناطة، فخرج إليه أهل إلبيرة ومعهم مدد من جيش
عبد الرحمن فردوه على عقبه.
وما زال عبد الرحمن يجول في تلك الأنحاء يخضع
حصونها وينتسف أراضيها، حتى قضى على كل عناصر الثورة والخروج
فيها، وبلغ ما استولى عليه في تلك الغزوة من الحصون زهاء سبعين حصناً
من أمهات
المعاقل الثائرة، ثم ارتد عائداً إلى قرطبة فوصلها في يوم عيد الأضحى بعد
أن قضى
في غزوته زهاء ثلاثة أشهر (١) .
على أن هذه الجولة الأولى لم تكن إلا بداية الصراع المرير، الذى كان على
عبد الرحمن أن يضطلع به.
ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عادت عناصر
الثورة تجتمع، وتتحفز، وعاد ابن حفصون ينظم خططه وقواته.
وكانت
إشبيلية في مقدمة القواعد التي رفعت لواء الثورة، وقام بها منذ أيام الأمير
عبد الله، بنو حجاج حسبما تقدم، وأنشأوا بها إمارة مستقلة.
وقد كانوا بالرغم من انحدارهم
من أصل عربى ينتمون إلى المولدين من ناحية الأم، ويشاطرونهم شعور
الحفيظة

ضد حكومة قرطبة.
وكان عبد الرحمن يتوق إلى تحطيم سلطان أولئك المولدين
ومن يمالئهم، وقد أبدوا دائماً أنهم لا يدينون بالولاء للحكومة الإسلامية التي

---

(١) وردت تفاصيل هذه الغزوة في الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٣٥ - ٣٨.

*(٣٧٦/١)*

لم تدخر وسعاً في الرفق بهم ومعاملتهم دون تمييز أو إجحاف أو تحامل.
وكان
زعيم إشبيلية إبراهيم بن حجاج قد توفى، وخلفه في حكمها ولده عبد الرحمن،
وخلفه في حكم قرمونة ولده محمد.
ولما توفى عبد الرحمن في المحرم سنة ٣٠١ هـ، تطلع
أخوه محمد إلى أن يحكم إشبيلية من بعده، ولكن أهل إشبيلية اجتمعوا حول
زعيم
قوى آخر هو أحمد بن مسلمة وهو أيضاً من بني حجاج وقدموه لحكمها،
وسبق
محمداً إلى الاستيلاء عليها.
فسار محمد إلى قرطبة، وقدم طاعته إلى عبد الرحمن، فتقلبها وأوفد معه
الجند بقيادة الحاجب بدر، فحاصر إشبيلية ثم استولى عليها
في جمادى الأولى سنة ٣٠١ هـ وهدم أسوارها، وندب لها عبد الرحمن والياً
من قبله، وانتهت بذلك ثورة العرب والمولدين في إشبيلية.
وفى شوال سنة ٣٠١ هـ (مايو سنة ٩١٤ م) خرج عبد الرحمن في غزوته
الثانية، وقصد إلى كورة ريه والجزيرة.
وكان ابن حفصون زعيم ثورة المولدين قد عاد
فبسط حكمه على تلك الأنحاء، وعادت الثورة تضطرم فيها.

وبدأ عبد الرحمن بحصار

قلعة " طرُّش " في شرقى مالقة، ثم سار إلى حصون ريه ومعاقلها يفتتحها تباعاً، وهنا قدم ابن حفصون على رأس قواته والتقى بعبد الرحمن أمام قلعة طرُّش، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها كثير من جند ابن حفصون وحلفائه

النصارى، وارتد الثائر بفلوله صوب الغرب، واستطاع أسطول عبد الرحمن أن يضبط عدة سفن محملة بالمؤن كانت قادمة من عدوة المغرب لإمداد ابن حفصون

وأن يحرقها.

وزحف عبد الرحمن على منطقة الجزيرة الخضراء، واقتحم حصن

لورة الواقع بجوار الجزيرة، ثم دخل الجزيرة الخضراء في أوائل شهر ذى القعدة سنة ٣٠١ (يونيه ٩١٤ م) .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى شذونة

ثم إلى قرمونة، وكان حاكمها حبيب بن سوادة قد ثار بها، فحاصرها حتى سلم الثائر واستأمن، فمنح الأمان، وانتقل بأهله إلى قرطبة.

بيد أنه نكث

بعهده فيما بعد.

ودخلت في طاعته سائر المعاقل والحصون التي مر بها، ثم

عاد إلى قرطبة في شهر ذى الحجة بعد أن أصاب جبهة الثورة في تلك المرة بضربة شديدة وإن لم تكن قاضية.

ومع أن عبد الرحمن كان يتوق إلى سحق

الثورة بكل الوسائل، فإنه لم يلجأ إلى قسوة لا مبرر لها، بل آثر منذ البداية أن يتبع سياسة الرفق والتسامح نحو الزعماء والثوار الذين قدموا خضوعهم

وطاعتهم، فسمح للكثير منهم بالانتقال إلى قرطبة مع الأهل والولد، وأجرى عليهم الأرزاق والأعطية، وأبدى بالأخص نحو النصارى الذين أذعنوا إلى الطاعة منتهى الكرم والتسامح (١) .

وفى سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) ، وقع حادث سعيد في البلاط القرطبى، هو مولد ولى العهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر.

وقد اختلف في تاريخ مولده، فيقول الرازى إنه وقع يوم الجمعة غرة رجب من هذه السنة.

ويقول محمد

ابن مسعود إنه وقع في يوم الجمعة ٢٤ من جمادى الأولى، وأمه مرجان الرومية، أم الولد الأثيرة، وقد سر عبد الرحمن بولادته أيما سرور، ونوه بها، وأوسع

الإنعام، وتقدمت طبقات الناس إليه بالتهنئة.

وأنشد الشعراء تهانيهم، فمن ذلك

قول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه:

هلال نماه البدر واختاره الفجر..

.

تلقت به شمس وأنجمه زهر

على وجهه سيما المكارم والعلى..

.

فضاءت به الآمال وابتهج الشعر

سلالة أفراس وبيت خلايف..

.

أكفهم بحر ونايلهم غمر

بدا لصلاة الظهر نجم مكارم..

.

تحف به العليا ويكنفه الفخر

ثماه إلى العليا خير خليفة..

.

تتيه به الدنيا ويزهى به العصر (٢)

وفى أواخر سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) حل بالأندلس قحط شديد، فعزت

الأقوات وارتفعت الأسعار، وأمر عبد الرحمن وزيره أحمد بن محمد بن زياد

بالبروز بالناس للاستسقاء، فبرز بهم يوم الإثنين ١٣ شوال (أول مايو) فنزل

فيه رذاذ مملح وندى مبلل لم يكن له كبير أثر (٣) ، وعمت المحنة سائر

القواعد

والثغور، واستمرت خلال العام التالى (سنة ٣٠٣ هـ) ، وبلغت الشدة بالناس

مبلغاً عظيماً، وانتشر الوباء مع القحط، وكثر الموت، وهلك كثير من

الرؤساء

والوجهاء، وكانت محنة قاسية شديدة الوطأة.

ولم يدخر عبد الرحمن خلال

تلك الآونة العصيبة، وسعاً في بذل المعونة والغوث لشعبه بتوزيع المؤن

والصدقات الوفيرة.

وحذا حذوه كثير من الكبراء وأهل الدولة، فكان

---

(١) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية بالرباط) لوحة

٣٢ أ، و Dozy: Hist.

؛ Vol.

II.

p.

١٠٣

(٢) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٣.

(٣) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٣.

لمجهودهم أثر كبير في التلطيف من آثار المحنة.
وكان لهذا الظرف أثره في تهدئة
الثورة، وألفت في عضد الثوار، ولكن عبد الرحمن لبث مع ذلك متيقظاً يرقب
حركاتهم بحذر وأهبة.
ويحدثنا ابن حيان عن هذه المحنة في حوادث سنة ٣٠٣ هـ، ويقدم إلينا
عنها الصورة التالية:
" فيها كانت المجاعة بالأندلس التي شبهت بمجاعة سنة ستين، فاشتد
الغلاء، وبلغت الحاجة والفاقة بالناس مبلغاً لم يكن لهم عهد بمثلها، وبلغ قفيز
القمح
بكل سوق قرطبة ثلاثة دنانير، ووقع الوباء في الناس، فكثر الموتان في أهل
الفاقة والحاجة، حتى عجز عن دفنهم، وكثرت صدقات الناصر لدين الله
في هذه الأزمة على المساكين وأهل الفاقة، وعلى المتعففين عن المسئلة،
وصدقات أهل الحسبة من رجاله الموتسين فيه، فنفع الله بهم كثيراً من خلقه.
وكان حاجبه بدر بن أحمد، مدبر دولته، أفشاهم صدقة، وأعظمهم مواساة،
فنعش الله به أمة.
وعدا أمير هذه المجاعة وضيق الأحوال، السلطان عن تجريد
صايفة وإعداد جيش، لما بالناس من الجهد.
فأخذ الناصر لدين الله في شأنه
بالوثيقة، وعول على ضبط أطراف وتحصين بيضته، والإرصاد لأهل
الخلاف والخلعان خلال معاقلهم، ومجال مساربهم، إذ كانوا مع استيلاء
المجاعة عليهم، لا يفترون عن العدوان، على من مر بهم من رفاق
المسلمين، وطالبى المعيشة، وجالبى الميرة، فلم يجدوا منفذاً إلى ما طمعوا فيه
من إشاعة، ونفع الله بذلك.
وعاث الموتان في هذه الأزمة، فأودى بخلق من وجوه

أهل قرطبة وعلمايهم وخيارهم " (١) .

وما كادت تنقشع هذه الغمة حتى عاد عبد الرحمن إلى استئناف الغزو، فسير قائده أحمد بن محمد بن أبي عبدة غازياً إلى أرض النصارى.

وسوف نتتبع غزوات

عبد الرحمن لاسبانيا النصرانية مجتمعة فيما بعد.

وسير وزيره إسحق بن محمد القرشى

الى كورتى تدمير وبلنسبة، فطارد فيهما أهل الخلاف، وافتتح حصن أوريولة المنيع، قاعدة تدمير التالد من يد الثوار، ثم أخضع الثوار في مدينة الحامة.

وغزا الحاجب بدر مدينة لبلة، وكان صاحبها الثائر عثمان بن نصر ممتنعاً بها.

---

(١) السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٥ أ.

(٣٧٩/١)

فبعث إليه الحاجب يلاطفه ويبذل الأمان له ولأصحابه، ويعده بكل ما يحب، ولكن الثائر رفض كل عرض، وأصر على العصيان، فطوق بدر المدينة، وبرز له كثير من أهل الطاعة فأمنهم، وأبقاهم لديه، وجد في مهاجمة عثمان وأصحابه إلى أن اقتحم عليه المدينة يوم ٢٥ رمضان سنة ٣٠٣ هـ (فبراير ٩١٦ م) ، وقبض على عثمان وصحبه وأرسلهم في الأصفاد إلى قرطبة، وأمن أهل المدينة، ونظر في مصالحهم.

وقد نظم ابن عبد ربه في فتح مدينة لبلة وفي مديح الناصر

والحاجب بدر قصيدة يقول فيها:

خليفة الله وابن عم رسول الله والمصطفى على رسله

متتك نعمى نمت سوابغها..

.

كما استتم الهلال في كمله

وجه ربيع أتاك باكره..

.

يرفل في حليه وفي حلله

وأقبل العيد لاهياً جذلا..

.

يختال في لهوه وفي جذله

نصر من الله تضمنه ينهض في ريثه وفي عجله

يجرى بشأو الأمام منصلتا..

.

يسبق حضر الجياد في مهله

قد وقف النكث والخلاف بها..

.

وقوف صب يبكى على طله (١)

وفى هذا العام، سنة ٣٠٣ هـ، وقع حادث داخلى هام، هو جنوح

عمر بن حفصون، أكبر ثوار الأندلس إلى الصلح والطاعة، فبعث إلى

الناصر

يخطب وده، ويلتمس الصلح، مستشفعاً بما كان منه في إيواء الأمير محمد

والد عبد الرحمن وحمايته، حينما فر من أبيه الأمير عبد الله.

وقام بالوساطة

في ذلك يحيى بن إسحق طبيب عبد الرحمن، وكان صديقاً لعمر بن

حفصون، فبذل في سبيل ذلك جهده، وعاونه الحاجب بدر لدى الناصر،

فاستجاب

الناصر لعقد الصلح مع عمر، مع الحذر من غدره ومكره، واتصل يحيى فى

ذلك مع جعفر بن مقسم أسقف ببشتر، وعبد الله بن أصبغ بن نبيل، وودنا

ابن عطاف، وهم أكابر رجال ابن حفصون وخاصته، وكانوا يميلون إلى عقد

الصلح والدخول في كنف الطاعة.

وسار يحيى نفسه لمقابلة ابن حفصون، ووضع معه شروط الصلح، وعاد إلى قرطبة، وأقر الناصر تلك الشروط،

---

(١) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٦١ ب و٦٢ أ.

(٣٨٠/١)

وعقد لابن حفصون على ذلك كتابه المشهور، الذى خط في أسفله بيده الأسطر
الآتية:
" يا لله الذى لا إله إلا هو الطالب الغالب، وجميع إيمان البيعة لازمتى من العهود المشددة، والأيمان المؤكدة، والمواثيق المغلظة، لا نقضت شيئاً مما جمعه
هذا الكتاب تبديله، ولا نقصان شيىء منه، ولارضيت ذلك في سر ولا جهر، وأن كل ما فيه من الشروط والعهود والمواثيق لازمتى، والله شهيد علينا، وخططنا هذه الأحرف بيدنا، وأشهدنا الله عز وجل على أنفسنا، وكفانا بالله شهيداً، ما وفي عمر بن حفصون بما نص في هذا العهد وصحح فيه إن شاء الله، والله المستعان ".
ويقول لنا الرازى الذى يورد لنا نص هذه الوثيقة، إن الحصون التي دخلت في أمان عمر بن حفصرن بمقتضى هذا الصلح، وسميت في كتاب العهد، مائة واثنين وستين حصناً.
واغتبط عمر بن حفصون بعقد هذا العهد
مع الناصر أيما غبطة، وبذل جهده في المحافظة على شروطه وأوضاعه، وسر
الناصر من جانبه بما أبداه ابن حفصون في ذلك من دقة وإخلاص وقدم ابن حفصون بهذه المناسبة إلى الناصر هدية فخمة، فتقبلها الناصر، وحسن

موقعها لديه، وكافأ ابن حفصون عنها بأضعافها؛ وعظم سرور ابن حفصون بها، واستحكمت طاعته طول حياته.
وكان هذا من أعظم العوامل في تهدئة
اضطرام الثورة، وجنوحها إلى التبدد والانهيار (١) .
وكان حبيب بن سوادة الثائر بقرمونة قد نكث بعهده، وعاد إلى قرمونة، وأظهر الامتناع بها، فسير إليه عبد الرحمن الحاجب بدراً في حملة قوية، فحاصر
بدر قرمونة وضربها بالمجانيق بشدة، ثم دخلها عنوة، وقبض على حبيب وولده
وأرسلهما في الأصفاد إلى قرطبة (ربيع الأول ٣٠٥ هـ) (٢) .
وفى شهر ربيع الأول من العام التالى، في سنة ٣٠٦ هـ (سبتمبر ٩١٨ م) (٣)

---

(١) ابن حيان في السفر الخامس من المقتبس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٥٦ ب
و ٥٧ أوب.
(٢) الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٥٥ و ٥٦.
(٣) وفي رواية الرازى التي نقلها إلينا ابن حيان، أن وفاة ابن حفصون كانت في شهر
شعبان سنة ٣٠٥ هـ - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٦٥ أ.



وقع حادث كان له أكبر الأثر في تفكك عرى الثورة وانحلالها. ذلك هو
وفاة عمر بن حفصون زعيم الثورة الكبرى، ومثير ضرامها في غربى

الأندلس، توفى بعد مرض طويل، في الثانية والسبعين من عمره.
وكان ابن حفصون
في الواقع أخطر ثائر عرفته الأندلس منذ الفتح، وكانت ثورته تمثل أخطر
العناصر التي لا تدين بالولاء لحكومة قرطبة، وفي مقدمتها طائفة المولدين
الذين
ينتمى إليهم، وهم سلالة القوط والنصارى الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح،
وغدوا جزءاً من الأمة الأندلسية.
وكان أولئك المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم
حكومة قرطبة الإسلامية من ضروب الرعاية والتسامح، يضمرون لها
الخصومة
والكيد، وينتهزون كل فرصة للخروج عليها.
وكانوا يلقون العون دائما
من زملائهم النصارى المعاهدين رعايا الحكومة الاسلامية.
وقد رأينا كيف
دبر ابن حفصون حركته ونظم ثورته في المناطق الجنوبية الغربية، فيما بين
رندة
ومالقة، وقد كانت فضلا عن وعورتها ومناعتها الطبيعية، تضم كثرة من
المولدين والنصارى، وكان من هؤلاء معظم أنصاره وجنده.
ولم ير ابن
حفصون نفسه وهو يرجع إلى أصل نصرانى، بأساً من أن ينبذ الاسلام ويرتد
إلى النصرانية لكى يذكى حماسة أنصاره.
وهكذا كانت وفاة هذا الثائر الخطر
ضربة شديدة للثورة، وتنفست حكومة قرطبة لوفاته الصعداء، بعد أن شغلها
زهاء ثلاثين عاماً.
قال الرازى: " وكان أول قيامه بالفتنة، وصدعه عصى الجماعة، وامتناعه
بقلعة ببشتر منبر المعصية، من ثلاثين سنة، ركب فيها من العيث في

الخلق، والفساد في الأرض بغير الحق، ما لم يركبه مارق بالأندلس، منذ دانت
للمسلمين، فعد مهلكه فاتحة الإقبال، وطالعة السعد، واجتثاث الفتنة " (١) .
وقد بالغت التواريخ النصرانية في تصوير ثورة عمر بن حفصون الطويلة المدى، واعتبارها ثورة قومية تهدف إلى غاية وطنية سامية، وهى تحرير وطنه
- إسبانيا - من نير المتغلبين عليه، وأنه كان في مناوأته لحكومة قرطبة الإسلامية
يجيش بهذه النزعة، ويهدف إلى هذه الغاية.
وعمل النقد الحديث على إبراز
هذه الصورة، وعلى اعتبار ابن حفصون بطلاً قومياً، جديرً بالتقدير والاحترام.

---

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ٦٥ ب.

*(٣٨٢/١)*

وهذا ما نقرأه في تعليقات بعض أكابر النقدة المحدثين أمثال دوزى وسيمونيت، وذلك بالرغم من كونهم لم ينسوا أن يذكروا في نفس الوقت أن ابن حفصون قد
نشأ سفاحاً وقاطعاً للطرق، لا تحدوه أية نزعة وطنية أو غاية مثلى. بيد أن
سيمونيت، وهو مؤرخ النصارى المستعربين، يحاول أن يبرر حسن تقديره وتصويره لحركة ابن حفصون، بأن قيامه اتخذ فيما بعد " شكلا أكثر نبلا، وتحوله
من زعيم عصابة إلى زعيم حزب وأمة " (١) .
ويصفه دوزى بأنه " البطل الإسباني

الذى لبث أكثر من ثلاثين عاماً يتحدى المتغلبين على وطنه، والذى استطاع مراراً
أن يجعل الأمويين يرتجفون فوق عرشهم " وأنه " كان بطلا خارقاً لم تنجب إسبانيا
مثله منذ أيام الرومان " (٢) .
أما نحن فنرى في مثل هذه الآراء مبالغة وإغراقاً، وأنها ليست إلا ثمرة نزعة
من التعصب الدينى والجنسى، الذى يطبع النقد الغربى، فى كثير من
المواطن، وأن ابن حفصون بالرغم من صلابته وقوة عزمه، وبراعة
خططه، لم يكن سوى قاطع طريق، وثائر من طراز قوى عنيف.
أجل إن
ابن حفصون، كان يدعو منذ اشتد ساعده، إلى ما يسميه قضية الاستقلال
والحرية، وتحرير مواطنيه من نير المسلمين، بيد أنه لم يكن في هذا الزعم سوى مخادع
سياسى، يسعى إلى كسب الصحب والأنصار لتقوية مركزه، ودعم سلطانه،
ولم يكن يصدر في مغامراته وحروبه أو في أعماله خلال ثورته الطويلة، عن أية
نزعة نبيلة، أو تصرف تطبعه الشهامة، والعزة القومية، بل كانت أعماله
وتصرفاته كلها، بغى صراح، وإجرام في إجرام،، وامتهان لكل المبادئ
الأخلاقية، وكل مقتضيات الشرف والمروءة والشهامة.
ومن كان هذا شأنه، فإنه من التعسف أن تُسبغ عليه صفات البطولة، وثوب
التحرير والوطنية.
وترك ابن حفصون أربعة بنين، هم سليمان وعبد الرحمن وجعفر وحفص،
وإبنة هى "أرخنتا"، وكان له ولد آخر هو أيوب اتهمه أبوه عندما اعتل ذات
مرة، بمحاولة الفتك به وقتله (٣) .
فقام سليمان في أبَده، وقام جعفر مكان أبيه
في ببشتر بعهد منه، وكان أبوه قد قلده عهده في حياته، وأخذ له البيعة فى

(١) راجع: J.

Simonet: Histoira de los Mozarabes de Espana (Madrid

١٨٩٧) p.

٥١٦

(٢) Dozy: Histoire ; V.

II.

p.

١٠٦

(٣) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٢؛ ونقط العروس لابن حزم ص ٧٩.

(٣٨٣/١)

أواخر أيامه، فأظهر جعفر يوم موت أبيه لجميع نصارى ببشتر أنه يعتقد دينهم، ويدين بالنصرانية معهم، وزعم أن أباه كان يعتقد ذلك ولا يظهره، وجمع

إلى نفسه ثقاته منهم، مع القسيسين والرهبان دون سائر الناس، فتولوا تجهيز والده معه، ودفنه على سنة النصارى، بعد أن أمر بسد باب القصبة، وحجاب باقى الناس من نصارى وغيرهم، ولاطف جعفر إخوته، ووعدهم بالجميل حتى سلموا له، قال الرازى: " وكان جعفر في ذاته متهوراً سخيفاً، جباناً ضعيف السيما، ذميماً، جسوراً حقوداً، منافساً لمن يعمل عنده، كنوداً لمن استرسل إليه، موالفاً للسفال، مستصحباً للأرذال، لم تسم همته إلى مروءة، ولا انطوت نيته على جميل، ولا عرف قدر ما مهده له والده مع السلطان من فراش الصلح، وبسط من ظلال الأمن، بالتسجيل له على أعماله، وإمضاء ذلك بعده لعقبه، بل غمط النعمة عليه، ورفض الساعين فيه لأبيه، وعقد شهادات جماعة من

السفلة والطغام، على ابن مقسم الأسقف وابن نبيل وابن عطاف حاجبيه، فإنهم سعوا في الغدر بوالده عند السلطان، وأرادوا إراحة سلطانه عن ولده بعده " (١) .

بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى سير عبد الرحمن قواته إلى أبدة فاقتحمتها وأسر سليمان، وأخذ إلى قرطبة حيث عفا عنه عبد الرحمن وضمه إلى جيشه، وكذا استسلم عبد الرحمن بن حفصون، وكان ممتنعاً بحصن طُرُّش، وكان

أخوه جعفر صاحب ببشتر، قد ضايقه، وحاول أن ينتزع منه طرش، فالتجأ عندئذ إلى الأمير، وأذعن للطاعة، على أن يسلم حصنه ويمنح الأمان لنفسه وأهله، فأجابه الأمير إلى ما طلب، وتسلم منه الحصن، واستقدمه إلى قرطبة وأجرى

عليه الصلات، وكان أديباً شاعراً.

واستبد جعفر بحكم ببشتر وما حولها، وآثر

عبد الرحمن أن يهادنه مدى حين، وأن يقره على أعماله.

وفى سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م)

قتل جعفر في ببشتر ضحية مؤامرة قيل إنها من تدبير أخيه سليمان، وقيل من جهة

أخرى إنه رأى أن يعود إلى الإسلام اكتساباً لمودة السكان والجند المسلمين، فاغتاله

نفو من جنده النصارى (٢) .

فقام أخوه سليمان مكانه في ببشتر، وأقره عبد الرحمن

---

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٦٥ ب.

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٩، وراجع: Dozy: Hist.

،

.Vol

.II

.p

١٠٨

(٣٨٤/١)

على ولايته، ولكنه نكث عهد الطاعة، فسار عبد الرحمن لقتاله وحاصره مدى حين، وكان أصحاب سليمان بحصن طُرُّش، قد نبذوا الطاعة مثله، فسار عبد الرحمن إلى

طرش، ونازلهم، ثم ترك قوة استمرت في حصارهم، حتى أذعنوا إلى الطاعة، وسلموا الحصن بالأمان، وأمر عبد الرحمن بتخريبه وتسويته بالأرض.

ثم سار

عبد الرحمن لحصار سليمان مرة أخرى في سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، وخرب سائر

المناطق التي يسيطر عليها الثائر، وأخضع معظم حصونها، واعتصم سليمان بجبل

بُبَشتر، فنازله عبد الرحمن، واشتد في محاصرته، حتى ضاق الثائر وصحبه بالحصار ذرعاً، وخرج عليه معظم أنصاره، ونكل بالكثير منهم.

ونازل

عبد الرحمن بالأخص حصن الشط، وكان من أمنع الحصون الثائرة، حتى تغلب

ْعليه وعلى ما حوله من الحصون.

وأخيراً عرض عليه سليمان أن يعود إلى الطاعة، وأن يسلم بعض حصونه، فاستجاب عبد الرحمن إلى رغبته، وتسلم حصن الشط، وحصن منت ميور وغيرهما من الحصون كفالة بحسن الطاعة، وانصرف عائداً

إلى قرطبة، وهو يتحين الفرصة الملائمة للقضاء على الثائر بصورة نهائية.
وفى سنة ٣١٣ هـ، صُلب على الرصيف بباب قرطبة، رجل من أصحاب ابن حفصون هو الرامى النصرانى المعروف بأبى نصر، وكان من أحذق الرماة

في عصره، وطار صيته أيام عمر بالحذق في الرماية وإصابة الأغراض البعيدة، قلما تخطئ رميته، وقد أودى بحياة كثير من المسلمين من الجند وغيرهم، وساد الذعر منه، وانتهى الأمر بأسره، وإحضاره إلى الحضرة، فجيء به

إلى باب السُّدَّة وأمر عبد الرحمن بصلبه وشكه بالسهام، فرفع فوق جذع فى مشهد حافل من الناس، وتعاورته الرماة بالسهام حتى مزق بدنه، وترك داميا فوق جذعه، ثم أخذت جثته بعد أيام وأحرقت (١) .
وفى أواخر سنة ٣١٤ هـ، سير عبد الرحمن وزيره عبد الحميد بن بسيل إلى ببشتر، وخرج سليمان في قواته إلى لقائه فهزم وقتل، واحتز رأسه وقطعت أشلاؤه، وأرسلت إلى قرطبة فرفعت على باب السدة (يونيه سنة ٩٢٧ م) .
وقام أخوه حفص مكانه في ببشتر، واستمر على المقاومة حيناً.
وفى ربيع

الأول سنة ٣١٥ هـ، سار عبد الرحمن بنفسه إلى ببشتر ومعه ولى عهده الحكم،

---

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية، لوحة ٨٤ ب.



وكان يومئذ صبياً في الثانية عشرة من عمره، ونزل على مدينة ببشتر ذاتها، وبها حفص، وشدد عليها الحصار، وابتنى إزاءها حصناً للتضييق عليها، وفرق قواته لمنازلة بقية الحصون الثائرة، ثم ترك قوة لمتابعة الحصار.

واستمر
الحصار بضعة أشهر، حتى اضطر حفص أن يذعن أخيراً إلى التسليم، فسلم المدينة بالأمان إلى القائد سعيد بن المنذر، وذلك في أواخر شهر ذى القعدة سنة ٣١٥ هـ (يناير سنة ٩٢٨ م) وأخذ حفص بن عمر وأهله وأصحابه، أسرى إلى قرطبة، فعفا عبد الرحمن عنهم، وأحسن مثواهم، وضم حفصاً إلى جيشه.
وفى العام التالى سنة ٣١٦ هـ، سار عبد الرحمن إلى ببشتر لتنظيم شئونها، فخرج من قرطبة في منتصف شهر المحرم منها (مارس سنة ٩٢٨ م) ورافقه ولده الحكم، ووزيره أحمد بن محمد بن حُدير، واستخلف على المدينة أحمد ابن عيسى بن أبي عبدة.
وقصد إلى ببشتر بطريق أشونة، فوصلها في العشرين
من المحرم، ودخلها وجال في أرجائها، وألفاها منقطعة النظير من حيث الحصانة والمنعة.
فعين لها والياً من قبله، وعمد إلى تطهيرها من آثار ابن حفصون، فصلى في مسجدها الجامع، وأمر أن تقام به الصلاة.
وكان ابن حفصون فى
أواخر أيامه، قد أثار حول موقفه من تذبذبه حول إظهار الإسلام، وجنوحه إلى النصرانية، ريباً حول حقيقة الدين الذى كان يعتنقه.
فأمر الناصر بنبش
قبره، وإخراج جثته وفحصها.
فتبين من هيئتها، وكونه ملقى على الظهر، مشبوك الذراعين على الصدر، ومستقبلا المشرق، أنه دفن على دين النصرانية، وعاين ذلك الناس من العسكر وغيرهم، وشهد بذلك الفقهاء المرافقون، واتفق الجميع على أنه هلك على دين النصرانية.
فأمر عبد الرحمن بحمل الجثة، إلى قرطبة، حيث علقت في أعلى الجذوع على باب السَّدة يكتنفها أشلاء

ولديه المصلوبين قبله، وهما حكم وسليمان.
واستمرت أشلاؤهم معلقة على جذوعها
عبرة للناظرين حتى سنة ٣٣١ هـ، حيث حملها مد النهر الطامى في تلك السنة
ولأحمد بن محمد الرازى في صلب أوصال ابن حفصون قصيدة يقول فيها:
تبدى لمرأى العين مجسماً..

.

وقام من الأجداث خلقاً متمماً
فما كان إلا مثل من نام نومة..

.

فأنبه عنها حين أغفى وهوّما

(٣٨٦/١)

ثوى في الثرى حتى إذا صار رمة..

.

أعيد إليه جسمه فتلأما
رقى فوق جذع بالهواء معلق..

.

يحاول منه بالنجوم تحوُّما
تبارك من أبداه للخلق سامغاً..

.

وبوّأ منه النفس قعر جهنما (١)
وأمر عبد الرحمن، فعمرت سائر مساجد ببشتر المهجورة، وهدمت سائر الكنائس والأديار، التي ابتناها الثائر في تلك المنطقة، واستولى عبد الرحمن على سائر معاقلها وحصونها، وطهرها من آثار الثورة الأخيرة (٢) .
ثم أمر

بعد ذلك بالقبض على " أرخنتا " ابنة عمر بن حفصون وإعدامها، لارتدادها عن الإسلام، وتمسكها باعتناق النصرانية، فأعدمت في سنة ٩٣١ م، أو فى سنة ٩٣٧ وفقاً لرواية أخرى، ونظمتها الروايات والأساطير النصرانية في سلك
القديسين والشهداء (٣) .
هذا، وقد أصدر الناصر عقب فتح ببشتر واستئمان حفص، كتاباً طويلا ينوه فيه بهدى الإسلام وفضله، وما خصه الله به من خلافته وأمانة عباده، ويشير إلى خروج المارقين، وميل نفوسهم المريضة إلى الشرك، وكيف أنه أصدر
أمانة لأهل ببشتر، ثم يقول في خطابه ما يأتى:
" وعهدنا إلى الوزير أحمد بن محمد حدير، بالتقدم إليهم لحضور خروجهم، ومباشرة نزولهم، وإكمال الأمان لهم، وقبض الأيدى عنهم، فنهض إلى ذلك وقصد له، فلما صار بمدينة طلجير، المبتناة على مدينة ببشتر، هبت بالطاغين عنها، فتساربوا خارجين، وتهافتوا ذاهبين، وتعرفوا الذى سبا إلى جوانب شتى، فقصد كل واحد إلى منزعه، وأم مكان طماعيته، ولحق بمداين الطاعة، فصاروا في غمار الرعية، وتمكث خلفهم عميدهم حفص بن عمر طاير الفواد،

---

(١) ابن حيان – السفر الخامس – لوحة ٨٩ أوب و ٩١ أ.
هذا ولم نجد ذكراً لحكم
من أبناء عمر بن حفصون إلا في هذه المناسبة، وفي رواية ابن حيان، وفي الأوراق المخطوطة
(ص ٧٧) .
(٢) تراجع تفاصيل المعارك الأخيرة بين عبد الرحمن وأبناء ابن حفصون، وخاتمة هذه
المعارك في الأوراق المخطوطة الخاصة بعصر الناصر ص ٦٢ و٦٥ و٦٩

و٧٣ و٧٤ و٧٥ و٧٦

و٧٧ و٧٨,

وكذلك في البيان المغرب ج ٢ ص ١٩١ و١٩٣ و١٩٤ و٢٠٤ و٢٠٨

و٢٠٩.

وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥.

(٣) Dozy: Hist.

، Vol.

II.

p.

١٠٩ وR.

M.

Pidal: Origines del Espanol،

p.

٤٢٠

(٣٨٧/١)

خافق القلب، لم تطب نفسه على الخروج خواراً، ولا سكن منه الأمان نفاراً، يخشى كل يد أن تضبط عليه، وكل شجرة أن تتعلق به، قد خامره من الرعب ما كاد أن يربى على العطب، فطمأن الوزير أحمد محمد بن حدير من جزعه، وسكن من جأشه، ووفاه من آمالنا المبسوطة ليناً وثق به واطمأن إليه، فخرج

آخر الخارجين، ولحق بالآمنين، فأصبحت مدينته بقعة الضلالة، ومنبر الخلاف، ومعدن الغواية، بما أحاط بها من أسوارها وأبنيتها وقصابها، وبداخلها من جناتها ومصانعها، مغوية من قطينها، خاوية على عروشها، كأن لم

يغن بها ساكن، ولا استوطنها قافل ".

ثم يقول إنه أمر بعد ذلك بتخريب ببشتر، وحط أسوارها، وإنزال جدرانها، وهدم كل قايم فيها من قصرها ودورها ومخازنها، وإعادتها جبلا أجرد، على ما كانت عليه لأول خلقها.

" ثم استقدمنا حفصاً اللائذ بالتوبة

إلى ما تفضلنا عليه من التأمين والتمكين، وعدنا عليه من العفو والتطمين، وأخذنا فيه بالفضل المبين، الذى جعلنا الله أهله، وغلب على مذهبنا إيثاره، وجمعنا له من ذلك ما اغتبط به، وسكن إليه، وقرر نفسه عليه، فاعلم ذلك، وقف عليه، واستشعر حمد الله، ومر بقراءة كتابنا هذا إليك على المسلمين قبلك في جامع موضعك، ليحمدوا الله عز وجهه، على عظيم ما اصطنعه إليهم، ووهبه لهم، وليحدثوا من شكره تعالى على ما درأ عنهم، والتقرب بنوافل الحمد إليه، ما يستدام له رضاه عز وجهه، ويستجلب به المزيد من نعمه، إن شاء الله وهو المستعان، وكتب يوم الخميس لخمس من ذى الحجة سنة خمس عشرة وثلث ماية ".

ويقول لنا الرازى، إن الناصر لما خرج إلى ببشتر، وأمر بهدمها، أمر بالإبقاء على القصور والقصاب، التي أبقاها لعماله وحشمه الذين ندبهم للقيام بها، فدكت أسوارها، وحطت أعلامها، وأنه أى الناصر أصدر كتاباً بحوادث ببشتر، والأمر بهدمها، وهدم مسجدها الذى أقامه ابن حفصون، لأنه كان ستاراً لفسقه المسلمين، والأمر بإحراق منبره " الذى دعى فيه للخنزير الضال، ومن خلفه من نسله الخبيث، وأعلن فيه بدعوة الشيعة " (١) .

---

(١) ابن حيان في المقتبس – السفر الخامس – مخطوط الخزانة الملكية لوحات ٩٤
٩٥ و ٩٦.

ولم يغفل عبد الرحمن في الوقت الذى كانت فيه ثورة ابن حفصون وأبنائه في جنوب الأندلس، تشغل معظم عنايته، عن مطاردة الثورة في الأنحاء الأخرى.

وكانت طليطلة من أمنع معاقل الثورة، فسير عبد الرحمن جنده لحصارها، وفيها

لُبّ بن الطربيشة وهو من زعماء المولدين، واستمر الحصار زهاء عامين حتى

نضبت موارد المدينة، وخبت عزائم أهلها واضطرت في النهاية إلى التسليم والإذعان.

وسار لبّ مع الأمير بقواته إلى الغزو في أرض النصارى (سنة ٣٠٨ هـ) . وكانت

بطليوس وأحوازها منذ أكثر من أربعين عاماً، معقلا من معاقل ثورة المولدين. وكان بنو مروان الجليقى ما يزالون يسيطرون على تلك المنطقة، وكانوا من أخطر

الخوارج وأشدهم مراساً، يمالئون الأمراء النصارى ويحالفونهم على حكومة قرطبة.

ففى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، هلك عبد الله بن محمد بن مروان الجليقى صاحب

بطليوس قتيلا بيد بعض المخالفين من أصحابه، فقام مكانه ولده عبد الرحمن، واستبد بمدينة بطليوس وما حولها، واستمر بضعة أعوام على خروجه وتحديه

لحكومة قرطبة.

وفى ربيع الأول سنة ٣١٧ هـ (إبريل ٩٢٩ م) خرج الناصر من قرطبة متجهاً نحو الغرب، ومعه ولداه الحكم والمنذر وعدة من الوزارء، واستخلف على القصر ولده عبد العزيز.

وبعث الناصر ينذر المتخلفين عن الطاعة، بوجوب

الدخول في طاعته، والتخلى عن العصيان، وفي مقدمتهم.
صاحب بطليوس
عبد الرحمن بن عبد الله الجليقى.
ووصل الناصر بجيشه إلى بطليوس في أواخر
ربيع الآخر من هذه السنة وحاصر بطليوس، وقاتل المتصدين للمقاومة حتى
هزموا واقتحم أرباضهم، وأحرقت ديارهم، فامتنعوا داخل المدينة، فعهد
الناصر بقتالهم إلى القائد أحمد بن إسحق القرشى في قوة كثيفة، فشدد في
حصار
المدينة، واقتحم ما حولها من الحصون، ثم ضربها بالمجانيق بشدة، وقطع
عنها
كل مورد، واشتد بأهلها الضيق، واضطر الجليقى إلى الإذعان وطلب الأمان،
فأجابه الناصر إليه، وأسكنه هو وأهله وأكابر رجاله بحضرة قرطبة، وعين
لبطليوس والياً جديداً هو عثمان بن عبد الله، وكان خضوع بطليوس في سنة
٣١٨ هـ (٩٣٠ م).
ولما غادر الناصر بطليوس سار إلى مدينة باجة، أقصى قواعد الغرب،

(٣٨٩/١)

وفيها الثائر عبد الرحمن بن سعيد بن مالك، فنزل عليها، وأنذر صاحبها
بالدخول
في الطاعة، فلم يقبل النصح، فطوقها وحاصرها بشدة، حتى أجهد أهلها
الجوع والعطش، وتساقطوا من الإعياء، وعندئذ اضطر صاحبها إلى
الإذعان، فمنحهم عبد الرحمن الأمان، وأمن صاحبها وآله، وخرجوا إليه
تائبين مستسلمين، فبعثهم إلى قرطبة.
وكان افتتاح باجة في منتصف جمادى الآخر سنة ٣١٧ هـ.
ونظر الناصر في مصالح المدينة، ثم عين لها والياً من قبله، هو عبد الله بن
عمرو

ابن مسلمة، وزوده بحامية كافية.
وتحول عبد الرحمن بعد ذلك إلى مدينة أكشونبه على مقربة من ساحل المحيط
الجنوبى، وبها الثائر خلف بن بكر، فبادر إلى الطاعة معتذراً، وأقره الناصر على ولايته، على أن يلتزم بأداء الجباية وبحسن السيرة.
وقضى الناصر في هذه الغزوة زهاء ثلاثة أشهر، طهر خلالها أنحاء ولاية الغرب من آثار الخروج والثورة، ثم قفل إلى قرطبة فوصل إلى القصر فى منتصف رجب (١) .
وكان الناصر قد سار بنفسه إلى تدمير وبلنسية، وذلك فى
سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) أثناء مسيره إلى غزوة بنبلونة الكبرى، حسبما نفصل بعد.
فطارد الخوارج والعصاة في شرقى الأندلس، واستولى على معاقلهم ومزق شملهم.
وفى سنة ٣١٤ هـ (٩٢٦ م) سير الناصر وزيره القائد عبد الحميد
ابن بسيل إلى الثغر الأعلى لمقاتلة بني ذى النون، وكانوا قد عادوا إلى الخلاف
والعصيان، وأكثروا من الفساد والعدوان على من جاورهم من المسلمين وأهل الذمة، فقصد إلى معقلهم شنت بَرِيَّة واقتحمها، وقتل كبيرهم محمد بن محمد ابن ذى النون، وعدة أخر من رجالهم، وافتتح مدينة سُرية من مدنهم، وولى عليها عاملا للسلطان.
وخضعت شنت برية وما والاها للطاعة، ودرت جبايتها
من ذلك الحين (٢) .
وفى سنة ٣١٧ هـ، افتتحت مدينة شاطبة، واستنزل
عنها صاحبها عامر بن أبي جوشن الثائر بها، بعد أن ترددت الحملات عليه، مدى خمسة أعوام، وكان خضوعه على يد صاحب الشرطة العليا درِّى بن

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحات ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٩، والأوراق

المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٨١.

(٢) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ٨٥ أ.

*(٣٩٠/١)*

عبد الرحمن، واشترط عامر عند استسلامه أن يمنح الإقامة مدة في حصن " شنت مريّة " من حصونه، حتى ينظم شئونه ويسير في أهله إلى قرطبة، فأجيب إلى طلبه (١) .

وهكذا أخمدت الثورة في سائر النواحى، بعد أن لبثت

زهاء نصف قرن تستنفد قوى الأندلس ومواردها، وتفت في عضدها، وتقعدها عن الكفاح ضد عدوها الحقيقى المتربص بها، ونعنى اسبانيا النصرانية.

- ٢ -

كانت إسبانيا النصرانية في خلال تلك الفترة التي اضطرمت فيها الأندلس بالفتن، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة في النواحى، تسير قدماً في سبيل القوة

والتوطد، وتعمل جاهدة لانتهاز كل فرصة للكيد للأندلس، وممالأة ثوارها والعيث في أراضيها.

وكانت تنقسم عندئذ إلى إمارتين أو مملكتين متحالفتين، هما مملكة ليون (أو مملكة جليقية) ، ومملكة نافار (نبره أو بلاد البشكنس) .

وكانت ليون وهى الواقعة في الشمال الغربى بين المحيط ونهر دويرة، أكبر المملكتين وأوفرهما قوة ومنعة، وكانت بذلك تتولى قيادة إسبانيا النصرانية، فى ميدان الكفاح الخالد بينها وبين إسبانيا المسلمة.

وكانت قواعد الأندلس الشمالية

التي تتاخم مملكة ليون، مثل أسترقة وسمورة وشلمنقة وشقوبية وميراندة، قد

خلت منذ أواخر القرن الثامن من معظم سكانها المسلمين، واستوحش العرب والبربر، لقلتهم في تلك الأنحاء، وكثر اعتداء النصارى عليهم، وتوالى القحط في تلك الربوع، فهاجروا إلى الجنوب، وجاء ملك ليون ألفونسو الثالث (أواخر القرن التاسع) ، فعاث في تلك المنطقة، وفتك بمن فيها من المسلمين، ثم ارتد إلى جباله.

ولبثت هذه المنطقة قفراً خالية تقريباً، يتبادلها المسلمون والنصارى

من وقت إلى آخر، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فلم تستطع رد الاعتداء، وانتهز ألفونسو الثالث تلك الفرصة، فدفع حدود مملكته جنوباً حتى نهر دويرة.

واختط هنالك عدة قلاع منيعة، كان يتخذها النصارى قواعد للإغارة على الحدود الإسلامية، واجتياح المسلمين العزل بالنار والسيف، وقتل النساء والأطفال

والشيوخ، ونهب الأموال والمتاع.

وجرى ولده غرسية على هذه السياسة الدموية

الغاشمة.

وكانت إسبانيا النصرانية تنظر من خلال هضابها القفرة، ومواردها

---

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ١٠١ ب.

(٣٩١/١)

الضئيلة، وفقرها المدقع، إلى وديان الأندلس النضرة، وإلى نعمائها الوافرة، وحضارتها الزاهرة، بعين المقت والحسد، وتعمل جاهدة لبث الدمار والويل إلى هاتيك الربوع السعيدة.

وكان على حكومة قرطبة أن تعمل على حماية الأندلس

وحماية تراثها وحضارتها، من هذا العدوان الخرب الذى أخذ يشتد يوماً عن يوم.

وكان عبد الرحمن حينما ولى الملك، يؤثر الإغضاء حيناً عن محاربة
النصارى، لكى يكرس جهوده وقواه لقمع الثورة، وتطهير الأندلس من عناصر
الفتنة، ولكن النصارى رأوا بالعكس أن يعملوا على انتهاز الفرصة، وإذكاء نار
الفتنة
والفوضى في الأندلس.
فما كاد عبد الرحمن يلى الملك، حتى بادر أردونيو الثاني
(أرذون) ملك ليون بالإغارة على الأراضي الإسلامية، واتجه أولا نحو منطقة
الغرب لنأيها وضعف وسائل الدفاع عنها، وقصد إلى مدينة يابُرة، الواقعة
غربى بطليوس.
ويقول لنا الرازى إن أردونيو نزل على يابررة في يوم ١٣ من
المحرم سنة ٣٠١ هـ (أغسطس ٩١٣ م) وأنه كان في جيش يقدر بثلاثين ألفاً
من الخيل والرجل والرماة، وكان على يابرة يومئذ عاملها مروان بن عبد
الملك، فبذل جهده لمدافعة الغزاة؛ وطوق أردونيو المدينة من سائر نواحيها،
وهاجمتها
قواته من كل صوب، ودافع المسلمون عن مدينتهم من فوق الأسوار، حتى
أرغموا بفعل السهام على النزول عنها وتسلق النصارى الأسوار، ودخلوا
المدينة، واضطرمت بينهم وبين المسلمين داخلها معارك شديدة، وفنى
المسلمون شيئاً
فشيئاً حتى قتلوا جميعاً، ولم تنج منهم سوى شرذمة قليلة، فرت تحت جنح
الظلام إلى مدينة باجة.
وسبى النصارى سائر النساء والذرية، وقتل مروان بن
عبد الملك عامل المدينة مدافعاً عنها، وبلغ السبى أكثر من أربعة آلاف من
النساء والولدان.
وترك أردونيو المدينة خراباً يباباً، وعاد في قواته إلى جليقية.
وبث هذا الحادث الروع والفزع في سائر قواعد الغرب، فأخذ أهلها فى
إصلاح أسوارهم، وقام أهل بطليوس بالأخص في ذلك بمجهود ضخم،

ودعموا أسوارهم، وزادوا في عرضها وارتفاعها، بقيادة عاملهم عبد الله بن محمد الجليقى (١) .

وفى سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) ، سار أردونيو في قواته مرة أخرى إلى منطقة الغرب، في جيش تقدره الرواية الإسلامية بستين ألفاً،

---

(١) ابن حيان عن الرازى - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٥١ أوب.

(٣٩٢/١)

فعبر نهر التاجُه، واشترك في إرشاده إثنان من الأدلاء المسلمين، من بربر مصمودة من البرانس، ولكنهما كانا يضمران عكس ما طلب إليهما، واتجه أردونيو جنوباً صوب حصن مدلين، وقاده الدليلان المسلمان من طريق صعبة

وعرة، فلم يخرج منها إلا وقد نهك جيشه، فأمر بالدليلين وأعدما، وسار حتى وصل إلى الحصن، فاستولى عليه دون مقاومة وأصاب فيه بعض الغنائم، ثم سار إلى قلعة الحنش (ألانية) ، الواقعة جنوبى ماردة، وكان يسكنها يومئذ

برانس كتامة، وكانوا في عدد وافر وعلى أتم استعداد للمقاومة، وكان المقدم عليهم يسمى بابن راشد، فهاجم النصارى الحصن، ودافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع، ولكنهم هزموا في النهاية وقتل معظمهم، وقتل ابن راشد فيمن قتل، ودخل النصارى الحصن فقتلوا كل من وجدوه، وسبوا النساء والذرية، وهدموا الحصن.

ثم سار أردونيو في اليوم التالى إلى ماردة، ولكنه وقف أمامها ذاهلا من حصانتها، واعتزم الكف عن قتالها، وبعث

إليه قائد المدينة محمد بن تاجيت رسولا يستلطفه، وأهدوا إليه فرساً رائعاً من عتاق الخيل بسرجه وعدته، فقبله وأعجب به، وتركهم ورحل عنهم.

ولكنه عاث حين قفوله في تلك المنطقة، وقتل وسبى كثيراً من سكانها،
واستولى على بعض قلاعها، ثم قصد إلى مدينة بطليوس، فارتاع أهلها
واسترضوه بالمال والحلى، وعبر النصارى نهر دويرة قافلين إلى ديارهم مثقلين
بالغنائم والسبى دون أن يعترض سبيلهم معترض (١) .
وبقيت يابرة خراباً نحو عام، حتى بعث عبد الله بن محمد الجليقى، صاحب
بطليوس حليفه مسعود بن سعدون المعروف بالسرنباقى، ومن معه من قومه
الشاردين عن الجماعة إلى مدينة يابرة، فنزلها مسعود بأهله وولده وصحبه
ومن
معهم، وكان منهم كثير ممن لجأ من قبل من أهل يابرة إلى باجة وأكشونبه؛
وابتنى لهم الجليقى أسوار المدينة، وأمدهم بالأطعمة والدواب والكسى، وعلى
أثر
ذلك قصد الناس إلى يابرة فاستوطنوها، وعمرت بسكانها مرة أخرى (٢) .

---

(١) ابن حيان في السفر الخامس من المقتبس - مخطوط الخزانة الملكية،
لوحة ٦٠ أوب
وابن خلدون ج ٤ ص ١٤١.
(٢) المقتبس - السفر الخامس، لوحة ٥٣ و ٥٤.

*(٣٩٣/١)*

وكانت هذه المنطقة التي غزاها النصارى وهى منطقة ماردة، من المناطق
الثائرة.
ولكن عبد الرحمن كان أبعد نظراً من أن يغضى عن عدوان يقع في صميم
الأراضي الإسلامية.
هذا إلى أنه رأى أن يأسر قلوب الثوار، بإنجادهم والانتقام
لهم، وأن يرد عدوان النصارى بمثله.
ففى فاتحة سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) سير

عبد الرحمن وزيره وقائده أحمد بن محمد بن أبي عبدة في جيش قوى، غازياً
إلى
أراضي مملكة ليون، فالتقى بالنصارى وهزمهم في عدة وقائع محلية، وعاث
في أراضيهم وسبى وغنم غنائم كثيرة (١) .
وفى العام التالى أراد أردونيو الثاني
الانتقام لهزائمه، فعاث في منطقة طلبيرة (٢) ، وأحرق مدنها وانتسف
ضياعها، فضج المسلمون لهذا البلاء، وتضرعوا إلى مليكهم أن ينقذهم من
هذا العدوان
الصارخ.
فسير عبد الرحمن قائده أحمد بن أبي عبدة ثانية إلى أرض النصارى في
جيش
ضخم من المدونين، والمتطوعة، وانضم إليه حين دخوله إلى الثغر (الحدود)
خلق كثير، واخترق المسلمون أراضي قشتالة، وزحفوا إلى قلعة شنت إشتيبن
الواقعة على نهر التاجُه، وكانت تسمى أيضاً قلعة قاشترو مورش (٣) ، وهى
من أمنع قلاع النصارى على الحدود، وضربوا حولها الحصار الصارم، ثم
نازلوها بشدة، وكادت تسقط في أيديهم، لولا أن هرع إلى إنجادها أردونيو
في جموع ضخمة من النصارى، وكان الجيش الإسلامى بالرغم من تفوقه فى
الكثرة مختل النظام، مفكك العرى، يتألف سواده من البربر والمرتزقة الذين
لا يعتمد على ولائهم وشجاعتهم، وكانوا يحرصون على غنائمهم أكثر من
حرصهم على مقاتلة العدو، فلما انقض أردونيو بقواته على المسلمين، تسللت
منهم وحدات كثيرة، وارتدت أمام المهاجمين، ودب الهرج إلى صفوف
المسلمين.
ولكن قائدهم الشجاع أحمد بن أبي عبدة فضل الموت على الارتداد، فصمد
في مكانه في نفر من أشجع ضباطه وجنده، فقتلوا جميعاً، وهلك معهم
عدة من أكابر الفقهاء والمجاهدين.
وكانت هزيمة مروعة.

وكان ذلك فى

لرابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٠٥ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩١٧ م) .

وتقول

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٦.

(٢) وهى بالإسبانية Talavera، وهى تقع على نهر التاجه غربى طليطلة.

(٣) San Esteban أو Castro Moros

*(٣٩٤/١)*

الرواية الإسلامية إن فلول الجيش الإسلامى، استطاعت أن ترتد بعتادها ومتاعها سالمة إلى الأراضي الإسلامية (١) .

ولكن الرواية الإسبانية تقول بالعكس

إن هزيمة المسلمين كانت ساحقة، وبلغ من روعتها أن غصت سائر التلال والسهول والغابات الممتدة جنوباً من دويرة إلى أنتيسة (٢) ، بقتلاهم وأشلائهم (٣) .

وكان لذلك الخطب وقع عميق في بلاط قرطبة.

وكان عبد الرحمن يعتزم المبادرة

إلى غزو ليون بنفسه، لولا أن شغلته عندئذ حوادث إفريقية، على أنه اضطر غير بعيد أن ينهض لرد اعتداء النصارى.

ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر حتى عاد

أردونيو الثاني وحليفه سانشو (شانْجُه) ملك نافار، إلى غزو الأراضي الإسلامية

في منطقة الثغر الأعلى، وذلك في ربيع سنة ٩١٨ م.

وكانت موقعة شنت إشتيين

قد ضاعفت من جرأة النصارى واستهتارهم، فعاثوا في أحواز ناجرة وتطيلة.

واستولى سانشو على بلدة بلتيرة (٤) وأحرق مسجدها الجامع ونكل بأهلها.

يقول ابن حيان: " وانقلب الكفرة لعنهم الله إلى بلادهم أعزة، فكان هذا مما أحفظ الناصر لدين الله وحرّكه لمجاهدة أعداء الله، ورغبه في الانتقام منهم بمن الله تعالى " (٥) .

وكان عبد الرحمن في الواقع يتوق إلى الانتقام لهزيمته

الفادحة في شنت اشتيبن ومقتل قائده الشهم، ولم ينس أن أردونيو سمر رأسه في جدران شنت إشتيبن، فحشد جيشاً ضخماً لمقاتلة النصارى بإمرة حاجبه بدر بن أحمد، وبعث الأوامر والكتب إلى أهل الثغور بالنهوض لتأييده، ومعاونته على معاقبة النصارى ورد عدوانهم والإيقاع بهم.

وخرج بدر فى

جيشه الضخم من قرطبة في المحرم سنة ٣٠٦ هـ (أوائل يوليه سنة ٩١٨ م) ، وهرع إليه أهل الثغور (الأطراف) من كل ناحية، ظمئين إلى الجهاد والانتقام.

وكذلك احتشد النصارى من سائر الأنحاء لرد الغزاة.

ونفذ المسلمون كالسيل

---

(١) هذا قول ابن حيان في السفر الخامس من المقتبس - مخطوط الخزانة الملكية، لوحة ٦٤ أ، وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٨.

(٢) هى بالإسبانية Atienza

(٣) Dozy: Hist , Vol.

II.

p.

١١٧

(٤) ناجرة هى بالإسبانية Najera، وبلتيرة هى Valterra، وكلتاهما تقع في أحواز

تطيلة.

(٥) السفر الخامس من المقتبس - لوحة ٦٦ ب.

إلى حدود ليون، فاعتصم النصارى بالجبال لما رأوا من كثرة العدو وأهبته،
ولكن المسلمين هاجموهم في مواقعهم، ونشبت بين الفريقين موقعتين دمويتين
على مقربة من مكان يسمى " مطونية ".
فهزم النصارى هزيمة ساحقة، وأمعن
المسلمين فيهم قتلا وأسراً، ولم تنج منهم سوى فلول يسيرة، وكان ذلك فى
الثالث والخامس من ربيع الأول سنة ٣٠٦ هـ (١٣ و ١٥ أغسطس سنة
٩١٨ م) (١) .
على أن هذه الهزيمة الساحقة لم تفت في عضد النصارى، فلم يمض سوى
قليل
حتى عادوا إلى الاحتشاد والإغارة على الأراضي الإسلامية، واستمر القتال
سجالا
بين المسلمين والنصارى مدى أشهر، وكثر العيث والسبى في مناطق الحدود.
فاعتزم
عبد الرحمن أن يسير إلى مقاتلة النصارى بنفسه، فخرج من قرطبة في الثالث
عشر
من المحرم سنة ٣٠٨ هـ (أوائل يونيه ٩٢٠ م) في جيش ضخم، وانضم إليه
أثناء سيره كثير من أهل الثغور.
واخترق أراضي الثغر الأوسط من طليطلة
شمالا، حتى مدينة الفرج أو وادي الحجارة ومدينة سالم، فوصل إليها في
الرابع
والعشرين من المحرم.
وفى ذلك اليوم ولى خطة الوزارة لسعيد بن منذر القرشى، وعينه والياً لوادي
الحجارة، واتجه إلى طريق ألبة والقلاع (قشتالة) ثم عبر
نهر دويرة وزحف على مدينة أوسمة (وخشمة) وأحرقها، وفر منها النصارى

ولاذوا بالجبال.
ثم سار إلى قلعة شنت إشتيين (قاشترو مورش) ، وهى التي
كانت مسرحاً لهزيمة المسلمين المروعة، ففرت حاميتها النصرانية، واستولى
عليها وخربها، وغنم ما فيها.
وخرب في تلك المنطقة كثيراً من المعاقل
والأبراج والكنائس والديارات.
ثم سار إلى مدينة قلونية وهى مدينة قديمة
لم تبق منها اليوم سوى أطلال دارسة، وكان أهلها قد فروا إلى الجبال، فاجتاح
تلك المنطقة كلها، وانتسف أراضيها وخرب قلاعها، وهدم قلونية وخرب
دورها وكنائسها، ولم يعترض سبيله أحد من النصارى.
وكان أردونيو ملك
ليون وسانشو (شانجه) ملك نافار قد حشدا حشودهما، واجتمعت لهما قوات كثيرة.
ولكنهما بقيا في الشمال انتظاراً لمقدم المسلمين، وعرج عبد الرحمن
بعد ذلك على مدينة تطيلة إستجابة لصريخ أهلها، حيث أزعجها النصارى

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٩ و ١٨٠.

(٣٩٦/١)

باعتدائهم المتكرر، وبعث بعض قواته بقيادة محمد بن لب بن قسى صاحب
تطيلة لاحتلال قلعة قلقرة (١) التي كان سانشو يتخذها قاعدة للإغارة عليها،
فألفوها خالية، وزحف عبد الرحمن في الوقت نفسه على حصن قلهرّة وكان
به سانشو في قواته، ففر عند اقترابه، واحتله المسلمون وغنموا كل ما فيه
ثم دمروه، وانتسفوا الأراضي المحيطة به، ولجأ سانشو إلى حصن أرنيط
(أورنيدو) الواقع جنوب غربى قلهرة.

والظاهر أن النصارى اعتزموا
ألا يعترضوا سبيل المسلمين في تلك المنطقة كلها، وفقاً لخطة وضعوها
لاستدراج المسلمين.
فلما عبر عبد الرحمن بقواته نهر إيبرو (إبرة) فاجأه
سانشو في قواته، وهاجم مقدمة المسلمين، ولكن عبد الرحمن كان يقظاً
متأهباً، فتعاون الفرسان والرماة المسلمون على النصارى، وأثخنوا فيهم،
فارتدوا إلى شعب الجبال واعتصموا بها.
ولجأ سانشو إلى حليفه أردونيو ملك
ليون، وجمع الملكان قواتهما من سائر النواحى وتربصا للقاء المسلمين في
مواقع
منيعة، وعلم عبد الرحمن باجتماع القوات النصرانية على هذا النحو، فأمر
بإحكام
التعبئة، ومضاعفة الاستعداد، فلما نفذ الجيش الإسلامى إلى شعب الجبال،
انحدر النصارى لمهاجمته واشتبكوا بمؤخرته وأحدثوا بها اضطراباً وخسائر،
فشعر عبد الرحمن بخطر المأزق، وبادر بالخروج من الشعب الضيقة إلى
السهل
المنبسط.
وهنالك عسكر بجيشه في مكان يسمى " خونكيرا " Junquera على
مقربة من غربى بنبلونة، واستعد للقاء النصارى.
وهنا طمع النصارى فى
محاربة المسلمين فانحدروا إلى السهل بعد أن كانوا في حمى الجبال، ولكنهم
دفعوا ثمن جرأتهم هزيمة فادحة، وأمعن المسلمون فيهم قتلا وأسراً، ولم ينقذهم
من الفناء الشامل سوى دخول الليل، وقتل وأسر كثير من أكابر فرسانهم
وزعمائهم، ومن بينهم أسقفان هما دولثديو أسقف شلمنقة وأرمخيو أسقف توى،
وقد كانا يحاربان كجنديين، ولجأ نحو ألف من النصارى، أو أزيد من
خمسمائة

على قول آخر، إلى قلعة مويش القريبة، فاقتحمها المسلمون، واستخرج
النصارى الذين بها، ومنهم عدد من القوامس ووجوه الفرسان، فأمر
عبد الرحمن بإعدامهم جميعاً، ومزق النصارى كل ممزق، وانهارت كل
مقاومة،

---

(١) وهى بالإسبانية Carcar وهى تقع على مقربة من شمالى قلهرة.

(٣٩٧/١)

وقضى عبد الرحمن أربعة أيام يجمع الأسلاب والنعم، ويهدم الديار ويقطع
الأشجار، وأصاب المسلمون كثيراً من الأسلاب والغنائم.
وحدثت هذه الوقيعة
الساحقة على النصارى، في اليوم السادس من شهر ربيع الأول سنة ٣٠٨ هـ
(٢٦ يوليه ٩٢٠ م) .
وهدم عبد الرحمن حصون العدو، وأصلح حصون
المسلمين، وفي مقدمتها حصن بقيرة Viguera المشرف على حدود نافار،
وزودها بالعتاد والمؤن.
وفى اليوم السابع والعشرين من ربيع الأول، قفل عبد الرحمن عائداً إلى
قرطبة، وتوقف في طريقه يوماً بمدينة أنتيسة على مقربة من مدينة سالم،
وفرق الأموال والكسى في أهل الثغر، وأذن لهم بالعودة إلى ديارهم، ووصل
إلى قصر قرطبة في يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ٣٠٨ هـ
(أواخر سبتمبر سنة ٩٢٠ م) بعد أن قطع في غزوته هذه ثلاثة أشهر،
وكانت
غزوته الأولى في مقاتلة النصارى، وكان ممن شهدها معه سلمان بن عمر
بن
حفصون المستأمن إليه، فأبلى فيها بلاء حسناً، وبها ارتفع شأوه، وتوطدت
سمعته (١) .

وكان عبد الرحمن يرجو أن يكون هذا الدرس بعيد الأثر في ردع النصارى ووقف عدوانهم.

ولكنه أخطأ الظن.

ذلك أنه لم يمض سوى عامين حتى أغار

أردونيو على ناجرة واستولى عليها، وسار حليفه سانشو إلى بقيرة، وكان يتولى

الدفاع عنها عبد الله بن محمد بن لب، ومعه نفر من زعماء بني لب وبنى ذى النون

وغيرهم من الوجوه الأكابر، فحاصرها سانشو واستولى عليها، وأسر من فيها من الزعماء وحملهم إلى بنبلونه ثم قتلهم، ولم ينج منهم سوى مطرف بن موسى

ابن ذى النون حيث استطاع الفرار من سجنه.

فضجت الأندلس من أقصاها إلى

أقصاها لتلك الفعلة البشعة، ووجهت سهام اللوم إلى عبد الرحمن لقصوره أو تقصيره، في حماية الثغور وحماية الزعماء والقادة، ولم يك ثمة مناص من العمل

على تهدئة الخواطر، والانتقام لذلك الاجتراء.

وسير عبد الرحمن مولاه ووزيره

---

(١) ابن حيان في السفر الخامس من المقتبس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٧١ ب -

٧٤ أوب، والأوراق المخطوطة الخاصة بعصر الناصر ص ٦٣ و ٦٤،

والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٧ -

١٨٩، وكذلك Dozy: Hist.

، V.

II.

.p

.Cronica General ; ibid ،١٤٣ & ١١٤

.Vol

.II

.p

.٣٨٦

(٣٩٨/١)

عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى في جيش قوى، ريثما يتم هو أهبته (ربيع
سنة ٣١١ هـ - ٩٢٣ م) ، فقصد إلى تطيلة وجاز منها إلى أراضي نبرّة (نافار) ، وعاث فيها، وقاتل سانشو وهزمه في عدة وقائع.

ولم تمض بضعة أشهر أخرى، حتى أتم عبد الرحمن أهبته، ولم يصبر على انتظار الربيع وهو موعد الصوائف، بل غادر قرطبة في السادس عشر من المحرم سنة ٣١٢ هـ (١٧ إبريل سنة
٩٢٤ م) في قوى جرارة، وهو يعتزم التنكيل بالنصارى، والانتقام الذريع لجناية بقيرة، وترك في القصر إبنه الأكبر وولى عهده الحكم، وهو صبى في نحو العاشرة من عمره، وإلى جانبه الوزير أحمد بن محمد بن حدير، وسلك
الناصر إلى الثغر طريق المشرق، مخترقاً كورة تدمير، فكورة بلنسية، ونازل في طريقه مدينة لورَقة، وكان يمتنع بها زعيمها الثائر عبد الرحمن بن وضاح، فأخضعه بالأمان، وبعثه مع أهله إلى قرطبة.

ثم تقدم منها إلى مدينة مرسية، فاستنزل بها يعقوب بن أبي خالد التوزرى وزملاءه العصاة، وأخضع بعض
حصون أخرى في قطاع بلنسية، ثم سار إلى طرطوشة ونظر في شئونها، وتقدم بعد ذلك صوب سرقسطة، وهنالك انضم إليه التجيبيون وحلفاؤهم.

ولما وصل إلى تطيلة هرع إليه زعماء الثغر بقواتهم، وهم في جموع وافرة وتعبية
محكمة، ودخل أراضي نافار في أوائل ربيع الآخر (يوليه) .
فساد الذعر بين
النصارى، وترك العدو معظم قلاعه وحصونه دون دفاع، وكان أول ما استولى
عليه المسلمون حصن قلهرّة وكان سانشو قد أخلاه، فأمر عبد الرحمن بهدمه
وإحراق ما فيه، ثم استولى عبد الرحمن على حصن قلقرة، ومحلة بيطرالته
(بيرالتا) (١) الواقعة شمال شرقى قلهرة وما حولها من الحصون، وقتل وسبى كل
من وجد بها من النصارى، ثم سار إلى حصن بالجش القريب منها وأحرقه،
وخرب ما حوله من الضياع والزروع، واستولى بعد ذلك على حصن قرقشتال
(كاركاستيلو) في وادي أراجون شرقى بيرالته، وشمال شرقى تطيلة، وهدم
سائر القلاع في تلك المنطقة أو أحرقها.
ثم نفذ عبد الرحمن إلى قلب نافار
وزحف على عاصمتها بنبلونة، وحاول ملكها سانشو غير مرة أن يعترض
طريقه في شعب الجبال، فكان يرد في كل مرة بخسارة فادحة.
ودخل

---

(١) يبدو أن بيطرالته هو المكان الذى يسميه ابن حيان " قنطرة ألبة ".

(٣٩٩/١)

عبد الرحمن بنبلونة، وقد فر سكانها رعباً، فدمرها وأحرق قصورها وكنائسها،
وجد سانشو في جمع قواته ووافته الأمداد من قشتالة، وحاول لقاء المسلمين
في مفاوز نافار الوعرة مرتين، الأولى على مقربة من شنت إشتيبن، والثانية
على مقربة من قلهرّة، ولكن عبد الرحمن كان على حذر، وكان يعرف

تلك المفاجآت الخطرة، فهزم النصارى في كلتا الموقعتين ومزقوا شر ممزق، وانهارت كل مقاومة، وبذلك تم إخضاع نافار وسحق قواتها (ربيع الثاني ٣١٢ هـ

- أغسطس ٩٢٤ م) .

ثم سار عبد الرحمن جنوباً إلى حصن مسرة، وهو أول حصون المسلمين على حدود نبرّة، فعهد إلى من فيه بادخار الأطعمة، وفرق فيهم الأموال.

ورحل بعد ذلك إلى مدينة تطيلة، فوصلها في اليوم السابع والعشرين من ربيع الثاني، ثم قفل منها راجعاً إلى الحضرة، وتوقف خلال الطريق بمدينة شنت برية مقر بني ذى النون، وكان زعيمهم يحيى بن موسى بن ذى النون قد خلع الطاعة، والتزم العصيان مستقلا بسلطانه، فلما أشرف الناصر على معقله، خرج

إليه نادماً مستغفراً منضوياً في ظل طاعته، فتقبل الناصر توبته، ودخل الناصر

قصر قرطبة في يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣١٢ هـ، وقد أنفق في غزوته أربعة أشهر، وهى تعرف في الرواية الإسلامية " بغزوة

بنبلونة " (١) .

ولم يمض سوى قليل حتى توفى أردونيو الثاني ملك ليون (سنة ٩٢٥ م) ، فخلفه

في الملك أخوه "فرويلا"، فلم يحكم سوى عام ثم توفى؛ فتنازع العرش سانشو وألفونسو ولدا أردونيو، وشغلت ليون بحرب أهلية استمرت بضعة أعوام، وانتهى طورها الأول بوفاة سانشو.

ثم نشبت ثانية بين ألفونسو وأخيه راميرو، وانتهت بفوز راميرو، وجلوسه على عرش ليون باسم راميرو الثاني، وذلك

سنة ٩٣٢ م.

ولم يتدخل عبد الرحمن في تلك الحرب الأهلية، فترك النصارى يمزق.

بعضهم
بعضاً، وانتهز الفرصة ليتم سحق الثورة، وتوطيد السكينة داخل مملكته،
حسبما

---

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية -
لوحة ٨٠ - ٨٣
والبيان المغرب ج ٢ ص ١٩٥ - ٢٠١؛ وكذلك Dozy: Hist, V.
II.
p.
١٤٤ - ١٤٥

*(١/٤٠٠)*

فصلنا في موضعه، وليقضى على دعوة الفاطميين في المغرب الأقصى.
وكان راميرو الثاني أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية، ملكاً مقداماً شديد
البأس.
فما كاد يلى العرش حتى نشط إلى استئناف الصراع القديم ضد المسلمين،
وكان يرى أن العمل على إذكاء عوامل الفتنة في المملكة الإسلامية هو خير
السبل
إلى تبديد قوى المسلمين؛ وكانت مدينة طليطلة قد عادت تضطرم بعوامل
الفتنة
والثورة، وشجع راميرو بدسائسه ووعوده، زعماءها على التمادى في غيهم،
فأرسل إليهم عبد الرحمن وفداً من العلماء يخطب ودهم ويحثهم على الخضوع
والطاعة، فرفضوا نصحه بكبرياء وصلف، معتمدين على مؤازرة ملك ليون.
فبادر الناصر (١)
بالسير إلى طليطلة في قوات ضخمة، وذلك في ربيع الثاني سنة ٣١٨ هـ
(مايو سنة

٩٣٠ م) وضرب حولها الحصار وانتسف ما حولها من المروج، ثم غادرها
بعد
بضعة أسابيع، وترك لحصارها بعض قواته، ثم عاد فسار إليها بعد ذلك
بعامين
في صيف سنة ٣٢٠ هـ (يونيه سنة ٩٣٢ م) معتزماً في هذه المرة أن ينزل
بها
الضربة القاضية.
وهنا حاول راميرو أن يسعى إلى إنقاذ المدينة المحصورة، استجابة
لنداء أهلها، فسار لإنجادها في بعض قواته، واستولى في طريقه على حصن
مجريط (٢) .
ولكن القوات الإسلامية استطاعت أن ترده قبل أن يصل إلى طليطلة،
فاضطر أن يترك المدينة الثائرة لمصيرها، وفقد الثوار بذلك كل أمل في
المقاومة، وأضنتهم مصائب الحصار، فاضطروا في النهاية إلى الإذعان
والتسليم، ودخل الناصر
طليطلة ظافراً (رجب سنة ٣٢٠ هـ) ، وشهد مبلغ منعتها وكثافة أسوارها،
وأمر
بهدم حصونها، وفقدت الثورة في الأندلس بسقوط طليطلة أمنع معاقلها.
وفى العام التالى، سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) ، سار ملك ليون إلى مدينة
أوسمة (وخشمة) التي كان يهددها المسلمون، فردهم عنها واحتلها، وكانت
أوسمة، وهى تقع شرقى شنت إشتيبن على مقربة من دويرة، وعلى خط
الحصون الفاصل بين الأراضي الإسلامية وقشتالة القديمة، من القواعد
الدفاعية
الهامة، ومن ثم فقد اعتزم الناصر أن يسير لاستردادها بنفسه، فخرج
بالصائفة

---

(١) كان عبد الرحمن قد اتخذ سمة الخلافة وتلقب بالناصر لدين الله منذ سنة

٣١٧ هـ حسبما نبين بعد.
(٢) هو حصن ومحلة منيعة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) على ضفة نهر
منثارس ضمن منطقة الحصون الدفاعية بين الأندلس ومملكة ليون.
وقد استمرت تؤدى دورها الدفاعى حتى
سقطت أخيراً في يد القشتاليين سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) ، وعلى موقعها
أقيمت مدينة مدريد الحديثة.

(٤٠١/١)

من قرطبة في منتصف جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ (مايو ٩٣٤ م) ، في جيش
كثيف حسن الأهبة، وكانت قواته في هذه المرة ترفع أعلام العقاب المصورة،
التي كان أول من استعملها، وكان معه ولده الأكبر وولى عهده الحكم،
واستخلف في القصر ولده عبيد الله.
وقصد الناصر إلى دار الحرب (أراضي
النصارى) من طريق مدينة الفرج أو وادي الحجارة، وذلك لكى يضع حداً
لما أبداه محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة، من أعراض الخلاف،
والتوقف عن اللحاق به حسبما أوعز إليه، فتحول نحو أراضيه مما يلى غرب الثغر
الأعلى، واحتل حصن ماومده من حصونه، بعد أن بادر أهله بالطاعة، ثم تقدم
إلى حصن روطة اليهود على مقربة من سرقسطة، وكان به أخوه يحيى بن هاشم، وافتتحه قسراً.
ثم سار إلى سرقسطة، وطوقها ببعض قواته، وبعث قوات
أخرى إلى تطيلة وطرسونة.
ولكنه رأى بعد ذلك أن يتحول بقواته إلى غزو

أراضي النصارى، وكان أقربها إليه أراضي نبرّة (نافار) .
وهنا وفدت عليه
رسل تيودا (طوطة) إبنة شنير ملكة نافار، التي قامت بالأمر بعد وفاة زوجها سانشو ملك نافار وصية على ولدها غرسية، ترجو عقد الصداقة، والسلم.
فرحب الناصر بطلبها، ووفدت عليه في وجوه مملكتها وقواميسها وأساقفتها، وهو بمحلة قلهرّة، فاستقبلها الناصر ومن حوله جيوشه الكثيفة، العظيمة الأهبة، وأكرم منزلتها، وتعهدت لديه بالطاعة، والابتعاد عن محالفة أى ملك أو أمير نصرانى، وكف الأذى عن المسلمين، ومعاونة قواد الثغر الأعلى فى محاربة كل من خرج على الطاعة، وأخيراً أن تخلى سبيل وجوه بني ذى النون الذين في اعتقالها.
وسجل الناصر ذلك وأشهد عليه، وأقر الناصر من جانبه
ولدها غرسية، ملكاً على بنبلونة وأعمالها (بلاد البشكنس) ، وانصرفت مع رجالها مزودة بالهدايا والكسى الفاخرة، وفي وفود طوطة على الناصر يقول الشاعر إسماعيل بن بدر:
وقيدت زعيمتهم إليه..

.

كبلقيس تحف به الجنود
تلفت لا ترى إلا شهاباً..

.

به يرمى وتختطف العديد
فبادرت السجود لنور وجه..

.

له رحب التواضع والسجود
فأوسعها بفضل العفو أمناً..

.

وقد كادت بمهجتها تجود

فدام يسوسنا ما دام شبه له في الأرض طالعه السعود
وسار الناصر بعد ذلك إلى أراضي ألبة والقلاع، وتوغل فيها، ففر النصارى من السهول، واعتصموا بالجبال، وكان أول ما استولى عليه من حصون العدو، حصن المنار، وهو من أعظم حصون ألبة، فدمره المسلمون، ودمروا حدائقه، ولم تبق منها قائمة.
وتردد المسلمون بعد ذلك في مخلتف الأنحاء، وهم يدمرون في طريقهم كل شيء، حتى وصلوا إلى حصن أنة فهدموه، وأتلفوا حدائقه ومصانعه، وكان ضمن أبنيته كنيسة فخمة، وضمن سكانه
ثلاثمائة راهب.
واجتاح الناصر سائر بقاع ألبة.
ثم نزل على قلونية في شهر
رمضان؛ وكان الناصر يود أن يلتقى براميرو ملك ليون في موقعة ما، ولكنه حاول عبثاً أن يحمله على مغادرة قلاعه، والاشتباك مع المسلمين في معركة فاصلة، وكان راميرو يرى ما ينزله المسلمون تباعاً بأراضي مملكته من صنوف التدمير
والتخريب، وهو عاجز عن أن يقوم بأية حركة لوقف هذا السيل المخرب.
وأخيراً اجتمع النصارى، ومعهم ملكهم راميرو في قلعة مزورته الواقعة فوق ربوة وافرة الحصانة، على مقربة من قلونية، واستعدوا للقاء المسلمين؛ فعبأ المسلمون صفوفهم، واشتبكوا مع النصارى في معركة حامية، قتل فيها عدد من أكابر الفرسان النصارى، واستشهد عدد من المسلمين، وحاول المسلمون بعد ذلك استدراج النصارى إلى السهل.
فلما عبروا وادي أوسمة حاول النصارى
الهجوم، فردهم المسلمون وقتلوا منهم جملة؛ ثم رحل المسلمون بعد ذلك إلى حصن غرماج (Gormaz) على مقربة من ليون.

ورأى الناصر أن التقدم بعد
ذلك في السهول القفرة يعرض جيشه لمتاعب شديدة، فارتد بقواته شرقاً، وهو
يعيث في أراضي قشتالة.
ثم زحف على مدينة برغش عاصمة قشتالة
وخربها، وقتل على مقربتها عدداً كبيراً من أحبار الأديار المجاورة (سنة ٩٣٤
م)
ثم قفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة، وقد قطع في غزوته هذه زهاء أربعة أشهر.
وذكر الناصر في كتاب الفتح الصادر عن هذه الغزوة، الجهات والمدن التي
غزاها من بلاد ألبة والقلاع، فكان منها مدينة أوسمة، وحصن القصر،
وحصن
أنة والدير المنسوب إليه، ومدينة برغش وقصبتها المنيعة وبسيطها، وحصن
بلنسية
وبسيطه، وحصن اشكفيرش وبسيطه والأديار المتصلة به، ومدينة لزمة

(٤٠٣/١)

العظيمة الشأن وبسيطها، ونظم الشعراء قصائدهم في تهنئة الناصر بما
أصابه في
هذه الغزوة من الظفر (١) .
وتقص علينا الرواية الاسلامية خبر غزوة بحرية قام بها أسطول الناصر
في تلك السنة (٣٢٣ هـ) .
وخلاصة ذلك أن أسطولا بقيادة أمير البحر عبد الملك
ابن سعيد بن أبي حمامة، قوامه أربعون مركباً منها عشرون من الجرافات
التي
تحمل النفط والآلات البحرية، وعشرون تحمل الرجال المقاتلة، وعدة ركابه
من الجند ألف رجل ومن البحريين ألفين، خرج من ثغر ألمرية في شهر رجب
(مايو ٩٣٥ م) فسار أولا إلى جزيرة ميورقة الاسلامية، ثم خرج منها متجهاً

نحو شاطىء الثغر الفرنجى، وقصد أولا إلى مدينة بالش وهاجمها، ووقعت بينه وبين أهلها معركة عنيفة هزم فيها الفرنج، وقتل منهم ثلاثمائة رجل؛ ثم سار الأسطول إلى مدينة إينش، وأحدق بها المسلمون براً وبحراً وأحرقوا المراكب في مرساها وقتلوا من أهلها نحو أربعمائة رجل؛ وبعث ابن حمامة من

سفنه خمسة عشر سارت شمالا إلى بلدة مسِّنيط ثم سار خلفها ببقية الأسطول، وغزا الأسطول قرى كثيرة على الشاطىء، وحقق غنائم كثيرة، وخرج

الافرنج لقتاله، فهزموا وقتل قائدهم.

ثم تقدم الأسطول بعد ذلك من مدينة

برشلونة، عاصمة الثغر الفرنجى، فاجتمع الفرنج لمقاومته بقيادة زعيمهم بليط، فهزموا وقتل قائدهم، وأغلقت المدينة أبوابها ودافع أهلها من فوق الأسوار، فتحول الأسطول إلى الساحل الجنوبى، ودارت بينه وبن الفرنج المجتمعين

على الشاطىء معركة شديدة هزم فيها الفرنج.

ثم قفل الأسطول الإسلامى

بعد ذلك عائداً إلى ثغر طرطوشة الإسلامى، مثقلا بالسبى والغنائم، وهنالك تلقى قائده أبا حمامة كتاب الناصر، بالنهوض إلى سبتة وطنجة لمحاربة من انتقض

هنالك من أهلها فصدع القائد بالأمر، وسار بسفنه نحو الجنوب، ولبث متردداً

بين مراسى العدوة حى شتاء العام التالى، ثم عاد إلى مراسيه في ألمرية في صفر

سنة ٣٣٤ هـ (٢) .

---

(١) ابن حيان في المقتبس – السفر الخامس – مخطوط الخزانة الملكية،

لوحات ١٣١ - ١٣٥
ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢، وكذلك: Dozy: Hist.
Vol.
II.
p.
١٤٨
(٢) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ١٤٤ ب و١٤٥ أ.

*(٤٠٤/١)*

وفى هذه السنة أيضا (٣٢٣ هـ) ، عقد السلم بين الناصر لدين الله وراميرو ملك ليون.
وكان راميرو، على أثر الغزوة المخربة التي قام بها المسلمون فى أراضيه، قد بعث رسله إلى الناصر في التماس الصلح، فبعث إليه الناصر وزيره
يحيى بن يحيى بن إسحاق سفيراً، فاجتمع في ليون مع راميرو، وعقد معه شروط الصلح.
ووقع الناصر هذه المعاهدة في منتصف ربيع الثاني من هذه السنة (مارس ٩٣٥ م) ، في يوم مشهود.
وكان الناصر يرمى بعقد هذا الصلح
إلى إبعاد ملك ليون من التفاهم مع محمد بن هاشم صاحب سرقسطة ومعاونته.
بيد أن هذا الصلح لم يدم طويلا، لما كان يجيش به راميرو من رغبة ملحة في النكث والتفاهم مع الخارجين على حكومة قرطبة (١) .
ذلك أن بذور الثورة كانت تختمر في الثغر الأعلى، وكان النصارى إلى جانب ذلك يتحينون الفرصة للنهوض والانتقام.
وكانت طوطة ملكة نبرّة

الوصية على ولدها غرسية، قد لزمت السكينة حيناً وفقاً لمعاهدة السلم التي عقدتها مع الناصر، ثم تحرك البشكنس بعد ذلك وأغاروا على بعض
الحصون
الإسلامية (٩٣٧ م) .
وظهرت في الوقت نفسه في الولايات الشمالية أعراض
فتنة خطيرة.
ذلك أن بني هاشم التجيبيين سادة سرقسطة، لم يكونوا دائماً
على وفاق مع حكومة قرطبة، وكانت تحدوهم أطماع كثيرة.
وكانوا يخشون
عواقب السياسة التي يتبعها الناصر في إخضاع الولاة المحليين، وسحق
سلطان
الأسر القديمة، وكان وجودهم في الشمال بين الممالك النصرانية يفسح لهم
مجال
التآمر والخروج.
وكان أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبى، حينما توفى
في سنة ٣١٢ هـ، قد خلفه ولده هاشم بمصادقة الناصر، وحكم سرقسطة،
وضبط الثغر، واشترك في الغزو مع الناصر، وتوفى في سنة ٣١٨ هـ.
فطلب ولده
محمد بن هاشم التجيبى إلى الناصر أن يقره على ولاية سرقسطة، فلم يجبه
إلى
ذلك، فسار محمد إلى قرطبة مؤكداً لولائه، فصدر الأمر بتوليته في رجب
سنة ٣١٩ هـ، والتزم بأن يورد قسماً من الجباية.
ولما سار الناصر في سنة
٣٢٢ هـ إلى الغزو بعث إلى أهل الثغور لموافاته، فقدم إليه التجيبيون، فى
رجالهم، وتخلف محمد بن هاشم عنهم، وسار الناصر لقتاله، ولكنه تحول

(١) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ١٤٣ أ.

*(٤٠٥/١)*

عنه إلى قتال النصارى حسبما تقدم (١) .
ومن ثم فإنه لما اضطرمت نار الحرب
بين ملك ليون وبين الناصر، رأى التجيبيون الفرصة سانحة لتنفيذ مشاريعهم،
وكان راميرو ملك ليون بالرغم من ارتباطه بعهد السلم مع الناصر، يرقب
الفرصة
للنكث واستئناف الحرب ضد المسلمين، فلما استجاش به محمد بن هاشم،
رأى الفرصة سانحة، فنكث عن السلم وعقد الحلف المنشود مع محمد بن
هاشم
التجيبى صاحب سرقسطة، وقريبه مطرِّف بن منذر التجيبى صاحب قلعة
أيوب (١) ، وتعهد محمد لراميرو أن يعترف بطاعته، نظير معاونته إياه فى
الخروج على عبد الرحمن الناصر ومحاربته، بل يقال إن هذا الحلف كان قد
عقد
قبل ذلك سراً، وإن آثاره ظهرت منذ سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٤ م) ، حينما كان
الناصر يغزو أراضي ليون، ولم يتقدم بنو هشام لمعاونته، بل بالعكس جاهر
محمد بالخروج عليه وخلع طاعته، ثم اعترف بسيادة ليون على سرقسطة
وأحوازها، ولما أبي بعض قواد الحصون مجاراته في خيانته، سار إليهم
راميرو
وأخضعهم، وسلم قلاعهم إلى الزعيم الثائر، ثم عقد محمد وراميرو محالفة مع
طوطة ملكة نافار، وغزا البشكنس الأراضي الإسلامية حسبما قدمنا، وبذا
تحالف الشمال كله ضد عبد الرحمن.
وتقدم إلينا الرواية الإسلامية، خبر معركة، نشبت في ذلك الوقت فى
الثغر الأعلى بين المسلمين والنصارى.

وذلك أن الفرنج في برشلونة وحلفاءهم
في الثغر، حاولوا انتهاز الفرصة، وغزوا الأراضي الإسلامية، فخرج إليهم
أحمد بن محمد بن إلياس قائد القوات السلطانية المرابطة في الثغر على
مقربة
من سرقسطة، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة شديدة على ضفاف
نهر
إبرُه، فهزم النصارى هزيمة شديدة وقتل وغرق منهم عدد جم.
وتضع الرواية
الإسلامية تاريخ هذه الموقعة في آخر شوال سنة ٣٢٤ هـ (سبتمبر ٩٣٦ م)
. (٣)
وبعث الناصر في نفس الوقت جيشاً كثيفاً إلى الثغر الأعلى بقيادة الوزير
عبد الحميد بن بسيل، ليقوم بالتضييق على سرقسطة وبنى هاشم، وليدعم

---

(١) العذرى في كتاب ترصيع الأخبار ص ٤٣ و٤٤.
(٢) Calatayud وهى تقع جنوب غربى سرقسطة في منتصف الطريق بينها
وبين مدينة سالم.
(٣) المقتبس - السفر الخامس - لوحة ١٤٨ ب و١٤٩ أ.



القوى السلطانية المرابطة على مقربة منها، وذلك ريثما يستطيع السير بنفسه
إلى
الشمال.
ثم أتبعه بجيش آخر، بعثه إلى الثغر أيضاً بقيادة الوزير سعيد بن المنذر
القرشى، ليقوم بالمعاونة في التضييق على سرقسطة.
وفى نفس هذا العام (٣٢٤ هـ) حاول نصارى ليون مرة أخرى الاستيلاء
على قلعة مجريط أهم قلاع الثغر الأدنى، فهاجمتها قوة كبيرة، ولكن الحامية

الإسلامية بقيادة أبي عمر بن أبي عمر استطاعت أن تصد هذا الهجوم، وأن تنقذ القلعة (١) .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك يتأهب إلى الغزوة المرتقبة إلى الشمال.

ففى

منتصف شهر رجب سنة ٣٢٥ هـ (مايو سنة ٩٣٧ م) ، خرج من قرطبة إلى مقاتلة أعدائه في جيش ضخم، وكان بروزه يوماً مشهوداً، تبدت فيه روعة أهباته، وفي ذلك يقول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه:

يوم من العز مجموع له الناس..

.

يختال في عقوتيه الجود والباس

وعلم عبد الرحمن أثناء سيره، أن النصارى في الوقت الذى يحتشدون فيه بأطراف الثغر الأعلى، لمناصرة حليفهم الخارج محمد بن هاشم التجيبى

صاحب

سرقسطة، يحاولون في نفس الوقت أن يزحفوا صوب طليطلة لإثارة الثورة فيها.

فسار بجيشه إلى طليطلة كيما يؤمن أهلها، ويرهب النصارى، ونزل عليها، فلما علم النصارى بمقدمه ارتدوا مذعورين إلى الشمال.

وفى خلال ذلك

وافاه كتاب من أحمد بن محمد بن إلياس قائد الثغر بظفره بالعصاة في مدينة وشقة، وكتاب آخر بإخماد ثورة أهل طلبيرة غربى طليطلة.

وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى الثغر الأعلى من طريق وادي الحجارة، وأبقى قوة من جيشه في منطقة طليطلة بقيادة مولاه درِّى، للسهر على النظام فى تلك المنطقة، ورأى أن يبدأ بقلعة أيوب، وكان قد امتنع بها مطرِّف بن منذر التجيبى المعروف بأبى شويرب، وكان راميرو قد بعث لإنجاده فرقة من

فرسان

ألبة والقلاع.

فحاصر عبد الرحمن القلعة، وبعث يدعوه إلى الطاعة، ويؤكد له الأمان بخطه، فرفض مطرف أن يستجيب إلى هذه الدعوة، فهاجم عبد الرحمن القلعة، وبرز إليه مطرف وحلفاؤه، ونشبت بن الطرفين معركة

---

(١) المقتبس - السفر الخامس - لوحة ١٤٩ ب.

*(٤٠٧/١)*

شديدة، هزم على أثرها مطرف، وقتل، ولجأ أخوه حكم بن منذر في فلوله ومن معه من فرسان ألبة إلى القصبة، وامتنعوا بها، فاستمر الهجوم عليهم، وكثر القتل في المدافعين، حتى اضطر حكم أن يطلب الأمان لنفسه ولحلفائه النصارى، ليعودوا إلى بلادهم، ويلحق هو وأهله بالحضرة، فقبل الناصر ونزل حكم ومن معه من القصبة، وأعفى عن النصارى المستأمنين وقتل الباقون. ووقع
فتح قلعة أيوب على هذا النحو في التاسع عشر من شهر رمضان من هذه السنة.
وكان فتح قلعة أيوب أول صدع خطير في ثورة بني تجيب، وكان بها، فضلا عن مناعتها الطبيعية، عدة كبيرة من فرسان سرقسطة الأكابر، وخمسمائة من الفرسان النصارى لم ينج منهم سوى الخمسين الذين أمنوا، وقد أفاضت الشعراء في تهنئة الناصر بهذا الفتح، ومن ذلك قصيدة لابن عبد ربه هذا مطلعها:
يا ابن الخلايف والصيد الصناديد..

.
ألقت إليك الرعايا بالمقاليد
ورأى الناصر، قبل أن يسير إلى سرقسطة، أن يقوم بجولة في أرض النصارى.
فاتجه إلى أراضي ألبة والقلاع، فافتتح عدة كبيرة من حصونها تبلغ السبعة

والثلاثين حصناً.
واعتزم بعد ذلك أن يعاقب البشكنس على عدوانهم، فسار
إلى بسيط بنبلونة، وخرب معاهدها وحصونها، ومزق جموع البشكنس وسحق
كل مقاومة، وبعث فرقاً من جيشه إلى مختلف الأنحاء المجاورة فعاثت فيها
وأصاب المسلمون غنائم كثيرة.
وساد الرعب على البشكنس؛ وهرعت إليه
طوطة، ملكة نبرّة تقدم إليه خضوعها وتوبتها، فقبل الناصر اعتذارها وأقر
ولدها غرسية ملكاً على نبرّة في طاعته وتحت حمايته؛ وكان ذلك في أواخر
رمضان وأوائل شوال من سنة ٣٢٥ هـ (أغسطس ٩٣٧ م) (١) .
وسار الناصر بعد ذلك إلى تطيلة، ثم سار منها إلى سرقسطة، فنزل عليها
في الثاني عشر من شهر شوال، وابتنى حولها المنازل والدور بمحلته، وعهد
بحصارها إلى أحمد بن إسحاق القرشى قائد الفرسان، وهو من قرابته، وعينه
حاكماً للثغر.
ولكنه تهاون في الحصار وتوانى لمرض في قلبه، ولأطماع كانت
تجيش بها نفسه، فأنبه عبد الرحمن وعزله، فاتفق مع أخيه أمية على التآمر

---

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحات ١٥٣ و ١٥٥ و ١٥٦
أ.

(١/٤٠٨)

والخروج، فوقف عبد الرحمن على أمرهما واكتفى بنفيهما من الأندلس.
فسار أمية إلى مدينة شنترين (١) في ناحية الغرب، واستولى عليها ورفع بها
علم الثورة، وتحالف مع ملك ليون.
فأمر الناصر القائد أحمد بن محمد بن إلياس، وكان مقيماً في بطليوس
ليرصد حركات أمية بن إسحاق، أن يغزو أرض العدو، فسار إلى أراضي
ليون واشترك مع الجلالقه في معركة، هزم فيها الجلالقة، وقتل منهم عدد

جم، ولا سيما من أهل سمورة (جمادى الأولى سنة ٣٢٦ هـ) ، ثم أمر الناصر بعد ذلك القائد عبد الحميد بن بسيل، أن ينضم في قواته إلى أحمد ابن محمد بن إلياس، وأن يسيرا معاً إلى غزو ليون فصدعا بالأمر، ووصلا بقواتهما إلى أرض النصارى وعاثا في جنباتها، وفي نفس الوقت تحركت بعض
السفن من نهر الوادي الكبير وسارت نحو الغرب لغزو أهل شنترين الذين يناصرون أمية بن إسحاق.
وانتهى الأمر بأن قام أحد الزعماء المحليين الذين
يدينون بطاعة الأمير، واستطاع أن ينتزع شنترين من أمية، فالتجأ أمية إلى راميرو.
أما أخوه أحمد فحاول أن يتصل بعمال الفاطميين في عدوة المغرب، وأن يأتمر معهم على حكومة قرطبة، فسعى عبد الرحمن إلى القبض عليه ثم أمر بإعدامه (٢) ، ولكن سنرى أن مغامرات بني إسحاق لم تنته عند هذا الحد.
واستمر حصار سرقسطة مدى أشهر، والناصر يشدد عليها الخناق شيئاً فشيئاً.
وأخيراً اضطر محمد بن هاشم أن يبعث رسله في طلب الأمان والصلح، على أن يقره الناصر على حاله، فأبدى الناصر قبوله وتسامحه، وطلب أن يخرج إليه إخوة محمد ووجوه أهل سرقسطة لعقد الصلح.
فخرج إليه وجوه سرقسطة، ومن بينهم إخوة محمد، يحيى وعبد الرحمن وهذيل.
وعدة من ذوى الشوكة.
وهنا ثابت للناصر فكرة في انتهاز الفرصة، والقبض على تلك الصفوة المختارة
من أهل سرقسطة، ليسدد إلى المدينة الثائرة ضربة مميتة، فأمر بالقبض عليهم
جميعاً واعتقالهم داخل سرادقه، فلما علم محمد بن هاشم بما تم سُقط في يده،

وشعر بوقوع هذه الضربة التي حرمته من كبار معاونيه، ولكنه استمر صامداً ممتنعاً، ورسل الناصر تتردد إليه بالإعذار والإنذار دون جدوى.
وأخيراً بعث

---

(١) وهى بالإفرنجية Santarem.
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٠؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥.

(٤٠٩/١)

إليه الناصر بوزيره ومولاه محمد بن عبد الملك بن أبي عبدة، فاطمأن الثائر إليه، وأذعن إلى التوبة والإنابة وطلب الأمان والصلح، وكان ذلك خلال عيد الأضحى سنة ٣٢٥ هـ.
فاستجاب الناصر إلى طلب محمد بن هاشم، وعقد له الأمان بأوثق عقد، وشهد الملأ من أهل العسكر وأهل الثغور، وشهدت نسخته فى الناس عامة، وذلك في شهر المحرم سنة ٣٢٦ هـ (نوفمبر ٩٣٧ م) .
وكان
مضمونه " أن يمنح الأمان لمحمد بن هاشم وإخوته وجميع أهله وأصحابه من مدينة
سرقسطة، وجميع من يتصل بهم من أهلها، للمدة التي يرضاها الناصر، وأن يملكه سرقسطة تمليكاً يدخل فيها من يشاء، وإلى العدد الذى رضاه من رجاله، ويكون أهل مدينة سرقسطة ومن يبقيه محمد بن هاشم منهم من أهله وأتباعه
آمنين بأمان الله، محفوظين بعهد الملة.
مستمسكين بمثل أمان محمد بن هاشم، غير معتقبين في أنفسهم، ولا مأخوذين بذنب سلف، وأن يخرج محمد بن هاشم
من سرقسطة بنفسه، ومن أحب إخراجه معه من خواص أهله وولده، إلى مدينة

تطيلة أو غيرها من مدن الثغر، وحصوله مسجلا على الموضع الذى يتخيره، ويبقى بسرقسطة من أحب منهم، ويختلف عليهم.

وعلى المُولّى بسرقسطة بعده، إحسان صحبتهم، وعليه أن يباعد منزله عنهم، لا يقربه شيء من دور محمد

ابن هاشم، أو ينزل القصر القديم بعد خروج محمد بن هاشم عنه بجميع ماله فيه.

وعلى أن يسجل الناصر لدين الله، لأخيه يحيى بن هاشم على ما كان بيده من

مدينة لاردة وأحوازها.

فإن انقضت المدة التي يضربها الناصر لمحمد، توجه

إلى الحضرة، وأقام فيها ثلاثين يوماً أو نحوها، مظهراً لصدق طاعته، ماحياً لكل ما انتثر في أقطار الأرض من معصيته، وهو في توجهه إليه آمن فى طريقه، ومدة مقامه ومنصرفه، غير مقطوع ولا معترض دون الانصراف، إذ انقضت المدة التي وضعت له.

وله على السلطان إذا وفي بما عقد عليه من

الشخوص إلى باب سُدَّته أن يكتب له عهداً على مدينة سرقسطة، ويصرفه إليها

عاملا وقايداً، ويعزل عنها عامله وقايده.

بعد أن يناله من كرامته، ويظهر

عليه من آثار نعمته، ما يعود معه إلى أحسن الأحوال التي كان عليها قبل هفوته ".

وقد اشترط عهد الأمان أيضاً أن يقدم محمد بن هاشم إلى الناصر رهائن من

(٤١٠/١)

ولده وإخوته وصحبه وكاتبه، وأن يكون جماعتهم لدى الناصر بحال حفظ وتكرمة، وأمان في المسير والمقام، يديلهم ستة أشهر، باكفايهم ونظرائهم من

إخوتهم خاصة، إلى أن يظهر لأمير المؤمنين براءة محمد بن هاشم من ممالأة
المشركين، وتصحيحه طاعة أمير المؤمنين، وعلى أن يقطع محمد بن هاشم من
المشركين في ظاهره وباطنه، من حدِّ بلد برشلونة إلى شرطانية إلى بنبلونة إلى ألبة
والقلاع وإلى جليقية، ولا يكاتبهم ولا يداخلهم، ولا يصالحهم على طرف من
أطراف الثغر إلا عن إذن أمير المؤمنين، وأن يورد جباية بلده لمحلها، بعد أن
يسقط عنه جباية عام، وألا يتقبل حراً نازعاً، ولا عبداً آبقاً لأمير المؤمنين، ولا
لأحد من رعيته، وأن يوثق من ظفر به من هذه الطبقة ويصرفه إلى مكانه،
وألا يتعقب أحداً ممن سجل له عليه، أو يسجل بعد، ممن حاربه مع أمير المؤمنين
وفارقه إليه أيام الطاعة، وأن يجدد البيعة لأمير المؤمنين ويلتزم شروطها،
وأن يغزو مع أمير المؤمنين، ويعادى من عاداه ويحارب كل من حاربه، ويسالم
من سالمه من أهل الملوك وغيرهم، ويقطع نصيبه من كل من أخرج يده عن
طاعته، وإن كان ابنه أو أخاه، يلتزم كل ما ألزمه أمير المؤمنين من ظاهر
القول وباطن الإرادة، لا ينقص تناول البغية، ولا يحرف عن التصحيح بالعلة،
فقد التزم أمير المؤمنين في عقده، مثل ما سأله محمد في ذلك وأوجبه على نفسه
مع دركه لهذه المنن، إن صدق الطاعة، أن يوليه مدينة سرقسطة، وما وقع فى
سجله معها ولاية مستمرة، ولا يعزله طول أيامه عنها، ثم لا يؤاخذه بذنب، ولا
يعدد عليه اقتراف خطأ ولا عمد، ولا تقبل فيه مقالة كاشح ولا طعن
حاسد، ويصير ذلك له وصية فيمن بعده، يلزمهم الوقوف عندها على سبيل

الخلفاء في خالدات عهودهم إن شاء الله، ووقعت الأيمان في هذا الأمان من الناصر لدين الله مستوفاة مغلظة، أخذ على محمد بن هاشم أشد منها، فحلف في مقطع الحق بمسجد سرقسطة الجامع خمسين يميناً منسوقة بمحضر قاضى الجماعة
بقرطبة والفقهاء وأعلام العسكر، والملأ من أهل بيت محمد بن هاشم، ووجوه أهل الثغر، على التزام ما عقد على نفسه منه واعتداده إياه ديانته ".
ثم أشهد
الناصر لدين الله على نفسه فيه جميع أهل عسكره، فكان أول من شهد عليه أولاده الحاضرون، ثم أعمامهم ثم الوزراء وأصحاب الخطط، ثم الفقهاء، ثم

(٤١١/١)

وجوه أهل سرقسطة ومن حضر من أهل الثغر (١) .
سقطت سرقسطة وسائر الحصون المجاورة لها في يد الناصر، وكذلك سقط في يده حصن روطة أمنع حصونها في الغرب، وبذا انهارت ثورة التجيبيين في الشمال، وكانت من أخطر الثورات التي واجهها الناصر، لأنها كانت مركزاً لتجمع القوى المعادية لخلافة قرطبة، من الخوارج والأمراء النصارى.
أما عفو الناصر عن محمد بن هاشم، ومنحه الأمان له، واستصناعه بالرغم من فداحة جرمه، فرجع إلى ما كان يتمتع به محمد من مقدرة إدارية فائقة، ولما كان لبنى هاشم في الشمال من مركز قوى مؤثل، ولما كان لهم من
العصبة والأنصار.
وقد رأينا الناصر في غير موطن، يعفو عن الثوار العتاة، ويحسن إليهم، وينظمهم في جيشه.
وقد كانت هذه سياسة مستنيرة من الخليفة
القادر، للاستفادة من هذه العناصر المنحرفة القوية معاً، متى استقرت توبتها،

وحسن ولاؤها.

ودخل الناصر بجيشه مدينة سرقسطة وفقا للسلم المعقود في يوم الخميس ١٤ من المحرم سنة ٣٢٦ هـ (٢٢ نوفمبر ٩٣٧ م) ، وشهد منعتها وحصانة أسوارها، فأمر بهدم الأسوار حتى لا تعود منعتها فتشجع الخوارج على الثورة، وشحنها برجاله، ونظر في مصالحها، فساد بها الهدوء والأمن، وبعث الناصر أثناء مقامه بسرقسطة، قوة من جيشه بقيادة نجدة بن حسين الصقلبى لتقوم ببعض الغزوات في أرض العدو، وأمر محمد بن هاشم أن يرافقه في أصحابه امتحاناً لوفائه، فصدع بالأمر.

وسار المسلمون بالرغم من اشتداد البرد

وانهمار الثلوج صوب ناحية شنت إشتيبن، وتفرقوا إلى ثلاث فرق، أخذت كل فرقة منها بشن الغارات في قطاع معين، ثم اجتمعت عند حصن شنت إشتيبن، وهنا حاول النصارى اعتراض المسلمين، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى.

وتوغل المسلمون بعد ذلك في أراضي ألبة، وانتسفوا الزروع

---

(١) أورد لنا ابن حيان حوادث فتح سرقسطة، وعقد الأمان الذى أصدره الناصر لمحمد

ابن هاشم نقلا عن عيسى بن أحمد الرازى.

وقد أورد لنا أيضاً أسماء الشهود الذين وقعوا هذا الأمان

من الأمراء والوزراء وأصحاب الخطط والموالى والفقهاء وغيرهم، وشغل ذلك أكثر من صفحة.

المقتبس في السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية لوحات ١٥٦ ب إلى ١٥٩ أ.

وخربوا الكنائس والديارات، ثم عادوا مثقلين بالغنائم إلى سرقسطة.
وكان
الناصر قد استتم خلال ذلك النظر في شؤون الثغر، وحفظ أطرافه، وتزويده
بالحماة والمقاتلة، وكل ما يضمن سلامته، ثم خرج بجيشه من سرقسطة قافلا
إلى الحضرة في الرابع عشر من صفر، فوصل إلى قصر الخلافة في الثامن
عشر
من ربيع الأول سنة ٣٢٦ هـ (أواخر يناير ٩٣٧ م) ، وذلك بعد أن قضى
في غزوته زهاء ثمانية أشهر (١) .
ووفد محمد بن هاشم التجيبي بعد ذلك على قرطبة، فأكرم الناصر وفادته،
وأقام في كنفه مدة في رغد وإيثار، وهو يحضر مجالس الخليفة، ثم غادر
قرطبة في رجب بعد أن ولاه الناصر سرقسطة، وعقد له عليها وعلى الجهات
التابعة لها، وولاه القيادة في نفس الوقت، وبذا رد إلى سابق مناصبه ومكانته.
***
وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يمزق شمل هذا التحالف الخطر، وأن يخضع
الشمال الشرقى من شبه الجزيرة كله لسلطانه وصولته؛ ولم يبق عليه إلا أن
يحطم
خصمه القوى العنيد راميرو الثاني ملك ليون، وهو محور النضال الحقيقى.
فلم
يمض سوى عامين حتى تأهب للقيام بأعظم غزواته ضد مملكة ليون، فحشد
جيشاً
ضخماً يبلغ زهاء مائة ألف، وعهد بقيادته إلى نجدة بن حسين الصقلبي.
وكان
الأجانب والصقالبة قد تبوأوا يومئذ ذروة القوة والنفوذ في بلاط قرطبة،
وسيطروا على معظم المناصب الكبيرة في القصر والجيش.
وكان لهذه السياسة
التي أسرف الناصر في اتباعها، أسوأ الأثر في نفوس الزعماء العرب، وفى

انحلال قوى الجيش المعنوية.

وفى صيف سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) سار الناصر
إلى ليون على رأس جيشه الضخم، وعبر نهر التاجُه من عند طليطلة، ثم عبر
نهر دويرة متجهاً نحو قلعة شنت منكش، أو شنت مانك (سيمانقة) دون أن يفطن إلى ما يفت في عضد هذه القوة العظيمة من العوامل الخفية؛ وكان راميرو
الثائر يرابط على مقربة منها في حشود عظيمة، متأهباً لقتال المسلمين بكل ما وسع، وزوده حليفه الخائن أمية بن إسحاق بنصائح ومعلومات ثمينة،

---

(١) المقتبس في السفر الخامس - لوحة ١٦٣ أوب.



وانضمت إليه طوطة ملكة نافار ناكثة لعهدها، وبذا اتحدت قوى اسبانيا النصرانية لمقاتلة المسلمين مرة أخرى.

وهنا تختلف الرواية العربية والفرنجية اختلافاً بيناً في شأن الموقعة التي نشبت بين المسلمين والنصارى، وبينما تقدم إلينا الرواية الفرنجية كثيراً من التفاصيل الواضحة المغرقة أحياناً، إذا بالرواية العربية يغلب عليها الإيجاز والغموض والتحفظ؛ وبالرغم من أن الرواية الأندلسية تشير إليها في غير موضع وتصفها
" بغزاة القدرة " تنويهاً بأهميتها، وما كان يعلق عليها من رغبة في سحق المملكة
النصرانية، وتسميها بموقعة " الخندق " وهو نفس الإسم الذى تقدمه الرواية الفرنجية، فإنها لا تقدم إلينا أى تفصيل شاف عن مكانها وظروفها (١) .

وسوف نستعرض أقوال الرواية الإسلامية أولا، ثم نتلوها بأقوال الرواية النصرانية، حتى نستطيع بالتمحيص والمقارنة، أن نخرج بفكرة واضحة عن

حقائق

هذه الموقعة التي تعتبر من كوارث التاريخ الأندلسي.

ويقدم إلينا المسعودى عن الموقعة رواية يطبعها لون القصة.

فيقول لنا

إن عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف على مدينة سمّورة عاصمتها، وكانت في غاية المناعة، يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان، قد أحكمتها

الملوك السابقة، وبين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء، فافتتح المسلمون منها سورين، واحتمى النصارى بداخل المدينة، ثم لحق المسلمين الإعياء من امتناع المكان وحصانته، فكر عليهم النصارى بشدة وحماسة، فساد الاختلال بين المسلمين وهزموا هزيمة شديدة، وقتل منهم زهاء أربعين ألفاً وقيل خمسين ألفاً، وكان ذلك في شوال سنة ٣٢٧ هـ (يوليه ٩٣٩ م) .

وسميت الموقعة بموقعة

الخندق لنشوبها على خنادق سمورة (٢) .

على أن الرواية الأندلسية أكثر وضوحاً ودقة، في شرح تفاصيل هذه

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٣٦؛ ويشير ابن خلدون إلى الموقعة إشارات عابرة (ج ٤

ص ١٣٧ و١٤٠) .

وكذا ابن الأبار في الحلة السيراء ص ١٥٠.

ولم يذكرها ابن عذارى فى

البيان المغرب.

(٢) مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٧٨، ونقلها المقرى في نفح الطيب ج ١ ص ٦٦٥

وابن الأثير ج ٨ عى ١١٥.

الكارثة.
ولدينا من ذلك روايتان، تمتاز كلتاهما بنوع من الوضوح في تحديد مكان الموقعة وظروفها، هما رواية مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان، ورواية الوزير ابن الخطيب.
أما رواية ابن حيان، وهى التي ينقلها في المقتبس عن عيسى بن أحمد الرازى، فخلاصتها، هو أن الناصر لما عزم على غزو أهل جلِّيقية (مملكة ليون) ، جد في الاستعداد والحشد، وبعث كتبه إلى الثغور، واستكثر من الآلات والسلاح، وخرج في حشوده إلى الغزو في يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٣٢٧ هـ الموافق لأول شهر يونيه العجمى (سنة ٩٣٩ م) .
وكان الناصر
قد سير قبل خروجه الوزير القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة في بعض قواته
إلى جهة الغرب احتياطاً على أهله، وحماية لهم أثناء قيامه بالغزو.
ووصل الناصر في قواته إلى طليطلة في يوم ٢٣ رمضان، ثم خرج منها الى أرض العدو (قشتالة) في الخامس من شوال، فعاث فيها أياماً، وألفى النصارى
قد أخلوا معظم بلاد هذه المنطقة، وكانت غاصة بالنعم والأقوات، فاستولى المسلمون عليها، ثم تقدموا إلى حصن أشكر، وخربوه وانتسفوا ما حوله. ثم
ساروا إلى حصن أطلة، فحصن برتيل، وذلك في يوم ١٣ شوال.
وكان محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة قد تقدم في قواته، في الوقت نفسه، فعبر نهر شنت مانكش (سيمانقا) ، فارتد العدو بقواته وراء النهر.
ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى أولا، ولكنهم عادوا فاجتمعوا وتكاثروا على المسلمين، وسقط محمد بن هاشم عن فرسه خلال القتال فأسر،

وهزم المسلمون على باب شنت مانكش هزيمة شديدة، وقتل منهم كثيرون وارتدوا
في تراجعهم إلى خندق عميق، وهو الذى تنسب إليه الموقعة، فتردى فيه منهم خلق
كثير، فتقدم الناصر مضطراً بقواته، وترك محلته، فملكها العدو في الحال، واحتل الناصر أعلى النهر بقواته، وقد عجز النصارى عن اتباعه، فلبث هناك
يومه، وقد ساد الخلل في الجيش، وأيقن الناصر بتمحيص الله للمسلمين، ثم رحل قافلا حتى وصل إلى مدينة وادي الحجارة، ثم سار منها إلى قرطبة.
هذا ملخص ما نقله ابن حيان عن عيسى بن أحمد عن موقعة الخندق، ويزيد ابن حيان على ذلك، أن هذه الوقيعة التي اشتهر حديثها بالأندلس قد نالت



السلطان (الخليفة) والمسلمين فيها محنة عظيمة، وقتل وأسر فيها خلق كثير. واستولى العدو على محلة السلطان وسرادقه وآلاته السلطانية، وفيها مصحفه الخاص ودرعه الأثير لديه.
وشملت الهزيمة سائر الكافة، فلم ينج من نجا منها
إلا على متون الدواب.
وأصاب القتل والأسر بالأخص أهل البلاد والمطوعة.
أما الجند فقد نجا معظمهم، وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والحشودة.
ويقول لنا ابن حيان، إنه كان بين ضحايا المعركة جده أبو سعد مروان بن حيان بن محمد بن حيان.
ومن الحقائق المؤلمة التي ينقلها إلينا ابن حيان، أنه
قد بدا في هذا اليوم، من قوم من وجوه الجند " النفاق لأضغان احتملوها على السلطان فقبعوا للصفوف، وسارعوا في الهرب، وجروا على المسلمين الهزيمة

وأوبقوهم.
وكان أسبقهم إلى ذلك وأكشفهم لما في نفسه الخاين " ابن فرتون بن
محمد الطويل " وقد بعث الناصر خلفه برسول استطاع القبض عليه، فثقف
وحمل إلى قرطبة، وهنالك صلب على باب السُّدة يوم وصول الناصر من
غزاته، وألحق به نفر من أشكاله ممن عملوا عمله، ولحقهم وزره.
ويصف لنا عيسى بن أحمد، طريق العودة الذى سلكه الناصر بجيشه عقب
الموقعة، فيقول إن الناصر، قصد أولا إلى مدينة الفرج (وادي الحجارة) ، ثم
غادرها في يوم الخميس الحادى عشر من ذى العقدة، وسار إلى جربيرة،
ومنها
إلى شبطران، ومنها إلى محارس، ومنها إلى مدينة طليطلة، فلبث بها أربعة
أيام، ورحل منها يوم الخميس إلى فج سراج، ومنها إلى ملقون، ثم احتل
بالبركة، ومنها إلى منزل رند، ثم إلى قنالش على وادي أربيشر، ومنها إلى
طير برتيطة، ومنها إلى قليانة، فأرملاط، ومنها إلى منية نصر على باب
قرطبة بعدوة النهر
بالربض.
وهنالك قضى الليل.
تم سار إلى قصر قرطبة في الغد، وقد نفذ أمره
بصلب فرتون بن محمد الطويل، على باب السُّدة الأكبر من أبواب القصر.
هذا، وقد نقل إلينا ابن حيان نص الكتاب الذى صدر باسم الناصر عن
الموقعة، وهو من إنشاء الوزير الكاتب عيسى بن فطيس.
وهو كتاب طويل، يحاول فيه
كاتبه أن يصف أدوار الموقعة، وروعة القتال الذى نشب بين المسلمين
والنصارى؛
ويستخلص منه أن المعركة بدأت في صالح المسلمين، وأنهم استطاعوا في
البداية
أن يردوا النصارى، وأن يفضوا جموعهم، حتى سقط محمد بن هاشم التجيبى

قائد الطليعة عن فرسه، وأسره النصارى، فعندئذ ارتد المسلمون إلى
خطوطهم، وذلك بعد أن قتلوا عدداً كبيراً من أعلام النصارى، وقوامسهم
وفرسانهم.
ثم استؤنف القتال في اليوم الثالث، وقد تضخمت حشود النصارى
بما ورد إليهم من الأمداد " من أقصى بنبلونة وألبة والقلاع، وأهل قشتيلة إلى
مشركى قلمرية، وكل صنف من أصناف العجم معهم "، واضطرمت المعركة
بين الفريقين، وانتهت هذه المعركة الثانية بهزيمة النصارى وقتل عدد من
أعلامهم، وارتد المسلمون إلى خطوطهم ظافرين.
وفى اليوم التالى بادر النصارى بالهجوم، فلقيهم المسلمون بعنف وشدة،
واحتدم القتال، وسقط " عظيم من عظماء
النصارى " فاستداروا حوله، وقد لحقتهم الهزيمة، وهنا يقول الكتاب " وبلغ
أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين، والاحتلال بساحتهم،
وانحياز طاغيتهم في أعلى شاهق، يرجو النجاة بنفسه، فأمر بالرحيل، وقد
ضاعف النظر، والعدو في ضبط ساقة جيشه، لما توقع خروج الكفرة في أثره،
وأصبح منتقلا، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد على
رأس جبل ".
وسار الناصر، حسبما ينبأنا الكتاب، بعد ذلك صوب نهر دويرة، فى
اتجاه حصن شنت منكش، وهو يهدم الحصون، وينتسف الزروع في طريقه،
وكان الناصر، يزمع السير شرقاً بحذاء دويرة، حتى حصن شنت إشتيبن،
ولكنه
عدل عن ذلك، وأزمع السير إلى حصن أنتيشة.
وهنا يحدثنا الكتاب عن المرحلة
الحاسمة من الموقعة، ذلك أن الناصر، أشرف في سيره على " خنادق ومهاو
تتقاذفه، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون، وقدموا إليها، وألقوا إلى

ساقة الجيش فرسانهم، فدارت عليهم الحرب، وصرع فيها من جلة فرسانهم،
ومتقدمى رجالهم جملة، لو أصيبت بحيث يتراءى الجمعان لكانت سبب
هزيمتهم، ولكنهم وثقوا بالوعد، وانتظروا تقدم الحماة، وترادف الأثقال، فحامى
أمير
المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين.
ساعات من النهار، حتى تقدم أكثرهم، وجازت الخندق لقتالهم، إلا من
ضعفت دابته، أو ضعفت تعبئته عن استنفارها، فلما رأوا الخلل تصايحوا من
قنن الجبال، وانحطوا من أعاليها انحطاط الأوعال، فأصابوا من الأمتعة
والدواب المثقلة، ما لو أصابوا مثله في مجال حرب أو سهل

(٤١٧/١)

من الأرض، لما أنكر مثله مثله، عند مقارعة الرجال، وتصرف الأحوال،
وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق، وخلص من مضايقه،
حتى
أسهلوا، وأصبح لأمير المؤمنين جيوشه، وانتظمت جموعه، وسلم الله رجاله،
فلم يصب منهم أحد.
وفى ذلك دليل للسامع عن الموقعة أنها لم تدر بغلبة، ولا ظفر المشركون،
اظفروا به فيها عن مساواة أو كثرة، ولكن ضيق المسالك، ووعر الطريق،
وسوء فهم الدليل، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التي
لا تصرف، ومحنه التي لم يزل يمتحن بها أولياءه ليعظهم، ويبتلى عبيده
ليرهبهم، وأمير المؤمنين شاكر لله تعالى عظيم نعمه، وواقف على تصرف
محنته، مستسهل
ما اختص به في حب طاعته، ضارع إلى الله تعالى في التقبل لقوله وفعله ".
وقد أرخ هذا الكتاب في اليوم الثامن من ذى القعدة سنة ٣٢٧ هـ، أعنى
عقب الموقعة بأربعة أسابيع، وحينما وصل الناصر في ارتداده إلى وادي
الحجارة، وذلك ليكون إيضاحاً للناس ومعذرة من الخليفة، عما أصابه من

هزيمة.
على أن
هذه العبارات الرفيقة التي صيغ فيها الخطاب، وهذه التأكيدات الجريئة، بأن
أمير المؤمنين، عقب جواز الخندق، قد انتظمت جيوشه، وسلم الله رجاله، ولم
يصب منهم أحد، لا يمكن أن تنفى شيئاً من الحقائق المؤلمة، التي تشهد
كلها
بفداحة النكبة التي نزلت بجيش الناصر على خندق شنت منكش، والتي
يفصل
لنا ابن حيان بعض نتائجها وآثارها فيما تقدم.
ونقل إلينا ابن حيان كذلك رواية موجزة عن الموقعة عن عريب بن مسعود
جاء فيها: " غزا الناصر لدين الله سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بالصوائف إلى
مدينة شنت مانكش بلد ألبة، وبارز الكفرة، فوقعت حرب عظيمة انهزم
المسلمون عنها، واستمسك الناصر لدين الله في رجال الحقيقة بعد أن هلك
فى
[الموقعة] عالم من المسلمين، وقتل منهم كثير، وأسر كثير، وكان ممن أسر
محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة.
وذلك في شهر رمضان منها ".
وكان القائد الباسل محمد بن هاشم التجيبى، قد لبث في أسر راميرو
(رذمير) ملك ليون، مدة استطالت أكثر من عامين، والناصر يسعى إلى
افتكاكه، ويضاعف له الفدية، حتى أفرج عنه أخيراً، وحضر إلى قرطبة فى

(٤١٨/١)

شهر صفر سنة ٣٣٠ هـ، بعد عامين وثلاثة أشهر من أسره (١) .
وأما رواية ابن الخطيب، فهى بالرغم من إيجازها أقرب الروايات الإسلامية
إلى الدقة والحقائق التاريخية؛ فهو يحدد تاريخ الموقعة، ومكانها بدقة،
ويصفها

" بالوقيعة الشهيرة التي ابتلى الله بها عبد الرحمن ومحصه، والتي أوقعه بها
عدو الله
رذمير ابن أردون ".
فأما تاريخ الموقعة فهو يوم الجمعة ١١ شوال سنة ٣٢٧ هـ
(أول أغسطس سنة ٩٣٩ م) ، وقد وقعت على باب شانت منكش (٢) ، بعد
قتال استمر أياماً، تراوحت فيه المغالبة بين الفريقين بأشد ما يكون وأصعبه.
ثم
كانت للعدو الكرة، فانكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله، وألجأ العدو
المسلمين إلى التراجع إلى خندق عميق، هو الذى تنسب إليه الموقعة (فهى
تسمى
موقعة الخندق (٣) .
فتساقط فيه المسلمون حتى ساووا بين ضفتيه، وانكشف
الناصر، واستولى العدو على محلاته، وما فيها من عدة ومتاع، وضاع فيها
مصحفه ودرعه (٤) .
ولدينا من الرواية النصرانية أولا رواية ألفونسو الحكيم في تاريخه العام، وهى
رواية موجزة مغرقة معاً، وخلاصتها أن عبد الرحمن ملك قرطبة وابن
يحيى ملك سرقسطة، قدما في جيش ضخم إلى أرض الملك راميرو، ووصلا
فى
جيشهما حتى بلدة سيت مانكاس.
فلما علم بذلك الملك راميرو خرج لقتالهم وقاتلهم
حتى هزم المسلمون، وقتل منهم ثمانون ألفاً، وكان هذا اليوم يوم القديس
يوستى
والقديس باستور.
ويقول لوقا التوجى إنه كان يوم الإثنين.
وأسر ابن يحيى.
وهرع المسلمون الآخرون إلى حصن يسمى " الخندق "Alfondiga وتركوا

كثيراًمن قتلاهم في الميدان.

وحاصرهم الملك راميرو في هذا الحصن، وفر منه

---

(١) نقلنا رواية ابن حيان عن موقعة الخندق والكتاب الذى صدر عن الناصر عقب وقوعها

من السفر الخامس من المقتبس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحات ١٦٧ إلى ١٧٢ أ.

هذا وقد

نشرنا نص كتاب الناصر كاملا في نهاية الكتاب.

(٢) شنت مانكش هى بالإسبانية Simancas (سيمانقة) .

وهى تقع على مقربة من نهر

دويرة شرقى مدينة سمورة وجنوب غربى بلد الوليد.

وما تزال هذه القلعة قائمة حتى اليوم بصورتها

النصرانية المجددة.

وهى اليوم مقر دار المحفوظات الإسبانية.

(٣) وتعرف الموقعة بالإسبانية Alhandega محرفة عن كلمة " الخندق ".

(٤) أعمال الأعلام ص ٣٦ و ٣٧.



عبد الرحمن ناجياً بنفسه في نفر من صحبه، وعاد الملك راميرو في جيشه ومعهم

غنائم كثيرة من الذهب والفضة والأحجار النفيسة وأشياء كثيرة أخرى، وأخذ معه ابن يحيى أسيراً (١) .

بيد أن هنالك روايات نصرانية أخرى أكثر دقة ووضوحاً.

وخلاصة هذه

الروايات هو أن عبد الرحمن سار بجيشه في اتجاه سيمانقة الواقعة على

مقربة من
نهر دويرة شرق مدينة سمورة، فلقيه راميرو وحليفته طوطة في قواتهما،
ونشبت
بين الفريقين موقعة في ٥ أغسطس سنة ٩٣٩ م، فأبدى رؤساء العشائر
العربية
في القتال فتوراً وتراجعوا أمام النصارى.
ولكن حدث ما لم يتوقعه المسلمون، ذلك أن النصارى طاردوهم وألحوا في
قتالهم، فارتد المسلمون أمامهم نحو الجنوب
الغربى، حتى محلة صغيرة في جنوبى مدينة شلمنقة تسمى ألانديجا (الخندق)
، ثم وقفوا وكروا على النصارى بفتور وتخاذل، وهجم النصارى عليهم بجرأة
وشدة، فهزم المسلمون هزيمة شديدة، وأمعن النصارى فيهم قتلا وأسراً.
فساد
الخلل في الجيش الإسلامى، ومزقت منه فرق برمتها، وقتل قائده نجدة
الصقلى، وأسر محمد بن هاشم حاكم سرقسطة ومزق جيشه، وكان يحارب
إلى جانب
عبد الرحمن في هذه الغزوة، وحمل مصفداً إلى ليون.
وأثخن عبد الرحمن نفسه
جراحاً، ولم ينج من الموت والأسر إلا بأعجوبة، فولى شطر قرطبة في نفر
من
الفرسان (٢) .
ولم يحاول راميرو أن يستغل نصره بمطاردة المسلمين.
ويقال إن
الذى منعه من مطاردتهم هو أمية بن اسحاق إذ حذره من الكمين ورغبه فيما
خلفوه
من الأسلاب والغنائم الضخمة.
ولولا ذلك لفنى الجيش الإسلامى بأسره (٣) .

وكان لانتصار راميرو وقع عظيم في أوربا وفي العالم الإسلامى، بيد أن
الموقعة
على روعتها لم تكن بعيدة الأثر في قوة الأندلس ومنعتها، ولم يدخر عبد
الرحمن
منذ عوده إلى قرطبة جهداً في تنظيم الجيش وإصلاحه، وتطهيره من العوامل
الخطيرة التي أدت إلى هذه الكارثة.
ويحاول ابن الخطيب أن يوضح لنا أسباب
هذه الكارثة في قوله: " وجرت الهزيمة على المسلمين طائفة من جند الناصر

---

(١) Cronica General, ibid, Vol.
II.
p.
٣٩٦
(٢) Dozy: Hist.
؛ Vol.
II.
p.
١٥٥ - ١٥٦ وكذلك: Aschbach: Geschichte der
Omajaden in Spanien.
B.
II.
p.
٥٠ حيث يورد الروايات النصرانية.
(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥.

لدين الله حسدته ما هيأ الله من الصنع، ولم تناصحه في الحرب حق النصح، فجالت
ثانية للأعنة، واختل مصاف القتال ".
ثم يقول لنا إن الناصر، قرر أن يبطش
بأولئك الخونة المتهاونين، فأمر قبيل وصوله إلى قرطبة، أن تقام المصالب على ضفة نهرها، وما كاد يصل إلى قرطبة، حتى قبض على نحو ثلاثمائة من
الفرسان، فصلبهم وأمر بالنداء عليهم: " هذا جزاء من غش الإسلام، وكاد أهله، وأخل بمصاف الجهاد " (١) .
بيد أن موقعة الخندق كانت خاتمة أعمال الناصر
الحربية فلم يغز من بعدها بنفسه.
وفى ذلك يقول ابن حيان: " إنه قد اشتدت على الناصر نكبته في غزوته هذه، فاتهم سعده، واعتكر بكره، حتى خاف على نفسه، فأشير عليه بعكس همه.
فالتفت إلى البنيان يعالج به همه وأساه، فأنشأ مدينة الزهراء، وأقصر من ذلك الوقت عن الغزو بنفسه، ووكل إلى حزمة قواده وشجعانهم، يجردهم بالصوائف كل عام ".
ومن جهة أخرى فقد رأى عبد الرحمن أن يتبع نحو
أمراء الثغر الأعلى سياسة جديدة.
وذلك أنه، وفقاً لقول ابن حيان قد " اقتصر
في تقليد شؤون الثغر الأعلى الممانعة للدروب على أكابر ساكنيها ورّاثها عن الأجداد
والآباء صلابة البأس، آل تجيب، وآل ذى النون، وآل زروال، وآل غزوان، وآل الطويل، وآل رزين، وأسبابهم المؤمرين قديماً بثغورهم، الذابين عن حريمهم، فضم بلادهم بينهم حصصاً، وجدد لهم ولأعقابهم بعدهم على أقسامهم منها كل عام، ثم لا يغبنهم بالصلات إذا وفدوا وطلبوا،

وبالهدايا
إن بعدوا "، وقد ترتب على ذلك أن كان هؤلاء الزعماء يقومون بدفاع
النصارى، وكان الناصر يزودهم كل عام بالعدد والسلاح، والمستنفرة
والمطوعة إلى الثغر
تعضيداً لجهودهم (٢) .
واستأمن أمية بن إسحاق بعد ذلك عبد الرحمن، فلم ير بأساً من تأمينه والعفو
عنه.
وكانت سياسة عبد الرحمن ترمى دائماً إلى اصطناع خصومه الأقوياء
بالعفو
والإغضاء.
وسعى عبد الرحمن حسبما تقدم إلى افتداء محمد بن هاشم، فأفرج
عنه النصارى بعد أن لبث في سجون ليون زهاء ثلاثة أعوام، وغمره الناصر
بعطفه

---

(١) أعمال الأعلام ص ٣٧.
(٢) ابن حيان في السفر الخامس لوحة ١٦٨ ب.

(٤٢١/١)

فأسبغ عليه لقب الوزارة، وجعله قائداً للثغر، وعاد إلى سرقسطة، وكان يزور
قرطبة من آن لآخر، واستمر والياً لسرقسطة حتى توفى في سنة ٣٣٨ هـ.
فعين
الناصر ولده يحيى مكانه في الولاية والقيادة.
وشغل النصارى مدى حين بعد
موقعة الخندق بطائفة جديدة من الحروب الأهلية، واستطاع عبد الرحمن
خلال
ذلك أن يعنى بإصلاح شئون المملكة وتقويتها.

وجنح راميرو ملك ليون إلى السلم مرة أخرى، وبعث إلى الناصر يطلب
عقد الصلح فأجابه الناصر عن كتابه بالقبول، وبعث إليه سفيراً ليعقد معه
شروط السلم.
ولكنه كان كالعادة سلماً قصير الأمد.
وعقد الناصر من جهة أخرى السلم مع صاحب برشلونة الإفرنجى شنير بن
منفريد، وبعث إليه كاتبه حسداى بن إسحاق الإسرائيلى، لينظم معه عقد السلم
وفقاً للشروط التي ارتضاها الناصر، وخلاصتها أن يتخلى شنير عن إمداد
جميع
النصارى الذين ليسوا في سلم الناصر، وأن يلتزم طاعته، وأن يحل المصاهرة
التي
بينه وبين غرسية بن شانجه صاحب بنبلونة (نبرّة) ، وكان شنير قد زوجه
ابنته فألغى زواجها، وفقاً لرغبة الناصر.
وأصدر الناصر أوامره إلى قادة الأسطول
وعمال السواحل بتحامى أعماله ومسالمة أهل بلاده.
ودعا حسداى أمراء الثغر
الفرنجى إلى طاعة الناصر، فأجابه منهم، إلى جانب شنير، إنجه صاحب
جيرنده، وبعث إلى قرطبة سفارة يطلب تأمين تجار أراضيه الذين يجوبون
ربوع الأندلس، فأجيب إلى طلبه، وصدرت الأوامر إلى جميع عمال الجزائر
الشرقية والمراسى
الساحلية، بتأمين سائر رعايا إنجه على أنفسهم وأموالهم (١) .
ولم يحترم ملك ليون عهد السلم طويلا، وعادت بعوثه تعيث في الأراضي
الإسلامية.
ومن ثم فإن غزوات المسلمين لإسبانيا النصرانية لم تنقطع في الأعوام
التالية.
ففى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) غزا المسلمون أراضي ليون وعاثوا فيها؛
وفى سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) عنى الناصر بتجديد مدينة سالم (٢) وهى

أقصى مدن
الأندلس الشمالية الغربية على حدود ليون، وحصنها وشحنها بالرجال والعدد،

---

(١) المقتبس - السفر الخامس - لوحات ١٧٣ - ١٧٥.
(٢) هى بالإسبانية Medinaceli وترجع تسميتها بذلك الإسم إلى أنها كانت منزل بني سالم، وهم بطن من بطون قبيلة مصمودة البربرية (راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم - القاهرة -
ص ٤٦١) .

(٤٢٢/١)

وكانت قد خربت من جراء غزوات العدو المتكررة.
وتوالت غزوات المسلمين
لأراضي ليون في الأعوام التالية.
وفى أواخر سنة ٣٣٩ هـ (يناير ٩٥٠ م) ، توفى راميرو الثاني ملك ليون،
فثارت الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو
وسانشو، وانتهز المسلمون هذه الفرصة فعاثوا في أراضي ليون غير مرة، وانتهى
الأمر بفوز أردونيو وجلوسه على العرش.
ورأى أردونيو أن يعقد الصلح مع
الناصر، فأرسل إليه سفيراً يخطب وده، فاستجاب الناصر إلى دعوته، وعقد معه معاهدة صلح تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود، وأن يهدم البعض الآخر (سنة ٩٥٥ م) ، ولكن أخاه سانشو رفض هذه المعاهدة
وحال دون تنفيذها.
فاضطر الناصر إلى استئناف الحرب، وسير قائده أحمد
ابن يَعلى جيش إلى ليون، فهزم النصارى وعقد الصلح بين الفريقين مرة

أخرى، واستمرت بينهما علائق السلم مدى حين.

* * *

ونعود الآن قليلا إلى الوراء لنستعرض بعض الحوادث الداخلية، ومنها بالأخص ما حدث من محن المحل والمجاعة بالأندلس.

ففى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، وقع المحل بالأندلس واحتبس الغيث، واضمحلت الزروع، وعزت الأقوات، وغلت الأسعار على نحو ما حدث في سنة ٣٠٣ هـ، فأمر الناصر خطيب المسجد
الجامع بالحضرة، بالاستسقاء، فبدأ بذلك في خطبة الجمعة التالية، ثم برز بالناس إلى مصلى الربض يوم الإثنين الثامن من شهر صفر (٢٣ مارس) ، فلم
يسقط الغيث، واستمر المحل والقحط، وجهدت الناس.

وخرجت كتب
الناصر إلى جميع العمال على الكور بالأمر بالاستسقاء، وكان الكتاب إلى جميع
العمال بنفس النص على النحو الآتى:

" بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فإن الله عز وجل، إذا بسط رزقه وأغدق نعمته، وأجزل بركاته، أحب أن يشكر عليها، وإذا رواها وقبضها، أحب أن يسئلها، ويضرع إليه فيها، وهو الرزاق، ذو القوة المتين، والتواب الرحيم، الذى يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون، وهو الذى يتزل الغيث من بعد ما قنطوا، وينشر رحمته، وهو الولى الحميد، فأوجبت به الرغبة، عز وجهه فيه، والخشوع لعزته، والاستكانة له، والإلحاح في المسئلة



فيما احتبس به، والتوبة من الأعمال المنكرة التي توجب سخطه منه، وتبذل نقمته، وتستروحه رضاه، تعالى جده.

وقد أمرنا الخطيب فيما قبلنا بالاستسقاء

في المسجد الجامع يوم الجمعة، والجمعة الثانية التي تليه، إن أبطأت السقيا، والبروز يوم الإثنين بعدها لجماعة المسلمين عندنا إلى مصلاتهم، أو يأتى الله قبل
ذلك بغيثه المعنى عنه، ورحمته المنتظرة منه، المرجوة عنده، فمر الخطيب بموضعك
أن يحتمل على مثل ذلك، ويأخذ به من قبله من المسلمين، وليحملهم بذلك المحمل، ولتكن ضراعتهم إلى الله تعالى، ضراعة من قد اعترف بذنبه، ورجا رحمة الله، والله غفور رحيم، وهو المستعان لا شريك له إن شاء الله " (١) .
وفى سنة ٣٢٤ هـ، وقع بالأندلس محل جديد لم يعهد فيها بمثله من قبل، فاحتبس المطر، وجفت الزروع.
ومع ذلك فلم يترك هذا المحل وراءه كثيراً
من الآثار المخربة، ويقول لنا ابن حيان، إن البركات والخيرات استمرت ذائعة بين الناس في سائر الجهات.
وبذل الناصر لمعونة الناس ما جبر النقص
في المحل.
وانهمل الغيث في العام التالى، وقد نظم الشاعر عبد الله بن يحيى بن إدريس في ذلك قصيدة في مديح الناصر هذا مطلعها:
نعم الشفيع إلى الرحمن في المطر..

.

مستنزل الغيث بالأعذار والنذر (٢)
وعاد المحل والقحط يعصف بالأندلس في سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) ، وتوقف المطر، وعم الجفاف، وشرع قاضى الجماعة، وصاحب الصلاة محمد بن أبى
عبد الله بن عيسى في إقامة صلاة الاستسقاء في يوم الجمعة الثاني من ربيع الآخر.
ولكن المحل تمادى، وبرز الناس إلى مصلى الربض مراراً وتكراراً.

وفى الثاني

عشر من جمادى الأولى (أول فبراير) ، بدا نوء غليظ وسحاب كثيف ونزل الثلج طوال اليوم وغطى الأرض، ثم نزل المطر والثلج، وانقطع دون أن يروى الأرض.

فعاد القاضى إلى الاستسقاء حتى استجاب الله لعباده بعد أيام قلائل، وبدأ الناس في الزرع، وتوالى نزول الغيث، واستسقى الناس سقيا وافياً، ورويت الأراضي والمزارع، وهبطت الأسعار وعاد الرخاء (٣) .

---

(١) ابن حيان في السفر الخامس - لوحة ١٠٢ أوب.

(٢) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ١٥٠ أ.

(٣) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ١٨١.

*(٤٢٤/١)*

هذا، ومما ذكره لنا ابن حيان من الحوادث الداخلية في سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) ، وقوع الحريق العظيم بمدينة قرطبة.

ففى أوائل شهر شعبان من

هذه السنة، نشبت النار بسوق قرطبة، فأحرقت جميع مجالس الحصاد، واتصل

الحريق بحى الصرافين، وما جاور مسجد أبي هرون، فاحترق وتداعى المسجد.

ثم اتصلت النار بسوق العطارين، وما جاوره من الأسواق والأحياء، واتسع نطاقها بصورة مرعبة.

وكان حريقاً شنيعاً مروع الآثار.

وقد أمر الناصر بعد

انتهائه، وانجلاء آثاره، أن يعاد بناء مسجد أبي هرون، فأعيد على أحسن حال.

وأمر الناصر كذلك بإعادة بناء ما تهدم من الدور والصروح العامة (١) .

- ٣ -

لم ينس عبد الرحمن خلال توفره على محاربة الثوار والنصارى داخل شبه الجزيرة، أن يعنى بمقاومة الدعوة الفاطمية التي اجتاحت شمالى إفريقية، وامتدت بسرعة إلى
عُدوة المغرب وإلى سبتة، وأخذت تهدد شواطىء الأندلس.
وكانت الدعوة
الفاطمية تنطوى بالنسبة للأندلس على خطر مزدوج دينى وسياسى معاً.
وكانت
في قوتها وعنفوانها تهدد طرفى إفريقية أعنى مصر والمغرب.
فمنذ عبيد الله المهدى
أول الخلفاء الفاطميين، تتردد جيوش الخلافة الفتية من قواعدها في تونس نحو
مصر والمغرب، غازية.
وكان اجتياحها السريع للمغرب يثير بحق جزع حكومة
قرطبة، ولا غرو فقد كانت عدوة المغرب تعتبر دائماً، قاعدة لغزو الأندلس وخط دفاعها الأول.
وكان ثوار الأندلس يتجهون بأبصارهم إلى العدوة، ويفاوضون الفاطميين، ويأتمرون معهم على حكومة الأندلس، فكان على عبد الرحمن
أن يغالب هذا الخطر الجديد قبل استفحاله.
ففى سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) سير
عبد الرحمن إلى ثغر سبتة أسطولا قوياً يتكون من مائة وعشرين سفينة، ما بين
حربية وناقلة، وسبعة آلاف رجل منهم خمسة آلاف من البحارة وألف من الحشم، وانضم إليه عدة من وجوه ألمرية وبجانة تطوعا في مراكبهم، وكان تحت قيادة

أميرى البحر أحمد بن محمد بن إلياس وسعيد بن يونس بن سعديل.
فخرج هذا
الأسطول من الجزيرة آخر جمادى الأولى من هذه السنة، واستولى على سبتة
من
يد ولاتها البربر بني عصام حلفاء الفاطميين، وطلب الناصر إلى صاحب
طنجة

---

(١) ابن حيان السفر الخامس - لوحة ١٥٠ أ.

(٤٢٥/١)

أبى العيش الحسنى أن ينزل له عنها لتكمل له بذلك السيطرة على رأس
العدوة، فأبى، فحاصره الأسطول وضيق عليه حتى أذعن، وأجاب الناصر
إلى ما طلب، وانتقل مع إخوته وبنى عمه من الأدارسة إلى مدينة البصرة
وثغر أصيلا تحت
طاعة الناصر (١) .
وبادر زعماء البربر من الأدارسة وزناتة إلى طاعة الناصر ومهادنته، وامتدت
دعوته إلى فاس.
وبعث إليه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة يطلب محالفته
والدخول في طاعته، فأجابه عبد الرحمن إلى رغبته، وأمده بالأموال والهديا،
وقوى أمره في المغرب.
وفى سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) استطاع موسى أن يهزم
جيشاً أرسله عبيد الله الفاطمى لغزو المغرب، والقضاء على دعوة الناصر،
بقيادة قائده ابن يصل عامل تاهرت.
ثم توفى عبيد الله في العام التالى.
وفى سنة
٣٢٣ هـ سير ولده الخليفة القائم إلى المغرب حملة أخرى، بقيادة ميسور

الصقلبى، فضيق على موسى وطارده حتى الصحراء، واستولى الأدارسة حلفاء الفاطميين
على مملكته.
وبعث الناصر لإنجاده إلى شواطىء العدوة أسطولا قوامه أربعون سفينة بقيادة أمير البحر عبد الملك بن أبي حمامة، سار إلى سبتة، تم تقدم إلى مليلة
فافتتحها، ثم افتتح نكور وجراوة، فقويت نفس موسى، واستقل نوعاً من عثرته، وانسحب الفاطميون إلى الداخل، وقضى الأسطول في غزواته هذه ستة أشهر، ثم عاد إلى قواعده في ألمرية.
وجازت جيوش عبد الرحمن وأساطيله بعد ذلك مراراً إلى المغرب، لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من الأدارسة وغيرهم من أمراء البربر، واضطر الأدارسة في النهاية إلى طلب الصلح من عبد الرحمن والاعتراف بطاعته (٣٣٢ هـ) ، ودعى لعبد الرحمن على منابر المغرب، واستقرت دعوته هنالك مدى حين، ولكن سلطانه فيما وراء البحر لم يكن ثابت الدعائم، وكان رهيناً بقيام دولة الأمراء المحالفين له.
ولما تولى المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين الملك، وبدت الدولة الفاطمية
في أوج قوتها في إفريقية، وأخذت أساطيلها القوية تزعج الدولة البيزنطية، بغزو

---

(١) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ١٢٥ أوب، والاستقصاء ج ١ ص ٨٥.

(٤٢٦/١)

شواطىء قلورية (١) في جنوبى إيطاليا، كان خطر غزو الفاطميين للأندلس يلوح

قوياً في الأفق.
والظاهر أن هذه الفكرة لم تكن بعيدة عن ذهن المعز، بل يبدو
فوق ذلك أن حكومة قرطبة وقفت على بعض وثائق تؤيد هذه النية.
وفى سنة ٣٤٤ هـ
(٩٥٥ م) سارت بعض السفن الفاطمية وهاجمت ثغر ألمرية، وأحرقت ما فيه
من
السفن، وعاثت في ألمرية.
فرد عبد الرحمن بأن أرسل قوة بحرية بقيادة أمير البحر
غالب، إلى شواطىء إفريقية (تونس) ، فعاثت فيها، وأمر عبد الرحمن في
الوقت
نفسه بلعن الشيعة والفاطميين على منابر الأندلس.
ثم عاد بعد ذلك بثلاثة أعوام، فسير أسطوله ثانية إلى إفريقية بقيادة أحمد بن
يعلى، تهديداً للقوات الفاطمية، التي زحفت بقيادة جوهر الصقلى حذاء
الشاطىء إلى عدوة المغرب، وكان المعز
قد سير قائده جوهراً في سنة ٣٤٧ هـ، في جيش عظيم إلى المغرب الأقصى،
ومعه
زعيم صنهاجة زيرى بن مناد في قواته، فاجتاح شمالى المغرب الأقصى كله
حتى المحيط، ونازل فاس واقتحمها عنوة.
وكان الناصر يرقب تقدم الفاطميين على هذا
النحو في أراضي العدوة بجزع، ويجعل أساطيله على أهبة دائمة.
وعبرت فى
نفس الوقت حملة أندلسية أخرى من طريق سبتة إلى المغرب، ولبثت هنالك
حتى
ارتد الفاطميون أدارجهم (٢) .
ويقدم إلينا ابن حيان بقلمه البليغ تلك الصورة عن تقدير الناصر لأهمية عدوة
المغرب في الدفاع عن الأندلس، ومقاومة الدعوة الفاطمية:

" لم تزل نفس الخليفة الناصر لدين الله، منذ استولى على أمر الملك، واعين النصر، وسلط على أهل الخلاف، دروباً على ما سخر له من ذلك، ظمؤا إلى درك اقصاره، متخطياً موسطته إلى نهايته، معملا فيه رؤيته، موقظاً له فكرته، تأمل هذا الفرج في ساحل البحر الرومى..

.

مجاورة جبل البرابر

الحالّين بلاد المغرب لملكتهم لعدوتهم الراكبة لعدوة بلد الأندلس، تكاد عدوتهما

تتراءى لضيق بحر الزقاق الحاجز بينهما، وسهولة مرامه أى أوقات الزمان رؤى

---

(١) وهى بالإفرنجية Calabria.

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ و ١٤١؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٩؛ ونفح الطيب

ج ١ ص ١٦٩؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢٥ و ٢٣٧، ٢٣٨؛ وراجع

Dozy: Hist.

، Vol.

II.

p.

١٦٤ & ١٦٥

(٤٢٧/١)

ركوبه.

فمنه طرقت الأندلس في الزمان الخالية، واكتسب أهلها المخافة، فدعته همته العلية، وفكرته المصيبة، إلى التوقل إلى تلك الباغية المرهوبة، والسمو

لتلك

العورة المكشوفة، وذلك عند ما كشف عند يكنف ذلك الساحل الغربى من طنجة الفتنة، وضع ما كان أوهته من صدع الفرقة، وملك مفتاح الجزيرة الخضراء فرضة الأندلس الدنيا، الراكبة فتح ذلك البحر المرهوب، المحاضية لضرتها مدينة سبتة فرضة المجاز من بلد العدرة.

فاذكى نظر عينه ما كان منبثاً

بخاطره من الرهبة، فأرهف العزم، وألطف الحيلة، وابتدئ ففتح ذلك بمخاضة من تقدمت له بأسلافه ملوك بني أمية من أمراء تلك البلاد في وصلة أو سلفت بينهم

أصرة، يستثير وصايلهم، ويصل أحبلهم، ويستدعى ولايتهم، ويسبب ذلك ما شاء مهاداتهم، واكرام أسبابهم، وقضاء حوايجهم، فلم يلبث أن هويت إليه أفئدة كثير منهم، وزعمايهم بين مصحح في ولايته، مستجيب لدعوته، مغتنم لعطيته.

مستعين بقوته على مدافعة من قد هد ركنه من بني عبيد الله إمام الشيعة المقتحم أرضه عليه ودونه، وبين منافق مقيم لسوقه بينه وبين تلك الشيعة، منذ بدت بينها العداوة، مايل مع الدولة، مجتلب لعاجل ما استمسك به من

الرشوة.

" استوى للناصر لدين الله من الطائفتين أولياء قاموا بدعوته، ورفعوا فوق أعلامه، وعاطوا مضطهدا، عبيد الله الشيعى صاحب إفريقية بدعوته، وقلبوا مجانهم إليه، ونصبوا الحرب لرجاله، فكفكفوهم عن الإيغال في بلدتهم من قاصية

المغرب، يهطنونهم بالكيد والمكر، فتمكنت بذلك قدم الناصر لدين الله، فيما حازه من مدينة سبتة والقطعة التي استضمها إليها من أرض العدوة، واجتذب من أجله كثيراً من فرسان البربر وحماة رجالهم إلى حضرته، استعان بهم فى حروبه، وتمكن من ذلك من ارتياد عتاق الخيل بوادي البربر، واستنتاجهم

الفاضل لبراذين الأندلس، فتمتنت بذلك أسباب ملكه، وجل مقداره، وبعد صيته، وهابته ملوك الأمم حوله، وظهرت نتيجة ما عاناه من مواصلة أمراء البربر، وسعى لهم سعيه لصدر دولته الفاضلة، سنة سبع عشرة وثلث مايه

وما يليها، إذ ترددت فيها عليه كتب محمد بن خزر عظيم أمراء زنانة في وقته، وأنفرهم عن عبيد الله الشيعى، وأدناهم من داره، وأول من تناوله الناصر

(٤٢٨/١)

لدين الله من جماعتهم بمكاتبته، واجتذبه بوصلته " (١) .

- ٤ -

هذا وربما كان قيام الخلافة الفاطمية في الضفة الأخرى من البحر، وانسياب دعوتها إلى المغرب الأقصى، على مقربة من شواطىء الأندلس، في مقدمة البواعث

التي حدت بعبد الرحمن إلى العمل على إحياء تراث الخلافة الأموية الروحى، بعد

أن توطدت دعائم دولتها السياسية بالأندلس، وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل

قد أمر بمنع الدعاء لبنى العباس، ولكنه لم يتخذ سمة الخلافة واكتفى بلقب الإمارة.

وسار بنوه على أثره.

وبالرغم من أن الدولة الأموية قد استطاعت غير مرة، أن

تستعيد مجدها السالف، في عهد الحكم بن هشام وولده عبد الرحمن الأوسط، فإن

أمراء بني أمية لم يفكروا في الإقدام على منافسة بني العباس في ألقاب الخلافة.

وقيل في تعليل ذلك إنهم كانوا يرون الخلافة تراثاً لآل البيت، ويدركون

قصورهم عن ذلك " بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة، والبعد عن
دار الخلافة التي هى مركز العصبية " وأنهم بعبارة أخرى كانوا يرون أن الخلافة
تكون لمن يملك الحرمين (٢) .

بيد أننا نعتقد أن هذا الإحجام يرجع بالأخص إلى
بواعث الحكمة والسياسة، والتحوط من إثارة الفتنة والخلافات الدينية والمذهبية.

فلما ظهرت الدعوة الفاطمية في إفريقية، ونمت بسرعة في أوائل القرن الرابع الهجرى، ولما تواترت الأنباء من جهة أخرى، عما انتهت إليه الدولة العباسية في المشرق من الإضطراب والفوضى، وما حدث من استبداد موالى الترك بالأمر
وحجرهم على الخلفاء، رأى عبد الرحمن أن يتسم بسمة الخلافة، وأن يسترد بذلك تراث أسرته الروحى، وأنه بما وفق إليه من النهوض بالدولة الإسلامية وتوطيد أركانها، أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة وأخرى طارئة. ونفذ
الأمر بذلك في يوم الجمعة مستهل ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ، حيث قام صاحب
الصلاة القاضى أحمد بن أحمد بن بقى بن مخلد بالدعاء له بالخلافة، على منبر المسجد
الجامع بقرطبة (٣) .

وإليك نص الوثيقة الرسمية التي صدرت بذلك وهو:

---

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس لوحة ١٠٣ ب و١٠٤ أ.

(٢) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ١٩٠؛ والمسعودي في مروج الذهب (بولاق)

ج ١ ص ٧٨؛ وابن الأبار في الحلة السيراء ص ٩٩.
(٣) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ٩٩ أ.

(٤٢٩/١)

" بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على نبيه محمد الكريم.
أما بعد فإنا أحق
من استوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله تعالى ما ألبسه، فنحن للذى فضلنا الله به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسر على
أيدينا دركه، وسهل بدولتنا مرامه، وللذى أشاد في الآفاق من ذكرنا، وأعلى فى
البلاد من أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا، واستبشارهم بما أظلهم من دولتنا إن شاء الله، فالحمد لله ولى الإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه.
وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا ورودها علينا بذلك - إذ كل مدعو بهذا الإسم غيرنا، منتحل له، ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه منه، وعلمنا التمادى على
ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه، واسم ثابت أسقطناه، فمر الخطيب بموضعك، أن يقول به، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله.
والله المستعان.
وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦ " (١) .
وهكذا اتخذ عبد الرحمن سمة الخلافة عن يقين بأفضليته، وأولوية حقه وحق أسرته، وتسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله، وذلك في الثاني من شهر ذى الحجة
سنة ٣١٦ هـ (يناير سنة ٩٢٩ م) فكان أول أمير من بني أمية بالأندلس ينعت

بأمير المؤمنين.

وبدأت الدعوة من ذلك الحين لبنى أمية بألقاب الخلافة في الأندلس

والمغرب الأقصى، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة.

ويضع بعض المؤرخين

اتخاذ لقب الناصر لسمة الخلافة في سنة (٣٢٧ هـ) أى بعد وقوعه بنحو

عشرة

أعوام، وهو تحريف واضح تنقضه وثيقة الدعوة الرسمية (٢) .

- ٥ -

وكان من أبرز الحوادث الداخلية في عصر الناصر، حركة الفيلسوف

المتصوف ابن مَسَرَّة الجبلى، واهتمام الناصر بمقاومتها وقمعها، وذلك حتى

بعد

أن توفى زعيمها بأعوام طويلة، وإصدار كتابه الشهير في شأنها.

---

(١) يضع ابن حيان اتخاذ الناصر لسمة الخلافة في حوادث سنة ٣١٦ هـ

والدعاء له بها، حسبما تقدم في مستهل ذى الحجة من هذه السنة، ويلخص

في كلامه نص الوثيقة (السفر الخامس -

لوحة ٩٩ أ) .

وقد اعتمدنا في نقل الوثيقة الخلافية على ما ورد في الأوراق المخطوطة

الخاصة بعهد

الناصر، ص ٧٨ و ٧٩، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٢.

(٢) هذه رواية ابن الأثير (ج ٨ ص ١٧٨) وكذلك ابن خلدون (ج ٤ ص

١٣٧) .

والظاهر أن أصحاب هذه الرواية لم يطلعوا على وثيقة الدعوة التي أثبتنا

نصها.

وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مَسَرَّة من أهل قرطبة، وبها ولد سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) ، ودرس على أبيه وعلى ابن وضاح والخشنى وغيرهم، ولكنه
جاهر ببعض الآراء الدينية المغرقة في التأويل والقدر وإنفاذ الوعيد وغيرها، فاتهم بالزندقة، فغادر الأندلس فارًّا إلى المشرق، وأنفق هنالك بضعة أعوام، وتفقه على يد المعتزلة والكلاميين وأهل الجدل.
ثم عاد إلى الأندلس، وهو
يخفي آراءه ونحلته الحقيقية تحت ستار من النسك والورع، وكان ذلك في بداية
عهد الناصر، فاختلف إليه الطلاب من كل صوب، وكان يستهويهم بغزير علمه، وسحر بيانه، ومنطقه الخلاب، حتى التف حوله جمهرة كبيرة من الصحب والأتباع، أضحت تكون مدرسة خاصة من الآراء الدينية والكلامية المتطرفة.
واختلف الناس في أمر ابن مسرة، فمنهم من كان يرتفع به إلى مرتبة الإمامة في العلم والزهد والورع، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع، والانحراف عن مبادىء الدين الصحيحة.
وتوفى ابن مسرة بقرطبة فى
شوال سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) (١) .
ولكن آراءه وتعاليمه بقيت من بعده ذائعة
بين تلاميذه وأتباعه، وتكونت من حولها فرقة سرية، اتهمت بالمروق والإلحاد، تتابع دعايته، وتعمل على بث تعاليمه، حتى برم بهم المتزمتون من أهل السنة، وأخذوا يسعون لدى السلطات المختصة، لتعمل على قمع هذه الجماعة، والقضاء
على تعاليمها.
وإليك كيف يصور لنا ابن حيان بقلمه البارع خطة ابن مسرة في بث تعاليمه، واستهواء أتباعه.

قال:

" كان مذهب الظنين، المرتب المرائى بالعبادة، المنطوى على دخل السريرة، محمد بن عبد الله بن مسرة، الرابض للفتنة، دب في الناس صدر دولة الخليفة الناصر لدين الله، واستهواهم بفضل ما أظهره من الزهد، وأبدى من الورع.

" وكان يستهوى العقول، ويصور الأفئدة.

وكان من شأنه أن يلقى أول

من يأتيه، مقتبساً من أهل السلامة، بالمساهلة، إلى أن يحيله عن رأيه بالمفاضلة، فإذا أصغى إلى عذوبة منطقه، وعلق في شرك حجاجه، غره رفقاً بباطله من

---

(١) ابن الفرضى في " تاريخ العلماء والرواة بالأندلس " (القاهرة) ج ٢ رقم ١٢٠٤,

وكذلك

الحميدى في " جذوة المقتبس " (القاهرة) ص ٥٨ و٥٩,

والتكملة لابن الأبار (القاهرة) رقم ٧٦٥ و ٩٩١.

*(٤٣١/١)*

الطاير فرخه، فلا يبعد أن يلفته عن رأيه، ويشككه في اعتقاده..

.

ويحصله

في اتباعه، فاستهوى خلقاً من الناس، صدّهم عن سبيل الله، وأوحشهم من الجماعة، واتخذ من رأى غيهم في مذهبه وايمة دخل في عرضهم رجال من ذوى الفهم.

ولم يزل يستظهر عليهم بالمواثيق في الكتمان الا من الثقات الوثاق العقدة، فاكتتم بذلك شأنه، إلى أن عاقصته منيته، صدر دولة الناصر لدين الله، أيام شغله بحروب أهل الخلاف المتصلة.

فرفع الله بموته عن الناس فتنة، ولم
يلبث دعاته مع انتشارهم في البلاد أن تلبسوا بعده بما أودعه من مكنون
علمه، فكثر القول في شأنه، وشيم أهل الخلاف من تلقايه، فذعر له أهل
السنة من
أهل قرطبة، وتوقعوا منه البلية، ففزع فقهاؤهم وكبراؤهم بها إلى أصحاب
الخليفة
الناصر لدين الله فنبهوا..
.
" (١) .
ومضت أعوام طويلة، قبل أن تصل أصوات أهل السنة المعارضين لتعاليم
ابن
مسرة إلى المسئولين، ولم يصدر قرار السلطة العليا في شأنه وشأن تعاليمه،
إلا
بعد أن مضى أكثر من عشرين عاماً على وفاته، مما يدل على أن دعوته
وتعاليمه
لبثت حية ذائعة.
قال ابن حيان:
" وفي يوم الجمعة لتسع خلون من ذى الحجة سنة أربعين وثلاث ماية، قرئ
على الناس بالمسجدين الجامعين بالحضرتين، قرطبة والزهراء، كتاب
أمير المؤمنين الناصر لدين الله إلى الوزير صاحب المدينة عبد الله بن بدر،
بإنكاره لما ابتدعه المبتدعون، وشذ فيه الخارجون، من رأى الجماعة المنتمون
إلى صحبة محمد بن عبد الله بن مسرة، وانتحلوه في الديانة، فافتتن العوام بما
أظفره من التقشف والشظف في المعيشة، واستتروا لبدعهم بسكنى الأطراف
البعيدة، حتى استمالوا بفعلتهم عصابة..
.
وفرقة، فتنت بمذاهبهم، وأن ذلك

بلغ أمير المؤمنين، ففحص عليه، وعلم صحته، فتعاظمه، واستوحش من اجتراء تلك الطايفة الخبيثة عليه، فأوعز إلى وزيره ومتولى أحكامه ومدينته، تتبع هذه الطائفة، وإخافتها والبسط عليها، والقبض على من عثر عليه منها، وإنهاء خبره إلى أمير المؤمنين ".

وأورد لنا ابن حيان بعد ذلك، نص الكتاب الذى صدر باسم الخليفة

---

(١) مخطوط ابن حيان (السفر الخامس من المقتبس) المحفوظ بالخزانة الملكية.

وقد حالت

خروم المخطوط دون ظهور بعض الكلمات.

*(٤٣٢/١)*

الناصر لدين الله، في الحملة على تلك الطائفة، والتبرؤ منها، وهو من إنشاء كاتبه ووزيره عبد الرحمن بن عبد الله الزجالى.

ويبدأ الكتاب بالتنويه بشأن الإسلام، وأفضليته على سائر الأديان، وبرسالة محمد خاتم النبيين، الذى اصطفاه الله، وأرسله إلى الناس، وكرم به أمته على ساير الأمم، وما نبه به الإسلام من إقامة الدين، وعدم افتراق الكلمة.

وانه

لما شملت النعمة، وعم الأقطار بعدل أمير المؤمنين السكون والدعة، طلعت فرقة

لا تبتغى خيراً، ولا تأتمر رشداً، من طغام السواد، " وأبدت كتباً لم يعرفوها، ضلت فيها حلومهم، وقصرت عنها عقولهم " واستولى عليهم الشيطان بخيله ورجله، فقالوا بخلق القرآن، واستيئسوا، وآيسوا من روح الله، وأكثروا الجدل فى آيات الله، وحرموا التأويل في حديث رسول الله، فبريت منهم الذمة، ووعدهم الله ببالغ نكاله، لما انطوت عليه قلوبهم من الزيغ، ولما كذبوا من التوبة، وأبطلوا من الشفاعة، ونالوا محكم التنزيل، والقدح في الحديث، والقول

بمكروه في السلف الصالح، فشذوا عن مذهب الجماعة، حتى تركوا رد السلام على المسلمين، وهى التحية التي نسخت تحية الجاهلين، وقالوا بالاعتزال عن العامة.

ولما فشى غيهم، وشاع جهلهم، واتصل بأمير المؤمنين، من قدحهم في الديانة، وخروجهم عن الجادة، أغلظ في الأخذ فوق أيديهم، وأنذرهم إنذاراً فظيعاً، واعتزم أن يوقع بهم العقاب الشديد، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرة قرطبة، ليفزع قلب الجاهل، ويضطر الغواة إلى الآثار الصحيحة التي يتقبلها الله منهم، وأن يقرأ هذا الكتاب في سائر الأقطار والكور، وفي البدو والحضر، وأن ينفذ عهده بذلك إلى ساير قواده، وجميع عماله.

لكى يقوموا بمطاردة هذه " الطغمة الخبيثة، التي اجترأت على تبديل السنة، والاعتداء على القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الأمين ".

ويختتم الكتاب بمطالبة العمال ببث العيون، وتتبع أولئك المارقين، وإخطار أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم، وأسماء الشهود عليهم، حتى يحملوا إلى باب سدته، وينكلوا بحضرته " (١) .

---

(١) ورد نص هذا الكتاب في اللوحات ١٧ و١٨ و١٩ من مخطوط المقتبس السالف الذكر.

وسوف ننشر نص الكتاب كاملا في نهاية الكتاب.



قال ابن حيان: " وتمادى الطلب لهذه الفرقة المسرِّية، والإخافة لهم، وتخويف الناس من فتنتهم بقية أيام الناصر لدين الله ".

وهنا ولأول مرة نجد شرحاً وافياً، بقلم ابن حيان القوى الناقد، لتلك الحركة الدينية الخطيرة، حركة ابن مسرَّة وتلاميذه، وهى التي استحالت أيام الناصر لدين الله إلى جمعية سرية واسعة الانتشار.

فهل كانت حقاً، كما
يصورها ابن حيان، وكما تصورها لنا الوثيقة الخلافية، التي ينقلها إلينا، جمعية
مارقة ملحدة، تهدد العقائد والنظام والأمن؟ أم هل كانت حركة تفكير
فلسفى حر، لم يتسع لها أفق التفكير المعاصر، وكانت كمعظم الحركات المماثلة
ضحية لنقمة المتزمتين الرجعيين من الفقهاء والحكام، يدافعون بسحقها عن
نفوذهم وسلطانهم المطلق؟ .

(٤٣٤/١)

الفصل الثاني
خلال الناصر ومآثره
عصر الناصر أعظم عصور الإسلام بالأندلس.
منشآت الناصر.
مشروع بناء الزهراء.
البدء فى
إنشاءها.
قصر الزهراء وفخامته وروعته.
منشآت الزهراء الأخرى.
بعض أوصاف وأرقام عن
الزهراء.
نهاية الزهراء كقاعدة ملوكية.
تخريبها أيام الثورة.
بعض ما قيل في رثائها.
أطلال الزهراء
واختفاؤها.

جهود العلماء الإسبان للكشف عن مواقعها.
وصف لما ظهر من آثارها ومعالمها.
منشآت
الناصر بالمسجد الجامع.
تنظيم الناصر للجيش والأسطول.
الأحوال المالية في عهد الناصر.
غنى الدولة
الأموية وبذخها.
إنشاء دار السكة بقرطبة.
قرطبة وعظمتها.
اصطفاء الدولة الأموية للموالى
والصقالبة.
حرص الناصر على السلطان المطلق.
الصقالبة ونفوذهم.
أثر هذا الاصطفاء.
قرطبة
مركز الجاذبية الدبلوماسية.
تقدم الصلات الدبلوماسية بين الإسلام والنصرانية.
سفارة قيصر
قسطنطينية إلى الناصر.
حفل استقبال السفراء وروعته.
هدايا قيصر إلى الناصر.
خطاب القاضى
منذر بن سعيد.
سفارات ملوك النصرانية.
سفارة إمبراطور ألمانيا.

سفارة الناصر إلى الإمبراطور.
موضوع المفاوضات بين العاهلين.
رأى الناصر في نظام الحكم.
سفارات نصرانية أخرى إلى الناصر.
مرض الناصر ووفاته.
خلاله وصفاته.
حجابه ووزراؤه وقواده.
الوزراء وأصحاب الخطط.
تنويه الشعر بعظمة عصره.
صفة الناصر.
أبناؤه.
إشادة النقد الحديث بمناقبه.
ننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحى عصر الناصر.
كان عصر عبد الرحمن الناصر بالرغم مما شغله من فتن وحروب مستمرة،
عصر عظمة ورخاء ومجد، بل كان في الواقع أعظم عصور الإسلام
بالأندلس،
ولاسيما من نواحيه المعنوية والحضارية.
وإذا كانت الأندلس قد بلغت فيما بعد
في عصر المنصور بن أبي عامر، ذروة تفوقها السياسى والحربى في شبه
الجزيرة
الإسبانية، فإن الدولة الأموية بالأندلس بلغت في عهد الناصر ذروة القوة
والبهاء؛
وكان هذا العهد حد الفصل بين مراحل تقدمها وازدهارها، ومراحل انحلالها
وسقوطها.
ولم تحل مهام الحرب والسياسة دون قيام الناصر بأعمال الإنشاء العظيمة،
وكان

في مقدمتها إنشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملوكية.
وكانت قرطبة
عاصمة الأندلس قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار، وأضحت تفوق بغداد
منافستها في المشرق بهاء وفخامه.
وكان الناصر قد ابتنى إلى جانب القصر الزاهر

(٤٣٥/١)

وهو مقام الملك، قصراً جديداً سماه دار الروضة، جلب إليه الماء من فوق
الجبل، واستدعى المهندسين والبنائين من كل فج، وأنشأ في ظاهر قرطبة
متنزهات عظيمة
ساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة.
ومع ذلك فقد كانت قرطبة
بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة، وسكانها الخمسمائة ألف، تضيق بما يتطلبه
ملك عظيم كملك الناصر، من استكمال الفخامة الملوكية، والقصور والميادين
والرياض
الشاسعة، بل كانت تضيق بهذه المرافق الملوكية منذ عهد عبد الرحمن
الداخل، حيث أنشأ الرصافة في ظاهرها لتكون له منزلاومتنزها ملوكياً.
وقد كان بناء القواعد
الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة.
فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من
توطيد ملكه، وسحق أعدائه في الداخل والخارج، عنى بأن يعرض آيات من
ملكه الباذخ، وثاب له رأى في أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية عظيمة،
فأنشأ مدينة الزهراء.
ولإنشاء الزهراء قصة، وربما كانت أسطورة على مثل
الأساطر التي ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة.
ولم تقل لنا الرواية إن الناصر

رأى حلماً كالذى رآه قسطنطين، وأوحى إليه بإنشاء قسطنطينية، ولكنها تقول لنا

إن الذى أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هى جاريته وحظيته "الزهراء"

وأنه ورث من إحدى جواريه مالا كثيراً، فأمر أن يخصص لافتداء الأسرى المسلمين، ولكنه لم يجد من الأسرى من يفتدى، فأوحت إليه "الزهراء" بأن ينشئ بهذا المال، مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها (١) .

بيد إنا نفضل أن

نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة، وإلى عرض فخامة الملك، والترفع بمظاهره وخصائصه، عن المظاهر العامة، لعاصمة مكتظة زاخرة.

والظاهر أيضاً أن شغفاً خاصاً بالعمارة والبناء، كان يحفز الناصر ويذكى رغبته في إقامة هذه الضاحية الملوكية، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على

كر العصور مظهر الملك الباذخ، والسلطان المؤثل، وقد نسبت إلى الناصر فى

ذلك أبيات قالها في هذا المعنى:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها..

.

من بعدهم فبألسن البنيان

أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم..

.

مُلْك محاه حوادث الأزمان

إن البناء إذا تعاظم شأنه..

.

أضحى يدل على عظيم الشان

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥.

*(٤٣٦/١)*

وهكذا اختطت الزهراء في ساحة تقع شمال غربى قرطبة، على قيد خمسة أميال أو ستة منها، في سفح جبل يسمى جبل العروس (١) .
وكان البدء في بنائها
في فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة (نوفمبر سنة ٩٣٦ م) .
وعهد الناصر
إلى ولده وولى عهده الحكم، بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة (٢) ، وحشد
لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية (٣) .
وجلب إليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردى من
ألمرية وريُّه، ومن قرطاجنة إفريقية وتونس، ومن الشام وقسطنطينية، وجلب
إليها من سوارى الرخام أربعة آلاف وثلاثمائة وأربعة وعشرين سارية (٤) . وكان
يشتغل في بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل، ومن الدواب
ألف وخسمائة، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ست آلاف صخرة في اليوم؛
وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر، أعنى
مدى خمسة وعشرين عاماً، هذا عدا ما أنفق عليها في عهد ولده الحكم (٥) .
وابتنى
الناصر في حاضرته الجديدة قصراً منيف الذرى، لم يدخر وسعاً في تنميقه

وزخرفته، حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال، تحف به رياض وجنان ساحرة، وأنشأ فيه مجلساً ملوكياً جليلا سمى بقصر الخلافة، صنعت جدرانه من الرخام
المزين بالذهب، وفي كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب، قد انعقدت على حنايا
من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجوهر، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة، وفي وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق، وكانت الشمس إذا
أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة (٦) .
وزود الناصر مقامه
في قصر الزهراء، وهو الجناح الشرقى المعروف بالمؤنس بأنفس التحف والذخائر، ونصب فيه الحوض الشهير المنقوش بالذهب، الذى أهدى إليه من قيصر

---

(١) مختصر نزهة المشتاق للادريسى (طبع رومة) ص ١٩٣، والمسالك والممالك لابن حوقل
ص ٧٨.
ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطلش.
(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٧، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦.
(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤.
(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦، ونفع الطيب ج ١ ص ٢٤٦، وأعمال الأعلام ص ٣٨
(٥) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٥.
(٦) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و٢٤٧.

قسطنطينية، والذى جلبه من هنالك إلى قرطبة، ربيع الأسقف.
وجلب إليه
الوزير أحمد بن حزم من الشام حوضاً ثانياً رائعاً، يقوم عليه اثنا عشر تمثالا
من
الذهب الأحمر المرصع بالجواهر، وهى تمثل بعض الطيور والحيوانات
وتقذف
الماء من أفواهها إلى الحوض (١) .
وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة، التي تشبه أوصاف قصور ألف
ليلة وليلة المسحورة، عن قصر الزهراء، أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد
عيان، وأجمعت الروايات على أنه لم يبن في أمم
الإسلام مثله في الروعة والإناقة والبهاء (٢) .
وأنشأ الناصر في الزهراء أيضاً مسجداً عظيماً، تم بناؤه في ثمانية وأربعين
يوماً.
وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين، وزوده بعمد
وقباب
فخمة، ومنبر رائع الصنع والزخرف، فجاء آية في الفخامة والجمال (٣) .
وأنشئت
يها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح، ومسارح للطير مظللة بالشباك،
ودار
عظيمة لصنع السلاح، وأخرى لصنع الزخارف والحلى (٤) .
والخلاصة أن الناصر
أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة، تجمع بن فخامة الملك الباذخ،
وصولة السلطان المؤثل، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية.
واستمر العمل في منشآت الزهراء طوال عهد الناصر، أعنى حتى وفاته فى
سنة خمسين وثلثمائة، واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر، واستغرق
بذلك

من عهد الخليفتين زهاء أربعين سنة (٥) ؛ ولكنها غدت منزل الملك والخلافة مذ
تم بناء القصر والمسجد في سنة تسع وعشرين وثلثمائة، وبذا كانت (إلى جانب
قرطبة) أول منزل للخلافة الإسلامية بالأندلس.

وقد انتهت إلينا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مدهشة، تنبىء عما كانت عليه من الضخامة.

فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس
أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة، منها ما جلب من مدينة

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦؛ وأعمال الأعلام ص ٣٨.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤، ٢٦٥.

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤.

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤.

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤.



رومة، ومنها ما أهداه قيصر قسطنطينية، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء
خمسة عشر ألفاً، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه.

وذكر مؤرخ آخر أن
عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين فتى، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة، يصرف لهم في اليوم ثلثئة عشر ألف رطل

من اللحم، سوى الدجاج والحجل وغيرها (١) .
قد لا نجد في المنشآت الملوكية
الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة، سوى القصر البابوى أو قصر
الفاتيكان
الشهير برومة، وما انتهى إليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة
والفخامة
والجلال، فإن هذا المقام الكنسى الملوكى الفخم، يحتوى على أربعة آلاف
غرفة، وعلى مئات الأبهاء والساحات والأروقة، ويضم عدة أجنحة ومجالس
رائعة، أسبغ عليها أبدع ما عرف الفن الرفيع من آيات الزخرف والنقش
والتصوير.
ويحدثنا الرحالة البغدادى ابن حوقل عن الزهر اء - وقد زارها أيام الحكم ولد
الناصر - فيصف موقعها، ويقول " إن العمارة اتصلت بينها وبين قرطبة،
وإن لها
مسجداً جامعاً دون جامع البلدة (قرطبة) في المحل والقدر، وعلى سورها
سبعة
أبواب حديد، وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك، وابتذال
لجيد الثياب والكسى، وفراهة الكراع وكثرة التحلى، وإن لم يكن لها في عيون
كثير من الناس حسن بارع " (٢) .
ولكن الزهراء لم تعمر طويلا كقاعدة ملوكية، فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة
زهاء أربعين عاماً فقط، مذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد
ابنه الحكم
المستنصر سنة ٣٦٦ هـ، ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية،
ولكن لأن تحولا خطيراً قد وقع في سلطان بني أمية عقب وفاة الحكم، إذ
استطاع
الوزير محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) أن يتغلب على الدولة وأن
يحجر

على الخليفة هشام المؤيد ولد الحكم حسبما نفصل بعد؛ ثم رأى أن ينقل قاعدة الحكم
إلى ضاحية ملوكية جديدة أنشأها لنفسه بجوار قرطبة (سنة ٣٦٨ هـ) على نهر
الوادي الكبير وسماها الزاهرة، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ودور
الحكومة، واتخذ لنفسه سمة الملك، وتسمى بالحاجب المنصور.

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥.

(٢) المسالك والممالك ص ٧٨.



وهكذا فقدت الزهراء صفتها كقاعدة رسمية، وشاءت الأقدار ألا تكون
منزل الملك والخلافة إلا في عهد مؤسسها، وعهد خلفه الذى أكمل بناءها.
وكان قيام الحاجب المنصور في الواقع خاتمة لسلطان بني أمية، ولم يبق بعد ذلك
من دولتهم سوى الإسم.
وقد بقيت الزهراء حيناً مقاماً ملوكياً للخليفة المحجور
عليه - هشام المؤيد - ولكنها فقدت من ذلك الحين أهميتها السياسية وهيبتها الملوكية.
ثم كانت المحنة الكبرى بانهيار هذا الصرح البديع الذى شاده بنو أمية
بالأندلس، وانهيار الخلافة الأموية والدولة العامرية معاً، وسقوط الأندلس صرعى الحرب
الأهلية.
ففى ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (نوفمبر سنة ١٠١٠ م) زحفت قوات البربر
ومعها سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية على قرطبة لينتزعها من الخليفة هشام

المؤيد، والفتى واضح الحاجب المتغلب عليه، واقتحموا في طريقهم مدينة الزهراء، وفتكوا بحاميتها وسكانها، وعاثوا في معاهدها ورياضها، وأحرقوا المسجد والقصر، ولبثوا فيها بضعة أشهر.

والظاهر أن الضربة كانت قاضية فلم يبق

من الضاحية الملوكية الباهرة بعد أن غادروها سوى أطلال دارسة.

ولا يكاد اسم

الزهراء، يذكر بعد ذلك في التاريخ الأندلسي، إلا كأثر عصفت به صروف الدهر، وقد كانت الزهراء أيام روعتها وازدهارها، وحى الشعر الرائع والخيال الرفيع، وقد أشاد بجمالها وفخامتها، جمهرة من أكابر شعراء الأندلس وأمراء البيان، ثم رثوها بعد ذلك في مقطوعات مؤثرة.

ومما قاله ابن زيدون وهو من

أعظم شعراء عصر الطوائف، يشيد بالزهراء، وروائع ذكرياتها:

خليلى لا فطر يسرُّ ولا أضحى..

.

فما حال من أسى مشوقاً كما أضحى

لئن شاقنى شرق العقاب فلم أزل..

.

أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا

معاهد لذات وأوطان صبوة..

.

أجلت المعلى في الأمانى بها قدحا

ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح..

.

تقضت مبانيها مدامعه نزحا

مقاصير ملك أشرقت جنباتها..

.

فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا

يمثل قرطيها لى الوهم جهرة..

.

فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحا

محل ارتياح يذكر الخلد طيبه..

.

إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحا

(٤٤٠/١)

هناك الحمام الزرق تندى خفافها..

.

ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا

تعوضت من شدو القيان خلالها..

.

صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا (١)

ونقل إلينا الشيخ محيى الدين بن عربى (٢) أبياتاً، قال إنه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها، رثاء في المدينة الشهيرة وهى:

ديار بأكناف الملاعب تلمع..

.

وما إن بها من ساكن وهى بلقع

ينوح عليها الطير من كل جانب..

.

فيصمت أحياناً وحيناً يرجع

فخاطبت منها طائراً متغرداً..

.

له شجن في القلب وهو مروع

فقلت على ماذا تنوح وتشتكى..

.

فقال على دهر مضى ليس يرجع
ويرثى الفتح بن خاقان معاهد الزهراء خلال رواية نقلها عن جولة لبعض الكبراء في تلك الأطلال: " وآثار الديار قد أشرفت عليهم كثكالى ينحن على خرابها، وانقراض أطرابها، والوهى بمشيدها لاعب، وعلى كل جدار غراب ناعب، وقد محت الحوادث ضياءها، وقلصت ظلالها وأفياءها، وطالما أشرقت
بالخلائف وابتهجت، وفاحت من شذاهم وأرجت، أيام نزلوا خلالها، وتفيأوا ظلالها، وعمروا حدائقها وجناتها، ونبهوا الآمال من سناتها، وراعوا الليوث في آجامها، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها، فأضحت ولها بالتداعى تلفع واعتجار، ولم يبق من آثارها إلا نؤى وأحجار، وقد هوت قبابها، وهرم شبابها، وقد يلين الحديد، ويبلى على طيه الجديد..

.

" (٣) .
وكانت أطلال الزهراء ما تزال قائمة حتى القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر) .
وقد ذكرها الشريف الإدريسى في معجمه الجغرافى الذى وضعه فى منتصف القرن السادس الهجرى (منتصف القرن الثاني عشر) ، وذكر أن بينها وبين
قرطبة خمسة أميال (٤) ؛ وذكرها أيضاً ياقوت الحموى في معجمه الجغرافى الذى

---

(١) راجع قصيدة ابن زيدون برمتها في ترجمته في " قلائد العقيان " للفتح بن خاقان ص ٧٢.
(٢) هو من أكابر متصوفة الأندلس وعلمائها في أواخر القرن السادس وأوائل

القرن السابع
الهجرى، وقد نقل إلينا هذه الرواية والأبيات في كتابه الشهير " محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ".
(٣) راجع قلائد العقيان في ترجمة المعتمد بن عباد ص ١٠.
(٤) راجع نزهة المشتاق (المختصر) طبع رومة - ص ١٩٣.

(٤٤١/١)

وضعه في أوائل القرن السابع الهجرى (١) .
وفى شوال سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م)
كانت نكبة الأندلس ونكبة الإسلام، بسقوط قرطبة في أيدى الإسبان، فطويت بذلك أسطع صحف الإسلام وصحف الخلافة في الأندلس.
وكانت قرطبة قد فقدت
أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط الدولة الأموية، ولكنها لبثت بعد ذلك عصراً
تحتفظ بهيبتها الخلافية القديمة.
ومن المرجح أن أطلال الزهراء بقيت بعد سقوط
قرطبة في أيدى الإسبان عصراً يصعب تحديده، غير أن قرطبة فقدت في ظل سادتها
الجدد صبغتها ومعالمها الإسلامية بسرعة، ولم يبق اليوم من آثارها وصروحها
الإسلامية سوى مسجدها الجامع، الذى ما يزال بالرغم من تحويله إلى كنيسة جامعة، يحتفظ إلى اليوم بكثير من روعته الإسلامية السالفة.
* * *
هذا وما زالت سيرة مدينة الزهراء وذكريات فخامتها الذاهبة، تحتل المقام الأول في تاريخ إسبانيا المسلمة الأثرى والفنى.
وقد اهتم العلماء الإسبان منذ نحو

قرن بالكشف عن معالمها وأطلالها، لما يلقيه ذلك الكشف من أضواء هامة على
أحوال الخلافة الأندلسية ونظمها الإدارية والاجتماعية، وعلى تطور الفن الأندلسى
في أزهى عصوره.
وعنيت الحكومة الإسبانية منذ بداية القرن الحالى، بإجراء
الحفريات الأثرية للكشف عن صروح المدينة الخلافية.
وبالرغم من أن جهود
اللجان الأثرية المتعاقبة التي اضطلعت بهذا العمل، لم تكن متواصلة أو ذات نطاق
واسع، فقد استطاع الأثريون الإسبان أن يكشفوا عن كثير من معالم الزهراء،
ومواقع صروحها، وأبهائها الملوكية.
وقد أتيح لنا أن نزور معالم الزهراء وأطلالها غير مرة، خلال زياراتنا لعاصمة
الخلافة القديمة (٢) .
وتقع هذه الأطلال الضخمة غربى قرطبة على بعد نحو سبعة
أميال منها، وشمالى نهر الوادي الكبير على قيد ميلين، وتحتل منحدراً صخرياً وعراً
يقع أسفل الأكمة التي يحتلها دير سان خيرنمو San Jeronimo الشهير، الذى يقال
إنه بني بأنقاض قصر الزهراء.
وتسمى هذه المنطقة التي تحتلها أطلال الزهراء
" قرطبة القديمة " Cordoba la vieja.

---

(١) راجع معجم البلدان تحت كلمة الزهراء (مصر) ج ٤ ص ٤٢١.
(٢) قمنا بزيارة أطلال الزهراء لآخر مرة في مايو سنة ١٩٦٣.

وتشمل الحفريات الأثرية التي يقوم بها العلماء الإسبان منذ سنة ١٩١٠ منطقة واسعة، تمتد ١٥١٨ متراً من الشرق إلى الغرب و٧٤٥ متراً من الشمال إلى
الجنوب.
ومع أن هذه المنطقة لم تكشف كلها فإن ماكشف حتى الآن من الأطلال الضخمة، ومن نقوشها وزخارفها التي مازال بعضها قائماً في بعض الجدران، والتي تتمثل بالأخص في مئات القطع الرخامية الزخرفية التي وجدت، يكفى لتكوين فكرة عامة، عن هندسة المدينة الملوكية ومنعتها وفخامة صروحها الذاهبة.
وتنقسم أطلال الزهراء بصفة عامة إلى مجموعات ثلاث، مدرجة من أعلى إلى
أسفل.
وتشمل المجموعة الأولى مواقع القصر الخليفى والمقام الخاص.
وتشمل
الثانية فيما يبدو مساكن الحاشية والحرس.
وتشمل المجموعة الثالثة، وهى الواقعة
أسفل الربوة، في بسيط معتدل من الأرض، أربعة أفنية كبيرة عالية، هى التي يجرى اليوم ضمها وإعادة تشكيلها، فيما يظن أنه البهو العظيم الذى كان مخصصاً
لاستقبال الملوك وأكابر السفراء.
وقد تم الكشف عن هذا البهو الذى يعتبر أعظم ما كشف حتى اليوم من آثار الزهراء في سنة ١٩٤٤ م، ووجدت سائر حطامه وزخارفه مدفونة تحت الأنقاض.
ويعكف الأثريون الإسبان منذ أعوام على إقامة الصرح وتنسيقه، مما وجد من

أنقاضه وأعمدته وزخارفه.

وقد أقيم حتى اليوم في وسطه ما اصطلح على تسميته

" بهو السفراء " أو باسمه التاريخى " المجلس المؤنس "، وهو عبارة عن أربعة

أفنية متلاصقة تبلغ واجهتها نحو أربعين متراً، وقد قسمت من الداخل إلى

ثلاث

أروقة مستطيلة، يتوسطها رواق رابع ذو عقود من الجانبين.

ويقوم كل فناء منها

على خمسة عقود، وقد ركب على هذه العقود ما وجد بين الأطلال من

رؤوس

وقواعد رخامية مزخرفة، وفي وسط الرواق الثالث عقد جميل عال يفضى إلى

بهو داخلى، زين جانباه بالزخارف الرخامية.

ويبلغ طول كل رواق من الأروقة

المذكورة نحو عشرين متراً، وعرضه نحو ثمانية أمتار.

وقد صنعت العقود كلها

على نمط واحد، وزينت من أعلاها بما أمكن جمعه من قطع الزخارف

الرخامية

التي وجدت.

وقد شيدت هذه الأروقة على ارتفاع يبلغ نحو عشرة أمتار.

وقد كشفت الحفريات الأخيرة عن مجموعة جديدة من الأطلال تقع أعلى

هذه الأبهاء من اليسار، وهى عبارة عن مجموعة من الغرف السكنية وبهو

مستطيل.

(٤٤٣/١)

وهى لا تفترق كثيراً عن غيرها من المجموعات الأخرى المماثلة من حيث

التخطيط، ولكنها تكشف لنا عن حقائق معمارية وفنية هامة، فهى المجموعة

الوحيدة التي

وجد بها أثر الدهان واضحاً.
وقد تبين أن لون الدهان الذى كان مستعملا فى
هذه المجموعات من المساكن (مساكن الحاشية) هو اللون الأحمر، يحف به
على
ارتفاع نحو متر ونصف خط أبيض، يعلوه خط أحمر، وتبين كذلك أن البلاط
المستعمل في تغطية أرض الغرف هو أيضاً أحمر اللون، وهو قطع مربعة
يبلغ ضلع
الواحدة منها أربعن سنتمتراً.
وتبين أخيراً أن الأحجار المستعملة في أسفل البناء، هى أحجار كبيرة بعضها
يبلغ طوله نحو ٨٠ سنتيمتراً وعرضه ٤٠ سنتيمتراً.
وإلى جانب هذه المجموعات الجديدة من أطلال الزهراء، توجد المجموعات
القديمة، وهى تشمل موقع القصر الخليفى والجدار الشمالى، والفناءين
التوأمين
المتصلين بالمنحدر، والفناء الصغير المتصل بقصر الخلفاء، ومجموعة من
مساكن
الحرس.
وترجع منطقة الجدار الشمالى إلى عصر الناصر ذاته، وهى من منشآته
في المرحلة الأولى من بناء الزهراء، وقد أصلحت على امتداد سبعين متراً.
وهذا
الجزء من الجدار أمتن وأحكم صنعاً، من قسمه الذى بني فيما بعد في عهد
الحكم
المستنصر.
أما عن الفناءين المتماثلين أو الفناءين التوأمين، فيقع أولهما على بعد ثمانية
أمتار
أسفل القصر الخليفى، ويشتمل كل منهما على بهوكامل، وهناك ما يدل على
أن كلا

منهما كان يحتوى على مجموعة من المساكن المتماثلة المخصصة لسكنى
طائفة هامة من
البطانة أو الجند.
ويشغل الفناء الغربى رقعة ضخمة مربعة تقريباً تبلغ مساحتها
نحو خمسمائة متر، وبه أيضاً بقايا أبنية سكنية.
بيد أنه لم يكشف في هذه المنطقة
أبواب أو مداخل تكشف عن حقيقة نوع هذه الأبنية، والظاهر أن الفناء
الشرقى
كان موقع مسكن " للحريم "، أو بعبارة أخرى كان جناحاً للقصر الذى تسكنه
النساء والأولاد حسبما تدل على ذلك آثار أبنيته ومرافقه.
وعثر المكتشفون إلى جانب هذه المجموعات الضخمة من أطلال المدينة
الخليفية، بطائفة كبيرة من القطع الزخرفية والعقود والأعمدة والألواح
والأحواض
الرخامية، ومئات من القطع والأوانى الزخرفية والبللورية، وقد جمعت كلها فى
متحف خاص أقيم عند مدخل " مدينة الزهراء "، وعرضت فيه بعض القطع

(٤٤٤/١)

والأحواض الرخامية البديعة الزخرف والنقوش، وبعض الأوانى الخزفية
والبللورية
المصححة، وهذا إلى ما يوجد من تحف الزاهراء ونقوشها الزخرفية بمتحف
قرطبة
الأثرى، وفي مقدمتها الوعل البرونزى الشهير الذى يعتبر من أروع القطع
الفنية.
نقول، ولعل حفائر الزهراء المستقبلة تكشف لنا عن معالم كثيرة أخرى من
ضروب الفخامة والجلال، التي كانت تتسم بها المدينة الخلافية، والتي تحدثنا
عنها الروايات المعاصرة (١) .

هذا ولم ينس الناصر أن يشمل المسجد الجامع بعنايته، أسوة بسائر أسلافه من بني أمية، فجدد واجهته، وزاد فيه زيادات كبيرة (٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م) . وكان قبل ذلك قد هدم منارته القديمة، وأنشأ مكانها المنارة العظمى، وذلك في سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) .

وكانت منارة الناصر تمتاز بفخامتها وارتفاعها

الشاهق، وكانت مربعة الواجهات، ولها أربعة عشرة شباكاً ذات عقود، وتحتوى

على سلمين أحدهما للصعود، والآخر للنزول، وقد ركب في قمتها ثلاث تفاحات

كبيرة، إثنتان منها من الذهب، والثالثة من الفضة (٢) ، وكانت إذا أرسلت الشمس أشعتها عليها، تكاد تخطف الأبصار ببريقها.

وقد أزال الإسبان فيما بعد، تلك المنارة العظيمة، تتمة لبرنامجهم في تشويه المسجد الجامع، وأقاموا مكانها

برج الأجراس الحالى.

وما زالت اللوحة التي تنوه بما قام به الناصر من تجديد واجهة الجامع قائمة إلى اليوم، في مكانها في الجانب الأيمن من بابه الرئيسى المسمى "باب النخيل" (٣)

وقد كتب بها ما يأتى بخط كوفى جميل:

" بسم الله الرحمن الرحيم.

أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين

الله أطال الله بقاءه، ببنيان هذا الوجه، وإحكام إتقانه، تعظيماً لشعائر الله،

---

(١) رجعنا في هذا الاستعراض لأطلال الزهراء إلى مشاهداتنا الخاصة.

وكذلك إلى البحوث

الأثرية الآتية:

.Medina Azzahra y Alamiriya, por D

.R
. (Velazquez Bosco (Madrid 1912
Excavaciones del Plan nacional en Medina Azzahra
(Cordoba) , Campana
.de 1943
.por R
. (Castéjon y Martinez de Arizala (Madrid 1945
Nuevas Excavaciones en Medinat Al – Zahra: El Salon
de Abd Al – Rahman III
.por R
.Castéjon (Al – Andalus, Vol
.X (1945) Fsc
.I
(٢) أعمال الأعلام ص ٣٨.
(٣) وبالإسبانية Puerta de las Palmas

(٤٤٥/١)

ومحافظة على حرمة بيوته، التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ولما دعاه
على ذلك من تقبل عظيم الأجر، وجزيل الذخر، مع بقاء شرف الأثر، وحسن الذكر، فتم ذلك بعون الله، في شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلث مائة على
يد مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر، عمل سعيد بن أيوب " (١)
.
– ٢ –
تولى عبد الرحمن الناصر عرش مملكة تفاقمت من حولها الخطوب،

واستنفدت
مواردها الثورة، فتداركها بعزمه وقوة نفسه، واستطاع أن يسحق خصومها في الداخل والخارج، في سلسلة طاحنة من الحروب والغزوات المستمرة، وأن يوطد دعائمها وأن يخضع الجزيرة لصولتها، وأن يكفل لها الأمن والسكينة والرخاء.
ولم يفت الناصر منذ البداية أن الجيش عماد الدولة وسياج الملك، فعكف على إصلاح الجيش الذى أضناه الكفاح ضد الثورة، وحشد له الجند من سائر أنحاء الأندلس والمغرب، واستكثر من الأسلحة والذخائر، وصقلت الحروب والغزوات المستمرة كفاية الجيش ودربته، وأمدته بطائفة من أمهر القادة وأشدهم
بأساً، ورفعت القوة المعنوية بين الصفوف، وكان إقدام الأمير على تولى القيادة
بنفسه مجدداً لعهد الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة.
وعنى عبد الرحمن فى
الوقت نفسه بأمر الأسطول وإصلاحه، فأنشأ له وحدات جديدة قوية.
وكانت
ألمرية عندئذ مركز الأسطول الأندلسي الرئيسى، وبها أكبر دار للصناعة. وبلغ الأسطول في عهد الناصر زهاء مائتى سفينة مختلفة الأنواع والأحجام، وهذا عدا الأسطول المخصص لشئون المغرب البحرية، وقد كان يضم كذلك عدداً كبيراً من السفن.
وهكذا كان أسطول الأندلس في ذلك العهد من أقوى
الأساطيل يومئذ، وكان بضخامته وأهباته، يسيطر على مياه إسبانيا الجنوبية والشرقية، وينازع الفاطميين سيادة الشق الغربى من البحر المتوسط.
وكان عهد الناصر بالرغم من استمرار الحروب والغزوات، كما قدمنا عهد رخاء ويسر، توطدت فيه مالية الدولة وامتلأت خزائنها بالأموال الوفيرة، وزاد الخراج والدخل زيادة عظيمة باستتباب السكينة والأمن، وازدهار الزراعة

والتجارة
والصناعة، وكثرة الأخماس والغنائم.
وإن فيما احتوته الزهراء من القصور

---

(١) راجع الآثار الأندلسية الباقية لمحمد عبد الله عنان (الطبعة الثانية) ص ٢٠ و ٢١ و ٣٠.

*(٤٤٦/١)*

والمنشآت الباذخة، وما بذل لإقامتها من النفقات مدى أعوام طويلة، لما يستوقف
النظر، ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذى بلغته الدولة الأموية بالأندلس
في عهد الناصر من القوة والضخامة والغنى.
وقد انتهت إلينا في ذلك أرقام مدهشة، منها أن جباية الأندلس بلغت في عهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف
وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة
وستين ألف دينار، هذا عدا أخماس الغنائم التي لا تحصى.
وقيل إن الناصر
خلف عند وفاته في بيوت الأموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف ألف ألف (خمسة
آلاف مليون) دينار.
وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث: ثلث
لنفقة الجيش، وثلث للبناء والمنشآت العامة، وثلث يدخر للطوارئ (١) .
ولم يتردد
المؤرخ الحديث في قبول هذه الأرقام حتى أن العلامة دوزى ينقلها، ويقدر

أن الناصر ترك عند وفاته في بيت المال عشرين مليوناً من الذهب (٢) .
ويقول
لنا ابن حوقل الرحالة البغدادى الذى زار قرطبة في هذا العهد، إن الناصر
كان
أغنى ملوك عصره، وإنه وبنى حمدان ملوك حلب والجزيرَة أغنى ملوك العالم
في ذلك العصر (٣) .
وهذه أرقام وروايات تشهد بضخامة الدولة الأموية وغناها
الطائل في عصر الناصر، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب
حروبه
وغزواته، أن يضطلع بكثير من المنشآت العظيمة.
هذا، وقد كان مما عنى به الناصر تنظيم العملة، وتثبيتها، فأمر في سنة
٣١٦ هـ، باتخاذ دار السِّكة داخل مدينة قرطبة لضرب العين من الدنانير
والدراهم، فاتخذت هناك على رسمه، وولى خطتها أحمد بن محمد بن حدير،
وذلك في ١٧
من شهر رمضان من هذه السنة، فقام بالضرب فيها من هذا التاريخ، من
خالص
الذهب والفضة، وبذل جهده في الاحتراس من المدلسين، فأصبحت دنانيره
ودراهمه عياراً محضاً.
وقد كان ضرب النقد معطلا قبل الناصر، وكان لهذا
الإجراء أثره في تثبيت العملة واستقرار التعامل (٤) .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧، وأعمال
الأعلام ص ٣٨.
(٢) Dozy: Hist.
Vol.
II.

.p

١٧٨

(٣) ابن حوقل، المسالك والممالك ص ٧٧.

(٤) ابن حيان – السفر الخامس – مخطوط الخزانة الملكية لوحة ٩٩ ب.

(٤٤٧/١)

وبلغت الأندلس في عهد الناصر ذروة الرخاء والنعماء والأمن والعزة، وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب والفنون، وشمل الأمن سائر أطراف المملكة، ورخصت كلفة العيش.

ونمت قرطبة نمواً عظيماً حتى بلغ
سكانها أكثر من خمسمائة ألف، وبلغت مساجدها ثلاثة آلاف، ومنازلها أكثر من مائة ألف، وحماماتها العامة ثلاثمائة، وبلغت أرباضها أو ضواحيها ثمانية
وعشرين، هذا عدا المدينة الوسطى، وكان لقرطبة يومئذ سبعة أبواب: باب القنطرة، وباب اليهود، وباب عامر، وباب العطارين، وباب طليطلة، وباب عبد الجبار، وباب الجوند.

وكان للقصر الأموى ستة أبواب: باب
السُّدة، وباب الجنان، وباب العدل، وباب الصناعة، وباب الملك، وباب الساباط، وهو في المسجد الجامع.

وازدانت قرطبة بعدد كبير من القصور
والمتنزهات الفخمة، ودوت شهرتها في الآفاق، ووصلت إلى قاصية الشمال، حتى أن الراهبة السكسونية هروسوفيتا التي اشتهرت بنظمها فى أواخر القرن العاشر، أشادت في قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنها " زينة الدنيا " (١) .

– ٣ –

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالى

والصقالبة واتخاذهم أداة وبطانة، وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد عمد
بتأثير
الظروف العصيبة التي أحاطت بقيام ملكه، والخطوب والثورات الجمة التي
أثارها
خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية، إلى الاستراباة بالعرب،
واصطناع
البربر والموالى الذين آزروه وقت المحنة، ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته.
وقد حافظ خلفاء الداخل على هذه السياسة في جوهرها.
ومنذ عهد الحكم المنتصر
(١٨٠ - ٢٠٦ هـ) نرى نفوذ الموالي والصقالبة يشتد في البلاط وفي الدولة.
وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك والبذخ، فغص البلاط الأموى فى
عهده بالخدم والحشم، من المماليك والصقالبة، بيد أن نفوذهم لبث مدى حين
بعيداً عن شؤون الدولة العليا، قاصراً على شؤون القصر والخاص.
واقتفى عبد الرحمن الناصر سياسة جده الداخل، في الاستراباة بالقبائل

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧.
وكذلك Dozy: Hist.
Vol.
II.
p.
١٧٤

(٤٤٨/١)

خريطة:
خطط قرطبة الإسلامية.
خريطة العلامة الأثري القرطبي رافائيل كستيخون.

العربية ذات البأس والعصبية، وفي إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة،
واستأثر بكل سلطة حقيقية في الدولة، وجمع مقاليد الحكم كلها في يده، فلم
يبق
سلطة فعلية لحاجب أو وزير.
وكان الناصرحريصاً على سلطانه المطلق، لاينى عن
سحق كل من حدثته نفسه بالوقوف في سبيله، ولو كان أقرب الناس إليه.
ولما نمى
إليه أن ولده عبد الله يأتمر به مع بعض فتيان القصر ورجال الدولة، لأنه
آثر
أخاه الحكم بولاية العهد وتصريف الشئون، وأن جماعة من أهل قرطبة بايعوه
بالخلافة، لم يحجم عن أن يقضى بإعدامه، وإعدام جميع من اتجهت إليهم
شبهة
الاشتراك معه، وكان ذلك في سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) .
وكان عبد الله من أفضل
أبناء الناصر علماً وعقلا وبصراً بالأمور، وكذلك قضى الناصر بإعدام بعض
أبناء
عمومته وأخيه القاضى ابن محمد حين قامت الأدلة على ائتمارهم به (١) .
وعهد الناصر بالمناصب الكبيرة إلى رجال وضيعى المنبت من الصقالبة
والموالى
المعتقين أو الأرقاء، وهم رجال لا إرادة لهم يوجههم كيفما شاء، وكان يثق
بالصقالبة بنوع خاص، ويوليهم من السلطان والنفوذ ما لا يوليه سواهم (٢) .
وقد كانت كلمة " الصقالبة " تطلق في الأندلس على الأسرى والخصيان من
الأجناس الصقلبية (السلافية) الحقيقية، ثم غدت تطلق بمضى الزمن على
جميع

الأجانب الذين يعملون في البطانة وفي القصر.
وكان أولئك الصقالبة مزيجاً من
الجليقيين (النصارى الإسبان) والألمان والفرنسيين واللونبارد والإيطاليين (٣) ،
وكان معظمهم يؤتى بهم أطفالا بواسطة خوارج البحر (القراصنة) وتجار
الرقيق، وكانوا يختارون من الجنسين، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة،
ويلقنون
مبادىء الإسلام، وقد نبغ بعضهم في النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد.
ومنذ عهد الناصر يشتد نفوذ الصقالبة في شؤون الإدارة والحكم، فضلا عن
القصر والخاص، ويعهد إليهم بالمناصب الكبرى في القصر والإدارة والجيش.
وما لبث أن سما شأنهم وتوطد سلطانهم، وأحرزوا الضياع والأموال الوفيرة،
وفاق عددهم في عهد الناصر أى عهد آخر، حتى قدر بعض المؤرخين
عددهم

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤، وأعمال
الأعلام ص ٣٩.
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨.
(٣) ابن حوقل في المسالك والممالك ص ٧٥؛ وكذلك Dozy: Hist, Vol.
II.
p.
١٥٣

(٤٥٠/١)

يومئذ في القصر والبطانة، بثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين، وبلغوا في
رواية
أخرى سبعة آلاف وثمانين ويقول لنا ابن الخطيب إن عدد الفتيان الصقالبة
بمدينة الزهراء كان عند وفاة الناصر ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين، وعدد

النساء
بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وخمسين، تجرى عليهم جميعاً رواتب الطعام
بسائر
صنوفه (١) .
وعلى أى حال فقد كان من أولئك الصقالبة الحرس الخليفى، ورجال
الخاص والحشم، وكان الناصر يمد لهم في السلطان والنفوذ، ويرغم أشراف
العرب
وزعماء القبائل على الخضوع لهم، ليذل بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم (٢) .
بل كان
منهم في عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجدة، ومعظم أكابر القادة
والضباط، وكان منهم أفلح صاحب الخيل، ودرِّى صاحب الشرطة، ومنهم
ياسر وتمام
صاحبا النظر على الخاص (٣) .
وكان لهذه السياسة غير بعيد، أسوأ الأثر في انحلال
الجيش وفتور قواه المعنوية، لما جاشت به صدور الضباط والجند العرب، من
الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهينة، وكانت هزيمة الناصر في موقعة
الخندق
الشهيرة (ألانديجا) (٣٢٧ هـ) ، ترجع من وجوه كثيرة إلى هذا الانحلال
المعنوى، الذى سرى إلى الجيش من جراء الأحقاد القومية والطائفية (٤) .
- ٤ -
كانت الأندلس بما اجتمع لها في عهد الناصر من أسباب القوة والسلطان، قد
تبوأت مركز الصدارة بين الدول الإسلامية، وكانت الدولة العباسية قد دخلت
يومئذ في دور انحلالها، ولم تكن الدولة الفاطمية الفتية منافستها في المشرق،
قد
بلغت يومئذ ذروة قوتها ونفوذها، فكانت الأندلس تستأثر يومئذ بزعامة
الإسلام.

وكانت قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية في العالم الإسلامى، تتجه إليها أبصار الدول النصرانية في طلب المودة، وعقد العلائق الدبلوماسية؛ وكانت قسطنطينية مركز هذه الجاذبية الدبلوماسية بين أمم النصرانية حتى القرن الثامن.

ثم نافستها في ذلك مملكة الفرنج القوية مدى حين، فلما اضمحل شأن المملكة

---

(١) أعمال الأعلام ص ٤٠ و ٤١.

(٢) Dozy: Hist. Vol. II. p. ١٥٣. وراجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥.

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٧١.

(٤) Dozy: Hist. V. II. p. ١٥٣



الفرنجية، استردت قسطنطينية زعامتها الدبلوماسية في النصرانية. ولما قامت الإمبراطورية الجرمانية في القرن العاشر، استطاعت أن تبسط زعامتها السياسية

على أواسط أوربا وغربيها، وهكذا كانت زعامة النصرانية تتردد في هذه الحقبة
بين شرقى أوربا وغربيها.
هذا بينما لبثت قرطبة تستأثر وحدها بزعامة الإسلام
في الغرب حتى نهاية القرن العاشر.
وقد كان هذا العصر الذى اجتمعت فيه تلك الزعامات الدينية والسياسية
القوية، أحفل العصور بصلات الإسلام والنصرانية.
فكانت ثمة معاهدات
وسفارات ومراسلات وعلائق دبلوماسية، بين قرطبة وبين معظم الأمم
النصرانية، وقد بلغت هذه الصلات ذروتها في عصر الناصر لدين الله،
وتوالت وفود الأمم
النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة، تنشد الحلف والصداقة والمهادنة، من
زعيم
الإسلام في الغرب.
وكان بلاط قسطنطينية بالرغم من نأيه عن مقر الخلافة الأندلسية، وعدم
اتصاله بها، بأية حدود أو صلات جغرافية مشتركة، في مقدمة الساعين إلى
توثيق
الروابط الودية مع بلاط قرطبة.
ففى سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م) (١) ، وفدت على
الناصر رسل قسطنطين السابع قيصر قسطنطينية المعروف " ببورفيروجنتوس
" (٢)
ومعهم طائفة من الهدايا النفيسة.
وتقدم إلينا الرواية الأندلسية عن هذه السفارة
تفاصيل شائقة، تلقى ضوءاً على نظم الرسوم الدبلوماسية في هذا العصر،
فتقول
لنا إن الناصر بعث رسله للقاء السفراء البيزنطيين حين وصولهم إلى
الشاطىء

لإرشادهم وخدمتهم، ولما وصل الركب إلى مقربة من قرطبة، بعث بعض قواته للاحتفاء بهم، ثم بعث الفتيين ياسراً وتماماً فصحباهم إلى دار الضيافة، بقصر ولى العهد الحكم، في ربض قرطبة، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة، ورتب لخدمتهم طائفة من الموالى والحشم.

وفى اليوم الحادى عشر من

---

(١) هذه هى رواية ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٢) .

وفى رواية أخرى أنها وقعت سنة ٣٣٨ هـ

(نفح الطيب ج ١ ص ١٧١) .

وذكر الطبيب الأندلسي ابن جلجل وقد عاش قريباً من عصر

الناصر، أنها وقعت في سنة ٣٣٧ هـ (راجع طبقات الأطباء لابن أبي

أصيبعة - طبعة ميللر - ج ٢

ص ٤٤٧) .

وذكر صاحب البيان المغرب أنها وقعت في سنة ٣٣٤ هـ (ج ٢ ص ٢٣٩)

.

ولم نعثر في تواريخ الدولة البيزنطية على تفاصيل هذه السفارة، ولكن الرواية الإسلامية واضحة جلية.

(٢) ومعناها الأرجوانى.

(٤٥٢/١)

ربيع الأول من السنة المذكورة، خرج الامير من قصر الزهراء إلى قصر

قرطبة

لاستقبالهم، وجلس في بهو المجلس الزاهر، وكان يوماً مشهوداً من أيام

الأندلس.

فركبت الجند بالسلاح في أكمل شكل، وزين القصر الخلافى بأنواع الزينة

وأصناف الستور، وحفل السرير الخلافى بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام

والقرابة، وجلس عن يمين الخليفة ولده وولى عهده الحكم، وجلس باقى أولاده يميناً وشمالا، ورتب الوزراء في مراتبهم، وغص المجلس برجال الدولة والقادة والعظماء والزعماء من كل ضرب.

ودخل سفراء ملك الروم، فبهرهم ما رأوا

من روعة الملك وفخامة السلطان، وقدموا الهدايا التي يحملونها.

وذكر لنا

الطبيب الأندلسي أبو داود سليمان بن حسان المعروف " بابن جُلجل " الذى عاش

في عصر هشام المؤيد حفيد الناصر، أنه كان في مقدمة هدايا أرمانيوس ملك

الروم إلى الناصر سفران جليلان من كتب الأقدمين، أحدهما نسخة مصورة أبدع تصوير من كتاب ديسقوريدس (١) عن الحشائش، مكتوبة بلغة مؤلفها أى

باليونانية؛ والثاني نسخة من تاريخ أورسيوس (هروسيس) (٢) مكتوبة باللاتينية، وهو المتضمن لتاريخ العالم القديم، وأقاصيص الملوك السابقين (٣) .

وقدم الرسل

كتاب القيصر قسطنطنين السابع، وقد كتب في ورق ذى لون سماوى باللغة اليونانية، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ومكتوبة بنفس اللغة، فيها وصف لهدايا الإمبراطور، وعلى الكتاب طابع ذهبى، على إحدى وجهيه صورة للمسيح، وعلى الوجه الآخر صورة الإمبراطور قسطنطين، مصنوعة من الزجاج

الملون البديع.

وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه: " قسطنطين ورومانين

---

(١) ديسقوريدس Dioscorides طبيب وكيمائى يونانى.

أصله من كليكية بآسيا الصغرى.
وقد عاش في القرن الأول للميلاد، واشتهر بكتابه عن مركبات الأدوية.
وهو ما يزال يعتبر ذا قيمة
علمية حتى عصرنا، وكان يعتبر حتى القرن السابع عشر أثمن مرشد
لخواص الأعشاب الطبية.
(٢) باولوس أورسيوس Paulus Orosius حبر ومؤرخ إسبانى (قوطى)
عاش في القرن
الخامس الميلادى ووضع باللاتينية تاريخاً للخليقة في عصره.
وقد اشتهر تاريخه بالرغم من ركاكته
ركثرة خرافاته، وانتفع به كثير من المؤرخين اللاحقين.
وعرفه المؤرخون المسلمون ونقلوا عنه.
وأشار إليه ابن خلدون في مواضع عديدة من تاريخه، وتعرفه الرواية
الإسلامية بهروسيس أو هرشيوش.
(٣) راجع رواية ابن جلجل مفصلة في كتاب طبقات الأطباء، في ترجمة ابن
جلجل (ج ٢
ص ٤٤٧) .

(٤٥٣/١)

المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم " (١) ، وفي سطر آخر
صيغة التوجيه:
" العظيم الإستحقاق للفخر، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة، الحاكم على
العرب بالأندلس، أطال الله بقاءه ".
وذكر لنا ابن جُلجل أن ملك الروم كتب
إلى الناصر في شأن كتاب ديسقوريدس أنه لا تجنى فائدته إلا بواسطة
شخص يجيد
اليونانية، وأنه لم يكن في قرطبة يومئذ من يحسن هذه اللغة، وأن الناصركتب

في خطابه إلى " أرمانيوس " فيما بعد، أن يرسل إليه برجل يتكلم اليونانية واللاتينية، فبعث إليه براهب يدعى نيقولا، فحظى عند الناصر، وتوفر على تفسير كتاب
ديسقوريدس وشرح محتوياته لأطباء قرطبة.
وأما كتاب أورسيوس المكتوب
باللاتينية فقد كان في بلاط قرطبة من يجيدها (٢) .
وكان الناصر قد أمر أن يخطب
الأعلام في ذلك الحفل، وأن يعظموا من شأن الإسلام والخلافة، وأن يشكروا نعمة الله على ظهور دينه، وإعزاز كلمته، وذلة أعدائه، واستعد بعض الخطباء
لذلك، ولكن بهرهم هول المجلس فوجموا وأرتج عليهم القول، وكان منهم اللغوى
الكبير أبو على القالى وافد العراق وضيف الخليفة - وكان قد وفد على الأندلس
في سنة ٣٣٠ هـ، ندبه الناصر لذلك تكريماً له وتقديراً لبلاغته، ولكنه ما كاد يبدأ خطابه، حتى بهت وتلعثم ثم صمت؛ فعندئذ نهض الفقيه منذر بن سعيد البلوطى دون استعداد ولا سابق توقع، وارتجل خطاباً بليغاً ضافياً يشيد فيه بعهد الناصر ومآثره، ثم أعقبه بقصيدة في نفس المعنى (٣) ، فأثار بذلاقته وثبت

---

(١) رومانين هو رومانوس الثاني ابن قسطنطين السابع، وقد حكم بعد أبيه من سنة ٩٥٩ إلى
سنة ٩٦٣ م.
وتسميه الرواية الإسلامية " أرمانيوس ".
(٢) راجع رواية ابن جلجل المشار إليها في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٤٧.
(٣) نقل المقرى عن ابن حيان وغيره، نص الخطاب الذى ألقاه منذر بن

سعيد في ذلك الحفل.

وإنه ليصعب علينا متى تأملنا عباراته المنمقة، وسجعاته المرتبة، وما يتخلله

من ضروب البيان

والبديع، أن نصدق أنه خطاب مرتجل ألقى عفو الساعة.

ولعله صورة منقحة منمقة للخطاب الأصلى.

وقد رأينا أن ننقل فقرات من ذلك الخطاب تتناول عهد الناصر بشيء من

الوصف والتحليل.

جاء في الخطاب بعد الديباجة ما يأتى:

" وإنى أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين، التي لمت

شعثكم، وأمنت

صربكم ورفعت قوتكم، بعد أن كنتم قليلا فكثركم، ومستضعفين فنصركم، ولاه

الله رعايتكم

وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم

شعل النفاق، حتى

صرتم، في مثل حديقة البعير من ضيق الحال، ونكد العيش والتقتير،

فاستبدلتم بخلافته من الشدة

بالرخاء، وانتقلتم بين سياسته إلى تمهيد كنف العافية، بعد استيطان البلاء.

أناشدكم الله معشر الملأ =

(٤٥٤/١)

جنانه أيما إعجاب، وأكبر الناصر همته وعلمه، وكان هذا الخطاب المرتجل

فاتحة مجده، فأغدق عليه الناصر عطفه، وولاه القضاء، وأصبح من رجال

الدولة المشهورين.

ومن شعر منذر بن سعيد في وصف ذلك الحفل المشهود قوله:

مقالى كحد السيف وسط المحافل..

.

فرقت به ما بين حق وباطل

بقلب ذكى ترتمى جمراته..

.

كبارق رعد عند رعش الأنامل

فما دحضت رجلى ولا زل مقولى..

.

ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل

وقد حدقت حولى عيون أخالها..

.

كمثل سهام أثبتت في المقاتل

لخير إمام كان أو هو كائن..

.

لمقتبل أو في العصور الأوائل

ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه..

.

وكلهم ما بين راج وآمل

وفود ملوك الروم وسط فنائه..

.

مخافة بأس أو رجاء لنائل

فعش سالماً أقصى حياة مؤملا..

.

فأنت رجاء الكل حاف وناعل

ستملكها ما بين شرق ومغرب..

.

إلى درب قسطنطين أو أرض بابل (١)

________

= ألم تكن الدماء مسفكة فحقنها، والسبل مخوفة فأمنها، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها، ألم تكن البلاد خراباً فعمرها، وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها ".

ثم قال: " فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً، حتى

تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخير والبركات، وصارت وفود الروم

وافدة عليكم، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق "

ثم قال: " فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتكم، فإن من

نزع يداً من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومرق من الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها، حفظ الأموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود وتوفى العهود..

.

فاعتصموا بما أمركم

الله بالاعتصام به، فإنه تبارك وتعالى يقول (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، وقد علمتم ما أحاط بكم، في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصفوف الملحدين، الساعين

في شق عصاكم، وتفريق ملأكم الآخذين في مخاذلة دينكم وتوهين دعوة نبيكم..

.

الخ.

راجع خطاب ابن سعيد بأكمله في نفح الطيب ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٣.

(١) وقد نقل إلينا المقرى عن المغرب لابن سعيد وغيره نبذة في ترجمة
القاضى منذر بن سعيد
البلوطى، وفيها أنه ولد سنة ٢٦٥ هـ، وبرع في علوم القرآن والسنة، وظهر
بفصاحته وذلاقته
وجزالة شعره، وكان الخطاب الذى ارتجله في مجلس الناصر لمناسبة استقباله
لرسل ملك الروم بدأ
ظهوره وشهرته، فولاه الناصر الصلاة والخطابة في مسجد الزهراء، ثم ولاه
قضاء الجماعة بقرطبة.
وتوفى سنة ٣٥٥ هـ.
(راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٧٤ و ١٧٥ وكذلك قضاة قرطبة للخشنى
ص ١٧٥ و ١٧٦) .

*(٤٥٥/١)*

ولما انصرف رسل قسطنطين، بعث الناصر معهم سفيراً هو هشام بن هذيل
بهدية حافلة، ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف بين قرطبة وقسطنطينية، فعاد
بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء، وعادت معه رسل قسطنطين (١) .
وتفيض الرواية الإسلامية في تفاصيل هذه السفارة إفاضة واضحة، ولكنها
لا تلقى كبير ضوء على موضوعها وغايتها الحقيقية، وأكبر الظن أنها لم تكن
إلا تجديداً لعلائق الدولة البيزنطية مع دولة الإسلام بالأندلس، وتوطيداً
للصداقة
القديمة التي رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد
الرحمن
ابن الحكم (٢) لتكون شبه تحالف ضد الدولة العباسية خصيمتهما المشتركة.
وربما
كانت ترى في الوقت نفسه إلى تنظيم الخطط المشتركة بين الدولتين، لمقاومة
الدولة

الفاطمية الفتية، التي بدأت تزعج البيزنطيين في أواسط البحر المتوسط، وتزعج

حكومة قرطبة بتوغلها في المغرب الأقصى.

ثم توالت سفارات ملوك النصرانية بعدئذ على الناصر فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ الملك بيتر أو بطرس (٣) ، فاحتفل بقدومهم كذلك وبعث معهم ربيعاً (ريفا) الأسقف سفيراً إلى ملكهم؛ ثم وفدت رسل ملك فرنسا وهو يومئذ لويس الرابع في طلب الصداقة والمودة، فأجابهم إلى ما طلبوا.

على أن أهم سفارة تلقاها الناصر يومئذ، هى سفارة أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا، وقدكان أوتو يومئذ زعيم النصرانية، كما كان عبد الرحمن الناصر زعيم

الإسلام.

وتشير الرواية الإسلامية إلى تلك السفارة في غموض وإيجاز، وتصف أوتو بملك الصقالبة أو ملك " اللمان " وتسميه " هوتوا " أو " هوتو " (٤) ، ولكنها

تتفق مع الرواية الفرنجية في تاريخ هذه السفارة وهو سنة ٣٤٤ هـ الموافقة سنة ٩٥٦ م.

ففى ذلك العام وفد على قرطبة سفير، وهو حبر يدعى يوحنا الجورزينى نسبة إلى الدير الذى ينتمى إليه في جورزنى على مقربة من متز، وكان يوحنا من أكابر

---

(١) راجع في أخبار هذه السفارة البيزنطية: ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ و١٤٣، ونفح

الطيب ج ١ ص ١٧٠ - ١٧٤؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٩.

وراجع Aschbach: ibid،

B.

I.

p.

٩٦ - ١٠٠

(٢) راجع " دولة الإسلام في الأندلس " القسم الأول ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٣) هو بطرس بن سيمون الكبير ملك بلغاريا وقد كان يومئذ يعرف بملك الصقالبة.

(٤) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤.

*(٤٥٦/١)*

العلماء وأقطاب البحث والمناظرة.

والظاهر أنه قد وقعت فعلا قبل ذلك مراسلات كلامية

بين الناصر وأوتو عن الإسلام والنصرانية، وأن الناصر قد عرض في بعض رسائله

بالنصرانية وتعاليمها، فألفى أوتو الفرصة سانحة لأن يدافع سفيره العلامة الذلق عن

قضية النصرانية لدى خليفة قرطبة (١) .

بيد أنه يبدو من أقول الروايات الكنسية

أن هذه المهمة الجدلية، لم تكن إلا مهمة ثانوية إلى جانب موضوع سفارته

الأصلية، وأن مهمته الحقيقية كانت تتعلق بشأن توغل المستعمرات العربية المغامرة، فى

جنوبى فرنسا وفي ليجوريا وسويسرة، وعيثها في تلك الأنحاء، بصورة تبث

الرعب والروع إلى كثير من المدن والجماعات النصرانية، والاستعانة بنفوذ خليفة

الأندلس الذى تنتمى إليه هذه المستعمرات من الناحية الأدبية، لوقف عدوانها وتوغلها (٢) .

وقدم يوحنا إلى قرطبة عن طريق الرون وقطلونية برفقة راهب

آخر، ومعه طائفة نفيسة من الهدايا برسم الخليفة، فاستقبل بحفاوة، وأنزل فى

إحدى الدور الرسمية.

ولكن الناصر لم يبادر باستقباله حين وقف على موضوع
رسالته، ولم يقبل بالأخص أن تكون المسائل الدينية موضوع جدل بينهما.
ولما ألح
يوحنا في طلب المقابلة والمحادثة، أجاب الناصر بأنه سبق أن أرسل رسولا
أسقفاً
إلى أوتو فاعتقله مدى ثلاثة أعوام، وأنه سيعتقله أى يوحنا، أضعاف هذه
المدة، لأنه أرفع مقاماً من ملك النصرانية.
وأخيراً تقرر أن يرسل الناصر إلى ملك الألمان
رسولاً آخر يستوثق من عواطفه ونياته نحوه، وأن يبقى يوحنا معتقلا حتى
يعود السفير.
واختير لهذه السفارة كالعادة قس من رعايا الخليفة هو ربيع أو ريفا الأسقف،
وكان
عالماً متمكناً يشغل في البلاط منصباً هاماً، ويحبوه الناصر بعطفه وتقديره،
لعلمه
وجليل خدماته (٣) ، فاخترق فرنسا إلى ألمانيا، ومثل لدى الإمبراطور أوتو
فى
تورنجن، حيث كان ينفق معظم أوقاته.
وكان أوتو يجوز يومئذ بعض المتاعب
الداخلية من جراء ثورة ولده عليه، فأبدى تساهلا في قبول وجهات نظر
الخليفة، وأكرم مثوى سفيره، وعاد ربيع الأسقف إلى قرطبة، بعد سنتين من
سفره
(٣٤٧ هـ - ٩٥٨ م) .
فارتاح الناصر لنتائج سفارته، وأذن برؤية يوحنا سفير

---

(١) Reinaud: Invasions des Sarrazins en France p.

(٢) تناولنا قصة هذه المستعمرات في الفصل التالى.

(٣) ابن خلدون ج ٤ عى ١٤٣.

وهو ربيع بن زيد عن زعماء النصارى المعاهدين، وكان
يجيد العربية واللاتينية.

(٤٥٧/١)

الإمبراطور، واستقبله بقصر قرطبة في احتفال فخم، ظهرت فيه روعة البلاط
الأموى، وأفضى إلى الخليفة بموضوع سفارته.

ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج
هذه السفارة، لأن الرواية العربية لا تحدثنا عن موضوعها، ولا تحدثنا الرواية
الكنسية عن نتائجها.

ولكن المرجح أن وجهة النظر التي أبدتها حكومة قرطبة
لسفير الإمبراطور، فيما يتعلق بأمر المستعمرات العربية المغامرة، وغزواتها
فى
غاليس وشمالى إيطاليا وسويسرة، أنها ليست لها علاقة بتلك المستعمرات،
وأنها
لا تتحمل تبعة أعمالها، ولا تستطيع أن تتدخل في شأنها، أو تبذل نصحها
لأولئك
المغامرين الخارجين عن طاعتها، وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية
عن
ذكر أخبار هذه المستعمرات، مما يدل على أن حكومة الأندلس، لم تكن ذات
علائق رسمية بها، ولم تكن تعنى بأمرها، وإن كانت بلا ريب تنظر إلى
غزواتها
وتوغلها في الأراضي النصرانية، بعين العطف والرضى.

ولكن لوتبراند وهو

مؤرخ كنسى معاصر، يؤكد لنا أن الخليفة كان يحمى هذه المستعمرات، ويمدها
بالتشجيع والعون (١) .
بيد أن الرواية الكنسية تقدم إلينا بهذه المناسبة حديثاً طريفاً عن آراء الناصر
في نظم الحكم، فقد وقف الناصر من مستشاريه أو من يوحنا نفسه على طرق
نظام الحكم الإقطاعى السائد في ألمانيا، وما يتمتع به بعض الأمراء المحليين في ظل
هذا النظام، من الاستقلال الداخلى، وأبدى ليوحنا اعتراضه على هذا النظام،
قائلا إن ملككم أمير حكيم ماهر، ولكن في سياسته شيئاً لا أستسيغه، وهو أنه
بدلا من أن يقبض بيديه على جميع السلطات، ينزل عن بعضها لأتباعه، ويترك
لهم بعض ولاياته، معتقداً أنه يكسب بذلك، وهذا خطأ فادح، فإن مداراة
العظماء لا يمكن إلا أن تزيد في كبريائهم، وتذكى رغبتهم في الثورة (٢) . وفى ذلك
ما يوضح لنا فكرة الناصر في الحكم المطلق، وسياسته في سحق أولى الشأن والعصبية
من زعماء القبائل العربية، واعتماده على بطانة ذليلة من الفتيان الصقالبة والمولدين.
تلك تفاصيل المراسلات والسفارة الشهيرة التي تبادلها أوتو الأكبر وعبد الرحمن
الناصر، زعيما النصرانية والإسلام في عصرهما، بيد أنها لم تكن خاتمة الصلات

---

(١) Reinaud: ibid, p.

١٩٣
(٢) Dozy: Hist.
V.
II.
p.
١٥٣

(٤٥٨/١)

الدبلوماسية بين الناصر وملوك النصرانية.
فقد تلقى الناصر كذلك في سنة ٣٤٤ هـ
(٩٥٥ م) سفارة من أردونيو الرابع ملك ليون يرجو عقد السلام والمودة،
فأجابه
إلى طلبه؛ وأرسل في السنة التالية سفيره محمد بن الحسين إلى ليون، فعقد
مع
أردونيو معاهدة صادق عليها، ولكن حال دون تنفيذها منافسة سانشو لأخيه
أردونيو.
وفى سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) وفدت طوطة ملكة نافار بنفسها إلى قرطبة،
ومعها ولدها غرسية وسانشو أمير ليون، وطائفة من الأحبار والعظماء
النصارى، فاستقبلهم الناصر في قصره بالزهراء استقبالا حافلا، وعقد السلم
مع طوطة، وأقر
ولدها ملكاً على نافار، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه.
ثم وفدت على
الناصر رسل البابا يوحنا الثاني عشر في طلب السلم والمودة، بين الإسلام
والنصرانية
فأجابهم إلى ما طلبوا (١) ؟ وكانت سفارة ذات مغزى واضح في الاعتراف
بزعامة

الناصر للعالم الإسلامى.
وفى أخبار هذه السفارات المتبادلة بين زعيم الإسلام
وملوك النصرانية، وفي تفاصيلها الشائقة، ما يلقى كبير ضوء على طبيعة
التقاليد
والرسوم الدبلوماسية في العصور الوسطى.
- ٥ -
وفى أوائل سنة ٣٤٩ هـ مرض الناصر من برد شديد أصابه، واحتجب حيناً، وأكب الأطباء على معالجته حتى تحسنت حالته نوعاً، وعاد إلى الجلوس في القصر، ولكنه أصيب بنكسة، وعاد إلى احتجابه، ولبث أشهراً تشتد به العلة حيناً، وتخف حيناً، حتى وافاه القدر المحتوم، في الثاني من شهر رمضان
سنة ٣٥٠ هـ
(١٥ أكتوبر سنة ٩٦١ م) .
وكانت وفاته بقصر الزهراء في الحادية والسبعين
من عمره، واستطال حكمه زهاء خمسين عاماً، وهى أطول مدة حكمها خليفة
من
خلفاء الإسلام، إذا استثنينا عهد المستنصر بالله الفاطمى بمصر.
وكان عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء الإسلام في عصره، بل ربما كان
أعظم
أمراء عصره قاطبة.
ولم تصل الدولة الإسلامية في الغرب، إلى ما وصلت إليه فى
عصر الناصر، من القوة والسؤدد والهيبة والنفوذ.
وكان يتمتع بخلال باهرة
قلما تجتمع في شخصية واحدة، سياسية وعسكرية وإدارية.
وكان يشبه فى

---

(١) ابن خادون ج ٤ ص ١٤٣.

حزمه وصرامته وبعد نظره، بجده الأكبر عبد الرحمن الداخل (١) .
ويجمل ابن
الأبار خواصه وخواص عصره في تلك العبارة: " وظهر لأول ولايته من يمن
طائره، وسعادة جده، واتساع ملكه، وقوة سلطانه، وإقبال دولته، وخمود
نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة، وانقياد العصاة لطاعته، مما تعجز عن
تصوره
الأوهام " (٢) .
وتولى حجابته لأول ولايته مولاه بدر بن أحمد، وما لبث أن
اصطفاه وأولاه كل ثقته، وفوض إليه الأمر والنهى، وجعله على حد قول
المؤرخ " شمساً لملكه وبدراً " (٣) .
وولى أبناءه الثلاثة عبد الرحمن وعبد الله وإسماعيل
مناصب في القصر والخاص.
ولما توفى بدر بن أحمد في شهر رجب سنة ٣٠٩ هـ، ولى الناصر مكانه في
الحجابة موسى بن محمد بن حُدير.
وتولى وزارته عدة
من أنبه رجال العصر، منهم أحمد بن محمد بن حُدير، وجَهْور بن عبد
الملك، وعبد الله بن محمد الزجّالِي.
وتولى إدارة الشئون المالية عبد الملك بن
جهور، وأحمد بن عبد الملك بن شُهَيد (٤) .
وأهدى ابن شهيد إلى الناصر هديته
المشهورة، التي أفاض في وصفها مؤرخو الأندلس، وكان منها خمسمائة ألف
مثقال
من الذهب، ومائتا أوقية من المسك والعنبر، وثلاثون شقة من الحرير المرقوم
بالذهب، ومائة فرس مسرجة، وعشرون بغلا عالية الركاب، وأربعون

وصيفاً، وعشرون جارية بكسوتهن وزينتهن، وأصناف عديدة أخرى.
قال
ابن خلدون " وهى مما يدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها ".
ويجمع
مؤرخو الأندلس على أنه لم تقدم هدية في قدرها ونفاستها إلى ملك من ملوك
الأندلس.
قدمها ابن شهيد إلى الناصر في سنة ٣٢٧ هـ، ومعها خطاب رقيق يشيد فيه
بعظمة
الناصر ومآثره، فوقعت لديه أحسن موقع، وزاده حظوة واختصاصاً، وأسمى
منزلته على سائر الوزراء، وأسبغ عليه لقب ذى الوزارتين، فكان أول من
حظى
بهذا اللقب من وزراء الأندلس، وضاعف له رزق الوزارة، وجعله ثمانين
ألف دينار في العام (٥) .
وولى قيادة الجيش لأول عهد الناصر أحمد بن محمد

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٣,
(٢) الحلة السيراء (ليدن) ص ٩٩ - ١٠٠,
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠,
(٤) البيان المغرب ج ص ١٦٤.
(٥) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨، ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٦ و١٦٧
و١٧٧
نقلا عن ابن حيان وابن الفرضى وغيرهما.



ابن أبي عبدة، سليل الأسرة الشهيرة، التي تولى زعماؤها قيادة الجيوش
الأندلسية

خلال الفتنة الكبرى.
وكذلك وليها الحاجب بدر غير مرة، ووليها الفتيان
الصقالبة مثل نجدة وميسور وغيرهما.
وقد رأينا كيف انتهت سياسة عبد الرحمن
في إيثار الصقالبة بالقيادة إلى كارثة الخندق.
وممن ولى القضاء في عهد الناصر
أحمد بن محمد بن زياد، وأسلم بن عبد العزيز بن هشام، ومنذر بن سعيد البلوطى (١) .
وقد أورد لنا ابن حيان ثبتاً طويلا من الوزراء وأصحاب الخطط والموالى الذين تولوا المناصب الكبرى في عهد الناصر.
فمن الوزراء: محمد بن سليمان بن وانسوس.
سعيد بن المنذر القرشى.
عبد الحميد بن بسيل، خالد بن أمية بن شهيد.
عيسى بن أحمد بن أبي عبدة.
جهور بن عبد الملك البختى، أحمد بن محمد بن إلياس.
ومن أصحاب الخطط: محمد بن سعيد بن المنذر القايد.
عيسى بن فطيس
الكاتب.
عبد الله بن بدر بن أحمد صاحب الشرطة.
محمد بن قاسم بن طملس
صاحب المظالم.
محمد بن عبد الله بن موسى الخازن.
إسماعيل بن بدر بن
اسماعيل العارض.
ومن الموالى: جهور بن عبيد الله بن محمد بن أبي عبده.
أحمد بن خالد

ابن أمية بن عيسى بن شهيد.
محمد بن جهور بن عبد الملك البختى.
مروان بن
جهور بن عبد الملك البختى، أحمد بن سهل بن محمد.
عبد الله بن أحمد بن محمد
ابن عيسى.
محمد بن عباس بن محمد بن أبي عبدة.
عبيد الله بن عباس بن أحمد
ابن أبي عبده، عبد الله بن يحيى بن إدريس.
عبد الوهاب بن محمد بن بسيل.
محمد بن مروان بن عبد الله بن بسيل.
عبد الرحمن بن أحمد بن زكريا بن عاصم.
محمد بن أحمد بن قابوس.
أحمد بن محمد بن عيسى.
محمد بن عبد السلام بن
كليب بن ثعلبة (٢) .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦١.
(٢) نقلنا هذا الثبت عن ابن حيان أورده في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة
الملكية الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة.
وأورد لنا ابن حيان أيضاً ثبتاً طويلا بأسماء عمال الكور
في عهد الناصر استغرق صفحة كاملة (لوحة ١٥٣ أ) .
ولكنا لم نجد محلا لإيراده.

وذكر لنا ابن حيان، في حوادث سنة ٣٢٤ هـ، أن الوزراء في هذه السنة كانوا عشرة، وهم: سعيد بن المنذر القرشى المروانى.

أحمد بن محمد بن حدير.

عبد الحميد بن بسيل.

أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف.

خالد بن أمية

ابن شهيد.

عيسى بن أحمد بن أبي عبدة.

عبد الملك بن جهور.

فطيس بن

اصبغ بن فطيس.

أحمد بن محمد بن إلياس.

يحيى بن إسحق.

وذكر لنا في حوادث سنة ٣٢٥ هـ، أنه قد عزل عن الوزارة يحيى بن إسحق، ووليها أحمد بن عبد الملك بن شهيد، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالى، وأن الوزراء بلغ عددهم في هذه السنة واحداً وعشرين وزيراً، منهم تسعة من

العشرة الذين سبق ذكرهم عدا يحيى بن إسحق (١) .

وكان عبد الرحمن الناصر عالماً أديباً، يهوى الشعر وينظمه، ويقرب الأدباء والشعراء، وكان في مقدمة دولته وأكثرهم حظوة لديه، الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وشاعر الدولة المروانية منذ محمد بن عبد الرحمن. ويفيض

ابن عبد ربه في مناقب الناصر، ويستعرض غزواته منذ ولايته حتى سنة ٣٢٢ هـ، فى

أرجوزة طويلة رتبت وفق السنين (٢) .

ومن شعره في وصف عصر الناصر، واعتزاز الإسلام بدولته قوله:

قد أوضح الله للإسلام منهاجا..

.

والناس قد دخلوا في الدين أفواجا

وقد تزينت الدنيا لساكنها..

.

كأنها ألبست وشياً وديباجا

يا ابن الخلائف إن المزن لو علمت..

.

نداك ما كان منها الماء ثجّاجا

والحرب لو علمت بأساً تصول به..

.

ما هيجت من حمياك الذى اهتاجا

مات النفاق وأعطى الكفر رمته..

.

وذلت الخيل إلجاماً وإسراجا

وأصبح النصر معقوداً بألوية..

.

تطوى المراحل تهجيراً وإدلاجا

أدخلت في قبة الإسلام بارقة..

.

أخرجتها من ديار الشرك إخراجا

بجحفل تشرق الأرض الفضاء به..

.

كالبحر يقذف بالأمواج أمواجا

يقوده البدر يسرى في كواكبه..

.

عرمرماً كسواد الليل رجراجا

---

(١) وردت الفقرة الأولى في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ١٥٣ أ،
ووردت الفقرة
الثانية في لوحة ١٦٢ أ.
(٢) راجع هذه الأرجوزة في كتاب العقد الفريد (طبعة المطبعة الأزهرية) ج ٣
ص ٢٠٩
إلى ٢٢٧.

(٤٦٢/١)

إن الخلافة لن ترضى ولا رضيت..

.

حتى عقدت لها في رأسك التاجا (١)

ومما ينسب إلى الناصر من النظم، قوله:

لا يضر الصغير حدثان سن..

.

إنما الشأن في سعود الصغير

كم مقيم فازت يداه بغنم..

.

لم تنله بالركض كف مغير (٢)

وكان الناصر سمحاً وافر الجود.

ويصفه ابن الأثير بأنه كان، أبيض، أشهل، حسن الوجه، عظيم الجسم، قصير الساقين (٣) وترك الناصر من
البنين أحد عشر ولداً منهم ولى عهده وخلفه الحكم المستنصر بالله.

وقال الوزير جعفر بن عثمان المُصْحفى في رثاء الناصر:

إلا إن أياماً هفت بإمامها..

.

لجائرة مشتطة في احتكامها

فلم يؤلم الدنيا عظام خطوبها..

.

وأحداثها إلا قلوب عظامها

تأمل فهل من طالع غير آفل..

.

لهن وهل من قاعد لقيامها

وعاين فهل من عائش برضاعها..

.

من الناس إلا ميت بفطامها

كأن نفوس الناس كانت بنفسه..

.

فلما توارى أيقنت بحمامها

فطار بها يأس الأسى وتقاصرت..

.

يد الصبر عن أعوالها واحتدامها

ويشيد النقد الحديث بمناقب عبد الرحمن الناصر وعصره أعظم إشادة.
وربما
كان أبلغ ما قيل في ذلك تلك العبارات القوية التي يختتم بها العلامة دوزى حديثه عن
عصر عبد الرحمن الناصر: " لقد كانت هذه نتائج باهرة، ولكنا نجد إذا ما درسنا
ذلك العصر الزاهر، أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة، بأكثر مما يثيرهما المصنوع: تثيرهما تلك العبقرية الشاملة التي لم يفلت شيء منها، والتي كانت تدعو إلى الإعجاب في تصرفها نحو الصغائر، كما تدعو إليه في أسمى

الأمور.

إن

ذلك الرجل الحكيم النابه، الذى استأثر بمقاليد الحكم، وأسس وحدة الأمة، ووحدة السلطة معاً، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسى، والذى اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالا من غير المسلمين،

لأجدر بأن

يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى " (٤).

---

(١) وقيل إن هذه القصيدة وجهت إلى الناصر لمناسبة عوده ظافراً من أول غزوة قام بها ضد

الثوار في مستهل حكمه.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٦.

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٧.

(٤) Dozy: Hist, V.

II.

p.

١٧٥

(٤٦٣/١)

الفصل الثالث

غزوات المسلمين

في غاليس وشمال إيطاليا وسويسرة

توقف الغزو الإسلامى عقب بلاط الشهداء.

استئناف الغزو في عهد هشام.

غزو الفرنج لشمالى

الأندلس.

الغزوات الاسلامية المغامرة.

صمت الرواية الإسلامية عن ذكرها.

غزو قورسقة وشواطىء

فرنسا الجنوبية.

غزو مرسيليا وبروفانس.

غزو موسى بن موسى لسبتمانيا.

غزو جزيرة كاماراج.

اضطراب الأحوال في جنوبى فرنسا.

غزو المسلمين لشواطىء سان تروبيه.

معاقلهم في تلك الأنحاء.

تدخلهم بين النصارى.

اختراق الغزاة لدوفينه.

عبورهم مون سنى.

احتلالهم لممرات الألب.

جوازهم

الى سهول بييمون.

عودهم إلى غزو بروفانس.

غزوهم لمرسيليا وإيكس.

غلقهم لممرات الألب.

تقدمهم إلى ليجوريا.

غزوهم لمنطقة فاليه وسافوا.

وصولهم إلى قلب سويسرة وشرقها.

غزوهم لثغر

فريجوس.

اتحاد الأمراء النصارى عل مقاومتهم.

استنجادهم بقيصر قسطنطينية.

مهاجمة المسلمين وتمزيقهم.

الصلح بينهم وبين ملك بروفانس.

احتلالهم لممر سان برنار.

استيلاؤهم على جرينوبل.

غاراتهم فى

بييمون.

الحرب بينهم وبين المجر.

وصولهم إلى سان جالن.

قتالهم وهزيمتهم.

صدى الغزوات

الإسلامية في جنوبى أوربا.

سعى البابوية وإمبراطور ألمانيا لوقفها.

محاربة الغزاة في دوفينه وبروفانس.

هزيمتهم وارتدادهم إلى الجنوب.

سقوط حصن فراكسنيه.

سقوط المستعمرات الإسلامية في الألب.

غزوات بحرية إسلامية لشواطىء فرنسا.

غزو قورسقة وسردانية.

ظروف هذه الغزوات الإسلامية.

خواصها وبواعثها.

آثارها المادية والأدبية.

أثر العرب في تقدم الزراعة في الأنحاء المفتوحة.

نقلهم

لكثير من المحاصيل والغراس.

أثرهم في تحسين سلالة الخيل.

الآثار الاجتماعية.
أقوال النقد الحديث.

- ١ -

تحدثنا فيما تقدم عن غزوات العرب في غاليس (جنوبى فرنسا) منذ الفتح، ورأينا كيف وضع ارتداد العرب في موقعة بلاط الشهداء في سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م)
حداً لغزواتهم في غاليس، وكيف فقدوا تباعاً قواعدهم في لانجدوك وسبتمانيا، حتى انتهت رياستهم فيما وراء البرنيه بسقوط ثغر أربونة، آخر قواعدهم في سبتمانيا،
في يد الفرنج في سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ م) (١) .
وكانت الأندلس خلال هذه الفترة تضطرم بالفتن الداخلية والحرب الأهلية.
ولما استطاع عبد الرحمن الأموى أن ينتزع الرياسة لنفسه من غمر الفتنة، وأن يعيد

---

(١) راجع " دولة الإسلام في الأندلس " القسم الأول ص ١٣٧.



ملك الدولة الأموية بالأندلس، لبث بقية عهده يعمل على توطيد ملكه الفتى، وحمايته من الثوار والخوارج، ولم تتح له فرصة للتفكير في الغزوات الخارجية.
بل
لقد اضطر أن يقف موقف المدافع من مملكة الفرنج ومن عاهلها شارلمان، الذى
حاول أن يغزو الولايات الإسلامية، بمؤازرة الزعماء الخوارج في الثغر الأعلى، واضطر أن يغضى مدى حين عن غزوات المملكة النصرانية الناشئة، لأراضي

الأندلس وقواعدها الشمالية.

فلما تولى ولده هشام الملك، واستطاع أن يقضى على ثورة أخويه سليمان وعبد الله، وجه عنايته إلى مقارعة المملكة الفرنجية، ورد خطرها عن الأندلس، وبعث إلى الشمال في سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) بجيش كثيف بقيادة حاجبه عبد الملك

ابن عبد الواحد بن مغيث، فعبر جبال البرنيه، ونشبت بين المسلمين والفرنج فى

بسائط سبتمانيا عدة معارك كانت سجالا، وجدد بذلك عهد الغزو والجهاد فيما وراء البرنيه.

وعاد الفرنج في عهد الحكم بن هشام، فعبروا جبال البرنيه في سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) وغزوا الثغر الأعلى وافتتحوا ثغر برشلونة، واقتطعوا بذلك جزءاً من الأندلس الشمالية.

ولم تمض بضعة أعوام أخرى، حتى عبر الفرنج البرنيه

للمرة الثانية (١٩٣ هـ - ٨٠٩ م) وحاولوا الاستيلاء على مدينة طرطوشة، ولكن

المسلمين استطاعوا إنقاذها.

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم سارت حملة بحرية أندلسية لغزو الجزائر الشرقية، وقد رأينا فيما تقدم كيف غدت مياه الأندلس الشرقية مركزاً لحملات البحارة

المسلمين، يسيرون منها نحو الشمال والشرق إلى الشواطى والجزائر القريبة، ينقضون عليها طلباً للغنيمة والسبى، وكيف بدأت من ذلك الحين محاولات المجاهدين المسلمين، لغزو شواطىء فرنسا الجنوبية وأحواز مصب الرون.

وقد فصلنا فيما تقدم من كتابنا أخبار الغزوات الأندلسية الرسمية فيما وراء البرنيه، وأشرنا بإيجاز إلى بداية عهد الحملات البحرية الأندلسية الخاصة (١) .

سنحاول في هذا الفصل أن نستعرض لمحة من أخبار هذه الحملات

والغزوات
الإسلامية غير الرسمية البحرية والبرية، إلى شواطىء فرنسا الجنوبية، وما
يجاورها

---

(١) راجع " دولة الإسلام في الأندلس " ص ٢٦٥ و ٢٦٦.



من سهول ليجوريا وهضاب سويسرة، ومما يجدر ذكره أن الرواية الإسلامية
قلما تشير إلى هذه الغزوات بكلمة، وربما كان ذلك راجعاً إلى طبيعة هذه
الغزوات
والمغامرات غير الرسمية، التي كانت تنظمها جماعات خاصة من المجاهدين
لا تربطها
بحكومة قرطبة صلة رسمية، ولا تعتمد إلا على جهودها ومواردها الخاصة.
بدأت هذه الغزوات الأندلسية للشواطىء والثغور الفرنجية منذ أوائل القرن
التاسع.
وكان معظمها حملات بحرية، قوامها جماعات من المجاهدين والزعماء
المغامرين.
ففى سنة ٨٥٦ م غزت إحدى هذه الجماعات البحرية المجاهدة جزيرة
كورسيكا (قورسقة) ، وهزمت الأسطول الفرنجى الذى بعثه ببين ابن شارلمان
ملك إيطاليا لقتالهم، وعادت بكثير من الغنائم والسبى.
وتوالت بعد ذلك غزوات
البحارة الأندلسيين لشواطىء كورسيكا وسردانية، وهما يومئذ أغنى جزر البحر
المتوسط.
وكذلك توالت غارات البحارة المسلمين على شواطىء فرنسا الجنوبية.
وتعنى الرواية الكنسية والفرنجية المعاصرة بتدوين هذه الغزوات الإسلامية،
وتصف

عصفها وعيثها، وما كانت تحدثه من الرعب بين السكان النصارى، وتقول لنا إن البحارة المسلمين، ذهبوا في الجرأة إلى حد التجول في مياه الأطلنطيق، والإغارة على شواطىء فرنسا الغربية، وإن سفينة عربية كبيرة اجتازت في ذلك الحين مياه الأطلنطيق حتى مصب نهر اللوار (١) .

وفى سنة ٨٣٨ م سار أسطول أندلسي من مياه طرّكونة ومياه الجزائر الشرقية

إلى مياه بروفانس، وغزا ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضي، وأثخن فيها، وحمل الغزاة كثيراً من الغنائم والسبى.

ولم يستطع ملك فرنسا الضعيف لويس ابن

شارلمان مقاتلة الغزاة.

ثم عاد البحارة المسلمون وغزوا شواطىء بروفانس مرة

أخرى، ونفذوا إلى مصب نهر الرون، واقتحموا مدينة آرل وخربوا كنائسها، وتوالت بعد ذلك غزواتهم لهذه المنطقة.

وفى سنة ٨٥٠ م في أواخر عهد عبد الرحمن

ابن الحكم، عبر موسى بن موسى بن قسى صاحب سرقسطة وزعيم الثغر الأعلى، جبال البرنيه، وغزا سبتمانيا وأثخن في نواحيها، واضطر شارل الأصلع ملك فرنسا

أن يهادنه، وأن يعقد الصلح معه، وأن يسترضيه بالهدايا والتحف.

ومن

---

(١) جمعت أقوال الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة، عن هذه الغزوات الإسلامية، فى

موسوعة Bouquet التي سبقت الإشارة إليها غير مرة، بنصوصها اللاتينية أو الفرنسية القديمة، وقد اعتمدنا عليها في كثير من حوادث هذا الفصل.

المرجح أن هذه الغزوة لم تكن ذات طابع رسمى، ولم تكن لها صلة بحكومة قرطبة.

ذلك أن بني قسيّ زعماء الثغر الأعلى في ذلك الحين، كانوا يتمتعون باستقلال محلى، ولا يدينون بالولاء لحكومة قرطبة، وكانوا بالعكس ينزعون إلى مقاومتها والخروج عليها.

وفى سنة ٨٦٩ م هاجمت جماعة من البحارة والمجاهدين المسلمين شواطىء بروفانس مرة أخرى، واستولت على جزيرة كاماراج الواقعة في مصب الرون، وأسرت أسقف آرل الذى كان يقيم بها، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى.

- ٢ -

وأذكى نجاح هذه الغزوات المتوالية، في نفوس المغامرين والمجاهدين من مسلمى الأندلس وإفريقية، حب التوغل في هاتيك الأنحاء، ورغبة في استعمارها والاستقرار فيها.

وكانت أحوال غاليس (جنوبى فرنسا) قد اضطربت يومئذ، وغلب سيد من سادة هذه الأنحاء يدعى بوسون على ولايتى دوفينه وبروفانس، وتلقب بملك آرل.

وقام يناوئه بعض منافسيه، ونشبت بينه وبينهم حرب أهلية (نحو سنة ٨٩٠ م) .

ففى تلك الآونة رست سفينة عربية صغيرة عليها عشرون بحاراً من المسلمين، في خليج جريمو أو خليج سان تروبيه، ونزلوا إلى الشاطىء ولجأوا إلى غابة كثيفة، تظلها الجبال، ثم هاجموا بعض الضياع القريبة وفتكوا بسكانها.

ولما رأوا منعة معقلهم من البر والبحر، عولوا على الاستقرار فيه، ودعوا

إخوانهم

من الثغور الإسلامية القريبة إلى القدوم، وأرسلوا في طلب العون والتأييد من حكومات الأندلس والمغرب، فوفد عليهم كثير من المغامرين البواسل.

ولم تمض

أعوام قلائل، حتى استقروا في ذلك المكان، وأنشأوا لهم سلسلة من المعاقل والحصون، أمنعها وأشهرها حصن تطلق عليه الرواية الفرنجية المعاصرة،

اسم

(فراكسنتم) Fraxinetum.

والمظنون أنه هو المكان الذى تقوم عليه اليوم قرية

(جارد فرينيه) Garde – Frinet الواقعة في سفح جبال الألب (١) .

وما زالت ثمة آثار

تدل على قيام معاقل قديمة في ذلك المكان، ولما كثر جمعهم، واشتد

ساعدهم، اخذوا

في الإغارة على الأنحاء المجاورة، وأصبحوا قوة يخشى بأسها.

وسعى إليهم بعض

الأمراء والسادة المتنافسين يستظهرون بهم، بعضهم على بعض، فلبوا الدعوة،

---

(١) Reinaud: Invasions des Sarrazins en France.

p.

١٦٠

(٤٦٧/١)

وانتزعوا من بعض السادة أراضيهم، وأعلنوا أنفسهم سادة في الأنحاء المغلوبة، وبثوا الذعر والروع في جنوب بروفانس، حتى وصفهم كاتب

معاصر " بأن

واحداً منهم يهزم ألفاً، واثنين يهزمان ألفين " (١) .

وكانت هذه أول خطوة في استعمار المسلمين لجنوبى فرنسا.
وفى خاتمة القرن
التاسع اتخذ المستعمرون المسلمون خطوة أخرى، فتقدموا نحو جبال الألب غرباً، وشمالا.
وكانت مملكة آرل قد ضعفت واضمحلت، وخلف بوسون ولده لويس، ولكنه ذهب إلى إيطاليا ليحارب إلى جانب حلفائه فهزم هنالك وأسر، وتركت مملكته بلا دفاع، وساد الإنحلال والفوضى غاليس كلها.
فانتهز المسلمون تلك
الفرصة واخترقوا مفاوز دوفينه، وعبروا " مون سنى " أهم ممرات الألب الفرنسية، واستولوا على دير نوفاليس الشهير الواقع في وادي "سيس " على حدود
بييمون، وفر الأحبار إلى مختلف الأنحاء (سنة ٩٠٦ م) .
وأغار المسلمون على
القرى والضياع المجاورة ونهبوها، وفتكوا بأهلها، وأسر بعضهم وأخذوا إلى تورينو بإيطاليا وسجنوا في ديرها، ولكنهم استطاعوا أن يحطموا أغلالهم، وأضرموا
النار في الدير وفي المدينة، وفروا عائدين إلى زملائهم.
واشتد بأس المسلمين فى
تلك الأنحاء، واحتلوا معظم ممرات الألب، فسيطروا بذلك على طرق المواصلة
بين فرنسا وإيطاليا، ثم انحدروا من آكام الألب إلى سهول بييمون، وأغاروا على بعض مناطقها.
وفى سنة ٩٠٨ م نزلت سرية قوية من البحارة المسلمين في شاطىء بروفانس على مقربة من " إيج مورت " ونهبت دير بالمودى، وكانت الأديار والكنائس يومئذ مطمح أنظار الغزاة، لما كانت تغص به من الذخائر والأموال.
وانتشر

المسلمون بعد ذلك في جميع الأنحاء المجاورة، واجتاحوا كل ما في طريقهم من
البسائط، وهاجموا مرسيليا، وهدموا كنيستها، وغزوا إيكس، وسبوا النساء وتزوجوا بهن ليكثر نسلهم ويقووا به، وانضم إليهم كثير من النصارى المغامرين
من أهل هذه الأنحاء، وهجر السادة والأغنياء حصونهم وقصورهم، والتجأوا إلى الداخل خشية القتل والأسر، وأغلق المسلمون طريق الألب إلى إيطاليا، وكان يمر بها كل عام ألوف من الحجاج الذين يقصدون إلى رومة، واقتضوا منهم الضرائب الفادحة ليسمحوا لهم بالمرور.

________

(١) Reinaud: ibid, p.
١٦١



- ٣ -

ثم اتخذ المسلمون خطوة جديدة في سبيل التقدم إلى أواسط أوربا، فدفعوا بغزواتهم إلى بييمون ومونفراتو.
وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة إنهم وصلوا
في أوائل القرن العاشر إلى حدود ليجوريا على شاطىء خليج جنوة. ويروى
لوتبراند، وهو كاتب معاصر، أن العرب غزوا سنة ٩٠٦، مدينة " آكى " من أعمال مونفراتو الشهيرة بحماماتها (وهى على مقربة من تورينو) ، ثم غزوها ثانية
سنة ٩٣٥ بقيادة زعيم يدعى (ساجيتوس) ولكنهم هزمو ومزقوا. وفى هذا
الوقت أيضاً نزلت جماعة قوية من البحارة الإفريقيين بساحل جنوة، وقتلت

عدداً كبيراً من أهلها، وأسرت جموعاً كثيرة من النساء والأطفال.
وفى سنة ٩٣٩ م غزا المسلمون منطقة " فاليه " في جنوب سويسرة، ونهبوا دير " أجون " الشهير، وغزوا في الوقت نفسه منطقة " تارانتيز " من أعمال سافوا
الوسطى، ثم اتخذوا منطقة " فاليه " قاعدة للإغارة على الأراضي المجاورة فى سويسرة وإيطاليا، ونفذوا منها إلى أواسط سويسرة، ثم إلى " جريزون " فى شرق سويسرة، ونهبوا دير ديزنتى أشهر وأغنى الأديار السويسرية، ونهبوا طائفة أخرى من الأديار والكنائس الغنية.
وفى بعض الروايات أيضاً أن المسلمين
وصلوا في غزواتهم إلى بحيرة جنيف، وجاوزوا إلى مفاوز جورا الواقعة فى شمالها، وكانت سويسرة يومئذ من أقاليم بورجونية وملكتها يومئذ الملكة " برت "
الوصية على ولدها الطفل كونراد، فارتدت حين اقتراب العرب إلى حصن ناء في جهة نيو شاتل.
وفى سنة ٩٣٠ م غزا العرب فريجوس وكانت يومئذ من أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية، وغزوا أيضاً ثغر طولون، ففر السكان إلى الجبال، وعاث المسلمون في تلك الأنحاء، وخربوا المدن والحصون، وأحرقوا الأديار والكنائس.
ولما اشتدت وطأة المسلمين في جنوبى فرنسا، وبلغ السخط من غزواتهم وعيثهم ذروته، اعتزم سادة الجنوب، وعلى رأسهم هوج ملك بروفانس أن يبذلوا
كل ما في وسعهم لسحق ذلك العدو المزعج.
ورأى هوج أن يبدأ بافتتاح حصن
فراكسنيه (فراكسنتم) الذى يمتنع به المسلمون، ويتخذونه قاعدة لتأمين مواصلاتهم
مع اسبانيا وإفريقية، وقاعدة للإغارة على الداخل، وكتب إلى صهره إمبراطور

قسطنطينية، يطلب منه أسطولا من قاذفات النار اليونانية، حتى يستطيع
مهاجمة
المسلمين من البر والبحر معاً.
فلبى نداءه.
وفى سنة ٩٤٣ م رسا أسطول بيزنطى
في مياه سان تروبيه، وزحف هوج في نفس الوقت بجيشه على فراكسنيه، وهوجم المسلمون من البر والبحر بمنتهى الشدة، وأحرقت سفنهم، ونفذ هوج إلى الحصن بعد قتال رائع، وفر المسلمون إلى الآكام والربى، وكاد يسحق سلطانهم في تلك الأنحاء.
ولكن حدث بعد ذلك أن علم هوج أن خصمه ومنافسه
بيرانجيه، قد عاد إلى إيطاليا لينازعه في انتزاع عرشها فصرف هوج الأسطول، واضطر أن يعقد الصلح مع المسلمين، بشرط أن يبقوا في رؤوس الألب وممراتها، وأن يغلقوا الطريق إلى إيطاليا في وجه خصمه، وبذلك استعاد المسلمون قلاعهم
وسيادتهم في جنوبى بروفانس.
واحتل المسلمون آكام الألب وممراتها، وفرضوا الضرائب الفادحة على المسافرين، واستطاعوا بسيطرتهم على ممر سان برنار الكبير، الموصل بين سويسرة
وإيطاليا، وغيره من الممرات والمعاقل الجبلية، أن يجتاحوا الأنحاء المجاورة، وأن يبثوا فيها الذعر والروع، واستقرت منهم جموع في السهول والضياع القريبة
من معاقلهم، وتزوجوا النساء الأسيرات، وزرعوا الأرض، واكتفى أمراء هذه النواحى بأن يحصلوا منهم بعض الضرائب.
ونفذ المسلمون أيضاً إلى منطقة نيس

ذاتها، وما يزال في نيس إلى اليوم حى يعرف بحى العرب Canton des Sarrazins

وأخيراً نفذ المسلمون إلى قلب ولاية دوفينه، وغزوا جرينوبل واحتلوها مدى حين، واحتلوا واديها الخصيب "جريزيفودان " الذى يجرى فيه نهر الإيزر فرع الرون، وفر أسقف جرينوبل وزملاؤه إلى الشمال حاملين رفات قديسيهم (١).

- ٣ -

وهكذا انتشرت المستعمرات والمعاقل الإسلامية خلال القرن العاشر الميلادى في بروفانس وسافوا وبييمون وسويسرة، وبسط المسلمون سيادتهم على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بن غاليس وبلاد اللونبارد (شمال إيطاليا) وبينها وبين

سويسرة، وبلغوا في تقدمهم في غاليس مدينة جرينوبل، واحتلوا في سويسرة ولاية فاليه ومفاوز جورا المتاخمة لبرجونية، واحتلوا في إيطاليا الشمالية، ولاية

---

(١) Reinaud: ibid , p. ١٨٠ & ١٨١



ليجوريا.

وكانت معاقلهم في بروفانس ولا سيما حصن "فراكسنيه "، قواعد غزواتهم وملاذ قوتهم وسيادتهم.

والظاهر أنهم اتبعوا نفس هذه الخطة في سهول بييمون، فأنشأوا بها سلسلة من الحصون والقلاع القوية، لتكون مركز غزواتهم في بلاد اللونبارد وفي سويسرة، فإن الرواية الكنسية التي كتبها حبر معاصر من

دير نوفاليس، تذكر لنا اسم حصن إسلامى في تلك الأنحاء وتسميه

"فراشنديلوم"
Fraschendellum، والمظنون أنه هو المكان الذى تعرفه الجغرافية الحديثة باسم
"فراسنيتو"، وهو الواقع في لومبارديا على مقربة من نهر " بو ".
وتقص علينا
نفس هذه الرواية الكنسية أيضاً أن سيداً نصرانياً من سادة تلك الأنحاء يدعو إيمون
دفعه شغف المغامرة والكسب، إلى محالفة المسلمين فانضم إليهم، واشترك فى
غاراتهم الناهبة؛ وفي ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة رائعة الحسن، فاستبقاها
إيمون لنفسه، ولكن زعيماً مسلماً استحسنها وانتزعها منه قسراً، فغضب إيمون
والتجأ إلى كونت روتبالدرس حاكم بروفانس العليا، وفاوضه سراً في محاربة
المسلمين، وإنقاذ البلاد منهم، فرحب الكونت بهذا المشروع، ودعا السادة
إلى معاونته، واستطاع أن يحشد قوات كبيرة، وهوجم المسلمون في ببيمون من
كل صوب ومزقوا، وسقطت قلاعهم في أيدى النصارى، وذهب سلطانهم فى تلك الأنحاء.
وتقص الرواية الكنسية أيضاً قصة مؤامرة دبرها كونراد ملك
برجونية لإهلاك المسلمين النازلين في أملاكه في جورا وعلى حدود برجونية،
والمجر الذين كانوا يشاطرونهم يومئذ الإغارة والعيث في تلك الأنحاء.
وذلك
أنه كتب إلى المسلمين يستحثهم على قتال منافسيهم المجر، وانتزاع ما بيدهم من
الأراضي والضياع الخصبة، وكتب مثل ذلك إلى المجر يستحثهم لقتال المسلمين
والمعاونة على إجلائهم، وعين مكاناً للقاء الفريقين، فالتقت الجموع المتنافسة

من المسلمين والمجر، ونشب بينهما قتال هلك فيه كثير من الفريقين، ثم
أشرف
كونراد بجموعه، ومزق البقية الباقية من الفريقين قتلا وأسراً، وتضع الرواية
تاريخ هذه الموقعة في سنة ٩٥٢ م، ولكنها لا تعين لنا مكان حدوثها (١) .
ومنذ منتصف القرن العاشر يأخذ نجم أولئك المسلمين المستعمرين المغامرين
في الأفول، وتضمحل سيادتهم في تلك الأنحاء.
بيد أنهم لبثوا مدى حين بعد ذلك

---

(١) Bouquet: T, IX, p.
٦.
، Reinaud: ibid , p.
١٢٨

(٤٧١/١)

يحتلون كثيراً من مواقع سافوا، ويجوبون أنحاء سويسرة كلها في طلب الغنيمة
والسبى، وقد اعتادوا على حرب الجبال وحذقوا أساليبها، وبلغوا في توغلهم فى
سويسرة مدينة سان جالن على مقربة من بحيرة كونستانس، وأنشأوا ثمة كثيراً
من القلاع والأبراج، التي مازالت تقوم منها إلى اليوم بعض الأطلال والبقايا،
ولبثوا حيناً في سان جالن حتى حشد رئيس ديرها حوله جمعاً من المقاتلين
الأشداء، وفاجأوا المسلمين في جوف الليل، ومزقوهم قتلا وأسراً، وبذلك خفت
وطأة
الغزوات الإسلامية في شمال سويسرة.
واستمرت المستعمرات والمعاقل الإسلامية في دوفينه وبروفانس، وبعض
جهات الألب، وكان قربها من "فراكسنيه " أمنع المعاقل الإسلامية يمدها
بأسباب
الجرأة والعون، ويمدها قربها من البحر دائماً بأمداد جديدة من المتطوعين

والمغامرين
من ثغور الأندلس وإفريقية.
وكان لاستقرار هذه المستعمرات الإسلامية في جنوبى أوربا، وعيثها المستمر
في الأنحاء والسهول المجاورة، وقع عميق في الحكومات الأوربية، وكان
صريخ
البابوية يتردد لدى أمراء أوربا، بالسعى إلى مكافحة هذا الخطر الداهم، وكان
أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا وأعظم أمراء النصرانية يومئذ، أشد هؤلاء الأمراء
اهتماماً بالقضاء على خطر المستعمرات الإسلامية، لأنه يدنو من أملاكه
ويصيبها
بشره.
ولهذا رأى أن يبذل في هذا السبيل سعيه، لدى عبد الرحمن الناصر عاهل
الأندلس وزعيم الإسلام الروحى والزمنى، وأوفد إليه في سنة ٩٥٦ م سفارته
الشهيرة التي أتينا على ذكرها.
وبحث سفيره يوحنا الجورزينى مع الخليفة مسألة
اعتداء المستعمرات الإسلامية على الأراضي النصرانية، والتمس إليه أن
يعاون
بنصحه ونفوذه على قمع هذا العدوان.
ولكن هذا المسعى لم يسفر عن أية نتائج
عملية، إذ اعتذر الخليفة حسبما فصلنا من قبل، بأن هذه المستعمرات
الإسلامية
لا تخضع له ولا تأتمر بأوامره، وأنها تعمل مستقلة بعيدة عن حكومة قرطبة.
على
أن لوتبراند، وهو مؤرخ كنسى معاصر، يؤكد أن الخليفة كان يحمى هذه
المستعمرات ويمدها بالتشجيع والعون (١) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى أخرج المسلمون من معاقلهم في آكام سان

برنار

---

(١) Reinaud: ibid , p.
١٩٨

(٤٧٢/١)

(فى نحو سنة ٩٦٩ م) .
ولسنا نعرف تفاصيل ذلك الحادث، ولكن المحقق أن
المسلمين أبدوا كعادتهم منتهى البسالة في الدفاع عن مواقعهم، والظاهر أيضاً
أن
القديس برنار (سان برنار) الذى سميت هذه الآكام باسمه، كان من أبطال
الموقعة التي نشبت وانتهت بجلاء المسلمين.
واستمر المسلمون في دوفينه وبروفانس، وكثيراً ما دعوا إلى التدخل بين
سادة هذه الأنحاء.
ولما غزا الإمبراطور أوتو بلاد اللونبارد، وأخرج منها ملكها
بيرانجيه، التجأ ولده أدلبرت إلى عرب "فراكسنيه"، ليعاونوه في استعادة ملكه،
وكان هذا التحالف بين السادة والمسلمين، يقوى سيادة الغزاة ويدعمها كلما
أذنت
بالانهيار.
بيد أن هذه السيادة قد أخذت في الاضمحلال، مذ فقد العرب
معاقلهم في جبال الألب.
وفى سنة ٩٦٥ م أخرج المسلمون من مدينة جرينوبل
ومن واديها الخصب (جريزيفودان) وطوردوا في تلك النواحى، وساءت
أحوالهم، وأعلن الإمبراطور أوتو بعد ذلك بعامين أو ثلاثة وهو يومئذ في
إيطاليا، أنه
سيتولى طرد المسلمين من الأراضي النصرانية، ولكنه توفى دون القيام

بمشروعه.
ثم دنت بوادر المعركة الحاسمة، وحدث في ذلك الحين أن حبراً كبيراً ذائع
الصيت، وهو سان مايبل أسقف دير كلونى من أعمال برجونية، حج إلى
رومة، ولما عاد من طريق دوفينه أسره المسلمون المرابطون في الجبال مع
جماعة كبيرة
من الحجاج، واشترطوا عليهم فدى فادحة، فدفعت بعد عناء، وأطلق سراح
سان ميبل وزملاؤه، وأذكى الحادث حماستهم وسخطهم، وذاعت قصة أسرهم،
وما يعانيه الحجاج من شر المسلمين وعدوانهم.
فنهض سيد من سادة تلك الأنحاء
يدعى بوبون، (أو بيفون) ، وانتهز فرصة الحماسة العامة وجمع حوله كثيراً
من
المقاتلة، وبنى حصناً في سترون على مقربة من حصن كان يملكه
المسلمون، ولبث يتحين الفرصة لمفاجأة العرب والاستيلاء على حصنهم،
حتى استطاع ذات
يوم أن يحمل بعض الحراس على فتح الأبواب، فتمت الخيانة، وباغت
النصارى
المسلمين في حصنهم، وقضوا عليهم قتلا وأسراً (سنة ٩٧٢ م) .
وفى الوقت نفسه التف النصارى في دوفينه حول زعيم يدعى جيوم، وهاجموا
المسلمين في جميع مراكزهم وقلاعهم ومزقوهم في كل ناحية، وبذا انهارت
سيادتهم
في دوفينه، ولم تبق إلا في بروفانس.
ولما قوى جيوم وكثر جمعه، بسط نفوذه

*(٤٧٣/١)*

على بروفانس وتلقب بألقاب الإمارة، واعتزم أن يخرج المسلمين نهائيا من
تلك

الأرض.
فدعا السادة لمعاونته ومنهم كونت نيس، ورأى المسلمون أن العاصفة
تنذر باجتياحهم من كل ناحية، فاستجمعوا كل أهبتهم وقواهم، ونزلوا من
الآكام إلى البسيط في صفوف متراصة، ووقعت بينهم وبين النصارى معركة
هائلة في " تورتور" فهزم المسلمون وارتدوا إلى قلاعهم، ولاسيما " فراكسنيه "
التي
غدت ملاذهم الأخير.
فطاردهم النصارى أشد مطاردة، وضيقوا الحصار عليهم، فحاولوا الفرار تحت
جنح الليل إلى الغابات المجاورة، ولكن النصارى لحقوا
بهم وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً، وأبقى على من استسلم وعلى المسالمين الذين
كانوا
يحترفون الزرع في الضياع المجاروة، وفر كثيرون من طريق البحر، وتنصر
كثير منهم، وبقى نسلهم في تلك الأرض زمناً طويلا.
وهكذا سقط حصن فراكسنتم أو فراكسنيه سنة ٩٧٥ م، بعد أن لبث زهاء
ثمانين سنة مركزاً قوياً للغزوات العربية غاليس، وقسمت أسلاب العرب
وأراضيهم بين السادة والجند، الذين اشتركوا في هذه الحرب الصليبية،
وانهارت
سلطة العرب في تلك الأنحاء.
أما المستعمرات الإسلامية التي كانت مبعثرة في آكام الألب، فيقال إنها
طوردت ومزقت في نفس الوقت، واعتنق الذين أسروا النصرانية.
ولكن توجد
رواية أخرى خلاصتها أن هذه المستعمرات لبثت في معاقلها نحو جيل آخر
حتى
تولى مطاردتها زعيم يدعى جيرولدوس.
وعلى أى حال فلم تأت أواخر القرن
العاشر حتى ذهبت سيادة المسلمين في غاليس وسويسرة، ولم يجب أحد في

إفريقية
والأندلس صريخ الغوث، الذى وجهه أولئك المستعمرون البواسل إلى إخوانهم،
لأن الحوادث الداخلية لم تكن تسمح يومئذ ببذل هذا العون.
على أن ذلك لم يكن خاتمة الغزوات الإسلامية في تلك المياه.
ففى سنة ١٠٠٣ م
سارت حملة بحرية من مسلمى الأندلس، ونزلت بجوار أنتيب في جنوب
فرنسا، واجتاحت الأراضي المجاورة.
وفى سنة ١٠١٩ م نزلت حملة مسلمة أخرى فى
ظاهر أربونة وحاولت أن تستولى عليها، ولكنها هزمت ومزقت.
وفى سنة
١٠٤٧ م هاجمت حملة أخرى جزيرة ليران الواقعة إلى الغرب من مرسيليا
وأسرت
عدداً من الرهبان.
وظهر في ذلك الحين زعيم أندلسي جرىء هو مجاهد العامرى

(٤٧٤/١)

أحد أمراء الطوائف، وصاحب ثغر دانية والجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، واهتم بأمر الغزوات البحرية، فسار في أسطوله إلى مياه قورسقة وسردانية، وغزا سردانية واحتل بعض أنحائها (سنة ٤٠٦ هـ ١٠١٥ م) ، ولكن النصارى استردوها بعد قليل (١) .
ولبث مجاهد العامرى الذى تسميه الرواية النصرانية
" موسيتو " أو " موجيتوس " مدى حين سيد هذه المياه، يبث فيها بحملاته
الرعب
والروع.
تلك هى قصة الغزوات الإسلامية في غاليس وبلاد اللونبارد وسويسرة؛ وهى
قصة تغفل الرواية الإسلامية كثيراً من أدوارها ووقائعها، ولكنها تشغل فراغاً

كبيراً في الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة.
وهذه الروايات هى عمدتنا فيما ننقل
من سير هذه الغزوات الشهيرة.
ومن المحقق أنها مشبعة بروح التحامل والخصومة
في كثير من المواطن، ولكنا نستطيع مع ذلك أن نتبين منها، أهمية الدور
الذى قام
به أولئك المجاهدون والمغامرون المسلمون، في تلك الوهاد والآكام النائية،
وما كان لهم بين هاتيك الأمم من السيادة والنفوذ مدى عصور.
- ٥ -
والآن فلنحاول أن نستعرض طرفا من العوامل والظروف التي أحاطت بتلك
الغزوات الإسلامية النائية، وطرفاً من الآثار التي خلفتها في البلاد والأمم
التي
كانت ميداناً لها.
ينكر بعض مؤرخي الغرب على تلك الفتوحات والغزوات العربية والإسلامية
بوجه عام، خاصة الاستقرار والإنشاء، ويقولون إنها كانت في الغالب حملات
ناهبة، تقوم على رغبة الكسب وتحصيل الغنائم.
ولاريب أن ظمأ المغنم وشغف
المغامرة، وما إليها من لذة الاستكشاف والسيادة، كانت من أهم العوامل التي
قامت عليها هذه الغزوات، وتلك هى العوامل الخالدة التي تقوم عليها فتوحات
الأمم منذ أقدم العصور.
ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن نزعة الجهاد لم تكن
بعيدة عن تلك الغزوات، وإن كثيراً من أولئك المغامرين البواسل، كانت
تحفزهم
الحماسة الدينية، وفكرة الجهاد في سبيل الله.
وقد كانت هذه العصابات الغازية
المستعمرة تعمل في الغالب لحساب نفسها، ولكنها كانت تعمل ملحوظة

بعطف

---

(١) ابن خلدون؛ المقدمة ص ٢١٢.

(٤٧٥/١)

الحكومات والأمم الإسلامية التي تنتمى إليها.
وكانت تؤدى إلى تلك الحكومات
خدمات جليلة، بما كانت تقوم به من إزعاج الحكومات والأمم النصرانية، وإضعاف
جيوشها ومواردها.
ومن المحقق أيضاً أن نزعة الاستقرار والإنشاء لم تكن بعيدة عن
أذهان الغزاة، بل كان يحفزهم مثل ذلك الروح الاستعمارى القوى الذى دفع الأمم
الغربية في العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها (١) . وقد استقروا
بالفعل واستعمروا، حيث مهدت لهم الكثرة والقوة سبيل البقاء، كما فعلوا
في إقريطش (كريت) ، حيث استقروا بها بعد افتتاحها زهاء قرن وثلث قرن
(٨٢٧ - ٩٦١ م) ، ونشروا بها الإسلام والحضارة الإسلامية. وكذلك استقروا
مدى حين في بارى وفي تارنت من ثغور إيطاليا الجنوبية وفي راجوزا (رغوس)
من ثغور الأدرياتيك الشرقية؛ وكان لهم على شواطىء قلورية (جنوبى إيطاليا)
مستعمرة زاهرة لبثت تسطع في هذه المياه عصراً.
ويبالغ المؤرخون الغربيون أيضاً، في تصوير الآثار المخربة لتلك الغزوات
الإسلامية، وما كانت تقترن به من ضروب العنف والسفك. ولكن العنف

والقسوة والسفك والتخريب، لم تكن خاصة بالغزوات الإسلامية، وإنما كانت
من خواص العصر ذاته، ولم تكن الغزوات النصرانية للأراضي الإسلامية
أقل
عنفاً وسفكاً.
ويكفى أن نشير هنا إلى الحملات الصليبية التي لبثت مدى عصور
تحمل إلى الأمم الإسلامية أروع صنوف الدمار والسفك، بل يكفى أن نشير
إلى
ما كانت ترتكبه البعوث الإستعمارية الحديثة، الإسبانية والإنجليزية والفرنسية،
فى
الدنيا الجديدة من صنوف القسوة والسفك، وما ترتكبه اليوم بعض الأمم
الأوربية
" المتمدنة "، من الجرائم المروعة في إفريقية وآسيا باسم المدنية والاستعمار.
***
والآن لنر ماذا خلفته الغزوات الإسلامية في هذه الأنحاء من الآثار المادية
والاجتماعية.
ومن المحقق أن هذه الآثار لا تكاد ترى اليوم، ولا يشعر بها إلا الباحث
المنقب.
ويلاحظ أولا أن الفتوحات العربية الأولى في غاليس وأكوتين لم يطل
أمدها أكثر من نصف قرن، ولم تكن الحضارة الإسلامية في اسبانيا قد
تكونت
وتفتحت بعد.
ثم كانت الغزوات اللاحقة التي فصلنا أخبارها، والتي كانت

---

(١) Finley: Byzantine Empire, Ch.
III - I

*(٤٧٦/١)*

أقرب إلى المغامرة المؤقتة، منها إلى الفتوح المستقرة، فلم تتح للغزاة فرص
الإستقرار والعمل السلمى، لأنهم كانوا في مراكزهم النائية متفرقين، يشتغلون
قبل
كل شيء بالدفاع عن مراكزهم وأنفسهم.
بيد أن هذه الغزوات المحلية المتقطعة
وهذه المستعمرات الإسلامية النائية، خلفت وراءها في الأراضي المفتوحة
بعض
الآثار المادية والمعنوية.
ومن ذلك ما كشفته المباحث الأثرية منذ القرن الماضى
على شواطىء خليج سان تروبيه من أطلال الحصون العربية القديمة التي
كانت قائمة
في تلك الأرض، والتي ما تزال قائمة في بعض آكام الألب الفرنسية
والسويسرية، وهى تدل على ما كان للغزاة من الحذق والبراعة في فن
التحصينات والمنشآت
الحربية.
وهناك في جنوب فرنسا وفي بعض أنحاء إيطاليا الشمالية والجنوبية، عدد
كبير من الأبراج القائمة فوق الآكام والربى، يدل ظاهرها على أنها كانت
تستعمل
لأغراض حربية.
ويرى البعض أن هذه الأبراج هى آثار عربية من مخلفات الغزاة
كانت تبنى لعقد حلقات الاتصال، وتسهيل حركات الدفاع فيما بينهم.
ومن
المعروف أن العرب منذ فتوحاتهم الأولى في سبتمانيا أعنى منذ أوائل القرن
الثامن، كانوا ينشئون في الأراضي المفتوحة حصوناً وأبراجاً تسمى "بالرباط"،

بيد أن
فريقاً آخر من الباحثين يرى بالعكس أن هذه الأبراج إنما كانت من إنشاء
أبناء
الأرض المفتوحة، أقاموها أيام اشتداد خطر الغزوات العربية، ليستعينوا بها
على
رد الغزاة.
وقد ظفرت المباحث الأثرية أيضاً بالعثور على كثير من القطع الذهبية
والفضية
(المداليات) في أنحاء كثيرة من لانجدوك وبروفانس، وثبت أنها من
مخلفات العرب والمسلمين، وأنها كانت تستعمل للتعامل مكان النقود، ولكنها
لا تحمل اسماً ولا تاريخاً ولا يمكن تعيين عهد سكها، وإن كانت بذلك تدل
على
أنها ترجع إلى عصر الغزوات الأولى.
ووجدت أيضاً في العهد الأخير في منطقة
تور سيوف ودروع قيل إنها عربية، من مخلفات الموقعة الشهيرة التي نشبت
في
تلك السهول بين العرب والفرنج في سنة ٧٣٢ م (موقعة بلاط الشهداء) .
ومن الحقائق التي لا شك فيها أثر المسلمين في الزراعة؛ فقد رأينا أن كثيراً
من الغزاة تخلفوا عن إخوانهم، واستقروا في تلك الأرض وزرعوها، ومن
المعروف أن العرب حولوا وديان اسبانيا المجدبة، إلى حدائق ورياض زاهرة،
ونقلوا



إليها مختلف الغراس من المشرق، وأنشأوا بها القناطر العظيمة.
وقد حمل هؤلاء
الغزاة المغامرون إلى جنوب فرنسا كثيراً من خبرتهم الزراعية، ولقنوها لسكان

تلك الأنحاء.

ويقال إنا " القمح الأسمر" الذى هو الآن من أهم محاصيل فرنسا
إنما هو من مخلفات العرب، وهم الذين حملوا بذوره، وكانوا أول من زرعه
بفرنسا، والمرجح أيضاً أنهم هم الذين حملوا فسائل النخيل من اسبانيا وإفريقية
إلى شواطىء
الريفييرا.

ومن آثارهم الصناعية، استخراج "القطران" الذى تطلى به قاع السفن
ويحميها من العطب، فهم الذين علموه لأهل بروفانس، وما زال عندهم من
الصناعات الذائعة، وما زال اسمه الفرنسى Quitran ينم عن أصله العربى.

ومن الحقائق الثابتة أيضاً، فضل العرب في تحسين نسل الخيول في تلك
الأنحاء، وما يزال في جنوب فرنسا جهات تشتهر بجمال خيولها ونبل
أرومتها، ولا سيما فى
" كاماراج " في مقاطعة " لاند " من أعمال غسقونية، ومن المحقق أن هذه
الخيول
الأصيلة الجميلة، إنما هى من سلالة الخيول العربية، التي أحضرها الفرسان
المسلمون معهم إلى تلك الأنحاء.

ولا ننسى ما للدم العربى من أثر في بعض أنحاء جنوب فرنسا.
فقد رأينا
أن المسلمين أنشأوا بعض المستعمرات الزراعية، وتزوجوا من نساء تلك
الأراضي
وتناسلوا فيها.

ولما تغلب عليهم النصارى وأخرجوا نهائيا من تلك الأراضي
تنصر كثير منهم ممن أسروا، وأرغموا على افتداء حياتهم وأسرهم بالتنصر،
وقد
لبث أبناء أولئك المسلمين المتنصرين عصوراً في تلك البلاد، يشتغلون
بالزراعة

والتجارة حتى جرفهم تيار التطور واندمجوا في المجتمع النصرانى، واختفت كل
آثارهم وخواصهم العربية والإسلامية.
هذا، وأما عن الآثار الاجتماعية، فانه يلاحظ في بعض جهات بروفانس
التي استقر فيها المسلمون مدى حين، أن لسكانها بعض التقاليد الخاصة، ومن
ذلك أنواع من الرقص يظن أنها ترجع إلى أصل عربى.
على أن أعظم آثار
العرب الاجتماعية في جنوب فرنسا، يبدو في تطور الحركة الفكرية في العصور
الوسطى، فقد كان للعرب أثر عظيم في تكوين النزعة الشعرية في الجنوب، وظهر أثر
هذه النزعة واضحاً في الحركة الأدبية التي تعرف بحركة "التروبادور" Troubadour
التي ظهرت في جنوبى فرنسا، وفي شمال إسبانيا وشمال إيطاليا، منذ القرن الحادى عشر

(٤٧٨/١)

الميلادى، وقوامها القريض الحربى والغنائى، وزعماؤها فرسان شعراء وفنانون.
أضف إلى ذلك أن تأثير الحضارة الإسلامية في سير الحضارة الأوربية، لم يقف عند
هذا العصر ولا عند هذه الحدود، فقد استمرت العلائق بعد ذلك طويلا بين
مسلمى الأندلس والأمم النصرانية المجاورة، وكان للحضارة الأندلسية في تطورها
العقلى والاجتماعى أعظم الآثار.
وقد لبثت ذكرى العرب وذكرى الغزوات العربية في فرنسا، تثير مدى

القرن الثامن في نفوس النصارى أعظم ضروب السخط والروع، وتقدمها
الرواية
الكنسية المعاصرة في أشنع الصور؛ فلما ظهرت عصابات النورمان والمجر
وغزت
فرنسا من الشرق والغرب، رأى النصارى من عيثهم وسفكهم أهوالا لا تذكر
بجانب أهوال الغزوات الإسلامية، وارتفعت ذكرى العرب وأضحت تقترن
بكل ما هو عظيم ضخم (١) ، وفي ذلك يقول المستشرق رينو: " إن ذكرى
الغزوات
النورمانية والمجرية لا توجد إلا في الكتب.
ولكن ما السر في أن ذكرى العرب
ما زالت ماثلة في جميع الأذهان.
لقد ظهر العرب في فرنسا قبل النورمان والمجر، واستطالت إقامتهم بعد
الغزوات النورمانية والمجرية، وإن غزوات العرب الأولى
ليطبعها طابع من العظمة، حتى أننا لا نستطيع أن نتلو أخبارها دون تأثر.
ذلك
لأن العرب (٢) دون النورمانيين والمجر، ساروا مدى آماد في طليعة
الحضارة، ثم إنهم لبثوا بعد أن غادروا أرضنا موضع الروع في شواطئنا،
وأخيراً لأن المعارك
التي اضطلعوا بها أيام الصليبيين في اسبانيا وإفريقية وآسيا، أسبغت على
اسمهم
بهاء جديداً، بيد أن هذه العوامل كلها قد لا تكفى لتعليل المكانة العظيمة التي
يتبوأها الاسم العربى في أوربا وفي أذهان المجتمع الأوربى.
أما السبب الحقيقى لهذه
الظاهرة المدهشة، فهو الأثر الذى بثه قصص الفروسية في العصور
الوسطى، وهو أثر لا يزال ملموساً إلى يومنا " (٣) .

---

(١) Reinaud: ibid , p.
٣١٠
(٢) يلاحظ أن كلمة " العرب " هنا يجب أن تفهم بأوسع معانيها، فالمقصود
بها هنا " الغزاة
المسلمون ".
ومنذ أواخر القرن الثامن الميلادى تغيض الصبغة العربية عن هذه الفتوحات،
وتغدو
فتوحات إسلامية، ينضوى تحت لوائها العرب وغيرهم من أبناء المجتمعات
الإسلامية، التي قامت
في إفريقية واسبانيا.
(٣) Reinaud: ibid; p.
٣١١ - ٣١٢.
وقد اعتمدنا على مؤلف هذا العلامة في كثير من
هذه الملاحظات الخاصة بآثار العرب (المسلمين) فلا جنوب فرنسا.

*(١/٤٧٩)*

الكتاب الثاني
الدّوْلة الأمويَّة في الأندَلسْ
القسم الرابع
رَبيع الخلافة الأندَلسِيّة
٣٥٠ - ٣٧٠ هـ: ٩٦١ - ٩٨٠ م

*(١/٤٨١)*

الفصل الأوّل
الحكم المستنصر بالله
خلافة الحكم المستنصر.

تنظيم البيعة له.
عنايته بتوسيع المسجد الجامع.
تحرك أمير قشتالة.
وفود أردونيو الرابع على الحكم.
وصف لحفل استقباله.
سفارة سانشو.
وفاة أردونيو.
تحالف
الملوك النصارى.
خروج الحكم إلى الغزو.
استيلاء المسلمين على شنت إشتيين.
إفتتاح قلهرة.
استرداد حصن غرماج.
عناية الحكم بتعزيز الأسطول.
ظهور النورمان في المياه الغربية.
مقاومة
المسلمين وارتداد النورمان.
عود النورمان إلى المياه الغربية ثم انسحابهم.
قرطبة تغدو مركز التوجيه
في شبه الجزيرة.
وفود الماوك النصارى وسفاراتهم على قرطبة.
حوادث المغرب.
انحلال دولة
الأدارسة.
أميرهم الحسن بن كنون.
طاعته للناصر والحكم.

مسير بلكين نائب المعز الفاطمى إلى قتال
زناتة.
ولاء زناتة لبنى أمية.
غزو بلكين لأراضيهم.
هزيمة زناتة.
نكث الحسن بن كنون.
الحكم
يرسل جيوشه إلى المغرب.
هزيمة الحسن وفراره.
عوده إلى القتال.
هزيمة جند الأندلس.
الحسن
يطلب الصلح.
الحكم يرسل كبير قواده غالباً في جيش ضخم.
غالب يطارد الحسن ويرغمه على
التسليم.
التجاء الحسن إلى قرطبة.
وصف لموكب القائد غالب.
وصف لصفات الحسن.
مغادرته قرطبة
إلى مصر.
اعتداء صاحب قشتالة على الأراضي الإسلامية.
نكبة جعفر ويحيى ابنى على بن حمدون.
اصطناع الحكم للبربر.
مولد ولى العهد هشام.
الحكم العالم.

شغفه باقتناء الكتب.
المكتبة الأموية الكبرى
ودور الحكم في إنشائها.
ذيوع الشغف باقتناء الكتب.
جامعة قرطبة.
تشجيع الحكم للعلماء.
تقدير النقد
الحديث لهذه النزعة العلمية.
المكتبات العامة بالأندلس.
أخذ البيعة لولى العهد الطفل.
تعليق ابن حيان
على ذلك.
وفاة الحكم.
ورعه وخلاله.
الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى.
هديته إلى الحكم.
القائد
غالب الناصرى.
الحكم الشاعر.
أبهة بلاط قرطبة في عهد الحكم.
تكوين المجتمع الأندلسي في هذا العصر.
الأرستقراطية الأندلسية.
المولدون.
طبقة الرقيق.
النصارى المعاهدون.
اليهود.

نفوذهم وازدهارهم العلمى.
طويت بوفاة عبد الرحمن الناصر، ألمع صفحة في تاريخ اسبانيا المسلمة،
وتاريخ الخلافة الأندلسية.
استقرت الخلافة الأندلسية في عهد الناصر، على أسس ثابتة، وسحقت ثورة
المولدين والعرب، بعد أن كادت تقضى على ملك بني أمية، وعلى صرح
الدولة
الأندلسية كلها، ورد النصارى الإسبان إلى عقر دارهم، فسكنوا وجلين
منتظرين، وتمتعت الأندلس بعهد من السلم والاستقرار والرخاء، لم تعرفه من
قبل، ووصلت رقعة الوطن الأندلسي إلى أعظم ما وصلت إليه، إذا استثنينا
عهد الفتح الأول.
وهكذا كان عصر الناصر بالنسبة للأندلس، ذروة
عصورها، قوة وعظمة ومجداً.

(٤٨٢/١)

وخلف الناصر أكبر ولده الحكم المستنصر بالله بعهد منه، وكان الناصر قد
آثره منذ حداثته على سائر إخوته وولاه عهده (١) .
وقيل إنه أخذ له بيعة العهد
وهو طفل لم يجاوز الثامنة.
وبويع الحكم في اليوم التالى لوفاة أبيه، في الثالث
من رمضان سنة ٣٥٠ هـ (١٦ أكتوبر ٩٦١ م) ، وكان الحكم يومئذ في نحو
الثامنة
والأربعين من عمره، إذ كان مولده حسبما تقدم بقرطبة في ٢٤ من جمادى
الأولى
وقيل في غرة رجب سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) (٢) ، وأمه أم ولد تدعى مرجان.
وأخذت البيعة للخليفة الجديد في قصر الزهراء.
وجلس الحكم على سرير الملك فى

البهو الأوسط الذهبى، واجتمع إخوته، وسائر الوزراء ورجال الدولة، وأكابر الفتيان الصقالبة، ومن دونهم من رجال الخاص، وأهل الخدمة، وأكابر الجند، انتظموا جميعاً وفق مراتبهم في المجلسين الشرقى والغربى، وفي مختلف الأروقة، وانتظم الحرس وفرسان الحشم وطبقات الجند، فيما وراء باب السُّدة، صفوفاً

متصلة حتى باب المدينة.

ولما تمت البيعة، أذن للناس في الانصراف، إلا الإخوة

والوزراء ورجال الخاصة، فإنهم لبثوا بالقصر، حتى احتمل جسد الخليفة الذاهب (الناصر) إلى قصر قرطبة ليدفن هنالك في مقبرة القصر (٣) .

ولم يكن الحكم حين ولايته، محدثاً في شئون الملك، بل لقد مارسها في حياة أبيه، وكثيراً ما ندبه أبوه لمباشرة المهام والشئون الخطيرة، فكان عند جلوسه أميراً مكتمل النضج والخبرة.

واستهل الحكم عهده بالنظر في توسيع المسجد الجامع، وأصدر بذلك

مرسومه

في اليوم التالى لجلوسه.

وكان المسجد الجامع قد ضاقت جنباته بجموع المصلين، فقرر توسيعه من الناحية الشرقية على طول الجامع من الجنوب إلى الشمال حتى

صحنه.

وبلغت الزيادة نحو مساحة الجامع، فتضاعف بذلك حجمه.

وابتنى الحكم

محرابه الثالث، واستغرق بناؤه أربعة أعوام، وعملت له قبة فخمة زخرفت

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤؛ وأعمال الأعلام لابن الخطيب (المطبوع

ببيروت

سنة ١٩٥٦) ص ٤١.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة سنة ١٩٥٦) ج ١

ص ٤٨٧، والحلة السيراء لابن الأبار ص ١٠٢.
وراجع ص ٣٧٨ من هذا الكتاب.
(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٨١.



بالفسيفساء البديعة.
وأرسل قيصر قسطنطينية رومانوس الثاني إلى الحكم منها قدراً
كبيراً، كما أرسل إليه أستاذاً خبيراً بأعمال الفسيفساء.
وأنشأ الحكم أيضاً مقصورة
جديدة لها قبة على الطراز البيزنطى.
وابتنى إلى جانب المسجد داراً للصدقة، وأخرى للوعاظ وعمال المسجد.
وتشغل زيادة الحكم في الجامع اليوم قسمه
الأوسط، الواقع بين الجناح القديم، الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل وزاد فيه
عبد الرحمن الأوسط - والجناح الذى أنشأه الحاجب المنصور، وهو يشغل
نحو
ثلث المسجد من الناحية الشرقية (١) .
ولم يمض سوى قليل، حتى بدت من الأمراء النصارى نزعة إلى العدوان.
وكان الناصر قبيل وفاته قد عاون سانشو الأول (شانجُه) ملك ليون ابن
أردونيو
الثالث بالمال والجند على استرداد عرشه، وفر ابن عمه ومنافسه أردونيو
الرابع
مهزوماً إلى برغش (سنة ٩٦٠ م) ، واشترط الخليفة ثمناً لهذا العون، أن يهدم
النصارى بعض حصون الحدود، وأن يسلموا عدداً آخر منها إلى المسلمين.
فلما
توفى الناصر بعد ذلك بقليل، نكث سانشو بالعهد، وأبى تنفيذ ما وعد.
ومن

جهة أخرى فقد ظهر عامل جديد في عدوان النصارى.

وذلك أن قشتالة، وقد

كانت يومئذ ولاية من ولايات ليون، كانت تنزع إلى الاستقلال، وكان زعيمها الكونت (القومس) فرنان كونثالث (٢) رجلا مقداماً يلتف حوله مواطنوه، فثار على سانشو، وأعلن استقلال قشتالة، ونصب نفسه أميراً عليها، وأخذ يغير على

أراضي المسلمين المجاورة، وهى مما يلى غرب الثغر الأعلى، وشمال الثغر الأوسط، وانضم إليه كثير من النصارى المتعصبين.

فنما بذلك جيشه واشتد بأسه.

وكان

الكونت يطمح إلى توسيع أملاكه، ويعتمد على مناعة قلاعه الواقعة على الحدود.

وقد أغضى الحكم في البداية عن هذا العدوان مؤثراً الاعتصام بالسلم، ولكنه لما رأى تمادى النصارى في بغيهم، أخذ في التأهب للحرب، وأنفذ الكتب إلى سائر الولاة والقواد، بوجوب الأهبة والاستعداد للجهاد في سبيل الله.

وكان أردونيو الرابع الملك المخلوع، قد لجأ إلى الحكم ليعاونه على استرداد

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩، وأعمال الأعلام ص ٤٨.

(٢) ويسميه ابن خلدون " فردلند القومس " (ج ٤ ص ١٤٤) وفي مكان آخر فرلند بن

غند شلب (ج ٤ ص ١٨٠) وورد اسمه في أعمال الأعلام " فران غنصالص " وهو أكثر مطابقة

للاسم القشتالى (ص ٣٧٥) .

عرشه.
وتفيض الرواية الإسلامية في وصف مقدمه على قرطبة، ومثوله بين
يدى الخليفة، فتقول لنا إن أردونيو وفد على قرطبة في عشرين رجلا من
وجوه
أصحابه، ومعهم غالب الناصرى مولى الحكم وصاحب مدينة سالم، وذلك في
آخر
صفر سنة ٣٥١ هـ (٣٠ مارس ٩٦٢ م) .
وتلقاهم الوزير هشام المصحفى في قوات
كثيفة من الجند.
فلما دخلوا قصر قرطبة، ووصل أردونيو إلى ما بين باب السُّدة
وباب الجنان، سأل عن مكان مدفن الناصر، فأشير إليه في الروضة بداخل
القصر، فسار إليه وخلع قلنسوته وانحنى أمامه خاشعاً.
وأنزل أردونيو وصحبه
في دار الناعورة الفخمة، وبولغ في إكرامهم.
وبعد يومين استدعاهم الحكم
إلى قصر الزهراء، وقد حشدت قوات عظيمة من الجند، وبولغ في الاحتفال
بالزينات، وإظهار الأسلحة والعُدَد.
وجلس الحكم فوق سرير الملك في المجلس
الشرقى، ومن حوله الإخوة والوزراء والأكابر، وجىء بأردونيو وأصحابه،
ومعهم جماعة من وجوه نصارى الأندلس.
فدخلوا بين الصفوف الفخمة المزركشة
وقد بهروا بما رأوا، وجازوا أبواب القصر المتعاقبة، وأجلسوا برهة في بهو
الانتظار، ثم استدعوا للمثول بين يدى الخليفة، فسار أردونيو ومن ورائه
أصحابه، فلما وصل إلى المجلس الخلافى كشف رأسه وخلع برنسه.
ولما دنا من سرير الحكم
سجد أمامه ثم قبل يده.

ثم ارتد راجعاً إلى كرسى من الديباج المثقل بالذهب.
وتولى الترجمة بين أردونيو والخليفة، وليد بن خيزون قاضى الذمة بقرطبة،
وأعرب الحكم عن سروره وترحيبه بمقدم أردونيو، ووعده برعايته.
وبسط
أردونيو قضيته، وشكا مما أنزله به خصمه سانشو، مع أن الشعب كان قد
آثره
باختياره، ولكن خصمه لجأ إلى الخليفة الراحل واستجار به، فأغاثه ونصره
عليه، ومع ذلك فقد قصر في الوفاء بعهوده، وأنه يضع نفسه وبلاده وشعبه،
تحت رعاية الخليفة، وأنه يتعهد بمحالفة الإسلام، ومقاطعة صهره فردلند
القومس
أمير قشتالة، ويقدم ولده غرسيه رهينة بصدق وفائه (١) .
وهنا وعده الخليفة
بعونه ونصرته في تمليكه ما كان له.
وانصرف أردونيو بعد الشكر والتحية، وخرج من المجلس، وقد بهره وأذهله ما
رأى من آيات الفخامة والسلطان.
وقدم
إليه الحاجب جعفر الهدايا التي أمر بها الخليفة له ولأصحابه.
وألقى الخطباء والشعراء

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥.

(٤٨٥/١)

خطبهم وقصائدهم، منوهين بروعة هذا اليوم المشهود.
فمن ذلك قول عبد الملك
ابن سعيد المرادى من قصيدة:
ملك الخليفة آية الإقبال..

.

وسعوده موصولة بنوال

والمسلمون بعزة وبرفعة..

.

والمشركون بذلة وسفال

ألقت بأيديها الأعاجم نحوه..

.

متوقعين لصولة الرئبال

هذا أميرهم أتاه آخذاً..

.

منه أواصر ذمة وحبال

متواضعاً لجلاله متخشعاً..

.

متبرعاً لما يرع بقتال (١)

فلما نمى إلى سانشو ما وعد به الخليفة خصمه ومنافسه، خشى عاقبة هذا المسعى، فبعث إلى الحكم وفداً من الأكابر والأحبار، يعرض عليه أن يعترف بطاعته، وأن يقوم بتنفيذ ما تعهد به للناصر من تسليم بعض الحصون الواقعة على

الحدود وهدم البعض الآخر (٢) .

ولكن أردونيو ما لبث أن توفى، وعاد سانشو

إلى نكثه بعد أن أمن شر منافسه.

وهنا شعر الأمراء النصارى بخطورة أهبة

المسلمين العسكرية، وأدركوا أن لا بد لهم من الاتحاد جميعاً، لكى يستطيعوا مواجهتهم.

وهكذا عقد التحالف بين سانشو ملك ليون، وخصمه الكونت

فرنان أمير قشتالة، وغرسية سانشيز ملك نافار، وكونت برشلونة، وتأهب

الجميع لمدافعة المسلمين.
وفى صيف سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) خرج الحكم إلى الغزو، معلناً الجهاد، واجتمعت إليه الجيوش في طليطلة، فسار مخترقاً جبال وادي الرملة إلى أراضي
قشتالة، وأشرف على قلعة شنت إشتيبن المنيعة (٣) فحاصرها المسلمون، واستولوا
عليها.
وعبثاً حاول الكونت فرنان كونثالث، أن يقف في سبيل المسلمين، واجتاح المسلمون أراضيه، ومزقوا قواته، حتى أذعن إلى طلب الصلح، ولكنه نكث عهده، فهاجمه المسلمون كرة أخرى، واستولوا على بلدة أنتيسة الحصينة (٤) .

---

(١) أورد لنا المقرى (عن ابن حيان) عن هذه الزيارة تفاصيل مسهبة (راجع نفع الطيب
ج ١ ص ١٨١ - ١٨٤) .
ولخصها ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٥) .
وكذلك البيان المغرب ج ٢
ص ٢٥١.
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥.
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١.
(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤.
وأنتيسة هى Atienza.



وأرسل الحكم جيشاً آخر بقيادة يحيى بن محمد التجيبى حاكم سرقسطة في اتجاه

نافار.

وكان ملكها غرسية سانشيز، قد أغار على الأراضي الإسلامية ناكثاً لعهده، وهرع حليفه سانشو ملك ليون في قواته لإنجاده، ونشبت بين الفريقين موقعة هزم فيها النصارى وامتنعوا بالجبال.

وفى نفس الوقت سار القائد غالب مولى

الحكم في جيش قوى إلى مدينة قلهرّة، من قواعد نافار الغربية، فافتتحها، وحصنها وشحنها بالرجال والعدة، وكان فتحاً عظيماً.

وسار حاكم مدينة وشقة

في قواته شمالا نحو أراضي نافار مما يلى جبال البرنيه، واستولى على حصن ببه (١)

واجتاح تلك المنطقة، وغنم ما فيها من السلاح والأقوات والماشية (٢) .

واستغرقت

هذه الفتوح والغزوات العظيمة، الصائفة في سنتى ٣٥٢ و٣٥٣ هـ (٩٦٣ - ٩٦٤) .

ويروى لنا ابن خلدون قصة غزوة إسلامية أخرى في أراضي قشتالة -

فيقول لنا إن غالباً سار إلى بلاد ألبة، ومعه يحيى بن محمد التجيبى، وقاسم بن

مطرف بن ذى النون، فاستولى على حصن غرماج Gormaz.

ويضع ابن خلدون

تاريخ هذه الغزوة في سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) .

وتقع قاعدة " غرماج " الحصينة

على نهر دويرة على مقربة من شنت إشتيبن.

وكان الناصر قد انتزعها من النصارى

في سنة ٩٤٠ م.

والظاهر أن القشتاليين بقيادة فرنان كونثالث، كانوا قد استولوا

عليها فيما استولوا عليه من قواعد الحدود، قبل أن يخرج الحكم إلى الغزو،

فاستردها
المسلمون في صائفة سنة ٣٥٣ هـ، أو في الصائفة التالية، وقاموا بتحصينها
لمدافعة
القشتاليين في هذه المنطقة (٣) .
وتشير الرواية الإسلامية فوق ذلك إلى غزوات ناجحة أخرى، قام بها
المسلمون في أراضي قشتالة في سنتى ٣٥٥ و ٣٥٦ هـ، بيد أنها لا تقدم إلينا
شيئاً
عن تفاصيل تلك الغزوات (٤) .
وفى سنة ٣٥٣ هـ وقعت بالعاصمة الخلافية مجاعة عظيمة، فبذل الحكم
للفقراء
والمعوزين في سائر أرباض قرطبة والزهراء، من النفقة ما يكفل أقواتهم ويسد
عوزهم.

---

(١) وبالإسبانية Yerba.

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥.

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥.

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥.

(٤٨٧/١)

وكانت حوادث المغرب الأقصى (وسوف نتحدث عنها بعد) ، وما يتهدد
الأندلس من جراء مشاريع الفاطميين وأشياعم في تلك المنطقة، مما يشغل
حكومة
قرطبة، ويحفزها دائماً إلى اليقظة والتأهب، وكان من أثر ذلك أن قصد الحكم
فى
شهر رجب سنة ٣٥٣ إلى ثغر ألمرية (سبتمبر سنة ٩٦٤) في جماعة كبيرة
من

الرؤساء والقادة، ليشرف بنفسه على أعمال التحصين الجارية فيها، وليتخذ ما يجب

لتجديد الأسطول وتعزيزه.

وكانت ألمرية أعظم قواعد الأسطول الأندلسي، وكانت سفنه الراسية بها يومئذ تبلغ ثلاثمائة قطعة (١) .

بيد أنه لم يمض قليل، حتى جاء الخطر يتهدد الأندلس من ناحية أخرى.

ففى أواخر سنة ٣٥٥ هـ (٢) (أواخر سنة ٩٦٧ م) ظهرت سفن النورمان أو المجوس

في مياه الشاطىء الغربى قبالة ولاية الغرب.

وكان النورمان قد ظهروا في مياه الأندلس لأول مرة في سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٣ م)

أيام عبد الرحمن بن الحكم، وبدأت حكومة قرطبة تعنى بشأن الأسطول ومضاعفة

أهبتها البحرية من ذلك الحين.

وكان أولئك الغزاة النورمان في هذه المرة من أهل

دانماركة المجوس، ويقودهم رتشارد الأول دوق نورماندى، وحفيد زعيمهم الكبير رولو.

وكانت عدة أسطولهم ثمانية وعشرين مركباً.

ونزل الغزاة على

مقربة من بلدة قصر أبي دانس (٣) ، وعاثوا في تلك النطقة، ثم زحفوا شمالا إلى بسائط أشبونة الغنية اليانعة، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً، واجتمع المسلمون في تلك

المنطقة لقتالهم.

ونشبت بينهم وبين الغزاة موقعة دامية قتل فيها كثير من الفريقين.

وفى تلك الأثناء خرج أسطول إشبيلية من نهر الوادي الكبير بقيادة أمير البحر

عبد الرحمن بن رماحس، وسار على عجل إلى شاطىء البرتغال الجنوبى،
وكان الغزاة
قد انحدروا عندئذ جنوباً ثم شرقاً بمحاذاة الشاطىء، ووقع اللقاء بين سفنهم
وبين
سفن المسلمين عند مصب نهر شِلْب.
فحطم المسلمون عدة من سفن الغزاة، وأنقذوا من كان بها من أسرى
المسلمين، وقتل كثير من النورمان، وارتدوا
منهزمين عن تلك المياه، بيد أن سفنهم لبثت تجوس خلال المياه الغربية،
والمسلمون لهم بالمرصاد أينما ظهروا.
وأمر الحكم زيادة في التحوط أن تحشد بعض

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢؛ والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٨٦.
(٢) ويذكر ابن خلدون أنها كانت سنة ٣٥٤ هـ (ج ٤ ص ١٤٥) .
(٣) وهى بالإفرنجية Alcacer do Sal، وهى ثغر برتغالى صغير يقع
جنوب شرقى اشبونة.

*(٤٨٨/١)*

سفن الأسطول الصغرى في نهر الوادي الكبير تجاه قرطبة، وترتيبها على
هيئة
مراكب النورمان (١) ، وذلك خشية أن يتسرب الغزاة بطريق النهر إلى
العاصمة، كما فعلوا حينما هاجموا إشبيلية في غزوتهم الأولى.
ولم تمض بضعة أعوام على ذلك، حتى عادت مراكب النورمان تجوس خلال
المياه الغربية (٣٦٠ هـ - ٩٧١ م) مرة أخرى، وتهدد شواطىء ولاية الغرب
الغنية.
ويقدم إلينا ابن حيان عن هذه الغزوة الثانية للنورمان لشواطىء الأندلس
بعض تفاصيل ملخصها أن الحكم عهد إلى أمير البحر عبد الرحمن بن

رماحس
بتسيير الأسطول من ألمرية وإشبيلية، واجتماع قوى الأندلس البحرية كلها لمواجهة الغزاة، كما عهد إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن بأن يشرف على
القوات البرية والبحرية التي أعدت لمدافعة أولئك الغزاة، وأمر صاحب الخيل والحشم زياد بن أفلح بإخراج السلاح والعدة، وحشد قوة مختارة من الجند.
بيد أنه لم تقع فيما يبدو، أية معارك هامة بين المسلمين والغزاة، ولم يحدثنا ابن حيان عن وقوع مثل هذه المعارك.
والظاهر أنهم ارتدوا من تلقاء أنفسهم
لما رأوا من تفوق قوى المسلمين (٢) .
وفى خلال ذلك كانت قرطبة تغدو شيئاً فشيئاً، مركز التوجيه في شبه الجزيرة الإسبانية كلها، وتغدو كعبة لملوك اسبانيا النصرانية، يفدون إليها تباعاً، يقدمون
إليها عهود الطاعة، ويلتمسون منها الصداقة والعون.
وقد بدأ تقاطر هذه الوفود
والسفارات من سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) واستمر عدة أعوام.
ويجدر بنا قبل
التحدث عنها، أن نشير إلى ما وقع من تغييرات في الإمارات والممالك النصرانية.
فقد توفى سانشو ملك ليون مسموماً في سنة ٩٦٦ م.
وخلفه ولده الطفل راميرو
الثالث، تحت وصاية عمته الراهبة إلبيرة، وكان من أثر ذلك أن وقع التفكك في مملكة ليون، وأعلن عدة من الزعماء المحليين استقلالهم.
وتوفى الكونت

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥.

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٧.
وابن حيان في المقتبس – مخطوط أكاديمية التاريخ
بمدريد (مجموعة كوديرا) المنشور بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن على الحجى (بيروت ١٩٦٥)
ص ٢٣ – ٢٦ وبه بيانات وتفاصيل هامة عن حوادث الأعوام الخمسة من سنة ٣٦٠ إلى سنة ٣٦٤ هـ.
وسوف نرجع إليه بكثرة فيما يتعلق بأحداث هذه الأعوام وأحوالها.

(٤٨٩/١)

فرنان كونثالث أمير قشتالة في سنة ٩٧٠ م، وخلفه ولده غرسيه فرناندز. وتولى
عرش نافار سانشو غرسية الثاني، بعد وفاة أبيه غرسية سانشيز.
وكان أول الوافدين على قرطبة من أمراء النصارى أمير جليقية، وأمير أشتوريش، (الأسترياس) .
ثم وفدت رسل سانشو غرسية ملك نافار، وهي
جماعة من القوامس والأساقفة يسألون الصلح، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا.
ووفدت في شعبان سنة ٣٦٠ هـ (يونيه ٩٧١ م) سفارة من أمير برشلونة
الكونت بوريل ابن شونير Saunier على رأسها مبعوثه القومس بون فلى لتجديد
المودة والصداقة، ومعهم ثلاثون أسيراً من المسلمين الذين كانوا محجوزين بالإمارة، تقرباً من الخليفة.
فاستقبلهم الحكم بالمجلس الشرقى من قصر الزهراء
مرتين، الأولى في الرابع من رمضان سنة ٣٦٠ هـ، والثانية في الثاني من
شوال، واستمع إلى رسالتهم بالقبول والرضى، وصرفهم بجزيل الصلات وفاخر
الكسى (١) .

وفى السادس من ذى الحجة سنة ٣٦٠ هـ (أكتوبر ٩٧١ م) وفدت
الراهبة إلبيرة عمة ملك ليون راميرو الثالث والوصية عليه – ويسميها ابن
حيان
حلويرة وأحياناً حلورية (٢) –، فقوبلت في قرطبة بمظاهر الترحاب والتكريم،
واحتفل الحكم باستقبالها بقصر الزهراء في يوم مشهود، وعقد السلم لملك ليون
تحقيقاً لرغبتها، وأغدق عليها الهدايا والصلات " وحملت على بغلة فارهة
بسرج
ولجام مثلقين بالذهب وملحفة ديباج " (٣) .
ومما هو جدير بالذكر أنه قام بالترجمة
يومئذ بين الخليفة الحكم، وبين سفراء أولئك الأمراء والملوك النصارى، قاضى
النصارى وأسقفهم بقرطبة، عيسى بن منصور، وقومس أهل الذمة، معاوية بن
لب، ومطران إشبيلية عبيد الله بن قاسم.
وكانت لغة النصارى

---

(١) ابن حيان في المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ السالفة الذكر ص ٢١
و ٣٢.
(٢) راجع ابن حيان في المقتبس – القطعة السالفة الذكر ص ٦٣ و ١٤٦
و ٢٣٥ و ٢٤١.
ويلاحظ أن ابن حيان لم يتحدث عن قدومها بنفسها إلى قرطبة وإنما يتحدث
عن قدوم رسل من قبلها.
يد أننا أخذنا هنا برواية ابن خلدون بالرغم من كونها تنصرف إلى اسم سيده
نصرانية أخرى.
والرواية الإسبانية تؤيد هذا التفضيل.
(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦.
وراجع المقتبس لابن حيان (قطعة أكاديمية التاريخ
السالفة الذكر) ص ٦٤.

الإسبان يومئذ هى اللغة الرومانية (الرومانش) Romance أو" اللاتينية "، وهى
التي تطورت فيما بعد إلى اللغة القشتالية (١) .
ووفدت سفارات أخرى من غرسية فرناندز أمير قشتالة، وفرنان لينيز كونت شلمنقة وغيرهما.
وفى سنة ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) وفدت سفارة جديدة من سانشو
غرسية ملك نافار، ومن الراهبة إلبيرة الوصية على ملك ليون.
وكان جل هذه
الزيارات والسفارات من أمراء اسبانيا النصرانية، يقصد إلى عقد السلم والمودة مع خليفة الأندلس، وأحياناً إلى تقديم الطاعة وطلب العون.
هذا وقد وردت إلى الخليفة رسالة ودية من يوحنا ز يمسكى (الدمستق) قيصر قسطنطينية على يد رسوله قسطنطين الملقى، وذلك في جمادى الأولى سنة ٣٦١ هـ
(٩٧٢ م) (٢) ، ورسالة أخرى في أواخر سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) من إمبراطور
ألمانيا أوتو الثاني الذى خلف أباه أوتو الأول، وفيها يجدد علائق المودة التي كانت بين أبيه وبين الناصر.
ووردت في نفس العام سفارة جديدة من الكونت
بوريل أمير برشلونة يطلب تجديد المودة والصداقة.
ويعلق العلامة المؤرخ الأستاذ بيدال على ذلك بقوله: " وصلت الخلافة الأندلسية في ذلك العصر إلى أوج روعتها، وبسطت سيادتها السلمية على سائر
اسبانيا، وكفلت بذلك السكينة العامة ".
وفى هذا العام، سنة ٣٦١ هـ، في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، أمر

الخليفة الحكم صاحب مدينة الزهراء، محمد بن أفلح، بمطاردة الشعراء الهجائيين والقبض عليهم، صوناً لأعراض الناس من لاذع ألسنتهم ومقذع هجائهم

وكان منهم عيسى بن قرلمان الملقب بالزبراكة، ومؤنس الكاتب، وأحمد بن الأسعد، ويوسف بن هارون البطليوسى وغيرهم.

فظفر صاحب المدينة بمعظمهم

وأودعهم السجن، واختفى البطليوسى حيناً، ولكنه لما شعر بوطأة المطاردة،

---

(١) R.

M.

Pidal: Origenes del Espanol p.

٤٢١

(٢) راجع المقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧١ و ٧٢.

وكان يوحنا زيمسكى.

وهو

كبير الجيش البيزنطى قد ائتمر بعمه القيصر نيقفور الثاني مع زوجه الحسناء ثيوفانو وانتهى بقتله

وذلك في العاشر من ديسمبر سنة ٩٦٩ م، واعتلى العرش في الحال مكانه،

وحكم حتى وفاته في العاشر

من يناير سنة ٩٧٩ م.

(٤٩١/١)

قدم نفسه لصاحب المدينة، فزج إلى السجن.

ورفع أمره إلى الخليفة، فرق

لمحنتهم.

أمر بالإفراج عنهم، فأطلق سراحهم في أواخر شعبان من هذه السنة (١)

وفى هذا الإجراء ما يشهد برفيع خلال الحكم.

ورقة شعوره، وموفور

احتشامه.

* * *

وفى ذلك الحين حدثت بعدوة المغرب، في الضفة الأخرى من البحر، حوادث هامة، شغلت الحكم، وكدرت صفو السلام السائد في مملكته.

وقد سبق أن

أشرنا إلى غزو الناصر لدين الله لثغر سبتة، وعبور جيوشه إلى المغرب لمقاومة

جهود الفاطميين في السيطرة عليه، ومحاربة الأدارسة أمراء المغرب وحلفاء الفاطميين، ومطاردتهم.

حتى أذعنوا في النهاية إلى طلب الصلح، والاعتراف

بطاعة الناصر (سنة ٣٣٢ هـ - ٩٤٣ م) .

وقيام الدعوة المروانية بالمغرب منذ

ذلك الحين.

وكانت دولة الأدارسة، قد تقلصت في ذلك الحين، عن معظم أنحاء المغرب الجنوبية والوسطى، وارتدت إلى منطقة الريف الشمالية، ما بين غربى بحر الزقاق والمحيط، وجعلت قاعدتها بعد انقراض أمرهم في فاس، في قلعة حجر النسر المنيعة، الواقعة في جنوبى تطوان.

ولم تكن مع ذلك دولة مستقلة بمعنى

الكلمة، إذ كانت تنضوى تحت لواء المتغلب على المغرب، سواء من

العبيديين

(الفاطميين) أصحاب إفريقية.

أو الأمويين أصحاب الأندلس.

وكان أمير الأدارسة

في أواخر عهد الناصر، الحسن بن كنّون (أو قنون) ، وهوالقاسم بن محمد

ابن القاسم بن إدريس، الذى قدر أن تنقضى على يده دولة الأدارسة
بالمغرب، وكان قد بايع العبيديين، ودعا لهم حينما تغلب جوهر الصقلى على
المغرب، ناكثاً
بذلك عهده للناصر.
فلما انصرف جوهر إلى إفريقية في أواخر سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م)
عاد الحسن إلى طاعته لبنى أمية.
ولما توفى الناصر أعلن الحسن طاعته لولده الحكم
المستنصر.
ولم يكن ذلك سوى مصانعة ورياء، إذ كان الأدارسة يبغضون
بنى أمية، ويترقبون فرص الخروج عليهم، ولم تكن طاعتهم لهم إلا خوفاً من
بطشهم، لوقوع مملكتهم في شمال العدوة على مقربة من الأندلس.

---

(١) راجع المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ المشار إليها - ص ٧٣ - ٧٥.



وفى أوائل سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) سار بُلكّين بن زيرى بن مناد الصنهاجى،
قائد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله، من إفريقية غازياً إلى المغرب، ليعيد
هنالك سلطان الشيعة، ولينتقم من قبيلة زناته، لمقتل أبيه زيرى بن مناد.
وكان
زيرى عامل الخليفة المعز وقائده على المغرب، وكانت زناتة من القبائل
المغربية
القوية المخالفة للشيعة، والمنضوية تحت لواء الأمويين.
وكان من أشد خصوم
الشيعة أيضاً، جعفر ويحيى ابنا على بن حمدون المعروف بالأندلسي (١) ،
وكان
الأندلسي هذا قد استقر في "المسيلة" في المغرب الأوسط، وبسط حكمه على

تلك
الناحية، وخلفه ولده جعفر في إقطاعه، ولكنه خشى سطوة الشيعة، وسطوة عاملهم زيرى، ففر وأخوه يحيى مع الأهل والمال إلى المغرب الأقصى، ولجأ إلى بني خزر أمراء زناتة الأقوياء، وألد خصوم الشيعة وصنهاجة.
وكان رسل
الحكم يروجون الدعوة في زناتة وحلفائهم لمحاربة الشيعة، ويمدونهم بالمال لحشد
الرجال والعدة، فاجتمعت قوات بني خزر وجعفر ويحيى على قتال زيرى، ودارت بينهما الحرب في وادي ملوية عند مشارف المغرب الأقصى، وانهزم الشيعة، وقتل زيرى ومعظم رجاله بعد معركة طاحنة واحتوى الزناتيون على معسكره، وانهار بذلك سلطان الشيعة في المغرب، وكان ذلك في العاشر من رمضان سنة ٣٦٠ هـ (يوليه ٩٧١ م) .
واحتز الظافرون رأس زيرى ورؤوس
عدة من أكابر صحبه.
وحملها جعفر ويحيى وأصحابهما إلى الأندلس، وقدموها
إلى الحكم، فحظوا لديه وغمرهم بعطفه وصلاته (٢) .

---

(١) ذكر اين حيان نقلا عن محمد بن يوسف بن عبد الله الوراق أن جعفراً وأخاه هما من
أصل أندلسي، وهما ابنا على بن حمدون بن سملك بن سعيد بن إبراهيم.
وكان منزلهم بالأندلس بكورة
إلبيرة على مقربة من قلعة يحصب.
وانتقل جدهما حمدون إلى إفريقية وتزوج من كتامة، ثم سافر إلى
الحج، وتعرف هناك بأبى عبد الله الشيعى ودخل في مذهبه.
ولما ظهر الشيعى بإفريقية واحتوى على
ملك بني الأغلب حظى لديه، وحظى أبناؤه لدى الخلفاء الفاطميين، واستقروا

مدى حين حكاماً
للمسيلة.
ثم اتهم زعيمهم جعفر بالإتصال ببنى خزر، وتوعده الخليفة المعز بشر
النكال ففر وأخوه
في الأهل والمال إلى بني خزر أمراء زناته (راجع المقتبس - قطعة أكاديمية
التاريخ - ص ٣٣ - ٣٦)
(٢) يقدم إلينا ابن حيان تفاصيل ضافية عن استقبال جعفر وأخيه يحيى حين
مقدمهما إلى
الأندلس برؤوس زيرى وأصحابه، ودخولهما قرطبة في ركب ضخم برفقة
صاحب السكة والمواريث
وقاضى إشبيلية محمد بن أبي عامر، ثم استقبال الخليفة لهما ومن معهما من
أعيان بني خزر، وذلك
بالمجلس القبلى من قصر الزهراء، في حفل فخم رتبت فيه صفوف الجند
وأهل الخدمة بأثوابهم =

*(٤٩٣/١)*

وكان لهذه النكبة التي حلت بجيش الشيعة وصنهاجة، وقع عميق في الخلافة
الفاطمية.
فأمر الخليفة المعز قائده يوسف بن زيرى بن مناد، المسمى بُلُكّين
(بلقين) أن يسير في الجيوش إلى المغرب حسبما تقدم.
فسار بلكلين، وهو ينزل
ضرباته المتوالية بأتباع زنانة حيثما وجدوا في طريقه، وكانت منهم جموع
غفيرة
في المغرب الأوسط في بجاية، والمسيلة، وبسكرة، وتاهرت وغيرها، فمزقهم
شر ممزق.
ووصل بلكين في قواته، إلى المغرب الأقصى، في ربيع الثاني

سنة ٣٦١ هـ، واستعد بنو خزر وسائر أمراء زناتة للقائه، ووقعت الحرب بين الفريقين، فهزمت زناتة شر هزيمة، وانتحر أميرها محمد بن الخير بن خزر وذلك بأن اتكأ على سيفه فذبح نفسه، حتى لا يقع في يد عدوه، ومزق بلكين زناتة كل ممزق، وهدم مدينة البصرة، وبسط سلطانه على معظم أنحاء المغرب، وقطع دعوة الأمويين، وحقق انتقامه لمقتل أبيه كاملا (١) .

وسارع الحسن بن كنون، القلَّب مع كل تطور جديد، إلى بيعة بلكين، والانضواء تحت لوائه، أو بعبارة أخرى، تحت لواء سادته الشيعة ولكن بلكين لم يمكث طويلا بالمغرب.

إذ سرعان ما استدعاه سيده المعز – وكان يتخذ

يومئذ أهبته للسفر إلى مصر، مقر ملكه الجديد – فارتد عائداً بقواته إلى إفريقية.

ووقف الحكم على تطور الحوادث بالمغرب، فأزعجه ذلك وأهمه، وبادر

---

= الزاهية، وقد رفعت رؤوس القتلى وعددها مائة وفي مقدمتها رأس زيرى على القنوات.

وكان

دخولهم على الخليفة، في أواخر ذى القعدة سنة ٣٦٠ هـ.

واستقبلهم الخليفة بالبشر والرضى، وامتدح موقفهم وانصرافهم عن حزب الشيعة إلى مؤازرة حزبه.

وعلى أثر انتهاء المقابلة، انزلوا في الدور التي خصصت لهم بقرطبة، ورتب الخليفة لكل من جعفر وأخيه يحيى نفقة شهرية

قدرها ألف دينار، ورتب لمرافقيهم من بني خزر، كل ما يكفيه من النفقة والطعام.

يقول ابن حيان

بعد أن أورد لنا هذه التفاصيل الشائقة بإسهاب لا مزيد عليه: " فكان يوم جعفر بن على ومن

ورد معه من أحد الأيام العقم بقرطبة، في اكتمال حسنه وجلالة قدره، خلد حديثه زمناً في أهلها، قاضياً من عجب الجلالة، وكل شيء فإلى انقضاء، إلا إله الأرض والسماء
، تعالى جده "
(المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٤٤ – ٥٣ وص ٥٧) .
(١) راجع مجموعة " نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى " المنتخبه من كتاب
" مفاخر البربر " لمؤلف مجهول، والمنشور بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال (الرباط سنة ١٩٣٤)
ص ٦ – ٨، ويرجع الكاتب هذه الموقعة إلى سنة ٣٦٠ هـ.
وراجع أيضاً المقتبس – قطعة أكاديمية
التاريخ ص ٣٦ و٣٨.

(٤٩٤/١)

بإعداد جيش ضخم، حسن الأهبة، لغزو المغرب، ومقاتلة الحسن بن كنون، تحت إمرة قائده محمد بن القاسم بن طملس، كما أمر قائد البحر عبد الرحمن بن
رماحس بحشد الأسطول.
وعبر محمد بن القاسم في قواته من الجزيرة الخضراء
إلى سبتة، في شوال سنة ٣٦١ هـ (يوليه ٩٧٢ م) ، وكان الحسن بن كنون عندئذ
في طنجة، فخرج في جموع البربر لقتال جيش الحكم، فوقعت عليه الهزيمة وقتل كثير من أصحابه، وفر هارباً تاركاً أمواله وعتاده بطنجة، واستسلم أهل طنجة إلى محمد بن القاسم، وأعلنوا طاعتهم للحكم، ودخل محمد طنجة واحتلها، وبعث إلى الحكم بفتحها.
ثم طارد فلول الحسن بن كنون جنوباً حتى

ثغر أصيلا، ودخلها.

وفى تلك الأثناء كان الحسن قد جمع فلوله، وأعاد تنظيم قواته، وسار إلى لقاء جيش الحكم مرة أخرى، فالتقى الجمعان في مكان يعرف بفحص مهران؛ وهنا حالف الحسن حسن الطالع، فدارت الدائرة على جند الأندلس، وقتل منهم عدة كبيرة فرساناً ومشاة، وفي مقدمتهم قائدهم محمد بن القاسم، وبلغ القتلى من

الفرسان وفق تقدير الرازى خمسمائة ومن الرجالة ألفاً، وكان ذلك في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ، وفرت فلول الأندلسيين إلى سبتة فامتنعوا بها، وبعثوا إلى الحكم يطلبون الإنجاد والغوث (١) .

وأراد الحسن في نفس الوقت أن يستغل نصره بطلب الصلح، وتقديم الطاعة وتبادل الرهائن، وبعث أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس بذلك إلى الحكم، فكتب الحكم إليه ومن معه من القادة يوصيهم بالاستمرار في مجاهدة الملحد، ومجاهدة من معه، حى يفتح الله عز وجل فيه وفيهم.

وكان مما قاله

في كتابه: " أن أفضل ما احتمل عليه، وعمل به، استشعار الحزم، وادراع التحفظ، واستنصاح الاتهام، وإذكاء العيون، وبث الجواسيس، والاستكثار منهم، ومن حملة الأخبار حتى لا يخفى لحسن – أهلكه الله – حركة، ولا يتوارى

له مذهب ".

ومما كتبه الحكم إلى عبد الرحمن بن يوسف بن أرمطيل قائد ثغر أصيلا،

---

(١) راجع مجموعة " نُبذ تاريخية في أخبار البربر " التي سبق ذكرها ص ٨. وابن حيان

في المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٦.

رداً على ما أبداه الحسن من رغبة في الإنابة والصلح: " وكيف يذهب الآن
هذا المذهب وهو في طغيانه مستمر، وفي دينه مستبصر، ولكم في كل أيامه
محارب، هذا هو الضلال، والمحال عين المحال، وسبب الخبال، وقد رأى
أمير
المؤمنين تأمين جميع الناس لديه غيره، وغير من أصر إصراره، وتمادى
تماديه، إلى أن يحكم الله عليه، ويفتح فيه " (١) .
وبادر الحكم في نفس الوقت، بحشد جيش جديد، ندب لقيادته مولاه ووزيره
وكبير قواده غالباً بن عبد الرحمن " البعيد الصيت المعروف بالشهامة ".
وأمده عدا
الجند الكثيف، والعتاد الضخم، بأموال جليلة لاستمالة القبائل، وأمره أن يشتد
في قتال الأدارسة، وأن يستأصل شأفتهم، وأن يطهر المغرب من كل القوى
المناوئة لبنى أمية.
وقال له؛ " سر يا غالب مسير من لا إذن له في الرجوع
إلا حياً منصوراً، أو ميتاً معذوراً، وابسط يدك في الإنفاق، فان أردت نظمت
للطريق بيننا قنطار مال " (٢) .
فخرج غالب في قواته الجرارة من قرطبة، وعبر
البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة (أو القصر الصغير) وذلك
فى
الحادى عشر من رمضان سنة ٣٦٢ هـ.
وعلم الحسن بمقدمه، وعظيم أهبته، فغادر مدينة البصرة، الواقعة في الجنوب
حيث كان يقيم، ولجأ بأهله وأمواله
وذخائره إلى قلعة حجر النسر، الواقعة شمالها.
ثم جمع قواته وخرج لقتال
جيش الحكم، ونشب القتال بين الفريقين أياماً، وبث غالب في رؤساء البربر
من غمارة وغيرهم من جند الحسن، الأموال والهدايا، فانفصلوا عنه، واضطر
الحسن أن يمتنع بمن بقى معه في قلعة حجر النسر، فطارده غالب وضرب

الحصار
حول القلعة.
وفى أوائل شوال بعث الحكم ثقته محمد بن أبي عامر إلى العدوة
بأحمال من المال والحلى والخلع لتوزيعها على أكابر البربر الذين يمكن
استمالتهم
إلى جانب الخلافة.
وأصدر الحكم في نفس الوقت مرسومه بتعيين ابن أبي عامر

---

(١) ابن حيان - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٧ و٩٨.
(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٨، وكذلك " نبذ تاريخية في تاريخ البربر " ص
٩.
وقد
وردت هذه العبارة بصورة أخرى في كتاب نقله إلينا ابن حيان، أرسله الحكم
إلى غالب وهو
بالعدوة ردا على كتاب منه، وجاء في خاتمته هذه العبارة: " فاستقبل نظرك
استقبال من استشعر
مذهب أمير المؤمنين ووطن فيه على أن لا مرجع إلا بما يحب أو يموت
فيعذر ".
راجع المقتبس -
قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٣١.

(٤٩٦/١)

قاضياً لقضاة العدوة، إلى ما يتقلده من خطتى الشرطة الوسطى والعليا
والمواريث
وقضاء إشبيلية (١) .
ووصلت إلى غالب من الأندلس بعد ذلك أمداد جديدة، بقيادة الوزير يحيى بن

محمد التجيبى وإخوته، يوسف ومحمد وهاشم وهذيل، ومعه جملة من المال
(المحرم سنة ٣٦٣ هـ) ونزل يحيى وجنده بطنجة، وانضموا
إلى قوات القائد الأعلى غالب.
وشدد غالب الحصار على الحسن، وقطع سائر
علائقه وموارده، وبث قواته في سائر الأنحاء لمطاردة الأدارسة، واستئصال
شأفتهم.
ونشبت بين جند الحكم وبينهم معارك عديدة، قتل فيها الكثير منهم.
وفى صفر سنة ٣٦٣ هـ استولى غالب على مدينة البصرة، وسلمها إليه
أهلها، بعد أن قتلوا نائبها الحسنى.
وكان ضمن حاشية غالب الشاعر محمد بن حسين
التميمى المعروف بالطبنى، بعثه إليه الحكم تحقيقاً لرغبته لكى يساعده بنظمه
على
اكتساب ولاء المنشقين على الحسن (٢) .
وفى تلك الأثناء، كان الحسن قد أجهده
الحصار، وأشرف على الهلاك، ومن معه من أهله ورجاله، فاضطر في
النهاية
إلى طلب الأمان والتسليم، وأعلن طاعته للحكم (جمادى الآخرة سنة ٣٦٣ هـ)
، ودخل غالب قلعة حجر النسر، ودعى في مسجدها للحكم.
ووصلت هذه
الأنباء السارة إلى الحكم، وأعلنها الحكم في جامع قرطبة، بعد ذلك بأيام
قلائل.
وتتبع غالب سائر من بقى من الأدارسة ببلاد الريف حتى استأصل شأفتهم،
وقضى
على دولتهم.
وسار إلى مدينة فاس ودخلها، وعين لها حاكماً من قبله، وتم بذلك
إخضاع المغرب للدولة الأموية.

وكان قد وصل من العدوة قبل هزيمة الحسن، عدد كبير من القبائل
والبطون البربرية الخارجة عليه، الجانحة إلى طاعة الحكم.
وكان بين هؤلاء
عدد كبير من فرسان قبائل كتامة يبلغون زهاء ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس،
ورئيسهم أبو العيش بن أيوب، وقد عقد له الحكم على قومه، وأصدر له
بذلك سجلا من إنشاء صاحب المواريث جعفر بن عثمان، يبين فيه واجباته
وسلطاته
ولا سيما في شؤون الجباية، وأصدر الحكم سجلات مماثلة لزعماء القبائل
والبطون
البربرية الأخرى، وقد ذكرها لنا ابن حيان، وذكر أسماء زعمائها (٣) .

---

(١) ابن حيان - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٢٣.
٢١) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٩.
(٣) ابن حيان في المقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ١١٠ - ١١٥.

*(٤٩٧/١)*

وفى أواخر ذى الحجة سنة ٣٦٣ هـ، عبر القائد الأعلى غالب البحر إلى
الجزيرة الخضراء، تاركاً شئون العدوة للقائد يحيى بن محمد بن هاشم التجيبى
تحقيقاً لرغبة الحكم، وكان في ركب القائد الأعلى المظفر، الحسن بن كنون
وسائر أهله وشيعته من زعماء الأدارسة ومعهم الأهل والولد.
وصدر قبيل
ذلك في قرطبة، عن أمر الخليفة الحكم، كتاب طويل من إنشاء الوزير جعفر
ابن عثمان قرىء على سائر منابر الأندلس، وفيه ينوه بما من الله على
خليفته من
كفالة أمر المسلمين، وقمع عدوان النصارى بالأندلس، ثم مطاردة الشيعة أهل
البدع بالعدوة، وما منحه الله من النصر على المخالفين " حتى استوثقت

الطاعة
في جميع بلاد المغرب وقامت الدعوة بمنابر قواعده " (١) .
وأشرف غالب فى
ركبه الحافل على قرطبة في أوائل المحرم سنة ٣٦٤ هـ، وأنزل الأشراف
الحسنيون
المرافقون له في الدور التي أعدت لهم بقرطبة وأرباضها.
وخرج الجند من مدينة
الزهراء في صبيحة يوم الخميس الخامس من محرم لتلقى القائد المظفر،
والمسير
بين يديه، وعلى رأسهم عدة من الفتيان ورؤساء الخدمة، ودخل غالب قرطبة
في عسكره، وفي ركبه الأشراف الأدارسة، ونزل بفحص الناعورة، ويصف
لنا ابن حيان في تفصيل شاف موكب القائد غالب، وركبه المظفر الفخم،
ومن كان يحف به أو يتبعه من الفرسان المدرعين وأهل الخدمة والصقالبة،
والعبيد الرماة وغيرهم من أصحاب الطبول والقرون والبنود والرايات.
ودخل
غالب في موكبه الفخم مدينة الزهراء من باب السُّدة، ونفذ إلى القصر، وأنزل
الأدارسة الذين معه في المجالس القبلية بدار الجند.
وكان الخليفة الحكم قد جلس
لاستقباله في المجلس الشرقى المشرف على الرياض، وقد حف به الإخوة،
وجلس من بعدهم الوزراء والحجاب وأصحاب الشرطة والمدينة والقضاة وسائر
أهل الخدمة، كل في مكانه المعهود.
واستقبل الخليفة زعماء الأدارسة، وشيخهم
حنون بن أحمد بن عيسى، وشكر طاعتهم، وعفا عن الحسن، ووعدهم
بالإحسان، وأجزل لهم الأرزاق والصلات (٢) .
وعين من حاشيتهم في ديوانه، سبعمائة من أنجادهم.
واستمر الحسن وذووه على ذلك زهاء عامين.

ثم وقعت

---

(١) راجع الكتاب المذكور في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٧٨ - ١٨٢.

(٢) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩٤ - ٢٠٠.

(٤٩٨/١)

النفرة بينه وبين الحكم لأسباب منها، " سوء خلق الحسن ولجاجته ".
قال
المؤرخ: " وكان الحسن بن قنون هذا جاهلا متهوراً فظاً، شديد الجرأة، قاسى القلب ".
ولم ينس الحكم ما كان من قسوته وفظاعته نحو جنده أيام الحرب
بينهما، حيث كان الحسن يلقى بالأسرى من جند الأندلس من أعلى قلعته الشامخة
فيصلون إلى الأرض إرباً (١) .
وهكذا ثقل وجوده وذووه في قرطبة.
ومن
جهة أخرى فقد كان الحاجب جعفر بن عثمان المُصْحفى يتوجس شراً من وجود
الحسن وصحبه، ويستثقل نفقاتهم، وينصح بإخراجهم من الأندلس.
فرأى
الحكم أن يقصيهم من مملكته، وأن يتخلص من نفقاتهم الباهظة، وأن يبعث بهم
إلى المشرق.
وهكذا أخرج الحسن وعشيرته من قرطبة، وركبوا البحر من ألمرية
إلى تونس سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) ، ثم ساروا إلى مصر، حيث نزلوا في

كنف

خليفتها الفاطمى العزيز بالله، فأكرم وفادتهم، ووعدهم بنصرة قضيتهم، واستقر الحسن بمصر بضعة أعوام، حتى سنة ٣٧٣ هـ، وعندئذ بعثه العزيز بعهد منه، إلى بلكين بن زيرى بن مناد بالقيروان، يطلب إليه إمداده وعونه، على تنفيذ

مشاريعه، إلى أن كان من أمره ما سيجىء (٢) .

وكان غرسية فرناندز، ولد فرنان كنثالث، صاحب قشتالة وألبة، قد

خلف أباه في الحكم، منذ وفاته في سنة ٩٧٠ م.

وكان مثله يتبع سياسة النفاق

والمصانعة، في إظهار رغبته في السلم، ثم يقوم في الوقت نفسه بالإغارة على

الأراضي الإسلامية، كلما سنحت الفرص.

فلما شغل الحكم بحوادث المغرب، وعبرت الجيوش الأندلسية وقوادها الأكابر، إلى العدوة، بعث غرسية قواته، فأغارت على أراضي المسلمين، واقتحمت حصن دسة الواقع شمال شرقى مدينة

سالم، والذى يتوسط أراضي بني عمريل بن تيملت الثغرى.

ووقع هذا الاعتداء

في شهر ذى الحجة سنة ٣٦٣ هـ (صيف سنة ٩٧٤ م) ، وأحرق النصارى الزروع

واستاقوا الماشية.

فخرج في أثرهم زروال ومضاء، ولدا عمريل، واليا هذه

---

(١) " نبذ تاريخية في أخبار البربر " ص ١٠ و١٤.

(٢) راجع في سرد هذه الحوادث المغربية: البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦١ – ٢٦٥، وابن

خلدون ج ٦ ص ٢١٦ – ٢١٩، والاستقصاء ج ١ ص ٨٦ – ٨٨.

و" نبذ تاريخية في أخبار
البربر " ص ٦ – ١٢.

(٤٩٩/١)

المنطقة، في أصحابهما، واستنقذوا الماشية، وقتلوا عدداً من النصارى؛ ولكن النصارى تكاثروا عليهم بعد ذلك، ووقعت بين الفريقين معركة قتل فيها زروال.

ومن الغريب أن غرسية فرناندز، كان قبل هذا الاعتداء بقليل، قد بعث رسله إلى قرطبة، في طلب السلم والمهادنة، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا، وما كادوا ينصرفون من قرطبة، حتى جاءت الأنباء بما حدث من اعتداء القشتاليين، فبعث

الحكم لفوره أفلح صاحب الخيل، في سرية من وجوه الجند، للقبض على السفراء القشتاليين، فهرعت في أثرهم واستطاعت أن تظفر بهم، وأعيدوا إلى قرطبة حيث زجوا إلى السجن.

ووفد على الحكم في العام التالى، أبناء عمريل الخمسة بعد وفاة أبيهم، وشهد القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن، بحزمهم وحسن طاعتهم، وأوصى بتقليدهم

عمل والدهم، فقسمت بينهم الأراضي والحصون، على رضا منهم، وغمرهم الحكم بالخلع والصلات (١) .

وكان من الأحداث البارزة في أواخر سنة ٣٦٣ هـ، ما وقع من نكبة جعفر ويحيى ابنى على بن حمدون الأندلسى.

وكانا قد استقرا في قرطبة، في كنف

الحكم وتحت سابغ رعايته.

وكان الحكم قد ابتاع منهما عبيدهما الذين استعفوا

من خدمتهما، ودفع الثمن إليهما، وتم فصل العبيد عنهما، وضمهم الحكم إلى جنده لما كانوا يتصفون به من الشجاعة والبأس، وكان لذلك فيما يبدو أثر

سيىء
في نفسيهما، فقيل إنهما تكلما في حق الخليفة بما لا يحمد، وجاهرا بامتداح
خلفاء الشيعة، سادتهم الأوائل، ونمى ذلك إلى الحكم، فأمر في الحال
بالقبض
عليهما، وزجا مكبولين إلى سجن الزهراء.
وكان ذلك في شوال سنة ٣٦٣ هـ، ولبثا في المطبق بضعة أشهر، حتى عاد
الخليفة فعفا عنهما، وأمر بإطلاق سراحهما، وذلك في رجب من العام التالى،
فأقرا بالذنب وطلبا الإنابة والصفح، فأسعفهما
الخليفة بما طلبا، وغمرهما بصلاته (٢) .

---

(١) راجع ابن حيان في " المقتبس " قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ (ص ٧٣ و١٨٨ و ١٨٩) .
وراجه بحثاً في ذلك الموضوع للعلامة كوديرا عنوانه:
Embajodores de Castilla encarcelados en Cordoba de los ultimos anos
.de Alhakam II (B
.R
.A
.H
.Tom
. (XIV, 1889
(٢) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٧١ - ١٧٤.



وعمد الحكم في نفس الوقت إلى اصطناع البربر وفرسانهم، لما لقيه منهم فى
حربه ضد الحسنيين الأدارسة، من المجالدة ووفرة البأس والشجاعة، فأكرم

وفادتهم، وألحقهم بجنده، وأجزل لهم العطاء.
وكان في مقدمة هؤلاء بنو برزال
الذين أبلوا من قبل في محاربة زيرى بن مناد الصنهاجى، وكانوا قد عبروا إلى الأندلس، وأغضى الحكم عن انحيازهم إلى مبادئ الخوارج الإباضية.
وهكذا
اجتمعت للحكم من عبيد جعفر ويحيى ومن داخلهم من أحرار البربر الوافدين، قوة عسكرية بربرية تضم نحو سبعمائة فارس من خيرة الشجعان (١) .
وفى شهر جمادى الآخرة سنة ٣٦٤ هـ أصدر الحكم أوامره بإسقاط سدس المغرم (الضرائب) الواجب أداؤه على سائر الرعايا عن هذه السنة، وأنفذ بذلك مرسومه إلى سائر القواد والعمال بمختلف الكور، وقرر أن يكون هذا السدس شائعاً في الناس يستوى في معرفته العالم منهم والجاهل، وذلك ترفيهاً لهم وتحقيقاً
لمصالحهم (٢) .
وفى شهر رجب من هذه السنة، بعث الحكم، نظراً لما بدا من تحركات النصارى في مختلف الأنحاء، عدداً من أكابر رجال المملكة إلى كور الأندلس
لحث أهلها على ارتباط الخيل، والاستعداد لمؤازرة جيش الصائفة، وكان ممن بعث من رجالاته صاحب الشرطة العليا، يحيى بن عبيد الله بن يحيى، بعثه إلى
كور الجوف، وبعث قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس إلى كور الشرق، وبعث أحمد بن محمد بن سعد الجعفرى إلى الغرب، نحو شنترين وما إليها، وبعث آخرين لنفس الغرض (٣) .
وفى أوائل شعبان سنة ٣٦٤ هـ (ابريل ٩٧٥ م) هاجم جيش مشترك من الجلالقة والقشتاليين والبشكنس، حصن غرماج الواقع على نهر دويرة على مقربة

---

(١) ابن حيان - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩١ و١٩٢.

(٢) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢٠٨.

وقد أورد لنا ابن حيان نص هذا
المرسوم كاملا (ص ٢٠٧ و٢٠٨) وفيه يقرر الحكم أنه أصدر مرسومه
المذكور " لما تظاهرت
آلاء الله تعالى عليه، وحسن بلائه عنده " وأنه " رأى أن يجدد له الشكر "
ويمترى منه المزيد
بإسقاط سدس جميع مغرم الحشود الواجب تقاضيها منهم لسنة أربع وستين
وثلاثمائة، تخفيفاً عن رعيته
وإحساناً إلى أهل مملكته.

(٣) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢١٦.

(٥٠١/١)

من مدينة سالم، ونشب وبينه وبين حاميته الإسلامية قتال عنيف.
وشجع
النصارى على انتهاك السلم المعقود بينهم وبين الخليفة، اعتقادهم بأن قوى
الأندلس
كلها ما تزال مشغولة بحروب العدوة.
وانقلب النصارى إزاء بسالة الحامية
الإسلامية إلى محاصرة الحصن، ووافتهم أمداد أخرى جاءت لتشد أزرهم.
وما كاد الحكم يقف على هذه الأنباء حتى بعث كبير قواده غالباً بن عبد
الرحمن
في قوة مختارة غادرت قرطبة على عجل.
وبعث الحكم في أثرها أحمال المال
للإنفاق على الصائفة.

واستمر حصار النصارى لغرماج حتى شوال من تلك
السنة.
وجاءت للنصارى أمداد جديدة من جند ليون، سيرتها الراهبة إلبيرة
الوصية على ملك ليون، ناكثة بذلك عهدها في التهادن والسلم.
وفى منتصف
شوال، هاجم النصارى الحصن، وهم في أكثر من ستين ألفاً، محاولين
اقتحامه، ونشبت بينهم وبين الحامية الإسلامية معركة طاحنة انتهت بهزيمة
النصارى وتبديد
شملهم، فبادرت صفوفهم بالارتداد عن الحصن بعد أن فقدوا كثيراً من جندهم
وعتادهم، وطاردهم المسلمون، فقتلوا منهم جموعاً أخرى، وأحرزوا غنائم
جمة.
وبعث المسلمون إلى الوزير غالب، وهو مقترب منهم لنصرتهم، بنبأ
هذا الظفر، فأنفذه من فوره إلى الخليفة، وسار إلى الحصن ونزل به، ثم خرج
في قواته، فعاث حيناً في أراضي قشتالة، وانتسف الزروع، وخرب القرى،
وتقدمت قوة بعث بها غرسية فرنانديز صاحب قشتالة لمدافعة المسلمين،
فهزمت
وردت إلى أعقابها (١) .
***

تولى الحكم المستنصر الملك، حسبما أسلفنا، وهو كهل في الثامنة والأربعين
من عمره، ولم يكن إلى ذلك الحين قد أنجب ولداً، وكان ذلك مما يثير قلقه
وجزعه، إذ كان يتوق أن يكون له وريث في الملك.
ومن ثم فقد سر أيما سرور
حينما ولدت له حظيته " جعفر " أو صبح النافارية، ولداً سماه عبد الرحمن
(سنة
٣٥١ هـ - ٩٦٢ م) ، وكان مولده حادثاً خطيراً، نوهت به الشعراء والأدباء.
ولكن هذا الولد توفى طفلا، فحزن الحكم لفقده أيما حزن.

على أن القدر لم يلبث

---

(١) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٣٤ - ٢٣٧.

(١/٥٠٢)

أن حباه مرة أخرى، إذ ولدت "جعفر" ولداً آخر سماه أبوه هشاماً وكنيته أبو الوليد، فكان ولى عهده الملقب بالؤيد.

" وعظم استبشاره به وسروره بموهبة

الله فيه " (١) .

وحضر الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى وقت البشارة بولادته، وأنشد هذه الأبيات:

أطلع البدر في سحابه..

.

وأطرف السيف من قرابه

وجاءنا وارث المعالى..

.

ليثبت الملك في نصابه

بشرنا سيد البرايا..

.

بنعمة الله في كتابه

وكان مولد هشام المؤيد سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ، وكان مؤدبه مذ بلغ الثامنة من عمره الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف القسطلى، وقد أمر الحكم بأن تعد لتعليمه الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء، وأن تزود بجميع ما يحتاج إليه

لذلك.

وكان قعود هشام مع مؤدبه في المجلس الشرقى منها في رمضان سنة ٣٦١

هـ، وندب الحكم وصيفه الفتى ذكاء ناظراً للأمير متكفلا بشئونه (١) .
وفى أواخر سنة
٣٦٣ هـ ندب الخليفة العلامة النحوى أبا بكر الزبيدى الإشبيلى ليقوم بتدريس العربية وعلومها لولى العهد.
وفى العام التالى ندب الفقيه المحدث يحيى بن عبد الله
ابن يحيى ليقوم بإسماعه الحديث.
وكان يومئذ عمدة المحدثين بقرطبة (٣) .
وسنرى
أى دور عظيم تلعبه فيما بعد، أم هشام جعفر أو صبح النافارية، على مسرح الحوادث.
وأما عن شخص الحكم، فقد كان حسبما تصفه الرواية، أبيض مشرباً بحمرة، أعين، أقنى، جهير الصوت، قصير الساقين، ضخم الجسم، غليظ العنق، عظيم السواعد، أفقم (٤) .
* * *
يمتاز عصر الحكم المستنصر بظاهرة، من ألمع الظواهر في تاريخ الدولة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ و٢٥٣، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٤٣.
(٢) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦ و٧٧.
(٣) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٣٣ و٢١٦.
(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩.
والأعين هو ذو العينين السوداوين النجلاوين، والأقنى
ذو الأنف المرتفع الأعلى والمحدودب الوسط، والأفقم أى الأعرج.

الأندلسية، هى ازدهار العلوم والآداب أعظم ازدهار، وإنشاء المكتبة الأموية العظيمة، التي كانت بضخامتها، وتنوع محتوياتها، من أعظم مكتبات العصور
الوسطى.

ويرجع ذلك قبل كل شىء إلى شخصية الحكم نفسه، وإلى صفاته العلمية الممتازة، التي نوه بها أكثر من مؤرخ أندلسي، وإلى شغفه العظيم بجمع الكتب، وهو شغف كان له أكبر الأثر في ملىء خزائن الأندلس بنفائس الكتب، من كل فن ومن كل قطر، من أقطار العالم الإسلامى.

وقد أشاد ابن حيان مؤرخ الأندلس – وقد عاش قريباً من عصر الحكم – بصفات الحكم العلمية، وتقدمه في العلوم الشرعية، وعنايته بتحقيق الأنساب وتأليف قبائل العرب، واستدعاء رواة الحديث من جميع الآفاق، وإيثار مجالس العلماء، وشغفه بجمع الكتب بصورة لم يسمع بها (١) .

ويشاطره معاصره
الفيلسوف ابن حزم، هذا الإعجاب بصفات الحكم العلمية، ويذكر لنا في أكثر من موضع من مؤلفه الجامع في الأنساب، أنه ينقل من خط الحكم (٢) .

ويجمل
ابن الخطيب هذه الصفات في قوله: " وكان رحمه الله (أى الحكم) عالماً فقيهاً
بالمذاهب، إماماً في معرفة الأنساب، حافظاً للتاريخ، جماعاً للكتب، مميزاً للرجال من كل عالم وجيل، وفي كل مصر وأوان، تجرد لذلك، وتهمم به، فكان
حجة وقدوة، وأصلا يوقف عنده " (٣) .

وقد انتهت إلينا تفاصيل مدهشة عن الدور العظيم الذى قام به الحكم في إنشاء
المكتبة الأموية الكبرى.

وكانت هذه النزعة الأموية، إلى تشجيع العلوم والآداب

وجمع الكتب، قد بدت منذ عصر عبد الرحمن الداخل.
وفى عهد الأمير محمد
ابن عبد الرحمن كانت المكتبة الأموية بالقصر، أعظم مكتبات قرطبة.
وكان
عبد الرحمن الناصر يشغف بجمع نفائس الكتب من سائر الآفاق، حتى أن
قيصر

---

(١) الحلة السيراء، نقلا عن ابن حيان ص ١٠١ و١٠٢.
(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٢٨١ و٢٨٢ و٢٩٢
و٣٧٤ و٣٧٥
و٣٨٤، ٣٩٨.
وقد وضع الحكم بالفعل كتاباً في " أنساب الطالبيين والعلويين القادمين إلى
المغرب " (نفح الطيب ج ٢ ص ٧٩) .
(٣) أعمال الأعلام ص ٤١.

(٥٠٤/١)

قسطنطينية حينما أرسل إليه سفارته الشهيرة، حرص على أن يهديه كتابين
من
ذخائر الأقدمين هما كتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية وتاريخ
أورسيوس.
ولما توفى الناصر، عنى ولده الحكم بجمع مكتبات القصر وتنظيمها، لتكون
بداية
طيبة للمكتبة الأموية العظيمة، التي أنفق بقية عمره في جمعها وتنسيقها (١)
.
ويقول لنا ابن حيان في دهشة وإعجاب إنه " لم يسمع في الإسلام بخليفة،
بلغ

مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين، وإيثارها والتهمم بها.
أفاد على العلم، ونوه بأهله، ورغب الناس في طلبه، ووصلت عطاياه وصلاته
إلى فقهاء
الأمصار النائية".
وكان الحكم يبعث إلى أكابر العلماء المسلمين من كل قطر، بالصلات
الجزيلة، للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم.
ومن ذلك أنه
بعث إلى أبي الفرج الأصفهانى ألف دينار من الذهب العين، ليحصل منه
على
نسخة من كتابه "الأغانى".
فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة، قبل أن يحصل
عليه أحد في العراق أو ينسخه أحد منهم، وأرسل إليه أبو الفرج أيضاً – وهو
ممن ينتمون إلى المروانية بني أمية – كتاباً ألفه في أنساب قومه بني أمية،
يشيد
فيه بمجدهم ومآثرهم، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة (٢) .
وفعل الحكم مثل ذلك
مع القاضى أبي بكر الأبهرى المالكى، إذ بعث إليه بمبلغ جليل ليحصل على
النسخة الأولى من شرحه لمختصر ابن عبد الحكم.
وأسبغ الحكم رعايته على اللغوى
الكبير أبي على القالى، الذى وفد من العراق على أبيه الناصر، وقربه إليه،
وألف
كتبه تحت كنفه، وأورث أهل الأندلس علمه (٣) .
وأهدى إليه أبو عبد الله
الخشنى بعض كتبه ومنها كتاب "القضاة" أو "قضاة قرطبة" (٤) ، وأهدى
إليه مطرف
ابن عيسى الغسانى، كتابه المسمى بالمعارف في " أخبار كورة إلبيرة "، كما

أهدى
إليه كثير من علماء العصر مؤلفاتهم، تيمناً برعايته للعلم والعلماء.
وكان للحكم طائفة
من مهرة الوراقين بسائر البلاد، ولاسيما في بغداد والقاهرة ودمشق، ينقبون له
عن الكتب، ويحصلون منها على النفيس والنادر، كما كانت له في بلاطه
طائفة

---

(١) J.
Ribera: Disertaciones y Opusculos (Madrid 1928) p.
١٩١ & ١٩٢
(٢) الحلة السيراء - عن ابن حيان ص ١٠٢.
(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦.
(٤) راجع كتاب قضاة قرطبة للخشنى (المقدمة) .

(١/٥٠٥)

أخرى، من البارعين في نسخ الكتب، وتحقيقها، وتجليدها، وتصنيفها.
وبذل
في هذا السبيل من الجهود والأموال ما لم يسمع به، واجتمع لديه من نفائس
الكتب في مختلف العلوم، ما لم يجتمع لأحد قبله.
ولما ضاقت أبهاء القصر
الخليفى، عن استيعاب العدد العظيم، من الكتب الواردة إليها باستمرار، أنشأ
الحكم على مقربة من القصر صرحاً عظيماً خاصاً بالمكتبة، افتن المهندسون
فى
ترتيبه وتنسيقه، وإنارة أبهائه.
قال ابن حزم " ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم "
وذكر لنا أن تليداً الفتى - وكان على خزانة العلوم بقصر بني أمية بالأندلس

–

أخبره أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، فى كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط (١) .

وعهد الحكم بإدارة المكتبة الأموية العظيمة إلى أخيه عبد العزيز.

وعهد

بالإشراف على جامعة قرطبة وأساتذتها إلى أخيه المنذر.

وكان يقضى معظم أوقاته

بمدينة الزهراء، في أبهائها المنيفة وظلالها الهادئة، معتكفاً على القراءة

والدرس

برفقة صفيه محمد بن يوسف الحجارى، الذى كتب له تاريخ الأندلس

والمغرب، وتواريخ أخرى لبعض المدن.

وكان من أصفيائه في تلك المجالس أيضاً، الفتى

سابور الفارسى، الذى قدم بدعوته إلى قرطبة، واختاره ليكون وصيفاً خاصاً له، وكان من أعلم أهل عصره (٢) .

ولم يكن هذا الشغف بجمع الكتب، في عصر الحكم، قاصراً على الأمير، فقد عنى كثير من كبراء العصر وعلمائه، بانشاء مكتبات خاصة زاخرة بنفائس الكتب.

وشغف النساء المثقفات كذلك بجمع الكتب، وإنشاء المكتبات، ومن

أشهر هؤلاء عائشة بنت أحمد بن قادم، وكانت من أبرع نساء عصرها، علماً وأدباً وشعراً، وكانت خزانة كتبها من أغنى وأقيم المكتبات الخاصة.

وكانت

سوق الكتب في قرطبة، من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة.

بل لقد سرى هذا

الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود أنفسهم، وكان الكثير منهم

يجيدون

اللغة العربية، ويتذوقون ثمرات التفكير العربى من أدب وشعر وفلسفة وغيرها.

وكان من أشهر هؤلاء الطبيب اليهودى حسداى، طبيب الحكم الخاص، وفى

---

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٩٢.
ونقلها ابن الأبار في الحلة السيراء ص ١٠٣.
(٢) Modesto Lafuente: Historia General de Espana ; T.
III, p.
٣٣٧.

(٥٠٦/١)

ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية، وألفوا بها مختلف الكتب، وكان من أشهر المكتبات الأندلسية الخاصة فيما بعد، مكتبة يوسف بن إسماعيل
ابن نغرالة اليهودى، وزير باديس أمير غرناطة (١) .
وإلى جانب هذا الشغف بالكتب والثقافة العالية، كان التعليم العام في عهد الحكم يجوز نهضة عظيمة، وكان أبناء الشعب جميعاً يعرفون القراءة والكتابة، هذا بينما كان أرفع الناس مكانة في أوربا - خلا رجال الدين - لا يعرفون.
وأسس الحكم عدداً كبيراً من المدارس يتعلم فيها الفقراء مجاناً.
أما جامعة
قرطبة، فقد كانت يومئذ من أشهر جامعات العالم، وكان مركزها في المسجد الجامع، وتدرس في حلقاتها مختلف العلوم، وكان يدرس الحديث أبو بكر ابن معاوية القرشى، ويملى أبو على القالى ضيف الأندلس دروسه عن العرب قبل الإسلام، وعن لغتهم وشعرهم وأمثالهم، وكان ابن القوطية يدرس النحو، وكان يدرس باقى العلوم أساتذة من أعلام العصر، وكان الطلبة يعدون
بالآلاف (٢) .

وكان الحكم يسبغ رعايته على سائر العلماء من مختلف الملل والنحل، مسلمين
كانوا أو غير مسلمين.

ومن شواهد هذه الرعاية أن الأسقف العالم ريثموندو
الإلبيرى، المسمى باسمه العربى، ربيع بن زيد، كان أثيراً لديه متمتعاً برعايته، لتبحره في علم الفلك، والعلوم الفلسفية، وهى من الدراسات التي كان يعنى بها الحكم.

وكان هذا الحبر القرطبى عالماً مبرزاً، متمكناً من الآداب العربية واللاتينية، وكان الناصر والد الحكم يقدر علمه ومواهبه، ويحبوه بعطفه ورعايته
بالرغم من نصرانيته، وكان يشغل مكانة هامة في القصر (٣) .

يقول العلامة دوزى: " وعلى العموم فإن إغداق الحكم على العلماء الإسبان والأجانب لم يعرف حداً، وقد كانوا يهرعون إلى بلاطه.
وكان المليك يشجعهم
ويوليهم رعايته، حتى الفلاسفة استطاعوا في ظله أن ينصرفوا إلى بحوثهم دون

---

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال (القاهرة) ج ٢ ص ت ٦٥٤، وكذلك J. Ribera: ibid.
،
p.
١٩٩ - ٢٠٢

(٢) Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne, Vol.
II.
p.
١٨٤ & ١٨٥

.F (٣)
.J
Simonet: Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid
، (1897
.p
.٦١٢ & ٦٠٧

(٥٠٧/١)

خوف من أن يقتلهم الأتقياء الورعون " (١) .
ويبدى النقد الحديث تقديره وإعجابه بتلك النزعة العلمية التي امتاز بها الحكم، والتي سادت كل عصره.
فمثلا يقول لنا المؤرخ الإسبانى موديستو لافونتى:
" كانت دولة الحكم الثاني دولة الآداب والحضارة، كما كانت دولة أبيه دولة العظمة والبهاء.
وإن الرواية العربية لتحبو الحكم بكثير من جميل الذكر، فهل نغضى نحن عن تسجيل إعجابنا بما لهذا الأموى المستنير من الصفات الباهرة، لأنه كان مسلماً ولم يكن نصرانياً؟ إن ذلك يعنى أننا ننكر فضائل أمثال أوغسطوس وتراجان وأدريان وماركوس أوريليوس، لأن أولئك القياصرة العظام لم يكونوا نصارى.
إن السلم الذى وطده أكتافيوس في اسبانيا الرومانية، قد وطده الحكم في اسبانيا العربية، وقد قدم الحكم، كما قدم أكتافيوس من قبل، الأدلة على أن الرغبة في السلم، لم تكن لأنه لا يعرف الحرب ولا النصر، ولكن لأنه كان يؤثر إلهام القريض، ويؤثر الكتب على خزائن السلاح، وإكليل الجامعات الحقيقى على إكليل الحروب الدموى.
لقد أعيد عصر أوغسطوس في اسبانيا بعد ألف عام في صورة جديدة، وقد تحول بلاط قرطبة إلى نوع من الأكاديمية العظيمة، وأغدق على ثمرات

العبقرية
فيض الإغداق والكرم الرائع، ونستطيع أن نقدر مدى التضحيات العظيمة، ومدى الصبر، والمثابرة، والنفقات التي أمكن أن يتحقق بها إنشاء تلك المجموعة
المدهشة، من أربعمائة ألف إلى ستمائة ألف مخطوط، هى محتويات مكتبة قصر
بنى مروان ".
ثم يشير موديستو لافونتى بعد ذلك إلى أن هذا المستودع الزاخر من ثمرات العقل، وتلك الحضارة التي وصل إليها العرب في عصر الحكم، كانت قد وضعت بذورها من قبل، وتعاقب أمراء بني أمية منذ عبد الرحمن الداخل فى تعهدها بالغرس والنماء، وقد كانوا جميعاً من أهل العلم والأدب، ومن حماة العلوم والآداب.
ثم يختتم تعليقه على عصر الحكم بقوله:
" لقد جاء هذا الخليفة الشهير الذى يعشق الآداب في عهد سعيد من السلم، ولما كانت بذور التمدن موجودة من قبل، فقد تفتحت في ظل رعايته، وازدهر

---

(١) Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne ; Vol. II. p. ١٨٩.

(١/٥٠٨)

الغرس ازدهاراً عظيماً، حتى أنه بعد الحرث الكثير، والمطر الغزير، بدت شمس
وضاءة رائعة منعشة " (١) .
وقد اختلف في تقدير محتويات المكتبة الأموية العظيمة، التي أنشأها الحكم

المستنصر، فقدرها بعض المؤرخين بأربعمائة ألف مجلد، وقدرها البعض الآخر
بستمائة ألف (٢) .
وكانت توجد في قواعد الأندلس الأخرى، عدا مكتبة قرطبة
العظيمة زهاء سبعين مكتبة أخرى (٣) .
وهذا وحده يكفى للدلالة على مدى التقدم
العظيم، الذى بلغته الحركة الفكرية والأدبية في الأندلس، في هذا العصر الزاهر.
ولبثت المكتبة الأموية العظيمة قائمة بقصر قرطبة، حتى وقعت الفتنة الكبرى فى
سنة ٤٠٠ هـ، وحاصر البربر قرطبة، فأخرجت معظم الكتب من خزائنها خلال
الحصار، وبيعت بأمر الفتى واضح مولى المنصور بن أبي عامر، ثم نهب ما تبقى
منها عند اقتحام البربر لقرطبة، حسبما نذكر بعد (٤) .

***

وشعر الحكم في أواخر عهده، بأعراض الضعف والمرض تدب إليه، فانتقل من قصر الزهراء وفقاً لنصح أطبائه، لغلبة برد الجبل عليه، وقضى حيناً في منية ناصح، ومنية الناعورة، ثم انتقل إلى قصر قرطبة.
وعقد العزم على تأمين
ولاية العهد لولده الطفل هشام.
وتم ذلك في شهر جمادى الثانية سنة ٣٦٥ هـ
(٥ فبراير سنة ٩٧٦ م) حيث جلس الحكم بقصر قرطبة، وأعلن عزمه فى تقليد ولده عهد الخلافة من بعده، وأخذت البيعة بالفعل من الحاضرين، وأخرجت
كتبها لسائر الخاصة والعامة.

وتولى أخذها على الناس وفق مراتبهم، محمد بن
أبى عامر، وهو يومئذ صاحب الشرطة والمواريث، وكان من قبل كافلا
لهشام، وميسور الفتى الكاتب مولى صبح، ثم دعى لهشام في الخطبة
بالأندلس
والمغرب، ونقش اسمه في السكة.

---

(١) Modesto Lafuente: Historia General de Espana
(Barcelona 1889) ،
Tom.
II ; p.
٣٦٤ - ٣٦٧.
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤.
(٣) Prescott: Ferdinand and Isabella of Spain, p.
١٨٧.
(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦.

(١/٥٠٩)

وينعى ابن حيان على الحكم هذه السياسة في اختيار ولده الطفل لولاية
العهد، فيقول إنه أى الحكم على ما وصف من رجاحة " كان ممن استهواهم
حب الولد، وأفرط فيه، وخالف الحزم في توريثه الملك بعده، في سن الصبا
دون مشيخة
الأخوة، وفتيان العشيرة، ومن يكمل للإمامة بلا محاباة، فرط هوى، ووهلة
انتقدها الناس على الحكم، وعدوها الحانية على دولته.
وقد كان يعيبها على ولد
العباس قبله، فأتاها هو مختاراً ولا مرد لأمر الله ".
وأصيب الحكم بعد ذلك بقليل، بشلل أقعده عن الخروج والحركة، ويقول

لنا ابن حيان إن الحكم كان يعانى من هذه " العلة الفالجية " ولا يكاد يستفيق منها (١)
فلزم فراشه، وتولى تدبير الشئون خلال مرضه، وزيره جعفر بن عثمان المصحفى.
ثم توفى بعد ذلك بأشهر قلائل، في اليوم الثاني من صفر سنة ٣٦٦ هـ (٣٠ سبتمبر سنة ٩٧٦ م) (٢) .
***
وكان الحكم المستنصر من خيرة أمراء بني أمية خلقاً وعلماً وعدلا.
وتنوه
الرواية الإسلامية في غير موطن بجميل خلاله وصفاته.
فيقول لنا ابن الأبار:
" وكان حسن السيرة، فاضلا عادلا، مشغوفاً بالعلوم " (٣) .
ويقول لنا ابن
الخطيب: " وإليه انتهت الأبهة والجلالة، والعلم والأصالة، والآثار الباقية، والحسنات الراقية " (٤) .
وكان الحكم من ذوى الورع والتقوى، تشهد بذلك
عنايته الفائقة بأمر المسجد الجامع، وتوسعته وإنشاء منبره الجديد، وتزويده بالماء بطريقة هندسية بديعة، وما بذله في سبيل ذلك من النفقات الطائلة، ويشهد بذلك أيضاً تشدده في محاربة الخمر وإراقتها (٥) .
وكان محباً للعدل معيناً
بإقامته، شديداً في محاسبة الطغاة من العمال والحكام، يؤيد ذلك ما رواه صاحب

---

(١) المقتبس – قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ ص ٢١١.
(٢) تضع معظم الروايات وفاة الحكم في هذا التاريخ (الحلة السيراء ص ١٠١، ونفح

الطيب ج ١ ص ١٨٥، وابن الخطيب عن ابن حيان، في أعمال الأعلام ص٥٦) .
ولكن صاحب
البيان المغرب ينفرد بالقول بأن وفاته كانت في الثالث من رمضان سنة ٣٦٦ هـ.
(٣) الحلة السيراء ص ١٠١.
(٤) أعمال الأعلام ص ٤٩.
(٥) الحلة السيراء ص ١٠٣.

(٥١٠/١)

البيان المغرب من أنه أرسل غير مرة إلى الحكام الظلمة، يحذرهم من سطوته، وإلى القواد والعمال، يحذرهم من سفك الدم بلا موجب (١) .
وكان من أعمال الحكم الإنشائية أيضاً إصلاح قنطرة قرطبة العظيمة على نهر الوادي الكبير، وتقوية دعائمها التي وهنت بمضى الزمن (سنة ٣٦١ هـ) ، وإشرافه على ذلك بنفسه (٢) .
وكان الحكم عارفاً بأقدار الرجال، مميزاً للنابهين منهم، وقد جمع في حكومته وبلاطه جمهرة من أعاظم رجال العصر وألمعهم.
وكان في مقدمة هؤلاء، كبيرهم
وزعيمهم الحاجب جعفر بن عثمان بن نصر المصحفى.
وكان جعفر ينتمى إلى بطن
من بطون البربر من بلنسية، وتولى أبوه عثمان أيام الناصر تأديب ولده الحكم، وهكذا نشأت بين الحكم وبين ولد أستاذه ومؤدبه جعفر مودة عميقة، فلما أسندت
إليه ولاية العهد، قدم جعفر في الأعمال واستخدمه في الكتابة، ثم ولاه الناصر
بعد ذلك حكم جزيرة ميورقة.

ولما ولى الحكم الخلافة استوزره وأمضاه على كتابة
الخاصة، وضم إليه بعد ذلك ولاية الشرطة، ثم تولى بعد ذلك منصب
الحجابة
أى رياسة الوزارة، خلفاً للحاجب جعفر بن عبد الرحمن الصقلبى، وأصبح أول
رجل في الدولة، واجتمعت إليه سائر السلطات، ولما رزق الحكم بولده هشام
اختار جعفر كافلا له، واستمر جعفر هو القائم بدولة الحكم حتى وفاته.
وكان
المصحفى من أساطين الكتابة والشعر وله شعر حسن، أورد لنا منه ابن
الأبار
مختارات رقيقة مشرقة تدل على تمكنه (٣) .
وكان من أشهر أعمال المصحفى في بداية عهد الحكم أن قدم إليه هديته
الباذخة، التي حاول أن يبز فيها هدية الوزير ابن شهيد إلى الناصر.
وقد أورد
لنا ابن حيان في المقتبس وصفاً لمحتويات هذه الهدية الشهيرة وهى: مائة
مملوك من
الفرنج ناشئة على خيول صافنة كاملو العدة والسلاح، وثلاثمائة وعشرون
درعاً
مختلفة الأجناس، وثلثمائة خوذة كذلك، ومائة بيضة هندية، وخمسون خوذة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥، ٢٥٦.
(٢) ابن حيان في المقتبس – قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ السابق الإشارة
إليها
ص ٦٤ و٦٥.
ْ (٣) راجع ترجمة جعفر المصحفى ومختارات من شعره في " الحلة السيراء
" ص ١٤١ – ١٤٧.

حبشية من حبشيات الإفرنجة، وثلثمائة حربة إفرنجية، ومائة ترس سلطانية، وعشرة جواشن مذهبة، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس (١)
.
وكانت هدية المصحفى للحكم، من أشهر الحوادث الاجتماعية في هذا العصر.
وكان من أكابر دولة الحكم أيضاً، القائد غالب بن عبد الرحمن الناصرى صاحب مدينة سالم، وكان مولى لأبيه الناصر.
وكان غالب، فضلا عن كونه من
نصحاء الحكم، ومستشاريه المقربين، من أعظم قادة الأندلس ورجالاتها في هذا
العصر، وكان الحكم، عرفاناً منه بقدر هذا القائد المظفر، قد أسند إليه القيادة العليا، وأصدر مرسومه بذلك إليه في سنة ٣٦١ هـ، وذلك " لغنائه وجميل مقامه ".
ثم عاد على أثر انتصاره في موقعة حصن غرماج في سنة ٣٦٤ هـ، فقلده سيفين
مذهبين من ذخائر سيوفه، وسماه " ذا السيفين " (٢) وكان منهم أيضاً الوزير يحيى بن محمد التجيبي، والقائد سعيد بن الحكم الجعفرى، وكلاهما من أعظم الوزراء والقادة، وقد برز كلاهما في غزوات الصوائف، وحوادث المغرب الأقصى.
وكان من كتاب الحكم عيسى بن فطيس، ومن قضاته منذر بن سعيد البلوطى
كبير القضاة في عهد أبيه الناصر، ثم أبو بكر محمد بن السليم.
وكان الحكم، بالرغم مما كان يسود الممالك الإسبانية النصرانية في عهده من جنوح إلى المهادنة والسلم، يرقب حركاتها وتصرفاتها بعناية، وقد رتب لذلك

بعض عماله المهرة المخلصين المعروفين بصدق الخدمة، وفي مقدمتهم ابن أبى
عمروس العريف، وصاحبه سعيد، للسفارة بينه وبين ملوك جليقية، ولقاء قواميسها، والتردد عليهم " للتعرف على أخبارهم، والتجسس لأنبائهم " وحمل الكتب إليهم في كل وقت، وصرفها عنهم، وهو ما يفصح عن بعض الوسائل التي كان يلجأ إليها بلاط قرطبة للإحاطة بأخبار الممالك النصرانية ونياتها (٣) .
وكان الحكم شاعراً مطبوعاً ينظم القريض الرقيق، ومما ينسب إليه قوله:
إلى الله أشكو من شمائل مسرف..

.

عليّ ظلوم لا يدين بما دنت

---

(١) ابن خلدون في كتاب العبر ج ٤ ص ١٤٤.
(٢) راجع المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٦٩ و٢٢٠.
(٣) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦.



نأت عنه دارى فاستزاد صدوده..

.

وإنى على وجدى القديم كما كنت
ولو كنت أدرى أن شوقى بالغ..

.

من الوجد ما بلغته لم أكن بنت
وقوله:
عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت..

.

وكيف انثنت بعد الوداع يدى معى

فيا مقلتى العبرا عليها اسكبى دماً..

.

ويا كبدى الحرّا عليها تقطعى

***

ونلاحظ أخيراً أن بلاط قرطبة، كان في أيام الحكم المستنصر، يبدو فى بهى أثوابه الملوكية والخلافية، وكان جلوس الحكم في أيام الأعياد أو لاستقبال

الوافدين والسفراء من أيام قرطبة المشهودة.

وقد أفاض ابن حيان في وصف

هذه الأيام والحفلات الباذخة.

ويبدو مما كتبه أن الخليفة الحكم، كان يؤثر

الجلوس في هذه الأيام بالمجلس الشرقى من قصر الزهراء، ويجلس عن يمينه ويساره إخوته بترتيب السن؛ ثم يليهم في ترتيب الجلوس، الوزراء، يجلسون بعد فرجتين، إلى اليمين وإلى اليسار، ويلى ذلك صاحب المدينة بقرطبة، ويجلس

إلى اليمين، وإلى جانبه صاحب المدينة بالزهراء، ثم يجلس من بعدهم صاحب

الحشم، فصاحب الخيل، فأصحاب الشرطة العليا والوسطى، وسائر طبقات أهل

الخدمة وفق مراتبهم، وقاضى الجماعة، والحكام وأصحاب الشرطة الصغرى، وأسباط الخلافة، وجلة قريش، ثم وجوه الموالى، ثم قضاة الكور والفقهاء المشاورون والعدول، وأعيان قرطبة.

ويصطف الجند في أثوابهم الزاهية، منذ مداخل القصر حتى الممر المفضى إلى مجلس الخليفة، وقد أورد لنا ابن حيان

وصف هذا النظام في مختلف المناسبات الرسمية، مما يدل على أنه هو

نظام البروتوكول
(المراسيم) الثابت الذى كان يتبعه بلاط قرطبة في هذا العهد عند جلوس الخليفة
للمناسبات الرسمية الكبرى (١) .
ويجب أن نلاحظ من ذلك الوقت التطور العظيم، الذى حدث في تكوين المجتمع الأندلسى.
فقبل عهد الناصر كانت الرياسة والأرستقراطية، تنحصر فى القبائل العربية.
وكان البربر يحتلون مقاماً أدنى.
وكانت المعارك يضطرم لظاها

---

(١) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢٩ و ٤٩ و ٥٠ و ٥٧ و ٨١
و ٩٤ و ١٩٤ و ١٩٥.

(٥١٣/١)

باستمرار بين السلطة المركزية أعنى بين الإمارة وبين العصبية العربية، التي تحاول
دائماً أن تقيم رياستها في الثغور والمدن على أساس الاستقلال المحلى.
وقد استمرت
هذه المعارك عصوراً، منذ عبد الرحمن الداخل، حتى جاء الناصر، فشدد فى مطاردة العصبية العربية وتحطيمها، وآثر أن يعهد بالرياسة والسلطات المحلية إلى
طوائف الصقالبة حسبما شرحنا ذلك من قبل.
وفى عهد الحكم المستنصر كانت
الأرستقراطية العربية، قد اضمحلت، وغاض نفوذها، واختفت كقوة

سياسية واجتماعية تخشاها السلطة المركزية، وإن كانت بقيت كطبقة من الطبقات، وحلت محلها أرستقراطية من نوع جديد، قوامها القادة والرؤساء العسكريون، من الموالى والصقالبة، فكانت بذلك أرستقراطية سيف، وليست أرستقراطية قبيل أو عصبية، وبلغ الفتيان الصقالبة أيام الحكم، ذروة القوة والنفوذ والثراء، مثلما كانوا أيام أبيه الناصر.

ويكفى أن نذكر هنا دليلا على
ضخامة ثراء هؤلاء القوم، أن أحدهم وهو الفتى الكبير درّى الخازن، قام بإهداء مولاه الخليفة الحكم، منيته الغراء بوادي الرمان من ضواحى قرطبة، وكان قد أنشأها مغنى ومتنزهاً، وأفاض عليها أروع صنوف البذخ والبهاء، وجعلها برياضها ومنشآتها جنة حقة.

وقد قبل الحكم هدية فتاه، وقام بزيارة
هذه المنية مع ولى عهده هشام وحاشيته، وأنفق فيها يوم استجمام ومسرة. وقد
أجمع الخليفة ومرافقوه على أنهم " لم يشاهدوا في المتنزهات السلطانية أكمل ولا
أعذب ولا أعم من صنيع درّى هذا " (١) .

هذا وأما الطبقة الوسطى فقد انحصرت
في التجار ورجال الصناعة وغيرهم ممن استطاعوا أن يحرزوا بالتجارة والفنون
في مختلف القواعد ثروات عظيمة.

ويأتى بعد الطبقة الوسطى، طبقات الشعب
الكادحة، وكانت على نحو ما يحدث في كل زمان ومكان، تبغض الطوائف الميسورة، وتنقم عليها نعماء العيش.

وكانت ثمة طبقة أخرى، ذات مميزات خاصة، هى طبقة المولدين أو بعبارة أخرى مسلمو الإسبان، وكانت تحتل مكانها بين الطبقات المتوسطة والميسورة.

وكان بينها الكثيرون ممن أحرزوا الجاه والنفوذ والثراء.
بيد أن المولدين بالرغم من
إسلامهم، كانوا يعتبرون أقل مكانة من المسلمين الأصليين.
وكان المعروف

---

(١) ابن حيان في المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٧.

(٥١٤/١)

من أصولهم دائماً، أنهم كانوا على الأغلب عبيداً أو مسترقين من القوط، دخلوا
في الإسلام اجتناء للحرية.
وقد زاد عدد المولدين زيادة كبيرة، منذ عهد عبد الرحمن
ابن الحكم، حيث دخل كثير من النصارى المعاهدين في الإسلام، حينما اشتدت
وطأة حكومة قرطبة عليهم، أيام الفتن التي حاولوا إثارتها لإشاعة الإضطراب
والفوضى، حسبما فصلنا ذلك في موضعه.
وبذلك ازداد عدد المولدين زيادة
كبيرة، منذ أوائل القرن التاسع الميلادى، وغدوا في ظل الخلافة أيام الناصر
وولده الحكم، يمثلون أقلية كبيرة بين الأمة الأندلسية.
وأما الطبقة المسترقة أو طبقة العبيد، فكانت في تلك العصور تتألف من
العمال العبيد، الذين يلحقون في الغالب بالضياع.
وكان هذا النظام موجوداً منذ
أيام القوط، ولكنه طبق أيام المسلمين، بصورة أفضل بكثير مما كان عليه،
ومنح هؤلاء العمال حقوقاً إجتماعية وإنسانية، رفعت عنهم كثيراً من صور العبودية
القديمة، التي كانت تعطى للسيد عليهم حق الحياة والموت، والبيع والشراء.

ويلحق بغير الأحرار أيضاً طبقة الصقالبة والخصيان.
بيد أن هذه الطبقة كانت
تحتل مكانة ملحوظة في المجتمع، وكان لها في الحكومة والقصر، أيما نفوذ، وقد
ظهر منها زعماء وقادة وصلوا إلى مراكز عظيمة، وكان لهم فيما بعد شأن يذكر، فى تطور الحوادث التي أعقبت انهيار الخلافة الأندلسية.
وإلى جانب هذه الطبقات المختلفة، التي تتألف منها الأمة الأندلسية، كانت توجد دائماً طبقة النصارى المعاهدين، الذين يعيشون في ظل الحكم الإسلامى، وكانت تجتمع في القواعد الأندلسية في أقليات كبيرة.
وكانت تحتل في العاصمة، وفى بعض المدن الأخرى مكانة خاصة، ويشغل كثير من أفرادها مراكز هامة
في الحكومة والجيش، وقد تحدثنا من قبل عن بعض أحوال هذه الطبقة وظروفها، ويجب أخيراً ألا ننسى الأقلية اليهودية.
فقد عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق
والرعاية، وازدهرت أعمالهم التجارية والصناعية، في ظل ذلك التسامح الإسلامى
المأثور، ووصلوا في قرطبة في ظل الخلافة، إلى ذروة النفوذ والرخاء. وفى
أيام الناصر تولى أحدهم، وهو العلامة حسداى بن شبروت، الإشراف على الخزانة العامة، وكان قبل ذلك قد حظى برعاية الناصر بخدماته الدبلوماسية، وترجمته لكتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية، من اليونانية إلى العربية،

(٥١٥/١)

وهو الكتاب الذى أهدى قيصر منه نسخة إلى الناصر.
وفى ظل هذه الرعاية، وفد كثير من العلماء والأدباء اليهود إلى قرطبة، أيام الناصر وولده الحكم، وقامت

في ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية، ومؤسسها الرابى موسى بن حنوش، وازدهرت في ظلها البحوث التلمودية، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث.

واستمرت الخلافة الأموية، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الأقلية اليهودية وتشجيعها، وكان يهود قرطبة يرتدون الزى العربى، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية، ويمتازون بثرائهم ومظاهرهم الفخمة (١)

.

---

(١) راجع: R.

Altamira: Historia de Espana y de la Civilizacion

.Espanola, Vol

.I

.p

.٢٥٠ - ٢٥٤

*(٥١٦/١)*

الفصل الثاني

هشام المؤيد بالله

مؤامرة الفتيان الصقالبة لإبعاد هشام وترشيح المغيرة بن الناصر.

الحاجب جعفر يناهض مشروعهم.

محمد بن أبي عامر يتولى قتل المغيرة.

معسكر الصقالبة ومعسكر الأحرار.

أخذ البيعة لهشام.

وصف

ابن الخطيب لأحوال الخلافة الأندلسية يومئذ.

اجتماع السلطة في يدى الحاجب جعفر وابن أبي عامر.

صبح البشكنسية أم المؤيد.
ظهورها في بلاط قرطبة وتمكن نفوذها من الحكم.
حظوة الحاجب جعفر
لديها.
محمد بن أبي عامر.
أصله ونشأته.
خلاله وطموحه.
حظوته لدى صبح.
طبيعة العلائق بينهما.
مصانعته للحاجب جعفر.
نفوذه لدى صبح.
جعفر المصحفى يتولى الحجابة وابن أبي عامر الوزارة.
الصراع الخفى بين الرجلين.
الخليفة الصبى هشام.
شغفه باللهو واللعب.
حجبه والحجر عليه.
دور
ابن أبي عامر في ذلك.
طموحه في الاستئثار بالسلطة.
الفتيان الصقالبة.
تفاهم الحاجب وابن أبي عامر
على سحقهم.
ابن أبي عامر يتولى قيادة الجيش ويغزو أرض النصارى.
الخلاف بين الحاجب والقائد
غالب.
مسير ابن أبي عامر وغالب إل الغزو.

ذيوع شهرة ابن أبي عامر.
الصراع بينه وبين
المصحفى.
محاولة المصحفى التفاهم مع غالب.
ابن أبي عامر يحبط خطته.
مسير ابن أبي عامر
وغالب ثانية إل الغزو.
زواج ابن أبي عامر من أسماء ابنة القائد.
تولية غالب منصب الحجابة.
تضاءل مكانة المصحفى.
إقالته والقبض عليه وعلى أهله.
اشتداد ابن أبي عامر في مطاردته.
وفاة
المصحفى أو قتله في سجنه.
شعر له في محنته.
ابن أبي عامر يسحق خصومه ومنافسيه.
اهتمامه بتنظيم
الجيش.
اصطناعه للبربر واضطهاده للعرب.
لما توفى الحكم المستنصر بالله، في اليوم الثاني من صفر سنة ٣٦٦ هـ،
حرص
خادماه الخصيان، الفتيان فائق وجؤذر، على كتمان خبر موته، وقاما بضبط
القصر، واتخاذ التدابير اللازمة، لتسيير الأمور وفق الخطة التي وضعاها.
وكانت
هذه الخطة، تنحصر في تنحية ولى العهد الصبى هشام عن العرش، واختيار
عمه

أخى المستنصر، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، لولاية العرش، وكان الفتيان
الصقالبة داخل القصر، زهاء ألف، ولهم نفوذ عظيم، وفي يدهم الحرس الخليفى
ومعظمه من الصقالبة والمرتزقة.
فكانوا بذلك قوة يخشى بأسها.
استدعى فائق وجؤذر، الحاجب جعفر بن عثمان المُصْحفى، ونبآه بموت الخليفة وعرضا عليه مشروعهما، في تولية المغيرة، فتظاهر الحاجب بالاستحسان
والموافقة، ووعدهما بالعمل وفق خطتهما، وتنفيذ ما يشيران به.
ثم خرج،

(٥١٧/١)

فبادر إلى ضبط أبواب القصر، واستدعى أصحابه من خاصة الحكم، مثل زياد بن أفلح
مولى الحكم، وقاسم بن محمد، ومحمد بن أبي عامر، وهشام بن محمد بن عثمان
وغيرهم.
واستدعى في نفس الوقت عصبته وأشياعه من زعماء البربر، مثل بنى برزال، كما استدعى سائر القادة الأحرار، فاجتمع له منهم ومن أجنادهم طوائف
ضخمة.
فنعى لهم الخليفة، وعرض عليهم مشروع الفتيان الصقالبة، في تنحية هشام وتولية المغيرة، وأوضح لهم أن هذا المشروع خطر داهم عليهم، وأنه إذا ولى المغيرة، واستبد الصقالبة بالأمر، قضى عليهم وعلى دولتهم ونفوذهم، ونكل بهم المغيرة والصقالبة.

والأمر بالعكس إذا ولى هشام ولى العهد الشرعى، فإنهم يستبقون سلطانهم
ونفوذهم، وتغدو الدولة دولتهم، ويأمنون على أنفسهم
وأموالهم.
فاقترح بعض أصحابه أن يقتل المغيرة، فيؤمن بذلك شره في الحال
والاستقبال، وتطوع محمد بن أبي عامر لتنفيذ هذه المهمة الدموية، حفظاً
للوئام
والوحدة، فبعث جعفر معه سرية من الجند الأحرار الموثوق فيهم، وسار معه
بدر القائد مولى الحكم، في سرية من غلمان الخليفة.
وأحاط الجند بدار المغيرة، ثم نفذ محمد بن أبي عامر في نفر من أصحابه،
ونبأه بموت الخليفة وجلوس
ابنه هشام، وأنه أتى ليتبين حقيقة موقفه، فذعر المغيرة وأكد لابن أبي عامر،
أنه مطيع مخلص لكل ما تقرر، وتضرع إليه أن يحقن دمه، وأن يراجع القوم
في أمره.
ولكن الرد كان قاطعاً في وجوب التخلص من المغيرة، فدفع إليه ابن
أبى عامر عدة من رجاله، فقتلوه خنقاً أمام زوجته، ثم أشاعوا أنه قتل نفسه،
ودفن في نفس مجلسه، وكان سنه يوم قتل سبعاً وعشرين سنة.
ووقع ذلك كله
في يوم واحد فقط.
ولما وقف الفتيان فائق وجؤذر على ما وقع، تملكهما السخط والروع، وبادرا
إلى الحاجب جعفر، وتظاهرا بالرضا والاستبشار بما وقع، واعتذرا له
مما سبق أن اقترحا عليه، وأخذ الفريقان من ذلك الحين، يتوجس كل من
صاحبه
ويتربص به، وانقسم أهل القصر إلى معسكرين، معسكر الصقالبة يتزعمه
فائق
وجؤذر، ومعسكر الأحرار يتزعمه الحاجب جعفر ومحمد بن أبي عامر (١)

---

(١) نقل إلينا ابن بسام في الذخيرة هذه التفاصيل عن ابن حيان (الذخيرة - القسم الرابع
المجلد الأول ص ٤٠ و ٤١) .
ونقلها أيضاً صاحب البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٨٠.

(٥١٨/١)

وسنرى فيما بعد، كيف تطورت هذه المعركة الخفية بين المعسكرين.
* * *

وهكذا وقع الاتفاق على تولية هشام، وأخذت له البيعة في صبيحة اليوم التالى لوفاة أبيه الحكم، وهو يوم الإثنين الثالث من صفر سنة ٣٦٦ هـ (أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م) .
فأجلس الخليفة الصبى هشام، في كرسى الخلافة، ولما
يجاوز الثانية عشرة من عمره.
وتولى أخذ البيعة له الحاجب جعفر محمد ابن أبى
عامر، ولم يعترض أحد على توليته.
واستمر أخذ البيعة أياماً، وكتب بها إلى
الأقطار، فلم يردها أحد.
وينقل إلينا ابن الخطيب، عن ابن حيان، مئات من
أسماء الوزراء والعلماء والقضاة والأكابر، من مختلف الطبقات، الذين أخذوا البيعة لهشام، ومنهم كثيرون، ممن اشتركوا في أخذ البيعة له بولاية العهد، فى
حياة أبيه (١) .
ويصف لنا ابن الخطيب حالة الخلافة الأندلسية، وأحوال الأندلس، عند ولاية هشام، فيما يأتى: " بويع ولى عهده (أى الحكم) هشام الملقب بالمؤيد بالله
والخلافة قد بلغت المنتهى، وأدركت الجنى، وبلغ طورها، وانتهى دورها،

فكانت كمامة ثم زهرة بسّامة، ثم ثمرة بهية، ثم فاكهة شهية، وكان بكرسى العامرية مجلاها، ثم تلاها ما تلاها، وأرخص الحطوط من أعلاها، فكان المال

قد ضاقت عنه خزائنه، والمصر قد عظمت مزاياه ومزاينه، والملك تعوذ بالله، أن لا يصيبه عائنُه الذى يعاينه، والمبانى قد بلغت السماء سمواً، وزاحمت الكواكب علواً، والبلاد وقد بلغ فيها إلى أقاصى الاهتمام، وفرغت بناتها من لبنات التمام، والآثار الصالحة قد تخلدت، والمآثر الواضحة قد تعددت، والأذهان

في بسطة الإسلام قد تبلدت، ورسم الخلاف قد أمحى، والدّولة المراونية قد بركت

وسط المرعى، والدعوة قد انتشرت في المغرب الأقصى" (٢) .

***

وهكذا تمت البيعة لهشام المؤيد، بين يوم وليلة، وقضى على كل معارضة، وتوارى الأعمام وبنو العم، واجتمعت مقاليد السلطة في أيدى رجلين، هما الحاجب

---

(١) أعمال الأعلام ص ٤٨.

وقد شغلت أسماء الذين أخذوا البيعة لهشام تسع صفحات كاملة.

(٤٨ - ٥٧) .

(٢) أعمال الأعلام ص ٤٣ و٤٤.

(٥١٩/١)

جعفر بن عثمان المصحفى، ومحمد بن أبي عامر، وهو يومئذ مدير الشرطة، ومتولى خطة المواريث، وناظر الحشم.

بيد أنه من الخطأ أن يقال إن السلطة، قد خلصت لهذين الرجلين وحدهما،

فقد كان ثمة شخصية ثالثة تشاطرهما السلطان

من وراء ستار.

تلك هى "صبح" البشكنسية حظية الحكم وأم ولده هشام الخليفة

الصبى، وكانت قد منحت الوصاية على ولدها، واكتسبت بذلك صفة شرعية

في الاشتراك في الحكم وتدبير الشئون.

فمن كانت تلك المرأة، التي لبثت ردحاً طويلا من الزمن، تسيطر

بسحرها ونفوذها، على خلافة قرطبة، وتشترك في تدبير شئونها، في السلام

والحرب، مع أعظم رجالات الأندلس؟ لسنا نعرف الكثير عن نشأتها وحياتها

الأولى.

وكل ما تقدمه إلينا الرواية الإسلامية في ذلك، هو أن " صبحاً " كانت

جارية بشكنسية أى نافارية.

ولا تذكر الرواية إن كانت قد استرقت بالأسر

في بعض المواقع، أم كانت رقيقاً بالملك والتداول، ولكنها تصفها بالجارية

والحظية؛ وصبح أو صبيحة ترجمة لكلمة Aurora الفرنجية، ومعناها الفجر

أو

الصباح الباكر، وهو الاسم النصرانى الذى كانت تحمله صبح فيما يظهر

(١) .

وظهرت صبح في بلاط قرطبة في أوائل عهد الحكم المستنصر، وكانت فتاة

رائعة الحسن والخلال، فشغف بها الحكم، وأغدق عليها حبه وعطفه، وسماها

"بجعفر" (٢) ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى.

ثم ازداد هذا النفوذ

توطداً وتمكناً، حينما رزق منها الحكم بولده عبد الرحمن ثم بولده هشام

حسبما تقدم.

ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط، بل كانت ملكة حقيقية، ولا تشير

الرواية الإسلامية إلى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر، بعد أن كانت

جارية

وحظية.

ولكن هنالك ما يدل، على أن صبحاً، كانت تتمتع في البلاط والحكومة بما يشبه مركز الملكة الشرعية.

فالرواية الإسلامية تنعتها بالسيدة صبح أم المؤيد (٣)

أو السيدة أم هشام.

وتصفها التواريخ الإفرنجية "بالسلطانة صبح" (٤) .

بيد أن

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ و٢٦٩.

وكذلك Dozy: Hist.

Vol.

II.

p.

١٠٠

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ و٢٥٣.

(٣) راجع الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٣؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ و٢٨٢.

(٤) Conde: Dominacion, V.

I.

p.

٤٨٠ & ٤٩٣ ؛ Dozy: Hist.

Vol.

II.

p.

١٩٥ & ١٩٠.

هناك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية " وأم ولد "
فقط، وأن الحكم توفى عنها دون تغيير في مركزها الشرعى (١) .
استمرت صبح أيام الحكم، تتمتع في البلاط والحكومة، بنفوذ لا حد له
وكان الحكم يثق بإخلاصها وحزمها، ويستمع لرأيها في معظم الشئون.
وكانت
كلمتها هى العليا، في تعيين الوزراء ورجال البطانة، وكان الحاجب جعفر بن
عثمان المصحفى، يجتهد في خدمتها وإرضائها، ويستأثر لديها ولدى الحكم
بنفوذ
كبير.
واستمرت الحال حيناً على ذلك، حتى دخلت في الميدان شخصية جديدة
قدر لها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط في توجيه مصاير الأندلس.
تلك هى
شخصية محمد بن أبي عامر الذى تقدم ذكره غير مرة، والذى رأيناه في
أواخر
عهد الحكم يشغل منصب مدير الشرطة وناظر الخاص.
كان محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافرى، يرجع
إلى أصل من أعرق الأصول العربية.
وكان جده عبد الملك بن عامر المعافرى، أول من دخل الأندلس مع الفاتحين
موسى وطارق، وظهر في الفتح بشجاعته
وحسن بلائه.
ونزلت أسرة بني عامر بالجزيرة الخضراء، وأقطعت حصن
طرُّش الواقع على نهر وادي يارُه، الذى يصب على مقربة من جبل طارق،
وظهرت بالعلم والوجاهة، وتولى كثير من أبنائها مناصب القضاء والإدارة،
وولد

محمد بن أبي عامر بحصن طرُّش وأنفق فيه حداثته.
وكان أبوه عبد الله، المكنى
بأبى حفص من أهل العلم والتقى، عالماً بالحديث والشريعة، وكانت أمه بريهة
بنت يحيى تنتمى إلى بني تميم.
ونشأ محمد على تقاليد أسرته، مؤثراً حياة الدرس، ووفد على قرطبة حَدَثاً، ودرس في معاهدها درساً مستفيضاً، وبرع فى
الأدب والشريعة، وكان من أساتذته العلامة اللغوى أبو على القالى البغدادى، وأبو بكر بن القوطية، والمحدث أبو بكر بن معاوية القرشى، وكان طموحاً مضطرم النفس والعزم، رفيع المواهب والخلال.
وتنوه بهذا الطموح المدهش
معظم الروايات المعاصرة واللاحقة (٢) .
وكان محمد بن أبي عامر في نحو

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٩.
والمعجب للمراكشى ص ٧٤.
(٢) الحلة السيراء ص ١٤٨، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٤ هـ والذخيرة القسم الرابع المجلد
الأول ص ٢٤٣.
والإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ص ٤٧٤.

(٥٢١/١)

السابعة والعشرين من عمره، حينما أراد الخليفة الحكم أن يعين مشرفاً لإدارة أملاك
ولده عبد الرحمن، ورشحه الحاجب جعفر فيمن رشح لتولى هذا المنصب، وأعجبت صبح بذكائه وحسن روائه، وظرف شمائله، فاختارته دون غيره،

وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً في الشهر، وذلك في أوائل سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) (١) .

ولما توفى عبد الرحمن طفلا، عين مشرفاً لإدارة أملاك أخيه هشام.

وتقدم في وظائف الدولة بسرعة.

فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة.

وعلى أمانة دار السِّكة، ثم عين للنظر على خطة المواريث (٣٥٨ هـ) ، فقاضياً لكورة إشبيلية ولبلة.

ثم عينه الحكم مديراً للشرطة الوسطى (٣٦١ هـ) .

وفى أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (الخاص) .

ويقدم إلينا ابن حيان وظائف ابن أبي عامر في أواخر أيام الحكم على النحو الآتى: صاحب الشرطة الوسطى، والمواريث، وقاضى إشبيلية، ووكيل الأمير أبي الوليد هشام، وكان عندئذ يلقب " بفتى الدولة " (٢) .

وهكذا وصل محمد بن أبي عامر إلى أرفع وظائف الدولة والقصر في أعوام قلائل.

ويرجع الفضل في تقدمه بتلك السرعة، أولا إلى مواهبه وكفاياته الباهرة، ثم يرجع بالأخص إلى عطف صبح وحمايتها له.

وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية.

كانت صبح امرأة حسناء، لا تزال في زهرة العمر، وما زال قلبها يضطرم حباً وجوى، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين، وهدمه الإعياء والمرض؛ أما ابن أبي عامر فقد كان فتى في نضرة الشباب، وسيم المحيا، حسن القد

والتكوين، ساحر الخلال، وكان من جهة أخرى يفتن
في خدمة صبح وإرضائها، ولا ينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف، حتى لقد
أهداها ذات مرة نموذج قصر من الفضة، بديع الصنع والزخرف، أنفق عليه
مالا عظيماً، ولم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره، وشهده أهل
قرطبة
حين حمل من دار ابن أبي عامر إلى القصر، فكان منظراً يخلب اللب،
ولبثوا

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧.
وينقل إلينا المقرى رواية أخرى عن اتصال ابن أبي عامر
بصبح، خلاصتها أنه كان يجلس في دكان عند باب القصر، ليكتب للخدم
والمترافعين للسلطان، إلى أن طلبت صبح من يكتب عنها، فعرفها به بعض
من كان يأنس الجلوس إليه من فتيان القصر:
فاستحسنت كتابته، وعينته أميناً لبعض شئونها (نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧)
.
(٢) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ - ص ١٠٦.

(٥٢٢/١)

يتحدثون بشأنه حيناً؛ فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع،
وتزيدها عطفاً على ابن أبي عامر وشغفاً به.
وكان الحكم يشهد هذا السحر الذى ينفثه
ابن أبي عامر إلى حظيته، وإلى نساء القصر جميعاً، ويعجب له.
ويروى أنه قال
يوماً لبعض ثقاته: " ما الذى استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن،
مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه، ولا
يرضين

الا ما أتاه، إنه لساحر عظيم أو خادم لبيب، وإنى خائف على ما بيده " (١)
.
ولم تلبث علائق صبح وابن أبي عامر أن ذاعت، وغدت حديث أهل قرطبة، ولم يك ثمة ريب في أنها استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية.
وربما ارتاب
الحكم في طبيعة هذه العلائق، وثاب له رأى في نكبة ابن أبي عامر، وسعى لديه بعض خصومه، واتهمه بأنه يبدد الأموال العامة، التي عين للنظر عليها، فى شراء التحف والإنفاق على أصدقائه، فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة
العامة، ليتحقق من سلامتها، وقد كان بالخزانة في الواقع عجز كبير، فهرع ابن أبي عامر إلى صديقه الوزير ابن حُدير، وكان وافر الوجاهة والثراء، فأغاثه
وأعانه بماله على تدارك هذا العجز، وتقدم إلى الحكم سليم العهدة برىء الذمة، فزالت شكوكه، وتوطدت ثقته فيه.
واستمر ابن أبي عامر متمتعاً بنفوذه وسلطانه، يندبه الحكم لعظائم المهام والشئون، وكان آخرها ما عهد إليه من تنظيم البيعة بولاية العهد لولده هشام حسبما تقدم؛ وابن أبي عامر خلال ذلك كله، يحرص على عطف صبح، ويستزيده
ويصانع الحاجب جعفر، ويجتهد في إرضائه وكسب ثقته، وكان بين الرجلين تباين يفيد منه ابن أبي عامر، فقد كان الحاجب جعفر على ما يبديه من التواضع
والبشر والترفق بالناس، قليل الجود، مؤثراً لجمع المال.
وكان ابن أبي عامر
على نقيضه في ذلك، فكان واسع البذل والجود، حريصاً على اصطناع الرجال، وكانت داره الفخمة بضاحية الرصافة، مقصد الناس من كل صوب، وكانت

مائدته معدة دائماً، وكان بذلك كله يخلق جواً من الحب والإعجاب، ويجتذب الصحب والأنصار، بسحر خلاله ووافر بذله ومروءته، وبارع وسائله وأساليبه (٢) .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨.
(٢) الذخيرة – القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٢.
والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٥.

*(٥٢٣/١)*

فلما توفى الحكم المستنصر، وأسندت الخلافة إلى ولده الطفل هشام، اتخذت الأمور وضعاً جديداً، ينذر بتطورات جديدة.

وقد رأينا أى دور قام به ابن أبى
عامر عندئذ، من الانضمام إلى الحاجب جعفر في معارضة الفتيان الصقالبة، ومقتل مرشحهم للخلافة، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر.

* * *

وهكذا تحقق مشروع الحكم بجلوس ولده هشام، وتحقق مشروع الثلاثة
ذوى السلطان من بعده، وكان طبيعياً أن تحرص صبح على تولية ولدها
لتحكم
باسمه، وكان طبيعياً كذلك أن يؤازر ابن أبي عامر صاحبته المحسنة إليه،
ليستمر
بواسطتها محتفظاً بسلطانه ونفوذه.
أما الحاجب جعفر فقد كان له مثل ذلك الباعث
في تولية هشام، إذ كان يخشى من تولية المغيرة، وأوليائه الصقالبة، على
نفسه
وعلى سلطانه.
وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين أولئك الثلاثة، الذين قدر لهم

أن يسيطروا على تراث الخلافة الأموية.
ولكن هذا التحالف الذى
أملته الضرورة المؤقتة، لم يكن طبيعياً ولا سيما بين الحاجب جعفر، ومنافسه
القوى محمد بن أبي عامر.
وكانت العلائق بين صبح وابن أبي عامر، تزداد
كل يوم توثقاً، ولا سيما منذ وفاة الحكم.
وكان ابن أبي عامر، يرى في تلك
المرأة، التي تجتمع في يدها السلطة الشرعية، بوصايتها على ولدها الطفل،
أداة
صالحة هينة، يستطيع أن يخضعها لإرادته، ويسخرها لمعاونته، على تحقيق
مشاريعه
البعيدة المدى.
وكانت صبح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها، على هذا الرجل
القوى الذى سحرها بخلاله، وقوة نفسه، وباهر كفاياته، وتضع فيه كل أملها
لحماية العرش الذى يشغله ولدها الفتى، فلم تمض أيام قلائل على تولية
هشام، حتى عين حاجب أبيه جعفراً المصحفى حاجباً له، ورقى في نفس
الوقت ابن أبى
عامر من خطة الشرطة إلى مرتبة الوزارة، وجعله معاوناً للمصحفى في تدبير
دولته (١) .
وبذلك أشرك ابن أبي عامر، في تولى السلطة المباشرة مع المصحفى، ولم
يعترض أحد من رجال القصر أو الدولة على ذلك الاختيار، سوى الحاجب
جعفر، فقد كان يرى في هذا التعيين انتقاصاً لسلطته، ونكراناً لجميله، بعد أن
حمل أعباء السلطة كلها دهراً.
وكان يرى في ابن أبي عامر بالأخص منافساً يخشى

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠.

بأسه، ويرتاب في نياته وأطماعه.
ومن ذلك اليوم يضطرم بين الرجلين صراع عنيف
صامت لم يك ثمة شك في نتيجته.
وكان ابن أبي عامر هو الأقوى بلا ريب، سواء
بمواهبه وقوة نفسه، أو بمؤازرة صبح له.
ولم تكن هذه المؤازرة ترجع فقط
إلى ذلك الحب القديم، الذى تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوى، ولكنها كانت أيضاً ترجع إلى ثقة صبح في مقدرته وبراعته، وفي أنه هو الرجل
الوحيد الذى يستطيع أن يحمى ملك ولدها الفتى، وأن يوطد الأمن والسلام فى المملكة.
كان ابن أبي عامر في الواقع هو السيد المطلق، وكانت صبح تفوض إليه كل سلطة وكل أمر، فكان يدير الشئون كلها بمهارة، تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء.
وكان الخليفة الفتى هشام المؤيد بالله، ميالا بطبيعته وسنه إلى اللهو والدعة، ولم يكن له شيء من تلك الخلال الرفيعة، التي تهيء الأمراء للاضطلاع بمهام
الملك، فكان يلزم القصر والحدائق، ويقضى كل أوقاته في اللهو واللعب، بين الخصيان وآلات الطرب، وكان ابن أبي عامر وصبح يشجعان هذه الميول السيئة
في نفس الأمير، ويريانها ملائمة لمقاصدهما (١) .
ومذ ولى هشام، حجر عليه
ابن أبي عامر، ولم يسمح لأحد غيره برؤيته أو مخاطبته، وكان يحمل صبحاً بدهائه وقوة عزمه، على أن تختلق الأعذار لحجب ولدها، حتى غدا هشام

شبه
معتقل أو سجين.
وفى ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسي: " حجر المنصور ابن أبى
عامر على هشام المؤيد، بحيث لم يره أحد مذ ولى الحجابة، وربما أركبه
بعض
سنين، وجعل عليه برنساً فلا يعرف، وإذا سافر وكل من يفعل به ذلك " (٢)
.
ويقدم إلينا ابن الخطيب تلك الصورة عن الخليفة هشام: " ولما كان هشام
مندرجاً
في طى كافله الحاجب المنصور، بحيث لا ينسب إليه تدبير، ولا يرجع إليه
من
الأمور قليل ولا كثير، إذ كان في نفسه وأصل تركيبه مضعفاً مهيناً مشغولا
بالنزهات، ولعب الصبيان والبنات، وفي الكبر بمجالسة النساء ومحادثة
الإماء، يحرص بزعمه على اكتساب البرْكات والآلات المنسوبات " (٣) .
وفى الفرص
النادرة، التي كان يسمح فيها للأمير بالخروج، كان ابن أبي عامر يتخذ أشد

---

(١) Dozy: Hist.
Vol.
II.
p.
٢٢٧
(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦.
(٣) أعمال الأعلام ص ٥٨.

التحوطات، فيحيط موكب الأمير حين يخترق شوارع قرطبة، بصفوف كثيفة من الجند، تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه.

وكان حجب هشام

على هذا النحو، عماد ذلك الانقلاب العظيم الذى اعتزم ابن أبي عامر، أن يحدثه في نظم الدولة، لتمكين سلطانه وجمع سلطات الخلافة كلها في يده.

وكان لابد لتحقيق هذه الغاية الكبرى، أن يسحق ابن أبي عامر كل سلطة أخرى تعترض سبيله.

وكان الصقالبة وعددهم نحو ألف، لا يزالون قوة يحسب

حسابها، وكذا كان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى، ما يزال بحكم منصبه

وتأييد عصبته، مسيطراً على السلطة العليا.

وكانت الوحشة ما تزال قائمة بين

الحاجب وبين الصقالبة، مذ تسبب في فشل مشروعهم لتولية المغيرة بن عبد الرحمن، وحصد شوكتهم بتولية هشام.

وكان الحاجب يخشى غدرهم

ودسائسهم.

وبلغه أن فريقاً من زعمائهم، وعلى رأسهم الفتيان جؤذر وفائق، يدبرون مؤامرة لقلب نظام الحكم، فاتخذ بعض التحوطات، ووضع الفتيان

تحت الرقابة، وأغلق باب الحديد، الذى كان مخصصاً بدخولهم ودخول أصحابهم

إلى القصر، وقصر دخولهم مع بقية الناس على باب السُّدة، وفصل الغلمان من

أصحاب جؤذر وفائق، وتفاهم مع ابن أبي عامر على إلحاقهم بحاشيته، وكانوا

زهاء خمسمائة، فقبل ابن أبي عامر خدمتهم وفخم بهم شأنه، ثم انحاز إليه بنو

برزال، وكانوا قبلا من أصحاب الحاجب جعفر، فقوى بهم أمره، ولم يمض
سوى قليل حتى استقال زعيم الصقالبة الفتى جؤذر، وشعر الصقالبة بأن
نجمهم
قد أفل، وسلطانهم قد انهار، فسرى بينهم التذمر، واجتمع المتمردون حول
فتى من زعمائهم يدعى درّى.
فتفاهم الحاجب وابن أبي عامر على إزالته، فدعى
إلى بيت الوزارة لسؤاله عن أمور نسبت إليه وإلى عماله من رعيته في بياسة؛
ولما قدم درى ورأى كثرة الجند، شعر بالشر، وأراد العودة فمنعه ابن أبي
عامر، فهجم عليه وأراد أن يبطش به، فصاح ابن أبي عامر بالجند، فهرع
إليه بنو
برزال وانهالوا عليه ضرباً، ثم حمل إلى داره وقتل في نفس المساء.
ورأى ابن
أبى عامر الفرصة سانحة لسحق الصقالبة، فأمر كبيرهم فائقاً وباقى زعمائهم
بالتزام
دورهم، وفرق بذلك شملهم.
ثم جد في مطاردتهم واستصفاء أموالهم، وفشى
فيهم القتل والنفى، حتى هلك الكثير منهم، وأبعد الفتى فائق في النهاية إلى

(٥٢٦/١)

ميورقة فمات هناك، وانهار بذلك سلطان الصقالبة، وأمن الحاجب وزميله ابن
أبى عامر شرهم، وتقلد الحاجب جعفر أمر القصر والحُرم بدلا منهم.
ويبدى ابن حيان ارتياحه لسحق الصقالبة واستئصال شأفتهم على هذا النحو.
وقد كان الصقالبة في البداية زينة للدولة والبلاط، وكان ظهورهم بجموعهم
المتألقة
وأزيائهم الفخمة، يسبغ على القصر، وعلى مواكب الخلافة، طابعاً من الأبهة
والعظمة.

ولكنهم منذ استأثروا بثقة الخليفة، وبسطوا سلطانهم على القصر والدولة، اشتد طغيانهم، وثقلت وطأتهم على أهل الدولة، وعلى الشعب قاطبة (١) .

وسنحت بعد ذلك بقليل فرصة أخرى، لكى يوطد ابن أبي عامر قدمه في السلطة، ويبسط نفوذه على الجيش عصب كل سلطان حقيقى.

وذلك أن القشتاليين، كانوا قد انتهزوا فرصة مرض الحكم، وانشغال المسلمين عقب وفاته، فدفعوا غاراتهم جنوباً، ووصلوا إلى مقربة من العاصمة ذاتها، ولم يبد الحاجب في ذلك، ما كان واجباً من الهمة والنجدة، فاهتم ابن أبي عامر، وأشار إلى الحاجب جعفر بتجهيز الجيش واستئناف الجهاد؛ ولكن الحاجب لم يجد من القادة من يعهد إليه بتلك المهمة، فتقدم ابن أبي عامر للاضطلاع بها، وجهز المال والجند، وأشرف بنفسه على اختيار الجند.

وخرج من قرطبة في رجب سنة ٣٦٦ هـ (فبراير ٩٧٧ م) ، وسار شمالا إلى أراضي قشتالة، ثم عطف غرباً حتى أحواز شلمنقة، وحاصر حصن الحامة، ومكانه اليوم محلة تسمى بالإسبانية " لوس بانيوس " Los Banos (الحمامات) ، وتقع في جنوب بلدة (بخار) في السفح الغربى لجبال جريدوس، ثم استولى على الحصن وربضه، وقفل راجعاً إلى قرطبة، مثقلا بالأسرى والغنائم، وذلك لثلاثة وخمسين يوماً من خروجه إلى الغزو (٢) .

وكان لهذا الظفر الحربى الأول، الذى حقق على يد ابن أبي عامر، أكبر الأثر في نفوس الجند، ونفوس الشعوب قاطبة، فقد رأى الجند فيه قائدهم المظفر، وقد استولى على قلوبهم ببذله ووفرة عطائه، ورأى فيه الشعب حامى المملكة والمدافع عنها، وكان لهذه البداية نتائج بعيدة المدى.

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى تأهب ابن أبي عامر للسير إلى غزوته

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٠ و ٢٨١.
والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٤.
(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٥.
والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٨٢.
وكذلك
Dozy: Hist.
Vol.
II.
p.
٢٠٨.

*(٥٢٧/١)*

الثانية، وكانت قد وقعت ثمة ظروف جديدة زادت في توطيد مركزه، وفى إضعاف مركز الحاجب جعفر.
وكان بين الحاجب، وبين القائد غالب بن
عبد الرحمن صاحب مدينة سالم، وأعظم فرسان الأندلس، عداء مستحكم، زاده
ما تقوّل به الحاجب على غالب، من تقصيره في الدفاع عن الحدود الشمالية، وعجزه عن رد النصارى، فانتهز ابن أبي عامر هذه الفرصة ليضم غالباً إلى جانبه، وسعى إلى خدمته والدفاع عنه لدى صبح، ولدى الخليفة، حتى خرج المرسوم برفعه إلى خطة "ذى الوزارتين "، وبأن يندب لقيادة جيش الثغر، وأن يندب ابن أبي عامر لقيادة جيش الحضرة.
وخرج ابن أبي عامر على أثر ذلك

بالجيش إلى غزوته الثانية، وذلك في يوم عيد الفطر سنة ٣٦٦ هـ (مايو ٩٧٧ م) ، فالتقى بغالب وجيشه في محلة مجريط (١) على طريق وادي الحجارة، واخترق
الجيشان معاً أراضي قشتالة القديمة، واستولى المسلمون على حصن مولة، وأصابوا
كثيراً من الغنائم والسبى.
وكان لجيش غالب التفوق في الأعمال الحربية في تلك
المنطقة، ولكن غالباً تنحى عن ذلك لابن أبي عامر، وارتد بجيشه إلى الثغر، بعد أن توثق بينهما التحالف، والتفاهم على سحق الحاجب جعفر عدوهما المشترك؛
وقفل ابن أبي عامر إلى قرطبة بالغنائم والسبى، وقد نسب إليه فخر الظفر على
الأعداء، فزاد صيته، وارتفعت هيبته، وتمكنت منزلته لدى الخليفة، وازداد الشعب حوله التفافاً وله حباً (٢) .
وهنا بدت طلائع المعركة الحاسمة بين ابن أبي عامر وجعفر المصحفى.
فما كاد ابن أبي عامر يصل إلى قرطبة، حتى خرج أمر الخليفة بعزل محمد بن جعفر
ولد الحاجب عن حكمها، وتقليده لابن أبي عامر، وبذلك تم لابن أبي عامر السيطرة على المدينة والجيش معاً.
وكانت قرطبة تعانى قبل توليه حكمها من
اضطراب الأمور، واختلال الأمن، وذيوع الفساد والفسق، فضبط أمرها وقمع أهل الشر والدعارة، فساد بها الهدوء والأمن.
ثم استخلف ابن أبي عامر
على المدينة ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبي عامر.
فسار في طريقته، فى

---

(١) هى محلة وقلعة حصينة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن فوق سفح جبال وادي الرملة
على مقربة من طليطلة لصد غارات النصارى.
ولبثت تؤدى مهمتها الدفاعية، حتى سقطت في أيدى
النصارى في سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) .
وعلى موقعها القديم أنشئت مدينة مدريد الحديثة.
(٢) الذخيرة - القسم الرابع ج ١ ص ٤٦ و٤٧، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٣.

(٥٢٨/١)

انتهاج الحزم والشدة في ضبط الأمور، ومطاردة أهل البغى والعدوان.
كل ذلك
والحاجب جعفر، يشهد سلطانه يغيض شيئاً فشيئاً، وسلطان ابن أبي عامر فى
صعود وتمكن مستمر، ويشهد انصراف الخليفة والشعب عنه، ويشعر في قرارة
نفسه بدنو الخاتمة المحتومة.
وخطر للحاجب جعفر أن يقف هذا التحول الخطر، باستمالة القائد غالب
ومصالحته، فطلب يد ابنته أسماء زوجاً لابنه محمد، فاستجاب غالب إلى
طلبه، وكادت تتم المصاهرة، ولكن سرعان ما علم ابن أبي عامر بذلك
المشروع، فثارت نفسه، وكتب إلى غالب يناشده الولاء، ويخطب ابنته لنفسه، وعضده
في ذلك أهل القصر، فنزل غالب على تلك الرغبة، وعدل إلى مصاهرة ابن
أبى عامر، وتم العقد في أوائل المحرم سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) .
ولم يمض قليل
على ذلك حتى خرج ابن أبي عامر إلى غزوته الثالثة، فسار إلى طليطلة في

أوائل
صفر، حيث التقى مع صهره غالب.
وسار الإثنان في قواتهما شمالا، وافتتحا
في طريقهما بعض الحصون، ثم قصدا إلى مدينة شلمنقة الواقعة جنوب
غربى
مملكة ليون فاقتحماها، وعاثا في أرباضها، واستوليا على كثير من الغنائم
والسبى؛
وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة لأربعة وثلاثين يوماً فقط من خروجه، ومعه
عدد
عظيم من رؤوس النصارى.
فاغتبط الخليفة بصنعه، ورفعه إلى خطة الوزارتين
أسوة بصهره غالب، ورفع راتبه إلى ثمانين ديناراً في الشهر، وهو راتب
الحجابة في ذلك العصر.
وما كاد ابن أبي عامر يستقر في قرطبة، حتى اتخذت الأهبة لإتمام زفافه.
فأحضرت أسماء إلى العاصمة في موكب فخم، وكانت من أجمل نساء
عصرها
وأوفرهن ثقافة وسحراً، وكانت قد تزوجت لأول مرة بالوزير ابن حُدير أيام
الحكم، ثم طلقت منه.
وزفت أسماء إلى ابن أبي عامر، في حفلات كانت مضرب
الأمثال في البذخ والبهاء، ونظم الاحتفال في قصر الخليفة، وبإشراف أمه
صبح، وأغدقت صبح على العروس أروع الهدايا والتحف.
وكان زواجاً سعيداً موفقاً
لبث مدى الحياة (١) ، وإن كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على
صهره
حسبما نفصل بعد.

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٦ و٤٧، والبيان المغرب ج ٢
ص ٢٨٤
و٢٨٥، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٧.
وراجع أيضاً.
.Dozy: Hist
.Vol
.II
.p
٢١٤ & ٢١٥

(٥٢٩/١)

واستقدم الخليفة غالباً من الثغر، وقلده خطة الحجابة إلى جانب جعفر،
فكانت ضربة جديدة للحاجب.
ولكن جعفراً لم يسعه إلا الإذعان والسكوت، وقد
أضحى يشعر شعوراً قوياً بالخطر المحدق به، وبأنه لم يبق له من الحجابة
سوى
الاسم، ولم ينخدع بما كان يبديه نحوه ابن أبي عامر من التلطف والمصانعة،
رهو يقبض دونه على كل شيء في القصر والدولة.
وأخيراً وقعت النكبة المرتقبة، ففى الثالث عشر من شعبان سنة ٣٦٧ هـ،
أصدر الخليفة أمره بإقالة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى، والقبض عليه
وعلى
ولده وآله، والتحفظ علي أموالهم.
وبادر ابن أبي عامر إلى محاسبتهم واستصفاء
أموالهم، وشدد في مطاردتهم، حتى مزقهم كل ممزق، وعوجل هشام ابن أخى
الحاجب فقتل في مطبقه، وكان من أشد الناس عداوة لابن أبي عامر، وزج
جعفر إلى ظلام السجن، يعتقل فيه حيناً، ثم يعتقل حيناً في داره، واضطر

إزاء
التشدد في مطالبته أن يبيع داره الفخمة بالرُّصافة، وكانت من أعظم دور قرطبة، وأمعن ابن أبي عامر في نكايته، واستجوابه بمحضر من زملائه القدماء، واستطالت محنة المُصْحفى أعواماً، عانى خلالها أروع آلام المهانة والذلة، وهو
يستعطف ابن أبي عامر فلا يرحمه، واستمر سجيناً في مطبق الزهراء حتى توفى
سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) .
وقيل إنه قتل خنقاً في مطبقه، وقيل إنه دست إليه شربة مسمومة كانت سبب وفاته.
وكان المصحفى حسبما تقدم شاعراً جزلا، وقد أذكت المحنة شاعريته، وصدر عنه في مطبقه كثير من القصائد المؤثرة.
ومن ذلك قوله:
صرت على الأيام لما تولت..
.
وألزمت نفسى صبرها فاستمرت
فيا عجباً للقلب كيف اصطباره..
.
وللنفس بعد العز كيف استذلت
وما النفس إلاحيث يجعلها الفتى..
.
فإن طمعت تاقت وإلا تسلت
وكانت على الأيام نفسى عزيزة..
.
فلما رأت صبرى على الذل ذلت
وقلت لها يا نفس موتى كريمة..

.

فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ويعلق ابن حيان على محنة المصحفى بقوله: " وكانت لله عند جعفر، فى إيثاره هشاماً بخلافته، واتباع شهوة نفسه وحظ دنياه، وتسرعه إلى قتل المغيرة لأول وهلة، دون قصاص جريرة استدركته دون إملاء، فسلط

(٥٣٠/١)

عليه من كان قدر أن يتسلط على الناس باسمه " (١) .

وهكذا سار ابن أبي عامر إلى غايته بسرعة مدهشة، ولجأ في تحقيقها إلى أذكى الوسائل وأشدها، واستطاع بعزمه وصرامته وبارع خططه، أن يسحق كل عقبة، وأن يروع كل منافس ومناوىء.

ويجمل ابن خلدون معركة ابن أبى عامر مع خصومه في تلك العبارة القوية: " ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه، فمال عليهم، وحطهم عن مراتبهم، وقتل بعضهم ببعض، كل ذلك عن أمر هشام وتوقيعه، حتى استأصل شأفتهم، ومزق جموعهم" (٢) .

ولم يكن مهلك المصحفى، بعد سحق الصقالبة، سوى حلقة جديدة في سلسلة المطاردة الشاملة التي نظمها ابن أبي عامر لاستئصال شأفة خصومه ومنافسيه. ذلك أنه جد في نفس الوقت، في مطاردة كل من يخشى بأسه من بني أمية أو غيرهم من زعماء القبائل، حتى سحق كل من يصلح منهم للولاية والرياسة، ومزقهم في البلاد شر ممزق، كل ذلك تحت شعار حمايته للمؤيد وللعرش، وفي ذلك يقول شاعر من شعراء العصر:

أبنى أمية أين أقمار الدجى..

.

منكم وأين نجومها والكوكب

غابت أسود منكم عن غابها..

.

فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

ولما خلا الجو لابن أبي عامر من أولياء الخلافة، والمرشحين للرياسة، اهتم بتنظيم الجيش.

فأنشأ صفوفاً جديدة من المرتزقة من زناتة وصنهاجة وغيرهما من

قبائل البربر، ومن الجند النصارى من ليون وقشتالة ونافار، وبذل لهم الأجور السخية، واجتذب قلوبهم بعدله ورفقه وجوده.

وغير أنظمة الجيش القديمة، فقدم رجال البربر، وأخر زعماء العرب،

وأقصاهم عن مناصبهم، وفرق جند

القبيلة الواحدة في صفوف مختلفة، وكانوا من قبل ينتظمون في صف واحد.

وكان العرب يتمسكون منذ أيام الفتح بوحدة القبيلة، لأن العصبية كانت في قبائلهم

حتى أيام الناصر، ما تزال فتية قوية، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل العربية، وإضعاف هيبتها، وجاء ابن أبي عامر فألفى الميدان ممهداً لخططه، فلم

تلق سياسته الجديدة كبير معارضة (٣) .

---

(١) راجع في محنة المصحفى، الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٨ و ٤٩، والبيان

المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ – ٢٨٨، والحلة السيراء ص ١٤٢.

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧.

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨، ونفح الطيب ج

ص ١٣٧.

وراجع: Dozy: Hist.

Vol.

II.

p.

٢٣٢ & ٢٣٣

(٥٣١/١)

الكِتابُ الثالِث

الدّولة العامِريّة

٣٦٨ - ٣٩٩ هـ: ٩٧٨ - ١٠٠٩ م

(٥٣٣/١)

الفصل الأوّل

الحاجب المنصور

ابن أبي عامر يطمح إلى حلل الملك.

إنشاؤه لمدينة الزهراء وانتقاله إليها.

يؤلف حرسه من

الصقالبة والبربر.

تشدده في الحجر على هشام.

موقف صبح من ذلك.

ذيوع علاقتها مع ابن أبى

عامر.

تحولها إلى خصومته والتشهير به.

تفاهمها مع القائد غالب.

التفاف المعارضين حوله.

جعفر بن حمدون الأندلسي يتولى الوزارة.
تقاطر البربر من العدوة.
الوحشة بين ابن أبي عامر
وغالب.
نهوض غالب لمحاربته.
استعانته بملك ليون.
القتال بين غالب وابن أبي عامر.
مصرع غالب وهزيمة قواته.
الموقعة حسبما يصفها ابن حزم.
غزوات ابن أبي عامر.
غايته من
القيام بها.
مسيره إلى ليون ومحاصرته لسمورة.
هزيمته للنصارى في شنت منكش.
توغله في ليون
ثم عوده إلى قرطبة.
اتخاذه لسمة الملك وتسميه بالحاجب المنصور.
غدره بجعفر الأندلسي.
الحرب
الأهلية في ليون.
اعتراف برمودو بطاعة المنصور.
مسير المنصور إلى الغزو.
يخترق شرقى الأندلس
ويغزو قطلونية.
اقتحامه لبرشلونة وتدميرها.
حوادث المغرب.

مسير الحسن بن كنون إلى غزو
المغرب.
المنصور يرسل جيشاً لقتاله.
مطاردة الحسن وإرغامه على طلب الأمان.
مسيره إلى قرطبة
واغتياله.
ندب الوزير السلمى لحكم المغرب.
إجتماع قبائل البربر حوله.
مسير زيرى زعيم
مغراوة إلى قرطبة.
القتال بين السلمى وبنى يفرن.
مقتله وولاية زيرى حكم المغرب.
مسير زيرى
ثانية إلى قرطبة.
عوده وخيبة أمله.
غزو بني يفرن لفاس واحتلالها.
القتال بين مغراوة وبنى يفرن.
اشتداد ساعد زيرى.
إنشاؤه لمدينة وجدة.
غزو المنصور لليون واستيلاؤه على قلمرية.
غزوه لنافار.
ما تزعمه الرواية النصرانية.
عود المنصور إلى غزو ليون.
اقتحامه لمدينة ليون وتدميرها.
استيلاؤه
على سمورة.

حوادث الثغر الأعلى.
عبد الله ولد المنصور.
تآمره مع عبد الرحمن التجيبى والى سرقسطة
وآخرين.
وقوف المنصور على المؤامرة في خروجه إلى الغزو.
اعتقاله لعبد الرحمن التجيبى.
فرار
عبد الله والتجاؤه إلى غرسية أمير قشتالة.
غزو المنصور لقشتالة وهزيمة أميرها.
غرسية يرسل عبد الله استجابة
لطلب المنصور.
إعدامه.
تأملات عن هذا الحادث.
سانشو ابن غرسية يخرج عليه بتحريض المنصور.
المنصور يغزو قشتالة ويستولى على شنت إشتيين وكلونية.
قصة الأيل الذى أهداه صاعد إلى المنصور.
مسير المنصور إلى غزو ليون.
إذعان برمودو وتعهده بأداء الجزية.
المنصور يرشح ولده عبد الملك
للولاية من بعده ويوليه الحجابة.
اقتصاره على التسمى " بالمنصور ".
اختصاصه بألقاب السيادة.
إحجامه عن المساس بالخلافة.
عوامل هذا الإحجام.
موقف صبح أم المؤيد.
اتصالها بزيرى حاكم

المغرب.
تحوطات المنصور.
تفاهمه مع هشام وموكبهما المشترك.
يأس صبح ووفاتها.
الوحشة بين
المنصور وزيرى.
مسير عبد الملك إلى العدوة لمحاربة زيرى.
هزيمة البربر وسقوط فاس.
عبد الملك
يتولى حكم المغرب.
الصلح بين زيرى والمنصور.
المنصور يغزو جليقية.
اختراقه لأراضي البرتغال.
استيلاؤه علي بازو وقلمرية.
توغله في جليقية ومسيره إلى شنت ياقب.
يهدم أسوارها وكنيستها
العظمى.
مسيره شمالا حتى ثغر لاكرونيه.
عوده من طريق لاميجو إلى قرطبة.
ملك ليون يطلب

(٥٣٤/١)

الصلح.
غزوة أخرى لقشتالة.
موقعة صخرة جربيرة.
اقتحام المنصور لمدينة برغش.

غزوه لنافار.
آخر غزوات المنصور.
ما تقوله الرواية الإسلامية.
موقعة قلعة النسور.
ما تقوله عنها الرواية
النصرانية.
آراء البحث الحديث في شأنها.
مرض المنصور ووفاته.
قبره بمدينة سالم.

أضحى ابن أبي عامر، بعد أن قضى على كل خصومه ومنافسيه، وحده، سيد الميدان، وأضحى بعد أن وضع يده على الجيش، صاحب السلطة العليا دون منازع ولا مدافع.

ولم يكن الخليفة هشام المؤيد، بعد ذلك، سوى أداة لينة في يد المتغلب القوى، يوجهها كيف يشاء.

على أن ابن أبي عامر لم يقنع بما حققه لنفسه من الاستئثار بالسلطة الفعلية.

وعلى الرغم من أنه لم يفكر يومئذ في الافتئات على شيء من رسوم الخلافة الشرعية، فإنه اتجه إلى أن يتشح بحلل الملك في صورة من صوره، فتكون له ثوباً خلاباً، يتوج سلطانه الفعلى، بمظاهر العظمة والأبهة الملوكية.

ولم يكن اتجاه ابن أبي عامر يقف عند تحقيق المظهر دون غيره، ولكن كانت لديه أسباب عملية قوية، تدعو إلى التحوط من أخطار التآمر والغيلة، وقد أصبح يخشى على نفسه من الوجود في قصر الزهراء، ومما قد يضمره بعض الحاقدين المتربصين (١) ، ورأى أن يتخذ له مركزاً مستقلا للإدارة والحكم، يجمع بين السلامة ومظاهر السلطان والعظمة.

فوضع أسس مدينة ملوكية جديدة أسماها

الزاهرة (٣٦٨ هـ - ٩٧٨ م) .

وقد اختلف في الموقع الذى كانت تحتله الزاهرة

لأن البحوث الأثرية الحديثة لم تكشف شيئاً من معالمها، مثلما فعلت بالنسبة لمدينة

الزهراء.

ويقول البعض إنها كانت تحتل بسيطاً يقع جنوب شرقى قرطبة في منحنى نهر الوادي الكبير، وعلى قيد أميال قليلة منها.

ويقول البعض الآخر إنها كانت

تحتل بقعة على مقربة من شرقى قرطبة على الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير (٢) .

وأنشأ المنصور بالزاهرة قصراً ملوكياً فخماً، ومسجداً، ودواوين للإدارة والحكم، ومساكن للبطانة والحرس، وأقام حولها سوراً ضخماً، ونقل إليها خزائن المال والسلاح، وإدارات الحكم؛ وتم بناء المدينة الجديدة في نحو عامين، وأقطع ما حولها للوزراء والقادة، وأكابر رجال الدولة، فابتنوا الدور العظيمة، وأنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة، واتصلت أرباضها بأرباض قرطبة،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٤، وأعمال الأعلام ٦٢.

(٢) وهذا يستفاد من أقوال ابن حزم في " طوق الحمامة " ص ١١٠.



وأضحت تنافس المدينة الخليفية في الضخامة والرونق.

وفي أوائل سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) ، انتقل محمد بن أبي عامر إلى مدينة الزاهرة، واتخذ له حرساً خاصماً من الصقالبة والبربر، وأحاط قصره الجديد بالحراس

والحاشية، يرقبون كل حركة وسكنة في الداخل والخارج، وأقفرت بذلك
مدينة الزهراء الخليفية، وهجر الوزراء والكبراء قصر الخلافة، وساد الصمت
حول مركز الخلافة الشرعى، وأنشأ ابن أبي عامر في نفس الوقت حول
القصر
الخليفى سوراً وخندقاً، وأحكم غلق أبوابه، ووكل بها من يمنع دخول أى
شخص أو نبأ إلى الخليفة دون علمه وإذنه.
وبث عيونه على هشام.
وحاشيته، وأشاع أنه قد فوض إليه النظر في سائر شؤون المملكة، لكى يتفرغ
لشئون العبادة.
وهكذا أهمل شأن الخليفة الفتى، وقطعت سائر علائقه مع الخارج، ولبث
محجوباً في أعماق قصره، يغمره الخمول والنسيان (١) .
ماذا كان موقف صبح إزاء هذا الانقلاب الحاسم في مركز ولدها ومركز
الخلافة؟ لاريب أنها كانت بموقفها وتصرفها، أكبر معين لابن أبي عامر
على
إحداثه، وكان حبها المضطرم لذلك الرجل الذى ملك عليها كل مشاعرها
وعقلها، يدفعها دائماً إلى مؤازرته والإذعان لرأيه، وكان إعجابها الشديد
بمقدرته وتوفيقه
يضاعف ثقتها به، ويعميها دائماً عن إدراك الغاية الخطيرة التي يسعى إلى
تحقيقها، هذا إذا لم نفترض أن تلك البشكنسية المضطرمة الجوانح، كانت
تذهب في حبها
إلى حد الائتمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه.
والظاهر أن علائقها بابن
أبى عامر قد انتهت بالخروج عن كل تحفظ، وغدت فضيحة قصر ذائعة،
شهر
بها مجتمع قرطبة، وتناولها بلاذع التعليق والهجو، وظهرت بهذه المناسبة
قصائد

وأناشيد شعبية كثيرة، في التشهير بحجر ابن أبي عامر على هشام وعلائقه بصبح، فمن ذلك ما قيل على لسان هشام في الشكوى من الحجر عليه:

ْأليس من العجائب أن مثلى..

.

يرى ما قل ممتنعاً عليه

وتملك باسمه الدنيا جميعاً..

.

وما من ذاك شيء في يديه (٢)

ومن ذلك ما قيل في هشام وأمه صبح، وقاضيه ابن السليم:

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٥ و٢٩٦ و٢٩٧ و٢٩٨، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨

والحلة السيراء ص ١٤٩، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢.

(٢) هذان البيتان ينسبان أيضاً إلى المقتدر العباسى.

*(٥٣٦/١)*

اقترب الوعد وحان الهلاك..

.

وكل ما تحذره قد أتاك

خليفة يلعب في مكتب..

.

أمه حبلى وقاض..

.

(١)

وهذه الأناشيد اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر، وتدل على ما كان يثيره موقف صبح وسمعتها، من الحملات المرة.

وتتفق الرواية الإسلامية فى
الإشارة إلى هذه العلاقة الغرامية التي استطال أمدها، بين صبح وابن أبي عامر، وإن كانت تؤثر التحفظ والاحتشام، ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة
أوردها
المقرى لكاتب مغربى يدافع فيها عن ابن أبي عامر، ويدفع عن صبح تهمة شغفها به، ويرمى أولئك الشعراء بالتحامل والكذب (٢) .
على أنه يبدو أن الحوادث قد بدأت تتطور من ذلك الحين، وأن موقف صبح قد بدأ يتخذ وجهة أخرى.
فقد أدركت صبح أخيراً ما يرمى إليه ابن أبي عامر، وأدركت خطورته على مستقبل ولدها، ومستقبل الأسرة والخلافة، فثارت
نفسها سخطاً.
وكانت صبح قد جاوزت الأربعين يومئذ، وقد تصرم ذلك الحب
القديم، الذى شغفها بابن أبي عامر دهراً، وأضحت تبغض ذلك الرجل الذى سلب ولدها، وسلبها كل نفوذ وسلطة، ومن ذلك الحين تنقلب صبح إلى
خصومة
ابن أبي عامر ومقاومته.
وقد كان من الصعب، إزاء عزم ابن ابى عامر ويقظته، وسلطانه الشامل، ان تستطيع صبح القيام بأية عمل مباشر، فلجأت عندئذ إلى
العمل المستتر، وأخذت تبث في نفس ولدها هشام، بغض ابن أبي عامر
والسعى
إلى مناوأته واسترداد سلطانه منه، وتولى مقاليد الحكم بنفسه، وشهرت
بواسطة
أعوانها من الناقمين، على ابن أبي عامر، دعاية شديدة، واتهمته بأنه يسجن الخليفة الشرعى ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته.
والظاهر أن صبحاً لم تقف
عند هذا الحد من المقاومة الأدبية، وأنها حاولت في نفس الوقت، أن تقوم

بمحاولة عملية لمقاومة أبن أبي عامر وإسقاطه.
وربما كان لتدبير صبح وتحريضها، أثر فيما وقع يومئذ بين ابن أبي عامر
وصهره القائد غالب، صاحب مدينة سالم.
وكان غالب بالرغم من تقلده خطة
الوزارة، يقيم بالثغر، بعيداً عن قرطبة.
وكان يتمتع في قرطبة وسائر مدن الأندلس

---

(١) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٢ ص ٣٠٠، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٨١.
(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٢.



بسمعة عالية في ميدان الفروسية والقيادة، وهو ما كان ينقمه ابن أبي عامر على
صهره.
وكات المعارضون يرون فيه الرجل الوحيد، الذى يستطيع أن يقارع ابن أبى عامر ويقاومه.
فرأى ابن أبي عامر أن يرفع إلى مرتبة الوزارة جعفر بن على
ابن حمدون المعروف بالأندلسي، وكان من مشاهير الفرسان والقادة البربر من
زناته، وكان مقيماً بالعدوة، فعبر البحر إلى الأندلس، واستقر في الوزارة،
يكنفه ابن أبي عامر بحبه وثقته، ويستعين به على تأليف البربر وكسب
محبتهم، ولاسيما بعد أن غدوا يؤلفون معظم حرسه وحاشيته.
وتقاطر البربر من العدوة، وابن أبي عامر يستقبلهم بأوفر ضروب البذل
والإحسان، ويقوى بهم صفوفه
وبطانته.

وكان غالب يستشعر الوحشة والريبة من تصرفات صهره، ويتوقع منها
سوء العاقبة.
ولم يمض قليل حتى ساء التفاهم بين غالب وصهره، فعمد غالب
إلى مصانعة ابن أبي عامر، ودعاه أثناء غزوه بالصائفة في أراضي قشتالة،
إلى
وليمة أقامها بمدينة أنتيسة (١) ، إحدى مدن الثغر التي تحت ولايته، وجاء
ابن
أبى عامر إلى القلعة حيث أقيمت الوليمة، في بعض أصحابه، فانفرد به
غالب وشرع
في عتابه.
ثم اشتد بينهما النقاش، فشهر غالب سيفه على صهره فجأة، فأصابه فى
بعض أنامله وصدغه، واستطاع ابن أبي عامر أن يفر ناجياً بنفسه، من
مأزق بالغ
الخطورة.
وامتنع غالب بالقلعة، بينما سار ابن أبي عامر لفوره إلى مدينة سالم، حيث
دار غالب وأهله، فاستولى عليها وعلى سائر أمواله ومتاعه، وفرقها فى
الجيش، وعاد إلى الحضرة، وهو يضمر لغالب أسوأ النيات.
وكان غالب أعظم قادة الأندلس وأبرعهم في ذلك العصر، وكانت لديه
في الثغر قوات يعتد بها، فنهض لقتال قوات ابن أبي عامر، وغلب عليها،
فى
البداية غير مرة.
ثم رأى أن يستعين براميرو الثالث ملك ليون، فأمده ببعض
قواته.
وسار ابن أبي عامر لمقارعة خصمه في معركة حاسمة.
ووقع اللقاء بين
الفريقين أمام حصن شنت بجنت San Vicente على مقربة من أنتيسة،

ونشبت
بينهما معركة شديدة، أبلى فيها غالب وقواته بلاء حسناً وكاد يحرز النصر
في البداية، ولكنه ما لبث أن سقط ميتاً عن جواده خلال المعمعة، ولم يعرف
سبب مصرعه
لأنه لم يقتل بيد أحد، وحملت رأسه في الحال إلى ابن أبي عامر، فدب الوهن

---

(١) وهى بالإسبانية Atienza.
وهى تقع شمال وادي الحجارة، على مقربة من غربى
مدينة سالم.

(٥٣٨/١)

والذعر إلى قواته، وطاردتها قوات الأندلس، وأمعنت فيها قتلا وأسراً، وهلك
من الجند النصارى الذين كانوا يقاتلون إلى جانب غالب عدد جم.
وكان بين
القتلى أمير نصرانى هو راميرو ابن سانشو أباركا من أمراء البشكنس (١) .
وقتل كذلك
في المعركة عدة من الكبراء والقادة المسلمين، الذين كانوا مثل غالب
يعارضون
سياسة ابن أبي عامر.
وكان ذلك في الرابع من محرم سنة ٣٧١ هـ (أغسطس
سنة ٩٨١ م) (٢) .
وقد روى الفيلسوف ابن حزم عن أبيه الوزير ابن حزم، وزير ابن أبي عامر،
وكان ممن صحبه في تلك الموقعة، تفاصيل الموقعة حسبما شهدها.
وهو يصف لنا
هيئة القائد غالب خلال الموقعة في قوله: " وهو شيخ كبير قد قارب الثمانين
عاماً

وهو على فرسه، وفي رأسه طرطور عال، وقد عصب حاجبيه بعصابة " قال: وكان قد جمع جموعاً عظيمة من المسلمين والنصارى، فبدأ بالهجوم على الميمنة، وفيها جعفر بن على وأخوه يحيى والبربر، وحمل عليهم حملة، أزاحتهم عن
مواقعهم، ومزقت صفوفهم، ثم حمل على الميسرة، وكان فيها الوزير ابن حزم مع غيره من الرؤساء، ففعل بها كما فعل بالأولى.
ثم أخذ يتأهب لمهاجمة القلب، وهو تحت قيادة ابن أبي عامر نفسه، وهو يقول: " اللهم إن كنت أصلح
للمسلمين من ابن أبي عامر فانصرنى، وإن كان هو الأصلح لهم فانصره ". ثم
يصف لنا ابن حزم مصرع غالب على النحو الآتى، قال: " فهز فرسه، وترك جبهة القتال وأخذ ناحية إلى خندق كان في جانب عسكره، فظن أصحابه أنه يريد
الخلاء، فلما أبطأ عليهم ركبت طائفة منهم نحوه، فوجدوه قد سقط إلى الأرض
ميتاً، وقد فارق الدنيا بلا ضربة ولا رمية ولا أثر، وفرسه واقف بجانبه يعلك لحامه، ولا يعلم أحد سبب موته.
فلما أدرك أصحابه سقط في أيديهم، وطلبوا
حظ أنفسهم، فبادر مبادر منهم بالبشر إلى ابن أبي عامر، فلم يصدق حتى وافى مواف بخاتمه، ووافاه آخر بيده، ووافاه آخر برأسه ".
هذا وقد بلغت القسوة بابن أبي عامر، أن أمر بالتمثيل بجثمان خصمه الصريع

---

(١) وهو الذى تسميه الرواية العربية برذمير بن شانجه ويعرف " براى قرجة ".

(٢؟ البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ و ٢٩٩، وأعمال الأعلام ص ٦٢ و ٦٣.

وكذلك
.Dozy: Hist
.Vol
.II
.p
٢٣٤ & ٢٣٣

(٥٣٩/١)

الباسل، فحشى جلده بالقطن، وصلب على باب القصر بقرطبة، وصلب رأسه على باب الزاهرة، ولبث كذلك دهراً، حتى أدركه الفيلسوف ابن حزم نفسه، وهو فتى، وذلك عند إنزاله يوم هدم الزاهرة في سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) (١)
.

***

وهنا تبدأ سلسلة هذه الغزوات الشهيرة العديدة، التي شهرها ابن أبي عامر على الممالك الإسبانية النصرانية، واستمر يضطلع بها باستمرار ودون هوادة، والتي
خرج منها جميعاً متوجاً بغار الظفر، ولم يهزم في أية واحدة منها.
وتتحدث معظم الروايات الإسلامية عن حروب ابن أبي عامر وغزواته بإفاضة، وتعددها بأكثر من خمسين غزوة.
ولكنها لا تقدم إلينا عنها تفاصيل
واضحة، ولاسيما عن الزمان والمكان (٢) ، ويجمل ابن خلدون ذكرها في قوله:
" وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب، فغزا اثنين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه، لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش، ولا أصيب له بعث ولا هلكت سرية " (٣) .
وتجمل الرواية الإسلامية بواعث هذه الغزوات المستمرة في نزعة الجهاد.

ولكن الحقيقة هى أن ابن أبي عامر، كان باضطلاعه بتلك الغزوات المتعاقبة
يرمى إلى غاية سياسية بعيدة المدى، لم يفكر فيها أحد قبله من أمراء
الأندلس، أو لم يجد لديه وسيلة أو مقدرة لتنفيذها.
ذلك أنه فكر في أن يسحق الممالك الإسبانية
النصرانية سحقاً تاماً، وأن يقضى على استقلالها القومى، وأن يخضعها جميعاً
إلى
سلطة الخلافة.
وقد خالف ابن أبي عامر في غزواته، سنن أسلافه من الأمراء
والقادة، فقد كان هؤلاء يحاربون في معظم الأحيان للدفاع ورد غارات
النصارى، ولكن ابن أبي عامركان هو البادئ بالحرب دائماً، ولم يقبل من
أعدائه قط
صلحاً أو مهادنة، ولم يقنع إلا بالنصر الكامل.

---

(١) راجع رواية ابن حزم في رسالة " نقط العروس " (المنشورة في مجلة كلية
الآداب
بالقاهرة في عدد ديسمبر سنة ١٩٥١) ص ٨١ و٨٢.
(٢) ذكر ابن الأبار في الحلة السيراء أن المؤرخ الكبير أبو مروان ابن حيان
قد استوعب
هذه الغزوات وفصلها في كتابه الكبير الذى ألفه في أخبار الدولة العامرية.
ولكن هذا المؤلف
لم يصل بعد إلينا (ص ١٤٩) .
(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨.
وكذلك ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٤ وج ٩ ص ١٢.

ولكن سوف نرى أن غزوات المنصور، بالرغم من تحرى هذه الغاية
البعيدة المدى، وبالرغم مما كان يحالفها من الظفر المستمر، لم تخرج في
مجموعها
عن أساليب الصوائف والغزوات الإسلامية المأثورة، ولم تتجه بالفعل إلى
تحرى
هذه الغاية الكبرى.
سار ابن أبي عامر عقب الفراغ من أمر صهره غالب، إلى مملكة ليون،
ليعاقب ملكها راميرو الثالث على معاونته لخصمه غالب، وتدخله على هذا
النحو
في شئون الأندلس، وقصد إلى مدينة سمورة الحصينة الواقعة شمالى شلمنقة،
وضرب حولها الحصار (أوائل سنة ٣٧١ هـ الموافقة ٩٨١ م) ولكنه لم
يستطع
الاستيلاء على قلعتها المنيعة بسرعة، فتركها وعاث فيما حولها من السهول،
وأمعنت
قواته في التخريب والقتل، وأحرقت مئات القرى والضياع، وهام النصارى على
وجوههم في الجبال والوديان ألوفاً مؤلفة.
وهرع راميرو الثالث إلى غرسية
فرنانديز كونت قشتالة، وسانشو ملك نافار، وعقد الثلاثة تحالفاً لمحاربة ابن
أبي عامر، وسارت قواتهم المشتركة للقائه.
ونشب القتال بين الفريقين في ظاهر بلدة " روضة "
في جنوب غربى " شنت منكش " (١) ، فهزم النصارى وقتل منهم عدد كبير،
واستولى المسلمون على قلعة شنت منكش الشهيرة؛ ثم زحف ابن أبي عامر
بعد ذلك
شمالا إلى مدينة ليون عاصمة المملكة، وهنالك وقف راميرو في قواته محاولا
اعتراضه، وحاول المسلمون اقتحام المدينة، ووصلوا في هجومهم بالفعل إلى
أبوابها، ولكن الشتاء كان قد دخل، وغمرهم البرد والثلوج، فاضطروا إلى وقف

القتال، وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة بعد غزوات دامت بضعة أشهر (٢) .
وعلى أثر هذا النصر، وفي أواخر سنة ٣٧١ هـ (أواخر ٩٨١ م) اتخذ ابن أبى عامر سمة الملك، فتسمى بالحاجب المنصور، وأمر بالدعاء له على المنابر، ونفذت الكتب والأوامر باسمه عن " الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر "
ونقش اسمه في السكة، وجرى الوزراء ورجال الدولة على تقبيل يده، عند المثول
لديه، واجتمعت حول شخصه، وحول داره، مظاهر الجلالة الملكية، وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى

---

(١) روضة هى بالإسبانية Rueda، وشنت منكش Simancas.
(٢) Dozy: Hist.
Vol.
II.
p.
Recherches (3ème ed ؛ ٢٣٥ - ٢٣٤.
( Vol.
I.
p.
١٨٠ - ١٨١

(٥٤١/١)

الاسم.
هذا وسوف نجرى منذ الآن فصاعداً على تسمية ابن أبي عامر باسمه الملكى: المنصور.
وكان المنصور حين استقدم جعفراً بن على الأندلسي، ورفعه إلى خطة

الوزارة ليعارض به نفوذ القائد غالب، وليوثق بوجوده مودة البربر وتأييدهم، يتوجس مع ذلك من وجوده وسلطانه، ويخشى أطماعه ومشاريعه، في الناحية الأخرى من البحر، فما كاد ينتهى من أمر غالب، ومن ترتيب رسومه الملكية، حتى قرر أمره، فدعاه ذات مساء إلى مأدبة حافلة، وأغرى به السقاة حتى فقد
وعيه، ثم دس عليه في طريقه إلى منزله من قتله، وحمل إليه رأسه سراً (٣٧٢ هـ) .
فتظاهر المنصور بالحزن على ضحيته، وكانت هذه الجريمة المثيرة، عنواناً لبعض
النواحى القاتمة، في خلاله وفي وسائله السياسية (١) .
وفى ذلك الحين كانت الأحوال قد اضطربت في ليون، وفقد راميرو الثالث من جراء هزائمه المتوالية كل عطف وتأييد، وزاد الشعب نقمة عليه، محاولاته في توسيع سلطانه، وتمكين حكمه المطلق.
وما لبثت جليقية أهم ولاياته، أن
اضطرمت بالثورة، وقرر أشرافها خلع راميرو، وتولية ابن عمه برمودو (أو برمند) ملكاً مكانه.
وفى أكتوبر سنة ٩٨٢ م، توج هذا الأمير ملكاً على
ليون في مدينة شنت ياقب.
فسار راميرو إلى محاربته ونشبت بينهما موقعة شديدة
غير حاسمة، في بلدة بورتليا دى أريناس، على حدود ليون وجليقية، ثم عاد برمودو إلى جمع قواته، وسار لمحاربة خصمه.
مرة أخرى، فهزمه واستولى على
مدينة ليون في مارس سنة ٩٨٤.
فالتجأ راميرو إلى مدينة أسترقة، والتمس
مساعدة المنصور، على أن يعترف بطاعته، ولكنه توفى بعد ذلك بأشهر قلائل، وحاولت أمه أن تحكم مكانه بمعاونة المنصور، فأبى المنصور أن

يستمع إليها
وأدرك برمودو من جهة أخرى أنه لن يستطيع مقاومة الأشراف المعارضين
لحكمه
إلا بمعاونة المسلمين، فتقدم إلى المنصور، وعرض أن يعترف بطاعته، فقبل
المنصور وأمده بجيش، استطاع أن يخضع به سائر المملكة، وأن يوطد
حكمه.
وبقيت بعد ذلك في مدينة ليون حامية كبيرة من المسلمين.

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩، و ٣٠٠.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠١، وأعمال الأعلام ص ٦٥.

*(٥٤٢/١)*

وهكذا غدت مملكة ليون الإسبانية النصرانية لأول مرة، ولاية تابعة لحكومة
قرطبة، تؤدى لها الجزية، وتأتمر بأوامرها، وكانت هذه أول ثمرة لسياسة
الغزو
المنظم، التي سار عليها المنصور.
وتحول اهتمام المنصور بعد ذلك إلى شمال شرق الأندلس، فحشد جيشاً
ضخماً استعداداً لغزوة هامة، لم تخطر من قبل لأحد من أمراء الأندلس.
وخرج
في قواته من قرطبة في ذى الحجة سنة ٣٧٤ هـ (مايو ٩٨٥ م) ، ومعه عدة
من
الكتاب والشعراء، يجتمعون في مجلسه خلال السير.
وتوصف غزوة المنصور
هذه بأنها الثالثة والعشرون.
وسار المنصور جنوباً صوب إلبيرة (غرناطة) ،
ثم اتجه شرقاً إلى بسطة، فلورقة، فتدمير، فمرسية، وأقام في مرسية ثلاثة

وعشرين
يوماً في ضيافة أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدجيم بن مروان بن خطاب
وولده
أبى الأصبغ موسى.
وكان ابن خطاب من أعظم رجالات الأندلس وجاهة وثراء
وجوداً، ومن المدهش حقاً، ما تنقله إلينا الرواية، من أنه استضاف المنصور وسائر حاشيته وجيشه خلال هذه المدة، وتكفل بسائر النفقات، وأبدى من ضروب الجود والبذخ ما يفوق قصص ألف ليلة وليلة، وغدا بذلك من أعظم أصدقاء المنصور وأكثرهم حظوة لديه (١) .
وسار المنصور في جيشه بعد ذلك شمالا.
وكان يقصد ثغر برشلونة العظيم.
وقد لبثت بشلونة منذ الفتح في أيدى المسلمين نحو قرن من الزمان، وكانت
أعظم
ثغور الأندلس الشمالية الشرقية، ثم افتتحها عاهل الفرنج شارلمان أو كارل
الأكبر
في سنة ٨٠١ م (١٨٥ هـ) أيام الحكم بن هشام، بعد حصار طويل، وبعد أن
دافع المسلمون عنها أروع دفاع.
واتخذ الفرنج من برشلونة قاعدة لولاية " الثغر
القوطى "، الذى نما فيما بعد، واستطاع حكامه الكونتات القوط مع الزمن، أن ينتزعوه من يد الفرنج، وأن يجعلوا منه إمارة مستقلة، هى إمارة قطلونية، التي

---

(١) الحلة السيراء عن ابن حيان وابن الفياض ص ٢٥١ و ٢٥٢ و ٢٥٣.
هذا ويقدم
إلينا العذرى نسبة ابن خطاب كاملة، فهو أحمد بن عبد الرحمن المعروف
بدجيم بن مروان بن
خطاب بن محمد بن مروان بن خطاب بن عبد الجبار الداخل.

ويقول لنا إنه استضاف المنصور
وجميع عسكره أياماً، وصنع له فيما صنع حماماً كان ماء الحمام من ماء
الورد الطيب للغاية وأهدى
له قناطر من الفضة الخالصة.
(العذرى في كتاب ترسيع الأخبار السابق ذكره ص ١٥) .

*(٥٤٣/١)*

حافظت عصراً على استقلالها، ثم اندمجت بعد ذلك في مملكة أراجون القوية
(١) .
واخترق المنصور بجيشه قطلونية، وهزم قوات أميرها الكونت بوريل، في
أواخر
شهر يونيه، وأشرف على ظاهر برشلونة في اليوم الأول من يوليه، ولم تمض
أيام قلائل حتى اقتحم المسلمون المدينة، ودخلوها في يوم الاثنين منتصف
صفر، سنة ٣٧٥ هـ، الموافق سادس يوليه سنة ٩٨٥ م (٢) .
ودمر المسلمون المدينة
وأحرقوها، وقتلوا معظم أهلها، وتركوها قاعاً صفصفاً، وكان بين الأسرى
أودلرادو نائب كونت برشلونة، فاقتيد إلى قرطبة، حيث قضى في الأسر
أعواماً
طويلة.
والظاهر أن المنصور لم يحاول الاحتفاظ ببرشلونة، ولم تكن لديه نية
افتتاحها بصورة دائمة، ولكنه قصد أن يدمر قوى النصارى في هذا الطرف
النائى
من شبه الجزيرة الإسبانية.
***
وما كاد المنصور يرتد بجيشه إلى قرطبة، حتى استغرقت حوادث المغرب
جل اهتمامه.

وقد فصلنا فيما تقدم عند الكلام على عهد عبد الرحمن الناصر، ثم
عهد ولده الحكم المستنصر، أدوار الصراع الذى نشب في المغرب الأقصى،
بين الفاطميين مذ قامت دولتهم في إفريقية، وبين بني أمية، ورأينا كيف
استطاع
الحكم المستنصر، بعد سلسلة من الأحداث المثيرة، والمعارك الطاحنة، بينه
وبين
الفاطميين وحلفائهم الأدارسة بالمغرب، أن يقضى على قوى الشيعة
والأدارسة، وكيف استسلم إليه الأدارسة وكبير زعمائهم الحسن بن كنون في
سنة ٣٦٣ هـ، واستقروا حيناً في كنفه في قرطبة، ثم خرجوا منها بعد ذلك
بعامين، وساروا
إلى مصر حيث استقروا بها في كنف خليفتها الفاطمى العزيز بالله.
وكان العزيز قد شغل في أوائل ولايته، برد خطر القرامطة عن مصر والشام،
فلما تمت هزيمة القرامطة، وزال خطرهم (٣٦٨ هـ) ، عاد إلى الاهتمام
بشئون
المغرب، وثاب له رأى في العمل على استعادة سلطان الدعوة الفاطمية،
وسحق

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في القسم الأول من العصر الأول من " دولة الإسلام
في الأندلس "
ص ٢٣٤ - ٢٣٦.
(٢) تتفق الروايات النصرانية مع الرواية الإسلامية في تحديد تاريخ دخول
المسلمين لبرشلونة
على هذا النحو.
راجع الإحاطة لابن الخطيب (القاهرة) ج ٢ ص ٧١.
وكذلك Dozy: Hist.
Vol.

.II

.p

٢٣٩ والمراجع.

(٥٤٤/١)

الدعوة المروانية في المغرب الأقصى، فأوعز إلى نائبه على إفريقية (تونس) بُلُكّين بن زيرى بن مناد الصنهاجى، أن يسير في قواته إلى المغرب، فبدأ بلكين
زحفه على المغرب سنة ٣٦٩ هـ، فاستولى على مدينة فاس، وهزم سائر الأمراء
الذين تصدوا لمقاومته من زناتة وغيرهم، وفر أولئك الأمراء المعارضون جميعاً
إلى الشمال، واعتصموا بسبتة، وبعثوا إلى المنصور يستغيثون به.
فعهد المنصور
يومئذ، إلى جعفر بن على بن حمدون المعروف بالأندلسي، وهو من زعماء زناته
بمحاربة بلكين، وأمده بالجند والمال، والتف حوله باقى الزعماء.
ولكن بلكين
استمر في تقدمه، رغم كل معارضة، حتى استولى على المغرب كله، ولم يبق منه
بيد خصوم الشيعة سوى القطاع الشمالى.
وفى سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) بعث العزيز بالله، الحسن بن كنون زعيم
الأدارسة، من مصر إلى المغرب تحقيقاً لملتمسه، ليسعى إلى استرجاع ملكه،
وقلده عهده، وأمر نائبه على المغرب بلكين أن يمده بالقوات اللازمة، وكان العزيز، ووزيره
ابن كلِّس تخالجهما أيضاً رغبة في التخلص من الحسن وصحبه، والتخفف

من
مؤنتهم (١) .
فسار الحسن إلى المغرب، في جيش صغير أمده به بلكين، ودعا
لنفسه، فالتف حوله كثير من البربر، ولاسيما بني يفرن، وجاهروا بطاعته،
وعلم المنصور بخبره، فبعث ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن
عامر
المعروف بعسكلاجة، في جيش كثيف، إلى المغرب، لقتاله والقضاء على
دعوته، فعبر البحر إلى سبتة لقتال الحسن، وانضم إليه زعماء مغراوة في
قواتهم، وفى
مقدمتهم كبيرهم زيرى بن عطية بن خزر، ثم بعث المنصور لإمداده جيشاً
آخر
إلى المغرب بقيادة ولده عبد الملك.
وطارد عسكلاجة الحسن، ثم أحاطه بقواته، وحاصره حتى أرهقه الحصار،
ولم ير بداً من طلب الأمان والتسليم، على أن
يسير إلى الأندلس كسابق عهده، فأجيب إلى طلبه، وأرسل على عجل إلى
قرطبة
تحقيقاً لرغبة المنصور.
ولما علم المنصور بمقدم الحسن، آثر أن ينقض الأمان الذى
منحه ابن عمه، وأن يقضى على حياة ذلك الخصم العنيد، الذى تكرر
خروجه
على حكومة قرطبة، فأنفذ إليه من قتله في الطريق وأتاه برأسه، وذلك فى
جمادى الأولى سنة ٣٧٥ هـ (أواخر سنة ٩٨٥ م) وانهارت بذلك دعوة
الأدارسة

---

(١) " نبذ تاريخية في أخبار البربر " ص ١٩.

بالمغرب الأقصى، وتفرق أنصارهم، وركدت ريحهم.
وعلى أثر ذلك ندب المنصور لحكم المغرب الوزير الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمى، ومنحه السلطان المطلق، وأمره أن يعمل على استمالة البربر
في تلك الأقطار، إذ يجب أن لا ننسى أن البربر كانوا للمنصور ظهيراً، وعوناً
على إخضاع القبائل العربية بالأندلس، ومنهم اتخذ النصور حاشيته وجنده، وكثيراً من رجالات حكومته وجيشه.
فسار الوزير إلى المغرب (٣٧٦ هـ) ونزل
بفاس، وضبط شئون البلاد، واجتمعت إليه أمراء زناته ومغراوة، واتخذ من زعيم مغراوة زيرى بن عطية عوناً وحليفاً، لما أبداه من إخلاص للدعوة المروانية
وتأييدها.
واستدعى المنصور زيرى للوفود عليه، فسار إلى قرطبة، واحتفى
المنصور بمقدمه، وأسبغ عليه كثيراً من مظاهر العطف والتكريم، وأوعز إليه بمقاتلة بني يفرن أولياء الفاطميين؛ فلما عاد زيرى إلى المغرب سار مع الوزير
الحسن إلى قتال بني يفرن وزعيمهم يدُّو بن يَعلى، ولكنه هزم، وجرح الوزير الحسن، ثم توفى متأثراً بجراحه (سنة ٣٨١ هـ) .
فلما علم المنصور بذلك عقد
لزيرى على المغرب، وندبه لحكمه، وأمره بضبط الأمور، والتعاون مع جيش الخلافة، وأصحاب الحسن، فاضطلع زيرى بمهام الحكم بمقدرة وكفاية، وكان حازماً، قوى النفس والعزم، فقوى أمره وتوطد سلطانه، ولكنه لبث مشغولا بأمر خصومه من بني يفرن وغيرهم، ولبثت الحرب سجالا بينهم مدى حين

. (١)

وفى سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٢ م) استدعى المنصور زيرى بن عطية، للقدوم عليه للمرة الثانية، فاستخلف زيرى على المغرب ولده المعز، وسار إلى قرطبة، وقدم

إلى النصور هدية عظيمة منها طيور نادرة، وحيوانات غريبة، وأسود، فأكرم المنصور وفادته، وأنزله بقصر المصحفى، وغمره بالمال والصلات، ومنحه لقب الوزارة، وجدد له عهده على المغرب، وعلى جميع ما غلب عليه، ولكن زيرى لم يبتهج بلقب الوزارة، بل بالعكس ساءه ذلك، إذ كان يعتبر

نفسه في مرتبة الإمارة، فعبر البحر إلى العدوة وفي نفسه مرارة وخيبة أمل.

وما كاد يصل إلى طنجة حتى نمى إليه أن خصومه الألداء بني يفرن وأميرهم يدُّو

---

(١) راجع في حوادث المغرب الأقصى، ابن خلدون ج ٧ ص ٢٨ - ٣٠، والاستقصاء

ج ١ ص ٨٨ - ٩٢، و" نبذ تاريخية في أخبار البربر " ص ١٧ - ٢١.

(٥٤٦/١)

ابن يعلى، قد انتهزوا فرصة غيبته، فزحفوا على فاس واستولوا عليها، وقتلوا بها كثيراً من رجال مغراوة.

فأسرع بالسير إلى فاس، وهناك جمع قواته، ونشبت بين مغراوة وبنى يفرن معارك عديدة متوالية، قتل فيها كثير من الطائفتين

وانتهت بهزيمة بني يفرن ومقتل أميرهم يدُّو، وبعث زيرى برأسه إلى المنصور (٣٨٣ هـ) .

وأصبح زيرى بعد هزيمة بني يفرن وركود أمرهم، أعظم أمراء المغرب قوة وبأساً، واستقر سلطانه في سائر أنحاء المغرب، واستمر في الظاهر على ولائه

للمنصور، وللدعوة الأموية.

ولكن نفسه كانت تجيش بمشاريع أخرى.

ولما

كانت فاس بموقعها في الطرف الغربى للمغرب، وعلى مقربة من مواطن

القبائل

الخصيمة، أصبحت لا تصلح لمشاريعه، فقد اعتزم أن ينشىء لنفسه قاعدة جديدة، فأنشأ مدينة وجدة الواقعة جنوبي شرقى مليلة، وعلى مقربة من جنوب غربى تلمسان، وابتنى بها قصبة منيعة وقصراً، وأحاطها بأسوار ضخمة، ونقل إليها أمواله وذخائره، وسكنها بأهله وحشمه، واتخذها قاعدة الحكم (سنة ٣٨٦ هـ - ٩٩٦ م) لموقعها المتوسط بين المغربين الأوسط والأقصى (١) .

***

ولنقف الآن قليلا في تتبع حوادث المغرب، لنعود إلى تتبع حوادث الأندلس، ذلك أن المنصور سار على سنته من المضى في غزو الممالك النصرانية.

وكانت

الأحوال في ليون ما تزال بعيدة عن الإستقرار، نظراً لما كان يضطرم بين

حامية

ليون المسلمة، وبين النصارى من الشغب المستمر.

وكان برمودو ملك ليون، بعد أن استتب له الأمر، يرقب الفرص لإخراج

المسلمين من مملكته، فجد فى

جمع قواته، وانقض ذات يوم على المسلمين، وطاردهم.

إلى خارج حدوده، فاضطر المنصور أن يرد بغزو ليون، فسار في قواته نحو

الشمال مخترقاً أراضي

ليون، ثم سار غرباً إلى مدينة قُلُمرية، الواقعة في شمال البرتغال على مقربة

من

المحيط، واستولى عليها في يونيه سنة ٩٨٧ م (٣٧٨ هـ) ، وأمعن في

تخريبها حتى

لبثت قاعاً صفصفاً مدى سبعة أعوام.
وفى خلال ذلك كان البشكنس أو النافاريون
قد أغاروا بقيادة ملكهم سانشو على أراضي الثغر الشمالى، فسار المنصور
إلى

---

(١) الإستقصاء ج ١ ص ٩٢.

(٥٤٧/١)

قتالهم وطاردهم حتى مدينة بنبلونة عاصمة نافار ؛ وهنا تقول الرواية
النصرانية
إن البشكنس انقلبوا إلى الهجوم، وهزموا المسلمين (أواخر ٩٨٧ م) .
ثم تزيد
على ذلك أن جيشاً من الفرنسيين، قد سار في نفس الوقت إلى برشلونة،
تعاونه
سفن من البحر ، فاستولى عليها، ولم تلبث طويلا في يد المسلمين.
وقد رأينا
فيما تقدم أن المسلمين حين غزوا برشلونة، لم يقصدوا إلى الاحتفاظ بها، بل
اكتفوا بتخريبها وإحراقها.
على أن الرواية الإسلامية تحدثنا عن غزوة نافار هذه، دون أن تشير أية
إشارة إلى هزيمة المسلمين، وهى تسميها بغزاة البياض، وتضع تاريخها في
سنة
٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) ، وتقول لنا إن المنصور عاد بجيشه إلى سرقسطة، حيث
التقى
هنالك بولده عبد الملك أثر عوده من حروب المغرب (١) .
وما كادت تمضى أشهر قلائل، حتى عاد المنصور لاستئناف الغزو ، فخرج
في ربيع سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) في جيش ضخم، وعبر نهر دويرة، واخترق

أراضي ليون شمالا، فرابط برمودو معظم قواته بمدينة سمُّورة، اعتقاداً منه أن المنصور سيبدأ بمهاجمتها، ولكن المنصور سار تواً إلى مدينة ليون، فقاومته

حيناً لمناعة قلاعها، ولكنه اقتحم أسوارها، بعد قتال رائع، قتل فيه قائدها الكونت جونزالفو جونثالث، ودخلها المسلمون فخربروا صروحها، وأبادوا سكانها، وغادروها أطلالا دارسة.

وسار المنصور بعد ذلك جنوباً إلى سمورة، وأحرق في طريقه عدداً من الأديار ومنها ديرى إسلونزا وسهاجون العظيمين، وضرب الحصار حول المدينة، فغادرها برمودو سراً، واضطر السكان إلى تسليمها

إلى المنصور، فأمر بنهبها، واضطر معظم نبلاء المملكة (الكونتات) إلى الاعتراف

بطاعته، ولم يبق بيد برمودو من مملكته، سوى الرقعة الجبلية الشمالية الغربية

من جليقية (٢) .

وفى العام التالى وقعت بالثغر الأعلى حوادث هامة.

وكان الثغر الأعلى

وقاعدته سرقسطة، لوقوعه في أقصى الشمال بعيداً عن قرطبة، يغدو في فرص

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ و٣٠٣.

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١.

وكذلك Cronica General ; ibid ; Vol.

II.

p.

٤٤٦

و Dozy: Hist.

.Vol
.II
.p
٢٤٥ & ٢٤٤

(٥٤٨/١)

كثيرة مهداً للقلاقل والثورات المتعاقبة.
وكان حكامه بنو هاشم التجيبيون الذين
غلبوا على بني قسيّ، وانتزعوا سرقسطة لأنفسهم، منذ أيام الأمير عبد الله،
يتمتعون بنوع من الإستقلال المحلى، ويحرصون على سلطانهم، بالرغم من
اعترافهم الإسمى بسلطان الحكومة المركزية.
وكان حاكم الثغر الأعلى وهو
يومئذ عبد الرحمن بن مطرِّف التجيبى، يرقب سياسة المنصور، في القضاء
على
سلطان الحكام المحليين، بتوجس وحذر، ويلتمس السبل لحماية سلطانه، ولم
يكن بعيداً عن التفكير في التحالف مع جيرانه من النصارى، في نافار،
وقشتالة، كما فعل أسلافه أيام الناصر، ولكن تطور الحوادث جعله يتجه
اتجاهاً آخر.
ذلك أن عبد الله ابن المنصور بن أبي عامر، كان ناقماً على أبيه لأنه يؤثر
أخاه
عبد الملك عليه ويصطفيه دونه، ويوليه كل عطفه وثقته.
وكان عبد الله يومئذ
فتى في الحادية والعشرين من عمره، وكان يشعر أنه يتفوق في الشجاعة
والخلال
على أخيه الأكبر، ولكن المنصور كان يشك في بنوة ولده عبد الله، ويضن
عليه

بحبه وثقته، ويخشى نياته ومشاريعه (١) .

وكان عبد الله قد ذهب إلى سرقسطة، ونزل عند صاحبها عبد الرحمن، وهو متغير النفس على أبيه.

فانتهز التجيبى

الفرصة، واستمال عبد الله إليه، وأذكى حقده على أبيه، وائتمر الإثنان على الوثوب بالمنصور في أول فرصة والقضاء عليه، على أن يقتسما ملك الأندلس، فيستولى عبد الله على قرطبة وما والاها، ويستولى عبد الرحمن على الثغر وأحوازه، وانضم إليهما في تلك المؤامرة بعض أكابر الجند ورجال الدولة، من المعارضين

للمنصور والناقمين عليه، وفي مقدمتهم الوزير عبد الله بن عبد العزيز

المروانى

حاكم طليطلة المعروف بالربضى.

وترامت أخبار هذه المؤامرة الخطيرة إلى المنصور قبل نضجها، فأعمل الحيلة في استدعاء ولده عبد الله من سرقسطة، وأبدى له كثيراً من الرفق والعطف، وصرف الوزير المروانى عن حكم طليطلة صرفاً جميلا، ثم أقاله بعد ذلك من الوزارة، واعتقله بداره.

ثم خرج بالصائفة غازياً إلى أراضي قشتالة، واستدعى

أمداد الثغور، فتوافدت إلى لقائه، وفيهم عبد الرحمن بن مطرف ورجاله.

واجتمعت الحشود بقوات قرطبة في مدينة وادي الحجارة.

وهناك أجمع أهل

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ و٣٠٦.

(٥٤٩/١)

الثغور بوحى المنصور، على الشكوى من عبد الرحمن بدعوى احتباسه لأرزاقهم، فقرر المنصور إقالته، ولكنه رأى اسمالة لبنى هاشم، أن يعين

مكانه في حكم
سرقسطة، ولده يحيى الملقب "بسماحة" (نهاية صفر ٣٧٩ هـ) .
ولم تمض على
ذلك أيام قلائل، حتى أمر المنصور بالقبض على عبد الرحمن، ومحاسبته،
ثم أعدم
بأمره فيما بعد إثر عوده إلى الزاهرة (١) .
واستدعى المنصور في نفس الوقت ولده عبد الله إلى معسكره خشية مما قد
يقع منه.
ثم سار في قواته شمالا إلى شنت إشتيبن، وبينما هو مشغول بحصارها، إذ
فر ولده عبد الله في نفر من غلمانه، ولحق بغرسية فرنانديز كونت قشتالة،
فوعده بحمايته وتأييده.
فطالب المنصور غرسية بتسليم ولده، وأقسم ألا يكف
عن قتاله، حتى ينزل على رغبته، فأبى غرسية، واضطرم القتال بين الفريقين،
وسار المنصور شرقاً، واستولى على أوسمة (وخشمة) ووضع بها حامية
إسلامية، ثم استولى على " القبة " بعد ذلك بقليل، وتوالت الهزائم على
غرسية، حتى اضطر
أخيراً إلى أن يتضرع إلى المنصور أن يكف عنه، وتعهد بإجابته إلى سائر
مطالبه؛
فقبل المنصور ضراعته، وبعث غرسية عبد الله، في جماعة من القشتاليين،
فاستقبله
سعد الخادم، مع جماعة من الفرسان، وقبل يده ولاطفه، ثم تركه مع بعضهم،
فأنزلوه عن بغله، وأخطروه أن يتأهب للموت، فترجل عبد الله، وقدم نفسه
للموت هادئاً، ثبت الجنان رائع الشجاعة، فضرب عنقه عند غروب الشمس
من يوم الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠ هـ (٩ سبتمبر ٩٩٠ م) وأنفذ
برأسه
في الحال إلى والده المنصور، فبعث به المنصور مع كتاب الفتح إلى

الخليفة، ودفن
شلوه في مكان مصرعه، وكان عمره يوم إعدامه ثلاثة وعشرين عاماً.
وكانت
غزوة المنصور التي وقعت خلالها تلك الحوادث هى غزوته الخامسة
والأربعون (٢) .
وقد يبدو لنا المنصور، بإقدامه على إزهاق ولده، في أشنع الصور وأروعها.
ولكن يجب علينا أن نذكر الظروف التي اضطر فيها المنصور، إلى اتخاذ
تلك
الخطوة المؤلمة؛ فقد كان ائتمار عبد الله بأبيه، وتحالفه أولا مع التجيبيين
سادة
الثغر، وخصوم الحكومة المركزية منذ بعيد، ثم التجاؤه بعد ذلك إلى أمير
قشتالة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤ و٣٠٥.
وكذلك Dozy: Hist.
، Vol.
II.
p.
٢٤٧ & ٢٤٨

(٥٥٠/١)

من أقطع الدلائل على مرض نفسه، وخطورة مقصده، ولو نجحت المؤامرة،
لقضى على سلطان المنصور، وانهارت دعائم الدولة الإسلامية العظيمة،
التي نجح
المنصور في إقامتها وتوطيدها، ولكان المنصور نفسه حسبما كان يعتقد، من

أول
ضحاياها (١) ، فما كان عبد الله يتردد عندئذ في إزهاق أبيه ليفسح المجال
لنفسه.
ولقد كان تصرف المنصور قبل كل شيء تصرفاً سياسياً صارماً، خلواً من
كل
عاطفة، إلا عاطفة الاحتفاظ بالنفس والسلطان، وكان للمنصور في تصرفه
المثير
أسوة في كل عصر، وفي كل قطر، بل كانت له أسوة في بني أمية أنفسهم
من
أمراء وخلفاء، فقد قام عبد الرحمن الداخل بإزهاق ابن أخيه وأبناء عمومته،
وأقدم الأمير عبد الله على إزهاق إخوته الثلاثة، وإزهاق ولديه، ثم جاء
الناصر
لدين الله، فأقدم على إزهاق ولده وأبناء عمومته، كل ذلك بتهمة التآمر،
وحرصاً
على السلطان.
وقد كان القتل، وما زال على كر العصور، سلاح الطغاة الأقوياء، يجعلونه
سياجاً لطغيانهم ودولتهم، وهكذا جعل المنصور مقتل ولده سياجاً لطغيانه
فاهتز له الناس، وملئوا وحشة وروعاً (٢) .
هذا وأما عبد الله بن عبد العزيز المرواني، أحد أركان المؤامرة، فقد استطاع
الفرار في الوقت المناسب، والتجأ إلى حماية برمودو ملك ليون.
وكان من ذيول المؤامرة أن قرر المنصور أن يعاقب غرسية فرنانديز كونت
قشتالة، على ما ارتكبه في حقه، باغراء ولده عبد الله وحمايته، فحرض ولده
سانشو على الثورة عليه، وأيده عدد كبير من الأشراف، وانتهى سانشو بأن
أعلن
الحرب على أبيه، وجاهر المنصور بتأييده، ثم انتهز فرصة اضطرام هذه
الحرب

الأهلية، وسار لمحاربة الكونت، واستولى على شنت إشتيين وكلونية.
ثم ترك
جزءاً من قواته لمتابعة الصائفة وعاد إلى قرطبة.
وهنا تقدم الرواية الإسلامية إلينا قصة حادث مدهش، يعتبر من أغرب
موافقات القدر، وهو أن شاعر المنصور أبا العلاء صاعدا بن الحسن
البغدادى، أهدى إليه أيّلا في عنقه حبل، وسماه غرسية باسم كونت قشتاله،
وبعث به إلى
القصر يوم السبت منتصف ربيع الثاني سنة ٣٨٥ هـ، ومعه أبيات جاء فيها:

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥.



يا حرز كل مخوف وأمان كل..
.
مشرد ومعز كل مذلل
عبد جذبت بضبعه ورفعت من..
.
مقداره أهدى إليك بأيِّل
سميته غرسية وبعثته..
.
في حبله ليتاح فيه تفاؤلى
فكان من عجائب القدر، أن تحققت نبوءة الشاعر.
ففى نفس اليوم الذى قدم
فيه الأيل والقصيدة إلى المنصور، تمت الهزيمة على الكونت غرسية
فرنانديز، وجرح

وأسر على ضفاف نهر دويرة، على مقربة من بلدة " القصر "، وذلك في يوم ٢٥

مايو سنة ٩٩٥ (منتصف ربيع الثاني ٣٨٥ هـ) .

ثم توفى الكونت بعد أيام قلائل

متأثراً بجراحه، وتم الأمر لولده سانشو، ولكنه اضطر أن يؤدى الجزية للمسلمين (١) .

وفى خريف هذا العام سار المنصور إلى غزو ليون ومعاقبة ملكها برمودو على حمايته لعبد الله بن عبد العزيز المروانى.

وكانت الأحوال قد ساءت في ليون، واستولى الأشراف الإقطاعيون على سائر أراضيها وضياعها، ولم يبق لملكها سوى

الاسم، واضطر برمودو أن يغادر مدينة ليون عاصمة ملكه، وأن يتخذ أسترقة عاصمة مكانها.

فلما أرهقه المنصور بالحرب غادر أسترقه، والتمس الصلح من

المنصور، وسلمه المتآمر عبد الله، وتعهد بدفع الجزية، فأجابه المنصور إلى ما طلب.

واستولى فيما بعد على مدينة سمورة، وأسكنها المسلمين وولى عليها عاملا من قبله هو أبو الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبى.

وهكذا عادت قشتالة

وليون إلى دفع الجزية لحكومة قرطبة (٢) .

وأما عبد الله المروانى، فقد ألقى به

المنصور إلى السجن مصفداً، وتركه يرزح في أصفاده، بالرغم مما رفعه إليه من

القصائد المؤثرة في طلب العفو والمغفرة (٣) .

***

وقد تقدم أن ابن أبي عامر اتخذ سمة الملك منذ سنة ٣٧١ هـ (٩٨١ م) ،

وتسمى بالحاجب المنصور، وأمر بالدعاء له على المنابر، وكانت هذه أول

خطوة في اتخاذه ألقاب الملك بصفة رسمية، بعد أن استأثر بكل سلطة فعلية.

---

(١) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٢٢ و٢٣، وأعمال الأعلام ص ٦٨ و٦٩، والمعجب لعبد الواحد (القاهرة ١٩١٤) ص ٢٠، وابن خلدون ج ٤ ص ١٨١.

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١.

وراجع Dozy: Hist.

Vol.

II.

p.

٢٤٩

(٣) راجع الحلة السيراء ص ١١٣ و١١٤.

(٥٥٢/١)

وفى سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) أى بعد ذلك بعشرة أعوام، اتخذ المنصور خطوة أخرى في سبيل تدعيم صفته الملوكية.

فرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده، وهو فتى لم يجاوز الثامنة عشرة، ونزل له عن خطة الحجابة والقيادة العليا، وسائر

الخطط الأخرى التي كان يتقلدها، واقتصر على التسمى بالمنصور، وأن تنفذ الكتب

عنه " باسم المنصور أبي عامر وفقه الله " كما قلد ولده عبد الرحمن خطة الوزارة.

ثم كانت الخطوة الثالثة بعد ذلك بخمسة أعوام، حينما أصدر المنصور فى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) أمره، بأن يخص بألقاب السيادة من دون سائر الناس فى

المخاطبات، وأن يرفع ذلك عن سائر أهل الدولة، ونفذت الكتب بذلك،

وخوطب المنصور من ذلك الوقت " بالملك الكريم "، وبولغ في تكريمه وتعظيمه
في سائر المخاطبات، واستمر ذلك بقية حياته (١) .
ولم يك ثمة شك فيما يرمى إليه ابن أبي عامر، من وراء هذه الخطوات المتعاقبة
في سبيل الاتشاح بألقاب الملك والسيادة.
فهو قد حقق من الناحية العملية أمنيته
الجوهرية، بالاستيلاء على الدولة والاستئثار بكل سلطة فعلية.
ولكنه كان ويرمى
إلى أبعد من ذلك.
فهو قد أصبح أعظم وأقوى رجل في الدولة، وقد جمع بين
يديه سائر السلطات السياسية والعسكرية.
وكان الجيش وهو عماد السلطان والدولة، يتكون معظمه من البربر والنصارى المرتزقة، ويدين للمنصور بمنتهى الولاء
والإخلاص، وهو الذى عنى بإنشائه وتنظيمه، وقاده إلى ميادين النصر عشرين
عاماً.
وإذاً فقد كان يبدو من هذه الظروف كلها، أنه لم يك ثمة ما يحول دون أن يحقق المنصور غايته الأخيرة، فيتوج حكمه بالصفة الشرعية، وينتزع لنفسه ما بقى من رسوم الملك والخلافة، ويؤسس بذلك لنفسه ولعقبه دولة جديدة، تحل مكان الدولة الأموية المحتضرة.
وهنالك ما يدل على أن المنصور، كان يعتزم بالفعل أن يتخذ سمة الخلافة؛ وهذا ما يقرره الفيلسوف ابن حزم، ويروى تفاصيله نقلا عن أبيه الوزير ابن حزم وزير المنصور.
وملخص روايته أن المنصور جمع للمشورة في ذلك الأمر
قوماً من خواصه منهم ابن حزم، وابن عياش، وابن فطيس من الوزراء،

وبعض الفقهاء، وقد صوّب رأيه ابن عياش وابن فطيس، ولكن ابن حزم

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ و٣١٦.

(٥٥٣/١)

عارض فيه، وأعرب عن خوفه من أن يحرك ذلك ساكن الأحوال، وأن المنصور
ليس في حاجة إلى مثله، وبيده سائر الأمور، وتردد رأى الفقهاء بين الاعتراض
والموافقة (١) .
على أنه يبدو من جهة أخرى، من تريث المنصور وتمهله في اتخاذ الخطوات المذكورة، أنه كان يخشى نتائج العنف والتسرع.
فما الذى كان يخشاه المنصور
إذاً، وقد اجتمعت في يده كل السلطات، وأضحى يسيطر على سائر القوى؟
لقد كان نهوض المنصور وتقدمه في سبيل السلطان، مقترناً بظروف لا تساعد
على اكتساب محبة الشعب وتأييده الخالص.
فقد وقع عن طريق اتصاله بصبح، بالمرأة التي كانت تسيطر على الدولة، والتي كانت علائقه بها تثيركثيراً من الهمس
والتعليق اللاذع، وقد وقع على حساب الخليفة الطفل هشام المؤيد، الذى استلب
ابن أبي عامر سلطانه وحقوقه تباعاً، ثم حجر عليه بطريقة قاسية تشبه الموت
المدنى، وقطع علائقه مع العالم، ولم يكن يسمح له بمقابلة أحد، أو بالخروج من
القصر؛ وفي الفرص النادرة التي كان يسمح بخروجه فيها، كان يسير في

موكبه
وعليه برنس يخفى شخصه، ومن حوله صفوف كثيفة من الجند، فلا يستطيع أحد أن يراه أو يقترب منه (٢) .
وكان الشعب القرطبى يشهد أطوار هذه المأساة
المؤلمة واجماً ناقماً، ويعتبر الخليفة الشرعى ضحية وشهيداً، يستحق كل عطفه
ورثائه.
ولم يكف كل ما حققه المنصور من مظاهر السلطان والمجد، وما أحرزه من الظفر المتوالى، وما أسبغه حكمه على الأندلس من أسباب السكينة والعزة والأمن والرخاء، لم يكف ذلك كله لحمل الشعب على نسيان قضية خليفته الشرعى.
أضف إلى ذلك كله، تلك الوسائل الدموية المثيرة، التي لجأ إليها ابن أبي عامر
للتخلص من خصومه ومنافسيه، فقد كانت تباعد بينه وبين الشعب؛ ولم يكن الشعب، إزاء هذه الظروف والعوامل كلها، ليمنح ابن أبي عامر حبه وولاءه، وإن كان من جهة أخرى يخشاه ويرهبه، بل ويعجب بحزمه وعزمه وعبقريته في تسيير الأمور، وفي تأمين البلاد، وإذلال العدو.
ومن ثم كان تريث ابن أبي عامر وتحوطه.
فإنه لم يكن واثقاً من إغضاء

---

(١) راجع نقط العروس لابن حزم ص ٧٧.
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤١، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦.

*(٥٥٤/١)*

الشعب، عن انقلاب حاسم يقضى به على آخر مظاهر الخلافة الشرعية، وينتزع

به تراث بني أمية.
ومن جهة أخرى، فقد كانت هناك صبح أم الخليفة المعتقل، المحروم من كل
حقوقه وسلطانه؛ وكانت صبح قد غدت بمضى الزمن ألد خصوم
ابن أبي عامر وأخطرهم.
وقد رأينا كيف بدأت تعمل لمقاومته، مذ شعرت
بخطورة مشاريعه، على مركز ولدها، وتحاول أن تجمع من حولها كلمة
الناقمين
والمعارضين لابن أبي عامر، باسم حماية الخليفة الشرعى، وإنقاذه من نير
المتغلب، وكيف وقعت أول محاولة حقيقية لمقاومة ابن أبي عامر، في
انقلاب صهره القائد
غالب عليه ومحاربته إياه، ولم تبذل من ذلك الحين أية محاولة أخرى في هذا
السبيل.
هذا وسلطان المنصور على كر الأعوام يتوطد، ومركز هشام المؤيد
يزداد سوءاً وانحلالا، وتغيض ذكريات الخلافة ورسومها شيئاً فشيئاً.
فلما عمد المنصور أخيراً إلى اتخاذ ألقاب السيادة والملك، شعرت صبح بأن
الضربة القاضية أضحت على وشك الوقوع، واعتزمت ان تضاعف العمل فى
سبيل حماية ولدها، وتحريره من قبضة المتغلب.
فكررت ضد المنصور دعايتها
القديمة، واتهمته على يد دعاتها وأعوانها، باغتصاب سلطان الخلافة،
ومقاومة
رغبة الخليفة في تولى الحكم بنفسه؛ وخطر لها في نفس الوقت أن تتصل
بزيرى
ابن عطية حاكم المغرب، وأن تدفعه إلى مناوأة المنصور، فبعثت إليه رسلها،
وأنفذت إليه الأموال سراً، ليحشد الجند ويتأهب للعبور إلى الأندلس.
وكان
زيرى من أولياء بني أمية ومن أشد المخلصين لقضيتهم، وكان ينقم على

المنصور
سياسته في الحجر على هشام، وفوق ذلك فقد كان غاضباً على المنصور، لما أساء
به في حقه حين زيارته إلى قرطبة؛ وإذاً فقد لبى زيرى دعوة صبح، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته، وحجره على الخليفة، ويدعو إلى مقاومته، ورد الأمر إلى الخليفة الشرعي (١) .
وكان المنصور يقظاً، فلم يفته شيء من خطط صبح وأعوانها.
وكان أول
همه أن يرفع يدها عن الأموال، التي أخذت تفتن في تهريبها بواسطة فتيان القصر، وكان المنصور مريضاً، فبعث ولده عبد الملك في قوة من الجيش إلى قصر الخلافة
بقرطبة، ومعه جمهرة من الفقهاء والوزراء، ثم دخل بهم إلى مجلس الخليفة،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢، و" نبذ تاريخة في أخبار البربر " ص ٢٧.

(٥٥٥/١)

وخاطبه في الأمر، فأنكر هشام ذلك، وتبرأ من خصومة المنصور، ووافق على
نقل المال، فنقل فوراً إلى الزاهرة، ولم يبق منه في خزائن القصر شيء، ولم تجد
توسلات صبح، ولا وعيدها، وتطاولها على عبد الملك شيئاً، ويقال إن ما حمله
المنصور يومئذ من المال بلغ عدة ملايين (١) .
ولما أبل المنصور من مرضه بعد ذلك بقليل، سار إلى قصر قرطبة مع ابنه عبد الملك وسائر عظماء الدرلة، وانفرد بالخليفة في مجلسه، فاعترف له

هشام
بالفضل، وحمد اضطلاعه بشئون الدولة، وأقره على سياسته.
ثم عمد المنصور
إلى اتخاذ خطوة جريئة أخرى، فأخرج هشاماً من القصر، وأركبه في زى
الخلافة
في موكب عظيم، وركب إلى جانبه، وأمامه ولده عبد الملك، وسار الجيش
أمام الموكب ومن خلفه، وتبع الموكب جموع عظيمة من طوائف الجند
والفتيان
الصقالبة.
وشق هذا الموكب الخليفى شوارع قرطبة، بين جموع حاشدة مستبشرة
من الشعب، وكان يوماً عظيماً مشهوداً، وكان آية الظفر للمنصور وسياسته
(٢) .
وهكذا فشلت صبح في محاولتها، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر إلا عن
توطيد
سلطان المنصور، وسحق البقية الباقية من خصومه ومعارضيه.
ولم تك صبح فى
الواقع أهلا لمقاومة ذلك الرجل القوى، خصوصاً بعد أن مكن له في كل
شىء، ولم يبق للخليفة الأموى من السلطان سوى الاسم.
ولما أيقنت صبح أن المقاومة
عبث، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدى، لجأت إلى السكينة
والعزلة، فلا نسمع عنها بعد ذلك في سير الحوادث، ولا نعرف تاريخ وفاتها
بالتحقيق، ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور أو بعدها، وكل ما
تقوله الرواية
الإسلامية في ذلك، هو أن وفاتها كانت أيام ولدها هشام.
والظاهر أنها توفيت
بعد ذلك بقليل قبل وفاة المنصور، حوالى سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) ، لأننا لا

نعثر

باسمها بعد ذلك في حوادث الأندلس.

وقد نظم شاعر العصر أبو عمر محمد

ابن دراج القسطلى، قصيدة موثرة يرثى فيها صبحاً " أم هشام المؤيد بالله "، ومما جاء فيها:

---

(١) الذخيرة (عن ابن حيان) المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٢ - ٥٤، ونفح الطيب

ج ٢ ص ٩٥.

(٢) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٤.



هل الملك يملك ريب المنو..

.

ن أم العز يصرف صرف القضاء

الم نر كيف استباحت يدا..

.

ه حريم الملوك وعلق النساء

هو الرزء أودى بعزم الملو..

.

ك مصاباً وأودى بحسن العزاء

لبيض أياديك في الصالحا..

.

ت تمسك وجه الضحى بالضياء

فتلك مآثرها في التقى..

.

وبذل اللهى ما بها من خفاء
جزاك بأعمالك الزاكيا..
.
ت خيرُ المجازين خير الجزاء
ولقيت من ضنك ذاك الضريح..
.
نسيم النعيم وطيب الثواء (١)

هذا وأما عن موقف زيرى بن عطية، وتطاوله على المنصور، فقد رد المنصور
بأن قطع عنه رزق الوزارة، ومحا اسمه من ديوانه، واعتبره خارجاً عاصياً؛ ورد زيرى على ذلك بأن قطع ذكر المنصور من الخطبة، وطرد عماله بالمغرب، وأعلن الخروج والثورة.

فجهز المنصور لقتاله جيشاً عظيماً بإمرة مولاه الفتى
واضح، وأمده بالأمول والذخائر، وعبر واضح البحر في قواته إلى طنجة، وهناك انضمت إليه جموع غفيرة من بربر غمارة وصنهاجة، وحالفته على قتال
زيرى.

وخرج زيرى في قواته والتقى الجمعان بوادي زارات جنوبى طنجة، ونشبت بينهما معارك شديدة متصلة مدى ثلاثة أشهر، ثم انتهت بهزيمة واضح وتمزيق جيشه، ففر في فله إلى طنجة، وكتب إلى المنصور يستصرخ به. فخرج المنصور من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء، وتوافدت إليه الجيوش، ثم أجاز ابنه عبد الملك بمعظم قوات الأندلس وقوادها، وأمره بالتشدد في محاربة زيرى والقضاء عليه؛ فعبر عبد الملك البحر في قواته إلى سبتة، واتصل خبره بزيرى فتأهب للقائه، وبعث إلى جميع بطون زناتة يستصرخهم لنصرته، فهرعت
إليه الوفود والقوات من سائر النواحى، وسار لقتال عبد الملك في جموع

عظيمة.
وزحف عبد الملك من طنجة، ومعه الفتى واضح في قوات لا تحصى، والتقى الفريقان بوادي منى من أحواز طنجة، ونشبت بينهما معارك هائلة هزم البربر في نهايتها شر هزيمة، وقتل منهم عدد ضخم، وجرح زيرى واستولى عبد الملك
على معسكره، ثم طارده حتى مكناسة، ففر إلى الصحراء مع نفر من أصحابه.

---

(١) وردت هذه القصيدة بأكملها في ديوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود على مكى
(ص ١١٩ - ١٢٣) ووردت كذلك في يتيمة الدهر (القاهرة ١٩٤٧) ج ٢ ص ١٠٩ و١١٠.

(٥٥٧/١)

وقد أشاد شاعر العصر ابن دراج القسطلى بعبقرية المنصور وأهباته العسكرية
ضد زيرى بن عطية في قصيدة طويلة هذا مطلعها:
لك الله بالنصر العزيز كفيل..

.

أجد مقام أم أجد رحيل
هو الفتح أما يومه فمعجل..

.

إليك وأما صنعه فجزيل
وآيات نصر ما تزال ولم تزل..

.

بهن عمايات الضلال تزول

سيوف تثير الحق أنى انتضيتها..

.

وخيل يجول النصر حيث تجول

ومنها:

لئن صديت الباب قوم ببغيهم..

.

فسيف الهدى في راحتيك صقيل

فإن يحيى فيهم بغى جالوت جدهم..

.

فأحجار داود لديك مثول

هدًى وتقى يؤدى الظلام لديهما..

.

وحق بدفع المبطلين كفيل

يجمع له منه قائد النصر عاجل..

.

إليه ومن حسن اليقين دليل

تحمل منه البحر بحراً من القنا..

.

يروع بها أمواجه ويهول

بكل معالاة الشراع كأنها..

.

وقد حملت أسد الحقائق غيل (١)

ودخل عبد الملك مدينة فاس ظافراً، في نهاية شوال سنة ٣٨٧ هـ (نوفمبر ٩٩٧ م) وكتب إلى أبيه المنصور بالفتح، فكتب إليه بعهده على المغرب، وعاد

واضح بالجيش إلى قرطبة.

ولبث عبد الملك والياً للمغرب ستة أشهر فقط، نظم
خلالها شئونه، ووطد أمره، ثم عاد إلى الأندلس، وخلفه على المغرب عيسى
ابن سعيد صاحب الشرطة، فلبث في ولايته حتى أوائل سنة ٣٨٩ هـ.
ثم أقيل
وخلفه الفتى واضح.
وفى تلك الأثناء كان زيرى بن عطية قد جمع فلوله من قوات زناتة، ووافته
جموع كثيرة من مغراوة، وكانت صنهاجة قد اختلفت على أمرها، فانتهز زيرى
هذه الفرصة وزحف شرقاً على بلاد صنهاجة، وأوغل فيها، واستولى على
تاهرت
وتلمسان وبعض بلاد الزاب، وأقام بها الدعوة لهشام المؤيد وللمنصور، ثم
كتب
إلى المنصور يتقرب إليه ويسترضيه، ويؤكد حسن طاعته من جديد، فعفا
عنه
المنصور، وأعاده لولاية المغرب، بيد أنه لم يعش طويلا فتوفى في سنة ٣٩١
هـ
(١٠٠١ م) ، متأثراً بجراحه التي أصابته في موقعة وادي منى.
وخلفه فى

---

(١) وردت هذه القصيدة في ديوان ابن دراج المشار إليه (ص ٣ - ٩) .



الولاية ولده المعز.
فأقره المنصور، ولبث المعز والياً للمنصور، مقيماً على دعوة
بنى أمية، يعمل على توطيدها بالمغرب، إلى أن اضطرب حبل الخلافة
بالأندلس (١) .
* * *

وبينما كان عبد الملك المنصور بالمغرب يتم إخضاع زيرى وشيعته، كان المنصور يتخذ الأهبة لأعظم غزاته.

وكانت منطقة جلِّيقية في قاصية اسبانيا

الغربية، تعتبر لنأيها ووعورتها، أمنع مناطق اسبانيا النصرانية، وأبعدها عن متناول الفاتحين.

ولم يفكر أحد من الغزاة المسلمين، منذ أيام طارق أن يقصد

إلى تلك المنطقة الجبلية الوعرة، لما يعترض الوصول إليها من الصعاب الهائلة.

ولكن المنصور اعتزم أن يسير إلى جليقية لسببين: الأول أنها كانت ملاذاً وملجأ

لملوك ليون، يمتنعون به كلما أرهقتهم الغزوات الإسلامية، والثاني أنها كانت مستقراً لمدينة شنتياقب (أو شنت ياقب) الدينية، كعبة إسبانيا النصرانية ومزارها

المقدس، ورمز زعامتها الروحية.

وقد سبق أن عرضنا إلى نشأة هذه المدينة

المقدسة، وإلى أسطورة القديس ياقب (أو يعقوب الحوارى) التي اتخذت أساساً لإنشائها، وكيف زعمت الأسطورة أن قبر القديس يعقوب، قد اكتشف بمعجزة وقعت في هذه المنطقة، فأنشئت فوقه كنيسة، وأنشئت حول الكنيسة مدينة مقدسة، سميت باسم القديس، وغدت عاصمة اسبانيا الدينية، ومزاراً شهيراً يقصده النصارى من سائر الأنحاء (٢) .

وقد شاء المنصور أن يضرب اسبانيا النصرانية

في صميم معقلها القاصى، وفي صميم زعامتها الروحية، بغزو جليقية، واقتحام

مدينتها المقدسة.

فخرج من قرطبة في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة

٣٨٧ هـ (٣ يوليه ٩٩٧ م) على رأس قوى الفرسان، وفي الوقت نفسه تحرك

الأسطول الأندلسي، الذى أعده المنصور لهذه الغزوة الكبرى، من مرساه أمام قصر أبي دانس Alcacer do sal في مياه البرتغال الغربية، شمالا بحذاء الشاطىء البرتغالى، يحمل المشاة والأقوات والذخيرة، واخترق المنصور اسبانيا
الغربية شمالا، وهو يعبر الجبال والأنهار العظيمة تباعاً، حتى وصل إلى مدينة

---

(١) راجع حوادث المغرب في البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢، وابن خلدون ج ٧ ص ٣٣، والإستقصاء ج ١ ص ٩٣ و٩٤، و" نبذ تاريخية في أخبار البربر " ص ٣٠ - ٣٥.
(٢) راجع تفاصيل ذلك في القسم الأول من العصر الأول من " دولة الاسلام في الأندلس "
ص ٢٢٠ و٢٢١.

(٥٥٩/١)

قورية؛ ثم زحف نحو الشمال الغربى، واستولى في طريقه على مدينتى بازو وقلمرية (١) .
وهنا وفد على المنصور، عدد كبير من القوامس (الكونتات)
النصارى المعترفين بطاعته، وهم الواقعة أملاكهم في أراضي البرتغال ما بين نهرى دويرة ومنيو، وانضموا مع قواتهم إلى جيشه.
ثم سار المنصور شمالا حتى
وصل إلى نهر دويرة، وهنالك وافاه الأسطول، مخترقاً النهر من مصبه عند ثغر
بورتو، فجعل منه جسراً مريحاً لعبور جيشه وعدده وأقواته، واتجه الجيش الإسلامى بعد ذلك صوب جلِّيقية، وهو يقتحم السهل والوعر في شعب الجبال، ثم عبر نهر منيو (منهو) ، وسار بحذاء شاطىء المحيط، واستولى

في طريقه على
بعض الحصون، وخرب عدداً من الأديرة التاريخية في تلك المنطقة.
وكانت
جموع كبيرة من النصارى، قد فرت إلى الجزائر المقابلة للشاطىء، فعبر
المسلمون
إليهم من بعض المخائض وأسروا معظمهم، واخترقوا مفاوز الجبال المجاورة للمحيط، واستخرجوا من لجأ إليها من النصارى، واستصفوا غنائمها؛ ثم اقتحموا الجبال إلى السهل، وخربوا بلدة إيليا (إيريا) ونهبوها، وهى أيضاً من المزارات الدينية الشهيرة.
وأشرف المسلمون على مدينة شنت ياقب في يوم
الأربعاء الثاني من شعبان (١١ اغسطس) ، فوجدوها خالية من أهلها، وكانوا قد غادروها حين اقتراب الغزاة، فدخلها المسلمون، وهدموا أسوارها وصروحها التاريخية، وكنيستها العظمى، واستولوا على سائر ما فيها من الذخائر والتحف، وأمر المنصور بصون قبر القديس ياقب القائم وسط الكنيسة العظمى، والمحافظة
عليه.
ولم يجد المنصور بالكنيسة إلا شيخاً من الرهبان يجلس على القبر فسأله عن مقامه، فقال أؤانس يعقوب، فتركه وأمر بالكف عنه.
وأخذ المسلمون أبواب
المدينة، ونواقيس الكنيسة العظمى، وحملها الأسرى النصارى على كواهلهم حتى قرطبة، فوضعت الأبواب فيما بعد، في سقف الزيادة التي أنشأها
المنصور
بالمسجد الجامع، وعلقت به النواقيس رؤوساً للثريات الكبرى (٢) .
وسار المنصور بعد ذلك مخترقاً أراضي برمودو التي امتنع بها وعاث فيها.

---

(١) هما بالإفرنجية على التوالى Viseu و Coimbra.

(٢) تتبعنا حوادث هذه الغزوة حسبما أوردها ابن عذارى في البيان المغرب ج
٢ ص ٣١٦
- ٣١٩.
وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١، وأعمال الأعلام ص ٦٧ و٦٨، ونفح
الطيب
ج ١ ص ١٩٣ - ١٩٥.
وكذلك Cronica General ; ibid ; Vol.
II.
p.
٤٤٨ & ٤٤٩

(٥٦٠/١)

ولم يستطع أحد أن يقف في سبيله، ووصل إلى شاطىء المحيط على مقربة
من بلدة
كرونية (قرجيطة) .
ثم انحدر جنوباً حتى وصل إلى أراضي الزعماء النصارى
(القوامس) الموالين له، والذين صحبوه في غزوته، فأمر بالكف عنها، وتابع
سيره حتى وصل إلى مدينة لاميجو في شمال البرتغال الحديثة (وتسميها
الرواية
الإسلامية لميقة) ، وهنالك وزع الهدايا والكسى الفاخرة على الزعماء
النصارى، وصرفهم إلى بلادهم، وكتب بالفتح إلى دار الخلافة، ثم عبر نهر
دويرة على
النحو الذى تقدم وصفه، وقفل راجعاً إلى قرطبة، وفي ركبه عدد كبير من
الأسرى، ومقادير عظيمة من الغنائم.
وكانت غزوة عظيمة، استبشر بها
المسلمون، وقرت نفوسهم، واهتزت لها اسبانيا النصرانية من أقصاها إلى

أقصاها، ولبث أثرها العميق أعواماً بعيدة، وكانت غزوة المنصور الثامنة والأربعون.

ونظم ابن دارج القسطلى في تهنئة المنصور بغزوة " شنتياقُه " (شنت ياقب) قصيدة طويلة هذا مطلعها:

اليوم أنكص إبليسٌ على عقبه..

.

مُبرّءاً سبَبُ الغاوين من سببه

واستيقنت شيع الكفار حيث نأت..

.

في الشرق والغرب أن الشرك من كذبه

بشنتياقة لما أن دلفْتَ له..

.

بالبيض كالبدر يسرى في سنا شهبه

وجلة الدين والإسلام عاطفة..

.

عليك كالفَلَك الجارى على قُطُبه (١)

وعلى أثر غزوة شنت ياقب اضطر برمودو ملك ليون، بعد الذى أصاب بلاده من الهزائم والمحن، أن يسعى إلى طلب الصلح، فبعث ولده بلايو صحبة

معن بن عبد العزيز حاكم سمّورة المسلم، إلى قرطبة طالباً عقد الصلح، فأجابه

المنصور إلى ما طلب، وانصرف راجعاً إلى أبيه (٢) .

ولم يعش برمودو طويلا

بعد ذلك، فتوفى سنة ٩٩٩ م، وخلفه في الملك ولده الطفل ألفونسو الخامس، تحت وصاية أحد الأشراف، ولزم مكانه في قاصية جلّيقية.

وقام المنصور بعد ذلك بعدة غزوات أخرى في أراضي النصارى، بيد أننا

لا نظفر في شأنها بتفاصيل دقيقة واضحة.

والظاهر من إشارة أوردها صاحب

---

(١) وردت هذه القصيدة في ديوان ابن دراج المتقدم ذكره (ص ٤٤٠ - ٤٤٣) .

ويلاحظ أنه قد ورد بها اسم " شنت ياقب "، " شنتياقة " وهو أقرب إلى اسمه الإسباني Santiago

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١.

(٥٦١/١)

البيان الغرب، أن المنصور قام بغزوة إلى نافار في سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) (١) ، وفى العام التالى أعنى في سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) سار المنصور إلى أراضي قشتالة

في جيش ضخم، وذلك أن الملوك والأمراء والنصارى " من حيز بنبلونة إلى أسترقة "، اتفقوا جميعاً بزعامة سانشو غرسية كونت قشتالة، على مقاومة المنصور والتفانى في قتاله، وحشد سائر أمراء البشكنس وقشتالة وليون قواتهم، وجمع سانشو غرسية سائر قواته في وسط قشتالة، في وادي دويرة الأدنى خلف

الحاجز الجبلى الوعر المسمى " صخرة جربيرة " Pena Cervera، وتعاهد الملوك

والأمراء النصارى على الثبات وعدم الفرار.

ورأى المنصور كعادته أن يبادر

أعداءه بالقتال، فسار في قواته تواً إلى مدينة سالم، ونفذ شمالا إلى أراضي قشتالة حيث يرابط أعداؤه، فلما أشرف على صخرة جربيرة، هاله ما رأى من وعورتها، وحصانة المراكز التي يحتلها العدو، ووفرة جموعه وعدده.

ورأى

سانشو أن يعجل بمهاجمة المسلمين، قبل أن يوطدوا مراكزهم، فاندفع النصارى في هجوم عنيف خاطف على المسلمين، فاضطربت ميمنة المسلمين
وميسرتهم، ودب الخلل إليهم، وعمد إلى الفرار كثير منهم، وكادت تدور عليهم الدائرة.
ولكن القلب، وكان يقوده ابنا المنصور عبد الملك وعبد الرحمن، ويتألف معظمه من فرق البربر القوية الباسلة، صمد أمام الموجة الهائلة، وهرع المنصور إلى رابية مشرفة على الموقعة، ومن ورائه خاصته وحاشيته، وهو يحث
رجاله وقادته على الثبات، فلم يمض سوى قليل حتى انقلبت الآية، وارتد، العدو في غير نظام، وتمكن أحد الزعماء البربر من قتل أحد كونتات بني غومس (٢)
وجاء برأسه؛ فضاعف المسلمون جهودهم، وشددوا الوطأة على النصارى، وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً، وطاردوهم إلى عدة مراحل حتى مزقوهم شر ممزق.
وكانت هذه الوقيعة في اليوم الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٣٩٠ هـ (٣٠
يوليه سنة ١٠٠٠ م) .
وخسر المسلمون في الموقعة أكثر من سبعمائة قتيل.
وتابع المنصور زحفه في أراضي قشتالة، وهو يدمر كل شيء في طريقه،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢١.
(٢) بني غومس يسمون كذلك في الرواية العربية، وهم أبناء غومس دياث Gomez Diaz
أحد زعماء ليون.
وقد تزوج ابنة كونت قشتالة فرنان كونثالث، وأصبحوا خلفاء له، وكانت أملاكهم في سالدانيا وكريون وسمورة.

حتى اقتحم عاصمتها " برغش " وذلك في يوم عيد الفطر (٤ سبتمبر) ، ثم واصل
سيره إلى سرقسطة، وقام من هنالك بغزوة في أراضي نافار، حتى أشرف على
عاصمتها بنبلونة.
وكل ذلك دون أن يجرأ أحد من النصارى على الوقوف في سبيله.
ثم عاد إلى قرطبة وقد أنفق في هذه الغزوات مائة يوم وتسعة أيام.
ووجه على
أثر عوده إلى قواده، كتاباً ليقرأوه في الجيش.
وفيه ينحى المنصور باللائمة على
جنده، لما بدا منهم من التخاذل والنكوص، ويذكرهم بأنه لولا شجاعة فئة
قليلة، منهم، عاونت بثباتها على إحراز النصر ومحو العار، لانتهى بإقالتهم
جميعاً (١) .
وكان لهذه الغزوة، وما لابسها من الظروف الدقيقة، أعظم وقع في الأندلس.
وكان لنصر جربيرة مغزى أعمق من أى نصر أحرزه المنصور.
وفيه يقول صاعد
شاعر المنصور مهنئاً، من قصيدة تعتبر من غرر قصائده:
جددت شكرى للهوى المتجدد..

.

وعهدت عندك منه ما لم يعهد
اليوم عاش الدين وابتدأ الهدى..

.

غضاً وعاد الملك عذب المورد
ووقفت في ثانى حنين وقفة..

.

فرأيت صنع الله يؤخذ باليد

من فاته بدر وأدرك عمره..

.

جربير فهو من الرحيل الأسعد

خملت ميامنهم عليك نشيجة..

.

كالسيل يحطم جلمداً عن جلمد

ما ناجزوك وفي الجوانح موضع..

.

لتصبُّر ومكانة لتجلُّد

طال الشقاء عليهم وتبرموا..

.

بالجيش في الذل المقيم المقعد

فتحالفوا لمحنث وتجمعوا..

.

لمفرق وتألفوا لمبدد

وفى ربيع سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) خرج المنصور إلى الغزو لآخر مرة، فاخترق أراضي قشتالة شمالا، ووصل في زحفه حتى بلدة قناليش الواقعة جنوبى

ناجرة، ثم سار غربا في اتجاه برغش وعاث في تلك المنطقة (٢) .

ولا تقدم الرواية

الإسلامية عن هذه الغزوة تفاصيل أخرى، ولا تحدثنا بالأخص عن أية موقعة حاسمة، وقعت بين المسلمين والنصارى.

ولكن بعض الروايات النصرانية

الإسبانية القديمة، تذكر لنا في هذا الموطن، أن القوات النصرانية المتحدة،

المكونة من جيوش برمودو ملك ليون، وغرسية فرناندز كونت قشتالة،

---

(١) راجع في تفاصيل هذه الموقعة الشهيرة: أعمال الأعلام ص ٦٩ - ٧٢.
(٢) راجع الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (طبعة القاهرة القديمة) ج ٢ ص ٧٢.

(٥٦٣/١)

وغرسية سانشيز ملك نافار، وقفت في وجه المنصور في ظاهر بلدة صغيرة تسمى
" قلعة النسور " (١) ، وتقع في غربى مدينة سرية، وأنه وقعت بين المسلمين والنصارى، موقعة هزم فيها المسلمون، وقتل منهم عدة آلاف، وأن المنصور انسحب في قواته تحت جنح الظلام، ثم توفى بعد ذلك بقليل حزناً وغماً، أو من
الجراح التي أصابته في الموقعة (٢) .
ولا بأس من أن نقدم هنا خلاصة لما تذكره الرواية النصرانية من تفاصيل الموقعة، وإليك ما يقوله في ذلك المؤرخ لافونتى.
ومما هو جدير بالذكر أنه
يرجع بداية حوادثها إلى سنة ١٠٠١ م، وفي هذا الوقت كان ملك ليون ألفونسو
الخامس الطفل ولد برمودو الثاني، وكان تحت وصاية مننندو كونثالث كونت جليقية وزوجته دونيا مايور، وكان يحكم قشتالة الكونت سانشو غرسيس ولد غرسى فرناندز، ويحكم نافار الملك سانشو غرسيس الكبير.
يقول لافونتى: إنه في هذه السنة أعنى سنة ١٠٠١ م، بدت في قلب اسبانيا المسلمة طلائع استعدادات عظيمة، وجمع ولاة شنترين وبطليوس وماردة كل قواتهم، وعبرت حشود عظيمة من الجند البربر إلى الجزيرة، وكانت هى الأمداد التي وعد بإرسالها المعز بن زيرى من المغرب إلى المنصور،

واجتمعت
جيوش إفريقية والأندلس والبرتغال المسلمة في طليطلة، فهل كان المنصور
يزمع
أن يضرب قشتالة التي أتعبته مقاومتها الضربة الأخيرة؟ لقد تفاهم سانشو
أمير قشتالة
مع قريبيه ملكى ليون ونافار على التعاون على مقاومة الجيش الإسلامى
العظيم، وأدرك الجميع ضرورة الاتحاد والتحالف.
واجتمعت الجيوش النصرانية المتحدة
في السهل الواقع جنوب مدينة سرية عند منابع دويرة، قريباً من مدينة نوماثيا
Numacia القديمة؛ وكان يقود جيوش ليون وجلّيقية والأسترياس الكونت
منندو وصى الملك الطفل ألفونسو الخامس، ويقود قوات قشتالة ونافار، كل
ملكها.
وقدم المسلمون، وقد انقسمت قواتهم إلى شطرين، قوات الأندلس
وقوات البربر؛ وساروا تواً نحو ضفاف نهد دويرة، حتى التقوا بالنصارى فى

---

(١) وهى بالإسبانية Calatanazor
(٢) Cronica General ; ibid ; Vol.
II.
p.
٤٤٩



مكان يسمى " قلعة النسور ".
ثم وقعت بين الفريقين مناوشات ختمها مقدم
الليل، وفي فجر اليوم التالى تأهب كل فريق، وحشد قواته، واختلط ضجيج
المسلمين بصيحات النصارى، وأصوات المزمار بدوى الطبول.

واشتبك
الفريقان بعنف، وأخذ زعماء كل فريق يحث رجاله ويشجعهم.
وكان المنصور
يثب هنا وهنالك كأنه نمر، وقد شقت فرسانه صفوف القشتاليين، وساءه ما لقى من مقاومة، فاندفعت قواته إلى الهجوم بعنف، واستمر القتال تحت جو قاتم من الغبار المتصاعد، حتى دخل الليل، فانفصل الجيشان دون أن يكتب
النصر لأحدهما.
وأصيب المنصور خلال القتال بجراح عديدة، فأوى إلى خيمته، وقد علم أن كثيراً من قادته قتلوا، وأدرك مبلغ الخسارة الفادحة التي حاقت بجيشه، فأصدر
أوامره قبل الصبح بالارتداد.
وعبر نهر دويرة، وهو على أهبة الحرب
حتى لا يفكر النصارى في مطاردته.
ثم شعر المنصور خلال السير بالإعياء
والخور، ولم يستطع أن يستمر فوق صهوة جواده لخطورة جراحه، فحمل فى محفة إلى مدينة سالم.
ثم يقول لافونتى: إن بعض مؤرخينا ومنهم ماريانا يحاول أن يرد هذه الموقعة إلى ما قبل ذلك بثلاثة أعوام، وأنه يوجد منهم من يقرنها بأخطاء ومغامرات
خرافية بل مضحكة.
تلك هى خلاصة التفاصيل التي تسبغها الرواية النصرانية على موقعة قلعة النسور.
ويلاحظ أن هذه الرواية ترجع الموقعة إلى سنة ١٠٠١ م، وأن المؤرخ يتحدث هنا عن طبقة جديدة من الملوك النصارى، وهم خلفاء أولئك الذين تزعم الروايات النصرانية الأخرى تحالفهم على قتال المنصور (١) .

وقد حاول بعض الباحثين الإسبان المحدثين، مثل سافدرا وكوديرا التدليل على صحة هذه الرواية وقبولها.

ولكن فريقاً آخر من أقطاب البحث الحديث وفى مقدمتهم دوزى، يرون بطلان هذه الرواية، ومخالفتها للحقائق التاريخية الثابتة. ذلك أن برمودو ملك ليون كان قد توفى في سنة ٩٩٩ م، وتوفى غرسية فرناندز كونت قشتالة في سنة ٩٩٥ م، وتوفى غرسية سانشيز ملك نافار في سنة ١٠٠٠ م،

---

(١) Modesto Lafuente: Historia General de Espana. T. III. p. ٢٤ - ٢٦

(٥٦٥/١)

فكيف تتحدث الرواية هنا عن تحالف الملوك الثلاثة، وقد ماتوا جميعاً قبل الموقعة المزعومة؟ هذا ومن جهة أخرى فإن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الموقعة، وهى لا تضن علينا في مواطن كثيرة بالتحدث عن هزائم المسلمين، وصمتها في هذا الموطن قرينة، على أنه لم يك ثمة موقعة ولا هزيمة (١) . ويعلل مؤرخ إسبانى معاصر هو الأستاذ مننديث بيدال، أصل هذه الأسطورة بكونه إنما يرجع إلى ما أحرزه سانشو غرسية كونت قشتالة، من نجاح جزئى في بعض الوقائع، وقد حرصت الأساطير القشتالية على تسجيل هذا النجاح، وعمدت

إلى المبالغة فيه شيئاً فشيئاً (٢) .
وعلى أثر اختتام الغزوة، ارتد المنصور بجيشه جنوباً، وقد لحقه الإعياء، واشتد به المرض، فترك جواده، وسار نحو أسبوعين محمولا على محفة، حتى وصل إلى مدينة سالم، وهى معقل الثغر المنيع؛ وكان من أعز أمانى المنصور أن
تدركه منيته خلال الغزو، مجاهداً في سبيل الله، وكان دائماً يحمل معه أكفانه
حيثما سار إلى الغزو، وهى أكفان صنعت من غزل بناته، واشتريت من خالص
ماله الموروث.
وقد استجاب الله دعاءه، فما كاد يحل بمدينة سالم، حتى شعر
بدنو أجله، فاستدعى ولده عبد الملك، وألقى إليه نصائحه الأخيرة.
وفى ليلة
الإثنين ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢، الموافق ١١ أغسطس سنة ١٠٠٢، توفى المنصور
محمد بن أبي عامر، ودفن كرغبته في صحن قصر مدينة سالم، وذلك لسبعة وعشرين
عاماً من حكمه، وعمره أربعة وستون عاماً، إذ كان مولده في سنة ٣٢٨ هـ،
ونقش على شاهد قبره هذان البيتان:
آثاره تنبيك عن أخباره..
.
حى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله..
.
أبداً ولا يحمى الثغور سواه (٣)
ولبث قبر المنصور بمدينة سالم عصوراً، مزاراً معروفاً، وذلك بالرغم من

(١) راجع: Dozy: Recherches: Vol.
I.
p.
١٩٨ - ٢٠٢ ؛ Hist.
V.
II.
p.
٢٦٨
وقد لخص العلامة المستشرق كونثالث بالانثيا آراء الفريقين في كتابه:
Historia de la Espana Musulmana (4a Ed.
( p.
٥٧ & ٥٨.
(٢) R.
M.
Pidal: Historia y Epopya p.
٢١
(٣) الحلة السيراء ص ١٥١.

(٥٦٦/١)

استيلاء النصارى على المدينة، منذ أواخر القرن الحادى عشر.
ويروى لنا ابن
الخطيب، أنه عهد إلى بعض رسله ممن وجههم إلى قشتالة، لتأكيد عقد
الصلح
مع ملكها، بأن يزور في طريقه مدينة سالم، وأن يشاهد قبر المنصور، وأن
هذا

الرسول قد أخبره عند عوده، أن القبر ما يزال قائماً في مكانه إلا أن رسومه
من
شعر منقوش، وتاريخ مثبوت، قد عفت ومحيت آثارها، وقد كان ذلك فيما
يبدو
في وزارة ابن الخطيب الثانية فيما بين سنتى ١٣٦١ و١٣٧٠ م (١) .

---

(١) أعمال الأعلام ص ٨١.

(٥٦٧/١)

الفصل الثاني

خلال المنصور ومآثره

الناصر والمنصور.

المنصور يشق طريقه إلى السلطان.

وسائله في ذلك.

جيش المنصور وأهباته.

شغفه بالجهاد.

نتائج غزواته.

الصوائف الإسلامية.

عقمها وأثرها في إنهاك الجيوش الإسلامية.

عبقرية المنصور الإدارية.

استقرار الأمن والرخاء في عهده.

وزراء المنصور وكتابه.

أعماله الإنشائية.

توسيعه للمسجد الجامع.

تجديده لقنطرة قرطبة وإنشاؤه لقنطرة إستجة.

جوده وبذله.

مفاخرته
بنشأته المتواضعة.
صرامته في إقامة العدل.
شغفه الشراب.
براعته العلمية والأدبية.
رعاية
العلماء والأدباء.
صاعد البغدادى شاعر المنصور.
ديوان الندماء.
مجالس المنصور الأدبية.
شغفه بجمع
الكتب.
مقته للفلسفة والتنجيم.
شعره ونثره.
وصيته لابنه عبد الملك.
وصيته لغلمانه.
علائقه
الدبلوماسية.
مصاهرته لسانشو غرسية ملك نافار.
وفود سانشو إلى الزاهرة.
عبد الرحمن ولد المنصور
وحفيد سانشو.
إشادة الروايات الإسلامية بعظمة المنصور وخلاله.
إشادة النقد الغربى بعبقريته
السياسية والعسكرية.
كان المنصور بن أبي عامر عبقرية فذة، تمثل ذروة النبوغ الشعبى،

والطموح الفردى؛ فقد خرج المنصور من صفوف الطبقة الوسطى، وشق طريقه
بساعده وهمته إلى السلطان والرياسة، ولم تسعفه في ذلك نشأة ملوكية، أو انقلاب
عنيف، ولم يكن عزمه في بلوغ ذلك أقل شأناً من تألق طالعه، وقد وصل
المنصور إلى مرتبة من السلطان والقوة، لم يصل إليها أحد قبله من أعاظم أمراء
الأندلس حتى ولا عبد الرحمن الناصر نفسه.
ويمكننا أن نقول إنه إذا كان عهد
الناصر ألمع صفحة في تاريخ اسبانيا المسلمة، من النواحى السياسية والحضارية،
فإن عهد المنصور لا يقل عنه لمعاناً وتألقاً، بل ربما امتاز على عهد الناصر،
بما أحرزته اسبانيا المسلمة خلاله، من تفوق عظيم في السلطان والقوى العسكرية،
في شبه الجزيرة الإسبانية.
فقد استطاعت إسبانيا النصرانية في عهد الناصر، أن
تنتهز فرصة الفتن الداخلية بالأندلس، وأن توطد قواها العسكرية، وأن تغزو
الأندلس غير مرة غزوات مخربة، وقد لقى الناصر على يد النصارى غير هزيمة
فادحة، أما في عهد المنصور، فقد انتهت اسبانيا النصرانية إلى حالة يرثى لها من
التفكك والضعف، واستمرت زهاء ثلث قرن تتلقى ضربات المسلمين الساحقة

المتوالية.
وقد وصل المنصور في غزواته في شبه الجزيرة الإسبانية، إلى مواطن
لم يبلغها فاتح مسلم من قبل.
بدأ المنصور حياته في حلبة العلم والدرس، ولكن سرعان ما تفتحت مواهبه
الإدارية والسياسية، فجاز مراتب المناصب السلطانية بسرعة، وظهر في كل
منها
بفائق كفايته وحزمه.
وما كاد يختفى الحكم المستنصر من الميدان ويقوم ولده
الطفل هشام في الخلافة، حتى تبلورت مطامع المنصور، واتجهت تواً إلى
غايتها
البعيدة، فكان الصراع مع الفتيان الصقالبة، ثم مع الحاجب جعفر، ولم يتح
بعد ذلك لأية قوة معارضة أن تقف في سبيله.
ولما اجتمعت سائر السلطات في يده، اتشح بثوب الحاكم المطلق، الذى لا
يطيق أية مشاركة في سلطانه أو أى اعتراض
لرأيه، ولم يدخر وسعاً في أن يخمد أية نزعة للخروج أو الثورة على حكمه.
وهنا تبرز النواحى القاتمة في عبقرية المنصور، فنراه يلجأ في تدعيم سلطانه
وحمايته
إلى نفس الوسائل الميكيافيللية التي يلجأ إليها الطغاة دائماً في كل قطر، وفي
كل
عصر: إلى القتل، والغيلة، والخديعة، وكل ضروب العنف المثير، ونراه
يسير إلى تحقيق الغاية بأى الوسائل، ولا يعف في ذلك السبيل عن ظلم يقع،
أو دم
يسفك، حتى ولو كان دم ولده بالذات.
على أن هذه الوسائل المثيرة التي كانت سياجاً لسلطان المنصور، ودعامة
لدولته، والتي هى دائماً من لوازم الحكم المطلق، يجب ألا تحول أنظارنا عن
حقيقة ناصعة أخرى، وهى أن المنصور لم يستخدم هذا السلطان إلا لخير

دينه، وخير الأمة التي نصب نفسه حاكماً عليها، ومشرفاً على مصايرها؛
ولعل الإسلام
في شبه الجزيرة الإسبانية، لم يظفر قط بمجاهد في بطولة المنصور، وتفانيه
فى
الذود عن دينه، وإعلاء كلمته، ولعل الأندلس لم تر قط مثل المنصور، زعيماً
أخلص في خدمتها، وكرس جهوده ومواهبه في بناء قوتها وعظمتها، وسحق
عدوها، وتحقيق أمنها ورخائها.
وقد أدرك المنصور منذ البداية، أنه يجب لتحقيق سلام الأندلس وأمنها، وردع
الممالك النصرانية عن عدوانها المستمر، أن يكون للأندلس قوة عسكرية
عظيمة، تكفى لإرهاب عدوها، وإعزاز دينها، ومن ثم فقد بذل جهده لإصلاح
الجيش الأندلسي، وتقويته، وتزويده بأفضل العناصر المحاربة.
وقد رأى

(٥٦٩/١)

المنصور أن يعتمد على البربر بالأخص، لما كانوا يتصفون به من البداوة
والشجاعة، فاستقدمهم من العدوة، ورغبهم بوفرة البذل والعطاء (١) .
وكذلك استخدم
المرتزقة من النصارى الإسبان، ومنحهم الأجور والجرايات السخية؛ وكان
يجمع
في جيشه الكثير منهم، ومعظمهم من المستعربين، وكان يحرص على
رضائهم
بتوسيع النفقة عليهم، معاملتهم بالمساواة والرفق (٢) .
واستطاع المنصور بما وضعه
للجيش من أنظمة محكمة، وما أفاض عليه من وافر النفقة والعدد، أن ينشىء
للأندلس قوة عسكرية عظيمة، لم تعرفها في أية عهد آخر.
وكانت هذه القوة

فضلا عن كونها دعامة سلطانه وحكمه، دعامة الأندلس وأداتها للدفاع
والغزو.
ونستطيع أن نقدر أهمية الجيش الأندلسي وكفايته أيام المنصور، متى ذكرنا
أن
المنصور لبث زهاء ربع قرن، يقود قواته إلى الغزو المستمر، في أراضي
الممالك
النصرانية، كل ربيع وكل صيف، وأنه في نفس الوقت كان يبعث الحملات
العسكرية العظيمة إلى المغرب، لتخوض سلسلة من الحروب الطاحنة.
وقدِ بلغ
من كثرة قوى الجيش النظامية وكفايتها، أن أصدر المنصور في سنة ٣٨٨ هـ
(٩٩٨ م)
أمره بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو، اكتفاء بعدد الجيش المرابط، وقرأ
الخطباء ذلك المرسوم على الناس، إثر قراءة كتب الفتح، وعرفوا فيه " بأن
من
تطوع خيراً، فهو خير، ومن خف إليه، فمبرور ومأجور، ومن تثاقل
فمعذور " (٣) .
وقد أورد لنا ابن الخطيب (عن التيجانى) بعض الإحصاءات الهامة عن
جيش
المنصور، فذكر لنا أن الجيش المرابط (الثابت) بلغ في عهده من الفرسان
اثنى عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات، جميعهم مرتزقون في
الديوان، يصرف لهم السلاح والنفقة والعلوفة.
وكان عدد الحرس الخاص ستمائة فارس
غير الأتباع.
وانتهى عدد الرجالة في الجيش المرابط إلى ستة وعشرين ألف راجل.
وكان عدد الجيش المرابط يتضاعف وقت الصوائف بما ينضم إليه من
صفوف

المتطوعة.
وقد بلغ عدد الفرسان في بعض الصوائف ستة وأربعين ألفاً، وكان
عدد المشاة يتضاعف كذلك، وقد يبلغ المائة ألف أو تزيد.

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ و٣١٥ و٣١٦.
(٢) Simonet: Historia de los Mozarabes de Espana
(Madrid 1897) p.
٦٣٠
(٣) أعمال الأعلام ص ٦٨.

(٥٧٠/١)

وأورد لنا ابن الخطيب أيضاً، بيانات مفصلة مما كان يقتنيه المنصور من
عتاق
الخيل برسم الجهاد، ومطايا الركوب، ودواب الحمل، وقد بلغت وحدها
أربعة آلاف جمل خصصت لحمل الأثقال.
وأما عن عُدة الحرب، فقد كان المنصور يحتفظ بكميات عظيمة من الخيام
والسهام والدروع، والتراس، وعدد من المجانيق وغيرها من آلات الحصار (١)
.
وكان المنصور يضطرم شغفاً بالجهاد في سبيل الله، وكانت غزواته التي
زادت على الخمسين، فضلا عن كونها عنوان هذا الجهاد المستمر، ترمى إلى
غاية
عسكرية وسياسية فطنة، هى تحطيم قوى اسبانيا النصرانية، وردعها بذلك عن
العدوان على أراضي المسلمين.
وقد تحققت هذه الغاية في أواخر عهد المنصور
على أكمل وجه.
وقد عنى مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان - وقد عاش قريباً

من ذلك العصر – بتفصيل هذه الغزوات في مؤلف ضخم سماه " بالمآثر العامرية "

واستخرجه من تاريخه الكبير " المقتبس " (٢) .

وكان من نتائج هذه الغزوات أن

امتلأت الأندلس في عصر المنصور بالغنائم والسبى من بنات الإسبان وأولادهم

ونسائهم، وتغالى الناس في تجهيز بناتهم بالثياب والحلى والمال، وذلك لرخص بنات

الإفرنج وركود سوق الزواج (٣) .

وبلغ من شغف المنصور بالجهاد، أنه كان يتولى القيادة بنفسه في سائر غزواته

الصائفة والشاتية، ولم يقعده شيء عن القيادة، والإشتراك الفعلى في كثير من المعارك، حتى أننا نراه في آخر غزواته يتولى القيادة بالرغم من مرضه، ويسير محمولا على محفة، ثم يقضى نحبه عقب الغزو، بين يدى جنده وفي معقل

الثغر، بعيداً عن قصوره، ومهاد راحته ونعمائه.

وكان يحرص في سائر غزواته، على أن يستخلص ما يعلق بوجهه أو ثيابه من الغبار، أثناء المعارك التي يخوضها، فكان يمسحه بمناديل اجتمعت له منها رزمة كبيرة، كان يحملها معه دائماً، حتى

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩٩ و ١٠١ و ١٠٢.

(٢) جذوة المقتبس للحميدى (القاهرة ١٩٥٢) ص ٧٤، والحلة السيراء ص ١٤٩، والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ٢١.

وذكر لنا ابن الخطيب اسم هذا المؤلف كاملا وهو:

" أخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة " كما ذكر لنا

أنه يحتوى على أكثر من مائة سفر (أعمال الأعلام ص ٩٨) .
(٣) المعجب ص ٢١.

*(٥٧١/١)*

إذا وافته المنية ضمت إلى أكفانه، ودفنت معه تنفيذاً لوصيته (١) .
ومما يؤثر عن علائق المنصور بجيشه، أنه كان لقوة ذاكرته، يعرف كثيراً
من جنده بالإسم.
أو يعرف على الأقل كثيراً ممن امتاز منهم خلال المعارك
بالإقدام والشجاعة، ويدعوهم إلى مائدته في المآدب الكبيرة، التي اعتاد أن
يقيمها
لجنده عقب كل انتصار.
بيد أننا نستطيع أن نلاحظ بعد كل ذلك، أن سياسة المنصور العسكرية
وغزواته المتوالية المظفرة، وإن كانت في الأصل تنطوى على غاية عسكرية
وسياسية
بعيدة المدى، هى سحق اسبانيا النصرانية، لم تؤت ثمارها إلا في حيز ضيق،
هو
ردع اسبانيا النصرانية، وكف عدوانها عن الأراضي الإسلامية، ولم تقصد
بالفعل
إلى الغاية الحاسمة، وهى القضاء على قوة اسبانيا النصرانية وسحقها بصورة
نهائية، وهى غاية قصرت سياسة اسبانيا المسلمة عن العمل لها منذ البداية،
ومن ثم فقد
استطاعت الممالك الإسبانية النصرانية، أن تعيش، وأن تنمو قواها تباعاً، وأن
تغدو بمضى الزمن، مناوئاً خطراً لاسبانيا المسلمة، يستغرق قواها باستمرار،
ويشغلها في كفاح مدمر مستمر.
وهنا، وعلى ضوء هذا الكفاح العقيم الذى استمر أجيالا بين اسبانيا المسلمة
واسبانيا النصرانية، لا نرى مندوحة، من أن نحكم على سياسة الصوائف أو

الغزوات الإسلامية العارضة، التي كانت تقليداً عسكرياً إسلامياً، في معظم
الدول الإسلامية المتاخمة للدول النصرانية، فنقول إنها كانت من الناحية
العسكرية
تقوم على أسلوب خاطىء، وقد كانت تنهك الجيوش الإسلامية بقدر ما تنهك
جيوش العدو، ولم يكن لها غاية محدودة مستقرة.
وليس أدل على ذلك من
تاريخ الصوائف أو الغزوات الإسلامية الموسمية أيام الدولة العباسية في
أراضي
الدرلة البيزنطية، فقد كان معظمها حملات غازية تقصد إلى العيث في أرض
العدو، وإلى إحراز الغنائم المؤقتة الإقليمية وغيرها، ولم تنجح في تحطيم قوى
الدولة البيزنطية أو سحقها.
وقد كان عقم هذه الغزوات العارضة أشد وأوضح فى
الأندلس، حيث لبثت الدولة الأندلسية، إبان قوتها وتفوقها، عصوراً، تقتصر
على الصوائف وما إليها من الغزوات الموسمية برسم الجهاد أو الانتقام من
العدو،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠، والمعجب ص ٢١.

(٥٧٢/١)

وتنهك بذلك قوى الجيوش الإسلامية ومواردها بصورة مستمرة، وذلك دون أن
تحقق غاية ثابتة مستقرة، أو توفق إلى القضاء على القوى الخصيمة بصورة
حاسمة.
ولقد اجتمعت لاسبانيا المسلمة في عصر المنصور أعظم القوى والموارد
العسكرية
التي اجتمعت لها في أى عصر سابق أو لاحق، وكانت هذه القوى الزاخرة،
التي

كان رائدها المنصور، – وهو أعظم شخصية سياسية وعسكرية، أتيح لها أن تقود

الأندلس، وأن تسهر على مصايرها – كانت هذه القوى كفيلة بسحق الممالك الإسبانية النصرانية لو أنها وجهت نحو هذه الغاية توجهاً صائباً ويقدر النقد الإسبانى الحديث نفسه هذه الحقيقة، فيقول لنا إن غزوات المنصور ودفعه حدود

النصارى إلى ما وراء نهر دويرة، وافتتاحه لقلمرية وسمورة وليون وشنت ياقب وكويانسا وشنت منكش وأوسمة وبرشلونة، دفع اسبانيا النصرانية إلى حافة الخراب تقريباً، وقضى هذا البعث لقوة الإسلام على كل أمل في " الإسترداد " (La Reconquista (1 .

ولكن غزوات المنصور على كثرتها، وعلى ما أسبغ عليها من طابع النصر المستمر، لم تخرج كثيراً عن حيز الصوائف والغزوات الإسلامية العارضة، التي

لا تحقق أية غاية مستقرة ثابتة.

وأما عن مقدرة المنصور في الإدارة والحكم، فإن الكلام فيها حرى بأن يطول، فقد أبدى المنصور طوال حياته كفاية إدارية مدهشة، وظهر في سائر المناصب

التي أسندت إليه، مذ تولى وكالة هشام ولى العهد، فأمانة دار السكة والخزانة،

ثم خطة المواريث، فخطة القضاء، ثم الشرطة، فالإشراف على الحشم والخاص،

ظهر فيها جميعاً ببراعته وحصافته، وحسن تصريفه، ثم ظهرت هذه المقدرة على

أتمها مذ ولى الحجابة، واستأثر بسائر السلطات، واحتمل فوق كاهله سائر المسئوليات الكبرى.

فقد غدا المنصور زعيم الأندلس، وحاكمها الأوحد،

والمشرف على مصايرها في الحرب والسلم؛ وقد أبدى المنصور في اضطلاعه بتلك
المهمة العظمى، مقدرة فائقة، لم يبدها أحد من أسلافه.
فلم تر الأندلس من قبل
استقراراً كالذى رأته في عهد المنصور، ولم تتمتع قط بمثل ما تمتعت به في عهد
المنصور، من الأمن والطمأنينة والدعة.
وكانت أيام المنصور بالأندلس كلها

---

(١) Simonet: Historia de los Mozarabes de Espana ; p. ٦٢٩

(٥٧٣/١)

أيام فخار وظفر ورخاء ورغد، لم تعان خلالها من غزوات العدو المخربة، ولم تصب فيها بأية هزيمة ذات شأن، ولم تضطرم فيها أية ثورة أو فتنة، وفيها ازدهرت
الزراعة والتجارة والصناعة، وزهت العلوم والآداب، وعم الخصب والرخاء
في جنبات الأندلس، وفاضت خزائن قرطبة بالأموال، ووصل محصل الجباية
يومئذ إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) سوى رسوم المواريث، وسوى
مال السبى والغنائم، وما ينتج من المصادرات وأمثالها مما لا يرجع إلى قانون.
وكانت النفقات السلطانية تبلغ في الشهر نحو مائتى ألف دينار، فاذا دخل شهر
يونيه، وحلت الصائفة، تضاعفت النفقة بسبب الاستعداد للغزو، ووصلت إلى
خمسمائة ألف في الشهر أو أكثر (١) .

وكانت حكومة المنصور تضم عدة من أقدر رجالات الأندلس في هذا العصر ما بين وزراء وكتاب.

وكان من وزرائه، أبو مروان عبد الملك بن شهيد، ومحمد بن جَهور، وعيسى بن فُطيس، وأبو عبد الله بن عياش، وأحمد بن محمد
ابن حدير، ومحمد بن حفص بن جابر، وأحمد بن سعيد بن حزم والد الفيلسوف
الشهير، وكان من أقدر وزراء المنصور وآثرهم لديه، وكان المنصور قد استوزره
قبل سائر أصحابه في سنة ٣٨١ هـ، وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه على المملكة
في أوقات معينة، ويعهد إليه بخاتمه؛ والظاهر أنه لما بلغ ذروة النفوذ
والسلطان، شمخ بأنفه، وبدرت منه بوادر الدالة والاعتداد، فتغير عليه المنصور، وأقصاه عن
خدمة الوزارة، وبعثه إلى كورة الغرب لينظر في شئونها، ثم عاد بعد قليل فأعاده
إلى حسن رأيه، ورده إلى منصبه في الوزارة، وكان ابن حزم من أكابر أهل العلم
والبلاغة (٢) .

وكان من كتاب المنصور عيسى بن سعيد القطاع، رهو من أقدم
كتابه، وكان من أنصاره ومعاونيه منذ أيام الحكم، فبلغ في ظله وتحت كنفه
أرفع مكانة، وكان فوق ذلك من أخصائه ورفاقه في مجالس أنسه ترتفع بينهما
الكلفة؛ وكان منهم، أبو مروان عبد الملك بن إدريس الخولانى، وخلف
ابن حسين بن حيان والد المؤرخ، وغيرهم.

وكانت هذه الصفوة من الوزراء
والكتاب، الذين ينتمى معظمهم إلى أسر عريقة تعاقب أبناؤها في الوزارة، مثل
آل شُهيد، وآل عبدَة، وآل جَهور، وآل فُطيس، وآل حُدير وغيرهم،

---

(١) أعمال الأعلام ص ٨٩.

(٢) كتاب " إعتاب الكتاب " لابن الأبار - مخطوط الإسكوريال - لوحة ٥٣ و ٥٤.



ممن حملوا عمد الدولة الأموية، وعملوا على توطيد دعائمها، تعمل مع المنصور
على تسيير دفة الحكم بمقدرة فائقة.
وكان من هؤلاء الوزراء من يتصل بالمنصور
برباط المودة الشخصية الوثيقة، ويشاطره شغفه بالشعر والأدب، ويغشى مجالس
أنسه وشرابه، مثل عبد الملك بن شهيد، وأبى عبد الله بن عياش، وعيسى ابن سعيد.
هذا وكان ممن اشترك مع المنصور في الحجابة في بداية عهده، بعد
المصحفى، جعفر بن على بن حمدون الأندلسي، والقائد غالب بن عبد
الرحمن، الذى جمع بين القيادة والحجابة حيناً، وقد رأينا كيف لقى كل منهما مصرعه بعد
ذلك على النحو الذى تقدم ذكره (١) .

* * *

ولم يحل انشغال المنصور طوال عهده بالغزو المستمر، عن القيام بأعمال الإنشاء العظيمة.
فقد أنشأ مدينة الزاهرة، وقصورها المنيفة، وحدائقها الغناء، واتخذها كما تقدم مركزاً للإدارة والحكم.
ثم ابتنى إلى جانبها منية جميلة ذات قصر
وحدائق رائعة، يرتادها للاستجمام والتنزه، وسماها "بالعامرية".

وقد كان
جمال هاتين الضاحيتين العامريتين، مستقى للأوصاف الشعرية والنثرية
الرائعة.
ومما قيل في العامرية أبيات لعمرو بن أبي الحباب أنشدها، وقد دخل يوماً
على
المنصور بقصر المنية، والروض قد تفتحت أزهاره:
لا يوم كاليوم من أيامك الأول..
.
بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها في جميع الدهر معتدل..
.
طيباً وإن حل فصل غير معتدل
ما إن يبالى الذى يحتل ساحتها..
.
بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل
كأنما غرست في ساعة وبدا السـ..
.
وسان من حينه فيها على عجل (٢)
وكان من أعظم وأجل أعمال المنصور زيادة المسجد الجامع.
وكانت قرطبة
قد اتسعت رقعتها اتساعاً عظيماً منذ أيام الناصر، واضطرد هذا الاتساع في
أيام
المنصور حتى بلغت مبلغاً عظيماً، وبلغت أرباض المدينة أعنى أحياؤها
يومئذ

---

(١) راجع في ذكر وزراء المنصور: البيان المغرب ج ٢ عى ٢٨٦ و٢٨٧

و ٢٩٠
و ٢٩٩، وأعمال الأعلام ص ٧٠ و٧٥ و ٨٠، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤، والذخيرة، القسم الرابع، المجلد الأول ص ١٧ و٥٦.
(٢) راجع بعض هذه القصائد والأوصاف في البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٦ و٢٩٧، ونفح
الطيب ج ١ ص ٢٧٢ و٢٧٣.

(٥٧٥/١)

إحدى وعشرين ربضاً " كل ربض فيها يعد أكبر مدينة من مدائن الأندلس ".
وقد ذكر ابن الخطيب لنا أسماءها ومواقعها تفصيلا، وبلغ خندقها المحيط بها ما عدا ناحية النهر سبعة وأربعين ألف وخمسمائة ذراع أى ستة عشر ميلا (١) ، وزاد سكانها في نفس الوقت زيادة كبيرة، ولاسيما منذ مقدم طوائف البربر
الكثيرة عليها، في بداية عهد المنصور، وضاقت رحبات المسجد الجامع برواده، ولاسيما في أيام الجمع.
فرأى المنصور أن يقيم للجامع من ناحيته الشرقية جناحاً
جديداً، لأن ناحيته الغربية كانت متصلة بالقصور الملكية.
وشرع في إنشاء هذا
الجناح في سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ، فأقيم بحذاء الجامع من شماله إلى جنوبه، على
رقعة شاسعة تكاد تعدل مساحته الأصلية، وروعيت في إنشائه البساطة والمتانة
قبل الزخرفة، كما روعى التماثل والمطابقة للصرح القديم؛ ونزعت من أجل ذلك ملكية عدد كبير من الأماكن والدور، حرص المنصور على أن ينصف أصحابها فيما يستحقونه من ثمن أو معاوضة.
وتضاعف حجم المسجد الجامع بهذه

الزيادة، وأضحى يحتل رقعة عظيمة شاسعة تبلغ في الطول مائة وثمانين متراً، وفى العرض مائة وخمسة وثلاثين متراً.
وكان يشتغل فيه عدد كبير من الأسرى
النصارى، الذين أخذوا في مختلف المعارك.
وكان المنصور يشترك بنفسه أحياناً
في أعمال البناء.
وبلغ عدد سواريه ما بين كبيرة وصغيرة، ألف وأربعمائة وسبعة عشرة، وبلغت ثرياته ما بين صغيرة وكبيرة مائتان وثمانون، وبلغ عدد المكلفين
بالخدمة به في عهد المنصور، ما بين أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وغيرهم
مائة وخمسون شخصاً، وكان الجامع وما حوله يعتبر وحده ربضاً مستقلا يتولاه
عريفه وحراسه على حدة (٢) .
ومازال جناح المنصور بمسجد قرطبة الجامع حتى
اليوم، قائماً بسائر رحابه وعقوده وسواريه، وذلك بالرغم من تحويل عقوده الجانبية إلى كنائس وهياكل، ويعرفه الأثريون " بمسجد المنصور " (٣) .
وجدد المنصور قنطرة قرطبة القائمة على نهر الوادي الكبير، وراء المسجد

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٣.
(٢) أعمال الأعلام ص ١٠٣.
(٣) راجع في زيادة المنصور للمسجد الجامع، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ – ٣٠٨، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٥٧.
وراجع كتابى " الآثار الأندلسية الباقية " حيث يوصف جامع قرطبة
بحالته الحاضرة تفصيلا الطبعة الثانية (ص ٢٠ – ٣١) .

الجامع، وكانت في الأصل قنطرة رومانية، فجددها السمح بن مالك أمير
الأندلس
ثم جاء المنصور فجددها، وأعاد بناءها، وذلك في سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) ،
وتم
بناؤها في سنة ونصف، وبلغت النفقة عليها مائة وأربعين ألف دينار، وعظم
بها
نفع القرطبيين.
وابتنى المنصور كذلك قنطرة إستجة على نهر شنيل، فرع الوادي الكبير،
واقتضى إنشاؤها كثيراً من الجهد والنفقة، ولكنها حققت تسهيلات عظيمة، فى
مواصلات قرطبة بالقواعد والولايات الغربية والجنوبية (١) .
***

وكان المنصور، على الرغم من صرامته، وما لجأ إليه لتوطيد حكمه من
الوسائل المثيرة، يتسم بصفات عديدة مؤثرة، فقد كان جواداً وافر الجود
والبذل، يغدق صلاته على من يستحقها من العاملين معه والمتصلين به،
وعلى الفقراء وذوى
الحاجات، وله في ذلك حكايات كثيرة.
وكان يفاخر بنشأته المتواضعة، ويقلل من شأن نفسه.
وذكر المؤرخ ابن حيان
في كتابه في " أخبار الدولة العامرية " عن والده خلف بن حيان كاتب
المنصور، أن المنصور لامه ذات يوم لأمر من الأمور، فبدا عليه الفزع،
فأشفق عليه
المنصور وهدأ من روعه؛ ثم خلا به بعد أيام وقال له: " رأيت من ذعرك
ما استنكرت، ومن وثق بالله برىء من الحول، والقوة لله، وإنما أنا آلة من
آلاته أسطو بقدرته، وأعمل عن إذنه، ولا أملك لنفسى إلا ما أملك،..

.
فطمئن جأشك، فإنما أنا ابن امرأة من تميم طالما تقوت بثمن غزلها، أغدو به
إلى
السوق، وأنا أفرح الناس بمكانه، ثم جاء من أمر الله ما تراه، ومن أنا
عند الله لولا عطفى على المستضعف المظلوم، وسيرى لجهاد الطاغية " (٢)
.
وكان ورعاً، شديد الإيمان واليقين، يخشى ربه، ويزدجر إذا ذكر الله
وعقابه.
وكانت هذه أعجب الخلال في رجل كالمنصور، لم يعف عن سفك
الدماء في سبيل تحقيق أطماعه.
ولكنها حقيقة تنوه بها الرواية الإسلامية وتؤكدها، ومن دلائلها أن المنصور،
كان يحمل معه في سائر غزواته وأسفاره مصحفاً

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩، ونفح الطيب ج ١ ص ١٩١، وأعمال
الأعلام ص ٧٦
(٢) إعتاب الكتاب لابن الأبار - مخطوط الإسكوريال - لوحة ٥٦.

*(٥٧٧/١)*

خطه بيده، يقرأ فيه ويتبرك به في كل مناسبة (١) .
وكذلك تنوه الرواية بعدالة المنصور، وصرامته في إحقاق الحق، والانتصاف
لذوى المظالم.
وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب عدة أمثلة رفعت فيها الظلامات
إلى المنصور ضد بعض أكابر خدمه وحاشيته، ممن كانوا يظنون أن
مراكزهم
تحميهم من إجراء العدالة، فأمر المنصور بالانتصاف منهم لذوى الظلامات.
وكان

يقترن بهذه الصفة، خلة محمودة أخرى، هى تذرعه بالحلم والصبر، وضبط النفس في أموركثيرة، وذلك بالرغم مما كان عليه من الهيبة والرهبة والسلطان (٢) ، ولكن الرواية تنعى على المنصور خلة سيئة، هى شغفه بمعاقرة الخمر، وقد

لازمته هذه الرذيلة طوال حياته، ولم يقلع عنها إلا قبل وفاته بعامين.

ويصف

لنا ابن الخطيب كيف كان المنصور يصل في العمل يومه بليله، وهو عاكف على الشراب، في تلك الفقرة البليغة: " وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذى لم يخلعه، إلى أن وصل إلى ربه، والحزم والحذر شعاره الذى لم يفارقه طول حياته، والنصب والسهر شأنه في يومه وليله، لا يفضل لذة على تدبيره، وحلاوة نهيه وأمره، فينفذ الأمور، والكأس تدور، والجبال للطرب تمور " (٣)

.

***

بقيت من خلال المنصور ناحية ربما كانت ألمع خلاله جميعاً، وتلك هى الناحية العلمية.

نشأ المنصور حسبما رأينا في بيت علم وأدب، ودرس وفقاً لتقاليد أسرته دراسة حسنة، وبرع في الشريعة والأدب، وكان حرياً به أن يتبوأ مكانه بين علماء عصره، لولا أن شاءت الأقدار أن تدفع به إلى معترك السياسة والسلطان.

على أن المنصور لبث بالرغم من مشاغل هذا المعترك السياسى الخضم، يحتفظ طول حياته بشغفه بالعلم والادب، ويوثق صلاته بالعلماء والأدباء والشعراء

ويؤثرهم بحبه وعطفه، ويجمعهم حوله في أوقات فراغه وسويعات لهوه وأنسه، ويساجلهم البحث والمناظرة، ويطارحهم قرض الشعر، ذلك لأن المنصور كان شاعراً أيضاً، وله نظم حسن سوف نورد شيئاً منه.

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ و٣١٠، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ - ٣١٢، والحلة السيراء ص ١٥١.
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠، وأعمال الأعلام ص ٧٥.

*(٥٧٨/١)*

وكان من أخص جلسائه الأدباء، الكاتب البغدادى، أبو العلا صاعد ابن الحسن.
وكان قد وفد من المشرق على الأندلس سنة ٣٨٠ هـ، والمنصور في أوج سلطانه، فأراد المنصور أن يجعل منه قريناً لأبى على القالى، الوافد من قبل
على الناصر والحكم، فقربه وأذن له أن يجلس بجامع مدينة الزاهرة، يملى كتابه
المسمى " بالفصوص " على أدباء قرطبة، وهو كتاب في الآداب والأخبار والأشعار، ولكن أدباء قرطبة أنكروا ما ورد فيه، وكذبوه في كثير مما يلقيه، وفضحوا كثيراً من سرقاته الأدبية والشعرية (١) .
ومع ذلك فقد كان صاعد أديباً
بارعاً، خفيف الروح، متوقد الذهن، حاضر البديهة، وكان يأتى بكثير من غريب الشعر بداهة، فأعجب به المنصور، وأولاه رعايته، وألحقه بديوان الندماء، وأجرى عليه راتباً حسناً؛ وكان بهذا الديوان بعض أدباء العصر مثل زيادة الله بن مضر الطبنى، وابن العريف، وابن التيانى، وغيرهم.
وغدا صاعد
شاعر المنصور ينظم له المدائح والطرف، ويصطحبه المنصور في نزهاته برياض
الزاهرة، وينظمه في مجالس أدبه وأنسه.
وقد أورد لنا ابن بسام وصفاً مسهباً
لهذه المجالس الأدبية، التي يجتمع فيها المنصور بخلانه وندمائه ومنهم

صاعد، وأورد لنا كثيراً مما قيل فيها من النظم.
وقد كان بعض الفتيان الصقالبة من بطانة
المنصور، يأخذ بقسط حسن من الشعر والأدب، ويغشى مجالس
المنصورالأدبية
ويشترك في المطارحات الشعرية، وكان من أشهرهم الفتى فاتن، وكان من
أبرع
العارفين منهم باللغة والأدب.
وقد كان للفتيان الصقالبة في الواقع تراث من
الشعر والأدب، واشتهروا بذلك أيام المنصور خاصة، وأصدر أحدهم في ذلك
كتاباً سماه " الإستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة "، ضمنه
كثيراً
من أشعارهم ونوادر أخبارهم (٢) .
ولبث صاعد على مكانته حتى وفاة المنصور، ومن بعده حتى نهاية الدولة
العامرية، ثم أفل نجمه بعد ذلك، وساءت أحواله عند ظهور الفتنة، فغادر
الأندلس متخفياً في سنة ٤٠٣ هـ، وجاز البحر إلى صقلية، واتصل بأميرها
فأولاه رعايته، وحسنت حاله، وكانت وفاته بها في سنة ٤١٠ هـ.

---

(١) الصلة لابن بشكوال (طبعة القاهرة) رقم ٤٠.
(٢) راجع الذخيرة.
القسم الرابع المجلد الأول ص ٧ - ٢٢، والمعجب ص ١٦ و١٧.

(٥٧٩/١)

وكان للمنصور، فضلا عن مجالس الأدب والأنس العابرة، مجلس أسبوعى
يعقده للبحث والمناظرة، ويشهده كثير من العلماء والأدباء (١) .
وكان في غزواته
يستصحب بعض العلماء والأدباء من أصدقائه، إذ كان شغف البحث

والمناظرة، يلازمه دائماً حتى في ميدان الحرب؛ وإلى جانب هذا الشغف الشخصى بالحياة
العقلية، كان المنصور مولعاً بالعمل على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب، فأنشأ كثيراً من دور العلم بقرطبة، وبالغ في الإنفاق عليها، وكان يزور
المدارس والمساجد، ويجالس الطلاب أحياناً، ويمنح المكافآت النفيسة لمن يستحقها.

وإلى جانب هذا الشغف بالآداب والعلوم ونشر الحياة العقلية، كان المنصور يشغف أيضاً بجمع الكتب، وكان أكابر المؤلفين يهدون إليه كتبهم، على نحو ما كان متبعاً أيام الحكم، ومن ذلك أن صاعداً البغدادى أهدى إليه كتاب " الفصوص " المتقدم ذكره، فأثابه عنه بخمسمائة دينار (٢) .

وكان المنصور يمقت الفلسفة وما إليها، ويرى أنها مخالفة للدين، ويكره التنجيم والمنجمين، وقد أمر بأن يستخرج من المكتبة الأموية العظيمة (مكتبة الحكم المستنصر) سائر كتب الفلاسفة والدهريين، وأن تحرق بمحضر من كبار
العلماء، وفي مقدمتهم أبو العباس بن ذكوان، وأبو بكر الزبيدى، والأصيلى وغيرهم، وكان ذلك بلا ريب عملا غير موفق، وكان خسارة علمية فادحة.

وينعى المستشرق سيمونيت على المنصور هذا التصرف، فيقول: " إنه إذا كان
الحكم الثاني قد استطاع لنزعته العلمية والأدبية أن يحمى الفلاسفة، فقد جاء المنصور من بعده فقام بحرق كتب الفلسفة التي كانت بمكتبة الحكم، وذلك لكى
يرضى الفقهاء والدهماء " (٣) .

واشتد المنصور أيضاً في مطاردة المنجمين، وبلغه
أن أحدهم وهو محمد بن أبي جمعة، يهجس في تنبؤاته بانقراض دولته، فأمر بقطع لسانه وقتله، فخرست ألسن المنجمين جميعاً (٤) .

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى ص ٧٣، والمعجب ص ٢٠.

(٢) الصلة لابن بشكوال رقم ٤٠.

(٣) Simonet: Historia de los Mozarabes de Espana ; p. ٣٥١

(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٥، وأعمال الأعلام ص ٧٧.

*(٥٨٠/١)*

وللمنصور شعر جيد، نظمه في مختلف مناسبات حياته، ومن ذلك قوله في الفخر:

رميت بنفسى هول كل عظيمة..

.

وخاطرت والحر الكريم يخاطر

وما صاحبى إلا جنان مشيع..

.

وأسمر خطى وأبيض باتر

وإنى لزجاء الجيوش إلى الوغى..

.

أسود تلاقيها أسود خوادر

فسدت بنفسى أهل كل سيادة..

.

وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر

وما شدت بنياناً ولكن زيادة..

.

على ما بني عبد المليك وعامر

رفعنا العوالى بالعوالى مثلها..

.

وأورثناها في القديم معافر

وقوله يتهدد الفاطميين بمصر، ويمنى نفسه بفتح مصر والشام:

منع العين أن تذوق المناما..

.

حبا أن ترى الصفاء والمقاما

لى ديون بالشرق عند أناس..

.

قد أخلوا بالمشعرين الحراما

إن قضوها نالوا الأمانى وإلا..

.

جعلوا دونها رقاباً وهاما

عن قريب ترى خيول هشام..

.

يبلغ النيل خطوها والشاما

وأما عن نثر المنصور، فقد رأينا أن نورد نموذجاً له، وصيته لولده عبد الملك حينما حضرته الوفاة، وقد نقلها إلينا ابن حيان عن أبيه خلف بن حسين، وهذا نصها:

" يا بني: لست تجد أنصح لك، ولا أشفق عليك منى، فلا تعديَّن وصيتى، فقد جردت لك رأيى ورويتى، على حين اجتماع من ذهنى، فاجعلها مثالا بين عينيك.

وقد وطأت لك مهاد الدولة، وعدلت لك طبقات أوليائها، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها، وخلفت لك جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك، فلا تطلق يدك في الإنفاق، ولا تقيض لظلمة العمال، فيختل أمرك سريعاً، فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة، فاقصد في أمرك جهدك، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك،

والرعية قد استقصيت لك تقويمها، وأعظم مناها أن تأمن البادرة، وتسكن إلى لين الجنبة.

وصاحب القصر قد علمت مذهبه، وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة، مع

(٥٨١/١)

قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه.

فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيكم الحنث في يمين البيعة، إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة، فأما الانفراد بالتدبير دونه، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه، فإنى أرجو أنى وإياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة.

والمال المخزون عند والدتك، هو ذخيرة مملكتك وعدة لحاجة تنزل بك، فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التي لا تبذلها إلا عند الشدة، تخاف منها على سائر جسدك.

ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة.

وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه في حياتى ما رجوت أنى قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثى، وأخرجته عن ولاية الثغر، لئلا يجد العدو مساغاً بينكما في خلاف وصيتى، فيسرع ذلك في نقض أمرى، وتجلب الفاقرة علي دولتى.

وقد كفيتك الحيرة فيه، فأكفه الحيف منك عليه، وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم، بحسب مما قدرت به خلاصى من مال الله الذى في

يدى.
وخلافتك بعدى أجدى عليهم مما صرفته، فلا تضيع أمر جميعهم، والحظهم
بعينى
فإنك أبوهم بعدى.
فإن انقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل، وسبيل
السيرة، وإن اعتاصت عليك، فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة، ولا تبطر بك
وأصحابك السلامة، فتتسوا ما لكم في نفوس بني أمية وشيعتهم بقرطبة.
فإن
قاومت من توثب عليك منهم، فلا تذهل عن الحزم فيهم، وإن خفت الضعف
فانتبذ بخاصتك وغلمانك، إلى بعض الأطراف التي حصنتها لك، واختبر
غدك
إن أنكرت يومك.
وإياك أن تضع يدك في يد مروانى ما طاوعتك بنانك، فإنى أعرف ذنبي إليهم
."
وهذه وصيته لغلمانه نقلها إلينا أيضاً ابن حيان عن أبيه:
" تنبهوا لأمركم واحفظوا نعمة الله عليكم، في طاعة عبد الملك أخيكم ومولاكم
ولا تغرنكم بوارق بني أمية ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم، وقدروا ما في
قلوبهم
وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم، فليس يرأسكم بعدى أشفق عليكم من
ولدى.
وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد، وأن تكون جماعتكم كرجل واحد، فإنه لا يفل
فيكم " (١) .

---

(١) نقل إلينا ابن بسام (عن ابن حيان) هذين النصين في الذخيرة.
القسم الرابع المجلد

الأول ص ٥٦ - ٥٨.
ونقلهما ابن الخطيب أيضاً في أعمال الأعلام ص ٨١ و ٨٢.

*(٥٨٢/١)*

وفى وصية المنصور لولده وغلمانه، يرتسم برنامج سياسته كلها، وتبدر
يالأخص نواحى توجسه وتخوفه، فهو لم يكن يأمن جانب بني أمية قط، وقد
لبث يتوقع الشر منهم حتى وفاته.
ثم توفى وهو يتوقع الشر منهم لبنيه ودولته، وقد كان المنصور في ذلك
صائب التقدير، بعيد النظر.
* * *
هذا وأما علائق المنصور الدبلوماسية فإنه لم يتح له عقد الكثير منها، ولم
تفد إليه سفارات من ملوك النصارى على نحو ما حدث أيام الناصر والحكم
المستنصر.
ذلك لأن عهد المنصور كان كله عهد حروب مستمرة، بين الأندلس
وبين اسبانيا النصرانية، ولم يقع بين الفريقين تهادن أو سلم طويل الأمد.
وكل ما نستطيع أن نسجله من ذلك حادثان متشابهان، أولهما قدوم برمودو
الثاني ملك ليون إلى قرطبة في سنة ٩٨٥ م، مستجيراً بالمنصور ليعاونه
على
مقاومة الأشراف الخارجين عليه وتوطيد عرشه.
وقد أجابه المنصور إلى طلبه وبادر
بمعونته.
ومما هو جدير بالذكر أن برمودو قدم ابنته تريسا Teresa، بعد ذلك
إلى المنصور عروساً له، فقبلها المنصور وتزوجها أو اتخذها سرية له (١) .
والثاني، وهو من أشهر الحوادث الشائقة التي وقعت أيام المنصور، هو
مقدم سانشو غرسية ملك نافار على المنصور، معتذراً إليه، لائذاً بعفوه
ومهادنته.

والوجه الشائق في ذلك هو أن سانشو غرسية هذا كان صهراً للمنصور، وكان تقرباً من المنصور، واكتساباً لمودته قد قدم ابنته عروساً إليه (٩٨١ م) فتزوجها المنصور، واعتنقت الإسلام، وسميت باسم "عبدة"، وكانت من أحظى نسائه لديه، ورزق منها بولده عبد الرحمن الذى سمى أيضاً " شنجول " أو

"سانشول " أى شانجُه (سانشو) الصغير نسبة لجده ملك نافار.

ثم ساءت العلائق

بين المنصور وصهره، وتابع المنصور غزو نافار مرة بعد مرة، حتى اضطر سانشو

إلى طب الصلح، وسار إلى قرطبة مستصرخاً المنصور ولائذاً بعفوه.

ووصل

سانشو إلى قرطبة في الثالث من رجب سنة ٣٨٢ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩٩٢ م) فسر

المنصور بمقدمه سروراً عظيماً، وبعث القواد والكبراء وطوائف الجند في موكب

فخم، وعلى رأسهم ولده عبد الرحمن وهو طفل في مهده، لاستقباله ومرافقته

---

(١) R.

M.

Pidal: La Espana del Cid (Madrid 1947) p.

٧١



إلى قصر الزاهرة، فلما وقعت عين سانشو على حفيده، ترجل وقبل يده ورجله، ثم رافق الركب إلى الزاهرة، وقد اصطفت الجند على طول الطريق في صفوف

كثيفة زاهية كاملة السلاح والعدة، واصطف الوصفاء والصقالبة من باب القصر
إلى الداخل صفين.
وسار سانشو، وقد بهره كل ما رأى، حتى وصل إلى مجلس
المنصور في عصر ذلك اليوم، وقد جلس المنصور في هيئة فخمة، ومن حوله
الوزراء وأعاظم رجال الدولة؛ فلما أبصره سانشو هوى إلى الأرض فقبلها مرات
متوالية، ثم قبل يدى المنصور ورجليه، فأمره بالجلوس على كرسى مذهب
خصص له، ثم انصرف الناس واختلى الملك النصرانى بالمنصور، وأفضى كل
إلى صاحبه بما أراد، ثم خرج سانشو وفي أثره الخلع السلطانية، وما انفض المجلس
إلا عند دخول الليل.
وكان مقدم سانشو غرسية إلى قرطبة، واستقباله بها، من أيام الأندلس
المشهودة، وقد أعاد بروعته وما اقترن به من مغزى عميق بظفر الإسلام على
أعدائه، ذكرى أيام الناصر في وفود الملوك النصارى عليه، ملتمسين منه
الصلح والمودة (١) .
***
وقد أجمعت الرواية الإسلامية، الأندلسية والمشرقية، على الإشادة بخلال
المنصور وباهر صفاته.
وهى جميعاً سواء أوجزت القول أو أفاضت، تنم عن
عميق التقدير والإعجاب، ثم هى مع ذلك لم تغفل التنويه بالجوانب القاتمة في تلك
العبقرية الفذة، على أنها على العموم أكثر ميلا إلى إبراز محاسن المنصور

ومواهبه، والإشادة بما أسبغته على الأمة الأندلسية من ضروب العظمة والبهاء.

قال ابن الأثير يصف المنصور: " وكان شجاعاً، قوى النفس، حسن التدبير، وكان عالماً محباً للعلماء، يكثر مجالستهم ويناظرهم، وقد أكثر العلماء

ذكر مناقبه، وصنفوا لها تصانيف كثيرة " (٢) .

وقال ابن خلدون " وكان

ذا عقل ورأى وشجاعة، وبصر بالحروب، ودين متين " (٣) .

ويصفه الفتح

ابن خاقان في " المطمح " في تلك العبارات الشعرية: " وكان أمضاهم (يعنى من

---

(١) أورد لنا ابن الخطيب في " أعمال الأعلام " وصفاً شائقاً لهذا الحادث. ص ٦٦ و٧٣ و٧٤.

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٦١.

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧.

(٥٨٤/١)

تقدمه) وأذكاهم جناناً، وأتمهم جلالا، وأعظمهم استقلالا.

قام بتدبير

الخلافة، وأقعد من كان له فيها إنافة.

وساس الأمور أحسن سياسة، وداس

الخطوب بأخشن دياسة، فانتظمت له المالك، واتضحت به المسالك، وانتشر الأمن في كل طريق، واستشعر اليمن كل فريق.

وملك الأندلس بضعاً وعشرين

حجة، لم تدحض لسعادتها حجة، ولم تزخر لمكروه بها لجة، وكانت أيامه

أحمد أيام، وسهام بأسه أشد سهام " (١) .

ويجمل ابن حيان حياة المنصور في تلك الفقرة: " وامتثل رسم المتغلبين على سلطان ولد العباس بالمشرق من أمراء الديلم في عصره.

فنال بغيته، وتهنأ

معيشته، وأورثه عقبه بعده، عن غير اقتدار عليه، بجند خاص، ولا صيال بعشيرة، ولا مكابرة بمال وعدة، بل رمى الدولة من كنانها، وعدا عليها بأعضادها، وانتضلها بمشاقصها، وأنفق على ضبطها أموالها وعددها، حتى حولها

إليه وسبكها في قالبه، وسلخ رجالها برجاله، وعفى رسومها بما أوضح من رسومه " (٢) .

هذا، وقد أشاد ابن الخطيب بخلال المنصور في مواطن وفقرات عديدة نقتطف منها ما يلى:

قال مشيراً إلى ولاية هشام: " فاستقر الأمر لهشام، يكنفه الحاجب المنصور أسعد أهل الأندلس مولداً، وأشهرهم بأساً ونداً، وأبعدهم في حسن الذكر مداً، الحازم العازم، العظيم السياسة، الشديد الصلابة، القوى المنة، الثبت الموقف، معود الإقبال، ومبلغ الآمال، الذى صحبته ألطاف الله الخفية في الأزمات، واضطرد له النصر العزيز في نحو سبع وخمسن من الغزوات، ولم تفارقه السعادة

حالتي المحيا والممات ".

وقال: " فقد أجمع الشيخة أنه نهض بجد لا كفاء له، وأصحب سعداً لا نحس يخالطه، وأعطى إقبالا لا إدبار معه، قد وثق بذلك فلم يلتفت إلى غيره..

.

"

" وكان مهيباً وقوراً، فإذا خلا كان أحسن الناس مجلساً، وأبرهم بمن يحضر منادماً ومؤانساً، وكان شديد القلق من التبسط عليه، والدالة، والامتنان،

---

(١) نقله البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٢، والمقرى في نفح الطيب ج ١ ص ١٨٩,
(٢) نقله صاحب الذخيرة.
القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٣.

*(٥٨٥/١)*

لا يغفرها زلة، ولا يحلم عنها جريرة، ولم يكن يسامح في نقصان الهيبة، وحفظ
الطاعة أحداً، من ولد ولا ذى خاصة، دعاه ذلك إلى قتل ولده عبد الله صبراً بالسيف بما هو معروف ".
" وكانت الجزالة والرجولة، ثوبه الذى لم يخلعه، إلى أن وصل إلى ربه، والحزم والحذر شعاره، الذى لم يفارقه طول حياته، والنصب والسهر شأنه فى يومه وليله، لا يفضل لذة على لذة تدبيره، وحلاوة نهيه وأمره " (١) .
ولم يكن النقد الغربى أقل تقديراً لعظمة المنصور، وقد أشاد بعبقريته ومواهبه كثير من المؤرخين والنقدة الغربيين، وهذه نماذج من أقوالهم:
قال المؤرخ الإسبانى اليسوعى ماسديه مشيراً إلى المنصور: " وكان سياسياً كبيراً، وقائداً عظيماً، فقد أخمد نار الثورات التي كانت تعصف بالمملكة، واكتسب حب الشعب بجميع طبقاته، وتفوق في شهرته وهيبته على أكبر القواد، بما اجتمع في أحكامه من الصرامة واللين والقصاص والعفو، وكان يهدم المدن
التي تقاوم جيوشه ويبيدها، ولكنه لم يسمح قط لجنده بأن تسيء معاملة مدينة سلمت طوعاً " (٢) .
ويقول المؤرخ الإسبانى المعاصر الأستاذ مننديث بيدال معلقاً على عصر المنصور: " عاش الإسلام في اسبانيا أروع أيامه وأسطعها، وانتهى نصارى الشمال إلى حالة دفاع كانت دائماً مقرونة بالمحن، ولاح كأنهم لم يعيشوا إلا لتأدية

الجزية والسلاح والأسرى والمجد للخلافة الأموية " (٣) .

ويلاحظ الأستاذ بيدال في نفس الوقت أن عبقرية المنصورالعسكرية والسياسية كانت من عوامل القضاء على الروح القومية النصرانية المستعربة، وذلك لما أغدقه

المنصور من عطفه ورعايته على كثير من النصارى والمستعربين (٤) .

ويختتم العلامة دوزى كلامه عن المنصور بالفقرة الآتية: " وعلى الجملة، فإذا وجب أن نستنكر الوسائل التي لجأ إليها المنصور في اغتصاب السلطة، فمن

---

(١) راجع أعمال الأعلام ص ٥٨ و ٧٤ و ٧٥.

(٢) J.

F.

Masdeu: Historia Critica de Espana y de la Cultura Espanola

(٣) R.

M.

Pidal: La Espana del Cid, p.

٧٢

(٤) R.

M.

Pidal: Origenes des Espanol, p.

٤٢٣

(٥٨٦/١)

الواجب أيضاً أن نعترف بأنه استخدمها بطريقة شريفة.

وما كنا لنسرف في لومه

لو أن القدر خلقه على أريكة العرش، ولعله كان يعتبر عندئذ من أعظم

الملوك

الذين عرفهم التاريخ.

ولكنه خلق في القرية، واضطر لتحقيق أطماعه، أن يشق

لنفسه طريقاً تكتنفه آلاف الصعاب.

ومن الأسف أنه من أجل تذليلها، قلما

راعى شرعية الواسطة.

لقد كان المنصور رجلا عظيماً من وجوه كثيرة، ولكن

يستحيل علينا، متى رجعنا إلى مبادىء الأخلاق الخالدة أن نحبه، ومن

الصعب

أن نعجب به " (١) .

---

(١) Dozy: Hist.

Vol.

II.

p.

٢٧٥

(٥٨٧/١)

الفصل الثالث

الممالك النصرانية الإسبانية

خلال القرن العاشر الميلادى

نهوض اسبانيا النصرانية في عهد الفتنة الأندلسية.

وفاة أردونيو الثاني.

الحرب الأهلية فى

ليون.

استقرار راميرو في الملك.

ولاية قشتالة.

جهادها في سبيل الاستقلال.

الكونت فرنان كونثالث.

ثورته ضد راميرو الثاني.

هزيمته وأسره.

ثورة قشتالة.

الإفراج عن الكونت.

طاعته لملك ليون.

استمراره في العمل لاستقلال قشتالة.

وفاة راميرو.

الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو.

معاونة فرنان كونثالث لسانشو.

انتصار أردونيو وفوزه بالملك.

يعقد الصلح مع الناصر.

وفاته

وجلوس سانشو.

موقف فرنان كونثالث.

اضطراب الأحوال في ليون.

فرار سانشو وجلوس

أردونيو الرابع.

التجاء سانشو وجدته طوطة إلى الناصر.

سانشو يسترد العرش بمعونة الناصر.

نكثه لعهوده.

فرنان كونثالث يعلن استقلال قشتالة.

التجاء أردونيو إلى الحكم.

اتحاد الأمراء

النصارى.
غزو الحكم لقشتالة ونافار.
اضطرارهما لعقد الصلح.
بداية الكفاح بين قشتالة والمملكة
الإسلامية.
الحكم يأذن بنقل رفات القديس بلايو.
الثورة في جليقية.
مصرع سانشو وجلوس ولده
راميرو.
وفاة فرنان كونثالث وصفاته.
وفود الأمراء النصارى وسفاراتهم على قرطبة.
عدوان
النصارى على أراضي المسلمين وردهم.
النزاع بين راميرو وبرمودو على العرش.
تدخل المنصور
في ذلك.
غزو المنصور لشنت ياقب.
برمودو يلتمس الصلح.
وفاته وجلوس ولده ألفونسو.
ملكة نافار.
غرسية سانشيز وأمه طوطة.
ولده سانشو غرسية.
غزو المنصور لنافار.
وفاة سانشو
وجلوس ولده غرسية سانشيز.
ولده سانشو الكبير.

عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية.
طبقة
الأشراف والفرسان والملاك والزراع الأحرار.
طبقة الأرقاء.
رقيق الضياع.
التنظيم السياسى
للمملكة النصرانية.
السلطة المركزية.
الأشراف.
القضاء واشتراك الأشراف في مزاولته.
رجال الدين
وسلطانهم الإقطاعى.
مقارنة بين هذا النظام ونظام المملكة الإسلامية.
لما بلغت الثورات والفتن الداخلية بالأندلس، ذروتها في النصف الأخير،
من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، فيما اصطلح على تسميته
بالفتنة
الكبرى، وبددت قوى الأندلس ومواردها في ذلك الصراع الداخلى المدمر،
أخذت اسبانيا النصرانية، وقد أمنت شر الغزوات الإسلامية طوال هذه الفترة،
تتنفس الصعداء، فاشتد ساعدها، ونمت مواردها، وتوطدت حكوماتها.
ولم تأت فاتحة القرن العاشر الميلادى، حتى كانت مملكة ليون، التي خلفت
مملكة
جليقية، وبسطت سلطانها على ولاية قشتالة، في أواسط اسبانيا الشمالية، قد



بلغت مستوى من القوة والبأس، يتيح لها أن تخوض مع المملكة الإسلامية
صراعاً عنيفاً.

وقد رأينا كيف بلغ هذا الصراع ذروته في عهد الناصر، وكيف أنه بالرغم مما حققه الناصر من إخماد الفتنة، وإحياء قوة الأندلس، استطاع النصارى بقيادة

ملكهم أردونيو الثاني، أن يحرزوا على المسلمين نصرهم الخطير، في موقعة شنت

إشتيبن في سنة ٩١٧ م.

وكانت موقعة شنت إشتيبن، وما تلاها من تكرر غزو النصارى للأراضي الإسلامية، نذيراً خطيراً لحكومة قرطبة.

ولكن وفاة أردونيو الثاني في سنة ٩٢٥ م

وضع حداً مؤقتاً لتلك الفورة القومية، التي جاشت بها اسبانيا النصرانية. ذلك أن

أخاه وخلفه فرويلا، لم يحكم سوى عام واحد، ثم توفى، فاضطرم النزاع على العرش بين سانشو وألفونسو ولدى أردونيو، وانتهى بأن فاز ألفونسو بالعرش بمعاونة صهره وحميه سانشو ملك نافار.

ولكن سانشو لم ييأس، فجمع جيشاً

جديداً، وتوج نفسه ملكاً في شنت ياقب في أقاصى جليقية، ثم زحف على ليون فحاصرها واستولى عليها، وارتقى العرش مكان أخيه.

فعاد ملك نافار

إلى مؤازرة ألفونسو ومعاونته، حتى استطاع أن يهزم أخاه، وأن يستولى على مدينة ليون مرة أخرى.

بيد أن أخاه سانشو لبث محتفظاً بجليقية، مصراً على

دعواه في الملك.

واستمرت الحرب الأهلية

بين النصارى أعواماً، وانتهى طورها الأول، حينما توفى سانشو ابن أردونيو في سنة ٩٢٩ م، واستقر الملك لأخيه ألفونسو الرابع

دون منازع.

ثم بدأ طورها الثاني في سنة ٩٣١ م، ففى تلك سنة توفيت زوجة
ألفونسو، فحزن لفقدها أيما حزن، وغلب عليه اليأس والزهد، فتنازل عن
العرش لأخيه راميرو ثانى ملوك ليون بهذا الإسم، ولجأ إلى دير ساهاجون
واعتنق
الرهبانية، ولكنه عافها بعد قليل، فترك عزلة الدير، ونادى بنفسه ملكاً فى
حصن شنت منكش Simancas، وكان عمله في نظر الرهبان عاراً كبيراً،
فأثاروا عليه دعاية شديدة، حتى اضطر أن يعود إلى الرهبانية.
وقد كان ألفونسو
في الواقع " أميراً أصلح لقلنسوة الراهب منه لتاج الملك، وأشد شغفاً بالمقدس
منه بميدان الحرب "، ولكنه ما لبث أن انتهز فرصة مسير أخيه راميرو إلى
نجدة

(٥٨٩/١)

ثوار طليطلة، فغادر الدير، وزحف في بعض أنصاره على مدينةْ ليون
واستولى
عليها، فعاد راميرو مسرعاً، وحاصر أخاه في ليون واستولى عليها بدوره.
ثم
أراد أن يضع حداً لمساعى ألفونسو ومحاولته فسمل عينيه، وسمل كذلك
أعين
أبناء عمه الثلاثة، وهم أولاد فرويلا الذين اشتركوا في الثورة عليه.
ويعلق النقد الإسباني الحديث على تلك القسوة بقوله: " وإنه ليروعنا ذكرى
العقوبة التي أنزلها راميرو الثاني بأخيه ألفونسو، وبأبناء عمه الثلاثة، وإنه لن
يكفى مر القرون ليمحو ذكرى عقوبة سمل العينين التي ورثت عن التشريع
القوطى، قبل أن نراها تطبق بكثرة من جانب ملوكنا نحو ذوى قرباهم " (١) .
وهكذا استقر الملك لراميرو بعد صراع عائلى عنيف.
وكان راميرو الثاني

أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية، ملكاً شجاعاً مقداماً، نذر نفسه للكفاح ضد المسلمين، ومقارعتهم بكل الوسائل، فتارة يغير على الأراضي الإسلامية، وتارة يحرض الثوار على حكومة قرطبة، أو يسير إلى إنجادهم بالفعل، كما حدث

حينما سار لمعاونة طليطلة على مقاومة الناصر (٩٣٥ م) ، وتارة يشتبك مع المسلمين

في معارك طاحنة.

وقد سبق أن فصلنا أدوار ذلك الصراع العنيف، الذى اضطرم

بين راميرو وبين الناصر، والذى بلغ ذروته في موقعة الخندق المشئومة، التي دارت فيها الدائرة على المسلمين، تحت أسوار مدينة سمورة في سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩ م) .

١ – نشأة مملكة قشتالة

لم يكن اضطراب الأمور في مملكة ليون، قاصراً على قسمها الغربى فى جليقية، حيث كان الزعماء (الكونتات) الجلالقة، يثورون على العرش من آن لآخر، بغية توطيد سلطانهم المحلى، بل كان يشمل أيضاً قسمها الشرقى، فى منطقة قشتالة، التي كانت تسمى يومئذ " بردوليا " ثم سميت فيما بعد " قشتالة Castilla " (٢) ، وذلك لكثرة الحصون التي كانت تقام بها.

وكانت هذه المنطقة، التي استحالت فيما بعد إلى مملكة قشتالة، تمتد شرقاً حتى هضاب نافار، ومن

---

(١) M.

Lafuente: Historia General de Espana (Barcelona 1889)

T.

II.

p.

(٢) كلمة Castillo الإسبانية معناها الحصن.
وقد كانت تسمى في الجغرافية العربية القلاع قبل
أن تنتظم إلى مملكة قشتالة.
وتسمى بالإضافة إلى ولاية " ألبة " Alava " ألبة والقلاع ".

*(٥٩٠/١)*

ولاية ريوخا جنوباً، حتى الأراضي التي سميت فيما بعد أراجون وسوبرابى،
وكان سكانها الأصليون من البشكنس وأهل ألبة.
وكان ملوك الجلالقة أو ملوك
أوبييدو قد غزوها وأضافوها إلى أملاكهم، وكانت عاصمتها يومئذ مدينة
برغش.
وأبدى زعماء قشتالة منذ البداية، مقاومة عنيفة للملوك الجلالقة، وبذلوا
جهدهم للمحافظة على استقلالهم المحلى، وثاروا بالفعل في عهد أردونيو
الثاني
في أوائل القرن العاشر.
فحاربهم أردونيو وأخضعهم، وقبض على كثير منهم
وأعدمهم، واضطر الباقون إلى الالتزام بطاعته، وكانوا يتمتعون بسلطات
محدودة
تحت سلطان زعيم محلى، مقره في " برغش ".
وهو يخضع بدوره لملك ليون.
ولكن هذا النظام المهين، لم يرق لكونتات قشتالة، فلبثوا يتحينون الفرص
للثورة، وتحقيق استقلالهم المنشود.
وعرضت هذه الفرصة، وألفت قشتالة بطل ثورتها التحريرية، في شخص
زعيمها الكونت فرنان كونثالث (وفى الرواية الإسلامية فرّان غنصالس) ،
الذى
غدت حياته مستقى للملاحم الشعرية، والقصص الإسباني في العصور

الوسطى، فحشد الكونت أنصاره وقواته، وأعلن الحرب على راميرو الثاني ملك ليون، وولد أردونيو، وكان راميرو يومئذ في أوج قوته، بعد انتصاره على المسلمين فى
موقعة الخندق، فلم يلق مشقة في هزيمة الكونت وسحق قواته، وأسر فرنان كونثالث، وزجه راميرو إلى ظلام السجن في مدينة ليون، وعين لحكم قشتالة آسور فرناندز كونت مونزون، ثم عين بعد ذلك لحكمها ولده سانشو، وأمره أن يعامل القشتاليين بالرفق والحسنى؛ ولكن ذلك لم يخمد جذوة الوطنية القشتالية.
ولبث القشتاليون مخلصين لأميرهم المأسور، واستمروا في الثورة والقتال، وزحفت جموعهم بالفعل على ليون، فخشى راميرو العاقبة، وأطلق سراح فرنان كونثاث، ولكن بشروط فادحة، هى أن يقسم يمين الطاعة لملك ليون، وأن يتنازل عن كل أملاكه، وأن يزوج ابنته أوراكا لأردونيو ولد راميرو الأكبر.
وقبل فرنان كونثالث هذه الشروط مرغماً.
وظل أهل قشتالة على
بغضهم لملك ليون، وولائهم لأميرهم.
وفقد راميرو بذلك عون الزعماء القشتاليين
ومساهماتهم المخلصة في الدفاع عن البلاد، واستطاع المسلمون خلال ذلك الإغارة
مراراً على أراضي ليون والعيث فيها، وقام الناصر بتجديد مدينة سالم، ثغر

*(٥٩١/١)*

الحدود بين أراضي قشتالة والأراضي الإسلامية، وتحصينها (سنة ٩٤٦ م) .
واضطر راميرو أن يلتزم خطة الدفاع، إزاء الغزوات الإسلامية المتوالية.
وكان فرنان كونثالث، يعمل أثناء ذلك، على توطيد مركزه، وضم كونتيات قشتالة كلها تحت لوائه، ليجعل منها وحدة سياسية، أو بالحرى إمارة مستقلة،

يغدو عرشها من بعده وراثياً في أسرته.
وقد استطاع غير بعيد أن يحقق هذه
الغاية (١) .
٢ – مملكة ليون
وفى أوائل سنة ٩٥٠ م توفى راميرو الثاني ملك ليون، فنشبت الحرب الأهلية
مرة أخرى بسبب وراثة العرش.
وذلك أن راميرو ترك ولدين أولهم أردونيو، وهو ولد زوجه الأولى تاراسيا،
وسانشو وهو ولد زوجه الثانية أوراكا أخت
غرسية ملك نافار.
فادعى أردونيو أنه أحق بالعرش باعتباره أكبر الأخوين، ولكن سانشو نازعه
في ذلك، معتمداً على عون أخواله النافاريين، وجدته طوطة
ملكة نافار، وكذلك على عون الكونت فرنان كونثالث وأهل قشتالة.
وكان
الكونت غير ميال إلى معاونة أردونيو، بالرغم من كونه زوج ابنته، إذ كان قد
أرغم على تلك المصاهرة كما تقدم، وقد آثر أن يقف إلى جانب سانشو، إذ
وعده
بأن يرد إليه أملاكه، وأن يحقق أمانيه في الاستقلال، ومن ثم فقد كان من
الطبيعى أن يعمل على إضعاف مملكة ليون لكى يدعم بذلك استقلاله.
وهكذا
نشبت الحرب بين أردونيو وبين جيش متحد من قوات سانشو، ونافار،
وقشتالة.
ولكن أردونيو هزم أعداءه، وأخضع سائر الخارجين عليه واستقر
في العرش، ورأى انتقاماً لخيانة فرنان كونثالث أن يطلق زوجه الملكة ابنة
الكونت، وبذلك كفرت هذه الأميرة عن خصومة أبيها لمملكة ليون.
وانتهز المسلمون فرصة الحرب الأهلية، فتوالت غزواتهم لأراضي ليون؛
ومن جهة أخرى فقد كان أشراف ليون في تمرد مستمر على ملكهم، وخشى

أردونيو العاقبة، فبعث سفيراً إلى قرطبة في أوائل سنة ٩٥٥ م يطلب عقد الصلح مع
الناصر، فأجابه الناصر إلى طلبه، وبعث إليه سفيره محمد بن الحسين، فعقد معه

---

(١) R.
M.
Pidal: La Espana del Cid p.
٧٠ ؛ Altamira: Historia de
Espana, Vol.
I.
p.
٢٤٤ - ٢٤٥

(٥٩٢/١)

معاهدة صلح، تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود، وأن يهدم البعض الآخر.
ثم توفى أردونيو بعد ذلك بقليل، وخلفه أخوه سانشو
في الملك، وكان أول ما عمل أن رفض تنفيذ المعاهدة التي عقدها أخوه مع الناصر، فاضطر الناصر إلى إعلان الحرب، وبعث حاكم طليطلة أحمد بن يعلى في الجيش
إلى ليون، فغزاها، وتوغل في أراضيها، واضطر سانشو أن يعقد الصلح، وأن يقر ما سبق أن تعهد به أخوه.
وبذلك استقرت علائق السلم بين الفريقين.
ومن جهة أخرى فإن فرنان كونثالث لم يتحول عن سياسة العداء نحو ليون؛
وقد كان قبل أن يرث سانشو العرش، يؤازره ويناصره ضد أخيه أردونيو، فلما

تولى أردونيو عرش ليون، انقلب إلى خصومته وفقاً لسياسته المأثورة ضد ليون، وكان يبغى في الوقت نفسه أن تعود ابنته أوراكا مطلقة أردونيو الثالث إلى العرش، بعد أن تزوجت من ابن عمه الأمير أردونيو، وقد عاونه القدر غير بعيد على

تحقيق بغيته.

ذلك أن الأحوال ما لبثت أن ساءت في مملكة ليون، فقد ثار الأشراف بسانشو ونزعوه عن العرش، واحتجوا لخلعه بهزيمته أمام المسلمين في بعض المعارك التي خاضها، وبأن بدانته الفائقة تمنعه من ركوب الخيل، ومن تولى الإدارة، ففر سانشو إلى بنبلونة، إلى جانب جدته طوطة ملكة نافار، وقام الأشراف في ليون وقشتالة، باختيار ملك جديد هو أردونيو الرابع، وهو ابن ألفونسو الرابع، عم الملك المخلوع وصهر الكونت فرنان كونثالث، وكان أحدباً دميماً سيىء الخلال، حتى لقب بالردىء El Malo.

ولجأ سانشوا إلى عون

الناصر، فأرسل إليه طبيباً يهودياً من قرطبة، يتولى علاجه من بدانته، وفي سنة

٩٥٨ م (٣٤٧ هـ) قصدت طوطة إلى قرطبة، ومعها ولدها الفتى غرسية سانشيز، الذى كانت تحكم نافار باسمه، وسانشو ملك ليون المخلوع، فاستقبلهم الناصر

استقبالا حافلا، وعقد السلم مع طوطة، وأقر ولدها ملكاً على نافار، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه، وذلك مقابل تعهده، أن يسلم للمسلمين، بعض الحصون الواقعة على الحدود، وأن يهدم البعض الآخر؛ ثم أمده الناصر

بالمال والجند، فغزا ليون، وغزا النافاريون في الوقت نفسه ولاية قشتالة من ناحية الشرق وانتهت هذه الحرب الأهلية الجديدة، بانتصار سانشو وجلوسه على العرش مرة أخرى، وفر أردونيو إلى برغش.

ولكن سانشو نكث بعهده للمسلمين، وأبى تنفيذ ما تعهد به، ثم توفى
الناصر بعد ذلك بقليل، ولزمت ليون ونافار السكينة حيناً.
ولكن فرنان كونثالث
اتجه وجهة أخرى.
وكان قد انتهز فرصة الحرب الأهلية، وأعلن استقلال قشتالة، ونصب نفسه
أميراً مستقلا عليها، وأخذ يسعى لتوسيع أملاكه بالإغارة على
الأراضي الإسلامية.
وكان يرى في نزول ميدان الكفاح ضد المسلمين، وسيلة
لتدعيم هيبته في نفوس النصارى المتعصبين، فأخذ يغير على الأراضي
الإسلامية
مرة بعد أخرى.
وكان فرنان كونثالث، على قول المؤرخ الإسباني " ذا عبقرية تمازجها
الغطرسة، وروح تمازجها العجرفة، معتداً بنفسه، وعالماً بما يمكن أن يجنيه
من
قلبه وساعده، محباً للاستقلال، تملؤه فكرة تحرير بلاده قشتالة من نير ليون،
وأن يقيم لها سيادة خاصة " (١) .
وقد رأينا فيما تقدم، كيف لجأ أردونيو الرابع ملك ليون المخلوع إلى الحكم،
وكيف استقبله الخليفة بقصر الزهراء في حفل مشهود، ووعده بأن يعاونه على
استرداد عرشه، لقاء عهود قطعها على نفسه، وكيف خشى سانشو عاقبة هذا
المسعى، فبعث إلى الحكم يعرض عليه أن يعترف بطاعته، وأن ينفذ ما تعهد
به
للناصر، وكيف عاد بعد ذلك إلى نكثه السابق حينما توفى خصمه أردونيو.
وعندئذ لم يجد الحكم بداً من الحرب، ولم يجد الأمراء النصارى بداً من
الاتحاد.

وقد فصلنا فيما تقدم كيف اجتاحت الجيوش الإسلامية، أراضي قشتالة، ومزقت جيوش أميرها فرنان كونثالث، في موقعة شنت إشتيبن، وأرغمته هو وحليفه سانشو ملك ليون على طلب الصلح، وكيف اجتاحت غربى نافار عقاباً لأميرها غرسية سانشيز على نكثه، وإغارته على أراضي المسلمين، وكيف توالت غزوات المسلمين لأراضي قشتالة، ما بين سنتي ٩٦٣، و ٩٦٧ م.

وهنا نقف قليلا أمام تلك الحقيقة التاريخية الهامة، وهى أننا نجد قشتالة إحدى ولايات مملكة ليون القديمة، تحارب المسلمين لأول مرة كإمارة مستقلة. ومن ذلك التاريخ تحتل قشتالة مكانتها في تاريخ الكفاح، بين اسبانيا النصرانية

---

(١) Modesto Lafuente: ibid ; T. II. p. ٣٦١

(٥٩٤/١)

خريطة:

الممالك الإسبانية النصرانية في أواخر القرن العاشر

عهد الحكم المستنصر والمنصور.

(٥٩٥/١)

واسبانيا المسلمة، وتغدو بالرغم من نشأتها المتواضعة شيئاً فشيئاً، أعظم الممالك

النصرانية رقعة، وأوفرها قوة ومنعة، وأشدها مراساً في محاربة المسلمين، وانهاك

قوى المملكة الإسلامية.
واستمر سانشو حيناً يحكم في ظروف صعبة من جراء ثورات الزعماء
والأشراف
الخارجين عليه، وكان بعد أن عقد الصلح مع الحكم، قد أرسل إليه تحقيقاً
لرغبة
زوجه تريسا، وأخته الراهبة إلبيرة، سفارة يطلب إليه الإذن بنقل رفات القديس
بلايو إلى ليون.
وكان نصارى قرطبة قد عنوا بنقل رفات هذا القديس من
الوادي الكبير، فأجاب الخليفة سؤله، ونقلت الرفات في العام التالى في حفل
فخم، وأودعت ليون بكنيسة خاصة أقامها الملك، وسماها دير سان بلايو.
ولم
يحضر سانشو هذا الحفل لانشغاله بمقاومة الخوارج عليه.
وكان من أشد خصومه
والمحرضين عليه الحبر سسناندو أسقف شنت ياقب؛ وكان هذا الأسقف قد
حصن
مدينته وقصره الأسقفى، بحجة حمايتها وحماية مزار القديس ياقب من غارات
النورمان، ولكنه أعلن العصيان، وعبثاً حاول سانشو استرضاءه، بيد أنه
اضطر
أخيراً أن يفتح مدينته للملك حينما رأى فشل الزعماء الخارجين في مقاومته.
وكان بين الزعماء الخارجين عليه من الأشراف وأشدهم مراساً، الكونت
جوندسالفو (غندشلب) سانشيز حاكم جليقية، وكان قد استطاع أن يوطد
استقلاله في المنطقة الواقعة بين نهرى منيو ودويرة، وأن يبسط حكمه على
لاميجو
وبازو وقلمرية، الواقعة فيما وراء دويرة شمالى ولاية البرتغال، فسار سانشو
لقتاله، ولكنه حينما عبر نهر منيو بقواته، ألفى رسل الزعيم الثائر يعرضون
عليه التسليم والطاعة، مع رجاء واحد فقط هو أن يأذن الملك بمقابلة الكونت،

فقبل سانشو.

وكان الكونت قد دبر مشروعاً دنيئاً لاغتياله.

فدعاه إلى مأدبة أقامها

وقدم إليه فاكهة مسمومة تناولها سانشو دون أن يخامره الريب، وسرعان ما شعر

بدبيب الموت يسرى إلى أحشائه، فحمل في الحال إلى ليون وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ودفن بها تحقيقاً لرغبته، وكان ذلك في سنة ٩٦٦ م (١) .

وهكذا توفى سانشو ملك ليون مسموماً، بعد أن حكم اثنتى عشرة سنة، فخلفه ولده راميرو الثالث، طفلا في الخامسة من عمره تحت وصاية عمته الراهبة

---

(١) Modesto Lafuente ; ibid, T.

II.

p.

٣٤١ - ٣٤٢



إلبيرة.

ولكن معظم الأشراف أبوا الاعتراف بسلطانه.

ونشبت في ليون طائفة

من الثورات المحلية، ولاسيما في ولايات جليقية، وحاول كثير من الزعماء الأقوياء

الانفصال عن العرش، وتوطيد سلطانهم المحلى.

وكان مثل فرنان كونثالث فى

الاستقلال بولاية قشتالة، أقوى مشجع لهم، ولبثت أخطر حركة من ذلك النوع، هى ثورة جوندسالفو سانشيز (قاتل مليكه) حيث استمر على استقلاله يحكم المنطقة الواقعة بين نهرى منيو ودويرة، وحكم القواعد الثلاثة الهامة

لاميجو

وبازو وقلمرية، الواقعة فيما وراء نهر دويرة.

وفى خلال ذلك، توفى الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة في سنة ٩٧٠ هـ وخلفه في الإمارة ولده غرسية فرناندز، كما توفى غرسية سانشيز ملك نافار وخلفه

ولده سانشو غرسية الثاني.

ويعلق المؤرخ لافونتى على عمل فرنان كونثالث مؤسس استقلال قشتالة وسياسته بقوله: " إن جميع الوسائل التي تذرع بها الكونت لتحقيق غايته لا تبدو

مستحسنة في نظرنا، فإن معاملته لملوك ليون راميرو الثاني، وأردونيو الثالث، وسانشو الأول، وأردونيو الردىء، وكذلك معاملته لغرسية ملك نافار، حليفاً وخصماً بالتوالى لهؤلاء وهؤلاء، وساعياً في تولية وعزل هؤلاء وهؤلاء، ومقسماً للولاء وناقضاً له، ولقد كانت مقتضيات السياسة وملابساتها في صالحه، وإن كان ذلك لا يطابق حكم الأخلاق الصارم.

بيد أننا نلاحظ أنه من مفاخر الكونت

أنه لم يحالف المسلمين قط، ولم يتهادن قط مع أعداء وطنه أو دينه.

أما عن بدء

عهد استقلال قشتالة، فيمكن أن نضعه في منتصف القرن العاشر (الميلادى)، وهو الوقت الذى رأينا فيه الكونت يعمل لحسابه دون خضوع لملوك ليون " (١).

وأدركت الممالك النصرانية يومئذ، وفي مقدمتها مملكة ليون، التي شغلت بحوادثها الداخلية، أنه لا مجال للعدوان على أراضي المسلمين، ولزمت السكينة حيناً.

واتجه الملوك والأمراء النصارى إلى تحسين علائقهم مع بلاط قرطبة، فتوالت زياراتهم وسفاراتهم على الحكم، يسألون الصلح والمهادنة.

وكان من الوافدين

بأنفسهم على قرطبة أمير جلِّيقية، والراهبة إلبيرة الوصية على عرش ليون.
وقد
فصلنا من قبل قصة هذه الزيارات والسفارات في موضعها.

---

(١) Modesto Lafuente: ibid.
، T.
II.
p.
٣٦١

(٥٩٧/١)

ولما توفى الحكم المستنصر، وشغل المسلمون بعض الرقت بشئونهم
الداخلية، اعتقد النصارى أن الفرصة قد عرضت مرة أخرى لغزو أراضي
المسلمين، فأغار القشتاليون على الأراضي الإسلامية، وتوغلو افيها جنوباً
وعاثوا
فيها، وهنا نهض محمد بن أبي عامر لرد عدوانهم، فغزا أراضي قشتالة في
أوائل
سنة ٩٧٧ م (٣٦٦ هـ) ثم غزاها ثانية، واقتحم مدينة شلمنقة في العام التالى.
وبدأت بذلك سلسلة الغزوات الشهيرة المتوالية، التي شهرها المنصور بن أبي
عامر، على الممالك الإسبانية النصرانية، واستغرقت طيلة حياته، والتي
فصلنا أخبارها
فيما تقدم.
ونستطيع أن نشير هنا فيما يتعلق بمملكة ليون، إلى ما وقع من إقدام راميرو
الثالث ملك ليون، على معاونة القائد غالب الناصرى ببعض قواته، في حربه
مع
المنصور، فلما سار المنصور بعد ذلك لمحاربة راميرو ومعاقبته على هذا

التحدى، استغاث راميرو بغرسية فرناندز أمير قشتالة، وسانشو غرسية ملك
نافار، فسار
المنصور، لمقاتلة القوات النصرانية المتحدة، وهزمها في موقعة شنت منكش
فى
سنة ٩٨١ م (٣٧١ هـ) .
وعلى أثر ذلك، رأى أشراف ليون، أن راميرو لم يعد صالحاً لحكم المملكة،
فقرروا خلعه، وتولية ابن عمه برمودو ملكاً عليهم (٩٨٢ م) .
ولكن راميرو لم
يذعن لهذا القرار، فجمع أنصاره واستعد للحرب، واضطرمت بين برمودو
وراميرو حرب أهلية، انتهت بهزيمة راميرو، وفراره إلى مدينة أسترقة،
وامتناعه بها.
وحاول راميرو بعد ذلك، أن يلجأ إلى المنصور، وأن يستمد
عونه لاسترداد عرشه.
ولكنه توفى بعد ذلك بقليل، وتخلص برمودو بذلك
من منافسته.
بيد أن برمودو، لم يشعر مع ذلك بالطمأنينة.
فقد لبث فريق كبير من
الأشراف على معارضتهم لحكمه، ولبث النضال الداخلى مؤذناً بالخطر.
وعندئذ
قرر برمودو أن يلجأ إلى المنصور، فالتمس منه التأييد والعون، على أن
يعترف
بطاعته، فأجابه المنصور إلى طلبه، وبعث إليه بقوة من جنده، حلت بمدينة
ليون عاصمة المملكة، وبذلك أصبحت ليون مملكة تابعة تؤدى الجزية، ولكن
برمودو حينما شعر بتوطد مركزه، واشتداد ساعده، قرر أن يتخلص

من نير المنصور، فهاجم الحامية الإسلامية، واستخلص مدينة ليون من يدها.

فنهض المنصور لمحاربته، وسار إلى مدينة ليون فاقتحمها وخربها، ومزق قوى

النصارى، ثم استمر يغزو أراضي ليون تباعاً، ويوقع الهزائم المتوالية

ببرمودو، حتى اضطر برمودو إلى طلب الصلح، والعودة إلى الاعتراف

بالطاعة (٩٩٥ م) ، وقد رأينا كيف سار المنصور بعد ذلك، إلى غزو مدينة شنت ياقب عاصمة

إسبانيا النصرانية الروحية (٩٩٧ م) ، وكيف انضم إليه في تلك الغزوة معظم أشراف جليقية.

وعندئذ لم ير برمودو مناصاً في النهاية، من العود إلى التماس

الصلح، والاعتراف بالطاعة، ونبذ كل مقاومة.

فأجابه المنصور إلى طلبه.

وعاش برمودو بعد ذلك عامين آخرين، قضاهما في إصلاح الكنائس والأديار والقلاع، التي هدمت خلال الحرب.

ثم توفى سنة ٩٩٩ م، فخلفه ولده ألفونسو

الخامس طفلا.

وقام بالوصاية عليه الكونت مننديث كونثالث أحد أشراف

المملكة (١) .

٣ – مملكة نافار

أشرنا فيما تقدم إلى نشأة مملكة نافار المستقلة، في أواخر القرن التاسع

الميلادى، وكيف تولى عرشها سانشو غرسية (الأول) ، عقب اعتزال أخيه فرتون الملك فى

سنة ٩٠٥ م.

وقد عمل سانشو على توسيع أطراف مملكته الصغيرة، واستطاع

أن يدفع حدودها جنوباً حتى ناجرة، وخاض مع المسلمين حروباً عديدة، أيام

الأمير عبد الله، وفي أوائل عهد الناصر.

وقد غزا الناصر نافار سنة ٩٢٠ م، ثم بعد ذلك في صائفة ٩٢٤ م، ودخل عاصمتها بنبلونة وخربها، وسحق قوى

نافار، وقضى على كل مقاومة من جانبها وكل نزعة للعدوان.

ولما توفى سانشو في سنة ٩١٦ م، خلفه ولده غرسية سانشيز طفلا، وحكم أولا تحت وصاية عمه خمينو غرسيس، ثم بعد ذلك تحت وصاية أمه الملكة طوطة، التي لبثت تحكم باسمه طويلا، حتى بعد أن بلغ سن الفتوة والنضج. وكانت نافار

خلال ذلك ترتبط برباط المصاهرة، مع المملكتين النصرانيتين الأخريين. فقد

كان أردونيو الثالث ملك ليون متزوجا من أوراكا إبنة الملكة طوطة وأخت غرسية.

وكان فرنان كونثالث كونت قشتالة متزوجاً من إبنة أخرى لطوطة هى

---

(١) ابن خلدون، ج ٤ ص ١٨١؛ وكذلك Altamira: ibid, Vol. I. p.



(٥٩٩/١)

سانشا، وكانت طوطة تحتل بذلك مقاماً ملحوظاً في الممالك الثلاث. ولما توفى

راميرو الثاني ملك ليون في سنة ٩٥٠ م، واضطرمت الحرب الأهلية حول وراثة

العرش بين ولديه أردونيو وسانشو، وقفت نافار إلى جانب سانشو، ولد الملكة أوراكا النافارية، ثم وقفت بعد ذلك إلى جانبه مرة أخرى، بعد أن تولى العرش

عقب وفاة أخيه، وقام أشراف ليون بخلعه، ولجأت الملكة طوطة في معاونته
إلى الناصر حسبما تقدم.
ثم اضطربت العلائق بين نافار وبين جارتها قشتالة، ونشبت الحرب بينهما، فهزم الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة، وأسر في موقعة نشبت بين الفريقين على مقربة من ناجرة، واعتقل في نافار مدة طويلة ضعفت فيها شوكة قشتالة ولزمت السكينة حيناً.
ولما توفى الناصر، وتولى مكانه ولده الحكم المستنصر، طالب ملك ليون بتسليم الحصون التي تعهد بتسليمها إلى أبيه، وطالب ملك نافار بأن يسلمه أسيره
فرنان كونثالث أمير قشتالة، فرفض الملكان مطالب الحكم، وأطلق غرسية أسيره فرنان كونثالث، فهرع إلى برغش عاصمته، وقبض على صهره أردونيو الرابع، وأرسله مخفوراً إلى الحدود الإسلامية، وهنالك التجأ إلى القائد غالب حاكم الثغر، ثم سار معه إلى الحكم مستجيراً به، واستقبله الحكم كما تقدم فى احتفال مشهود.
واستطال حكم غرسية سانشيز حتى سنة ٩٧٠ م، واستمرت أمه الملكة العجوز طوطة، محتفظة بإشرافها عليه، ومشاركتها الفعلية في الحكم، حتى وفاتها
في سنة ٩٦٠ م.
ولما توفى غرسية سانشيز، خلفه في عرش نافار ولده سانشو غرسية الثاني، وكانت مملكة نافار قد اتسعت رقعتها عندئذ، وأصبحت تشمل عدا ولاية نافار الأصلية، ولايات كانتبريا، وسوبرابى، ورباجورسا، ونمت مواردها وقواها حتى أن سانشو لم يحجم عن الإغارة على الأراضي الإسلامية، ورد المنصور على
هذه الجرأة، فغزا نافار، وتوغل فيها حتى اقتحم عاصمتها بنبلونة، وذلك فى سنة ٩٨٧ م.
وخلف سانشو في الحكم ولده غرسية سانشيز الثالث، فلم يدم حكمه سوى

خمسة أعوام، وفي عهده غزا المنصور نافار مرة أخرى (٩٩٩ م) .
ثم توفى غرسية
في العام التالى، فخلفه ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير.
٤ - عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية
سبق أن تحدثنا فيما تقدم عن عناصر المجتمع في اسبانيا المسلمة، ويجدر بنا أن
نتحدث هنا عن عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية.
لم يكن في اسبانيا النصرانية بعد الفتح الإسلامى، ما يمكن أن يسمى بالحياة القومية العامة.
وكانت كل ولاية أو مملكة، تعيش وفق ظروفها ونظمها الخاصة، وكان هذا التباين ذاته، يقوم في الداخل، ويتفاقم أحياناً بما يحدث إلى جانبه من خلافات أخرى، تصيب النظم والحياة الإجتماعية.
وقد بقى تكوين المجتمع النصرانى الإسبانى عقب الفتح، على ما كان عليه أيام القوط، وكان يتكون من عنصرين رئيسيين، هما الأحرار، والعبيد، وكان الأحرار وهم الذين يستطيعون التصرف في أشخاصهم، والتنقل بحرية من مكان
إلى آخر، ينقسمون بدورهم إلى أشراف وعامة.
وكانت طبقة الأشراف، تتكون أولا من الحكام ومن خاصة الملك، وتتوقف في تكوينها على الملك، يمنحها الألقاب والأراضي والوظائف.
ويلحق بهذه
الطائفة كبار الملاك، الذين يحصلون على أملاكهم سواء بالميراث أو الهبة. وكان
للأشراف امتيازات كثيرة، سواء بالنسبة لأشخاصهم أو أملاكهم، فكانوا داخل أراضيهم سادة بكل معنى الكلمة، لهم مطلق الحرية والتصرف، بل كان

لهم أن يتركوا خدمة الملك، وأن ينتقلوا إلى مملكة أخرى، إذا غضبوا منه لسبب
من الأسباب.
وكان من جراء ذلك، أن كثيراً من الأشراف النصارى، كانوا
ينتقلون إلى الأراضي الإسلامية، وينضوون تحت لواء الأمراء والخلفاء، ويحاربون
معهم ضد مواطنيهم وأبناء دينهم.
وكان هؤلاء الأشراف يعفون من الضرائب، خلافاً لما كان عليه الأمراء
في عهد القوط، وكانوا ملزمين فقط بمساعدة الملك وقت الحرب، فينتظمون
مع أتباعهم في الجيش المحارب على نفقة الملك.
وكان يلحق بهذه الطبقة من الأشراف، بعض طوائف أخرى أقل أهمية
من الناحية الاجتماعية، مثل الفرسان والمحاربين، وهم الأشخاص الذين يستطيعون

(٦٠١/١)

أن يقتنوا لأنفسهم خيلا وسلاحاً، ليشتركوا في الحرب، ثم يمنحون نظير هذا الاشتراك بعض الإمتيازات.
وقد نمت هذه الطبقة فيما بعد.
وكذلك كان ينتمى
إلى الأشراف، وينضوى تحت حمايتهم، بعض الطوائف الميسورة، مثل صغار الملاك، وأصحاب الصناعات.
ولم تكن هذه الحماية تقف عند الأشخاص أو الأسر
المعينة فقط، ولكنها كانت تشمل أحياناً بعض القرى والضياع، فينضوى أهل القرية أو الضيعة، تحت حماية الشريف بشروط معينة، وكان هؤلاء يقدمون جزءاً
من أملاكهم إلى السيد المتولى حمايتهم، ويؤدون إليه إتاوات معينة، وأعطية

ْشخصية.
بيد أنهم كانوا في حل من تركه إذا قصر في حمايتهم، والانضواء تحت
حماية سيد آخر.
ويلحق أخيراً بهذه الطبقة الشعبية الزراع الأحرار، وهم الأشخاص الأحرار
الذين لا يملكون أرضاً، ولكن يتلقون من الملاك أرضاً لزرعها.
وكذلك الأحرار
الذين كانوا من قبل رقيقاً، ثم وفقوا إلى تحقيق حرياتهم، وكان هؤلاء عليهم
أن يؤدوا إلى السيد أو المالك ضرائب وإتاوات عينية فادحة، بيد أنه كان فى
وسعهم أن يتركوه متى شاءوا.
إلى جانب هذه الطبقات الحرة من المجتمع النصرانى، كانت توجد الطبقة
المستعبدة أو طبقة الأرقاء، وقد بقيت أحوالها على ما كانت عليه أيام القوط
تقريباً.
وكانت تتكون من عناصر عدة، فمنهم عبيد الدولة، وعبيد الملك، وعبيد
الكنيسة
والأديار (عبيد رجال الدين) ، ثم عبيد الأفراد وعبيد الأرض الملحقين بها.
وكان عبيد الأفراد على الأغلب من أسرى الحرب، ومنهم الأسرى المسلمون.
وقد استمرت هذه الطوائف من الرقيق، قائمة حتى القرن الثاني عشر، ثم
اندمجت
بعد ذلك في طائفة واحدة من الأرقاء، هم رقيق الضياع.
وكان رقيق الضياع يعتبرون من مرافق الأرض، وينتقلون معها بانتقال
الملكية.
وكانوا يزرعون الأرض على نفقتهم، ويؤدون إلى السيد، سواء أكان
هو الملك، أو الأشراف أو الكنيسة، جزءاً من المحصول، وإتاوات أخرى،
ويقدمون إلى جانب ذلك خدمات شخصية كثيرة، مثل القيام بحرث أرض
السيد، أو ضم محاصيله وعصر نبيذه وزيته، أو المعاونة في بناء داره،
وتتحصر

حقوقهم في التمتع بالسكن، والعيش في الضيعة.
وكان بيع الضيعة يغدو في معظم

(٦٠٢/١)

الأحيان بالنسبة لهم محنة أليمة، إذ يفرق أحياناً بين الرجل وزوجه، أو بينه وبين أولاده.
وكانت هذه الطبقة من الأرقاء تتكون من أبناء العبيد، ومن المحكوم عليهم بالرق، في قضية مدنية أو جنائية، ومن أسرى الحرب، وقد كانوا أسوأ طوائف الرقيق حظاً.
وكان تحرير الرقيق، يقع إما بالعتق أو بالفرار أو الثورة.
على أن ثورات
العبيد كانت قليلة، وكان الأغلب أن يظفر العبيد بحرياتهم، في أعقاب الثورات
التي يشتركون فيها.
أما العتق فكان يجرى وفقاً لتعاليم الكنيسة.
على أن هذه
الطائفة من المتحررين، لم تكن تتمتع بكامل حقوق الطوائف الحرة الأخرى، فكان السيد محتفظ لنفسه أحياناً قبل المعتوقين ببعض الخدمات أو الإتاوات.
وقد استمرت الطبقة الوسطى، تنمو على كر الزمن، بزيادة عدد المعتوقين أو الأحرار الأصائل، حتى إذا كان القرن العاشر، كانت هذه الطبقة، تكون الجزء الأعظم من السكان، وتتمتع بظروف وأحوال أفضل بكثير مما كانت عليه
من قبل (١) .
٥ - تنظيم السلطات السياسية
أما من حيث التنظيم الأساسى، وتوزيع السلطات السياسية، في الممالك الإسبانية النصرانية، فقد كانت هذه السلطات موزعة، بين ثلاث جهات

رئيسية، هى الملك، والأشراف، ورجال الدين.
وقد كان المفروض أن تكون السلطة الملكية، هى أعلى السلطات وأشملها، وقد كانت كذلك من الوجهة النظرية.
فقد كان الملك، هو رئيس الدولة الأعلى، وله الولاية على كل فرد تضمه أرض المملكة.
وكان الملك مصدر التشريع، ومنه
وباسمه تصدر القوانين العامة، وكذا كان له حق الموافقة على القوانين المحلية، التي
يصدرها الأشراف بالنسبة للمنتمين إليهم، وله أن يدعو رعاياه إلى الحرب، وأن يرغمهم على الخدمة فيها، وأن يصدر السِّكة، وأن يباشر العدالة.
وهو الذى
يعين الأساقفة ويقيلهم، ويؤسس الكنائس والأديار، وهو الذى يقود الجيش، وعلى الجملة فهو الذى يتولى سائر الوظائف السياسية والعسكرية والدينة والمدنية.

---

(١) Altamira: ibid ; Vol.
I.
p.
٢٨٧ - ٢٩٣



على أن هذه السلطات لم تكن متساوية في جميع الأحوال والعصور، وقد تعدلت
بمضى الزمن، وانتقصت أطرافها، أحياناً بطريق التنازل من جانب الملوك، وبخاصة لأن الملك لم يكن يزاول هذه السلطات بطريق مباشر.
وكان الأشراف يتمتعون داخل أملاكهم، بقدر كبير من الاستقلال، ويبسطون

حكمهم على طائفة كبيرة من الأراضي والقرى والضياع والحصون، وكان السيد يعيش في حصنه، وهو يقع عادة في موقع إستراتيجى حصين، ويحيط به عدد من المساكن المحصنة، ويخضع لسلطته سائر سكان المنطقة، بعضهم
كعبيد، والبعض الآخر من المشمولين بحمايته.
وكان يجنى منهم الضرائب، والإتاوات العينية، ويدعوهم للخدمة العسكرية متى دعاه الملك إلى الحرب، ويباشر القضاء بينهم، وله أن يوقع عليهم بعض الأحكام الجنائية التي تتصل
بالقانون العام.
وعلى الجملة فقد كان للشريف على سكان منطقته، السيادة المطلقة، وهو الذى يوزع بينهم مختلف المناصب والأعمال.
وأما القضاء قِبل الأشراف أنفسهم، فقد كان يزاوله بالنسبة للسيد، أشراف من طبقته، ولا يزاوله قضاة الملك، لأنهم لم يكونوا من الأشراف.
وكان للشريف
أن يشهر الحرب على زملائه الأشراف، إذا أصابه منهم حيف أو إهانة، وله أن
يترك خدمة الملك دون أن يخسر شيئاً من أملاكه، بل كان له أن يشهر الثورة
ضد الملك.
ولم يكن يحد من هذه السلطة، التي يمنحها الملك إياه سوى أمرين، الأول الخيانة، وفي هذه الحالة يجرد الشريف من أملاكه وامتيازاته، والثاني متى ضمت لأملاكه أراض جديدة، فإنه لا يستطيع أن يبسط عليها سلطته وامتيازاته
إلا بموافقة الملك.
وكان الأشراف يشاركون في مزاولة القضاء مشاركة فعلية، فقد كانوا يؤلفون جزءاً من المحاكم العادية، ويشتركون في تشكيل المحاكم الملكية كلما

اجتمعت، ويحتلون كذلك بعض المناصب الإدارية الهامة.
وكان لهذه المساهمة الخطيرة، أثرها في إذكاء شهوتهم إلى الاستئثار
بالسلطة، وتوطيد استقلالهم المحلى، وكثيراً
ما كانوا يلجأون إلى الثورة، لفرض إرادتهم على العرش، أو يتدخلون في وراثة
العرش بالقوة القاهرة.
ومع ذلك فقد كان الملوك، يعمدون إلى الإغضاء في أحيان كثيرة، ولو كان

(١/٦٠٤)

فى ذلك إضرار بالسلطة الملكية.
ذلك أن ضعف الملوكية، وضرورات الحرب، ثم الحاجة إلى معاونة الأشراف
أيام الحرب الأهلية حول وراثة العرش، كانت
ترغم الملوك على التسامح، بل وأحياناً على زيادة المنح والامتيازات
للأشراف، وذلك حرصاً على استتباب الأمن والسكينة، إذ كان الأشراف في
تلك العصور
قوة يخشى بأسها.
وقد كانت طائفة الأشراف هذه، بالرغم من مركزها الاجتماعى الممتاز،
تنطوى على عيوب ومثالب كثيرة، فقد كانت تجنح إلى استغلال الرعايا،
وانتزاع
ما في أيديهم، بل وقد كانت ترتكب الجرائم جهاراً، فتعمد إلى نهب التجار
والمسافرين، وكان الأشراف يقتتلون فيما بينهم للفوز بثمار أمثال هذه الجرائم.
وقد استمر هذا النظام الإجرامى الجائر عصوراً، بالرغم من تدخل الملك.
والأساقفة، لحفظ الأمن في كثير من الأحيان.
وإلى جانب الأشراف، كان رجال الدين من الأساقفة والرهبان ومن إليهم،
يتمتعون كذلك في أراضيهم بسلطان مستقل.
وكان للكنائس والأديار أراض
شاسعة خاصة، ترجع إلى الهبات والنذور وغيرها، وفيها تزاول السلطة بطريق

مطلق، وفقاً لروح هذا العصر الإقطاعى.

وكان لها أيضاً كثير من العبيد والزراع

تتمتع قبلهم كالأشراف، بالحق في تحصيل الجباية والمحاصيل وغيرها.

وكان

الملوك في أحيان كثيرة يهبون بدافع الورع والحماسة الدينية، إلى الكنائس

والأديار، رقاعاً شاسعة من الأرض، فتبسط سلطانها على سكان المنطقة،

وتحصل منهم

الإتاوات، وتزاول بينهم القضاء.

وكانت الكنائس والأديار، تدفع هذه

السلطات أحياناً إلى حدود مرهقة، اجتناباً لافتئات الأشراف المجاورين.

وكان

رجال الدين، على مثل الأشراف، يلبون دعوة الملك إلى الحرب هم ورجالهم،

ويحشدون الصفوف من بين رعاياهم من الأحرار والزراع والأرقاء، أو يعهدون

بذلك إلى رئيس من غير رجال الدين.

والخلاصة أن الأساقفة والرهبان كانوا

كالأشراف، سادة بكل معانى الكلمة، وكانوا يمتازون في ذلك على الأشراف،

بأن كان الملك يصدر الوثائق والمراسيم المكتوبة، بامتيازاتهم، وكان يتبع

الكنيسة

أحياناً مناطق كثيفة من السكان، كما كان الشأن في شنت ياقب، حيث قامت

حول الكنيسة مدينة عظيمة، صارت تابعة لها هى وما حولها من الأراضي

الشاسعة.

(٦٠٥/١)

وكانت سلطة الأسقف تتخذ في أحيان كثيرة صورة مطلقة في المدينة وفي

الحقل، يزاولها على يد كونتات وموظفين وغيرهم.

وكان له جيشه أو جنده الخاص، يحمون أراضيه من الأجانب أو الأشراف

المغيرين (١) .

ونلاحظ أن هذا التنظيم السياسى، الذى تطبعه روح إقطاعية عميقة، والذى ينطوى على توزيع السلطة بين مختلف الطوائف والعصبيات، بصورة تجعل دولا
عديدة داخل الدولة، يتنافى في جملته وتفاصيله مع التنظيم السياسى للدولة الأندلسية
الإسلامية.

فقد رأينا فيما تقدم، كيف كان العرش يحرص منذ البداية على سلامة السلطة المركزية، وكيف بذل أمراء بني أمية، منذ عبد الرحمن الداخل جهودهم، لإخماد النزعة القبلية، وتحطيم رياستها، ثم جاء الناصر فحطم العصبية العربية، وقضى على رياسة القبائل العربية بصورة نهائية، واستخلص السلطة كلها للعرش، ولم يكن العرش يتسامح بعد ذلك، مع أية رياسة محلية تنزع إلى الاستقلال، إلا ما كان بالنسبة لبعض الثغور النائية، مثل طليطلة وسرقسطة، وذلك لأسباب
عملية واستراتيجية.

---

(١) .R
.Altamira: ibid, Vol
.I
.p
٢٩٣ - ٢٩٩

*(٦٠٦/١)*

الفصل الرابع

عبد الملك المظفر بالله

عبد الملك المظفر يتولى الحجابة وتدبير المملكة.

إشادة الرواية الإسلامية بعهده وبخلاله.
يحذو حذو أبيه في سياسته نحو المغرب.
يتابع سنته في الغزو.
خروجه إلى الغزو ومسيره إلى الثغر
الأعلى.
عيثه في أراضي برشلونة.
عوده إلى قرطبة واستقبال هشام له.
جلوسه في الزاهرة.
سفارة
أمير برشلونة.
إحتكام أميرى قشتالة وجليقية إليه.
غضب سانشو غرسية وعدوانه.
مسير عبد الملك
لغزو قشتالة.
غزوه لمملكة ليون.
غزوة بنبلونة.
استقباله لسفير القيصر في مدينة سالم.
غزوة
قلونية أو غزاة النصر.
إتخاذ عبد الملك لقب المظفر بالله.
قصة هذا اللقب ومرسومه.
استئنافه للغزو
واختراقه لقشتالة.
الغزوة السابعة أو غزاة العلة.
مرضه وتفرق جيشه.
وفاته.

ما قيل عن اغتياله
بالسم.
موقفه من الخليفة هشام.
إنهماكه في الشراب واعتماده على الغلمان والوزراء.
الوزير عيسى
ابن القطاع.
المنافسة بينه وبين الفتيان.
تغلب الفتى طرفة واستئثاره بالسلطة.
تغير عبد الملك عليه.
القبض عليه وإعدامه.
ابن القطاع يسترد نفوذه وسلطانه.
كبرياؤه وتعسفه.
الوقيعة في حقه.
استظهار عبد الملك بالصقالبة والبربر.
سخط الأسر العربية لذلك.
تآمر ابن القطاع على إزالة بني عامر.
وقوف عبد الملك على المؤامرة.
بطشه بالوزير وأصحابه.
استرداده لسائر
السلطات.
صفات عبد الملك وخلاله.
لما توفى المنصور بن أبي عامر بمدينة سالم، في السابع والعشرين من
رمضان
مشة ٣٩٢ هـ، بعد أن ألقى إلى ولده عبد الملك، وصيته ونصائحه الأخيرة،
بادر
عبد الملك بالعودة إلى قرطبة، تاركاً لأخيه الأصغر عبد الرحمن، أمر العناية

بموارارة
أبيه، والعودة بالجيش.
وما كاد يصل إلى العاصمة، حتى بادر برؤية الخليفة
هشام المؤيد، واستصدر منه المرسوم بتوليته الحجابة، وجلس في الحكم مكان
أبيه
بالزاهرة.
وتلى نص المرسوم بالمسجد الجامع، وأنفذت الكتب إلى الجهات،
وإلى عدوة المغرب، معرفة بوفاة المنصور وتولية ابنه عبد الملك تدبير
المملكة مكانه.
وكان لوفاة المنصور وقع عظيم بقرطبة، فحزن الناس
لفقده أيما حزن، وأدرك العقلاء أن رزءاً فادحاً نزل بالإسلام والأندلس.
واعتقد فريق من الفتيان المروانيين بالقصر، وبعض الناقمين من العناصر
الأخرى،
أن الفرصة قد سنحت، للتحرر من نير الحكم القائم، والعود إلى النظام
الخلافى،
ولكن السلطات العامرية كانت ساهرة.
فقبضت في الحال على عدد من المحرضين،

*(٦٠٧/١)*

وأبعدوا إلى العدوة، واستتب الأمر لعبد الملك، دونما جهد أو اضطراب،
واستقبل الناس حكمه بالاستبشار والرضى.
وكان عبد الملك، حينما خلف أباه المنصور في الحكم، في الثامنة والعشرين
من عمره، إذ كان مولده بقرطبة في سنة ٣٦٤ هـ، ويكنى أبا مروان ويلقب
بسيف الدولة وبالمظفر بالله، وأمه حرة تدعى الذلفاء؛ وقد رأينا كيف تمرس
عبد الملك في شئون الحكم أيام أبيه، وكيف تولى القيادة، واشترك معه في
كثير

من غزواته، ومن ثم فقد قبض عبد الملك على زمام الأمور بحزم وكفاية،
واعتزم أن يسير على خطى أبيه، سواء في تدبير الشئون الداخلية، أو
الاستمرار
في غزو الممالك النصرانية.
وتشيد الرواية الإسلامية بعهد عبد الملك على قصره، وما بلغته الأندلس فيه
من الرخاء والنعماء، وتقدمه إلينا في صور طيبة لامعة.
فيقول لنا ابن حيان في قوة
وحماسة: " انصب منه الإقبال والتأييد على دولته انصباباً، ما عهد مثله في
دولة
وسكن الناس منه إلى عفاف، ونزاهة، ونقى سريرة، ووثوق في بعد همته،
اطمأنوا بها إلى جنبه، في السرِّ والعلانية، فباحوا بالنعم، واستثاروا الكنوز،
وتناهوا في الأحوال، وتناغوا في المكاسب، وتحاسدوا في اقتناء الأصول،
وابتناء القصور، وغالوا في الفرش والأمتعة، واستفرهوا المراكب والغلمان،
وغالوا في الجوارى والقيان، فسمت أثمان ذلك في تلك المدة، وبلغت الأندلس
فيها الحد الذى فاق الكمال؛ فمهد تلك الدولة في احتشاد النعم عندها، وارتفاع
حوادث الغير عنها..

.

في كنف ملك مقتبل السعد، ميمون الطائر، غافل عن
الأيام، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها.
فاجتمع الناس على حبه
ولم يدهنوا في طاعته، ورضى بالعافية منهم، وآتوه إياها فصفى عيشه،
وانشرح
قلبه، وخلصه الله من الفتنة ".
ويشيد ابن حيان بعد ذلك، بعفة عبد الملك، وورعه وتواضعه وشجاعته
وحيائه، وتورعه عما يشين الملك من المجون والاستهتار، وبره بوالديه، وثباته
على عهد أبيه.

كل ذلك في عبارات تنم عن عميق تأثره وإعجابه (١) .
بيد أن هذه الصور المشرقة التي تقدم إلينا عن خلال عبد الملك، تغشاها

(١) نقله أعمال الأعلام ص ٨٤ و٨٥، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣.

(٦٠٨/١)

من الناحية الأخرى خلة قاتمة، هى شغفه بمعاقرة الشراب وانهماكه في لذاته (١) .
افتتح عبد الملك المنصور عهده، بإجراء كان له في نفوس الناس أطيب وقع؛ وذلك أنه أسقط سدس الجباية عن سائر الناس، في سائر بلاد الأندلس. فكان
لذلك أثره في التخفيف عن الناس، والرفق بهم، وبث شعور الرضى والاستبشار
بالعهد الجديد.
وحذا عبد الملك حذو أبيه المنصور نحو المغرب، في تأييد زناتة ومغراوة، والإبقاء على ولائهم.
وكان المنصور حينما توفى زيرى بن عطية زعيم مغراوة، فى سنة ٣٩١ هـ، قد أقر ولده المعز حاكماً على المغرب حسبما قدمنا. فلما تولى
عبد الملك الحجابة، أعلن المعز طاعته له، ودعى له على منابر المغرب، فكتب
إليه عبد الملك بعهده، على سائر ما يملكه من أقطار المغرب (سنة ٣٩٣ هـ) على
أن يؤدى إلى حكومة قرطبة، مقادير معينة من المال والخيل والدرق. واستمر
المعز على الوفاء بعهوده، أيام عبد الملك وأخيه عبد الرحمن من بعده (٢) .

واعتزم عبد الملك أن يسير على سنن أبيه في متابعة غزو الممالك النصرانية، وألا يترك لها فرصة لتذوق السلم والدعة.

وكان الملوك النصارى قد تنفسوا الصعداء

عند وفاة المنصور، واعتقدوا أن الظروف قد تتغير، وأن أخطار الغزوات الإسلامية قد تخبو، ولكن سرعان ما تبدد هذا الأمل.

ذلك أنه لم تمض أشهر

قلائل على تولية عبد الملك، حتى اتخذ الأهبة لغزوته الأولى، واستعد لها استعداداً

خاصاً، ووفدت على قرطبة طوائف كبيرة، من الزعماء والمتطوعة من العدوة، للاشتراك فيها، وأجزل لهم عبد الملك الصلات والأرزاق، ووزع فيهم ما كان مخزوناً من السلاح.

وخرج عبد الملك بالجيش من مدينة الزاهرة، في شعبان سنة ٣٩٣ هـ (يونيه ١٠٠٣ م) .

وتصف لنا الرواية مشهد خروجه فتقول لنا إنه " خرج على الناس

شاكى السلاح، في درع جديد سابغة، وعلى رأسه بيضة جديدة مثمنة الشكل مذهبة، شديدة الشعاع، وقد اصطفت القواد والموالى والغلمان الخاصة، فى أحسن تعبئة، فساروا أمامه، وقد تكنفه الوزراء الغازون معه " (٣) .

وسار عبد الملك

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣.

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ١٩٨، والاستقصاء ج ١ ص ٩٥.

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٥.

*(٦٠٩/١)*

أولا إلى مدينة طليطلة، ثم ارتد منها إلى مدينة سالم، وهنالك انضم إليه الفتى واضح في قواته، ووفد عليه في نفس الوقت قوة من النصارى، أرسلها الكونت

سانشو غرسية أمير قشتالة، وفقاً لمعاهدته مع المنصور.
وتابع الحاجب عبد الملك سيره بعد ذلك في نحو الثغر الأعلى، واستراح أياماً
في سرقسطة، ثم غادرها قاصداً إلى الثغر الإسبانى أو بعبارة أخرى إلى إمارة
برشلونة التي بدت من أمرائها منذ أيام المنصور نزعة إلى العدوان، وأشرف
على
سلسلة من الحصون القوية الواقعة جنوبى جبال مونسيش، واستولت قوات
الفتى
واضح على حصن مدنيش (١) ، وحاصر الحاجب بقواته حصن ممقصر أو
ممقصره (٢) ، واستولى عليه بعد قتال عنيف، وأباد حاميته، وعاث
المسلمون بعد
ذلك في بسائط برشلونة، وخربوا كثيراً من حصون العدو، واستولوا على كثير
من الغنائم والسبى.
وقضى الحاجب وجيشه عيد الفطر في بسائط برشلونة، واحتفل بالعيد
احتفالا فخماً، واستقبل طبقات الأجناد مهنئين ومسلمين.
وبعث من معسكره
رسالتين إلى قرطبة من إنشاء كاتبه أحمد بن برد يصف فيهما الفتح، إحداهما
برسم
الخليفة هشام المؤيد، والثانية لتقرأ على الكافة في جامع قرطبة.
ثم قفل عبد الملك بجيشه عن طريق مدينة لاردة.
واخترق الثغر الأعلى جنوباً
إلى قرطبة، فدخلها في الخامس من ذى القعدة.
وهنالك تلقاه الأكابر والعلماء
مهنئين مستبشرين؛ وقصد الحاجب من فوره إلى الخليفة هشام، فاستقبله
أحسن
استقبال، وأكرم منزله، وخلع عليه من ثيابه وسلاحه، فشكره الحاجب وقبل
يده.

وفى اليوم التالى جلس بقصر الزاهرة، واستقبل مختلف الوفود، وكان يوماً مشهوداً (٣) .

وقد نظم ابن دراج القسطلى في التهنئة بهذه الغزوة قصيدة هذا مطلعها:

بدا ريح السعد واستقبل النجح..

.

فبلله فاستفتح فقد جاءك الفتح

---

(١) هو باسمه الإسبانى Meya.

(٢) هو باسمه الإسباني حصن Monmagastre؛ ويسميه ابن الخطيب حصن منغص (أعمال

الأعلام ص ٨٧) .

(٢) راجع في أخبار هذه الغزوة: البيان المغرب، ج ٣ ص ٥ - ٩، وأعمال الأعلام

ص ٨٧.

(٦١٠/١)

وقد قدّم النصر العزيز لواءه..

.

وقبل طلوع الشمس ينبلج الصبح

فقد في سبيل الله جيشاً كأنه..

.

من الليل قطع طبق الأرض أو جنح

كتائب في أقدامها النجح والهدى..

.

وألوية في عقدها اليمن والنجح (١)

ولم يمض قليل على ذلك، حتى أرسل أمير برشلونة الكونت رامون بوريل

الثالث، سفارة إلى قرطبة يطلب عقد الصلح والمهادنة، فاستقبل السفراء الفرنج استقبالا حافلا، على نمط أسلافهم من السفراء النصارى.

وكانت هذه آخر فرصة

من نوعها أبديت فيها أبهة الخلافة وفخامتها (٢) .

وكان من أثر هيبة عبد الملك في نفوس الملوك النصارى، أن احتكم إليه أمير قشتالة الكونت سانشو غرسية، ومننديث كونثالث زعيم جليقية، والوصى على ملك ليون الطفل.

وكان ملك ليون وهو ألفونسو الخامس، يومئذ ما يزال

حدثاً في العاشرة من عمره، وكانت أمه إلبيرة أختاً لسانشو غرسية، وكان سانشو

يرى بذلك أنه أحق بالوصاية على ابن أخته الملك الطفل، من مننديث كونثالث.

فلما احتكم الطرفان إلى عبد الملك، ندب قاضى النصارى أصبغ بن سلمة، لبحث النزاع والفصل فيه، فقضى لمننديث كونثالث بأحقيته للوصاية، واستمر بالفعل وصياً على ملك ليون حتى قتل غيلة في سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨م) (٣) .

والظاهر أن سانشو غرسية لم يرضه هذا الحكم، فبدت منه أعراض العدوان على أرض المسلمين، أو هو قد اعتدى عليها بالفعل.

ومن ثم فإنا نجد عبد الملك

يخرج بقواته في صيف سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٤ م) ويقصد إلى أراضي قشتالة ويعيث

فيها، ولم يبد سانشو أية مقاومة، فقفل عبد الملك إلى قرطبة، واضطر سانشو إلى

طلب الصلح، وقصد بنفسه إلى قرطبة، فاستقبله عبد الملك أحسن استقبال، وأعيد عقد الصلح والتهادن بين الفريقين، وتعهد سانشو أن يعاون عبد الملك فى

غزواته ضد مملكة ليون، وضد خصومه من بني قومس وغيرهم.
وفى العام التالى (٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م) خرج عبد الملك في قواته وسار

---

(١) تراجع هذه القصيدة بأكملها في ديوان ابن دراج القسطلى الذى سبقت الإشارة
إليه ص ٤٦٦ و٤٦٧.
(٢) الذخيرة القسم الرابع، المجلد الأول، ص ٦٤.
(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١، البيان المغرب ج ٣ ص ١٠.

(٦١١/١)

صوب طليطلة؛ وهنالك لحق به الفتى واضح وسانشو غرسية في بعض قواته، ثم سار شمالا نحو أراضي ليون، وبعث واضحاً في قواته إلى مدينة سمورة، وكانت قد خربت منذ أيام المنصور، وليس فيها سوى قليل من النصارى
يقيمون في بعض أبراجها، فقتل الرجال، وسبى النساء.
وعاث عبد الملك بعد
ذلك في أراضي ليون، وإلى جانبه سانشو غرسية، واقتحم أملاك بني غومس، ووصل في زحفه في جلِّيقية، إلى بلدة لونة الحصينة، واستولى في هذه الغزوات
على كثير من الغنائم والسبى.
ولكنه لم يحقق خلالها نتائج حربية ذات شأن (١) .
وفى أواخر سنة ٣٩٦ هـ (صيف سنة ١٠٠٦ م) خرج عبد الملك إلى غزوته الرابعة.
وتصف الرواية الإسلامية هذه الغزوة بأنها غزوة "بنبلونة "، وبعبارة أخرى " بنبلونة " عاصمة نافار.
وتقول لنا إن عبد الملك سار بجيشه إلى سرقسطة

ثم إلى وشقة، ثم إلى بريشتر، ومنها نفذ إلى أرض العدو.
ولكن هذا الإتجاه
الذى اتخذه الجيش الإسلامى، لا يحمل على الاعتقاد بأنه كان يقصد إلى
نافار أو
بلاد البشكنسق، وإنما يبدو بالعكس أنه اتجه شمالا إلى أراضي ولاية "
ريباجرسا "
الصغيرة الواقعة شمال شرقى بربشتر، وهى إحدى ولايات البرنيه الفرنجية.
وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين اقتحموا في هذه الغزوة بسيط أبنيونش
وشننت
يوانش، (سان خوان) وعاثوا في أرض العدو قتلا وسبياً وحرقاً، ثم تقول لنا
إن الجيش الإسلامى قد انقضت عليه يومئذ عاصفة مروعة من رعد وبرق
ومطر
غزير.
تخللها قصف مفزع وبرد قارس، وخشى أن تكون سبباً في نكبته.
ولكن تداركه لطف الله.
وقفل عبد الملك راجعاً بجيشه إلى قرطبة.
ولكن الشعب
لم يبد في استقباله شيئاً من الحماسة، لضآلة النتائج التي ترتبت على هذه
الغزوة، ولكونها لم تسفر عن شيء من الغنائم والسبى، التي كانت تملأ
أسواق قرطبة أيام
أبيه المنصور (٢) .
ومما يتصل بأخبار هذه الغزوة، أن عبد الملك عرج في طريق العودة على
مدينة سالم، وقضى بها عيد الأضحى، وهنالك وافاه سفير من قبل قيصر

---

(١) راجع أخبار هذه الغزوة في الذخيرة.
القسم الرابع، المجلد الأول ص ٦٥؛ والبيان

المغرب ج ٣ ص ١١ و١٢.
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢ و١٣؛ وأعمال الأعلام ص ٨٧.

(٦١٢/١)

قسطنطينية، الإمبراطور بسيل الثاني، ومعه كتاب مكتوب بالذهب يطلب فيه قيصر استئناف المودة والصداقة، التي كانت قائمة بين ملوك بني أمية، وبين القياصرة، ومعه كذلك هدية وعدد من الأسرى المسلمين الذين أسروا في أطراف
الجزائر التابعة لقيصر، فسر عبد الملك لذلك، وصرف السفير أجمل صرف (١) .
ونمى إلى عبد الملك في تلك الأثناء، ما كان يجيش به أمير قشتالة سانشو غرسية
من قصد إلى العدوان، فرأى أن يعاجله بالغزو.
فخرج من قرطبة في صيف
سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٧ م) في غزوته الخامسة، وهى المعروفة بغزوة قلونية، أو غزوة النصر، وسار مخترقاً أراضي قشتالة.
ويبدو من أقوال الرواية الإسلامية
أن عبد الملك لم يواجه يومئذ أمير قشتالة فحسب، ولكنه كان يواجه جبهة متحالفة من الملوك النصارى، يشترك فيها سانشو غرسية، وألفونسو الخامس ملك
ليون، وسانشو الثالث ملك نافار، وعدد من الزعماء النصارى في مقدمتهم بنو غومس (٢) .
ويشير صاحب البيان المغرب إلى هذه الغزوة بقوله " غزاة النصر
التي لقى فيها " (أى عبد الملك) شانجه بجميع النصرانية على اختلافها " (٣) .
ولا تقدم

إلينا الرواية الإسلامية بعد ذلك شيئاً من التفاصيل، سوى قولها إن الحاجب عبد الملك، قد هزم النصارى في تلك الموقعة هزيمة عظيمة في ظاهر مدينة قلونية
(كلونية) ، الواقعة شمال نهر دويرة على مقربة من شنت إشتيين، وأحرز عليهم
نصراً مبيناً، وافتتح الحصن صلحاً.
ووصل كتاب الفتح إلى قرطبة، وقرىء
على الكافة كالعادة، فكان له وقع عظيم، وكان أهل قرطبة يخشون سوء العاقبة
من اجتماع الجيوش النصرانية لقتال المسلمين.
وقفل عبد الملك بالجيش إلى قرطبة، فوصل إليها في أواخر ذى الحجة من تلك السنة، واتخذ على أثر ذلك لقبه
" المظفر بالله " تنويهاً بما أحرزه من النصر العظيم (٤) .
وقد ساق لنا المؤرخ الفقيه أبو المطرف ابن عون الله، وهو من معاصرى هذه الحوادث، قصة هذا اللقب، فذكر أن عبد الملك كان مثل أبيه يسمو إلى

---

(١) الذخيرة، القسم الرابع، المجلد الأول، ص ٦٥ و ٦٦.
(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢.
(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤.
(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٤؛ والذخيرة، القسم
الرابع، المجلد الأول ص ٦٦.

(٦١٣/١)

الألقاب السلطانية، فتقدم إلى الخليفة هشام، على أثر عوده من غزوة قلونية، والتمس إليه إخراج الأمر له، أن يتسمى " بالمظفر " وهو اللقب الذى اختاره

وآثره، وأن يكنى في سائر ما يذكر عنه " بأبى مراون "، وأن ينعم على ابنه
الغلام
محمد، الذى منح لقب الوزارة، بلقب " ذى الوزارتين "، ويعلى بذلك مرتبته
على سائر الوزراء، وأن يكنى بأبى عامر، كنية جده، وكان الخليفة يقيم يومئذ
عند الحاجب.
بقصر الزاهرة، في الجناح الفخم الذى أنشىء وقتها، ففى منتصف
المحرم سنة ٣٩٨ هـ، تحرك الخليفة خفية إلى قصر ناصح من قصور
الزاهرة، واستدعى حاجبه، وفاوضه فيما أراد.
ولما انصرف من لدنه، اتبعه في الحال
بمرسوم التكريم الذى التمسه، فأذاع عبد الملك نص المرسوم، وبعث بالكتب
للعمل به، وإليك نص هذا المرسوم، وقد زعم البعض أنه كان بخط الخليفة
هشام نفسه:
" بسم الله الرحمن الرحيم.
من الخليفة هشام بن الحكم المؤيد بالله، أتم الله
عليك نعمه، وألبسك عفوه وعافيته، إنا أريناك..

.

من صنع الله الجسيم، وفضله العظيم، لنا عليك م شفى الصدور، وأقر
العيون، فاستخرنا الله سبحانه
في أن سميناك المظفر؛ فنسأل الله تعالى سؤال إلحاف وضراعة وابتهال، أن
يعرفنا
وإياك بركة هذا الاسم، ويحليك معناه، ويعطينا وإياك وكافة المسلمين، فضل
ما حملت منه، وأن يخير لنا ولهم في جميع أقضيته، ويقرنه بيمنه وسعادته،
بمنه
وخفى لطفه، وكذلك أبحنا التكنى في مجالسنا ومحافلنا، وفي الكتب الجارية
منك وإليك، في أعمال سلطاننا، وسائر ما يجرى فيه اسمك معنا ودوننا،
إنافة

بمحلك لدينا، ودلالة على مكانك منا، وكذلك ما شرفنا به فتاك أبا عامر، محمد
ابن المظفر تلادنا، أسعده الله، بالإنهاض إلى خطة الوزارتين، وجمعناه بها فى
التكنى على المشيخة والترتيب، وآثرك في الدولة، وأنت الحقيق منا بذلك كله،
وبجميل المزيد عليه، لأنك تربيتنا، وسيف دولتنا، وولى دعوتنا، ونشىء
نعمتنا، وخريج أدبنا، فأظهر ما حددناه لك في الموالى، وأهل الخدمة، واكتب
بها إلى أقطار المملكة، وتصدقه بشكر النعمة، أحسن الله توفيقك، وأمتعنا طويلا
بمعافاتك، وآنسنا ملياً بدوام سلامتك، إنه ولى قادر عزيز قاهر ".
وكانت الكتب تخرج من قبل عبد الملك على النحو الآتى: " من الحاجب

*(٦١٤/١)*

المظفر سيف الدولة أبي مروان عبد الملك بن المنصور ".
فكان بذلك أول من اجتمع
له لقبان ملوكيان من حكام الأندلس (١) .
وكان صدور هذا المرسوم حادثاً
مشهوداً، أطلق عبد الملك على أثره الصلات والكسى، وكثرت تهانى الشعراء ومدائحهم.
والظاهر أن عبد الملك لم يجن من هذا النصر ما كان يؤمل من إرغام أمير
قشتالة على التزام السلم والهدوء، وأن سانشو غرسية بالعكس استمر في عدوانه.
ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل، حتى تأهب عبد الملك لاستئناف الغزو، فخرج
من قرطبة في أوائل شهر صفر سنة ٣٩٨ هـ (أكتوبر ١٠٠٧ م) واخترق قشتالة

الوسطى، حتى ضفاف نهر دويرة، وقصد إلى حصن شنت مرتين المنيع، الواقع
على مقربة من غربى قلونية على الضفة اليمنى من النهر، فحاول النصارى فى
البداية أن يردوا المسلمين في ظاهر الحصن، ولكن المسلمين صدوهم بعنف، فالتجأوا إلى الحصن، وحاولوا الدفاع من وراء الأسوار، فهاجم المسلمون الحصن بشدة وثلموا أسواره بالمجانيق والنار، واضطر النصارى إلى التسليم، فأمر عبد الملك بقتل الجند وسبى النساء والذرية، وإصلاح ما تهدم من الحصن، وقفل راجعاً إلى قرطبة فوصلها في أوائل شهر ربيع الآخر.
وفى شوال من نفس العام (صيف ١٠٠٨ م) ، خرج عبد الملك بالجيش، وكانت غزوته السابعة والأخيرة، وتعرف "بغزاة العلة".
ذلك أنه ما كاد يصل
إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض، فاستقر بها حيناً يرقب البرء.
وفى أثناء ذلك
دب الخلل إلى الجيش، وتفرق عنه أكثر المتطوعة، وأخفق مشروع الغزو، واضطر عبد الملك أن يعود أدراجه إلى قرطبة، عليلا ضعيفاً، وذلك في منتصف
المحرم سنة ٣٩٩ هـ.
ومع ذلك فما كاد عبد الملك يشعر بقليل من التحسن، حتى
عقد العزم على التأهب لاستئناف الغزو، وخرج بالفعل من قرطبة في منتصف
شهر صفر، ولكن أصابته عندئذ نكسة شديدة، صحبتها نوبة سعال عنيف، فحمل إلى قصر الزاهرة في محفة، ومن حوله خاصة غلمانه، وتوفى على الأثر، وكان أخوه عبد الرحمن حاضراً مع أكابر رجال الدولة، وقيل إنه توفى مسموماً
من شربة دست له بتحريض أخيه عبد الرحمن.

وكانت وفاته في ١٦ صفر سنة ٣٩٩ هـ

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥ - ١٧؛ وأعمال الأعلام ص ٨٨ و ٨٩.

(٦١٥/١)

(٢١ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) (١) ، ولم يكن قد جاوز الرابعة والثلاثين من عمره.

***

حكم عبد الملك المظفر ستة أعوام وبضعة أشهر، قضى معظمها في متابعة الغزو، ولم يكن لديه سعة من الوقت ليتناول تدبير الأمور بنفسه.
وكانت الدولة
قد توطدت منذ أيام أبيه المنصور، ولم يقع تبدل في طرق الحكم، فكان الخليفة
هشام، كعهده أيام المنصورمحجوباً في قصره، وكان عبد الملك يحرص على حجبه
وإخفائه بين صفوف الجند، كلما سنحت فرصة خروجه في موكبه، بيد أنه يبدو
أن عبد الملك كان أكثر تودداً للخليفة، ورفقاً به من أبيه، فقد كان يدعوه إلى قصوره بالزاهرة للتريض والاستجمام، وكان هشام ينفق أوقاتاً في ضيافته (٢) .

وكان عبد الملك لانهماكه في الشراب واللهو، قد اعتمد في تدبير شؤون الدولة، على خاصته من أكابر الفتيان العامريين أمثال طرفة، وواضح، وزهير، وخيران، ومجاهد، وعلى عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف بابن القطاع، وزيره ووزير أبيه من قبل.
وكان عبد الملك لأول ولايته، قد فوض أمره إليه
ومنحه سائر السلطات العليا، ثقة منه بإخلاصه، واعتماداً على كفايته.

ووطد
حسن ظنه فيه، ما أبداه عيسى من البراعة والحزم في تدبيير الأمور، وتوطيد
النظام والأمن.
وكان الفتيان الصقالبة، ولاسيما زعيمهم طرفة، خادم عبد الملك
الأكبر، ينقمون على عيسى، حظوته واستئثاره بالسلطة، ويعملون ما وسعوا
للنيل من مكانته.
واضطرمت المنافسة بالأخص بينه وبين طُرفة، وبذل طرفة
جهوداً عنيفة لإفساد الجو بينه وبين الحاجب، واستطاع مع استمرار الوقيعة
والدس أن يزعزع ثقة عبد الملك فيه، وأن يصرفه عن الاعتماد عليه، وانتهى
الأمر
بأن تغلب طرفة على الوزير، وحل محله في تدبير الأمور، واجتمعت السلطة
فى
يده شيئاً فشيئاً، حتى غدا كل شيء في القصر وفي الدولة، وسما شأن
الفتيان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٧، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص
٦٦، وأعمال
الأعلام ص ٨٩.
وذكر المقرى أن وفاة عبد الملك كانت في المحرم سنة ٣٩٩ (ج ١ ص
١٩٨) .
ويؤيد ابن الأثير رواية وفاة عبد الملك بالسم ويقول لنا إن أخاه عبد الرحمن
سمه في تفاحة قطعها
بسكين كان قد سم أحد جانبيها فتناول أخاه مما يلى الجانب المسموم، وأخذ
مما يلى الجانب الصحيح
فأكله بحضرته، فاطمأن المظفر وأكل ما بيده منها فمات (ج ٨ ص ٢٢٥) .
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦.

الصقالبة، وغلبوا على من عداهم من الكبراء وأصحاب المناصب.

ومرض الحاجب

في أوائل سنة ٣٩٦ هـ، واستبد طرفة بالأمر، وأمضى كثيراً من الأمور دون علم الحاجب أو موافقته، وأبدى كثيراً من الاستهتار والتبذل والطيش، فلما أبل الحاجب من مرضه، كانت نفسه قد تغيرت على طرفة، ولما خرج إلى الغزو في شهر رمضان من هذا العام، خرج معه الوزير عيسى، واستطاع خلال الطريق

أن يقنع عبد الملك بسوء مسلك طرفة وخطر مشاريعه، وكان من المقرر أن يلتقى

طرفة بسيده في سرقسطة، فقدم إليها في بعض القوات في نفس اليوم الذى وصل

فيه الحاجب مع جيشه، وما كاد يدخل إلى عبد الملك في قصره، حتى قُبض عليه، وصُفد بالأغلال، وحمل إلى إحدى جزر الشاطىء، واعتقل حتى انتهى عبد الملك من غزوته، فأمر بقتله، وهو في طريق العودة، وأمر الحاجب فى نفس الوقت بقتل عبد الملك بن إدريس الجزيرى الكاتب البليغ أمين البلاط، وكان من خاصة طرفة، وكان الوزير عيسى قد حذر عبد الملك من ممالأته لطرفة

ومعاونته على إفساد أمور الدولة (١) .

وأضحى عيسى بن سعيد، بعد قتل طرفة، رجل الدولة الأول، واسترد

كامل حظوته وسلطانه، على أنه لم ينعم طويلا بظفره.

وكان هذا الوزير قد تقلب

في مناصب الدولة منذ أيام المنصور، وحظى لديه، وسما شأنه، حسبما رأينا، ثم

تضاعف شأنه، واستأثر بتدبير الأمور منذ بداية عهد عبد الملك، وجمع

الأموال
الطائلة، وزاد في توطد سلطانه ونفوذه مصاهرته للحاجب، حيث تزوج ابنه
عبد الملك المكنى أبا عامر، أخت عبد الملك الصغرى، إحدى بنات
المنصور، وهكذا بلغ الوزير أقصى مراتب النفوذ والثقة، وكثر بذلك حساده
والوشاة فى
حقه.
وكان عيسى يذكى من حوله عواطف الخصومة والنقمة.
مما كان يجنح
إليه من الصلف والخشونة والكبرياء، والنكول عن قضاء حاجات الناس،
والنظر
في مظالمهم، والتعالى عليهم، وكان حجابه وعماله، على شاكلته من الغلظة
والتعسف في معاملة الناس.
فكان ذلك كله سبباً في تسمم الجو حول الوزير، وحول تصرفاته.
أضف إلى ذلك أن الوزير، لم يكن يشارك الحاجب في مجالس
شرابه وأنسه إلا في القليل النادر، لأنه كان مقلا للشراب، فكان تخلفه يمهد

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤ - ٢٦.



لخصومه المقربين من الحاجب، سبل الدس والوقيعة في حقه.
وقد كانت الذلفاء
والدة الحاجب في الوقت نفسه.
تبغض الوزير، لأنه أيد ولدها عبد الملك فى
الزواج من قينة حسناء من جواريه هام بها، وكانت تعارضه في ذلك.
والخلاصة
أن عبد الملك أخذ يفقد ثقته في وزيره بسرعة، وقد كان فيما يبدو كثير التأثر

يالوشاية، سريع التقلب والغدر، وأخذ الوزير من جانبه يشعر بهذا النقص فى حظوته ويتوجس من عواقبه.

والظاهر أن عيسى بن سعيد، كانت تحدوه في نفس الوقت أطماع ومشاريع أخرى.

فقد كان يشعر أنه غدا باجتماع سائر السلطات في يده، ومشايعة رؤساء الجند له، أقوى رجل في الدولة، وأنه يستطيع أن يقف في وجه بني عامر، وأن يغدو بطل المناهضة لحكمهم.

والواقع أن حكم العامريين كانت تشتد وطأته

على الناس يوماً بعد يوم.

وكان عبد الملك جرياً على سنة أبيه المنصور، قد مضى

في الاستظهار بالفتيان الصقالبة والبربر، وبلغ الفتيان في عهده نحو ألفى غلام، ووفد عليه كثير من البربر، وكان أهم من وفد إليه من زعمائهم زاوى بن زيرى

بن مناد الصنهاجى، عم أبي المعز بن باديس صاحب إفريقية، وزعيم الفرقة الخارجة عليه، وفد عليه مع إخوته، فاستقبلهم عبد الملك، وغمرهم بصلاته، واستمروا بقرطبة حتى وقعت الفتنة، وكان لهم في حوادثها شأن يذكر (١) . وفى

رواية أخرى أن وفود زاوى وقومه على الأندلس، كان في أواخر أيام المنصور، وأنه هو الذى أذن لهم في الجواز (٢) .

وكانت الأرستقراطية العربية تمقت هذا

الإيثار للصقالبة والبربر، والاستظهار بهم، وترى فيه افتئاتاً على حقوقها ومكانتها، وكان كثير من الأسر العربية الكبيرة مثل آل حدير، وآل فطيس، وآل شهيد، وغيرهم، يتوقون إلى انتهاء حكم العامريين، ورد الأمر إلى بني أمية، وكان

عيسى بن سعيد، وهو أيضاً من البطون العربية، يعتنق فكرتهم، ويعتقد أنه يستطيع أن يعمل على تحقيقها.

واعتزم عيسى بالفعل أن يعمل في هذا السبيل، واتجه ببصره إلى سليل من

---

(١) الذخيرة عن ابن حيان القسم الرابع المجلد الأول ص ٦١.
(٢) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٧، وابن
خلدون ج ٦ ص ١٥٧ و١٥٨.

*(٦١٨/١)*

المروانية هو هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وكان بينهما مودة
وصداقة.
وكاشف عيسى هشاماً بمشروعه، في إزالة بني عامر، وإزالة الخليفة هشام المؤيد.
لعجزه وعقمه، وإقامته مكانه في الخلافة، ورد الأمر بذلك إلى بنى أمية.
فاستجاب هشام إلى دعوته، وجرت بينهما المفاوضة بمنتهى التكتم والحذر.
وكانت خطة عيسى، تتلخص في أن يدعو عبد الملك وأخاه عبد الرحمن
وصحبه، إلى حفل عظيم يقيمه بالمنية التي وهبه عبد الملك إياها بقرب
قصر الزاهرة، وذلك تيمناً بمولود رزق به ولده عبد الملك بن عيسى، وأن يحيط المنية بطوائف
من رجاله المسلحين، فإذا حضر عبد الملك وأخوه وصحبه، انقض عليهم أولئك
الرجال وقضوا عليهم جميعاً، وعندئذ يسير عيسى بصاحبه هشام إلى قصر الزاهرة
فيجلسه فيه، ويأخذ له البيعة بالخلافة، وقد تقدم عيسى بالفعل بدعوته إلى

عبد الملك فقبل الدعوة، وحدد بالفعل يوم الحفل.
ولكن سرعان ما اتصل خبر المؤامرة بعبد الملك، نقله رجل من ثقات عيسى إلى نظيف الفتى الصقلبى، فأبلغه فوراً إلى سيده.
وفى رواية أن عبد الملك بادر فى
الحال فقتل عيسى.
ولكن الرواية الراجحة هى أن عبد الملك وأخاه عبد الرحمن
اتفقا على تدبير قتله، في مجلس شراب ينظم لهذا الغرض، ونظم المجلس بالفعل
في بهو القصر الكبير المشرف على النهر، وذلك في ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٩٧ هـ.
واستدعى الحاجب وزيره عيسى إليه؛ ومن غرائب القدر أن كان الوزير أيضاً يجلس مع بعض خاصته على الشراب، ومنهم الكاتب أبو حفص ابن برد، فبادر
عيسى بالركوب إلى عبد الملك، ومعه بعض خاصته، فاستقبله عبد الملك بظاهر
من الحفاوة.
ثم أخذ بعد قليل في عتابه ومحاسبته على ما عزى إليه، ثم أغلظ له
القول، وعيسى يعتذر ويحتج ببطلان ما نسب إليه، ويشدد القسم على ذلك، ويناشد حقن دمه.
وفجأة جذب عبد الملك سيفه من جانب الفراش وشهره على
عيسى، وطعنه في وجهه، فسقط على الأرض، فانهال عليه الجماعة طعناً بسيوفهم، ثم احتز رأسه ووضع جانباً، وقتل الجماعة أيضاً صاحبيه خلف ابن
خليفة، وحسن بن فتح، وألقيت جثث الثلاثة في النهر، بعد أن وضعت فى زنابيل مثقلة بالحجارة، وأمر عبد الملك بأن ينصب رأس عيسى على باب مدينة

الزاهرة، عبرة للناس.
وتركت معلقة في مكانها حتى انقضت الدولة العامرية،

(٦١٩/١)

ونفذ الجند في الحال إلى منازل عيسى وأصحابه، وصودر ما فيها، وقبض
على أبناء عيسى وزجوا إلى السجن، وأرغم ولده عبد الملك على طلاق
زوجته
أخت الحاجب، وجدت الشرطة في أثر هشام بن عبد الجبار، حتى قبض
عليه، ثم حمل إلى الزاهرة فأمر الحاجب باعتقاله في سجن أعد له، وهناك
قتل خفية، ولم يسمع له خبر بعد ذلك قط.
وكان لمقتل الوزير عيسى بن سعيد أعمق وقع في قرطبة، لما كان له من
رفيع
المنزلة والسلطان، ولبثت الوفود أياماً تحضر إلى الزاهرة لمشاهدة رأسه (١) .
وثاب المظفر بعد مقتل وزيره إلى نفسه، وعمل على جمع السلطة في يده،
والحد من سلطة الوزراء والكتاب، ومراقبتهم ومحاسبتهم، وواظب على
الجلوس
بنفسه، وهجر اللهو والراحة، وكانت الأحوال المالية قد ساءت، مما أسرف فيه
من النفقة والصلات، وبما أسقطه للناس من سدس الجباية، فاقتصد في
النفقة، واجتهد في توفير المال، وتنمية الموارد، فنجحت المحاولة، وتحسنت
الأحوال
المالية في أواخر عهده (٢) .
وقد أشرنا من قبل إلى طرف من أخلاق عبد الملك، وما جمعت من الصفات
المشرقة والقاتمة معاً.
ونزيد هنا ما رواه صاحب الذخيرة عن ابن حيان، من أن
عبد الملك كان عرياً عن العلم والمعرفة والأدب، ولم يكن يجتمع في مجالسه
سوى

الأعاجم من الجلالقة والبربر ومن إليهم، ولم يكن يؤمها أحد من أهل المعرفة، من الأدباء والعلماء.

بيد أنه مع ذلك لبث يسبغ رعايته على من كان يتصل منهم

بأبيه من العلماء والأدباء والندماء وغيرهم، وأبقى لهم أرزاقهم ورواتبهم كما كانت

أيام أبيه (٣) .

وكان يستمع إلى الشعر، ويصل الشعراء، وقد أبقى بالأخص على

شاعر أبيه صاعد البغدادى، وجعله شاعراً ونديماً له.

وكان من خواص شعرائه

أيضاً أبو عمر بن دراج القسطلى، والكاتب الشاعر أبو حفص ابن برد. وقد أورد

لنا صاحب البيان المغرب نبذاً من الشعر، نظمها صاعد وابن دراج تحقيقاً لرغبة

---

(١) راجع تفاصيل هذه المؤامرة وذيولها في الذخيرة، القسم الأول المجلد الأول ص ١٠٣ –

١٠٧، والبيان المغرب ج ١ ص ٢٧ – ٣٥.

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٦، وأعمال الأعلام ص ٨٩.

(٣) الذخيرة – القسم الأول المجلد الأول ص ٦٠.



المظفر، في وصف مختلف صنوف الزهر، من الآس، والنرجس، والبنفسج، والورد والسوسن.

ومما جاء في قصيدة ابن دراج في وصف السوسن ومديح

الحاجب عبد الملك تلك الأبيات (١) :

إن كان وجه الربيع مبتسما..

.

فالسوسن المجتلى ثناياه

يا حسنه بين ضاحك عبق..

.

يطيب ريح الحبيب ريّاه

يا حاجباً مذ يراه خالقه..

.

توّجه بالعلى وحلاه

إذا رآه الزمان مبتهجاً..

.

فقد رأى كل ما تمناه

وإن رآه الهلال مطلعاً..

.

يقول ربى وربك الله

ونظم بعضهم في وصف عهد عبد الملك الأبيات الآتية:

زمان جديد وصنع جديد..

.

ودنيا تروق ونعمى تزيد

وغيث يصوب وعيش يطيب..

.

وعز يدوم وعيد يعود

ودهر ينير بعبد الملك..

.

كشمس الضحى ساعدتها السعود

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨ - ٢١.
وكذلك الروض المعطار ص ١٦٠.

(٦٢١/١)

الفصْل الخامِسُ
عبد الرحمن بن المنصور
وسقوط الدولة العامرية

نظام الطغيان العامرى.
كيف كانت تلطفه عبقرية المنصور.
ظهور مثالبه في عهد عبد الملك.
عبد الرحمن المنصور يخلف أخاه.
يتقلد الحجابة.
تلقيبه بشنجول أو شانجه الصغير.
إنحرافه وسوء
خلاله.
تودده للخليفة هشام.
تلقبه بالمأمون وناصر الدولة.
شروعه في اغتصاب ولاية العهد.
ضغطه على هشام لتحقيق ذلك.
مرسوم ولاية العهد ونصه.
جلوس عبد الرحمن في الزاهرة.
عكوفه
على الشراب واللهو.
إرغامه الكبراء على لبس العمامة.
خروجه إلى الغزو.
يخترق أراضي ليون.

إعتصام النصارى بالجبال.

ارتداد عبد الرحمن.

أنباء الإنقلاب في قرطبة.

الاضطراب في الجيش.

سيره إلى قلعة رباح.

سخط أهل قرطبة على بني عامر.

المؤامرة وعناصرها.

الذلفاء والدة عبد الملك

ودورها.

ترشيح محمد بن هشام للخلافة.

نضج المؤامرة وتهيؤ الظروف لتنفيذها.

مهاجمة المتآمرين

للقصر.

مصرع عبد الله بن أبي عامر.

موقف الخليفة هشام وتصرفه.

إقتحام العامة للقصر.

الزاهرة

وتسليمها.

إقتحام الجموع لها ونهبها.

إستيلاء المهدى على أموالها ونفائسها ثم تدميرها.

نبوءة المنصور

بخراب الزاهرة.

وقوف شنجول على خبر الانقلاب وحيرته.

يناشد أهل الثغر تأييد هشام.

تخلى زعماء

الجند عن نصرته.

شنجول وصديقه ابن غومس.

مسيره صوب قرطبة.

فرار البربر تحت جنح الظلام.

مسيره إلى أرملاط.

التجاؤه وابن غومس إلى الدير.

وقوعهما في يد فرسان المهدى.

القبض على حشم

شنجول ونسائه.

مقتل شنجول وابن غومس.

ما يقوله شاهد عيان عن هذه الحوادث.

تأملات عن

انهيار الدولة العامرية.

كانت وفاة عبد الملك المظفر، فاتحة لفترة من أعجب فترات التاريخ الأندلسي وأشدها غموضاً واضطراباً، وكانت نذيراً بانقلاب من أعنف ما عرفت

الأندلس وأشدها تقويضاً لبنائها وسلامها ورخائها.

مضت خمسة وثلاثون عاماً على حكم الطغيان المطبق، الذى فرضه المنصور

ابن أبي عامر على الشعب الأندلسي، وقضى في ظله على سلطان الخليفة الشرعى، ومحيت رسوم الخلافة، وسحقت العصبية العربية، وطوقت أعناق الشعب بأغلال

خانقة.

وبالرغم مما نعمت به الأندلس أيام المنصور من الاستقرار والعزة والرخاء، فإن الشعب لم يكن يرى في المنصور، سوى مغتصب للسلطة الشرعية، وكان يتوق

إلى التحرر من هذا الطغيان الذريع، والتخلص من وطأة الصقالبة والبربر، والعود

*(٦٢٢/١)*

إلى الأوضاع الطبيعية المألوفة.
وكانت شخصية المنصور العظيمة، وعزمه الصارم، وهمته البعيدة، وخلاله الرفيعة، وتفانيه في الجهاد، والعمل على إعزاز الأندلس
وإسعادها: كانت تفرض نفسها على الناس، وتخفف نوعاً من وطاة النظام وحدته، وتبث في نفوس الشعب نوعاً من الإعجاب المقرون بالإغضاء والتسامح.
فلما
توفى المنصور، ونهض ولده عبد الملك بأعباء الحكم، بدأ ينقشع هذا الشعور الملطف، وبدت مثالب الحكم المطلق على أشدها، وزاد إحساس الشعب بما يعانيه
من ضروب الإرهاق والضغط، وظهرت شخصية عبد الملك ضئيلة باهتة بالنسبة
لشخصية أبيه العظيم، وبدت بالرغم مما اضطلع به من الغزوات، وما تمتعت به
البلاد في ظله من السلام والرخاء، لا تحمل سوى الأوزار الظاهرة، من عكوف
على الشراب، وانهماك في الملاذ، والمضى في اغتصاب السلطة الشرعية، وتمكين
لنير الصقالبة والبربر، والتطلع إلى ألقاب الملك، بصورة تكشف عما وراءها من
الأطماع الخطرة.
وجاء عبد الرحمن ابن المنصور إثر أخيه عبد الملك، وقد كان أضعف منه

شخصية، وأسوأ خلالا، ليتابع حكم الإرهاب والطغيان، وجلس غداة وفاة أخيه بقصر الزاهرة، كما يجلس خليفة العرش مكان سلفه، في السابع عشر من
صفر سنة ٣٩٩ هـ (٢٢ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) .
ومثل في نفس اليوم لدى الخليفة
هشام، فخلع عليه الخلع السلطانية، وقلده الحجابة،.
ثم أقبل إليه الأكابر
والأعيان بقصر الزاهرة، مهنئين مبايعين.
وكان عبد الرحمن وكنيته أبو المطرِّف، حينما تولى الحكم، في في الخامسة والعشرين من عمره.
وكان يلقب منذ حداثته " بشنجول " (سانشول) أو شانجُه
الصغير، وذلك لأنه حسبما تقدم كان حفيداً لسانشو غرسية ملك نافار، وكانت
أمه الأميرة النافارية، حينما تزوجت المنصور، قد اعتنقت الإسلام، وتسمت باسم "عبدة"، وكان ولدها عبد الرحمن " أشبه الناس بجده ".
وكان لهذه الأرومة
الفرنجية الواضحة، أثرها في انصراف الناس عن محبته والعطف عليه، وكان يزيد في هذه الوحشة بين عبد الرحمن وبين الشعب، إنحرافه وخلاله السيئة، فقد
كان فاجراً كثير الإستهتار والمجون، يقضى معظم وقته في الشراب واللهو " يخرج من منية إلى منية، ومن متنزه إلى متنزه، مع الخياليين والمغنين

*(٦٢٣/١)*

والمضحكين، مجاهراً بالفتك، وشرب الخمر " (١) .
وجرى عبد الرحمن على سنة أبيه وأخيه، في الحجر على الخليفة هشام وحجبه، وفى الاستبداد بالرأى والحكم (٢) ، ولكنه نهج في معاملة الخليفة

نهجاً جديداً، فأكثر من الإتصال به، والتقرب إليه، وبالغ في إرضائه وإرضاء حاشيته، وتحقيق رغباتهم؛ هذا في حين أن المنصور كان يقتصر في
الاتصال بالخليفة على
المواقف الضرورية، ويقتصد في رؤيته، ويؤثر التظاهر بتوقيره مع البعد عنه، ويحرص على عدم تدليله، وكبح جماح حاشيته، وجرى ولده المظفر على هذه السياسة.

ولكن عبد الرحمن بالغ في التودد لهشام ومخالطته؛ ومن ذلك أنه استأذنه في أن يقوم بالتنزه مع أهله في قصور الملك بقرطبة، ويكون الخليفة هنالك مع
خاصته وجواريه.

فأذن هشام بذلك، وخرج مع الحاجب في موكبه مستخفياً، وقد ارتدى برنساً كالذى ترتديه الجوارى، حتى لا يعرفه أحد، واخترق الموكب
شوارع قرطبة المقفرة ومن حوله الجند، ونزل بقصر ناصح.

وهنالك عرض
عليه الحاجب شئون المملكة، والتمس إليه أن يأذن له في التلقب بالمأمون، وأن
يضاف إلى اسمه ناصر الدولة، فخرجت رقعة الخليفة بذلك إلى الوزير الكاتب
جَهْور بن محمد، وتسمية عنوانها " الحاجب المأمون ناصر الدولة أبي المطرِّف
حفظه الله " وأبلغت بعد ذلك إلى الجهات والكافة.

وكان ذلك لعشرة أيام فقط
من ولاية عبد الرحمن.

فعجب الناس لهذه الجرأة، وأنكر الناس على الحاجب
هذا التسمى بألقاب الملك والخلافة، واعتبروها افتئاتاً وغروراً، ممن لا تؤهله خلاله لمثل هذا التكريم.

ولكن سوف نرى أنها لم تكن سوى مقدمة لما هو أخطر
وأبعد أثراً (٣) .
ذلك أنه لم تمض على هذا الإجراء فترة يسيرة، حتى غادر الخليفة هشام
قصر ناصح بقرطبة، إلى القصر الخليفى بمدينة الزهراء مستخفياً كعادته،
يتقدم
موكبه الحاجب عبد الرحمن، ونزل عبد الرحمن بمدينة الزاهرة.
وأقام الخليفة
في الزهراء يومين.
وفى اليوم الثالث الموافق ١٤ ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ، غادر
القصر الخليفى في أهله، إلى منية جعفر المجاورة، ومعه الحاجب.
وكان عبد الرحمن

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩.
(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٨.
(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٠ - ٤٢؛ وأعمال الأعلام ص ٩٠.

*(٦٢٤/١)*

بعد أن حصل على ألقاب الملك، يجيش بمشروع ضخم، هو أن ينتزع ولاية
العهد من الخليفة الضعيف الساذج، وأن يقضى بذلك نهائياً على تراث بني
أمية، وينقل رسوم الخلافة جملة إلى أسرة بني عامر، فتخلف أسرة بني أمية
في ملك
الأندلس.
وقد رأينا فيما تقدم كيف أن أباه المنصور، بالرغم من قوة نفسه، وعريض
سلطانه، كان ينأى عن المغامرة بمثل هذه المشاريع الدقيقة، لأنه كان
يدرك بذكائه، وبعد نظره، أنها تنطوى على أخطر العواقب، وأنه لم يقدم
على اتخاذ ألقاب الملك إلا بعد طول روية وأناة، وأنه كان أبداً حريصاً على

ْالإبقاء على رسوم الخلافة وأوضاعها.
وقد حذا ولده عبد الملك المظفر حذوه فى
حرصه وتعقله.
ولكن عبد الرحمن لم يكن إلا فتى طائشاً، متعجلا، كثير الغرور، قصير النظر.
وقد وصف لنا ابن حيان موقفه من المشروع في تلك العبارات
القوية: " وقد تقدم القول في سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة، عجرفية من غير تأويل ولا عقيدة، وكيف استهواه كيد الشيطان، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة، لم يشاور فيها نصيحاً، ولا فكر في عاقبة، بل جبرها بالعجلة " (١) .
وخلا عبد الرحمن بالخليفة، وأطال التقرب منه، وعرض عليه مشروعه، ويقال إنه أقنعه بأنهما على صلة رحم من ناحية الخؤولة، إذ ولد كلاهما من أم بشكنسية (نافارية) (٢) .
ويقال من جهة أخرى، إن عبد الرحمن دس إلى الخليفة
من هدده بالويل، وأنذره بأن عبد الرحمن قد اعتزم الفتك به، إذا لم يمنحه ولاية
عهده (٣) .
ويقال أيضاً إن هشاماً استفتى في ذلك فقهاء قرطبة وعلماءها، فأقروه على ما طلب.
وكان أشد الساعين لتأييد عبد الرحمن، قاضى الجماعة أبو العباس
ابن ذكوان، وكاتب الإنشاء أبو حفص بن برد (٤) .
وعلى أى حال فقد استجاب
هشام المؤيد إلى طلب عبد الرحمن.
وخرج أصحابه عشية ذلك اليوم، يذيعون الخبر
على الملأ، ويقولون إن الخليفة قد اختاره ولياً لعهده، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته، وكثر الإرجاف لذلك.

(١) أعمال الأعلام ص ٩١؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٣.
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٢.
(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩.
(٤) ابن الأبار في الحلة السيراء ص ١٥٠.

(٦٢٥/١)

وفى صباح اليوم التالى، وهو اليوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ
(نوفمبر ١٠٠٨ م) ، أحيط قصر الخليفة بصفوف كثيفة من الجند، وأخرج عبد الرحمن هشاماً، وأجلسه في الساحة الكبرى، وجلس من حوله الوزراء والقضاة
والقادة وأكابر رجال الدولة، فكان يوماً مشهوداً، وصدر مرسوم ولاية العهد وهو من إنشاء كاتب الرسائل أبي حفص أحمد بن برد، وذيل بشهادة قاضى الجماعة أحمد بن عبد الله بن ذكوان، وشهادة الوزراء وهم تسعة وعشرون وزيراً، ويليهم شهادة مائة وثمانين رجلا، من أكابر أهل الدولة والحكام، والفقهاء، وغيرهم.
وإليك نص هذا المرسوم الشهير:
" هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله - أطال الله بقاءه - إلى الناس عامة، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة، وأعطى عليه صفقة يمينه ببيعة
تامة، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة، وأهمه ما جعله الله إليه من إمامة
المسلمين، وخصه به من إمرة المؤمنين، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن، وخاف
نزول القضاء، بما لا يصرف، وخشى أن هجم محتوم ذلك عليه، ونزل مقدور

ذلك به، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوى إليه، ولم يوردها ملجأ تتعطف عليه، أن يكون يلقى الله مفرطاً فيها، ساهياً عن أداء الحق إليها.

ونفض عند ذلك
طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرهم، ممن يستحق أن يسند الأمر إليه، ويعول في القيام به عليه، ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وورعه، بعد اطراح
الهوادة، والتبرىء من الهوى، والتحرى للحق، والزلفى إلى الله عز وجل بما يرضيه.

وبعد أن قطع الأواصر، وأسخط الأقارب، عالماً بأن لا شفاعة عنده
أعلى من العمل الصالح، وموقناً أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص، فلم
يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده، ويفوض إليه النظر في أمر الخلافة بعده، لفضل
نفسه، وكرم خيمه، وشرف همته، وعلو منصبه، مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه، من المأمون الغيب، الناصح الجيب، النازح عن كل عيب، ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر وفقه الله، إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره، ونظر في شأنه واعتبره، فرآه مسارعاً
في الخيرات، مستولياً على الغايات، جامعاً للمأثرات، وارثاً للمكرمات، يجذب بضبيعة إلى أرفع منازل الطاعة، وينمو بعينيه إلى أعلا درج النصيحة،

(٦٢٦/١)

أب منقطع القرين، وصنو معدوم الغريم، ومن كان المنصور أباه، والمظفر أخاه، فلا غرو أن يبلغ في سبيل الخير مداه، ويحوى من حلل المجد ما حواه، مع أن أمير المؤمنين أكرمه الله بما طالعه من مكنون العلم، ووعاه من مخزون

الأثر، أمل أن يكون ولى عهده القحطانى، الذى حدّث عنه عبد الله بن
عمرو
ابن العاص، وأن يتحقق به ما أسنده أبو هريرة إلى النبى – صلى الله عليه
وسلم –
ألا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه.
فلما استوى
له الاختبار، وتقابلت عنده فيه الآثار، ولم يجد عنه مذهباً، ولا إلى غيره
معدلا، خرج إليه من تدبير الأمر في حياته، وفوض إليه النظر في الخلافة
بعد مماته، طائعاً راضياً، ومجتهداً متخيراً، غير محاب له، ولا مائل له بهواه،
ولا مترك
نصح الإسلام وأهله فيه.
وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها، وأمضى أمير المؤمنين أعزه
الله، عهده هذا، وأنفذه، وأجازه، وبتله، لم
يشترط فيه مثنوية ولا خياراً، وأعطى على الوفاء بذلك في سره وجهره، وقوله
وفعله، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه – صلى الله عليه وسلم – وذمة الخلفاء
الراشدين
من آله وآبائه، وذمة نفسه، بأن لا يبدل ولا يغير، ولا يحول ولا يتأول.
وأشهد على ذلك الله وملائكته، وكفى بالله شهيداً.
وأشهد عليه من أوقع اسمه
في هذا الكتاب.
وهو – أعزه الله – جائز الأمر، ماضى القول والفعل، بمحضر
من ولى عهده المأمون ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور
– وفقه الله –
وقبوله لما قلده، والتزامه ما ألزمه، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ "
(١) .
***

وعلى أثر صدور هذا المرسوم الفذ في تاريخ الخلافة الإسلامية، خرج عبد الرحمن في موكب عظيم من الوزراء والقادة وأكابر أهل الدولة، إلى قصر
الزاهرة وهو " يختال في ثوب الخلافة، يحسب أنها له نحلة، وأنه مستحق لها، وخليق بها " (٢) .
وأقبل عليه المهنئون من الوزراء ورجال الدولة، يتكلفون
البشر، والدعاء له بما أكرمه الله به، وقلوبهم تفيض إنكاراً وسخطاً، وأنفذت

---

(١) ورد نص هذا المرسوم في أعمال الأعلام ص ٩١ - ٩٣؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٩٨
و ١٩٩؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٩؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٤ - ٤٦؛ وقد اتبعنا نحن
بالأخص النص الوارد في أعمال الأعلام لأنه أوفاها وأصحها.
(٢) البيان المغرب عن ابن عون الله ج ٣ ص ٤٦.

(٦٢٧/١)

الكتب في الحال إلى سائر نواحى الأندلس والعدوة، بوجوب إذاعة المرسوم، والدعاء لولى العهد على المنابر بعد الخليفة.
وفى اليوم التالى.
جلس عبد الرحمن بقصر الزاهرة في هيئة الملك، واصطف
من حوله رجال الدولة وفق مراتبهم، وأقبل وجوه قرطبة لتهنئته، وفي مقدمتهم طائفة من المروانية المبعدين عن الخلافة، وغيرهم من بطون قريش.
يقول المؤرخ:
" وخرجوا من عنده، وقلوبهم ذؤوبة عليه، موقدة ببغضه ".
وبادر الشعراء
وفى مقدمتهم أبو العلاء صاعد البغدادى، برفع قصائد التهانى.

وقد أورد لنا ابن

حيان طرفاً مما قاله الشعراء في ذلك (١) .

بيد أن شاعراً آخر، هو ابن أبي يزيد المصرى، نظم في ذم ابن ذكوان

وابن برد وهما المسؤولان عن تحرير مرسوم البيعة هذين البيتين:

إن ابن ذكوان وابن برد..

.

قد ناقضا الدين عين عهد

وعاندا الحق إذ أقاما..

.

حفيد شنجُه ولى عهد (٢)

وذهب عبد الرحمن في غروره واختياله إلى أبعد مدى، فعين ابنه الطفل عبد العزيز في خطة الحجابة، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة، وهو لقب عمه المظفر.

واعتقد عبد الرحمن أنه حقق بذلك مشروعه العظيم، في تخليد ملك الدولة العامرية، وأن الأمور قد دانت كلها له، فأطلق العنان لأهوائه، وانكب على لهوه وشرابه، يحيط به نفر من البطانة السيئة، والندماء الأسافل، يصورون له الأحوال في أبدع الصور وأحبها إلى نفسه.

وكان من الحوادث البارزة في تلك الآونة، حادث ظاهر البساطة في ذاته، ولكنه أذكى موجة جديدة من السخط.

وذلك أن عبد الرحمن أصدر أمره إلى رجال

الدولة وأكابر أهل الخدمة، بأن يتركوا قلانسهم الطويلة، المبرقشة الملونة، التي

كانوا يضعونها على رؤوسهم، ويمتازون بها على باقى الطوائف، وأن يستبدلوها

فوراً بالعمائم.

وقد كانت العمائم هى غطاء الرأس عند البربر.

فأنف الكبراء
لذلك، ولكنهم رضخوا للأمر كارهين، وحضروا إلى قصر الزاهرة بالعمائم
لأول مرة في يوم ١٤ جمادى الأولى، وعلق جمهور الشعب على ذلك
بمختلف
الأقوال والتأويلات.

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٤٦ و٤٧، وأعمال الأعلام ص ٩٤ - ٩٦.
(٢) ابن الأبار في الحلة السيراء ص ١٥٠.

(٦٢٨/١)

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك قد فكر في أن يشغل الناس بحديث الغزو أسوة
بأبيه وأخيه، وكان سانشو غرسية أمير قشتالة من جهة أخرى قد أبدى أنه لا
يزمع
احترام السلم المعقود، وأخذ بالفعل يغير على الحدود الإسلامية.
ولم تكن أخبار
قرطبة، وما يسودها من اضطراب الأحوال، خافية على الملوك النصارى.
واعتزم عبد الرحمن أن يسير إلى الغزو، وأن يقصد إلى جلِّيقية، فاعترضه
كبير الفتيان
الصقالبة، وحذره من مغادرة قرطبة في هذا الوقت، وأوضح له أن المروانية
(بنى أمية) يأتمرون به، ويدبرون انقلاباً ينتزعون به الحكم، وأن كثيراً من
الجند يميلون إليهم، فلم يصغ إلى قوله، وأمر بالخروج إلى الغزو (١) ، وعهد
بإدارة الحكومة في غيبته إلى ابن عم أبيه عبد الله بن أبي عامر المعروف
بعسكلاجة.
وكان خروجه من قرطبة في ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (يناير سنة
١٠٠٩ م)

أعنى في أعماق الشتاء، وسار بالجيش صوب طليطلة في طريقه إلى جليقية والأمطار تنهمر والبرد يهرأ الأجسام، وهو على سجيته من اللهو والشراب.

ثم

اخترق حدود مملكة ليون، ودخل جليقية.

ولكن ملك ليون ألفونسو الخامس

تحصن بقواته في رؤوس الجبال، ولم يتقدم لقتال المسلمين، ولم يجد عبد الرحمن

سبيلا لقتاله لفيضان الأنهار وكثرة الثلوج، فقرر العودة بجيشه، فارتد راجعاً أدراجه.

وبالرغم من أنه لم يحقق في غزوته هذه أية نتائج ذات شأن، فقد نظم ابن دراج القسطلى، على سجيته، في تلك الغزوة قصيدة طويلة، يشيد فيها بعبد الرحمن، وهذا مطلعها:

هو البدر في فلك المجد دارا..

.

فما غسق الخطب إلا أنارا

تجلى لنا فأرتنا السعود..

.

غيوب المنى في سناه جهارا

وأوفى فكادت صوادي القلوب..

.

تفوت العيون إليه بدارا

وحل فحلت جسام الفتو..

.

ح تبأى اختيالا وتزهى افتخارا (٢)

وما كاد عبد الرحمن يصل إلى طليطلة، حتى وافته الأنباء بأن انقلاباً حدث في قرطبة، وأن الثوار قد استولوا على مدينة الزاهرة، ونهبوا ذخائرها، وأضرموا

النار في صروحها.
وتسربت الأنباء إلى الجند، فوقع الاضطراب في الجيش،

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩٦.
(٢) وردت هذه القصيدة كاملة في ديوان ابن دراج (ص ٤٥٩ - ٤٦٣) .

*(٦٢٩/١)*

واضطر عبد الرحمن أن يسير لفوره بالجيش إلى قلعة رباح، في طريقه إلى
قرطبة.
- ٢ -
لم يكن ذلك الهدوء الظاهر، الذى ساد قرطبة خلال هذه الأشهر القلائل
التي اضطلع فيها عبد الرحمن بالأمر، سوى الهدء الذى يسبق العاصفة.
وكان
حكم الطغيان الذى فرضه بنو عامر على الأندلس قد أخذ منذ أيام عبد
الملك، يحدث آثاره المادية والأدبية، في نفوس الشعب، ويبدو لهم بغيضاً
مرهقاً.
ولم
يكن يستر هذه الآثار سوى سياج خفيف من الحذر والترقب.
ذلك أن سلطان
بنى عامر كان يستند دائماً إلى قوة عسكرية يخشى بأسها، قوامها البربر
والصقالبة؛
فلما جاء عبد الرحمن، وكشف عن نيته في الاستئثار برسوم الملك،
واغتصاب
ولاية العهد، ألفت العناصر الناقمة، وفي مقدمتها بنو أمية أصحاب الولاية
الشرعية، فى ذلك مادة جديدة، للتنديد بحكم بني عامر وطغيانهم واجترائهم،
وفي تلمس

الوسائل الكفيلة بسحق دولتهم؛ وكانت شخصية عبد الرحمن الهزيلة، وأرومته الأجنبية، وما أبداه من ضروب الاستهتار والمجون، تذكى عاطفة السخط عليه، سواء بين الخاصة أو الكافة، وتمهد السبيل إلى الانقلاب المنشود.

وكانت خيوط المؤامرة التي اجتمعت حولها العناصر الناقمة، تتوثق شيئاً فشيئاً، وكان أهم مدبريها شخصيتين، الأولى الذلفاء والدة عبد الملك المظفر، وقد كانت تعتقد اعتقاداً جازماً بأن ولدها قد توفى غيلة بالسم، وأن قاتله هو أخوه عبد الرحمن، وكانت لذلك تتوق إلى الانتقام، والثانية هى شخصية فتى من بني أمية هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وكان

عبد الملك قد أمر بإعدام أبيه هشام بتهمة التآمر مع الوزير عيسى بن سعيد كما تقدم.

وكانت الذلفاء امرأة ذكية قوية العزم، كثيرة المال والوجاهة، وكانت

بالرغم مما أصبغه عبد الرحمن عليها وعلى أسرة ولدها وأخيه عبد الملك، من ضروب

الرعاية والإكرام، تسعى دائبة للإيقاع به.

فلما شعرت بأن الجو قد تهيأ للسعى، بما ثار حول تصرفات عبد الرحمن من ضروب الإنكار والسخط، اتصلت بوجوه

بنى أمية، وأخذت تحثهم على التحرك والقيام لاسترجاع دولتهم، والانتقام من بنى عامر، وكان صلة الوصل بينها وبينهم فتى من صقالبة العامريين يدعى بشرى

(٦٣٠/١)

وكان من قبل من فتيان المراونية، ثم انتقل إلى العامريين فيمن انتقل من فتيان

القصر، ولكنه بقى على ولائه لسادته الأقدمين.

وتعهدت الذلفاء بأن تعاون

المتآمرين بالمال والتدبير، وسرعان ما استجاب بنو أمية للدعوة واختاروا من بينهم
زعيماً هو محمد بن هشام بن عبد الجبار.
وكان فتى جريئاً مغامراً في الثالثة والثلاثين
من عمره إذ كان مولده في سنة ٣٦٦ هـ، وأمه أم ولد تدعى مزنة (١) ، وكان
مذ قتل أبوه هشام، يتحرز على نفسه، ويختفى في أحواز قرطبة وكهوفها، ويجتمع حوله الصحب من المغامرين.
فلما أجمع بنو أمية أمرهم على اختياره، بايعوه سراً بالولاية والخلافة، وكان له ولأبيه من قبل دعاة من أهل قرطبة من
المروانية وغيرهم، يدعون له؛ واشتدت هذه الدعاية مذ أجمع المتآمرون رأيهم على اختياره.
وكان خروج عبد الرحمن المنصور أو شنجول إلى الغزو فرصة سانحة
للعمل، فأخذ محمد بن هشام يحشد أنصاره، ويجتمع بهم سراً في كهوف جبل قرطبة.
وكثر إرجاف دعاته في المدينة أن دولة بني عامر قد قضى عليها، وأن
الأمر سيعود إلى المروانية، وكثر تشهيرهم بعبد الرحمن وقبيح تصرفاته. وكانت
هذه الدعاية تجد لدى جمهور الكافة أذناً صاغية، لما وقر في نفوسهم من بغض
عبد الرحمن وازدرائه.
وإليك كيف يصف لنا ابن الخطيب موقف الشعب القرطبى، وحالته النفسية إزاء العامريين، وإزاء عبد الرحمن:
" وقد جبل الله أهل قرطبة على ملل ملوكها، والقلق بذوى أمرها، والإرجاف بما يتوقع لها.
وكان سفهاؤهم بالأسواق والمجامع غير المحتشمة، تؤثر

عنهم في العامريين نوادر حارة، واستراحات عنهم، كان المنصور وولده المظفر
يستحضر لذلك مشيختهم، ويأمرهم بإنهاء وعيده، ويشافههم بإنكاره، ولا يزال حكامه يبلغون في تغيير ذلك وإنكاره أقصى المبالغ ضرباً للظهور، وقطعاً للألسنة.
فلما ذهب عبد الرحمن هذا المذهب، وأطاع هذا الخرق، كثر الحمل وشهرت البغضة " (٢) .
ولم يكن المروانية، وحدهم في هذا التدبير الذى قصد به إلى سحق نير العامريين
ودولتهم، فقد كان إلى جانبهم سائر العناصر الناقمة من قريش، ومن المضرية

---

(١) جذوة المقتبس ص ١٩.
(٢) أعمال الأعلام ص ٩٠.



واليمنية، أو بعبارة أخرى من البيوت العربية، التي عمل المنصور وآله على سحق
رياستها ومكانتها الاجتماعية، وإخضاعها لنفوذ البربر والصقالبة.
وقد رأينا فيما
تقدم أن هذه لم تكن أول مؤامرة أو محاولة من نوعها لتحطيم نير بني عامر، وأن
المنصور وولده عبد الملك، استطاعا أن يقضيا على بعض المؤامرات الخطيرة، التي دبرت لتحقيق هذه الغاية.
كانت الظروف قد تهيأت.
إذاً أمام المتآمرين للعمل.

فقد خرجت معظم
وحدات الجيش مع عبد الرحمن إلى الغزو، ولم يبق منه سوى فرق قليلة ترابط
في قرطبة والزاهرة، وجمهور الشعب متأهب بعواطفه ونفسيته الضجرة
المتذمرة
لتأييد أى انقلاب.
ولما نضجت المؤامرة، واتسع نطاق الدعوة لمحمد بن هشام، وكثر الإرجاف
بالانقلاب المنشود، شعر الوزراء العامريون بالخطر، وضاعفوا الأهبة
والحرس
حول قصور الزاهرة.
وكان محمد بن هشام وأعوانه خلال ذلك يجتمعون سراً
وينظمون خطتهم الأخيرة.
وكان محمد هذا الذى اختاره بنو أمية زعيماً لهم، قد
فطر منذ نشأته على الشر والمغامرة، لا يخالط سوى الزعانف والأشرار.
وقد
وصفه ابن الخطيب في قوله: " جرار جسور، ثائر مخاطر، خليع، مداخل
للصقورة والفتاك، لايدرى في أى واد يهلك " (١) .
وفى يوم ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (١٥ فبراير ١٠٠٩ م) جاءت
الأنباء
إلى قصر الزاهرة بأن عبد الرحمن قد عبر بجيشه إلى أرض النصارى، فأدرك
المتآمرون في الحال أن الفرصة قد سنحت للعمل، واعتزم محمد بن هشام
لفوره
أن ينزل الضربة المنشودة.
وكان قد بث نفراً من رجاله حول قصر قرطبة، وقد
تسلحوا تحت ثيابهم خفية.
ففى عصر هذا اليوم، كان محمد يكمن في الضفة
الأخرى من النهر (نهر الوادي الكبير) قبالة القصر.

وكانت خطة المتآمرين أن
يسددوا الضربة الأولى لقصر قرطبة، وهو يومئذ المقام الشتوى للخليفة هشام المؤيد، وحوله قلة من الحرس، ولأن ظروف العمل في قرطبة، كانت أدعى إلى
النجاح نظراً لعطف الكافة والدهماء وتأييدهم.
وفى الوقت المحدد عبر محمد النهر، والتف حوله من أصحابه اثنا عشر فتى، منهم طرسوس المجوسى، وهو أشدهم

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٩؛ وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٥٢.

(٦٣٢/١)

جرأة وفتكاً، فساروا حذرين حتى باب القصر، ثم شهر طرسوس سيفه، وهجم في الحال على صاحب المدينة عبد الله بن أبي عامر (عسكلاجة) وانتزعه من مجلسه، وكان يحتسى الخمر مع قينتين من جواريه، وجىء به مخموراً إلى محمد بن هشام، فأمر بضرب عنقه، ورفع رأسه على رمح، فلما أبصرت العامة رأسه مرفوعاً، هرعت إلى محمد بن هشام، والتف حوله منهم جمهرة كبيرة من السفلة والغوغاء، فقويت بذلك عصبته، ثم بادرت باقتحام سجن العامرية، وأفرج عمن فيه من القتلة
واللصوص، وتلاحق عليه أقاربه المروانية من كل صوب، واستنهضوا الناس لنصرته، حتى اجتمع حوله منهم طوائف غفيرة.
ونمى الخبر إلى الخليفة هشام المؤيد، فأمر بإغلاق أبواب القصر، وصعد إلى السطح، ومن حوله خادمان يحمل كل منهما مصحفاً، وحاول مخاطبة العامة، فأسكتوه وأغلظوا له القول، فانصرف عنهم إلى داخل القصر، وأمر الخدم
بالكف عن كل مقاومة حتى يقضى الله أمره.
فأمر محمد بن هشام العامة بنقب أسوار

القصر، واقتحام أبوابه، وبذل العامة في ذلك جهوداً فادحة، وأتوا بالسلالم، وصعدوا إلى أعلا الأسوار، وسيطروا على عدة نواح من سطح القصر، وارتد الخدم أمامهم، ووصلوا إلى خزائن السلاح فنهبوها واشتد ساعدهم.
ولما سمع
الخليفة بذلك، خشى البادرة على نفسه وأهله، فبعث إلى محمد بن هشام
يعرض
عليه أن يقصى بني عامر من الحكم، وأن يشركه في أمره، فرفض محمد ذلك، وطلب إلى فاتن محافظ القصر أن يفتح الأبواب، فأذعن ودخل محمد القصر، واحتل مجلسه، ومن حوله خاصة أصحابه، واعتزم أن يقضى ليله
بين الشموع
المضيئة.
ثم قام بطرد العامة من القصر وأجلاهم عن سطحه، وكفهم عن انتهاك حرمه، وعين ابن عمه محمداً بن المغيرة في كرسى الشرطة، وابن عمه
الآخر
عبد الجبار بن المغيرة في خطة الحجابة، ودعا سليمان بن هشام من قرابته
فسماه
ولى عهده، وبعث إلى الخليفة هشام يعاتبه على إيثار بني عامر، ويدعوه إلى
خلع
نفسه، منذراً مهدداً، فارتاع هشام وبادر بالقبول، واستدعى محمد في الحال بنى عمومته، وأكابر بيته، ونفراً من الأعيان والوزراء والقضاة في جوف الليل، وأعلن هشام خلع نفسه بمحضر من بعضهم، وقدم إلى محمد بعض
حلله الخلافية
الفاخرة، فتم الخلع، وذلك بعد أن مكث هشام في الخلافة ثلاثة وثلاثين عاماً

وبضعة أشهر، وآلت الخلافة في تلك الليلة إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار

ابن عبد الرحمن الناصر، وتلقب بالمهدى.

وكان ذلك صبيحة يوم الأربعاء ١٧

جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩ م) .

وهرعت الجموع من سائر أنحاء قرطبة إلى محمد بن هشام، ملتفة حوله، مؤيدة لبيعته، واعتبروه بطلا منقذاً، إذ كان أول من استطاع أن يثور في وجه بنى عامر، وأن يعمل لإزالة ملكهم، وشعروا أن كابوس الإرهاب العامرى قد تقلص، وأن عهداً جديداً سوف يبدأ، ولم يخطر ببالهم قط، أن هذا التحول كان نذير المحنة الغامرة، التي سوف تطيح بكل ما نعموا به في ظل الدولة العامرية

من السكينة والأمن والرخاء.

وفى الوقت نفسه كانت مدينة الزاهرة، معقل بني عامر، عرضة لهجوم مماثل.

وكان القائمون على أمرها قد نمى إليهم ما وقع بقرطبة، وبادر محافظ الزاهرة عبد الله بن مسلمة إلى ضبط أسوارها وأبوابها، وحشد ما لديه من الجند، فبلغوا سبعمائة، وتأهب للدفاع وبعث محمد بن هشام إلى الزاهرة جمهوراً غفيراً من العامة مع طائفة من أصحابه.

فأحاطوا بها وحاولوا اقتحامها، ولكن نظيفاً الخادم، ونصراً المظفرى، وهما من الفتيان العامريين، استطاعوا فى

قوة من الغلمان إجلاء العامة عن الأسوار، ثم دخل الليل فحال بين الفريقين.

وفى صباح اليوم التالى، ١٨ جمادى الأولى، ندب محمد بن هشام أو الخليفة المهدى، ابن عمه عبد الجبار بن المغيرة لمهاجمة الزاهرة، فسار إليها على رأس قوة

كبيرة من العامة، الذين أقبلوا على التطوع فرساناً ومشاة، ووزعت عليهم الأسلحة، وأمامهم رأس عبد الله بن أبي عامر مرفوعاً فوق رمح، وهاجموا

قصر
عبد الملك المظفر، وكان خارج الأسوار، وكان فيه أهله وأمه الذلفاء، فنهبوه
وتخاطفوا متاعه وذخائره، وذلك بالرغم من أن الذلفاء هى التي أمدت محمداً
بن
هشام بعونها ومالها.
فلما شعر أهل الزاهرة، بأنه من العبث مقاومة هذه الجموع
الهائلة، عرضوا التسليم على أن يصدر لهم المهدى الأمان، فبعث إليهم
المهدى
الأمان المنشود مكتوباً بخطه، وكان ذلك وقت الظهر، ففتحوا أبواب المدينة
وسلموها، ودخل عبد الجبار لفوره قصر الزاهرة، واقتحمته الجموع، ونهبت
منه من المتاع والنفائس ما لا يقدر ولا يوصف، واستأثر عبد الجبار

(٦٣٤/١)

وصحبه المقربين من ذلك بأعظم نصيب؛ واستولت العامة على خزائن الكسوة
والمتاع والسلاح والحلى، ولم يكف النهب إلا في مساء اليوم التالى.
وحرص
عبد الجبار على أن يحيط بقواته، بيوت الحُرم والمال وخاص المتاع
والجوهر، وأن
يبعد العامة عنها، وقد استولى المهدى على جميع محتوياتها ونقلها إلى قصر
الخلافة
بقرطبة.
ويقال إنه حصل من أموال الزاهرة المنهوبة خمسة آلاف وخمسمائة
ألف دينار من النقود، ومن الذهب ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف.
وأطلق
المهدى الحرائر من بني عامر، واصطفى الجوارى لنفسه، ووهب منهن
لوزرائه

وأصحابه، وأذن للذلفاء أن تنتقل وأسرة ولدها عبد الملك وولده الصغير محمد، مطلقة السراح إلى دورها بالمدينة، وكانت لحرصها قد نقلت إليها معظم خزائن

المال والمتاع.

ولم يكتف المهدى بذلك كله، بل عمد بعد أن استصفى سائر ما في الزاهرة من الخزائن والأموال الطائلة، إلى هدم صروحها وأسوارها، واستطالت الأيدى إلى كل نفيس من مرمر قصورها وطرائفها وأنقاضها وأبوابها، فلم تمض أيام قلائل على ذلك السيل المدمر، حتى اختفت صروح الزاهرة ومعالمها الضاحكة، وغدت أطلالا دارسة، وخرائب موحشة.

وكان المهدى يتعجل إزالة رسوم

بنى عامر بكل ما وسع، خشية أن يعود عبد الرحمن المنصور، قبل أن يتم إحكام

ضربته وتوطيد مركزه.

وقد ذكرت لنا الرواية أن المنصور بن أبي عامر، كان يتوقع ذهاب دولته وخراب الزاهرة، وكان هذا الخاطر ينتابه من آن لآخر، ويفضى به إلى خاصته.

وقد نقل إلينا الوزير أحمد بن حزم، والد الفيلسوف الشهير، أن المنصور كان يقول: " ويحاً لك يا زاهرة الحسن، لقد حسن مرآك، وعبق ثراك، وراق منظرك، وفاق مخبرك، وطاب تربك، وعذب شربك، فياليت شعرى من الذى يهدمك، ويوهن جسمك ويعدمك "، وأنه كان يؤكد لأصحابه صحة هذه النبوءة في مناسبات كثيرة (١) .

- ٣ -

لما وصلت أنباء هذا الإنقلاب الخطير الذى وقع في قرطبة، إلى عبد الرحمن

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٦٥.

المنصور أو شنجول، وهو في طيلطلة، بادر بالسير في قواته إلى قلعة رباح، والحيرة تغلب عليه، والاضطراب يسود صفوف الجنود، وهنالك تمهل قليلا، وأعلن في الحال أنه ينزل عن ولاية العهد، ويقتصر على الحجابة، وبعث كتبه
بذلك إلى طليطلة وأعمالها، وفيها يناشد الناس أن يهرعوا إلى نصرة الخليفة المظلوم
هشام، وإلى التمسك بطاعته، ويصف لهم ما ارتكبه محمد المهدى ودهماء قرطبة
من العيث والسفك.
فلم يعبأ أحد بدعوته، وكان أول الخارجين عليه الفتى واضح
مولى أبيه، وهو يومئذ والى طليطلة.
وحاول شنجول في الوقت نفسه، أن يأخذ
العهد على زعماء الجند بنصرته والقتال معه، ولا سيما زعماء البربر الذين يؤلفون
سواد الجيش، فتظاهروا بموافقته، ولكنهم تعاهدوا فيما بينهم، وعلى رأسهم
كبيرهم محمد بن يعلى الزناتى زعيم زناتة، أن يتخلوا عن شنجول وألا يغامروا
بمحاربة أهل قرطبة، وفيها أسرهم وأموالهم، وخصوصاً بعد الذى ترامى إليهم
عن التفاف الناس حول محمد بن هشام، وتفانيهم في نصرته، وقوى هذا العزم
لديهم ما أفضى إليهم القاضى أبو العباس بن ذكوان - وكان قد صحب شنجول
في غزاته - من أنه يتبرأ من شنجول ويقضى بفسقه، وينكر عليه ما يدعو إليه من
قتال المسلمين بقرطبة، وفيهم العلماء والصالحون، والنسوة والأطفال.
ومما تجدر

ملاحظته أن القاضى ابن ذكوان هذا، كان من قبل من أخص رجال الدولة العامرية، وكان من أشد المعاونين لعبد الرحمن المنصور على انتزاع ولاية العهد
من هشام.
وكان إلى جانب شنجول في معسكره، زعيم من زعماء بني غومس سادة مقاطعة كريون في جلِّيقية، وكان قد صحبه يرجو عونه على بعض خصومه من
الزعماء المجاورين، فلما رأى اضطراب أحوال الجند، نصح شنجول بأن يعدل عن السير إلى قرطبة، وأن يعود في أصحابه إلى طليطلة فيتفق مع واضح، فأبى
شنجول نصحه، وزعم أنه متى اقترب من قرطبة، سارع الناس إلى نصرته.
وقد بقى هذا الزعيم النصرانى إلى جانب شنجول حتى النهاية (١) .
وعلى أى حال فقد سار شنجول في قواته صوب قرطبة، حتى انتهى إلى
" منزل هانى "، وهى أقرب محلاته إلى المدينة.
وما كاد الليل يرخى سدوله،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٠.



حتى غادر معظم الجند البربر أمكنتهم تحت جنح الظلام، وأسفر الصبح وهو صبح نهاية شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (نهاية فبراير سنة ١٠٠٩ م) فلم يبق
إلى جانب عبد الرحمن سوى خاصته وحرمه وحشمه وجمع يسير من غلمانه، وابن غومس في نفر من أصحابه، وغادر المعسكر تباعاً زعماء البربر، والفتيان
الصقالبة ووجوه الأندلسيين، وهنا نصحه ابن غومس مرة أخرى بأن ينجو

بنفسه
وصحبه، فأبى.
وسار شنجول في أهله حتى وصل إلى أرملاط من مشارف قرطبة، وقد
تركه النفر القليل الذى بقى معه، فاستولى عليه اليأس، وأدخل حرمه قصر
أرملاط، ثم خرج مودعاً والصراخ يتبعه، وسار ومعه ابن غومس، وقد عول
على الفرار، فالتجأ ليلا إلى الدير القريب.
وكان محمد بن هشام في تلك الأثناء
يتتبع أخباره وحركاته، فلما نمى إليه أنه يزمع الفرار، بعث في الحال الحاجب
ابن ذرى في طائفة من الفرسان، فسار مسرعاً إلى أرملاط ودهم الدير،
وقبض على شنجول وابن غومس.
وأخذ نساء شنجول من القصر، وهن سبعون
جارية، فبعث بهن إلى قرطبة.
ولما شعر شنجول بأنه هالك أعلن أمام معتقله
أنه يعترف بطاعة المهدى، فاستاقه ابن ذرى هو وابن غومس، ثم أمر بتوثيق
يديه بالرغم من احتجاجه، وفي خلال الطريق طلب شنجول أن يفك وثاق
يديه
قليلا ليستريح، فأجيب إلى طلبه، وعندئذ أخرج من خفه سكيناً بسرعة البرق،
وحاول أن يغمده في صدره، فتداركه الجند، وأوثقوا يديه، وأمر الحاجب
بقتله، فذبح في الحال، وفصل رأسه عن جسمه، وقتل ابن غومس، وحمل
رأس شنجول إلى المهدى في نفس المساء، وحمل جسده معروضاً على بغل،
وأمر
المهدى فحنطت الجثة، وركب عليها الرأس، وألبست كسوتها، ونصبت على
خشبة طويلة على باب السُّدة، ونصبت رأس ابن غومس على سارية إلى
جانبها.
وكان مقتل عبد الرحمن المنصور في اليوم الثالث من رجب سنة ٣٩٩ هـ (٣
مارس

سنة ١٠٠٩ م) .
وقد انتهت إلينا من تعليقات المعاصرين على تلك الحوادث المتوالية المدهشة
تعليق شاهد عيان يقول فيه:
" ومن أعجب ما رأيت من عبر الدنيا، أنه تم من نصف نهار يوم الثلاثاء

(٦٣٧/١)

لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة المؤرخ إلى نصف نهار يوم
الأربعاء
تتمة الشهر، وفي مثل ساعته فتح مدينة قرطبة، وهدم مدينة الزاهرة، وخلع
خليفة قديم الولاية وهو هشام بن الحكم، ونصب خليفة جديد لم يتقدم له عهد،
ولا وقع عليه اختيار، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار، وزوال دولة آل
عامر، وكرور دولة بني أمية، وإقامة جنود من العامة المحشودة عورض بها
أجناد السلطان
أهل الدربة والتجربة، ونكوب وزراء جلة، ونصب ضدادهم، تقتحمهم العين
هجنة وقماءة.
وجرى هذا كله على يدى بضعة عشر رجلا من أراذل العامة، حجامين
وخرازين، وكنافين، وزبالين، تجاسروا عليه، وقد تكفل المقدور
بوقوعه، فتم منه ما لم يكن في حسبان مخلوق تمامه" (١) .
* * *
وهكذا انهارت الدولة العامرية بسرعة مدهشة لم يكن يتوقعها أحد؛ فقد
تولى عبد الرحمن المنصور الحكم عقب وفاة أخيه عبد الملك في ١٧ صفر
سنة ٣٩٩ هـ
والدولة محكمة النظام موطدة الدعائم، والجيش على ولائه للدولة العامرية، فلم
تمض سوى ثلاثة أشهر حتى انهار ذلك الصرح الشامخ، الذى شاده
المنصور
ابن أبي عامر، والذى لبث خمسة وثلاثين عاماً معقد النظام والسلامة والأمن

والرخاء للأندلس، واستطاعت جموع يسيرة من الدهماء، أن تحقق بسرعة البرق
ما لم يجرؤ على تصوره أو محاولته من قبل، أحد من أكابر خصوم الدولة العامرية
والمتربصين بها.
ومن الواضح أن الأسباب الجوهرية لمثل هذا الانقلاب الصاعق، ترجع قبل كل شيء إلى العوامل الأدبية والنفسية، فقد كان نظام الطغيان المطبق
الذى فرضه المنصور على الأمة الأندلسية، بالرغم من كل ما حققه للأندلس من
السؤدد والرخاء، يبدو كالكابوس المرهق، وكان الشعب يتوق إلى التخلص من هذا النير، الذى سلبه كل مظاهر الحرية.
فلما تولى عبد الرحمن المنصور، كانت
النفوس قد أشبعت ببغض هذا النظام والرغبة في زواله، وكان سلوك عبد الرحمن
وتصرفاته ومجونه واستهتاره، عاملا جديداً في إذكاء هذا البغض وهذه الرغبة.
وكان لاجترائه على اغتصاب ولاية العهد، أسوأ وقع في نفوس قوم جبلوا على تقديس شعائر الخلافة وحقوقها الشرعية.
فلما خرج عبد الرحمن إلى الغزو، كان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٤.

*(٦٣٨/١)*

الشعب يضطرم سخطاً وبغضاً وازدراء، وكان يرقب أول بادرة للانفجار. فلما
وقعت هذه البادرة بوثوب محمد بن هشام؛ لبى الشعب لفوره دعوة الخروج

والثورة، ولم يفكر في شيء من العواقب، ولم يفكر إلا في تحطيم هذا النير البغيض - نير بني عامر - بأية وسيلة.

وكان له ما أراد، وقد حقق رغبته

بأيسر أمر.

على أن الأمة الأندلسية لم تجن خيراً من هذا الانقلاب، الذى حققه الشعب القرطبى دون تدبر ودون تحوط.

ذلك لأنه لم يقف عند القضاء على دولة بني عامر، بل بالعكس كان نذيراً بانهيار دعائم النظام والأمن، اللذين تمتعت بهما الأندلس

في ظل الدولة المنقضية، ودفع الأمة الأندلسية إلى معترك مروع من الفتن المضطرمة، والفوضى الشاملة، التي انتهت بانهيار حكومتها المركزية، وتمزيق

وحدتها، ومواجهتها لأخطر مصير عرفته منذ قيامها في شبه الجزيرة.



الكتابُ الرابع

سُقوطُ الخلافة الأندلسيّة

ودوْلة بَنى حمّود

٣٩٩ - ٤٢٢ هـ: ١٠٠٩ - ١٠٣١ م



الفصل الأوّل

الخلافة في معترك الفتنة والفوضى

غداة الانقلاب.

اقتسام السلطان.

الشعب القرطبى.

شخصية المهدى.

اضطهاده للبربر.
تحامل
العامة عليهم.
نفى المهدى للفتيان العامريين.
إخفاؤه للخليفة هشام وادعاؤه بوفاته.
عيثه وطغيانه.
هشام بن سليمان.
سعيه إلى خلع المهدى.
القتال بين الفريقين.
هزيمة هشام ومصرعه.
تحريض
المهدى على البربر والفتك بهم.
مسيرهم إلى قلعة رباح.
يرشحون سليمان بن الحكم للخلافة.
استنصارهم بسانشو غرسية أمير قشتالة.
الحرب بينهم وبين الفتى واضح.
هزيمته وفراره.
تأهب
المهدى للدفاع.
مسير البربر وحلفائهم النصارى إلى قرطبة.
موقعة قنتش.
هزيمة القرطبيين وتمزيق
جموعهم.
المهدى يظهر الخليفة هشام.
فشل محاولته وفراره.
مبايعة سليمان بن الحكم.

المهدى
وواضح يدبران محاولة جديدة.
استنصارهما بأميرى برشلونة وأورقلة.
مسير المهدى وحلفائه الفرنج
إلى قرطبة.
اللقاء بينهم وبين البربر.
هزيمة البربر زفرار سليمان.
تجديد البيعة للمهدى.
مسيره لمطاردة
البربر.
هزيمته وارتداده إلى قرطبة.
استعداده للدفاع.
الوحشة بينه وبين واضح.
ائتمار الفتيان به
ومقتله.
عود هشام المؤيد إلى الخلافة.
واضح يتولى الحجابة.
تمسك البربر بولاية سليمان.
مسير
البربر إلى الزهراء واحتلالها.
عيثهم بأراضي قرطبة.
هشام يقدم الحصون الأمامية لأمير قشتالة.
حصار
البربر لقرطبة.
واضح يحاول الفرار.
ضبطه ومقتله.

ابن وداعة وابن مناو.
هشام يحاول
استرضاء البربر وسليمان.
فشل المحاولة.
اشتداد الحصار على قرطبة.
مقتل حباسة بن ماكسن.
هياج
البربر.
القتال بينهم وبين أهل قرطبة.
هزيمة القرطبيين.
اقتحام البربر للمدينة والفتك بأهلها.
سليمان المستعين يسترد الخلافة.
مصير هشام المؤيد.
سليمان يتلقب بالظافر.
تفكك عرى الدولة.
توزيع الكور بين زعماء البربر.
خلال سليمان وشعره.
تربع محمد بن هشام الملقب بالمهدى على كرسى الخلافة، مكان الخليفة
هشام المؤيد، في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩
م) ،
وانقضى عهد السلطة الثنائية – سلطة الخليفة الشرعى الإسمية، وسلطة
حاجبه
والمتغلب عليه الفعلية – ليفسح مجالا لعود السلطة الموحدة.
ولكن الظروف
التي وقع فيها هذا الانقلاب الحاسم، الذى أودى بين عشية وضحاها،
بسلطان

دولة من أعظم الدول الأندلسية، لم تكن تسمح لأية سلطة نظامية أن تثبت وأن
تستقر، فقد كان الخليفة الجديد، شخصية مغامرة رخوة، تحركها النزعات الوضيعة، ولا تحدوها أية غاية مثلى، وقد أطلقت سائر الأهواء المتوثبة من عقالها، وأخذ كل حزب وكل فريق وكل طائفة، تحاول أن تحصل نصيبها من

(٦٤٢/١)

أسلاب الدولة المنهارة.
فقد كان هناك المروانية أو بنو أمية، يرون أنهم أصحاب السلطة الشرعية، وأصحاب التراث المتخلف عن مغتصبيها، بني عامر، وكان
هناك الفتيان العامريون، وأنصارهم من الصقالبة، ومن إليهم من الجند المرتزقة، وقد كانوا أولياء الدولة العامرية، وكانوا من حيث العدد والعصبية قوة يعتد بها؛
وكان هناك البربر، وقد كانوا عماد الجيش العامرى، وكان عددهم قد تضاعف
في أواخر أيام المنصور وبنيه، وتوافد كثير من زعمائهم إلى شبه الجزيرة؛ ثم كان هناك أخيراً الشعب القرطبى، أو بعبارة أخرى كتلة العامة والدهماء الذين آزروا الخليفة الجديد والتفوا حوله، وقد كانوا قوة خطرة متقلبة، كثيرة الأهواء والنزعات، لا تؤمن عواقبها.
استقبل الشعب القرطبى، ولاية الخليفة الجديد، بمظاهر السرور والرضى، وأقاموا الحفلات والولائم، وظنوا أنهم قد أفلتوا من أغلال النظام العامرى المرهق، ليستقبلوا عهداً أكثر تسامحاً، وأوسع آفاقاً، وما دروا أن القدر يتربص بهم، وأن الأندلس سوف تجوز من تلك الساعة، عهداً مليئاً بالمحن والأحداث المؤلمة.
والواقع أن الخليفة الجديد لم يكن رجل الموقف، ولم تكن جرأته التي تذرع

بها لانتزاع السلطة من هشام المؤيد، والقضاء على سلطان بني عامر، جرأة زعيم مقدام يقدر المسؤوليات التي أخذها على عاتقه، ولكن جرأة مغامر متهور، وزعيم عصابة غير مسؤولة، التفت حوله جموع الدهماء الصاخبة، دون وعى
ولا تدبر، شأنها دائماً في كل انقلاب وكل حدث جديد.
ومن ثم فإنه ما كاد
يشعر باستقرار أمره، وتمكن سلطانه، حتى أطلق العنان لطغيانه وأهوائه، وجمع حوله بطانة سوء، أخذت تتنكر للناس، وتضطهدهم، وتسومهم سوء الخسف، وأبدى الموكلون بالقصر من رجاله نحو البربر بنوع خاص منتهى الشدة والفظاظة، وكان المهدى ورجاله يخصون البربر بالبغض والزراية، لأنهم
كانوا عضد المنصور، وسند نظامه الحديدى، وكان أهل قرطبة ينساقون مع المهدى في هذه العاطفة ضد البربر، وينظرون إليهم شزراً.
وبدا سخط المهدى نحو البربر في سوء معاملتهم، والتشدد في دخولهم القصر، فكانوا يمنعون من الركوب عند الدخول، وينزع سلاحهم، ويوجه إليهم قارص

(٦٤٣/١)

الكلام، ولم يفرق في ذلك بين أصاغرهم وزعمائهم، حتى أن كبيرهم زعيم قبيلة
صنهاجة، زاوى بن زيرى بن مناد، عند مقدمه إلى القصر، مع جماعة من رجاله، ردوا عند الباب بفظاظة، وأهينوا، فانصرفوا وقلوبهم تضطرم سخطاً.
وسرت إلى العامة عندئذ، موجة من التحامل ضد البربر، فهاجمت بعض جموعهم دور البربر في ضاحية الرُّصافة، ونهبوا بعضها، وبادر صاحب المدينة
بضبط الحال ورد الغوغاء، وقتل ثلاثة منهم.

وأسرع زاوى بن زيرى، وحبوس بن ماكسن، وأبو الفتوح بن ناصر، وغيرهم من زعماء البربر

بالدخول على محمد بن هشام، وأخبروه بما وقع فاعتذر لهم، ووعدهم برد ما نهب، وقتل عدد من الغوغاء، ولكن البربر لم تهدأ ثائرتهم، وبقيت نفوسهم على اضطرامها.

وكان من أعمال العنف التي قام بها محمد بن هشام، أن نفى عدداً من الفتيان

الصقالبة العامريين.

فغادروا قرطبة، ولجأوا إلى أطراف الأندلس الشرقية، وكان

من تملكهم لبعض نواحيها ومدنها ما سنذكر في موضعه.

ولم يقبل منهم على مسالمة

محمد بن هشام ومصادقته، سوى الفتى واضح صاحب مدينة سالم والثغر الأوسط، فإنه بعث إليه كتاباً يؤكد فيه طاعته، ويبدى ابتهاجه بمصرع عبد الرحمن المنصور، فرد عليه المهدى بالشكر، وبعث إليه أموالا ومتاعاً، ومرسوماً بولاية

الثغر كله.

وعمد محمد بن هشام بعد ذلك إلى مطاردة الخليفة هشام المؤيد، فحبسه في القصر أولا، وأخرج جواريه وفتيانه، ودوابه المحبوبة، ثم أخرجه بعد ذلك من القصر، وأخفاه في بعض منازل قرطبة.

وتوفى في ذلك الوقت رجل

نصرانى أو يهودى، قيل إنه كان يشبه هشاماً شبهاً قوياً، فأعلن محمد بن هشام، وفاة الخليفة، وأحضر الوزراء والفقهاء فشهدوا بأنه هو الخليفة هشام المؤيد حقاً.

ودفن هذا الخليفة المزعوم في اليوم السابع والعشرين من شعبان سنة ٣٩٩ هـ (١) .

ولما شعر محمد بن هشام أن الأمر قد استتب له، أطلق العنان لأهوائه،

وشهواته الوضيعة، وانكب على معاقرة الخمر، وبالغ في الاستهتار والمجون، والمجاهرة بالفسق والفجور، بصورة مثيرة أفقدته عطف الكثيرين واحترامهم،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٧؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٢.

*(٦٤٤/١)*

وبطش بكثير من الناس، وفي مقدمتهم ولى عهده سليمان بن هشام، فقد سجنه
وسجن معه جماعة من قريش، وأخرج من الجيش نحو سبعة آلاف جندى، أقيلوا وقطعت أرزاقهم، وأضحوا عنصراً من عناصر التوتر والشغب؛ وزاد فى التحامل على البربر، والتعريض بهم والطعن فيهم، في كل فرصة وموطن، حتى
أصبح بغضه لهم، وتربصه بهم، من الأمور الذائعة، وأخذ كل فريق يحترز من
صاحبه، ويتوقع منه الشر والغدر.
وكان هشام بن سليمان بن الناصر، وهو والد سليمان ولى العهد المعتقل، قد وجد على محمد بن هشام من جراء انحرافه وطغيانه ومجونه، وخشى سوء العاقبة على بني أمية، وانهيار أمرهم، فأخذ يسعى في خلع محمد بن هشام، وانضم إليه جماعة من الناقمين عليه، وفي مقدمتهم جماعة العبيد العامريين، وطوائف
البربر، ومن تغيرت نفوسهم على محمد بن هشام، وحاصر الثوار محمد بن هشام
في قصره، فبعث إلى هشام القاضى ابن ذكوان، وأبا عمر بن حزم، يعاتبانه على
تصرفته، وأمر بالإفراج عن سليمان بن هشام، ووقع بين الرسولين وبين هشام حوار شديد، أعلن فيه أنه أحق من محمد بالعرش، فانصرفا عنه.

والتفت العامة

من الربض الغربى حول محمد، وخرج محمد المهدى في جموعه لمقاتلة خصومه، ودار القتال بينهما يومين متواليين، ثم أسفرت المعركة عن هزيمة هشام وجموعه

من البربر والعامريين، وأسر هشام وابنه وأخوه أبو بكر ونفر من الزعماء، قتلهم المهدى جميعاً (١) .

وانثالت الدهماء على دور البربر، فأعملت فيها التدمير

والنهب حتى دخل الليل، وكان ذلك في أواخر شوال سنة ٣٩٩ هـ (يونيه سنة ١٠٠٩ م) .

ودافع البربر عن أنفسهم، ثم انسحب معظمهم إلى أرملاط (٢) ضاحية قرطبة، ووقع القتال بقرطبة بين من تبقى منهم وبين العامة، وحرض المهدى على

قتلهم، وجعل لرؤوسهم أثماناً، ففتك العامة بكثير منهم، ومن بينهم عدة من الزعماء، ونهبوا دورهم، واغتصبوا النساء وسبوهن، كل ذلك في مناظر مثيرة من السفك والاعتداء الغاشم، واختفى كثير من زعمائهم.

وتوجس المهدى من

العواقب، فأصدر للبربر أماناً، ونادى بالكف عنهم، ونصحهم بتغيير زيهم اتقاء

---

(١) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٣ ص ٨٤.

(٢) وهى بالإسبانية Guadimellato

(٦٤٥/١)

الأذى، وكتب إلى البربر في أرملاط أماناً، فم يلتفتوا إليه، وغادروا أرملاط وساروا شمالا إلى قلعة رباح، وهناك أخذوا ينظمون أنفسهم ويتدبرون أمرهم.

وكان ممن فر من بني أمية عقب هزيمة هشام بن سليمان ومصرعه، ولد

أخيه
سليمان بن الحكم بن سليمان عبد الرحمن الناصر، وكان إماماً للبربر، فسار
معهم، ورشحوه
منذ البداية لتولى الأمر مكان المهدى، ولقبوه بالمستعين.
وكان سانشو غرسية
أمير قشتالة يرقب تطور الحوادث في قرطبة باهتمام، متأهباً لمظاهرة الفريق
الخارج على الآخر، ففاوضه سليمان وزعماء البربر في طليطلة على أن
يمدهم بالجند، وتعهدوا إليه بتسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود، فقبل
معاونتهم؛ وفى
أثناء ذلك حاول الفتى واضح صاحب مدينة سالم أن يعرقل مسير البربر،
فأمر
مدن الثغر أن تمنع المؤن عن البربر، ولقوا من جراء ذلك شدة وإرهاقاً.
وأمده
المهدى ببعض قواته بصحبة غلامه بليق، فجمع جموعه وسار لقتال البربر،
ولجأ
البربر من جانبهم إلى حليفهم سانشو، فأمدهم بالجند والمؤن الوفيرة.
والتقى
البربر وجيش واضح في مكان يسمى شرنبة على مقربة من قلعة النهر أو
قلعة
هنارس الحالية Alcala de Henares فهزم واضح هزيمة شنيعة، واستولى
البربر
على محلته وسلاحه، وفرت فلوله صوب قرطبة.
وكان ذلك في شهر ذى الحجة
سنة ٣٩٩ هـ (١) .
وارتاع المهدى لتلك الهزيمة، وأخذ في تحصين قرطبة، وحفر حول فحص
السرادق، وهو محلة البربر خندقاً، ورتب الرجال على الأبواب والأسوار، وأخذ

ينظم قواته النظامية ومن العامة.
وكان واضح قد أتاه منهزماً في أربعمائة
فارس من الثغر، انضمت إلى قواته.
وسار سليمان بن الحكم من جهة أخرى في
جموع البربر، ومعها القوات القشتالية بقيادة سانشو غرسية، صوب قرطبة،
وعسكروا بشرقها في سفح جبل يعرف بجبل قنتج أو قنتش وذلك في يوم ١١
ربيع
الأول سنة ٤٠٠ هـ.
وبرز واضح في جموعه من أهل قرطبة والثغر، واشتبك
الفريقان في القتال يوم السبت ١٣ ربيع الأول (٥ نوفمبر ١٠٠٩ م) ،
واضطرمت
بينهما معركة شديدة، وسرعان ما دب الخلل إلى جيش قرطبة، فارتد منهزماً
إلى الوادي، وتبعه البربر بعنف.
فضاقت بهم المسالك، وقتل منهم عدد جم

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٨٧.

(٦٤٦/١)

يقدره البعض بعشرة آلاف، بينهم عدد كبير من العلماء والأئمة، وقتل
النصارى
وحدهم نيفاً وثلاثة آلاف رجل، وثبت واضح في رجاله حتى دخل الليل،
فانسل تحت جنح الظلام وفر هارباً إلى الثغر (١) .
ولما رأى المهدى هزيمة جنده، سقط في يده، وحاول أن ينقذ نفسه
بحيلة سخيفة، يدفع بها دعوى سليمان، فأظهر الخليفة هشاماً المؤيد، وكان
قد
أخفاه حسبما تقدم، وزعم أنه مات، وأجلسه في مكان بارز في شرفة القصر،

وبعث القاضى ابن ذكوان إلى البربر، يخبرهم أن الخليفة هشاماً ما زال على قيد
الحياة، وأنه الإمام الشرعى، وليس المهدى سوى نائبه وصاحبه، فرده
البربر بجفاء وسخرية، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان.
ولم ير المهدى أمامه سوى
الفرار والنجاة بحياته، فغادر القصر سراً، واخترق قرطبة متنكراً، ولحق بطليطلة.
ودخل زاوى بن زيرى زعيم البربر القصر، ودخل سليمان بن الحكم
في أثره في يوم الإثنين الخامس عشر من ربيع الأول سنة أربعمائة، وبايعه الناس
بالخلافة، وتلقب بالمستعين بالله، واستقبله الشعب القرطبى القُلَّب بحماسة،
شأنه مع كل متغلب وظافر (٢) .
ووكل سليمان بعض الفتيان الصقالبة بالمحافظة على
هشام المؤيد في بعض أجنحة القصر، ونزل البربر في الزهراء اتقاء للاحتكاك
مع العامة.
ومع ذلك فقد كانت حوادث الاعتداء تتوالى عليهم في دروب قرطبة وأزقتها.
وكان من أول أعمال سليمان أن أمر بإنزال جثة عبد الرحمن بن المنصور
عن خشبتها، فغسلت ودفن في دار أبيه، ووفد سانشو غرسية إلى القصر،
فاستقبل بحفاوة وخلع عليه وعلى أصحابه، ثم عاد إلى معسكره، ووعده البربر
بتسليم الحصون التي تعهدوا بتسليمها متى استقر سلطانهم، ثم غادر قرطبة بعد أن
ترك من جنده مائة أنزلوا في ربض منية العقاب.
أما محمد المهدى فما كاد يصل إلى طليطلة، حتى أخذ يدبر أمره من جديد،
وكانت الثغور ما تزال باقية على طاعته ودعوته، وانضم إليه واضح وأخذ

الأمر
بيده.
ولما علم سليمان بما يدبره المهدى وواضح، خرج في قواته من قرطبة،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠؛ ويقول ابن الخطيب إن النصارى قتلوا من أهل قرطبة
ثلاثين ألفاً، وهو رقم يحمل طابع المبالغة (أعمال الأعلام ص ١١٣) .
(٢) الذخيرة لابن بسام.
المجلد الأول القسم الأول، ص ٣٠ و ٣١؛ والبيان المغرب ج ٣
ص ٨٩ و ٩٠.

(٦٤٧/١)

وسار صوب طليطلة، ثم دعا أهلها إلى طاعته، فأبوا.
وانصرف سليمان بقواته
إلى مدينة سالم، فلقى نفس الفشل في استمالة أهلها، فارتد عندئذ إلى قرطبة اتقاء
لأهوال الشتاء (أواخر شعبان سنة ٤٠٠ هـ) .
وفى خلال ذلك كله كان الفتى واضح
قد سار إلى طرطوشة من ثغور الثغر الأعلى، واتصل بأمير برشلونة الكونت
رامون بوريل وزميله أمير أورقلة الكونت أرمنجو، واتفق معهما على أن يمداه
بجيش لمقاتلة البربر في قرطبة، فقبلا معاونته بشروط باهظة، من تقديم الطعام
والشراب، وأن يتناول كل منهما في اليوم مائة دينار، وأن يتناول كل جندى
دينارين في اليوم، وأن يستولى الجند النصارى على ما يغنمونه من سلاح البربر
وأموالهم، وأخيراً أن يستولوا على مدينة سالم، وقد احتلوها بالفعل في طريقهم

إلى طليطلة، بعد أن أخلاها واضح من المسلمين (١) .

وسار الجيش الفرنجى برفقة واضح إلى طليطلة، حيث انضم إليه المهدى فى قواته، وسارت القوات المتحدة صوب قرطبة.

وكان سليمان المستعين قد وقف

على أهبة خصومه، ووفرة القوات الزاحفة عليه، فاستنفر الناس لنصرته، فلقيت دعوته فتوراً، فحشد ما استطاع من جموعه، وخرج مع البربر لملاقاة خصومه.

وكان اللقاء على قيد نحو عشرين كيلومتراً من شمالى قرطبة في مكان يعرف " بعقبة البقر "، وذلك في منتصف شوال سنة ٤٠٠ هـ (أواخر مايو سنة ١٠١٠ م) ، واحتل البربر بقيادة زعيمهم زاوى بن زيرى المقدمة، ورابط سليمان بقواته في المؤخرة.

واقتتل البربر مع الفرنج قتالا شديداً، قتل فيه كثير

منهم، وفي مقدمتهم الكونت أرمنجو (وتسميه الرواية العربية أرمقند) ، ولكن جانباً من فرسان الفرنج اخترقوا صفوف البربر، فظن سليمان أن الهزيمة وقعت

بهم فارتد منهزماً وكشف بذلك مؤخرة البربر، فلما رأى البربر فرار سليمان بقواته، ارتدوا لفورهم نحو الزهراء، فأخذوا أهلهم وأموالهم وغادروها إلى الجنوب مسرعين، وفر سليمان في بقية من صحبه شرقاً صوب شاطبة.

وفى اليوم

التالى دخل واضح ومحمد المهدى قرطبة، وجدد المهدى البيعة لنفسه وعين واضحاً لحجابته (٢) .

واعتزم المهدى أن يقضى على البربر قبل أن يعودوا لمقارعته.

فجمع الأموال

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ,٩٤

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ و٩٥؛ والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٢.

*(٦٤٨/١)*

من أهل قرطبة، وأعطى الفرنج أعطياتهم، وحشد كل ما استطاع من قواته، وخرج لمطاردة البربر.
وكان البربر قد وصلوا عندئذ إلى " وادي آره " أو وادي
يارو (١) .
على مقربة من مربلة في طريقهم إلى الجزيرة الخضراء.
وكان جيش
المهدى يتكون من نحو ثلاثين ألف من المسلمين، وتسعة آلاف من الفرنج.
وهناك التقى الجمعان، واشتبكا في معركة طاحنة، دارت فيها الهزيمة على المهدى وحلفائه، وقتل من الفرنج نحو ثلاثة آلاف، وغرق منهم عدد جم، واستولى البربر على كثير من أسلحتهم وخيلهم ومتاعهم (٢) ، ووقعت هذه الموقعة، في شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ (يونيه ١٠١٠ م) ، وعلى أثرها ارتد
المهدى إلى قرطبة، وهنالك غادره حلفاؤه النصارى عائدين إلى بلادهم.
وسار البربر جنوباً إلى ناحية ريُّه، وهنالك لحق بهم سليمان المستعين بمن معه.
وأخذ الفريقان يدبران معاً استئناف الصراع للاستيلاء على قرطبة.
وعكف المهدى على تحصين قرطبة، وحفر حولها خندقاً، أقيم وراءه سور، وأخذ يستعد للدفاع، ويحشد الجند توقعاً لمعاودة البربر الكرة.
وكانت جموع
من البربر في أثناء ذلك تغير على نواحى قرطبة من آن لآخر.
وفى أثناء ذلك
كان واضح قد ضاق ذرعاً بتصرفات المهدى وحماقاته، وسوء خلقه من

عكوف
على الشراب والمجون.
وكان الفتيان العامريون وفي مقدمتهم واضح جميعاً ينقمون
على المهدى ما فعله بهشام المؤيد، وبنى عامر، وكان قد وصل إلى قرطبة
جملة
منهم من شاطبة، وفيهم بعض الفتيان البارزين مثل خيران وعنبر، فاتمروا
على
الغدر بالمهدى، وأخرجوا هشاماً من محبسه بالقصر، وأجلسوه للخلافة ونادوا
بولايته، وأتوا بالمهدى بين يديه، فضرب عنقه، واحتز رأسه، وألقى بجسده
من أعلى السطح، ورفعوا رأسه على قناة طيف بها في الشوارع، ووقعت هذه
الجريمة في الثامن من ذى الحجة سنة ٤٠٠ هـ (٢٣ يوليه ١٠١٠ م) (٣) .
وهكذا استرد هشام المؤيد الخلافة، بعد سلسلة من الخطوب والأحداث
المثيرة، وكان يومئذ كهلا في نحو السابعة والأربعين من عمره، وكان قد
مضى

---

(١) وبالإسبانية Guadiaro
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٦؛ وأعمال الأعلام ص ١١٣,
(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٠؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٦؛ والذخيرة القسم
الأول، المجلد الأول ص ٣٢؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ و٩٩ و١٠٠.

(٦٤٩/١)

عليه مذ ولى الخلافة صبياً لأول مرة أربعة وثلاثون عاماً، وفي تلك الفترة
شهدت
الأندلس طائفة من الأحداث الجسام، لم تشهد مثلها من قبل: شهدت قيام
الحاجب المنصور ودولته العامرية، واختفاء سلطة الخلافة، في ظل نظام
الطغيان

المرهق الذى فرضه بنو عامر، ثم شهدت الثورة الغامرة التي أطاحت بالدولة العامرية وعود الخلافة الأموية في ثوبها الباهت المهلهل، على يد مغامرين مثل
محمد بن هشام المهدى، وسليمان المستعين، وشهدت وفاة هشام المزعومة، ثم
بعثه، وعوده إلى تولى الخلافة، شبحاً من أشباح الماضى، وألعوبة في يد واضح وزملائه الفتيان العامريين، أصحاب الحول والسلطان، بعد ابتعاد البربر
ومصرع المهدى.
وتولى واضح بالطبع منصب الحجابة للخليفة الذى اصطنعه، وسكنت الفتنة، وهدأت الخواطر نوعاً، وبعث الخليفة برأس المهدى إلى سليمان المستعين
وحلفائه البربر، وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته، وأخذ يظهر في شوارع قرطبة
خلافاً لما كان عليه فيما مضى، إظهاراً لهيبة الخلافة وسلطانها.
ولكن البربر
لم يقبلوا دعوته، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان، وكان البربر في الواقع يضطرمون
حقداً على أهل قرطبة لما أصابهم منهم من أنواع النكال، ويزمعون الانتقام منهم
بكل وسيلة.
وحاول سليمان والبربر أن يحصلوا مرة أخرى على معاونة سانشو
غرسية أمير قشتالة، وعرضوا أن يسلموه سائر الحصون الأمامية التي افتتحها
الحكم والمنصور، إذا ارتضى محالفتهم ومعاونتهم على استعادة قرطبة، وخلع المؤيد، ولكن سانشو لم يصغ إليهم في تلك المرة، معتزماً أن يوجه مطالبه

إلى
الخليفة القائم.
وعندئذ عول البربر على السير إلى قرطبة، فسارت جموعهم حتى
وصلت إلى الزهراء غربى قرطبة، فهاجموها وقتلوا معظم الجند الذين بها،
واحتلوها وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٤٠١هـ (نوفمبر سنة ١٠١٠ م) ،
واستمروا بها بضعة أشهر حتى أواخر شعبان من تلك السنة، ثم زحفت
جموعهم
على أرباض قرطبة، يعيثون فيها تخريباً ونهباً وقتلا، ويجتنبون الاشتباك مع
جند
واضح، وضج أهل قرطبة لهذا الاعتداء، وزادت نفوسهم حقدتً على البربر،
وتحرقاً للانتقام منهم، وانتشرت جموع البربر في نفس الوقت جنوباً، حتى
وصلت إلى أحواز غرناطة ومالقة وهى تنشر الخراب والدمار أينما حلت.

(٦٥٠/١)

وفى تلك الأثناء وصل سفراء سانشو غرسية أمير قشتالة إلى قرطبة، يطالبون
بالحصون الواقعة على الحدود، والتي افتتحها المسلمون منذ أيام الحكم حتى
نهاية
عهد بني عامر.
ولم ير هشام وواضح بداً من إجابة سانشو إلى طلبه، اتقاء لعدوانه
من جهة، واتقاء لتحالفه مع البربر من جهة أخرى.
وعقد مجلس من الفقهاء
والقضاة، وكتب محضر رسمى بتسليم عدد كبير من الحصون إلى النصارى،
يقال
إنها أربت على المائتين (١) ، ومنها معاقل هامة، كانت قواعد أمامية
للمسلمين، مثل شنت إشتيبن، وقلونية، وأوسمة، وغرماج وغيرها، وخسرت
الأندلس

بذلك خط دفاعها الأول، وتركت حدودها الأمامية مفتوحة لغزوات النصارى.
واستمر البربر على حصارهم لقرطبة، وعيثهم في أرباضها الخارجية، وكانت الحالة تسوء من يوم إلى يوم، وكان الناس في قرطبة، جيشاً وشعباً، يزمعون مقارعة البربر، والقضاء عليهم بكل ما وسعوا، ويرفضون كل رأى أو مسعى يتجه إلى مسالمتهم أو التفاهم معهم، ولم يجد المؤيد وواضح بداً من الانسياق مع
التيار العام، واتخاذ كل وسيلة ممكنة للدفاع عن المدينة، ولكن الموارد كانت تقل
يوماً عن يوم، حتى اضطر المؤيد إلى إخراج سائر نفائس القصر وتحفه ورياشه، ليقتنى بثمنها الخيل والسلاح، وفضلا عن ذلك فقد أرهق القرطبيون بالمطالب
والمغارم حتى ضاقوا ذرعاً؛ وأخيراً شعر واضح بأنه يواجه حالة مستحيلة، واعتزم أن يغادر قرطبة سراً، إلى بعض نواحى الثغر، ولكن بعض أكابر الجند
وقفوا على مشروعه، فنهض أحدهم، وهو على بن وداعة مع نفر من زملائه، فعاتبوه على ما بدد من الأموال، وما أساء من تصرف، ثم قتلوه واحتزوا رأسه، وطيف بها في الشوارع، ونهبت دوره ودور أصحابه، فوجد بها مال كثير معبأ
كان يعتزم الفرار به.
وهكذا كفر واضح بدمه عن جريمته في اغتيال المهدى، وهكذا أضحت الجريمة وسيلة ذائعة في بلاط قرطبة، لاقتناص السلطان أو
التخلص من صاحبه (٢) .
وعلى أثر ذلك ولى المؤيد ابن وداعة شرطة المدينة، فاستعمل الحزم والشدة، فى قمع الشغب وصون النظام والأمن، فهابته العامة، وقلت حوادث الشغب، وتولى تدبير الأمور للمؤيد رجل من موالى العامريين يسمى ابن مناو؛ ثم جاءت

(١) أعمال الأعلام ص ١١٧.
(٢ البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٣ و١٠٤؛ وأعمال الأعلام ص ١١٧ و١١٨.

(٦٥١/١)

إلى قرطبة كتب من أهل الثغور يعتذرون فيها عن عجزهم عن إرسال الأمداد، وينصحون المؤيد إما بمصالحة البربر، أو التفاوض مع أمير قشتالة، فكتب
هشام إلى زاوى بن زيرى يحثه على عقد الصلح، ويعده بما شاء من مال أو ولاية، فرد زاوى بأنه لايستطيع مخالفة أصحابه، وأنه مع ذلك لايدخر وسعاً في العمل
لتأليف كلمة المسلمين وحقن الدماء (١) .
ثم بذلت محاولة مماثلة لدى سليمان بن الحكم والبربر، إذ كتب أهل قرطبة على لسان هشام وابن مناو كتابين، وجه أحدهما من هشام إلى سليمان، وفيه يرجو العمل على إخماد الفتنة، وتسليم الأمر إليه، وعلى أن يغدو سليمان ولى
عهده والقائم بأعباء الخلافة عنه، ووجه الثاني من وزراء قرطبة إلى وزراء البربر، فلم يحفل سليمان بكتاب هشام، وقال للرسل بل إنه هو أمير الؤمنين والخليفة، وأنه لا يعترف لهشام بصفة ما.
كل ذلك والأمر يشتد على أهل قرطبة.
ودخل الوزراء ووجوه الجند والفتيان
على هشام، وكشفوا له خطورة الحالة، واشتداد ضغط البربر على المدينة وأرباضها، وتفاقم الضيق والغلاء، وقصور الثغور عن إنجاد المدينة، وكون الشعب منقسم على نفسه ما بين راغب في الكفاح، وراغب في الصلح، فبكى هشام فيما قيل، واعتذر لعجزه وقصوره، وقال لهم افعلوا ما ترون.

وعجل باضطرام النار حادث وقع في آخر ذى الحجة سنة ٤٠٢ هـ، إذ تقدم جماعة من وجوه البربر وفي مقدمتهم حباسة بن ماكسن ابن أخى زاوى، وكان
من أشجع قادة البربر، ومعه جماعة قليلة من الفرسان، ونزلوا في بقعة قريبة من
الأسوار، فرآهم أهل قرطبة من وراء الخندق، فاجتمع منهم عدد عظيم، وانقضوا على حباسة وصحبه، فدافعوا عن أنفسهم دفاعاً عظيماً، ولكنهم غلبوا في النهاية على أمرهم، وأسر حباسة، فلما عرفه القوم قتلوه بوحشية، وقطعوا جسده إرباً لعظيم حقدهم عليه، ولما قاسوه من شدة قتاله ونكايته، فلما وقف أخوه حبوس وعمه زاوى على الخبر، اضطرب البربر، واستعدوا للقتال، وفى اليوم التالى اشتبكوا مع أهل قرطبة في عدة معارك، وفتكوا بكثير منهم،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٧ و١٠٨.

(٦٥٢/١)

واستمرت المعارك من ذلك الحين بين الفريقين سجالا، وأهل قرطبة يخرجون من
المدينة مرة بعد أخرى، ويقاتلون البربر محاولين تحطيم الحصار المرهق، والبربر
من جانبهم ينزلون بهم أشد الضربات، وفي ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو سنة
١٠١٣ م) نشبت بين الفريقين معركة عامة، وقاتل أهل قرطبة قتالا شديداً، ولكنهم هزموا بعد معارك طاحنة، وقتل منهم عدد جم، وساد الاضطراب أرجاء
المدينة، وفتحت أبوابها؛ وخرج القاضى ابن ذكوان مع جماعة من الفقهاء وساروا إلى معسكر البربر، وطلبوا الأمان من سليمان وزعماء القبائل

البربرية، فمنح الأمان لقاء مبالغ عظيمة فرضت على المدينة، ودخل البربر المدينة دخول
الوحوش المفترسة، فقتلوا كثيراً من سكانها، ولم يفروا الأطفال والشيوخ، وأوقعوا بها السلب والنهب، وأحرقوا الدور، واغتصبوا النساء والبنات، وارتكبوا أشنع ضروب السفك والإثم، وكانت محنة من أروع ما قاسته عاصمة الخلافة.

وفى اليوم التالى دخل سليمان المستعين قصر قرطبة، واستدعى هشاماً المؤيد وعنفه على موقفه، فاعتذر بأنه مغلوب على أمره.

وهنا تختلف الرواية في مصير
هشام، فالبعض يقول إن سليمان أخفاه حيناً، ثم قتله ولده محمد بن سليمان، والبعض الآخر بأنه فر من محبسه، وقصد إلى ألمرية حيث عاش حيناً في خمول
وبؤس حتى توفى.

بيد أننا نرجح الرواية الأولى، وإن كان اسم هشام سوف
يظهر بعد ذلك على مسرح الحوادث.

ولما استتب الأمر لسليمان، وهدأت الخواطر نوعاً، تلقب بالظافر بحول الله مضافاً إلى المستعين، وانتقل إلى مدينة الزهراء بحاشيته وقواد البربر وجندهم، فاحتلوها وما حولها، ونزل على والقاسم ابنا حمود قائدا فرقة العلوية بشقندة ضاحية قرطبة، وأخذ سليمان ينظم شؤون الحكومة المضطربة.

وكانت الفوضى
قد سرت إلى جميع النواحى، وتفككت عرى الدولة، وقصر نفوذ الحكومة إلا عن قرطبة وما يجاورها، وقبض البربر الذين رفعوا سليمان إلى العرش، على
السلطة الحقيقية، فتولوا مناصب الحجابة والوزارة، وسائر المناصب الهامة؛ ورأى سليمان إرضاء لهم من جهة، وإبعاداً عن قرطبة من جهة أخرى، أن

---

(١) راجع في سقوط قرطبة ومصير هشام، ابن خلدون ج ٤ ص ١٥١، وابن الأثير، ج ٩ ص ٧٥ والمراكشى ص ٢٢ - ٢٥؛ وأبو الفدا ج ٢ ص ١٣٩؛ والبيان المغرب ج ٣
ص ١١٢ و١١٣؛ وأعمال الأعلام ص ١١٨ - ١٢٠.

(٦٥٣/١)

يقطعهم كور الأندلس، وكانوا ست قبائل رئيسية، فأعطى قبيلة صنهاجة وزعماؤها بني زيرى، ولاية البيرة (غرناطة) ، وأعطى مغراوة جوفى البلاد، وبنى برزال وبنى يفرن ولاية جيان ومتعلقاتها، وبنى دُمَّر وازداجة منطقة شذونة
ومورور؛ وأقر المنذر بن يحيى التجيبى على ولاية سرقسطة والثغر الأعلى، وكان
قد انضم إلى سليمان، وحارب مع البربر من أجل قضيته، وولى بني حمود الأدارسة
ثغور المغرب، فولى علياً بن حمود على ثغر سبتة، وأخاه القاسم بن حمود على
ثغور الجزيرة الخضراء، وطنجة وأصيلا، وهكذا سيطر البربر على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى، وأخذوا يحتلون في شئونها مكانة لها خطرها (١) .
وكان الفتيان العامريون لما رأوا غلبة البربر على حكومة قرطبة الجديدة، قد توجسوا من غدرهم، وفر معظمهم إلى شرقى الأندلس،، بعيداً عن سلطان الحكومة
المركزية، وأنشأوا هنالك في القواعد الشرقية، حكومات محلية حسبما نذكر بعد.
وقضى سليمان المستعين في الحكم للمرة الثانية نحو ثلاثة أعوام، استمرت خلالها حال الاضطراب والفوضى في قرطبة وسائر أنحاء الأندلس.

ولم تهدأ
الخواطر ولم تطمئن النفوس.
وغلب سلطان البربر، واشتد طغيانهم وتحكمهم، ولبثت الأهواء المتوثبة تجيش
في صدور الطامعين من زعمائهم، حتى تمخضت
غير بعيد عن انقلاب جديد في مصاير الخلافة.
وكان من أبرز صفات سليمان، مواهبه الأدبية الرفيعة، فقد كان أديباً
متمكناً، وشاعراً مطبوعاً، قال فيه ابن بسام إنه " أحد من شَرُف الشعر
باسمه، وتصرف على حكمه " وأورد له القصيدة الآتية، وهى الوحيدة التي
عثر بها من
نظمه، وفيها يعارض قطعة الرشيد " ملك الثلاث الآنسات عنانى " وفيها تبدو
براعته ورقة خياله:
عجباً يهاب الليث حد سنانى..

.

وأهاب لحظ فواتر الأجفان
فأقارع الأهوال لا متهيباً..

.

منها سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاث كالدمى..

.

زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لُحن لناظرى..

.

من فوق أغصان على كثبان
هذى الهلال، وتلك بنت المشترى..

.

حسناً وهذى أخت غصن البان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٣ - ١١٥؛ وأعمال الأعلام ص ١١٩.

(٦٥٤/١)

حاكمت فيهن السلو إلى الصبا..

.

فقضى بسلطان على سلطانى

فأبحن من قلبى الحمى وتركننى..

.

في عز ملكى كالأسير العانى

لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى..

.

ذل الهوى عزٌّ وملك ثانى

ما ضر أنى عبدهن صبابة..

.

وبنو الزمان وهن من عبدانى

إن لم أصغ فيهن سلطان الهوى..

.

كلفاً بهن فلست من مروان

وإذا الكريم أحب أمَّن إلفه..

.

خطب القلى وحوادث السلوان

وإذا تجارى في الهوى أهل الهوى..

.

عاش الهوى في غبطة وأمان (١)

(١) ابن بسام في الذخيرة.
المجلد الأول القسم الأول ص ٣٣ و ٣٤؛ والمراكشى ص ٢٥.

(٦٥٥/١)

الفصل الثاني
دولة بني حمُّود
ظهور البربر في الميدان.
على والقاسم ابنا حمود.
بنو حمود ونسبتهم.
ولاية الثغور بين البربر
والفتيان العامريين.
استيلاء البربر على قرطبة باسم سليمان.
خيران العامرى ينتزع ألمرية ويدعو للمؤيد.
على بن حمود يزعم أنه تلقى ولاية العهد من هشام.
تحالفه مع خيران وعبوره إلى الجزيرة.
سير
القوات المتحالفة إلى قرطبة.
القتال بينها وبين البربر.
هزيمة البربر وسليمان.
على بن حمود يدخل
القصر.
اشتداده في معاملة البربر.
خيران يخرج عليه ويدعو لعبد الرحمن المرتضى.
انضمام الثغور الشرقية
وسرقسطة لهذه الدعوة.
القتال بين المرتضى وصنهاجة.

انتصار البربر ومقتل المرتضى.
اضطهاد
على لأهل قرطبة.
مصرعه.
أخوه القاسم يخلفه.
جنوحه إلى سياسة اللين والتفاهم.
غلبة البربر
عليه.
خروج يحيى بن على واستيلاؤه على الخلافة.
التجاء القاسم إلى إشبيلية.
خلع المعتلى وعود
القاسم.
اصطفاؤه للبربر.
سخط أهل قرطبة.
محاربتهم وهزيمتهم للبربر.
مسير القاسم إلى إشبيلية
ثم إلى شريش.
يحيى المعتلى يطارده ويأسره.
إستقرار المعتلى في الثغور الجنوبية.
رد الأمر لبنى أمية.
خلافة عبد الرحمن المستظهر.
وصف ابن حيان لبلاطه.
عطفه على البربر.
فتك القرطبيين بهم.
فرار
المستظهر ومصرعه.

خلافة المستكفى.
إضطهاده للزعماء.
خلعه وفراره.
يحيى بن حمود يحتل قرطبة.
فتك القرطبيين بالحامية البربرية.
رد الأمر لبنى أمية.
بيعة هشام المعتد بالله.
وزيره حكم بن سعيد.
سوء مسلكه ومصرعه.
خلع هشام ومصيره.
الإجماع على إبطال الخلافة والتخلص من بني أمية.
استيلاء يحيى المعتلى على قرمونة.
الحرب بينه وبين ابن عباد.
هزيمة يحيى ومصرعه.
خلافة إدريس
المتأيد بالله.
غزو إدريس وحلفائه لأحواز إشبيلية.
الحرب بين زهير العامرى وباديس أمير غرناطة.
مصرع زهير.
الحرب بين ابن عباد والبربر.
هزيمة ابن عباد ومقتل ولده إسماعيل.
وفاة إدريس
وخلافة ولده يحيى.
خروج حسن بن يحيى ومبايعته بالخلافة.
مقتل الوزير ابن بقنه.
مصرع حسن.

محاولة الحاجب نجا ومصرعه.

خلافة إدريس العالى.

الثورة عليه وخلعه.

خلافة محمد بن إدريس

المهدى.

طغيانه والسخط عليه.

مصرعه.

خلافة إدريس السامى.

عودة إدريس العالى.

خلافة المستعلى.

إستيلاء باديس على مالقة.

حكومة بني القاسم بن حمود بالجزيرة.

إستيلاء ابن عباد على الجزيرة.

إنقراض دولة بني حمود.

تفكك الأندلس وانقسامها.

لما قضى على دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى أيام الحكم المستنصر، ثم بعد
ذلك أيام المنصور بن أبي عامر، وأصبح المغرب ولاية أندلسية تخضع لحكومة
قرطبة، تفرق كثير من زعمائه في مختلف الجهات، ولاذوا بالاختفاء، بعيداً
عن بطش السلطة الجديدة، وأخذوا يرقبون الفرص لاستعادة سلطانهم؛ وهاجر



عدد كبير منهم إلى الأندلس، من البربر والمغاربة، وانضووا تحت لواء الدولة
العامرية في أواخر عهدها، وعاونوا في توطيد سلطانها وتدعيم جيشها.
ولما انهارت الدولة العامرية، وعم الاضطراب والفوضى في قرطبة، ظهر

البربر طرفاً بارزاً من أطراف المعركة، التي اضطرمت حول السلطان
والخلافة؛
ولما نجح بنو أمية في تحقيق ضربتهم الأولى على يد محمد بن هشام
المهدى، انحاز
البربر للفريق المعارض، لما نالهم من مطاردته واضطهاده، وكانت الخصومة
تضطرم
في الواقع منذ بعيد بين الأمويين والبربر، لاعتقاد الأمويين أن البربر كانوا
أكبر
عضد للمنصور، في اغتصاب السلطة والقضاء على سلطان بني أمية.
ولما فشل البربر
في محاولتهم الأولى للقضاء على رياسة المهدى، التفوا حول خصيمه سليمان
المستعين، ليكون مرشحهم الشرعى، ووسيلتهم إلى انتزاع السلطة، وانتهى
الصراع بين
الفريقين، آخر الأمر بانتصار البربر، واستيلاء مرشحهم سليمان على
الخلافة، وحصولهم على نصيبهم من أسلاب السلطة،، بتولى رياسة الولايات
والثغور الجنوبية.
وكان من بين الزعماء المغاربة، الذين قادوا جموع البربر في معركة قرطبة
المظفرة، رجلان من عقب الأدارسة، هما على والقاسم ابنا حمُّود بن ميمون
ابن حمود.
ونحن نعرف أن الأدارسة يرجعون نسبتهم إلى الحسن بن على بن
أبى طالب؛ وإذاً، فقد كان على والقاسم، وفقاً لهذا القول، علويين من سلالة
آل البيت.
وهذا ما يقوله العلامة النسابة ابن حزم، إذ يرجع نسبة على والقاسم، إلى
إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على (١) ، ويقوله أيضاً عبد
الواحد
المراكشى وابن عذارى، وابن الخطيب (٢) .

بيد أنه بالرغم من هذه النسبة العلوية، وهذه الأرومة العربية العريقة، التي ينتحلها بنو حمود، فإنهم، إذا تركنا مسألة النسبة والسلالة جانباً، كانوا ينتمون في الواقع من حيث النشأة والعصبية والمصير، إلى البربر، وكان الطابع البربرى
غالباً عليهم، حتى أنهم لم يكونوا يتكلمون العربية، وإنما كانوا يتكلمون باللهجة
البربرية، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك في حديثه عن على بن حمود (٣)
.

---

(١) راجع جمهرة أنساب العرب (القاهرة) ص ٤٣ و ٤٤.
(٢) المراكشى في المعجب ص ٢٤؛ وابن عذارى في البيان المغرب ج ٣ ص ١١٩؛ وابن
الخطيب في أعمال الأعلام ص ١٢٨.
(٣) أعمال الأعلام ص ١٢١.



وقد رأينا أن سليمان المستعين حينما استرد الخلافة، عقب انتصار البربر على
أهل قرطبة، خص علياً والقاسم، بولاية الثغور المغربية، وندب علياً لحكم سبتة، وندب القاسم لحكم الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا، وذلك في أوائل سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) .
وفى الوقت الذى استولى فيه البربر، على الولايات والثغور الجنوبية، كان الفتيان العامريون منذ اضطرام الفتنة، قد استقروا بشرقى الأندلس، واستولى كثير منهم على الثغور الشرقية، وفلا مقدمتهم مجاهد الذى استولى على دانية والجزائر
الشرقية فيما بعد، وخيران، الذى استولى على ألمرية ومرسية.

وكان خيران حينما
استولى محمد بن هشام المهدى على الخلافة للمرة الثانية، بمؤازرة واضح
والجند
النصارى، وتولى واضح منصب حجابته، قد عاد إلى قرطبة مع نفر من
الفتيان
العامريين، وانضموا إلى واضح، ثم اشتركوا معه في تدبير اغتيال المهدى،
وإعادة
هشام المؤيد إلى كرسى الخلافة حسبما تقدم.
وكان أولئك الفتيان يعتبرون هشاماً
إمام دولتهم بعد ذهاب المنصور.
فلما قتل واضح واستولى البربر على قرطبة، وانتزع سليمان المستعين الخلافة
من هشام المؤيد، غادر خيران ومعه عدة كبيرة
عن الفتيان قرطبة، اتقاء بطش البربر، وسار إلى شرقى الأندلس، وانضم إليه
حال سيره كثير من الناقمين من بني أمية وغيرهم، ثم زحف على ألمرية،
وكانت
بيد أفلح الصقلبى، فانتزعها منه، واستولى على كثير من الأماكن المجاورة،
واشتد
بأسه في تلك الناحية، ودعا لهشام المؤيد.
وكان تمزق الأندلس على تلك الصورة، وانتثار السلطة، بين الأمويين
والبربر، والفتيان العامريين، مما يفسح المجال لأطماع الطامعين والمتغلبين،
وكانت تلك الأطماع تجيش في الواقع، في صدور أولئك الذين رأوا في
ضعف
السلطة المركزية، وذيوع الخلاف والفوضى، فرصة يمكن انتهازها.
وكان على
ابن حمُّود الحسنى، قد تولى حكم سبتة، وولى أخوه الأكبر القاسم، حكم
الجزيرة

الخضراء، لا يفصلهما سوى مضيق جبل طارق.
وكان على يطمح إلى أكثر من
حكم مدينة، ويتطلع إلى الوثوب بحكومة قرطبة المضطربة المتداعية.
وكان يرى
في الفتيان العامريين خصوم سليمان المستعين حلفاءه الطبيعيين، فكاتب
كبيرهم
خيران صاحب ألمرية، وأظهر كتاباً زعم أنه تلقاه من الخليفة هشام المؤيد
يوليه

(٦٥٨/١)

فيه ولاية عهده، ويطلب إليه أن ينقذه من أسر البربر وسليمان؛ ويقول لنا
ابن حيان، إن هشاماً المؤيد لما رأى اضطراب أمره وتصرم دولته، قد منح
على
ابن حمود ولاية عهده، وأوصى إليه بالخلافة من بعده، وأرسل إليه ذلك
بسبتة سراً، وولاه طلب دمه، واستكتمه السر حتى يحين الأوان لذلك (١) .
فذاعت دعوة على، ولباها بعض حكام الثغور الجنوبية مثل، عامر بن فتوح
الفائقى مولى الحكم المستنصر ووزير ولده المؤيد، وكان يومئذ حاكماً لمالقة.
وكتب إليه خيران أن يعبر إليهم.
فعبر على من سبتة إلى الجزيرة الخضراء في أواخر
سنة ٤٠٦ هـ (١٠٠٦ م) وسار في أشياعه من البربر إلى مالقة، فسلمها إليه
عامر
ابن فتوح، ودعا له بولاية عهد المؤيد حال ظهوره حياً، وسار خيران في قواته
والتقى بعلى في ثغر المنكب الصغير، ما بين مالقة وألمرية، فجمع الزعيمان
قواتهما
ونظما خطتهما للزحف على قرطبة، وبويع على بن حمود على طاعة المؤيد.
ثم

سارت القوات المتحدة صوب قرطبة، وانضم إليها خلال السير زاوى بن زيرى وحبوس الصنهاجى في قوة من بربر غرناطة.

وكان سليمان المستعين، قد ترامت

إليه أنباء أولئك الخوارج عليه، وزحفهم لقتاله، فخرج من قرطبة للقائهم فى جند البربر، والتقى الفريقان في ظاهر قرطبة على قيد عشرة فراسخ منها، ونشبت

بينهما معركة شديدة، انتهت بهزيمة سليمان، وقتل عدد جم من أنصاره، وكان سليمان وأبوه الحكم، وأخوه عبد الرحمن، بين الأسرى.

ودخل على بن حمود قصر قرطبة في الثامن والعشرين من محرم سنة ٤٠٧ هـ

(أول يوليه سنة ١٠١٦ م) وبحث عن هشام المؤيد فلم يجده، وكان الاعتقاد سائداً

بأن سليمان أخفاه ولم يقتله، فلما علم بأنه قُتِل، أتى بسليمان وأبيه وأخيه وقتلهم

بنفسه انتقاماً للمؤيد.

ثم أعلن وفاة المؤيد، ودعا إلى البيعة لنفسه، فبويع بالخلافة

وتلقب بالناصر لدين الله، وكانت مدة خلافة سليمان الثانية مذ دخل قرطبة إلى

أن قتل ثلاثة أعوام وبضعة أشهر، وكانت أمه أم ولد تدعى ظبية ومولده فى سنة ٣٥٤ هـ (٢) .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٤ و١١٦.

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٦ و١١٧ و١١٩ ر ١٢٠، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢١

وج ٤ ص ١٥٣؛ والمراكشى ص ٢٤؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩؛ ونفح

الطيب ج ٦
ص ٢٢٤، وجذوة المقتبس ص ٢٠.

(٦٥٩/١)

وهكذا اختتمت الدولة الأموية حياتها بالأندلس بعد أن عاشت منذ عصر الإمارة حتى نهاية عصر الخلافة مائتين وثمانية وستين عاماً، وانهارت دعائم الخلافة الأموية نهائياً، بعد أن لبثت منذ عهد هشام المؤيد أربعين عاماً، ستاراً
للمتغلبين من بني عامر، ثم شبحاً هزيلا يضطرب في غمر الفتنة والفوضى.
ولما قبض على بن حمود على زمام الحكم، اشتد في معاملة البربر، وإخماد تمردهم وشغبهم، وحماية السلطة المركزية من عدوانهم، فهابوه ولزموا السكينة، وقضى بمنتهى الشدة على كل نزعة إلى الخروج والعصيان، وفتك بالمعارضين له
سواء في ذلك العرب والبربر، وأذل الزعماء واستأثر بالسلطة.
وحاول من جهة
أخرى أن يحسن معاملة القرطبيين، وأ، يقيم العدل، ويقمع الفوضى، وكان من معاونيه في الحكم، جماعة من أولياء الخلافة السابقين مثل أبي الحزم بن جهور، وأحمد بن برد وغيرهما.
على أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة.
ذلك أن خيران العامرى، لما دخل قرطبة مع على بن حمود ولم يجد الخليفة هشاماً المؤيد على قيد الحياة، خشى سطوة الناصر وغدره، فغادر قرطبة، معلناً الخلاف، وسار إلى شرقى
الأندلس حيث يحتشد معظم الزعماء العامريين وأنصارهم، وأعاد الدعوة لبنى أمية في شخص مرشح جديد منهم، هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن الناصر، باعتباره أصلح من بقى منهم، وكان قد فر خفية من

قرطبة إلى جيان، فاستدعاه خيران وبايعه وجمع كبير من أصحابه بالخلافة، ولقبوه بالمرتضى، وانضم إليهم في تلك الحركة المنذر بن يحيى التجيبى والى سرقسطة والثغر الأعلى ومعه قوة من المرتزقة النصارى، وكذلك ولاة شاطبة وبلنسية وطرطوشة وألبونت وغيرها.

وأعلن المرتضى الخلاف على الناصر، وسار في جموعه أولا إلى غرناطة ليحارب جيش صنهاجة القوى، فلقيه أميرها

زاوى بن زيرى في قواته ونشبت بينهما معركة طاحنة استمرت أياماً، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس، ومقتل المرتضى، وتمزق جموعه، وسقوط معسكره في أيدى

البربر.

وفى رواية أخرى أن المرتضى استطاع الفرار ناجياً بحياته، فبعث خيران فى أثره بعض أعوانه فقتلوه على مقربة من وادي آش، وحملوا رأسه إلى خيران. وكان

خيران والمنذر قد حقدا عليه لما رأيا من حدته وصرامة نفسه، وخشيا من غدره (١) .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧.



وسار خيران والمنذر فيمن بقى من أصحابهما ولحقا بألمرية.

وسار الإفرنج المرتزقة

حلفاء المنذر إلى الشمال.

قال ابن حيان " فحل بهذه الوقيعة على جماعة الأندلس

مصيبة أنست ما قبلها، ولم يجتمع لهم جمع بعد، وأقروا بالإدبار، وباؤوا بالصغار "

واستطاع أخ للمرتضى، وهو أبو بكر هشام بن محمد، أن ينجوا من الموقعة،

فى بعض أصحابه إلى ألبونت، حيث دعا لنفسه بالخلافة، وأقام بها يرقب
الحوادث (١) .
وتغفل معظم الروايات الإسلامية تاريخ هذه الموقعة، ولكن الظاهر من
سياق الحوادث، ومما ذكره صاحب البيان المغرب، أن سير المرتضى من
شرقى
الأندلس صوب قرطبة، كان في سنة ٤٠٩ هـ (٢) ، وأن الموقعة حدثت فى
أواسط هذا العام، وفي خلافة القاسم بن حمود، بعد مقتل أخيه على حسب ما
يجىء.
وكان على بن حمود، حينما ترامت إليه أنباء خروج المرتضى ومسيره لقتاله،
قد انقلب على أهل قرطبة خشية من غدرهم، ولما آنسه من ميلهم إلى
المرتضى، وعاد فأطلق يد البربر، واشتد على أهل قرطبة، ونزع سلاحهم،
واعتقل
كثيراً من أعيانهم، وفي مقدمتهم وزيره أبو الحزم بن جهور، وصادر أموالهم،
وهبت على القرطبيين ريح من الإرهاب والروع فلزموا السكينة حيناً (٣) .
ولكن القدر كان يتربص بعلى بن حمود، ذلك أنه بينما كان يتأهب لقتال
خصومه، المجتمعين يومئذ في منطقة جيان حول راية المرتضى، إذ ائتمر
به نفر
من فتيان القصر الصقالبة من موالى بني أمية، وتسلل ثلاثة منهم إليه وهو
فى
الحمام وقتلوه، وذلك في الثاني من ذى القعدة سنة ٤٠٨ هـ (٢٣ مارس سنة
١٠١٨ م) ، وكان سنه وقت مقتله خمس وخمسون سنة، ولم يمكث في
الخلافة
سوى عام وتسعة أشهر.
فبعث زعماء زناتة إلى أخيه القاسم بنبأ موته، وكان يكبره ببضعة أعوام،
وكان يومئذ والياً لإشبيلية، فحضر مسرعاً، وبويع بالخلافة في الثامن من ذى
القعدة، أعنى لستة أيام من مقتل أخيه، وتلقب بالمأمون، وقبض على الفتيان

(١) البيان المغرب ج ٣ صن ١٢٥ و١٢٦ و١٢٧.
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥.
وذكر ابن الخطيب وحده أن الموقعة حدثت بالفعل فى
سنة ٤٠٩ هـ (أعمال الأعلام ص ١٣١) .
(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٣؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩.

*(٦٦١/١)*

الثلاثة الذين قتلوا أخاه وأعدمهم لوقته.
وكان يحيى بن على، ولد الخليفة القتيل
والياً على سبتة، وولده الآخر إدريس والياً على مالقة، فاختلف البربر في البداية
على مسألة الخلافة، ولكن أكثرهم انضم إلى جانب القاسم لأنه غبن أولا، وقدم عليه أخوه الأصغر.
وهكذا استتب الأمر للقاسم، فعدل عن سياسة الشدة إلى سياسة اللين
والمسالمة، وأحسن إلى الناس ونادى بالأمان وبراءة الذمة ممن تسور على أحد، وأسقط كثيراً من المكوس.
فهدأت الخواطر، واطمأن الناس نوعاً، وكانت
حركة المرتضى قد وصلت خلال ذلك إلى ذروتها، ووقعت الحرب بين جموع
المرتضى وحليفه خيران والمنذر بن يحيى التجيبى، وبين قوى صنهاجة على مقربة من
غرناطة، وانهزم أهل الأندلس وقتل المرتضى، وبعث زاوى بن زيرى إلى
القاسم بما وقع مع سهمه من الغنائم، ومنها سرادق المرتضى، فسر القاسم
لذلك، وعرض سرادق المرتضى على نهر قرطبة ليراه الناس (١) .
وعمد القاسم إلى استمالة
خيران واستعطافه، ولكنه بقى معتصماً بألمرية، وأقطع زميله زهيراً العامرى

ولاية جيان وقلعة رباح، محاولا بذلك أن يعقد السلم مع الفتيان العامريين، وأن يأمن خصومتهم وكيدهم.

واتخذ القاسم بطانة من السود، وأسند إليهم مناصب الرياسة والقيادة، ولكنه لم يتخلص من قبضة البربر وسيطرتهم عليه، فضعف أمره وتكاثرت الصعاب من حوله.

وكان ابن أخيه يحيى بن على والى سبتة، يرقب الفرصة للخروج عليه، فاتفق مع أخيه إدريس والى مالقة، على أن يتركها له، لتكون قاعدة للعمل، وأن يستقر إدريس مكانه في سبتة.

وأخذ يحيى يحشد أنصاره تباعاً في مالقة حتى

اجتمع له جيش قوى.

وفى أثناء ذلك كان عمه القاسم يشكو أمره إلى زعماء البربر، ولكنهم عجزوا عن التوفيق بينهما؛ وزحف يحيى في قواته على قرطبة، وخشى

القاسم العاقبة فآثر الانسحاب على الحرب، وغادر قرطبة إلى إشبيلية في ٢٣ ربيع

الثاني سنة ٤١٢ هـ (أغسطس سنة ١٠٢٢ م) ، وضبط البربر القصر حتى مقدم

ابن أخيه يحيى.

ودخل يحيى في بن على بن حمود قرطبة بعد ذلك بأيام قلائل، في مستهل جمادى

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٣١.

*(٦٦٢/١)*

الأولى سنة ٤١٢ هـ.

وبويع بالخلافة، وتلقب بالمعتلى بالله، وكان في الثانية

والأربعين من عمره.

واستقبل البربر والأندلسيين معاً رياسته بالاستبشار والرضى.
وكان المعتلى فارساً بارعاً يتحلى بخلال الفروسية، ويجانب العصبية، ويؤثر العدل، ويجزل العطاء لمن وفد عليه، أو مدحه بشعره، فأحبه الناس؛ وكان من وزرائه
أبو العباس أحمد بن برد، والكاتب محمد بن الفرضى، ولكنه وقع مثل عمه القاسم تحت نفوذ البربر وإمرتهم، فاستبدوا به، وضيقوا عليه.
وكان القاسم بن حمود أثناء ذلك قد استقر في إشبيلية، وتسمى بالخلافة، وتلقب بالمستعلى، وأخذ يرقب سير الحوادث.
ومن الغريب أن القاسم وابن أخيه
يحيى، تهادنا واتفقا على أن يعترف كلاهما بصفة صاحبه.
ويعلق الفيلسوف ابن
حزم على ذلك بأنه لم يسمع بخليفتين تصالحا " وهو أمر، لم يسمع في الدنيا بأشنع
منه، ولا أدل على إدبار الأمور ".
على أن هذا الوضع الشاذ لم يدم طويلا.
ذلك أن البربر أعلنوا خلع يحيى
المعتلى في الثاني عشر من ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ، ولم يكن قد مضى على خلافته
سوى عام ونصف، فبادر يحيى بمغادرة قرطبة إلى مالقة.
وفى الحال تحرك عمه
القاسم من إشبيلية تلبية لدعوة البربر، ودخل قرطبة في الثامن عشر من ذى القعدة
المذكور، وجددت له البيعة وتسمى بأمير المؤمنين.
ولكن القاسم لم يوفق في سياسته أيضاً في تلك المرة.
ذلك أنه أصطفى البربر، ومكنهم من أهل قرطبة، فاشتدوا في معاملتهم ومطاردتهم، وضاق أهل قرطبة

في النهاية ذرعاً بتلك الحالة، فثاروا بالبربر، واستعدوا لقتالهم، وأعلنوا خلع القاسم، واستمرت المعارك حيناً حتى استطاع القرطبيون إرغام القاسم على مغادرة
القصر، وذلك في جمادى الثانية سنة ٤١٤ هـ (سبتمبر سنة ١٠٢٣ م) . فانقلب
البربر إلى محاصرة المدينة بعد أن أغلق القرطبيون أبوابها.
واستمر الحصار خمسين
يوماً، والمعارك في كل يوم تتجدد، وأخيراً خرج القرطبيون واشتبكوا مع البربر في معركة كبيرة حاسمة، وقاتلوا قتال اليائسين، حتى هزموا البربر ومزقوا
جموعهم، وتفرقت بقايا البربر وانفضت عن القاسم، فسار القاسم في نفر من صحبه إلى إشبيلية، وكان بها إبناه محمد والحسن، فأغلقت المدينة أبوابها دونه،

---

(١) راجع نقط العروس ص ٨٠، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٣٢ و١٣٣.

*(٦٦٣/١)*

وأخرج منها إبناه ومن معهم من البربر، وقام أعيان المدينة، وعلى رأسهم قاضيها
محمد بن إسماعيل بن عباد، بضبط الأمور فيها، وسار القاسم وصحبه إلى بلدة شريش (١) .
وفى تلك الأثناء كان يحيى المعتلى، قد سار من مالقة إلى الجزيرة الخضراء، وكانت بها أموال عمه القاسم وأسرته فاستولى عليها، واستولى أخوه إدريس والى
سبتة، على ثغر طنجة، وكانت أيضاً من أعمال القاسم، وكان يعدها ملجأ له وملاذاً

يحتمى به إذا ذهب سلطانه بقرطبة؛ ولما انقلب القاسم في فلوله إلى شريش سار
يحيى المعتلى لقتاله، وحاصر شريش حتى سلمت، وقبض على عمه وبنيه، وحملهم في الأصفاد إلى مالقة، وهناك أودعهم السجن، وانفرد يحيى برياسة البربر، وبسط سيادته على شريش ومالقة، وسبتة وطنجة من ثغورالمغرب، وبايعه البربر بالخلافة، وسموه المعتلى بالله، وبقى القاسم في يرسف في سجنه ردحاً
طويلا من الزمن، حتى قتل خنقاً في سنة ٤٣١ هـ، وهو في نحو الثمانين من عمره (٢) .
وكان أهل قرطبة قد سئموا عندئذ حكم البربر وأشياعهم، وأجمعوا على رد الأمر إلى بني أمية.
وكان ثمة ثلاثة من المرشحين الذين اعتبروا أصلح من بقى من
بنى أمية لتولى الخلافة، هم سليمان بن المرتضى، ومحمد بن العراقى، وعبد الرحمن
ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله، فقرر القرطبيون أن يختاروا أحدهم
بطريق الشورى، وعقدت لذلك جلسة كبرى بالمسجد الجامع، حضرها الوزراء والأكابر والخاصة والعامة.
وحضر سليمان بن المرتضى ومحمد بن العراقى في البداية، وكاد الاختيار
يقع على أولهما، وبدىء بالفعل في تحرير مرسوم البيعة، لولا أن
حضر عندئذ عبد الرحمن بن هشام في كبكبة عظيمة، ومن حوله طائفة كبيرة
من الجند شاهرة السلاح، فدخل المقصورة، وعقدت له البيعة في الحال، بين دهشة الحضور واضطرابهم،.
وذلك في السادس عشر من رمضان سنة ٤١٤ هـ
(ديسمبر سنة ١٠٢٣ م) .

ثم خرج من المسجد إلى القصر وقد اصطحب معه
ابنى عمه سليمان والعراقى، فاعتقلهما لديه.
ويصف لنا ابن حيان هذا الحفل
الشهير، وكان من شهوده، بإفاضة ممتعة (٣) .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٤ و١٣٥؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٣.
(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥ و١٤٤؛ والمراكشى ص ٢٩.
(٣) راجع الذخيرة، القسم الأول المجلد الأول ص ٣٥ و٣٦.
ويقول لنا ابن حيان
إن الحفل عقد في الرابع من رمضان، والظاهر أن هناك تحريفاً، لأنه يقول
لنا بعد ذلك عند مقتل =



واتخذ عبد الرحمن لقب المستظهر بالله، وكان يوم جلوسه فتى في الثالثة
والعشرين
من عمره، وندب للوزارة بعض القدامى من وزراء بني أمية السابقين مثل أحمد
ابن برد، وجماعة من الفتيان الطامحين الأغمار، مثل أبي عامر بن شهيد،
وأبى محمد
ابن حزم (وهو الفيلسوف المستقبل) ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم، وقد
كانا على قول ابن حيان " من أكمل فتيان الزمان فهماً ومعرفة، ونفاذاً في
العلوم
الرفيعة ".
فقدمهم على سائر رجاله، وأولاهم منتهى النفوذ والثقة؛ ويورد لنا
ابن حيان ثبت المناصب الوزارية والرئيسية يومئذ على النحو الآتى:
خدمة المدينتين، الزهراء والزاهرة، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة، وخدمة
الحشم، وخدمة القطع بالناض والطعام، وخدمة مواريث الخاصة، وخدمة

الطراز.

وخدمة المبانى، وخدمة الأسلحة وما يجرى مجراها، وخدمة الخزانة القبض والنفقة.

وخدمة الوثائق ورفع كتب المظالم، وخدمة خزانة الطب والحكمة.

وخدمة الأنزال والنزائل، وخدمة أحكام السوق.

ثم يعلق ابن حيان على ذلك بقوله: " وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل، ومراتب نصبت لغير طائل، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل، فلم يَحْلوا منها بنائل، ولا قبضوا منها مرتزقاً، ولا نالوا بها مرتفقاً، وغرهم بارق الطمع وسط بلد محصور، وعمل معصوب، وخراب متسول، ومع سلطان فقير، لا يقع بيده درهم إلا صبابة، مستغل جوف المدينة، أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها، يقيم منها رمقه، ويفرق جملته على من تكنفه من جنده ودائرته، ويتطرق إلى ما يقبح من ظلم رعيته، فلم يلبث الأمر أن تفرَّى به فسُفك دمه، وانحسم الأمل من دولته " (١) .

تلك هى الصورة القوية التي يقدمها إلينا المؤرخ الأندلسي المعاصر عن بلاط المستظهر، وظروف ولايته.

والواقع أن هذا الخليفة الفتى كان يتمتع بخلال باهرة، وكان ممكناً أن يكون معقد الآمال، لو أتيح له من السلطان وحرية التصرف ما طلب، ولكن الظروف عاجلته وغلبته على أمره؛ وكان قد بدأ ولايته بأن أرسل إلى المدن والثغور يدعو إلى تأييد بيعته، فلم تثمر دعوته أو لم يتسع

---

= المستظهر إن خلافته كانت سبعة وأربعين يوماً، ومقتله في الثالث من ذى القعدة.

وهو ما يرد

ئاريخ البيعة إلى السادس عشر من رمضان (راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥) .
(١) نقله في الذخيرة.
القسم الأول المجلد الأول ص ٣٦ و٣٧.

(٦٦٥/١)

الوقت لذلك، وقبض على عدد من الوزراء والأكابر وصادر أموالهم، وكان يرجو بإزالتهم تمكين نفوذه وسلطانه، ثم قبض على عدد من أبناء عمه المروانية، واعتقلهم بالقصر مع ابنى سليمان والعراقى، وكانت هذه البوادر المكدرة، تقضى على هيبته بسرعة، وتذكى السخط عليه في صدور الخاصة والعامة معاً.
ثم وقع حادث كان نذير الاضطرام.
وذلك أنه استقبل عدة من الفرسان البربر
فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر، فغضب لذلك الكبراء، وأوغروا صدور العامة قائلين لهم: إننا حاربنا البربر وقهرناهم، وهذا الرجل يسعى في ردهم إلينا، وتمكينهم من أمرنا.
فهاجت العامة، وزحفت جموعهم على القصر، واقتحموه
على غرة، وقتلوا البربر حيث وجدوا، وفتحوا المطبق وأخرجوا من كان به من المعتقلين، ووثبوا إلى جناح الحرم، وأدرك عبد الرحمن المستظهر أنه هالك، فاختبأ
في أتون الحمام، واعتدى الثوار على آل عبد الرحمن وحريمه، وسبوا أكثرهن، وكانت مناظر شنيعة مروعة (١) .
ولما اختفى المستظهر بالله، ظهر ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله
ابن الناصر، وكان مختفياً خفية البطش به، فأخذ إلى القصر، وأجلس في مجلس

الملك، وبويع بالخلافة في اليوم الثالث من ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ (١٧ يناير
١٠٢٤ م) ، وتلقب بالمستكفى بالله.

وبحث عن المستظهر حتى عثر به في أتون
الحمام في حالة مزرية، فأخذ إلى حضرة الخليفة الجديد، وأعدم أمامه، وكانت إمارته مذ ولى حتى قتل سبعة وأربعين يوماً، لم يحدث فيها حدث هام، ولم يجاوز
سلطانه مدينة قرطبة.

وكان عبد الرحمن المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية الرفيعة، وأورد له طائفة من القصائد الجيدة (٢) .

ومن شعره من قصيدة طويلة قالها في ذكر ابنة عمه أم الحكم بنت المستعين أيام خطبته لها:

حمامة بنت العبشمين رفرفت..

.

فطرت إليها من سراتهم صقرا

تقل الثريا أن تكون لها يدا..

.

ويرجو الصباح أن يكون لها نحرا

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٨ و ٣٩، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٤٨ و ١٣٩.

(٢) راجع الذخيرة.
القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠ - ٤٣.

وإنى لطعان إذا الخيل أقبلت..

.

جوانبها حتى ترى جونها شقرا

ومكرم ضيفى حين ينزل ساحتى..

.

وجاعل وفدى عند سائله وفرا

وكان المستكفى يوم ولادته في الثانية والأربعين من عمره إذ كان مولده فى سنة ٣٦٦ هـ، وأمه أم ولد تسمى حوراء.

وكان عاطلا من الخلال الحسنة، ميالا إلى البطالة، شغوفاً بالمجون والشراب، عاجزاً سيىء الرأى، وقد شبهه

ابن حزم، في سوء خلاله، وفي مجونه وفسقه، وفي خضوعه لغانية خبيثة، بسميه المستكفى العباسى، وقد كان كلاهما في نفس السن، وحكم كل منهما نحو سنة وخمسة أشهر (١) .

ولم تقع خلال ولاية المستكفى القصيرة، أحداث ذات شأن، وكان مما عمله أن أمر بخنق ابن عمه محمد العراقى، ونعاه للناس، وندب لولاية عهده ابن عمه

سليمان بن هشام بن عبيد الله بن الناصر.

وفى أيامه هدمت القصور الناصرية، وخربت قصور المنصور بالزاهرة، فسادتها الوحشة والخراب.

واضطهد المستكفى معظم الرجال البارزين من الساسة القدماء، ومن المفكرين، وغادر كثير منهم قرطبة، ولجأوا إلى بلاط يحيى بن حمود بمالقة، وكان من

هؤلاء الوزير السابق والشاعر اللامع أبو عامر بن شهيد؛ ووصف هؤلاء ليحيى

ابن حمود سوء الأحوال في قرطبة.

ومع أن يحيى لم يكن متحمساً لفكرة السير

إلى قرطبة، فإن الأنباء ترامت إلى القرطبيين بأنه يتخذ أهباته لاسترداد
عاصمة
الخلافة؛ وعلى أى حال فقد سئم القرطبيون ولاية المستكفى العاطلة الماجنة
الفاسدة
ونادوا بخلعه.
فدخل عليه الوزراء والكبراء، وأغلظوا له في القول، وطلبوا
إليه التخلى، فاستعطفهم بلين القول، ثم غادر قرطبة في نفس اليوم متنكراً فى
زى امرأة.
وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ
(مايو سنة ١٠٢٥ م) .
وسار المستكفى صوب الثغر في نفر من صحبه.
ووصل
إلى إقليج من أحواز قرطبة، وهنالك اغتاله بعض مرافقيه، لاعتقادهم أنه
يحمل
مالا.
وكان مقتله لسبعة عشر يوماً فقط من خلعه (٢) .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤١، وأعمال الأعلام ص ١٣٦.
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٢ و١٤٣؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٦.
ومما هو جدير بالذكر أن محمد بن عبد الرحمن المستكفى هو والد الأديبة
الشهيرة والشاعرة الأندلسية
الكبيرة ولادة التي اشتهرت بروعة أدبها وشعرها، والتي أوحت إلى الوزير
الشاعر ابن زيدون =

ومضت بضعة أشهر؛ والحكومة في قرطبة فوضى لا ضابط لها.
وأخيراً
قرر يحيى بن حمود أن يسير إلى العاصمة، فقصد إليها في قواته ودخل
القصر فى
الخامس عشر من رمضان من نفس العام (٩ نوفمبر سنة ١٠٢٥ م) ، وبقى
بها إلى
نهاية هذا العام، ثم غادرها في أوائل المحرم سنة ٤١٧ هـ قاصداً إلى مالقة،
وترك بها
وزيريه أحمد بن موسى، ودوناس بن أبي روح، يدبران شئونها، ومعهما حامية
صغيرة من البربر، بيد أنه لم يمض زهاء شهرين حتى تجهمت الحوادث كرة
أخرى.
ذلك أن خيران وزهير الفتيين العامريين، قصدا إلى قرطبة، وأوعزا إلى
القرطبيين بالتخلص منن البربر، فثار القرطبيون فجأة، وفتكوا بالحامية
البربرية، وكانت زهاء ألف رجل، وفر أحمد بن موسى وزميله دوناس إلى
مالقة، وكان
ذلك في العشرين من ربيع الأول من سنة ٤١٧ هـ.
وأجمع القرطبيون على أثر ذلك على رد الأمر لبنى أمية، وكان عميدهم في
ذلك
الوزير أبو الحزم جَهْوَر بن محمد بن جهور، واتفقوا على مبايعة هشام بن
محمد
ابن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر، أخى عبد الرحمن المرتضى.
وكان عند مقتل
أخيه في سنة ٤٠٩ هـ، قد فر من قرطبة في نفر من صحبه، ولجأ إلى مدينة
ألبونت
في شمال شرقى الأندلس، واستظل من ذلك الحين بحماية واليها عبد الله بن
قاسم

الفهرى.
وبعث إليه أهل قرطبة بالبيعة، وهو بمقره بحصن ألبونت، فتلقاها
في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ، وتلقب بالمعتد بالله، وبقى بمقره بألبونت
مدة
سنتين وسبعة أشهر، وهو يخطب له بقرطبة، ثم قدم إليها في شهر ذى
الحجة
سنة ٤٢٠ هـ (١) فجددت له البيعة، واستمر في كرسى الخلافة عامين
آخرين.
وسر
القرطبيون لمقدمه في البداية، ولكنه ألقى زمام الأمور إلى رجل من الموالى
يسمى حكم بن سعيد القزاز، فاستأثر بكل سلطة، وأطلقت يده في الأموال،
وكان أخرق عسوفاً، فجمع حوله نفراً من السفهاء العاطلين عن كل إخلاص
وحزم، وأطلق العنان لغوايته وأهوائه، فاضطربت الشئون وامتعض العقلاء،

---

= المتيم بها طائفة من غرر قصائده.
وقد لبثت ولادة عصراً تخلب بجمالها وأدبها وشعرها ألباب المجتمع
القرطبى الرفيع.
وتوفيت في سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) (راجع الصلة لابن بشكوال رقم ١٥٤٠؛
وقلائد العقيان ص ٧٠، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤٧ - ٤٤٩) .
(١) جذوة المقتبس ص ٢٦ و٢٧.

(٦٦٨/١)

وزعماء البيوتات الكبيرة، وشعروا بما نالهم على يده من ضروب الإهانة
والنيل، وأحاط هذا الوزير المستبد الماجن الخليفة برجاله، وأبعد عنه الصحب
وذوى
الحجى، ودفعه بالرغم من شيخوخته، إلى تيار الشراب والمجون، حتى ساءت

الأمور إلى الذروة، وفقدت الخلافة والحكومة، كل عطف هيبة، وتهامس الناس في وجوب إزالة هذه الحالة، والتخلص من أوزارها وعواقبها.
والتفت
جماعة الناقمين حول فتى من أبناء عمومة هشام، هو أمية بن عبد الرحمن العراقى، من أحفاد الناصر، وكان فتى شديد التهور والجهالة، ولكن بعيد الأطماع؛ وفى
ذات يوم تربصت تلك الجماعة الناقمة بالوزير حكم بن سعيد وفتكت به، وطافت برأسه في المدينة، وتركوا جثته في العراء (ذو القعدة سنة ٤٢٢ هـ - نوفمبر سنة ١٠٣١ م) .
ثم سار أمية في جموعه إلى القصر، والخليفة هشام عاكف
على شرابه ونسائه، فنهبت العامة بعض أجنحة القصر، ولولا أن زجرهم الوزير
الشيخ ابن جهور ونصحهم بالكف عنه، لما أبقوا على شيء.
وخشى هشام المعتد
على نفسه، فبادر إلى الخروج من القصر مع ولده ونسائه، وهو يناشد الجماعة
أن يحقنوا دمه، ولجأ إلى ساباط الجامع واجتمع رأى الناس جميعاً كباراً وصغاراً
على خلعه، والتخلص جملة من بني أمية، وإبطال رسم الخلافة، وعلى نفى بني أمية
وإجلائهم جميعاً عن المدينة، وكان رائد الجماعة وناصحهم في ذلك أبو الحزم ابن جهور، وكان هذا الوزير النابه يستأثر نظراً لماضيه التالد، وأسرته
العريقة، ورأيه الناضج، بمحبة الشعب وثقته وتأييده، وسنرى فيما بعد أى دور خطير
يلعبه ابن جهور في مصاير قرطبة.
وانتهى القوم إلى خلع هشام المعتد، وإبعاده وأهله إلى أحد الحصون القريبة،

ثم غادره بعد أيام قلائل، وسار إلى الثغر، حيث التجأ إلى سليمان بن هود صاحب
لاردة من أعمال الثغر الأعلى، وقضى هنالك بقية أيامه حتى توفى في سنة ٤٢٨ هـ
دون عقب؛ وأبعد أمية بن عبد الرحمن عن القصر، وكان يهجس بتولى كرسى
الخلافة مكان المعتد، فلما رأى وعيد القوم، اختفى وغادر قرطبة إلى حيث لا يعلم
أحد.
ونودى في سائر أحياء قرطبة وأرباضها بأن لا يبقى بها أحد من بني أمية،
ولا يأويهم أحد، وتولى ابن جهور تنفيذ هذا الأمر بمنتهى الحزم، حتى أجلاهم
عن المدينة ومحا رسومهم (١) .

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٥ - ١٥٢؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٨ - ١٤٠.

*(٦٦٩/١)*

وبخلع هشام المعتد، تنتهى رسوم الدعوة الأموية بصورة نهائية، وينقطع
ذكرها إلى الأبد من منابر الأندلس والمغرب الأقصى.
***
ولنعد الآن قليلا إلى الوراء لنتتبع مصاير دولة بني حمود في جنوبى
الأندلس، وقد رأينا أن يحيى بن على بن حمود الملقب بيحيى المعتلى، بعد أن خلع عمه القاسم
من الخلافة، وأرغم على مغادرة قرطبة في سنة ٤١٤ هـ، سار إلى بلدة
شريش، فسار يحيى في أثره، وما زال به حتى هزمه وقبض عليه، ثم قتل في

سجنه فيما بعد، واستولى يحيى على سائر ما كان بيده من البلاد والثغور،
وانفرد برياسة البربر
في الأندلس.
ثم عاد فدخل قرطبة مرة أخرى على أثر خلع المستكفى في سنة ٤١٦ هـ.
ولكنه غادرها بعد ذلك إلى مالقة، التي غدت من ذلك الحين معقله وعاصمة
ملكه، في أوائل سنة ٤١٧ هـ، واستمر بها مدى حين.
وكان يحيى المعتلى يخشى بالأخص على مملكته الفتية، من مطامع القاضى
محمد بن إسماعيل بن عباد، الذى استقل برياسة إشبيلية، حسبما تقدم.
فسار
بقواته إلى قرمونة حصن إشبيلية من الشمال الشرقى، وانتزعها من يد حاكمها
محمد
ابن عبد الله البرزالى كبير بني برزال، واستقر بها يرقب الفرصة للوثوب بابن
عباد
وتحطيمه، فسار البرزالى إلى ابن عباد وتحالف معه على قتال يحيى.
وكان يحيى قد
استسلم إلى لهوه وملاذه، وعكف على معاقرة الشراب والمجون المستمر،
وجنوده
تغير على إشبيلية من آن لآخر.
ورأى القاضى ابن عباد أن يدحض دعوى المعتلى فى
الخلافة أولا، فأظهر في أواخر سنة ٤٢٦ هـ شخصاً زعم أنه هشام المؤيد،
وأنه
كان مختفياً ولم يمت، وبايعه بالخلافة، ودعا الناس إلى الدخول في طاعته.
ثم
سير ابن عباد إلى قرمونة بعض قواته مع ابنه إسماعيل، ومعها طائفة من
قوات
البربر المتحالفة معه، فطوقت المدينة ليلا، وكمن معظمها في أماكن مستورة،

ووقف يحيى على الخبر فخرج في قواته وهو ثمل، واشتبك مع المهاجمين في معركة
حامية وكاد يوقع بهم الهزيمة، لولا أن ظهرت قوات ابن عباد من كمينها، وأطبقت
عليه، فانهزم أصحابه، وقتل في المعمعة واحتز رأسه، وحمل سريعاً إلى ابن عباد
في إشبيلية (المحرم سنة ٤٢٧ هـ - نوفمبر سنة ١٠٣٥ م) ، واستمر فتك جند
ابن عباد بالبربر أمام أسوار قرمونة، ولم يقف إلا حينما تدخل محمد بن عبد الله

(٦٧٠/١)

البرزالى، وقد ساءه هذا الفتك الذريع بقومه، فكف ابن عباد مرغماً، ودخل
البرزالى قرمونة، واستولى على ما فيها من مال ومتاع، وسبى نساء يحيى
وجواريه (١) .
ولما قتل يحيى المعتلى على هذا النحو، سارع وزيراه أبو الفوز نجا الصقلبى،
وأبو جعفر أحمد بن موسى بن بقنّة البربرى، باستدعاء أخيه إدريس لتولى الملك
مكانه، وكان والياً لسبتة.
وكان ليحيى ولدان حدثان هما إدريس وحسن؛
وفى رواية أنه كان قد أوصى بولاية عهده لولده حسن، ولكن حداثة سنه حالت
دون ولايته.
وهكذا بويع إدريس بالخلافة في مالقة، قاعدة المملكة الحمودية
وتلقب بالمتأيد بالله، وعين ابن أخيه حسناً لحكم سبتة وأعمالها، وندب لمعاونته

الحاجب نجا، واعترفت بولايته رندة والجزيرة، وكان من حلفائه المعترفين ببيعته الفتى زهير العامرى صاحب ألمرية، وحبوس بن ماكسن زعيم صنهاجة وصاحب غرناطة؛ وقد سارا في قواتهما لمعاونة إدريس على محاربة ابن عباد، وانضم إليهما البرزالى صاحب قرمونة.

وفى شهر ذى القعدة سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م)

سارت القوات المتحالفة إلى أحواز إشبيلية وعاثت فيها، واحتلوا قرية طشّانة، ثم احتلوا "القلعة"، الواقعة شرقى إشبيلية، وأحرقوا طَريانة الواقعة في جنوبها، ثم احتلوا حصن القصر، وانصرف زهير بعد ذلك إلى ألمرية.

وفى العام التالى توفى حبوس بن ماكسن، وخلفه في حكم غرناطة ولده باديس، وبعث باديس وأخوه بُلُقِّين إلى زهير يطلبان تجديد التحالف الذى كان بينه وبين

أبيهما، ولكن زهيراً سار في قواته إلى غرناطة، والتقى بباديس وأخيه في قرية من

أحواز غرناطة تسمى "ألفنت" (٢) .

والظاهر أنه وقع بين الفريقين نوع من سوء التفاهم، واعتبر باديس أن زهيراً توغل في أرضه بقواته أكثر مما يجب؛ أو أ، باديس

وأخاه بلقين، قد وضعا خطة للغدر بزهير.

وعلى أى حال فقد عمل باديس على قطع

طريق الرجعة على زهير، ووضع له الكمائن في المضايق.

ووقع القتال بين زهير

والبربر، فهزم زهير وقتل، ولم يعثر على جثته، واحتوى باديس على معسكره، واستولى على غنائم هائلة من الخيل والسلاح والمتاع، وقبض باديس على كاتب

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٧.

(٢) وهى بالإسبانية Daifontes، وهى تقع على قيد نحو خمسة كيلومترات من شمالى غرناطة.

*(٦٧١/١)*

زهير أحمد بن عباس ثم قتله بعد ذلك.
وحدثت هذه الواقعة في أواخر سنة ٤٢٩ هـ
(١٠٣٨ م) (١) .
وكان القاضى ابن عباد، المتغلب على إشبيلية، بعد قتل منافسه المعتلى قد خلا له الجو، واشتد بأسه، وأخذ يطمح إلى التغلب على ما يجاور إشبيلية من المدن والمقاطعات.
فبدأ بأن سير ولده إسماعيل في جيش زحف على قرمونة
حصن إشبيلية، من الشمال الشرقى، وكان بها محمد بن عبد الله البرزالى، فاستولى عليها، واستولى كذلك على إستجة الواقعة في شرقها.
فاستغاث البرزالى
بإدريس المتأيد، وباديس أمير غرناطة، وهرعت الجند البربر من مالقة وغرناطة
استجابة لدعوته.
ونشبت بين البربر وبين جند ابن عباد الأندلسيين وقائع عديدة، انتهت بهزيمة الأندلسيين ومقتل إسماعيل بن عباد، وذلك في أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م) (٢) .
ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى توفى إدريس المتأيد في قلعة ببشتر، وكان قد نقل إليها مريضاً من مالقة.
وكانت وفاته في السادس عشر من محرم
سنة ٤٣١ هـ.
وعلى أثر وفاته بويع ولده يحيى بالخلافة في مالقة، وذلك بترتيب وزيره أبى جعفر ابن بقنّة وسعيه.

وتلقب يحيى بالقاسم بأمر الله، وكان فتى حَدَثاً قليل
الخبرة والحزم، ولكن ابن بقنَّة سارع برفعه إلى العرش استبقاء لسلطانه الذى
تأثل في ظل أبيه.

بيد أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة.

ذلك أن نجا
الحاجب الصقلبى، وكان يومئذ بسبتة، لم يرقه هذا الاختيار، فبادر بالدعوة
إلى حسن بن يحيى المعتلى (ابن أخى إدريس) .

وكان إدريس قد اختاره لولاية
عهده، وكان وقت وفاة عمه حاكماً لسبتة والثغور المغربية، فبويع حسن
بالخلافة، وجهز الحاجب جيشاً، وسار بقواته مع حسن في أسطول يمم شطر
مالقة، ونزلت
القوات إلى البر، وحاصرت مالقة من البر والبحر، ولم تمض أسابيع قلائل
حتى
اضطر يحيى إلى التسليم والتنازل عن الخلافة، ثم سار إلى قمارش، وأقام
بها.

---

(١) راجع في تفصيل هذه الحوادث: البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠ و١٩١
و٢٩٣، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ج ١
ص ٢٦٩ و٥٢٧ و٥٢٨.

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩.



وبويع حسن بن يحيى بالخلافة في مالقة في جمادى الثانية سنة ٤٣١
هـ، وتلقب
بالمستنصر بالله، واعترفت بطاعته غرناطة وغيرها، وعهد بتدبير الأمور إلى
الوزير أبي جعفر بن بقنة، وعهد إلى الحاجب نجا بحكم الثغور المغربية.

وكان
حسن أميراً حازماً، قوى النفس، فنظم الإدارة، واستكثر من الجند، وجبى
الأموال.
واستراب بوزيره أبي جعفر، وكان يسر له نصرته ليحيى، فدبر
مقتله، وذلك في يوم عيد الفطر سنة ٤٣٣ هـ (١) ، ثم أمر بقتل يحيى
القاسم، فقتل في ربيع الثاني سنة ٤٣٤ هـ.
وكانت أخته زوجة للمستنصر، فما لبثت أن
دبرت مقتله انتقاماً لأخيها، وهلك حسن بالسم في جمادى الأولى سنة ٤٣٤
هـ
(ديسمبر سنة ١٠٤٢ م) .
والروايات بعد ذلك متضاربة، فمنها ما يقول بأن الحسن لم يعقب ذرية (٢)
ومنها ما يقول إنه ترك ولداً صغيراً بسبتة.
وعلى أى فقد نهض الحاجب نجا على
أثر وفاة المستنصر، وعبر البحر في قواته من سبتة إلى الجزيرة؛ وهنا يقال
إنه
نهض ليؤيد دعوة ولد الخليفة المتوفى، ويقال من جهة أخرى إنه نهض
ليستخلص
تراث الحموديين لنفسه،، بعد أن اضطربت شئونهم.
وسار نجا إلى الجزيرة وفيها
ابنا القاسم بن حمود، فخرجت إليه أمهما سبيعة، وعنفته على مسلكه وعدم
ولائه
لسادته، فاستحى منها، وغادر الجزيرة ميمماً شطر مالقة.
وكان معظم جنده
من قبيلة برغواطة البربرية، أخوال حسن بن يحيى، فاسترابوا منه ومن
مقاصده
وائتمروا به، وقتلوه في الطريق.

ثم ساروا إلى مالقة، وكان حسن بن يحيى أيام

خلافته قد قبض على أخيه إدريس، وزجه إلى السجن ليأمن منافسته.

فأخرجه

الجند من سجنه وبويع بالخلاقة.

وتلقب بالعالى، وذلك في جمادى الثانية سنة ٤٣٤ هـ

(يناير سنة ١٠٤٣ م) ، وأطاعته البربر في غرناطة وقرمونة وجيان وغيرها.

وهو الممدوح بالقصيدة المشهورة، التي نظمها عبد الرحمن بن مُقانا القبذاقى

الأشبونى في مديحه ومطلعها:

البرق لائح من أندرين..

.

ذرفت عيناك بالماء المعين

لعبت أسيافه عارية..

.

كمخاريق بأيدى اللاعبين

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٠؛ والمراكشى ص ٣٦.

(٢) المراكشى ص ٣٧.

*(٦٧٣/١)*

ولصوت الرعد زجر وحنين..

.

وبقلبى زفرات وأنين

وأناجى في الدجى عاذلتى..

.

وبك لا أسمع قول العاذلين (١)

ومنها:

عيرتنى بمقام وضنى..

.

إن هذين لدين العاشقين

قد بدا لى وضح الصبح المبين..

.

فاسقنيها قبل تكبير الأذين

إسقنيها مرة مشمولة..

.

لبثت في دنها بضع سنين

مع فتيان كرام نجب..

.

يتهادون رياحين المجون (١)

وكان العالى أميراً رقيق الخلال، جواداً كثير الصلات، أديباً ينظم الشعر، ومع ذلك فقد كان يجمع حوله بطانة سيئة، وصحاباً من أراذل القوم.

وكان ضعيف

الرأى، متهاوناً في شئون الحكم، فسرى التفكك إلى سلطانه، وفي أواخر سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) ، ثار عليه ابن عمه محمد بن إدريس بن على بن حمود، فخرج إدريس في صحبه من مالقة إلى حصن ببشتر، وعاونه باديس

بن حبوس

أمير غرناطة بجنده ليسترد سلطانه.

فغزا مالقة ولكنه لم يفز بطائل، فارتد مع

أهله وصحبه إلى سبتة.

وبويع محمد بن إدريس في شعبان سنة ٤٣٨ هـ.

وتلقب بالمهدى، وتوطد

أمره بمالقة؛ ولكن بعض النواحى نكلت عن تأييده، ولاسيما غرناطة؛ وكان أميرها باديس من أشد معارضيه، وكان يشعر أنه أحق من غيره بزعامة

البربر؛
وأبدى المهدى عزماً في تنظيم الحكومة وإصلاح الأمور، ولكنه كان طاغية
سفاكاً للدماء يسرف في قتل مواطنيه البربر، حتى كرهه معظمهم، واجتمع
رأى معارضيه من الزعماء وعلى رأسهم باديس على وجوب خلعه، والاعتراف
بطاعة محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء، واتفق رأى
البعض
الآخر ومنهم أبو النور بن أبي قرة اليفرنى صاحب رندة، على الاعتراف
بطاعة
إدريس بن يحيى العالى.
وهكذا ادعى الخلافة ثلاثة أمراء من بني حمود في وقت
واحد، وفي مناطق صغيرة متقاربة، وهذا إلى الخليفة المزعوم الذى أقامه
ابن عباد صاحب إشبيلية باسم هشام المؤيد؛ ويستعرض الفيلسوف ابن حزم
هذه
الحالة وهو معاصر لها في مرارة وتهكم، ويصفها بأنها " فضيحة لم يقع في
العالم

---

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها في نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٢ و٢٠٣.



إلى يومنا مثلها: أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها، كلهم يتسمى
بأمير
المؤمنين، ويخطب لهم في زمن واحد " (١) .
واستمر محمد بن إدريس المهدى في كرسى الخلافة زهاء ستة أعوام.
ولما لم ير خصومه وسيلة للتغلب عليه، لجأوا إلى الغيلة، فدسوا عليه من
قتله
بالسم، وذلك في أواخر سنة ٤٤٤ هـ (أوائل سنة ١٠٥٣ م) .

فبويع من بعده ولد أخيه وهو إدريس بن يحيى بن إدريس بن على بن حمود، وتلقب بالسامى، وأقام حيناً بمالقة، ثم أصابته فيما يظهر لوثة، فغادر مالقة، وهام على وجهه في صفة تاجر، وغادر البحر إلى شاطىء العدوة، فأخذ إلى سبتة، حيث قتله حاكمها سواجات البرغواطى (٢) .

وكان إدريس بن يحيى العالى، قد لجأ على أثر خلعه إلى سبتة، فأقام بها في كنف سواجات، وأقام كذلك حيناً في رندة، في كنف حاكمها أبي نور بن أبى قرة، فلما هلك السامى، سار إلى مالقة واستقبله أهلها بحماسة، ودعى له بالخلافة مرة أخرى، واستمر في الحكم حتى توفى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م)
بعد
أن عهد بالخلافة لابنه محمد.

فخلفه ولده محمد، وتلقب بالمستعلى، وأقرت بيعته ألمرية ورندة، ولكن
معظم الزعماء البربر، وفي مقدمتهم باديس صاحب غرناطة نكلوا عن
طاعته.

وفى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، سار باديس في قواته إلى مالقة، واستولى
عليها
وضمها إلى إمارته، وغادرها المستعلى، وسار إلى ألمرية، ثم عبر منها البحر
إلى مليلة فقبله أهلها حاكماً عليهم، واستمر بها حتى توفى سنة ٤٥٦ هـ
(١٠٦٤ م)

والمستعلى هوآخر من حكم في مالقة من أمراء بني حمود.

وفى أثناء ذلك كان رأى الزعماء البربر، وفي مقدمتهم باديس صاحب
غرناطة
وإسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالى صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح
صاحب
موررو، وعبدون بن خزرون صاحب أركش، قد اجتمع على البيعة لبنى
محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء.

وكان يحيى المعتلى حينما خلع

(١) ابن حزم في رسالته " نقط العروس " ص ٨٣,
وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٧
و ٢٤٤؛ وأعمال الأعلام ص ١٤١.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٧؛ وأعمال الأعلام ص ١٤٢.

(٦٧٥/١)

عمه القاسم بن حمود، قد قبض على ولديه محمد وحسن، واعتقلهما بالجزيرة، فلما توفى يحيى، أفرج عنهما.

وتولى محمد حكم الجزيرة، وذلك في الوقت
الذى قامت فيه دولة المهدى في مالقة.
ثم حاول محمد أن ينتزع الخلافة لنفسه، فسار في أنصاره إلى مالقة يحاول انتزاعها من يد المهدى، ولكنه أخفق في محاولته، فارتد إلى الجزيرة، وتوفى بها في سنة ٤٤٠ هـ.
فخلفه محمد ولده وحكم الجزيرة فترة قصيرة؛ ثم خلفه ولده القاسم، وتلقب بالواثق، وكانت خلافته هزيلة ضيقة الرقعة والموارد، ولم يتح لها من البقاء سوى فترة يسيرة.
ذلك أن ابن عباد صاحب إشبيلية اعتزم أن يقضى على
خلافة الحموديين بصفة نهائية، فبعث قواته إلى الجزيرة الخضراء فطوقتها من البر
والبحر واضطر القاسم سراعاً إلى التسليم، وغادر الجزيرة بالأمان مع أهله وصحبه
(٤٤٦ هـ - ١٠٥٥ م) وسار إلى ألمرية حيث التجأ إلى حماية صاحبها المعتصم
ابن صمادح، ولبث لها حتى توفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) .
وفى نفس الوقت كان باديس أمير غرناطة قد استولى على مالقة من يد

المستعلى
(٤٤٩ هـ) ، وانهار بها سلطان الحموديين، وهكذا انقرضت دولة بني حمود
من
مالقة والجزيرة معاً، وانتهى بذلك سلطانهم بالأندلس بعد أن حكموا المثلث
الإسباني الجنوبى، وثغور العدوة الشمالية، زهاء نصف قرن (١) .
* * *

وهكذا انحدرت إسبانيا المسلمة، في النصف الأول من القرن الخامس
الهجرى (الحادى عشر الميلادى) عقب انهيار دعائم الخلافة الأموية والدولة
العامرية، إلى معترك مروع من التمزق والفوضى، واستحالت الأندلس بعد أن
كانت كتلة موحدة، تمتد من ضفاف دويرة شمالا إلى مضيق جبل طارق
جنوباً، ومن شاطىء البحر المتوسط منذ طركونة شرقاً حتى شاطىء المحيط
الأطلنطى غرباً، إلى أشلاء ممزقة، ورقاع متناثرة، وولايات ومدن متباعدة
متخاصمة، يسيطر
على كل منها حاكم سابق استطاع أن يحافظ على سلطته المحلية خلال
الانهيار،

---

(١) راجع في تفاصيل الحوادث المتقدمة، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٨
و٢٩١ و٢٩٢؛
وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٤ و١٥٥؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٩٦ و٩٧؛
والمراكشى ص ٣٧ - ٣٩، وأعمال الأعلام ص ١٤٢ و١٤٣.
وراجع بحثاً بالإسبانية للأستاذ المستشرق الغرناطى سيكودى لوثينا
عن دولة بني حمود عنوانه: Los Hammudles, Senores de
.Malaga y Algeciras, p
٤٧ - ٥٣

أو متغلب من الفتيان الصقالبة أو القادة ذوى السلطان السابق، أو زعيم أسرة
محلى من
ذوى الجاه والعصبية.
وسيطر البربر من جانبهم على أراضي المثلث الإسبانى الجنوبى، وما كان
منه بيد الدولة الحمودية، وأنشأوا هنالك إمارات عدة، ما لبثت
أن نزلت إلى ميدان الصراع العام، الذى شمل هذه المنطقة.
وهكذا قامت
على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى دول عديدة هى دول " الطوائف "، وذلك
منذ أوائل الربع الأول من القرن الخامس، حتى الفتح المرابطي، زهاء سبعين
عاماً، قضتها جميعاً في سلسلة لا نهاية لها من المنازعات الصغيرة،
والخصومات
والحروب الأهلية الانتحارية، وكادت بتنابذها وتفرقها ومنافساتها، تمهد
لسقوط الأندلس النهائى.
وقد كان من رحمة القدر، أن اسبانيا النصرانية، كانت في نفس الوقت الذى
انتثرت فيه وحدة الأندلس على هذا النحو
الخطر، تعانى من انقسام الكلمة، وتعصف بها ريح الخلاف والتفرق، فلم تتح
لها فرصة للوثوب بالأندلس الممزقة، إلى أن كان الوقت الذى بلغ فيه
تنابذ الطوائف ذروته، واشتد ساعد اسبانيا النصرانية كرة أخرى، واستطاعت
أن تضرب ضربتها القوية بانتزاع طليطلة، أول قاعدة إسلامية كبيرة
(٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م) ؛ وعندئذ تطورت الحوادث بسرعة واتجهت الأندلس
الجريحة، في توجسها وانزعاجها، إلى إخوانها المسلمين فيما وراء البحر،
بعدوة
المغرب، تستدعيهم لنصرتها.
وكان أن تدفقت الجيوش المرابطية من المغرب على
شبه الجزيرة الإسبانية، وكان أن أنقذت دولة الإسلام في الأندلس.

(٦٧٧/١)

الكتابُ الخامس

النظم الإداريّة والحركة الفكريّة

في عصْرى الإمارة والخلافة

(٦٧٩/١)

الفصل الأول

نظم الحكم

والأوضاع السياسية والإدارية والعسكرية والاقتصادية

في عصرى الإمارة والخلافة

- ١ -

تعاقبت خلال هذه الفترة الطويلة التي سردناها من تاريخ الأندلس، على الأمة الأندلسية، أنواع من نظم الحكم، ومن الأوضاع السياسية والإدارية، كانت تسير طوراً بعد طور مع مختلف الحوادث، والحروب والانقلابات المتوالية.

وبالرغم من أنه لم يفتنا أن نشير في مختلف المواطن إلى تلك التغييرات المتوالية، التي شهدتها الأمة الأندلسية، فإنه يجدر بنا أن نتحدث عنها حديثاً خاصاً،

وأن نقدم منها إلى القارىء صورة مجتمعة متماسكة.

كانت الأندلس عقب الفتح ولاية تتبع إفريقية، ويقوم باختيار حاكمها والى إفريقية.

وقد أستمر هذا الوضع نحو ثمانية أعوام فقط، تعاقب فيها على ولاية الأندلس ثلاثة من الولاة هم عبد العزيز بن موسى، وأيوب بن حبيب اللخمى، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفى.

غير أنه كان من الواضح أن هذا النظام لم يكن

يلائم قطراً ضخماً كالقطر الأندلسي، وخصوصاً بعدما بدأت الغزوات الإسلامية
لغاليس (جنوب فرنسا) ، وبدأت الأندلس تخوض الصراع مع مملكة الفرنج فيما وراء البرنيه، ومع نصارى الشمال.
ومن ثم فقد رأت خلافة دمشق أن تكون
الأندلس ولاية مستقلة تتبع الخلافة مباشرة، ويقوم الخليفة بتعيين واليها. وكان
الخليفة عمر بن عبد العزيز هو الذى أصدر هذا القرار شعوراً منه بأهمية الأندلس
السياسية والعسكرية والاجتماعية.
وكان أول ولاة الأندلس من قبل الخلافة، هو السمح بن مالك الخولانى،
وقد ندبه عمر بن عبد العزيز لولايتها في سنة مائة من الهجرة (٧١٩ م) . بيد أنه

*(٦٨٠/١)*

لما توفى عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ) عاد الأمر في تعيين ولاة الأندلس إلى ولاة
إفريقية، ولكن بمصادقة الخليفة.
وكان الوالى عادة هو قائد الجيش العام، وإليه
يرجع أمر الغزو في الشمال.
ولما وقعت نكبة بلاط الشهداء في سنة ١١٤ هـ
(٧٣٢ م) ، أخذت الخلافة مرة أخرى بيدها تعيين والى الأندلس، واختار
الخليفة هشام بن عبد الملك لولايتها عبد الملك بن قطن.
واستمر الأمر بعد ذلك
حيناً يرجع إلى والى إفريقية، وأحياناً إلى اختيار الجماعة، أعنى جماعة الزعماء

والقادة في شبه الجزيرة، وكان ذلك يحدث بالأخص حين تضطرب الأمور، ويقع الخلاف بين مختلف القبائل والزعامات.

ولما اضطرمت الفتنة بين الشاميين

والبلديين، وأخذ الفريقان يتبادلان الرياسة، ضعف أمر السلطة المركزية، ولم تهدأ الأمور حتى عين أبو الخطار الكلبى والياً للأندلس (١٢٥ هـ) .

ولكن

أبا الخطار كان يمنياً فمال إلى اليمنية، واضطرمت الفتنة بين اليمنية والمضرية، ولما

تفاقم الأمر، وخشى الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية، اتفقوا على تعيين يوسف بن عبد الرحمن الفهرى من المضرية للولاية، وذلك دون موافقة أو مصادقة

لا من والى إفريقية ولا من الخلافة، وكان ذلك في سنة ١٢٩ هـ (٧٤٧ م) .

واستمر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والياً للأندلس زهاء عشرة أعوام، وهو يزاول سلطة شبه مطلقة.

وقد استطاع بعزمه وحزمه، أن يعيد إلى الأندلس

نوعاً من الاستقرار والسكينة.

ولكن القدر كان يدخر للأندلس مصيراً آخر، فى ظل سلطة أخرى، لم تكن تخطر ليوسف أو غيره من الزعماء المتطلعين إلى

الرياسة.

وذلك أن عبد الرحمن الأموى عبر إلى الأندلس في ربيع الآخر سنة ١٣٨ هـ (سبتمبر ٧٥٥ م) ، وهرع في الحال إلى لوائه جمع من الصحب والأنصار، ووقع الحدث الحسم في موقعة المسارة في العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ

(١٣ مايو سنة ٧٥٦ م) فهزم يوسف الفهرى وصحبه، وانتهت رياسته للسلطة، وكتب النصر لسليل بني أمية، فبويع عبد الرحمن الأموى في الحال بالإمارة، وبعثت من ذلك التاريخ دولة بني أمية بالأندلس، بعد أن سقطت

بالمشرق قبل
ذلك ببضعة أعوام.
ومن ذلك التاريخ تقوم الدولة الأموية في الأندلس، وتستقر قواعدها تباعاً، بعد
معارك طويلة متعددة، بينها وبين الزعامات المحلية والعناصر الثائرة.
وقد

(٦٨١/١)

بقيت الدولة الأموية عصراً تتشح بثوب الإمارة، وذلك وفقاً لما قرره مؤسسها
عبد الرحمن الداخل.
وبالرغم من أن بلاط قرطبة، بلغ في عصر أمراء مثل الحكم
ابن هشام، وولده عبد الرحمن، مبلغاً عظيماً من القوة والبهاء، وأضحى ينافس
بلاط بني العباس في الأخذ بزعامة الإسلام، فإن أمراء بني أمية لبثوا على
مبدئهم
من الاكتفاء بلقب الإمارة، إلى أن كان عهد عبد الرحمن الثالث (الناصر)
فعندئذ
تغيرت أوضاع الغرب الإسلامى بقيام الخلافة الفاطمين في الضفة الأخرى
من
البحر، على مقربة من الأندلس.
وكان هذا الحادث الخطير في ذاته أول حافز
للناصر على اتخاذ سمة الخلافة، وصدر مرسومه بذلك في اليوم الثاني من
شهر ذى
الحجة سنة ٣١٦ هـ (يناير ٩٢٩ م) وبذا تحولت الدولة الأموية إمارة إلى
خلافة، وكان عبد الرحمن الناصر أول من تلقب من أمرائها " بأمير المؤمنين
".
وقد تميزت الخلافة الأموية بعدة خصائص، أولها الاعتماد في توطيد
سلطانها

على الموالى والصقالبة، وهى سياسة بدأت في عهد الإمارة منذ عبد الرحمن الداخل، ووصلت إلى ذروتها في عهد الناصر، وذلك حسبما فصلناه في موضعه، وثانيها
الاسترابة بالقبائل والزعامات العربية، والعمل المستمر على إخضاعها، والقضاء
على سلطانها ونفوذها، وذلك لما لقيه بنو أمية منذ البداية من معارضة هذه القبائل
والزعامات، وانتقاضها المتوالى، وثوراتها المتعددة، وثالثاً عطفها الواضح على أهل الذمة وهم النصارى واليهود، وكفالة حرياتهم الدينية والاجتماعية، وهذه السياسة أيضاً ترجع إلى عصر الإمارة، حيث أنشىء منذ عهد الحكم بن هشام
أو قبله بقرطبة، منصب خاص لإدارة شؤون أهل الذمة يعرف صاحبه " بالقومس "، وقد كان للنصارى المعاهدين، فوق ذلك قاض خاص، وقد يكون أسقفهم
في نفس الوقت؛ وعين بعد ذلك للنصارى مطران خاص، مركزه بمدينة إشبيلية.
وقد استمر هذا التسامح نحو النصارى المعاهدين عصوراً، وذلك بالرغم مما كانوا يدبرونه في بعض الأحيان ضد الحكومة المسلمة من الدسائس والمؤامرات
ويعقدون من الصلات المريبة مع نصارى الشمال.
وبلغت الخلافة الأموية بالأندلس ذروة قوتها ونفوذها السياسى والأدبى فى عهد الناصر وولده الحكم المستنصر.
بيد أنه بوفاة المستنصر (٣٦٦ - ٩٧٦ م)
وولاية ولده الحدث الضعيف هشام المؤيد، تبدو طلائع ذلك الانقلاب الحاسم

الذى كان يدخره القدر لمصير الخلافة الأموية.
ذلك أن محمد بن أبي عامر، الذى أخذ يبزغ نجمه منذ أواخر أيام الحكم، ما كاد يلى منصب الوزارة، حتى أخذ يستجمع أزمة السلطة في يده تباعاً، ويحطم كل معارضة لسلطانه، وانتهى الأمر بأن فرض ابن أبي عامر نفسه حاكماً مطلقاً للأندلس، وأنشأ مدينة
الزاهرة، لتكون له قاعدة جديدة للحكم، واتخذ سمة الملك، وتسمى بالحاجب المنصور (٣٧١ هـ – ٩٨١ م) ، وبالرغم من أنه لم يتعرض بشيء للخلافة الأموية
أو رسومها، فإن الخلافة لم تكن في ظل حكمه سوى شبح باهت، واسم بلا مسمى.
وهكذا قامت الدولة العامرية واستمرت في ظل المنصور، ثم ولده
عبد الملك المظفر، فأخيه عبد الرحمن زهاء ثلاثين عاماً، ثم انتهت بمصرع عبد الرحمن المنصور في رجب سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) .
وهنا استعادت الخلافة الأموية سلطانها بقيام محمد بن هشام الملقب
بالمهدى، وتربعه في كرسى الخلافة مكان الخليفة هشام المؤيد، وانتهى بذلك عهد السلطة
الثنائية، سلطة الخلافة الأموية الإسمية، وسلطة بني عامر الفعلية، ولكن عودة
الخلافة الأموية على هذا النحو لم يكن سوى بداية مأساة مروعة، استمرت زهاء
أربعين عاماً، اضطرمت الأندلس فيها بالفتن المدمرة، وغدت الخلافة
الإسمية، والسلطة الفعلية، غنماً متداولا، بين بني أمية، والفتيان العامريين، والبربر، وبنى حمود، وانتحل بنو حمود ألقاب الخلافة، وقامت في وقت واحد بالأندلس
أكثر من خلافة في قرطبة، ومالقة، وإشبيلية، وغدت قرطبة والأندلس كلها مسرحاً لمعارك وحروب أهلية متوالية، ودمرت خلال ذلك مدينة الزهراء

الخلافية، وعدة من أحياء قرطبة، وسادت الفوضى كل جنبات الأندلس، واستمرت هذه المحنة زهاء أربعين عاماً، ثم تمخضت في النهاية عن مأساة جديدة.
وهى تمزق الأندلس إلى ولايات ومدن عديدة مستقلة، يحكم كل منها زعيم أو أمير مستقل، وبدأ بذلك عهد الطوائف.
تلك خلاصة وجيزة للأوضاع النظامية، وأنواع الحكم المتوالية، التي عاشت في ظلها الأمة الأندلسية زهاء ثلاثة قرون منذ فتح الأندلس في سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) حتى قيام دول الطوائف، في الربع الثاني من القرن الخامس الهجرى.

(٦٨٣/١)

- ٢ -

الحجابة والوزارة
كانت حكومة الأندلس في عصر الولاة، هيئة إدارية محلية قوامها الحاكم (الوالى) وقادة الجيش.
ولم تك ثمة مناصب وزارية بالمعنى المعروف، إذ لم
يكن الوالى سوى رئيس مؤقت لإدارة الإقليم، وقد كان الوالى في معظم الأحيان
هو قائد الجيش العام.
ولم تظهر المناصب الوزارية إلا في بداية عصر الإمارة
مذ قامت الدولة الأموية بالأندلس، على يد مؤسسها عبد الرحمن الداخل. وقد
اقتبس الداخل لنظام حكومته، من أنظمة الحكومة الأموية بالمشرق، وأنشأ منصب الحجابة، وولكنه لم ينشىء مناصب الوزارة، بل اكتفى بتعيين نفر من أخلص أنصاره كمعاونين ومستشارين، يعاونونه في القيام بأعباء الحكم، ويبذلون

له النصح في مهام الأمور.
وعين للجيش أيضاً قائده العام.
بيد أنه كان يقود
الجيش بنفسه مواطن كثيرة.
وقد امتازت حكومة الداخل بالاعتماد على
الموالى والاسترابة بالعرب، لما لقيه الداخل من خصومتهم ومناوأتهم.
وقد
غدت هذه الظاهرة فيما بعد، ظاهرة الاسترابة بالعرب، من مميزات الحكومة الأموية بالأندلس، سواء في عهد الإمارة أو عهد الخلافة، واتخذت أسطع مظاهرها في عهد عبد الرحمن الناصر.
واتجهت الحكومة الأموية، إلى جانب الاعتماد على الموالى، إلى اصطناع الصقالبة، واتخذ هذا الاتجاه طابعه القوى منذ عهد الحكم بن هشام، وظهر الصقالبة لأول مرة بكثرة في البلاط الأموى، واحتلوا معظم مناصب القصر والخاص.
غير أن الاعتماد على الصقالبة لم يمنع قيام الحجابة والوزارات القوية.
فكان منصب الحجابة في الواقع هو أهم المناصب التنفيذية، وكان يليه في
معظم
الأحيان رجال من الطراز الأول، أحياناً من رجال السيف، مثل عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث وعبد العزيز بن أبي عبدة حاجبا الحكم، وأحياناً من رجال القلم مثل عيسى بن شهيد حاجب عبد الرحمن بن الحكم، والحاجب
جعفر
المصحفى، حاجب الحكم المستنصر، وأحياناً يجمع الحاجب بين السيف
والقلم
مثل الحاجب عبد الكريم، وهاشم بن عبد العزيز حاجب الأمير محمد بن عبد الرحمن.

وكان يعاون الحاجب، وهو بمثابة رئيس الوزارة، عدة من الوزراء، يتولون مختلف المناصب الوزارية.

وقد بلغت الوزارة في ظل الحكومة الأموية

الأندلسية شأواً بعيداً، وتعاقب في ولايتها جمهرة من أعظم الرجال، وألمعهم خلالا، وكانت تضم عدة من أخطر مناصب الدولة، مثل منصب كبير الخاص.

وكان يشغله على الأغلب فتيان الصقالبة.

وخطة الخيل.

وخطة الكتابة أو الكتابة

العليا، وكان يتولاها وزير من الكتاب النابهين.

وخطة صاحب المدينة أو حاكم

قرطبة، وصاحب المدينة الزهراء، وكانتا من أهم المناصب الوزارية.

وخطة

المظالم، وكانت قبل عهد الناصر خطة مفردة تتضمن العرض والمظالم.

ولكنها

في عهد الناصر، قسمت إلى خطتين (٣٢٥ هـ) ، وجعل العرض خطة مستقلة

بذاتها، وكذلك المظالم أضحت خطة مستقلة، وكان أول من وليها مستقلة محمد بن قاسم بن طملس، وكان يتولى المظالم وزير، وقد وليها قبله أيام الناصر

جماعة من الوزراء النابهين مثل أحمد بن حدير.

وعبد الملك بن جهور.

وخطة

الشئون المالية.

وخطة الشرطة، وكانت من أهم المناصب الإدارية المتعلقة بضبط
النظام والأمن، وكانت قبل عهد الناصر تنقسم إلى مرتبتين، الشرطة العليا،
والشرطة الصغرى، ولكنها منذ سنة ٣١٧ هـ في عهد الناصر لدين الله،
قسمت
بحسب أهميتها إلى ثلاث مراتب: الشرطة العليا، والشرطة الوسطى، والشرطة
الصغرى؛ وقد رتب رزق الشرطة الوسطى، وسطاً بين رزقى العليا والصغرى،
وكان أول من تقلدها سعيد بن سعيد بن حدير.
وخطة القضاء، وتتبعها خطة
المواريث، وكذلك خطة السوق أو الحسبة.
وخطة الشورى، وكانت من
الخطط العارضة، ومن المناصب ذات النفوذ العلمى والأدبى قبل كل شيء،
وتسند عادة إلى من يعتبر في وقته عميد العلماء وشيخهم، وكان أشهر من
وليها
رجال مثل بقى بن مخلد.
وفى أيام المنصور بن أبي عامر، كان ثمة ديوان يسمى
ديوان الندماء، كان يلحق به كل أديب وشاعر ممن يؤثرهم الأمير بصحبته
ومجالسته.
وفى أواخر الدولة العامرية، غلب الصقالبة في تولى الخطط الكبرى
من حجابة ووزارة، وبدأ ذلك بنوع خاص في عهد عبد الملك بن المنصور.
ولما انهارت الدولة العامرية استمرت هذه الظاهرة حيناً، وتولى أولئك الفتيان
الحجابة للخلفاء الأخيرين من بني أمية، وغلبوهم على أمرهم، ثم استبدوا فيما



بعد، عند انهيار الدولة، برياسة طائفة من المدن والولايات، وكان من هؤلاء
أمراء الطوائف، مثل مجاهد العامرى صاحب دانية، وخيران العامرى صاحب
ألمرية.

وظهرت في الدولة العامرية بدعة أخرى، هى إسناد منصب الحجابة إلى
الأطفال.
فقد استصدر عبد الملك بن المنصور من الخليفة المحجور هشام المؤيد،
مرسوماً
بتعيين ولده الطفل محمد في منصب الحجابة، ولقب بذى الوزارتين، وعين
عبد الرحمن المنصور ولده الطفل عبد العزيز في منصب الحجابة، وأسبغ
عليه
لقب سيف الدولة.
وكانت هذه المهازل وأمثالها دليلا على تصدع ذلك الصرح
الإدارى المحكم الذى شاده الأمراء والخلفاء من بني أمية، خلال قرنين من
الجهود المتوالية.
وفى أيام الخليفة المستظهر العابرة (رمضان – ذو القعدة ٤١٤ هـ)
استحدث بالوزارة عدة خطط جديدة مثل: خطة خدمة المدينتين الزهراء
والزاهرة، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة، وخدمة الحشم، وخدمة مواريث
الخاصة، وخدمة الطراز، وخدمة المعالى، وخدمة الأسلحة، وخدمة الخزانة،
وخدمة الوثائق، ورفع كتب المظالم، وخدمة خزانة الطب والحكمة، وخدمة
أحكام السوق، وهى خطط يصفها ابن حيان بأنها عبث وزخرف من التسطير
وضع على غير حاصل، ومراتب نصبت لغير طائل.
– ٣ –
الجيش، نظامه وتكوينه
كان أول جيش إسلامى عبر إلى شبه الجزيرة لفتح الأندلس، مكوناً من
العرب والبربر، وكان قائد الجيش الفاتح، طارق بن زياد، فيما يرجح بربرياً
من قبيلة نفزة.
وقد لعب البربر منذ البداية في تكوين قوى الأندلس الغازية
والدفاعية أعظم دور، وكان تدفقهم من الضفة الأخرى من البحر – من
المغرب –

على شبه الجزيرة أسرع وأغزر من تدفق المتطوعة العرب، وكانوا يؤلفون
الكثرة في جيش الغزو.
ولما نظم عبد الرحمن الغافقى جيشه الضخم لغزو بلاد
الفرنج، كان البربر من عناصره المختارة الغالبة، وكانت القيادة دائماً بيد
الضباط العرب، وكان الخلاف الذى اضطرم منذ بداية الفتح بين العرب
والبربر، يعمل عمله المقوض بين صفوف الجيش، وقد بدأ تكوين الجيوش
الغازية
الضخمة، منذ عهد السمح بن مالك الخولانى والى الأندلس، وكان أعظم هذه

(٦٨٦/١)

الجيوش، الجيش الضخم الذى حشده عبد الرحمن الغافقى لغزو مملكة
الفرنج.
وبالرغم
من أن البربركان لهم في إنجاح معظم الغزوات الشمالية أثر فعال، فإنهم
كانوا
أيضاً في بعض الأحيان عنصراً خطراً على سلامة الجيش، لما كان يسودهم
فى
بعض الأحيان من البغض وعدم التعاون مع قادتهم العرب.
وكان أسطع مثل لذلك
الخلاف المدمر، ما حدث في موقعة بلاط الشهداء (١١٤ هـ - ٧٣٢ م) من
تخاذل البربر وتخلفهم عن القتال أمام الفرنج، وإرغامهم هيئة الجيش على
الانسحاب
بعد مقتل قائده البطل عبد الرحمن الغافقى.
ولما قامت ثورة البربر في المغرب، وهزم العرب في منطقة طنجة، وعبرت
فلول الجيش المنهزم وهم من الشاميين
بقيادة بلج بن بشر القشيرى إلى الأندلس، وذلك بدعوة الوالى ابن قطن،

ليستعين بهم على مغالبة البربر في الأندلس، رجحت كفة العناصر العربية فى
الجيش مدى حين.
ولكن جيش الأندلس ما لبث أن انقسم إلى قسمين، معسكر
الشاميين وهم أنصار بلج، ومعسكر العرب والبربر المحليين.
ولبثت الحرب
الأهلية تضطرم حيناً، حتى قام يوسف بن عبد الرحمن الفهرى فاستقر في ولاية
الأندلس، وقام بإصلاح الجيش وتنظيمه، ليعود كما كان جيشاً أندلسياً،
يضطلع بالغزو ورد هجمات نصارى الشمال.
وعنى عبد الرحمن الداخل بتنظيم الجيش أشد عناية، وحشد له المتطوعة
والمرتزقة من سائر الطوائف.
وبلغت قواته يومئذ نحو مائة ألف مقاتل.
وهذا
عدا الحرس الخاص، الذى يتكون من الموالى والبربر والرقيق، وقد بلغت قواته
نحو أربعين ألفاً.
ووضع عبد الرحمن الداخل أيضاً نواة الأسطول الأندلسي بما
أنشأ من قواعد لبناء السفن في بعض الثغور النهرية والبحرية.
ولكن بداية قيام
الأسطول الأندلسي الفعلية ترجع إلى ما بعد ذلك بنحو نصف قرن، حينما فاجأ
النورمانيون الأندلس بغزو الثغور الغربية، ثم بغزو إشبيلية، والفتك بأهلها.
وكان ذلك في سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٣ م) في عهد عبد الرحمن بن الحكم،
فعندئذ أدركت
الحكومة الأندلسية وجوب العناية بأمر الأسطول والتحصينات البحرية وبدىء

بإنشاء السفن الحربية.
وكانت أكبر دور الصناعة لإنشاء السفن في مياه الوادي
الكبير تجاه إشبيلية.
ومن ذلك الحين يقوم الأسطول الأندلسي بدوره في شئون

(٦٨٧/١)

الغزو والدفاع، وقد بلغت وحداته في عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتى
سفينة.
ومما تجدر ملاحظته أن الجيش الأندلسي، فد تلقى خلال عهد الفتنة الكبرى
التي شملت سائر نواحى الأندلس، ولاسيما المنطقة الجنوبية، واستمرت
تضطرم زهاء
ستين عاماً، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) كثيراً
من
الدربة والتجارب المريرة في معاركه المستمرة مع جيوش الثوار، وأضحى فى
أواخر هذه الحقبة في عهد عبد الرحمن الناصر، من حيث العدد والكفاية قوة
لها خطرها.
وقد بذل الناصر جهوداً عظيمة لإصلاح الجيش وتقويته، ومده
بالأسلحة والعتاد الوفير.
وعنى في الوقت نفسه بأمر الأسطول، فأنشأ له وحدات
جديدة، وجعل مركزه الرئيسى ثغر ألمرية، وأنشأ بها أعظم دار للصناعة،
وبلغ
الأسطول الأندلسي في عهد الناصر، حسبما تقدم، زهاء مائتى سفينة مختلفة
الأنواع والأحجام، وهذا عدا أسطول آخر خصص لشئون المغرب البحرية،
وكان الأسطول الأندلسي يومئذ من أقوى الأساطيل، وكان يسيطر على مياه
إسبانيا الشرقية والجنوبية.
وفى عهد المنصور بن أبي عامر، بلغ الجيش الأندلسي المرابط ذروة القوة

والضخامة، وقد رأى المنصور أن يعتمد بالأخص في تكوين الجيش على حشود

البربر، فاستقدمهم من العدوة، وبذل لهم الأعطية السخية، وكذلك حشد فى جيشه كثيراً من المرتزقة النصارى، ومعظمهم من المستعربين رعايا الحكومة الأندلسية، واستطاع المنصور، بما بذله من جهود عنيفة متوالية، ومن أموال وفيرة، أن ينشىء للأندلس قوة عسكرية هائلة لم تعرفها الأندلس في أى عصر

سابق أو لاحق.

وقد نقلت إلينا الرواية بعض أرقام عن الجيش الأندلسى

المرابط في عهد المنصور، من ذلك أن الفرسان بلغ عددهم إثنتى عشر ألف ومائة

فارس من سائر الطبقات، تصرف لهم النفقة والسلاح والعلافة، وبلغ عدد الرجالة (المشاة) في الجيش المرابط ستة وعشرين ألف مقاتل.

وكان عدد

الجيش المرابط، يتضاعف وقت الصوائف مراراً بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة، وقد بلغ عدد الفرسان في بعض الصوائف، ستة وأربعين ألفاً، وكان عدد المشاة يتضاعف أيضاً، وقد يعدو المائة ألف أو تزيد.

(٦٨٨/١)

- ٤ -

الموارد الاقتصادية

وصنوف الجباية

لما افتتح المسلمون الأندلس، كان الشعب الإسبانى المغلوب، ما يزال يعيش في ظل بقايا النظم الرومانية، التي اتخذها القوط أساساً لتشريعاتهم ونظمهم

الإدارية.

وكان عبء الضرائب يقع معظمه على طبقات الشعب الدنيا، ولا يكاد يقع شيء منه على عاتق الأشراف ورجال الدين، ومن إليهم من الطبقات الممتازة.

فلما افتتح المسلمون شبه الجزيرة، فرضت الضرائب على قاعدة المساواة دون تمييز بين طبقة وأخوى، وفرضت الجزية على من لم يعتنق الإسلام من أبناء الشعب المغلوب.

وفى خلال الحقبة الأولى، التي تميزت باستمرار الغزوات الإسلامية، وما تقتضيه من حشد الجيوش المستمرة، لم تكن موارد القطر المفتوح

قد حققت كلها واستغلت.

وقد كان من الواضح منذ البداية أن القطر المفتوح

قطر زراعى قبل كل شيء.

وكان خراج الأرض الزراعية، والجزية، وأخماس الغنائم، هى المصادر الرئيسية للدخل، وقد ازدهرت الزراعة بالأخص

عقب الفتح لما حدث من توزيع أفضل ل

لأرض، وتحسين أحوال العاملين فيها، وكان يوسف الفهرى آخر الولاة، أول من عدل نظام الضرائب القديم، ففرض

على كل ولاية، أن تقدم ثلث الدخل، ورفع الجزية عمن توفوا من النصارى، وقسم الأندلس من الناحية الإدارية إلى خمس ولايات حسبما أسلفنا ذلك فى موضعه.

وكانت حكومة قرطبة الإسلامية تسيطر على أخصب وأغنى وديان شبه الجزيرة الإسبانية، وكان أهم المحاصيل الزراعية هى القمح والزيتون والفاكهة

وغابات الأشجار الخشبية، وما تزال هذه المحاصيل إلى اليوم هى أهم موارد اسبانيا الزراعية.

وكذا كان تربية الماشية مورداً من أهم موارد الدخل القومى.

ولما استقرت الأمور، واستطاع الفاتحون أن يضعوا أيديهم على موارد البلاد، وثرواتها الطبيعية، وأن يستغلوها بمقدرة وذكاء، لم تبق الزراعة هى المورد الوحيد، وإن لبثت دائماً هى المورد الرئيسى.

ذلك أن شبه الجزيرة الإسبانية، تضم

ثروات متنوعة من المعادن، كانت تستغل منذ أيام الرومان، فكان يستخرج

(٦٨٩/١)

بها الفضة والرصاص والحديد والذهب والزئبق، والقصدير من أنحاء مختلفة، فى الشمال والجنوب، فكانت الفضة والنحاس تستخرج في الشمال، وفي جهة قرطبة، وكورة تدمير، وكان الزئبق يستخرج من جبال البرانس، والقصدير بجهة أكشونبة من ولاية الغربية، وكان البلور يستخرج في منطقة لورقة، والرخام

من جبل قرطبة وباغة ومن جبال سيرّا مورينا.

وكانت تقوم إلى جانب الزراعة

صناعات هامة، مثل صناعة النسيج والملابس والأثاث والفخار والزجاج والورق (١) ، وكانت التجارة تزدهر في نفس الوقت داخل شبه الجزيرة، وخلال موانيها الشرقية

والجنوبية ولاسيما مالقة وألمرية، وتجبى الدولة من المكوس التجارية، سواء على

التجارة الداخلية أو الخارجية أو على السفن الصادرة والواردة مقادير عظيمة.

ولم تأت أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، في عصر عبد الرحمن

ابن الحكم، حتى كانت إسبانيا المسلمة قد بلغت مبلغاً عظيماً من الرخاء، وتضاعفت مواردها من الخل القومى، وبلغت حصيلة الجباية من المكوس وحدها زهاء ألف ألف دينار في السنة، وبلغت في عهد عبد الرحمن الناصر من

الكور والقرى خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار.
وبلغت من
المستخلص (وهى الأملاك السلطانية) سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف
دينار، وقد ذكرنا فيما تقدم، في موضعه، أن الناصر خلف عند وفاته في
بيت المال
عشرين مليوناً من الذهب، هذا عدا ما أنفقه من الأموال الطائلة في مختلف
الغزوات، وفي مختلف المنشآت الباذخة التي أقامها، وفي مقدمتها مدينة
الزهراء
الملوكية، وهى مما يدل على ضخامة الموارد المالية للأندلس في عصر
الخلافة.
وفى أيام المنصور بن أبي عامر، في أواخر عصر الخلافة، حققت موارد
الدخل
زيادة عظيمة، ووصل محصل الجباية وحده إلى أربعة آلاف ألف دينار
(أربعة
ملايين)، سوى رسوم المواريث وسوى مال السبى والغنائم، واستمرت هذه
الزيادة في عهد ولده عبد الملك.
ثم كان انهيار الدولة العامرية، وانهيار الخلافة
الأموية، واضطرام الفتنة في كل مكان، فتحطمت موارد الدخل، وكسدت
التجارة والصناعة، وغاضت أسباب الرخاء.

---

(١) راجع كتاب الأستاذ ليفي بروفنسال L'Espagne Musulmane aux Xème Siècle؛
p.
١٧٦، ١٨٣ & ١٨٤، وكذلك نفح الطيب ج ١ ص ٧٨ و٩٣.

الفصل الثاني

الحركة الفكرية الأندلسية

في عصرى الإمارة والخلافة

- ١ -

لبثت الأندلس عقب الفتح، ردحاً من الزمن، بعيدة عن أن تكون مهداً لنشوء الحركة الفكرية.

ذلك أنه خلال عصر الولاية، لم تكن الأمور قد استقرت بعد،

ولم تترك مشاغل الغزو، والخلافات الحزبية، والانقلابات المتوالية في الرياسة،

كبير مجال لاتجاه الأذهان إلى التفكير والأدب، ومن ثم فإنا لا نجد في هذا العصر

كتاباً أوشعراء أو مفكرين ذوى خطر، وإن كنا نجد بعض الآثار الشعرية القليلة،

التي ترد على ألسنة بعض الولاة أو الزعماء.

ويمكننا أن نرجع الحركة الفكرية الأندلسية، إلى عصر عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ هـ.

ذلك أن هذا الأمير القوى اللامع، منشىء الدولة الأموية

بالأندلس، كان أول شخصية بارزة ظهرت في ميدان التفكير والأدب والشعر، ويمكن أن نعتبره بحق رائد النهضة الأدبية النثرية والشعرية، التي تفتحت فيما بعد، وازدهرت في عهد خلفائه، ولنا فيما أوردناه من نماذج قليلة، من نثره، ومن نظمه، ما يدل على براعته وتفوقه في هذا الميدان.

ومن بين أمراء بني أمية بالأندلس، كان الرواد الأوائل في الحديث والفقه، فقد كان الداخل، فوق براعته الأدبية عالماً بالشريعة، وكان ولده هشام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) مبرزاً في الحديث والفقه.

وفى عصر

هذا الأمير ظهرت، طلائع النهضة الأولى في ميدان التفكير والأدب، وكان

يغلب
على هذه النهضة في البداية، الطابع الدينى قبل كل شيء، وكان قد رحل في
عصر
الداخل جماعة من فقهاء الأندلس إلى المشرق، ودرسوا بالمدينة على الإمام
مالك
وغيره من أقطاب المشرق، واستقوا من علم مالك واجتهاده، ونقلوا عنه
كتابه (الموطأ) ، وكان في مقدمة هؤلاء فقهاء مبرزون، مثل زياد بن عبد
الرحمن،

(٦٩١/١)

وعيسى بن دينار، ويحيى بن يحيى الليثى، وكان زياد بن عبد الرحمن عميد
فقهاء
الأندلس في وقته، وكان الأمير هشام بن عبد الرحمن يوقره ويجله لعلمه
وورعه
وزهده، وتوفى في سنة ٢٠٤ هـ (١) .
وكذا كان عيسى بن دينار، وأصله من
طليطلة، وسكن قرطبة، عالماً راسخاً، وكان أستاذ الفتيا في وقته لا يتقدمه
فيها
أحد، وكان ممن اتجهت إليهم الريبة في ثورة الربض فهرب واستخفى حيناً، ثم
عفا عنه الأمير الحكم وأمّنه، فعاد إلى قرطبة وتوفى سنة ٢١٢ هـ (٢) .
وأما
يحيى بن يحيى الليثى فقد رحل كزميله إلى المشرق، وسمع من مالك، والليث
ابن سعد، وعبد الله بن وهب وغيرهم، وعاد إلى الأندلس ليشغل بين فقهائها
مركز الصدارة، وكان ذهناً حراً يعتز بحريته واستقلاله، فلم يل قضاءً، ورفض
كل دعوة إلى توليه، وتوفى في سنة ٢٣٤ هـ (٣) .
وعلى يد أولئك الفقهاء والرواد، ذاع مذهب مالك بالأندلس منذ عصر هشام.

وكان هشام نفسه كثير الإجلال
لمالك ومذهبه، فزاد ذلك في ذيوع المذهب، وفي تمكن مكانته بالأندلس.
وكان
هذا بداية لنفوذ الفقهاء في شئون الدولة، وهو نفوذ اشتد فيما بعد، وكان له
أثر عميق في تحريك القوى المعارضة، التي انتهت باضطرام ثورة الربض
ضد
الحكم بن هشام، في سنة ٢٠٢ هـ (٨١٨ م) ، وذلك حسبما أوضحنا في
موضعه.
وفى عصر الحكم بالذات، تتخذ الحركة الفكرية طابعاً أوسع أفقاً، وتظهر
طوالع النزعة الأدبية إلى جانب العلوم الدينية، ويظهر الأدباء والشعراء إلى
جانب الفقهاء والمحدثين.
وكان في مقدمة من ظهروا في تلك الفترة عبد الملك
ابن حبيب بن سليمان السلمى، وأصله من إلبيرة وسكن قرطبة، ثم رحل إلى
المشرق وسمع الكثير من علمائه.
ولما عاد إلى الأندلس عمل مشاوراً مع يحيى
ابن يحيى، وسعيد بن حسان، وكان حافظاً للفقه على مذهب المدنيين، بيد
أنه كان إلى جانب الفقه، بارعاً في النحو والعروض والشعر، حافظاً للأخبار
والأنساب والأشعار، متصرفاً في عدة فنون.
وكتب عدة مؤلفات في الفقه
والتاريخ منها " الواضحة " و" الجوامع " وكتاب في " فضائل الصحابة "،
وكتاب في " غريب الحديث "، وكتاب " حروب الإسلام "، وكتاب " طبقات

---

(١) راجع علماء الأندلس لابن الفرضى (مصر) رقم ٤٥٨.

(٢) راجع علماء الأندلس رقم ٩٧٥.

(٣) جذوة المقتبس للحميدى (مصر) رقم ٩٠٨.

الفقهاء والتابعين " و" مصابيح الهدى " وغيرها، وكان محمد بن عمر بن
لُبابة
يقول فيه: عتد الملك بن حبيب عالم الأندلس، ويحيى بن يحيى عاقلها،
وعيسى
ابن دينار فقيهها.
وتوفى عبد الملك بن حبيب في سنة ٢٣٨ هـ (١) .
وفى عصر الحكم بن هشام تتخذ الحركة الفكرية، التي غلب عليها الطابع
الدينى، حتى ذلك الوقت، طابعاً أدبياً واضحاً، ويبدأ ظهور الكتاب والشعراء
المبرزين، وكان الحكم نفسه في مقدمة شعراء عصره وأدبائه، وكان له نظم
بارع
أوردنا فيما قدم طرفاً منه.
ومن شعراء هذا العصر، عباس بن ناصح الجزيرى
المصمودى، وهو من أهل الجزيرة، وقد رحل إلى مصر والحجاز والعراق،
وتلقى على علمائها، ودرس الفقه، ولقى الأصمعى وغيره ببغداد، ثم عاد إلى
الأندلس، ومدح الأمير الحكم فندبه لقضاء الجزيرة، وكان بارعاً في اللغة
وشاعراً جزلا، يسلك في شعره مسلك العرب القديمة، وكان له أيضاً حظ من
الفقه (٢) .
وكان ولده عبد الوهاب بن عباس بن ناصح أيضاً، فقيهاً وشاعراً
محسناً (٣) ، وكان من الكتاب والشعراء أيضاً حاجب الحكم وقائده عبد
الكريم
ابن عبد الواحد بن مغيث، ومؤمن بن سعيد.
وكان مؤمن شاعراً مبرزاً كثير
الشعر.
وكان حاد النكتة والنادرة، ومن شعره قوله:

حرمتك ما عدا نظراً مضراً..

.

بقلب بين أضلاعى مقيم

فعينى منك في جنات عدن..

.

مخلدة وقلبى في الجحيم (٤)

وبلغ الشعر في عصر الحكم ذروته، على يد شاعرين كبيرين، هما العلامة عباس ين فرناس ويحيى الغزال الجيّانى.

وكان أولهما عالماً بالفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية والموسيقى.

وقد أشرنا فيما تقدم إلى مخترعاته العلمية، وإلى محاولته اختراع طريقة لطيران الإنسان.

وكان ثانيهما كذلك عالماً بالفلسفة والفلك، وقد عاش كلاهما طويلا بعد عصر الحكم، وفيما أوردناه فيما تقدم من شعرهما دليل على براعتهما في هذا الميدان.

---

(١) راجع ابن الفرضى، علماء الأندلس، رقم ٨١٦.

(٢) راجع ابن الفرضى رقم ٨٨١.

(٣) ابن الفرضى رقم ٨٨١.

(٤) راجع جذوة المقتبس للحميدى رقم ٨٢٦، وقضاة قرطبة للخشنى (مصر) ص ١٠٣ و ١٠٥.

*(٦٩٣/١)*

وفى عصر عبد الرحمن بن الحكم، بلغت الحركة الفكرية الأندلسية الأولى ذروتها، ففى ميدان الكتابة احتشد في بلاط الحكم عدة من أكابر الكتاب المبرزين، وفي مقدمتهم الحاجب عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث،

ومحمد
ابن سليمان الزجّالى، وفي ميدان العلوم الدينية ظهر في عهد عبد الرحمن، جمهرة
من أكابر الفقهاء، مثل محمد بن يوسف بن مطروح، ومحمد بن حارث، وعبد الأعلى بن وهب، وبقيّ بن مخلد، ومحمد بن وضاح، وغيرهم، وكان
عميد هذه الجمهرة من الفقهاء بقى بن مخلد، وهو من أهل قرطبة، ودرس على
علماء الأندلس وإفريقية، وبرع في الحديث والرواية، ويمكننا أن نعتبره رائد علم
الحديث في الأندلس.
وقد أنكر عليه بعض خصومه ما أدخله من كتب الاختلاف
وغريب الحديث بالأندلس، ووشوا به للأمير محمد بن عبد الرحمن.
وقد أشرنا
فيما تقدم إلى ما كان من مناظرته لخصومه، وإلزامهم الحجة، وإلى ما حباه به
الأمير من عطفه وحمايته، وقد كان ذلك من أسباب انتشار الحديث
بالأندلس.
ولبقى بن مخلد عدة مؤلفات فقهية.
وله تفسير للقرآن ومسند للنبى، وينوه العلامة
ابن حزم في رسالته بعلم بقى وأهمية كتبه، ويقول لنا إن تفسيره للقرآن لم يؤلف
في الإسلام مثله (١) .
وسمع على بقى جمهرة من فقهاء الأندلس، وكان ورعاً
زاهداً، وتوفى سنة ٢٧٦ هـ (٢) .
وكان من أعلام الفقهاء في هذا العصر، محمد بن عبد السلام الخشنى وهو
من أهل قرطبة، ورحل إلى المشرق، وسمع في البصرة وبغداد ومصر، وكان

فصيحاً جزل البيان، بارعاً في اللغة، ورواية الحديث، وكان أنوفاً منقبضاً عن السلطان، وقد رفض أن يتولى القضاء للأمير محمد بن عبد الرحمن، وتوفى فى
سنة ٢٨٦ هـ (٣) .
وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتمتع به الأمير عبد الرحمن بن الحكم من المواهب
الأدبية والشعرية، وأوردنا فيما تقدم طرفاً من شعره.
وكان من ألمع شعراء
عصره، صديقه وشاعره عبد الله بن الشمر بن نمير، وهو من أهل وشقة، وكان

---

(١) راجع رسالة ابن حزم عن علماء الأندلس في نفح الطيب ج ٢ ص ١٣١.
(٢) راجع ابن الفرضى رقم ٢٨٣.
(٣) ترجمته في ابن الفرضى رقم ١١٣٤.
وهو غير محمد بن حارث الخشنى صاحب " قضاة قرطبة " المتوفى سنة ٣٦١ هـ.

*(٦٩٤/١)*

عالماً متمكناً وشاعراً محسناً.
وله شعر جيد كثير وقد أخذ الناس من شعره (١) .
وكان من أبرز الظواهر الأدبية في هذا العصر، انتشار اللغة العربية وآدابها بين طائفة المستعربين أو النصارى المعاهدين، ونبوغ الكثير منهم فيها، وبلوغهم
مرتبة البراعة في كتابتها، ويمكننا أن نذكر من كتابهم المبرزين في هذا العصر، الأسقف جومث بن أنتنيان، قومس أهل الذمة، وكان أديباً بارعاً،

وكاتباً
مقتدراً، ومن كتاب الأمير عبد الرحمن.
وكانت الفتنة الكبرى في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ – ٢٧٣ هـ)
وولده الأمير عبد الله (٢٧٥ – ٣٠٠ هـ) عاملا هاماً في اضطرام النهضة الأدبية، والشعرية بنوع خاص.
وكان من أبرز شعراء عهد الفتنة الأول عباس
ابن فرناس، وقد أوردنا قصيدته في موقعة طليطلة، التي سحق فيها الثوار.
وفى
أواسط عهد الفتنة ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس، وأديب من أعظم أدبائها، هو الفقيه أبو عمر أحمد بن عبد ربه (٢٤٦ – ٣٢٨ هـ) صاحب كتاب
" العقد الفريد " الذى يعتبر من أعظم آثار الأدب الأندلسى.
ويمكننا أن نعتبر
ابن عبد ربه شاعر الدولة المروانية، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن حتى
عهد عبد الرحمن الناصر، وقد ظهر بشعره في موقعة إستجة التي سحق فيها الثائر
عمر بن حفصون، وذلك في سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) ، وظهر بمدائحه للأمير
عبد الله، ثم حفيده عبد الرحمن الناصر، وقد كان معلمه في صباه، وبأرجوزته فى
غزوات الناصر ومآثره.
وقد أوردنا من نظمه فيما تقدم عدة من قصائده.
وأما
كتابه " العقد الفريد " فإنه يعتبر بمحتوياته وتنوعه، من أمتع الكتب في الأدب

العربى، وبالرغم من أن موضوعاته، يغلب عليها طابع الأدب المشرقى، فإنه يعتبر عنواناً بارزاً للأدب الأندلسي في مرحلته الأولى.

وقد انتقد بعضهم العقد

الفريد لأنه " لم يجعل فضائل بلده، واسطة عقده، ومناقب ملوكه يتيمة ملكه " (٢)

ويعتبر العقد الفريد بطابعه المشرقى، على النقيض من كتاب " الذخيرة " لابن يسام الشنتريني، المتوفى سنة ٥٤٢ هـ، والذى يعتبر بمحتوياته وروحه، مثلا ساطعاً

للأدب الأندلسي.

---

(١) ابن الفرضى رقم ٦٩١.

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١٢٦.

(٦٩٥/١)

ومن شعراء عهد الفتنة وأدبائها البارزين سوّار بن حمدون القيسى، وسعيد ابن سليمان بن جودى، وهما من زعماء الفتنة العرب، وكان كلاهما إلى جانب

فروسيته من أعلام البيان والنظم في وقته، وقد نقل إلينا ابن الأبار نماذج من نظمهما (١) .

وكان من أعلام الأدب في تلك الفترة أيضاً محمد بن أضحى الهمدانى، وهو من زعماء العرب بكورة إلبيرة.

وكان بارعاً في الأدب، خطيباً مفوهاً، يخطب بين يدى الأمراء في المحافل، وكان خلال الفتنة قد انضوى تحت

لواء الأمير عبد الله، ثم انضوى بعد ذلك تحت طاعة الناصر فيمن خضع من

ثوار النواحى (٢) .

وكان الأمير عبد الله نفسه من ألمع شعراء عصره.

وكان بارعاً في العربية، حافظاً للغريب من الأخبار، وقد نوه المؤرخ ابن حيان بشاعريته، ورفيع أدبه، وأوردنا نحن فيما تقدم نماذج رقيقة من شعره.

– ٢ –

وكان عصر عبد الرحمن الناصر، من ألمع عصور الدولة الأموية بالأندلس، وفيه زهت العلوم والآداب، وظهرت جمهرة من أكابر الشعراء والعلماء.

وكان من

أعلام تلك الفترة، إلى جانب عميدهم ابن عبد ربه، صاحب العقد الفريد، محمد بن عمر بن لبُابة، وهو من أهل قرطبة.

وكان إماماً في الفقه، متمكناً من

حفظ الرأى، والبصر بالفتيا، وكان مشاوراً أيام الأمير عبد الله، ثم انفرد بالفتيا أيام الناصر، فلم يكن يشاركه أحد في الرياسة والقيام بالشورى، وكان حافظاً لأخبار الأندلس، وله حظ من النحو والشعر.

وقد وُلى الصلاة بالمسجد الجامع، وتوفى في سنة ٣١٤ هـ.

ومن مؤلفاته كتاب المنتخب في روايات مذهب مالك (٣) .

وقد حدثنا ابن حيان في المقتبس عن شعراء عصر الناصر الذين التفوا حول بلاطه، وأشادوا بمديحه، فقال: إن " في مقدمتهم معلمه في الصبا أبو عمر

أحمد بن محمد بن عبد ربه، ويليه من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس، وعبد

الملك بن سعيد المرادى، وإسمعيل بن بدر، وأغب بن شعيب، وحسان بن

---

(١) راجع الحلة السيراء (طبعة دوزى) ص ٨٠ – ٨٧.

(٢) الحلة السيراء ص ٩٨.

(٣) ابن الفرضى رقم ١١٨٩.

حسان السناط، وغيره، ومن كبار الطارئين عليه من المشرق، طاهر بن محمد
المهند البغدادى، ومحمد بن حسين الطبنى الإفريقى، وغيرهما، أسلفوا في الناصر
لدين الله إحساناً كثيراً.

فمن قول أبي عثمان عبيد الله يحيى بن إدريس في الناصر لدين الله، وقد غزا الروم في شهر رمضان، وأدركه الفطر في بلاد العدو، فلم يتورع، وصمد إلى لقايهم، وقد اجتمعوا:

يهنى الخلافة سعى خير إمام..

.

لله مسعاه وللإسلام

مللك تمكن في المكارم والعلى..

.

كتمكن الأرواح في الأجسام

عزم الرحيل مصمماً في عيده..

.

لشفاء غلة سيفه الصمصام

يصل الترحل بالترحل دائبا..

.

في الحل يحكمه وفي الإبرام

ليعز دين الله في كنف العلى..

.

ويذب عن حرم الهدى ويحام

مستنجزاً وعد الإله بنصره..

.

في شيعة الإشراك والإحرام

وقوله حينما نزل الناصر بجيوشه طليطلة، وارتياع الجلالقة لمقدمه، من قصيدة:

على أى فتح تقدما أتت..

.

لك فتوح الثغر فذاً وتوءما

تباشر تترى من فتوح تواتـ..

.

رت كما تابع النثر الجمان المنظما

ومن نظم أبي الحسن جعفر بن عثمان المعروف بالمصحفى كاتب ولى العهد الحكم بن الناصر لدين الله، السامى المحل في الاشتمال على متن البلاغة، من النثر

والنظم بالتبريز، ما نظمه وقت انتقال الناصر إلى دين الله عن سرقسطة:

على أيمن الأوقات كان ارتحالك..

.

وفى أيمن الساعات كان احتلالكا

تنقلت عن دار الشقاق مظفراً..

.

وقد صال بالمخذول فيها صيالكا

وحاربت ذا السيف العريض بميتة..

.

أرت مستجيش الشرك كيف اغتيالكا

وأقفلت عنهم والمنايا صوايب..

.

تسيل بها في ساحتيهم سجالكا

إذا ما القرى رام اغتلاق جفونهم..

فتخطفه بالخوف عنها خيالكا

وإن ذهبوا للسير في الأرض مذهبا..

.

تراءى لهم في كل أفق مثالكا

هل الأجل المرهوب إلا صيالكا..

.

أم الأمل المرغوب إلا نوالكا

بقيت أمير المؤمنين مملكاً..

.

فما الروضة الزهراء إلا جلالكا

(٦٩٧/١)

وقال إسمعيل بن بدر في مديح الناصر وذكر غزوته للجزيرة الخضراء:

تطوى المراحل إدلاجاً وتتحيرا..

.

مشمراً في رضى الرحمن شميرا

وبدر الملوك الذى إشراق سنته..

.

تجلو عن الدين والدنيا الدياجيرا

من قد قضى الله في ماضى شبيبته..

.

لا يزال على الأعداء منصورا

قال ابن حيان: " والشعر في الناصر لدين الله رحمة الله عليه، كثير جداً، محمول عن فحول يقدمهم ابن عبد ربه، وابن إدريس، ومهند والطبنى ونمطهم..

.

في تجويد صناعتهم بفضل ما ألفوا لديه من التوسعة عليهم، والإحسان إليهم، فكل منهم كمل فيما صاغه فيه ديواناً بذاته، عفى رسومها، وغيض معينها من

الليالى وانصرام الدولة، وتسلط الفتن البربرية، والمطاولة على التواريخ الملوكية، التي كانت له قاصمة وجامعة، حتى مزقت كل ممزق بأيدى الجهال، فهل من

باقية " (١) .

وكان بين وزراء الناصر وحجابه، عدة من أكابر الكتاب والأدباء، مثل الحاجب موسى بن محمد بن حدير، وقد كان من أهل اللأدب والشعر، فضلا عن كونه من بيت رياسة وجلالة (٢) وعبد الملك بن جهور، وقد كان وزيراً جليلا، وأديباً وشاعراً محسناً، ومن شعره:

إن كانت الأبدان نائمة..

.

فنفوس أهل الظرف تأتلف

يا رب مفترقين قد جمعت..

.

قلبيهما الأقلام والصحف (٣)

وكان من أعلام تلك الفترة أيضاً القاضى منذر بن سعيد البلوطى (٢٦٥ - ٣٥٥ هـ) ، وكان بارعاً في علوم القرآن والسنة، وظهر فوق ذلك بفصاحته وجزالة شعره.

وقد أشرنا فيما تقدم إلى موقفه الخطابى الرائع، في حفل استقبال سفارة قيصر الروم، وما حباه به الناصر من أجل ذلك، من عطف، وتقدير، وتوليه للخطابة والقضاء.

ومن مؤلفاته " كتاب الإبانة عن حقائق

أصول الديانة ".

وفى عصر الناصر ظهرت حركة دينية، على رأسها أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرّة الجبلى من أهل قرطبة.
وكان مولده بها في سنة ٢٦٩ هـ.
وقد

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحات ٢٧ و ٣١.
(٢) جذوة المقتبس رقم ٧٨٧.
(٣) جذوة المقتبس رقم ٦٢٦.

(٦٩٨/١)

برع ابن مسرة في العلوم الدينية، ولكنه جاهر ببعض الآراء المغرقة، في التأويل
والقدر وغيرها، فاتهم بالزندقة وغادر الأندلس.
فاراً إلى المشرق وذلك في سنة
٢٩٨ هـ، ودرس هنالك على أيدى المعتزلة، والكلاميين وأهل الجدل.
ثم عاد
إلى الأندلس وهو يخفى نحلته وآراءه الحقيقية، تحت ستار من النسك والزهد.
وكان
يتخذ لنفسه غاراً يتعبد فيه على مقربة من جبل قرطبة، حتى سمى بالجبلى.
واختلف إليه الطلاب من كل صوب.
وكان يستهويهم بغزير علمه وجزالة
بيانه، حتى ذاعت شهرته، وتبعه الكثيرون من الصحب والتلاميذ.
وقد اختلف
في أمر ابن مسرة، فبعضهم يسمو به إلى مرتبة الإمامة في العلم والزهد
والورع، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع.

وتوفى ابن مسرة بقرطبة سنة
٣١٩ هـ (٩٣١ م) (١) .
على أن تعاليم ابن مسرة لبثت بعد ذلك حية ذائعة، طوال عهد الناصر، وقام
جمهرة من أهل السنة، بمعارضة تعاليمه وإنكارها، ووصل صوتهم في ذلك
إلى الخلافة، واضطر الناصر إلى أن يصدر باسمه بياناً
في سنة ٣٤٠ هـ، يستنكر فيه تعاليم ابن مسرة وتلاميذه، ويرميهم بالمروق،
والخروج عن تعاليم السنة الحقيقية، وقد أورد لنا ابن حيان هذا البيان الفريد
في المقتبس (٢) ، وقد تحدثنا فيما تقدم عن ابن مسرة وحركته، ولخصنا
كتاب
الناصر في شأنها.
وفى عصر الناصر بالذات ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس، هو
أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدى الإشبيلى، وقد ولد بإشبيلية في سنة ٣٢٦
هـ، وظهر منذ حداثته ببراعة شعره وروعة افتتانه، ولكنه اتهم بالكفر والزندقة.
فغادر الأندلس، ولحق بالبلاط الفاطمى بالمهدية، والخليفة المعز لدين الله
يتأهب عندئذ لغزو مصر، فأغدق عليه المعز عطفه ورعايته.
ولما سار المعز إلى
مصر، سار ابن هانىء للحاق به، ولكنه توفى في طريقه في سنة ٣٦٢ هـ.
وقد
ُشُبه ابن هانىء بالمتنبى في رصانة شعره، وروعة افتتائه، ومن أشهر
قصائده
قصيدته التي يصف فيها جيش المعز الذاهب إلى فتح مصر، بقيادة جوهر
الصقلى، والتي يقول فيها:

---

(١) ابن الفرضى رقم ٦٥٢.

(٢) وذلك في النسخة الخطية من السفر الخامس من المقتبس المحفوظة

بخزانة القصر الملكى

يالرباط بالمغرب وقد نقلناه منه، ونشرناه في آخر الكتاب.

(٦٩٩/١)

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع..

.

وقد راعنى يوم من الحشر أروع

غداة كان الأفق سد بمثله..

.

فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

فلم أدر إذ ودعت كيف أودع..

.

ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع

ألا إن هذا حشد من لم يذق له..

.

غرار الكرى جفن ولا بات يهجع

إذا حل في أرض بناها مدائنا..

.

وإن سار عن أرض غدت وهى بلقع

تحل بيوت المال حيث محله..

.

وجم العطايا والرواق المرفع

رحلت إلى الفسطاط أول رحلة..

.

بأيمن فأل في الذى أنت تجمع

فإن يك في مصر ظمأ لمورد..

.

فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ويمنهم من لا بغار بنعمة..

.

فيسلبهم لكن يزيد فيوسع

وكان من أعلام الشعر في عصر الناصر أيضاً الوزير جعفر بن عثمان المصحفى، الذى تولى الحجابة فيما بعد لولده الحكم المستنصر، وتوفى في سنة ٣٧٢ هـ في سجن

الزهراء، ضحية لمنافسه القوى محمد بن أبي عامر المنصور.

وقد أوردنا من شعره

فيما تقدم في غير موطن.

وظهر في عصر الناصر عدد من أكبر الكتاب البلغاء، في مقدمتهم كاتب الناصر الأثير عبد الله بن محمد الزجّالى، وهو الذى أنشأ عن لسانه البيان الخاص

بمروق ابن مسرة الذى سبقت الإشارة إليه.

وكان الناصر نفسه عالماً أديباً، يهوى الشعر وينظمه، ويقرب الأدباء والشعراء.

وكان في مقدمة شعراء دولته وآثرهم لديه الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وذلك حسبما أشرنا في موضعه.

وظهرفى عهد الناصر عدة من أعلام المؤرخين الذين وضعوا أسس الرواية الأندلسية.

أولهم أحمد بن محمد بن موسى الرازى، وقد ولد الرازى سنة ٢٧٤ هـ وتوفى سنة ٣٤٤ هـ.

ومن تصانيفه " أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم

ونكباتهم "، وكتاب " الإستيعاب في أنساب أهل الأندلس "، وكتاب في " صفة

قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ".
وقد كانت رواية الرازى مستقى خصباً
لمؤرخي الأندلس، وفي مقدمتهم عميدهم ابن حيان.
وظهر قرينه ومعاصره ابن القوطية، وهو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن عيسى بن مزاحم، ويعرف بابن القوطية لانتسابه بطريق النسب إلى

*(٧٠٠/١)*

سارة القوطية إبنة وتيزا ملك القوط.
وقد ولد بقرطبة وتوفى بها سنة ٣٦٧ هـ
(٩٧٧ م) ، وكان راوية متمكناً حافظاً لأخبار الأندلس.
وسير أمرائها وأخبار
علمائها وفقهائها وشعرائها.
وقد كتب تاريخه المسمى " تاريخ افتتاح الأندلس ".
وكان فوق ذلك من أئمة عصره في اللغة والنحو، وله في ذلك مؤلفات قيمة، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه، وتؤخذ عنه.
ومن أعلام المؤرخين في ذلك العصر أيضاً أحمد بن موسى العروى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ، وقد ألف كتاباً عنوانه " تاريخ الأندلس ".
واستمرت النهضة الفكرية، التي ازدهرت في عصر الناصر، وفي عهد ولده الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) وازدادت قوة وازدهاراً.
وكان الحكم، وهو الخليفة الأديب العالم، رائد هذه الحركة الفكرية العظيمة.
وكان من ظواهرها
قيام جامعة قرطبة العظيمة، واحتشاد أكابر الأساتذة بين عقودها، وإنشاء المكتبة الأموية الكبرى، التي بذل الحكم في إنشائها من الجهود العظيمة والأموال
الزاخرة ما لم يسمع بمثله، حتى بلغت محتويات هذه المكتبة الفريدة زهاء أربعمائة

ألف مجلد، من مختلف أصناف العلوم والفنون.
وكثرت المكتبات العامة والخاصة، وبلغ شغف اقتناء الكتب أشده في ذلك
العصر، واحتشد حول بلاط الحكم، جمهرة
من أكابر العلماء، في مقدمتهم الحافظ أبو بكر بن معاوية القرشى، وأبو على
القالى
ضيف الأندلس يومئذ، والأديب المؤرخ محمد بن يوسف الحجارى، وإمام
النحو
والرواية ابن القوطية، وربيع بن زيد الفيلسوف والعلامة الفلكى النصرانى،
وغيرهم.
وظهر في تلك الفترة جمهرة من الشعراء المبرزين، وكان في مقدمتهم طاهر
ابن محمد البغدادى، الوافد من المشرق إلى الأندلس، وكان يعرف بالمهند.
وكان
شاعراً محسناً، مدح الحكم المستنصر، ثم مدح المنصور بن أبي عامر بعد
ذلك، وحظى
لديه، وقد اتهم بالغلو في بعض الآراء الدينية.
ومن شعره قوله:
متى أشكر النُّعمى التي هى جنتى..
.
ففى ظلها أمسى وفي ضوئها أضحى
إذا قلت قد جازيت بالشكر نعمة..
.
شفعت بأخرى منك دائمة السفح
فحمدى لا ينأى وفضلك لاينى..
.
وأرضى لا تصدى وأفقك لا يضحى (١)
ومنهم محمد بن مطرف بن شخيص، وكان من أهل الأدب البارع، ومن

---

(١) واجع جذوة المقتبس للحميدى (مصر) رقم ٥١٥، وبغية الملتمس رقم ٨٥٩.

(٧٠١/١)

أعيان الشعراء المجيدين، كان متصرفاً في القول، متقناً لأساليب الجد والهزل، وكان
من أخص شعراء بلاط الحكم، وله شعر كثير، ومن شعره في تهنئة الحكم بوفود
جعفر ويحيى ابنى حمدون، وتقديم طاعتهم إليه، قصيدة طويلة، هذا مطلعها:
بأيمن إقبال وأسعد طائر..

.

تباشير محتوم من الأمر واقع
توافت بملك من معدِّ مقوض..

.

لملك إلى مهدى مروان راجع
فيا لك من بشرى سرور تضمنت..

.

بلوغ الأمانى عن سعود الطوالع
ومن قوله في الغزل:
فهل من شفيع عند ليلى إلى الكرى..

.

لعلى إذا ما نمت ألقى خيالها
يقولون لى صبراً على مطل وعدها..

.

وما عدت ليلى فأشكو مطالها

وما كان ذنبى غير حفظ عهودها..

.

وطى هواها واحتمالى دلالها (١)

ومنهم محمد بن الحسين التميمى الطبنى، أصله من طبنة، بلد بأرض الزاب بالمغرب، وكان شاعراً محسناً، وأديباً بارعاً من بيت أدب وجلالة ورياسة، وكان من شعراء الحكم الأثيرين.

ومن شعره يهنىء الحكم بحلول عيد الأضحى:

بخلت بجوهر لفظها أن يلقطا..

.

لما رأته من الجواهر أبسطا

يا أيها الملك المتوج بالهدى..

.

نوراً على غسق الظلام مسلطا

صل عيدك البهيج السنا في غبطة..

.

وازدد من الأعياد ألفا مغبطا (٢)

ومنهم يحيى بن هذيل، وكان من أهل العلم والأدب والشعر الجيد، وتوفى سنة ٣٨٦ هـ، ومن شعره:

لم يرحلوا إلا وفوق رحالهم..

.

غيم حكى غبش الظلام المقبل

وعلت مطارفهم مجاجت الندى..

.

فكأنما مطرت بدرٍّ مرسل

لما تحركت الحمول تناثرت من..

.

فوقهم في الأرض تحت الأرجل

فبكيت لو عرفوا دموعى بينها..

.

لكنها اختلطت بشكل مشكل (٣)

ومنهم، ومن أشهرهم يوسف بن هارون الرمادى القرطبي المعروف بأبى جنيش، كان من أشهر شعراء الأندلس في وقته، واشتهر بالأخص بشعره

---

(١) جذوة المقتبس رقم ١٤٤.

وبغية الملتمس رقم ٢٧٦، والمقتبس، قطعة أكاديمية التاريخ

ص ٥٤ و٦٠.

(٢) جذوة المقتبس رقم ٣٨، والمقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٤.

(٣) جذوة المقتبس رقم ٩٠٧، وبغية الملتمس رقم ١٤٩٤.

*(٧٠٢/١)*

الهجائى، وكان سريع البديهة مشهوراً عند العامة والخاصة، لسلوكه في فنون مختلفة

من المنظوم.

ومدح الرمادى الحكم المستنصر، ولكنه وقع تحت طائلة غضبه

لما صدر منه من شعر قاذف في حقه، وأمر باعتقاله مع باقى الشعراء الهجائيين، حماية للناس من ألسنتهم، وزج الرمادى إلى السجن مدة، وكتب خلال اعتقاله

كتاباً سماه " كتاب الطير " وصف فيه كل طائر معروف.

ثم عفا عنه الحكم

وأطلقه مع باقى إخوانه.

وتوفى الرمادى فقيراً معدماً أيام الفتنة في سنة ٤٠٣ هـ.

ومن شعره قوله:

لا تنكروا غرر الدموع فكل ما..

.

ينحل من جسمى يصير دموعا

والعبد قد يعصى وأحلف أننى..

.

ما كنت إلا سامعاً ومطيعا

قولوا لمن أخذ الفؤاد مسلماً..

.

يمنن على برده مصدوعا (١)

ونبغ في تلك الفترة عالم من أعظم علماء اللغة في الأندلس، هو أبو بكر محمد

ابن الحسن ائزبيدى النحوى الإشبيلى.

وقد وضع في اللغة والنحو عدة كتب

مشهورة منها " الواضح " و" لحن العامة " " وأخبار النحويين "، كما وضع مختصراً لكتاب " العين "، إلى غير ذلك.

وكان في نفس الوقت أديباً بارعاً، وشاعراً محسناً، وقد أورد لنا الحميدى شيئاً من نظمه، وندبه الخليفة الحكم، حسبما أسلفنا في موضعه لتدريس اللغة لولده هشام، وألزمه بالبقاء في قرطبة، ولم يأذن له بالرجوع إلى وطنه إشبيلية.

وتوفى الزبيدى قرابة سنة ٣٨٠ هـ (٢) .

وكان الخليفة الحكم المستنصر نفسه، فوق تمكنه من العلوم الشرعية وتحقيق الأنساب، أديباً ينظم الشعر الرائق.

وقد أوردنا من قبل في موضعه شيئاً من نظمه.

ثم كان الانقلاب العظيم، في مصاير الخلافة الأموية، وتغلب محمد بن أبى عامر أو الحاجب المنصور على الدولة، وكان من حسن الطالع أن المنصور

بنشأته وخلاله العلمية اللامعة، كان من أعظم رواد الحركة الفكرية، وكان

المنصور
عالماً متمكناً من الشريعة والأدب، بارعاً في النثر والنظم، وقد ذكرنا فيما تقدم
شيئاً من نثره ونظمه.
وكان يعشق مجالس العلماء والأدباء، حتى أنه كان خلال
الغزو، يصطحب معه طائفة من الكتاب والشعراء، ينتظمون في مجلسه
خلال

---

(١) الصلة لابن بشكوال رقم ١٤٩١، وجذوة المقتبس رقم ٨٧٨.
(٢) جذوة المقتبس رقم ٣٤.

(٢٠٣/١)

السير، وكان شاعره الأثير أبو العلاء صاعد بن حسن البغدادى المتوفى سنة
٤١٧ هـ، وكان قد وفد من المشرق على الأندلس، في أوائل عهد المنصور،
وكان عالماً
باللغة والأدب والتواريخ، فقربه المنصور، وأغدق عليه عطفه، وجمع له
صاعد كتاباً سماه " بالفصوص في الآداب والأشعار والأخبار " فأثابه عنه
المنصور
بخمسة آلاف دينار، وأمر أن يقرأه على الناس بمسجد الزاهرة (١) .
بيد أن المنصور، بالرغم من شغفه بالعلم والأدب، لم يبد تسامحاً إزاء الفلسفة
والفلاسفة، أو بعبارة أخرى إزاء الأفكار الحرة.
وقد كانت هذه النزعة الضيقة
الأفق، تمثل نفس التيار الذى يندفع فيه كل حاكم مطلق.
وقد رأينا فيما تقدم
كيف طورد عباس بن فرناس، في عهد عبد الرحمن بن الحكم، واتهم بالزندقة
لما أبداه من براعة علمية وفنية خارقة، وكيف طورد تلاميذ ابن مسرة
وطوردت

تعاليمه في عهد الناصر، وأصدر الناصر منشوره بتكفيره وتكفير تلاميذه، وقد استمر هذا التيار الرجعى فيما بعد في عهد الطوائف، حيث أحرقت كتب حزم، وفيما تلا بعد ذلك من عهود، وذلك حسبما نذكره في موضعه.

وكان من أعظم شعراء الأندلس في عصر المنصور أبو عمر أحمد بن محمد ابن درّاج القسطلى.

وكان كاتباً بليغاً من كتاب ديوان الإنشاء، وشاعراً لامعاً في نفس الوقت.

وقد نبغ في ميدان الشعر نبوغاً جعله عمدة شعراء عصره.

وكان

من شعراء المنصور المقربين، وله فيه مدائح رائعة، نقلنا بعضها فيما تقدم، ولما توفى المنصور في سنة ٣٩٢ هـ، تجول ابن دراج في أنحاء الأندلس، ومدح

بعض أمراء الطوائف، مثل خيران العامرى صاحب ألمرية، ومبارك ومظفر صاحبا بلنسية، والمنذر بن هود صاحب سرقسطة.

وقد قال العلامة ابن حزم

في حقه، إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج، وتوفى ابن دراج في سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) (٣) .

وكان من أكابر الفقهاء والحفاظ في عصر المنصور، عبد الرحمن بن فطيس قاضى الجماعة بقرطبة، وكان من أئمة المحدثين وكبار العلماء، حافظاً متمكناً من

الحديث، عارفاً بأسماء الرجال، وله مشاركة في مختلف العلوم، وتقدم فى

---

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال (مصر) رقم ٥٤٠.

(٢) راجع جذوة المقتبس للحميدى رقم ١٨٦، وبغية الملتمس للضبى رقم ٣٤٢.

معرفة الآثار والسير والأخبار، وكان جمّاعة للكتب، وقد جمع منها ما لم يجمعه
أحد من أهل عصره بالأندلس.
تقلد قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ، مقروناً
بولاية الصلاة والخطبة، وذلك إلى جانب عمله في الوزارة، وذلك أيام المظفر
عبد الملك المنصور، وكان مشهوراً في أحكامه بالنزاهة والصلابة في الحق، ونصرة
المظلوم، وله مؤلفات كثيرة منها كتاب " أسباب نزول القرآن " و" كتاب فى
فضائل الصحابة " و" أعلام النبوة ودلالات الرسالة " و" مسند حديث محمد بن
فطيس " وغيرها، وتوفى ابن فطيس أثناء الفتنة البر رية في سنة ٤٠٢ هـ (١).

* * *

ولما انقضى عهد الدولة العامرية، وانهارت الخلافة الأموية، واضطرمت
الفتنة بالأندلس، انكمشت الحركة الفكرية، وشغلت الأمة الأندلسية بما دهاها
من أمر الفتن المتوالية، وتعاقب الرياسات، ومع ذلك ففى غضون الفتنة، نجد
من الخلفاء من يتذوق الشعر وينظمه.
فقد كان الخليفة سليمان المستعين، أديباً
متمكناً، وشاعراً مطبوعاً، أشاد ابن بسام بأدبه وشاعريته.
وقد أوردنا له
فيما تقدم قصيدته الرائعة التي يعارض فيها شعر الخليفة الرشيد.
وكذلك كان
الخليفة المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول، وقد نوه ابن بسام بمواهبه
الأدبية، وأورد له طائفة من القصائد الجيدة.

وحتى في ظل الخلافة الحمودية البربرية، كان للأدب والشعر دولة ومكانة، وكان الخليفة العالى خليفة مالقة أديباً ينظم الشعر.

وكان من شعراء دولته الشاعر

الكبير، عبد الرحمن بن مقانا الأشبونى، وكان أديباً بارعاً، وشاعراً متقناً، وهو الذى مدح العالى بقصيدته الشهيرة التي مطلعها:

البرق لائح من أندرين..

.

ذرفت عيناك بالماء المعين

ونكتفى بتلك الصورة الموجزة، عن سير الحركة الفكرية الأندلسية، فى عهد الإمارة، وعهد الخلافة.

وقد ذكرنا فيما تقدم أثناء استعراضنا لتاريخ

هذين العهدين كثيراً من تفاصيلها، وأشرنا إلى كثير من أعلام الفكر والأدب، ممن لم نر أن نعود إلى ذكره في هذا الفصل.

---

(١) الصلة لابن بشكوال رقم ٦٨٢.

*(٧٠٥/١)*

الوثائق والملحقات

*(٧٠٧/١)*

وثائق تاريخية

- ١ -

كتاب الخليفة الناصر لدين الله

بشأن حركة ابن مسرة

(منقول عن السفر الخامس من كتاب " المقتبس " لابن حيان، وهو المخطوط المحفوظ

بالخزانة الملكية بالرباط لوحات ١٣ و١٤ و١٥) .

" وأنفذ الخليفة الناصر لدين الله إلى آفاق مملكته، شأن هؤلاء المبتدعة (يعنى تلاميذ ابن مسرة) كتاباً طويلا قرىء عليهم بأمصارهم، من إنشاء الوزير الكاتب

عبد الرحمن بن عبد الله الزجّالى، نسخته:

" بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن الله تعالى جده، وعز ذكره، جعل دين الإسلام أفضل الأديان، فأظهره وأعلاه، ولم يقبل من عباده غيره، ولا رضى منهم سواه، فقال في محكم تنزيله: " ومن يتبع غير الإسلام دينا، فلن يقبل منه..

.

" الآية، وقضى في محتوم أمره، ونفاذ حكمه، أن تنسخ به

الديانات، ويختتم برسالته الرسالات، فبعث محمداً خاتم النبيين، وأكرم الأكرمين، وأعز الخلايق على رب العالمين، بأن كتب الصلاة والسلام عليه في عرشه قبل أن يخلقه، واصطفاه لأمانته قبل أن يكونه، وأرسله بأفضل دين سماه حنيفاً إلى خير أمة اختارها..

.

كما قال عز من قائل، إذ عرّفنا فضل

ما هدانا إليه من الدين، وكرمنا به على سائر الأمم: " كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر..

.

" الآية.

فله جل جلاله، وتقدست أسماؤه، الشكر على خصايص هذه الفضيلة، والحمد بالمنة الجليلة، فقد استنقذ من الغواية وهدى، فأحسن الهداية، وأبان الحجة، وكفانا بواضح

المناهج مؤنة الفكرة، ونظم زمام الأمة، وجمع وجوه السعادة العاجلة، النجاة الآجلة في تأليف الجماعة، واجتبا فيهم رعاية الفرقة، حيث يقول عز وجهه،

لنبيه صلى الله عليه وسلم..
به وبعباده المخصوص بهداه، ورأفة بسطها على خير..
وإعلاما لهم..
.
بتواصل الدين من قبله لأنبيائه..
.
وكراهته لاختلافهم بعد رسول الله
صلى الله عليه وسلم: " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً، والذى أوحينا

(٧٠٨/١)

إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا
فيه..
.
" الآية.
فخوف وحذر، ونهى عن افتراق الكلمة، ونبه على البعد، ونفى الله الخبيث
عنها، وفضلها على ساير البلدان، واستقر فيها الدين، كهيئته
يوم أكمله الله لعباده.
ولما استوسقت الطاعة، وشملت النعمة، وعم الأقطار، بعدل أمير المؤمنين،
السكون والدعة، طلعت فرقة لا تبتغى خيراً، ولا تأتمر
رشداً، من طغام السواد، ومن ضعف آرايهم، ومن خشونة الأوغاد، كتباً
لم يعرفوها، ضلت فيها حلومهم، وقصرت عنها عقولهم، وظنوا أنهم فهموا
ما جهلوا، وتفقهوا فيما لم يدركوا، واستولى عليهم الخذلان، وأحال عليهم
بخيله ورجله الشيطان، فزينوا لمن لا تحصيل لهم، ولقوم آمنين لا علم
عندهم، فقالوا بخلق القرآن، واستيئسوا، وآيسوا من روح الله، ولا ييأس من روح
الله إلا القوم الكافرون، وأكثروا الجدل في آيات الله، وحرموا التأويل فى
حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبريت منهم الذمة بقوله تقدست

أسماؤه:

" ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون، الذين كذبوا بالكتاب،

وما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون، إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل

يسحبون.

في الجحيم ثم في النار يُسجرون.

فهذا أبلغ الوعيد، وأفضع النكال، لمن جادل

في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه: ليضل عن سبيل الله

له فى

الدنيا خزى، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق..

.

" ثم تجاوزوا في البهتان، وسدوا على أنفسهم ألوان الغفران، فأكذبوا التوبة،

وأبطلوا الشفاعة، ونالوا

محكم التنزيل، وغامض متن التأويل، بتقدير عقولهم: فأما الذين في قلوبهم

زيغ

فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله،

والراسخون في العلم، يقولون آمنا به، كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولو

الألباب.

فصاروا بجهل الآثار، وسوء حمل الأخبار إلى القدح في الحديث، وترك نجح

السبيل، فأساءوا الفهم عن العوام، وأقدموا بمكروه القول في السلف

الصالح، واستبدلوا على نقلة الحديث، ووضعوا من الكتب لوضعها، وتابعوا

شهواتهم فيها، وتتابعوا فيما..

.

وورطهم، ورأوا لتخضع وحشة بحثها لازم الضلالة، وداعية الهلكة، والشذوذ

عن مذهب الجماعة، من غير نظر نافذ في دين، ولا

رسوخ في علم، حتى تركوا رد السلام على المسلمين، وهى التحية التي

نسخت

تحية الجاهلين.

خلافاً على أدب الله تعالى، وقوله جل جلاله: وإذا حييتم

(٧٠٩/١)

بتحية، فحيوا بأحسن منها أو ردوها، وقالوا بالاعتزال عن العامة وشدوا..

.

وكشفوا بتكررهم الذين يستمعون القول، فيتبعون أحسنه، فلجوا في جهالتهم، وتاهوا في غيهم، ونكسوا على رؤوسم، حقداً على الأمة الحنيفة، واعتقاداً لبغضتها، واستحلالا لدمايها، وزرعاً إلى انتهاك حرمها، وسبى ذراريها، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر، لولا أن سيف أمير المؤمنين

من ورائهم، ونظره محيط.

ولما صار غيهم فاشياً، وجهلهم شايعاً، واتصل

بأمير المؤمنين من قدحهم في الديانة، وخروجهم عن الجادة، فأشغل نفسه، وأقض مضجعه، وأسهد ليله، أغلظ أمير المؤمنين في الأخذ فوق أيديهم، وأوعز إيعازاً شديداً، وأنذر إنذاراً فظيعاً، وعهد عهداً مؤكداً شافياً كافياً، نظر به لوجهه تبارك اسمه، وقدم فيه بين يدى العقاب الشديد، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرته، ليفزع قلب الجاهل، ويفت كبد المستهتر

الحاير، وينقض عزم العاند المعاجل، ويضطر الغواة إلى الإثابة الصحيحة، التي يتقبلها الله منهم، أو يكشف عن الأذهان سراريهم فيكون عليهم شهيداً، ويأتيهم عذاب غير مردود.

ورأى أمير المؤمنين أن يشمل بنظره أقطار كوره، ويرسله في بدوه وحضره، وأن ينفذ عهوده إليك، وإلى ساير قواده، وجميع

عماله بها، يقرأ على منابر المسلمين، ولا يحرم القاصى ما عم الدانى من تطهير

هذا الرجز وتمحيصه، وكفاية المسلمين شبهته وفتنته، فلم يحل الديار، ولا تعقب
الآثار، ولا استحق البلا على قوم، ولا أهلك الله أمة من الأمم، إلا بمثل ما تكشف هذه الطغمة الخبيثة، من التبديل للسنة، والاعتداء في القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الأمين، صلوات الله عليه وسلم، هذا عند وروده عليك فى قبلك، ونشره في سماع رعيتك، وتتبع هذه الطايفة بجميع أعمالك، وابثث فيهم عيونك، وطالب فيهم غورهم جهدك، فمن تحلى منهم بما انتسب إليهم، وقامت عليه البينات بذلك عندك، فاكتب إلى أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم، وأسماء الشهود عليهم، ونصوص شهاداتهم، لنعهد باستجلابهم إلى باب سدته، لينكلوا بحضرته، فيذهب غيظ نفسه، ويشفى حنين صدره، وإياك أن تهون من
أهل الريبة، وتتخطاهم إلى ذوى السلامة والأحوال الصالحة، فإن فرطت فى أحد الأمرين أو كليهما.
فقد برىء الله منك، وأحل دمك، ومالك، فاعلمه، واعتد به إن شاء الله تعالى ."

(٧١٠/١)

- ٢ -

كتاب الخليفة الناصر لدين الله

عن غزوة الخندق

" منقول من السفر الخامس من كتاب " المقتبس " لابن حيان، وهو المخطوط المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط، في حوادث سنة ٣٢٧ هـ) .

قال ابن حيان: وأما لفظ كتاب الفتح الوارد من قبل الناصر لدين الله إلى الحضرة بخبر هذه الغزوة من إنشاء عيسى بن فطيس الكاتب، فإن الفصل الذى
رفع فيه خبر هذه الوقعة، وقع كما أثبته هاهنا:

" واستعزم الله أمير المؤمنين ليلته، واستخاره عن رحمته في النهوض إلى مدينة شنت مانكش دار الكفرة ومجمع النصرانية، التي إليها استركن عدو الله، وضاقت الحيل عليهم، ووثقوا بحصانته، ليعلمهم أن كلمة الله هى إظهار دينه، ونصر أوليائه، وإعزاز خلفايه، في مشارق الأرض ومغاربها، ولو كره المشركون، فضم صاحب المقدمة عمال الثغور عندهم وفرسانهم وخيلهم، واكتنف الجمع في مجنبتى العسكر مع من والاهم، وجرد الرجالة من الخيول بأسلحتهم، وصمد لجمع المشركين، فاستقبلهم بنية صادقة، ونفس صابرة، وجموع كثيفة، وكتايب تملأ الفضا، ومغانب تضيق عنها الشعاب، وبصير في سهل الأرض كالآكام، تتألق عليهم سوابغ الدروع، فإذا تداعوا، قلت موج تراكم، وإذا وقفوا فكأنما النقع عليهم ليل مظلم.

فلما قربت العساكر من

محل الخنازير، ثابوا فيما بينهم، وثاروا إلى خيولهم، وعلوا الشراقين، ينظرون إلى كتايب دين الله، بقلوب قد خلعها الذعر، وقبضهم عن التقدم الوجل، وجعلوا بينهم وبين المسلمين وادي بشررقه، ثقة بوعورته، وقلة مخاوضه، فلم ترعهم إلا مقدمة الجيش وراءه، قد سهل الله عليهم جوازه، وتبعتهم الأثقال، وتحيز أمير المؤمنين كدية سامية، يتطلع منها على عسكر المسلمين، فأمر بالاضطراب

فيها للعسكر، وتقدمت الخيول بين يديه، وقد قلاحقت جموع الكفرة، وقدموا صلبانهم، ووثقوا بشيطانهم الذى غرهم.

وكان المسلمون على نشطة إلى لقايهم، فلم ينتظر أولهم إلى أن توافى آخرهم، ولا فارسهم أن يقتعد براجلهم، وتخطوا

(٧١١/١)

الرماح إلى السيوف، والطعن إلى الضرب، وكروا في حومة المنايا، كرّ من يحمى حليله، ويخشى بعد ساعة أن تسبى ذريته، فلم ير المسلمون حرباً مثلها، ولا شهدوا يوم وغى أطول من يومهم ذاك.

ونصر الله تعالى يهون عليهم ما هم
فيه، حتى فضوا جموع المشركين (لوحة ١٤٣ أ) ، وزلزلوا ردؤهم التي كانت أكاليل الجبال، وردم الشعاب، وضمهم إلى.
معسكرهم، وأثارت سنابك
الخيل من القتام، ما غيب من كان في القلب عمن يليه من يمين الحرب ويسارها.
وكان محمد بن هاشم في وقدتها حاثاً سعيره قد طال به مدامها، واستدارت حوله رحامها، فكبا به فرسه، ولم يعلم أحد بمصرعه، فصار في أيدى الخنازير
أسيراً، فاستشفوا به الحياة.
بعد اليأس منها، فجالدوا بنفوس قد عاودتها رمقها، وانحاز المسلمون إلى معسكرهم، قد قتلوا من أعلام المشركين وقوامسهم وأهل
البأس من فرسان الحرب، ومن صبر لوقع السيف، فكانت مصيبتهم بمن قتل منهم عظيمة، فلما أصبح أمير المؤمنين لمحلته، أمر بحمل من عقر فرسه، وصلة
من أغنى في حربه، وتعرض المشركون للحرب تعرض من قد تنخل لعدو قد أصابهم، ونكايته قد فلقت قلوبهم.
فلما كان في اليوم الثالث من احتلاله، عهد
أمير المؤمنين إلى صاحب العسكر بمصاحبتهم بالحرب، وقد تلاحقت بهم المدود
من أقصى بنبلونة وألبة والقلاع، وأهل قشتيلة، إلى مشركى قلمرية، وكل صنف من أصناف العجم معهم، وهتف على المسلمين بالخروج تحت راياتهم، والتأهب للقاء عدوهم، وأغدوا في نهوضهم، ونزل صاحب العسكر، فرتب تعيينهم، فكثف الردوء، وضم إليها الرجال، وألزم القلب بنفسه، وميز فيه خيل الميمنة والميسرة، وقدم إليهم المقاتلة، وأقام بين يديه جملة الخيل عدة، فإذا رأى في جهة من جهات الحرب خللا سده واستدركه، أو فتقاً رتقه، حتى

كانت أيدى المسلمين في الماقط عالية، فتلظت الحرب واحتدمت، وكأن المنايا
إنما قصدت فيها أعلام الكفرة وقوامسهم، فصرع قومس غرماج، وابن أخى الخنزير ابن فرذلند، وشيخ النصرانية وعميدها ابن دخبر، إلى العدد الجم من فرسانهم، وأهل الصبر منهم، وانجلت الحرب عن هزيمتهم، وانكشاف أجبل قد كانوا علوها، وسدوا بالخيل والرجال ما بينها، وظنوا أن لا غالب لهم، فزلزلوا زلزالا شديداً، وانصرف المسلمون بعد الظفر والسلامة في المنقلب،

(٧١٢/١)

فباتوا بأنعم بال، وأسكن حال.
فلما ظن أعداء الله أن قد ملوا حربهم، وتجددت
لهم مدودهم، رفعوا معسكرهم، وقدموا صلبانهم، وخرجوا بفارسهم وراجلهم فألقوا إلى ما يلى منهم العسكر، سراع خيولهم، فبادر المسلمون إليهم تبادر الأسود
الضارة، فغادرو موقفهم، وجالدوا بسيوفهم، حتى انفرج الموقف عن قتل عظيم من عظمائهم، وأعولوا عليه، واستداروا حواليه، وانصرفوا قد أذلهم الله، ووهنهم، وهون عليهم جمعهم، ووفور مددهم، في ضبط المعيشة، وقلة التبسط،
ومصابحة الحرب ومماساتها، حتى كأنهم أهل حصن حوصروا فيه، أو فل جيش
لا يستطيعون الرجوع إليه.
وأقام أمير المؤمنين ومن معه من جيوشه وحشده،
وأهل البصاير والحفايظ، وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمل من إذلال جميع المشركين،
والاحتلال بساحتهم، وانحياز طاغيتهم في أعلى شاهق، يرجو النجاة بنفسه، فأمر

بالرحيل وقد ضاعف النظر، والعدو في ضبط ساقة جيشه لا توقع خروج
الكفرة
في أثره.
وأصبح منتقلا، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد
على رأس جبل، ونهض يطأ بلادهم وطأة متثاقل، حتى انصرف إلى نهر
دويرة،
واستقبل عمارته من حصن مانكش التي اتصلت بنكاية أهله، فلم يدع فى
جليقية حصناً إلا هدمه، ولا معاشاً إلا انتسفه، حتى انتهى إلى مدينة روضة،
وهى خالية على عروشها، فأقام على هدمها، وهدم حصن دبيلش معها،
يومين
كانا أطول على أعداء الله من عامين، لما غير فيهما من نعمهم، وهدم من
مساكنهم،
وقطع من شجرهم.
وكان أمير المؤمنين يَرَ التقدم على نهر دويرة إلى شنت إشتيبن
وغرماج لنقص الزروع لديه وضيق (١٤٣ ب) العلف بإفساده.
فرفع إليه
من حضره من أهل مدينة الفرج وحصونها، يشكون ما يلقونه من مشركى
وادي أبينه، ومعاقلها، وترددوا عليه ضارعين إليه، أن يجعل ممر الجيش
المؤيد
على حصونهم وعمارتهم، وذكروا أن ذلك أنفع لهم ولأهل الثغور معهم، من
الإيغال في بلد المشركين، ونكاية من لا ينالهم بغارة، ولا ينهض إليهم بقوة،
فصرف الجيوش عند ذلك إلى وادي أبينه، فلم يدع فيها حصناً إلا هدم، ولا
قرية إلا هدمت، ولا معاشاً إلا استقصى جميعه.
فلما صار في آخره ولم يبق موضع
يقوم الجيش بالتردد عليه، أمر الأدلاء بالكشف عن أفضل الطرق إلى حصن
أنتيشه، وأرفقها بالمسلمين في منصرفهم برازح ظهرهم، وأحوط عليهم فى

(٧١٣/١)

طريقهم، وأجمعوا على قصد حصن قشترب، وأيأسوا من الخروج على غيره، فلما استقبل أمير المؤمنين لامه، وقطع بعض محلته، وقطع بعض محلته، استقبل شَعْراء لا يتخللها
المتفرد بحمده، ولا يتخلص منها المخف، لو لم يكن أحد يعترضه.
ثم أشرف
على خنادق قفرة ومهاو تتقاذفه، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون وقدموا إليها، وألقوا إلى ساقة الجيش فرسانهم، فدارت عليهم الحرب، وصرع فيها من جلة فرسانهم، ومتقدمى رجالهم جملة، لو أصيبت بحيث يتراء الجمعان لكانت سبب هزيمتهم، ولكنهم وثقوا بالوعد، وانتظروا تقدم الحماة وترادف الأثقال، فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ساعات من النهار، حتى تقدم أكثرهم، وجارت الخندق لقتالهم، إلا من ضعفت دابته، ْأو ضعفت تعبئته عن استنفارها.
فلما رأوا الخلل تصايحوا من قنن الجبال،
وانحطوا من أعاليها انحطاط الأوعال، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة، ما لو أصاروا مثله في مجال حرب أو سهل من الأرض، لما أنكر مثله عند مقارعة الرجال، وتصرف الأحوال.
وحامى صاحب العسكر عن كل من
أجاز الخندق وخلص من مضايقه، حتى أسهلوا، واجتمع لأمير المؤمنين جيوشه وانتظمت جموعه، وسلم الله رجاله، فلم يصب منهم أحد.
وفى ذلك دليل
للسامع عن الموقعة أنها لم تدر بغلبة، ولا ظفر المشركون أظفروا به فيها عن مساواة ولا كثرة، ولكن ضيق المسالك، ووعر الطريق، وسوء فهم الدليل، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التي لا تصرف، ومحنه التي لم يزل يمتحن بها

أولياءه، ليعظهم، ويبتلى عبيده ليرهبهم، وأمير المؤمنين، شاكر لله تعالى
على عظيم نعمه، وواقف على تصرف محنته، مستسهل ما اختص به في
حب
طاعته، ضارع إلى الله في التقبل لقوله وفعله.
وكتابه إليك، وهو قافل بالمسلمين
على أحسن أحوالهم، وأسهل طريقهم، وأجمعه بمعايشهم، إن شاء الله.
فأمر
بقراءة كتاب أمير المزمنين على الناس قبلك أثر صلاة الجمعة ليشكرو الله
على
ما أنعم به من نصر إمامهم، وسلامة إخوانهم، والصنيع الذى عمهم، فإنه
يحب
الشاكرين، ويزيد الحامدين.
واعهد نسخه إلى عمال الكور حولك إن شاء الله
تعالى، والله المستعان.
وكتب يوم الإثنين لثمان خلون من ذى القعدة سنة سبع
وعشرين وثلاث ماية ".

(٧١٤/١)

## ثبت المراجع

١ - مراجع أندلسية وإسلامية عامة


تاريخ ابن خلدون المسمى " كتاب العبر " (بولاق) .
تاريخ الكامل لابن الأثير (الطبعة الأهلية ١٣٠٣ هـ) .
تاريخ الطبرى المسمى " تاريخ الأمم والملوك " (الطبعة الأهلية) .
تاريخ أبي الفدا المسمى " المختصر في أخبار البشر " (الطبعة الأهلية) .
فتوح البلدان للبلاذرى (القاهرة ١٩٣٢) .
مروج الذهب للمسعودى (بولاق) .

نهاية الأرب للنويرى (القسم التاريخى ومعظمه ما زال مخطوطاً) .
وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) .
كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقريزى (الطبعة الأهلية ١٣٢٤ هـ) .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب) .
فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم المصرى (طبع لجنة ذكرى جب) .
يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبى (القاهرة ١٩٤٧) .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .
أخبار مجموعة في فتح الأندلس لمؤلف مجهول (مدريد ١٨٦٧) .
تاريخ افتتاح الأندلس لأبى بكر بن القوطية (مدريد ١٨٦٨) .
البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى (الجزء الأول الخاص بإفريقية والثاني الخاص بالأندلس المنشوران بعناية العلامة
دوزى (ليدن ١٨٤٨ - ١٨٤٩) والثالث المنشور بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال.
بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس لابن عميرة الضبى (ضمن المكتبة
الأندلسية) .
كتاب الصلة لابن بشكوال (ضمن المكتبة الأندلسية، والقاهرة سنة ١٩٥٥)
قضاة قرطبة لأبى عبد الله الخشنى المنشور بعناية الأستاذ ربيرا (مدريد ١٩١٤) .



دولة الإسلام في الأندلس
تأليف: محمَّد عبد الله عِنَانْ

العصر الثاني

دُوَل الطَّوَائِف

مُنْذ قيامِهَا حَتّى الفتحْ المرابِطين

- - - - - - - - - - -

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

(١/٢)



الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

رقم الإيداع: ٨٩٨٨ / ٩٠

الترقيم الدولى: ٤ - ٠٨٢ - ٥٠٥ - ٩٧٧

مطبعة المدني

المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية.

القاهرة.

ت: ٤٨٩٧٨٥١

(٢/٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الطبعة الأولى

إن عصر الطوائف من بين عصور التاريخ الأندلسي، أكثرها تشعباً وأوفرها تبايناً واضطراباً، لا تكاد تجمع بين وحداته المتناثرة جامعة مشتركة، ولكل وحدة

منها ظروفها وسيرتها الخاصة، ومن ثم كانت الإحاطة بأحداث هذا العصر،

وتنسيقها وربط حلقاتها، واستخراج خواصها، من أشق المهام التاريخية.
وهذا المجلد من " دولة الإسلام في الأندلس " يتضمن تاريخ هذا
العصر المضطرب – عصر الطوائف –، وهو يكون " العصر الثاني " من
تاريخ
الأندلس.
وإنه ليسعدنى أن أضعه اليوم بين أيدى القراء، بعد هذه الأعوام
العديدة، التي انقضت منذ ظهور العصر الأول.
على أن هذه الأعوام لم تذهب
بحمد الله سدى، فقد أخرج خلالها العصر الرابع والأخير من " دولة الإسلام
فى
الأندلس " باسم " نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين "، ولم يبق علينا
لاستكمال
هذه الموسوعة من التاريخ الأندلسي إلا أن ننجز العصر الثالث منها، وهو
المتضمن " تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين ".
ويشغل عصر الطوائف من تاريخ اسبانيا المسلمة زهاء سبعين أو ثمانين
عاماً، منذ انهيار الخلافة الأندلسية، على إثر انهيار الدولة العامرية (سنة
٣٩٩ هـ –
١٠٠٩ م) وتفكك الدولة الأندلسية الكبرى، وانقسامها إلى وحدات متعددة،
تقوم في كل وحدة منها دولة أو مملكة من ممالك "الطوائف"، تزعم لنفسها
الاستقلال والرياسة المطلقة، ولا تربطها بجاراتها أو زميلاتها، أية رابطة، إلا
أن
تكون المنافسة، أو الحرب الأهلية في سبيل الغنم والتوسع.
وهذا البحر الخضم من
المنافسات والمنازعات والحروب الأهلية الإنتحارية، هو قوام عصر الطوائف.
وقد مضينا في تتبع أحداث هذه الحقبة المؤلمة من تاريخ الأندلس، حتى
مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة، استجابة لصريخ الطوائف، ونصرة للأندلس،

وإنقاذاً لها من خطر الفناء الداهم، الذى لاح لها قوياً منذراً، ولاسيما بعد
سقوط

*(٣/٢)*

طليطلة في أيدى النصارى، ثم تحول حملات الإنقاذ المرابطية بعد ذلك إلى
حملات
غازية، واستيلاء المرابطين على الأندلس تباعاً، وضمها إلى الإمبراطورية
المغربية
الكبرى، وذلك فيما بين سنتى ٤٨٣ - ٥٠٢ هـ (١٠٩٠ - ١١٠٨ م) .
وقد راعينا في كتابة تاريخ هذا العصر، أن نتناول ممالك الطوائف، كل على
حدتها، وأن نستكمل سيرتها منذ قيامها حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة،
ثم
سقوطها في أيديهم، ورأينا أن هذه الطريقة تحقق من الدقة والوضوح
والاستيعاب، ما لا يحققه الأسلوب المشترك، الذى سار على نهجه بعض
الكتاب الغربيين.
وقد اقتضت هذه الطريقة، في بعض الأحيان، شيئاً من التكرار، في هذا
الفصل
أو ذاك، ولكنه تكرار بسيط وغير ممل، فضلا عن ضرورته لاستكمال
السياق.
وأود أن أذكر هنا أننى قد زرت سائر قواعد الطوائف ومدنها، خلال
رحلاتى المتوالية في شبه الجزيرة الإسبانية، ودرست مواقعها وخواصها
ومواصلاتها.
وقد كان لهذه الدراسة الإقليمية، أكبر الأثر في تيسير فهم طبيعة الحروب
الأهلية
التي كانت تقوم بين ممالك الطوائف، ودوافعها الجغرافية، وتحديد مواقعها،
وكذلك في تيسير مهمة الكتابة عنها، واستيعاب بواعثها وتفاصيلها.

وقد رجعت في كتابة هذا القسم من تاريخ الأندلس إلى مادة غزيرة منوعة.
ومن حسن الحظ أن قد انتهت إلينا من كتابات المعاصرين عدة آثار هامة، في مقدمتها
تاريخ ابن حيان معاصر فتنة الطوائف ومؤرخها قبل كل شىء؛ وإذا لم يكن هذا التاريخ قد وصل إلينا كله بالذات، فإن ما نقل إلينا منه عن طريق الكتاب اللاحقين، ولاسيما ابن بسام وابن عذارى يحمل إلينا منه مادة قيمة.
وكذلك
الفيلسوف ابن حزم، وهو مثل ابن حيان معاصر للفتنة، ومتتبع لأدوارها، ودارس لظواهرها وتطوراتها، وقد انتهت إلينا منه نبذ تاريخية، وملاحظات نقدية عديدة عن خواص عصر الطوائف، تمتاز بدقتها وعميق نظراتها.
ويلحق
بهذين الكاتبين المعاصرين اثنان آخران عاشا في أواخر عصر الطوائف، وشهدا
خواتيمه، هما ابن بسام الشنترينى، والفتح بن خاقان.
ويقدم لنا ابن بسام
في مؤلفه الجامع "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، فضلا عما ينقله إلينا من الشذور التاريخية العديدة عن ابن حيان وغيره، وما يقدمه إلينا من نبذ تاريخية بقلمه، أروع صور لتاريخ عصر الطوائف الأدبى والاجتماعى، ومجموعة حافلة

*(٤/٢)*

من تراجم أمرائه وأعيانه ووزرائه وكتابه وشعرائه، ومختارات عديدة من رسائلهم، ومنثورهم ومنظومهم.
وقد كان كتاب "الذخيرة" سواء بما نشر منه، أو بأجزائه المخطوطة، من أقيم مصادرنا وأغزرها، ولا سيما قسمه الثالث، وهو
المتعلق "بالجانب الشرقى من جزيرة الأندلس ".

قد رجعنا في هذا القسم – وهو
ما يزال مخطوطاً – إلى نسخته المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد
(مجموعة
جاينجوس) .
أما الفتح بن خاقان، فيقدم لنا في كتابه "قلائد العقيان" تراجم
طائفة كبيرة من أمراء عصر الطوائف ووزرائه وفقهائه، وهو يقدمها إلينا فى
أسلوب مسجع متكلف، بيد أنه ينطوى من آن لآخر، على بعض المعلومات
والحقائق التاريخية؛ كما يقدم إلينا في كتابه "المطمح " بعض تراجم أخرى من
تراجم رجالات الطوائف.
ونكتفى فيما يتعلق بالمصادر، بهذه الإشارة إلى المصادر المعاصرة.
وأما
المصادر العديدة الأخرى، التي رجعنا إليها، من عربية وأجنبية، ومن
مخطوطة ومطبوعة، فقد سجلناها في أماكنها، ثم أثبتناها مجتمعة في نهاية
الكتاب.
ونود أن نشير بهذه المناسبة إلى أنه قد أتيح لنا خلال بحوثنا بمكتبة
الإسكوريال، أن نراجع بعض المصادر المخطوطة، وفي مقدمتها كتاب الحلة
السيراء لابن الأبار، وقد راجعنا فيه سائر التراجم المخطوطة التي حذفها
دوزى من النسخة المطبوعة، وضمنها مصنفه عن بني عباد Historia
Abbadidarum، كما أتيح لنا أن نقف
على بعض النصوص والوثائق الهامة، وذلك بالأخص في مجموعتين
مخطوطتين، تحمل أولاهما رقم ٤٨٨ الغزيرى، وهى مجموعة ناقصة من
أولها وليس لها عنوان
معين، والثانية رقم ٥٣٨ الغزيرى وعنوانها "مجموعة رسائل تاريخية وأدبية".
وقد انتفعنا بالأخص في المجموعة الأولى بعدة رسائل مرابطية هامة وردت
بها، وفي مقدمتها رسالة يوسف بن تاشفين عن موقعة الزلاّقة، وكذلك بعض
رسائل

أخرى تتعلق بالطوائف، وبها تصحيحات لبعض الوقائع والحوادث التاريخية.
وقد أثبتنا بعض هذه الرسائل في نهاية الكتاب في باب الوثائق.
وقد عنيت وفقاً لما سرت عليه في العصر الأول من " دولة الإسلام فى الأندلس " بكتابة تاريخ اسبانيا النصرانية، خصوصاً وقد اجتازت في عصر الطوائف، عدة تطورات هامة، وشغلت مركز الصدارة والغلبة، وبدأت تنفذ

(٥/٢)

سياسة " الإسترداد " La Reconquista بقوة، ولاسيما بعد استيلائها على مدينة طليطلة.
أولى القواعد الأندلسية العظيمة الذاهبة.
كما عنيت بأن أثبت بعض الخرائط التاريخية الموضحة للتطورات الجغرافية، التي جازتها شبه الجزيرة الإسبانية في عصر الطوائف، وخريطة للإمبراطورية المرابطية الكبرى بعد افتتاح الأندلس.
وإنى لأرجو وأنا أقدم إلى قراء العربية هذا العصر الجديد من " دولة الإسلام في الأندلس ".
أن يتاح لى أن أنجز بعون الله في المستقبل القريب.
عصره الثالث، وهو عصر المرابطين والموحدين، وبذلك تكمل هذه الموسوعة التاريخية الأندلسية
بسائر عصورها (١) .
القاهرة في ربيع الأول سنة ١٣٨٠
الموافق سبتمبر سنة ١٩٦٠
محمد عبد الله عنان

---

(١) وقد ظهر كتاب " عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس " بالفعل فى

مجلدين كبيرين (سنة ١٩٦٥) ، وبذلك تمت الموسوعة الأندلسية بسائر عصورها.

*(٢/٦)*

تصدير

مضت عدة أعوام منذ صدرت الطبعة الأولى من كتاب "دول الطوائف" فى سنة ١٩٦٠ متضمناً للعصر الثاني من "دولة الإسلام في الأندلس"، وشغلت خلال هذه
الأعوام بإخراج العصر الثالث من هذه السلسلة، وهو "عصر المرابطين والموحدين
في المغرب والأندلس" وتمت بظهوره بحمد الله وعونه، موسوعة الأندلس بعصورها الأربعة.
واليوم نقدم الطبعة الثانية من "دول الطوائف".
وبالرغم من أننا كنا قد
استوفينا في الطبعة الأولى، سائر ما قصدنا إليه من استيعاب تاريخ هذه الدويلات
الأندلسية، استيعاباً مفصلا ودقيقاً، فإنه عرضت لنا، خلال الأعوام الأخيرة
طائفة من التعديلات والإضافات رأيناها جديرة بالتدوين، ومعظمها مستقى من المصادر المخطوطة.
وقد تمت هذه الإضافات بالأخص بالنسبة للفصل الثالث من
الكتاب الثالث المتعلق بتاريخ مملكة دانية والجزائر، وبالنسبة للفصل المتعلق بخواص
الطوائف السياسية والاجتماعية والحضارية (الخاتمة) .
وقد ألحقنا بباب الوثائق
وثيقة جديدة هامة، هى رسالة أبي عامر بن غرسية الشهيرة في تفضيل العجم على

العرب، وذلك بعد أن ناقشنا محتوياتها، وأوردنا طائفة من الآراء والتعليقات الخاصة

بها، وذلك في موضعها عند الكلام على تاريخ مملكة دانية.

وفى اعتقادنا أن الكتاب بصورته الجديدة، وبما أدخل عليه من الزيادات، يلقى أضواء جديدة على تاريخ دول الطوائف، وتاريخ رجالات هذا العصر وأحواله، وكل ضوء يلقى على تاريخ هذا العصر، يمهد لنا السبيل لدراسة العصراللاحق، وهو

عصر الفتح المرابطي والرياسة المرابطية للأندلس.

وقد علمت خلال قيامى بإعداد هذه الطبعة، من صديقى العلامة المستشرق الإسبانى الكبير الأستاذ أمبروسيو هويثى ميرانده، أنه يعتزم أن يترجم هذا الكتاب

(٢/٧)

إلى اللغة الإسبانية؛ ليتيح للباحثين الإسبان فرص ذ الاطلاع بلغتهم على النصوص

والمصادر العربية، وعلى وجهات النظر الأخرى.

لكى تتسم بحوثهم في هذا الميدان

بالانصاف وسعة الأفق.

وانى لأرجو لصديقى العلامة الكبير التوفيق في مهمته الجليلة.

كما أرجو أن يجد

القراء في هذه الطبعة الجديدة، مزيداً من الضوء على تاريخ الطوائف وأحوال دولهم وعصرهم.

القاهرة في رجب سنة ١٣٨٩

الموافق سبتمبر سنة ١٩٦٩

محمد عبد الله عنان

*(٨/٢)*

صفحتان من القسم الثالث من كتاب الذخيرة لابن بسام المخطوطة المحفوظة بمكتبة
أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة جاينجوس)

*(٩/٢)*

صفحتان من رسالة ابن غرسية الموجودة بالمخطوط رقم ٥٣٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال

*(١٠/٢)*

تمهيد

نذر الانحلال والتفكك

- ١ -

في فترة قصيرة لا تتجاوز نصف القرن، تقلبت الأندلس بين مرحلتين متباينتين كل التباين.

فهى في منتصف القرن الرابع الهجرى وحتى أواخر هذا القرن، تبلغ ذروة القوة والتماسك، في ظل رجال عظام مثل عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر، والحاجب المنصور، ثم هى منذ أوائل القرن الخامس، تنحدر فجأة إلى معترك لا مثيل له، من الاضطراب والفتنة والحرب الأهلية المدمرة، لتخرج من هذه الغمار بعد فترة قصيرة، أشلاء لا تربطها أية رابطة مشتركة.

وإنه لمنظر مروع مؤس معاً، ذلك الذى تقدمه إلينا الأندلس في تلك الفترة العصيبة من تاريخها، منظر القواعد والمدن الأندلسية، التي كانت من قبل تلتئم فى

عقد منتظم واسطته مدينة قرطبة العظيمة، وتسطع في ظل حكومة الخلافة القوية، وتلتف حول عرش الخلفاء المؤثل، وهى تغدو حبات متفرقة منفردة حائرة، تقوم في كل منها حكومة محلية هزيلة، على رأسها متغلب من أهل العصبية أو الرياسة، يسيطر على أقدارها لحساب نفسه.

ثم هى بعد ذلك كله، تخوض غمار سلسلة

لا نهاية لها من الفتن والحروب الأهلية الصغيرة، وتنسى في خلال هذه الفترة الخطيرة المؤسية من حياتها أو تتناسى، قضية الأندلس الكبرى، قضية الحياة والموت، أو بعبارة أخرى قضية الصراع ضد العدو الخالد – أعنى اسبانيا النصرانية –

بيد أن انتثار شمل الأندلس على هذا النحو لم يكن سوى نتيجة طبيعية للعوامل السياسية والاجتماعية التي توالت في الحقبة السابقة.

بل نستطيع أن نرجع

هذه العوامل إلى بداية قيام الدولة الأموية ذاتها، أعنى إلى عهد عبد الرحمن الداخل.

فقد رأينا هذا الزعيم القوى.

بعد أن استولى على تراث الأندلس، واستتب له

الأمر، يعمل بكل ما وسع للاستئثار بالسلطة، وإخماد النزعة القبلية، وتحطيم الزعامات والرياسات العربية المحلية.

وقد حذا خلفاؤه من أمراء بني أمية حذوه

(١١/٢)

فى تتبع العصبية العربية والقضاء عليها.

وقد بلغ هذا الصراع بين السلطة المركزية، وبين المنتزين عليها، ذروته في أواخر القرن الثالث الهجرى، إبان اضطرام

الفتنة الكبرى، وتفاقم ثورة المولدين والعرب، في عهد الأمير عبد الله بن محمد

ابن عبد الرحمن (٢٧٥ – ٣٠٠) ، حينما اندلع لهيب الثورة، في كل ناحية
من نواحى الأندلس، وظهر الزعماء العرب والبربر في معظم النواحى، واستقلت
معظم الكور والمدن الكبيرة عن قرطبة.
وقد استطاع عبد الله أن يخمد الثورة فى
كثير من النواحى، وأن ينقذ سلطان بني أمية من الخطر الداهم، ثم جاء من بعده
عبد الرحمن الناصر، فأتم المهمة، وقضى على جذور الفتنة من أساسها، وعمل على تدعيم
سلطانه بكل الوسائل، فاشتد في مطاردة القبائل والأسر العربية ذات البأس
والعصبية، وقضى على رياستها وزعامتها المحلية، ومال إلى اصطناع
الموالى والصقالبة، وأولاهم
النفوذ والثقة، فاستئثروا في عهده بأرفع المناصب في القصر وفي الحكومة
والجيش، وكان من جراء ذلك أن انصرفت القبائل العربية عن الولاء له، وكان تخاذلها
في نصرته يوم موقعة الخندق الشهيرة (٣٢٧ هـ) ، يرجع من وجوه كثيرة، إلى
سخط الزعماء العرب لسياسته، في إذلالهم وسحق نفوذهم ومكانتهم.
ولم يحد المنصور بن أبي عامر، حين استولى على السلطان، عن هذه السياسة
في تدعيم الحكومة المركزية، وسحق كل سلطة محلية.
وبالرغم من أنه ينتمى
إلى بيت من أكرم البيوتات العربية، فإنه عمل على سحق العصبية العربية، وعمل
في نفس الوقت على سحق عصبية الفتيان الصقالبة، ولم يستبق منهم إلا أقلية مخلصة.
وآثر أن يعتمد في الجملة على ولاء البربر، فكان منهم معظم قادة الجيش،

وكان
منهم خلفاء المنصور وعماله في المغرب.
وفضلا عن ذلك فقد كان من جراء نظام
الطغيان المطلق الذى فرضه المنصور على الأندلس، قرابة ثلاثين عاماً، أن
توارت
معظم الزعامات والعناصر النابهة في المجتمع الأندلسي من الميدان، ولكنها
لبثت
في مكانها وعزلتها، ترقب فرص الظهور والعمل.
ومن جهة أخرى فقد كان هذا النظام المطلق، الذى فرضه المنصور على
الأمة الأندلسية، يخفى في ثنياته كثيراً من عوامل الهدم والانتقاض.
فقد كانت
سائر العناصر التي تعاونت في إقامته وتدعيمه، يتربص بعضها ببعض،
ويخشى
كل منها على مركزه وسلطانه.
وكانت ثمة معارك خفية تجرى بين البربر

(١٢/٢)

وخصومهم من الصقالبة، في القصر وفي الحكومة.
وكان بنو أمية يميلون إلى
الصقالبة مواليهم القدماء، ويكرهون البربر، إذ كانوا سنداً للمنصور في
استلاب
سلطانهم، وكانت البطون العربية تكره هؤلاء وهؤلاء، ولكنها ترى في البربر
خصمها الأساسى، وهو من آثار الخصومة القديمة، التي لبثت تضطرم بين
العنصرين منذ عصر الفتح.
وهكذا اجتمعت هذه العوامل لتحدث أثرها في الوقت الملائم، واجتمعت
في ظلها العناصر الناقمة من سائر الطبقات.

فلما وقع الانفجار، وانهارت دعائم

الطغيان العامرى، ظهرت في ميدان النضال ثلاث قوى: بنو أمية يلتفون حول

علم خلافتهم وتراث بيتهم المغصوب.

وطوائف البربر تحاول الاحتفاظ برياستها

وامتيازاتها.

والأسر العربية التي اضطهدت وأبعدت عن الميدان، تحاول

استرداد مكانتها وزعامتها القديمة.

وظهرت إلى جانب هذه القوى الثلاث، طائفة أقل شأناً، ولكنها استطاعت أن

تنتزع نصيبها من أسلاب السلطة، وهى

طائفة الفتيان الصقالبة أو الفتيان العامريين.

ولم يصمد بنو أمية في ميدان النضال طويلا.

ذلك أنه لم تكن لهم، بعد العوامل

الأدبية، التي جمعت بعض طوائف الشعب تحت لوائهم، قوة مادية يعتد بها،

ومن ثم فإنه لم تمض بضعة أعوام (٣٩٩ – ٤٠٧ هـ) تولى الخلافة خلالها محمد

ابن هشام المهدى، فسليمان المستعين، فهشام المؤيد، ثم سليمان للمرة الثانية، حتى

استطاع بنو حمود البربر أن ينتزعوا الخلافة، وأن يتزعموا حكومة قرطبة لفترة قصيرة.

ثم تطورت الحوادث بسرعة، وعاد بنو أمية فاستردوا الخلافة، وحكموا في

قرطبة عدة أعوام أخرى (٤١٤ – ٤٢٢ هـ) ، تولى الخلافة منهم

المرتضى.

فالمستظهر.

فالمستكفى بالله.

فهشام المعتد بالله، وهو آخرهم.

وبخلعه
في أواخر سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) تختتم الدولة الأموية رياستها في الأندلس
بصورة نهائية، بعد أن دامت منذ قيام عبد الرحمن الداخل في سنة ١٣٨ هـ
(٧٥٦ م)
مائتين وأربعة وثمانين عاماً.
وهكذا اختفت القوة الأولى - أعنى بني أمية - من ميدان النضال بسرعة،
وقد كان واضحاً منذ البداية، أنها لم تكن قوة ذات شأن، ولم تكن سوى رمز
تحيط به هالة باهتة من الجلال القديم، ومن الاعتبارات الشرعية والأدبية.
ولم تحقق ظفرها القصير المضطرب، إلا بالاعتماد على قوى وعناصر
أخرى، ذات

*(١٣/٢)*

ولاء مريب قلَّب.
وتركت بعد اختفائها من الميَدان القوتين الأخريين، وهما البربر
والعصبية العربية، وجهاً لوجه.
واستطاع البربر بزعامة بني حمود، أن يسيطروا زهاء ثلث قرن، على المثلث
الجنوبي في شبه الجزيرة الإسبانية، وأن يقيموا لهم ملكاً وخلافة، آناً بقرطبة
وإشبيلية، ثم بمالقة والجزيرة.
وكانت إمارة باديس بن حبوس الصنهاجى
بغرناطة، تحمى الجناح الشمالى الغربى، لتلك الخلافة البربرية، فلما انتهت
دولة
بنى حمود سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) كان البربر أثناء ذلك، وبعد أن خسروا
معركة
قرطبة، قد بسطوا سلطانهم على معظم القواعد الواقعة جنوبى نهر الوادي
الكبير، وامتداده لنهر شنيل، مثل قرمونة وإستجة ومورور، وأركش، ورندة،
ومالقة، وأن ينتزعوا الرياسة في نفس الوقت، في بعض المناطق الشرقية

والغربية الشمالية، على نحو ما نفصل بعد.
وأسفر النضال بين هذه القوى الخصيمة، بعد فوز البربر برياسة المناطق التي سبق ذكرها، عن فوز الأسر العربية، بمعظم القواعد الأندلسية الكبرى، مثل
قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية ومرسية وألمرية.
واستطاع الفتيان العامريون
أن يبسطوا سلطانهم على معظم المناطق الشرقية وعلى ألمرية لفترة قصيرة.
- ٢ -
وأضحت الأندلس في أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجرى، تقدم إلينا ذلك المنظر المدهش الذى أشرنا إليه فيما تقدم: منظر الصرح الشامخ، الذى انهارت أسسه، وتصدع بنيانه، وقد اقتصت أطرافها، وتناثرت أشلاؤها، وتعددت الرياسات في أنحائها، لا تربطها رابطة، ولا تجمع كلمها مصلحة مشتركة؛ لكن تفرق بينها بالعكس، منافسات وأطماع شخصية وضيعة، وتضطرم بينها حروب أهلية صغيرة، والأندلس خلال ذلك كله تفقد مواردها وقواها القديمة تباعاً، ويحدق بها خطر الفناء من كل صوب.
هذه الدول الصغيرة، المتخاصمة المتنابذة، التي قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى، تعرف بدول الطوائف، ويعرف رؤساؤها بملوك الطوائف، وهم ما بين وزير سابق، وقائد من ذوى النفوذ والصحب، وحاكم لإحدى المدن، وشيخ للقضاء، وزعيم من ذوى المال والحسب.
وقد ظهروا جميعاً إبان

*(٢/١٤)*

الفتنة، وبسط كل سلطانه، على ما أتيح له من المدن والأراضي، وأخذ يعمل على تدعيم ذلك السلطان وتوسيعه، وتأسيس الملك لبنيه.
وليس أبلغ تعبيراً في وصف حال الأندلس عقب الفتنة وقيام دول الطوائف من تلك النبذة التي يقدمها إلينا ابن الخطيب حين يقول:

" وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق، إلى حيث لم
يذهب كثير من أهل الأقطار، مع امتيازها بالمحل القريب، والخطة المجاورة
لعبّاد
الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرث، ولا في الإمارة سبب، ولا في
الفروسية
نسب، ولا في شروط الإمامة مكتسب.
اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن
الكبار، وجبوا العمالات والأمصار، وجندوا الجنود، وقدموا القضاة، وانتحلوا
الألقاب، وكتبت عنهم الكتاب الأعلام، وأنشدهم الشعراء، ودونت بأسمائهم
الدواوين، وشهدت بوجوب حقهم الشهود، ووقفت بأبوابهم العلماء، وتوسلت
إليهم الفضلاء، وهم ما بين محبوب، وبربرى مجلوب، ومجند غير محبوب،
وغفل ليس في السراة بمحسوب، ما منهم من يرضى أن يسمى ثائراً، ولا
لحزب
الحق مغايراً، وقصارى أحدهم يقول: "أقيم على ما بيدى، حتى يتعين من
يستحق الخروج به إليه"، ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه، ولا
لقى
خيراً لديه.
ولكنهم استوفوا في ذلك آجالا وأعماراً، وخلفوا آثاراً، وإن كانوا
لم يبالوا اغترارا، من معتمد ومعتضد ومرتضى وموفق ومستكف ومستظهر
ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل، كما قال الشاعر:
مما يزهدنى في أرض أندلس..

.

ألقاب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها..

.

كالهر يحكى انتفاخاً صَوْرَةَ الأسد (١) ".

وما أشار به ابن حيان، معاصر الفتنة التي أسفرت عن قيام دولهم ومؤرخها.
إلى تلك الفتنة، وإلى هاته الدول بأسلوبه القوى اللاذع، إذ يقول في مقدمة تاريخه الكبير:
" فركبت سنن من تقدمنى، فيما جمعت من أخبار ملوك هذه الفتنة البربرية، ونظمته وكشفت عنه، وأوعيت فيه ذكر دولهم المضطربة، وسياستهم المنفرة،

---

(١) أعمال الأعلام (طبع بيروت) ص ١٤٤.
وقائل هذين البيتين هو أبو الحسن بن رشيق القيروانى.
وتروى الشطرة الثانية من البيت الأول بصورة أخرى هى: " أسماء مقتدر فيها ومعتضد "
(المعجب للمراكشى ص ٤) .

(١٥/٢)

وأسباب كبار الأمراء المنتزين في البلاد عليهم، وسبب انتقاض دولهم، حال فحال بأيديهم، ومشهور سيرتهم وأخبارهم، وما جرى في مددهم وأعصارهم، من الحروب والطوائل، والوقائع والملاحم، إلى ذكر مقاتل الأعلام والفرسان، ووفاة العلماء والأشراف، حسب ما انتهت إليه معرفتى ونالته طاقتى " (١) .
ونستطيع القول بأن تمزق الأندلس على هذا النحو، كان ضربة، لم تنهض الأندلس من آثارها قط، بل كان بداية عهد الانحلال الطويل الذى لبثت تتقلب فيه بعد ذلك زهاء أربعة قرون أخرى.
وبالرغم من أن عهد الطوائف الحقيقى
لم يطل أكثر من سبعين عاماً، وبالرغم من أن الأندلس، قد التأم شملها بعد ذلك
في ظل المرابطين ثم الموحدين من بعدهم، وبالرغم من أنها استطاعت أن تسترد

تفوقها العسكرى القديم في شبه الجزيرة الإسبانية في فترات قصيرة: بالرغم من ذلك كله، فإن الأندلس لم تستطع أن تسترد وحدتها الإقليمية القديمة، ولا تماسكها

القديم قط، بل لبثت بالعكس، خلال صراعها الطويل مع اسبانيا النصرانية، تفقد قواها ومواردها تباعاً، وتنكمش رقعتها الإقليمية تدريجياً.

حتى إذا كان

منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، رأينا رقعة الوطن الأندلسي، ترتد إلى ما وراء نهر الوادي الكبير، وتنحصر في مملكة غرناطة الصغيرة، ورأينا قواعد الأندلس القديمة الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية ومرسية وغيرها، تغدو مدناً إسبانية نصرانية، ويغدو ميزان القوى فى شبه الجزيرة الإسبانية بيد مملكة قشتالة الكبرى.

- ٣ -

والواقع أن تاريخ الطوائف، يبدأ منذ سقوط الدولة العامرية، في نهاية المائة الرابعة.

ذلك أن قيام الخلافة الأموية، خلال الفترة القصيرة التي عاشتها

في أعقاب الفتنة، لم يكن سوى حادثاً محلياً، ولم يتعد أثره الفعلى قرطبة وأرباضها، وقد رأينا كيف استطاعت الدولة الحمُّودية، أن تقيم سلطانها في نفس الوقت فى

قرطبة وإشبيلية ثم مالقة والجزيرة، وكيف قامت كذلك دولة بني مناد البربرية في غرناطة، وسيطرت عناصر أخرى من البربر، في معظم القواعد الأندلسية الواقعة

جنوبى الوادي الكبير.

وإلى جانب هذه الدول البربرية، التي قامت منذ أوائل المائة

---

(١) نقله ابن بسام في الذخيرة (القسم الأول - المجلد الثاني ص ٨٨) .

الخامسة، كانت ثمة دول أو دويلات عديدة أخرى، تتكون تباعاً في معظم
قواعد
الأندلس الأخرى الشرقية والغربية والوسطى، في الوقت الذى كانت تقوم فيه
خلافة قرطبة، بيد أنها لم تنزع ولاءها الرسمى للحكومة المركزية، ولم تتخذ
طابعاً واضحاً من الاستقلال المحلى، إلا بعد سقوط الخلافة النهائى.
ونحن إذا ألقينا نظرة على الخريطة، ألفينا رقعة الوطن الأندلسي الكبرى، وقد
انقسمت عقب الفتنة من الناحية الإقليمية إلى ست مناطق رئيسية: الأولى
منطقة العاصمة القديمة قرطبة وما إليها من المدن والأراضي الوسطى،
والثانية
منطقة طليطلة أو الثغر الأوسط، والثالثة إشبيلية وغربى الأندلس وما إليها
من الأراضي حتى المحيط الأطلنطى، والرابعة غرناطة وريُّه والفرنتيرة،
والخامسة منطقة شرقى الأندلس أو منطقة بلنسية وما إليها شمالاً وجنوباً،
والسادسة
منطقة سرقسطة والثغر الأعلى.
وهذا كله إلى عدد كبير من المدن والقواعد الأندلسية
التي استقلت بنفسها، واعتبرت إمارات قائمة بذاتها داخل منطقة، أو أخرى،
ثم اختفت تباعاً بالانضمام أو الخضوع إلى إحدى الإمارات الأخرى.
وهكذا نجد أن كل منطقة من المناطق المشار إليها، تضم من الناحية
الإقليمية
إمارة أو أكثر من إمارات الطوائف، وتختلف من حيث الرقعة، والأهمية
السياسية، والعسكرية، والاجتماعية.
وإذا لم تكن قرطبة، من حيث رقعتها الإقليمية، ومواردها الاقتصادية
والعسكرية، أهم دول الطوائف، فقد كانت من الناحية الأدبية بين دول
الطوائف

ذات أهمية خاصة، نظراً إلى كونها كانت مقر الخلافة، وقاعدة الحكومة المركزية، وفي وسعها من الناحية الأدبية أيضاً، أن تدعى الولاية - الاسمية على الأقل - على

باقى الإمارات والمدن الأندلسية الأخرى، وهو ما ادعته حكومة قرطبة المحلية بالفعل.

ومن ثم فقد رأينا لهذه الاعتبارات الأدبية والتاريخية، أن نبدأ الحديث عن دول الطوائف بالكلام عن إمارة قرطبة.

(١٧/٢)

الكِتابُ الأوّل

قرطبة

ودول الطوائفْ في الأندلس الغربية والوسطى

(١٩/٢)

الفصل الأوّل

دولة بني جهور في قرطبة

نهاية الخلافة الأموية، أبو الحزم بن جهور واختياره لرياسة الحكومة.

نشأته ونباهة بيته.

ولايته قرطبة.

حكومة الجماعة.

أوضاعها ورسومها.

مثيلاتها في الجمهوريات الإيطالية، سياسة ابن جهور وإجراءاته الإدارية والمالية.

موقفه من أسطورة ظُهور هشام المؤيد.

وفاته وقيام ولده أبي الوليد مكانه.

وزراؤه.

ابن حيان وابن زيدون.

محنة ابن زيدون وفراره.

ابن السقاء يتولى الأمور.

مصرعه.

الخلاف بين عبد الملك وعبد الرحمن ولدى أبي الوليد.

المأمون بن ذى النون يحاول غزو

قرطبة.

استنصار عبد عبد الملك بابن عباد.

غدر ابن عباد واستيلاء جنده على المدينة.

نهاية الدولة الجهورية.

موقف المؤرخ ابن حيان وتعليق ابن بسام عليه.

تحدثنا فيما تقدم، في الفصل الثاني من الكتاب الرابع من " دولة الإسلام فى الأندلس "، عما حدث من تقلب خلافة قرطبة بين أعقاب بني أمية، وبين المتغلبين من بني حمود، وكيف أنه عندما غادر على بن حمود قرطبة في المحرم

سنة ٤١٧ هـ إلى مالقة، ثار القرطبيون وفتكوا بالحامية البربرية، وأجمعوا على رد

الأمر لبنى أمية، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبو الحزم جَهْور بن محمد بن جهور.

وفى ظل هذا التحول، بويع بالخلافة هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن

الناصر (ربيع الأول ٤١٨ هـ) ، وتلقب بالمعتد بالله، وقدم من منفاه في ألبونت

إلى قرطبة في أواخر سنة ٤٢٠ هـ، ولبث فئ الخلافة زهاء عامين، أساء فيهما

السيرة حتى سخط عليه أهل قرطبة وقرروا خلعه، فغادر المدينة ناجياً بنفسه
وولده (ذو القعدة ٤٢٢ هـ) .
وأجمع القرطبيون بعد فشل هذه التجربة الأخيرة، على إلغاء الخلافة والتخلص
نهائياً من بني أمية، وإجلائهم جميعاً عن المدينة، وكان
عميدهم ورائدهم في ذلك هو أيضاً أبو الحزم بن جهور، وكان هذا الوزير
القوى
النابه، يستأثر نظراً لماضيه التالد، ورفيع مكانته، ووفرة حزمه ونضجه، بمحبة
الشعب وثقته وتأييده.
وغدت قرطبة على أثر ذلك دون خلافة ودون حكومة.
وكانت الأنظار
كلها تتطلع إلى ذلك الزعيم، الذى عاون غير مرة برأيه وحسن تدبيره، فى

(٢٠/٢)

مواجهة الأزمات وصون المدينة من شر الدمار والفوضى، ليتولى الحكم
وتدبير
الأمور في تلك الآونة العصيبة.
وهكذا اختير ابن جهور، بإجماع الرأى، للاضطلاع بتلك المهمة الدقيقة.
وينتمى ابن جهور إلى بيت من أعرق بيوتات الموالى الأندلسية.
وهو أبو الحزم
جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن أحمد بن محمد، وكان جده،
الداخل
إلى الأندلس، يوسف بن بخت بن أبي عبدة الفارسى، مولى عبد الملك بن
مروان.
دخل في كنف الطالعة البلجية، وكان من أنصار عبد الرحمن الداخل، ثم ولاه
عبد الرحمن حجابته، ثم تولى القيادة في عهد ولده هشام.
وتولى أبناؤه بعد ذلك

مناصب الوزارة والقيادة تباعاً في ظل أمراء بني أمية وخلفائهم.
فتولى حفيده
عبد الملك بن جهور الوزارة للأمير عبد الله بن محمد، ثم كان من وزراء
الناصر
لدين الله.
وتولى ولده جهور بن عبد الملك البختى أيضاً الوزارة في عهد الناصر.
ووليها كذلك في أواخر عهد الناصر، ولداه مروان بن جهور بن عبد الملك،
ومحمد بن جهور بن عبد الملك.
ومحمد هذا، هو أبو الوليد، هو والد أبي الحزم
جهور، وقد تولى الوزارة أيضاً، في عهد المنصور بن أبي عامر.
ثم
تولى ولده أبو الحزم جهور الكتابة لعبد الرحمن المنصور في نهاية المائة
الرابعة، حتى كانت الفتنة وانهيار الدولة العامرية، عاصر الحوادث
والانقلابات
العاصفة، التي شهدتها عاصمة الخلافة من ذلك الحين.
وتولى خلال ذلك
الوزارة لعلى بن حمود.
مؤسس الدولة الحمودية.
وقد نقم عليه واعتقله وصادر
أمواله.
ولما ثار أهل قرطبة بعد ذلك ببنى حمود وأنصارهم من البربر، كان عميدهم
في ذلك حسبما تقدم هو أبو الحزم جهور.
وكان جهور خلال ذلك كله يتمتع بمكانة
بارزة في الزعامة الشعبية، حتى غدا في نهاية الأمر "شيخ الجماعة"، وزعيم
المدينة
الحقيقى.

وكان كثيراً ما يؤثر برأيه في تطور الشئون والأحوال، في تلك الأعوام الأخيرة، التي كانت تحتضر فيها خلافة قرطبة، وتسير سراعاً إلى نهايتها المحتومة.

وألفى جهور نفسه، بعد أن أجمع الشعب على اختياره، رئيساً لحكومة قرطبة الجديدة.

وكانت هذه الحكومة التي قامت على أنقاض الخلافة الأموية، تبسط سلطانها على رقعة متوسطة من الأندلس، تمتد شمالا حتى جبل الشارّات (سيرا

مورينا) ، وشرقاً حتى منابع نهر الوادي الكبير.

وغرباً حتى قرب إستجة

(٢١/٢)

وجنوباً حتى حدود ولاية غرناطة، وتشمل من المدن عدا قرطبة، جيان وأبَّدَة وبيّاسة والمدور وأرجونة وأندوجر.

بيد أن جهور كان رئيس حكومة من نوع خاص، فإنه لم ينفرد بالرياسة ولم يستأثر بتدبير الأمور والبت فيها، ولكنه جمع حوله صفوة الزعماء والقادة، يتحدث باسمهم، أو باسم "الجماعة"، ويرجع إليهم في الأمور، ويصدر القرارات

باسمهم، فإذا طُلب منه مال أو مضاء أمر من الأمور، قال ليس لى عطاء ولا منع

إنما هو "للجماعة"، وأنا أمينهم، وإذا رابه أمر عظيم، أو اعتزم تدبير مسألة كبيرة، استدعاهم وشاورهم، وإذا خوطب بكتاب، لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء.

وهكذا كان جهور يتحدث في كل أمر، ويمضى كل أمر لا باسمه، ولكن باسم

الجماعة.

وقرن جهور ذلك كله بإجراء بارع آخر، هو أنه لم يفارق رسم الوزارة
ولم ينتقل من داره إلى قصور الخلفاء، واكتفى بأن رتب عليها الحجاب
والحشم، على ما كانت عليه أيام الخلافة، وجعل نفسه ممسكاً للوضع إلى أن
يجيء مستحق يتفق
عليه فيسلم إليه، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتبهم
لذلك
وهو المشرف عليه (١) ، ولم يتخذ أى عنوان أو إجراء يبرز رياسته، أو
يحيط
نفسه بأى مظهر من مظاهر الأبهة والفخامة، بل لبث على سابق رسمه، من
الانزواء والتواضع، والقناعة وخفض الجناح، ومعاملة الجميع بالرفق
والحسنى.
وقد عُرفت هذه الحكومة الفريدة في صحف التاريخ الإسلامى "بحكومة
الجماعة".
وسواء أكان الباعث لدى الوزير جمهور في إقامتها على هذا النحو، يرجع
إلى ضرب من بعد النظر والدهاء البارع، يحاول به جمع الكلمة، واتقاء
منافسة
الزعماء الأقوياء، أم كان راجعاً حقاً إلى محبته للشورى والتضامن، فإنها
كانت
بلا ريب نموذجاً بديعاً من حكم الشورى أو حكم الأقلية الأرستقراطية، فى
عصر سادت فيه نزعة الرياسة الفردية والحكم المطلق.
وكان من أبرز مزاياها أنه
يستطيع الرئيس أن يتنصل من المسؤولية، وأن يستظل بلواء الجماعة، إذا ما
ساءت
الأمور، وأن يحرز الثناء وجميل الذكر، إذا حسنت العواقب.
ويمكننا أن نتبين ملامح هذا النوع من حكم "الجماعة" أو حكم الأقلية
الأرستقراطية الذى ابتدعه أبو الحزم بن جهور، في بعض الحكومات التي

قامت

---

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى (مصر) ص ٢٧.

*(٢٢/٢)*

فيما بعد، في بعض الولايات الإيطالية أيام عصر الإحياء مثل حكومة "الكومونى"
في جنوة، وحكومة "السنيوريا" في فلورنس أيام حكم آل مديتشى.
وقد كان
هذا النظام في الواقع أقرب النظم إلى حكومة الجماعة، فقد كان آل مديتشى، يحكمون وفق إرادتهم حكماً مطلقاً، ولكن يحتجبون في نفس الوقت وراء هيئة منتخبة من النبلاء أو الزعماء الذين يعملون بوحيهم تسمى Balie أو Signoria
أى جماعة الحكام أو السادة.
ولسنا نود أن نقول إن هذه الحكومات الإيطالية، كانت مأخوذة أو مقتبسة من حكومة الجماعة القرطبية، فليس ثمة دليل على ذلك، ولكنا نود أن نقول إنها قامت في ظروف مشابهة، ولمثل البواعث التي أوحت
بقيامها في قرطبة.
وسلك جهور في حكومته مسلك الأصالة والحزم، وكان أول همه أن يقمع الشغب، وأن يوطد دعائم النظام والأمن، فصانع زعماء البربر واستمالهم بالرفق
وخفض الجناح، اتقاء لدسائسهم وتهدئة لثورات أطماعهم، فحصل على محبتهم
وسلمهم، وجعل أهل الأسواق جنداً، وفرق السلاح فيهم، وفي البيوت، حتى إذا دهم أمر في الليل أو النهار، استطاع أهل المدينة الدفاع عن أنفسهم، وأصلح

القضاء، وعمل على ضبط العدالة بين الناس، وقضى على كل مظاهر البذخ
والإسراف، وخفف أعباء المكوس، وعمل على حفظ الأموال العامة، ولاسيما
الأموال
السلطانية، حيث عهد بتحصيلها وحفظها، إلى رجال ثقاة يشرف عليهم
بنفسه، وعمل على تشجيع المعاملات والتجارة، ومن ذلك أن فرق الأموال
على التجار
لتكون بيدهم ديناً عليهم، يستغلونها ويحصلون على ربحها فقط، وتحفظ
لديهم، ويحاسبون عليها من وقت إلى آخر.
وكان من نتائج هذه الإجراءات، أن حل
الرخاء مكان الكساد، وازدهرت الأسواق وتحسنت الأسعار وغلت الدور،
ونمت الموارد.
ويبدى ابن حيان، وقد كان من شهود هذا التحول، دهشته
من تحقق الأمن والنظام والرخاء على هذا النحو في قوله: "فعجب ذو
التحصيل
للذى أرى الله في صلاح الناس من القوة، ولما تعتدل حال، أو يهلك عدو، أو
تقو جباية، وأمر الله تعالى بين الكاف والنون ".
ومع ذلك فإن ابن حيان
يلاحظ أن جهوراً لم يفته خلال ذلك كله أن يستغل الظروف، وأن يعمل على
جمع المال "حتى تضاعف ثراؤه وصار لا تقع العين على أغنى منه"، وإن
كان

(٢/٢٣)

يقرن ذلك "بالبخل الشديد، والمنع الخالص، الذى لولاهما ما وجد عائبه فيه
طعناً، ولكمل لو أن بشراً يكمل" (١) .
واستمرت حكومة الجماعة هذه برياسة أبي الحزم جهور تدبر الأمور في
قرطبة

وأراضيها، زهاء اثنتى عشرة عاماً، وقد سادت بها السكينة والدعة والأمن، وجهور لا يتحول عن خطته في التزام المسالمة والتواضع والتقشف، والشعب القرطبى يؤيده بطاعته ومحبته.

وكانت قرطبة في أيامه ملاذ الزعماء اللاجئين

والرؤساء المخلوعين، وكان من هؤلاء عبد الله بن سابور صاحب أشبونة من أعمال الغرب، حينما انتزعها منه ابن الأفطس صاحب بطليوس، فإنه لجأ إلى

قرطبة، وأقام بها آمناً في كنف جهور، وكذلك عبد العزيز البكرى صاحب ولبة

وجزيرة شلطيش، فإنه التجأ إليها فيما بعد، حينما حاصره ابن عباد ونزعه سلطانه، والتجأ

إليها كذلك القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء حين استولى عليها ابن عباد (٢) .

وكان للرئيس جهور موقف خاص من أسطورة ظهور هشام المؤيد بالله وإعلانها على يد القاضى ابن عباد صاحب إشبيلية.

ذلك أن ابن عباد، حينما شعر

بخطورة مطامع بني حمود في رياسة جنوبى الاندلس، وانتشاحهم بثوب الخلافة، وحينما أرهقه يحيى بن على بن حمود (المعتلى) بغاراته المتوالية، رأى أن يدحض

دعاوى أولئك الحمُّوديين، فأعلن في سنة ٤٢٦ هـ، أن الخليفة هشام المؤيد، حى لم يمت، وأظهر بالفعل شخصاً يشبه هشاماً كل الشبه، وبايعه بالخلافة ودعا

الناس للدخول في طاعته، وبعث بذلك إلى رؤساء الأندلس، فاستجاب بعضهم

للدعوة، وكان منهم عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، ومجاهد العامرى

صاحب دانية والجزائر الشرقية، والوزير أبو الحزم بن جهور رئيس قرطبة.
وعقدت البيعة في قرطبة بالفعل لهشام المؤيد.
والظاهر أن جهوراً لم يكن يؤمن
حقاً بصحة هذه الدعوى، ولكنه استجاب لها، وأقرها لنفس البواعث التي
حملت
ابن عباد على انتحالها، وهو العمل على دفع خطر الحموديين.
ويقال إن جهوراً
فوق ذلك، قد اصطنع شهادات لتأييد صحتها.
بيد أنه ندم على ذلك فيما بعد، حينما طلب إليه ابن عباد أن يدخل في
طاعته، وأعلن تبرؤه من ذلك الدعى (٣) .

---

(١) الذخيرة القسم الأول - المجلد الثاني ص ١١٦ و ١١٧.
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٣ و ٢٣٧ و ٣٤٠.
(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠ و ١٩٨ و ٢١٠.

*(٢٤/٢)*

وتوفى الرئيس أبو الحزم جهور بن محمد في المحرم سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٤
م)
وقرطبة رافلة في حلل السلم والرخاء.
فخلفه في الرياسة ابنه أبو الوليد محمد
ابن جهور، فحاول في البداية أن يقتفى سياسة أبيه، وأقر الحكام وأرباب
المراتب
في مناصبهم، وكان من معاونيه في ديوان السلطان المؤرخ الكبير أبو مروان
بن
حيان حسبما يذكر لنا في حديثه عن الدولة الجَهْورية، وكان من محاسن
الدولة

الجهورية أيضاً، أن وزر لها الكاتب والشاعر الكبير أبو الوليد بن زيدون.
وكان
في بداية عهده بالخدمة قد وقع له حادث اصطدم فيه بأحد حكام قرطبة،
فقضى
عليه بالسجن، فاستغاث بأبى الوليد في حياة والده أبي الحزم، فشفع له وأقاله
من عثرته.
فلما ولى أبو الوليد الأمر بعد والده قرب إليه الشاعر، وعهد إليه بالنظر
على أهل الذمة لبعض الأمور العارضة.
ثم رفع مكانته وضاعف جرايته.
وعهد
إليه بالسفارة بينه وبين رؤساء الأندلس، والترسل إليهم.
فلمع في منصبه، واشتهر
ببارع رسائله ومحاوراته، كما اشتهر بروائع نظمه.
والظاهر أن ابن زيدون كان يحيا
حياة مضطربة تثير من حوله الشبهات، فهو من جهة قد هام بحب ولاّدة ابنة
الخليفة
الأموى السابق المستكفى، وكانت قد ظهرت في مجتمع قرطبة ببهوها الأدبى،
الذى يزينه جمالها وشعرها الرائق، وأحدث هيامه بها وشعره المتيم فيها، حول
سيرته
الوزارية نوعاً من الفضيحة الغرامية، ومن جهة أخرى فإنه يبدو أن خصوم
ابن زيدون في الحكومة وفي المجتمع، قد استطاعوا أن يصوروه لدى بني
جهور، رجلا ناقص الولاء بجيش بمشاريع لا تتفق مع أهدافهم، وعلى أى
حال فقد
سخط الوزير أبو الوليد على وزيره الشاعر وألقاه إلى السجن.
وأنفق ابن زيدون
في ظلمات السجن عاماً وبعض عام، وهو يستعطف الوزير بقصائد ورسائل

تذيب
الجماد دون أن يتأثر بها.
وفى النهاية حزم أمره على الفرار، وفر من سجنه بمعاونة
بعض أصدقائه الأوفياء، وقصد إلى إشبيلية سنةّ (٤٤١ هـ - ١٠٤٩ م)
والتجأ
إلى أميرها المعتضد بن عباد، فولاه وزارته.
وألقى إليه مقاليد الأمور، حسبما
نذكر بعد في موضعه (١) .

---

(١) إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٥٩ و ٦١.
وراجع الذخيرة
المجلد الأول من القسم الأول ص (٢٩٠ و ٢٩١ و ٣٥٧) حيث يورد أقوال
ابن حيان في علاقة ابن زيدون
بدولة الجهاورة وهى أقوال غامضة لا نتضح منها حقيقة أدوار هذه العلاقة.
ولم يشر ابن حيان من
جهة أخرى إلى نكبة ابن زيدون التي ألقى بسببها إلى السجن ولا إلى فراره.
ولكن الفتح يشير إلى ذلك
صراحة في القلائد (ص ٧١) وقد أورد ابن بسام كثيراً من قصائده التي
وجهها في سجنه إلى ابن جهور.

*(٢٥/٢)*

وكان ابن زيدون أيام تمتعه بثقة بني جهور.
قد أنشأ في مديحهم عدد من
غرر قصائده، ومنها الأبيات الآتية:
لولا بنو جهور ما أشرقت بهم..
.

غيد السوالف في أجيادها تلمع
قوم متى تحتفل في وصف سؤددهم..
.
لا يأخذ الوصف إلا بعض ما يدع
أبو الوليد قد استوفى في مناقبهم..
.
فللتفاريق منها فيه مجتمع
من مهذب أخلصته أوّليته..
.
كالسيف بالغ في أخلاصه الصنع
إن السيوف إذا طاب جوهرها..
.
في أول الطبع لم يعلق بها الطبع

واستمرت الأحوال على انتظامها حيناً، ولكن أبا الوليد ما لبث أن تنكب عن سياسة أبيه، فقدّم على الناس ولده عبد الملك، وأخذ عليهم العهد له، فأساء

عبد الملك السيرة، واستبد بالسلطة.

وأفسح المجال للأوغاد، وأهمل الشئون، وتسمى بذى السيادتين المنصور بالله.

الظافر بفضل الله.

وخطب له على المنابر، وذلك خلافاً لما جرى عليه أبوه وجده من قبل، من الاعتصام بالحلم والتواضع، والزهد في مظاهر السلطان.

وفى سنة ٤٤٠ هـ، فوض عبد الملك النظر في الأمور

إلى وزير أبيه إبراهيم بن يحيى المعروف بابن السقاء، فضبطها وأصلحها، وعمل

على تهدئة الأحوال، وتوطيد الأمن والنظام، واستمر ابن السقاء في النظر

مدة

طويلة.

وكان المعتضد ابن عباد أمير إشبيلية يشعر بأن استمرار هذا الوزير القوى على هذا النحو في رياسة حكومة قرطبة، يحول دون تحقيق مشاريعه فى الاستيلاء عليها، فسعى لدى عبد الملك في حق ابن السقاء، وحذره من أطماعه

واستئثاره بالسلطة وأغراه بقتله، وكان عبد الملك سيىء الرأى والتقدير، فاستمع لتحريض ابن عباد، وقتل وزيره في كمين دبره (٤٥٥ هـ - ١٠٦٣ م) (١) .

وهنا بدأت عوامل الفساد تدب إلى جهاز الحكم، وزاد في سوء الحال ما حدث من التنافس بين عبد الملك وأخيه الأكبر عبد الرحمن.

وكان أبو الوليد يؤثر ولده

الأصغر عبد الملك بمحبته، وكان عبد الرحمن من جانبه يدعى أنه أحق بالولاية من

أخيه، فوقع التنافس بين الأخوين، وأخذ كل منهما يستميل طائفة من الجند.

ويؤلف الأحزاب لمناصرته، فلما تفاقم الأمر.

خشى أبو الوليد العواقب، عمد

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٢ و ٢٥١ و ٢٥٦، وأعمال الأعلام ص ١٤٩.

(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ١١٨.



خريطة:

دول الطوائف

والممالك الإسبانية النصرانية بعد انهيار الخلافة

أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) .

إلى تقسيم السلطة بين ولديه، فخص أكبرهما عبد الرحمن بالنظر في أمر الجباية، والإشراف على أهل الخدمة، وفي التوقيع في الصكوك السلطانية، والدخل والخرج
وجميع أبواب النفقات، وخص عبد الملك بالنظر في شئون الجند، والإشراف على أعطيتهم، وتجريدهم في البعوث وجميع ما يخصهم، وارتضى الأخوان هذا الحل.
بيد أن عبد الملك لم يلبث أن غلب على أخيه عبد الرحمن، وسجنه في منزله واستبد بالأمر دونه، وخلا الجو لعبد الملك، وأطلق العنان لسلطانه وأهوائه، واستولى صحبه من الأوغاد والسفلة، على أزمة الحكم، وبدأ الشعب القرطبى ينصرف عن آل جهور.
كل ذلك والرئيس الشيخ أبو الوليد ملتزم داره لشلل
أقعده.
وكان عبد الملك يعتمد في مشاريعه وتحقيق خططه، على مصادقة ابن عباد وتشجيعه، وقد زاره في إشبيلية، فبالغ ابن عباد في إكرامه والتودد إليه، وكان عبد الملك يظن أنه يستطيع الاعتماد على صداقته ومحالفته، ضد أطماع بني ذى النون
أصحاب طليطلة، ومشاريعهم للاستيلاء على قرطبة، ولم يكن يدور بخلده أن بنى عباد يضمرون ضده مثل هذه المشاريع.
وأخيراً تكشفت الأمور، وخرج المأمون يحيى بن ذى النون في قواته من طليطلة، قاصداً غزو قرطبة، واستولى في طريقه على حصن المدوّر الواقع غربى
قرطبة.
وكان المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية قد توفى سنة ٤٦١ هـ، وخلفه ولده المعتمد، فسار على سياسة أبيه من إبداء المودة والتحالف لبنى جهور.

فلما

شعر عبد الملك بالخطر الداهم، استغاث بحليفه ابن عباد، فبعث إليه المعتمد

بالمدد من الفرسان تحت إمرة قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين، فنزلا

بالربض

الشرقى من قرطبة.

وأشرف ابن ذى النون بجنده على المدينة، فألفاها قد استعدت

لقتاله بقوات لا قبل له بها، فارتد أدراجه محنقاً، بعد قتال يسير.

وكان قد وقع

الاتصال أثناء ذلك بين قائدى جيش إشبيلية وبين بعض الناقمين من زعماء

قرطبة.

في التخلص من بني جهور، والانضواء تحت ظل بني عباد، والظاهر أيضاً

أن كانت لدى القائدين أوامر سرية بتدبير الخطة للاستيلاء على المدينة،

وعلى أى

حال فإنه ما كاد ابن ذى النون يرتد بقواته، حتى تظاهر القائدان بأنهما

يزمعان

العودة، وسارا في بعض قواتهما إلى وداع عبد الملك بباب المدينة، وعندئذ

(٢٨/٢)

اقتحم العباديون الأبواب وملكوها، ودخلوا المدينة واحتلوها، وعاثوا فى

أنحائها نهباً وهتكاً وسبياً، وكان ذلك في شعبان سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) .

وأدرك

عبد الملك مبلغ خديعته، وأيقن أن النهاية قد حلت، فطلب الأمان لنفسه

وذويه، فاعتقل وأخوه عبد الرحمن وسائر الأهل والولد، وأرسلوا في الحال إلى

إشبيلية، ثم اعتقل أبوهما، الشيخ المريض المقعد أبو الوليد بن جهور ومن

معه، ونفى الجميع

إلى جزيرة شلطيش، الواقعة في مصب نهر أراد تجاه ولبة، وهناك توفى ابن

جهور الشيخ لأربعين يوماً فقط من نكبته وسقوط دولته.
وهكذا انتهت دولة بني جهور بقرطبة، بعد أن لبثت أربعين عاماً.
وكانت
أول دولة تسقط من بين دول الطوائف الرئيسية.
وكانت دولة نموذجية، ولاسيما في عهد مؤسسها الوزير أبي الحزم بن جهور.
وكانت تتمتع بين دول
الطوائف بمركز أدبى خاص، وتتخذ في أحيان كثيرة مركز الوسيط والحكم، وتعمل بهيبتها وهيبة رئيسها الوزير المحنك، على فض المنازعات وإقرار السلم بين
الأمراء.
ومن ذلك ما بذله أبو الحزم من المساعى المتكررة لحسم النزاع بين المعتضد ابن عباد والمظفر بن الأفطس، حينما نشب القتال بينهما بشأن لبلة التي هاجمها ابن
عباد، واستغاث صاحبها ابن يحيى بصديقه المظفر، وقد كاد الأمر بينهما يتطور
إلى فتنة هوجاء لولا تدخل أبي الحزم ونصحه المتكرر (١) .
وندب المعتمد بن عباد ولده الفتى عباداً الملقب بالظافر وسراج الدولة لحكم قرطبة، التي يتصل تاريخها من ذلك الحين بتاريخ مملكة إشبيلية.
وقد تناول ابن حيان، وكان حسبما تقدم من وزراء عبد الملك بن جهور، وشهد بنفسه سائر هذه الحوادث، مأساة سقوط الدولة الجهورية، في كتاب خاص سماه "البطشة الكبرى" يمتاز بقوته وبلاغته (٢) .
ولما فشل مشروع المأمون بن ذى النون في افتتاح قرطبة، واستولت عليها

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٥١: والبيان المغرب ج ٣ ص ٢١٠.
وراجع في أخبار دولة
بنى جهور: الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ١١٤ - ١٢٦، والبيان

المغرب ج ٣ ص
١٨٥ - ١٨٧ و ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢٥٩ - ٢٦١، وأعمال الأعلام ص ١٤٥
- ١٥١، والحلة
السيراء (ليدن) ص ١٦٨ - ١٧٠، وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٩.
(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ١٢٩، وأعمال الأعلام ص
١٥١.

(٢٩/٢)

جنود ابن عباد، وتولى حكمها ولده سراج الدولة، وجه ابن حيان إلى المعتمد
رسالة تهنئة يقول فيها: " لو أن فتحاً اعتلى عن تهنئة ممنوحة بارتفاع قدر، أو
جلالة صنع، أو فرط انتقام مستأصل، أو تنزل حكم من الرحمن فاصل، لكان
فتحه هذا لك، على عدو أسود الكيد، مظاهر البغى على الحسد، طالما استحييته
لا من خجل، وتنكبته لا عن وهل، فأبى رأيه الفائل، وجده العاثر، وحينه
المجلوب، وضربه المكبوب، الا اكتساب العار، ومماتنة محصد الأقدار ". ثم
يحمل ابن حيان بعد ذلك على المأمون بن ذى النون، وينوه بتوفيق ابن عباد ويمنه
في هزيمته ورد مكيدته، وذلك في عبارات ملتهبة لاذعة (١) .
وإنه لمما يلفت النظر في ذلك حقاً أن ابن حيان، يهدى مؤلفه التاريخى العظيم فى
مقدمته إلى المأمون بن ذى النون، ويصفه "بالأمير المؤثل الإمارة ذى المجدين، الكريم
الطرفين" (٢) .
وقد انتهز ابن بسام هذه الفرصة للحملة على ابن حيان، والتنويه

بمواقفه المتناقضة في تاريخه لملوك الطوائف.
وفى رأيه أن هذا التاريخ، بالرغم مما
لقيه لدى بعض أولئك الملوك من ترحاب وتقدير، وما أجزلوه عنه من
صلات، فإن ابن حيان "قد أخطأ التوفيق، وما أصاب"، إذ جاءت معظم
أقواله كالسهام
المرسلة، من قدح مغرض في الأحساب والأعراض، وطمس للمعالم والأنوار،
وأنه قد ارتكب بذلك إثماً وظلماً، وإن كان قد سلم من لسانه "أمير بلده، وأكبر
أهل زمانه " أبو الحزم بن جهور، وابنه من بعده، فقد جرى لهما "بأيمن
طائر، ولم يعرض لذكرهما إلا بخير" (٢) .

---

(١) تراجع هذه الرسالة في الذخيرة، القسم الأول المجلد الثاني ص ٨٩ - ٩١.
(٢) الذخيرة، القسم الأول المجلد الثاني ص ٨٨.
(٣) الذخيرة، القسم الأول المجلد الثاني ص ٨٤ و ٨٥ و ١١٣ و ١١٤.



الفصل الثاني
بنو عباد ومملكة إشبيلية
القسم الأول
ظهور القاضى ابن عباد في إشبيلية.
بنو عباد وأصلهم ونشأتهم.
القاضى اسماعيل بن عباد ينتزع
الرياسة في إشبيلية.
بنو حمود وسلطانهم على إشبيلية.
صد المستعلى بن حمود عن دخولها.
تقديم القاضى

ابن عباد عليها.

حكمه وأهباته.

ولده أبو القاسم محمد.

الخلاف بين أبي القاسم بن عباد وابن الأفطس

والحرب بينهما.

البرزالى صاحب قرمونة.

تعليق ابن حيان على عصابات البربر.

استيلاء المعتلى

ابن حمود على قرمونة.

إعلان القاسم بن عباد ظهور هشام المؤيد.

قصة هشام والغموض حول مصيره.

استرداد ابن عباد لقرمونة ومصرع المعتلى.

استيلاؤه عليها وعلى إستجه.

الحرب بين ابن عباد والبربر.

هزيمة جند ابن عباد ومصرع ولده اسماعيل.

وفاة أبي القاسم محمد بن عباد، وقيام ولده المعتمد

مكانه.

المعتضد بن عباد حسبما يصوره ابن حيان.

حملة ابن بسام عليه.

قسوته وصرامته.

إمارات

الطوائف في غربى الأندلس.

إمارة لبلة ومهاجمة المعتضد لها.

تدخل ابن الأفطس والحرب بينه

وبين المعتضد.

استيلاء المعتضد على لبلة.

قصور بني عباد.

صفة

المعتضد.

شغفه بالنساء.

أدبه وشاعريته.

وزراؤه وكتابه الأعلام.

ابن زيدون وابن عبد البر والبزليانى.

وزيره ششقند.

كانت مملكة إشبيلية أو غربى الأندلس، من حيث الرقعة الإقليمية، والزعامة السياسية، والقوة العسكرية، أهم دول الطوائف وأعظمها شأناً، وفضلا عن هذا التفوق الإقليمى والسياسيى، فقد سطعت مملكة إشبيلية بين دول الطوائف زهاء نصف قرن، بفخامة بلاطها، وروعة رسومها، وكان للأدب والشعر بها دولة زاهرة، طبعت هذه الحقبة القصيرة من تاريخها، بطابعها الخالد.

(٢/٣١)

وإذا كنا سوف نخص مملكة إشبيلية بالحديث فيما يلى، فإن هذا الحديث سوف

يكون مشعباً متعدد النواحى، وسوف يمتد إلى إمارات ودول أخرى، ليس فقط داخل منطقة الغرب أو غربى الأندلس، التي كانت تسيطر عليها مملكة إشبيلية، ولكن إلى مناطق وممالك رئيسية أخرى.

- ١ -

بدأت جذور مملكة إشبيلية مبكرة، منذ انهيار الدولة العامرية في نهاية المائة الرابعة.

وفى الوقت الذى كانت تضطرم فيه عاصمة الخلافة قرطبة، بالفتن والانقلابات المتعاقبة، كان قاضى إشبيلية أبو الوليد اسماعيل بن عباد، يعمل فى

هدوء وصمت، على جمع خيوط الرياسة في يده، وعلى الاستئثار بحكم المدينة
العظيمة، التي تركت كباقى القواعد الأخرى لمصيرها.
كان اسماعيل بن عباد يتولى خطة القضاء بإشبيلية منذ أيام المنصور بن أبى عامر، وكان فضلا عما يمتاز به من العلم والحكمة والورع، ينتمى إلى بيت من
أعظم البيوتات العربية الأندلسية.
فلما وقعت الفتنة وسادت الفوضى كل ناحية من
نواحى الأندلس، استمر إسماعيل في خطة القضاء، وأخذ في نفس الوقت يعمل
على حفظ النظام، وضبط الأمور في المدينة.
وكان على بن حمود حينما دخل قرطبة
وتولى الحكم بها سنة ٤٠٧ هـ، تولى أخوه القاسم حكم إشبيلية، وبقى ابن عباد
على حاله في منصب القضاء.
ولما قتل على بن حمود، تولى أخوه القاسم مكانه فى
الخلافة في قرطبة، وخلا الجو ثانية لابن عباد.
وكان في خلال الفترة التي
كانت فيها خلافة الحموديين تتردد بين قرطبة وإشبيلية، وما تخللها من الأحداث
المتوالية، يعمل على توطيد مركزه وتدعيم رياسته، ويعمل بالأخص على حماية
المدينة من أطماع البربر وعيثهم، ويجمع حوله كلمة الزعماء حتى لا تغدو إشبيلية
كما غدت قرطبة مسرحاً للفتنة، ومرتعاً لأطماع البربر.
وقد وفق في خطته كما

سنرى أعظم توفيق.

ويجدر بنا قبل أن نتحدث عن عهد بني عباد أمراء إشبيلية، أن نذكر كلمة عن أصلهم، وأوّليتهم.

كان بنو عباد، وفقاً لأقوال علماء النسب، ينتمون إلى لخم.

ومؤسس دولتهم

ومنشيء مجدهم، هو القاضى أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن قريش بن عباد

(٣٢/٢)

ابن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عِطاف بن نعيم.

وعطاف هو جدهم الداخل

إلى الأندلس في طالعة بَلْج بن بشر القشيرى.

وأصله من أهل حمص الشام، لخمى النسب صريحاً.

ولما دخل إلى الأندلس نزل بقرية "يومين" بقرب بلدة

طشانة Tocina من أعمال إشبيلية، وهى واقعة على ضفة نهر الوادي الكبير.

ونحن

نعرف أن جند الشام قد نزلوا لأول الفتح بإشبيلية أو حمص كما سموها يومئذ، نظراً لما بينها وبين حمص الشام من شبه قوى في الطبيعة والإقليم.

وفى رواية أخرى

أن بني عباد هم من ولد النعمان بن المنذر بن ماء السماء، وبذلك كانوا يفخرون

ويمدحون، وهذا ما يؤيده قول شاعرهم ابن اللبانة:

من بني المنذر بن ما السماء وهو انتساب زاد في فخره بنو عباد

نبتة لم تلد سواها المعالى..

.

والمعالى قليلة الأولاد
وتلق نجم بني عباد، في أعقاب الفتنة، على يد جدهم أبي الوليد اسماعيل
قاضى إشبيلية، وكان قد تقلب قبل انهيارالخلافة في عدة من الوظائف
الكبرى، فولى الشرطة لهشام المؤيد، ثم ولى خطة الإمامة والخطابة بالجامع
الأعظم، ثم
ولى قضاء إشبيلية.
ولما اضطرمت الفتنة، وتجهمت الظروف، استطاع بحزمه
ودهائه، ووجاهته وبذله، أن يستغل ظروف الفتنة على أكمل وجه، وأن يجمع
في يده أزمة الرياسة والحكم شيئاً فشيئاً، معتمداً في ذلك على عراقة بيته،
ورفيع
مكانته، وواسع ثرائه، ومعاونة الزعماء والأكابر الذين استمالهم إلى جانبه،
بلينه
وجوده ولباقته؛ ويصفه ابن حيان بأنه " رجل الغرب (أى غربى الأندلس)
قاطبة، المتصل الرياسة في الجماعة والفتنة "، وينوه بوفور عقله وسبوغ
علمه، وركانته
ودهائه وبعد نظره، ويقول لنا إنه كان " أيسر من بالأندلس وقته، ينفق من
ماله
وغلاته، لم يجمع درهماً قط من مال السلطان ولا خدمه ".
ولما شعر القاضى ابن عباد بأنه حقق بغيته، من توطيد قدمه في الرياسة،
وأثقلته السنون، وكف بصره أو كاد، ندب ولده أبا القاسم محمد ليشغل مكانه
خطة القضاء.
وكان سلطان بني حمود ما يزال ثمة يتردد بين قرطبة وإشبيلية، ويخفق علم
خلافتهم هنا وهناك.
وقد رأينا أن القاسم بن حمود قد تولى الخلافة فى
قرطبة عقب مقتل أخيه على (أواخر سنة ٤٠٨ هـ) .
وفى أوائل سنة ٤١٢ هـ، ثار عليه ابن أخيه يحيى بن على، وزحف بقواته

على قرطبة، فغادرها القاسم
في نفر من صحبه، وقصد إلى إشبيلية، وهناك تسمى بالخلافة وتلقب
بالمستعلى.

(٣٣/٢)

بيد أنه ما لبث أن استدعى ثانية إلى قرطبة، على أثر خلع ابن أخيه يحيى، وهنالك
جددت له البيعة (ذو الحجة سنة ٤١٣ هـ) .
وكان المستعلى حينما استقر بإشبيلية قد
اصطنع أبا القاسم بن عباد بعد موت أبيه اسماعيل، وقربه إليه، وأقره في ولاية
القضاء.
وكان أبو القاسم يشعر من جانبه أن استمرار سلطان الحمّوديين، يهدد
رياستهم وينذر بالقضاء عليها.
فلما استدعى المستعلى ليتولى الخلافة ثانية في قرطبة، اجتمع رأى أهل
إشبيلية على ثلاثة من الزعماء هم القاضى اسماعيل بن عباد، والفقيه
أبو عبد الله الزبيدى، والوزير أبو محمد عبد الله بن مريم، يتولون حكمها وضبط
الشئون فيها، فكانوا يحكمون بالنهار في القصر، وتنفذ الكتب تحت أختامهم
الثلاثة، ومع ذلك فقد كان القاضى ابن عباد، بمركزه ووفرة ثرائه ووجاهته،
أقواهم سلطاناً، وأعلاهم يداً.
فعكف على العمل على توطيد سلطانه، وعلى
إضعاف سلطة البربر في المدينة.
ولما عاد المستعلى بعد قليل لاجئاً مع فلوله إلى
إشبيلية، بعد أن خلعه القرطبيون، وطلب أن تخلى له ولأصحابه الدور، اتفق
زعماء المدينة، وعلى رأسهم أبو القاسم على إغلاق أبوابها، وصد المستعلى

وصحبه
البربر عن الدخول إليها، وأخرج من كان بها من ولد المستعلى وأهله، ومن زعماء
البربر وأكابرهم.
واتفق أهل إشبيلية، اتقاء لعدوان المستعلى وأشياعه من البربر، على أن يؤدوا له قدراً من المال، وينصرف عنهم، وتكون له الخطبة والدعوة، ولا يدخل بلدهم، ولكن يقدم عليهم من حكمهم ويفصل بينهم، فقدم عليهم القاضى أبا القاسم بن عباد، ورضى به الناس، وبذا انفرد ابن عباد أيضاً بالرياسة الشرعية، وقد كان منفرداً بها من الناحية الفعلية، وكان ذلك في أواخر سنة ٤١٤ هـ
(١٠٢٣ م) وبذلك انتهت رياسة البربر في إشبيلية، كما انتهت من قبل في قرطبة (١) .

---

(١) راجع في أصل بني عباد وظهورهم: ابن الأبار في الحلة السيراء (مخطوط الإسكوريال
رقم ١٦٥٤) لوحة ٦٥ أ، ونقله دوزى في كتابه: Scriptorum Arabum Loci de Abbaditis
(الكتابات العربية المتعلقة ببنى عباد) ، والمسمى أيضاً Historia Abbadidarum (تاريخ بني عباد)
(ليدن سنة ١٨٤٦ – ١٨٦٣ في ثلاثة مجلدات) ج ١ ص ٢٢٠ و ٢٢١.
وراجع الحلة السيراء (القاهرة)
ج ٢ ص ٣٤ – ٣٨.
وراجع أيضاً جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٣٩٨، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٩٤ – ١٩٦ و ٣١٤ و ٣١٥، وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت)
ص ١٥٢ و ١٥٣.

ونود أن نلاحظ بهذه المناسبة أن العلامة رينهارت دوزى قد عمد إلى تمزيق كتاب "الحلة
السيراء"، فاستخرج منه تراجم عديدة نشرها في كتابه Hist.
Abbadidarum (تاريخ بني عباد) ، ونشر بعضها في كتابه:
Recherches، ثم نشر معظم ما تبقى بعد ذلك من التراجم في مجلد =

(٣٤/٢)

ونظم ذو الوزارتين أبو القاسم بن عباد حكم المدينة، بعد أن غدا قاضيها وحاكمها السياسى معاً، معتمداً في ذلك على تأييد زعماء البيوتات العربية ومعاونتهم، وعلى تأييد الشعب والتفافه من حوله.
وكان بالرغم من استئثاره بالسلطة، يبدى
في أحكامه وتصرفاته كثيراً من اللين والرفق، وكان يعمل في هدوء وأناة على التخلص من سائر منافسيه، والقضاء عليهم واحداً بعد الآخر.
وعمد في نفس
الوقت إلى شراء العبيد، وحشد الرجال، واقتناء السلاح، ولم يكن يخفى عليه أن الحموديين، وشيعتهم من البربر يتربصرن به، ويطمحون إلى امتلاك إشبيلية.
وكان بنو حمود من جانبهم يخشون بأسه وأطماعه على مملكتهم، ومن جهة أخرى
فإن أطماع ابن عباد لم تكن تقف عند حكم إشبيلية وحدها، بل كانت تتجه إلى
التوسع، ولاسيما في ناحية الغرب، التي كانت بطبيعتها الإقليمية تتبع إشبيلية، وكانت من جهة أخرى خالية من المنافسين الأقوياء.
وكان أول صدام عسكرى خطير اشترك فيه أبو القاسم بن عباد، قتاله مع بنى الأفطس أصحاب بَطَلْيوس، وهم جيرانه من الشمال.
ومما يجدر ذكره أن ابن

عباد مع خصومته للبربر، كان يعتمد على محالفة محمد بن عبد الله البرزالى
البربرى
صاحب قرمونة، أولا لأن قرمونة كانت حصن إشبيلية من الشرق، وثانياً
لأن البرزالى كان يخشى سطوة بني حمود وأطماعهم في المدينة، ومن ثم فقد
كانت تجمعه مع ابن عباد مصلحة جوهرية مشتركة؛ ولما وقعت الخصومة
بن
ابن عباد، والمنصور بن الأفطس صاحب بطليوس، بشأن الاستيلاء على
مدينة
باجة، التي وقع الخلاف بين أهلها على الرياسة، بعث ابن عباد لقتاله ولده
اسماعيل

---

= بعنوان: Extraits de l'Ouvrage intitulé Al – Hollato,
.S'Syiara
" نبذ من
الكتاب المسمى الحلة السيراء " (ليدن ١٨٤٧ – ١٨٥١) باعتباره يضم تراجم
" الإسبانيين " أى
الأندلسيين وليس المغاربة.
ولم يكتف دوزى بذلك، بل عمد إلى تمزيق كثير من التراجم، فنشر
أقساماً منها في Hist.
.Abbad
وكذلك في Recherches، ونشر باقيها في المجموعة المشار إليها.
وفى
اعتقادنا أن ذلك لم يكن عملا سليماً من الناحية العلمية، إذ ترتب عليه تمزيق
الكتاب وبعثرة محتوياته
ومن ثم فقد اضطررنا في الطبعة الأولى أن نرجع أحياناً إلى الأصل
المخطوط، وأحياناً إلى أجزائه

المطبوعة المبعثرة هنا وهناك.
هذا ومما يدعو إلى الغبطة أن كتاب الحلة السيراء قد صدر أخيراً في طبعة كاملة محققة في مجلدين
كبيرين (القاهرة سنة ١٩٦٤) بعناية الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد.
ومن ثم فقد رأينا أن نرد المراجع التي أثبتناها مخطوطة في الطبعة الأولى، خلال الكتاب، إلى هذه
الطبعة الجديدة المطبوعة.

(٣٥/٢)

على رأس نخبة من جنده، واشترك معه البرزالى بقواته، وحاصرت القوات المشتركة مدينة باجة التي احتلتها قوات ابن الأفطس، وقتلت وأسرت
معظمهم، وكان بين الأسرى ولد ابن الأفطس، فاعتقل لدى البرزالى حيناً بقرمونة ثم
أطلق سراحه، وكذلك كان منهم أخ لابن طيفور صاحب ميرتُلَة وقد صلب بإشبيلية (٤٢١ هـ) .
ثم عادت الحرب فاضطرمت بين الفريقين بعد ذلك بأربعة أعوام. وكان
ابن الأفطس وهو من الأصول البربرية، يعتمد أيضاً في جيشه على فريق من البربر؛ وسارت قوات إشبيلية بقيادة إسماعيل بن عباد شمالا إلى أراضي ابن الأفطس وتوغلت فيها، ولكنه حين العودة فاجأته قوات كثيفة لابن الأفطس، ومزقت عسكره، ففر مع فلوله إلى مدينة أشبونة، وامتنع بها حيناً، وكانت هزيمة ساحقة لبنى عباد (٤٢٥ هـ - ١٠٣٤ م) .
وكان محمد بن عبد الله البرزالى صاحب قرمونة، من أكبر محرضى ابن عباد
ومعاونيه في تلك المعارك.

ويصفه ابن حيان "بقطب رحى الفتنة" وينوه بفتكه
وعيثه وقبح آثاره في تلك المنطقة، وأنه كان من خصوم الخلافة، لا يروم
قيامها
بقرطبة بأى وجه "رسوخاً في الخارجية ودفعاً لأمر الله "، وأنه كان يقطع
السبل
على قرطبة، ويضيق عليها الحصار، حتى اضطر وزراء قرطبة إلى
الاستعانة ضده
بفريق من بربر بني برزال بشذونة، واعتضدوا بهم مدة.
واعتضد ابن الأفطس
بطائفة أخرى منهم.
ويقول ابن حيان معلقاً على تلك الحالة في تسرب البربر إلى
سائر الجهات: "فكان في كل بلد جملة منها، سالت عن أهل البلاد سيول
بها، وخلطوا الشر بين رؤسائها، واستخرجوا بذلك، ما أظهروه من دنانيرهم
وخلعهم، وجاحوا ذات أيديهم وعلموهم كيف يوكل الكتف، فطال العجب عندنا
بقرطبة
وغيرها من صعاليك، قليل عددهم، منقطع مددهم، اقتسموا قواعد الأرض
في وقت معاً، مضربين بين ملوكها، راتعين في كلاها، باقرين على فلذتها،
حلوا محل الملح في الطعام ببأسهم الشديد، وقاموا مقام الفولاذ في الحديد، فلا
يقتل الأعداء إلا بهم، ولا تعمر الأرض إلا في جوارهم، فطائفة عند
ابن الأفطس تقاوم أصحابها قبل ابن عباد، وطائفة عندنا بقرطبة تحيز أهلها
عن
الأضداد، فسبحان الذى أظهرهم، ومكن في الأرض لهم، إلى وقت وميعاد "
. (١)

---

(١) نقلها دوزى عن الذخيرة: راجع: Historia Abbadidarum V.
I.

(٣٦/٢)

وكان من أشهر أعمال القاضى ابن عباد في تلك الفترة، إعلاته لظهور هشام
ْالمؤيد، وإقامته خليفة بإشبيلية، وكان يحيى بن حمود الملقب بالمعتلى، قد
استقر
في مالقة حسبما أسلفنا، وجعلها مقر ملكه، وبسط حكمه على معظم قواعد
الأندلس الغربية الجنوبية.
وكان يخشى مشاريع ابن عباد، ويرى فيه خصمه
الحقيقى.
فلما توثقت عرى التحالف بين البرزالى صاحب قرمونة وابن عباد، أخذ
يتوجس شراً، ومن ثم فقد انتهز أول فرصة، وسار إلى قَرْمونة، وانتزعها
من يد صاحبها محمد بن عبد الله البرزالى، فلجأ محمد إلى إشبيلية واستغاث
بحليفه
ابن عباد.
ولما شعر ابن عباد بخطورة الموقف، وأخذ يحيى المعتلى يرهقه بغاراته
المتوالية على أراضي إشبيلية، ويردد النذير بوجوب استردادها باعتبارها من
أملاك الحمّوديين، أعلن ذات يوم أن هشاماً المؤيد قد ظهر، وأنه كان مختفياً
ولم يمت (أواخر ٤٢٦ هـ - ١٠٣٥ م) ، وذلك لكى يدحض دعوى
الحموديين
في الخلافة بظهور الخليفة الشرعى.
وقد ساقت إلينا التواريخ المعاصرة تفاصيل
هذه القصة أو بالحرى هذه الأسطورة.
ونحن نعرف مما تقدم أن سليمان المستعين
حينما دخل قصر قرطبة في أواخر سنة ٤٠٣ هـ، قبض على هشام المؤيد

وأخفاه.
وأن الرواية تختلف بعد ذلك في مصيره، فيقال إنه قتل بعد ذلك بيد محمد بن
سليمان، ويقال من جهة أخرى، إنه فر من محبسه، وعاش حيناً في ألمرية
حتى
توفى.
وعلى أى حال فقد استمر هذا الغموض الذى يحيط بمصير هشام مدة
طويلة، ومختلف الروايات والقصص تنسج من حوله، يذيعها بنو عمه
المروانية، وفتيان القصر وجواريه السابقين، ومؤداها أن هشاماً لم يمت، وأنه
مختف وسوف
يظهر في الوقت المناسب.
وعلى أساس هذه الروايات، أظهر ابن عباد شخصاً
زعم أنه هشام المؤيد، وجمع حوله نفراً من خدم القصر السابقين، فأيدوا
روايته
وشهدوا بصدق زعمه، ويقال إن هذا الشخص كان بالفعل يشبه هشاماً شبهاً
كبيراً.
وكان هذا الرجل يعمل مؤذناً بمسجد في قرية من قرى إشبيلية، فاستقبل
عند خروجه من المسجد، وألبس الثياب الخلافية، وقبل ابن عباد وولده
وصحبه
الأرض بين يديه، وخوطب بألقاب الخلافة، ثم أخذ إلى القصر، حيث أقبل
الناس أفواجاً لبيعته، وهو يخاطبهم من وراء حجاب، ويخبرهم بأنه قد عهد
بحجابته إلى إسماعيل بن عباد.
ويقول لنا ابن القطان إن هذا الدعى كان يسمى
خلف الحصرى، وإنه كان يشبه هشاماً، وإنه حينما أتى به إلى إشبيلية، نودى
فى

الناس، أن اشكروا الله على ما أنعم عليكم به، فهذا مولاكم أمير المؤمنين
هشام
قد صرفه الله عليكم، وجعل الخلافة ببلدكم لمكانه فيكم، ونقلها من قرطبة
إليكم، فاشكروا الله على ذلك (١) .
وذاعت قصة ظهور هشام في سائر الأنحاء، وبعث ابن عباد بكتبه إلى سائر
قواعد الأندلس، يطلب من رؤسائها الاعتراف والبيعة لهشام المؤيد.
فلم يعترف
بها سوى بعض الفتيان العامريين السابقين، واعترف بها الوزير أبو الحزم بن
جهور
لنفس البواعث، التي حملت ابن عباد على اختراعها، وهو العمل على دفع
دعاوى
الحموديين ومطامعهم حسبما سبقت الإشارة إليه.
ويندد الفيلسوف ابن حزم بقصة هذا الخليفة المزعوم، ويصفها بأنها "أخلوقة
لم يقع في الدهر مثلها".
ثم يقول إنها لفضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا مثلها، أن
يقوم أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها، كلهم يتسمى بإمرة أمير
المؤمنين، ويخطب لهم في زمن واحد، وهم: خلف الحصرى بإشبيلية على أنه
هشام بن الحكم، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة، ومحمد بن إدريس بن
على بن حمود بمالقة، وإدريس بن يحيى بن حمود بببشتر (٢) .
وعلى إثر ذلك استعد ابن عباد لاسترداد قَرْمونة من يد يحيى المعتلى، فسير
بعض قواته مع ولده إسماعيل، ومعها طائفة من البربر المتحالفين معه.
فطوق
قسم منها المدينة ليلا، وكمن القسم الثاني في أماكن مستترة.
وكان يحيى المعتلى داخل
المدينة، وهو عاكف على لهوه وشرابه، فلما وقف على الخبر.
خرج مع قواته

وهو ثمل، واشتبك مع المهاجمين في معركة حامية، وعندئذ ظهرت قوات ابن
عباد من مكمنها وأطبقت عليه، فمزقت قواته وقتل خلال المعركة، واحتز
رأسه
وحمل إلى القاضى ابن عباد (المحرم سنة ٤٢٧ هـ) ورد ابن عباد قرمونة إلى
صاحبها
السابق، حليفه محمد بن عبد الله البرزالى.
بيد أنه لم تمض على ذلك أعوام قلائل حتى ساء التفاهم بين ابن عباد
والبرزالى.
وكان ابن عباد يرى أن قرمونة، وهى حصن إشبيلية من الشرق يجب أن
تكون
في حوزته، فسير ولده إسماعيل في حملة قوية إلى قرمونة فاستولى عليها.
ثم استولى
بعد ذلك على مدينة إستجة الواقعة في شرقها وكذلك على مدينة أشونة
الواقعة

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ و ٢٠٠، وأعمال الأعلام ص ١٥٤.
(٢) نقط العروس لابن حزم (المنشور بمجلة كلية الآداب ديسمبر ١٩٥١)
ص ٨٣ و ٨٤.

*(٣٨/٢)*

جنوبى إستجة، فاستغاث البرزالى بزملائه من الزعماء البربر، وهرع إلى
نصرته
إدريس المتأيد صاحب مالقة، وباديس بن حبوس صاحب غرناطة، وكان
كلاهما يتوجس من مشاريع ابن عباد وأطماعه، ووقعت بين البربر وجند
إشبيلية
عدة معارك عنيفة، واستطاع البربر أن يخترقوا أراضي إشبيلية حتى قلعة

جابر (١)
حصنها من الشرق، وانتهى الأمر بأن هزم الإشبيليون، وقتل أميرهم إسماعيل
ابن عباد، واحتز رأسه وحمل إلى باديس، وذلك أسوة بما حدث ليحيى
المعتلى، وكان ذلك في أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م)
. (٢)
فكان لتلك النكبة أسوأ وقع في نفس القاضى ابن عباد، فندب ولده الثاني
عباداً لتدبير الشئون، وقيادة الجيش، فأبدى قوة وحزماً، ولبث زهاء عامين
مضطلعاً بمهمته، حتى توفى أبوه في نهاية جمادى الأولى سنة ٤٣٣ هـ
(يناير ١٠٤٢ م) .
وكان القاضى ابن عباد عالماً أديباً، وشاعراً مطبوعاً، ومن قوله في الفخر:
ولابد يوماً أن أسود على الورى..

.

ولو رد عمرو للزمان وعامر
فما المجد إلا في ضلوعى كامن..

.

ولا الجود إلا في يمينى ثابر
يجيش العلى بين جنبى جايل..

.

وبحر الندى أسير كفى زاخر
ويمكننا أن نعتبر القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد، مؤسس دولة بني
عباد
الحقيقى، ومنشىء ملكهم ورسوم مملكتهم، وعلى يده اتخذ سلطان بني عباد
ألوانه
الملوكية المدعمة بالقوى العسكرية، وإن لم يصل بعد إلى غايته من الروعة
والضخامة، وأصبح ملوكية وراثية راسخة، بعد أن كان يتخذ فقط صورة
الزعامة، والرياسة القبلية.

فولى الأمر من بعده ولده أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل، وتلقب أولا بفخر الدولة، ثم بالمعتضد بالله، وكان يوم ولايته فتى في السادسة والعشرين، وكان
مولده في صفر سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) .
وقد أجمعت الروايات المعاصرة والقريبة من
العصر، على الإشادة بخلال المعتضد الباهرة، وصفاته المثيرة معاً.
ويصفه ابن حيان، وهو معاصره، ومتتبع لأحداث حياته وحروبه، بأنه "زعيم جماعة أمراء الأندلس
في وقته، أسد الملوك، وشهاب الفتنة، وداحض العار، ومدرك الأوتار،

---

(١) هى بالإسبانية Alcalà de Guadaira، وما تزال أطلالها قائمة حتى اليوم.
(٢) جذوة المقتبس ص ٢٩ و ٣٠.

*(٣٩/٢)*

وذو الأنباء البديعة، والجرائر الشنيعة، والوقاخ المثيرة، والهمم العلية، والسطوة الأبية".
وابن حيان أميل إلى تزكية المعتضد منه إلى الحكم عليه، حسبما يبدو ذلك من قوله "فلقد حمل عليه على ممر الأيام في باب فرط القسوة، وتجاوز الحدود
والابلاغ في المثلة، والأخذ بالظنة، والإحتقار للذمة، حكايات شنيعة لم يبد فى
أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها، فالقول ينساق في ذكرها، ومهما برىء من مغيبها فم يبرأ من فظاعة السطوة، وشدة القسوة، وسوء الاتهام على الطاعة، سجايا من جبلَّته لم يحاش فيهن ذو رحم واشجة".

بيد أن ابن بسام، وقد عاش قريباً
من عصر المعتضد، يبدو أشد قسوة في الحكم عليه إذ يصفه فيما يلى:
"قطب رحى
الفتنة، ومنتهى غاية المحنة، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد، ولا سلم
عليه
قريب ولا بعيد، جبار أبرم الأمر وهو متناقض، وأسد فرس الطلى وهو رابض، متهور تتحاماه الدهاة، وجبان لا تأمنه الكماة، متعسف اهتدى، ومنبت قطع فما أبقى، ثار والناس حرب، وكل شىء عليه ألب، فكفى أقرانه وهم غير واحد، وضبط شأنه بين قائم وقاعد، حتى طالت يده، واتسع بلده، وكثر عديده وعدده، حربه سم لا يبطىء، وسهم لا يخطىء، وسلمه شر غير مأمون، ومتاع إلى أدنى حين " (١) .
وافتتح المعتضد عهده بأمور كشفت عن صرامته وعنف وسائله، منها قتل حبيب وزير أبيه، ومنها اضطهاد الزعماء القدماء ونكبتهم، وقد كان في
مقدمة
هؤلاء الفقيه أبوعبد الله الزبيدى، وأبو محمد عبد الله بن مريم زميلا جده
القاضى
ابن عباد في الرياسة، وذلك حتى لا يقوم لأحد من ذوى العصبيات القوية
قائمة.
ثم رضع خطته الشاملة للاستيلاء على قواعد الغرب من أمرائها الأصاغر،
حتى
يخلص الغرب كله من الوادي الكبير إلى المحيط لسلطان بني عباد.
إمارات غربى الأندلس
وكانت أولى هذه القواعد مدينة لبلة الواقعة غربى إشبيلية، وشمال شرقى
ثغر ولبة، وكان قد ثار بها أيام الفتنة، أبو العباس أحمد بن يحيى اليحصبى
المعروف
باللبلى، أحد كبرائها، وضبطها، وبايعه أهلها (سنة ٤١٤ هـ) وبسط سلطانه

---

(١) أورده ابن بسام في ترجمة المعتضد في الذخيرة، وأورده دوزى في
Historia Abbadidarum
.V
.I
.p
٢٤١ & ٢٤٢ وأورده ابن ا، بار في الحلة السير اء (القاهرة) ج ٢ ص ٤٠
و ٤١.

(٤٠/٢)

على ما حولها من الأراضي ومنها "جبل العيون" (١) ، واستمر في حكم
دولته الصغيرة
زهاء عشرين عاماً، ثم توفى سنة ٤٣٤ هـ، وأوصى بالحكم من بعده لأخيه
أبى عبد الله محمد بن يحيى اليحصبى الملقب بعز الدولة، فمضى في حكمها
على ما كان
عليه من النظام والرخاء والأمن، حتى بدأ المعتضد بن عباد يرهقه بمطالبه
وغاراته،
ثم كشف المعتضد القناع، وهاجم لَبلة بقواته.
فاستغاث ابن يحيى بصديقه المظفر
ابن الأفطس صاحب بطليوس، فلبى نداءه وسار إلى نجدته بقواته، وحرك فى
نفس الوقت بعض حلفائه البربر إلى مهاجمة إشبيلية.
ولما وقف الوزير
أبو الوليد بن جهور على تلك الحركة أهمته، وتوجس من عواقبها، فأرسل إلى
الزعماء المتخاصمين رسله ينصحهم بوجوب التريث، والتمسك بأهداب التفاهم
والسلم، ويحذرهم من عواقب الفتنة، فلم يصغ إليه أحد منهم، وبادر المعتضد،
في الوقت الذى سارت فيه قوات ابن الأفطس إلى إنجاد ابن يحيى، فأرسل

قواته لمهاجمة أراضي ابن الأفطس، فعاثت فيها وخربتها، ثم سار المعتضد بنفسه إلى

لبلة، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة، هزم فيها ابن الأفطس أولا، ثم دارت الدائرة بعد ذلك على المعتضد، وقتل عدد كبير من جنده (٤٣٩ هـ - ١٠٤٧ م) .

وسارت بعض طوائف البربر في نفس الوقت، وعاثت في شرقى إشبيلية، وقطعت الطرق، وفتكت بالسابلة، وساءت الأحوال في المنطقة كلها. والظاهر أن ابن يحيى رأى في النهاية أن يتفاهم مع المعتضد بعد الذى نزل ببلاده من الخراب والعيث، فعقد معه الصلح.

ولكن ذلك لم يرض المظفر بن

الأفطس، فأبى أن يرد إلى ابن يحيى ودائعه وأمواله، التي أودعها عنده حينما هاجمه

المعتضد، ثم أرسل قواته لمهاجمة لبلة، فاستغاث ابن يحيى بالمعتضد فأرسل إليه

الأمداد، واستمرت المعارك بين الفريقين حيناً.

تم عادت الحرب فاضطرمت بين المعتضد وابن الأفطس في سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) وعاث المعتضد في أراضي ابن الأفطس، وافتتح منها عدة حصون

ضمها إلى مملكته، وأتلف الزروع وخرب كثيراً من القرى، وقتل الكثير من جند ابن الأفطس، ونضبت موارده، فانتهى إلى الاعتصام بحاضرته بطليوس

وذلك على ما نفصله فيما بعد في أخبار مملكة بطليوس.

وأخيراً تدخل الوزير

---

(١) وهى بالإسبانية Gibraléon

ابن جهور بين الفريقين، واستمر في مساعيه الحثيثة حتى عقد الصلح بين المعتضد
وابن الأفطس في ربيع الأول سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) .
والتفت المعتضد بعد ذلك إلى لَبلة فضيق الخناق عليها، وفي النهاية اضطر
أميرها عز الدولة أن يتنازل عن حكمها لابن أخيه أبي نصر فتح بن خلف اليحصبى
الملقب بناصر الدولة، على أن يعقد السلم مع المعتضد، وأن يؤدى له جزية سنوية.
وانتقل بأهله وأمواله إلى قرطبة، ليعيش هناك في كنف الوزير أبي الوليد بن جهور
وذلك في أواخر سنة ٤٤٣ هـ.
على أن المعتضد لم يقنع بهذا الحل، ولم يمض سوى القليل حتى نقض السلم
المعقود، وبعث قواته فهاجمت لبلة، واضطر ناصر الدولة أن يدافع عن نفسه،
واستمرت الحرب بينهما حيناً، حتى خربت بسائط لبلة وقتل كثير من جندها،
وسبى كثير من أهلها، وذلك بالرغم مما بذله ناصر الدولة من جهود يائسة للدفاع
عن ملكه، وما قام به من غارات متعددة على أراضي إشبيلية.
وفى النهاية اضطر
ناصر الدولة أن ينزل على حكم القوة القاهرة، وأن يسلم لبلة إلى خصمه القوى،
وأن يغادرها إلى قرطبة، ليعيش هناك إلى جانب عمه.
وكان سقوط لبلة في يد
المعتضد بن عباد سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) (١) .

هذا وربما كانت لبلة هى الوحيدة بين مدن الأندلس المسلمة، التي ما زالت تحتفظ حتى اليوم بأسوارها الأندلسية كاملة.
وقد زرناها وشهدنا أسوارها العتيقة
الضخمة التي تحيط بها من كل ناحية إلا من ناحيتها الشرقية على النهر المسمى"النهر
الأحمر" Rio Tinto.
وتمثل هذه الأسوار، التي جددها الموحدون في القرن
الثاني عشر، منعة لبلة الأندلسية وموقعها الحصين فوق الربوة العالية التي تحتلها،
وهو منظر رائع حقاً لا يدانيه في روعته سوى أسوار مدينة آبلة الرومانية العربية.
وثمة خاصة أخرى تمتاز بها لبلة، وهى أنه لم يطرأ علي خططها الأندلسية القديمة
كثير من التغيير، فهى ما زالت تحتفظ داخل الأسوار بطابعها الأندلسي المحض.
وعنى المعتضد في الوقت نفسه بالاستيلاء على إمارتين صغيرتين أخريين من

---

(١) راجع ما نقله ابن بسام في الذخيرة (عن ابن حيان) في دوزى: Historia - Abbadi
.darum V
.I
.p
٢٤٤ - ٢٥٢، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ و ٢٣٤ و ٢٤٠
و٢٩٩ و ٣٠٠ و ٣٠١، وأعمال الأعلام ص ١٥٦، وابن حيان (نقله ابن

بسام في الذخيرة)
القسم الأول المجلد الأول ص ٣٦٠.

(٤٢/٢)

إمارات ولاية الغرب، أولهما إمارة ولبة وجزيرة شلطيش، الواقعة جنوب
غربى لبلة، وإمارة شنتمرية الغرب في غربها.
فأما إمارة ولبة وجزيرة شلطيش الواقعة تجاهها في المحيط في مصب نهر
أوديل
فقد آلت في أعقاب الفتنة إلى أبي زيد عبد العزيز البكرى - كبير زعمائها -
وبويع
بها في سنة ٤٠٣ هـ، واستمر مضطلعاً بحكمها مدة طويلة، والسلام يرفرف
على
أرجائها.
فلما قوى سلطان بني عباد بإشبيلية، واتجهت أطماعهم إلى الاستيلاء على
إمارات الغرب، أخذ المعتضد يضيق الخناق على ثغر ولبة، ويرهقه بغاراته،
ويقطع السبل إليه.
فساءت أحوال الإمارة الصغيرة، ولم يجد البكرى سبيلا
إلا مفاوضة ابن عباد في عقد الصلح على أن يسلم إليه ثغر ولبة، ويكتفى
هو
بجزيرة شلطيش، فوافق ابن عباد على ذلك، ولكنه ما لبث أن أخذ في
مضايقة
البكرى في جزيرته، وفرض عليه نوعاً من الحصار.
وعندئذ اضطر البكرى
أن يفاوضه مرة أخرى في التنازل عن جزيرة شلطيش، وانتهى إلى أن باعه
أملاكه
وسفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال من الذهب، وغادر الجزيرة، بأهله وأمواله،

إلى قرطبة ليعيش هناك في كنف ابن جهور أسوة بزميله ابن يحيى أمير لبلة
(٤٤٣ هـ
١٠٥١ م) .
وفى رواية أخرى أن البكرى سار إلى إشبيلية وعاش بها في كنف
ابن عباد إلى أن توفى بها في سنة ٤٥٠ هـ.
بيد أننا نؤثر الرواية الأولى وهى رواية
ابن حيان، معاصر هذه الحوادث ومدونها بطريق العلم والتحقيق (١) .
هذا وقد اختفت جزيرة شلطيش من مصب نهر أوديل ولم يبق لها اليوم
وجود.
وأما إمارة شنتمرية الغرب الصغيرة الواقعة على المحيط في جنوبى البرتغال،
فقد بويع بها أبو عبد الله محمد بن سعيد بن هارون سنة ٤٣٣ هـ خلفاً لأبيه
سعيد
ابن هارون، ولبث في حكمها بضعة أعوام إلى أن بدأ المعتضد في مضايقته
ومحاربته.
وألفى ابن هارون أن لا قبل له بمقاومة هذا الأمير الباغى، فنزل له عن
ثغره،
وخرج بأهله وصحبه إلى إشبيلية (٤٤٣ هـ - ١٠٥١ م) وهناك توفى بعد
أشهر
قلائل.
وقيل إن خروج ابن هارون من شنتمرية كان في سنة ٤٤٩ هـ (٢) .
وتقوم
اليوم مدينة فارو البرتغالية فوق موقع شنتمرية الأندلسية.
ولم يبق من إمارات الغرب بعد ذلك سوى إمارة شلب، وكانت في الواقع

---

(١) ابن حيان، ونقله دوزى في: Hist.
Abbadidarum V.

.l

.p

٢٥٣ - ٢٥٢

(٢) البيان المغرب ٣ ص ٢٠٥ و ٢٩٨، ٢٩٩.



أهم إمارات الغرب بعد إشبيلية، وكانت تشمل فضلا عن كورة شِلْب (١) ، وهى
الواقعة في قاصية جنوبى البرتغال، كورة باجة.
وكان الحاجب عيسى بن محمد
قد تغلب في أعقاب الفتنة على هذه المنطقة النائية، وأقام بها دولة، واستمر
مسيطراً عليها حتى توفى في سنة ٤٣٢ هـ.
فخلفه في حكمها ولده محمد بن عيسى
الملقب بعميد الدولة، واضطر اتقاء لعدوان ابن عباد أن ينزل له عند مدينة باجة
وأن يكتفى بحكم شلب.
وكان ابن عباد قد استولى قبل ذلك على ميرتلة قاعدتها
الجنوبية من يد صاحبها ابن طيفور في سنة ٤٣٦ هـ، وأصبحت باجة تحت رحمته.
واستمر عميد الدولة في حكم شلب حتى توفى سنة ٤٤٠ هـ.
وعندئذ ثار بها القاضى
عيسى بن أبي بكر بن مُزَين فبايعه أهلها، وبسط حكمه عليها، وتلقب بالمظفر
واستمر حكمه خمسة أعوام، وابن عباد دائب على مهاجمته وشن الغارات عليه،
وهو يرده ما استطاع، حتى قتل في أواخر سنة ٤٤٥ هـ، مدافعاً عن مدينته.

فخلفه ولده محمد بن عيسى وتلقب بالناصر، وحكم حتى توفى سنة ٤٥٠ هـ، فخلفه ولده عيسى وتلقب بالمظفر، وسار في الحكم على نهج أبيه وجده، من ضبط الأمور، وإقامة العدل.

بيد أن المعتضد ما لبث أن كرر حملاته على شلب،

ثم ضرب الحصار حولها، وقطع عنها سائر الأمداد، حتى اشتد الأمر على أهلها،

وانتهى بأن اقتحمها بعد أن هدم أسوارها، ودخل القصر وقتل عيسى المظفر، وذلك في شوال سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ، وبذلك انتهت دولة بني مُزَين (٢)

.

الإمارات البربرية

وهكذا استطاع المعتضد بن عباد، في نحو عشرين عاماً، أن يقضى على سائر إمارات الغرب الصغيرة، وأن يبسط سلطانه عليها، وأصبحت مملكة بنى عباد، تشمل سائر الأراضي الممتدة من شاطىء نهر الوادي الكبير غرباً حتى

المحيط الأطلنطى، هذا عدا رقعة تقع شرقى الوادي الكبير.

على أن المعتضد

لم يقنع بهذا التوسع الكبير في اتجاه الغرب، وإنما كان يضع الخطط في نفس الوقت للقضاء على الإمارات البربرية الصغيرة القائمة في شرقى الوادي الكبير فى

جنوبى الأندلس، حتى يقضى على خططهم وأطماعهم، وحتى يؤمن جناحه الدفاعى في تلك الناحية، ويغدو حراً في العمل والحركة في اتجاه الشمال والشرق.

---

(١) وهى بالبرتغالية Silves

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٢ و ٢٩٦ - ٢٩٨.

والحلة السيراء لابن الأبار ص ١٨٦.

وكانت هذه الإمارات البربرية التي استولى عليها وضبطها الزعماء البربر،
المتخلفون من عصبة المنصور بن أبي عامر، فضلا عن مملكة بني حمود
في مالقة
والجزيرة، ومملكة باديس بن حبوس في غرناطة، تنحصر في أربعة وهى
إمارة
بنى يفرن في رندة، وإمارة بني دمَّر في مورور، وإمارة بني خزرون في شذونة
وأركش، وإمارة بني برزال في قرمونة.
وكان بنو عباد في بداية أمرهم،
يخطبون ود هؤلاء الزعماء البربر، ويعتمدون أحياناً على محالفتهم كما حدث
عندما
تحالف القاضى ابن عباد مع أمير قرمونة على قتال بني الأفطس، ثم على
قتال
يحيى بن حمود فيما بعد.
ثم كان بين أبي نور هلال بن أبي قرة اليفرنى صاحب
رندة، وبين المعتضد بن عباد صداقة ومودة وثيقة العرى، وكان المعتضد
يبعث
إليه، وإلى باقى الأمراء البربر، بالهدايا والصلات الجزيلة، وكل ذلك لكى
يكسب حيادهم ومودتهم، وهو في أعماق نفسه يضمر لهم غاية الكيد والشر،
ويتحين الفرص للإيقاع بهم.
وفى سنة ٤٤٥ هـ، دبر المعتضد كمينه لأولئك الأمراء، فدعاهم إلى زيارته
بإشبيلية، فلبى الدعوة ثلاثة منهم هم أبو نور بن أبي قرة صاحب رندة،
ومحمد
بن نوح الدمَّرى صاحب مورور، وعبدون بن خزرون صاحب أركش، وقد
ساروا إلى إشبيلية في أحسن زى، وأفخم مظهر، ومعهم نحو مائتى فارس من

رؤساء قبائلهم.
فاستقبلهم المعتضد أحسن استقبال، وأنزل الأمراء بقصر من
قصوره، وفي اليوم الثالث استدعاهم إلى مجلسه، وأخذت يؤنبهم على
تقصيرهم في
محاربة أعدائه، ولما هموا بالرد أمر بالقبض عليهم، وتكبيلهم بالأغلال،
ووضعهم
في السجن فرادى، واستولى على سائر متاعهم وخيلهم وسلاحهم، وبعد مدة
من اعتقالهم، أمر بادخالهم في الحمام، وبناء منافذه، وإضرام النار فيه حتى
هلكوا، ويقال إنه أطلق ابن أبي قرة، وهلك صاحباه فقط في الحمام، وهما
محمد بن نوح، وعبدون بن خزرون.
وكان لغدر ابن عباد بالزعماء البربر على
هذا النحو، أسوأ وقع في القبائل البربرية، وفي إذكاء سخطها على ابن عباد
وتوجسها منه ومن مشاريعه.
واستمر المعتضد بعد ذلك في سعيه للاستيلاء على أملاك أولئك الأمراء؛
فأما أركش فقد حل في حكمها محمد بن خزرون مكان أخيه عبدون، فابتنى

(٢/٤٥)

ابن عباد قلعة حصينة على مقربة منها، وأخذ رجاله يغيرون منها على أركش
ويرهقون أهلها، فسار بنو يرنِّيان، وهو اسم قبيلة البربر النازلة بها، إلى
كبيرهم
باديس في غرناطة، واتفقوا معه على أن يسلموه أركش على أن يفسح لهم
مقاماً في
مملكته ينزلون به، وخرجوا من أركش بأموالهم ومتاعهم وحريمهم، وسلموها
إلى جند باديس، فلما بعدوا عنها بمسافة نحو عشرين ميلا، تعرضت لهم جند
ابن
عباد ووقع القتال بينهم وبينه، ودافع البربر عن أنفسهم دفاعاً شديداً، حتى

أبيد
أكثرهم، وقتل زعيمهم محمد بن خزرون، وقتل قائد باديس الذى كان معهم، وملك ابن عباد أركش وشذونة وسائر هذه المنطقة، وكان ذلك في أواخرسنة
٤٥٨ هـ
(١٠٦٦) (١) .
وأما مورور أو مورون، وهى منزل بني دمَّر، فإنه بعد أن هلك أميرها
محمد بن نوح في سنة ٤٤٥ هـ، أو على قول آخر في سنة ٤٤٩ هـ، في
حبس
ابن عباد، خلفه ولده مناد بن محمد بن نوح الملقب بعماد الدولة، وضبط
مورور
وحسنت سيرته، وقصد إليه البربر من إشبيلية ومن إستجة وغيرهما، فكثر
جمعه، هذا والمعتضد يتربص الفرصة للإيقاع به، ويرسل جنده للإغارة عليه،
وانتساف زروعه، وحرق قراه، وأخيراً حاصرت جند ابن عباد مورور حصاراً
شديداً، وضيقت عليها المسالك، حتى اضطر عماد الدولة أن يذعن إلى
التسليم، على
أن يعيش في إشبيلية، في كنف المعتمد وتحت حمايته، فأجابه المعتضد إلى
طلبه، وسلم إليه المدينة (٤٥٨ هـ) وقصد إلى إشبيلية بأهله وماله، وعاش
بها حتى توفى
في سنة ٤٦٨ هـ (٢) .
وأما رندة، وهى أهم هذه الإمارات الجنوبية وأمنعها، فكانت منزل بنى
يفرن.
ولما وقع أميرها أبو نور هلال بن أبي قرة اليفرنى في اعتقال المعتضد
سنة ٤٤٥ هـ، قام ولده باديس مكانه في رندة، ولكنه كان فاجراً سفاكاً، فسطا
على الأموال والأعراض، وعاث رجاله في المدينة سبياً ونهباً، ولم يعف عن
الاعتداء على أقرب الناس إليه.
فلما أفرج عن أبيه، عاد إلى رندة، وقتل ولده

الفاسق (٤٤٩ هـ) ، ولكنه لم يعش بعده سوى أشهر قلائل وتوفى في نفس العام، فخلفه ولده أبو نصر فتوح، وبويع له في رندة، وفي سائر بلاد ريُّه، وكان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٤.
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٥ و ٢٩٦.

*(٤٦/٢)*

محسناً عادلا، ولكنه كان شغوفاً بالشراب، مخلداً إلى الراحة، فدس عليه المعتضد
رجلا من أقرب صحبه يدعى ابن يعقوب، فهجم عليه في أصحابه ذات يوم، وهو يصيح بشعار ابن عباد، فألقى أبو نصر نفسه من أعلى القصبة فمات، ولم يبد أهل المدينة أية مقاومة، وخلصت رندة وأعمالها على هذا النحو، إلى المعتضد، وذلك في سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) (١) .
وأما قَرْمونة فكانت حسبما تقدم في يد بني برزال.
وتقع قرمونة على مقربة
من شمالى شرقى إشبيلية، وتعتبر لمنعتها الفائقة حصن إشبيلية من الشرق، وما يزال يقوم بها حتى اليوم، بابها الغرب المواجه لطريق إشبيلية، والمسمى حتى اليوم باسمه الأندلسي باب إشبيلية، وهو يعتبر بعقده الشاهق وواجهته العظيمة، من أمنع الأبواب الأندلسية الباقية.
وكان أمير قرمونة أيام
القاضى ابن عباد، محمد بن عبد الله البرزالى، الذى سبق أن أشرنا إلى قصة تحالفه مع ابن عباد ضد بني الأفطس وضد يحيى بن حمود.
واستمر في حكم
قرمونة وأعمالها مثل إستجة ومرشانة حتى توفى سنة ٤٣٤ هـ، فخلفه ولده عزيز

الملقب بالمستظهر، وانتظمت الأحوال وعم السلم والرخاء في عهده، إلى أن بدأ
المعتضد في مضايقته وغزو أراضيه.
ولم تزل الحرب بينهما بضعة أعوام حتى
خربت البلاد، وفنى كثير من البربر، واضطر المستظهر أن يذعن إلى
التسليم، فخرج من قرمونة وسلمها إلى ابن عباد، وذلك في سنة ٤٥٩ هـ
(١٠٦٧ م) ، وتوفى بعد قليل في إشبيلية (٢) .
هذا وسوف نعود إلى تناول هذه الإمارات البربرية في فصل خاص بها.
وكان المعتضد قد استولى قبل ذلك على الجزيرة الخضراء.
وكان أميرها
القاسم بن محمد بن حمود، قد خلف أباه في حكمها في سنة ٤٤٠ هـ، وكان المعتضد
يسعى إلى القضاء على سلطان الحمُّوديين وخلافتهم.
ومن جهة أخرى فقد كان
يهمه الاستيلاء على الجزيرة، وهى باب الأندلس من الجنوب، فبعث قواته إليها
فطوقتها من البر والبحر، وضيقت عليها الحصار، حتى اضطر القاسم إلى طلب
الأمان والتسليم إلى قائد المعتضد عبد الله بن سلام، فأجابه إلى مطلبه.
وخرج

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٨ و ٣١٢ و ٣١٣.
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٢.

القاسم بأهله وأمواله.
في مركب أعده له ابن سلام، وسار إلى ألمرية حيث التجأ
إلى أميرها المعتصم بن صمادح، وعاش بها حتى توفى.
وكان استيلاء ابن عباد
على الجزيرة الخضراء في سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) (١) .
وهكذا أضحت مملكة إشبيلية أو مملكة بني عباد تضم من أراضي الأندلس
القديمة رقعة شاسعة تشمل المثلث الجنوبى من شبه الجزيرة، وأرض الفرنتيرة
شمالا حتى شواطىء الوادي الكبير، ثم تمتد بعد ذلك من عند منحنى الوادي
الكبير، غرباً حتى جنوبى البرتغال وشاطىء المحيط الأطلنطى، وبذلك
أضحت
أعظم ممالك الطوائف، وأغناها من حيث الموارد الطبيعية، وأقواها من حيث
الطاقة الحربية.
ولم يكن يغشى هذه المكانة التي بلغتها إشبيلية من الضخامة والقوة والغنى،
سوى ناحية قاتمة واحدة، هى موقفها من ملك قشتالة فرناندو الأول (٢) .
ذلك
أن هذا الملك القوى كان يطمح إلى أن يبسط سيادته على اسبانيا كلها، وكان
يرى
في ممالك الطوائف، وما يسودها من الخلاف والتفرق، فرائس هينة.
ففى سنة
١٠٦٢ م (٤٥٤ هـ) ، خرج من قشتالة بجيش كبير من الفرسان والرماة، وغزا
مملكة طليطلة، وعاث فيها وخرب سهولها وزورعها، حتى اضطر ملكها
المأمون
ابن ذى النون، أن يطلب الصلح، وأن يتعهد بدفع الجزية.
وفى العام التالى،
سنة ١٠٦٣ م (٤٥٥ هـ) عاد فغزا أراضي مملكة بطليوس وإشبيلية، واضطر
المعتضد بن عباد، أن يحذو حذو المأمون، في طلب الصلح والتعهد بدفع

الجزية،
وقصد المعتضد بنفسه إلى معسكر ملك قشتالة، وقدم إليه عهوده شخصياً، وطلب
إليه ملك قشتالة بهذه المناسبة أن يسلمه رفات القديسة "خوستا " شهيدة إشبيلية،
فوعده بتحقيق رغبته.
ولما توفى فرناندو بعد ذلك بثلاثة أعوام وخلفه ولده
سانشو (شانجه) في حكم مملكة جليقية، كان المعتضد يؤدى إليه الجزية أسوة بأبيه، واستمر في تأديتها حتى وفاته (٢) .
- ٣ -
وحدثت خلال هذه الفترة التي قضاها المعتضد بن عباد في افتتاح الإمارات

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٢ و٢٤٣.
(٢) ويسمى في الرواية العربية فرذلند أو فرانده.
(٣) راجع: R.
.Menendez Pidal: La Espana del Cid, p
١٤٠ & ١٣٥

*(٤٨/٢)*

الغربية، والإمارات البربرية، عدة حوادث داخلية هامة، كان في مقدمتها بطش المعتضد بولده اسماعيل.
وقد ساق إلينا ابن حيان قصة هذه المأساة، وكان معاصراً لها، متتبعاً لحوادثها، فى خبر طويل، خلاصته أنه في سنة ٤٥٠ هـ، تواترت الأنباء في قرطبة بأن
المعتضد قد دبر نزول قواته بمدينة الزهراء ضاحية قرطبة الغربية تمهيداً
لافتتاحها، وندب ولده وولى عهده إسماعيل الملقب بالمنصور للقيام بهذه

المهمة.
ولكن
إسماعيل لم يشأ أن يقوم بهذه المهمة، لأنه وفقاً لبعض الروايات كان يحقد على أبيه
ويستوحش منه لأسباب خاصة، أو لأنه وفقاً لرواية أخرى كان يرى أن مهاجمة
قرطبة على هذا النحو مغامرة خطيرة يرجح فشلها، ولاسيما لما كان بين آل جهور
سادة قرطبة، وبين باديس أمير غرناطة من محالفة وثيقة العرى.
ومن ثم فقد
راجع إسماعيل أباه وحذره من العواقب، فأغلظ له أبوه في القول، وألزمه المسير، وأنذره بالقتل إذا نكل، فعندئذ ثارت نفس إسماعيل، وعول على الفرار مع بعض خواصه.
ويقال إن الذى شجعه على ذلك وزير أبيه وكاتبه، أبو عبد الله
محمد بن أحمد البزليانى، حينما شكا إليه ما يلقاه من غلظة والده وقسوته، فحسن
له العقوق والعصيان، والسير إلى أطراف المملكة، حيث ينفرد بنفسه، وعندئذ دبر إسماعيل أمره، وانتهز فرصة غياب أبيه إلى مكان متنزهه في حصن الزاهر، فى الضفة الأخرى من النهر، فحزم قدراً كبيراً من المال والذخائر والمتاع، وأخذ
أمه وحرمه، وخرج من إشبيلية تحت جنح الليل، ومعه الوزير البزليانى، وثلة من نحو ثلاثين فارساً، وسار في طريق الجزيرة الخضراء، وعلم أبوه بالخبر بعد
وقت، فبادر بإخراج عدة من فرسانه في أثره، وبعث ينذر قواد الحصون.
وكان إسماعيل قد وصل خلال ذلك إلى قلعة من قلاع كورة شذونة، وطلب إلى

حاكمها ابن أبي حصاد، أن يجيره، فاستقبله وأنزله بالقلعة هو ومن معه، وبادر
فكتب إلى المعتضد بحصول إسماعيل في يده، وأنه نادم على ما فعل، ورجاه في العفو عنه، فسر المعتضد، واستجاب إسماعيل لدعوة أبيه إليه بالعودة، ودخل إشبيلية بسائر ماله ومتاعه، فاعتقله أبوه في بعض الدور، واسترد المال
والمتاع، وعجل بإعدام الوزير البزليانى لفرط حنقه عليه، وقتل معه نفراً من خواص إسماعيل، فم يشك إسماعيل عندئذ في مصيره.
ودبر مع بعض الموكلين
به مؤامرة لدخول القصر والفتك بأبيه والجلوس مكانه، واستطاع بالفعل أن يدخل

(٤٩/٢)

القصر ليلا مع بعض أعوانه، ولكنه سقط مرة أخرى في يد أبيه الساهر الحذر.
وعندئذ قرر المعتضد قتل ولده، وقتله بنفسه، وأخفى جثته، فلم يقف أحد على أثره، وعذب شركاءه أشنع عذاب، وقطع أطرافهم، ثم أعدمهم، وأعدم كذلك نفراً من حرمه ونسائه، حتى قطع دابركل من كانت له بولده علاقة أو صلة، وكانت مأساة مروعة، وكان لها في قواعد الأندلس أعمق صدى (١).
وقد أورد لنا ابن بسام في الذخيرة صورة كتاب أمر المعتضد بكتابته عن المأساة إلى رؤساء الأندلس يصف فيه أطوار الحادث ويبرر تصرفه في إزهاق ولده
"الخائن الغادر" حسبما يصفه.
وقام بإنشاء هذه الرسالة ابن عبد البر كاتب
المعتضد، وذلك ارتجالا، بين يدى المعتضد، وبمحضر من الوزراء والكتاب،

فجاءت قطعة من البلاغة الرفيعة، وإليك بعض ما ورد فيها:

" إن الغوى اللعين، العاق الشاق، إسماعيل ابنى بالولاد، لا بالوداد، ونجلى بالمناسب لا بالمذاهب، كنت قد ملت بهواى إليه، وقدمته على من هو أسنى منه، وحبك الشيء يعمى ويصم، والهوا يطمس عين الرائى، إذ يلم، فآثرته بأرفع

الأسماء والأحوال، ووسعت عليه في خطيرات الذخائر والأموال، وأخضعت له أكابر رقاب الجند ووجوه الرجال، ودربته في مباشرة الحروب، وأجريته على مقارعة الخطوب، ولم يكن مما أحسبه أنى إنما أشحذ على نفسى منه الشفرة، وأوقد

بالتدريب والتخريج تحت حصى الجمرة، وما كنت خصصته بالإيثار، واستعملته

بالمكافحة والقرار، إلا لجزالة كنت أتوسمها فيه، كانت عينى بها قريرة، وشهامة كنت أتوهمها فيه كانت نفسى بها مسرورة، فإذا الجزالة جهالة، والشهامة

شرة وكهامة، وقد تفتن الآباء بالأبناء، وينطوى عنهم ما ينطوون عليه من الأسواء، مع أن الآراء قد تنشأ وتحدث، والنفوس قد تطيب وتخبث، بقرين يصلح

أو يفسد، وخليط يغوى أو يرشد، كما أن داء العر قد يعدى، كذلك قرين السوء قد يردى، ومن اتخذ الغاوى خديناً، عاد غاوياً ظنيناً، ومن يكن الشيطان له قريناً، فساء قرينا".

ويصف الكتاب بعد ذلك أدوار المؤامرة التي دبرها إسماعيل منذ فراره وعوده، وعفو والده عنه، ويقول "فإذا به كالحية لا تغنى مداراتها، والعقرب لا تسالم

---

(١) راجع رواية ابن حيان في دوزى Historia Abbadidarum, V.

I.

p.

٢٥٩ - ٢٥٦

وكذلك البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٤ و ٢٤٨ و ٢٤٩.

*(٥٠/٢)*

شباتها، وكأنه قد استصغر ما أتى، واستحقر ما جنى، فزرا وسرا ما صارت به الصغرى، التي كانت العظمى".

ثم يصف ائتماره بأبيه وتسوره القصر ليلا، وفشل المؤامرة، والقبض على المتآمرين، "حتى أظفر الله بهم، وأقيمت حدود

الله تعالى على الجميع منهم، وأنفذت حكم العدل فيهم ".

ثم يحاول أن يبرر تصرفه فيما يلى: "فاعجب يا سيدى لأبناء الزمن، وأنباء الفتن، وانقلاب عين الإبن المقرب الودود، إلى حال الواتر الحسود، والثائر الحقود، واعتبر في ورد المساءة، من موطن المسرة، وطلوع

المحنة.

وقد أربت هذه الحال على كل ما جر عليه عقوق من الأبناء والبنين، من السلف المتقدمين، فلم يكن أكثر مما وجدناه من ذلك في الأخبار والآثار، استيحاشاً وشروداً، ونبوا ونددوا، إلا ما شذ لأحد ملوك الفرس، وآخر من بنى العباس.

وجمع هذا اللعين في إرادته ومحاولته، بين الشاذ والنادر، والمنكر الدائر، وزاد إلى استيحاشه الذم، التعرض لإباحة الحرم، وإلى ما رام من إتلاف المهجات، السافح فيها كان يجرى على العورات المصونات، وهو زمان

فتنة، وشمول إحنة ودمنة، والناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم، وأصدق من هذا قوله تعالى: " إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم، فاحذروهم " نفثت يا سيدى نفثة مصدور، وأطلت في الشرح والتفسير، خروجاً إليك عن هذا الخطب الخطير، والملم الكبير، وهو خبر فيه معتبر " (١) .

ونحن نعرف أن فتك المعتضد بن عباد بولده لم يكن هو أول مثل من نوعه

في تاريخ الأندلس.
فقبل سبعين عاماً، قتل المنصور بن أبي عامر ولده عبد الله، ومن قبل ذلك
قتل الناصر لدين الله ولده عبد الله أيضاً، وكلاهما في مثل هذه
الظروف، ولمثل هذه الأسباب، أعنى لتطلعه إلى انتزاع السلطان من
يد أبيه، وائتماره بحياته.
بيد أن المعتضد هو أول أمير من هؤلاء يعنى
بشرح موقفه وظروفه، وتبرير تصرفه الدموى، في هذه الوثيقة أو هذه
الرسالة، التي وجهها إلى زملائه أمراء الأندلس.
وقد كان من الطبيعى
أن يتوجس أمير مستبد، صارم عنيف الأهواء، مثل المعتضد بن عباد،

---

(١) راجع دوزى Historia Abbadidarum, V.
I.
p.
٢٥٣ - ٢٥٦، والبيان المغرب
ج ٣ ص ٢٤٥ و ٢٤٨.

(٥١/٢)

من تصرف ولده الحاقد الناقم، المتربص به، ولاسيما إذا صحت الوقائع
التي تسوقها إلينا الرواية المعاصرة عن ائتماره بأبيه، وتسوره القصر ليلا
للفتك به، وهى رواية مؤرخ معاصر محايد معاً، هو ابن حيان القرطبى.
وفى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، قطع المعتضد بن عباد الدعوة لهشام
المؤيد
في سائر أنحاء مملكة إشبيلية، وقد كان يدعى له بها منذ نحو خمسة
وعشرين عاماً، أعنى منذ زعم القاضى ابن عباد في سنة ٤٢٦ هـ، أنه عثر
بهشام المؤيد حياً، وبايعه ودعا له.

وقيل في ذلك إن المعتضد دعا وجوه دولته إلى مجلسه، ونعى لهم

هشاماً، وأنه قد مات بالفعل قبل ذلك من علة مزمنة، ولكن لم يعلن وفاته

يومئذ، لاشتداد الفتنة، واضطرام النضال بينه وبين الأمراء المتألبين عليه،

فلما سكنت الفتنة

وجب التصريح بالحق.

ومن ذلك الحين يصبح هشام في ذمة التاريخ، وينقطع

ذكره بصفة نهائية.

ويعلق ابن حيان على ذلك متهكماً في قوله: "وصارت هذه

الميتة لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة، وعساها أن تكون إن شاء الله الصادقة،

فكم

قتل وكم مات، ثم انتفض من التراب، ومزق الكفن قبل نفخة الصور ".

وقد قال بعضم في ذلك:

ذاك الذى مات مراراً ودفن..

.

فانتفض الترب ومُزق الكفن

فقد أعلنت وفاته لأول مرة على يد منتزع عرشه محمد بن هشام المهدى،

ودفن بمحضر من العلماء والفقهاء في شعبان سنة ٣٩٩ هـ، ونشر بعد نحو

عام على

يد الفتى واضح، وتولى الخلافة، وتوفى للمرة الثانية قتيلا بيد سليمان

المستعين

أو ولده محمد بن سليمان في سنة ٤٠٣ هـ، ودفن خفية، ولما دخل على بن

حمود

قرطبة، وكان الاعتقاد سائداً بأن هشاماً لم يمت وأنه قد اختفى، ولم يجد

هشاماً

بعد البحث عنه، أعلن وفاته ودعا لنفسه بالخلافة (٤٠٧ هـ) .

ثم جاء القاضى

ابن عباد بعد ذلك في سنة ٤٢٦ هـ، فأعلن ظهور هشام، ودعا له، احتماء بظل
الخلافة، ودفعاً لدعاوى بني حمود (١) .

- ٤ -

وقد أشرنا من قبل في بداية حديثنا عن المعتضد بن عباد إلى ما نسب إليه من

---

(١) راجع رواية ابن حيان وتعليقاته عل ذلك في دوزى: Historia Abbadidarum V.
I.
p.
٢٥٠، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٩.

(٥٢/٢)

الصفات الباهرة المثيرة معاً، ونود هنا أن نستعرض في شيء من التفصيل خواص
هذه الشخصية القوية العنيفة.

كان المعتضد بن عباد، بلا مراء، أعظم ملوك الطوائف في عصره، وأوفرهم عزماً ودهاء، وأبعدهم مطامع.

وتقدمه إلينا الروايات المعاصرة في صور قاتمة، يتجلى فيها عنفه، وقسوته وغدره، والتجاؤه إلى أى الوسائل لتحقيق غاياته، مهما كانت مجافية لمبادىء الأخلاق والشهامة والفروسية.

وقد رأينا فيما تقدم فى
تطبيق سياسته، وفي حروبه، وفي تصرفاته، ما يؤيد هذه الصفات المثيرة.

ويقول لنا ابن حيان إن المعتضد كان يتخذ سيرة سميه الخليفة المعتضد بالله العباسى

قدوة له (١) ، ويهتدى بأخباره السياسية "التي أضحت عند أهل النظر أمثلة هادية
إلى الاحتواء على أمد الرياسة، في صلابة العصا، وشناعة السطا، فجاء منها
بمهولات تذعر من سمع بها، فضلا عمن عاينها".
ثم يستدرك فيقول: "نسبوا
إلى هذا الأمير الشهم عباد أمثالها من غير دلالة" (٢) .
وقد رأينا فيما تقدم أن ابن
حيان يميل أحياناً إلى الدفاع عن المعتضد، بالرغم مما يقصه من أخبار بطشه وقسوته
المروعة.
وقد أنفق المعتضد بن عباد معظم حكمه في محاربة جيرانه من أمراء
الطوائف، وكشف في محاربتهم عن قوة عزمه، وضخامة عدته، وإحكام خططه، ولكنه
كشف في نفس الوقت عن قسوته وغدره، وروعة وسائله، وعلى أى حال فقد
استطاع المعتضد بهذه الوسائل المثيرة أن يحقق أطماعه، وأن ينشىء مملكة إشبيلية
الكبرى، أعظم ممالك الطوائف، وأن يوطد بها ملك أسرته، وأن يسبغ عليها
نوعاً من الزعامة السياسية والأدبية لاسبانيا المسلمة كلها.
ويبدى ابن حيان حماسة في وصف سياسة المعتضد إذ يقول: "وسياسته
أعيت على أنداده من أملاك الأندلس، فخرج منهم رجالا مساعير حرب أباد
بهم أقتاله، ومن نادر أخباره المتناهية الغرابة، أن نال بغيته، وأهلك تلك الأمم
العاتية، وإنه لغائب عن مشاهدتها، مترفه عن مكابدتها، مدبر فوق أريكته، منفذ

---

(١) قال ابن الأثير في وصف الخليفة المعتضد العباسى ما يأتى: " وكان

شهماً شجاعاً
مقداماً ذا عزم، وكان فيه شح، وكان مهيباً عند أصحابه، يتقون سطوته،
ويكفون عن الظلم خوفاً
منه " (ج ٧ ص ١٦٩ و ١٧٠) .
(٢) ابن حيان، ونقله دوزى في Hist.
Abbadidarum V.
I.
p.
٢٤٣

(٥٣/٢)

لحيلها، من جوف قصره، ما مشى إلى عدو أو مغلوب من أقتاله غير مرة
أو مرتين، ثم لزم عريسته يدبر داخلها أموره، جرد نهاره لإبرام التدبير،
وأخلص ليله لتملى السرور،..
.
وهو واصل نعم ليله، بإجابة كيده، ومبتدع
نشاط لهوه بقوة أيده، له في كل شيء شوين، وعلى كل قلب سمع وعين.
ما أن سبر أحد من دهاة رجاله غوره، ولا أدرك قعره، ولا أمن مكره، لم يزل
هذا دأبه منذ ابتدائه إلى انتهائه" (١) .
وقال ابن القطان: "كان ذا سطوة كالمعتضد العباسى ببغداد، وكان ذا
سياسة ورأى يدبر ملكه من داره.
وكان يغلب عليه الجود، فلم يعلم في نظرائه
أبذل منه للمال" (٢) .
ووصفه ابن الخطيب بأنه: "كان شديد الجرأة، قوى المنة، عظيم الجلادة،
مستهيناً بالدماء" (٣) .
وقد انتهت إلينا عن قسوة المعتضد بن عباد قصة مروعة، هى قصة حديقة

الرؤوس المحنطة، رؤوس أعدائه الذين سقطوا في ساحة الحرب، أو قتلوا غيلة، وحملت إليه رؤوسهم.

ويقول لنا ابن حيان، إن المعتضد كان له بهذه الحديقة

التي تملأ قلوب البشر ذعراً، مباهاة أكرم لديه من خزانة جواهر مكنونة، وقد أودعها هام الملوك الذين أبادهم بسيفه، منها رأس محمد بن عبد الله البرزالى، ورؤوس الحجاب ابن خزرون، وابن نوح، وغيرهم ممن قرن رؤوسهم برأس إمامهم الخليفة يحيى بن على بن حمود، فخص رؤوسهم بالصون بعد إزالة جسومهم الممزقة، وبالغ في تطييبها وتنظيفها، وأودعها المصاون الحافظة لها، فبقيت عنده ثارية تجيب سائلها اعتباراً.

ثم يقول لنا إن هذه الرؤوس الفانية

كانت تحمل إلى المعتضد في ليالى أنسه وسروره، يشاهدها وهو يترع كؤوس الزاح، فترتاح نفسه لمعاينتها، والخلق يذعرون من التماحها (٤) .

ويضيف

---

(١) ابن حيان، ونقله دوزى في: Hist.

Abbad.

V.

I.

p.

٢٤٣ - ٢٤٤

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٤.

(٣) أعمال الأعلام ص ١٥٦.

(٤) ابن حيان ونقله دوزى في Hist.

Abbadidarum V.

I, p.

٢٤٣ - ٢٤٤، والبيان المغرب
ج ٣ ص ٢٠٥ و ٢٥٦.

(٥٤/٢)

ابن بسام إلى ذلك أنه لما افتتحت اشبيلية، وخلع المعتمد بن عباد، عثر المرابطون بهذه الرؤوس في جوالق وأوعية، ظن في البداية أن بها أموال أو جواهر، فهالهم الأمر، وسلم كل رأس منها لمن بقى من عقب أصحابها (١).

على أن هذه النواحى القاتمة لم تكن كل شيء في شخصية المعتضد، فقد كانت
ثمة في هذه الشخصية نواح أخرى لامعة عنى ابن حيان أيضاً بالإشارة إليها. من
ذلك ما سمت إليه همته من إنشاء القصور الباذخة، والرباع العظيمة المغلة، وما عنى به من تنظيم بلاط بني عباد، وتجهيزه بالعدد والمظاهر الملوكية الفخمة، ونفيس المتاع والرياش، حتى غدا أعظم وأفخم بلاط بين قصور الطوائف.

وقد اشتهرت قصور بني عباد في التاريخ والشعر، وقد كانت منها بمدينة إشبيلية قاعدة ملكهم عدة، منها قصر الإمارة وهو "القصر المبارك"، وقد كان يقع في شرقى نهر الوادي الكبير، في المكان الذى يشغله اليوم قصر إشبيلية الشهير
El Alcàzar.

والظاهر أنه كان من إنشاء المعتضد بن عباد، أو أنه هو الذى زاد فيه وأسبغ عليه رونقه وفخامته التي اشتهر بها.

وقد كان ثمة أيضاً قصر
الزاهى، وهو القصر الذى كان يتخذه المعتضد، ومن بعده ولده المعتمد، مكاناً للهو والقصف، وقد كان يقع على الضفة الأخرى من النهر، وتحيط به

حدائق غناء (٢) .
وقد ذكر لنا ابن زيدون في شعره، وذكر لنا المقرى أسماء قصور
أخرى تتصل بعصر المعتضد، وهى على الأغلب من إنشائه، ومن ثم فإنا
نرجىء
ذكرها إلى موضعها.
وقد اقتنى المعتضد كثيراً من الجياد الصافنات، والغلمان
والحشم، وأنشأ له جيشاً منتخباً من أبرع الفرسان والمقاتلة، وبذل لهم الصلات
الوفيرة، فكان له ما شاء من التفوق العسكرى على أنداده وخصومه، وكان
جواداً "يبارى جوده السحاب".
وأما عن شخص المعتضد، فقد ترك لنا عنه معاصره ابن حيان تلك الصورة
الرائعة، قال: " وكان عباد قد أوتى من جمال الصورة، وتمام الخلقة، وفخامة
الهيئة، وسباطة البيان، وثقوب الذهن، وحضور الخاطر، ما فاق

---

(١) ابن بسام في الذخيرة ونقله نفس المصدر ص ٢٤٠.
والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٥
و٢٠٦.
(٢) قلائد العقيان ص ٢٤.

(٥٥/٢)

به أيضاً على نظرائه ".
وقد اشتهر المعتضد بشغفه بالنساء، فكان إلى جانب زوجه
الحسناء الأثيرة لديه، إبنة مجاهد العامرى، وأخت ولده على إقبال الدولة
صاحب دانية، يقتنى في قصوره الفخمة، عدداً كبيراً من الجوارى البارعات
في الحسن والسحر، من سائر الأجناس والملل، بلغ عددهن حسبما قيل، نحواً
من
السبعين، وكان له من الولد الذكور نحو العشرين، وكذلك مثلهم من الإناث

. (١)
بقيت من صفات المعتضد، خلة لامعة، تبعث إلى الإعجاب والعطف في تلك
الشخصية التي لا توحى معظم صفاتها إلا شعور المقت والروع، تلك هى أدبه
الرفيع ونظمه الرائق.
وهنا أيضاً نستعير قلم ابن حيان إذ يقول: "ونظر مع ذلك
في الأدب قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان، أدنى نظر، بأذكى طبع حصل
منه لثقوب ذهنه، على قطعة وافرة علقها من غير تعهد لها، ولا إمعان فى
غمارها، ولا إكثار من مطالعتها، ولا منافسة في اقتناء صحائفها، أعطته سجيته
على ذلك ما شاء من تحبير الكلام، وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة، فى
معان أمدته فيها الطبيعة، وبلغ فيها الإرادة، واقتبسها الأدباء للبراعة" (٢) .
وقال الحميدى: "كان أبو عمرو بن عباد صاحب إشبيلية، من أهل
الأدب البارع، والشعر الرائع، والمحبة لذوى المعارف.
وقد رأيت له سفراً
صغيراً في نحو ستين ورقة من شعر نفسه" (٣) .
وقال ابن القطان: "وكان لأهل الأدب عنده سوق نافقة، وله في ذلك
همة عالية، ألف له الأعلم أديب عصره، ولغوى زمانه، شرح الأشعار الستة،
وشرح الحماسة، وألف له غيره دواوين وتصانيف لم تخرج إلى الناس" (٤) .
والأدب والشعر من محاسن الأسرة العبادية ومآثرها العريقة، فقد نبغ معظم
رجالاتها في النثر والنظم، ولم تكن براعة المعتضد في الشعر إلا قبساً من تراث
أسرته؛ ولقد بلغ ولده المعتمد، فيما بعد، في عالم الشعر أسمى مراتبه، وكان
من أعظم شعراء الأندلس في عصره.

وذكر لنا ابن بسام أن شعر المعتضد قد
جمع بعناية ولد أخيه اسماعيل في ديوان أطلع عليه (٥) ، واختار منه ما اختار في الذخيرة

---

(١) ابن حيان، ونقله دوزى في المصدر السابق ص ٢٤٥.
وفى الحلة السيراء (١٩٦٤) ج ٢ ص ٤٣.
(٢) ابن حيان، ونقله دوزى في المصدر السابق ص ٢٤٥.
وفى الحلة السيراء ج ٢ ص ٤٢.
(٣) في جذوة المقتبس رقم ٦٧٢.
ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٥.
(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٤.
(٥) وهذا ما ذكره أيضاً ابن الأبار في الحلة السيراء (١٩٦٤) ج ٢ ص ٤٣.

*(٥٦/٢)*

من المقطوعات.
وهذه المقطوعات منوعة بين الفخر والغزل والوصف وغيرها، وكلها تدل على افتتان المعتضد، ومقدرته الشعرية الممتازة.
فمن قوله في الفخر:
حميت ذمار المجد بالبيض والسمر..
.
وقصرت أعمار العداة على قسر
ووسعت سبل الجود طبعاً وصنعة..
.
لأشياء في العلياء ضاق بها صدرى
فلاب مجد للإنسان ما كان ضده..

.

يشاركه في الدهر بالنهى والأمر

ومن قوله حين استولى على رندة، وهو مما يتفق مع عنفه وصرامته:

لقد حصلت يا رندة..

.

فصرت لملكنا عقدة

سأفنى مدة الأعداء..

.

إن طالت بى المدة

وتبلى بى ضلالتهم..

.

ليزداد الهوى جدة

فكم من عدة قتلت منهم بعدها عدة

نظمت رؤسهم عقدا..

.

فحلت لبة السدة (١)

وربما كان لهذه السجية الأدبية أكبر أثر في أن المعتضد قد نظم في سلك وزرائه

جماعة من أعظم شعراء العصر وكتابه.

وكان في مقدمة هؤلاء أبو الوليد بن زيدون

إمام الشعر وقطبه، وكان قد انتظم من قبل في وزارة بني جهور بقرطبة، ثم ساءت

أحواله فغادر قرطبة إلى إشبيلية في سنة ٤٤١ هـ، فأكرم المعتضد وفادته، وعينه

في وزارته، وغمره بثقته وعطفه، وما زال متمتعاً برفيع مكانه ونفوذه حتى وفاة المعتضد.

بيد أنه يبدو أنه لم يكن مطمئناً على نفسه في خدمة هذا الطاغية
الخطر، حتى أنه لما توفى المعتضد نظم هذين البيتين ابتهاجاً بذهابه، ولم
يظهرهما
يومئذ "لأنه كان غير مأمون على الدماء، ولا حافظاً لحرية الأولياء".
لقد سرنى أن النعى موكل..
.
بطاغية قد حم منه حمام
تجانب صوب الغيث عن ذلك الصدا..
.
ومر عليه المزن وهو جهام (٢)
ومنهم أبو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد البر ولد أبي عمر، صاحب
كتاب
"بهجة الجالس وأنس المجالس".
نظمه المعتضد في سلك وزرائه، وكان كاتبه

---

(١) تراجع مقطوعات أخرى من شعر المعتضد فيما أورده ابن بسام في
الذخيرة ونقله دوزى
في: Hist.
Abbadidarum V.
II.
p.
٤٨ - ٦٠ وكذلك في الحلة السيراء (١٩٦٤) ج ٢ ص ٤٣ - ٤٩.
(٢) راجع ما أورده ابن بسام، ونقله دوزى في Hist.
Abbadidarum, V.
II.
p.

وراجع قلائد العقيان ص ٧١.

*(٥٧/٢)*

ولسانه لدى الرؤساء، وقد اشتهر برائق نثره وروعة أسلوبه.
وقد رأينا نموذجاً
من نثره فيما اخترناه من مقتطفات رسالته، عن مصرع إسماعيل ابن
المعتضد.

بيد
أنه لم يكن أيضاً سعيداً ولامطمئناً، لخوفه المستمر من أن يبطش به
المعتضد، ومن
ثم فقد عول في النهاية على الفرار، وغادر إشبيلية ناجياً بنفسه (١) .
ومنهم أيضاً الكاتب البارع أبو عبد الله البزليانى الذى يصفه ابن بسام بأنه
"أحد شيوخ الكتاب، وجهابذة أهل الأدب".
وقد رأينا كيف ساق سوء الطالع
هذا الوزير الكاتب إلى الاشتراك مع إسماعيل ولد المعتضد في مؤامرته
وفراره، وكيف قبض عليه المعتضد وأعدمه لفوره.
ومما هو جدير بالذكر أنه كان بين وزراء المعتضد أو معاونيه، رجل من
النصارى المستعربين، هو سسنندو دافيدس (أوششنند) الذى اشتهر فيما بعد
فى
قصور الطوائف.
وأصله من مقاطعة بيرة في شمالى البرتغال، وأسر حدثاً فى
غارة قام بها القاضى ابن عباد في منطقة قُلُمرية، ثم أخذ إلى إشبيلية وربى
مع
"فتيان" القصر، واشتغل في شئون الخاص.
ولما تولى المعتضد، قدر مواهبه، ومعرفته بشئون الجزيرة، فنظمه بين وزرائه

أو معاونيه، فنال ثقته، وتمكن
نفوذه، وعلت مكانته في البلاط العبادى بسرعة.
ولكنه لم يلبث أن تعرض
لخصومة بعض رجال البلاط وسعايتهم، فخشى العاقبة، وفر من إشبيلية إلى
الشمال، ولجأ إلى بلاط فرناندو ملك قشتالة، فرحب به، ونظمه بين
مستشاريه، وكان له فيما بعد أكبر أثر في تكييف سياسته نحو ملوك الطوائف
(٢) .
وتوفى المعتضد بن عباد في الثاني من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين
وأربعمائة
(مارس ١٠٦٩ م) .
ويقول لنا ابن حيان إن وفاته كانت بسبب ذبحة قصيرة
الأمد، ترتبت على الإجهاد، وكانت شبه البغت.
وكانت ولايته زهاء ثمانية
وعشرين عاماً.

---

(١) راجع قلائد العقيان ص ١٨١ و ١٨٣.
(٢) الذخيرة، القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ وكذلك: Isidro de las Cagigas
Los Mozarabes (Madrid 1947) p.
٤٥٦ - ٤٥٧.



الفصل الثالِث
بنو عباد ومملكة إشبيلية
القسم الثاني
المعتمد بن عباد.

شخصيته وخلاله.

ذكرياته بشلب.

استيلاؤه على قرطبة.

النضال بين بني عباد

والبربر.

عوامل الخصومة بينهما.

محاربة المعتمد لغرناطة واستيلاؤه على جيان.

اتفاقه مع ألفونسو

السادس على فتح غرناطة.

الوزير ابن عمار.

نشأته وشاعريته.

مقدرته ودهاؤه.

سعيه إلى فتح

مرسية.

اتفاقه مع أمير برشلونة على غزوها.

فشل هذه المحاولة.

استعانته بابن رشيق في فتحها.

محاولته الاستقلال بحكمها.

تغلب ابن رشيق عليها.

فرار ابن عمار والتجاؤه إلى بني هود.

محاولته فتح حصن شقورة.

سقوطه في يد صاحب الحصن.

تسليمه لابن عباد.

اعتماد

الرميكية وابن عباد.

تغدو ملكة إشبيلية.

الوحشة بينها وبين ابن عمار.
هجاء ابن عمار للمعتمد.
والرميكية.
استعطاف ابن عمار للمعتمد وشعره في ذلك.
قسوة المعتمد وقتله لوزيره.
تعليقات على
الحادث.
ابن عمار وعبقريته.
مقدرته الأدبية والنثرية.
غزو المعتمد لأراضي طليطلة.
يؤدى الجزية
لملك قشتالة.
يعقد حلفاً معه.
موضوع هذا الحلف.
مطالبة ألفونسو للمعتمد بالجزية.
والخلاف على
قيمتها.
تنكيل ابن عباد برسل ألفونسو.
غزو ألفونسو لأراضي إشبيلية.
خطته في إضعاف
الطوائف والقضاء عليهم.
إدراك المعتمد لخطته وتفكيره في الاستعانة بالمرابطين.
وعيد ألفونسو له
ورد المعتمد عليه.
ذيوع فكرة استدعاء المرابطين بين أمراء الأندلس وشعوبها.
سفارة أمراء

الأندلس لعاهل المرابطين.

الإتجاهات المختلفة والآراء المعارضة.

ما ينسب لابن عباد من رسائل وجهها

إلى أمير المسلمين.

استجابة أمير المسلمين لنداء الأندلس.

عبوره إلى شبه الجزيرة الإسبانية.

- ١ -

لما توفى المعتمد بن عباد، خلفه يوم وفاته ولده، محمد بن عباد، الملقب بالظافر، والمؤيد بالله، والمعتمد على الله، وهو اللقب الذى غلب عليه واشتهر به طول حياته.

وكان المعتمد يوم جلوسه على عرش مملكة إشبيلية، فتى في الثلاثين من عمره، وكان مولده بمدينة باجة في سنة ٤٣١ هـ (١٠٤٠ م) وقيل بل في ربيع الأول

سنة ٤٣٢ هـ (١) .

وكان مثل أبيه، في حسن القوام، وروعة المظهر، وعنفوان

---

(١) يقول بالرواية الأولى النويرى، وبالرواية الثانية ابن زيدون وابن اللبانة شاعرا

المعتمد.

راجع دوزى: Historia Abbadidarum V.

II.

p.

٦١ & ١٣١، وكذلك ابن الأبار

في الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٣.

الصبا، ولكن لم يكن مثله في الصرامة والقسوة والاستهتار بالدماء، بل كان بالعكس وديعاً، يعف عن الدماء، بعيداً عن قبول السعايات.

ويقول لنا ابن الأبار في وصف المعتمد ما يأتى: " وكان المعتمد من الملوك الفضلاء، والشجعان العقلاء، والأجواد الأسخياء المأمونين، عفيف السيف والذيل

مخالفاً لأبيه في القهر والسفك، والأخذ بأدنى سعاية، رد جماعة ممن نفى أبوه، وسكن وما نفر، وأحسن السيرة، وملك فأسجح، إلا أنه كان موالعاً بالخمر، منغمساً في اللذات، عاكفاً على البطالة، مخلداً إلى الراحة، فكان ذلك سبب عطبه، وأصل هلاكه " (١) .

وقد خاض المعتمد مثل أبيه، سلسلة طويلة من الحروب والأحداث، وتقلب في غمار الخطوب والجدود، وكان عهده عهد الحسم في تاريخ دول الطوائف، وفي تاريخ الأندلس قاطبة؛ ولكنه لم يشتهر في ميدان الحرب والسياسة، قدر ما اشتهر في ميدان الأدب والشعر، والفروسية، والجود، ومهما كانت

وجوه الضعف الشخصية التي كان ينطوى عليها، من عكوف على الشراب، وانغماس في مجالى اللهو والترف، ومهما كانت أخطاؤه السياسية الفادحة، التي

ترتبت عليها محنة الأندلس، ثم محنته الخاصة: مهما كان من هذه الصفات القاتمة

فإن شخصية المعتمد بن عباد، تبرز لنا من خلال هذه الغمار، ومن الناحية الأخرى، مشرقة وضاءة، تتوجها عبقريته الأدبية والشعرية، وتزينها صفاته الإنسانية الرقيقة

وتطبعها محنته المؤلمة، بالرغم من كل أوزاره وأخطائه، بطابع الاستشهاد المؤثر.

وكان المعتمد أثناء حياة أبيه المعتضد، والياً لمدينة شلب، وليها عقب استيلاء

بنى عباد عليها في سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ، وكان يعاونه خلال تلك الفترة فى
إدارة ولاية شلب وزيره أو أمينه أبو بكر بن عمار ، الذى تولى وزارته بإشبيلية فيما بعد، واشتهر ذكره، واضطلع له بأخطر المهام السياسية والعسكرية.
وقد تركت حياة المعتمد في شلب، تلك المدينة البرتغالية الجميلة النائية، وهو يومئذ في عنفوان فتوته، يتقلب خلالها في مجالى اللهو والأنس، في نفسه ذكريات لا تمحى، صورها لنا فيما بعد، في بعض قصائده.
ومن ذلك قوله
مخاطباً وزيره ابن عمار حين وجهه إلى شلب ليتفقد أعمالها:
ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر..

.

وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى

---

(١) في الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٤.

(٢/٦٠)

وسلم على قصر الشراجيب من فتى..

.

له أبداً شوق إلى ذلك القصر

منازل آساد وبيض نواعم..

.

فناهيك من غيل وناهيك من خدر

فكم ليلة قد بت أنعم جنحها..

.

بمخصبة الأرداف مجدبة الخصر

وبيض وسمر فاعلات بمهجتى..

.

فعال الصفاح البيض والأسُل السمر

وليل بسدِّ النهر لهواً قطعته..

.

بذات سور مثل منعطف البدر

نضت بردَها عن غصن بان منعم..

.

نضير كما انشقت الكمام عن الزهر

وباتت تسقينى المدام بلحظها..

.

فمن كأسها حينا وحيناً من الثغر

وكان أول عمل قام به المعتمد عقب ولايته، هو تدخله في حوادث قرطبة، حينما هددها المأمون بن ذى النون بقواته، فبعث إليه عبد الملك بن جَهْور يستنجد

به، فوجه إليه الأمداد مع قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين، وانتهى الأمر باستيلاء قوات إشبيلية على قرطبة، وفقاً لخطة سرية وضعت من قبل، وبالقضاء على دولة بني جهور، وضم قرطبة إلى مملكة إشبيلية (٤٦٢ هـ - ١٠٧٠ م) .

وندب المعتمد ولده عباداً الملقب بسراج الدولة لحكم المدينة.

وقد

فصلنا عند الكلام عن دولة بني ذى النون، كيف دبر المأمون بن ذى النون استرداد

قرطبة على يد ابن عكاشة، وكيف قتل سراج الدولة ولد المعتمد مدافعاً عنها، ثم

دخلها المأمون في سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) ثم توفى بها بعد ذلك بأشهر قلائل، وأخيراً كيف عاد المعتمد، فسار على أثر ذلك إلى قرطبة في قواته،

واستولى
عليها، وقتل ابن عكاشة انتقاماً لولده، وبذلك عادت قرطبة إلى مملكة
إشبيلية.
على أن أهم ما شغل به المعتمد، في تلك الفترة الأولى من ولايته، هو
النضال
ضد مملكة غرناطة البربرية.
ونحن نعرف أن الخصومة بين بني عباد وبين
الإمارات البربرية قد بدأت في عصر مبكر، وقد فصلنا من قبل كيف اشتبك
القاضى ابن عباد مع يحيى بن حمود المعتلى حول قرمونة، في معركة دموية
قتل
فيها المعتلى، واستولى ابن عباد على قرمونة، وأعطاها لصاحبها البرزالى
حليفه
يومئذ، وكيف نشبت الخصومة فيما بعد بين ابن عباد والبرزالى، فلما أراد ابن
عباد
استرداد قرمونة باعتبارها حصن إشبيلية من الشرق، وسير إليها قواته،
استغاث
البرزالى بإدريس المتأيد صاحب مالقة، وباديس بن حبوس صاحب غرناطة،
ووقعت بين البربر وجند إشبيلية معارك طاحنة هزم فيها الإشبيليون، وقتل
أميرهم إسماعيل بن عباد، وذلك في أوائل سنة ٤٣١ هـ.

(٦١/٢)

ولما تولى المعتضد بن عباد، عقب وفاة والده القاضى محمد بن اسماعيل
ابن عباد في سنة ٤٣٣ هـ، كان من أبرز أعماله القضاء على مختلف
الولايات
البربرية الشرقية، والجنوبية الشرقية، وهى مورون وأركش ورندة.
واستولى

على الجزيرة الخضراء من يد أميرها القاسم بن حمود (٤٤٦ هـ) ، ثم استولى على
قرمونة وأعمالها في سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) .
وبذلك تم القضاء على سائر الإمارات البربرية المتاخمة لإشبيلية من الشرق والجنوب الشرقى، وتم تأمين جناحها الدفاعى من هذه الناحية، ولم يبق في جنوبى
الأندلس من الإمارات البربرية.
سوى مملكة باديس في غرناطة ومالقة.
وحاول المعتضد في نفس الوقت أن ينتزع مالقة من باديس، وسير إليها قواته بالفعل تحت إمرة ولديه جابر والمعتمد، وكادت مالقة تسقط بالفعل فى أيدى المهاجمين، ولكن باديس قدم في قواته مسرعاً، فانقلبت الآية وهزم جند إشبيلية هزيمة شديدة، وفشلت المحاولة (٤٥٨ هـ) (١) .
وكان المعتمد بن عباد يتابع سياسة أبيه وجده في التوجس من البربر والقضاء
على سلطانهم.
وكان يخشى أن تغدو مملكة غرناطة البربرية، مهبطاً للقبائل والقوات البربرية، التي تفد من وراء البحر باحثة عن طالعها وأرزاقها.
هذا من ناحية
العوامل المادية، وأما من ناحية العوامل الأدبية، فنستطيع أن نشير بهذه المناسبة، إلى ما كان بين العرب والبربر من خصومة قديمة مؤثلة ترجع إلى عصر الفتح
ذاته، وقد شرحنا عوامل هذه الخصومة في "العصر الأول" من كتابنا.
ونزيد
هنا أن بني عباد، كانوا حسبما أشرنا من قبل، ينتمون إلى لخم، من أكرم وأشرف القبائل العربية، وكانوا من أهل العلم والأدب المؤثل، حماة للعلوم والآداب والفنون، يغص بلاطهم بأقطاب العصر وشعرائه، وتتمتع في ظلهم

مملكة إشبيلية بحضارة زاهرة، وثقافة رفيعة.
أما القبائل البربرية فلم تكن راسخة
في تعاليم الإسلام، وكانت بعيدة عن العربية وثقافتها وتراثها، يؤثرون التمسك بعجمتهم وبداوتهم، وكانت قصورهم عاطلة عن ذلك الجو الفكرى والأدبى، الذى تزدان به قصور الأصول العربية، وكان هذا التباين يبدو بالأخص بين بلاط غرناطة البربرى، وبين بلاط إشبيلية العربى.

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٤ و ٢٧٥.

*(٦٢/٢)*

اجتمعت هذه العوامل المادية والأدبية، لتذكى ضرام النضال بين مملكة غرناطة، حصن البربر في الجنوب، وبين مملكة إشبيلية.
وكانت مملكة غرناطة
قد بلغت ذروة قوتها في عهد ملكها باديس بن حبوس الصِّنهاجى، وكان باديس قد رشح ولده بُلُقِّين للأمر من بعده ولقبه سيف الدولة، ولكنه توفى بالسم
في حادث غامض.
وفى خلال ذلك كان النضال مستمراً بين المعتضد بن عباد
وبين البربر، وقوة باديس تضعف شيئاً فشيئاً.
فلما توفى باديس في سنة ٤٦٥ هـ
(١٠٧٣ م) ، خلفه في حكم غرناطة حفيده عبد الله بن بُلُقِّين، وفي حكم مالقة
حفيده تميم، ولم يمض على وفاته سوى عام، حتى سار المعتمد بن عباد في قواته
إلى جيان، أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية واستولى عليها (٤٦٦ هـ - ١٠٧٤ م)

ولم يبق من مملكة غرناطة سوى العاصمة ورياضها.
وعندئذ فكر أمير غرناطة
في الإستعانة بالنصارى، وتوصل بواسطة المأمون بن ذى النون، إلى أن يعقد
مع ألفونسو السادس ملك قشتالة، معاهدة صداقة وتحالف، يتعهد فيها بدفع الجزية.
وحدث في نفس الوقت أن ظفر المأمون بن ذى النون، بانتزاع
قرطبة من ابن عباد (٤٦٧ هـ) ، فكانت هزيمة المعتمد، سبباً في انقشاع الخطر
نوعاً عن غرناطة.
وخرج عبد الله بن بُلُقِّين بعد ذلك في قواته ومعه سرية من حلفائه النصارى، وأغار على أراضي ابن عباد، وعاث فيها، واستطاع أن يسترد حصن قبرة القريب من جيان (١) .
بيد أن المعتمد لم يقف مكتوفاً إزاء هذه الحركة، فاتجه بدوره إلى النصارى، وأرسل وزيره الشهير أبا بكر بن عمار إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس، فعقد معه حلفاً دفع مقابل عقده خمسين ألف دينار.
ويقضى هذا الحلف بأن يتعاون
المعتمد وألفونسو السادس، على افتتاح غرناطة، وأن تكون المدينة ذاتها للمعتمد، وأن تكون ذخائر القلعة الحمراء لألفونسو.
وظهر أثر هذه المعاهدة
على الفور، إذ عمد النصارى إلى تخريب بسائط غرناطة، ولاسيما أراضي مرجها
الشهير La Vega (2) .

---

(١) R.

Menendez Pidal: La Espana del Cid, p.

٢٦٠ & ٢٥٧

.R (٢)

.M

.Pidal: ibid ; p

٢٥٧

*(٦٣/٢)*

ولا بد لنا قبل أن نمضى في تتبع أخبار المعتمد، أن نتحدث عن الوزير

ابن عمار، وهو الذى اضطلع بأخطر دور في تنفيذ مشاريع المعتمد.

فهو أبو بكر

محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهرى، وأصله من قرية من أرباض

شلب

تسمى "شنبوس" (١) ، ولد بها سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) ، في أسرة متواضعة

لم

يكن لها في الظهور شأن، ووفد على مدينة شلب فنشأ بها وتلقى دراسته

الأولى، ثم رحل إلى قرطبة، فأكمل دراسته على جماعة من شيوخ العصر،

وبرع فى

الأدب، ونظم الشعر فتى، واتخذه وسيلة للتكسب، فكان يمدح كل من وصله،

مهما كانت مكانته أو مركزه.

ثم قصد إشبيلية ومدح المعتضد، فنظمه في سلك

شعرائه وأمنائه، ولما ندب المعتضد ولده المعتمد لحكم شلب على أثر

افتتاحها، اتصل به ابن عمار وألفى المعتمد في صفاته وأدبه ورقيق نظمه ما

حببه إليه، فعهد

إليه بوزارته، وتوثقت بينهما علائق المودة والصفاء، حتى غدا أثير المعتمد،

ينظمه في مجالس أنسه، ولا يصبر على فراقه، وكانت براعة ابن عمار في

النظم

هى أحب صفاته لأميره الشاعر.

ولما توفى المعتضد، وخلفه ولده المعتمد فى
الملك، عين ابن عمار أولا والياً لبلده شلب، ولكن مقامه بها لم يطل، إذ لم
يصبر المعتمد على فراقه، فاستدعاه إلى إشبيلية وولاه وزارته.

فظهر ابن عمار يومئذ
بمقدرته ودهائه، فكان المعتمد يعهد إليه بمهام الأمور ويندبه إلى سفاراته، وتنفيذ
مشاريعه الخطيرة، فيؤديها ابن عمار على أحسن وجه.

واستمر ابن عمار على
حظوته ومكانته لدى المعتمد أعواماً طويلة، إلى أن فسد الجو بينهما، بتدخل
اعتماد الرميكية زوجة المعتمد، فكان ذلك إيذاناً بنكبته على ما نذكره بعد.

وكان من أهم المشاريع التي اضطلع بها ابن عمار يومئذ، استيلاؤه على مدينة
مرسية باسم ابن عباد.

وهنالك ما يدل على أن مملكة إشبيلية كانت تمتد في ذلك
الوقت حتى لورقة وشقورة (٢) على مقربة من مرسية.

وكانت مرسية بعد أن
غادرها خيران العامرى، قد تغلب عليها أبو بكر بن طاهر، ثم ولده
أبو عبد الرحمن بن طاهر من أعيانها، ولكنه لم يوفق إلى إخماد العناصر الناقمة، فكتب
بعض هؤلاء إلى المعتمد بن عباد يستدعونه لفتحها، وشرحوا له ضعف ابن طاهر
وقلة أهباته الدفاعية، فعهد المعتمد إلى ابن عمار بوضع الخطة اللازمة لتحقيق

---

(١) وهى اليوم بلدة Estombar البرتغالية الواقعة جنوبى شلب.

(٢) قلائد العقيان ص ٩، ودوزى في: Hist.
Abbadidarum, V.
II.
p.
٨٦

(٢/٦٤)

هذه الغاية، فسار ابن عمار، وعقد مع الكونت رامون برنجار أمير برشلونة صفقة، يتعهد فيها بأن يعاونه بفرسانه على فتح مرسية، مقابل عشرة آلاف مثقال من الذهب تدفع إليه، واتفق الطرفان، أن يقدم كل منهما رهينة إلى الآخر
ضماناً بالوفاء، فقدم المعتمد ولده الرشيد، وقدم الكونت ابن أخيه، وبعث المعتمد بقواته، وعلى رأسها ابن عمار.
ولحقت بها قوات الكونت، وحاصرت
القوات المتحالفة مدينة مرسية، ولكن ابن عباد تأخر في أداء المال، واعتقد الكونت أنه قد غرر به، فقبض على ابن عمار وعلى الرشيد، وارتد بقواته عن المدينة.
وعلم ابن عباد بالأمر، وهو على رأس قواته على ضفاف نهر الوادي الكبير على مقربة من شقّورة، وبادر بأداء المال، وبعث معه رهينة الكونت، وأفرج عن الرشيد وابن عمار، وأخفقت هذه الحملة الأولى في فتح مرسية، وجهز المعتمد بإشارة وزيره حملة أخرى على رأسها ابن عمار، واتصل ابن عمار
في طريقه بقائد حصن بَلج أو بُليج، Vélez Rubio وهو يومئذ عبد الرحمن بن
رشيق، فسار معه، وندبه للقيادة، وحاصر ابن رشيق مرسية، واستمر فى إرهاقها، وفي تحريض أهلها على القيام ضد ابن طاهر، حتى تم له الأمر،

وفتحت
المدينة أبوابها بطريق الخيانة، ودخلها جند ابن عباد، وقبض على ابن
طاهر، واعتقل حتى أذن ابن عباد بتسريحه، فلحق ببلنسية، وكان افتتاح
مرسية على
هذا النحو في سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨) (١) .
على أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد.
ذلك أن ابن عمار سولت له نفسه، أن
يستقل بحكم هذه المدينة النائية، بعيداً عن سلطان مليكه، وعمد بالفعل إلى
حكمها
حكم أمير مستقل، وتجاهل أوامر ابن عباد ورغباته، وأخذ يدس الدسائس
بين أمراء هذه الناحية، ولكن هذه المغامرة لم يطل أمدها، ذلك أن ابن رشيق،
وهو فاتح المدينة الحقيقى، كان يتربص بابن عمار، ويتحين فرصته، وفي
ذات
يوم غادر ابن عمار مرسية لتفقد بعض الحصون الخارجية، فوثب ابن رشيق
واستولى على المدينة، وأغلق أبوابها في وجه ابن عمار، فكانت تلك الضربة
خير
جزاء له على خيانته.

---

(١) راجع في فتح مرسية: أعمال الأعلام ص ١٦٠، والمراكشى في المعجب
ص ٦٥، ودوزى
عن الشلبى في: Hist.
Abbadidarum, V.
II.
p.
٨٦ – ٨٧ وكذلك R.
Menendez Pidal:

.Piles Ibars: Murcia Arabe, V

.I

.p

.La Espana del Cid p ،١٩١ - ١٨٩

٢٨١ & ٢٥٩

(٦٥/٢)

ولم ير ابن عمار أمامه سوى الفرار، فسار صوب الشرق وقضى وقتاً قصيراً في بلاط ألفونسو السادس، فلم يلق منه عوناً، ثم قصد إلى سرقسطة، والتجأ إلى أميرها المقتدر بن هود، فأكرم وفادته، واستخدمه في شئونه، ولكنه توفى بعد قليل في سنة ٤٧٥ هـ (أواخر ١٠٨١ م) وقسمت مملكته بين أولاده، فاختص

المؤتمن بسرقسطة، وبقى ابن عمار معه على ما كان عليه.

ولم يطل مكث ابن عمار

حتى أغراه على سجيته، بفتح حصن شَقُورة، وهو يومئذ من أعمال دانية، وقصد ابن عمار إلى ذلك الحصن، في جماعة قليلة من أصحابه، وكان حاكمه

رجل وافر الدهاء يدعى ابن مبارك، فدعا ابن عمار وصحبه إلى الدخول، وهش لاستقباله، فخدع ابن عمار بموقفه، وما كاد يستقر في الحصن، حتى هوجم وقبض عليه، ووضعت في يده الأغلال، وزج إلى ظلام السجن، وكان ذلك في ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ (يوليه ١٠٨٤ م) .

ووقف ابن عباد على ذلك الخبر، فبعث إلى ابن مبارك يطلب إليه تسليم ابن عمار

وبعث إليه مالا وخيلا، فاستجاب لدعوته، وسلم ابن عمار لرسله، وعلى رأسهم

ولده يزيد الراضى، فأخذ أولا إلى قرطبة حيث كان المعتمد يومئذ، وأدخل

إليها مكبولا في هيئة زرية، وقده احتشد الألوف من أهلها لرؤيته، وقد كانت تهتز لموكبه حين كان يدخلها أيام عزه.

ثم أخذ بعد أيام قلائل إلى إشبيلية، فأودعه المعتمد مكاناً خاملا في قصره،

وكان يستحضره من آن لآخر، ويبالغ

في عتبه وتأنيبه، وابن عمار يمعن في استعطافه واسترحامه.

ويقال إن المعتمد

تأثر في النهاية بمحنته، ووعده بصفحه، ولكن عاد فنقم عليه لأنه نقل إلى بعضهم

ذلك الوعد، أو على قول راجح، لأن خصوم ابن عمار الساعين في هلاكه، وفى مقدمتهم الوزير أبو بكر بن زيدون وهو ولد الشاعر، ضاعفوا سعايتهم، وأبرزوا للمعتمد، أبياتاً بخط ابن عمار، نظمها أيام أن كان بمرسية، وفيها يتعرض بالهجو اللاذع لبنى عباد، ولاعتماد الرُّميكية زوجة المعتمد (١) .

وقد أشرنا من قبل إلى ما كان بين اعتماد الرميكية، و.

بين ابن عمار من

---

(١) راجع دوزى: Hist.

.Abbadidarum, V

.II

.p

٩٠، ٩١، ١٠٠ - ١٠٤، وابن الأبار في الحلة

السيراء ج ٢ ص ١٥٠ و ١٥١، وأعمال الأعلام ص ١٦٠ و ١٦١، والمراكشى في المعجب ص ٦٦، وقلائد العقيان ص ٨٣ و ٩٠ و ٩١ و ٩٧ وكذلك R.

Menendez Pidal: La Espana

.del Cid

*(٦٦/٢)*

وحشة كانت تزداد على مر الأيام.
وكانت الرميكية، وهى ملكة إشبيلية
الأثيرة، تحتل مكانة بارزة في حياة المعتمد، وفي بلاط إشبيلية.
ولزواج المعتمد
بهذه المرأة الموهوبة اللامعة، التي شاطرته أيام عزه ومجده وأيام محنته، وأنجبت
له أولاده الملوك، قصة تتردد بين التاريخ والأسطورة.
فأما التاريخ فتقول لنا
الرواية، إن المعتمد حينما كان ولياً للعهد، أيام والده المعتضد، رأى اعتماداً ذات يوم صحبة مولاها رُميك وهو من وجهاء إشبيلية، فراقت لديه، فاشتراها منه وهام بها حباً، وتزوجها.
بيد أن هناك رواية أخرى أكثر طرافة، وأقرب
إلى لون الأسطورة، وهى أن المعتمد كان يتنزه ذات يوم مع وزيره ابن عمار في نهر إشبيلية، وهو نهر الوادي الكبير، وهما يتبادلان طرائف الشعر، وكانت
الريح قد جعلت ماء النهر أشبه بالزرد، فنظم المعتمد هذه الشطرة:
"صنع الريح من الماء زرد"
وطلب إلى ابن عمار أن يكملها، فعجز الوزير الشاعر، وكانت ترقبهما فتاة حسناء ممن يغسلن ثيابهن في النهر، فردت على الفور:
"أى درع لقتال لو جمد"
فدهش المعتمد، وأعجب ببراعة الفتاة وسرعة خاطرها، كما أعجب
بحسنها وخفة روحها، وسألها إن كان لها زوج، فأجابت بالنفى، فعندئذ

استدعاها إلى قصره وتزوجها (١) .
وهكذا شاء القدر أن تغدو اعتماد الرميكية زوجة للمعتمد بن عباد، وأن
تغدو سيدة قصر إشبيلية.
ولما تولى المعتمد الملك، كانت الرميكية تحتل مكانة
بارزة في البلاط، وفي الشئون، وكانت لسمو مكانتها، وتمكن نفوذها يطلق
عليها لقب "السيدة الكبرى" (٢) ، وكانت تشاطر زوجها هوى الشعر ونظمه،
وكانت تعيش في هذا الأفق الأدبى الرفيع الذى يسيطر على بلاط إشبيلية،
ويجتمع
في ظله أعظم شعراء العصر، وتشترك في كثير من الأحيان في مجالس
الشعر
والأدب، التي كان يشغف بعقدها المعتمد، وتزدان في أحيان كثيرة بحضور
زوجه الحسناء الساحرة؛ وكانت اعتماد فوق ذلك بنفوذها وحظوتها لدى
المعتمد
تشترك في توجيه الشئون.
وكان الوزير ابن عمار، وهو يومئذ في إبان مجده

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥١.
(٢) المعجب ص ٧٧.
وكان هذا اللقب يطلق على والدة المعتمد ابنة مجاهد العامرى.



ونفوذه، من أساطين هذه المجالس الأدبية، وكان يستأثر لدى المعتمد بثقته
ويملك عليه كل حبه وعطفه، وكانت الرُّميكية تنظر إلى مكانته وتمكن نفوذه
بعين السخط، وكان ابن عمار من جانبه يحقد عليها ويخشى بأسها
وسعايتها؛
واستمرت معركة الدسائس والمنافسة حيناً بين اعتماد وابن عمار، لتسفر عن

نتيجتها الطبيعية، وهى هزيمة الوزير وتغير مليكه عليه.
ويقال إن الأبيات الطاعنة
التي نسبت إلى ابن عمار، قد نظمها في ذلك الوقت سراً في هجو الرميكية، ونمى خبرها إلى المعتمد، ويقال من جهة أخرى إن ابن عمار نظمها أيام وجوده
في مرسية، ونجح خصمه أبو بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية في الحصول على
أصولها مكتوبة بخطه وبعثها إلى المعتمد.
وقد أورد لنا ابن الأبار في ترجمته لابن عمار، تلك القصيدة التي قيل إنها كانت سبباً في نكبة ابن عمار ومصرعه ومطلعها:
ألا حى بالغرب حياً حلالا..

.

أناخوا جمالا وحازوا جمَالا
وعرِّج بيومين أم القرى..

.

ونم فعسى أن تراها خيالا
لتسأل عن ساكنيها الرماد..

.

ولم تر للنار فيها اشتعالا
ويومين قرية من قرى إشبيلية ومنها كانت أوّلية بني عباد.
ومنها في هجو الرميكية:
تخيرتها من بنات الهجين..

.

رميكية ما تساوى عقالا
فجاءت بكل قصير العذار..

.

لئيم النجادين عمًّا وخالا

قصار القدود ولكنهم..

.

أقاموا عليها قروناً طوالا

ثم يشير إلى أيام شبابه مع المعتمد إشارات بذيئة ويخاطبه بقوله:

سأكشف عرضك شيئاً فشيئاً..

.

وأهتك سترك حالا فحالا (١)

وعلى أى حال فقد اجتمعت العوامل السياسية والشخصية، لتؤكد محنة ابن عمار.

وقد وجه ابن عمار من سجنه إلى المعتمد قصائد في الاستعطاف تذيب الجماد، أو على قول ابن الخطيب "تعالج بمرامها جراح القلوب، وتُعَفِّى على هضبات الذنوب، لولا ما فرغ عنه من القدر المكتوب، والأجل المحسوب"، ومن أشهرها تلك القصيدة المؤثرة التي تهز أوتار القلوب، والتي مطلعها:

---

(١) الحلة السيراء (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٧٤ و ١٠٢، وراجع دوزى:

.Hist

.Abbadidarum V

.II

.p

١١٧ وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥١ و ٤٥٢.

(٦٨/٢)

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح..

.

وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

وإن كان بين الخطتين مزية..

.

فأنت إلى الأدنى من الله تجنح

حنانيك في أخذى برأيك لاتطع..

.

عداى ولو أثنوا عليك وأفصحوا

ومنها:

أقلنى بما بينى وبينك من رضى..

.

له نحو روح الله باب مفتح

وعفٍّ على آثار جرم سلكتها..

.

بهبة رحمى منك تمحو وتصفح

ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم..

.

كل إناء بالذى فيه يرشح

ومنها:

ْإلا إن بطشاً للمؤيد يرتمى..

.

ولكن حلماً للمؤيد يرجح

وبين ضلوعى من هواة تميمة..

.

ستشفع لو أن الحمام مجلح

سلام عليه كيف داربه الهوى..

.

إلى فيدنو أو على فينزح

ليهنئه إن مت السلوُّ فإننى..

.

أموت ولى شوق إليه مبرِّح (١)

على أن تضرع ابن عمار لم يؤثر في مليكه الصارم، ولم تجد الرحمة سبيلا إلى

قلبه؛ ويقال إنه مما قضى على عطف المعتمد، وحفزه إلى التعجيل بالقضاء على

وزيره، هو أن ابن عمار، حينما وعده المعتمد بصفحه، حدّث بذلك ولده الرشيد، وذاعت القصة بعد ذلك، ونقلها أبو بكر بن زيدون عدو ابن عمار الألد إلى المعتمد، فاضطرم سخطاً على ابن عمار، ونهض من فوره، وفي يده

طبرزين (٢) كان قد أهداه إليه ألفونسو ملك قشتالة، وذهب إلى حيث كان ابن

عمار يرسف في أغلاله، ففزع ابن عمار لرؤيته، وارتمى على رجليه يقبلهما ويبللهما بدموعه، ولكن المعتمد أخذ يضربه بتلك الآلة حتى أجهز عليه، ولم يتركه إلا جثة هامدة تضرجها الدماء، ثم أمر به فغسل وكفن، ودفن في ركن من " القصر المبارك ".

وكان مصرع ابن عمار على هذا النحو المؤسى في أواخر

سنة ٤٧٧ هـ (أوائل ١٠٨٥ م) (٣) .

---

(١) وردت هذه القصيدة في قلائد العقيان ص ٩٨، وأعمال الأعلام ص ١٦١، وفي المعجب

ص ٦٧ و ٦٨.

(٢) هو آلة أشبه بالبلطة.

(٣) راجع دوزى: Hist.

.Abbadidarum, V

II.

p.

١١٨ - ١١٩، والمعجب ص ٦٨

و ٦٩.

ويقول لنا المراكشى إن مصرع ابن عمار وقع في سنة ٤٧٩ هـ.

وراجع ترجمة ابن عمار

وأحداث حياته كلها مفصلة في الحلة السيراء ج ٢ ص ١٣١ - ١٦٥.

ونقلها دوزى

بنصها في: Hist.

Abbad.

(ص ٨٨ - ١٢٣) .

(٦٩/٢)

وهكذا قتل المعتمد بن عباد بيده، وزيره الشاعر المبرز، رفيق صباه، ويده اليمنى في كثير من المشاريع الخطيرة، في بادرة من الحقد المضطرم، والقسوة التي لا تخبو، وكانت هذه الضربة الدموية من أفدح أخطائه، ويقال إن المعتمد

ندم فيما بعد على تسرعه، ونغصت عليه هذه الفعلة صفاء حياته.

ويحاول الأمير

عبد الله بن بُلُقِّين أمير غرناطة وهو معاصر للحادث وعليم بظروفه، أن يوضح لنا

سبب حقد المعتمد على وزيره في الفقرة الآتية: " وكانت العداوة الواقعة بينه (أى ابن عمار) وبين المعتمد على يد الرشيد ابنه، فإنه بفسوقه كان يتكبر على

أولاده، ويضيق عليهم، ويسىء الصنيعة مع من يجب عليه إكرامه من قرابة سلطانه، والمعتمد في هذا كله يصبر له، ولأنه قد استمال النصارى، واندخل

معهم بحيلته، فمتى ما دهم أمر من قبلهم، وجهه إليهم، فيتجلى من أمرهم ما يضيق
الصدر به، وكل ذلك بأموال رئيسه وسعادة أيامه، وهو بجهله يعتقد أن ذلك لا يتهيأ إلا بسببه، ويرد الخمس كله إلى نفسه؛ وكانت هذه المعانى مما أحنق عليه
المعتمد، حتى عقب عليه بما كان جديراً به، وأمكنه الله منه، وجازاه بما لم يكن له منه بد، ولا رآه لغيره أهلا " (١) .

ويعلق ابن الخطيب، على ذلك وقد كان أيضاً من الوزراء الذين عرفوا نزعات الملوك ونقمتهم بقوله: "وسبحان الذى جعل نفوس أكثر الملوك تنقاد في أزمة حب التشقى، وطلب الإنصاف، فلا تتوقف في مطاوعته، وذلك لأنها نفوس غير مقهورة بالرياضة والملكات، ولا مرغمة بفراق الشهوات، إلا القليل النادر، ممن كانت نفسه متصفة بالرحمة في أصل جبلتها، فهى ساكنة الفورة" (٢) .

وكان ابن عمار من أعظم رجالات الأندلس في عهد الطوائف، فكان وزيراً نابهاً، وقائداً مجرباً يقود الحملات العسكرية الناجحة، وسياسياً بارعاً، ومفاوضاً
لا نظير له، يعقد الصلات البعيدة المنال، ويذلل المشكلات الصعبة، وقد ذاع صيته في سائر بلاد الأندلس، وكذلك في ممالك اسبانيا النصرانية، حتى كان ألفونسو السادس ملك قشتالة، إذا ذكر عنده ابن عمار، قال "هو رجل الجزيرة" (٣) .

بيد أنه كان في نفس الوقت، سياسياً مغامراً، قليل الولاء

---

(١) كتاب البيان أو مذكرات الأمير عبد الله المنشورة بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال
(القاهرة ١٩٥٥) ص ٨١.

(٢) أعمال الأعلام ص ١٦٢.
(٣) المعجب ص ٦٣.

(٧٠/٢)

والوفاء، مكيافيلّيا، يسعى إلى تحقيق غايته بأى الوسائل، دون اعتبار لخلق أو مبدأ.

وكانت مواهبه الأدبية والشعرية، ألمع ما في خلاله، وقد كان ابن عمار بلا ريب من أعظم شعراء الأندلس في عصره، وكان هذا العصر الذى سطعت
فيه قصور الطوائف عصراً، اجتمع فيه بالأندلس من أكابر الشعراء، جمهرة لم تجتمع في أى عصر آخر، ويكفى أن نذكر من هؤلاء بنو عباد، وفي مقدمتهم
المعتمد، وابن زيدون، وولادة بنت المستكفى، وأبو بكر بن اللبانة، والمعتصم ابن صمادح وولده رفيع الدولة، وبنو القبطرنة، وابن عبدون.

وكان ابن عمار فى
طليعة هذه الجمهرة الشاعرة، وقد ملأ الأندلس بروائع شعره، كما ملأها بذكر أعماله ومغامراته.

وقد جمع شعر ابن عمار، ورتبه في ديوان خاص، أبو الطاهر
محمد بن يوسف التميمى (١) ، وأورد لنا ابن بسام في الذخيرة طائفة كبيرة من
أخبار ابن عمار، كما وضع تأليفاً خاصاً في تاريخه (٢) ، وكذلك وضع أبو بكر
ابن قاسم الشلبى مجموعاً في تاريخ ابن عمار (٣) .

وهذه العناية بسيرة ابن عمار
وتراثه الشعرى من معاصريه، ومن إليهم، تنبى عن أهمية هذه الشخصية البارزة في تاريخ الطوائف، وعن رفيع مكانتها السياسية والأدبية.

إلى ذلك الحين استطاع المعتمد بن عباد أن يؤسس أعظم مملكة للطوائف، تمتد في قلب النصف الجنوبى من شبه الجزيرة، من غرب ولاية تدمير شرقاً، حتى المحيط الأطلنطى، ومن ضفاف وادي يانة جنوباً حتى أرض الفرنتيرة. وكان المعتمد قد استطاع في الواقع في أواخر أيام الملك العاجز الضعيف القادر

ابن ذى النون، أن يستولى على معظم أراضي مملكة طليطلة الجنوبية الشرقية، من

المعدن شرقاً حتى مدينة قونقة.

ولعل المعتمد كان يفكر في غزوات وفتوح

أخرى، ينتزع فيها ما استطاع من أراضي جيرانه، لولا أن أيقظه سقوط طليطلة

من غمار أحلامه وأطماعه.

أجل، لم يكن خافياً على المعتمد، وعلى أمراء

---

(١) دوزى: Hist.

Abbadidarum, V.

II.

p.

٨٩

(٢) دوزى: Hist.

Abbadidarum, V.

II.

p.

١٠٥

(٣) الحلة السيراء ج ٢ ص ١٧٣.

الطوائف جميعاً، أن مملكة طليطلة كانت بظروفها وارتماء ملكها الضعيف
فى
أحضان النصارى، صائرة حتماً إلى الفناء، وأن عاصمتها التالدة – طليطلة
–
سوف تسقط حتماً في يد ملك قشتالة، وكان ابن عباد يشهد تطور هذه
المأساة
جامداً، بما ينسب إليه من عهود قطعها في ذلك لملك قشتالة.
وربما كان هذا التصرف
من المعتمد نحو قضية طليطلة من بين أخطائه السياسية العديدة، أخطرها
جريرة،
وأبلغها دلالة على استهتاره وتهاونه نحو أمته ودينه.
ولكن طليطلة ما كادت تسقط
في أيدى القشتاليين، حتى أدرك المعتمد فداحة الخطأ الذى ارتكبه في
سياسته،
وشعر أن هذه النكبة، ليست إلا نذيراً قوياً له، ولسائر ملوك الطوائف.
وقد سبق أن ذكرنا فيما تقدم أن المعتضد بن عباد تعهد بأداء الجزية لفرناندو
ملك قشتالة منذ سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ، وأنه كان يؤدى إليه هذه الجزية
بانتظام حتى وفاته في سنة ١٠٦٥ م، ثم بعد ذلك إلى ولده سانشو ملك
جلِّيقية.
ولما استطاع ألفونسو التغلب على أخويه، وأضحى ملكاً لقشتالة، كان المعتمد
ابن عباد يؤدى إليه الجزية التي كان يدفعها أبوه.
وكان ألفونسو يرسل في كل
عام رسله لقبضها من المعتمد.
ومما هو جدير بالذكر أن رسول ألفونسو إلى

المعتمد بقبض الجزية في سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) لم يكن سوى الفارس القشتالى
الشهير ردريجو بيبار الملقب بالسيد الكمبيادور، أو السيد الكنبيطور كما تسميه
الرواية العربية.
ولما وفد السيد عندئذ إلى إشبيلية، كانت قوات ملك غرناطة
البربرية تغير على أراضي إشبيلية مع سرية من الفرسان النصارى، فطلب السيد
من مواطنيه الكف عن هذا العدوان تحقيقاً لمقتضيات الصداقة والرعاية، التي
يكنها الملك ألفونسو لصديقه ملك إشبيلية، ولما لم يصغ المغيرون إليه خرج إلى
قتالهم في بعض القوات القليلة التي كانت معه، واستطاع أن يوقع بهم الهزيمة،
فسر المعتمد من تصرفه، وأدى إليه عدا الجزية، طائفة كبيرة من التحف
والهدايا برسم ملك قشتالة (١) .
وهكذا فإن المعتمد، على الرغم من ضخامة ملكه، واتساع موارده، لم يستطع
أن ينجو من ذلك النير المرهق، الذى استطاع ألفونسو السادس أن يفرضه على سائر
ملوك الطوائف، ونعنى تأدية الجزية، بل يبدو أن المعتمد رأى فوق ذلك، أنه لن

---

(١) R.
Menendez, Pidal: La Espana del Cid.
p.
٢٥٩ - ٢٦١

يستطيع أن يمضي في حكم مملكته آمناً إلا بتوثيق أواصر المودة مع
ألفونسو ومحالفته.
وتقدم إلينا الرواية القشتالية موضوع ذلك الحلف ولكنها لا تقدم إلينا تاريخه،
وتقول لنا إن الوزير ابن عمار ذهب إلى ليون وتولى المفاوضة في عقده.
وخلاصة
ما تم الاتفاق عليه، هو أن يقوم ملك قشتالة بمعاونة المعتمد في حروبه ضد
سائر
أعدائه من الأمراء المسلمين، وأن يؤدى إليه المعتمد جزية سنوية كبيرة، وأن
يقوم بغزو أراضي مملكة طليطلة الجنوبية، وأن يسلم منها إلى ملك قشتالة
الأراضي
الواقعة شمال جبال سيرا مورينا (جبل الشارّات) .
وتزيد الروايات القشتالية
على ذلك بأن المعتمد قدم في هذه المناسبة (أو في مناسبة لاحقة) إحدى
بناته
لتحكون زوجة أو حظية لملك قشتالة، وهى التي تعرفها الروايات القشتالية
باسم
" زائده "، وهى قصة سوف نتناولها في موضعها المناسب (١) .
بيد أن الأمور لم تسر حسبما كان يرجو المعتمد، ففى سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٢
م)
وجه ألفونسو السادس سفارته المعتادة إلى المعتمد بطلب الجزية، وعلى رأسها
يهودى يدعى ابن شاليب، وعسكر رسل ملك قشتالة في ظاهر المدينة،
فأرسل
إليهم المعتمد المال مع بعض أشياخ المدينة، وفي مقدمتهم الوزير ابن
زيدون.

فلما شاهد ابن شاليب المال والسبائك، رفض تسلمها بغلظة، بحجة أنها من عيار
زائف، وهدد بأنه إذا لم يقدم له المال من عيار حسن، فسوف تحتل مدائن مملكة إشبيلية، حتى يتم الدفع على الوجه المرغوب.

فلما وقف المعتمد على ذلك
بعث رجاله فقبضوا على ابن شاليب، ومن معه من الفرسان القشتاليين، وأمر باليهودى، فصلب، وألقى الفرسان النصارى إلى السجن.

ولما علم ملك قشتالة
بما وقع لسفرائه، اضطر أن يعيد حصن المدوّر القريب من قرطبة إلى المعتمد،
ثمناً لإطلاق سراحهم، بيد أنه أقسم أن ينتقم من المعتمد، أروع انتقام، وأن يخرب أراضي مملكة إشبيلية كلها حتى المجاز، ثم بادر تنفيذاً لوعيده، فحشد جيشاً ضخماً من الجلالقة، والقشتاليين، والبشكنس، وبعث سرياته فعاثت فى أحواز باجة ولبلة، وسار هو إلى أراضي إشبيلية، وهو يحرق القرى، وينتسف الزروع، ويسبى كل من وقع في يده من المسلمين، ثم حاصر إشبيلية نفسها مدى ثلاثة أيام، ثم عاث في أراضي شذونة، وانحدر جنوباً، وهو يخرب كل

---

(١) Modesto Lafuente: Historia General de Espana
V (Madrid 1881).
II.
p.
٤٠٤

(٧٣/٢)

ما يقع في طريقه، حتى وصل إلى مدينة طريف، فوقف على شاطىء
الزقاق، والموج يضرب قوائم فرسه، والمعتمد طيلة هذه العاصفة الهوجاء يلتزم

الدفاع (١)
وكانت خطة ألفونسو السادس في إضعاف ملوك الطوائف، تقوم أولا على استصفاء أموالهم باقتضاء الجزية، وقد انتهى إلى أن فرض الجزية عليهم جميعاً، ثم على تخريب أراضيهم، وانتساف زروعم وأقواتهم ومحاصيلهم، بالغارات المخربة الناهبة، وأخيراً على اقتطاع حصونهم وأرضيهم كلما سنحت الفرص، وقد نجحت خطته في ذلك كل النجاح، وبدا ضعف ملوك الطوائف إزاء قوته وعدوانه المنظم، واضحاً ملموساً.
وكان لاعتداده بقوته وسلطانه، ويقينه من تفرق
الطوائف وتخاذلهم، يخاطبهم بلغة السيد، ويتسمى في خطاباته إليهم
بالإمبراطور
ملك الملتين، ويجاهر باحتقارهم، والاستهانة بهم.
ومما يروى في ذلك، أنه قال
لسفير المعتمد إليه، وهو يهودى يدعى بابن مشعل "كيف أترك قوماً مجانين. تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم، المعتضد، والمعتمد، والمعتصم، والمتوكل، والمستعين، والمقتدر، والأمين، والمأمون، وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغانى والعيدان، وكيف يحل
البشر
أن يقر منهم على رعيته أحداً، وأن يدعها بين أيديهم سُداً" (٢) .
وهنا أدرك المعتمد، فداحة الأخطاء التي تردى فيها بمصانعة ألفونسو
ومحالفته
واستعدائه على زملائه أمراء الطوائف، ولاحت له طوالع المصير المروع الذى سوف ينحدر إليه، إذا لم تتداركه يد العناية بعون أو نجدة غير منتظرة،
والظاهر
أنه فكر عندئذ ولأول مرة، أن يستنصر بإخوانه المسلمين فيما وراء البحر، فى عدوة المغرب، فكتب إلى عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ينبئة بما آلت

إليه
أحوال الأندلس من الخطورة، وما رزئت به من فقد قواعدها وثغورها، ويلتمس إليه الإنجاد والعون (٣) .
وقد تطورت هذه الفكرة فيما بعد إلى خطة عملية
التف حولها سائر ملوك الطوائف وشعب الأندلس كله حسبما نوضح في موضعه.

---

(١) الحلل الموشية ص ٢٥ و ٢٦.
ودوزى Hist.
Abbadidarum V.
II.
p.
١٧٤، ١٨٧،
٢٣١ - ١٨٨، وراجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦.
(٢) دوزى عن كتاب "الاكتفاء" في Hist.
Abbadidarum: V.
II.
p.
٢٠.
وراجع
R.
Menendez Pidal: La Espana del Cid, p.
٢٥٩، ٣١٨ & ٣١٩
(٣) روض القرطاس (طبعة أبسالة ١٨٤٣) ص ٩٢.

وكان استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة معقد نجاحه، وذروة ظفره، فما كاد يدخل عاصمة القوط القديمة، حتى لاح له أن نهاية الطوائف كلها قد دنت، وأنه سوف يتبع نصراً بنصر، ويلتهم مدينة بعد أخرى، ومن ثم فقد بدأ يضع خطته لتنفيذ الخطوة التالية، وذلك بالاستيلاء على مملكة إشبيلية، أهم
دول الطوائف، وأقواها يومئذ.
فوجه إلى المعتمد بن عباد، رسالة ملؤها
الوعيد والنذير، يطالبه بتسليم أعماله، ويحذره من مثل طليطلة ومحنتها، وهى فيما يبدو من إنشاء بعض النصارى المعاهدين أو اليهود الذين يخدمون في بلاط قشتالة، وقد نقل إلينا صاحب الحلل الموشية، نص هذه الرسالة، كما نقل إلينا رد المعتمد
عليها، وإليك نص هاتين الرسالتين، اللتين تنمان عن روح العصر، وأساليبه:
قال ألفونسو في رسالته: " من الإنبيطور ذى الملتين، الملك المفضل، أذفنش بن شانجه، إلى المعتمد بالله، سدد الله آراءه وبصره مقاصد الرشاد، سلام عليك من مشيد ملك شرفته القنى، ونبتت في ربعه المنى، باغترار الرمح بعامله، والسيف بساعد حامله، وتد أبصرتم بطليطلة نزال أقطارها، وما حاق بأهلها حين حصارها.
فأسلمتم إخوانكم، وعطلتم بالدعة زمانكم، والحذر من
أيقظ باله، قبل الوقوع في الحبالة، ولولا عهد سلف، بيننا نحفظ ذمامه، ونسعى بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول
الغزو وارده، لكن الأقدار تقطع بالأعذار، ولا يعجل إلا من خاف الفوت فيما يرومه، وخشى الغلبة على ما يسومه، وقد حملنا الرسالة إليك القرمط ألبرهانس، وعنده من التسديد الذى تلقى بأمثالك، والعقل الذى تدبر بلادك به ورجالك، مما أوجب استنابته فيما يدق ويجل، وفيما يصلح لا فيما يخل، وأنت

عندما تأتيه من آرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك، يسعى
بيمينك وبين يديك ".
وأجاب المعتمد على رسالة ملك النصارى بالرسالة الآتية: " من الملك
المنصور بفضل الله المعتمد على الله، محمد بن المعتضد بالله أبي عمر
وابن عباد، إلى
الطاغية الباغية أذفنش بن شانجه، الذى لقب نفسه بملك الملوك وسماها بذى
الملتين، قطع الله بدعواه، سلام على من اتبع الهدى.
أما بعد فإن أول ما يبدأ من دعواه أنه
ذو الملتين، والمسلمون أحق بهذا الاسم، لأن الذى تملكوه من أمصار البلاد،
وعظيم

(٢/٧٥)

الاستعداد، ومجبى المملكة، لا تبلغه قدرتكم، ولا تعرفه ملتكم، وانما كانت
سنة سعد، أيقظ منها مناديك، وأغفل من النظر السديد جميل مباديك، فركبنا
مركب عجز نسخه الكيس، وعاطيناك في كؤوس دعة، قلت في أثنائها ليس،
ولم تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنا لنعجب من استعجالك برأى
لم تحكم أنحاؤه، ولا حسن انتحاؤه، وإعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار،
واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار، وتعلم أنا في العدد والعديد، والنظر السديد،
ولدينا من كماة الفرسان، وحيل الإنسان، وحماة الشجعان، يوم تلتقى
الجمعان، رجال تدرعوا الصبر، وكرهوا القبر، تسيل نفوسهم على حد الشفار،
وينعاهم المنام في القفار، يريدون رحى النون بحركات العزائم، ويشفون من
خيط الجنون بخواتم العزائم، قد أعدوا لك ولقومك جلاداً رتبه الاتفاق، وشفاراً
حداداً شحذها الإصفاق، وقد يأتى المحبوب من المكروه، والندم من عجلة
الشروه، نبهت من غفلة طال زمانها، وأيقظت من نومة تجدد إيمانها، ومتى
كانت لأسلافك الأقدمين مع أسلافنا الأكرمين، يد صاعدة أو وقفة متساعدة،
إلا ذل تعلم مقداره، وتتحقق مثاره، والذى جرأك على طلب ما لا تدركه قوم

كالحمر، لا يقاتلونكم جميعاً، إلا في قرى محصنة، أو من وراء جدر، ظنوا المعاقل تعقل، والدول لا تنتقل، وكان بيننا وبينك من المسالمة، ما أوجب القعود عن نصرتهم، وتدبير أمرهم، ونسأل الله المغفرة فيما أتيناه في أنفسنا؛ وفيهم
من ترك الحزم وإسلامهم لأعاديهم، والحمد لله الذى جعل عقوبتنا، توبيخك وتقريعك، بما الموت دونه، وبالله نستعين عليك، ولا نستبطىء في مسيرنا إليك، والله ينصر دينه، والسلام على من علم الحق فاتبعه، واجتنب الباطل وخدعه " (١) .

- ٣ -

وعلى أثر هذا النذير، جد المعتمد في حشد رجاله، وتقوية جيشه، وإصلاح حصونه، واتخاذ كل ما يستطاع من الأهبات الدفاعية.
على أنه كان يوقن، كما

---

(١) أورد نص هاتين الرسالتين صاحب "الحلل الموشية".
وقد اعتمدنا في نقلهما، على النص
الذى نقله دوزى عن مخطوطات باريس، وليدن، وجاينجوس (مدريد) ، وهو فيما يبدو أصح وأدق
من النص الذى ورد في طبعة تونس.
راجع: Hist.
Abbadidarum, V.
II.
p.
١٨٥، ١٨٦ & ١٨٧
وفى طبعة تونس (ص ٢٣ - ٢٥) .

يوقن زملاؤه ملوك الطوائف، أن ملك قشتالة يعتزم العمل على إبادتهم جميعاً، وأنهم بقواتهم ومواردهم المحدودة، وصفوفهم الممزقة، لن يستطيعوا له دفعاً.
في هذه الآونة العصيبة، قرر المعتمد أن ينفذ فكرته في الاستنصار بإخوانه فيما وراء البحر، في عدوة المغرب، وهم يومئذ المرابطون، وعاهلهم يوسف ابن تاشفين.
وكانت هذه الفكرة قد خطرت لأكثر من أمير من أمراء الطوائف، وخطرت لكثيرين من زعماء الأندلس وعلمائها.
ويقول لنا الأمير عبد الله بن
بلقِّين إن أخاه تميماً أمير مالقة، كان أول من فكر في الاستنصار بالمرابطين لينتقم
منه (١) ، ولكن فكرة الاستنصار بالمرابطين لمقاتلة النصارى كانت أعم وأخطر، وكانت قد شاعت في الأندلس على أثر سقوط طليطلة، وما أشاعته تلك النكبة
في الناس من ذعر ويأس، وذاعت بعد الأمراء، بين سائر الزعماء والفقهاء وطبقات الكافة.
وعقد عندئذ في قرطبة اجتماع كبير من الزعماء والفقهاء، واجتمع
رأيهم على وجوب الاستنصار بالمرابطين، وقدم ابن عباد على أثر ذلك إلى المدينة، وأقر ما ارتأته "الجماعة".
وانضم إلى المعتمد في ذلك عدة من زملائه
رؤساء الطوائف، ولاسيما أميرى بطليوس وغرناطة.
واتفق الرأى على أن ترسل إلى
عاهل المرابطين سفارة مشتركة من قضاة قرطبة وبطليوس وغرناطة، ومعهم أبو بكر بن القصيرة الكاتب (وفى رواية أخرى الوزير أبو بكر بن زيدون) .
وهنا تختلف الرواية في التفاصيل فتقول إحداها إن سفارة الأندلس عبرت البحر، ولقيت أمير المسلمين بسبتة، وكان قد وصل إليها إثر افتتاح جيشه لها، من يد

واليها يحيى بن سكوت البرغواطى، وشرح له السفراء ما يلقاه أهل الأندلس
من
الإرهاق والذلة على يد النصارى، وما يهددهم به ملك قشتالة من أخذ بلادهم،
وإبادتهم، وأنهم يعتمدون على نصرته وحسن بلائه، في دفع هذا الخطر عن
الأندلس المسلمة.
وفى رواية أخرى أن المعتمد بن عباد نفسه، قد عبر البحر
في جماعة من الزعماء، وسار إلى سبتة أو إلى فاس لمقابلة أمير المسلمين،
وأنه هو
الذى استنصره بنفسه للجهاد وإنقاذ الأندلس (٢) .

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢.
(٢) راجع في ذلك ما نقله دوزى عن النويرى: Hist.
Abbadidarum: V.
II.
p.
١٤٣
وما ورد في الإستقصاء للسلاوى ج ١ ص ١١١، ومذكرات الأمير عبد الله
ص ١٠٢، وابن خلدون
ج ٦ ص ١٨٦.
وقد أشار ابن الأبار إل ذلك أيضاً (الحلة السيراء ج ٢ ص ١٨٦) .

*(٧٧/٢)*

ومن جهة أخرى، فإنه يقال لنا إن المعتمد كان يعارضه في هذا الاتجاه ولده
الرشيد وجماعة من زعماء إشبيلية، وأنه حين خاطب الزعماء في أمر
استدعاء
المرابطين أشاروا عليه بأن الأفضل، أن يسعى إلى التفاهم مع ملك قشتالة،

وأن
يعقد معه الصلح والمهادنة، بأى وسيلة، وكيفما كان الأمر.
ولما خلا بولده
الرشيد، أفضى إليه بمخاوفه من سطوة ملك قشتالة، وأنه بعد أن استولى على طليطلة وعادت دار كفر، قد رفع رأسه، وأخذ يتجه إلى أخذ إشبيلية، وأنهم في هذه الجزيرة لا ناصر لهم، وليس في ملوك الطوائف نفع ولا عون يرتجى، وأنه لا مناص من استدعاء المرابطين لردع ملك قشتالة، فاعترض الرشيد
على
رأيه وقال له: "يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا، ويبدد شملنا"، فقال المعتمد لولده: "أى بني والله لا يسمع عنى أبداً أنى أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى، فتقوم اللعنة على في الإسلام؛ مثلما قامت
على غيرى.
حرز الجمال عندى والله خير من حرز الخنازير".
وانتهى الرشيد بأن
فوض لأبيه الرأى فيما يحب عمله (١) .
وأما عن أمراء الأندلس، فقد كان يتفق في الرأى مع المعتمد، على استدعاء المرابطين حسبما رأينا، عبد الله بن بلقين أمير غرناطة، وقد أوفد رسله مع رسل ابن عباد إلى أمير المسلمين، وكذلك عمر المتوكل أمير بطليوس، فقد كان في مقدمة المؤيدين، لوقوع بلاده في منطقة الخطر، ولاشتداد ملك
قشتالة في إرهاقه.
وأما ابن صمادح أمير ألمرية، فلم يكن من المتحمسين لهذا
الاستدعاء (٢) ، وكانت ثمة آراء معارضة أخرى، شعارها التوجس من مقدم
المرابطين وأطماعهم.
وقد أورد لنا صاحب الحلل الموشية نصوص رسائل، قيل أن المعتمد بن عباد بعثها إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، بعضها من إنشائه، وبعضها من إنشاء وزرائه، ومنها رسالة مؤرخة في جمادى الأولى سنة ٤٧٨ هـ، أعنى

بعد
سقوط طليطلة بأشهر قلائل، وفيها يصف له حال الأندلس، وما أصاب أهلها من الخلاف والتمزق، وما دهاها من عدوان النصارى وإرهاقهم.
بيد أنه قد

---

(١) الحلل الموشية ص ٢٧ و ٢٨ ونقلت في دوزى: Hist.
Abbadidarum: V.
II.
p.
١٨٨ - ١٨٩
(٢) راجع مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٣ و ١٠٤.

*(٧٨/٢)*

وردت من بينها رسالة، نشك كل الشك في أنها صادرة من المعتمد بن عباد إلى
يوسف بن تاشفين، لأنه، قد صدرت بنصها، بعد ذلك بنحو قرنين من محمد الفقيه (ابن الأحمر) ملك غرناطة، إلى السلطان أبي يوسف المرينى ملك المغرب، يستنصره ويستنجد به على النصارى (١) .
وقد تتبعنا هنا فكرة استنصار الأندلس بالمرابطين بالأخص من ناحية ارتباطها
بالمعتمد بن عباد وسياسته.
وسوف نعود إلى تتبع مراحلها من الناحية الأخرى، ناحية ارتباطها بتاريخ المرابطين.
وعلى أى حال فقد استجاب زعيم المرابطين، بعد مشاورات ومباحثات طويلة مع الزعماء والفقهاء، لدعوة أمراء الأندلس، واعتبر الصريخ، دعوة إلى المشاركة في الجهاد، والذود عن الدين المشترك، بيد أنه عملا بنصح

وزيره

عبد الرحمن بن أسبط، وهو أندلسي من أهل ألريه، خبير بشئون الجزيرة، اشترط لإجابة الدعوة، وعبوره إلى الأندلس، أن يسلم إليه ثغر الجزيرة الخضراء، ليكون قاعدة لعبوره في الذهاب والإياب، فنزل المعتمد عند هذه الرغبة بالرغم من معارضة ولده الرشيد، وكان حاكم الجزيرة يومئذ هو ولده يزيد الراضى، فأمره باخلائها والانتقال عنها، لكى تحتلها جنود أمير المسلمين (٢) .

وفى تلك الأثناء كان زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين يحشد جنده وعدده، ويرسلها تباعاً إلى الشمال.

فلما تكاملت الحشود، بعث يوسف بقوة من الفرسان

تحت إمرة قائده داود بن عائشة، فعبرت البحر، واحتلت ثغر الجزيرة الخضراء وفقاً لما تعهد به المعتمد.

وفى شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٩ هـ (أغسطس ١٠٨٦ م)

بدأت الجيوش المرابطية وعلى رأسها زعيمها البطل الشيخ، تعبر البحر من سبتة

تباعاً إلى ثغر الجزيرة، وما كادت السفن تتوسط ماء المضيق (مضيق جبل طارق)

تتقدمها سفينة يوسف، حتى نهض الزعيم المرابطي، وبسط يديه نحو السماء

---

(١) راجع الحلل الموشية ص ٣٠ و ٣١، ودوزى Hist.

.Abbad

.V

.II

.p

.١٩١ - ١٩٠

وقد

وردت الرسالة بنفسها منسوبة إلى محمد بن الأحمر في "الذخيرة السنية" ص ١٥٩ - ١٦١.
وراجع
نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص ٩٨.
(٣) الحلل الموشية ص ٣٢ و ٣٣.
وكذلك في دوزى Hist.
Abb.
V.
II.
p.
١٩٢ - ١٩٣، وابن
الخطيب في أعمال الأعلام ص ١٥٩.

*(٧٩/٢)*

قائلا: "اللهم إن كنت تعلم أن في جوازى هذا خيراً وصلاحاً للمسلمين، فسهل على جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه على حتى لا أجوزه".
ويروى أن البحر قد هدأ على أثر هذا الدعاء، وسارت السفن في ريح طيبة، حتى رست على الشاطىء، وما كاد يوسف يعبر إلى أرض الأندلس، حتى صلى
لله شكراً (١) ، ثم نزل بالجزيرة الخضراء، وشرع في تحصينها وإصلاح خططها.
هذا وسوف نتتبع ما تلا ذلك من الحوادث فيما سيأتى بعد، في حديثنا عن موقعة الزلاّقة.

---

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٣.
وهذا ما رواه يوسف نفسه في رسالته التي بعث بها عقب

انتصاره في موقعة الزلاقة، إلى المعز بن باديس أمير تونس والتي، نشرناها في آخر الكتاب.

(٨٠/٢)

الفصل الرّابع
بنو الأفطس ومملكة بطليوس
مملكة بطليوس.
الفتى سابور الفارسى وتغلبه على تلك المنطقة.
وزيره عبد الله بن مسلمة يخلفه
في الحكم.
بنو الأفطس وأصلهم.
ابن الأفطس وابن عباد.
الحرب بينهما حول باجة وبعدها.
انشغال
ابن عباد بقتال البربر.
الثورة في أشبونة وإخمادها.
المظفر بن الأفطس.
حروبه مع المعتضد بن
عباد.
موقعة يابرة وهزيمة المظفر.
توسط ابن جهور وعقد الصلح بين الفريقين.
غزو ملك
قشتالة لشمالى مملكة بطليوس.
استيلاؤه على بازو ومليقة.
غزوه لمدينة شنترين.
إذعان المظفر لدفع

الجزية.
مسير فرناندو لفتح قلمرية.
اقتحامها وأسر حاميتها.
وفاة فرناندو ملك قشتالة.
وفاة
المظفر.
مقدرته الشعرية والأدبية.
المنصور بن الأفطس.
وفاته وقيام أخيه عمر المتوكل مكانه.
المتوكل
وشهرته في عالم الشعر والأدب.
وزراؤه الشعراء.
سيادة الأمن والرخاء في عهده.
وزيره ابن
الحضرمى.
طغيانه وعزله.
حوادث مملكة طليطلة.
اضطلاع المتوكل بحكمها.
محاولة المتوكل إنجاد
طليطلة.
سقوط طليطلة.
تجبر ألفونسو ووعيده.
رد المتوكل عليه.
اتفاق ملوك الطوائف على
استدعاء المرابطين.
كان يجاور مملكة إشبيلية من الشمال، مملكة بطليوس، تفصلها عنها جبال

الشارّات الكبرى (سيرّا مورينا) .
وكانت مملكة بَطَلْيوس، تشمل رقعة كبيرة
تمتد من غرب مملكة طليطلة، عند مثلث نهر وادي يانة، غرباً حتى المحيط
الأطلنطى، وتشمل أراضي البرتغال (١) كلها تقريباً حتى مدينة باجة في
الجنوب، وكانت العاصمة بطليوس تتوسط هذه الرقعة الكبيرة التي تشمل عدا
العاصمة، عدة مدن هامة أخرى مثل ماردة، ويابرة، وأشبونة، وشنترين،
وشنترة، وقُلُمرية، وبازو، وغيرها.
كان بنو مسلمة، أو بنو الأفطس، كما اشتهر اسمهم، سادة هذه المملكة
الشاسعة، حكموها نيفاً وسبعين عاماً، وسطع بلاطهم أيام الطوائف.
وكان
استيلاؤهم على حكمها من المصادفات المحضة.
ذلك أن هذه المنطقة، وهى النصف
الشمالى، من ولاية الغرب الأندلسية، كان يحكمها عند اضطرام الفتنة، واليها
الفتى
سابور الفارسى، أحد صبيان فائق الخادم مولى الحكم المستنصر، وقد استبد
بحكمها

---

(١) ويسميها ابن الخطيب أرض "برتقال" (أعمال الأعلام ص ١٨٣) .

(٨١/٢)

منذ انهيار الخلافة، واستمر قائماً بأمرها ثلاث عشرة عاماً.
وكان فارساً شجاعاً، ولكن عاطلا عن المعرفة والخبرة بشئون الحكم، فكان
يعاونه في تدبير الشئون
وزيره عبد الله بن محمد بن مسلمة، وكان من قبل والياً لماردة، وكان هو
الحاكم
الحقيقى.

وتوفى سابور في سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) ، وترك ولدين حدثين هما عبد الملك وعبد العزيز، وأوصى أن يستمر وزيره في الحكم، حتى يبلغا أشدهما.

فاستولى عبد الله على الأمور وضبط المملكة، واحتوى على تراث سابور لنفسه، وتلقب بالمنصور، وأضحى سيد المملكة الحقيقى.

وينتمى أبو محمد عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، إلى قبيلة من قبائل مكناسة المغربية، وأصله من بلدة فحص البلوط من ولاية قرطبة، من

أسرة متواضعة لم يكن لها نصيب في النباهة والمعرفة.

بيد أن بني الأفطس كانوا

بالرغم من ذلك يرجعون نسبتهم إلى تجيب، وقد مدحتهم الشعراء بهذا الصفة، وهذا ما يثير تعجب ابن حيان، وما يصفه " بالغريب النادر " (١) .

وكان عبد الله بن الأفطس مع ذلك رجلا كثير المعرفة والدهاء، بعيد النظر، وافر الحزم والسياسة، فلما استولى على حكم هذه المنطقة الشاسعة بعد وفاة سابور، أبدى في ضبطها وإدارتها مقدرة وبراعة.

بيد أنه كان يرقب حركات جاره من

الجنوب القاضى أبي القاسم بن عباد ونمو قوته، في حذر وتوجس.

ذلك أنه كان

بالرغم من مناعة حاضرته بطليوس، ومناعة أسوارها وقصبتها الضخمة، فإن اتساع رقعة مملكته، وتباعد قواعدها الأخرى في الجنوب والشرق، كان يجعل من الصعب عليه الدفاع عنها إزاء أطماع جاره القوى.

وسرعان ما بدأت تتحقق

مخاوفه.

ذلك أن القاضى ابن عباد انتهز قيام ثورة محلية في مدينة باجة، وقعت بين أهلها بسبب الرياسة، وسير إليها حملة بقيادة ولده إسماعيل، ومعه قوة من

جند حليفه البرزالى صاحب قرمونة.
وكان ابن الأفطس قد استطاع خلال تلك
الفترة أن يحتل باجة بجنده، إذ هى أقرب إليه، وأكثر اتصالا بمنطقته من
منطقة
بنى عباد، فهاجمت قوات إشبيلية المشتركة مدينة باجة، وحاصرت قوات
ابن الأفطس، ووقع بينهما قتال عنيف انتهى بتمزيق قوات ابن الأفطس وأسر
معظمها، وكان محمد بن الأفطس ولد المنصور بين الأسرى، فاعتقل حيناً
لدى

---

(١) ابن الأبار في الحلة السيراء (المخطوط) لوحة ٨٥ أ.
وفى المطبوع ج ٢ ص ٩٧.

*(٨٢/٢)*

البرزالى في قرمونة حتى أطلق سراحه (سنة ٤٢١ هـ) ، وعاد إلى بطليوس
وقد
صقلته المحنة، وشحذت عزمه، لمقاومة بني عباد ومحاربتهم.
ثم عادت الحرب فاضطرمت بعد ذلك ببضعة أعوام بين ابن عباد وابن
الأفطس، ذلك أن حملة جديدة بقيادة إسماعيل بن عباد، توغلت شمالا في
أراضي ابن الأفطس
وعاثت فيها، وعندما سار في طريق العودة، خرج عليه ابن الأفطس في قوة
كثيفة، وطارده بشدة، ففر إسماعيل في قلة من فلوله، وأسر معظم عسكره،
وفتك ابن الأفطس بهم كما فتك النصارى بكثير منهم، وكانت محنة شنيعة
لبنى
عباد (٤٢٥ هـ - ١٠٣٤ م) .
وشغل أبو القاسم بن عباد في الأعوام التالية، عن محاربة الأفطس بمحاربة
البربر، فاشتبك أولا مع يحيى المعتلى، وانتزع منه قرمونة (٤٢٧ هـ) ، ليردها

إلى صاحبها حليفه محمد بن عبد الله البرزالى.

بيد أنه عاد فسير قواته إلى قرمونة

واستولى عليها.

وعندئذ هرع البربر لنصرة البرزالى، وفي مقدمتهم إدريس المتأيد صاحب مالقة، وباديس بن حبوس صاحب غرناطة، ووقعت بين البربر وجند إشبيلية موقعة دموية، هزم فيها الإشبيليون وقتل أميرهم إسماعيل بن عباد (٤٣١ هـ)

وذلك كله حسبما فصلناه من قبل في أخبار الدولة العبادية.

وأما ابن الأفطس، فقد شغل بقيام الثورة في أشبونة.

أقصى ثغور مملكته.

ذلك أن عبد الملك وعبد العزيز ابنى سابور، حينما توفى والدهما، واستولى ابن

الأفطس على تراثه، غادرا بطليوس ولجآ إلى ثغر أشبونة، ثم ثار عبد العزيز واستولى على حكم المدينة، واستمر في حكمها بضعة أعوام.

ولما توفى حل أخوه

عبد الملك مكانه، ولكنه كان سيىء الحكم والإدارة، فاختل النظام، وغلبت الفوضى، وكتب أهل أشبونة سراً إلى ابن الأفطس، أن يرسل إليهم والياً من عنده، فسير إليهم ولده محمداً في قوة كثيفة، ودخل محمد أشبونة دون صعوبة، ورأى عبد الملك بن سابور أن يذعن إلى التسليم، على أن يؤمن في نفسه وأهله وماله، فمنح ما طلب، وسمح له بأن يسير إلى حيث شاء، فقصد إلى مدينة قرطبة، واستأذن الوزير ابن جهور في الالتجاء إليها، فأذن له ودخلها بأهله وأمواله، ونزل دار أبيه سابور، وعاش هناك حتى توفى (١) .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٧.

وكان عبد الله بن الأفطس المنصور، خلال ذلك يمضى في تنظيم مملكته الشاسعة وفي تحصينها، وفي تقوية جيوشه وأهباته، وذلك كله توقعاً لعدوان بنى
عباد، ولاسيما بعد أن خلف المعتضد بن عباد أباه القاضى أبا القاسم في الحكم، وظهرت امارات توثبه ونياته العدوانية.
ثم توفى المنصور في جمادى الأولى
سنة ٤٣٧ هـ (١٠٤٥ م) .
فخلفه ولده محمد بن عبد الله بن الأفطس وتلقب بالمظفر.
وكان عالماً وفارساً
شجاعاً، وقد عركته خطوب الحرب والأسر الذى عاناه.
فسار في الحكم سيرة
أبيه من العمل على ضبط النظام، والدفاع عن الثغور.
وكان مثل أبيه يرى فى
بنى عباد خصومه الأوائل، ويعمل على تقوية أهباته الدفاعية لاتقاء عدوانهم. وقد
رأينا فيما تقدم، كيف دبر المعتضد بن عباد خطته للاستيلاء على إمارات الغرب
الصغرى، وبدأ في ذلك بمهاجمة مدينة لبلة، وكيف أن المظفر بن الأفطس هرع
إلى نجدة صاحبها ابن يحيى، وبعث بعض قواته من البربر لمهاجمة إشبيلية، وكيف
حاول الوزير ابن جهور عبثاً أن يحول بتدخله، ونصحه للفريقين، دون نشوب الحرب بينهما.
وهكذا اضطرم القتال بين المعتضد وابن الأفطس، وعاث كل منهما
في أراضي الآخر، وهزم ابن الأفطس أولا، ولكنه استأنف الكرة، واستطاع
أن يوقع بالمعتضد هزيمة شديدة قتل فيها كثير من جنده (٤٣٩ هـ - ١٠٤٧

م) .

ثم تطورت الحوادث وساء التفاهم بين ابن عباد وابن الأفطس، حيث أبى أن يرد إلى حليفه القديم، ما ائتمنه عليه من أمواله وذخائره أيام الحرب، ولم يكتف ابن الأفطس بذلك بل أرسل قواته من الفرسان لمهاجمة لبلة، فاستغاث ابن يحيى بالمعتضد، فلبى دعوته وأرسل قواته، فاشتبكت مع خيل ابن الأفطس

فمزقتهم وأفنتهم، واحتزت من رؤوسهم، نحو مائة وخمسين.

وجهز المعتضد بعد

ذلك قوة كبيرة على رأسها ولده إسماعيل ووزيره ابن سلام، وعبرت القوات العبادية نهر وادي يانة، وتوغلت في أراضي ابن الأفطس شمالا، حتى مدينة يابُرة، وحشد ابن الأفطس في الوقت نفسه سائر قواته، واستعان بقوة بعثها إليه

حليفه إسحق بن عبد الله البرزالى تحت قيادة ولده المعز، والتقى الفريقان دون أهبة ولا نظام على مقربة من يابرة، فهزم ابن الأفطس وفشا القتل في جنده، وقتل المعز بن إسحق، وحز رأسه وأرسل إلى إشبيلية، وقتل عم لابن الأفطس

*(٨٤/٢)*

وأرسل رأسه كذلك، ولجأ ابن الأفطس في بقية فرسانه إلى يابرة، تحت كنف صاحبها عبيد الله الخراز.

وكانت موقعة دموية شنيعة قدر فيها عدد القتلى بأكثر

من ثلاثة آلاف، وكان وقوعها في سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) .

واستمرت الحرب بين الفريقين بعد ذلك عدة شهور أخرى، استطاع المعتضد خلالها أن يوقع بقوات ابن الأفطس غير مرة وأن يعيث في أراضيه، وأن يفتح منها عدة حصون.

وتفاقمت الحال، بما أصاب مملكة بطليوس من

تخريب الزروع، وهلاك الأقوات ونضوب الموارد، ووقوع القحط، واضطر

المظفر بن الأفطس في النهاية، أن يعتصم بقاعدته بطليوس، بعد ما نكل سائر
أصدقائه عن معونته.
ولم ينقذه من عدوان المعتضد سوى تدخل الوزير أبي الوليد
ابن جهور، حيث لبث موالياً لسعيه في درء الفتنة، وحقن الدماء، حتى كلل سعيه في النهاية بالنجاح، وعقد الصلح بين المعتضد بن عباد والمظفر بن الأفطس
في ربيع الأول سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) (١) .
وكان المظفر في نفس الوقت عرضة لمضايقة المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة وعدوانه.
وقد أغار المأمون مراراً على أراضي ابن الأفطس، ووقعت بينهما معارك محلية كثيرة.
ولم نعثر على تاريخ هذه المعارك بطريقة قاطعة.
ولكن الظاهر
أنها وقعت بعد الصلح بين ابن عباد وابن الأفطس، أعنى بعد سنة ٤٤٣ هـ (٢) .
على أن المظفر ما كاد يفيق من تلك الحروب المدمرة، حتى بدأت الحوادث والأزمات الخطيرة في أطراف مملكته الغربية والشمالية.
وكان خصومه في تلك
المرة هم النصارى، جيرانه من الشمال.
وكان فرناندو الأول (فرديناند أو فرذلند)
ولد سانشو الكبير، بعد أن استتب له ملك قشتالة وليون، يرقب تطور الحوادث
لدى جيرانه المسلمين باهتمام، ويتحين فرص العمل، وكانت أطراف مملكة بطليوس الشمالية الواقعة فيما بين نهر التاجُه ونهر دويرة، تشمل منطقة نائية مجردة

من وسائل الدفاع القوية، وتكاد تكون قواعدها المنعزلة المستقلة معتمدة في الدفاع
على نفسها.
فاتجهت أنظار فرناندو، إلى تلك المنطقة، ولم يلبث أن اخترقها بقواته
وذلك في سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) واستولى أولا على مدينتى لاميجو (مليقة)

---

(١) راجع ما نقل في الذخيرة عن ابن حيان، المجلد الأول القسم الأول ص ٣٦١ - ٣٦٥، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢١١ - ٢١٣ و ٣٣٤ و ٢٣٥.
(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٢ و ٢٨٣.

(٨٥/٢)

وبازو الواقعتين في شمال البرتغال، واللتين عمرهما المسلمون منذ أيام المنصور، ولم يلق الغزاة دفاعاً يذكر، ولم يتحرك ابن الأفطس ليقينه من عقم المحاولة.
واسترق فرناندو، سكان المدينتين الإسلاميتين، وأسكن بهما النصارى.
ولم تمض بضعة أعوام أخرى حتى بعث فرناندو بحملة قوية إلى تلك المنطقة
تقدر بعشرة آلاف فارس، وكان ابن الأفطس قد رفض أداء الجزية لملك
قشتالة، فسارت قوة من الفرسان النصارى جنوباً، صوب مدينة شنترين الواقعة
على نهر التاجُه، وهى من أهم قواعد مملكة بطليوس البرتغالية، وكان ابن الأفطس
على علم بتحرك النصارى، فهرعت قواته إلى شنترين قبل أن يصلوا إليها. ولما
أشرف عليها النصارى بعث قائدهم " القومس " إلى ابن الأفطس للمفاوضة،
فاجتمع الاثنان في نهر التاجُه، وانتهت المفاوضة بينهما على عقد الهدنة، وعلى
أن يدفع ابن الأفطس لملك قشتالة جزية سنوية مقدارها خمسة ألاف دينار.

على أن أعظم خطب نزل بالمسلمين وبمملكة بطليوس يومئذ.
هو فقد مدينة
قُلُمرية أعظم مدن البرتغال الشمالية، وكان قد افتتحها المنصور بن أبي عامر منذ
ثمانين عاماً في سنة ٣٧٥ هـ.
وكانت يومئذ تحت حكم مولى من موالى ابن الأفطس
يدعى راندة، ولديه للدفاع عن المدينة نحو خمسة آلاف جندى.
ويقال إن الذى
أشار على فرناندو بغزو قلمرية هو مستشاره المستعرب سسنندو الذى سبق ذكره، وكان في الأصل من أهل هذه الناحية.
وسار فرناندو بنفسه إلى قلمرية في قوات
كثيفة وضرب حولها الحصار، واستمر الحصار زهاء ستة أشهر، والضيق يشتد
بالمدينة المحصورة يوماً عن يوم.
وفى النهاية تفاهم راندة مع فرناندو سراً على أن
يخرج من المدينة آمناً على نفسه وأهله، وأصبح أهل المدينة فلم يجدوا قائدهم، فعرضوا التسليم على أن يمنحوا الأمان، فرفض فرناندو واستمر في الحصار، حتى فتك الضيق ونفاد الأقوات بالحامية وأهل المدينة، وأخيراً اقتحم النصارى
المدينة عنوة، فسلمت الحامية، واعتبر جنودها أسرى، وسبى الكثير من أهلها نساء ورجالا.
وخرج منها من استطاع منهم تاركين متاعهم وأموالم، ووقعت
هذه الحادثة بالمسلمين في سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) .
وعين فرناندو مستشاره
سسنندو حاكماً لقلمرية وأعمالها، ومنحه عندئذ لقب " الكونت " أو " الوزير ".

ثم عمد فرناندو بعد ذلك إلى إخراج السكان المسلمين من سائر الأراضي الواقعة

(٨٦/٢)

بين نهرى دويرة ومنيو (منديجو) وذلك تنفيذاً لخطته في إجلاء المسلمين عن الأراضي المتاخمة لمملكته شيئاً فشيئاً.
ولما سقطت قلمرية في يد العدو، قصد واليها السابق راندة إلى بطليوس،
وكان قد لجأ إلى المعسكر النصرانى، ثم غادره طمعاً في عفو سيده، فاستقبله ابن
الأفطس بجفاء وأنبه على شنيع مسلكه، ثم أمر بضرب عنقه جزاء خيانته (١).
هذا وسوف نعود إلى تفصيل حوادث سقوط قلمرية في أخبار فرناندو ملك قشتالة.
وهدأ ضغط النصارى على أراضي ابن الأفطس بوفاة فرناندو ملك قشتالة بعد ذلك بنحو عامين في سنة ١٠٦٥ م.
ووقعت بين أبنائه الثلاثة حرب استمرت
بضعة أعوام، شغل خلالها النصارى عن عدوانهم على أراضي المسلمين. ولما خلص
عرش قشتالة وليون بعد ذلك إلى ولده ألفونسو، تحولت دفة هذا العدوان إلى مملكتى طليطلة، وإشبيلية، حسبما نفصل بعد.
وتوفى المظفر بن الأفطس في سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م)، فخلفه ولده يحيى الملقب بالمنصور.
ولابد لنا قبل أن نترك الكلام على المظفر بن الأفطس، أن نذكر ذلك الجانب اللامع الوضاء في حياته، ونعنى الناحية الفكرية.
فقد كان المظفر من أعلم أهل
عصره، وكان شغوفاً بالشعر والأدب، وكان ينكر الشعر على قائله في زمانه،

ويقول: " من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو المعرى فليسكت "، ولا يرضى بدون ذلك.

وقد اشتهر في عالم الأدب بكتابه الضخم الموسوم "بالمظفرى" نسبة إلى اسمه، وهو موسوعة أدبية وتاريخية عظيمة تحتوى على كثير من الأخبار والسير والنبذ المختارة، والطرائف المستملحة، والغرائب الملوكية، والنوادر اللغوية. وأنفق المظفر في تصنيفه أعواماً، وانتفع في تصنيفه بسائر ما تحتويه خزائنه الزاخرة بنفائس الكتب، ولم يستعن في وضعه إلا بكاتبه أبي عثمان سعيد بن خيره. وقيل إن "المظفرى" كان يحتوى على خمسين مجلداً، وقيل بل على عشرة أجزاء ضخمة وقد لبث هذا المصنف الكبير عصوراً، معروفاً متداولا، تذكره التواريخ

---

(١) راجع في سقوط قلمريه وما تقدمه من حوادث: البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨ و ٢٣٩، وأعمال الأعلام ص ١٨٤، ودوزى في Hist. des Musulmans d'Espagne, V. III. p. ٦٧ - ٧٧

(٨٧/٢)

الأندلسية، بيد أنه قد غاض ودثر في النهاية، ولم تصل إلينا منه سوى شذور قليلة (١) .

وما كاد المنصور بن الأفطس يبدأ حكمه حتى ثار به أخوه عمر، وكان يرى نفسه أحق منه بالملك والحكم.

وكان عند وفاة والده المظفر حاكماً لمدينة يابرة

وما إليها، فنهض لمناوأة أخيه.

واستمر النزاع بينهما بضعة أعوام حتى تفاقم.

ولجأ عمر إلى معاونة المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة، واتجه المنصور إلى

معاونة المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، واضطرمت الفتنة، وكادت تدمر كل

شيء، لولا أن توفى يحيى المنصور فجأة سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) ، فخمدت الفتنة

ودخل عمر بطليوس، وتولى الحكم مكان أخيه دون منازع، وتلقب بالمتوكل على الله، وندب ابنه العباس حاكماً ليابرة.

وكان المتوكل بن الأفطس من أشهر ملوك الطوائف وأبقاهم ذكراً، وهو لم يشتهر بحروبه وأعماله السياسية، وإنما اشتهر بعلمه وأدبه وشعره، وبلاطه الزاهر، الذى كان جامعة أدبية أكثر منه قصراً ملوكياً.

وقد وصفه لنا معاصره

الفتح بن خاقان في تلك العبارات الشعرية: " ملك جند الكتائب والجنود، وعقد الألوية والبنود، وأمر الأيام فائتمرت، وطافت بكعبته الآمال واعتمرت إلى لسن وفصاحة، ورحب جناب للوافد وساحة، ونظم يزرى بالدر النظيم، ونثر تسرى رقته سرى النسيم، وأيام كأنها من حسنها جمع، وليال كان فيها على

الأنس حضور مجتمع، راقت إشراقاً وتبلجاً، وسالت مكارمه أنهاراً وخلجاً " (٢) .

وقال ابن الخطيب: " وكان المتوكل ملكاً عالى القدر، مشهور الفضل، مثلا في الجلالة والسرو، من أهل الرأى والحزم والبلاغة، وكانت مدينة بطليوس

في مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم ".
ونقل إلينا ابن الخطيب تلك التحفة الأدبية من نظم المتوكل، رواها وزيره أبو طالب
ابن غانم قال: كتب إلى المتوكل بهذين البيتين في ورقة كرنب من بعض البساتين:
انهض أبا طالب إلينا..

.

واسقط سقوط الندى علينا
فنحن عقد بغير وسطى..

.

ما لم تكن حاضراً لدينا (٣)

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٦، ٢٣٧، وأعمال الأعلام ص ١٨٣، ١٨٤ والمعجب
لعبد الواحد المراكشى ص ٤١، ٤٢.
(٢) قلائد العقيان ص ٣٦.
(٣) أعمال الأعلام ص ١٨٥.

*(٨٨/٢)*

وحسبك أن تعلم أنه كان من بين وزراء المتوكل، الكاتب والشاعر الكبير
أبو محمد عبد المجيد بن عبدون "عظيم ملكهم، ونظيم سلكهم" حسبما يصفه صاحب
القلائد، وصاحب مرثيتهم الرائعة التي نشير إليها فيما بعد، وهو من أبناء مدينة
يابرة، وبنو القبطرنة وهم الشاعر المبدع أبو بكر بن عبد العزيز البطليوسى،
وأخواه أبو محمد وأبو الحسن، وكلاهما أيضاً شاعر رائق النظم.

وفى عهد المتوكل على الله تمتعت مملكة بطليوس بفترة من السلام والأمن والرخاء، وسطع بلاطها في ظل أميرها الحكيم العالم.

والواقع أن مملكة بطليوس كانت

بالرغم مما نزل بها من الأحداث والخطوب، في عهد المظفر بن الأفطس، تتفوق

من حيث انتظام الأحوال وسيادة الأمن والرخاء، على كثير من دول الطوائف الأخرى.

وفى ذلك يقول المؤرخ " وكانت أيام بني المظفر (يقصد بني الأفطس) بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الأدب، خلدت فيهم، ولهم قصائد شادت مآثرهم، وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم " (١) .

وكان معاونه في الحكم الوزير ابن الحضرمى، قد أساء السيرة، وتجبر وطغى وتعسف في معاملة الناس فأقاله، وأبعده عن خدمته.

فكتب إليه الوزير يستعطفه

فراجعه المتوكل بخطاب جاء فيه: " ياسيدى وأكرم عددى، الشاكى ما جنته يده لا يدى، ومن أسأل الله التوفيق في ذاته إذ حرمه في ذاتى..

.

نعم فإنى رأيت

الأمر قد ضاع، والإهمال قد انتشر وذاع، فأشفقت من التلف، وعدلت إلى ما يعقب إن شاء الله الخلف، وأقبلت استدفع من مواقع أنسى، وأشاهد

ما ضيعته بنفسى، فم أر إلا لججاً قد توسطتها، وغمرات قد تورطتها، فشمرت عن الساق للجتها، وخدمت النفس بمهجتها، حتى خضت البحر الذى أدخلنى فيه

رأيك، ووطئت الساحل الذى كان يبعدنى عنه سعيك..

..

وقد أطمعت في العدو

لبست لأهل دهرى الاستكبار والعتو، واستهنت بجيرانك، وتوهمت أن المروءة

في التزام زهوك، وتعظيم شأنك، حتى أخرجت النفوس على وعليك، فانجذب مكروه ذلك إليك، ومع ذلك فليس لك عندى إلا حفظ الحاشية وإكرام الغاشية " (٢) .

ووقعت أيام المتوكل في جارته مملكة طليطلة أحداث كان لها صدى في مملكته.

---

(١) المراكشى في المعجب ص ٤٢.

(٢) قلائد العقيان ص ٤١.

(٨٩/٢)

ذلك أن يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة الملقب بالقادر بالله، كان أميراً ضعيفاً سيىء الخلال، وكانت تناهضه عصبة قوية من الأعيان.

وفى سنة ٤٧٢ هـ

قامت ثورة في طليطلة أضرمها أولئك الخصوم الناقمون، وحاولوا الاعتداء عليه، ففر من المدينة ناجياً بنفسه، ولجأ إلى بعض حصونه الخارجية، وخشى

أعيان المدينة انهيار النظام، وذيوع الفوضى، فاتجهوا إلى المتوكل، واستدعوه لضبط المدينة، فأجابهم كارهاً، وغادر بطليوس إلى طليطلة، وأقام بها زهاء عشرة أشهر يدبر شئونها، حتى تهيأت لأميرها المنفى سبل العودة، فغادرها المتوكل، وقد حصل من أسلاب ابن ذى النون وذخائره على قسط وافر (١)

.

وكان ألفونسو السادس خلال ذلك يشدد الضغط على مملكة طليطلة، ويرهقها بغاراته المتوالية، وينتسف زروعها وأقواتها، تمهيداً لمشروعه الضخم في الاستيلاء

عليها.

وكان القادر بن ذى النون يدافع العدو ما استطاع، ويتطلع حوله

للاستنجاد بجيرانه المسلمين، فلا يجد سميعاً أو منجداً.
ولم يتقدم لإغاثته
سوى المتوكل بن الأفطس، فقد سار بجنده لمدافعة جند قشتالة.
بيد أن ألفونسو
السادس لم يشأ الدخول في معارك عقيمة، وآثر الانسحاب مؤقتاً، حتى تحين الفرصة المنشودة.
بيد أنه لم تمض على ذلك بضعة أعوام، حتى حلت النكبة بمملكة بني ذى النون، واستولى ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة، وذلك في المحرم من سنة ٤٧٨ هـ
(١٠٨٥ م) حسبما نفصل في موضعه.
وشعر ملك قشتالة على أثر إنزال هذه
الضربة الفادحة بالمسلمين، أنه أضحى قادراً على تحدى دول الطوائف جميعاً، والقضاء عليها، واحدة بعد أخرى.
وكان من أثر ذلك أن أرسل إلى المتوكل
يطلب إليه تسليم بعض قلاعه وحصونه، وأن يؤدى الجزية، ويتوعده بشر العواقب إذا رفض، ولم يك ثمة شك في خطورة هذا الوعيد، بعد أن سقطت طليطلة حصن الأندلس على نهر التاجُه، وعبر النصارى نهر التاجُه لأول مرة، ومع ذلك أبي المتوكل أن يستجيب إلى الوعيد، ورد على ملك قشتالة برسالة
قوية حازمة، تفيض شجاعة وأباء ونبلا يقول فيها:
" وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدع في المقادير وأحكام العزيز القدير، يرعد

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٨٠.

ويبرق، ويجمع تارة ثم يفرق، ويلدد بجنوده الوافرة، وأحواله المتظافرة، ولو علم أن لله جنوداً أعز بهم الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون..

.

أما تعييرك للمسلمين فيما وهى من أحوالهم، فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك، علمت أى مصاب أذقناك، كما كانت آباؤك تتجرعه، فلم نزل نذيقها من الحمام ضروب الآلام شؤماً تراه وتسمعه، وإذا المال

تتورعه.

وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك، أهدى ابنته إليه مع الذخائر التي كانت تفد كل عام عليه، وأما نحن إن قلت أعدادنا، وعدم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحر نخوضه، ولا صعب نروضه، إلا السيوف تشهد

بحدها رقاب قومك، وجلاد تبصره في ليلك ويومك، وبالله تعالى وملائكته المسومين، فنقوى عليك ونستعين..

.

وما تتربصون بنا إحدي الحسنيين، نصر

عليكم فيالها من نعمة ومنة، أو شهادة في سبيل الله، فيالها من جنة، وفي الله العوض مما به هددت، وفرج يفتر بما مددت، ويقطع بك فيما أعددت " (١)

.

وندب المتوكل قاضيه العلامة والفقيه الأجل، أبا الوليد الباجى، ليطوف بحواضر الأندلس، ويتصل بالرؤساء، ويدعوهم إلى لم الشعث، وتوحيد الكلمة ومدافعة العدو، فقام بالمهمة، واتصل بسائر الرؤساء، ولم يدخر وسعاً في نصحهم

ووعظهم (٢) .

ومع ذلك فان المتوكل لم يجد من زملائه المسلمين من يستنصر به، وقد

روعهم
جميعاً ما حل في طليطلة، وكان ملك قشتالة قد استولى منذ سنة ١٠٨٠ م
(٤٧٣ هـ)
علي مدينة قورية وقلاعها، وهى من أطراف مملكة بطليوس الشمالية
وحصنها على
ْنهر التاجه، وأضحى السبيل بذلك أمامه ممهداً لكى يجتاح أراضيها
بسهولة.
وكان
المعتمد بن عباد قد تلقى منه مثل المطالب والنذر التي تلقاها المتوكل، ورد
عليه بمثل
رد المتوكل أو أشد.
وكان أن تطورت الحوادث بسرعة، واعتبر ملوك
الطوائف بالخطب الداهم، وانتهى بهم الأمر إلى ذلك القرار الخطير، الذى
شاء
القدر أن يكون نقطة تحول في حياة الأندلس وفي تاريخها، ونعنى استدعاء
المرابطين.

---

(١) تراجع هذه الرسالة في الحلل الموشية: (تونس ١٣٢٩ هـ) ص ٢٠ - ٢٢.

(٢) ابن الأبار في الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٩٨.

*(٩١/٢)*

وقد كان عمر المتوكل، إلى جانب زميله المعتمد بن عباد، وكلاهما يومئذ هدف لأخطر عدوان مباشر من جانب ملك قشتالة، في مقدمة المؤيدين لهذه الخطوة، وقد كتب إلى أمير المسلمين، كما كتب المعتمد، يلتمس عونه وغوثه.

والظاهر أن المتوكل وجه صريخه لأمير المسلمين قبل سقوط طليطلة، حسبما يبدو
ذلك من رواية صاحب الحلل الموشية (١) ، وقد انتهت إلينا من قلم هذ الأمير العالم
تلك الرسالة البليغة المؤثرة يصف فيها لأمير المسلمين محنة الأندلس، وما دهاها
من التفرق والانحلال، ويستنصره إلى الجهاد، والإنجاد العاجل:
" لما كان نور الهدى، أيدك الله، دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعى، لما أعضل الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو
المطيف بأنحائها "أهلكهم الله" (٢) ، عند إفراط تسلطها واعتدائها (٣) ، وشدة كلبها واستشرائها، تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضى
بكل خطيرة (٤) ، ولم يزل دأبها التشطط والعناد، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى
نفد (٥) الطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف
المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطرمت في كل جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم، ومن أخطأه القتل منهم، فإنما هم بأيديهم أسارا وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب، فيالله وياللمسلمين، أيسطوا هكذا بالحق الإفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيمان الكفر، ولا يكشف هذه البلية النصر، ألا ناصر لهذا الدين المهتضم، ألا حامى لما استبيح من الحرم، وأنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزه من ذل، فإنها الرزية التي

ليس فيها عزاء، والبلية التي ليس مثلها بلاء.
ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك، أعزك الله، بالنازلة
في مدينة قورية، أعادها الله، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلا، ومن فيها من
المسلمين بالجلا، ثم مازال ذلك التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند، حتى تخلصت

---

(١) الحلل الموشية ص ٢٠.
(٢) الزيادة من البيان المغرب (الأوراق المخطوطة)
(٣) البيان المغرب "واعتزازها".
(٤) البيان المغرب "نفيسة".
(٥) البيان المغرب "استصفى".

(٩٢/٢)

القضية، وتضاعفت البلية، وتحصلت في يد العدو مدينة سُرية، وعليها قلعة
تجاوزت حد القلاع، في الحصانة والامتناع، وهى من المدينة كنقطة الدائرة
"وواسطة
القلادة" تدركها من جميع نواحيها، ويستوى في الأرض بها قاصيها ودانيها،
وما هو
إلا نفس خافت، وزمر داهق، استولى عليه عدو مشرك، وطاغية منافق، إن
لم تبادروا بجماعتكم عجالا، وتتداركوها ركباناً ورجالا، وتنفروا نحوها
خفافاً وثقالا، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله، فإنكم له أتلى، ولا
بما فى
حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنكم إلى معرفته أهدى، وكتابى إليكم
هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ، يفصلها ويشرحها، ومشتمل على نكتة هو
يبينها
ويوضحها، فإنه لما توجه نحوك احتساباً، وتكلف المشقة إليك طالباً ثواباً،
عولت على بيانه، ووثقت بفصاحة لسانه والسلام " (١) .

والظاهر أن المتوكل، تلقى كما تلقى ابن عباد من أمير المسلمين، كتاباً يعده فيه بالجواز والإنجاد.

ونحن نقف في سرد أخبار المتوكل ومملكة بطليوس عند ذلك الحد، إذ هى تندمج عندئذ في تيار الحوادث العامة، الذى جرف الأندلس وملوك الطوائف جميعاً، وهو ما سنعنى بتفصيله في موضعه.

---

(١) البيان المغرب - في الأوراق المخطوطة التي عثرنا بها في مكتبة القرويين.

(٩٣/٢)

الفصل الخامِسُ

مملكة بني ذى النون في طليطلة

مملكة طليطلة وأهمية موقعها.

بنو ذى النون.

أصلهم وظهورهم.

عبد الرحمن بن ذى النون وولده

إسماعيل.

أحوال طليطلة عقب الفتنة.

استدعاء أهلها لإسماعيل.

ولايته لطليطلة، وتلقبه بالظافر.

كبير الجماعة أبو بكر الحديدى.

وفاة إسماعيل وقيام ولده المأمون.

الحرب بين المأمون وابن هود.

هزيمة المأمون وارتداده.

استعانته بفرناندو ملك قشتالة.

عيث النصارى في أراضي ابن هود.

التحالف بين المأمون وابن عباد.
استعانة ابن هود بملك قشتالة وعيثه في أراضي طليطلة.
تحالف
المأمون مع غرسية ملك نافار.
عيث النصارى في أراضي طليطلة وسرقسطة.
سعى أهل طليطلة للصلح.
مهاجمة ابن هود لمدينة سالم.
غزو القشتاليين لأراضي طليطلة.
غزو النافاريين لأراضي سرقسطة.
وفاة ابن هود وانتهاء الفتنة.
النزاع بين المأمون وبين ابن الأفطس.
إغارة ملك قشتالة على أراضي
طليطلة.
تعهد المأمون له بالجزية.
استيلاء المأمون على بلنسية.
مختلف الروايات في ذلك.
وفاة
فرناندو ملك قشتالة والنزاع بين أولاده.
فرار ألفونسو.
التجاؤه إلى المأمون.
محاولة المأمون غزو
قرطبة وفشله.
مؤامرة ابن عكاشة.
استيلاؤه على قرطبة واستدعاؤه للمأمون.
مقتل سراج الدولة ابن
المعتمد.

دخول المأمون قرطبة ثم وفاته.

زحف ابن عباد على قرطبة واقتحامه إياها.

مصرع

ابن عكاشة.

المأمون وخلاله.

ثراؤه وقصوره الباذخة.

ما ينسب إليه من البخل.

ابن حيان يهدى

إليه كتابه.

يحيى القادر حفيد المأمون وخلفه.

الوزيران ابن الفرج وابن الحديدى.

بطش القادر

بابن الحديدى.

القلاقل والمؤامرات ضد القادر.

ضغط ابن هود عليه.

يلتمس حماية ملك قشتالة ويعترف

بطاعته.

الثورة في طليطلة وفرار القادر.

المتوكل بن الأفطس يتولى حكم طليطلة.

استعانة القادر

بألفونسو واسترداده لعرشه.

مشروع ألفونسو لغزو طليطلة.

المعتمد بن عباد يعقد حلفاً مع ألفونسو

خضوع ملوك الطوائف لملك قشتالة.

اختلاف أهل طليطلة.

الحزب الموالى للنصارى.

تخريب ألفونسو

لأراضي طليطلة.

انصراف ملوك الطوائف عن غوثها.

أبو الوليد الباجى ودعايته.

عمر المتوكل

يحاول إنجادها.

حصار ألفونسو لطليطلة.

القادر وموقفه المريب.

تفاقم الخطب.

محاولة أهل المدينة

التفاهم مع ألفونسو.

إصرار ألفونسو على التسليم.

عروض التسليم وشروطه.

ألفونسو السادس

يدخل طليطلة.

مغادرة القادر إياها.

سقوط طليطلة وآثاره المادية والأدبية.

طليطلة حاضرة قشتالة.

أثر النكبة في موقف الطوائف.

فجيعة الشعر الأندلسي.

لم تكن أهمية مملكة بني ذى النون في طليطلة وأعمالها، في ضخامة رقعتها، وإن كانت أيضاً من أكبر دول الطوائف رقعة، ولكن في موقعها الحربى

(الاستراتيجى) على مشارف الأندلس الشمالية الوسطى.

ونحن نعرف أن طليطلة

وأعمالها، كانت منذ قيام الدولة الإسلامية بالاندلس تعرف بالثغر الأوسط

لمتاخمة حدودها للممالك الإسبانية النصرانية، واعتبارها بذلك حاجز الدولة
الإسلامية
وجناحها الشمالى الأوسط، ضد عدوان النصارى.
ولم يتغير هذا الوضع بقيام دولة بني ذى النون، على أثر انهيار الخلافة،
وتمزق الأندلس، في تلك المنطقة، ومن ثم كانت أهمية مملكة طليطلة.
وكانت
هذه المملكة تشمل رقعة كبيرة في قلب الأندلس، تمتد شرقى مملكة بطليوس،
من قورية وتَرجالُه نحو الشمال الشرقى، حتى قلعة أيوب وشنتمرية الشرق،
جنوب
غربى مملكة بني هود في الثغر الأعلى، وتمتد شمالا بشرق فيما وراء نهر
التاجُه
متاخمة لقشتالة القديمة، وجنوباً بغرب حتى حدود مملكة قرطبة، عند مدينتى
المعدن والمدور، وتتوسطها عاصمتها طليطلة.
ومن أعمالها مدينة سالم ووادي
الحجارة وقونقة ووبذة وإقليش ومورة وطلبيرة وترجالُه وغيرها.
كانت هذه المنطقة الشاسعة الهامة وقت الفتنة غنماً لبنى ذى النون، أقاموا
بها
مملكة لامعة زاهية، ولكن سيئة الطالع، قصيرة الأمد.
وقد كان بنو ذى النون
من أصول البربر، من قبائل هوارة، ويقال إن أصل لقبهم هو زنون، فتطور
بمضى الزمن إلى رسمه المعروف، أعنى ذى النون، وقد ظهروا وفقاً لأقوال
الرواية، منذ أيام الدولة الأموية، حيث كان جدهم الأعلى ذو النون بن
سليمان
حاكماً لحصن إقليش، منذ أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن.

وظهر جدهم ذو النون
هذا، ونال عطف الأمير محمد عن طريق حادث عارض، خلاصته أن
الأمير
محمدا، عند اجتيازه في بعض غزواته لأرض شنت برية (١) ، موطن ذى
النون
اعتل له خصى من أكابر خصيانه، وهو في طريق العودة من غزاته، فتركه
عند ذى النون حتى يبرأ من علته أو يموت، فاعتنى به ذو النون عناية فائقة
حتى
برىء، ثم أخذه بنفسه إلى قرطبة، فسر الأمير محمد بمروءته، وكافأه على
صنيعه بأن أهدى له سجلا بولايته على ناحيته، واعتباره زعيم قومه، وارتهن
بعض أولاده كفالة بحسن طاعته، ومن ذلك الحين يظهر اسم بني ذى النون
على
مسرح الحوادث.

ومنها أن موسى بن ذى النون، اشترك أيام الفتنة في الخلاف

---

(١) شنت برية وبالإسبانية Santaver، هى بلدة حصينة كانت تقع شمالى
غرب قونقة، وجنوبى شرقى وادي الحجارة على مقربة من منابع نهر التاجه،
وقد كانت قاعدة للكورة الأندلسية التي
تسمى بهذا الاسم، والتي تشغل منطقة قونقة وإقليش حتى شرقى طليطلة.

(٩٥/٢)

وخرج عن الطاعة، وذلك في سنة ٢٦٠ هـ، وأخضعه الأمير محمد (١) .
ومن
ذلك أيضاً أن ابنه الفتح بن موسى، خرج في مستهل عهد الناصر بقلعة رباح
وأحوازها، فبعث إليه الناصر بحملة طاردته وانتهت بإخضاعه.

ويقول لنا ابن الخطيب إن بني ذى النون لم يكن لهم رياسة ولا نباهة إلا فى

دولة المنصور بن أبي عامر، ولكن ابن حيان يذكر لنا من جهة أخرى "أنه في شهر
جمادى الأولى سنة ٣٦٣.
هـ في عهد الحكم المستنصر بالله سجل لمطرف بن اسماعيل
ابن عامر ذى النون على وبذة" (٢) وحصنه، وأضيفت إليه أكثر حصون شنت
برية وقراها (٣) .
ويقع حصن وبذة هذا على مقربة من شمال حصن إقليش
معقل بني ذى النون فيما بعد.
وعلى أى حال ففى أيام المنصور، ظهر عبد الرحمن
ابن ذى النون وولده إسماعيل، وخدم في ظل المنصور، والظاهر أن عبد الرحمن
هذا هو ولد مطرف بن إسماعيل بن ذى النون السابق ذكره.
فلما انقرضت الدولة
العامرية، لحق بالثغر، واجتمع إليه بنو عمه، ومنحه سليمان الظافر حكم إقليش.
ولما مات الفتى واضح العامرى حاكم قلعة قونقة، استولى عليها إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذى النون، وضبطها حتى يجيء بزعمه من يولى عليها.
وأخذ إسماعيل
يستولى على الأنحاء المجاورة شيئاً فشيئاً، حتى بسط حكمه على كورة شنتبرية كلها.
وأولاه سليمان الظافر عطفه، فمنحه رتبة الوزارة، ولقبه بناصر الدولة.
ونحن نعرف
أن البربر كان لهم في أيام سليمان الغلبة والكلمة العليا، فلما اضطرمت الفتنة وانهارت السلطة المركزية، أعلن إسماعيل استقلاله بما في يده من الأراضي، وجبى الأموال، واتسعت أعماله.

وينوه ابن حيان، ببخله وإمساكه في النفقة، ثم يصفه فيما يلى: " ولم يرغب في صنيعة، ولا سارع إلى حسنة، ولا جاد
بمعروف، ولا عرّج عليه أديب ولا شاعر، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر، ولا استخرج من يده درهم في حق ولا باطل، ولا حظى أحد منه بطائل، وكان

---

(١) نقل إلينا ابن حيان هذه المعلومات عن عيسى بن أحمد الرازى، ووردت في القطعة
المخطوطة من تاريخ ابن حيان المحفوظة بمكتبة جامع القرويين (لوحة ٢٧٢ ب) .
(٢) وهى بالإسبانية Huete
(٣) ورد ذلك في المقتبس لابن حيان - قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد المنشورة بعناية
الأستاذ عبد الرحمن الحجى (بيروت ١٩٦٥) ص ١٥٠.

*(٢/٩٦)*

مع ذلك سعيد الجد، تنقاد إليه دنياه، وتصحبه سعادته، فينال صعاب الأمور بأهون سعيه، وهو كان فرط الملوك في إيثار الفرقة، فاقتدى به من بعده، وأموا في الخلافة نهجه، فصار جرثومة النفاق، ومنه تفجر ينبوع الفتن والمحن "
وهكذا كان مؤسس مملكة بني ذى النون (١) .
وكانت طليطلة حينما اضطرمت الفتنة، وانهار سلطان الحكومة المركزية، قد قام بالأمر فيها وضبطها قاضيها أبو بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأسدى.
بيد
أنه يبدو أنه لم يكن منفرداً بالرياسة، وأنه كان يحكم معه جماعة من الرؤساء على

نحو ما كانت الجماعة في بدايتها بقرطبة، وكان من هؤلاء ابن مسرّة، وعبد الرحمن
ابن متيوه.

ثم وقع الخلاف بين الجماعة، وعزل القاضى ابن يعيش، وسار
إلى قلعة أيوب وتوفى بها في سنة ٤١٨ هـ (٢) .

ولما توفى عبد الرحمن بن متيوه، خلفه في الحكم ولده عبد الملك، وأساء السيرة، واضطربت الأمور، فرأى
أهل طليطلة أن يتخلصوا من أولئك الزعماء جملة، وبعثوا رسلهم إلى عبد الرحمن
ابن ذى النون في شنتبرية يستدعونه لتولى الرياسة، فوجه إليهم ولده
إسماعيل، وكان ذلك في سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) .

وهكذا تولى إسماعيل بن ذى النون حكم طليطلة وأعمالها، وتلقب بالظافر
وامتدت رياسته شرقاً حتى قونقة وجنجالة، واعتمد في تدبير الأمور على كبير
الجماعة بطليطلة أبي بكر بن الحديدى، وكان عالماً وافر العقل والدهاء، يحظى
بتأييد الكثرة الغالبة من أهل المدينة، فكان إسماعيل لا يقطع أمراً دون رأيه ومشورته.

ولم يطل أمد اسماعيل في الملك أكثر من بضعة أعوام، إذ توفى في سنة ٤٣٥ هـ
(١٠٤٣ م) .

وفى عهده ذاعت قصة ظهور هشام المؤيد، وكان هشام المزعوم
هذا بقلعة رباح من أعمال مملكته، فأخرج منها وأخذ إلى إشبيلية، حيث
أظهره القاضى ابن عباد، وأخذ له البيعة وأعلن خلافته، حسبما
ذكرنا ذلك في موضعه.

فخلفه ولده يحيى بن إسماعيل، وتلقب بالمأمون، وسار على سنة أبيه فى

---

(١) راجع في أصل بني ذى النون ونشأتهم: الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١١٠
و ١١١، وأعمال الأعلام ص ١٧٦ و ١٧٧، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١.
(٢) ابن بشكوال في الصلة رقم ١٥٢٠.

*(٩٧/٢)*

تقديم وزيره ابن الحديدى، والاعتماد على رأيه في مهام الشئون. وكان ثمة إلى
جانب ابن الحديدى ثلاثة وزراء آخرين، أوصى أبوه إسماعيل بأن يشركهم فى رأيه، ويعتمد على عونهم، وهم الحاج بن محقور، وابن لبون، وابن سعيد ابن الفرج (١) .
وفى عهد المأمون اتسعت حدود مملكة طليطلة، وترامت شرقاً حتى بلنسية، وأضحت من أعظم دوا الطوائف رقعة وموارد، وساد بها الأمن والرخاء.
بيد أن عهد المأمون الذى استطال ثلاثة وثلاثين عاماً، كان في الوقت نفسه مليئاً بالحروب والخصومات، التي اضطرمت بين المأمون، وبين منافسيه القويين
ابن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى، وابن عباد صاحب إشبيلية. ووقع النزاع
بادئ بدء بين المأمون، وبين ابن هود جاره من الناحية الشمالية الشرقية. وكانت
سلسلة المدن والقلاع الحصينة التي تمتد بين الثغر الأعلى، وبين مملكة طليطلة، منذ قلعة أيوب حتى وادي الحجارة، موضع الاحتكاك بين الفريقين، وكانت
مدينة وادي الحجارة بالأخص مثار نزاع بينهما، وبالرغم من أنها كانت من أعمال

مملكة طليطلة، إلا أن فريقاً من أهلها كانوا ينزعون إلى الانضواء تحت سلطان
سليمان بن هود صاحب سرقسطة، وكان سليمان يعمل على بث الاضطراب فيها، على يد رسله وأعوانه، فلما نضجت دعوته أرسل إليها قوة من جيشه بقيادة
ولده وولى عهده أحمد فنازلتها، ثم دخلتها بمعاونة بعض أهلها الضالعين معه، (٤٣٦ هـ - ١٠٤٤ م) .
وما كاد المأمون بن ذى النون يقف على هذا الاعتداء، حتى هرع في قواته إلى وادي الحجارة، ونشبت بينه وبين أحمد بن هود معارك
كانت الغلبة فيها لابن هود، فارتد بقواته، وابن هود يطارده حتى حصره فى مدينة طلبيرة، الواقعة على نهر التاجه غربى طليطلة، وشدد ابن هود في الضغط
على المأمون ومضايقته، ثم كتب إلى أبيه يخبره بما تهيأ له، فكتب إليه أبوه أن يرفع
الحصار عن طلبيرة، وأن يترك المأمون وشأنه، فصدع بالأمر، وارتد بقواته عائداً إلى سرقسطة، ونجا المأمون من مأزق شديد الحرج.
ولم يشأ المأمون أن يقف عند هذا الحد، بل صمم على متابعة الحرب والانتقام
من ابن هود، ففاوض فرناندو الأول ملك قشتالة، وطلب عونه، وتعهد

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٧٧، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١١٣.



بأن يقر بسيادته، وأن يؤدى له الجزية (١) ، فاستجاب فرناندو لدعوته، وبعث
سريات من جنده، فعاثت في أراضي ابن هود المتاخمة لقشتالة، وأمعنت فيها

تخريباً، وكان ذلك في أوان الصيف والزروع على وشك الحصاد، فقام الجند النصارى بحصدها، ونقلها إلى بلادهم، وجردت المنطقة من سائر الزروع والأقوات، وقتل النصارى، وسبوا ما استطاعوا، ثم عادوا إلى بلادهم، كل ذلك وابن هود ممتنع في حصونه مجتنب للاشتباك مع المعتدين، وانتهز المأمون

هذه الفرصة، فأغار بدوره على أراضي ابن هود المتاخمة له وعاث فيها.

ورأى المأمون في نفس الوقت أن يقوى أواصر الصداقة مع المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية، طمعاً في عونه ونصرته على ابن هود، فوعده ابن عباد بما طلب، وأسفرت المفاوضات بينهما، عن اعتراف المأمون بالدعوة الهشامية، التي

احتضنها ابن عباد، ورفضها في البداية إسماعيل بن ذى النون، وأخذت البيعة

لهشام المؤيد في طليطلة، ودعى له على منابرها (٢) .

بيد أن ابن عباد ما لبث أن

شغل بحروبه مع ابن الأفطس، ولم ينل المأمون من عونه شيئاً.

وأما ابن هود فإنه ما لبث أن انحدر إلى نفس الطريق الذى انحدر إليه المأمون

وسعى بدوره إلى محالفة النصارى، واستعدائهم على خصمه ابن ذى النون، وبعث

إلى فرناندو أموالا وتحفاً طائلة، على أن يغير على أراضي ابن ذى النون، فاستجاب فرناندو إلى دعوته، وبعث سرياته فاخترقت أراضي طليطلة شمالا، حتى وادي الحجارة.

وقلعة النهر (قلعة هنارس) ، وأمعنت فيها عيثاً وتخريباً، فاستشاط المأمون غيظاً، والتمس محالفة غرسية ملك نافار أخى فرناندو.

ملك

قشتالة، وبعث إليه بالأموال والتحف، فأغار بقواته على أراضي ابن هود

المتاخمة له، فيما بين تطيلة ووشقة وعاث فيها، وافتتح منها قلعة قلهرّة
(٤٣٧ هـ -
١٠٤٥ م) ، وكانت مما افتتحه المنصور بن أبي عامر من أعمال نافار
الجنوبية، وقام فرناندو ملك قشتالة مرة أخرى بالإغارة على أحواز طليطلة
وتخريبها.
وهكذا استباح النصارى أراضي المملكتين الإسلاميتين، بمساعى ابن هود
وابن
ذى النون الذميمة، وانهارت فيها خطوط الدفاع، وساءت أحوال المسلمين إلى

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٨، وكذلك: P.
y.
Vives: Los Reyes de Taifas, p.
٥٣
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٠.

(٩٩/٢)

أبعد حد.
واضطر أهل طليطلة أن يبعثوا إلى سليمان بن هود بعض كبرائهم، سعياً
إلى طلب الصلح والمهادنة، فقصدوا إليه في سرقسطة فناشدوه السلم، وحذروه
من العواقب، ومما تهيأ للنصارى من الظفر، فتظاهر بالقبول، وكذلك أبدى
ابن ذى النون ميله إلى المهادنة والصلح، وصرف حلفاءه النصارى إلى
بلادهم.
على أن ابن هود لم يكف عن خطته، فخرج بقواته مع سرية من حلفائه
النصارى
وهاجم مدينة سالم، وهى نهاية أعمال طليطلة المتاخمة له، وقتل معظم
المدافعين

عنها، ثم استولى على سائر الحصون التي كان قد انتزعها منه المأمون، وكان معه
في تلك الغزوة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذى النون، أخو المأمون الثائر عليه
يدله على عوراته وثغراته.
وهرع المأمون بقواته إلى مدينة سالم للدفاع عنها، وانتهز النصارى من حلفاء ابن هود هذه الفرصة، فعاثوا في أراضي طليطلة كرة
أخرى، واشتد الخراب والكرب بأهل طليطلة، فبعثوا إلى فرناندو يسألونه الصلح والمهادنة، فطلب منهم أموالا كثيرة، واشترط شروطاً فادحة، عجزوا عن قبولها، وبعثوا يقولون له، لو كانت لدينا هذه الأموال، لأنفقناها على البربر، واستدعيناهم للدفاع عنا، فرد عليهم فرناندو بما يأتى، وهى أقوال تمثل سياسة اسبانيا النصرانية نحو الأندلس أصدق تمثيل:
" أما استدعاؤكم البرابرة، فأمر تكثرون به علينا، وتهددونا به، ولا تقدرون عليه، مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا إليكم ما نبالى من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضى
لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم، واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم، أو يحكم الله
بيننا وبينكم " (١) .
وفى الوقت نفسه كانت قوات غرسية ملك نافار، حليف ابن ذى النون، تغير على أراضي ابن هود، وتعيث فيها.
وهكذا استمرت الفتنة والنضال بين
"هذين الأميرين المشئومين على المسلمين" ثلاثة أعوام من سنة ٤٣٥ إلى آخر سنة
٤٣٨ هـ، ولم تنقطع إلا بموت سليمان بن هود في العام ذاته، وكانت فتنة

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٢.

*(١٠٠/٢)*

وضيعة كبيرة، ونموذجاً صارخاً لتلك الحروب والمنافسات الإنتحارية المدمرة التي انحدر إليها ملوك الطوائف (١) .

وتنفس المأمون بن ذى النون الصعداء لوفاة خصمه الألد، وهدأت الأمور في الثغر الأعلى، إذ قسمت مملكة ابن هود بين أولاده الخمسة كما سيجىء، بيد

أن المأمون لم يلتزم السلم والهدوء طويلا، بل اتجه إلى مخاصمة بني الأفطس جيرانه

من الغرب، ونشبت بينه وبين المظفر ابن الأفطس صاحب بطليوس سلسلة من

المعارك المحلية، لم تسفر عن أية نتائج ذات شأن.

وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن

هذه المعارك، قد نشبت بين الفريقين على الأرجح بعد سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) .

وكان فرناندو ملك قشتالة، قد عاد في تلك الآونة إلى الإغارة على أراضي مملكة طليطلة، ولكن في تلك المرة لحسابه الخاص، وكان هذا الملك القوى، يطمح إلى إخضاع ممالك الطوائف الضعيفة المتخاصمة، أو على الأقل إلى أن يرهقها

بمطالبه في أداء الجزية، ثم يتوصل باستصفاء أموالها إلى إضعافها.

ففى سنة ١٠٦٢ م

(٤٥٤ هـ) خرج في جيش قوى من الفرسان والرماة، وانقض على أراضي مملكة طليطلة الشمالية، فخربها وعاث فيها عيثاً شديداً، ولم يجد المأمون في النهاية

بداً من أن يذعن إلى طلب الصلح، وأن يتعهد بأداء الجزية.
وكان من أهم أعمال المأمون بعد ذلك، استيلاؤه على بلنسية وأعمالها. وكانت
بلنسية يومئذ تحت حكم عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر، وهو حفيد للمنصور
وكان قد ولى حكمها على أثر وفاة أبيه عبد العزيز في آخر سنة ٤٥٢ هـ، وكان
صهراً للمأمون بن ذى النون، تزوج ابنته عقب وفاة أخيه زوجها الأول، فأهانها
وأساء عشرتها، لما كان عليه من ذميم الصفات، والخلاعة، والانهماك فى الشراب، والانحطاط في مهاوى الملذات الوضيعة.
فحقد عليه المأمون وأضمر
له الشر، وكانت ثمة أسباب سياسية أخرى لغضب المأمون على صهره، خلاصتها
أنه طلب إليه أن يعاونه بالجند فاعتذر عبد الملك بأنه لا يستطيع بذل مثل هذه المعاونة، نظراً لتحالف الفتيان العامريين أمراء قسطلونة وشاطبة ومربيطر
ضده، وتربصهم به.
فاعتزم المأمون أمره ضد صهره، وهنالك في استيلاء

---

(١) راجع في حروب المأمون وابن هود، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٨ - ٢٨٢، وأعمال الأعلام
ص ١٧٨.
وراجع دوزى: Hist.
des Musulmans d'Espagne V.
III.

.p

٧٤ - ٧٥

(١٠١/٢)

المأمون على بلنسية روايتان الأولى، أنه قدم إلى بلنسية زائراً لصهره، فاستقبله
عبد الملك هو وغلمانه وعبيده بقصره، فأقام لديه أياماً، ثم دبر له في ذات ليلة
كميناً، فقبض عليه وعلى ابنه، وأخرجهما ليلا إلى بلدة شنت برية، واستولى بذلك على بلنسية بأيسر أمر.
وأما الرواية الثانية فتقول لنا إن المأمون استعد سراً لغزو بلنسية، واستعان بفرقة من الجند النصارى أمده بها حليفه فرناندو الأول صاحب السيادة الاسمية
عليه، وأن القوات المتحالفة دهمت بلنسية، والبلنسيون مثل أميرهم غافلون غارقون في اللهو واللعب، فلم يستطع البلنسيون دفاعاً، ومزقت قواتهم، وقتل منهم
عدد جم، وأسر عبد الملك بن أبي عامر وآله، ولم ينقذ حياته سوى تدخل زوجه
ابنة المأمون.
وتسمى الرواية هذه الموقعة بموقعة بطرنة، وهى بلدة من ضواحى
بلنسية، وتنسب وقوعها إلى سنة ٤٥٥ هـ أو ٤٥٧ هـ أو ٤٥٨ هـ، بيد أن المرجح
أنها وقعت في ذى الحجة سنة ٤٥٧ هـ (أكتوبر سنة ١٠٦٥ م) . وتختلف الرواية
في مصير عبد الملك بن أبي عامر، فيقال إن صهره المأمون اعتقله في شنت برية

أو قلعة إقليش، أو قلعة قونقة (١) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى توفى فرناندو ملك قشتالة (ديسمبر ١٠٦٥) ، وثارت بين أولاده الثلاثة سانشو ملك قشتالة، وألفونسو ملك ليون، وغرسية ملك جليقية، حرب أهلية استمرت أعواماً، وانتهت مرحلتها الأولى في سنة ١٠٧١ م، بانتصار سانشو واغتصابه ملك أخويه، والتجأ غرسية إلى حماية ابن عباد ملك إشبيلية، والتجأ ألفونسو إلى حماية المأمون بن ذى النون، وعاش
في بلاط طليطلة زهاء تسعة أشهر معززاً مكرماً، حتى توفى أخوه سانشو قتيلا
تحت أسوار سمورة، حينما أراد انتزاعها من يد أخته أوراكا، فغادر طليطلة إلى ليون واسترد عرشه.

ويقال إنه حينما وصل إليه نبأ وفاة أخيه وهو بطليطلة
أخفاه، وأراد أن يغادرها سراً، ففطن المأمون إلى ذلك، وحاول اعتقاله، ولكنه استطاع الفرار.

وعلى أى حال، فإن ألفونسو، استطاع خلال إقامته
بطليطلة في ضيافة صديقه وحاميه المأمون، أن يدرس أحوالها وأحوال بلاطها،

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٢ و ٢٥٣ و ٢٦١ و ٣٦٧ و ٣٠٣، ودوزى: Hist.
.des Musulmans d'Espagne V
.III
.p
٧٩، وراجع أيضاً اشباخ: تاريخ الأندلس في عهد
المرابطين والموحدين (الطبعة الثانية سنة ١٩٥٨) ص ٤٩.

ومواطن ضعفها، وأن يستغل ذلك فيما بعد، في تدبير القضاء على مملكة المحسن إليه (١) .

وقد أشرنا من قبل عند الكلام على دولة بني جهور بقرطبة، إلى ما حدث من محاولة المأمون بن ذى النون غزو قرطبة، وانتزاعها من يد الجهاورة، وكيف استغاث عبد الملك بن جهور بصديقه ابن عباد، فبعث إليه بالمدد تحت

إمرة قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين، ورد المأمون عن المدينة، ولكن قوات ابن عباد استولت عليها بطريقة غادرة، وفقاً لخطة سرية وضعها المعتمد

ابن عباد من قبل، وانتهى الأمر بالقضاء على دولة الجهاورة (٤٦٢ هـ - ١٠٧٠ م)

وندب المعتمد لحكمها ولده الحاجب سراج الدولة عباداً بن محمد بن عباد، وأبقى معه حامية بقيادة ابن مرتين.

ولكن المأمون بن ذى النون لم يقف عند هذا الحد، ولبث يتحين الفرصة لتنفيذ مشروعه في الاستيلاء على قرطبة، وهنا لجأ إلى لى سلاح التآمر والدس، فاتصل برجل من رجاله يدعى حكم بن عكاشة، وكان مغامراً وافر الجرأة، وكان من قبل من معاونى ابن السقاء، وزير بني جهور، فلما قتل ابن السقاء، قبض عليه فيمن قبض عليهم، وزج إلى السجن، ففر من محبسه ولحق بالمأمون

ابن ذى النون، فاستخدمه وولاه أحد الحصون القريبة من قرطبة، وكان "شهماً صارماً".

وتفاهم المأمون مع ابن عكاشة، على تدبير مؤامرة للفتك بالعباديين وأميرهم، والاستيلاء على قرطبة.

فوضع ابن عكاشة خطته، ولبث يدبر

أمره، ويحشد إلى جانبه من استطاع من المغامرين، وفي ذات ليلة دخل
المدينة
في جمع من شيعته بواسطة رجال من أنصاره فتحوا له الأبواب، ولم يفطن
قائد
العباديين ابن مرتين إلى ما يحدث من حوله، وكان رجلا متهاوناً، عاكفاً على
لهوه وشرابه.
وقصد المغيرون دار ابن جهور حيث كان يقيم سراج الدولة، ودهموه على
غرة، فلقيهم في نفر من رجاله، وقتل مدافعاً عن نفسه.
ثم قصدوا
بعد ذلك إلى دار ابن مرتين، وكان منكباً على لهوه، فلما وقف على الخبر،
فر
تحت جنح الظلام، ولكنه أخذ بعد أيام قلائل وقتل.
وفى صباح اليوم التالى

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٢، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول
ص ١٢٤، وكذلك: P.
y Vives: Los Reyes de Taifas p.
٥٣

(١٠٣/٢)

كانت خطة ابن عكاشة قد كللت بالنجاح، فبسط حكمه على المدينة، وانضم
إليه كثيرون من الدهماء، ودعا الناس إلى بيعة المأمون بن ذى النون
وطاعته، وبعث إليه برأس سراج الدولة.
وكان المأمون يقيم يومئذ في بلنسية، فقدم على
عجل، ودخل قرطبة في موكب عظيم، وذلك في أواخر جمادى الآخرة سنة
٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) .

ولكنه لم يلبث طويلا حتى مرض وتوفى بعد ذلك بأشهر
قلائل، في أواخر ذى القعدة من نفس العام.
واحتمل جثمانه إلى طليطلة ودفن
بها.
ويقال إنه توفى مسموماً.
وتولى ابن عكاشة من بعده حكم قرطبة، نائباً
عن يحيى القادر بن ذى النون حفيد المأمون وخلفه في حكم طليطلة.
وكانت وفاة
المأمون إيذاناً بتطور الحوادث.
ذلك أن المعتمد بن عباد، مذ قتل ولده وضاعت
قرطبة، كان يضطرم رغبة في استرداد المدينة والانتقام لولده، وكان جماعة
من
أهل قرطبة قد بعثوا إليه يدعونه للقدوم، فما كاد المأمون يختفى من الميدان،
حتى
زحف على قرطبة في قواته، وأدرك ابن عكاشة أن لا طاقة له بالمقاومة، ففر
من المدينة، ودخلها جند ابن عباد على الأثر، وبعث المعتمد في أثر ابن
عكاشة
سرية من الفرسان طاردته حتى ظفرت به وقتلته، وجيء به فصلب مع كلب
إمعاناً في الزراية به، وفر ولده حريز بن عكاشة إلى طليطلة، فولاه يحيى بن
ذى النون حاكماً لقلعة رباح (١) ، وكان حريز هذا شاعراً مطبوعاً ذكره الفتح
في " مطمح الأنفس " (٢) .
وكان المأمون بن ذى النون من أعظم ملوك الطوائف، وأطولهم عهداً، إذ
حكم ثلاثة وثلاثين عاماً، وامتدت رقعة مملكة طليطلة في عهده حتى وصلت
شرقاً إلى بلنسية، وازدهرت وعمها الرخاء.
وجمع المأمون ثروات طائلة، وابتنى
بعاصمته قصوراً باذخة اشتهرت في ذلك العصر بروعتها وفخامتها.

وكان منها
مجلسه الشهير المسمى " المكرم " كان آية في الروعة والبهاء.
وقد نقل إلينا ابن حيان
عن ابن جابر، وقد كان من شهوده في حفلة من حفلات المأمون الباذخة، بعض
أوصافه.
قال: " وكنت ممن أذهلته فتنة ذلك المجلس، وأغرب ما قيد لحظى

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٥٨ و ١٥٩، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١، وراجع دوزى:
Hist.
Abbadidarum V.
II.
p.
١٢٢ - ١٢٦
(٢) ابن الأبار في الحلة السيراء (دوزى) ص ١٩٦.
والقاهرة ج ٢ ص ١٧٩.



من بهى زخرفه، الذى كاد يحبس عينى عن الترقى عنه، إلى ما فوقه، إزاره الرائع الدائر بأسِّه حيث دار، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون، الزارية صفحاته بالعاج في صدق الملاسة، ونصاعة التلوين، قد خرمت فى جثمانه صور البهائم وأطيار وأشجار ذات ثمار، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل
المصورة بما فيها من أفنان أشجار وأشكال الثمر.
وكل صورة منها منفردة عن

صاحبتها، متميزة من شكلها، تكاد تقيد البصر عن التعلى إلى ما فوقها.
قد
فصل هذا الإزار عما فوقه كتاب نقش عريض التقدير، مخرم محفور، دائر
بالمجلس الجليل من داخله، مرقوم كله بأشعار حسان، قد تخيرت في أماديح
مخترعه المأمون.
وفوق هذا الكتاب الفاصل في هذا المجلس، بحور منتظمة من
الزجاج الملون الملبس بالذهب الإبريز، وقد أجريت فيه أشكال حيوان وأطيار،
وصور أنعام وأشجار، يذهل الألباب ويقيد الأبصار.
وأرض هذه البحار
مدحوة من أوراق الذهب الإبريز، مصورة بأمثال تلك التصاوير من الحيوان
والأشجار بأتقن تصوير، وأبدع تقدير ".
ثم قال: " ولهذه الدار بحيرتان، قد نصت على أركانهما صور أسود
مصنوعة من الذهب الإبريز، أحكم صياغة تتخيل لمتأملها، كالحة الوجوه،
فاغرة
الشدوق، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء، هوناً كرشيش القطر أو
سحالة
اللجين.
وقد وضع في قعر كل بحيرة منها حوض رخام يسمى المذبح، محفور
من رفيع المرمر، كبير الجرم، غريب الشكل، بديع النقش، قد أبرزت فى
جنباته، صور حيوان وأطيار وأشجار..
.
."
وذكر ابن بدرون أن المأمون يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة، بني بها
قصراً تأنق في بنائه، وأنفق فيه مالا كثيراً، وصنع فيه بحيرة، وبنى في
وسطها
قبة، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء

ينزل
على القبة حواليها محيطاً بها، متصلا بعضه ببعض، فكانت القبة في غلالة
من ماء
سكب لا يفتر، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء، ولو شاء أن
يوقد
فيها الشمع لفعل (١) .

---

(١) نقله نفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٣.
وراجع "سراج الملوك " للطرطوشى (القاهرة) ص ٤٥.

(١٠٥/٢)

ونقل إلينا ابن حيان أيضاً، عن ابن جابر أوصاف ذلك الحفل الباهر
الذى أقامه المأمون، احتفالا بختان حفيده يحيى، الذى تولى الحكم فيما بعد
باسم
القادر، وفيه من صور البذخ والإغداق والسعة ما ينم عن الغنى الطائل،
الذى
حققه بنو ذو النون، واتسم به بلاطهم.
بيد أن المأمون كان بالرغم من ذلك ينسب
إلى التقتير والشح، وكان قليل من الشعراء يقصدون إليه للمديح " لقلة نائله،
وتفاهة طائله " على حد قول ابن بسام (١) .
والواقع أنه لم يكن ببلاط بني ذى النون للشعر والأدب دولة زاهرة، كما كان
الشأن في إشبيلية وألمرية وبطليوس.
بيد أننا نجد مع ذلك أكابر شعراء العصر
وعلمائه يعيشون في ظل المأمون، وكان من هؤلاء شاعره ابن أرفع رأس،
صاحب
الموشحات المشهورة، والعلامة الرياضى ابن سعيد مؤلف تاريخ العلوم

المسمى
"طبقات الأمم"، وكان يلقى دروسه في المسجد الجامع، والعلامة النباتى ابن
بصّال
الطليطلى.
وقد رأينا فيما تقدم كيف ينوه ابن حيان أيضاً، بما جبل عليه مؤسس دولة
بنى ذى النون اسماعيل، من البخل والتقتير، ومع ذلك فإنه مما يلفت النظر
حقاً، أن ابن حيان لم يجد من يهدى إليه مؤلفه التاريخى الضخم، سوى
المأمون بن
ذى النون، إذ يقول لنا في مقدمته إنه كان بعد تأليفه ينوى الاستئثار به
لنفسه، وأن
يخبئه لولده ضناً بفوائده الجمة على من تنكب إخماده به إلى ذمه ومنقصته،
ثم
يقول: " إلى أن رأيت زفافه إلى ذى خطبة سنية، أتتنى على بعد الدار، أكرم
خاطب، وأسنى ذى همة، الأمير المؤثل الإمارة، المأمون ذى المجدين، الكريم
الطرفين يحيى بن ذى النون " (٢) .

- ٢ -

وخلف المأمون حفيده يحيى بن ذى النون الملقب بالقادر.
ذلك أن هشاماً ولد
المأمون، توفى قبل وفاته أو أنه قد حكم بضعة أشهر فقط ثم توفى (٣) .
وكان القادر

---

(١) راجع ما نقله ابن بسام في الذخيرة عن ابن حيان، في أوصاف الحفلات
والقصور
المأمونية، القسم الرابع المجلد الأول ص ٩٩ - ١٠٤ و ١١٤.
(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ٨٨.
(٣) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦١، وأعمال الأعلام ص ١٧١.

وكذلك:

.P

.y Vives: Los Reyes de Taifas (Cit

.Cronica General p

(nota ،٥٤

*(١٠٦/٢)*

فتى حدثاً، قليل الخبرة والتجارب قد ربى في أحجار النساء، ونشأ بين الخصيان

والغانيات، فغلب على أمره العبيد والموالى.

وكان يحكم مملكة عظيمة ولكن

مفككة.

وكان المأمون قد قسم الأعمال بين وزيريه الأثيرين، وهما ابن الفرج والفقيه أبو بكر بن الحديدى، وكان الأول يختص بتدبير الأجناد، والنظر في طبقات القواد، والشئون السلطانية، والأعمال الديوانية، ويختص الثاني بالنظر في الشئون المالية وشئون الرعية، وإبداء الرأى والمشورة.

وأوصى المأمون

قبل وفاته حفيده، بأنه متى اضطلع بالحكم، أن يعتمد على عون ابن الحديدى

ونصحه، وأن يأخذ رأيه في كل أمر، واتخذ العهود الوثيقة على ابن الحديدى، أن يخلص النصح لحفيده، وأن يشد أزره بكل ما وسع.

بيد أنه لم يمض سوى

قليل، حتى بدأ نفر من خاصة القادر يسعون لديه في حق ابن الحديدى، ويوغرون صدره عليه، ويقنعونه بأنه لا يمكن أن يحكم بصورة حقيقية، حتى يتخلص من نير ابن الحديدى وطغيانه؛ وكان المأمون قد قبض من قبل بإيعاز

ابن الحديدى على جماعة من أعيان طليطلة، واعتقلهم بالمعتقل خشية
انتقاضهم
فرأى القادر بعد أن استقرت لديه فكرة التخلص من ابن الحديدى، أن
يستظهر بهم عليه، فأطلقهم واستدعاهم إلى مجلسه، فلما حضر ابن الحديدى
ورآهم، استشعر الخطر، وحاول أن يلوذ بحماية القادر، فغادر القادر المكان،
وفتك الحضور بابن الحديدى، ونهبت دوره، وكان ذلك في أوائل المحرم
سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) .
ولم يلبث القادر أن أدرك سقطته؛ وأخذ يجنى ثمار جريمته.
فقد وهم أنه
تخلص من نير ابن الحديدى، ولكنه وقع في براثن تلك الطغمة التي آزرته
في
الجريمة، وبدأ أولئك الأعيان الحاقدون، خصوم جده القدماء، يحيكون له
الدسائس، ويضعون الصعاب في طريقه، ويثيرون الشعب ضده، حتى ضعف
سلطانه، وبدأت أعراض الثورة تبدو في النواحى.
وكان ابن هود صاحب
سرقسطة، يرهقه بمطالبه وغاراته، ويستعين ضده بالجند النصارى، حتى
انتهى بأن انتزع منه مدينة شنتبرية.
ومن جهة أخرى فقد ثار أبو بكر بن عبد العزيز
ببلنسية وخلع طاعة بني ذى النون، ونادى بنفسه أميراً مستقلا، فداخله ابن
هود
وخطب إليه ابنته أملا في أن يستطيع بذلك التغلب على بلنسية.
وكادت مدينة

*(١٠٧/٢)*

قونقة تسقط في يد سانشو راميرز ملك أراجون، لولا أن افتداها أهلها بمبلغ
كبير من المال.

وحاول القادر أن يرد خصومه، فبعث جنده تحت إمرة الفتى
بشير لمقاتلة ابن هود وراميرز، ولكنهما انصرفا دون قتال.
وعندئذ اضطر القادر
أن يتجه ببصره إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة، وأن يلتمس عونه حمايته.
وكان المأمون قد اعترف بطاعته من قبل، وقبل تأدية الجزية.
وحذا القادر
بالطبع حذوه، ولكن ملك قشتالة أخذ عندئذ يشتط في مطالبه، ويطالب القادر
بالمال تباعاً، وبتسليم بعض حصونه القريبة من الحدود، وقد تسلم منها
بالفعل
حصون سرية وفتورية وقنالش، كل ذلك والقادر عاجز عن رده، مرغم على
إرضائه، حتى كادت خزائنه تنضب، وكان خصومه في الداخل من جهة
أخرى
يدبرون السعى لإسقاطه.
وأخيراً اضطرمت طليطلة بالثورة، فاضطر القادر أن يلوذ
بالفرار، وأن يلجأ مع أهله وولده إلى حصن من حصونه الشرقية، هو حصن
وبذة (٤٧٢ هـ) وألفى أهل طليطلة أنفسهم بلا أمير، ولا حكومة تقى المدينة
شر الفوضى، فرأى الجماعة منهم أن يستدعوا المتوكل بن الأفطس أمير
بطليوس، ليتولى أمرهم، وقبل المتوكل هذه المهمة كارهاً، وقدم إلى طليطلة،
وقام
بالأمر فيها.
وفى تلك الأثناء سار القادر بن ذى النون من ملجئه إلى مدينة قونقة، وكتب
إلى ألفونسو ملك قشتالة يذكره بسالف الود بينه وبين جده المأمون، وما كان
للمأمون من فضل في عونه وإغاثته، ويطلب منه العون في محنته.
فاستجاب
ألفونسو لدعوته، وهو يزمع في قرارة نفسه، أن ينتهز كل فرصة سانحة،
وسار معه إلى طليطلة في سَرِيَّة من فرسانه.

وكان المتوكل بن الأفطس خلال ذلك
يجد في اقتناص كل ما يستطيع اقتناصه من أسلاب القادر، من أثاث وفراش
وآنية وسلاح وكتب وغيرها، حتى بعث منها إلى بطليوس المقادير الجمة.
فلما شعر بحركة ألفونسو ومقدم القادر، غادر طليطلة مسرعاً إلى حاضرته، وذلك
بعد أن قضى في حكمها زهاء عشرة أشهر، ويقال إن ألفونسو حاصر طليطلة
بقواته، واضطر ابن الأفطس أن يغادرها بطريق الفرار (إبريل ١٠٨٠) (١) .

---

(١) ابن الخزرجي في كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، ونقله دوزي في:
.Hist
– Abba
.didarum V
.II
.p
١٦

*(١٠٨/٢)*

ودخل القادر طليطلة في حمى ألفونسو وجنده النصارى، بعد أن تصدى له
أهلها وحاولوا رده بالقوة، فنكلت بهم الجند النصارى، ومزقوهم شر ممزق،
وجلس القادر مرة أخرى على عرشه المضطرب الواهى، والفوضى تسود
المدينة، وأهلها في كدر ووجوم، يتوقعون من تلك الحال سوء المصير، وكان ذلك في
آخر سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) (١) .

والواقع أن كل شيء كان ينذر بوقوع النكبة المرتقبة.

ذلك أن ألفونسو
السادس ملك قشتالة كان يدبر خطته الكبرى للاستيلاء على طليطلة، وكانت وهى
في يد ملكها الضعيف المتخاذل، تبدو له ثمرة دانية القطوف، بعد أن غدا القادر
في يده شبه أسيره.
وتقول لنا الروايات القشتالية إن القادركان حينما طلب من
ألفونسو معاونته على استرداد المدينة، قد تعهد له بأن يحكمها باسمه، وأن يسلمها
إليه متى شاء، على أن يعاونه على استرداد بلنسية لتكون مقر إمارته.
بيد أن
الحوادث التالية، وموقف القادر في الدفاع عن مدينته، يجعلنا نشك في أنه قطع مثل هذا العهد.
وعلى أى حال فإن سقوط طليطلة في يد القشتاليين، لم
يحدث بدون ممهدات ووقائع عنيفة.
وكان ألفونسو إلى جانب خططه العسكرية، قد مهد لمشروعه بأعمال السياسة.
وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، لما رأى من استفحال قوة ألفونسو، وتغلبه
على سائر ممالك الطوائف المتاخمة لمملكته، قد خشى أن ينساب تيار الغزو إلى
أراضيه، ورأى أن عقد المهادنة والصلح مع ملك قشتالة، هو خير ضمان لاتقاء
شره، وسلامة مملكته.
فبعث وزيره البارع ابن عمار إلى ليون ليفاوض ملك
قشتالة، وانتهى ابن عمار إلى أن عقد معه معاهدة، يتعهد فيها ملك قشتالة

بأن
يعاون ابن عباد بالجند المرتزقة ضد سائر أعدائه من الأمراء المسلمين،
ويتعهد
ابن عباد مقابل ذلك، بأن يؤدى إلى ملك قشتالة جزية كبيرة، ويتعهد بالأخص بما هو أهم، وهو أن يتركه حراً طليقاً في أعماله ضد طليطلة، وألا يعترض مشروعه في الاستيلاء عليها.
وربما كان في الرسالة التي بعث بها المعتمد فيما بعد إلى

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٤ - ١٢٧.

*(١٠٩/٢)*

ألفونسو السادس ما يؤيد هذه الرواية، حيث يعرب المعتمد عن ندمه لمسالمة
ملك
قشتالة.
وقعوده عن نصرة إخوانه.
وتزيد الروايات القشتالية على ذلك أن المعتمد
ابن عباد قدم في هذه المناسبة أو في مناسبة لاحقة، إحدى بناته لتكون زوجة أو حظية لملك قشتالة، وهى التي تعرفها التواريخ القشتالية "بزائدة" وذلك لكى يكون مهرها ما استولى عليه من أراضي طليطلة، حتى لا ينزع النصارى منه هذه الأراضي، وهى قصة سوف نتناولها في موضعها، عند الكلام على الفتح المرابطي لمملكة إشبيلية.
وفى هذا الوقت كان معظم ملوك الطوائف، قد خضعوا لوعيد ملك قشتالة، وتعهدوا بأن يؤدوا له الجزية، إلا ملك بطليوس الشهم عمر المتوكل، حسبما ذكرنا ذلك في موضعه، فكان ألفونسو السادس بذلك على يقين من أن الجو
قد
أضحى ممهداً لتنفيذ مشروعه، وأنه لن يجرأ أحد أن يقف في طريقه.

وكان
مما يقوى أمله أن أهل طليطلة، لم يكونوا على وفاق فيما بين أنفسهم، وأن حزباً
قوياً منهم يناصر سياسته وأطماعه، ويشجعه على العمل، وكانت الغزوات والحملات المتوالية، التي شنها ألفونسو على أراضي طليطلة، حتى ذلك الحين، سواء لحسابه الخاص، أو بحجة معاونة القادر ضد الثوار عليه، قد نالت من هاتيك
السهول، وخربت كثيراًَ من ربوعها النضرة، وأشاعت فيها الضيق والحاجة، وأخذت العاصمة طليطلة، تتأثر بهذا الضغط على مواردها، بيد أن ألفونسو كان
يزمع أن يستمر في حملاته المخربة حتى يتم تجريد المدينة العظمى من سائر مواردها، وقد بدأت هذه الحملات الجديدة منذ سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) ، أى مذ عاد القادر
إلى عرشه، واستمرت أربع سنوات كاملة، وكانت تنظم بتواطىء الحزب الموالى
من أهل طليطلة، وهو الحزب الذى تصفه الرواية القشتالية بالحزب " المدجّنى "
أى الموالى لملك النصارى، وفي كل عام يجتاح ألفونسو بقواته أراضي طليطلة من
سائر جنباتها، ويخرب الضياع، ويقطع الأشجار، ويبيد الزروع، ويسبى الذرية، ولا يجد أمامه من يرده عن ذلك العيث.
وكان من الواضح أن هذه
الأعمال المدمرة، سوف تنتهى بالقضاء على كل موارد طليطلة، وبتجريدها من
وسائل الدفاع، وهو ما كان يرمى إليه ملك النصارى.

وكان موقف ملوك الطوائف في تلك الآونة العصيبة من حياة اسبانيا المسلمة،

(٢/١١٠)

موقفاً يثير الألم والحسرة معاً.
فقد كان أعظمهم وأقواهم المعتمد بن عباد، بعد
أن تفاهم مع ألفونسو السادس، على تركه وشأنه في مشاريعه نحو طليطلة، مشغولا
بمحاربة عبد الله بن بلقِّين بن باديس صاحب غرناطة.
وكان المقتدر بن هود
أقوى الأمراء المتاخمين لمملكة طليطلة من ناحية الشمال والشرق، مشغولا بنضاله
المستمر ضد هجمات ملك أراجون وأمراء برشلونة.
وكانت دول الطوائف
الشرقية والجنوبية، بعيدة عن ميدان الخطر، لا تستطيع حتى إذا شاءت، لبعد
الشقة، أن تقوم بإنجاد طليطلة بصورة ناجعة.
وهكذا عدمت طليطلة كل مصدر
للعون الحقيقى، كل ذلك والموقف يتحرج، وألفونسو السادس ماض في غزواته
المدمرة، حتى أضحت سهول طليطلة كلها خراباً يباباً.
ولم يكن يخفى على عقلاء
المسلمين أن الموقف عصيب، وأن سقوط طليطلة إحدى قواعد الأندلس العظمى
في يد قشتالة، إنما هو نذير السقوط النهائى، وأن انهيار الحجر الأول في صرح
الدولة الإسلامية، إنما هو بداية انهيار الصرح كله، فبادر جماعة منهم إلى الحث

على الاتحاد واجتماع الكلمة إزاء الخطر المشترك، ونهض القاضى العلامة

أبو الوليد

الباجى، بإشارة المتوكل بن الأفطس، حسبما تقدم، فطاف بالولايات والقواعد الأندلسية صائحاً منذراً، محذراً من عواقب التفرق، وهو يهيب بملوك الطوائف وشعوبها، أن يبادروا إلى نجدة طليطلة، مؤكداً أن ملك قشتالة سوف يسحق دول الطوائف كلها، واحدة بعد الأخرى.

ولكن جهود أولئك الرسل العقلاء

الذين كانوا يستشقون ببصرهم الثاقب، ما يضمره المستقبل من ويل، ذهبت كلها سدى، وغلبت الأطماع والأهواء الشخصية، على كل تفكير سليم ومبدأ حكيم، ولبث ملك إشبيلية وهو أولى وأقرب من تقع عليه تبعة الإنجاد، يشهد تفاقم الخطب جامداً معرضاً، وكل همه أن يحتفظ بما انتزعه من أراضي مملكة

طليطلة الجنوبية، ولم يتقدم لإنجاد القادر وإنجاد أهل طليطلة، سوى أمير بطليوس الشهم عمر المتوكل بن الأفطس، فقد نزل إلى ميدان النضال ضد ألفونسو

السادس، وحاول مدافعته، فبعث ولده الفضل والى ماردة في جيش قوى، ليحاول رد ألفونسو عن طليطلة.

ولكنه لم يستطع مغالبة قوى النصارى المتفوقة

عليه في العدد والعدة، فارتد آسفاً بعد أن خاض معارك دامية.

وكان المتوكل

قد بذل مثل هذه المحاولة قبل ذلك ببضعة أعوام في سنة ٤٧١ هـ، وتغلب عليه

*(٢/١١١)*

أيضاً ألفونسو السادس، وانتزع منه مدينة قورية من أملاكه الشمالية المجاورة لأراضي طليطلة.

وهكذا تركت المدينة المنكوبة لمصيرها.
وفى خريف سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٤ م)
اقترب ألفونسو السادس بقواته من المدينة، ونزل بالمنية المسورة الواقعة فى منحنى نهر التاجُه، وهى المنية الشهيرة التي كان المأمون بن ذى النون قد زودها
بالقصور الفخمة والبساتين اليانعة، وجعل منها جنة يخلد إليها أيام أنسه ولهوه، وهى التي تعرفها الرواية القشتالية ببستان الملك Huerta del Rey.
ويقول ابن بسام
في وصفها " المنية المسورة، التي كان المأمون يحشد إليها كل حسن، ويباهى بها
جنة عدن " (١) .
وضرب ألفونسو الحصار حول طليطلة.
ثم دخل الشتاء.
وشحت
الأقوات، واشتد الأمر بأهل المدينة.
وكان موقف القادر بن ذى النون
مريباً، ولم يكن دون شك متفقاً في الشعور مع الحزب المناوىء لملك قشتالة المتشدد في مقاومته، وكان جماعة من هؤلاء يعملون بكل ما وسعوا لإطالة أمد
المقاومة، عسى أن يمل ملك قشتالة ويخبو عزمه، أو أن يتقدم لإنجادهم أحد.
وكان الأمر يشتد بالمدينة المحصورة يوماً عن يوم، حتى تحرج الموقف واضطر
الزعماء والقادة بالاتفاق مع القادر أن يرسلوا إلى ملك قشتالة وفداً للتحدث فى أمر الصلح، فأبى أن يستقبلهم، واستقبلهم وزيره سسنندو (ششنند) .
وكان هذا

الوزير في الأصل من النصارى المستعربين، أسر حدثاً وربى في بلاط
إشبيلية، وظهر أيام المعتضد بن عباد، وسفر بينه وبين فرناندو ملك قشتالة،
ثم نزح إلى
جلِّيقية، وخدم فرناندو، ثم من بعده ولده ألفونسو، وكان داهية ذا براعة
فائقة، فانتهى بأن وطد صولة ألفونسو لدى معظم ملوك الطوائف، والتزموا
بأداء الجزية.
فلما قصد إليه وفد طليطلة استمع إليهم، وأبدى أنه لا فائدة من
المفاوضة، وأنه لا أمل بأن يتزحزح الملك النصرانى عن موقفه قيد شعرة،
وأنه
لابد من تسليم المدينة.
ويقول لنا ابن بسام في هذه المناسبة إن سسنندو أدخل
زعماء طليطلة لدى مليكه، وأن ألفونسو حين أفضوا إليه أنهم ينتظرون العون
والإنجاد من بعض ملوك الطوائف، أنبهم وسخر منهم، واستدعى من خيامه

---

(١) ابن بسام في الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٨.
ويقوم اليوم مكانها حصن
سان سرفاندو San Servando



سفراء ملوك الطوائف، وقد كانوا جميعاً يومئذ لديه يسعون إلى خطب وده،
ويقدمون إليه الأموال، وأن زعماء طليطلة خرجوا من لدنه، يتعثرون فى
أذيالهم، وقد فقدوا كل أمل وأيقنوا بسوء المصير (١) .
وكان قد مضى على حصار القشتاليين للمدينة يومئذ زهاء تسعة أشهر، وقد
تفاقم الخطب، وبلغت الشدة بالمحصورين أقصاها، وتحطمت كل محاولة لعقد
الصلح مع ملك قشتالة، سواء من جانب القادر للاعتراف بطاعته والحكم
باسمه، أو من جانب زعماء المدينة، ولم تجد صلابة أولئك الذين تمسكوا

بالمقاومة والدفاع
حتى الموت شيئاً، وغلب صوت العامة الذين أضناهم الجوع والحرمان.
ولم
تمض ثلاثة أيام على تلك المقابلة، حتى عرضت المدينة التسليم لملك
قشتالة.
ويلخص
الأب ماريانا، وهو من أقدم المؤرخين الذين كتبوا عن سقوط طليطلة شروط
التسليم فيما يلى: " أن يسلم القصر وأبواب المدينة والقناطر وحديقة الملك
(وقد
كانت حديقة نضرة غناء على ضفة التاجه) إلى الملك ألونسو (ألفونسو) ،
وأن
يذهب الملك المسلم حراً إلى مدينة بلنسية وفقاً لرغبته، وأن يسمح بالحرية
لمن شاء
أن يتبعه من المسلمين، وأن يأخذوا معهم أموالهم.
وأما الذين يقيمون في المدينة، فلا تؤخذ منهم أمتعتهم ولا أملاكهم، وأن يبقى
المسجد الجامع بأيدى المسلمين
يقيمون فيه شعائرهم، وألا تفرض عليهم ضرائب أكثر مما كانوا يدفعونه
لملوكهم، وأن تجرى عليهم أحكام شريعتهم، وعلى يد قضاتهم المسلمين دون
غيرهم، وأن
يقسم الطرفان كل وفق تقاليده على احترام هذه العهود، وأخيراً أن يقدم أهل
المدينة لفيفاً من أعيانهم كرهائن ".
على أن هذا النص الذى يقدمه ماريانا ينقصه
شيء من الدقة في بعض تفاصيله.
والمتفق عليه، أن شروط تسليم طليطلة قد
صيغت على النحو الآتى: أن يؤمن أهل المدينة في النفس والمال، وأن
يغادرها

من شاء منهم حاملين أموالهم، وأن يسمح لمن عاد منهم باسترداد أملاكهم، وأن
يؤدى المقيمون بها إلى ملك قشتالة ما كانوا يؤدونه لملوكهم من الضرائب والمكوس
وأن يحتفظ المسلمون إلى الأبد بمسجدهم الجامع، وأن يتمتعوا أحراراً بإقامة شعائرهم
وأن يحتفظوا بقضاتهم وشريعتهم، وأن يسلموا إلى ملك قشتالة سائر القلاع

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ و ١٣٠.

(١١٣/٢)

والحصون والقصر الملكى، والمنية المسورة التي كان ينزل بها ملكهم. وأما بالنسبة
للقادر فقد تكفل ملك قشتالة بأن يمكنه من الاستيلاء على بلنسية، وقيل بل عرض
عليه أيضاً أن يحصل له على دانية وشنتمرية الشرق، إذ كان يعرف جيداً أنها إذا
خلصت للقادر، فستكون في الواقع ملكاً له ورهن تصرفه، وأن القواعد الشرقية
كلها سوف تخضع له عن طريق ملكها الإسمى الضعيف، أعنى القادر (١) .

تلك هى الشروط التي اتفق عليها لتسليم طليطلة، وتظاهر ملك قشتالة
بقبولها، وتعهد باحترامها وعدم النكث بها.
وكان ذلك في اليوم السادس من شهر مايو
سنة ١٠٨٥ م.
ومضى على ذلك زهاء أسبوعين آخرين، كان يستعد خلالهما
القادر لتهيئة أسباب الرحيل، وإخلاء المدينة.

وفى يوم الأحد الخامس والعشرين
من مايو (فاتحة شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ) دخل ألفونسو السادس مدينة
طليطلة
ظافراً، ونزل في الحال بقصرها المشهور، وهو الذى كان ينزل به أيام محنته
في ضيافة المأمون، وعهد بحكم المدينة إلى سسنندو، فسلك مع أهلها مسلك
المودة
واللين، وبذل جهده ليخفف عنهم وقع هذا التبديل في مصايرهم، فاستمال
قلوب الكثيرين منهم، وأقبل بعض العامة على التنصر، ونصح سسنندو إلى
مليكه
أن يلتزم الاعتدال والروية في معاملة المدينة المفتوحة، وأن يقف مؤقتاً عند
هذا
الحد، وألا يلح على ملوك الطوائف خوفاً من أن تنقلب الآية، فيتجهوا
بأبصارهم إلى وجهة أخرى (٢) .
واستتبع استيلاء ألفونسو على طليطلة استيلاؤه على سائر أراضي مملكة
طليطلة، الباقية بعد الذى استولى عليه منها ابن عباد صاحب إشبيلية، أعنى
قسمها الواقع
شمال نهر التاجه من طلبيرة غرباً حتى وادي الحجارة وشنتبرية شرقاً، وهى
تتضمن ثمانين موضعاً بها مساجد، هذا عدا القرى والضياع (٣) .
أما الملك المنكود يحيى القادر بن ذى النون، فقد غادر طليطلة بأهله
وأمواله، ومعه جماعة كبيرة من الكبراء والأشراف الذين آثروا مغادرة المدينة
المفتوحة

---

(١) Mariana: Historia General de Espana (Cap.
١٦) ، وكذلك:
R.
Menendez Pidal: La Espana del Cid (Madrid 1947) p.

٣٠٦
(٣) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣١.
(٣) كتاب الإكتفاء للخزرجى، ونقله دوزى في: Hist.
Abbadidarum V.
II.
p.
٢٩

(٢/١١٤)

قاصداً إلى بلنسية، واستقر أياماً بمحلة ملك قشتالة واضعاً نفسه تحت حمايته، وكان ملك قشتالة قد وعده بأنه إذا تعذر تحقيق غايته في الحصول على بلنسية
بطريقة سلمية، فإنه سوف يبعث لمعاونته قائده الشهير ألبرهانيس.
وقد ظهر
للقادر بالفعل، خلال مسيره من موقف الحصون المختلفة، أنها جميعاً تقف ضده
ولم يبق على ولائه منها سوى حصن قونقة، فنزل به القادر وصحبه، حتى تتهيأ له
ظروف العمل.
وسوف نعود إلى تتبع أخباره فيما بعد.
ويصف لنا ابن بسام خروج القادر من طليطلة في تلك العبارات اللاذعة:
" وخرج ابن ذى النون خائباً مما تمناه، شرقاً بعقبى ما جناه، والأرض تضج من
مقامه وتستأذن في انتقامه، والسماء تود لو لم تُطلع نجماً إلا كدرته عليه حتفاً
مبيداً، ولم تنشىء عارضاً، إلا مطرته فيه عذاباً شديداً، واستقر بمحلة أذفنش، مخفور

الذمة، مذال الحرمة، ليس دونه باب، ولا دونه حرمه ستر ولا حجاب " (١) .
ويبدى ابن الخطيب شماتته في القادر وفي أهل طليطلة حين يقول: "
واقتضاه
الطاغية الوعد، وسلبه الله النصر والسعد.
وهلكت الذمم، واستؤصلت الرمم، ونفذ عقاب الله في أهلها جاحدى الحقوق،
ومتعودى العقوق، ومقيمى
أسواق الشقاق والنفاق، والمثل السائر في الآفاق " (٢) .
***

وهكذا سقطت الحاضرة الأندلسية الكبرى، وخرجت من قبضة الإسلام
إلى الأبد، وارتدت إلى النصرانية حظيرتها القديمة، بعد أن حكمها الإسلام
ثلاثمائة وسبعين عاماً.
ومن ذلك الحين تغدو طليطلة حاضرة لمملكة قشتالة، ويغدو " قصرها " منزلا
للبلاط القشتالى، بعد أن كان منزلا للولاة المسلمين.
وقد كانت بمنعتها المأثورة، وموقعها الدفاعى الفذ، في منحنى نهر التاجه،
حصن الأندلس الشمالى، وسدها المنيع الذى يرد عنها عادية النصرانية،
فجاء
سقوطها ضربة شديدة لمنعة الأندلس وسلامتها.
وانقلب ميزان القوى القديم، فبدأت قوى الإسلام تفقد تفوقها في شبه الجزيرة،
بعد أن استطاعت أن تحافظ

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣٠.
(٢) أعمال الأعلام ص ١٨١.



عليه زهاء أربعة قرون، وأضحى تفوق القوى النصرانية أمراً لا شك فيه.
ومن

ذلك الحين تدخل سياسة الإسترداد الإسبانية " لاريكونكستا La Reconquista "
في طور جديد قوى، وتتقاطر الجيش القشتالية لأول مرة، منذ الفتح
الإسلامى، عبر نهر التاجه، إلى أراضي الأندلس، تحمل إليها أعلام الدمار والموت، وتقتطع
أشلاءها تباعاً، في سلسلة لا تنقطع من الغزوات والحروب.
وكان لظفر ألفونسو السادس بالاستيلاء على طليطلة، فضلا عن آثاره المادية
الخطيرة، وقع أدبى عميق في سائر ممالك اسبانيا النصرانية، فقد كانت طليطلة
عاصمة المملكة القوطية القديمة، وكانت إلى جانب ذلك حاضرة اسبانيا
الدينية، وقد وطد استيلاء ملك قشتالة عليها، مركز الصدارة الذى يتمتع به بين زملائه ملوك
اسبانيا النصرانية، ووطد هيبة الملوكية والإمبراطورية، فأضحوا جميعاً يقرون له
بلقب الإمبراطور، الذى اتخذه لنفسه.
ومن جهة أخرى، فقد كان لتلك النكبة
التي حلت بالإسلام في اسبانيا، أعظم وقع في جنبات الأندلس، وفي سائر
أنحاء العالم الإسلامى، وقد ارتاع لها ملوك الطوائف جميعاً، وأدركوا بعد فوات
الوقت، أنها نذير بالقضاء عليهم واحداً بعد الآخر، وأدرك المعتمد بن عباد
بالأخص، وهو أشد ملوك الطوائف مسئولية عما حدث، أنه لن يمضى وقت
طويل حتى يواجه نفس الخطر الداهم.
بيد أن النكبة كانت في نفس الوقت نقطة
تحول عظيم في تفكير أولئك الأمراء المتخاصمين المتنابذين، ملوك
الطوائف، وفي روحهم، فجنحوا جميعاً ولأول مرة إلى اجتماع الكلمة، ونبذ
الشقاق، واتجهوا بأنظارهم جميعاً، إلى ما وراء البحر يلتمسون غوث إخوانهم

في الدين، إلى أولئك البربر المرابطين، الذين كان لتدخلهم في سير الحوادث بالأندلس، أعظم الآثار (١) .

وأذكى رزء الأندلس بفقد طليطلة، فجيعة الشعر الأندلسي، ونظمت في بكائها القصائد الرائعة.

وكان من أشهرها هذه القصيدة الرائية الكبرى، التي مطلعها:

---

(١) راجع في حوادث سقوط طليطلة: الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٧ -

١٣٢، وأعمال الأعلام ص ١٨١، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٢

و٥٢٣، وراجع أيضاً R.

Menendez Pidal: La Espana del Cid p.

٣٠٣ - ٣٠٧، ودوزى

Hist.

des Musulmans de l'Espagne, V.

III.

p.

١٢٠ et suiv.

وكذلك: P.

y Vives

Los Reyes des Taifas p.

٥٤ & ٥٦

(٢/١١٦)

خريطة:

دول الطوائف

والممالك الإسبانية النصرانيّة
عقب سقوط طليطلة
٤٧٨ هـ: ١٠٨٥ م.

(٢/١١٧)

لثكلك كيف تبتسم الثغور..
.
سرورا بعدما يئست ثغور
أما وأبى مصاب هد منه..
.
ثبير الدين فاتصل الثبور
ومنها:
طليطلة أباح الكفر منها..
.
حماها إن ذا نبأ كبير
فليس مثالها إيوان كسرى..
.
ولا منها الخورنق والسدير
محصنة محسنة بعيد..
.
تناولها ومطلبها عسير
ألم تك للدين صعباً..
.
فذلله كما شاء القدير
وأخرج أهلها منها جميعاً..
.

فصاروا حيث شاء بهم مصير
وكانت دار إيمان وعلم..
.
معالمها التي طمست تنير
مساجدها كنائس أى قلب..
.
على هذا يقر ولا يطير
فيا أسفاه يا أسفاه حزناً..
.
يكرر ما تكررت الدهور
ومنها:
كفى حزناً بأن الناس قالوا..
.
إلى أين التحول والمسير
أنترك دورنا ونفر عنها..
.
وليس لنا وراء البحر دور
ولا ثم الضياع تروق حسناً..
.
نباكرها فيعجبنا البكور
لقد ذهب اليقين فلا يقين..
.
وغر القوم بالله الغرور
فلا دين ولا دنيا ولكن..
.
غرور بالمعيشة ما غرور

رضوا بالرق ياالله ماذا..

.

رآه وما أشار به مشير

مضى الإسلام فابك دماً عليه..

.

فما ينفى الجوى الدمع الغزير

ونح واندب رفاقاً في فلاة..

.

حيارى لا تحط ولا تسير

ولا تجنح إلى سلم وحارب..

.

عسى أن يجبر العظم الكسير (١) .

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٣ وما بعدها حيث يورد القصيدة بأكملها، وهى في أكثر من سبعين بيتاً.

(١١٨/٢)

الكِتابُ الثاني

الدّول البربريَّة

في جنوبيِّ الأندلس

(١١٩/٢)

الفصل الأوّل

دولة بني مناد البربرية

في غرناطة ومالقة

البربر ونصيبهم من أنقاض الخلافة.

بنو مناد.
الخلاف بين باديس المنصور وقومه.
هجرة
زاوى بن زيرى إلى الأندلس.
انضواؤهم تحت لواء المنصور.
اشتراك البربر في معركة الخلافة.
محاصرتهم لقرطبة وظفر مرشحهم سليمان بالخلافة.
تفريق سليمان لهم.
نزول زاوى وقومه بالبيرة.
إنشاء مدينة غرناطة ونزولهم بها.
الحرب بين المرتضى وصنهاجة.
هزيمة أهل الأندلس ومصرع المرتضى.
توجس زيرى من البقاء في الأندلس.
رحيله إلى إفريقية.
استيلاء حبوس بن ماكسن على غرناطة.
حكمه وصفاته.
ولده باديس يخلفه.
ائتمار ابن عمه يدير به.
فشل المؤامرة.
الخلاف بين باديس
وزهير العامرى.
مسير زهير إلى غرناطة.
الحرب بينه وبين باديس.
هزيمته ومصرعه.
مصرع
وزيره ابن عباس.

استيلاء باديس على جيان.
الحرب بين باديس وابن عباد.
تدخل باديس في شئون
مالقة ثم استيلاؤه عليها.
مهاجمة ابن عباد لمالقة وفشله.
استيلاؤه على أركش.
الوزير اسماعيل بن
نغرالة اليهودى.
صفاته وكفاياته.
ولده يوسف.
بغض بلقين ولد باديس له وسعيه إلى إسقاطه.
يوسف يدبر مصرعه بالسم.
الخصومة بين يوسف والناية.
تغير باديس على يوسف.
اتجاه يوسف
إلى ابن صمادح.
سخط صنهاجة على يوسف وسعيهم إلى إسقاطه.
سخط أهل غرناطة على اليهود.
قصيدة الإلبيرى في التحريض على اليهود.
افتضاح مؤامرة يوسف ومصرعه.
مذبحة اليهود فى
غرناطة.
استرداد باديس لوادي آش.
حوادث جيان.
تولى الناية الوزارة.
إئتمار الوزراء به

ومصرعه.
وفاة باديس.
أعماله ومنشآته.
عمله لتوطيد زعامة البربر.
النزعة العنصرية بين البربر
وأهل الأندلس.
صفات باديس وخلاله.
ولاية حفيده عبد الله بن بلقين.
استيلاء ابن عباد على جيان.
إغارته على غرناطة ورده.
تحالف عبد الله مع ألفونسو السادس.
اتفاق ابن عباد وألفونسو على فتح
غرناطة.
فشل المحاولة.
تعهد عبد الله بتأدية الجزية لألفونسو.
عبد الله والشئون الداخلية.
الخلاف
بين عبد الله وأخيه تميم صاحب مالقة.
الصلح بين عبد الله وابن عباد.
سقوط طليطلة وتأثيره.
اتفاق عبد الله مع ملوك الطوائف على استدعاء المرابطين.
حملة ابن الخطيب على عبد الله.

كان انهيار الخلافة الأموية، والسلطة المركزية، وما اقترن بذلك من الفوضى الغامرة، فرصة سانحة لظهور الزعامات البربرية، في ميدان النفوذ والسلطان.

وقد ظهر البربر في الواقع، منذ أيام المنصور بن أبي عامر، واحتلوا

مراكز الصدارة في الجيوش الأندلسية، واتخذهم المنصور له عضداً وسنداً، وآزر المنصور القبائل الموالية في المغرب لبنى أمية، ضد أولياء الدعوة الفاطمية،

(١٢٠/٢)

وشد أزرهم بالمال والجند، واستطاع أن يجعل من المغرب ولاية أندلسية. فلما
انهار صرح الخلافة الأموية، بعد انهيار صرح الدولة العامرية، وتواثب الزعماء
والخوارج الطامحون، إلى انتزاع أشلائها، واقتسام سلطانها، استطاع الزعماء البربر أن يظفروا من ذلك بنصيب وافر.
فقامت منهم دولة بني حمود في جنوبى
الأندلس، وأنشأت خلافة جديدة، أحياناً في قرطبة، وأحياناً في إشبيلية ومالقة، وقامت خلالها ومن بعدها، عدة دول بربرية محلية، في غرناطة، وفي رندة، وفي مورور وشذونة، وفي قرمونة، وقامت دولة بني ذى النون في طليطلة، وحيناً في شرقى الأندلس، وقامت كذلك دولة بربرية صغيرة في أرض السهلة في شنتمرية الشرق، وإذا نحن اعتبرنا دولة بني الأفطس في بَطَلْيوس من الدول
البربرية، وإنها لكذلك على أرجح الآراء، استطعنا أن نقدر المدى العظيم، الذى وصل إليه سلطان القبائل البربرية بالأندلس في عصر الطوائف.
وقد أتينا فيما تقدم على أخبار دولة بني حمود، وأخبار الدويلات البربربة، التي قامت في المنطقة الوسطى والجنوبية، على أنقاض دولة بني حمود، وبينا
كيف استطاع المعتضد بن عباد، أن يقضى على هذه الدويلات واحدة بعد الأخرى، وأن يضمها جميعاً إلى مملكة إشبيلية الكبرى.
وبقى علينا أن نتناول فى

هذا الفصل، أخبار دولة بني مناد في غرناطة، وقد كانت بعد دولة بني حمود، أقوى الدول البربرية في الجنوب.

- ١ -

إن بني مناد يرجعون في الأصل إلى قبيلة صَنهاجة البربرية الشهيرة، وهى بطن من بطون قبيلة البرانس الكبرى، وكان منزلهم بأواسط المغرب.
فلما غلب
العبيديون (الفاطميون) على إفريقية، وقامت دولتهم بها، انحاز بني مناد إليهم، وحاربوا إلى جانبهم الخوارج عليهم.
وكان زعيمهم زيرى بن مناد من أعظم
أمراء البربر، وقد حارب قبائل المغرب المخالفة للعبيديين مع جوهر قائدهم، وقتل في بعض المعارك، فخلفه ولده بُلُكِّين.
ولما سار المعز لدين الله في سنة ٣٦٢ هـ
إلى مصر، بعد افتتاحها على يد جوهر، اختار بلكين لولاية إفريقية، ثم خلفه على ولايتها ولده المنصور، ثم خلف المنصور ولده باديس.
وفى خلال ذلك، كانت المعارك تضطرم في ربوع المغرب باستمرار، بين أمراء صنهاجة هؤلاء،

(١٢١/٢)

وبين خصومهم من أمراء زناتة وغيرها، من القبائل الموالية لبنى أمية خلفاء قرطبة.
وقد تتبعنا فيما تقدم أدوار تلك المعركة، التي نشبت في المغرب، بين الدعوة الفاطمية، وبين الخلافة الأندلسية، منذ أيام الناصر لدين الله، واستعر لظاها بالأخص أيام الحكم المستنصر، ثم المنصور بن أبي عامر، وكانت صنهاجة
تحمل دائما، وعلى يد بني مناد ولاة إفريقية، علم الدعوة الفاطمية، وتحمل زناتة

وحلفاؤها علم الخلافة الأندلسية.
وقد انتهت هذه المعركة أيام المنصور، حسبما
رأينا، إلى هزيمة صنهاجة، وتوطيد سلطان الدعوة المروانية بالمغرب.
وقد حدث أيام ولاية باديس بن المنصور على إفريقية، حادث كان له فيما بعد أكبر صدى، في حوادث الأندلس.
ذلك أن باديس استبد بقومه آل مناد، ووقعت بينه وبين أعمامه وأعمام أبيه، فتن ومعارك، قتل في أثنائها، عم أبيه
ماكسن بن زيرى بن مناد، فاستوحش الباقون من عاديته، وعولوا على مغادرة إفريقية، وكتب شيخهم زاوى بن زيرى إلى المنصور بن أبي عامر، يستأذنه الجواز بقومه إلى الأندلس، للجهاد في سبيل الله، فأذن لهم، وعبر زاوى ابن زيرى ومعه أبناء أخيه ماكسن المقتول، حُباسة وحَبُّوس وماكْسَن في أهلهم
وأموالهم إلى الأندلس سنة ٣٩١ هـ، فأكرمهم المنصور وأنزلهم منزلا حسناً (١) ، واتخذهم له بطانة وعوناً، ونظمهم مع زناتة، وسائر بطون البربر الأخرى، وقويت شوكتهم في أواخر أيام المنصور، ثم في أيام ولديه عبد الملك، وعبد الرحمن، ورجحت كفتهم في الجيش، وغدوا للدولة عضداً.
وقد كان
إذن المنصور لزيرى وقومه، وهم من صنهاجة ألد خصوم الدعوة المروانية والدولة العامرية، بالجواز إلى الأندلس، عملا من أعمال السياسة المستنيرة، وكان غنماً مادياً وأدبياً للدولة العامرية.

---

(١) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧، وابن خلدون في كتاب العبر ج ٦
ص ١٥٧ و ١٥٨ و ١٥٩.
ولكن هناك رواية أخرى تقول إن زاوى وقومه وفدوا على عبد الملك المظفر بن المنصور، وأنه هو الذى أذن لهم بالجواز.

وهذه هى رواية ابن حيان التي أوردها صاحب
الذخيرة (المجلد الأول القسم الرابع ص ٦١) ، ويتابعه فيها صاحب البيان
المغرب (ج ٣ ص ٢٦٣)
وكذلك ابن الخطيب في الإحاطة (القاهرة) ج ١ ص ٤٤٠ و ٥٢١.
وقد أخذنا نحن بالرواية
الأولى، أولا لأنها رواية عبد الله بن بلكين، وهو حفيد ماكسن أخى زاوى،
وأدرى بتاريخ
أسرته، وثانياً لأن ابن خلدون، وهو حجتنا الأولى في تاريخ البربر، يأخذ بها،
ويحدد لنا سنة
الجواز في سنة ٣٩١ هـ، أعنى قبل وفاة المنصور بنحو عامين.

*(١٢٢/٢)*

بيد أن الدولة العامرية لم تعمر طويلا، فكان السقوط، وكان انهيار السلطة
المركزية، وبداية عهد الفتنة والفوضى، وقام محمد بن هشام الملقب بالمهدى،
باغتصاب الخلافة من هشام المؤيد سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) .
ومن ذلك الحين
يأخذ البربر بقسط بارز في تلك المعركة المضطرمة المشعبة، التي تدور
حول
عرش الخلافة.
وكان أول باعث لإقحام البربر في تلك المعارك، ما خصهم به
المهدى من الاضطهاد وسوء المعاملة، ثم تحريض عامة قرطبة على
مطاردتهم، والتف البربر عندئذ حول سليمان بن الحكم خصم المهدى
ومنافسه، وتوالت
الخطوب والمعارك، وفتك أهل قرطبة خلال ذلك بحباسة بن ماكسن ابن أخى
زاوى، فازدادوا نقمة واضطراماً، وحاصر البربر قرطبة، وفتكوا بأهلها، ثم
دخلوها في مناظر مروعة من العيث والسفك، وانتهى الأمر بجلوس مرشحهم

سليمان على عرش الخلافة، وتلقب بالمستعين، وذلك في شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو سنة ١٠١٣ م) ، وقبض البربر، وهم الذين عاونوه ونصروه، على سائر السلطات في القصر وفي الحكومة.

وعندئذ رأى سليمان المستعين، أن يعمل على تفريق البربر في الكور والثغور، إرضاء لهم من جهة، وتفريقاً لشملهم وإبعاداً لهم عن قرطبة، من جهة أخرى، فأقطع قبيلة صنهاجة وزعماءها بني زيرى بن مناد ولاية إلبيرة (غرناطة) ، وأقطع بني برزال وبنى يفرن ولاية جيَّان، وبنى دمّر وإزداجة منطقة مورور وشذونة، وأقطع آل حمود الأدارسة ثغور المغرب، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل في مواضعه، في أخبار سقوط الخلافة الأندلسية (١) .

ويقول لنا الأمير عبد الله بن بلكين في مذكراته، إن صنهاجة حينما رأت تفكك

الدولة، واستقلال كل أمير ببلده، اعتزموا الرحيل عن الأندلس، ولكن أهل إلبيرة، وقد كانت ولايتهم تتمتع بسعة الرقعة والخصب والنماء، ولم يكن لهم من يدافع عنهم، لجأوا إلى زاوى بن زيرى، ودعوه وقومه إلى الإقامة بأرضهم ومشاركتهم في خيراتهم ونعائمهم، والدفاع عنهم، وقبل زيرى وقومه دعوتهم، واستبشروا بالنزول في تلك الأرض، وطابت لهم ربوعها، وأجمعوا على الدفاع عنها.

---

(١) راجع الفصل الأول من الكتاب الرابع من " دولة الإسلام في الأندلس ".

*(١٢٣/٢)*

وأنهم بعد أن نزلوا بأرض إلبيرة، رأوا أنها بموقعها لا تصلح للدفاع، واتفق رأيهم على أن يبتنوا في البسيط الواقع على مقربة منها، في وادي شَنيل المنحدر من جبل شُلَّير (١) ، وهو البسيط الذى يحجبه الجبل، مدينة جديدة ينزلون

بها، وتكون معقلهم، فشرعوا في بنيانها.

وهكذا قامت مدينة غَرناطة، وكان
قيامها نذيراً بخراب إلبيرة، فعفت منازلها بسرعة، وأسبل عليها النسيان ذيله، وأخذت غرناطة تنمو بسرعة وتحتل مكانها (٢) .
استقر بنو مناد إذاً في كورة غرناطة، لكنهم لم يكونوا بمعزل عن حوادث قرطبة.
ذلك أن علياً بن حمود الإدريسى، لما استولى على عرش الخلافة فى
المحرم سنة ٤٠٧ هـ (يوليه ١٠١٦ م) ، وقتل سليمان آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس، نهض خيران العامرى، فأعلن الخلاف، وأعاد الدعوة لبنى أمية فى شخص عبد الرحمن بن محمد من أحفاد الناصر، ولقبه بالمرتضى، وانضم إليه فى
تلك الحركة منذر بن يحيى التجيبى أمير الثغر، وعدة من ولاة شرقى
الأندلس، وسار في جموع كبيرة لمقاتلة الحمّودبين، ولكنه عرج في جموعه أولا على غرناطة
لمقاتلة جيش صَنهاجة القوى، فلقيه أميرها زاوى بن زيرى في قواته، ونشبت بينهما معركة شديدة استمرت أياماً، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس وتمزيق جموعهم، ومقتل خليفتهم المرتضى، وكان ذلك في سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٩ م) .
على أن هذه المعركة كان لها أثر عميق في نفس زاوى، فبدلا من أن يرى فى
كسبها دليل التفوق والاستقرار، شعر بالعكس مما آنسه من مرارة القتال وروعته
أن هذا النصر إن كان بداية طيبة، فقد تعقبه نكسات ومحن لا يستطيعون الصمود
لها، وأن أهل الأندلس لن يتركوا مقارعة البربر، حتى يفوزوا بالقضاء عليهم.
وقال زيرى لقومه، حسبما يروى لنا الأمير عبد الله: " وقد علمت وأيقنت أنه هذا يكون دأبهم أبداً (أى أهل الأندلس) ، وإن كنا قد منحنا الظفر في أوله

صفقة، لم نأمنهم على أنفسنا وديارنا في كل حين، وهم إن قتل منهم واحد خلفه
ألف، مع ميل جنسيتهم من الرعايا إليهم ".
وهو ما يورده ابن حيان على لسان
زيرى على النحو الأتى: " إن انهزام من رأيتموه لم يكن عن قوة منا، إنما جره مع القضاء، غدر ملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا.
فإنى عرفت ذلك من يوم

---

(١) هو بالإسبانية Sierra Nevada أو جبل الثلج.
(٢) راجع كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٨ - ٢٢.

(١٢٤/٢)

نزولهم، ولذلك ما كنت أقوى نفوسكم، وقد نجانا منهم برحمته، ومضى القوم ولم يعدموا إلا رئيسهم، واستخلافه هين عليهم، ولست آمن عودهم جملة إليكم فيما بعد، فلا يكون لنا قوام بهم ".
هذا ومن جهة أخرى فقد كان زاوى
يخشى من غدر بربر زناتة أعدائهم الحقيقيين، ويخشى بالأخص أن يتحالفوا ضدهم مع أهل الأندلس، فتكون الطامة الكبرى عليهم.
وأخيراً فقد كان زاوى
يرى بعد وفاة باديس بن المنصور أمير إفريقية، الذى اضطهده وقومه، وولاية ولده الطفل المعز حفيد أخيه بلكين، أن الجو قد تهيأ لعودته، واحتلال مكانته في وطنه.
ومن ثم فقد اعتزم زاوى أن يغادر الأندلس إلى إفريقية، وقال لقومه:
" فالرأى الخروج عن أرضهم، واغتنام السلامة مع إحراز الغنيمة، والرجوع إلى الحملة التي انفصلنا عنها" (١) .
وهكذا قرر زاوى بن زيرى العودة إلى إفريقية بالرغم من معارضة ولده

ووجوه قومه.
وخرج عن غرناطة في أهله وأمواله، مستخلفاً عليها بعض شيوخ قومه، وركب البحر من المنكب، ومعه الكثير من الأموال والذخائر.
وكان
خروجه من الأندلس في سنة ٤١٠ هـ (١٠٢٠ م) .
واستقبله حفيد أخيه المعز
ابن باديس صاحب إفريقية وبنو عمه أجمل استقبال، وأنزل في القيروان أجمل
منزل، وكان بعد مهلك الشيخة من بني عمه وذوى قرابته زعيم القوم، وكان النساء
من محارمهم نحو ألف امرأة لا يحتجبن عنه.
بيد أنه لم يلق بالقيروان في ظل
المعز، ما كان يؤمل من رياسة وسلطان (٢) .
قال ابن الخطيب: " وكان زاوى كبش الحروب، وكاشف الكروب، خدم قومه، شهير الذكر أصيل المجد، المثل المضروب في الدهاء، والرأى، والشجاعة والأنفة والحزم " (٣) .
وعلى أثر ارتحال زاوى سعى الفقيه ابن ابى زمنين قاضى غرناطة، في أن يعين
لولايتها حبوس بن ماكسن ابن أخى زيرى، فلحق به في حصن أشتر على مقربة

---

(١) راجع التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ٢٤ و ٢٥، والذخيرة القسم الأول
المجلد الأول ص ٤٠٢ و ٤٠٣، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٢٨، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٠.
(٢) الذخيرة القسم الأول، المجلد الأول ص ٤٠٢، والإحاطة (القاهرة

١٩٥٦) ج ١
ص ٥٢٥.
(٣) الإحاطة ج ١ ص ٥٢٢.

*(١٢٥/٢)*

من وادي آش.
وكان يرابط هنالك مترقباً رحيل عمه.
فبادر بالسير إلى غرناطة، ودخلها في موكبه وطبوله، واحتلها فلم يعارضه
أحد من قومه، وتربع فى
رياستها من وقته.
وقيل إن عمه زاوى اختاره ليخلفه قبل رحيله.
وقيل من جهة
أخرى إن نزاعاً حدث بسبب ذلك، بينه وبين ابن عمه جلالى بن زاوى، ولكنه
انتهى برحيل جلالى ولحاقه بأبيه، وخلصت له الرياسة، ومن ذلك الحين تبدأ
يغرناطة دولة بني زيرى بن مناد (١) .
وبدأت ولاية حبُّوس لغرناطة في سنة ٤١١ هـ، حسبما تقدم في أخبار الفتنة،
فسار حبوس سيرة حسنة، وضبط النظام والأمن، وقسم الأعمال بين أقاربه
وبنى عمه، واتسعت رقعة مملكته، فغلب على قبره ونواحيها وعلى مدينة
جيان، وأتم بناء غرناطة، وحشد الجند ونظم الجيش، وكان يشرك بني عمه
في الرأى، ويجرى في حكمه على طريق الشورى.
ووطد حبوس ملك قومه بغرناطة، وأقام
له بلاطاً فخماً، وعقد علائق المودة والتحالف مع سائر جيرانه من رؤساء
البربر
وفى مقدمتهم بني حمود أصحاب مالقة، وعقد الصداقة أيضاً مع زهير الفتى
العامرى
صاحب ألمرية.

ولما قتل يحيى بن حمود (المعتلى) أمام أسوار قرمونة سنة ٤٢٧ هـ
على يد القاضى ابن عباد، وخلفه في الملك ولده إدريس المتأيد بالله، كان
حبوس
وحليفه زهير العامرى من المعترفين ببيعته، وقد سارا لمعاونته على محاربة
ابن عباد، وسار معهما البرزالى صاحب قرمونة في قواته، وزحفت القوات
المتحدة على
إشبيلية، وعاثت في بسائطها، ثم عاد كل إلى قواعده، وذلك في أواخر سنة
٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) .
وفى العام التالى (٤٢٨ هـ) توفى حبوس بن ماكسن، وخلفه
في حكم غرناطة ولده باديس (٢) .
ويشيد ابن حيان، وقد عاصر هذا العهد، بخلال حبوس، فيقول لنا إنه
كان أحد نائبى برابرة الأندلس الذين يعتد بهم، وإنه كان على قسوته " يصغى
إلى الأدب، وينتمى في العرب، للأثر المقفو في قومه صنهاجة.
وكان وقوراً
حليماً فظاً مهيباً، نزر الكلام، قليل الضحك، كثير الفكر، شديد الغضب،

---

(١) الذخيرة المجلد الأول القسم الأول ص ٤٠٣، والإحاطة ج ١ ص ٤٨٥.
(٢) راجع في أخبار حبوس بن ماكسن: البيان ص ٢٥ و ٢٦، والإحاطة ج
١ ص ٤٨٥
والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٤.



شجاعاً، حسن الفروسية، جباراً متكبراً، داهية واسع الحيلة، كامل الرجولة، له
في كل ذلك أخبار مأثورة " (١) .
- ٢ -
فخلفه في حكم غرناطة ولده باديس، الذى قدر له أن يكون أقوى ملوك

البربر في جنوبى الأندلس، وأعظمهم شأناً، في تلك الفترة التي كثرت فيها الممالك والرياسات، ولم ينازعه في الملك أخوه بُلُقِّين بن حبوس، ولكن كان له في الملك مئافس من قومه، هو ابن عمه يدِّير بن حُباسة بن ماكسن.
وكان يدير
ومن ورائه بعض شيوخ غرناطة يحاول منذ أيام عمه حبوس، أن ينتزع السلطة
لنفسه، فلما فشل أيام حبوس، حاول أن يعيد الكرة في أوائل عهد باديس.
وكان من مشجعيه ومحرضيه الكاتب أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجانى، وهو
من علماء المشرق الذين وفدوا على الأندلس أيام الفتنة، ولحق بغرناطة.
وكان
فضلا عن أدبه الغزير، يعنى بدراسة الفلك والحكمة، ويلقى بنبوءاته في روع يدير، أنه سوف يظفر بعرش غرناطة، ويحكمها ثلاثين عاماً (٢) .
وكان لأبى العباس كاتب حبوس، مساعد من اليهود يدعى أبو إبراهيم يوسف ابن اسماعيل بن نغرالة كان يتولى جمع المال، وكان رجلا متواضعاً حسن السيرة، فلما توفى أبو العباس تقدم مكانه، وعلت منزلته، ولما ولى باديس زادت حظوته
وظهرت همته في جمع الأموال.
فلما دبر القوم مؤامرتهم لانتزاع السلطة من باديس
وإجلاس يدير مكانه، لجأوا إلى أبي إبراهيم، وحاولوا ضمه إليهم، فتظاهر بالقبول، وأخطر مولاه باديس ودبر اجتماعهم بمنزله، وحضور باديس ليسمع بنفسه مشاوراتهم من مكان معين، ومن ذلك الحين غدا ذلك اليهودى أثيراً عند
باديس، وصار ناصحه الأول، لا يبرم أمراً دون رأيه.
وكان المتآمرون قد اعتزموا أمرهم لقتل باديس، أثناء تنزهه، بمكان بالضاحية يعرف بالرملة، وكان ممن رشوه لذلك شيخ من صنهاجة يدعى فرقان.

فأفضى
بالأمر لباديس وحذره في الوقت المناسب، وعلم المتآمرون بافتضاح تدبيرهم،
ففروا إلى خارج غرناطة، وفي مقدمتهم يدير بن حباسة والكاتب أبو الفتوح

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠٤.
(٢) الإحاطة ج ١ ص ٤٦٣ و ٤٦٥.

*(١٢٧/٢)*

الجرجانى، وقد فرا معاً إلى إشبيلية.
ووقف باديس على أسماء كثير ممن شاركوا
في المؤامرة من شيوخ صنهاجة ورجالها، وهم بقتلهم جميعاً، فرده أبو إبراهيم
عن عزمه، وحذره من اتساع نطاق الفتنة، لأنهم رجاله وجنده وأولى أن
يلاينهم
وأن يغمرهم بالعطايا، وأن يضرب بعضهم ببعض، فنزل عند نصحه، واستتب
له الأمر دون منازع (١) .
وكان أول حادث خطير واجه باديس، هو حربه مع زهير العامرى صاحب
ألمرية.
وكان زهير من أخص الفتيان العامريين الذين تفرقوا عقب الفتنة، واحتلوا
معظم القواعد الشرقية، وكان قد ولى حكم ألمرية بعد وفاة صاحبها الفتى
خيران في سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) ، وامتد سلطانه شرقاً حتى شاطبة،
وشمالا حتى
بيّاسة وقرطبة.
وكان يرتبط بعلائق المودة بجيرانه الأقربين بني حمود أصحاب
مالقة، وبنى زيرى أصحاب غرناطة.
وقد رأينا كيف تحالف زهير مع حبوس
ابن ماكسن على قتال ابن عباد، فلما توفى حبوس وخلفه باديس، بدأت

العلائق
بين زهير وباديس في الفتور، وذلك لما عمد إليه زهير من إيواء عدو باديس الألد
محمد بن عبد الله زعيم زناتة وحمايته، وأرسل باديس إلى زهير رسوله يعاتبه، ويطلب إليه تجديد المحالفة التي كانت بينه وبين أبيه حبوس (٢) ، ولم يمض قليل
على ذلك، حتى خرج زهير من ألمرية في قواته ومعه كاتبه ومستشاره الأثير أحمد
ابن عباس، وسار متجهاً صوب غرناطة.
ولم توضح لنا الرواية غرض زهير
من تلك الحركة.
ولكن الأمير عبد الله بن بلقين حفيد باديس، يقول لنا فى
مذكراته، إن زهيراً " أدركه الطمع في غرناطة عقب موت حبوس " (٣) وإذا
فقد كان زهير يرمى إلى غزو غرناطة، وافتتاحها.
وعلى أى حال فقد استمر زهير
في السير بقواته، واختراق أراضي غرناطة من شرقها حتى وصل إلى قرية ألفنت (٤)
الواقعة على مقربة من شمال غرناطة.
وكان باديس في أثناء ذلك قد عبأ قواته وقد
ملأته الدهشة والريب، لاقتحام زهير أراضيه على هذا النحو، وشعر أنه قد غدا

---

(١) فصل لنا الأمير عبد الله أدوار هذه المؤامرة بإفاضة (التبيان ص ٣١ - ٣٤) .
(٢) ابن حيان في الذخيرة، القسم الأول المجلد الثاني ص ١٦٦، ونقلها البيان المغرب

ج ٣ ص ١٦٩.

(٣) كتاب التبيان ص ٣٤.

٤١) هى بالإسبانية Daifontes وهى تقع على قيد عشرين كيلوا متراً شمالى غرناطة.

*(١٢٨/٢)*

في قبضته وتحت رحمته.

ولكنه بدأه بالجميل والمودة، وزوده هو ورجاله بالصلات

والقِرى، ثم لقيه ووقعت بينهما المناظرة، ومن حول كل رجال دولته، فاشتط

زهير، وأغلظ لباديس في القول، وكان كاتبه أحمد بن عباس هو الذى أشار

عليه بهذا المسلك، فغادره باديس مغضباً، وقد عول على الحرب، ووافقه قومه

شيوخ صنهاجة.

وكان باديس قد حشد قواته ورتبها ترتيباً محكماً، وهدم رجاله

قنطرة في مؤخرة القوات المهاجمة، قطعاً لخط رجعتها، ورتب من ورائها

الكمائن

في المفاوز المستترة.

كل ذلك وزهير في غروره وعجبه، لا يشعر بما يدبره

خصومه.

وفى صباح اليوم التالى، فاجأت قوات صنهاجة جيش زهير بهجومها

العنيف، وكان يقودها بلقين بن ماكسن أخو باديس، فلقيها زهير بعزم وثبات،

ودفع لردها قائده هذيلا الصقلبى في خيرة قواته من الفتيان العامريين

والصقالبة، ووقعت بين الفريقين معركة هائلة، صدمت فيها قوات الصقالبة

وأسر قائدهم

هذيل، وقتل في الحال بأمر باديس، فدب الخلل في قوات زهير، ونكصت

على

أعقابها، والبربر من ورائها يحصدونها حصداً، وفر زهير فيمن فر من

أصحابه
إلى شعب الجبال المجاورة، ولكنه أخذ وقتل، ولم يعثر بجثته، وأبيد معظم قواته
قتلا وأسراً، وظفر البربر بغنائم هائلة من المال والسلاح والعدة والغلمان والخيام، وأمر باديس بقتل القواد والفرسان من الأسرى، وكان من بين الأسرى عدة
من الكتاب في مقدمتهم أحمد بن عباس وابن حزم والد الفيلسوف وأبو عمر الباجى وغيرهم، فأطلق باديس سراحهم جميعاً ما عدا ابن عباس وعدة آخرين من الأسرى، فقد زجهم في الأصفاد إلى المعتقل.
وتمت هذه الوقيعة الساحقة
على زهير العامرى وأصحابه، في آخر يوم من شوال سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) (١)
ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى قتل ابن عباس في معتقله بالقصبة. قتله باديس بيده تشفياً منه، لتيقنه من أنه هو ناصح زهير والمحرض له على غزوه.
ولم ينقذه ما عرضه لافتداء نفسه من المبالغ الضخمة.
ولم تنجح شفاعة الوزير
ابن جهور عميد قرطبة لدى باديس للإبقاء على حياته.
وكان ابن عباس من
أعلام كتاب عصره، وافر المعرفة والأدب، عظيم الوجاهة، والسراوة،

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ١٦٦ - ١٦٩، والبيان المغرب ج ٣ عى ١٦٩
١٧٣، والإحاطة ج ١ ص ٥٢٦ - ٥٢٨، والتبيان ص ٣٤ و ٣٥.

وكان له في حكومة ألمرية، في ظل صاحبها زهير، أعظم نفوذ وسلطان (١)
.
وكان من أثر مصرع زهير، وانهيار حكومته على هذا النحو، أن استولى
باديس على القسم الغربى من أراضي مملكة ألمرية المتاخمة لمملكته، وهى
تشمل
مدينة جيان وأعمالها، وكذلك جزءاً من أراضي ولاية قرطبة الجنوبية.
***
وكان لهذا النصر الباهر الذى أحرزه باديس في بداية حكمه، أعظم أثر فى
توطيد سلطانه وإذاعة ذكره.
وكان باديس، مثل معظم أمراء البربر في جنوب
الأندلس، يتوجس من أطماع القاضى ابن عباد صاحب إشبيلية ومشاريعه.
وكانت المعركة الحقيقية، تدور في هذا القسم من اسبانيا المسلمة، بين بني
عباد
والبربر، وقد بدأت منذ الساعة الأولى بين بني عباد وبني حمود، الذين
يمثلون
زعامة البربر.
ومن ثم فقد كان باديس، ومن قبله والده حبوس، ينضوى تحت
لواء الحموديين، ويشد أزرهم كلما دعت الظروف، وقد أشرنا من قبل إلى
ما كان من مسير حبوس في قوات صنهاجة لمعاونة إدريس المتأيد بالله على
محاربة
ابن عباد (٤٢٧ هـ) .
ولما سير القاضى ابن عباد قواته تحت إمرة ولده إسماعيل
لغزو مدينة قرمونة، وانتزاعها من يد صاحبها محمد بن عبد الله البرزالى،
استعان البرزالى، بإدريس المتأيد وباديس، فهرعا إلى إنجاده، وكانت قرمونة
قد سقطت بالفعل في يد إسماعيل بن عباد، ونشبت بين قوى العباديين وبين
البربر

على مقربة من إستجة معارك شديدة انتهت بهزيمة جيش ابن عباد، ومقتل قائدهم
إسماعيل، وذلك في المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م) (٢) . وهكذا أكد
باديس مرة أخرى تفوقه وتفوق قومه صنهاجة على قوات الأندلس المناوئة
للبربر، ومما هو جدير بالذكر أنه على أثر انتهاء المعركة، ووجود باديس تحت أسوار
إستجة، وفد على مخيمه فجأة الكاتب أبو الفتوح الجرجانى، وكان قد فر حسبما
تقدم عند اتهامه بالتآمر مع يدِّير إلى إشبيلية، وهنالك علم أن باديس أمر بالقبض

---

(١) راجع في ترجمة أحمد بن عباس: الإحاطة ج ١ ص ٢٦٧ - ٢٧٠، والذخيرة القسم
الأول المجلد الثاني ص ١٧٥ - ١٨٠.
(٢) البيان المغرب ج ٣ عى ١٩٩، وابن خلدون ج ٦ عى ١٨٠، والمعجب للمراكشى
ص ٥٠.

(٢/١٣٠)

على زوجه وأولاده ونفيهم إلى المنكب.
وكانت زوجه أندلسية بارعة الحسن، وله منها ولدان، وكان يعبدها حباً.
فلما اقترب باديس من إشبيلية هرع أبو الفتوح
إليه يستأمنه ويستجير به.
ولكن باديس استقبله بجفاء، وبعث به مخفوراً إلى
غرناطة، وهناك شُهر وعذب ثم اعتقل أياماً، دخل من بعدها باديس إلى

مطبقه، وأخذ في تأنيبه وسبه، ثم قتله بيده، واحتز رأسه (آخر المحرم سنة ٤٣١ هـ) (١) .

ولما اضمحل شأن بني حمود وافترقت كلمتهم، بدأ باديس بالتدخل فى شئون مملكة مالقة، تحيناً للفرصة في أخذها.

ومن ذلك أنه حينما ثار على إدريس

ابن يحيى العالى، ابن عمه محمد بن إدريس في سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) ، واستطاع

أن ينتزع منه الملك، تقدم باديس لمعاونة الملك المخلوع، وسار معه في بعض

قواته إلى مالقة، ولكنهما لم يفوزا بطائل، فلجأ إدريس عندئذ إلى سبتة، وبويع محمد بن إدريس وتلقب بالمهدى، ولكنه لم يفز عندئذ بإجماع الزعماء البربر على

مبايعته، وكان باديس أشدهم معارضة في إقامته، ذلك لأنه كان يشعر عندئذ، وبعد أن ضعف شأن بني حمود، أنه أحق برياسة البربر في الأندلس، وأخذ من

ذلك الحين يتحين الفرصة لتسديد الضربة القاضية لرياسة بني حمود، وذلك بانتزاع

مالقة مقر سلطانهم.

وتم له ذلك في سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، وذلك بعد أن ارتقى عرش

مالقة، بعد محمد بن إدريس المهدى، ثلاثة أخر من بني حمود، وهم إدريس

ابن يحيى الملقب بالسامى، ثم إدريس بن يحيى العالى، ثم ولده محمد المستعلى.

فلما تولى المستعلى نكل الزعماء البربر عن مبايعته، وفي الحال سار باديس في قواته

إلى مالقة واستولى عليها، وضمها إلى إمارته، وغادرها المستعلى وعبر البحر إلى

المغرب، وانتهت بذلك مملكة بني حمود في مالقة، وبقيت بعد ذلك في الجزيرة
الخضراء فترة قصيرة أخرى، حتى بعث ابن عباد قواته إلى الجزيرة فطوقتها، من البر والبحر، واضطر صاحبها القاسم بن حمود أن يغادرها بالأمان مع أهله
وصحبه، وذلك في سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٥ م) ، وبذلك انتهت دولة بني حمود فى
الجزيرة أيضاً، وطويت صفحتهم بالأندلس.
ولما استولى باديس على مالقة، عنى بتحصينها، وشيد قصبتها على أجمل

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٦٥ و ٤٦٦، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٩٦.

(٢/١٣١)

طراز وأمنعه، حماية لها من أطماع الطامعين من أمراء الأندلس، ولاسيما بنى عباد.
وقد كان أهل مالقة بالفعل قد سئموا حكم البربر، وتاقت نفوسهم للتخلص منه، فبعثوا إلى المعتضد بن عباد رسلهم سراً يستحثونه على افتتاح مالقة، واستجاب المعتضد لدعوتهم، وسير إليها حملة بقيادة ولديه جابر والمعتمد، فزحفت على مالقة وطوقتها، وكادت المدينة تسقط في أيديهم، لولا أن اعتصمت
حاميتها من البربر والسود بقصبتها المنيعة، ودافعت دفاعاً شديداً، بقيادة قائدها الشجاع مخلوف بن ملول، وهرع باديس في قواته إليها، ونشبت بينه وبين المهاجمين معركة شديدة مزق فيها جند إشبيلية، وقتل وأسر منهم عدد جم، وأسرع جابر والمعتمد ابنا عباد بالفرار في فل جندهما إلى رندة (١)
.

وكان ذلك في سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) .
وبعث محمد بن عباد (المعتمد)
إلى والده المعتضد من رندة، قصيدته الشهيرة، يستعطفه فيها ويعزيه في مصابه
وهذا مطلعها:
سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر..
.
ماذا يعيد عليك البثُّ والحذر
وازجر جفونك لا ترض البكاء لها..
.
واصبر فقد كنت عند الخطب تصبر
فإن يكن قَدَرٌ قد عاق عن وطر..
.
فلا مرد لما يأتى به القدر
وإن تكن خيبة في الدهر واحدة..
.
فكم غزوت ومن أشياعك الظفر (٢)
وكان من مظاهر هذه المعركة، التي اضطرمت بين باديس وبنى عباد، ما حدث في نفس هذا العام، من التجاء بني بزنيان وأميرهم محمد بن خزرون أصحاب أركش، حينما أرهقهم ابن عباد بغاراته، إلى باديس ليتسلم هو قاعدة أركش، ويعطيهم بدلا منها، مكاناً ينزلون به في أراضي غرناطة، وقد استجاب
باديس لرغبتهم وتسلم منهم أركش، وخرجوا عنها بأهلهم وأموالهم ومتاعهم، فدهمتهم قوات ابن عباد في الطريق ومزقتهم، وانتزعت حصن أركش من يد قائد باديس، وسيطر ابن عباد بذلك على سائر منطقة شذونة، وكانت من قبل تحت سيطرة البربر (٣) .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٧٤ و ٣٧٥.
وراجع كتاب التبيان ص ٤٣.
(٢) وهى طويلة.
وقد أوردها ابن الأبار في الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٥٦ - ٥٨.
(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٧٢ و ٣٧٣.

(١٣٢/٢)



وكان باديس قد قطع إلى ذلك الحين ثلاثين عاماً في الحكم، وكانت مملكته تمتد يومئذ من بسطة شرقاً، حتى رندة غرباً، ومن جيّان شمالا إلى البحر جنوباً، وكان قد شاخ وأخلد إلى الراحة، وانهمك في الشراب، وترك مقاليد الأمور كلها
لوزيره اليهودى يوسف بن نغرالة (١) ، وكان يوسف قد حل في المنصب مكان
أبيه اسماعيل بن نغرالة وزير حبوس ثم باديس، وكان هذا الوزير اليهودى قد استأثر بعطف باديس وثقته، فرفعه فوق سائر كتابه ووزرائه، وفوضه فى جميع أموره، وعين معظم المتصرفين والعمال من اليهود، واستطاع بمهارته وحنكته
أن يملأ خزائن باديس بالمال، وأن يمكنه من الإنفاق على جيشه، ومن تحقيق مشاريعه الإنشائية.
وكان اسماعيل فوق ذلك من أهل الأدب والشعر، وكان
حسن السيرة رضى الأخلاق، وافر الأناة والحلم، فلم يثر من حوله خصومة ولا منافسة.
ويقدم إلينا ابن حيان، وهو المؤرخ المعاصر عن ابن نغرالة، الصورة الآتية: "
وكان هذا اللعين في ذاته، على ما زوى الله عنه من هدايته، من أكمل

الرجال علماً وحلماً وفهماً، وذكاء ودماثة، ورصانة ودهاء، ومكراً وملكاً لنفسه، وبسطاً من خلقه، ومعرفة بزمانه، ومداراة لعدوه، واستسلالا لحقودهم بحلمه ".

ثم يقول لنا إنه كان بارعاً في الآداب العبرية والعربية، وإنه شغف بالعربية ونظر فيها، وقرأ كتبها، وألف فيها، وكتب رسائل يشيد فيها بالإسلام وفضائله، ودرس الرياضة والفلك والهندسة والمنطق، وكتب كتاب " السجيح في علوم الأوائل الرياضية ".

وأخيراً إنه كان بارعاً في الجدل يتفوق فيه على سائر الناس، قليل الكلام، ماقتاً للسباب، دائم التفكر، جماعة للكتب (٢) . وقد ساعدته هذه الصفات كلها، بلا ريب، على الاستئثار بعطف الأمير وإعجابه وثقته وخلقت من حوله جواً من العطف بين سائر ممن يتصلون به أو يتعامل معهم.

واستمر ابن نغرالة عن مكانته حتى توفى، فندب باديس ولده يوسف للاضطلاع بمنصبه.

وكان يوسف فتى جميلا غض الإهاب، وافر الذكاء والبراعة، فقام بالأعمال خير قيام، واستعمل اليهود كذلك على الأعمال، وأبدى في جمع المال همة مضاعفة، فتمكنت منزلته لدى باديس، واجتمعت في يده السلطات شيئاً فشيئاً

---

(١) كتاب التبيان ص ٤٢.

(٢) الإحاطة عن ابن حيان ج ١ ص ٤٤٦ و ٤٤٧.

حتى غدا كأبيه من قبل، أول رجل في الدولة، وأمضاهم تصرفاً في شئونها.
وكان بُلُقِّين ولد باديس الأكبر الملقب بسيف الدولة، والمرشح من بعده
لولاية عهده، ينظر إلى استئثار الوزير اليهودى بزمام الأمور، واستئثار بني
جنسه
بالتصرف في الأعمال، وسيطرتهم التامة على الدولة، ينظر إلى ذلك كله
بعين
السخط والحسد، وكان يجاهر ببغضه لابن نغرالة، وسعيه إلى إسقاطه،
ويفضى
أحياناً إلى خاصته برغبته في إزالته وقتله، وكان يذكى فيه هذا الشعور
تحريض
وزراء الدولة، ولاسيما على وعبد الله ابنا إبراهيم الشيخ، وإلقاؤهم في روعه أنه
أحق بهذا النفوذ، وهذه الأموال التي يتمتع بها اليهود، وأنه قد أخمله وأخمل
سائر رجال الدولة بسيطرته عليها (١) .
وكان يوسف من جانبه، يضع عيونه وجواسيسه من خاصة باديس فى
القصر وفي الحريم، فلا يكاد باديس يأتى بحركة أو تصدر عنه كلمة، حتى
يقف عليها لفوره، وكان في نفس الوقت يحيط بلقين بعيونه، ويتقصى سائر
حركاته وسكناته، ويقف على نياته نحوه.
وكان بلقين مع بغضه ليوسف، يبدى
له المودة ويتردد على داره، ويشاطره الشراب، وكان منهمكاً مدمناً.
فاعتزم
يوسف أن يتخلص من بلقين، قبل أن يقضى هو عليه، ودعاه ذات يوم مع
خاصته وصحبه، إلى مجلس شراب حافل، ودس له السم في كأسه، فما كاد
يغادر
مجلسه حتى ملكه قيء شديد، وما كاد يصل إلى داره، حتى لزم فراشه، ثم

توفى بعد يومين.
فروع بأديس لمهلك ولده، على هذا النحو المفاجىء، واستطاع
يوسف أن يقنعه باتهام بعض فتيان ولده وجواريه وقرابته، فقتل منهم باديس
عدة، وفر الباقون.
وكان مصرع بلقين بن باديس في سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) (٢) .
وكان هذا الحادث مقدمة لحادث أخطر وأوسع مدى، وهو الذى اتسم
به عهد باديس قبل كل شيء.
ذلك أن باديس ترك المجال لوزيره يوسف، وزاد بفقد ولده انطواؤه على نفسه،
وزاد يوسف بذلك استئثاراً وسيطرة على
الدولة، وبُسط على غرناطة وأعمالها نوع من الطغيان اليهودى المرهق،
واستسلم
سائر الوزراء والشيوخ إلى هذا السلطان.
ولم يكن يناوىء يوسف ويحاول
مقاومته سوى " الناية " وهو شخصية غامضة، وأصله من عبيد المعتضد بن
عباد،

---

(١) التبيان ص ٣٩.
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٥، والتبيان ص ٤٠، وأعمال الأعلام لابن
الخطيب ص ٢٣١.



وكان متهماً في المؤامرة التي دبرها ضده ولده اسماعيل، ففر من إشبيلية،
والتجأ إلى باديس وخدمه وحظى عنده، وعهد إليه ببعض المهام الخطيرة.
ثم
وقع التنافس بينه وبين يوسف، وكان الناية يحرض على قتله، ويفضى إلى
الأمير

بذلك كلما سنحت الفرص.
وشعر يوسف بتغير الأمير عليه، وبأن منزلته أخذت
في الضعف، ففكر في التفاهم مع أبي يحيى بن صمادح صاحب ألمرية، واستدعائه
للاستيلاء على غرناطة.
وكانت تربط ابن صمادح وباديس علائق مودة قديمة، إذ كان باديس قد وقف
إلى جانبه حينما أراد ابن أبي عامر محاربته واسترداد ألمرية
منه، ومهد يوسف لمشروعه بأن عمل على تعيين زعماء صِنهاجة، الذين يخشى
بأسهم، في الأعمال البعيدة، واستطاع ابن صمادح بالفعل أن ينتزع وادي
آش، الواقعة شمال شرقى غرناطة، وأن يشحنها برجاله، ومضى يوسف في مفاوضته
وهو محجم متهيب من تنفيذ المشروع.
كل ذلك وباديس غارق في لهوه، منكب
على لذاته (١) ، وخصوم يوسف من صنهاجة، وسائر أهل غرناطة، يضطرمون
سخطاً على الطاغية اليهودى، ويترقبون الفرص لإسقاطه.
ولقى سخط الشعب
الغرناطى على اليهود في تلك الآونة، متنفسه في الشعر، ونظم الفقيه الورع الزاهد
أبو إسحاق الإلبيرى (٢) قصيدته الشهيرة في التحريض على سحق اليهود،
والتخلص من طغيانهم، وإليك بعض ما ورد في تلك القصيدة التي ذاعت يومئذ
ذيوع النار في الهشيم، وألهبت مشاعر الشعب الغرناطى، وكانت كالشرارة التي
أضرمت الحريق، وأثارت الانفجار:

ألا قل لصنهاجة أجمعين..

.

بدور الزمان وأسد العرين

لقد زل سيدكم زلة..

.

تقرب بها أعين الشامتين

تخير كاتبه كافراً..

.

ولو شاء كان من المؤمنين

فعز اليهود به وانتخوا..

.

وتاهوا وكانوا من الأرذلين

---

(١) راجع كتاب التبيان ص ٤٦ و ٤٧ و ٥٠ - ٥٣.

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبى الإلبيرى.
كان فقيهاً ومحدثاً وأديباً
وشاعراً.
سعى به الوزير يوسف بن نغرالة لأمور نقمها منه لدى سلطانه باديس،
فأبعده عن غرناطة
فسكن إلبيرة القريبة منها، وانقطع إلى العبادة والزهد.
ولكنه لبث يحرض صنهاجة على اليهود
في شعره ووعظه، حتى وقع الانفجار، وتم الفتك بهم.
وتوفى الإلبيرى في أواخر سنة ٤٥٩، بعد أن شهد آثار تحريضه في بطش
صنهاجة باليهود.

ونالوا مناهم وحازوا المدى..

.

وقد جاز ذاك وما يشعرون

ومنها:.

أباديس أنت امرء حاذق..

.

تصيب بظنك مرمى اليقين

فكيف تحب فراخ الزنا..

.

وقد بغضوك إلى العالمين

وكيف استنمت إلى فاسق..

.

وقارنته وهو بئس القرين

وقد أنزل الله في وحيه..

.

يحذر من صحبة الفاسقين

فلا تتخذ منهم خادماً..

.

وذرهم إلى لعنة اللاعنين

فقد ضجت الأرض من فسقهم..

.

وكادت تميد بنا أجمعين

وكيف انفردت بتقريبهم..

.

وهم في البلاد من المبعدين

وإنى احتللت بغرناطة..

.

فكنت أراهم بها عابثين

وقد قسموها وأعمالها..

.

فمنهم بكل مكان لعين

وهم يقبضون جباياتها..

.

وهم يخصمون وهم يقصمون

وهم يلبسون رفيع الكسا..

.

وأنتم لأوضاعها لابسون

وهم أمناكم في سركم..

.

وكيف يكون أميناً خؤون

وقد لابسوكم بأسحارهم..

.

فما تسمعون ولا تبصرون

ومنها في التحريض على ابن نغرالة وقومه:

فبادر إلى ذبحه قربة..

.

وضح به فهو كبش سمين

ولا ترفع الضغط عن رهطه..

.

فقد كنزوا كل علق ثمين

وفرق عراهم وخذ مالهم..

.

فأنتم أحق بما يجمعون

ولا تحسبن قتلهم غدرة..

.

بل الغدر في تركهم يعبثون

فقد نكثوا عهدنا عندهم..

.

فكيف تلام على الناكثين

فلا ترض فينا بأفعالهم..

.

فأنت رهين بما يفعلون

وراقب إلهك في حزبه..

.

فحزب الإله هم المفلحون (١)

ووقع الانفجار في مساء يوم السبت العاشر من شهر صفر سنة ٤٥٩ هـ

---

(١) نشر ابن الخطيب في أعمال الأعلام هذه القصيدة بأكملها وهى في ثلاثة وأربعين بيتاً

ص ٢٣١ - ٢٣٣، ونشرها دوزى في كتابه Recherches; V.

I.

App.

XXVI

(١٣٦/٢)

(٣٠ ديسمبر ١٠٦٦ م) .

ففى تلك الليلة اجتمع يوسف بن نغرالة بالقصبة على

الشراب مع طائفة من صحبه من الضالعين معه من عبيد باديس وخاصته.

والظاهر
أن مشروعه لاستدعاء ابن صمادح إلى غرناطة كان قد نضج، وأن ابن
صمادح كان
يكمن مع نفر من صحبه في مكان قريب من المدينة، ينتظر النذير
باستدعائه.
وكان
ثمة في نفس الوقت جماعة من صنهاجة، ممن يرتابون في مشاريع يوسف
ونياته، وينقمون على أميرهم تهاونه وتخاذله، يرقبون حركات اليهودى
وسكناته.
فحدث والمتآمرون في مجلسهم، أن وقعت مشادة بين عبد من الحضور،
وبين
حاشية اليهودى، فانطلق العبد إلى خارج القصبة، وهو يصيح: لقد غدر
اليهودى
ودخل ابن صمادح البلدة.
وفى الحال هرع الناس وهم يتصايحون، وفي مقدمتهم
رهط صنهاجة المناوئين لليهودى، واقتحموا القصبة، فاستغاث يوسف لفوره
بباديس، وحاول الأمير عبثاً أن يهدىء الهاجمين، فهرب يوسف إلى داخل
القصر، ومن ورائه مطاردوه، حتى عثروا به في بعض خزائن الفحم وقد تنكر
وصبغ وجهه بالسواد فعرفوه وقتلوه، وأخذوه وصلبوه على باب غرناطة.
وكان الجند والمدينة بأسرها، قد ماجت عندئذ، وتخاطف الناس السلاح،
وهجموا على بيوت اليهود في كل مكان، وأمعنوا فيهم تقتيلا ؤتعذيباً، ونهبوا
دار يوسف، وكانت غاصة بالنفائس والذخائر، ووجدت له فيما وجد خزانة
جليلة
من كتب العلوم الإسلامية، ونهبوا سائر دور اليهود وحوانيتهم، وطاردوهم
وفتكوا
بهم في كل مكان، واستولوا من أموالهم على مقادير هائلة.

وهلك من اليهود
أكثر من ثلاثة آلاف أو أكثر من أربعة آلاف على قول آخر، في تلك
المذبحة
التي يصفها ابن بسام بأنها، " ملحمة من ملاحم بني اسرائيل، باءوا بذلها،
وطال
عهدهم بمثلها " وعاد ابن صمادح أدراجه بعد أن انهار مشروعه (١) .
قال ابن الخطيب: " وقبره اليوم (أى قبر يوسف) وقبر أبيه يعرف أصلا
من اليهود، ينقلونه بتواتر عندهم أمام باب إلبيرة، على غلوة يعترض الطريق،

---

(١) راجع أخبار هذه المذبحة في التبيان ص ٥٤، وفي الذخيرة، القسم الأول
المجلد الثاني
ص ٢٧١ و ٢٧٢، وابن الخطيب في الإحاطة ج ١ ص ٤٤٧ و ٤٤٨،
وفي أعمال الأعلام ص ٢٣٣، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٦ و ٢٧٥ و
٢٧٦ وقد اتبعنا ما ورد من التفاصيل في التبيان والذخيرة.
وجاء في المصادر الأخرى أن اجتماع ابن نغرالة في أصحابه كان في داره،
وأنه هوجم وقتل بها.

*(١٣٧/٢)*

ومكانه من الترفه والترف، والظرف والأدب، معروف " (١) .
– ٤ –
وأفاق باديس بعد هذا الحادث من خموله وتهاونه، ونهض لاسترداد وادي آش
من يد ابن صمادح، فسار إليها في قواته، واستنصر بالمأمون بن ذى النون
صاحب طليطلة، فوافاه في بعض قواته على مقربة منها.
وضرب باديس الحصار
حول وادي آش، وشدد في إرهاقها، وكان بها فضلا عن الحامية، بعض
وزراء ابن صمادح وأكابر دولته، ولما اشتد الضيق بالمحصورين بعث

زعماؤهم
إلى المأمون يرجونه أن يتوسط لهم لدى باديس في تسليم المدينة، والخروج بالأمان، ففعل وأخلى جند ابن صمادح المدينة، وسلمت إلى باديس، واقتطع المأمون
من باديس مدينة بسطة ثمناً لمؤازرته، وبعث ابن صمادح إلى باديس يستسمحه
ويعتذر عن تصرفه، ثم وافاه إلى غرناطة، وعاد الوئام بين الرجلين (١) .
وكانت مدينة جيان قد خرجت عن الطاعة، وكان قد لجأ إليها ماكْسَن الابن الأصغر لباديس حينما سخط عليه أبوه ونفاه من غرناطة، لارتيابه في ولائه وتوجسه
من مشاريعه (٢) .
فنزل في جيان في كنف حاكمها مسكن بن حبوس، واستبد مسكن
بحكم المدينة، ولم يجد ماكسن سبيلا إلى منافسته، وقنع بالسلامة والدعة، وأخيراً
تمكن باديس من إغراء الحامية بالمال والوعود، فثارت على مسكن وماكسن معاً، ونادت بالطاعة لباديس، ففر كلاهما من المدينة ناجياً بنفسه، وقصد ماكسن
إلى طليطلة، حيث لجأ إلى ابن ذى النون وخدم في جيشه، وعادت جيان بذلك
إلى سلطان باديس.
وكان باديس بعد مقتل وزيره ابن نغرالة، قد استوزر الناية، فعلا سلطانه
بسرعة، وانتهى إلى الاستئثار بالأمور على نحو ما كان ابن نغرالة.
وقدّم الناية
بنى برزال، وأخر صنهاجة وأهلهم، فسخطوا عليه، وأخذوا يترقبون الفرص لإهلاكه.
وكان من مشاريع الناية أن يفتتح مدينة بياسة القريبة من جيان، وكانت

عندئذ من أملاك إقبال الدولة على بن مجاهد العامرى، ووافق باديس على مشروع

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٤٨، وباب إلبيرة ما يزال إلى اليوم قائماً بمدينة غرناطة.
(٢) البيان ص ٥٥ - ٥٧.
(٣) التبيان ص ٤٩.

(١٣٨/٢)

وزيره كارهاً، وانتهى النابة بالاستيلاء على بياسة بعد جهود ونفقات طائلة، وازدادت بذلك مكانته لدى باديس توطداً.
وهنا شعر وزراء الدولة، وحكام
المدن، أن سلطان النابة يكاد يحجب سلطان باديس ذاته.
وخشوا عاقبة تمكنه، وأذاعوا أنه طامع في الرياسة بالائتمار مع بني برزال، ودبروا مؤامرة لقتله
والتخلص منه، واتفق على أن يقوم واصل حاكم وادي آش وهو صديق النابة وموضع ثقته بتنفيذ الجريمة، ووعدوه بالوزارة.
ولم يمض سوى قليل، حتى
وفد النابة على وادي آش لتحقيق بعض الأمور السلطانية، ونزل عند واصل، فانتهز واصل الفرصة السانحة.
وقتل ضيفه بالليل وهو سكران.
وطار الخبر إلى
غرناطة، فانزعج باديس، وأوضح له رجال الدولة أن الجريمة تمت لخيره، وإنقاذه من استبداد وزيره.
فتظاهر بالاقتناع مرغماً، وعهد إلى واصل بمنصب
قائد الفرسان.

واستطال حكم باديس بضعة أعوام أخرى، وتوفى في العشرين من شوال سنة ٤٦٥ هـ (يونيه ١٠٧٣ م) (١) بعد حكم دام سبعاً وثلاثين سنة.

وكان باديس بن حبوس أعظم ملوك البربر في عصر الطوائف وأقواهم جانباً، وكانت مملكته من أكبر ممالك الطوائف رقعة، إذ كانت تمتد من بسطة شرقاً حتى

إستجة ورندة غرباً، وبياسة وجيان شمالا حتى البحر جنوباً.

وباديس هو الذى

مصّر مدينة غرناطة، وغدت منذ عهده من أهم قواعد الأندلس الجنوبية، وأنشأ

قصبة غرناطة فوق أنقاض قلعتها القديمة، وسميت باسمها القديم " القلعة الحمراء "

وهو الاسم الذى خلد على كر العصور، وغدا فيما بعد علماً على حمراء غرناطة، وأقام داخل القصبة قصره ومسجده الذى دفن فيه، وأنشأ سوراً ضخماً حول

الربوة التي تقع عليها القصبة (٢) .

وأنشأ حسبما قدمنا قصبة مالقة المنيعة، التي

ما زالت آثارها باقية إلى اليوم، وأنشأ له جيشاً قوياً مرابطاً من قومه صنهاجة وغيرهم، وبذل له المال الوفير، ووطد الدولة، ونظم مراتبها وعمالاتها.

بيد

أن بلاطه لم يسطع كما سطعت قصور ملوك الطوائف الأخرى، ولم يسطع بالأخص، كما سطعت دولة بني ذى النون البربرية في الشمال، ولم يجتمع حوله

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٥٠.

وفى ابن خلدون أنه توفى سنة ٤٦٧ هـ (ج ٤ ص ١٦١) .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٠.
وراجع كتابى " نهاية الأندلس " الطبعة الثالثة ص ٢٨٩.

(١٣٩/٢)

الكتاب والشعراء كما اجتمعوا في قصور الطوائف الأخرى، ذلك أن بلاط غرناطة
البربرى.
لبث محتفظاً بطابع البداوة والخشونة، الذى كان يغلب على دولة آل زيرى، ولم تعرف دولتهم تلك الخواص الحضارية والأدبية الرفيعة، التي امتازت بها دول الطوائف الأخرى.
ومما هو جدير بالذكر أن سياسة باديس، كانت متأثرة بالروح العنصرى، وكانت ترمى قبل كل شيء إلى تأييد زعامة البربر وسلطانهم، في جنوبى الأندلس.
وكان يقابل هذا الاتجاه لدى الأمراء الأندلسيين اتجاه مماثل، فقد كانوا جميعاً يداً واحدة ضد البربر، في تلك المعركة التي اضطرمت زهاء نصف قرن، منذ استطاع بنو حمود أن يقيموا سلطانهم وخلافتهم في جنوبى الأندلس.
ولما تضاءل
سلطان بني حمود، تولى باديس زعامة البربر، وأخذ يقود نفس المعركة القديمة
ضد أمراء الأندلس.
وقد كان هؤلاء الأندلسيون، على قول ابن حيان، معاصر
هذه الأحداث، " نمطاً واحداً متظاهرين على عظيم البرابرة يومئذ باديس ابن حبوس الصنهاجى صاحب غرناطة، ومن تميز معه من البربر، وكانوا متعاضدين متناصرين على من يباينهم من الأمراء سواهم، على اختلافهم.
في الرأى
والدعوة ".

ويسوق لنا ابن حيان دليل هذا التحزب في موقف الأندلسيين والبربر
من الخلاف، فقد كان أمراء الأندلس يدعون للخليفة هشام الذى نصبه ابن
عباد
في إشبيلية، وكان باديس ومن والاه من أمراء البربر يدعون لإمامهم بمالقة،
وهو إدريس بن يحيى بن حمود.
وكانت هذه النزعة العنصرية تحمل باديس في بعض الأحيان، على أخطر
القرارات والمشاريع.
ومن ذلك ما حدث حينما قام أحد الفرسان باغتيال أمير رندة
البربرى أبي نصر بن أبي نور وذلك بتحريض من المعتضد بن عباد صاحب
إشبيلية.
فقد ثار باديس لذلك الحادث أيما ثورة، وجال بخاطره أن يفتك برعاياه
الأندلسيين
في غرناطة، وأن يزهقهم جميعاً تخلصاً من شرهم ومؤامراتهم، ورتب الخطة
لتنفيذ هذا العزم الدموى، وذلك حين اجتماع الغرناطيين بالمسجد الجامع يوم
الجمعة، ولم يقتنع بنصح وزيره اليهودى اسماعيل بن نغرالة وتحذيره من
عواقب
عمله، وحشد الجند للتنفيذ، ولكن ابن نغرالة سبقه، فدس بعض النساء إلى
دور زعماء الأندلسيين وغيرهم، لتحذيرهم من الحضور إلى المسجد، وهكذا

*(١٤٠/٢)*

فشل تدبيره، ثم عدل عنه بعد ذلك حينما أيد نصح وزيره بعض شيوخ
صنهاجة (١)
وتشيد الروايات المعاصرة والقريبة من العصر، بما كان عليه باديس من
القوة والطغيان والجبروت.
فيقول لنا عنه معاصره ابن حيان: " إنه أرفع أملاك
البرابرة في هذا الوقت شأناً، وأشدهم سلطاناً، وأكثرهم رجالا، وأوسعهم أعمالا

أملى النصر العزيز علي الأعداء إملاء واختياراً، فلبسه بغياً واستكباراً، وأساء الانتقام، ولم يقل العثرة، وأخذ بالظنة، وأسرف في العقوبة، وشدّ يداً بالعصبية وتقلد الحمية الجاهلية، واستأثر بالقسوة والجبرية، فأسلف في ذلك كله أخباراً مأثورة " (٢) .

ويقول لنا الفتح في القلائد بعبارته المسجعة المنمقة: " كان باديس

ابن حبوس بغرناطة، عاتياً في فريقه، عادلا عن سنن العدل طريقه، يجترى على الله غير مراقب، ويسرى إلى ما شاء غير ملتفت للعواقب، قد حجب سنانه لسانه، وسبقت إساءته إحسانه، ناهيك من رجل لم يبت من ذنب على ندم، ولم يشرب الماء إلا من قلب دم.

أحزم من كاد ومكر، وأجرم من راح

وابتكر، وما زال متقداً في مناحيه، مفتقداً لنواحيه، لا يرام بريث ولا عجل، ولا يبيت له جار إلا على وجل " (٣) .

ويقدم إلينا عنه ابن الخطيب تلك الصورة القوية الجامعة: " كان رئيساً يبساً، طاغية جباراً شجاعاً، داهية، حازماً، جلداً شديد الأمر، سديد الرأى، بعيد الهمة، مأثور الإقدام، شره السيف، وارى زناد الشر، جماعة للمال، ضخمت به الدولة، ونبهت الألقاب، وأمنت لحمايته الرعايا، وطم تحت جناح سيفه العمران، واتسع بطاعته المرهبة الجوانب ببأسه النظر، وانفسح الملك، وكان ميمون الطائر، مطعم الظفر، مصنوعاً له في الأعداء، يقنع أقتاله

بسلمه، ولا يطمع أعداؤه في حربة " (٤) .

على أن حفيده الأمير عبد الله بن بلقين، يحاول أن يقدمه إلينا في صورة أقل جفاء، وأكثر إشراقاً حين يقول: " وكان باديس بن حبوس – جدنا رحمه الله –، كبير النفس، عالى الهمة، حاد المزاج، لا يستطيع أحد أن يمخرق عليه في أمر

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٤٥ و ٤٤٦، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣١٤.

(٢) نقله أعمال الأعلام ص ٢٣٠.
(٣) قلائد العقيان ص ١٨.
(٤) الإحاطة ج ١ ص ٤٤٣.

(١٤١/٢)

من الأمور، ولا ينكسر لأحد من بني عمه، ثقة منه بسعادته، وأن الانخضاع والتمريض في القول لا يعنيه، ولا يزيد في أيامه.
وكان ذلك كله منه في حزم
وروية، لا يفسد جانباً حتى يصلح آخر، ويضرب بعضهم ببعض، فوجست أنفس البعض منه، وأشربوا هيبته ومخافته " (١) .
والخلاصة أن باديس كان طاغية من أقوى الطغاة البربر، الذين عرفتهم الأندلس، ومن أشدهم دهاء وقسوة وإقداماً، ومن أكثرهم ظفراً في الحروب.
وكان أسوة بسائر ملوك الطوائف، قد اتخذ ألقاب الملك، وتلقب بالمظفر بالله، الناصر لدين الله.
- ٥ -
ولما توفى باديس المظفر بالله، اتفق رجال الدولة وشيوخ صنهاجة على تولية حفيده عبد الله بن بُلُقِّين مكانه، وكان صبياً حدثاً.
وكان أخوه الأكبر تميماً
يتولى حكم مالقة منذ أيام جده.
أما ماكسن ولد باديس، فقد كان خارجاً
على أبيه حسبما ذكرنا من قبل، وكان قد عاد إلى مدينة جيان، وامتنع بها، وكان سيىء الخلال والسيرة، فلم يلتفت إليه، ولم يقم أحد بدعوته، وتولى تدبير الدولة ورعاية الملك الصبى، الوزير سماجة أحد شيوخ صنهاجة، وكان هذا الوزير رجلا حازماً، قوى العزم، شديد السطوة، مرهوب الجانب، فضبط الدولة، واستأثر بالسلطة، وأحسن السيرة.
وكان المعتمد بن عباد يرقب سير الحوادث في غرناطة.

فلما توفى باديس، وخلفه حفيده الصبى، أدرك أن الفرصة قد سنحت لتحقيق مشاريعه، فسار فى
قواته إلى مدينة جيان، أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية، واستولى عليها (٤٦٦ هـ
- ١٠٧٤ م) .
ثم سار بعد ذلك إلى غرناطة في قوات كبيرة، وابتنى بعض الحصون على مقربة منها، لكى يستطيع بواسطتها إرهاق المدينة. فحشد الوزير
سماجة قوات صنهاجة، وأبدى منتهى العزم في مقاومة المغيرين، فاضطر ابن عباد
أن يعود أدراجه دون طائل (٢) .
ورأى الأمير عبد الله بتوجيه وزيره سماجة، أن
يعقد مع ألفونسو السادس ملك قشتالة، على نسق معظم أمراء الطوائف، معاهدة

---

(١) كتاب التبيان ص ٢٧.
(٢) أعمال الأعلام ص ٢٣٤.

*(١٤٢/٢)*

حلف وصداقة، يتعهد فيها بتأدية جزية قدرها عشرون ألف دينار . وعلى أثر
ذلك سار عبد الله في قوات صنهاجة، ومعها سرية من الجند النصارى أمده بها
ألفونسو السادس، وأغار على أراضي إشبيلية المجاورة، واستطاع أن يسترد حصن قبرة الواقع في جنوب غربى جيان.
وفى العام التالى سار ألفونسو إلى إشبيلية وغرناطة، ومعه وزيره ومستشاره

النصرانى المستعرب الكونت سسنندو (ششنند) ، وهو الذى سبق ذكره فى حوادث سقوط طليطلة، ليطالب بأداء الجزية المفروضة.
ويقول لنا الأمير
عبد الله في مذكراته، إنه أبي أن يدفع تلك الجزية، وإنه لم يخش يومئذ ضراً من ألفونسو، وذلك أسوة بما فعل غيره من ملوك الطوائف (١) .
وهنا يقوم
المعتمد بن عباد بدوره المأثور في انتهاز الفرصة، وفي استعداء ملك قشتالة. ذلك
ْأنه بعث وزيره ابن عمار إلى ألفونسو السادس، فعقد معه اتفاقاً وحلفاً، خلاصته
أن يتعاون الفريقان في افتتاح غرناطة، وأن تكون المدينة ذاتها لابن عباد، وأن
يكون سائر ما فيها من الأموال لملك قشتالة، وأن يؤدى ابن عباد إليه فوق ذلك
جزية قدرها خمسون ألف دينار (٢) .
وأمد ملك قشتالة ابن عمار بسرية من جنده.
وبدأ بتنفيذ الخطة بإنشاء حصن
على مقربة من غرناطة، شحنه بالجند لإرهاق المدينة.
وحاول ابن عباد أن يؤثر
بواسطة هذا الحصن في أهل المدينة، ولكنه لم ينل منها مأرباً بالرغم مما أحاق بها
من الضيق.
ولما منى ابن عباد بالهزيمة في قرطبة على يد ابن ذى النون (٤٦٧ هـ) اضطر أن يخلى الحصن، فاحتلته جنود غرناطة.
ثم عاد ابن عمار فحرض ألفونسو السادس على غزو أراضي غرناطة، وزين له سهولة افتتاحها، وعندئذ رأى عبد الله بن بلقين أن يتفاهم مع الملك

النصرانى، فسار إليه بنفسه، وأسفرت المفاوضات بينهما عن تعهد عبد الله بأن يؤدى جزية سنوية قدرها عشرة آلاف مثقال من الذهب، وأن يسلم بعض الحصون الواقعة جنوب غربى جيان، وهذه باعها الملك النصرانى إلى ابن عباد.

وينقل إلينا الأمير عبد الله بهذه المناسبة، ما سمعه من أقوال الكونت سسنندو (ويسميه ششلاند) مستشار ألفونسو، شرحاً لسياسة مليكه في الاستيلاء

---

(١) كتاب التبيان ص ٦٩.

(٢) التبيان ص ٧٠.

(١٤٣/٢)

على الأندلس، على النحو الآتى، قال: " وإنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر، حتى غلب عليهم العرب، وألحقوهم بأنحس البقاع، جليقية، فهم الآن عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم، فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال، أخذناها بلا تكلف " (١) .

والتفت عبد الله للشئون الداخلية، فعمل أولا على إزالة وزيره سماجة، وكان هذا الوزير قد غلا في الاستئثار بالسلطة، والاستبداد بالأمور، حتى شعر عبد الله بأنه لم يبق له سلطان إلى جانبه.

ومن جهة أخرى، فقد كان هذا

الاستبداد يثير سخط رجال الدولة وطوائف الشعب عليه، حسبما يحدثنا بذلك الأمير في مذكراته، ومن ثم فقد عمل عبد الله على إقالة وزيره بالحسنى، وسمح

له أن يسير في أهله وأمواله الطائلة إلى ألمرية، حيث نزل بها في كنف صاحبها

ابن صمادح، واستقر هناك بحال ثروة وغناء (٢) .

وحاول عبد الله أن يعمل في نفس الوقت على تنظيم الإدارة، وعزل الحكام

الظلمة، وبدأ في ذلك بوادي آش، فعزل حاكمها ابن أبي جوش واعتقله، ثم عزل حاكم المنكب وعين حكاماً آخرين يظن فيهم العدل وحسن السيرة.
وعقد الصلح والمودة مع ابن صمادح صاحب ألمرية، بعد أن سوى النزاع بينهما
على حصون الحدود مما يلى فنيانه (٣) .
وكان تميم بن بلقين أخو عبد الله، قد استقل في تلك الأثناء بحكم مالقة وأعمالها، وتلقب بالمنتصر بالله، واستبد وأساء في حكمه السيرة، وأخذ يغير على نواحى المنكب وغيرها مما هو واقع تحت حكم أخيه.
فسار إليه عبد الله فى
بعض قواته، واستولى على بعض حصون مالقة الأمامية، ثم وقع القتال بين قوات الأخوين أمام مالقة وهزم عبد الله أولا، ولكنه عاد فهزم جند مالقة، وضيق على المدينة، فبعث إليه أخوه يستعطفه، وتدخلت والدتهما في الأمر، وخشى عبد الله من جهة أخرى أن يتحول أخوه إذا اشتد عليه، إلى محالفة ابن عباد، فمال إلى مهادنته، وترك له حكم مالقة ونواحى الغربية أى غربى مالقة.

---

(١) كتاب التبيان ص ٧٣.

(٢) كتاب التبيان ص ٨٧ و ٨٨، وأعمال الأعلام ص ٢٣٥.

(٣) كتاب التبيان ص ٨٩ و ٩٠.



وثار في نفس الوقت كباب بن تميت حاكم أرشدونة (أرجدونة) وأنتقيرة وعاث فساداً في تلك المنطقة، فسار إليه عبد الله، وضيق عليه، حتى خضع، وأخرج بالأمان.
وأخيراً تم عقد الصلح والمهادنة بين عبد الله بن بلقين والمعتمد بن عباد، ولم يتيسر ذلك إلا بعد مصرع ابن عمار وزير المعتمد، وهو الذى يصفه عبد الله

" بالفاسق " وبأنه كان أس الفتنة، وسويت بين الفريقين سائر وجوه النزاع، من حدود وغيرها (أواخر سنة ٤٧٧ هـ) .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك، حتى وقع الحادث بسقوط طليطلة في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة، وذلك في فاتحة صفر سنة ٤٧٨ هـ (٢٤ مايو سنة ١٠٨٥ م) ؛ فاهتزت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها، وأفاق ملوك الطوائف لأول مرة من تلك الغمرة التي خدرت مشاعرهم، وأعمت بصائرهم مدى نصف قرن، سادت فيه بينهم الفتن والحروب الأهلية، ولبثوا يمزقون بعضهم بعضاً، والعدو الخالد يضرب بينهم، ويؤلب بعضهم على بعض ويتربص الفرصة لانتزاع كل ما يمكن انتزاعه من أراضي ذلك الوطن الذى نسوا قضيته، وضحوا بمصلحته العليا، استبقاء لمصالحهم الخاصة، وأطماعهم الدنيا.

كان سقوط الحاضرة الأندلسية الكبرى – طليطلة – إذن نذير الخطر العام فنهض المعتمد بن عباد – وقد كان يحمل في وقوع تلك المحنة أكبر الأوزار – ونهض زملاؤه أمراء الطوائف، يحاولون جمع الكلمة، ويزمعون الاستنجاد بإخوانهم فيما وراء البحر، ويبعثون بصريخهم، إلى عاهل المرابطين الأمير يوسف ابن تاشفين، حسبما فصلنا ذلك من قبل في أخبار مملكة إشبيلية.

ويقول لنا الأمير عبد الله في مذكراته، إن أول من خطر له الاستنصار بالمرابطين من أمراء الأندلس، هو أخوه الأمير تميم والى مالقة، وأنه أراد أن يستعين بهم ضده ليستدرك ما فاته من مملكة جده باديس، ولكن أمير المسلمين لم يلتفت إلى دعوته (١) .

وقد كان عبد الله على اتفاق مع زملائه أمراء الطوائف في استدعاء

المرابطين، وقد أرسل رسله مع رسل ابن عباد إلى أمير المسلمين، وتم الاتفاق فيما بين

---

(١) كتاب التبيان ص ١٠٢.

(١٤٥/٢)

أمراء الأندلس، وبين أمير المسلمين على أن يتحدوا جميعاً بمعونته على غزو قشتالة، وعلى أنه لا يعرض لأحدهم في بلده، ولا يشجع أحداً ممن يروم الخروج عليه (١) .

ويحمل ابن الخطيب على الأمير عبد الله، ويقول إنه كان جباناً مغتمد السيف متكاسلا عن الخيل، زاهداً في النساء، موصوفاً بالضعف، لكنه يكتب ويشعر ويتحدث فيما يتحدث فيه الطلبة، ثم يقول لنا إنه وقف خلال زيارته لبلده أغمات

على ديوان لعبد الله بخطه " ألفه بعد خلعه، وقرر فيه أحواله والحادثة عليه، مما يستظرف من مثله " مشيراً بذلك إلى مذكراته، وهى التي رجعنا إليها فى مختلف المواطن (٢) .

ونستطيع أن نستشف من هذه المذكرات التي تركها لنا الأمير عبد الله بعنوان " كتاب التبيان " والتي كتبها فيما بعد خلال إقامته في منفاه بأغمات، وسرد فيها

تاريخ آبائه، وأحوال حكمه، وحوادث الأندلس في عصره: نستطيع أن نستشف منها ما يؤيد قول ابن الخطيب في جنوح الأمير عبد الله إلى السلم والملاينة

والدعة، وفي مجانبته للإقدام، وتخوفه من الحروب وعواقب النضال، وحبه للسلامة والعافية، وإنه ليشكر الله في آخر مذكراته أن نجا من المصير الذى حل

بابن الأفطس، حيث فقد حياته مدافعاً عن نفسه ضد المرابطين (٣) .

---

(١) التبيان ص ١٠٣.
(٢) راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٥.
(٣) كتاب التبيان ص ١٧٦.

(١٤٦/٢)

الفصْل الثاني
الإمارات البربرية الأخرى
في جنوبى الأندلس
الإمارات البربرية في الجنوب.
خواصها وتكتلها.
إمارة قرمونة.
بنو برزال وجوازهم إلى
ْالأندلس.
ولاية عبد الله البرزالى لقرمونة.
استبداده بها.
حكمه وسيرته.
التحالف بين
البرزالى وابن عباد.
انقلاب ابن عباد عليه.
الحرب بين ابن عباد والبربر.
وفاة البرزالى وولاية
ولده إسحاق.
ولاية عزيز المستظهر.
إرهاق ابن عباد له.
نزوله عن قرمونة لابن ذى النون.

نزول
ابن ذى النون عنها إلى ابن عباد.
بنو يفرن وجوازهم إلى الأندلس.
نزولهم أيام الفتنة برندة.
زعيمهم
أبو نور هلال.
مصانعة ابن عباد للبربر ثم غدره بهم.
باديس ولد أبي النور.
عود أبي النور إلى
رندة ووفاته.
ولده أبو نصر فتوح ومصرعه.
استيلاء ابن عباد على رندة.
بنو دمر وهجرتهم إلى
الأندلس.
نزولهم بمورور.
أبو تزيرى الدمرى وولده نوح.
محمد بن نوح ومصرعه في كمين ابن
عباد.
ولده مناد يخلفه.
غارات المعتمد على مورور.
إذعان مناد ونزوله عنها إلى ابن عباد.
بنو خزرون
وتغلبهم على أركش.
محمد بن خزرون وخلفاؤه.
غارات ابن عباد على أركش.
تخلى بني خزرون عنها

وخروجهم منها.

مداهمة ابن عباد لهم.

استيلاء ابن عباد على أركش وأراضيها.

انتهاء

الدول البربرية في تلك المنطقة.

إلى جانب دولة بني مناد أو بني زيرى في غرناطة، كانت تقوم ثمة عدة

إمارات بربرية أخرى في هذه المنطقة الجنوبية من الأندلس، منطقة المثلث

الإسبانى

الواقع جنوب نهر الوادي الكبير، والممتد من غربى مملكة غرناطة شرقاً،

حتى

مصب الوادي الكبير غرباً، ومن الوادي الكبير شمالا، حتى ثغر مربلة وأرض

الفرنتيرة جنوباً.

ومن الواضح أن اجتماع هذه الممالك البربرية الصغيرة في هذه المنطقة،

يرجع

إلى عوامل جغرافية وعسكرية.

ذلك أن المثلث الإسبانى هو أقرب مناطق شبه

الجزيرة إلى المغرب، بحيث تغدو مغادرة الأندلس وقت الخطر أو عند

الضرورة أمراً ميسوراً، وكذلك تستطيع الأمداد من أقوامها أن تعبر البحر من

المغرب إلى الأندلس بسرعة وسهولة.

ومن جهة أخرى فإن اجتماع هذه الإمارات

في هذه المنطقة جنباً إلى جنب، كان يحمل معنى التكتل القَبَلى أو العنصرى

بصورة

واضحة، ويمكنها وقت الخطر من توحيد الصفوف، والتعاون على رد العدو

المهاجم.
وهذا ما رأينا ينطبق بصورة عملية في المعارك التي لبثت طوال أيام الطوائف، تضطرم في هذه المنطقة بين البربر وبين خصومهم الألداء بني عباد، وهم أقوى الممالك الأندلسية المناهضة لهم في معظم النواحى.
وقد قامت هذه الممالك البربرية الصغيرة إلى جانب شقيقتها الكبرى، دولة بنى مناد في غرناطة، وفي مثل الظروف التي قامت فيها، وكانت مملكة غرناطة
تتولى حمايتها والدفاع عنها كلما دهمها خطر بني عباد، وكانت هى تلتف في نفس
الوقت حول غرناطة، كلما دعت إلى ذلك ضرورة سياسية أو عسكرية.
ولم تكن هذه الإمارات البربرية تملك مقومات الدولة الراسخة المستقرة، ولكنها كانت في الواقع أقرب إلى سيادة العصبة القبلية، أو رياسة الأسرة ذات البأس والجاه، ولم يكن في حكومات أو جيوش منظمة بالمدى الصحيح، وإنما كانت تستند في سلطانها إلى حشود القبيلة أو الأسرة المسيطرة، وكانت تجرى في الحكم على قاعدة الإستبداد المطلق، وأصول العرف البدوى الساذج، ومن ثم فإنها لم تكن محبوبة من رعاياها الأندلسيين.
الذين عرفوا منذ بعيد مزايا
الحكم المنظم، ورفاهة العيش المتحضر.
وكانت ثمة من هذه الإمارات – غير مملكة غرناطة – أربع تقوم من حولها وهى إمارة قرمونة، وإمارة رندة، وإمارة مورور، وإمارة شذونة وأركش.
١ – دولة بني برزال في قرمونة
وكان أهم هذه الإمارات، إمارة قرمونة الواقعة في منحنى الوادي الكبير، بين إمارة قرطبة شرقاً، ومملكة إشبيلية غرباً، وقاعدتها مدينة قرمونة الحصينة الواقعة شمال شرقى إشبيلية.
وكانت تشمل غير قرمونة، مدينة إستجة الواقعة
في شرقها.

ومدينة المدَوّر الواقعة غربى قرطبة على نهر الوادي الكبير.
وكانت مدينة قرمونة منذ أيام هشام المؤيد، وقبل انهيار الدولة العامرية، بيد
حاكمها الحاجب أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن برزال المعروف بأبى عبد
الله
البرزالى، وكان بنو برزال هؤلاء ينتمون إلى بطن من بطون زناتة من بني
يفرن، وكانوا يقطنون بالمغرب بأرض المسيلة والزاب الأسفل.
ونحن نعرف أن زناتة
كانت أيام الدولة الأموية من القبائل المشايعة لها بالمغرب ضد خصومها
الشيعة
العبيديين أو الفاطميين، وكان من خصوم الشيعة في نفس الوقت جعفر
ويحيى

(١٤٨/٢)

ابنا على بن حمدون الأندلسي، صاحب المسيلة وما جاورها من أراضي
المغرب
الأوسط.
فلما اضطرمت الحرب بين بني زيرى زعماء صنهاجة وأولياء العبيديين.
وبين زناتة وحلفائها، ومنهم جعفر ويحيى ابنا حمدون، في أواخر أيام الحكم
المستنصر، وهزمت صنهاجة وقتل كبيرهم زيرى بن مناد (سنة ٣٦٠ هـ)،
هاجر جعفر ويحيى في الأهل والصحب والمال إلى الأندلس، خوفاً من انتقام
صنهاجة، وخدما الحكم المستنصر، وحظيا في دولته، وذلك حسبما ذكرنا من
قبل في أخبار الحكم.
ولما استطالت صنهاجة على المغرب الأوسط، شعر بنو برزال الزناتيين
باشتداد وطأتها، فكتبوا إلى جعفر بن على الأندلسي، أن يسعى في جوازهم
إلى الأندلس لدى الخليفة الحكم، فعمل جعفر على تحقيق رغبتهم، ووصفهم
لدى الحكم بالشجاعة والإنقياد إلى الطاعة، فأذن لهم بالجواز، وانتظموا فى

خدمة الجيش تحت يد جعفر، واستمروا كذلك أيام الحكم ثم المنصور، حتى ندب كبيرهم الحاجب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن برزال أو البرزالى لحكم
مدينة قرمونة في أواخر الدولة العامرية، واستقر أهله وصحبه هنالك في كنفه، إلى أن وقعت الفتنة، فخاض بنو برزال غمارها إلى جانب أضرابهم من البطون
البربرية الأخرى، ولما انتثر عقد الأندلس، واحتفظ كل رئيس بمدينته، دعا أبو عبد الله لنفسه في قرمونة، وذلك في سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) ، واستبد بحكمها، وضبط شئونها، ورتب جندها (١) .
وفى بعض الروايات المتعلقة
بالطوائف أن أبا عبد الله سار في حكمه سيرة حسنة، وعامل الرعية بالرفق والعدل
فمالت إليه النفوس، وعمرت قرمونة، وسادها الأمن، وبايعته مدينة إستجة ثم أشونة والمدور وغيرها من البلاد (٢) ، وغدت قرمونة بذلك إمارة لها خطرها وأهميتها في تلك المنطقة، وغدت بعد غرناطة، ثانى الإمارات البربرية.
ولكن ابن حيان، وهو المؤرخ المعاصر، يحمل على أبي عبد الله البرزالى ويصفه " بقطب رحى الفتنة " وينوه بفتكه وعيثه، وقبح آثاره في تلك المنطقة،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٧ و ٢٦٨: ونبذ تاريخية في أخبار البربر (الرباط
١٩٣٤) ص ٤٤.
(٢) نشرت هذه الرواية المتعلقة بالطوائف، وهى لكاتب مجهول في نهاية الجزء الثالث من
البيان المغرب.
راجع منها ص ٣١١ و ٣١٢.

وقطعه للسبل إلى آخر ما جاء في أقواله، مما سبق أن ذكرناه في موضعه
من قبل (١) .

وعلى أى حال فإنه يبدو أن البرزالى، كان زعيما قوياً، وافر الإقدام والعزم
والشجاعة.

وهذا ما يقرره لنا ابن الخطيب، إذ يصفه بأنه كان يلى باديس فى
جلالة الشأن، وقوة السلطان، " بقية أمراء البربر المسلطين في هذه الفتنة،
وأعظمهم شأناً في الدهاء والرجولة، وأبصرهم بتدبير العساكر، وأربطهم جأشاً
على الخطوب المقلقة " (٢) .

وقد رأينا من قبل كيف كان القاضى ابن عباد صاحب إشبيلية، يعتمد فى
البداية على محالفة البرزالى ضد خصومه، وكيف كان البرزالى من جانبه
يرحب
بهذه المحالفة، اتقاء لشر بني حمود وأطماعهم في إمارته.

وكان من آثار هذا
التحالف أن حارب البرزالى إلى جانب ابن عباد ضد بني الأفطس أصحاب
بطليوس، في حملته ضد باجة سنة ٤٢١ هـ، وكان من آثاره أيضاً أن توجى
يحيى
ابن حمود المعتلى صاحب مالقة شراً من مشاريع ابن عباد، فسار في قواته
إلى
قرمونة وانتزعها من يد البرزالى، فاستغاث البرزالى بحليفه ابن عباد، وبعث
ابن عباد قواته مع ولده إسماعيل، ونشبت بينه وبين المعتلى معركة قتل فيها
المعتلى، واستردت قرمونة وأعيدت إلى البرزالى، وذلك في المحرم سنة ٤٢٧
هـ
(١٠٣٦ م) .

ولكن ابن عباد كانت له نحو قرمونة مشاريع أخرى، فقد كانت قرمونة

حصن إشبيلية من الشرق، وكان وجودها بيد هذا الزعيم البربرى أمر لا يحتمل، ومن ثم فقد تحول ابن عباد فجأة إلى مخاصمة البرزالى، وسير إليه قواته فاستولت

على إستجة، ثم استولت بعد ذلك على مدينة قرمونة، وعندئذ استغاث البرزالى، بزملائه البربر، وهرع إلى نصرته باديس صاحب غرناطة، وإدريس المتأيد

صاحب مالقة، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة، انتهت بانتصار البربر وهزيمة الإشبيليين ومقتل أميرهم إسماعيل بن عباد، واسترداد قرمونة، وذلك في أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م) .

وتوفى أبو عبد الله محمد البرزالى بعد ذلك بثلاثة أعوام سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) بعد أن حكم قرمونة وأعمالها ثلاثين عاماً.

---

(١) راجع ص ٣٦ من هذا الكتاب.

وراجع البيان المغرب ص ٢٠٦.

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٣٦.

*(٢/١٥٠)*

فخلفه والده الأكبر إسحق بن محمد، وهو في سن الكهولة.

ويصفه

ابن حيان بأنه كان رئيساً حازماً وافر الكفاية والبأس والفروسية، ولكن دون أبيه محمد في القسوة والفظاظة " وكلاهما على ذلك موصوف بالعفة والنزاهة، والبعد عن آفات الملوك الشائنة " (١) .

والظاهر أنه لم يحكم طويلا.

بل إن صاحب

الرواية الخاصة بالطوائف، التي سبقت الإشارة إليها، يغفل ذكره تماماً، ويقول لنا إن الذى خلف أبا عبد الله البرزالى، هو ولده عزيز الملقب بالمستظهر

وإن أخاه إسحق بايعه، وتم له الأمر (٢) .
وسار المستظهر في حكمه سيرة حسنة، وبايعت له البلاد التي كانت تحت
حكم أبيه، وساد الأمن والرخاء في أيامه، بيد أنه لم يلبث أن بدأ المعتضد بن
عباد
في مضايقته وإرهاقه بغزو أراضيه وانتساف زروعه، واستمرت المعارك بينهما
أعواماً، وهلك في ذلك النضال كثير من البربر، واضطربت الأحوال في
مملكة
قرمونة، وعندئذ بعث عزيز المستظهر إلى المأمون بن ذى النون صاحب
طليطلة، يعرض عليه أن يسلمه قرمونة، نكاية في ابن عباد، على أن
يعوضه عنها ابن
ذى النون قسماً من أراضيه الجوفية، فقبل المأمون هذا العرض، وانتقل عزيز
بأهله وأمواله إلى حصن المدور شمالى إستجة من أراضيه، وعاش هنالك
حتى
توفى.
وفى أثناء ذلك وقعت المفاوضة بن ابن عباد، والمأمون، وتفاهما على أن
ينزل المأمون للمعتضد عن قرمونة لقربها من أراضيه، وأن يتعاون الاثنان
على
افتتاح قرطبة، واستلم ابن عباد قرمونة ولكنه لم يف للمأمون بشىء من
عهوده (٣) .
وفى رواية أخرى، أن المستظهر اضطر في النهاية أن ينزل مباشرة عن
قرمونة
إلى ابن عباد، بعدما يئس من القدرة على الاحتفاظ بها، وأنه سار بأمان ابن
عباد
إلى إشبيلية، وهنالك توفى بعد قليل.
وكان استيلاء ابن عباد على قرمونة فى
سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) .

وبذلك انتهت دولة بني برزال في هذا القطاع من المثلث الأندلسي، واختفت واحدة من الإمارات البربرية (٤) .

---

(١) نقله أعمال الأعلام ص ٢٣٧.

(٢) ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٢.

(٣) راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٨.

(٤) راجع في أخبار مملكة قرمونة، أعمال الأعلام ص ٢٣٦ - ٢٣٨، وذيل البيان المغرب
ص ٣١١ و ٣١٢.
وكذلك: P.
y Vives: Historia de Los Reyes de Taifas ; p.
٢٣

(١٥١/٢)

٢ - دولة بني يفرن في رندة

وبنو يفرن هم أيضاً بطن من بطون زناتة، وكانوا بالمغرب من أولياء الدعوة الفاطمية، وقد اشتركوا في الحرب التي وقعت بالمغرب أيام المنصور بن أبي عامر، وقاتلهم زيرى بن عطية أمير مغراوة وعامل المنصور على المغرب، حتى هزمهم
بعد معارك هائلة، وهلك أميرهم يدُّو بن يعلى وذلك في سنة ٣٨٣ هـ. وعلى أثر
ذلك افترقوا إلى شقين، وجنحت منهم شيعة إلى الانحياز إلى الدعوة المروانية، واستأذنوا المنصور في الجواز إلى الأندلس، فأذن لهم وخدموا في الدولة والجيش
أسوة بباقى الوافدين من القبائل البربرية.

ولما انتهت الدولة العامرية، واضطربت

نار الفتنة، وتفرقت القبائل البربرية في النواحى، استقر بنو يفرن في ولاية تاكرونَّا، واتخذوا من قلعتها رندة مركزاً لرياستهم (١) ، وكان زعيمهم يومئذ هو أبو نور هلال بن أبي قرة بن دوناس اليفرنى.

وكان زعيماً " جسوراً جشعاً، مقداماً، عزيز الجانب ببأس رجاله ووعورة رحاله، وحصانة قلاعه "، ولكنه

كان في نفس الوقت عاطلا عن كل فضيلة وكل خلة حسنة.

وبدأ هلال رياسته

لمنطقة تاكرونَّا، حسبما يقول لنا صاحب الرواية المتعلقة بتاريخ الطوائف، عقب وفاة إدريس بن على بن حمود في سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م) (٢) ، وكانت تشمل

أراضي ولاية ريُّه، ما بين نهر وادي لكه والبحر، وكانت قاعدتها رندة من أمنع معاقل الأندلس الجنوبية.

وقد رأينا القاضى ابن عباد يخطب منذ البداية

ود أولئك الأمراء البربر الذين يحتلون أراضي القطاع الأندلسي الجنوبى المتاخم

لأراضيه.

وجرى ولده المعتضد على سياسته في توثيق أواصر المودة معهم.

بيد

بيد أن سياسة بني عباد، لم تكن تقوم في ذلك حسبما رأينا، على الصدق والولاء، وإنما كانت تقوم على الخديعة والمصانعة، وقد تجلت حقيقتها في حوادث مملكة

قرمونة.

وهكذا كان المعتضد يبدى مودته لأبى نور زعيم بني يفرن، وزملائه أمراء بنى دمر أصحاب ولاية مورور، وبنى خزرون أصحاب ولاية شذونة وأركش،

---

(١) نبذ تاريخية في تاريخ البربر ص ٤٥.

(٢) راجع ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٢.
ويقول صاحب الرواية إن هلالا قد بويع له
بعد موت إدريس بن على بن حمود سنة ست وأربمائة وهو تحريف.
فقد توفى إدريس سنة
٤٣١ هـ (١٠٣٩ م) .

*(١٥٢/٢)*

وكان يستميلهم بالصلات والدعوات الودية.
وفى سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م)
وجه المعتضد دعوته لأبى نور، ولمحمد بن نوح الدمرى صاحب مورور،
والقاسم
ابن محمد بن خزرون أمير بني أرنيان وصاحب شذونة وأركش، لزيارته فى
إشبيلية، فساروا إليه في صحبهم وفرسانهم في أحسن زى وأكمل هيئة.
وكان
المعتضد قد دبر كمينه لاغتيالهم حسبما فصلناه من قبل في أخبار مملكة
بني عباد، وانتهت هذه الدعوة الغادرة بالقبض على أولئك الأمراء وصحبهم
وتكبيلهم بالأغلال
ثم هلاك اثنين منهم، وهما ابن نوح وابن خزرون، في الحمام، وأفلت منهم
هلال أبو نور، حيث أطلق المعتضد سراحه وأخلى سبيله.
وفى خلال ذلك كان باديس ولد هلال أبي نور، قد قام بالرياسة في غيبته
أثناء اعتقاله بإشبيلية، وكان " فاسقاً مجرماً " فاستبد بالأمر، وأرهق الناس
ببغيه وطغيانه، وأطلق العنان لشهواته الدنيئة، فاستباح الحرم وسطا على
الأعراض
هو وصحبه، فكانوا يأخذون الزوجات من أزواجهن، والبنات من آبائهن، ولم
يفر حتى أقرب الناس إليه من خاصة محارمه.
فلما تخلص أبو نور من الأسر، وعاد

إلى رندة، وعلم بما وقع من ولده من العظائم، أمر في الحال بالقبض عليه. وإعدامه
وذلك في سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) .
إلا أنه لم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى
توفى أبو نور نفسه، وخلفه في الإمارة ولده أبو نصر فتوح بن أبي نور (١) .
واستطال حكم أبي نصر زهاء ثمانية أعوام.
وكان عادلا حسن السيرة.
بيد
أنه كان ميالا إلى الدعة منهمكاً في الشراب.
وكان المعتضد بن عباد من جهة أخرى
يتربص به ويترقب الفرصة لهلاكه، وانتهى بأن دس عليه رجلا من دعاته برندة
يدعى ابن يعقوب، وكان فارساً مقداماً، فدهم أبا نصر ذات يوم في جماعة من
صحبه، وهو في إحدى شرفات القصبة العليا، وصاحوا بشعار بني عباد، فحاول
أبو نصر الفرار، ووثب من الشرفة فهوى إلى أسفل، فارتطم بالصخر وزهق على الأثر، ولم يأبه الناس لما حدث، ولم يتعرض للقتلة أحد.
وانتهت بذلك
دولة بني يفرن، واستولى ابن عباد على رندة وأعمالها بأيسر أمر، وكان ذلك في سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) (٢) .
ونظم المعتضد بهذه المناسبة قصيدته التي مطلعها:
لقد حصلت يا رندة..

.

فصرت لملكنا عقدة

---

(١) ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٣.
(٢) ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٣ و ٣١٤.

(١٥٣/٢)

٣ - دولة بني دمّر في مورون
وكانت ثالثة الإمارات البربرية في تلك المنطقة من الأندلس الجنوبية، هى
إمارة بني دمر في مورور أو مورون (١) .
وكانت تشغل رقعة صغيرة تمتد حول
مدينة مورور، وجنوباً حتى وادي لكه.
وقام بها أيام الفتنة نوح بن أبي تزيرى الدمّرى
زعيم بني دمّر.
وقد كان بنو دمر من بربر تونس ومن بطون زناتة، وهم خوارج
إباضية.
وفد جدهم أبو تزيرى إلى الأندلس أيام المنصور، وخدم كسائر زملائه
الزعماء البرابرة في الجيش، وانحاز منذ أيام الفتنة إلى تلك المنطقة، واستقر
بها وبسط عليها سلطانه.
ولما توفى في سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) خلفه ولده نوح بن
أبى تزيرى، واستمر في حكمها زهاء ثلاثين عاماً، ثم توفى سنة ٤٣٣ هـ
(١٠٤١ م)
فخلفه ولده محمد بن نوح.
وكان محمد فتى غراً، وجندياً جاهلا، خلواً من
الفضائل.
بيد أنه كان مقداماً جسوراً، " وافر العنف والفتك " (٢) .
وكان حديث
عهد بالإمارة، فاستبد وبغى وتلقب بعز الدولة، واستطاع بجرأته وصرامته،
أن يحافظ على سلطانه وعلى أراضيه.

وكان المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية
ينظر بعين السخط إلى قيام تلك الإمارات الصغيرة بجوار مملكته القوية
الشاسعة،
ويعمل الفكرة في إزالتها، وكان حسبما تقدم يصانع أولئك الأمراء البربر أحياناً
ويهاجمهم أحياناً أخرى، وقد ذكر لنا صاحب الذخيرة أنه استغل هذه السياسة
المزدوجة تجاه إمارة مورور الصغيرة، فأغارت قواته على أراضي مورور،
واستقبل محمد بن نوح هذا العدوان بالحلم والصبر، ولم يقابله بمثله (٣) .
وجنح
المعتضد بعد ذلك إلى مصانعة ابن نوح، واستمالته بالصلات والهدايا، كما
فعل
ذلك مع زميليه، أبي نور صاحب رندة، وعبدون بن خزرون صاحب أركش،
ثم دعاهم وصحبهم كما تقدم إلى زيارته في إشبيلية، ثم قبض عليهم وغدر
بهم،
وهلك في ذلك الكمين الخائن الذى رتبه المعتضد في سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣
م)
محمد بن نوح وابن خزرون.
وفى رواية أخرى أن محمداً بن نوح لبث فى

---

(١) وهى بالإسبانية Moron.
(٢) أعمال الأعلام ص ٢٣٩، وذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٥.
(٣) نقله صاحب البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٤.

(١٥٤/٢)

معتقل المعتضد حتى توفى في سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) .
فخلفه في الإمارة ولده مناد بن محمد بن نوح، وتلقب بعماد الدولة، وسار
على سنة أبيه من الصرامة والحزم، وقصده البربر من إشبيلية وإستجة وزادت

جموعه، واستمر محافظاً على سلطانه، والمعتضد بن عباد يكرر الإغارة على أراضيه، ويحرق بلاده وزروعه، ويرهقه بطريقة قاسية منظمة.

فلما ضاق بهذا

العدوان المستمر، ولما شعر في النهاية أنه عاجز عن الدفاع عن إمارته، كتب إلى

المعتضد، يسأله الأمان والمسالمة على أن يسلمه أراضيه، ويخرج إلى إشبيلية،

يعيش فيها تحت كنفه، فأجابه المعتضد إلى رغبته، وسلم إليه عماد الدولة حصن

مورور، وما يتبعه من حصون وأعمال، وذلك في سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) ، وانتهت بذلك مملكة بني دمّر الصغيرة، وأضيفت إلى أعمال مملكة إشبيلية الشاسعة.

وسار عماد الدولة إلى إشبيلية في أهله وأمواله، وبالغ المعتضد في إكرامه والتوسعة

عليه، وعاش هناك حتى توفى في سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م) .

٤ - دولة بني خزرون في أركش

وكانت دولة بني خزرون هى رابعة الإمارات البربرية الصغيرة في تلك المنطقة.

وبنو خزرون هم من أبناء قبيلة يرنيان أو إرنيان من زناتة، وكان زعيمهم أبو عبد الله محمد بن خزرون بن عبدون الخزرى، وهو كغيره من زعماء البربر الوافدين على الأندلس أيام الدولة العامرية، قد ظهر أيام الفتنة بمدينة قلشانة بكورة شذونة على مقربة من أركش، وذلك في سنة اثنتين وأربعمائة.

ثم تغلب على مدينة أركش المنيعة، وأقام بها حكومة مستقلة تشمل الأنحاء المجاورة،

وتلقب بعماد الدولة، وكان زعيماً جسوراً مقداماً، سفاكاً للدماء، فهابه الناس

واستمر يحكم تلك المنطقة حتى توفى في سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) .
فخلفه ولده عبدون
ابن خزرون، وبايعته البلاد المجاورة لأركش وقلشانة وشريش، واستمر حكمه
زهاء خمسة وعشرين عاماً، إلى أن هلك بإشبيلية في الكمين الشائن، الذى
استدرجه
إليه المعتضد بن عباد هو وزميلاه محمد بن نوح الدمرى، وأبو نور بن أبي
قرة،
حسبما أشرنا إلى ذلك غير مرة، وكان ذلك في سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) .
فتولى الأمر من بعده أخوه محمد بن خزرون وتلقب بالقائم، وأخذ
يحصن بلاده، ويتأهب لمقاومة ابن عباد بعد الذى بدا من غدره.
والواقع أن

(١٥٥/٢)

ابن عباد ما فتىء يترقب الفرصة للاستيلاء على هذه المنطقة التي تجاوره
من
الجنوب الشرقى، وتفصله عن إمارة رندة، وهى التي كان يطمح إلى أخذها
فى
نفس الوقت، فعمد إلى الإغارة عليها، وتخريب أراضيها وإرهاقها بكل الوسائل
وابتنى حصناً على مقربة من أركش وشحنه بالمقاتلة لمضايقتها بطريقة
منظمة،
والقائم صامد يدافع عن أراضيه ما استطاع.
وأخيراً ألفى القائم أنه لا يستطيع
مدافعة ابن عباد إلى النهاية، فلجأ إلى باديس بن حبوس أمير غرناطة، واتفق
معه على أن يعطيه قلعة أركش وسائر البلاد التي تحت حكمه، على أن
يعطيهم
أرضاً من بلاده ينزلون بها ويقيمون فيها، وبعث باديس بقوة كبيرة من جنده

ليعاونهم على الجلاء.
وخرج بنو إرنيان من أركش بأهلهم وأموالهم، يقصدون
إلى أرض غرناطة.
وكان ابن عباد قد رتب الكمائن لاعتراضهم، فما كادوا
يبتعدون بأحمالهم عن القلعة حتى خرجت كمائن ابن عباد، ونشب بين
الفريقين
قتال مرير، دافع فيه بنو إرنيان عن أنفسهم وعن أموالهم وحريمهم أشد دفاع،
بيد أنهم مزقوا في النهاية، وقتل أميرهم محمد بن خزرون وقتل معه قائد جند
باديس، وأبيد معظمهم.
ومما يذكر أن محمداً بن خزرون لما شعر بالهلاك أمر
غلامه أن يقتل زوجته وكانت رائعة الحسن، وكذلك أخته، حتى لا تقعا فى
أيدى العدو، واكتفى ابن عباد بتمزيق بني إرنيان وترك فلولهم دون مطاردة،
ودخل أركش واستولى على سائر البلاد التابعة لها، وذلك في سنة ٤٦١ هـ
(١٠٦٨ م) (١)
وهكذا سقطت الإمارات البربرية الصغيرة الأربع، التي تقع في منطقة
المثلث الإسبانى الجنوبى، وضمت كلها تباعاً إلى مملكة إشبيلية القوية،
وذلك
خلال أعوام قلائل فقط، رندة في سنة ٤٥٧ هـ، ومورور سنة ٤٥٨ هـ،
وقرمونة
سنة ٤٥٩ هـ، وأركش في سنة ٤٦١ هـ.
وأضحت مملكة إشبيلية، بعد الاستيلاء على تراث هذه الإمارات، تمتد
من ولاية تدمير شرقاً، حتى المحيط الأطلنطى غرباً، ومن وسط الأندلس، من
شرقى مملكة طليطلة، وغربى مملكة قرطبة شمالا، حتى أرض الفرنتيرة،
وثغر
الجزيرة جنوباً، وإذا استثنينا مملكتى ألمرية وغرناطة، فإن مملكة إشبيلية كانت
تضم معظم تراث الدولة الأموية الذاهبة في وسط الأندلس وفي جنوبها.

(١) راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٩ و ٢٤٠، والبيان المغرب ج ٤ ص ٢٧١ و ٢٧٢
وذيله ج ٣ ص ٢٩٤ و ٢٩٥.

(١٥٦/٢)

الكتابُ الثالِث
دول الفتيان الصقالبة وخلفائهم
في شرقىّ الأندلس

(١٥٧/٢)

الفصْل الأوّل
مملكة ألمرية
الفتيان الصقالبة.
اشتراكهم في حوادث قرطبة.
نزوحهم إلى شرقى الأندلس.
استيلاء خيران
العامرى على أوريولة ومرسية وألمرية.
يؤيد خلافة المرتضى.
اختيار الفتيان لعبد العزيز المنصور
زعيماً لهم.
خيران يبايع محمد بن عبد الملك ثم يختلف معه.
حكم خيران في ألمرية ومنشآته.
شجاعته
وإقدامه.
وفاته وولاية زهير العامرى مكانه.

صفاته.

وزيره أحمد بن عباس.

حملته إلى غرناطة ومصرعه

استيلاء عبد العزيز بن أبي عامر على ألمرية.

استخلافه لوزيره ابن صمادح عليها.

تغلب ابن صمادح

على ألمرية.

بنو صمادح وزعيمهم أبي يحيى عامل وشقة.

ولده معن يتولى الوزارة لصهره عبد العزيز

ثم ينزع منه ألمرية.

وفاته وقيام ولده أبي يحيى المعتصم مكانه.

صداقته لباديس صاحب غرناطة.

خلافه مع عبد العزيز صاحب بلنسية.

الثورة في لورقة.

تأييد عبد العزيز لها.

الحرب بينه وبين

المعتصم وباديس.

استقلال الثوار بحكم لورقة.

الخلاف بين المعتصم وباديس.

استيلاء المعتصم على

أراضي غرناطة الشرقية.

استيلاؤه على جيان.

الخلاف بين المعتصم وعبد الله صاحب غرناطة والصلح

بينهما.

أدب المعتصم وشاعريته.

أقوال ابن بسام.

سقوط طليطلة وموقف المعتصم من استدعاء

المرابطين.

تنافسه مع ابن عباد لدى أمير المسلمين.

مساهمة جنده في موقعة الزلاقة.

مساهمته فى

حصار حصن لييط.

وفاته وما يروى حولها.

ولده معز الدولة.

فراره من ألمرية عند مقدم المرابطين.

١ - عهد الفتيان العامريين

لما وقعت الفتنة، وانتهت الدولة العامرية، بتربع محمد بن هشام المهدى

على كرسى الخلافة، في جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (فبراير ١٠٠٩ م) ،

ومقتل

عبد الرحمن بن المنصور، بعد ذلك بأيام قلائل، غادر معظم الفتيان الصقالبة

قرطبة، فراراً من اضطهاد العهد الجديد، وقصدوا إلى شرقى الأندلس، حيث

كانت الأحوال أهدأ وأكثر استقراراً، وجو العمل والمغامرة أكثر انفساحاً، وكان

منهم عدة من الفتيان الفحول والخصيان الأذكياء، ذوى الإقدام والعزم، مثل

مجاهد، وقد غلب على مدينة دانية والجزائر الشرقية، ولبيب وقد غلب

على طرطوشة.

ومظفر ومبارك وقد غلبا على بلنسية، ونبيل وقد غلب على

شاطبة، وخيران، وقد غلب على ألمرية ومرسية وأوريولة.

وإنما يهمنا هنا، من هذه الجمهرة من الفتيان الصقالبة، خيران العامرى،

(١٥٨/٢)

وقد كان من أقواهم عزماً، وأنشطهم إلى خوض غمار الحوادث، التي تلت

سقوط الدولة العامرية.

ونحن نعرف أن محمداً بن هشام المهدى حينما تولى الخلافة
ثار عليه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر في أنصاره ومرشحيه من البربر،
ووقعت بين الفريقين معارك شديدة حول قرطبة وفي الزهراء، هزم فيها سليمان وحزبه في البداية.
وكان الفتيان العامريون ينقمون على المهدى ما فعله بهشام
المؤيد من حبسه بالقصر واضطهاده، وما فعله بعبد الرحمن المنصور وبنى عامر،
فائتمروا به وقتلوه، وكان من بين مدبرى هذه المؤامرة الحاجب واضح الفتى، وزميلاه عنبر وخيران، وكانا قد قدما من شرقى الأندلس إلى قرطبة مع عدد آخر منهم، ليشتركوا في حوادث قرطبة، وليبحثوا عن طالعهم فيها.
ورفع الفتيان الصقالبة، هشاماً المؤيد إلى كرسى الخلافة مرة أخرى، وتولى واضح حجابته.
ولكن البربر تمسكوا بموقفهم وبمرشحهم سليمان، واستأنفوا
هجومهم على قرطبة وحاصروها، وقاتلوا أهلها بمنتهى الشدة، ودافع القرطبيون عن أنفسهم بمنتهى البسالة، ولكنهم ضاقوا بالحصار والعدوان ذرعاً،
ووجه اللوم في ذلك إلى الحاجب واضح، فقتله زملاؤه، وفي النهاية
تغلب البربر على كل مقاومة، واعتلى سليمان كرسى الخلافة باسم المستعين، وذلك
في شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو ١٠١٣ م) .
وكان الفتيان العامريون قد خشوا العاقبة بعد مقتل واضح، وهالهم في نفس الوقت، ما ارتكبه سليمان وصحبه البربر من العيث والسفك، وجرح الكثير منهم
خلال القتال ومنهم خيران، فغادروا قرطبة ناجين بأرواحهم، وقصدوا إلى شرقى الأندلس مرة أخرى.

وسار خيران أولا إلى أوريولة في شرقى الأندلس فاستولى عليها، ثم وثب منها على مدينة مرسية عاصمة تدمير، فأخضعها لسلطانه (٤٠٣ هـ) ، وخرج
منها بعدئذ بقواته إلى ثغر ألمرية.
وكان عليها أفلح الصقلبى، وهو حسبما تصفه
الرواية غرٌّ جلف، قد ذهب به العجب كل مذهب، وكان يدل على زملائه الفتيان الصقالبة بقدمه وشيخوخته، فهاجمه خيران، وقتله هو وولده، وانتزع منه ألمرية، وذلك في المحرم سنة ٤٠٥ هـ (يوليه ١٠١٤ م) وغدت ألمرية من
ذلك الحين قاعدته الرئيسية، ومستودع أمواله وعدته، كما غدت مركز الدعوة

(١٥٩/٢)

لإمامة هشام المؤيد، وهو الذى كان يعتبره فتيان الصقالبة إمامهم ومولاهم.
وقد رأينا فيما تقدم من أخبار الدولة الحمودية، كيف ادعى على بن حمود الحسنى حاكم سبتة أيام الفتنة، أنه تلقى عهد هشام، وكيف تحالف معه خيران
ثم عاونه بقواته، كما عاونه بربر غرناطة، وانتهى الأمر بأن زحفت القوات المتحدة على قرطبة، وكتب النصر لعلى بن حمود، ودخل قرطبة، ولما لم يعثر
على هشام المؤيد بالقصر، دعا لنفسه بالخلافة، وبدأت بذلك دولة بني حمود (سنة ٤٠٧ هـ) .
ثم رأينا كيف غادر خيران قرطبة مغضباً متوجساً من غدر على بن حمود، وقصد إلى جيان، ودعا أصحابه بالخلافة لعبد الرحمن المرتضى، وأيده في تلك
الحركة عدة من ولاة الثغور، ثم وقعت الحرب بين قوات المرتضى وبربر غرناطة، فهزم المرتضى ثم قتل، وعندئذ سار خيران في أصحابه، وقصد إلى

ألمرية مرة أخرى، وكان ذلك في سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٩ م) .
والظاهر أن خيران، بالرغم من اتخاذه ألمرية قاعدته الرئيسية.
قد لعب
في حوادث شرقى الأندلس دوراً ملحوظاً.
ذلك أن الفتيان العامريين في شرقى
الأندلس، قد اتفق رأيهم على أن يتخذوا لهم رئيساً من سلالة مولاهم العظيم،
المنصور بن أبي عامر، ينضوون جميعاً تحت لوائه من الناحية الأدبية،
فوقع
اختيارهم في ذلك على عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور، وكان فتى
حدثاً
ونحن نذكر أنه كان أيام أبيه عبد الرحمن المنصور طفلا، ومع ذلك فلقد
أسبغ
عليه والده لقب الحجابة، ولقبه بسيف الدولة، وكان منذ مصرع أبيه
قد غادر قرطبة سراً، وسار إلى سرقسطة، وأقام بها في كنف صاحبها منذر
ابن يحيى التجيبى، فلما اختاره الفتيان العامريون زعيماً لهم، غادر سرقسطة،
ولحق
بشاطبة، حيث أعلنت بيعته، وذلك في سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) .
وفى رواية
أخرى أن سليمان بن الحكم المستعين، حينما ولى الخلافة لأول مرة، عمل
على رد
اعتبار بني عامر، فدفن شلو عبد الرحمن المنصور بالتكريم، وآوى ولده
الطفل
عبد العزيز، وابن عمه الطفل محمد بن عبد الملك تحت رعايته، فبقيا في
كنفه وقتاً
قصيراً، حتى خلع، واسترد محمد بن هشام الخلافة.
فعندئذ غادر الطفلان

قرطبة (١) .

ولسنا نعرف ما هو الدور الذى أداه خيران في اختيار عبد العزيز

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٩٣.

(٢/١٦٠)

للزعامة، وهل كان من مؤيديه أم من خصومه.

ذلك أنه لم يمض قليل على ذلك

حتى اختلف خيران مع عبد العزيز، وأعلن الخروج عليه، وسار من ألمرية

إلى مرسية، وهنالك بايع بالزعامة محمداً بن عبد الملك بن المنصور، وهو

ابن

عم عبد العزيز، وكان قد غادر قرطبة ولجأ إليه، فقدمه وصحبه إلى مرسية،

وثار

في نفس الوقت أهل شاطبة بعبد العزيز فغادرها سراً إلى بلنسية.

وتسمى محمد

بالمؤتمن، ثم بالمعتصم.

ثم تنكر له خيران، وأخرجه من مرسيه، واستولى

الفتيان على أمواله، فسار إلى غرب الأندلس وعاش هنالك حتى توفى (١) .

وهكذا لم يكن خيران، وهو في عمالته في شرقى الأندلس، دائماً على وفاق

مع أصحابه الفتيان العامريين، وكانت علائقه بالأخص سيئة مع مجاهد

صاحب

دانية، وكانت تقع بينهما المناوشات والمعارك من آن لآخر.

* * *

ولنتتبع بعد ذلك حكم خيران في ألمرية، بعد أن فصلنا الحوادث التي خاضها

منذ اضطرام الفتنة، والتي تدل في مجموعها على ما كان يتمتع به هذا الزعيم

الصقلبى من الحصافة، والإقدام، وقوة العزم.

استقر خيران في ألمرية، وبسط حكمه على أعمالها، وكانت إمارة ألمرية تشمل يومئذ المنطقة الممتدة من شاطىء اسبانيا الشرقى الجنوبى، على هيئة مثلث
كبير، غرباً حتى وادي آش وحدود مملكة غرناطة، وشمالا حتى بسطة وجيان،
وقد كانا أهم قواعدها بعد ألمرية، وهذا عدا أوريولة ومرسية، وقد كان يحكمهما بالنيابة زهير العامرى.
وأبدى خيران في ضبط ألمرية وتنظيمها همة
فائقة، وحصن ألمرية، وأصلح قصبتها الشهيرة، وزاد فيها حتى غدت من أعظم
القصبات الأندلسية، وأودعها أمواله وذخائره، وما زالت أطلالها الماثلة إلى اليوم تشهد بما كانت عليه من الروعة والحصانة.
وزاد خيران في قبلة جامع
ألمرية زيادة اتسع لها الجامع، وبنى السور الهابط من الجبل إلى البحر، وجعل له
أربعة أبواب منها باب يخرج منه إلى بجانة (٢) ونظم خيران جيشه، واستوزر

---

(١) يراجع في هذه الحوادث أعمال الأعلام ص ٢١٠ و ٢١١، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢،
والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٤.
وكذلك: Gaspar Remiro: Historia de Murcia
Musulmana (Zaragoza 1905) p.
٩٦ - ٩٨.
(٢) كتاب ترصيع الأخبار للعذرى (نصوص عن الأندلس نشرت منه بعناية الدكتور
عبد العزيز الأهوانى) (مدريد ١٩٦٥) ص ٨٣.

الكاتب البليغ أحمد بن عباس بن أبي زكريا، وعامل رعيته بالرفق والعدل، وفي أيامه بلغت ألمرية منتهى العمران والرخاء، وغدت من أمنع وأجمل ثغور الأندلس.

وكان خيران رئيساً وافر الدهاء والشجاعة، والحصافة، وحسن التدبير، وكان بصيراً بالحروب ومكايدها، وقد جرت بينه وبين جيرانه البربر أصحاب غرناطة، وقائع أبدى فيها قوته وصرامته، فهابوه، ولم يفكروا في مناوأته.

وكان فوق ذلك كله متواضعاً زاهداً في الألقاب، فلم يتسم بشيء من تلك الألقاب

الضخمة، التي تسمى بها سائر أمراء الطوائف في عهده، واكتفى بما كان يوصف

به من " الخليفة " و " الفتى الكبير " (١) .

وقد مدحه شاعر العصر الكبير، أبو عمرو أحمد بن درّاج القسطلى، بقصيدته

الشهيرة، التي مطلعها:

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران..

.

وبشراك قد وافاك عزٌّ وسلطان

هو النجم لا يدعي إلى الصبح شاهد..

.

هو النور لا يُبغى على الشمس برهان

إليك شحنّا الفلك تهوى كأنها..

.

وقد ذعرت عن مغرب الشمس غربان

على لجج خضر إذا هبت الصبا..

.

ترامى بنا فيها ثبير وثهلان (٢)

وتوفى خيران العامرى بألمرية في جمادى الآخرة سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) ، فاجتمع في الحال رجال الدولة، وعلى رأسهم الوزير أحمد بن عباس، ونبأهم بأن خيران، قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه أخوه زهير العامرى، واتفق الجميع بذلك على تولية زهير.

وكان خيران حينما شعر بدنو أجله قد بعث بالفعل يستدعى

زهيراً، نائبه في مرسية وجيان، فقدم زهير على عجل، وأدرك خيران قبيل وفاته، فلما توفى قام في الحال مكانه، وتسلم زمام السلطان، ورضى به الناس ورجال الدولة (٣) .

وكان زهير ويكنى أبا القاسم، من أهم الفتيان العامريين، وأشدهم بأساً، " وكان شهماً داهية " بعيد النظر، وقد لعب في حوادث الفتنة بقرطبة أدواراً أشرنا إليها في مواضعها، ولما تولى حكم ألمرية اقتفى أثر صاحبه خيران في حسن

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢١٢.

(٢) وردت هذه القصيدة بأكملها في ديوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود على

مكى (دمشق ١٩٦١) ص ٨٦ - ٨٨، ووردت في الذخيرة (القسم الأول المجلد الأول

ص ٧٤ - ٧٨) ، وكذلك ابن الخطيب في أعمال الأعلام (ص ٢١٢ - ٢١٥) وهى طويلة جداً.

(٣) ابن الخطيب في الإحاطة ج ١ ص ٥٢٥ و ٥٢٦.

السيرة وحفظ النظام.
وهو الذى زاد في المسجد الجامع بألمرية من غربيه وشرقيه
وجوفيه، وعظم المسجد بذلك.
وبنى السقاية، وكثر الماء في ألمرية.
وكان يكرم
الفقهاء ويشاورهم في الأمر.
وكانت مملكة ألمرية وقت أن تولى حكمها زهير، تمتد من ألمرية حتى
شاطبة، شرقاً، وتمتد شمالا حتى جيّان وبيّاسة، وحتى أعمال طليطلة، ولو أن
زهيراً
استمع إلى صوت العقل والحكمة، وقنع بتدبير مملكته الكبيرة، لكان له في
تاريخ
الطوائف شأن آخر، ولكنه كان يقع تحت نفوذ وزيره الكاتب أحمد بن عباس،
وقد كان هذا الوزير، بالرغم من صفاته العلمية والأدبية اللامعة، ميالا إلى
التهور والمغامرة، وكان يلقى في روع أميره مشاريع خطيرة، ويحرك أطماعه
بتحريضه وسيىء نصحه، والظاهر أنه هو الذى بعث إليه فكرة غزو
غرناطة، على أثر موت أميرها حبوس بن ماكسن، وتولى ولده باديس الحكم
مكانه فى
سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧ م) .
فنظم زهير حملته المشئومة إلى غرناطة، ولم يلتفت
إلى ما طلبه إليه باديس وأخوه بُلُقِّين، من تجديد أواصر المودة والصداقة التي
كانت معقودة بينه وبين أبيهما حبوس، ثم سار إليها في قواته الكبيرة، وقد
أخذه الغرور والعجب، حسبما فصلناه في أخبار غرناطة، وهنالك التقى بقوات
باديس في ظاهر قرية ألفنت القريبة من غرناطة، وذلك في آخر شوال سنة
٤٢٩ هـ
(١٠٣٨ م) ونشبت بينهما الموقعة الهائلة التي انتهت بهزيمة زهير ومصرعه
وتمزيق قواته، وأسر أكابر رجاله، وفي مقدمتهم وزيره ابن عباس، وقد قتله

باديس أيضاً بعد ذلك بأسابيع قلائل (١) .

فكانت هذه النكبة ضربة أليمة لمملكة ألمرية، وكان من أثرها أن استولى باديس على الجزء الشمالى الغربى من أراضي ألمرية، وفيها مدينة جيان أكبر قواعدها الشمالية.

ولما فقدت ألمرية أميرها ووزيرها على هذا النحو، اجتمع أهلها، وأسندوا رياستهم إلى شيخ الجماعة أبي بكر الرميمى، فتولى شئونها، وضبط النظام والأمن.

ثم كتب أهل ألمرية إلى عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية يستدعونه لحكم

مدينتهم.

وكان عبد العزيز يعتبر أنه صاحب الحق الشرعى في تراث الفتيان العامريين، وذلك بحق الميراث والولاء باعتبارهم موالى أسرته، وكان مذ هلك

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٨ - ١٧٢.

*(١٦٣/٢)*

زهير، قد بعث وزيره ابن صمادح إلى باديس، يلح عليه في إعدام أكابر الأسرى

من زعماء ألمرية الذين وقعوا في يده، ولاسيما الوزير ابن عباس، حتى لا يعارضه

منهم أحد بعد في امتلاك ألمرية، وبادر عبد العزيز على أثر ذلك إلى ألمرية، فبايعه أهلها ودخلها في آخر ذى القعدة سنة ٤٢٩ هـ، ووجد بيت مالها مليئاً بالمال

المضروب والذخائر فنقلها جميعاً إلى بلنسية (١) ، وترك عليها والياً من قبله هو صهره

ووزيره أبو الاحوص معن بن صمادح التجيبى، فكانت ولايته إيذاناً بتطور

مصاير مملكة ألمرية.

ْ٢ – عهد بني صمادح التجيبيين

ذلك أن عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، لم يكد يفرغ من شئون ألمرية، حتى جاءته الأنباء بأن منافسه وخصيمه مجاهد العامرى صاحب دانية

وجزائر البليار، قد تحرك لغزو أراضيه.

وكان مجاهد يرقب تقدم عبد العزيز

واتساع ملكه بعين الحسد، فلما شغل بما آل إليه من تراث الفتيان في ألمرية، خرج مجاهد في قواته صوب بلنسية، فهرع عبد العزيز إلى مدافعته، وترك صهره ووزيره أبا الأحوص معن بن صمادح ليرعى شئون ألمرية.

وكان معن

رجلا قليل الولاء كثير المطامع، فما كاد عبد العزيز يغادر ألمرية، حتى وضع

مشروعه للاستئثار بالسلطة، والاستيلاء على مملكة ألمرية، وما زال يوطد الأمر لنفسه حتى جاهر بخلع الطاعة، ودعا لنفسه واستجاب الناس لدعوته، واستولى على ألمرية وأعمالها وذلك في سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) ، وكان من مؤيديه

ومعضديه في هذا الانقلاب باديس صاحب غرناطة.

ودخلت مملكة ألمرية بذلك

في عهد جديد من تاريخها.

وكان هذا الرئيس الجديد الذى سيطر على أقدار ألمرية، ينتمى إلى بيت من أعرق البيوتات العربية، وكان حسبما يوصف من أهل الدهاء والفضل والعلم والأدب (٢) .

وهو معن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ابن صمادح، وبه عرف بيتهم.

وصمادح هذا هو ولد عبد الرحمن بن عبد الله

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢، وأعمال الأعلام ص ٢١٧، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٧٢

وراجع دوزى: Hist.

؛ V.

p ; III.

٢٨

(٢) العذرى في " نصوص عن الأندلس " من كتاب ترصيع الأخبار ص ٨٤.

(١٦٤/٢)

ابن المهاجر بن عميرة، وهو جدهم الداخل إلى الأندلس.

وفى عبد الرحمن

ابن عبد الله يجتمعون مع بني هاشم التجيبيين أصحاب سرقسطة، فهم مثلهم ينتمون

إلى تجيب (١) .

وكان والده أبو يحيى محمد بن أحمد بن صمادح حاكم مدينة وشقة

وأعمالها منذ أواخر أيام هشام المؤيد بالله.

ولما تولى سليمان الظافر الخلافة فى

سنة ٤٠٣ هـ أقره على ولايته، وكانت بينه وبين ابن عمه منذر بن يحيى التجيبى

صاحب سرقسطة في البداية علائق مودة وسلام، فلما انتهت أيام سليمان،

واغتصب بنو حمود الخلافة القرطبية في سنة ٤٠٧ هـ، وعادت الأمور إلى

اضطرابها، ساءت العلائق بين المنذر وأبى يحيى، وسار منذر إلى وشقة في قواته

واستولى عليها، وفر أبو يحيى في أهله وولده ناجياً بنفسه.

فكان على قول
ابن حيان " أول ساقط من الثوار لم يتملأ سلطانه ولا أورثه من بعده ".
وكان
أبو يحيى مع رياسته عالماً محدثاً من أهل الفضل والأدب، روى عنه ابنه أبو الأحوص معن، وله مختصر قيم في غريب القرآن.
وقد اشتهرت وصيته
لابنيه معن وصمادح بأسلوبها البارع، ومحتوياتها الجامعة لمعظم آداب الدنيا والدين، ودلالتها على وفور علمه، وجلالة معارفه، وسمونفسه (٢) .
ووصف لنا ابن بسام
في الذخيرة أبا يحيى بأنه كان فارساً مقداماً، وكان أديباً ذلقاً حسن البيان،
ولكنه
كان منكود الطالع، فلم تدم رياسته طويلا (٣) .
ولجأ أبو يحيى إلى عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، فأكرم وفادته وتوثقت علاقتهما بالمصاهرة، إذ تزوج ولداه معن أبو الأحوص، وصمادح أبو عتيبة بأختى عبد العزيز.
ثم أراد أبو يحيى اللحاق بالمشرق، فمات غرقاً فى
البحر.
وذكر لنا ابن حيان أنه هلك غرقاً في البحر الرومى، فيما بين جزيرة يابسة

---

(١) ابن الأبار في الحلة السيراء (مخطوط الإسكوريال) في ترجمة المعتصم بن صمادح، لوحة ٨٠ و ٨١، ونقلها دوزى مقتضبة في كتابه:
.Recherches, V
.II
.App
.XX
وذكر

ابن الخطيب أن صمادح إنما هو اسم امرأة هى صمادح بنت عبد الرحمن بن عبد الله إلى آخر نسبتهم، وأنهم
عرفوا باسم أمهم المذكورة (أعمال الأعلام ص ١٨٩) .
ولكنا لم نجد تأييداً لهذه الرواية.
وبالعكس
فإن النسابة ابن حزم يقرر أن صمادح هو جدهم (جمهرة أنساب العرب ص ٤٠٥) .
ويوافقه ابن
الأبار حسبما تقدم.
وراجع الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٧٨ - ٨١.
(٢) ابن عبد الملك المراكشى في "الذيل والتكملة" - الجزء الأول - مخطوط مكتبة باريس
الوطنية.
(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ٢٣٦.

(١٦٥/٢)

وشاطىء الأندلس، وكان قد ركبه من ثغر دانية، في مركب تأنق في صنعه واستجادة آلته وعدته، مع نفر عديد من صحبه، فغرق معظمهم، ولم ينج منهم
سوى القليل، وذلك في جمادى الأولى سنة ٤١٩ هـ (١) وبقى ابنه معن في كنف صهره
عبد العزيز، وقد ولاه وزارته، فلما قتل زهير العامرى، واستولى عبد العزيز على ألمرية، استخلف عليها وزيره معن.
قال ابن حيان: " فكان شر خليفة
استخلف.
لم يكد يوارى وجهه عبد العزيز عنه، حتى خان الأمانة، وطرده

من الإمارة، ونصب له الحرب، فغرّب في اللؤم ما شاء.
وتنكب ابن أبي عامر
التوفيق لاسترعائه الذئب الأزل على ثلته، ومسترعى الذئب أظلم، وكان من العجب أن تملاها ابن صمادح، وخلفها ميراثاً في عقبه "، وانتهى الأمر باستيلاء معن على ألمرية والدعاء بها لنفسه حسبما تقدم.
واستمر معن في حكم ألمرية
وأعمالها زهاء عشرة أعوام.
وكانت بينه وبين باديس صاحب غرناطة علائق
مودة وصداقة.
وتوفى سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) بعد أن وطد رياسته، ومهد
الملك لعقبه.
فخلفه ولده أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح بإجماع القرابة ورجال الدولة، ولما يستكمل الثامنة عشرة من عمره؛ وكان أبوه قد أخذ له البيعة بولاية عهده، بعد أن عرضها على أخيه صمادح أبي عتبة، فاعتذر عن قبولها، واتخذ من الألقاب
الملوكية لقبين، هما المعتصم بالله والواثق بفضل الله، والرشيد على قول آخر، وتوطدت في بداية حكمه علائق المودة بينه وبين باديس صاحب غرناطة، على
ما كانت بينه وبين أبيه (٣) .
ولكن الخلاف لبث بالعكس مستحكماً بينه وبين
خاله عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، وكان باديس يعمل على إذكاء
هذا الخلاف وتقويته كلما بدت بوادره.
ذلك أنه كان باعتباره زعيم البربر يكره
الجبهة الأندلسية، ويحاول دائماً أن يعمل على إضعافها، وكان من أبرز الحوادث

المتصلة بهذا الخلاف ثورة ابن شبيب صاحب لورقة على المعتصم وذلك في
سنة
٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) .
وكان من الواضح أن هذه الثورة لم تكن بعيدة عن وحى

---

(١) ابن عبد الملك المراكشى في "الذيل والتكملة" - ج ١ من مخطوط مكتبة
باريس الوطنية.
(٢) الذخيرة القسم الأول من المجلد الثاني ص ٢٣٧، والبيان المغرب ج ٣
ص ١٧٤
وأعمال الأعلام ص ١٩٠.
(٣) كتاب التبيان ص ٤٥.

*(١٦٦/٢)*

عبد العزيز.
ذلك أن لورقة، وهى آخر قواعد مملكة ألمرية الشمالية الشرقية، تقع
على حدود مملكة بلنسية، وقد استنصر الثائر بعبد العزيز، فبادر بتلبية
دعوته، وأمده ببعض قواته، وزحف المعتصم في جيشه على لورقة، وأمده
باديس من
جانبه بقواته، ونشبت بين الفريقين معارك انتهت بهزيمة ابن شبيب واستيلاء
المعتصم على حصون لورقة، وعودتها إلى حظيرة مملكة ألمرية (١) .
بيد أنه يبدو
أن ابن شبيب قد استأنف الثورة بعد ذلك، واستطاع أن يستقل بحكم لورقة،
وخلفه إخوته الثلاثة في حكمها بالتعاقب، واعترف آخرهم بطاعة ابن عباد
صاحب إشبيلية، واستمر على حكمها باسمه، حتى سقطت إشبيلية في يد
المرابطين في سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) .
فلما توفى عبد العزيز في سنة

٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) ، وخلفه في حكم بلنسية، ولده عبد الملك الملقب بالمظفر، بعث المعتصم بن صمادح بعض قواته فأغارت على بعض حصونه في تدمير، وساعده في تلك الحركة أيضاً باديس، ولكنه باء بالفشل، وردت جنده على
أعقابها (٣) .
ثم تطورت العلائق بعد ذلك بين المعتصم وباديس، وثابت للمعتصم أطماع في الاستيلاء على أراضي غرناطة المجاورة لمملكته.
والظاهر حسبما يحدثنا الأمير
عبد الله بن بلقين أمير غرناطة في مذكراته، أن الذى كان يوحى إليه بتلك الأطماع ويشجعها، هو يوسف بن نغرالة اليهودى، وزير باديس، بل يقول لنا الأمير إن مشروع ابن نغرالة كان يرمى إلى تمكين المعتصم من الاستيلاء على
غرناطة ذاتها (٤) .
وعلى أى حال فقد استطاع المعتصم أن يستولى على بعض
أراضي غرناطة الشرقية وعلى حصن وادي آش.
وقد رأينا فيما تقدم من أخبار
باديس أنه ركن إلى الدعة في أواخر عهده، ووقع التفكك في مملكته.
وهو قد
استرد وادي آش من ابن صمادح فيما بعد، ولكن الظاهر أنه فقد جيان في أواخر
عهده، واستولى عليها المعتصم بمداخلة الخوارج فيها.
وكانت مملكة ألمرية تشمل

---

(١) ابن خلدرن ج ٤ ص ١٦٢.
(٢) Gaspar Remiro: Murcia Musulmana ; p.

(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ٢٣٩، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٧٤,
(٤) كتاب التبيان ص ٥٣.

*(١٦٧/٢)*

عندئذ من القواعد الهامة غير ألمرية، لورقة، وجيان، وبياسة (١) التي استطاع
المعتصم أن ينتزعها من أملاك على بن مجاهد العامرى صاحب دانية، بيد أنه لم يحتفظ
طويلا بمدينة جيان التي استولى عليها المعتمد بن عباد فيما بعد.
ولما توفى باديس وخلفه حفيده عبد الله بن بلقين، وقعت بين العتصم
وعبد الله منازعات كثيرة بسبب الحصون الغرناطية الواقعة على الحدود مما يلى
فنيانة، وانتهى الأمر بأن أرغم عبد الله على هدم تلك الحصون استبقاء للمهادنة
والسلم بينه وبين أمير ألمرية (٢) .
وبذل المعتصم جهوداً عظيمة، في توسيع قصبة ألمرية وتجميلها، وأنشأ بها
قصره الكبير الممتد حتى الجبل، وإلى جانبه بستانه العظيم، وأنشأ مجلساً رحباً
مفروشاً بالرخام الأبيض، ومجلساً آخر مقرنساً بالرفوف المذهبة، ويليه من الجهة
القبلية أبواب عليها شراجب يمكن منها أن يرى جميع مدينة ألمرية، وبحرها، وإقبال
السفن إلى مرساها وخروجها منه.
وجلب المعتصم الماء إلى المدينة ووصلها إلى جامع
ألمرية، وجلب منها فرعاً إلى ما وراء القصبة، ونظم وصول الماء إلى

الرياض الملحقة
بالقصر، كما ابتنى بخارج ألمرية قصوراً فخمة، وإلى جوارها بساتين تغص
بغرائب الأشجار والثمار، وفي إحداها بحيرة عظيمة عليها مجالس مفتوحة،
مفروشة بالرخام الأبيض، وكان ذلك البستان الفخم يسمى " بالصمادحية "
وهو
قريب من ألمرية (٣) .
على أن أهم ما يشتهر به المعتصم بن صمادح هو أدبه وشعره، وحمايته
لدولة
الشعر والأدب.
وقد كان بلاطه الصغير بألمرية، ينافس في مجالسه الأدبية وفي رعايته
للأدباء والشعراء، بلاط إشبيلية.
وكان بلاط المعتصم منتدى لطائفة من أكابر شعراء العصر، فقد كان وزيره
أبو الأصبغ عبد العزيز بن أرقم شاعراً مقتدراً يجيد الوصف والمديح، وكان
من
شعرائه المختصين به، أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز،
إمام
الموشحات، وأبو الفضل جعفر بن شرف، وهو من أهل برجة، وكانت

---

(١) A.
R Ibars: Valencia Arabe (Valencia 1901) p.
١٦٧
(٢) كتاب التبيان ص ٨٩ و ٩٠.
(٣) العذرى في كتاب " ترصيع الأخبار " ص ٨٥.

مدائحه للمعتصم تمتاز بطرافتها، وبديع تصويرها، وأبو القاسم خلف بن فرج المعروف بالميسر، أصله من إلبيرة، وكان يجيد شعر التهكم اللاذع، وابن الحداد

الوادي آشى، وقد قضى معظم حياته في بلاط المعتصم، ولكن غضب عليه المعتصم ذات يوم لزلة ارتكبها في شعره، فغادر ألمرية، ولجأ حيناً إلى بلاط المقتدر بن هود بسرقسطة، ثم عاد إلى ألمرية، وكان فضلا عن شاعريته التي

تبدو في مدائحه الكثيرة للمعتصم، عالماً بالفلسفة.

ومن مديحه للمعتصم قوله

من قصيدة طويلة:

لعلك بالوادي المقدس شاطىء..

.

فكالعنبر الهندى ما أنا واطىء

وإنى في رؤياك واجد ريحهم..

.

فروح الهوى بين الجوانح ناشىء

ولى في السُّرى من نارهم ومنارهم..

.

هداة حداة والنجوم طوافىء

لذلك ما حنت ركابى وحمحمت..

.

عِرابى وأوحى سيرها المتباطىء (١)

وقد نوهت الروايات المعاصرة والقريبة من العصر، بحماية المعتصم لدولة الشعر والأدب.

فمثلا يقول لنا ابن بسام: " ولم يكن أبو يحيى هذا من ملوك الفتنة، أخلد إلى الدعة، واكتفى بالضيق من السعة.

واقتصر على قصر يبنيه، وعلق
يقتنيه، وميدان من اللذة يستولى عليه ويبرز فيه.
غير أنه كان رحب اللقاء، جزل العطاء، حليماً عن الدماء والدهماء، طافت
به الآمال، واتسع في مدحه
المقال، وأعملت إلى حضرته الرحال، ولزمته جملة من فحول شعراء الوقت
كأبى عبد الله بن الحداد، وابن عبادة، وابن الشهيد وغيرهم..
."
ويزيد ابن بسام على ذلك، أن ما خاضه المعتصم من الفتن والحروب مع
خصومه من ملوك الطوائف، لم يكن مما يتفق وطبيعته الوادعة، وإنما
استدرج
إليها، وأكره عليها إكراهاً (٢) .
وقد كان المعتصم في الواقع يؤثر العيش الهادىء بقصره الأنيق المشرف
على
البحر والمسمى، " بالصمادحية " وينفق كثيراً من وقته في المجالس الشعرية
والأدبية.

---

(١) أوردها ابن بسام في الذخيرة - القسم الأول المجلد الثاني ص ٢١٨،
وأورد من
بعدها قصائد أخرى من مدائحه للمعتصم (ص ٢١٨ - ٢٣٣) وراجع أيضاً
نفس المصدر ص ٢٤١
و٢٤٢ وص ٣٧٢ - ٣٨٠.
(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ٢٣٩، والحلة السيراء (دوزى) ص
١٧٢، و (القاهرة) ج ٢ ص ٨٢ و ٨٣، وقلائد العقيان ص ٤٧.

ولم تقتصر حماية المعتصم ورعايته على دولة الشعر والأدب، ولكن بلاطه كان فى

نفس الوقت مقصد المفكرين والعلماء من كل ضرب، ومن هؤلاء أبو عبيد عبد الله البكرى أعظم جغرافيي الأندلس، وصاحب المعجم الجغرافى اللغوى الشهير، فقد عاش حيناً في ألمرية في كنف المعتصم، وكان صديقه الأثير، وأغدق

عليه المعتصم فيض رعايته وصلاته.

وكان بنو صمادح أنفسهم جميعاً من نجوم الشعر والأدب، فقد كان المعتصم، وبنوه معز الدولة ورفيع الدولة ورشيد الدولة من شعراء العصر.

ولهم جميعاً آثار

شعرية انتهى إلينا الكثير منها.

وكانت أم الكرام بنت المعتصم كذلك شاعرة عصرها (١)

وكان المعتصم فوق ذلك كله، معنياً بشئون الدين، وإقامة أحكام الشريعة، يعقد المجالس في قصره للمذاكرة، ويجلس يوماً في كل أسبوع للفقهاء والخواص، يتناظرون بين يديه في كتب التفسير والحديث (٢) .

واشتهر المعتصم بن صمادح بشعره وطرائفه الأدبية، وقد أورد لنا صاحب الذخيرة ضمن ما أورده من بعض قصائده، الأبيات الغزلية الآتية:

وتحت الغلائل معنى غريب..

.

شفاء الغليل وبرء العليل

فهل لى من نيله نائل..

.

ولابن السبيل إليه سبيل

فما لى إلا الهوى متجر..

.

فغير الغوانى متاع قليل

فيا ربة الحسن في غاية..

.

وعصر الشباب وظل المقيل

ذرينى أعانق منك القضيـ..

.

ب وأرشف من ثغرك السلسبيل (٣)

ولما تطورت الحوادث، وأدت الفتن والحروب بين ملوك الطوائف، إلى عاقبتها المحتومة، واستأسد عليهم ألفونسو السادس ملك قشتالة، وأخذ يضرب بعضهم ببعض، حتى ظفر بالاستيلاء على طليطلة (صفر ٤٧٨ هـ) ، واتجه ملوك
الطوائف وفي مقدمتهم المعتمد بن عباد، إلى الاستنصار بأمير المسلمين يوسف

---

(١) نقل إلينا ابن بسام في الذخيرة كثيراً من قصائدهم (القسم الأول المجلد الثاني ص ٢٤١ - ٢٤٤) .
وكذلك في المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ١٩٦ - ٢٠٣، وابن الأبار في الحلة السيراء
(المخطوط) لوحات ٨٢ و ٨٣ و ٨٤.

(٢) الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٨٢.

(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ٢٤١.

(١٧٠/٢)

ابن تاشفين المرابطي، لم يكن المعتصم فيما يبدو من المتحمسين لتلك الفكرة. ذلك أنه نظراً لموقع مملكته في الطرف الجنوبى في شبه الجزيرة، لم يكن قد آنس

بعد خطر النصارى الداهم، كما آنسه ابن عباد وابن الأفطس، وكان فضلا عن
ذلك يشعركما يشعر معظم أمراء الطوائف بما يقترن بمقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة
من الاحتمالات الخطيرة (١) .

ومع ذلك فإن المعتصم، حينما عبر أمير المسلمين
إلى الأندلس في شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦ م) لم يتقاعس عن المساهمة
في القوات الأندلسية التي حشدت للتعاون مع الجيش المرابطي، وذلك حسبما
نفصل بعد في موضعه، ثم إنه بعد ذلك تقرب من أمير المسلمين يوسف بالهدايا
والتحف الجليلة، والتلطف في خدمته، حتى قربه إليه وأغدق عليه عطفه. وكان
يوسف يبدى عطفه وتقديره بالأخص لرجلين من أمراء الطوائف هما
المعتصم والمعتمد بن عباد، وكان يقول عنهما لأصحابه إنهما رجلا الجزيرة. ويقول
لنا عبد الواحد المراكشى، إن المعتصم وابن عباد كان يشعر كل منهما نحو الآخر
بعاطفة من المرارة والتحاسد، وأنهما حاولا غير مرة أن يتصافيا باللقاء، وأن
المعتمد زار المعتصم بقصره بألمرية، واحتفل المعتصم بإكرامه أعظم احتفال، ومع
ذلك فقد لبث الضغن كامناً في نفسيهما.

فلما شعر المعتصم بتمكن منزلته لدى أمير
المسلمين فيما بعد، أخذ يدس لديه في حق المعتمد، ويحاول أن يغير نفسه
عليه، وقد كان في ذلك فاسد التدبير قصير النظر، حسبما أثبتت الحوادث
فيما بعد (٢) .

ولم يشهد المعتصم موقعة الزلاّقة، معتذراً لدى أمير المسلمين بضعفه وكبر سنه، ولكن قواته ساهمت فيها بقيادة ولده معز الدولة.

واستمر المعتصم بعد ذلك

في الحكم بضعة أعوام أخرى.

وكان ألفونسو السادس بعد هزيمته المروعة فى

الزلاقة، قد استطاع أن ينهض من عثارها بسرعة، وتحول عدوانه عندئذ إلى شرقى الأندلس، حيث كان الضعف يسود الإمارات الأندلسية الصغيرة.

وكانت القوات القشتالية، قد رابطت في حصن لييط (٣) المنيع الواقع فيما بين مرسية

ولورقة، وأخذت ترهق الأنحاء القريبة بغاراتها المتوالية، وكان أمير المسلمين قد

---

(١) راجع كتاب التبيان ص ١٠٤.

وراجع كذلك دوزى: Hist.

، V.

.III

.p

١٢٤

(٢) راجع المعجب ص ٧٣ و ٧٤.

(٣) هو بالإسبانية Alédo، وما زالت أطلال هذا الحصن قائمة حتى اليوم.

(١٧١/٢)

عاد على أثر موقعة الزلاقة إلى المغرب، فلما وقف على اضطراب شئون الأندلس

وتفككها بعد رحيله، واشتداد عدوان النصارى في المنطقة الشرقية، عاد فعبر البحر إلى الأندلس في قواته (٤٨١ هـ) ، وتعاونت القوات الأندلسية مع

القوات
المرابطية في حصار حصن لييط، وكان المعتصم في مقدمة الأمراء الذين
هرعوا
إلى المساهمة في ذلك الحصار، وخصوصاً لقرب ذلك الحصن من أراضيه،
وتعرضها بذلك لعيث النصارى.
وطال الحصار مدى أربعة أشهر، ولم ينجح
المسلمون في اقتحام لييط، بالرغم من وفرة قواتهم وعددهم، واضطروا إلى
ترك الحصار، بعد أن فنيت معظم حاميته، واضطر ألفونسو بعد ذلك إلى
إخلائه
لعقم الدفاع عنه.
وتوفى المعتصم بن صمادح في ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) بعد أن
حكم إحدى وأربعين عاماً.
بيد أنه شهد قبل أن يثوى إلى قبره نذر الخاتمة المشئومة
تبدو في الأفق.
ذلك أن يوسف بن تاشفين عبر البحر للمرة الثالثة (٤٨٣ هـ)
لا لينجد أمراء الأندلس هذة المرة، ولكن ليقضى عليهم وعلى دولهم المنحلة
المفككة، وبدأ في ذلك بإمارة غرناطة واستولى عليها، ثم بعث قواته إلى
إشبيلية
لتقضى هنالك على دولة بني عباد.
وهنالك روايتان فيما يتعلق بسقوط ألمرية، الأولى أن المرابطين حاصروها
بالفعل، وامتلكوا معظم حصونها، وضيقوا
على المعتصم، وهو ملازم سريره يعانى مرض موته، وأنه ألقى عندئذ عبارته
المشهورة: " نُغص علينا كل شيء حتى الموت ".
وحينما ألفى جاريته تبكى
عند رأسه قال هذا البيت:
ترفق بدمعك لا تفنه..

.

فبين يديك بكاء طويل (١)

ومما قاله أيضاً حينما شعر بدنو أجله:

تمتعت بالنعماء حتى مللتها..

.

وقد أضجرت عينىَّ مما سئمتها

فيا عجباً لما قضيت قضاءها..

.

وملَّيتُها عمرى تصرم وقتها

وأما الرواية الثانية فتقول بأن المعتصم توفى قبل مقدم المرابطين، وأنه أوصى

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ٢٤٠ و ٢٤١، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٨، وأعمال الأعلام ص ١٩٣، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢.

*(١٧٢/٢)*

قبل وفاته ولده معز الدولة أحمد، بأنه متى علم بسقوط إشبيلية وخلع أميرها المعتمد وهو قطب الجزيرة، أن يعبر البحر في أهله وأمواله إلى أمراء بني حماد

أصحاب القلعة بشرقى العدوة، وأن معز الدولة تولى حكم ألمرية بعد وفاة أبيه بضعة أشهر.

فلما سقطت إشبيلية، وأسر أميرها المعتمد، وذلك في رجب

سنة ٤٨٤ هـ، بادر معز الدولة باتخاذ أهبة الفرار، ثم ركب البحر في أهله وأمواله

في ثلاث سفن أعدها لذلك، وأحرق السفن الباقية خشية المطاردة، واستطاع

أن يغادر ألمرية قبل أن يطوقها المرابطون وذلك في رمضان سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م)

ونزل على آل حماد أمراء القلعة على مقربة من بجاية، فأكرمت وفادته، وعاش
هناك حتى توفى (١) .

---

(١) أورد هذه الرواية صاحب الحلة السيراء (دوزى) ص ١٧٤ والقاهرة ج ٢ ص ٨٩ و ٩٠
وراجع روض القرطاس (طبعة أبسالة ١٨٤٣) ص ١٠١.

(١٧٣/٢)

الفصل الثانِى

مملكة مرسية

مدينة مرسية وانشاؤها.

تغلب خيران العامرى عليها أيام الفتنة.

اختياره محمد بن عبد الملك

للزعامة ثم تنكره له.

زهير العامرى يتولى حكم مرسية وأوريولة.

إمارته لألمرية.

نائبه أبو بكر بن

طاهر بمرسية.

عراقة ابن طاهر وأدبه.

مصرع زهير وقيام عبد العزيز المنصور مكانه في ألمريه.

إقراره

لولاية ابن طاهر لمرسية.

حزم ابن طاهر وسراوته.

ولده أبو عبد الرحمن يخلفه.

استيلاء ابن ذى النون

على بلنسية وعزل صاحبها عبد العزيز المنصور.
استقلال أبي عبد الرحمن بمرسية.
خلاله وعلمه وأدبه.
مطامع ابن عباد في مرسية.
اتفاق وزيره ابن عمار وأمير برشلونة على افتتاحها.
فشل المحاولة.
ابن عباد يستأنف الكرة.
ابن رشيق يفتتح مرسية.
القبض على ابن طاهر ثم الإفراج عنه.
ندب
ابن عمار لحكمها.
طمعه في الاستقلال بها.
تحريضه لأمراء النواحى.
تحريضه لأهل بلنسية على الثورة.
قصيدته في ذلك.
متاعب ابن عمار في مرسية.
غدر ابن رشيق به واستيلاؤه على المدينة.
فرار ابن عمار
والتجاؤه إلى سرقسطة.
محاولته فتح حصن شقورة.
القبض عليه وتسليمه لابن عباد ثم مصرعه.
استبداد ابن رشيق بمرسية.
يشترك مع المرابطين حصار حصن لييط.
اتهامه لدى أمير المسلمين
بالخيانة.
تسليمه لابن عباد ثم فراره.

استيلاء المرابطين على مرسية.
حياة ابن طاهر في بلنسية
ثم وفاته بها.
إن مدينة مُرْسِية، قاعدة ولاية مرسية أو ولاية تدمير القديمة الواقعة فى
شرقى الأندلس، هى مدينة أندلسية محضة، نشأت وترعرعت في ظل الأندلس
المسلمة، ولم يكن لها وجود عند الفتح.
وكانت قاعدة ولاية تدمير عند الفتح
هى مدينة أوريولة.
وفى سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) ، أنشأ الأمير عبد الرحمن بن الحكم
مدينة مرسية لتكون عاصمة لتدمير، ومقراً للعمال والقواد، وقام على إنشائها
عامله مالك بن جابر بن لبيد، وسميت في البداية بتدمير، على نسق تدمير
الشام (١) .
وكان إنشاء مرسية في بسيط أخضر من الأرض، يقع في منحنى
نهر شقورة، على مسافة قريبة من جنوب غربى أوريولة، الواقعة على نفس
النهر، قبيل مصبه في البحر الأبيض المتوسط، وما زالت مرسية حتى اليوم
تحتفظ بطابع أندلسي عميق.

---

(١) الروض المعطار، صفة جزيرة الأندلس، (القاهرة) ص ١٨١، بقيت في
معجم
البلدان تحت كلمة مرسية.

*(١٧٤/٢)*

ولما انهارت الدولة العامرية، واضطرمت الفتنة في نهاية المائة الرابعة،
وشعر الفتيان العامريون، أنه لا أمل لهم في النهوض والسلطان، خلال
الفوضى
الشاملة، التي غمرت قرطبة عاصمة الخلافة القديمة، سار معظمهم إلى

شرقى
الأندلس.
وكان من هؤلاءكبيرهم خيران العامرى، فسار أولا إلى أوريولة، وهى أمنع
قواعد ولاية تدمير، وبسط عليها سلطانه، ثم سار منها إلى مرسية
واستولى عليها، وذلك في سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) .
واستخلف عليها نائبه، وزميله زهيراً العامرى، ثم سار منها في قواته إلى
ألمرية، وانتزعها من صاحبها
أفلح الصقلبى، على نحو ما ذكرنا في موضعه، وغدت ألمرية من ذلك الحين
قاعدته الرئيسية، تتبعها مرسية وأوريولة من شرقى الأندلس.
وقد ذكرنا فيما تقدم، كيف أجمع الفتيان العامريون، الذين تغلبوا على
شرقى الأندلس، على أن يتخذوا لهم زعيماً، من بيت مولاهم العظيم المنصور
ابن أبي عامر، وكيف وقع اختيارهم في ذلك.
على عبد العزيز بن عبد الرحمن بن
المنصور، فتمت بيعته في شاطبة، ثم لحق بعد ذلك ببلنسية، وبسط سلطانه
عليها بتأييد الفتيان، وتسمى بالمنصور، وذلك في سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) .
ثم أشرنا إلى موقف الخصومة، الذى وقفه خيران بعد ذلك من زعامة
عبد العزيز المنصور، وإلى ما عمد إليه من ترشيح ابن عمه محمد بن عبد
الملك
المظفر بن المنصور للزعامة مكانه، واستقدامه إلى شرقى الأندلس، ونزوله
له
عن رياسة مرسية وأوريولة.
وتلقب محمد بالمعتصم، بيد أن أمد رياسته لم يطل، إذ تنكر له خيران، كما
تنكر من قبل لابن عمه عبد العزيز المنصور، ثم سار
إليه في قواته، وضيق عليه، حتى اضطر إلى مغادرة مرسية، ولجا إلى
أوريولة، فشدد خيران في مطاردته حتى فر منها، وسار إلى دانية، فعاش
حيناً في كنف

أميرها مجاهد العامرى: ثم غادرها إلى غربى الأندلس، وهنالك عاش بقية حياته، وتوفى في سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) (١) .

وعاد زهير العامرى نائباً لخيران على مرسية وأوريولة: واستقر خيران بألمرية أميراً عليها، حتى توفى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) .

وعندئذ خلفه في حكم مملكة ألمرية، وفي حكم مرسية وأوريولة بالأصالة،

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٩٣ و ١٩٤، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢.

(١٧٥/٢)

زهير العامرى، واستمر حكمه عليها حتى مصرعه في حربه مع باديس بن حبوس

صاحب غرناطة في سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) .

- ١ -

وكان يتولى حكم مرسية وقت أن كان زهير أميراً لألمرية، نائبه أبو بكر أحمد بن إسحاق بن طاهر.

وكان بنو طاهر هؤلاء، من أعيان ولاية تدمير

وسراتها، وينتمون إلى قيس، وكان منزلهم بمرسية، وقد اشتهروا بالعلم والوجاهة.

ولما توفى خيران العامرى، وغادر نائبه زهير مرسية ليتولى مكانه إمارة ألمرية، كان رئيس الجماعة بمرسية أبو عامر بن خطاب، فخشى زهير، إن تركه خلفه بمرسية، أن يثور بها وينزعها منه، فصحبه معه إلى ألمرية، وأسكنه بها حافظاً عليه مكانته ونعمته.

والظاهر أن أبا عامر هذا هو حفيد

أبى عمر أحمد بن خطاب كبير أعيان مرسية وسراتها أيام المنصور بن أبي عامر، وهو الذى استضاف المنصور وجيشه عند مروره بمرسية سنة ٣٧٤ في طريقه

إلى غزوة برشلونة، وأبدى يومئذ من وافر الشهامة والجود، ما غدا مضرب الأمثال (١) .
واستخلف زهير على ألمرية أبا بكر بن طاهر، ندّ أبي عامر
وخصيمه لثقته بولائه وأمانته، وكان قد استطاع يومئذ أن يفتدى نفسه من أسر
مجاهد العامرى صاحب دانية، وأن يعود إلى مرسية (٢) .
والظاهر أن ابن
طاهر وقع في الأسر حينما غزا مجاهد مرسية، على أثر وفاة صاحبها
خيران، وتوجسه من مشاريع خليفته زهير، وكان ابن طاهر عندئذ حاكماً
لمرسية حسبما
يبدو ذلك من إشارة لابن الأبار، من أنه بعد عوده من الأسر " عاد إلى حاله
ونعمته، وأعانه زهير على لم شعثه، ووفى بعهده " (٣) .
وضبط أبو بكر بن طاهر مرسية، وسار في حكمها سيرة حسنة.
وكان فضلا
عن عراقة بيته، وأرومته العربية المؤثلة، وثرائه الواسع، من أكابر علماء
عصره
ومن أغزرهم أدباً، وأبلغهم بياناً، وكان الشعب المرسى يحيطه بتقديره وحبه،
لما كان يراه من نبيل صفاته، ووفرة حزمه ولينه وصيانته.
وبالرغم من أنه كان

---

(١) الحلة السيراء (دوزى) ص ٢٥١ و ٢٥٢.
و (القاهرة) ج ٢ ص ٣١١ و ٣١٢
(٢) ابن الأبار في الحلة السيراء ص ١٨٧.
و (القاهرة) ج ٢ ص ١١٧
(٣) ابن الأبار في الحلة السيراء ص ١٨٧.

يستأثر بسائر السلطات، فإنه لم يتخذ شيئاً من مظاهر السلطان والإمارة، ولم يتخذ
لقباً من الألقاب الملوكية التي كان يشغف بها أضرابه من رؤساء الطوائف، وانما
كان يسمى فقط بالرئيس (١) .
ولما توفى زهير العامرى قتيلا في حربه مع باديس بن حبوس صاحب غرناطة
في سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) ، واستطاع عبد العزيز المنصور صاحب
بلنسية، أن يخلفه في إمارة ألمرية، كانت مرسية وأوريولة من البلاد التابعة لها.
وقدر
عبد العزيز حزم ابن طاهر، ورسوخ مكانته، فلم يتعرض له بشيء، وأقره على حكم مرسية.
وكان ابن طاهر، مع ولائه الظاهر لعبد العزيز المنصور، يسير في رياسته
وحكمه على قاعدة الاستقلال التام، ولا ينفذ من أوامر عبد العزيز
إلا ما يراه متفقاً مع رأيه وظروف بلده، ويرسل إلى بلنسية فائض الدخل،
ويقوم بالنفقة على من ينزل طرفه من الجند، وكان عبد العزيز يقنع منه بهذا
المسلك المتسم بالحزم والصرامة والاحترام المتبادل.
وفى خلال حكمه الطويل
الذى استمر نحو ستة وثلاثين عاماً، ازدهرت أحوال مرسية، وعمها الأمن
والرخاء، وذاعت بها العلوم والآداب لقدوة أميرها الأديب العالم، واجتمت
له محبة الشعب وتقديره، وهو ما كان يندر يومئذ في دول الطوائف.
وأضحى
ابن طاهر في أواخر أيامه من أقوى الرؤساء جانباً، ومن أغنى سراة

الأندلس، حتى لقد كان يمتلك وحده نصف أراضي بلده، وكان يعاونه في
الحكم والإدارة
ولده النابه أبو عبد الرحمن محمد، ولاسيما في أواخر عهده حيث أصيب
بالفالج، وطالت علته أعواماً، وتوفى في شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣
م) (٢) .
فخلفه في حكم مرسية ولده أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر، وكان عبد
العزيز
المنصور قد توفى قبل ذلك في شهر ذى الحجة سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦١ م) ،
وخلفه
في حكم بلنسية ولده عبد الملك الملقب بالمظفر، فأقر عبد الرحمن مكان أبيه
على
حكم مرسية.
وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر، صنو أبيه في السراوة والحزم
والهيبة، فسار في الحكم سيرته، مستقلا عن حكومة بلنسية، معترفاً بطاعتها
فى
نفس الوقت.
ونحن نعرف أنه لم يمض على ولاية عبد الملك المظفر لبلنسية أعوام
قلائل، حتى زحف فرناندو ملك قشتالة في قواته على بلنسية وحاصرها، ثم

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠,
(٢) الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٧ و ١٨٨، وأعمال الأعلام ص ٢٠١.



هزم البلنسيين هزيمة شديدة في موقعة بطرنة (٤٥٧ هـ - ١٠٦٥ م) ، وعلى
أثر
ذلك نفذ المأمون بن ذى النون مشروعه لانتزاع بلنسية من صهره، زوج ابنته

عبد الملك المظفر، فدخل بلنسية على أثر ارتحال القشتاليين عنها، وقبض على
عبد الملك وولده، ونفاهما إلى إحدى قلاعه، وضمت بلنسية عندئذ إلى مملكة طليطلة.
وهنا ألفى أبو عبد الرحمن بن طاهر، الفرصة سانحة للاستقلال التام عن حكومة بلنسية وإنهاء ولائه الاسمى لها، وسار في حكم مرسية وأعمالها أميراً مطلقاً لها.
وكانت إمارة مرسية تشمل عندئذ مدينة أوريولة المنيعة، الواقعة
في شمالها الشرقى، وكذلك بلدة مولة الواقعة في شمالها الغربى تجاه أوريولة، وإلش
وكتندة.
بيد أنها لم تكن تشمل لورقة الواقعة في جنوبها الغربى، وقد كانت لورقة مثل مرسية في البداية تابعة لمملكة ألمرية، بيد أنها انفصلت عن ألمرية على يد
ابن شبيب الثائر بها في سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) ، وحكمها ابن شبيب المذكور، واخوته الثلاثة من بعده، بالتعاقب، واعترف آخرهم بطاعة ابن عباد صاحب
إشبيلية، حسبما ذكرنا في موضعه، واستمرت لورقة بذلك طوال هذه المدة منفصلة عن حكومة مرسية (١) .
وكما أن أبا عبد الرحمن، كان قرين أبيه في السراوة والقوة والحزم، فكذلك كان قرينه في العلم والأدب، بل كان يفوقه في ذلك المضمار.
وقد كان
أبو عبد الرحمن بن طاهر في الواقع من أعظم علماء الأندلس وكتابها في عصره، وقد أشاد معاصره ابن بسام بذكره وذكر أدبه في الذخيرة، وشبهه في أسلوبه
بالصاحب بن عباد بالمشرق، ونوه بروعة رسائله ونبلها، ولاسيما رسائله

الهزلية، فإنه يتقدم فيها على الجماعة، ثم وضع عنه كتاباً ضمنه رسائله في
إعلام
رؤساء الأندلس بخلاصه من محنة اعتقاله (حسبما نذكر بعد) ، وشكر ابن
عبد العزيز
صاحب بلنسية على السعى في إنقاذه منها، وهى عدة من الرسائل البارعة،
ضمها
ابن بسام مع سواها من رسائله في كتاب عنوانه "سلك الجواهر من نوادر
وترسيل
ابن طاهر".
ويشير إليه ابن عبد الملك في ترجمته بقوله: " وكان أحد المتقدمين
في البلاغة، بارع الكتابة، فصيحاً، خطيباً، وكانت أيامه أيام عدل وأفضال،

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢، وراجع: Gaspar Remiro: Murcia Musulmana, p.
١٠٥

(١٧٨/٢)

ودفع باس، وتسويغ آمال ".
ويقول لنا ابن الأبار، إنه كان من أهل العلم والأدب
البارع، يتقدم رؤساء عصره في البيان والبلاغة (١) .
ويصفه ابن الخطيب بقوله: " وكان صدر زمانه، والمثل السائر في بلاغته
وبيانه ".
وكان أسلوب ابن طاهر يميل إلى الدعابة.
" وأجود رسائله ما اشتمل
على الهزل لميل طبعه إليه ".
وكان بلاط مرسية في عهده منتجع الأدباء والشعراء، يقصدون إليه، ويلتفون

حوله، ويغمرونه بمدائحهم، فيغمرهم برعايته وصلاته.
وكان ممن وفد عليه بمرسية الوزير الشاعر ابن عمار، وزير المعتمد، وفد عليه
أيام خموله، فأثابه، ودرس ابن عمار يومئذ أحوال مرسية، ووقف على قصور معداتها الدفاعية، ثم دبر مشروعه لافتتاحها فيما بعد (٢) .
- ٢ -
واستمر أبو عبد الرحمن بن طاهر أميراً على مرسية زهاء خمسة عشر عاماً، يتسم عهده بالسلم والرخاء.
بيد أنه كان ثمة بعض العناصر الناقمة من خصوم
ابن طاهر يسعون إلى نكبته وإسقاطه.
وكانت حدود مملكة إشبيلية الكبرى
قد امتدت يومئذ، بعد استيلاء أميرها المعتمد بن عباد على قرطبة وجيان،
حتى نهر شقورة ومدينة لورقة القريبة من مرسية.
وكان زعيم لورقة ابن شبيب
قد اعترف بطاعة المعتمد، وأضحى سلطان المعتمد في هذه الأنحاء يهدد مملكة
مرسية بطريق مباشر، فكتب الناقمون من أهل مرسية إلى ابن عباد يدعونه لافتتاحها (٣) ، ويؤكدون له ضعف وسائلها الدفاعية، وهذا إيضاح لمشروع المعتمد
في فتح مرسية.
وهناك إيضاح آخر خلاصته أن صاحب هذا المشروع هو أبو بكر
ابن عمار وزير المعتمد، وأنه كان يضطرم برغبة خفية في الحصول على السلطان
والإمارة، أو على حد قول ابن بسام: " كان يطلب سلطاناً ينثر في يديه سلكه، وملكاً يخلع على عطفيه ملكه ".
ويؤيد ابن الأبار هذه الرواية ويقول لنا إن ابن عمار

(١) ابن عبد الملك في "الذيل والتكملة " - المجلد الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس.
وابن الأبار في الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ١١٨,
(٢) الذخيرة، القسم الثالث - المخطوط - لوحة ٩٥، والحلة السيراء ص ١٨٨ و ١٨٩، وأعمال الأعلام ص ٢٠١,
(٣) أعمال الأعلام ص ١٦٠.

(١٧٩/٢)

قد أشار على المعتمد بفتح مرسية (١) .
وعلى أى حال فقد اعتزم المعتمد أن يسعى
إلى فتح مرسية، وعهد إلى وزيره القوى الماكر ابن عمار، أن يقوم بتنفيذ المشروع.
واتباعاً للخطة التي كانت سائدة يومئذ بين ملوك الطوائف في الاستعانة
بالأمراء النصارى، على مشاريعهم الباغية، بعث المعتمد وزيره ابن عمار، إلى
الكونت رامون برنجير أمير برشلونة، ومر الوزير الماكر في طريقه بمرسية، فأكرم
ابن طاهر منزله.
والظاهر أن ابن عماركان يرمى من وراء هذه الزيارة إلى دراسة
أحوال مرسية الدفاعية، وإلى الاتصال سراً ببعض الزعماء الناقمين خصوم ابن طاهر.
ولما وصل ابن عمار إلى برشلونة عقد مع أميرها الكونت برنجير
اتفاقاً على أن يؤدى له المعتمد عشرة آلاف مثقال من الذهب، لقاء معاونته على
فتح مرسية، وأن يقدم كل من الطرفين إلى الآخر رهينة بالوفاء.

وتنفيذاً لهذا
الاتفاق قدم المعتمد ولده الرشيد، وقدم الكونت ابن أخيه، وبعث المعتمد بقسم من قواته صوب مرسية بقيادة ابن عمار، ولحقت بها قوة جهزها الكونت برنجير، وطوقت القوات المتحدة مدينة مرسية، ولكن ابن عباد لم يسعف برنجير بأداء
المال المطلوب، فارتاب في الأمر، واعتقد أنه قد غرر به، وانسحب بقواته عن المدينة المحصورة، بعد أن قبض على ابن عمار، وعلى الرشيد ولد المعتمد.
وكان المعتمد بن عباد يسير عندئذ بقواته صوب مرسية، وكان قد وصل إلى مقربة من شقورة، حينما وفد إليه رسل ابن عمار مع بعض الهاربين من جنده
من حملة مرسية، وأعلموه بما حدث، فارتد بقواته إلى جيان، ووضع ابن أخى الكونت برنجير، المودع لديه رهينة، في الأصفاد، ثم وقعت المفاوضات بين الفريقين، وانتهى المعتمد بأداء المال المطلوب للكونت، وأفرج عن ابن عمار
والرشيد، وأفرج المعتمد من جانبه عن ابن أخى الكونت.
بيد أن إخفاق هذه الحملة الأولى على مرسية لم يثن ابن عمار عن عزمه، فما زال بالمعتمد يحثه على إعداد حملة ثانية، ويؤكد له أنه تلقى رسائل كثيرة من أهل مرسية يدعونه لافتتاحها، حتى نزل المعتمد أخيراً على رغبته، وجهز له حملة قوية، وعينه حاكماً لمرسية، وسائر البلاد التي يفتتحها.
وسار ابن عمار في قواته إلى مرسية، واصطحب معه حين مروره بقرطبة،

---

(١) الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ١٤٠.

سَرية من الفرسان، أمده بها حاكمها الفتح ولد المعتمد، ومر في طريقه
بحصن
بلج، فاحتفى به حاكمه عبد الرحمن بن رشيق، وصحبه في قواته إلى مرسية،
فندبه
ابن عمار للقيادة، وعاد إلى إشبيلية.
وكان ابن رشيق رجلا وافر الدهاء، والمقدرة، وكانت له أطماع دفينة يخفيها
تحت ثوب من الرياء والخديعة.
وطوقت جند
ابن عباد مرسية، وشددت الحصار عليها.
واستطاع ابن رشيق أن يحقق
نجاحه الأول، بالاستيلاء على بلدة مولة الواقعة في شمالها الغربى، والتي
كانت
تمدها بالأقوات والمؤن.
وعندئذ انهار خط مرسية الدفاعى، واشتد بداخلها
الضيق والحرمان، واستمر ابن رشيق في إرهاقه للمدينة المحصورة، وفى
تحريض أهلها على الوثوب بابن طاهر، وأخيراً عاونه بعض الخونة من
أوليائه
على فتح بعض أبواب المدينة، وانتهى الأمر بسقوطها على هذا النحو في
أيدى
جند ابن عباد، وذلك في سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) (١) .
ودخل ابن رشيق مرسية، وقبض على أبي عبد الرحمن بن طاهر وألقاه إلى
السجن، وأعلن بيعة المعتمد، وكتب إلى بن عمار بالفتح.
فسار ابن عمار
من فوره إلى المدينة المفتوحة، التي عين حاكماً لها من قبل، وتقرب من
أهلها
بالهدايا ولين القول.

بيد أنه جنح غير بعيد إلى تحقيق فكرة كانت تخالجه من
قبل، وهو أن يستأثر بحكم هذه المدينة النائية، البعيدة عن متناول أميره،
ويغدو
كباقى الرؤساء أميراً مستقلا، وأخذ بالفعل في تنفيذ فكرته، فتجاهل رغبات
ابن عباد وأوامره، وتصرف في سائر الأمور تصرف الحاكم المستقل، وبدا
نداً لأميره السابق، أو على قول ابن بسام: " وقعد له مقعد الرؤساء، وخاطب
سلطانه مخاطبة الأكفاء، مستظهراً بجر الأذيال، وإفساد قلوب الرجال، معتقداً
أن الرياسة كأس يشربها، وفلاة ينتجعها ".
وأخذ فضلا عن ذلك يدس لأمراء
تلك النواحى، ويوقع بينهم، ويحرض أهل بلنسية بنوع خاص، على الوثوب

---

(١) راجع في حوداث فتح مرسية: أعمال الأعلام ص ١٦٠ و ١٦١، وعبد
الواحد
المراكشى في المعجب ص ٦٥، ودوزى عن الشلبى في: Hist.
Abbadidarum.
V.
II.
p.
٨٦ & ٨٧
و Hist.
des Musulmans d'Espagne; V.
III.
p.
١٠٨ - ١٠٩
وكذلك: M.
Gaspar Remiro: Murcia Musulmana, p.

١٠٩ - ١١٠

وR.

M.

Pidal: La Espana del Cid; p.

٢٥٩ & ٢٨١

وA.

P.

Ibars: Valencia Arabe, p.

١٨٩ - ١٩١

(٢/١٨١)

بالوزير أبي بكر بن عبد العزيز المتغلب عليها يومئذ.

وكان قد شفع لدى المعتمد

في أمر ابن طاهر حينما قبض عليه، فأذن بتسريحه، وسار إلى بلنسية، ملتجئاً

إلى حمايته.

وفى رواية أخرى أن ابن طاهر، نجح في الفرار من سجنه بمعاونة

ابن عبد العزيز، وسار خفية إلى بلنسية.

وقد كان لفوز ابن طاهر باسترداد حريته، وقع طيب في مختلف الدوائر

الرفيعة، ولاسيما دوائر العلم والأدب.

وفى ذلك يقول

أبو جفر البتى من قصيدة:

أترضى عن الدنيا فقد تتشوف..

.

لعمر المعالى أنها بك تكلف

يقولون ليث الغاب فارق غيله..

.

فقلت لهم أنتم له الآن أخوف

ولن ترهبوا الصمصام إلا إذا..

.

غدا لكم بارزاً من غمده وهو مرهف

إذا غضبت أقلامه قالت القنى..

.

فديناك إنا بالمفاصل أعرف

فتكشف عن سر الكتيبة مثل ما..

.

رأيناك عن سر البلاغة تكشف

رويداً قليلا يا زمان فإنه يغصك منه بالذى أنت تعرف (١)

هذا، وقد أسرّ ابن عمار لأبى بكر بن عبد العزيز، هذا المسعى الجميل فى العمل على تسريح ابن طاهر، وأخذ يكيد له ويحرض أهل بلنسية عليه، وقد وجه إليهم في ذلك قصيدة ملتهبة من نظمه يقول فيها:

بشر بلنسية وكانت جنة..

.

أن قد تدلت في سواء النار

جاروا بني عبد العزيز فإنهم..

.

جرّوا إليكم أسوأ الأقدار

ثوروا بهم متأولين وقلدوا..

.

ملكاً يقوم على العدو بثار

هذا محمد أو فهذا أحمد..

.

وكلاهما أهل لتلك الدار

جاء الوزير بها يكشف ذيلها..

.

عن سوأة سوءى وعار عار

نكث اليمين وحاد عن سنن العلا..

.

وقضى على الإقبال بالإدبار

آوى لينصر من نأى المثوى به..

.

ودهاه خذلان من الأنصار

ما كنتم إلا كأمة صالح..

.

فرميتم من طاهر بقدار

هذا وخصكم بأشأم طائر..

.

ورمى دياركم بالأم جار

---

(١) أوردها ابن عبد الملك في ترجمة ابن طاهر في "الذيل والتكملة" - الجزء الرابع من

مخطوط المكتبة الوطنية بباريس.

ووردت أيضاً في " قلائد العقيان " ص ٦١.

*(١٨٢/٢)*

بر اليمين ولم يعرض نفسه..

.

ونفوسكم لمصارع الفجار

لابد من مسح الجبين فإنما..

.

لطمته عذراً غير ذات سوار

ثم يقول في ختامها:

وأنا النصيح فإن قبلتم فاتركوا..

.

آثارها خبراً من الأخبار

قوموا إلى الدار الخبيثة فانهبوا..

.

تلك الذخائر من خبايا الدار

وتعوضوا من صفرة حبشية..

.

بأغر وضاح الجبين نضار (١)

ومضى ابن عمار في خطته من تحدى ابن عباد، والاستئثار بشئون مرسية، واستعمل عبيده على الحصون وأقطعهم الضياع، وانهمك في الشراب واللذات، وأعرض عن كل نصح (٢) .

وكان ابن رشيق، وهو قائد الجند وفاتح المدينة

الحقيقى، يرقب الموقف، ويتحين الفرص.

وكان أبو بكر بن عبد العزيز، انتقاماً من ابن عمار، يحرضه على الوثوب به، وانتزاع حكم المدينة منه، وفضلا

عن ذلك فقد استطاع أبو بكر أن يحصل بواسطة يهودى من عملائه في مرسية، على النسخة الأصلية من قصيدة هجاء مقذع، وضعها ابن عمار طعناً في ابن عباد

وزوجه اعتماد الرُّميكية، وأن يرسلها إلى ابن عباد في إشبيلية.

وقد سبق أن أشرنا

إلى هذه القصيدة في أخبار مملكة إشبيلية، وأوردنا بعض محتوياتها اللاذعة.

وهكذا كان الجو يظلم حول ابن عمار من كل ناحية، وزاد الموقف خطورة، حينما بدأ الجند بتحريض ابن رشيق في المطالبة بأجورهم المتأخرة، واشتطوا في ذلك، وابن عمار عاجز عن تهدئتهم.

فعندئذ خشى ابن عمار البادرة على نفسه، وخرج من مرسية، بحجة تفقد الحصون الخارجية، فانتهز ابن رشيق الفرصة

لفوره، واستولى على القصر وضبط المدينة وأغلق أبوابها.

ولم ير ابن عمار

أمامه سبيلا سوى الفرار.

وهكذا لقى ابن عمار جزاء غدره، من غادر مثله.

ويصف لنا ابن بسام

هذه الضربة الغادرة من ابن رشيق بقوله: " فقيض له (أى ابن عمار) من عبد الرحمن بن رشيق عدواً في ثياب صديق، من رجل قدرة خنتر، وجزيل خديعة ومكر، فلم يزل يطلع عليه من الثنايا والشعاب، حتى أخرجه من

---

(١) نشرت القصيدة بأكملها في قلائد العقيان ص ٦١ و ٦٢.

(٢) ابن الأبار عن ابن بسام في الحلة السيراء ج ٢ ص ١٤٢.



مرسية كالشهاب ".

وطوحت الخطوب عندئذ بابن عمار، فقصد إلى ألفونسو

السادس ملك قشتالة، وقضى حيناً في بلاطه، ثم قصد بعد ذلك إلى سرقسطة

والتجأ إلى أميرها المقتدر بن هود.

فأكرم وفادته، واستخدمه في بعض شئونه، ولكنه توفى بعد قليل في سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨١ م).

فلبث في خدمة ولده المؤتمن

فترة أخرى، ولم يهدأ له بال حتى أغراه على سجينه بافتتاح حصن شقورة

الواقع
شمال غربى مرسية، وهو من أعمال دانية، فبعث معه المؤتمن سرية من
جنده، ولما وصل ابن عمار إلى شقورة، احتال عليه صاحبها ابن مبارك،
وكان رجلا
وافر الدهاء، واستقبله داخل حصنه بترحاب ومودة، ثم قبض عليه وزجه إلى
السجن.
وما كاد ابن عباد يقف على ذلك الخبر، حتى فاوض ابن مبارك فى
تسليم ابن عمار، وانتهى الأمر بحصوله في يده، ثم حمله المعتمد إلى
إشبيلية، واعتقله بقصره، ومازال يمعن في تأنيبه وتقريعه حتى انتهى إلى قتله
بيده، على النحو المؤسى الذى فصلناه من قبل في أخباره، وذلك في أواخر
سنة ٤٧٧ هـ
(أوائل سنة ١٠٨٥ م) (١) .
وخلصت مرسية لابن رشيق، واستبد بحكمها وأعلن خلع طاعة المعتمد،
واستمر يحكمها وأعمالها أعواماً بقوة وحزم، حتى كان عبور المرابطين إلى
اسبانيا
وانتصار الجيوش المرابطية والأندلسية المتحدة في موقعة الزلاّقة على
الجيوش النصرانية
المتحدة، وذلك في رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) ، وكان شرقى
الأندلس يومئذ مايزال بمعزل عن حوادث الغرب.
ولما شعر ألفونسو السادس
ملك قشتالة بانهيار قواه ومشاريعه العسكرية في غربى الأندلس، رأى أن
يتحرك
إلى شرقى الأندلس، حيث كان يسوده الاضطراب والتفرق والضعف.
وكان
المعتمد بن عباد يتوق إلى استرداد مرسية، وتوطيد سلطانه في هذا القطاع
النائى

من مملكته.

وهناك فيما يتعلق بمصير مرسية روايتان الأولى: هى أن ابن عباد حرض صاحب لورقة القائد أبا الحسن بن اليسع، وكان قد اعترف ببيعته، والتجأ إلى حمايته، على مهاجة مرسية، وأنه نجح في انتزاعها من ابن رشيق،

---

(١) راجع في محنة ابن عمار ومصرعه: أعمال الأعلام ص ١٦٠ و ١٦١، والمراكشى فى
المعجب ص ٦٦، وقلائد العقيان ص ٨٣ و ٩٠ و ٩١ و ٩٧.
وكذلك دوزى Hist.
Abbadidarum
V.
II.
p.
٩٠، ٩١ ١٠٠ & ١٠١.
وكذلك R.
M.
Pidal: La Espana del Cid, p.
٢٤٤

(١٨٤/٢)

وحكمها باسم المعتمد وموافقته، واستمر في حكمها حتى استولى عليها المرابطون (١)

والثانية، هى أنه لما عبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية في سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ، استجابة لصريخ أمراء الطوائف، ولاسيما

أصحاب القواعد الشرقية، لقمع غارات النصارى في شرقي الأندلس، والقضاء على مركز عدوانهم في حصن لييط (أليدو) الواقع بين مرسية ولورقة، وتعاونت
القوات الأندلسية مع القوات المرابطية في محاصرة الحصن المذكور، كان ابن رشيق ضمن الأمراء الذين اشتركوا في الحصار بقواتهم.
ولما انتهى هذا الحصار
بالفشل، وهمت الجيوش الأندلسية بالعودة إلى بلادها، شكى المعتمد ابن رشيق
إلى أمير المسلمين يوشف، وااهمه بالتحالف سراً مع النصارى، ومعاونتهم على الصمود في الحصن، هذا فضلا عن كونه كان مغتصباً لولاية مرسية منه، وطلب تسليمه إليه، لمعاقبته، واستشار يوسف الفقهاء في الأمر، فوافقوا على طلب ابن عباد، وأمر يوسف بتسليمه ابن رشيق مع اشتراط الإبقاء على حياته، وارتدت القوات المرسية غاضبة إلى بلدها.
وحمل ابن عباد معه ابن رشيق
إلى إشبيلية، واعتقله هناك، ولكنه فر غير بعيد من سجنه، وعاد إلى مرسية، وعاش بها حتى توفى.
واستولى المرابطون على مرسية في شوال سنة ٤٨٤ هـ
(أكتوبر ١٠٩١ م) .
واستولوا في نفس العام على معظم أعمالها (٢) .
وهنا يقدم
لنا ابن الخطيب رواية أخرى، هى أن ابن رشيق نزل من تلقاء نفسه عن مرسية
لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، حين جوازه الثاني إلى الأندلس وهو ما يدل
بأن ابن رشيق كان عندئذ هو المتولى حكمها (٣) .
وكان القائد ابن عائشة أول

حاكم لمرسية من المرابطين.
وكانت مرسية قاعدة لتحركات الجيوش المرابطية، التي حشدت لمقاومة عدوان السيد الكمبيادور، واسترداد بلنسية من قبضته، حسبما فصلنا ذلك في موضعه.
أما ابن طاهر صاحب مرسية السابق، فإنه كان قد استقر عقب فراره حيناً

---

(١) راجع المغرب في حلى المغرب (القاهرة ١٩٥٥) ج ٢ ص ٢٤٨ و ٢٥٠,
(٢) راجع روض القرطاس لابن أبي زرع (طبعة أوبسالة ١٨٤٣) ص ١٠١، وكذلك دوزى:
.Hist
.Vol ؛
.III
.p
١٣٢ - ١٣٣ و M.
.Gaspar Remiro: Murcia Musulmana ; p
.١٣٦ & ١٤٠
(٣) أعمال الأعلام ص ١٦٠.

(١٨٥/٢)

ببلنسية، في كنف الوزير أبي بكر بن عبد العزيز.
ثم في كنف ولده أبي عمرو
عثمان.
ولما استولى القادر بن ذى النون على المدينة، تقرب إليه، واستمر على حاله من الكرامة والدعة.
فلما ثار القاضى ابن جحاف، وقتل القادر، واستولى

على الحكم، لم يكن ابن طاهر من أنصار هذا الانقلاب، وكان يأخذ
بالأخص
على ابن جحاف أنه سفك دم القادر، وله في ذلك أبيات يقول فيها:
أيها الأخيف مهلا..

.

فلقد جئت عويصا

إذ قتلت الملك يحيى..

.

وتقمصت القميصا

رب يوم فيه تجزى..

.

لم تجد عنه محيصا

ومن ثم فقد كان ابن جحاف يتوجس منه، ويخشى مناوأته، ويتهمه
بالاتصال بالسيد والقشتاليين، والتآمر معهم ضده.
وقد كانت هذه التهمة باطلة.
ذلك أنه لما دخل السيد وجنده القشتاليون بلنسية في سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م)
، لم يستطع ابن طاهر أن يروض نفسه على البقاء فيها، فغادرها فيمن
غادرها من
الأكابر.
وفى رواية أنه كان ضمن من قبض عليهم السيد من أكابر المدينة ثم أفرج
عنه بعد ذلك فسار إلى شاطبة، واستقر بها حيناً، حتى تطورت الحوادث،
ومات
السيد، واستولى المرابطون على بلنسية، وعادت إليها سلطة الإسلام، فعندئذ
عاد إليها ابن طاهر، وقد أثقلته السنون، وهدمه الإعياء والمرض، فعاش بها
أعواماً
أخرى في عزلة واعتكاف، ثم توفى في سنة ٥٠٧ هـ (١٠١٣ م) ، وقد أربى

على التسعين (١) .

ويلخص ابن بسام المرحلة الأخيرة من حياة ابن طاهر في الفقرة الآتية:

" ومد لأبى عبد الرحمن بن طاهر في البقاء، حتى تجاوز مصارع الرؤساء، وشهد محنة المسلمين ببلنسية على يد الطاغية الكنبيطور قصمه الله، وجعل بذلك

الثغر في قبضته سنة ثمانية وثمانين " (٢) .

---

(١) راجع في ترجمة أبي عبد الرحمن بن طاهر: الحلة السيراء - ليدن - ص ١٨٦ -

١٨٩، و (القاهرة) ج ٢ ص ١١٦ - ١٢٨، وقلائد العقيان ص ٥٦ وما بعدها.

وقد أورد له

كثيراً من الرسائل البليغة.

وكذلك المغرب في حلى المغرب ص ٢٤٧ و ٢٤٨، وأعمال الأعلام ص ١٦٠.

(٢) الذخيرة - القسم الثالث المخطوط لوحة ٥ أ.

(١٨٦/٢)

الفصل الثالِث

مملكة دانية والجزائر

مدينة دانية وخواص موقعها.

مجاهد العامرى.

أصله ونشأته.

نزوحه إلى شرقى الأندلس.

تغلبه على دانية والجزائر الشرقية.

الفقيه أبو عبد الله المعيطى.

مشروع مجاهد لغزو سردانية.
استعداداته البحرية.
أسطوله الغازى.
سردانية وغزوات المسلمين.
مسير مجاهد إل سردانية واقتحامها.
المعارك داخل الجزيرة وافتتاحها.
حلف البابوية وجنوة وبيزة لطرد المسلمين.
الحرب الصليبية.
مقاومة مجاهد ومتاعبه.
هزيمته وتحطيم أسطوله.
أسر ولده وحريمه.
غزوات مجاهد للشواطىء الإيطالية
والفرنسية.
الفقيه المعيطى وعزله ونفيه.
مجاهد يفتدى زوجه وبناته.
استطالة أسر ولده على ثم
افتداؤه.
عجمته وعوده إلى الإسلام.
تثقيفه وإعداده لولاية العهد.
تأييد مجاهد للخليفة المرتضى.
اشتراكه في محاربة البربر.
اشتراكه في حكم بلنسية ثم انفراده به.
اختيار عبد العزيز المنصور
لإمارة بلنسية.
غزو مجاهد لمرسية وأسره لابن طاهر.
محاربته لعبد العزيز صاحب بلنسية.

وفاة
مجاهد.
عبقريته ومآثره العلمية.
التفاف العلماء حوله.
قصته مع أبي غالب النحوى.
تفوقه فى
الفروسية.
براعته البحرية.
ولده على إقبال الدولة يخلفه.
الخلاف بينه وبين أخيه حسن.
محاولته
اغتيال بناته ومصاهراته.
حكمه وصلاته.
شئون الجزائر وحكامها.
استجابة على لنداء المستنصر
الفاطمى ورسالته إليه.
تسامحه نحو النصارى.
ابن غرسية ورسالته ضد العرب.
بعض الآراء
والتعليقات حولها.
أطماع المقتدر بن هود في دانية.
خلافه مع صهره على.
مسيره لافتتاح دانية
واستيلاؤه عليها.
اعتقال على ثم فراره إلى العدوة.
ولده سراج الدولة.

على ومواهبه وخلاله.
الجزائر الشرقية واستقلال حاكمها المرتضى.
خلفه مبشر بن سليمان.
حكمه الزاهر.
غارات
البحارة المسلمين في عهده.
إغارة النرويج على الجزائر.
بيزة ومشروعها لفتح الجزائر.
أسطول
الغزو النصرانى يهاجمها.
استعداد مبشر للدفاع.
استغاثته بعلى بن تاشفين.
وفاة مبشر وولاية أبي ربيع.
خروجه من الجزيرة وأسره.
دخول النصارى مدينة ميورقة وفتكهم بأهلها.
مقدم الأسطول المرابطي.
انسحاب النصارى واستيلاء المرابطين على الجزائر.
تقع مدينة دانية.
في شمال اللسان المثلث، الممتد من ولاية لقَنت في البحر
الأبيض المتوسط، وتبدو برقعتها الصغيرة، وشوارعها القصيرة العريضة، التي
تظللها
أشجار التوت الوارفة، مدينة متواضعة هادئة، لا يتبادر إلى ذهنك، وأنت
تجوب أحياءها القليلة الصامتة، أنها كانت ذات يوم عاصمة لدولة أندلسية
بحرية
كبيرة.
أجل قامت في دانية، أيام الطوائف، مملكة تمتاز بصفتها الخاصة، التي

تميزها
عن غيرها من ممالك الطوائف الأخرى.
فقد كانت أولا تمتاز بموقعها المنعزل

(١٨٧/٢)

فى شرقى الأندلس، وتمتد رياستها عبر البحر إلى الجزائر الشرقية، فكانت بذلك تغلب صفتها البحرية على صفتها البرية.
ثم كانت بهذا الموقع المنعزل الحصين
أبعد من أن تنزلق إلى معترك الحرب الأهلية، التي كانت تتحدر إليه ممالك الطوائف
الأخرى، وأبعد عن عدوان مملكة قشتالة، الذى كان يهدد سائر الطوائف.
ومن ثم فإن تاريخ مملكة دانية يتخذ طابعاً آخر، غير ذلك الطابع الذى رأيناه يغلب على تاريخ ممالك الطوائف الأخرى.
وكانت دانية مثل معظم القواعد الأندلسية الشرقية، عند اضطرام الفتنة وانهيار الخلافة، من نصيب الفتيان العامريين.
تغلب عليها منهم مجاهد العامرى
في أوائل عهد الفتنة.
وقد كان مجاهد هذا من أكابر زعماء العامريين.
وكان
وفقاً لأرجح الروايات من فحول الموالى أو الفتيان العامريين.
وقد كان معظم
أولئك الفتيان من الصقالبة، من أصول إفرنجية كالألمان واللنبارد والإيطاليين والجلالقة وأهل البلقان وغيرهم، يؤتى بهم أطفالا ويربون في البلاط تربية عربية
إسلامية.
وكان منهم الفحول والخصيان.

وكان مجاهد ينتمى إلى الفريق الأول
أعنى إلى الفتيان الفحول، وقد نشأ وربى في عهد المنصور بن أبي عامر.
وفى
رواية أخرى أن مجاهداً ينتمى إلى طائفة الموالى العامريين، وقد رباه
المنصور
وعلمه، وقيل أيضاً إنه كان مولى لعبد الرحمن المنصور، أو أن أباه يوسف
كان معتوقاً لعبد الرحمن (١) .
وقيل من جهة أخرى إن مجاهداً كان "رومى" الأصل، أعنى من الفتيان
الصقالبة (٢) .
ويعتقد العلامة المستشرق أمارى بالاستناد إلى هذه
الإشارة أن مجاهداً يرجع إلى أصل إسبانى محلى (٣) .
بيد أنه مما يؤيد الرواية
الأولى، وهى نسبة مجاهد إلى الموالى، وليس إلى الفتيان الصقالبة، اسمه
وكنيته، فهو أبو الجيوش مجاهد بن يوسف بن على، ويزيدها أيضاً ما كانت
تتمتع
به شخصية مجاهد من عروبة قوية، ومن تضلع في علوم القرآن واللغة،
حسبما
نبين بعد (٤) .

---

(١) جذوة المقتبس (مصر) ص ٣٣١.
(٢) المراكشى في المعجب ص ٤١.
(٣) M.
Amari: Storia dei Musulmani di Sicilia (Fierenze 1868) V.
III.
p.
٤

(٤) ابن خلدون ج ٣ ص ١٦٤، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٥٦.
ويقدم إلينا ابن الأبار
مجاهداً بأنه أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامرى (الحلة السيراء ج ٢ ص ١٢٨) .

*(١٨٨/٢)*

وعلى أى حال فقد كان مجاهد عند اضطرام الفتنة، إلى جانب واضح وخيران وزهير، وغيرهم من أكابر الفتيان أو الزعماء العامريين، اندمج في زمرتهم، واشترك معهم في بعض الأحداث التي أعقبت الفتنة، وشاطرهم خطتهم فى النزوح إلى شرقى الأندلس.
ويقول لنا ابن خلدون إن مجاهداً غادر قرطبة عند
مقتل الخليفة محمد بن هشام المهدى في أواخر سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) ، وإنه
سار عندئذ إلى طرطوشة، فتملكها، ثم سار منها إلى دانية.
وكان مجاهد كباقى
الفتيان العامريين، من شيعة الخليفة المؤيد بالله، والخلافة الأموية بوجه عام، وقد حارب معهم إلى جانب الخليفة المرتضى بالله ضد البربر والقاسم بن حمود، فى الموقعة التي هزم فيها المرتضى ولقى مصرعه، وذلك في سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٩ م) (١) .
بيد أنه توجد رواية أخرى عن تغلب مجاهد على دانية خلاصتها، أنه كانه عند انهيار الخلافة واضطرام الفتنة، والياً على الجزائر الشرقية، وكان يشغل هذا المنصب منذ أيام المنصور بن أبي عامر، فلما تمخضت الفتنة عن تمزق
الأندلس، سار من الجزائر إلى دانية، وتملكها، وأقام بها دولته (٢) .
وتقول بعض الروايات أيضاً إن مجاهداً، كان وقت اضطرام الفتنة قائماً بشئون بلنسية، فثار به عبدان من العبيد أوالفتيان العامريين، هما مبارك

ومظفر، واستطاعا أن ينتزعا منه السلطة، فخرج مجاهد من بلنسية إلى دانية وتغلب عليها.

والظاهر من مقارنة الروايات المختلفة أن مجاهداً نزل أولا في دانية، وغلب عليها، ثم وثب منها على الجزائر الشرقية (جزائر البليار) وتملكها، وذلك في أواخر سنة ٤٠٥ هـ (أوائل ١٠١٥ م) .

وتتكون الجزائر الشرقية من أربع
جزائر هى مِنُورقة، وميورقة وهى أكبرها، وبها مدينة ميورقة وهى عاصمة الجزائر كلها، ويابسة، وفرمنتيرا، وهى أصغرها.

وهنا وقبل أن نتتبع أخبار
مجاهد، يجب أن نذكر واقعة تدعو إلى التأمل، وهو أن مجاهداً ندب إلى معاونته
في الحكم فقيهاً ورعاً هو أبو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد ويعرف بالمعيطى، وكان المعيطى هذا ينتمى إلى بني أمية، وهو من أشراف قرطبة وفقهائها البارزين، وكان ممن أزعجته الفتنة، فغادرها إلى شرقى الأندلس.

والظاهر أن مجاهداً كان

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤.

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٥.

(١٨٩/٢)

يحيط هذا الفقيه بنوع من التقدير والإجلال.

ذلك أنه نصبه "خليفة" بدانية
والجزائر وسائر أعماله، وأخذ له البيعة على الناس، وسماه بأمير المؤمنين المستنصر بالله، ونقش اسمه في سكته وفي أعلامه، وذلك في جمادى الآخرة من سنة ٤٠٥ هـ (١) .

ويقال إن مجاهداً صحب معه المعيطى في حملته إلى الجزائر

الشرقية، وإنه كان ساعده الأيمن في الاستيلاء عليها.
بل يقال إنه هو الذى
أوعز إليه بغزو سردانية.
- ١ -
وبينما كانت دول الطوائف الأخرى، سواء في شرقى الأندلس، أو فى
غربها، تخوض غمار المنازعات والحروب المحلية الصغيرة، كان مجاهد
العامرى
يفكر في مشروع ضخم، ربما كان أعظم مشروع فكر فيه أمير من أمراء
الطوائف، ذلك هو غزو جزيرة سردانية وافتتاحها.
وقد كان مجاهد، زعيماً
قوى النفس، وكان فيما يبدو بحاراً مجرباً، وكان يرى أن مملكته الساحلية،
وأملاكه البحرية، تقتضى أن يكون اعتمادها في القتال على الأساطيل قبل
كل
شىء، ومن ثم فقد اقتضت همته أن يجدد دار الصناعة القديمة (دار صناعة
السفن)
التي كانت بدانية، وأن يضاعف طاقتها لتمده بالسفن المقاتلة والناقلة من
مختلف
الأحجام، واستكثر من السفن والمعدات الحربية، واستطاع في فترة قصيرة
إن ينشىء أسطولا كبيراً يرابط في مياه دانية والجزائر، وغدت دانية فيما بعد،
فى عصره، وعصر ولده على، أعظم مركز للأساطيل الأندلسية.
وكان مجاهد
يتطلع بعيداً من جزائره الشرقية إلى ما وراء هذه المياه من الجزائر الكبيرة
الغنية
ولاسيما جزيرة سردانية العظيمة، التي عرفها البحارة المسلمون من قبل، في
كثير
من الغزوات المتعاقبة.

وضع مجاهد خطته لغزو هذه الجزيرة الكبيرة، فحشد أسطولا قوامه مائة
وعشرين سفينة، وقوة من ألف فارس، وأقلعت السفن الغازية من دانية
والجزائر في ربيع الأول سنة ٤٠٦ هـ (أغسطس ١٠١٥ م) ، وعلى الأسطول
قائده أمير البحر أبو خروب.

وكانت المسافة بين مياه دانية والجزائر وبين
سردانية، يومئذ تستغرق ثمانية أيام.

وكانت جزيرة سردانية موضع اهتمام

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٠.

*(١٩٠/٢)*

الغزاة العرب منذ فتح الأندلس، وقد غزاها العرب لأول مرة في سنة ٧١١ م،
أيام موسى بن نصير.

ثم توالت غزوات البحارة المسلمين لسردانية، فغزوها
في سنة ٧٥٢ م، ثم في سنى ٨١٣ و ٨١٦ و ٨١٧ و ٨٣٨ م.

بيد أن هذه كانت
كلها من الغزوات العارضة، التي يقنع الغزاة فيها بالسبى والغنائم، وكانت
المقاومة العنيفة التي يلقونها من أهل الجزيرة تحول دون احتلالها والاستقرار
فيها.

وكانت سردانية في البداية تحت حكم الدولة البيزنطية، فلما ضعف سلطانها
في
تلك المياه، وقعت سردانية تحت حكم اللونبارد، ثم تحت حكم الفرنج.

بيد أن
هذه لم تكن سوى حماية اسمية.

وكان يحكم الجزيرة منذ القرن الثامن قضاة أو
أمراء محليون.

وكانت طبيعتها الوعرة، وشجاعة أهلها الجبليين، واعتزازهم بحرياتهم، مما يعاون في دفع الغزاة، ورد الحملات الغازية العارضة.

بيد أن هذه الحملة، التي سيرها مجاهد العامرى إلى الجزيرة، كانت تمتاز بضخامتها، وضخامة عُددها، وتمتاز بالأخص بما يقترن بها من عزم راسخ على الفتح والاستقرار.

ومن ثم فإنه ما كادت السفن الغازية ترسو على شواطىء الجزيرة – والظاهر أنها رست في خليج كاليارى في جنوب الجزيرة – حتى شق الغزاة طريقهم إلى الداخل بمنتهى العنف، ووقعت بينهم وبين أهل الجزيرة معارك دموية هائلة قتل فيها عدد جم، وكان قائدهم مالوتو في مقدمة القتلى، وأسر الغزاة جموعاً غفيرة، وسبوا كثيراً من النساء والأطفال.

واستطاع الغزاة أن يحتلوا معظم أراضي الجزيرة، بالرغم من المقاومة العنيفة التي لقوها، وأن يسيطروا على معظم حصونها (١) .

وهكذا فتحت سردانية على يد مجاهد العامرى، وذلك في شهر أغسطس أو سبتمبر سنة ١٠١٥ م (ربيع الثاني سنة ٤٠٦ هـ) (٢) .

وكان أول فتح إسلامى لهذه الجزيرة الكبيرة.

وتقول لنا الرواية الإسلامية إن مجاهداً غلب على معظم أنحاء سردانية وافتتح معاقلها، ثم قرر البقاء في الجزيرة، حتى يوطد مركزه بها، واختط بها بالفعل مدينة واسعة شرع في بنائها، وانتقل إليها بأهله وولده، وأنه أحرز من الغنائم والسبى مالا يأخذه الحصر، حتى كسد السبى في زمانه،

---

(١) Amari: ibid ; V.

III.

p.

٦ & ٧

(٢) وفي جذوة المقتبس أن الفتح وقع سنة ٤٠٦ أو ٤٠٧ هـ (ص ٣٣١) .

(١٩١/٢)

وانحطت أثمانه (١) .
ومن المحقق على أى حال أن مجاهداً لبث في سردانية حتى
نهاية سنة ٤٠٦ هـ، أعنى نحو عشرة أشهر.
وفى خلال ذلك كانت البابوية
والدول الإيطالية القريبة، قد اهتزت لهذا الحادث الخطير، وزاد في روعها
وسخطها ما عمد إليه مجاهد من الإغارة بسفنه على الشاطىء الممتد بين
جنوة وبيزة
واقتحام مدينة لونى ونهبها، وكانت جنوة وبيزة يومئذ هما أقوى الدول البحرية
في هذه المياه.
ولكلتاهما مصالح تجارية عظيمة تحرص على حمايتها.
وفى الحال
أعلن البابا، وهو يومئذ بندكتوس الثامن، الحرب الصليبية ضد المسلمين،
وعقد تحالفاً مع جنوة وبيزة على محاربة المسلمين وطردهم من الجزيرة.
ومما
يروى بهذه المناسبة، أن مجاهداً العامرى أرسل إلى البابا كيساً مملوءاً بحبات
القسطل، معلناً أنه سوف يعود بعدها، وأن البابا رد بأن بعث إليه كيساً
مملوءاً بالحشائش الرفيعة، قائلا إنه سوف يلقى بعددها ممن يرتدون
الخوذات.
وهكذا عقدت الدول الإيطالية بزعامة البابا، العزم على تحطيم الغزاة
المسلمين، ورد خطرهم عن هذه المياه.
وهنا يحيط الغموض بالفترة القصيرة، التي قضاها مجاهد العامرى فى
سردانية.

ففى بعض الروايات أن مجاهداً عاد بعد هذه الحملة الأولى إلى دانية
وجهز حملة ثانية إلى سردانية، في صيف العام التالى أعنى في سنة ٤٠٧
هـ (١٠١٦ م)
وذلك لكى يقضى على كل مقاومة في الجزيرة، وهذه رواية يصعب تصديقها،
وليس في سير الحوادث ما يؤيدها.
والحقيقة هى أن مجاهداً لبث بعد غزو
الجزيرة، يبذل جهده في تحصينها، وفي الاستعداد للدفاع عنها، واستمر طوال
الوقت في كفاح دائم مع أهل الجزيرة.
ولما قدمت السفن الجنوية والبيزية
والسفن النصرانية الأخرى من مختلف الأمم، ودخلت مياه كاليارى، استعد
مجاهد للمعركة الحاسمة، ولكن مقاومة أهل الجزيرة من الداخل، وتمرد الجند
المرتزقة النصارى في أسطوله، وتوالى العواصف القاصفة، كانت كلها عوامل
فتت في عضده، وحطمت خطط دفاعه، فلم يقو طويلا على المقاومة،
وأصابته
السفن النصرانية بهزيمة فادحة.
وتقول لنا الرواية الإسلامية إن أمير البحر
أبا خروب حذر مجاهداً من دخول مياه كاليارى بسفنه، ولكنه لم يأخذ بهذا

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢١٩.
وجذوة المقتبس ص ٣٣١.

(١٩٢/٢)

النصح، وكانت الريح تقذف بمراكبه تباعاً، والروم لا عمل لهم سوى قتل
المسلمين وأسرهم، ومجاهد خلال ذلك يبكى (١) وهكذا تحطمت معظم
سفنه وأسرت أو أغرقت، وقتل معظم أصحابه، واستولى العدو على سائر
غنائمه وسبيه، وعلى أهله وحريمه وولده وفيهن نساؤه وبناته، وعلى ولده،

وجود أمه النصرانية، ولم ينج من أسطوله الضخم سوى بضع سفن، شقت به
عرض البحر مسرعة.
ووقعت هذه الهزيمة الساحقة على مجاهد العامرى فى
شهر يونيه أو يوليه سنة ١٠١٦ م.
ويقدم إلينا العلامة المستشرق أمارى رواية أخرى خلاصتها أن مجاهداً لبث
في سردانية عاماً آخر حتى مايو سنة ١٠١٧ م، وأنه حينما سمع بأمر
الأساطيل
الضخمة التي جهزت لقتاله، أنشأ بالجزيرة قلعة يستعين بها على الدفاع.
ولكن
جنده كانوا خلال ذلك، قد سئموا المقام بالجزيرة لقلة الغنائم ورداءة الطقس،
وساد بينهم التذمر.
وفى شهر مايو سنة ١٠١٧ م، أقبل أسطول البيزيين.
والجنويين الضخم، وعول مجاهد على الانسحاب.
ولكنه حينما خرج بأسطوله
وذلك في شهر يونيه، اصطدم بالأساطيل الإيطالية، وفاجأته في نفس الوقت
عاصفة شديدة، أغرقت كثيراً من سفنه، واصطدم الكثير منها بالشاطىء،
فسار
في فلول أسطوله صوب دانية تاركاً في الأسر ولده وأخاه وزوجه (٢) .
وهكذا تحطم هذا المشروع الضخم، ولم يتح للمسلمين أن يستقروا في سردانية
كما أتيح لهم من قبل أن يستقروا في صقلية.
ولو نجح مجاهد العامرى في مشروعه، واستقر المسلمون في سردانية، لكان
مرجحاً أن تزدهر بها حضارة إسلامية، كتلك التي ازدهرت في صقلية، بل
وكان مرجحاً أن يطول عهد الإسلام فى
صقلية، وأن يتأخر سقوطها في أيدى النورمان عصوراً أخرى.
ولكن المشروع
كان في الواقع أضخم من مقدرة أمير من أمراء الطوائف، وكانت الدول

النصرانية كلها تتحفز لحماية هذه الجزائر، كى تمنع انسياب الأساطيل
الإسلامية
إلى المياه الإيطالية، وكان في تفوق الجمهوريات الإيطالية البحرى، في هذه
العصور، ما يكفل تحقيق هذه الغاية (٣) .

---

(١) راجع جذوة المقتبس ص ٣٣١.
(٢) Amari: ibid.
؛ V.
III.
p.
٩
(٣) راجع أعمال الأعلام ص ٢١٩ و ٢٢٠، وابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠،
وابن خلدون =

(٢/١٩٣)

على أن غزو مجاهد الجرىء لسردانية، وغاراته المتكررة بعد ذلك على
الشواطىء الإيطالية وشواطىء بروفانس، جعلت منه شخصية خيالية مروعة،
وتفيض الروايات النصرانية المعاصرة، من إيطالية ولاتينية، في غزوات
مجاهد
وغاراته البحرية، وتعرفه باسم موجيتوس Mogetus أو موسيتو Museto
وتحيطه
بهالة من البطولة والروع.
وفى بعض الروايات أن المسلمين غزوا سردانية بعد ذلك مرتين أخريين، فى
سنة ١٠١٩ م، ثم في سنة ١٠٤٩ م، وذلك بقيادة مجاهد العامرى أيضاً، وأن
مجاهداً سقط أخيراً في أيدى النصارى، وهى رواية لا سند لها.
ثم إنه يروى

أيضاً أن البحارة المغامرين أو القراصنة حسبما يسمونهم، من دانية والجزائر، لبثت
تتكرر غاراتهم على الشواطىء الغربية للبحر المتوسط مدة طويلة، يظللها دائماً
اسم "موجيتو" أى مجاهد، على أنه ملك إفريقية.
وإذا كان لنا أن نستخلص
من ذلك شيئاً، فهو الروع الذى كان يبثه اسم هذا البحار الجرىء – مجاهد العامرى – في ثغور البحر المتوسط الغربية، في ذلك العصر.
ومن الأسف أن الرواية الإسلامية تنقصها الإحاطة في هذا الجانب الشائق من حياة مجاهد، وهى حياته كبحار من أعظم بحارى العصر، فهى لا تقدم لنا
عنه سوى نبذة يسيرة متناقضة، وهى أكثر اهتماماً بنواحيه العلمية والأدبية.
وعاد مجاهد العامرى من غزوته المنكوبة لسردانية، ليلقى الأمور في دانية قد اضطربت وتعقدت.
ذلك أن الفقيه أبا عبد الله المعيطى، لم يحفظ العهد، ولم يرع الأمانة، فاستبد بالحكم، واغتصب السلطة لنفسه، ومحا اسم مجاهد
ورسومه، وكثرت مظالمه وعيثه، وابتزازه للأموال، ومجاهرته بالمعاصى.
وما كاد مجاهد يقف على ذلك، حتى بادر بالقبض على المعيطى، ونزعه كل سلطة وصفة، واشتد في تأنيبه وتعنيفه، ثم أرسله مخفوراً إلى العدوة في سفينة أنزلته في بجاية، وهنالك لجأ إلى البربر، وعاش مغموراً حتى توفى (١) .

---

= ج ٤ ص ١٦٤، والمقدمة ص ٢١٢.
وراجع بحثاً بالإسبانية عن مجاهد العامرى وعلى ابنه:
Roque Chabas: Mochahid ijo de Yusuf y Ali ijo de Mochahid en (Estudios de Erudicion Oriental) Homenaje a Fr.

.Codera

وراجع أيضاً: Amari: ibid ; V.

III

.p

٤ - ١٤

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٠.

(١٩٤/٢)

وعمد مجاهد إلى تنظيم شئون مملكته، والعمل على النهوض من عثرته.

وكانت أعوص محنة يومئذ أسر ولده وأهله في سردانية، وقد استطاع أن يفتدى

زوجته وبناته وإخوته في مدة قريبة.

ورفضت أمه وكانت نصرانية العود إليه، وكذلك أختها، وآثرتا العيش في أرض نصرانية، فأعرض عنهما.

وبقيت مشكلة

ولده على.

وكان وقت أسره في سردانية طفلا في السابعة من عمره، وكان

وحيده يومئذ، وكانت أمه نصرانية كذلك.

وقد رفض السرادنة كل عرض

لافتدائه، وأخفق كل مجهود بذله مجاهد لرده.

ومضت الأعوام والغلام يعيش

في الأسر بين النصارى، يربى على دين النصرانية، ويتحدث لغة القوم.

وأخيراً

وفق مجاهد إلى إقناع السرادنة بقبول افتدائه وإطلاق سراحه، وذلك بعد عشرة أعوام من أسره.

وكانت وجهة نظر السرادنة في احتجاز الغلام على هذا النحو، هى استبقاؤه

رهينة ثمينة، لمنع مجاهد من القيام بأية مغامرة أخرى، ولم يرتضوا إطلاق سراحه، إلا بعد أن دفع لهم مجاهد فدية هائلة، وقطع على نفسه أوثق العهود بأن يتركهم في سلام، وألا يعود إلى إزعاجهم بأية صورة.

وخرج

على من الأسر، وهو فتى يتكلم بلسان "الروم" الذى ربى بينهم، ويتزيا بزيهم، ويعتنق دينهم.

فلما وصل إلى دانية عرض عليه أبوه الإسلام، فقبله، وحسن إسلامه، وعنى مجاهد بتأديبه وتثقيفه.

وكان قبل افتدائه من الأسر، قد اختار

لولاية عهده ولده الأصغر حسناً الملقب بسعد الدولة، ولكنه عدل عن هذا الاختيار لما آنسه في ولده الأكبر على من مخايل الشجاعة والذكاء والعزم، فقدمه

على أخيه الأصغر، وعينه لولاية عهده، وعهد إليه بقيادة الجيش.

وكان لذلك

فيما بعد أثره في توتر العلائق بين الأخوين (١) .

- ٢ -

كانت غزوة سردانية أعظم أعمال مجاهد العامرى، وهى ألمع صفحة في تاريخه.

بيد أنه مذ عاد إلى دانية، قدر له أن يخوض سلسلة من الحوادث والأعمال الأخرى.

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢١، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٥٧.

وبحث الأستاذ Chabas

السالف الذكر.

ويقول لنا ابن بسام إن الذى افتدى علياً من الأسر، هو أحد آل حماد أمراء بنى مناد بالمغرب الأوسط، وأنه أسدى بذلك إلى والده يداً بيضاء (راجع

الذخيرة القسم الرابع
المجلد الأول ص ٢٠٦) .

*(١٩٥/٢)*

ففى سنة ٤٠٨ هـ، اجتمع رأى الفتيان العامريين، وعلى رأسهم زعيمهم خيران صاحب ألمرية، على معارضة خلافة على بن حمود الناصر في قرطبة، والدعوة لخلافة مرشح أموى جديد هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله
ابن عبد الرحمن الناصر، وكان قد فر خفية من قرطبة إلى جيان، فأعلن خيران
بيعته، وأيده في بيعته المنذر التجيبيى صاحب سرقسطة، وولاة بلنسية ودانية وطرطوشة وألبونت وغيرها، وكان ذلك في مؤتمر عقد في بلنسية، وتلقب الخليفة الجديد بالمرتضى، وأعلن الخلاف على الناصر، وسار على رأس جيش
متحد من حلفائه ومؤيديه، ومنهم مجاهد العامرى.
والتقى جيش الفتيان وحلفائهم
في ظاهر غرناطة بجيش البربر، بقيادة زاوى بن زيرى الصنهاجى، فهزم جند الأندلس هزيمة فادحة، وقتل المرتضى خلال فراره (٤٠٩ هـ) ، وانهارت بذلك حركة الفتيان لمعارضة خلافة البربر، وعاد مجاهد إلى دانية.
وفى خلال ذلك تطورت الحوادث في بلنسية، وكانت تحت حكم الفتيين العامريين مظفر ومبارك، فتوفى مظفر أولا ثم تبعه مبارك في حادث قتل فيه، وذلك في شهر ذى الحجة سنة ٤٠٨ هـ حسبما فصلنا من قبل في موضعه. فعندئذ
خلفه في حكم بلنسية الفتى لبيب العامرى صاحب طرطوشة، ثم شاركه في حكمها
مجاهد العامرى، وكانت الخطبة تصدر باسميهما، ثم وقع الخلاف بينهما،

وسخط أهل بلنسية على لبيب، لوقوعه تحت نفوذ صاحب برشلونة النصرانى، ففر لبيب إلى طرطوشة، وانفرد مجاهد بحكم بلنسية، إلى جانب مملكته في دانية، واستمر على ذلك زهاء عامين، حتى اجتمع الفتيان العامريون مرة أخرى، وعقدوا البيعة لحفيد مولاهم عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور، وندبوه أميراً
لبلنسية، وذلك في سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) ، وعندئذ تخلى مجاهد عن حكمها.

ولسنا نجد بعد ذلك تفصيلا شافياً لأعمال مجاهد في الأعوام التالية، بيد أنه هنالك واقعتين واضحتين، الأولى أن مجاهداً غزا مرسية، والثانية أنه خاض حرباً مع عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية.

فأما عن الواقعة الأولى، فإنه
يبدو من إشارة لابن الأبار، أن مجاهداً سار إلى غزو مرسية، وقت أن كان عليها أبو بكر بن طاهر نائباً عن زهير العامرى صاحب ألمرية.

ولا توضح لنا الرواية
أسباب هذا الغزو، ولا تاريخه بالضبط، ولكن الظاهر أنه وقع حوالى سنة

(١٩٦/٢)

٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) في أوائل ولاية زهير لألمرية ومرسية عقب وفاة خيران العامرى.

وقد كان النزاع قائماً داخل مرسية حول حكمها بين بني طاهر، وبنى خطاب، وكان مجاهد فيما يبدو من مؤيدى بني خطاب، فلما غلب
بنو طاهر على المدينة سار مجاهد لغزوها، وأسر أبا بكر بن طاهر، وحمله معه
إلى دانية، ولم يطلقه إلا لقاء فدية طائلة، بيد أنه ليس هناك ما يدل على أن مجاهداً
حكم مرسية أو استقر بها طويلا.

وعندئذ ندب زهير أبا بكر بن طاهرلحكم المدينة
واصطحب معه خصمه ومنافسه أبا عمرو بن خطاب إلى ألمرية حسماً للنزاع، وضماناً للسكينة والسلام في مرسية (١) .
ولما توفى زهير العامرى في سنة ٤٢٩ هـ، قتيلا في حربه مع باديس صاحب غرناطة، واستولى عبد العزيز المنصور من بعده على ألمرية وأعمالها، وعلى مرسية
وأوريولة، شعر مجاهد بأن تضخم مملكة بلنسية على هذا النحو سوف يغدو خطراً
على مملكته، فساءت بينهما العلائق بسرعة وانتهت إلى الحرب.
وسار مجاهد
في قواته من دانية، واخترق أراضي مملكة بلنسية الوسطى من شاطبة إلى لورقة.
وكان عبد العزيز المنصور يومئذ في ألمرية، فغادرها في قواته، وكانت شاطبة
ولورقة وشوذر (٢) من أعمال مملكته، قد خرجت كلها عليه وانضمت إلى مجاهد
ووقعت الحرب بين الفريقين (٤٣٣ هـ – ١٠٤١ م) وانتصر عبد العزيز في النهاية
على خصومه، واستعان في محاربته لمجاهد ببعض سريات من المرتزقة النصارى
أمده بها ملك قشتالة، وعاد مجاهد إلى دانية، دون أن يفوز بشيء.
وولّى مجاهد حكم ميورقة (الجزائر الشرقية) ابن أخ له يدعى عبد الله.
وكانت الجزائر الشرقية من أهم أعمال مجاهد، وبها كانت مرافيء معظم أساطيله، لأن مياه دانية لا تصلح لرسو السفن الكبيرة.
واستمر عبد الله على ميورقة
خمسة عشر عاماً حتى عزل في سنة ٤٢٨ هـ، وندب مجاهد لحكمها مولاه

الأغلب.
فاستمر في منصبه بقية عهد مجاهد، وقسما من عهد ولده على (٣) .

---

(١) ابن الأبار في الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٧، وطبعة القاهرة ج ٢ ص ١١٦ و ١١٧.
وكذلك الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٨٢.
(٢) وهى بالإسبانية Jodar
(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧.

*(١٩٧/٢)*

وتوفى مجاهد العامرى سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٤ م) بعد أن حكم مملكة دانية والجزائر
زهاء ثلاثين عاماً، ساد فيها النظام والأمن والرخاء.
وقد أشادت التواريخ المعاصرة واللاحقة، بخلال مجاهد العامرى، وعبقريته
الحربية والسياسية، ومآثره العلمية والأدبية، وكان أكبرهم تنويهاً بشأنه، معاصره
المؤرخ الكبير أبو مروان ابن حيان، وإليك نبذة مما قاله في ذلك، نقلها إلينا
ابن بسام في الذخيرة، قال: " كان مجاهد فتى أمراء دهره، وأديب ملوك
عصره، لمشاركته في علم اللسان، ونفوذه في علم القرآن، عنى بذلك من
صباه، وابتداء حاله إلى حين اكتهاله، ولم يشغله عن التزيد، عظيم ما مر به فى
الحروب براً وبحراً، حتى صار في المعرفة نسيج وحده، وجمع من دفاتر العلوم
خزائن جمة، وكانت دولته أكثر الدول خاصة، وأسراها صحابة، لانتحالهم
الفهم والعلم، فأمه جلة العلماء وأنسوا بمكانه، وخيموا في ظل سلطانه، واجتمع

عنده من طبقات علماء أهل قرطبة وغيرها، جملة وافرة، وجلة ظاهرة، إلا أنه كان مع أدبه من أزهد الناس في الشعراء، وأحرمهم لأهله، وأنكرهم على منشده

فأقصر الشعراء عن مدحه، وخلا الشعر من ذكره " (١) .

وذكر لنا في نبذة أخرى نقلها إلينا ابن الخطيب، أنه كان بين أعلام العصر الذين يلتفون حول مجاهد، أبو عمرو بن سعيد الدانى صاحب القراءات، وأبو عمر

ابن عبد البر، وابن معمر اللغوى، وابن سيده صاحب كتاب المحكم وغيرهم (٢) .

وكان منهم أيضاً الفقيه الكاتب أبو العباس أحمد بن رشيق، وكان يحتل في دولة

مجاهد أرفع منزلة، وقد ولاه ميورقة فحكمها بالسياسة والعدل، واشتغل هناك بالحديث والفقه (٣) ، وكان بعض هؤلاء العلماء منقطعاً إليه، متفرغاً للعمل

في كنفه، مثل ابن سيده الذى ألف معظم كتبه تحت رعايته، ولازمه حتى توفى، ثم غادر دانية بعد وفاته خوفاً من سطوة ولده على (٤) .

" فشاع العلم في حضرته

---

(١) الذخيرة، القسم الثالث، المخطوط لوحة ٥ أ.

ونقلها صاحب البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٦.

(٢) توفى أبو عمرو الدانى سنة ٤٤٤ هـ، وابن عبد البر سنة ٤٦٣ هـ، وابن سيده سنة ٤٥٨ هـ.

(٣) هذا قول ابن الأبار (الحلة السيراء ج ٢ ص ١٢٨) ولا نعرف متى كانت هذه التولية.

ولعلها كانت في أوائل عهد مجاهد.

وقد توفى ابن رشيق بعد سنة ٤٤٠ هـ.
(٤) المقرى عن المطمح في نفح الطيب ج ٢ ص ٣٥٧.

(١٩٨/٢)

حتى فشا في جواريه وغلمانه، فكان له من المصنفين عدة، يقومون على
قراءة
القرآن، ويشاركون في فنون من العلم، يجملونه بها ويشرفون دولته".
ومما يذكر عن علائق مجاهد بعلماء عصره، قصته مع إمام اللغة والنحو فى
عصره، أبي غالب بن غالب المعروف بابن التيانى المرسى.
فإن مجاهداً أثناء
تغلبه على مرسية، وأبو غالب إذ ذاك بها، أرسل إليه ألف دينار، على أن
يزيد
في ترجمة كتابه " الموعب " أنه ألفه لأبى الجيش مجاهد.
فرد عليه المال، وأنف
من ذلك قائلا، " والله لو بذلت لى الدنيا على ذلك ما فعلت، ولا استجزت
الكذب، فانى لم أجمعه لك خاصة، وإنما جمعته لكل طالب علم " (١) .
ولم تقف إشادة المؤرخ المعاصر بخلال مجاهد عند مآثره العلمية، ولكنه ينوه
في نفس الوقت بخلاله كفارس من أعظم فرسان عصره.
ويقول لنا ابن حيان
إنه " كان بهمة، وأكثر الناس علماً بالثقافة، فلا يضم من الفرسان إلا الأبطال
الشجعان، وإنه لم يكن في ملوك الزمان فارس يعدله شكلا ولباقة ورواء
وهيبة، وحسن عمل في السلاح، وتقليباً له، إلى حذق بأبواب الثقافة والرماية،
وتدقيق
لمعانيها " (٢) .
كذلك فإنه يبدو أن مجاهداً كان من أذكى ملوك الطوائف وأحذقهم بالشئون
المالية والتجارية.

وكان نشاطه التجارى الواسع، المترتب على نشاط سفنه التجارية الكثيرة في مياه غربى البحر المتوسط، يحقق له ثروات طائلة، وكانت مملكة دانية في الواقع من أغنى ممالك الطوائف، وأكثرها تمتعاً بالرخاء.

وقد رأينا مما ذكرناه في غزوة ميورقة، وغارات مجاهد البحرية على الشواطىء الفرنسية والإيطالية، أن مجاهداً كان كذلك بحاراً من أعظم بحارة عصره، وكان

من أكثرهم تمرساً بالحروب والغارات البحرية.

ويصفه دوزى، بأنه كان

أعظم " القراصنة " في عصره، وبأنه قد اشتهر بغزواته لسردانية وشواطىء إيطاليا

وكذلك بحمايته للأدباء (٣) .

ُومع كل ما تقدم فإن ابن حيان لم يفر مجاهداً من نقده اللاذع، إذ يبدو أنه

---

(١) راجع الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٨٢، ونفح الطيب ج ٢ ص ١٣٢.

(٢) الذخيرة، القسم الثالث، المخطوط لوحة ٥ أ.

وأعمال الأعلام ص ٢١٨.

(٣) Dozy: Hist.

des Musulmans d'Espagne, V.

III.

p.

٣

(١٩٩/٢)

جنح في أواخر عهده إلى نوع من التناقض والاستهتار، فتارة يبدو ناسكاً، معتكفاً متبرئاً من كل باطل، وطوراً يعود خليعاً فاتكاً لا يساتر بلهو ولا لذة،

ولا يستفيق من شراب وبطالة، شأنه في ذلك شأن سائر ملوك الطوائف (١) .
وكان مجاهد العامرى يكنى حسبما قدمنا بأبى الجيوش، وفي بعض الروايات
بأبى الحسن (٢) ، ويلقب من الألقاب الملوكية بالموفق.

– ٣ –

وخلف مجاهد العامرى في مملكة دانية والجزائر، ولده على الملقب بإقبال
الدولة.
وقد سبق أن أشرنا إلى قصة أسره، وهو صبى، في غزوة سردانية، وعوده من
الأسر بعد أعوام طويلة، فتى تغلب عليه صفات الروم ولسانهم، وكيف
عنى أبوه مجاهد برده إلى حظيرة الإسلام، وبتثقيفه وإعداده ليخلفه في الملك.
وكان مجاهد، قبل عود ولده على، قد رشح أخاه الأصغر حسناً الملقب
بسعد الدولة لولاية عهده، فلما صار الأمر بعد ذلك إلى أخيه على، تحطمت
آماله، وشعر نحو أخيه الأكبر، بعاطفة بغض قوى، ورغبة جامحة في إزالته.
وهناك في الواقع بعض الغموض فيما يتعلق بمركز حسين من مسألة الحكم
وولاية
العهد، ذلك أنه توجد قطع من النقود التي ضربت في دانية سنة ٤٣٢ هـ،
وعليها
اسم حسن سعد الدولة، كما توجد نقود ضربت في دانية وميورقة في سنتى
٤٣٥، و ٤٣٦ هـ، تحمل اسمه واسم أخيه على وأبيهما مجاهد.
وفى ذلك ما يدل على أن
حسناً، ربما ولى الحكم بالفعل خلال حياة أبيه نائباً عنه، أو أنه كان مشاركاً
ْلأخيه على في ولاية العهد، أو نحو ذلك (٣) .
وعلى أى حال فقد سار حسن
مغضباً إلى صهره، وزوج أخته العتضد بن عباد في إشبيلية، وأفضى إليه
بمشروعه في الوثوب على أخيه، واسترداد حقه في الملك، فشجعه المعتضد،
وهو
من عرفنا من الجرأة والإقدام على الكبائر، ولعله كان يرى في معاونته على

تنفيذ
مشروعه، سبيلا إلى بسط حمايته فيما بعد على مملكة دانية.
وبعث معه إلى دانية
غلاماً فتاكاً من غلمانه، ووضع حسن والغلام العبادى خطتهما لاغتيال على،

---

(١) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ٥ أ.
(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠، وراجع معجم ياقوت الجغرافى تحت كلمة " دانية ".
(٣) P.
y Vives: Los Reyes de Taifas ; p.
٣٦

*(٢٠٠/٢)*

واتفقا على أن يكون ذلك يوم جمعة عقب خروج على من الصلاة.
وكان من
عادة على، عقب الخروج من الصلاة، أن يتنزه قليلا على شاطىء البحر، وكان
إذا ركب، كان أخوه حسن وراءه في الموكب، فلما انتهى على في ذلك اليوم
من نزهته، وسار عائداً إلى قصره، انتهز حسن والغلام العبادى فرصة مروره
في زقاق ضيق، وانقض حسن عليه بخنجره، فأصابه في يده، ثم حاول أن يثنى
الطعنة فلم يوفق ورده على، وعندئذ حاول الغلام العبادى أن يطعن علياً بالرمح
الذى يحمله، فنشب الرمح في الحائط لضيق الزقاق، وانقض رجال علىّ على
الغلام العبادى فقتلوه، وفر حسن ناجياً بنفسه، وسار مسرعاً إلى بلنسية، حيث

لجأ إلى صهره، وزوج أخته الآخر.
عبد الملك بن عبد العزيز، وهناك عاش
في كنف أخته مغموراً حتى توفى (١) .
وهكذا فشلت هذه المحاولة الغادرة في اغتيال على بن مجاهد، وبرىء على
من جراحه واستقر في ملكه، واتفق الجميع على طاعته وتأييده.
وحذا على حذو
أبيه في اتباع سياسة الحيدة والمودة مع جيرانه، وحاول مثل أبيه أن يوثق
علائقه
مع ملوك عصره بالمصاهرة، وكانت له بنات حسان يصفهن صاحب الذخيرة
بأنهن كن " أحسن من الشموس، وأفتن من الطواويس " ويقول لنا إن ملوك
الطوائف تنافسوا في الزواج منهن، وجعلهن والدهن على عيوناً على
أزواجهن، معتمداً على ما تحققه له المصاهرة وصلة الرحم، من الرعاية
والحماية (٢) ، فزوج
إحداهن للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، وأخرى إلى المعتصم بن صمادح
صاحب
ألمرية، وتزوج هو من ابنة أحمد بن هود المقتدر بالله، بيد أنه كان من
غرائب
القدر أن هذه السياسة ذاتها، وهى سياسة المصاهرة، كانت أيضاً هى السبب
في سقوط على وضياع ملكه.
ولم نعثر على أية تفاصيل شافية عن الأحداث التي مرت بمملكة دانية أيام
على
ابن مجاهد، ولا عن أعمال على ذاته، وكل ما نستخلصه من الإشارات القليلة
المتعلقة بحكمه، أنه جرى على نفس سياسة أبيه في مخاصمة بني طاهر
أصحاب
مرسية، وأنه كان متحالفاً مع أصحاب بلنسية ومربيطر وشنتمرية الشرق.
وأما عن

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٧ و ١٥٨.
(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٦.

(٢٠١/٢)

علائقه مع الملوك النصارى، فإنه كان على علائق المودة والصداقة مع ملك
قشتالة، أسوة بالمأمون صاحب طليطلة، ولكن على مبدأ الاستقلال لا
الخضوع، إذ كانت
مملكة دانية، حسبما بينا من قبل، بموقعها النائى الحصين، بعيدة عن متناول
عدوان قشتالة.
وكذا كان يرتبط بمثل هذه العلائق الودية مع كونتات برشلونة، وهم أمراء آل
برنجير.
وكان على يولى شئون الجزائر منتهى عنايته، وكان يشعر دائماً أنها أهم
أقسام
مملكته.
وكان حاكمها وقت ولاية على، هو الأغلب مولى أبيه مجاهد، وكان
قد ولى حكمها منذ سنة ٤٢٨ هـ.
وكان جندياً وبحاراً مجرباً، وكان دائب الإغارة
بسفنه على الشواطىء النصرانية في قطلونية وبروفانس (١) .
ولما توفى مجاهد، استأذن الأغلب علياً بعد ولايته بقليل، أن يسير إلى الحج،
فأذن له، وندب
لحكم الجزائر صهره سليمان بن مشكيان، فاستمر في حكمها خمسة أعوام
أخرى
حتى وفاته في سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) ، فولى على مكانه عبد الله
المرتضى
فحكمها مدة طويلة.

ولما سقطت دانية في يد ابن هود، وانقضت دولة على، حسبما يجىء، أعلن المرتضى استقلاله بحكم الجزائر، واستمر في حكمها أميراً
مستقلا حتى وفاته في سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٢ م) ، فخلفه في حكمها مبشر بن سليمان
الملقب بناصر الدولة حسبما نذكره في موضعه (٢) .
وكان من أبرز أعمال على بن مجاهد، استجابته لنداء المستنصر بالله خليفة مصر
الفاطمى، أيام الشدة العظمى، التي نكبت فيها مصر بالوباء والمجاعة
الغامرة، حيث دعاه إلى المساهمة في إغاثة أهل مصر بالغلال والمؤن، فبادر على إلى
الاستجابة، وبعث إلى الإسكندرية مركباً كبيراً مشحوناً بالمؤن والأطعمة،
(٤٤٧ هـ - ١٠٥٥ م) ، فردها إليه المستنصر مشحونة بالتحف والذخائر، وتبالغ
بعض الروايات فتقول إنه أرسلها إليه مشحونة " بالأموال والذخائر، أو بالياقوت
والجواهر والذهب " (٣) .
وبعث على إلى المستنصر رسالة شكر تفيض بلاغة وإجلالا، مكتوبة بقلم

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥.

(٢) راجع: A.

.P

.Ibars: Valencia Arabe, p

١٧١ & ١٧٢

(٣) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٨، وأعمال الأعلام ص ٢٢١ و ٢٢٢.

وزيره أبي الأصبغ بن أرقم، يشيد فيها بمقام الخلافة الفاطمية وجلالها، ومقام المستنصر بالله.

وقد نقل إلينا ابن بسام نص الرسالة المذكورة، ومما جاء فيها على لسان على:

" فالآن استمد المريد، واستقر الضمير، فتبسم مولى الحضره رياضاً عطراً، وراد روضها زهراً، وشام برقها ممطراً، واستوضح هلالها مبدراً، وارتشف ماءها حضراً، فما الشكر وإن جزل، يوف ثنايا ذلك الإفضال والإنعام، ولا اللسان وإن جفل يتعاطى ذلك الشأو، ولا الأقلام، ولا الطوق يقوم بأعبائها حق القيام.

وأى وسع يبارى البحر وهو طام، وأى طوق يطيق ركنى شمام.

ولو كانت للمولى بالقدر يدان وساعده إمكان، وساعفه زمان، لأم بشخصه كعبة الآمال، واستقبل بقصده قبلة السعة والإقبال، واستلم بيده ركن الإنعام والإفضال " (١) .

وكان على يتبع سياسة المودة والتسامح المطلق نحو النصارى، ونحو أمانيهم الدينية، وربما كان ذلك راجعاً من بعض الوجوه إلى ظروف حياته، وإلى نشأته خلال أسره الطويل، بين نصارى سردانية، واعتناق دينهم قبل أن يعود إلى الإسلام.

ولدينا في ذلك وثيقتان صادرتان منه، الأولى بوضع سائر الكنائس والبيع التي بمملكة دانية والجزائر تحت رعاية أسقف برشلونة، وأن يتولى هو تعيين سائر رجال الدين الذين يعملون بهذه الكنائس، والثانية بأن يسمح للنصارى المعاهدين في أعمال مملكته، بأن يذكروا اسم أسقفهم في خطبهم ومواعظهم.

ولدينا بالأخص النص العربى للوثيقة الثانية، وقد جاء فيه: " أشهده

إقبال الدولة، أيده الله، على أنه أجاب غلبرت الأسقف ببرشلونة.
إلى أن
يكون مذكوراً في خطاب النصارى في بيعهم بجميع أعماله، وهو مما انعقد
بالخط
الأعلى، وذلك في شوال سنة تسع وأربعين وأربعمائة "، ثم يلى ذلك أسماء
الشهود (٢) .

---

(١) الذخيرة، القسم الثالث، المخطوط، لوحة ٦٥ ب وما بعدها، وهى طويلة.
(٢) تحفظ هذه الوثيقة بمحفوظات مكتبة الفاتيكان بروومة.
وراجع نصها الكامل في بحث
الأستاذ شاباس السالف الذكر عن مجاهد وابنه على في كتاب: Estudios
de Erudicion Oriental،
Homenaje a Fr.
Codera
وراجع أيضاً في هذا الموضوع A.
P.
Ibars: Valencia Arabe, p.
١٧٥ - ١٧٦.

(٢٠٣/٢)

وكان من أثر هذه الحرية الدينية المطلقة، أن تحققت في نفس الوقت حرية
فكرية شاملة، وانطلقت الأقلام بما شاءت.
وفى هذا الجو المشبع بالتسامح والحرية، كتب أبو عامر أحمد بن غرسية،
وهو مولد من كتاب شرقى الأندلس، يرجع
إلى أصل نصرانى بشكنسى، سبى من ماردة صغيراً، ونشأ في بلاط دانية،
فى كنف مجاهد العامرى صاحب مملكة دانية والجزائر (٤٠٠ - ٤٣٦ هـ) ،

وولده

على اقبال الدولة (٤٣٦ – ٤٦٨ هـ) (١) : كتب رسالته الشهيرة في تفضيل العجم على العرب، وهى رسالة قوية عجيبة، تفيض تحاملا ضد الجنس العربى، وتنوه بوضاعة منبته، وخسيس صفاته، وحقارة عيشه وميوله، وانغماسه في شهوات الجنس، وتشيد بالعكس بصفات العجم (والمقصود بها مختلف أجناس الفرنج) ، وترفعهم عن الشهوات الدنية، وفروستهم، ونجدتهم، وتبحرهم في العلوم، وغير ذلك.

وقد وجه ابن غرسية هذه الرسالة إلى صديقه

الكاتب الشاعر أبي عبد الله بن الحداد، يعاتبه فيها، لأنه يخص ابن صمادح دون

مجاهد وولده على بمدائحه، وصاغها في أسلوب عنيف مقذع، ينبىء بما كان

يضمره هذا الكاتب المولد للجنس العربى من المقت والحقد والكراهية.

ولا تحمل

هذه الرسالة تاريخاً ما.

ولكنا نعرف مما تقدم أن ابن الحداد، الذى وجهت إليه، كان

شاعراً في بلاط المعتصم بن صمادح أمير ألمرية، الذى حكم من سنة ٤٣٣ –

٤٨٤ هـ (٢) .

والمرجح أنها وجهت إليه حوالى سنة ٤٥٠ إلى سنة ٤٦٠ هـ، وابن غرسية يقيم بدانية في كنف على إقبال الدولة، وإليك بعض ما جاء في هذه الرسالة فى

التنويه بفضائل العجم، ونقائص العرب:

---

(١) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (القاهرة ١٩٥٥) ج ٢ ص ٤٠٦ و ٤٠٧، وأبو الحجاج البلوى في كتاب الف با (القاهرة ١٢٨٧ هـ) ج ١ ص

.٣٥٣

وابن الأبار في المعجم

رقم ٢٨٢ في ترجمة أبي العباس الجزيرى حيث يقول عنه "وكان بها (أى بدانية) يؤدب أبا جعفر

أحمد بن غرسية الكاتب".

(٢) ان اسم ابن الحداد الذى وجه إليه ابن غرسية رساله، هو الذى ورد في مخطوط

الإسكوريال رقم ٥٣٨ الغزيرى الآتى ذكره.

ولكن ورد في الذخيرة لابن بسام (الجزء الثالث

مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد) وكذلك في كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى

(مخطوط باريس السالف الذكر) أن الذى وجهت إليه الرسالة هو أبو جعفر الجزار، وهو باسمه

الكامل أحمد بن محمد بن سهل السرقسطى، وأنه كان عن شعراء بني هود، وكان عالماً أديباً

شاعراً، وكان قد هبط من سرقسطة يريد ألمرية ليلحق بالمعتصم بن صمادح وقد عدل عن الورود

إلى دانية، والالتجاء إلى أميرها على بن مجاهد.

بيد أننا نؤثر الأخذ بما ورد في مخطوط الإسكوريال.

*(٢٠٤/٢)*

" أأحسبك أزريت، وبهذا الجيل البجيل ازدريت، وما دريت أنهم الصهب الشهب، ليسوا بعرب ذوى أينق جرب، أساورة أكاسرة، مُجد، نُجد، بُهم، لا رعاة شويهات، ولا بهم، شغلوا بالماذى والمرّان عن رعى البعران، وبجلب العز عن حلب المعز، جبابرة، قياصرة، ذوو المغافر والدروع، للتنفيس عن روع المروع، حماة السروح، نماة الصروح، صقورة، غلبت عليهم شقورة،

وشقورة الخرصان، لكنهم خَطَبة بالخرصان، شعر.
ما ضرهم أن شهدوا مجادا..

.

أو كافحوا يوم الوغى الأندادا.

..

..

..

..

..

..

..

أن لا يكون لونهم سوادا "

" شرهوا برنات السيوف، لا بربات الشنوف، وبركوب السروج عن الكلب والفرُّوج، وبالنفير عن النقير، وبالجنائب عن الحبائب، وبالخب عن الحب، وبالسليل عن الشليل، وبالأمر والذمر، عن معاقرة الخمر والزمر، وباللقيان عن العقيان، وعن قنيان القيان، طِياتهم خطياتهم، وغلاتهم آلاتهم وحصونهم حصنهم، أقيال آباؤهم من بين الأنام أقتال.

أولئك قومى إن بنوا شيّدوا البناء..

.

وإن حاربوا جدّوا وان عقدوا شدّوا

حُلُم عُلُم ذوو الآراء الفلسفية الأرضية، والعلوم المنطقية الرياضية كحملة الاسترلوميقى.

والموسيقى والعَلَمة بالارتماطيقى، والجومطريقى، والقومة بالألوطيقى والبوطيقى، ما شئت من تدقيق، وتحقيق، حبسوا أنفسهم على العلوم

البدنية والدينية لا على وصف الناقة الفدنيّة، فعلمهم ليس بالسفساف كفعل

نائله وأساف، أصغر بشأنكم، إذ بزق خمر باع الكعبة أبو غبشانكم، وإذ أبور غالكم
قاد فيل الحبشة إلى حرم الله لاستيصالكم.
أزيدك أم كفاك وذاك أنى..
.
رأيتك في انتحالك كنتَ أحمق
فلا فخر معشر العربان الغربان، بالقديم، المفرّى للأديم، ولكن الفخر
يابن عمنا، الذى بالبركة عمّنا، الإبراهيمى النسب، الإسماعيلى الحسب الذى
انتشلنا الله تعالى به وإياكم من العماية والغواية، أما نحن فمن أهل التثليث وعبادة
الصلبان، وأنتم من أهل الدين المليث وعبادة الأوثان، ولاغرو أن كان منكم
حبره وسبره، ففى الرغام يلقى تبره، والمسك بعض دم الغزال، والنطاف
العذاب مستودعات بمسك العزال:

(٢٠٥/٢)

لله مما قد برا صفوة..
.
وصفوة الخلق بنو هاشم
وصفوة الصفوة من بينهم..
.
محمد النور أبو القاسم
بهذا النبى الأمى أفاخر من تفخّر، وأكابر من تقدم وتأخر، الشريف
السلفين، والكريم الطرفين، الملتقى بالرسالة، والمنتقى للأداء والدلاّلة، أصلى عليه
عدد الرمل، ومدد النمل، وكذلك أصلى على واصلى جناحه، سيوفه ورماحه،
أصحابه الكرام، عليهم من الله أفضل السلام ".

وقد أثارت رسالة ابن غرسية مرارة في الأوساط الأدبية المعاصرة، ورد عليه من العلماء القريبين من عصره في رسائل شديدة، انتهى إلينا بعضها.

ومن هؤلاء

أبو جعفر أحمد بن الدودين البلنسى، وقد عاش في النصف الثاني من القرن الخامس، وكان معاصراً لابن بسام، وأورد لنا ابن بسام رده على ابن غرسية في الذخيرة.

ومنهم أبو الطيب عبد المنعم بن عبد الله القروى المتوفى سنة ٤٩٣ هـ، وقد ورد رده في الذخيرة أيضاً، وفي مخطوط الإسكوريال، في رسالة عنوانها: "حديقة البلاغة، ودوحة البراعة، بذكر المآثر العربية ونشر المفاخر الإسلامية".

ومنهم الوزير الكاتب أبو عبد الله بن أبي الخصال المتوفى سنة ٥٤٠ هـ، وقد رد

على ابن غرسية في رسالة يوردها لنا صاحب الذخيرة، وعنوانها: " خطف البارق، وقذف المارق في الرد على ابن غرسية الفاسق ".

ومنهم الفقيه أبو يحيى

ابن مسعدة من فقهاء الموحدين، وقد عاش فيما يبدو في النصف الثاني من القرن السادس، في رسالة طويلة وردت في مخطوط الإسكوريال، ومنهم أخيراً أبو مروان عبد الملك بن محمد الأوسى في رسالة "الاستدلال بالحق في تفضيل

العرب على جميع الخلق" (١) .

---

(١) توجد رسالة ابن غرسية ضمن مجموعة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال لا عنوان لها، وتحمل رقم ٥٣٨ الغزيرى، وتحتوى على عدة رسائل تاريخية منوعة، وتشغل بها اللوحات ٢٦ – ٢٩

وتليها رسالة ابى يحيى بن مسعدة في الرد عليها وتشغل اللوحات من ٢٩ – ٤١، ثم يليها رسالة ثانية

في الرد على ابن غرسيه، ثم رد ابى جعفر أحمد بن الدودين البلنسى ويشمل اللوحات ٥٣ - ٥٤.
وأورد لنا ابن بسام في الذخيرة (القسم الثالث المخطوط المحفوظ بأكاديمية التاريخ بمدريد) رسالة ابن غرسية
ثم رد أبي جمفر أحمد بن الدودين، ورد ابن عبد الله القروى.
وقد نشر العلامة المستشرق جولد
سيهر رسالة ابن غرسيه ما عدا الفقرة الأخيرة منها ضمن بحث له بالألمانية عنوانه: "الشعوبية
عند مسلمى اسبانيا" Die Su'ubijja unter den Mohammedanern in Spanien =

*(٢٠٦/٢)*

وقد استمر صدى السخط على رسالة ابن غرسية عصوراً حتى أننا نجد كاتباً أندلسياً عاش بعد ذلك بقرنين هو أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى، يتناول هذه القضية، في كتابه " ألف با "، ويعقد فصلا خاصاً عن " فضل العرب "، يردد فيه ما قيل في ذلك، وما ينسب للعرب من الفروسية، والشجاعة، وحب الحرية، والإباء والجود، وفصاحة اللسان والشاعرية، وغير ذلك من
الخلال المأثورة ثم يعطف على رسالة أبي عامر بن غرسية " البشكنسى الأصل "، ويقول إنه قد " فسق في رسالته وبدع، وسب بسببها وجدع "، ويعدد لنا من
تصدوا للرد عليه، ممن سبق ذكرهم وذكر رسائلهم، ثم يبدى دهشته من تسامح
أهل العصر، وتركهم لابن غرسية وأمثاله دون عقاب ويقول: " والعجب من أهل ذلك الزمن، كيف استقروا على هذه الفتن، وأقروا هذا المجترى على هذا الاجتراء، وما جاء به من الافتراء، أم كيف أبلغوه ريقه، وأوسعوا له طريقه ولم يهلكوه وفريقه " (١) .

وقد عنى البحث الحديث بدراسة رسالة ابن غرسية والتعليق عليها، وتناولها العلامة جولدسيهر في بحثه " الشعوبية عند مسلمى اسبانيا " الذى سبقت الإشارة

إليه.

ويلاحظ جولدسيهر، أنه يوجد بين عظماء الأمة الأندلسية كثيرون ممن يرجعون إلى أصول غير عربية وبخاصة المولدين، ومن هؤلاء أئمة من المفكرين مثل بقى بن مخلد، والعلامة ابن حزم، وإمام اللغة، أبو مروان عبد الملك

ابن السراج، وغيرهم، وكذلك كان الشأن في عنصر الصقالبة، الذى ازدهر، فى ظل أمراء بني أمية، وشغل منه الكثيرون أرفع المناصب من قيادة ووزارة وغيرهما.

بيد أن عنصر المولدين، كان أهم العناصر غير العربية في الأمة الأندلسية وكانت النزعة الشعوبية أكثر تمكناً لديهم من أى عنصرآخر.

وتعتبر رسالة ابن

غرسية من أبرز نماذج الشعوبية الأندلسية، فقد كان مؤلفها مولداً يرجع إلى أصل نصرانى، وهو يردد في رسالته ما تضمنه أدب الشعوبية في الشرق الإسلامى من الأسباب والمبادىء.

بيد أن رسالة ابن غرسية تمتاز بأنها في تفضيل

---

= نشر بمجلة جمعية المستشرقين الألمانية (Z.

der D.

Morg.

Gesell.

) سنة ١٨٩٩ ص ٦٠١ - ٦٢٠

ونشرها الأستاذ مختار العبادى ضمن بحث له عن "الصقالبة في اسبانيا" (مدريد ١٩٥٣) ونشرها أخيراً، ونشر معها الردود التي سبقت الإشارة إليها

الأستاذ عبد السلام هارون في مجموعة نوادر المخطوطات، (المجموعة
الثالثة) (القاهرة ١٣٧٣ هـ) .
وقد نشرناها نحن في نهاية الكتاب.
(١) أبو الحباج البلوى في يها.
٥ لف برا " ص ٣٤٧ - ٣٥٣.

(٢٠٧/٢)

العجم على العرب، تعنى قبل كل شيء بالإشادة بفضائل الروم أو بني
الأصفر
أى النصارى، في حين أن معظم رسائل الشعوبية المشرقية تعنى بالمفاضلة
بين
العرب والعجم (أى الفرس) .
ْأما ما كتبه ابن غرسية في نهاية رسالته عن تمجيد النبى العربى، والإشادة
بمآثره، ورسالته الروحية، فيصفه جولدسيهر بأنه حجاب للتمويه، وفي رأى
ابن غرسية أن العروبة ليست مفخرة للنبى، " ففى الرغام يلقى تبره، والمسك
بعض دم الغزال " (١) .
واستمر على إقبال الدولة في حكم مملكته زهاء ثلاثين عاماً، ثم ساءت
العلائق
بينه وبين صهره، حميه أحمد بن سليمان بن هود المقتدر صاحب سرقسطة.
وكان
المقتدر أميراً صارماً وافر الأطماع، فحارب أخوته واستولى على بعض
أعمالهم، وانتزع طرطوشة من صاحبها الفتى العامرى مقاتل، وحاول أن ينتزع
لاردة
من أخيه المظفر.
ثم اتجهت أبصاره إلى مملكة دانية، وأخذ يكيد لعلى ويشتد
في مضايقته.

وكانت أهم الأسباب التي انتحلها لخصومته، هو أنه أى على قد
استقبل بدانية بعض الأسر القوية، التي فرت من لاردة بلد المظفر أخى
المقتدر
وخصيمه، ولجأت إلى حمايته.
وذكر لنا ابن بسام سبباً آخر لذلك، وهو أن
المقتدر طالب علياً ببعض القلاع الشمالية الواقعة في مملكته، والتي كان
يريد أن
يلحقها بثغر طرطوشة، وأن علياً، خشية من صولته، سلم إليه تلك القلاع،
بيد أنه ضبط فيما بعد كتباً أرسلها على إلى أصحاب تلك القلاع يحثهم فيها
على
التحصن والمقاومة (٢) .
وأخيراً سار المقتدر في قواته إلى دانية، وحاصرها، وشعر على أنه عاجز
عن مقاومته، فعرض عليه أن يسلمه المدينة والقصر بما فيه، على أن يؤمنه
في نفسه وأهله، فوافق المقتدر، ودخل دانية واستولى عليها، وذلك في شعبان
سنة ٤٦٨ هـ (إبريل ١٠٧٦ م) .
وانتهت بذلك الدولة المجاهدية.
وجلس المقتدر بالقصر، وبايعه الناس خاصتهم وعامتهم، وأقام بدانية وقتاً
ينظم فيه شئونها، ثم غادرها.
وأخذ المقتدر معه صهره علياً وأهله، إلى
سرقسطة.
وأنزله في كنفه، فعاش هنالك محجوراً عليه حتى توفى، وذلك،

---

(١) I.

Goldziher: Die Su'ubijja unter den Mohammedanern in

Spanien (Z.

der.

.Morg

.Gesell

.B (

.p (١٨٩٩) ٥٣

.٦١٥ - ٦٠٧

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٧.

*(٢٠٨/٢)*

سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) .

وفى رواية أخرى، أنه استطاع الفرار من اعتقال

المقتدر، ولحق بالعدوة، والتجأ إلى بني حماد أصحاب بجاية وهنالك توفى

. (١)

وحاول ابنه سراج الدولة، وكان وقت سقوط دانية، حاكماً لحصن

شقورة، أن يسعى إلى استرداد ملك أبيه، فسار إلى برشلونة، واستغاث

بصاحبها الكونت برنجير، فاستجاب إليه بشروط وأمده ببعض قواته،

واستطاع

بالفعل أن يسترد بعض الحصون، ولكن المقتدر كان له بالمرصاد.

ويقال إن

المقتدر استطاع أن يدس عليه من اغتاله بالسم، فتوفى في سنة ٤٦٩ هـ،

لنحو

عام من خلع أبيه (٢) .

وكان على بن مجاهد أميراً فاضلا، رفيع الخلال والمواهب، وكان مثل

أبيه من حماة العلوم والآداب، وكان لطول إقامته بسردانية يتحدث ويكتب

بالفرنسية والقشتالية، وينظم الشعر بهما (٣) .

وكان ميالا إلى السلم والدعة، بعيداً

عن أحداث السياسة وتقلباتها، مؤثراً لجمع المال، والاشتغال بالمشاريع

التجارية (٤)
وفى عهده ساد السلام والرخاء في مملكة دانية، وازدهرت أحوالها وتجارتها.
وقد
أشاد بذكره عبد الواحد المراكشى في تلك العبارة المؤثرة: " ثم ملكها (أى
دانية) بعده ابنه على بن مجاهد وتلقب بالموفق، لا أعلم في المتغلبين على
جهات
الأندلس أصون منه نفساً، ولا أطهر عرضاً، ولا أنقى ساحة، كان لا يشرب
الخمر، ولا يقرب من يشربها، وكان مؤثراً للعلوم الشرعية، مكرماً لأهلها " (٥)
.
- ٤ -
ويجدر بنا قبل أن نختم الكلام على مملكة دانية، أن نتتبع مصاير ولاية
ميورقة أو الجزائر الشرقية، التي كانت تؤلف أهم وحدة فيها.
وقد رأينا أنه كان على حكمها وقت أن سقطت دانية في يد المقتدر بن هود
في سنة ٤٦٨ هـ، عبد الله المرتضى الذى ندب لحكمها منذ سنة ٤٤٢ هـ.
وعندئذ
أعلن المرتضى استقلاله، واستبد بحكم الجزائر، وبعث إلى دانية ليستقدم

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥.
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥.
(٣) A.
P.
Ibars: Valencia Arabe, p.
١٧٠، Note 3
(٤) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٦.
(٥) المعجب ص ٤١.
وذكره أن علياً تلقب بالموفق من باب السهو، إذ هو لقب والده مجاهد.

أسرة سيده المخلوع على، فأرسلت إليه، وعاشت في كنفه معززه مكرمة (١) .
واستمر المرتضى بعد ذلك في حكم الجزائر أعواماً طويلة أخرى، حتى توفى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) .
فخلفه في الإمارة مساعده مبشر بن سليمان.
ويقول لنا ابن خلدون إن مبشراً
هذا، قد ولى على الجزائر في أوائل عهد على إقبال الدولة في سنة ٤٤٢ هـ، وإنه كان من شرقى الأندلس، وأسره النصارى صغيراً وجبوه، وإن مجاهداً وقع عليه بين أسرى سردانية، فأعجب بمواهبه، وقربه واصطفاه، وترقى في خدمته (٢) .
وفى هذه الرواية غموض وتحريف.
والحقيقة في أمر مبشر أنه
كان من أهل قلعة حمير من أعمال لاردة، وأسره النصارى في صباه وجبوه، وعاش في برشلونة، حتى تعرف عليه ذات يوم سفير المرتضى حاكم الجزائر، وكان قد وفد مبعوثاً إلى الأمير برنجير في بعض الشئون، فأعجب بمواهب
مبشر، وافتداه من الأسر، وأخذه إلى ميورقة وقدمه إلى المرتضى، فسر بخلاله ومواهبه، وأولاه ثقته، واستعان به في تصريف شئون الحكم، واستمر على ذلك حتى توفى المرتضى، فخلفه في الإمارة حسبما تقدم.
وضبط مبشر شئون ميورقة (الجزائر) بحزم وكفايه، واتخذ لقب ناصر الدولة.
وفى تلك الأثناء كان المرابطون، بعد أن أحرزوا نصرهم فى الزلاقة، قد استولوا على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية، ثم زحفت جيوشهم نحو شرقى الأندلس، واستولت على مرسية ثم بلنسية وذلك في سنة ٤٩٥ هـ

(١١٠٢ م) ، كل ذلك ومبشر ماض في حكمه للجزائر، يرقب سير الحوادث
حذراً متأهباً.
والظاهر أن إلجزائر تمتعت في عهده بفترة من الأمن والرخاء، واشتهر أمر
مبشر، وقصده الأدباء والشعراء، ووفد إليه بميورقة أبو بكر ابن اللبانة
المعروف
بالدانى شاعر المعتمد بن عباد ووزيره من قبل، وامتدحه بقصيدة هذا
مطلعها:
ملك يروعك في حلى ريعانه..
.
راقت برونقه صفات زمانه
وكانت حملات البحارة المجاهدين في عهده، وهم الذين تنعتهم التواريخ

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥، وهو ينسب هذا التصرف إلى مبشر خلف
المرتضى.
(٢) ابن خلدرن ج ٤ ص ١٦٥.

(٢/٢١٠)

الفرنجية بالقراصنة، تخرج من ثغور الجزائر المختلفة، وتغير من آن لآخر
على
شواطىء قطلونية، وبروفانس وليجوريا، وكانت سفن النورمان والبيزيين
والقطلان من جانبها تغير على شواطىء الجزائر وتعيث فيها.
وكان من الحوادث
الشهيرة في هذا العهد أن طائفة من السفن النرويجية جاءت بقيادة الملك
سيجورد
ملك النرويج، وعاثت في شواطىء اسبانيا الغربية، ثم عبرت مضيق جبل
طارق، وسارت إلى الجزائر الشرقية، وهاجمت جزيرة فورمنتيرا الصغيرة

المنيعة الواقعة جنوبى جزيرة يابسة، وكانت قد أودعت بها أموال وذخائر كثيرة
للمسلمين، تقوم على حراستها حامية صغيرة، فاقتحم سيجورد الجزيرة، وأضرم فيها النار، واستولى على ما فيها من الأموال، ومات سائر المسلمين المدافعين عنها (١) .
وكانت جمهورية بيزة الإيطالية أشد البلاد اهتماماً بالاستيلاء على الجزائر الشرقية، ووضع حد لغارتها المتكررة على الشواطىء الإيطالية، وكان البابا يشجع هذا المشروع ويباركه.
وعقدت بيزة من أجل ذلك حلفاً مع أمير برشلونة
رامون برنجير الثالث.
وفى صيف سنة ١١١٤ م (أوائل ٥٠٨ هـ) خرج من
مياه بيزة أسطول الغزو وقوامه نحو ثلاثمائة سفينة، ومعه وحدات بحرية أخرى
من برشلونة ومن فرنسا، وعرج الأسطول أولا على مياه الجزائر، ونزلت بعض وحداته في إحدى الجزر الصغيرة.
ولما علم بذلك مبشر، بعث رسله
يعرض الصلح على الغزاة، ويعرض تسليم الأسرى، وأن يؤدى تعويضاً عن نفقات الحملة، فرفض الغزاة، وسارت سفنهم فرست في مياه قطلونية حتى اقترب الربيع، ثم سارت بعد ذلك صوب جزيرة يابسة، وكانت سفن الغزاة، قد غدت يومئذ نحو خمسمائة سفينة، ومع ذلك فقد عقد مبشر عزمه على المقاومة، فحصن ميورقة، وبذل جهده في إعداد وسائل الدفاع.
واستولى الغزاة على
يابسة بسهولة، ثم اتجهوا نحو ميورقة كبرى الجزائر، ونزلوا فيها، وضربوا الحصار حول مدينة ميورقة عاصمتها.
واستعد مبشر لحصار طويل الأمد، وبعث في الحال صريخه إلى أمير المسلمين

(١) راجع: Dozy: Recherches; V.
II.
p.
٣٢٣ - ٣٢٦.
وكذلك A.
Campaner y
Fuentes: Bosquejo Historico de la Dominacion Islamica
en las Islas Baleares
(Palma 1888) p.
٤٤ - ٩٦

(٢١١/٢)

على بن تاشفين، يطلب إليه الغوث قبل أن تسقط الجزائر في أيدى النصارى.
وكان المرابطون قد استولوا عندئذ على شرقى الأندلس كله، وأحرزوا
انتصارهم
الحاسم على القشتاليين في موقعة إقليش (٥٠١ هـ - ١١٠٨ م) ثم استولوا
فى
العام التالى على سرقسطة (٥٠٢ هـ) ، وقضوا على ملك بني هود، وأضحوا
يهددون منها مملكة برشلونة النصرانية.
وقدر أمير المسلمين أهمية ميورقة، وأمر
يتجهيز الأساطيل لإنجادها، ورأى المرابطون أن يضغطوا في نفس الوقت
على
مملكة برشلونة التي كان أميرها برنجير الثالث يشترك بأسطوله في حصار
ميورقة، فسارت قواتهم شمالا، وإخترقت أراضي قطلونية وعاثت فيها.
ولكن الكونت

برنجير، اضطر إزاء ضغط حلفائه، أن يبقى معهم حتى النهاية في مياه
ميورقة.
واشتد الحصار على ميورقة، وطوقها النصارى بنطاق محكم من الآلات
الضخمة
وقطعوا عنها كل معونة ونجدة، وقاسى المسلمون أهوالا من الجوع والحرمان، ولكنهم صمموا أن يموتوا دفاعاً عن أرضهم، وتوفى خلال ذلك الأمير مبشر ابن سليمان، فخلفه في الحكم أبو الربيع سليمان، وصمم أن يمضى في المقاومة، وحاول أن يغادر الجزيرة مع بعض صحبه في مركب صغيرة، ليسعى إلى طلب
النجدة، فأسره النصارى.
واستطاع النصارى أن يقتحموا السور الأول في فبراير
سنة ١١١٦ م (أواخر سنة ٥٠٨ هـ) ثم اقتحموا بقية الأسوار تباعاً.
وفى أواخر
مارس دخل النصارى مدينة ميورقة، واحتلو قصر المُدَينة قصر الحكم، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً وسبياً، ثم أضرموا فيها النار، ولم يكن بها عندئذ سوى
الشيوخ
والنساء والأطفال بعد أن هلك معظم المدافعين عنها في الحصار، فقتل
النصارى
منهم جملة كبيرة، وكان الكونت برنجير صاحب برشلونة، قد اضطر قبيل سقوط المدينة، أن يعود إلى مملكته حين علم باشتداد ضغط المرابطين عليها، وحصارهم لبرشلونة عاصمتها.
وفى أثناء ذلك كان أمير المسلمين على بن تاشفين، قد تلقى صريخ مبشر
على
يد بحار جرىء هو عبد الله بن ميمون، وكان قد استطاع أن يخترق الحصار بسفينته تحت نجح الظلام، وأن يعبر البحر إلى المغرب.
وبادر أمير المسلمين

فجهز أسطولا ضخماً من خمسمائة سفينة، وأقلعت السفن المرابطية بسرعة صوب
الجزائر بقيادة أمير البحر ابن تفرتاش.
وعلم البيزيون وحلفاؤهم بذلك، فأدركوا

(٢١٢/٢)

أنه لا محل لأن يخوضوا مع هذه القوات البحرية الضخمة، معركة غير مأمونة
العواقب، فأقلعوا مثقلين بالسبى والغنائم، بعد أن استصفوا ثروات الجزيرة،
وغادروها قاعاً صفصفاً.
ودخل المرابطون على أثرهم ميورقة، وذلك في أواخر
سنة ١١١٦م (٥٠٩ هـ) ، وفي الحال شرعوا في تعميرها، وعاد إليها الفارون
من سكانها، وكانت قد لجأت منهم إلى الجبال جموع غفيرة، وعين أمير المسلمين
حاكماً على الجزائر يدعى وانور بن أبي بكر اللمتونى، ومن ذلك التاريخ تدخل
الجزائر الشرقية أو ميورقة في حظيرة الإمبراطورية المرابطية الكبرى، وهى التي
كانت قد اشتملت يومئذ على سائر ممالك الطوائف الأندلسية (١) .

---

(١) تراجع أخبار غزو النصارى لميورقة واستردادها على يد المرابطين، في ابن خلدون ج ٤
ص ١٦٥، وروض القرطاس ص ١٠٥، والروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٨٨
وكذلك، A.
.Campaner y Fuentes: ibid ; p

١٠٥ - ١٣٥ و P.
y Vives: Los Reyes
de Taifas, p.
٤١

(٢١٣/٢)

الكتاب الرابع
دول الطوائف
في منطقة بلنسية

(٢١٥/٢)

الفصْل الأوّل
مملكة بلنسية
١ - عهد الصقالبة وبنى عامر وبنى ذى النون
الصقابة وشرقى الأندلس.
العبدان مظفر ومبارك.
تغلبهما على بلنسية.
اشتراكهما وامتزاجهما.
تغلب مبارك على شاطبة.
أحوال بلنسية في عهدهما.
وفود الصقالبة والموالي إليها.
الحرب بين مبارك
والمنذر التجيبى.
وفاة مظفر.
مصرع مبارك.
بلاطهما ووزراؤهما.

مديح الشعر لهما.

لبيب

العامرى ومجاهد يخلفان مبارك.

اختلافهما وفرار لبيب إلى طرطوشة.

مبايعة الفتيان العامريين

لعبد العزيز المنصور بالزعامة.

توليه إمارة بلنسية.

خيران العامرى يقدم للزعامة محمد بن عبد الملك

المنصور.

توليه إمارة مرسية وأوريولة.

تنكر خيران له ومغادرته لمرسية.

عبد العزيز المنصور

ووزراؤه.

وفاة خيران وخلافة زهير له في ألمرية.

مصرع زهير.

مبايعة أهل ألمرية لعبد العزيز.

اتساع مملكة بلنسية وموقف مجاهد العامرى.

عبد العزيز يعهد بشئون ألمرية إلى ابن صمادح.

غدره

واستيلاؤه على ألمرية.

الحرب بين عبد العزيز والفتيان العامريين.

عبد العزيز وعلائقه بالملوك النصارى.

وفاة عبد العزيز وقيام ولده عبد الملك.

وزيره ابن رويش.

موقف المأمون بن ذى النون.

مشروعه

للاستيلاء على بلنسية.
استيلاؤه عليها واعتقاله لصهره عبد الملك.
مختلف الروايات في ذلك.
مهاجمة
القشتاليين لبلنسية.
موقعة بطرنة.
مقدم المأمون بحجة إنجاد صهره.
دخوله بلنسية واستيلاؤه عليها.
وفاة ابن رويش وقيام ولده أبي بكر بن عبد العزيز.
استبداده بحكم بلنسية.
استيلاء المؤتمن بن هود
على دانية.
توجس ابن عبد العزيز والتجاؤه لألفونسو السادس.
محاولة المؤتمن الاستيلاء على بلنسية
وفشله.
التفاهم بين أبي بكر والمؤتمن.
وفاة أبي بكر وقيام ولده عثمان مكانه.
تطور الحوادث.
سقوط طليطلة في يد ألفونسو السادس.
وعده لصاحبها القادر باسترداد بلنسية.
مسير القادر إلى
بلنسية مع الجند النصارى.
موقف أهل بلنسية.
إعلان الجماعة خلع عثمان ومبايعة القادر.
دخول
القادر بلنسية واستيلاؤه عليها.

استبداده واضطراب الأحوال في عهده.
مقدم المرابطين إلى الأندلس.
رحيل القشتاليين عن بلنسية.
أطماع المنذر بن هود في بلنسية.
مسيره إليها ومحاصرتها بمعونة الجند القطلان.
موقف القادر واستغاثته بألفونسو السادس والمستعين بن هود.
المستعين بن هود ومشروعه في الاستيلاء على بلنسية.

كانت دول الطوائف التي قامت في شرقى الأندلس، تمتاز بغلبة العنصر الصقلبى، وتفوقه في سيادتها، وفي تكييف أحداثها، وكانت هذه العناصر الصقلبية التي ألفت في شرقى الأندلس، ميداناً لنشاطها وأطماعها، هى نفسها العناصر التي ظهرت بادىء ذى بدء في ميدان الفتنة القرطبية، وساهمت في أحداثها

(٢١٦/٢)

بقسط بارز، ثم غادرت قرطبة، حينما غلبت هنالك على أمرها، وألفت ملاذها في ذلك الركن النائى من الأندلس، بعيداً عن موجة الطغيان البربرية التي اجتاحت قرطبة، وجنوبى الأندلس.

وكانت بلنسية، وهى أعظم القواعد الشرقية، مركز التجاذب في معركة السلطان التي اضطرم لظاها في تلك المنطقة، وكانت هذه المعركة في البداية متواضعة محدودة المدى، ثم لم تلبث أن انسابت إلى شرقى الأندلس كله، من طرّكونة شمالا حتى مرسية ولورقة جنوباً، بيد أنها فيما عدا بعض اتصالات محدودة بأحداث المنطقة الغربية، حافظت على سيرها المستقل، وطابعها الخاص.

وذلك أنه لما اضطرت الفتنة، وانهارت الدولة العامرية في أوائل سنة

٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) ، واستطاع محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدى أن ينتزع الخلافة
لنفسه من هشام المؤيد، كان على بلنسية – وفقاً لبعض الروايات – فتى من الفتيان العامريين هو مجاهد العامرى، فثار به عبدان من العبيد العامريين أيضاً
هما مبارك ومظفر، واستطاعا أن ينتزعا منه السلطة، فغادر مجاهد بلنسية إلى
دانية، وتربع العبدان – ويسميهما ابن الخطيب بالأميرين – مكانه في حكم المدينة.
ويقدم إلينا ابن حيان رواية أخرى عن تغلب مبارك ومظفر على
بلنسية، خلاصتها أنهما كانا يتوليان وكالة الساقية بالمدينة، أيام ولاية عبد الرحمن
ابن يسار عليها، ثم ضرب الدهر ضرباته، وشاء القدر أن ينتزع الإمارة مبارك.
ويصف ابن حيان الحادث بأنه " من غرائب الليالى والأيام، اللاعبة بالأنام ".
ثم يقول لنا إن العبدين مبارك ومظفر توليا هما حكم بلنسية، وامتزجا في ذلك
امتزاج الإخوة وعشاق الأحبة، ونزلا في قصر الإمارة مختلطين " تجمعهما فى
أكثر الأوقات مائدة واحدة، ولا يتميز أحدهما عن الآخر في عظيم ما يستعملانه
من كسوة وحلية وفرش ومركوب وآلة، لا ينفردان إلا في الحرم خاصة، على
أن جماعة حرمهما كن مختلطات في منازل القصر، ومستويات في سائر الأمر ".
وكان لمبارك مع ذلك التقدم في المخاطبة ورسوم الإمارة لصرامته وشدته، ولدماثة
مظفر وانصياعه لزميله في سائر الأمور.
وذكر في بعض الروايات أن مظفراً ومباركاً كانا يقتسمان فيما بينهما حكم

الولاية، فكان مظفر يختص بحكم بلنسية، ومبارك بحكم شاطبة (١) .
وذكر لنا

---

(١) A.
P.
Ibars: Valencia Arabe, V.
I.
p.
١٥٢

(٢١٧/٢)

ابن الخطيب من جهة أخرى، أن شاطبة كان يتولى حكمها منذ انقراض
الدولة
العامرية، الفتى خيرة الصقلبى، وتوطد بها أمره، وكان مبارك يتوق إلى إزالته
عنها، ففى ذات يوم زار خيرة بلنسية، واستضافه مبارك ودس له السم في
الطعام
فهلك بعد أيام قلائل، وتولى نائبه عبد العزيز بن أفلح حكم شاطبة مكانه
تحت
رعاية مبارك، وتركه مبارك على حاله إلى أن استولى عليها مجاهد العامرى
(١) .
وعلى أى حال، فإنه يبدو، أن مظفراً ومباركاً كانا وفقاً لرواية ابن حيان
المتقدمة، يحكمان معاً مدينة بلنسية بصفة فعلية.
وبلغت جباية بلنسية في عهدهما مائة وعشرين ألف دينار في الشهر، سبعون
منها من بلنسية ذاتها، وخمسون من شاطبة التابعة لعمالتها، وكانا يشتدان في
تحصيل
هذه الأموال، حتى أرهقت الرعية وأثقل كاهلها.

على أن هذين العبدين لم يقصرا في تحصين بلنسية وصيانتها، فابتنيا سورها وزود بأبواب حصينة، فارتفع طمع الطامعين عنها، ووفد إليها الناس بأموالهم، واستقروا، وابتنوا المنازل والقصور الفخمة، والرياض الزاهرة، وكان
مبارك ومظفر قدوة في ذلك فأنشآ القصور الفخمة، واقتنيا نفيس المتاع
والرياش
والآلات.
وكان موكبهما إلى المسجد الجامع ببلنسية، يذكر الناس بفخامته
وأناقته، وفاخر ما يرتديانه من اللباس، بمواكب مولاهما عبد الملك المظفر
ابن المنصور نفسه.
ووفد على بلنسية في ظل مبارك ومظفر، كثير من الموالى والصقالبة من
الإفرنج
والبشكنس وغيرهم، من طائفتهم وعشيرتهم، وكثير من العبيد الآبقين من مختلف نواحى الأندلس، وكان من هؤلاء الصقالبة، الوافدين المشردين، كثير من الفرسان الشجعان، وانتسب معظمهم إلى ولاء بني عامر، واكتسبوا بذلك نفوذاً، ووفد على المدينة أيضاً كثير من أرباب المهن والحرف، وكان لذلك كله أثره في تقدم العمران والرخاء بالمدينة (٢) .
وكان من أهم أعمال مبارك العسكرية محاربته لمنذر بن يحيى التجيبى
صاحب

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٦.

(٢) الذخيرة القسم الثالث - المخطوط - اللوحة ٣ أوب و ٤ أ.
وراجع أيضاً البيان
المغرب ج ٣ ص ١٥٨ - ١٦١.

سرقسطة.
وذلك أن الفتى لبيباً العامرى كان يحكم طرطوشة من أعمال الثغر الأعلى،
فثابت لمنذر رغبة في الاستيلاء عليها، وهاجمها، ففر عنها لبيب وسار إلى
بلنسية
واستغاث بمبارك، فخرج معه في خمسمائة من خيرة فرسانه، ولقيهم منذر
فغلبوا عليه وهزموه هزيمة شنيعة.
وعاد مبارك إلى بلنسية ظافراً، واستفحل
أمره، ودانت له جماعة الموالى (١) .
واستمر مبارك ومظفر في حكم بلنسية بضعة أعوام، ثم توفى مظفر، واستمر
مبارك من بعده، فترة يسيرة.
وفى ذات يوم خرج للنزهة فحدث حين عبوره
فوق قنطرة النهر، أن عثرت به فرسه، فسقط منها، واصطدم ببعض أخشاب
خرجت من القنطرة فشج وجهه وبطنه ومات لساعته، وكان مصرعه في شهر
ذى الحجة سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧م) (٢) .
ومن الغريب أن مباركاً ومظفراً بالرغم من جهلهما، وبعدهما عن ميدان
التفكير
والأدب، كانا يستخدمان في بلاطهما طائفة من كتاب العصر النابهين مثل
ابن
التاكرنى، وابن مهلب، وابن طالوت، وكانا يرتبان هؤلاء الكتاب في دولتهم
على نسق مشيخة الوزراء في قرطبة، ويرجعان إلى رأيهم ومشورتهم في
معظم
الأمور، وكانا يعملان في حكم بلنسية مستقلين تمام الاستقلال، لا يعترفان
في ذلك برياسة قرطبة أو غيرها.
ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن مباركاً ومظفراً كان لهما نصيب من مديح
الشعر
المعاصر، وقد مدحهما شاعر العصر، أبو عمر بن درّاج القسطلى بقصيدة

رائعة

هذا مطلعها:

أنورك أم أوقدت بالليل ناركِ..

.

لِباغ قراك أم لباغ جوارك

ْورياك أم عرف المجامر أشعلت..

.

بعود الكباء والألوَّة ناركِ

ومبسمك الوضاح أم ضوء بارق..

.

حداه دعائى أن يجود دياركِ

وطرة صبح أم جبينك سافراً..

.

أعرت الصباح نوره أم أعاركِ (٣)

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٦.

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٢.

ويقول لنا ابن الخطيب إن مظفراً توفى بعد مبارك

وإنه على أثر مصرع مبارك، ثار العامة ونهبوا القصر وقتلوا مظفراً (أعمال الأعلام ص ٢٢٥) .

(٣) نقل ابن الخطيب في أعمال الأعلام أقوال ابن حيان التي نقلها صاحب البيان المغرب، ورجعنا إليها، وقد نشر جزءاً كبيراً من قصيدة ابن دراج القسطلى (راجع ص ٢٢٢ – ٢٢٥) .

وردت القصيدة كلها بديوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود على مكى (دمشق ١٩٦١)

ص ١٠١ – ١٠٨، وهى من غرر قصائده.

ولما توفى مبارك، خلفه في حكم بلنسية الفتى لبيب العامرى صاحب
طرطوشة
ثم شاركه في حكمها مجاهد العامرى، وكانت الخطبة تصدر باسميهما معاً،
ثم وقع
الخلاف بينهما، ففر لبيب إلى طرطوشة واستأنف رياسته بها، وانفرد مجاهد
بحكم بلنسية مع حكمه لدانية في نفس الوقت.
بيد أنه لم يمض سوى قليل، حتى
خرج عليه الفتيان العامريون، وعقدوا البيعة لسيدهم وحفيد مولاهم، عبد العزيز
ابن عبد الرحمن المنصور، وذلك في سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) .
وقد سبق أن أشرنا إلى تعلق الفتيان الصقالبة بتراث الدولة العامرية، وولائهم
لإمامة هشام المؤيد بالله، وإلى الدور الذى قام به زعماؤهم مثل واضح
وخيران، فى تطورات الخلافة القرطبية، وقد كانت بيعتهم لعبد العزيز
المنصور أثراً من
آثار هذا الولاء الراسخ لبنى عامر.
وكان عبد العزيز وقت مبايعته، فتى حدثاً
في نحو الخامسة عشرة من عمره، إذ كان مولده سنة ٣٩٧ هـ (١) ، وكان
حينما
نزلت النكبة بأسرته قد حمل سراً إلى سرقسطة، وهنالك عاش في كنف
صاحبها
منذر بن يحيى التجيبى، فلما استدعاه الفتيان العامريون لبيعته لحق بشاطبة،
وهنالك
تمت بيعته أميراً لبلنسية، وزعيماً لبنى عامر.
على أن هذه البيعة لم تلبث طويلا دون منازع.
ذلك أن خيران العامرى، وكبير الفتيان العامريين، وصاحب ألمرية ومرسية

وأوريولة، لم يكن على وفاق
مع عبد العزيز.
والظاهر أنه خشى على سلطانه في مرسية، وأوريولة، من هذه
الزعامة الجديدة، أو أنه لم يحصل على ما كان يرجوه في ظلها من نفوذ.
ومن ثم
فإنه قدم للزعامة في شرقى الأندلس، مرشحاً جديداً من بني عامر، هو
محمد
ابن عبد الملك المظفر بن المنصور، وهو ابن عم عبد العزيز، وكان يومئذ
فتى
في نحو العشرين من عمره، وكان قد فر من قرطبة في عهد القاسم بن
حمود، ومعه أموال جليلة كانت لأمه، ولجأ إلى حماية خيران، فلما وقع
الخلاف بين
خيران وعبد العزيز، نادى خيران بزعامة محمد، ونزل له عن حكم مرسية
وأوريولة، ولقبه بالمؤتمن ثم بالمعتصم.
بيد أنه لم يمض طويل على ذلك حتى اضطربت
الأمور في تلك المنطقة، فثارت شاطبة ضد عبد العزيز، واضطر أن يغادرها
إلى
بلنسية، وتنكر خيران في الوقت نفسه لمرشحه الجديد محمد المعتصم، وغادره

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠١.

(٢٢٠/٢)

مغضباً إلى ألمرية، ثم عاد في قواته إلى مرسية، وضيق على المعتصم حتى
اضطره
إلى الخروج عنها، وذلك في ربيع الأول سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) ، واستولى
الفتيان

على سائر أمواله، ولجأ المعتصم إلى أوريولة فطارده خيران، وألح عليه، ففر منها، ولحق بدانية، والتجأ حيناً إلى أميرها مجاهد العامرى، ثم غادرها، وسار إلى غربى الأندلس، وهناك عاش بضعة أعوام أخرى حتى توفى في سنة ٤٢١ هـ

(١٠٣٠ م) (١) .

- ١ -

واستقر عبد العزيز المنصور في حكم بلنسية دون منازع.

وكانت له فى

بداية حكمه علائق مودة متبادلة مع القاسم بن حمود الخليفة بقرطبة، كذلك انضوى تحت لوائه مجاهد العامرى حيناً، ثم اختلفا وناصبه العداء، وأخذ مجاهد

يتربص الفرص لمهاجمته والإيقاع به.

وعمل عبد العزيز على جمع المشردين من

أهل بيته، فآواهم، وأولاهم صادق المحبة، وأغدق عليهم الأرزاق الوفيرة، حتى غدا في ذلك أجمل قدوة لأمراء عصره، واستخدم في ديوانه أربعة من

أشهر كتاب عصره، كانوا يعرفون بالطبائع الأربع، وهم ابن طالوت، وابن عباس، وابن عبد العزيز، وابن التاكرنى كاتب رسائله.

ولما أعلن

القاضى ابن عباد صاحب إشبيلية في سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٥ م) ظهور هشام المؤيد

ودعا لخلافته، كان عبد العزيز المنصور في مقدمة الأمراء الذين بايعوه، واعترفوا

بخلافته (٢) .

وكانت تطورات الحوادث في مملكة ألمرية، أهم ميدان لجهود عبد العزيز السياسية والعسكرية.

ونحن نعرف أن مملكة ألمرية، كانت وقت أن ظفر

عبد العزيز برياسة بلنسية، تحت حكم الفتى خيران العامرى، وهو في نفس الوقت صاحب مرسية وأوريولة، فلما توفى خيران في سنة ٤١٩ هـ، خلفه فى رياسة مملكة ألمرية، نائبه وزميله الفتى زهير العامرى، وقد كان مثل خيران من أكابر الفتيان العامريين، وأكثرهم إقداماً وعزماً.

ونحن نعرف كيف

---

(١) راجع في هذه الحوادث: ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢، وأعمال الأعلام ص ١٩٣

و ١٩٤.

وكذلك: Gaspar Remiro: Murcia Musulmana, p.

٩٧ & ٩٨

(٢) الذخيرة، القسم الثالث، المخطوط لوحة ٤٩ ب، وأعمال الأعلام ص ١٩٥، والبيان

المغرب ج ٣ ص ١٦٤ و ١٦٥.

(٢٢١/٢)

حدثت زهير نفسه بالسير إلى غرناطة لافتتاحها، وكيف لقى مصرعه في المعركة

التي نشبت بينه وبين باديس بن حبوس صاحب غرناطة، وذلك في سنة ٤٢٩ هـ

(١٠٣٨ م) .

وهنا لاحت لعبد العزيز المنصور، الفرصة السانحة لتوسيع مملكته.

وكتب إليه أهل ألمرية يدعونه لرياستهم، وبعث وزيره وصهره زوج

أخته معن بن صمادح إلى باديس يحثه على إعدام الأسرى من وزراء زهير وقواده

وفى مقدمتهم كاتبه أحمد بن عباس، خشية أن يعود أحد منهم إلى مناوأته في حكم
ألمرية، فكان له ما أراد، وخلصت له ألمرية أولا لمبايعة أهلها له، وثانياً لأنها
باعتبارها من أملاك الفتيان العامريين موالى أبيه وجده، تعتبر له ميراثاً شرعياً.
وهكذا استولى عبد العزيز على ألمرية وأعمالها، ما عدا ولاية جيان التي انتزعها
باديس لنفسه عقب مصرع زهير.
وغدت مملكة بلنسية بإضافة ألمرية إليها من أعظم ممالك الطوائف.
وهنا شعر
مجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية، بخطر هذه المملكة القوية
الجديدة على سلطانه، فنهض لمهاجمتها ومحاربتها، وزحف عليها بقواته، واجتاح
رقعتها الوسطى من شاطبة إلى لورقة، وثارت حصون شاطبة ولورقة وشوذر على عبد العزيز.
وكان عبد العزيز عندئذ في ألمرية ينظم شئونها مع وزيره معن
ابن صمادح، فبادر بمغادرة ألمرية للدفاع عن أرضه، وندب وزيره معناً ليسهر
على شئون ألمرية، فكان أن خان ابن صمادح عهد أميره، وانتزع لنفسه رياسة
ألمرية حسبما فصلناه في أخباره.
وخرج عبد العزيز من ألمرية في سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) لملاقاة خصومه،
وزحف تواً على شاطبة، فخرج إليه العبيد العامريون، وهزموه في أول موقعة
نشبت بينهما، ولكنه جمع فلوله وعاد فكرّ عليهم، وظفر بهم، وقتل منهم جملة
كبيرة ودخل شاطبة (١) .
وكانت مدينة مرسية تابعة حسبما تقدم لمملكة بلنسية، وكان عليها من قبل

زهير، نائبه أبو بكر أحمد بن إسحاق بن طاهر، وكان حسبما تقدم
رجلا وافر العلم والوجاهة والسراوة، فضبط المدينة وحكمها بحزم وبراعة، دون
أن يتخذ ألقاباً أو يبدو في ثوب الإمارة، فأقره عبد العزيز على ولايته.
وكان عبد العزيز على علائق طيبة مع ملوك اسبانيا النصرانية، ولاسيما

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٢، وراجع دوزى: Hist.
.V
.III
.p
٣٠

(٢٢٢/٢)

فرناندو الأول ملك قشتالة، وقد استعان عبد العزيز في محاربة خصمه مجاهد
العامرى ببعض سريات من المرتزقة النصارى.
ولم تصب أراضي بلنسية فى
عهده بشيء من الغزوات المخربة، التي كانت تجتاح ولايات الأندلس الغربية
والوسطى.
وربما كان ذلك راجعاً من بعض النواحى إلى أرومته وقرابته عن طريق
جدته، إلى الملوك النصارى (١) .
واستطالت إمارة عبد العزيز المنصور لبلنسية زهاء أربعين عاماً.
ثم توفى
في شهر ذى الحجة سنة ٤٥٢ هـ (يناير ١٠٦١ م) .
فخلفه ولده عبد الملك بإجماع أهل الدولة، وبويع في بلنسية وشاطبة، واستقر
في بلنسية، ولقب بنظام الدولة، وبالمظفر.
وكان حدثاً يافعاً، فتولى
تدبير الدولة، وزير أبيه أبو عبد الله محمد بن مروان بن عبد العزيز القرطبى

المشهور بابن رويش، وكان رجلا وافر العلم والحنكة، فأحسن تدبير الأمور، واستقر على يديه النظام والأمن، بالرغم مما كانت تعانيه بلنسية من نقص في المواد
والرجال، وفساد في الأعمال.
وكان يولى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة
القوى مكانة خاصة، إذ كان صهر عبد الملك وحماه، وكان يبدى نحوه عطفاً واهتماماً
بمعاونته والدفاع عنه، وكان عقب وفاة عبد العزيز، قد سار في بعض قواته إلى قلعة قونقة القريبة من بلنسية، ليكون قريباً من صهره، ثم أوفد إلى بلنسية أحد قواده في جماعة قوية من الجند، وكاتبه ابن مثنى، ليكونوا إلى جانب عبد الملك، بحجة معاونته وشد أزره، والمحافظة على السكينة والنظام (٢) .
بيد أن المأمون كان يضمر نحو صهره ونحو بلنسية نيات أخرى، وكان يُسر له بالأخص أنه يسيء معاملة ابنته، ويبالغ في إهانتها وإيلامها، وكان عبد الملك
حسبما يخبرنا ابن حيان " منهمكاً في الشراب، غارباً عن الخصال المحمودة مع
رقة الديانة ونقص المروءة، وكثرة الاستمهال، والانحطاط في مهاوى اللذات " (٣)
ثم كان يُسر له أيضاً أنه يأوى في بلنسية بعض خصومه من السياسيين الفارين من
طليطلة، وأخيراً فقد طلب المأمون إلى صهره أن يعاونه بجنده في حملته ضد ابن عباد، فأبى عليه ذلك وفقاً لنصح وزيره، واعتذر بأنه يخشى عدوان أمير

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٩٥.

(٢) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ٤٩ ب، والبيان المغرب ج ٣ ص

١٦٥ و ١٦٦.

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٣.

*(٢٢٣/٢)*

دانية ومن يحالفه من الفتيان أصحاب المدن القريبة.

كل ذلك حمل المأمون على أن

يضع مشروعه للاستيلاء على بلنسية.

وقد سبق أن ذكرنا في أخبار مملكة طليطلة، خلاصة الروايتين المتعلقتين

باستيلاء المأمون على بلنسية، وأولاهما أن المأمون سار إلى بلنسية في

بعض قواته بحجة

زيارة صهره، وأنه خلال إقامته بالقصر، دبر كميناً لصهره، وقبض عليه،

وأرسله إلى شنتبرية، وسيطر بذلك على بلنسية.

والثانية أنه زحف على بلنسية

بمعاونة الجند القشتاليين، ودهم المدينة وهى في غفلة، فاقتحمها، وأسر صهره

عبد الملك وآله، وهم بقتله لولا أن شفعت فيه زوجته ابنة المأمون.

فبعث به إلى

إحدى قلاعه في قونقة، أو إقليش، واعتقله هناك (١) .

ونود أن نعرض الوقائع مفصلة وعلى ضوء الروايات القشتالية التي تقدمها

إلينا بصورة أخرى.

ذلك أن فرناندو الأول ملك قشتالة خرج بقواته في أوائل سنة ١٠٦٥ م،

(٤٥٧ هـ) متجهة صوب أراضي مملكة سرقسطة لمعاقبة أميرها المقتدر بن

هود، لتخلفه عن دفع الجزية التي كان متعهداً بأدائها، ولأنه من جهة أخرى

قد وقع

الاعتداء على النصارى في سرقسطة وغيرها من بلاد مملكته، وقتلت منهم

جموع

غفيرة، وعاث فرناندو في أراضي مملكة سرقسطة الجنوبية، وخربها بشدة

وأحرق المزارع والقرى، واجتاح على هذا النحو سائر الرقاع والوديان الواقعة
خارج الحصون والقلاع المسورة، وأشرف في غزوته المخربة على ظاهر
بلنسية
في الربيع، وضرب القشتاليون الحصار حول المدينة، وروع البلنسيون، وروع
ملكهم الضعيف عبد الملك داخل الأسوار، وتأهبوا للدفاع عن مدينتهم.
ولما رأى القشتاليون مناعة الأسوار، وأهبة أهل المدينة لجأوا إلى الحيلة،
فتركوا
الحصار، وتظاهروا بالارتداد نحو الشمال إلى بلدة تسمى "بطرنة"، واعتقد
أهل
بلنسية أن القشتاليين قد ارتدوا عن مدينتهم خائبين، فخرجوا وعلى رأسهم
أميرهم
عبد الملك، لمطاردة الفارين في ثياب فخمة وكأنهم في عيد، وعندئذ فاجأهم
القشتاليون وهاجموهم بشدة، وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً، فارتدوا إلى مدينتهم
والقتل يعمل فيهم، واستطاع عبد الملك أن ينجو بحياته، وعاد القشتاليون إلى
محاصرة المدينة.

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٦ و ٢٦٧ و ٣٠٣.

*(٢/٢٢٤)*

وفى تلك الأثناء كان المأمون بن ذى النون قد هرع بقواته لإنجاد صهره
والدفاع
عن المدينة المحصورة، وذلك بالرغم من أنه كان مقراً بسيادة فرناندو، ويؤدى
له الجزية، وكان فرناندو قد شعر وهو تحت أسوار المدينة بالمرض يدهمه،
فآثر الارتداد بقواته إلى ليون.
وهناك توفى بعد قليل في ديسمبر سنة ١٠٦٥ م.
وهنا رأى المأمون بن ذى النون أن يحقق مشروعه القديم في الاستيلاء على

بلنسية.
وكان يدفعه إلى ذلك أسباب عديدة سبق أن أشرنا إليها، فدخلها فاتحاً
لا منقذاً، وعزل صهره عبد الملك، ثم قبض عليه وعلى ولده، ونفاهما إلى
قلعة
إقليش أو قونقة.
وفى رواية أنه أشفق عليه، وعينه والياً لقصبة شلبة الواقعة شمال
غرب بلنسية، وضمت بلنسية وأعمالها بذلك إلى مملكة طليطلة، وكان ذلك
فى
شهر ذى الحجة سنة ٤٥٧ هـ (نوفمبر سنة ١٠٦٥ م" (١) .
وعهد المأمون بتدبير شئون بلنسية إلى أبي بكر محمد بن عبد العزيز (ابن
رويش)
وكان ابن عبد العزيز قد توفى قبل هذه الحوادث بقليل في أوائل سنة ٤٥٦
هـ.
ويقول لنا عنه معاصره المؤرخ ابن حيان " إنه كان على خمول أهله في
الجماعة من
أرجح كبار الكتاب الطالعين في رمس هذه الفتنة المدلهمة، وذوى السداد من
وزراء
ملوكنا، ذا حنكة ومعرفة وارتياض وتجربة وهدى وقوام سيرة، إلى ثرى
وصيانة ".
وفى بعض الروايات أن هذا الوزير النابه توفى منتحراً لما توقعه من سوء
العواقب.
فخلفه في الوزارة ولده أبو بكر بن عبد العزيز، ولم يمكث في منصبه
طويلا حتى سقطت بلنسية في يد المأمون، ويقال إنه غدر بأميره عبد الملك،
وعاون المأمون في أخذها، فكافأه المأمون عن خيانته بأن عينه نائباً عنه في
حكم
المدينة.

وكان أبو بكر مثل أبيه عالماً حازماً.
فضبط بلنسية، وسار في حكمها
سيرة حسنة، واتبع الرفق والعدل، وأجزل العطاء للعمال والجند.
وشغل عنه
المأمون بمغامراته في سبيل فتح قرطبة، وانتزاعها من يد بني عباد المتغلبين عليها.
واستمر في محاولاته حتى انتهى أخيراً إلى تحقيق مشروعه في الاستيلاء على عاصمة

---

(١) راجع في تفصيل هذه الحوادث Modesto Lafuente: Historia general de
.Espana (Madrid, 1861) V
.II
.p
٣٩٠
و.A
.P
.Ibars: Valencia Arabe, V
.I
.p
١٧٨ - ١٨٠
و.R
.M
.Pidal: La Espana del Cid V
.I
.p

١٥١
وكذلك: P.
y Vives: Los Reyes de Taifas, p.
٤١

(٢٢٥/٢)

الخلافة القديمة، ودخلها ظافراً وذلك في سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) .
بيد أنه
لم يلبث أن مرض وتوفى بعد ذلك بأشهر قلائل في أواخر ذى القعدة من
نفس
هذا العام.
وانتهز أبو بكر بن عبد العزيز هذه الفرصة، فأعلن استقلاله بحكم
بلنسية، وأصلح أسوارها، ودانت له المدينة بالطاعة، واستمر في حكمها
دون منازع.
ولما غزا المقتدر بن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى مدينة دانية،
واستولى
عليها من صاحبها على إقبال الدولة بن مجاهد العامرى في سنة ٤٦٨ هـ
(١٠٧٦ م) ، توجس أبو بكر من سطوته وطمعه في بلنسية، فخاطب
ألفونسو السادس
وانضوى تحت حمايته، وتعهد له بأداء الجزية.
وكان المؤتمن ولد المقتدر يتطلع
بالفعل إلى امتلاك بلنسية، يدفعه إلى ذلك صحبه ومستشاروه، وذلك لأهمية
موقعها
ووفور غلاتها، فخاطب بدوره ملك قشتالة، ودفع إليه مائة ألف دينار ليعاونه
على فتحها، وزحف فرناندو بالفعل على بلنسية، فخرج إليه أبو بكر بنفسه،
وخاطبه برقة ولباقة، وأقنعه بعقم محاولته، فانصرف عنه، ووعده بحمايته

وفشلت محاولة المؤتمن.

وكان ملك قشتالة يقدر أبا بكر ويعجب بخلاله، وكان
يقول في مختلف المناسبات، رجال الأندلس ثلاثة: أبو بكر بن عبد العزيز،
وأبو بكر بن عمار، وششنانده (١) .

وعندئذ رأى أبوبكر أن يلتمس حماية المؤتمن نفسه، ففاوضه، وقدم إليه
ابنته عروساً لابنه أحمد المستعين.

فوافقه المؤتمن، ورأى من جانبه أن هذه المصاهرة
قد تكون سبيلا لضم المملكتين سرقسطة وبلنسية في مملكة قوية موحدة.

واحتفل
بعقد هذا الزواج بسرقسطة في حفلات شائقة كانت مضرب الأمثال في البذخ
والبهاء (رمضان ٤٧٧ هـ - فبراير ١٠٨٥ م) .

ولم يعش أبو بكر طويلا بعد
ذلك، إذ توفى في السابع من صفر سنة ٤٧٨ هـ (يونيه ١٠٨٥ م) بعد أن
حكم
عشرة أعوام (٢) .

---

(١) الذخيرة القسم الثالث - المخطوط - لوحة ٩ أوب.

(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٣ و ٣٠٤.

وقد وهم ابن عذارى في حقيقة شخصية
أبى بكر بن عبد العزيز، فذكر أنه أبو بكر محمد بن عبد العزيز بن
المنصور بن أبي عامر، ونسبه
بذلك إلى بني عامر، وهو خطأ واضح.

وراجع في هذه الحوادث: R.
M.
Pidal ; ibid ; V.
I.

.p

٣١٠

وكذلك: P.

.y Vives: Los Reyes de Taifas p

٥٧ و A.

.P

Ibars: Valencia Arabe

.p

١٨٨ & ١٨٧

*(٢٢٦/٢)*



فخلفه في حكم بلنسية وأعمالها ولده أبو عمرو عثمان بن أبي بكر.

وبويع في التاسع

من صفر، لأيام قلائل فقط من سقوط مدينة طليطلة، في يد القشتاليين في

فاتحة

صفر ٤٧٨ هـ.

وكان هذا الحادث الجلل الذى هز الأندلس من أقصاها إلى أقصاها

نذير تطورات خطيرة في شرقى الأندلس، وفي مصاير مملكة بلنسية بوجه

خاص.

وقد كان ألفونسو السادس، حينما استولى على طليطلة من يد صاحبها القادر

بن ذى النون، حفيد المأمون، قد تعهد له أو وعده، ضمن عهوده لقاء

الاستيلاء

على المدينة، أن يمكنه من استرداد بلنسية التي خرجت عن طاعته، بل قيل

إنه

وعده بمعاونته، على افتتاح دانية وشنتمرية الشرق، إذ كان يعلم أنه بتمكين

القادر
من الاستيلاء على هذه المدن، فإنها تغدو في الواقع تحت حمايته، ويغدو
شرقى الأندلس
كله، واقعاً تحت سيادته، عن طريق القادر.
وخرج القادر في آله.
وصحبه ومتاعه
قاصداً إلى بلنسية، وصدته خلال الطريق سائر القلاع القديمة، التي كانت
تحت
حكمه وأغلقت أبوابها دونه، ما عدا قلعة قونقة (كونكة) ، فقد لبثت على
طاعته، ورحب به صاحبها ابن الفرج، وأكرم منزله.
ورأى القادر أولا
أن يسبر غور الأحوال في بلنسية، فبعث إليها ابن الفرج ليداخل صاحبها
عثمان
ابن عبد العزيز، وحاول ابن الفرج أن يروج لقضية سيده، وهو حاكم
المدينة الشرعى، فكثر الجدل وافترق الرأى، ورأى فريق من الشعب أن
تنضوى بلنسية تحت حماية المستعين بن هود، وانحاز فريق آخر إلى القادر،
وسرت الفوضى إلى المدينة.
وفى خلال ذلك عاد ابن الفرج إلى قونقة، ودعا
القادر إلى السير إلى بلنسية، لانتهاز الفرصة السانحة، فسار القادر إلى
المدينة ومعه
سرية قوية من الجند النصارى مده بها ألفونسو السادس، تحت إمرة قائده
ألبار
هانيس الذى تسميه الرواية الإسلامية ألبرهانس.
ولما وصل القادر في ركبه إلى
المدينة، بعث إلى أهلها رسوله برسالة، يتودد فيها إليهم، ويقدم إليهم أطيب
الوعود، فاجتمع أهل المدينة، وتشاوروا في الأمر.

ورأى " الجماعة " قبول
مطالب القادر، باعتباره صاحب الولاية الشرعية من قبل، واستبعاد مطالب ابن هود، وإن كان ابن هود لم ينقطع عن المجاهرة بها، والترويج لها، وخشية من أن تتعرض المدينة لهجوم القشتاليين، أعلنت " الجماعة " خلع عثمان بن

(٢٢٧/٢)

عبد العزيز، وكان قد قضى في منصبه تسعة أشهر فقط، وبعثت إلى القادر توافق
على مقدمه وتسلمه المدينة.
فسار القادر في موكبه إلى بلنسية، ودخلها في مظاهر حافلة، وتسلم القصر من القاضى ابن لبون، ونزل فرسانه في بيوت المدينة، ونزل ألبارهانيس وجنده القشتاليون في ضاحية الرُّصافة على مقربة منها، وكان
ذلك في شوال سنة ٤٧٨ هـ (فبراير ١٠٨٦ م) (١) .
وهكذا استولى يحيى القادر على بلنسية، وقامت دولة بني النون، مرة أخرى في شرقى الأندلس، بعد أن درست في طليطلة، وقامت على يد ملكها الشريد الخانع - القادر - في مثل الظروف التي كانت عليها في أواخر أيامها
بطليطلة، دولة ضعيفة تابعة، تدين بوجودها لملك قشتالة، ولحراب الجند النصارى.
وما لبث القادر أن أبدى صولة الضعيف إذا تحكم، ففرض على المدينة حكم طغيان شامل، وتولى القاضى ابن لبون حجابته، وغدا يده اليمنى، وتقرب إليه الأعيان والقضاة بالأموال والهدايا.
وثقلت وطأة القشاليين على
المدينة في نفس الوقت، وأرهقوها بمؤنهم ومغارمهم، وفرضت لذلك ضريبة خاصة على سائر الناس، وعاث النصارى في المدينة وضواحيها، فاشتد

السخط

على القادر، وعلى شيعته القشتاليين، واضطرب حبل النظام والأمن.

ومع ذلك

فقد مضى القادر في عسفه وطغيانه، فمال على الأعيان والأكابر، يطاردهم بطلب المال سداداً لمطالب القشتاليين، وقبض على بعضهم من أجل ذلك، واعتقل ولدى ابن عبد العزيز وغيرهم، وحشد حوله كثيراً من أوباش الجند المرتزقة يعيثون في المدينة، ويعتدون على الأموال والأنفس، وغدت السيادة الحقيقية على المدينة لألبارهانيس وجنده، وغادر كثير من الأعيان والأكابر، بلنسية فراراً من هذا الطغيان المرهق (٢) .

وفى خلال ذلك كانت تجرى في جنوب الجزيرة حوادث هامة، فقد عبر المرابطون بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين إلى الأندلس في ربيع الآخر سنة ٤٧٩ هـ

ْ (أغسطس ١٠٨٦ م) غياثاً لأمرائها، وللإسلام، وأخذ ملك قشتالة يجمع الجند من كل ناحية، لرد هذا السيل المنهمر، وغادر ألبارهانيس وجنده بلنسية

---

(١) الذخيرة – القسم الثالث – المخطوط لوحة ١٨ ب.

وراجع R.

.M

.Pidal: ibid ; V

.I

.p

٣٠٦ & ٣١٠ – ٣١٢ وكذلك: P.

.y Vives: Los Reyes de Taifas, p

٥٧

(٢) R.

.M

.Pidal: ibid ; V

.I

.p

٣١٦ - ٣١٣

(٢٢٨/٢)

ليخوضوا المعركة إلى جانبه، وكان أن كتب النصر الباهر لجيوش الإسلام على

جيوش النصرانية في موقعة الزلاّقة وذلك في رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر ١٠٨٦ م) .

وتنفس أهل بلنسية الصعداء لرحيل القشتاليين، وانتعشت نفوسهم لانتصار المسلمين، وتحطيم قوى ملك قشتالة، وبادر القادر من جانبه، فبعث إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، يلتمس صداقته ومحالفته، أسوة بباقى أمراء الأندلس.

بيد أن هذه المحالفة النظرية، لم تفده بشيء لأن أمير المسلمين، كان ما يزال في شغل شاغل عن الالتفات إلى شئون شرقى الأندلس.

وسرى الاضطراب إلى بلنسية، وبدأ حكام الحصون المختلفة، في التحرك والعصيان، وشعر القادر أنه عاجز عن أن يملك زمام الموقف، وأن الأمور سوف تنتهى به إلى أسوأ العواقب، إذا تركت بلنسية إلى مصيرها، وقد كانت بلنسية في الواقع في هذه الحالة التي افتقدت فيها كل زعامة قوية، وكل إدارة حازمة، تضطرم حولها الأطماع من كل صوب.

ذلك أن المنذر بن هود صاحب لاردة وطرطوشة، كان يرقب فرص الاستيلاء على بلنسية، وخصوصاً منذ استطاع أبوه أن يتغلب على مملكة دانية، وأن يضمها إلى أراضيه وذلك في سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، وبذلك امتدت مملكته

من لاردة شمالا حتى دانية وأعمالها جنوباً، وكانت بلنسية بذلك تشطر

مملكته إلى
شطرين، وتحول دون وحدة أراضيها.
فلما رأى المنذر اضطراب الأحوال فى
بلنسية، شعر أن الفرصة المنشودة قد سنحت، فسار في قواته صوب بلنسية، ومعه سرية من المرتزقة القطلان، وضرب الحصار حول المدينة (١٠٨٨ م) ، وكان يؤازره في داخلها كثير من الأنصار، كانوا يؤيدون قضيته، ويودون أن
تسلم إليه.
وهنا استولى الاضطراب والذعر على القادر، وفكر بالفعل في تسليم المدينة، لولا أن نصحه ابن طاهر صاحب مرسية السابق، وكان قد لجأ إلى بلنسية مذ غلب عليه ابن عمار وزير المعتمد، بالتريث وشجعه على الصمود والدفاع.
وبعث القادر في نفس الوقت إلى ألفونسو ملك قشتالة يستغيث به، وبعث بنفس الصريخ إلى المستعين بن هود صاحب سرقسطة، وخصيم المنذر، وكان المستعين يتوق إلى افتتاح بلنسية، ويشعر دائماً بالأسف والألم لفشل محاولة

(٢٢٩/٢)

أبيه المؤتمن في هذا السبيل، وضياع الأموال الطائلة التي دفعها من أجل ذلك
لملك قشتالة، وكان له بسبب مصاهرته لأبى بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية
السابق، داخل المدينة حزب يناصره، ويود أن تنضم بلنسية إلى مملكة سرقسطة، فلما تلقى صريخ القادر، بادر بالإستجابة، وهرع إلى بلنسية في بعض قواته، فتظاهر بالسير إلى إنجادها، وهو يبطن نية الاستيلاء عليها (١) .

________

(١) R.
M.
Pidal: ibid ; V.
I.
p.
٣٥١

(٢/٢٣٠)

الفصل الثانِى
مملكة بلنسية
٢ - السيد إلكمبيادور وعهد السيادة القشتالية
السيد إلكمبيادور.
أصله ونشأته.
بدء حياته الحربية.
رسول ألفونسو السادس إلى ابن عباد.
تغير ألفونسو عليه وإبعاده عن قشتالة.
ملوك الطوائف واستعانتهم بالجند النصارى.
مسير السيد إلى شمال
شرقى الأندلس.
التحاقه بخدمة المقتدر بن هود.
وفاة المقتدر.
الحرب الأهلية بين ولديه المؤتمن
والمنذر.
انضمام السيد إلى المؤتمن ونفوذه لديه.
وفاة المؤتمن وقيام ولده المستعين.
التحاق السيد

بخدمته.
حملة ابن بسام على بني هود.
مسير المستعين والسيد إلى بلنسية.
يعقدان ميثاقاً بشأنها.
مقدمهما
في قواتهما إلى بلنسية.
انسحاب المنذر بن هود عنها.
موقف القادر بن ذى النون ومساعيه السرية.
المستعين يكشف للسيد عن حقيقة مشروعه.
موقف السيد ومطله.
السيد يبدو على حقيقته.
مخادعاته
ومفاوضاته السرية.
مسيره إلى قشتالة وتفاهمه مع ألفونسو.
وقوف المستعين على غدر السيد ومقاطعته.
تحالفه مع الكونت برنجير.
عود السيد ونزوله بأراضي السهلة.
يخضع ابن رزين لأداء الجزية.
السيد يغدو قائد عصابة ناهبة.
السيد والكونت برنجير.
مسير السيد إلى بلنسية.
إخضاعه لمربيطر
ونزوله في الكدية.
القادر يضع نفسه تحت حمايته ويمده بالأموال الوفيرة.
قصة أموال القادر.
خروج السيد إلى ألبونت وإرغامه صاحبها على أداء الجزية.

فرضه الجزية على سائر النواحى المجاورة.
صدى أعمال السيد في قشتالة.
تغير ألفونسو عليه.
تطور الأمور في الثغر الأعلى.
توجس المستعين
ابن هود من المرابطين.
عوده إلى الاستعانة بالسيد.
مقدم السيد إلى سرقسطة وتحالفه مع الملوك
المجاورين.
تعليق ابن بسام.
مشروع ألفونسو السادس لغزو بلنسية وتحطيم نفوذ السيد.
تحالفه مع
جنوه وبيزه.
مسيره إلى بلنسية.
رسالة السيد إلى ألفونسو.
حرج موقف ألفونسو وتركه لحصار
بلنسية.
عيث السيد في أراضي قشتالة.
عود ألفونسو إلى مصانعته والعفو عنه.
الاضطراب في بلنسية.
القاضى ابن جحاف يتزعم الثورة ضد القادر والسيد.
مفاوضة المرابطين.
دخول قوة
مرابطية بلنسية.
ابن جحاف يقتحم القصر بجموعه.
مقتل القادر واستيلاء ابن جحاف عل ذخائره.

اختيار ابن جحاف لحكم المدينة.
استعداده للطوارىء.
مسير السيد إلى بلنسية ومحاصرتها.
المفاوضة بين
ابن جحاف والسيد.
شروط الإتفاق بينهما.
نكث السيد وغدره.
مطالبه المرهقة لابن جحاف
والخلاف بينهما.
ابن جحاف يغلق المدينة.
استغاثته بالمرابطين وغيرهم.
اشتداد السيد في محاصرة
المدينة وعيثه في أحوازها.
عصف الحصار بأهل بلنسية.
المفاوضة بين أهل بلنسية والسيد.
شروط
الهدنة والتسليم.
انتهاء الهدنة وتوقيع عهد التسليم.
دخول السيد بلنسية.
وعوده الخلابة.
تسلمه
أموال القادر من ابن جحاف.
مطالبته له بباقيها واستحلافه عليها.
حلف ابن جحاف بالنفى.
اكتشاف
السيد لمخبأ الأموال والحلى.

قبضه على ابن جحاف وإحراقه.
أقوال ابن بسام.
إحراق بعض أعلام
بلنسية.
طغيان السيد وعسفه.
شعر في محنة بلنسية.
صدى سقوط بلنسية في الأندلس والمغرب.
اعتزام

(٢٣١/٢)

أمير المسلمين العمل لاستردادها.
إرساله حملة إلى الأندلس.
مسير المرابطين إلى بلنسية.
الذعر بين
النصارى في بلنسية.
حصار المرابطين لها.
مفاجأة السيد للمحاصرين.
استغاثة السيد بملك أراجون
وألفونسو السادس.
المعارك بين السيد وبين المرابطين.
غزو المرابطين لأراضي طليطلة وقونقة.
مرض السيد ووفاته.
زوجه خمينا تتولى الدفاع عن المدينة.
استغاثتها بألفونسو.
قدوم ألفونسو فى
قواته إلى بلنسية.

اجتماع القوات المرابطية بقيادة المزدلى.
توجس ألفونسو واعتزامه الانسحاب.
مغادرة خمينا للمدينة ومعها أموال القادر.
انسحاب ألفونسو وجنده.
إحراقه للمدينة.
دخول
المرابطين بلنسية وانتهاء مغامرات النصارى.
السيد وشخصيته.
اختلاف الآراء في تصويره
وتقديره.
مبالغة الرواية القشتالية في تصوير بطولته.
الأساطير القشتالية حولها.
السيد في الشعر
وفى الأغانى.
حقيقة السيد.
السيد جندى قدير.
أوصاف ابن بسام للسيد.
السيد مغامر لا ذمام له
ولا مبدأ.
نزعته المكيافيللية.
السيد ليس بطلا قومياً.
السيد والتفكير الغربى.
رأى دوزى ورينان.
رأى مننديث بيدال.
السيد في الرواية العربية.
تاريخ بلنسية لابن علقمة.

لم يسر المستعين بن هود وحده إلى إنجاد بلنسية، بل كان معه جيش آخر، يسير أيضاً لإنجاد بلنسية في الظاهر، وكان على رأس هذا الجيش صديق المستعين وحليفه.

وصديق أبيه المؤتمن، وجده المقتدر من قبل، الفارس القشتالى الأشهر، السيد إلكمبيادور.

إن قصة السيد الكمبيادور تملأ فراغاً كبيراً في الروايات والتواريخ القشتالية، ونجد كذلك صداها في التواريخ العربية.

وقد اقترنت سيرة السيد بالأخص بمغامراته في بلنسية، وافتتاحه إياها، وسيطرته عليها بضعة أعوام، ثم وفاته، مدافعاً عنها ضد المرابطين.

فهذه الأحداث هى ألمع صفحة في تاريخ السيد، وهى التي اتخذت منها التواريخ القشتالية عناصر بطولته، بل هى التي رفعته في نظر التواريخ والأساطير القشتالية إلى مرتبة بطل اسبانيا القومى، ومن ثم فإنه يجدر بنا قبل أن نمضى في تسطير هذه الأحداث، أن نقول كلمة موجزة في نشأة السيد وحياته الأولى.

إن السيد، هو فارس قشتالى، واسمه الأصلى رودريجو أو روى دياث دى بيبار، أما تلقبه " بالسيد" El Cid فهو تحريف لكلمة " السيد " العربية، وقد أطلقها عليه المسلمون الذين كان يخدم بينهم، ويحارب معهم، وأما وصفه بالكمبيادور، El Campeador، فمعناها المحارب الباسل، وقد أطلقت عليه لشجاعته وجرأته وشغفه بالقتال (١) .

وقد ولد " السيد " في مدينة

---

(١) ويعرف السيد الكمبيادور في الرواية العربية "بالقنبيطور" (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧)

ويسميه ابن بسام رذريق الكنبيطور، وهو أدق تعبير للاسم القشتالى، " رودريجو إلكمبيادور " =

برغش على ما يرجح في سنة ١٠٤٣ م، وكان أبوه لايان كالفو قاضى قشتالة
في عهد الملك فرويلا الثاني.
ولا يعرف التاريخ شيئاً عن حياته الأولى، بل كل
ما فيها يرجع إلى الأسطورة والقصة.
وكان بدء ظهوره في ميدان الحوادث، عقب وفاة فرناندو الأول ملك قشتالة
وليون في أواخر سنة ١٠٦٥ م، ونشوب الخلاف بين أولاده، فقد انضم "
السيد " يومئذ إلى ولده سانشو (شانجه)
وسار مع قوات حليفه أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة، لمحاربة
راميرو
ملك أرجوان، وقد هزم في جرادوس سنة ١٠٦٨ م.
ثم كان إلى جانب أخيه
سانشو سنة ١٠٧١ م، حينما نشبت الحرب، بينه وبين أخيه ألفونسو ملك
ليون، وقد هزم سانشو في البداية، ولكنه عاد وجمع فلوله تحت جنح الظلام،
ودهم أخاه
بإرشاد " السيد " وهزمه وأسره.
ولبث " السيد " يحارب إلى جانب سانشو ملك قشتالة، حتى قتل هذا الملك
أمام أسوار سمورة في العام التالى (١٠٧٢ م) .
فانتقل إلى خدمة أخيه ألفونسو.
الذى تولى عرش قشتالة أيضاً بعد مصرع أخيه.
ولما اشتد بأس ألفونسو على
ملوك الطوائف، وأخذ يرهقهم بمطالبه في الجزية، كان رسوله إلى ابن عباد
صاحب إشبيلية في سنة ١٠٧٩ م هو " السيد " نفسه، وقد اشترك " السيد "،
يومئذ مع قوات ابن عباد، في معركة وقعت بينه وبين الأمير عبد الله
صاحب

غرناطة، وقد كان يغير على أراضيه مع سرية من الفرسان النصارى، فهزم عبد الله، وسر المعتمد لذلك، وأدى الجزية المطلوبة مع طائفة كبيرة من التحف
والهدايا برسم ملك قشتالة (١) .
وقضى السيد في بلاط ملك قشتالة، عامين آخرين.
ولكن الظاهر أن
الدسائس كانت تعمل ضده حتى قيل إنه احتجز لنفسه الهدايا والتحف، التي تلقاها من المعتمد برسم مليكه.
هذا إلى أن الملك ألفونسو لم ينس له قط وقوفه
ضده إلى جانب أخيه سانشو، وانتصاره عليه، وقد كان يشعر من ذلك الحين

---

= (الذخيرة القسم الثالث - المخطوط لوحة ١٩ أ) .
وكذا يسميه ابن الأبار بالكنبيطور (الحلة
السيراء، دوزى ص ١٨٩، والقاهرة ج ٢ ص ١٢٥) ، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٠٣.
ويقول لنا ابن عذارى إن كلمة "القنبيطور" معناها "صاحب الفحص" ج ٣ ص ٣٠٥.
(١) R.
M.
Pidal: ibid, p.
٢٥٦ & ٢٦١

*(٢/٢٣٣)*

بعاطفة من الحسد إزاء هذا الفارس المظفر، لازمته طول حياته (١) ، ومن ثم فقد
انتهى إلى إبعاد " السيد " عن بلاطه، وعن سائر أراضيه، وذلك في سنة

١٠٨١ م.
وهنا يبدأ الفصل الروائى حقاً في حياة السيد إلكمبيادور، فيبدو مغامراً يبحث وراء طالعه، ويخرج على كل اعتبار دينى أو قومى، فيؤجر نفسه وصحبه، تارة للأمراء المسلمين وتارة للأمراء النصارى، ويندس إلى كل ثورة تنشب أو حرب تضطرم هنا وهنالك، ويطلب الغنم والسلطان، حيثما استطاع، وبأى الوسائل.
وكانت ظروف اسبانيا المسلمة، يومئذ مما يفسح المجال لأطماع، جندى مغامركالسيد.
فهناك الحروب الأهلية المستمرة، وهناك الرغبة المستمرة
في الاستعانة بالجند النصارى، وإغداق الأموال عليهم، وقد رأينا في أخبار دول الطوائف، وأخبار ملوكهم، ما يؤيد هذه الحقيقة المؤلمة كل التأييد.
وكانت
هذه الحروب الإنتحارية تجرى يومئذ في سائر أنحاء الأندلس، وكانت فى الوقت الذى خرج فيه السيد بعصابته من قشتالة تضطرم بنوع خاص في الإمارات
الشمالية، التي استقر فيها بنو هود، فيما بين سرقسطة، وثغور الشاطىء، وفيما
بينها وبين بلنسية.
فإلى هذا الميدان المضطرم، هبط السيد وجنوده المرتزقة، والتحق أولا بخدمة المقتدر بن هود أمير سرقسطة، وكان المقتدر قد استعان
على محاربة أخيه المظفر صاحب لاردة، بجنود من البشكنس والقطلان حتى هزمه أخيراً وأسره، فكان المظفر أسيراً وقت أن حل السيد ببلاط المقتدر، ثم توفى المقتدر بعد قليل سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) بعد أن قسم مملكته بين ولديه، فخص ولده المؤتمن بسرقسطة وأعمالها، وأخاه المنذر بدانية وطرطوشة ولاردة.
ثم وقعت الحرب الأهلية بين الأخوين، فاستعان المنذر بسانشو راميرز ملك

أراجون وكونت برشلونة، وحارب السيد إلى جانب المؤتمن، ولد حاميه
والمحسن إليه، وانتهى الأمر بهزيمة المنذر، وعاد السيد إلى سرقسطة ظافراً، فاحتفى به أهلها أيما احتفاء، وبالغ المؤتمن في إكرامه وإثابته.

وكان المؤتمن
يعتز بصداقة السيد ومحالفته، ويعلى من شأنه ويأخذ بنصحه في معظم الأمور، ولا يرى في ذلك غضاضة وانحرافاً، وكان المنذر من جهة أخرى يبغض السيد
أشد البغض، ويستعين في محاربته بالأمراء القطلان أصحاب برشلونة.

ولما توفى

---

(١) R.
M.
Pidal: ibid ; p.
٢٦١ & ٥٨٠ & ٥٩٠

(٢/٢٣٤)

المؤتمن في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، خلفه في سرقسطة وأعمالها ولده المستعين، والتحق السيد بخدمته أيضاً، واستمر على نفوذه ومكانته في المملكة.

ويحمل
ابن بسام على حماية بني هود للسيد، واستخدامهم إياه، وإعلائهم لشأنه فى قوله: " وكان بنو هود قديماً هم الذين أخرجوه (أعنى السيد) من الخمول، مستظهرين به على بغيهم الطويل، وسلطوه على أقطار الجزيرة، يضع قدمه على
صفحات أنجادها، ويركز علمه في أفلاذ أكبادها، حتى غلظ أمره، وعم أقاصيها ودانيها شره " (١) .

ولسنا نعرف شيئاً عن أعمال السيد في خدمة المستعين في بضعة الأعوام التالية.

بيد أننا نرى السيد والمستعين في سنة ١٠٨٨ م، كلاهما يسير في قواته صوب بلنسية.

وهناك رواية خلاصتها أن المستعين والسيد، حينما ورد صريخ القادر، عقدا ميثاقاً سرياً على غزو بلنسية وافتتاحها، نص فيه على أن تكون الأسلاب كلها

من نصيب السيد ورجاله، وأن تكون المدينة ذاتها من نصيب المستعين (٢)

.

وهناك رواية أخرى، هى أن المستعين دعا السيد إلى مرافقته في جيشه لإغاثة بلنسية، دون أن يفضى إليه بنيته في الاستيلاء على المدينة، وقدم إليه أموالا جليلة لكى يحشد بها القوات اللازمة، وكان السيد في هذا الوقت بالذات يدعو الجند إلى رايته، للمحاربة مع المسلمين، وقد اجتمع له منهم، حسبما يخبرنا ابن علقمة مؤرخ مأساة بلنسية عدد كبير، وكانت قوة المستعين لا تعدو أربعمائة

فارس، أما جيش السيد فكان يضم ثلاثة آلاف فارس، وهى قوة ضخمة وفقاً لمقاييس العصر.

وهكذا أشرف المستعين والسيد في قواتهما على بلنسية، إجابة لصريخ مليكها وإنجاداً له في الظاهر، وكلاهما يضطرم في الواقع بنيات ومشاريع أخرى. وكان

المنذر صاحب لاردة وطرطوشة، ما يزال مرابطاً بقواته حول المدينة، فلما علم

بمقدم السيد، وابن أخيه المستعين، أدرك أنه لا طائل من الانتظار وعول على

الانسحاب (٣) ، وبعث إلى القادر يعرض عليه صداقته ومحالفته، واستعداده

---

(١) الذخيرة القسم الثالث – المخطوط – لوحة ١٨ ب.

(٢) وردت هذه الرواية في كتاب "الاستكفاء" لابن الكردبوس.

ونقله دوزى في:

.Recherches ; V

.II

.App

.II

(٣) رواية ابن الكردبوس السالفة الذكر.

*(٢٣٥/٢)*

لمعاونته ضد ملك سرقسطة، فأجابه القادر إلى عقد الحلف المنشود، ولكنه لما
رأى المنذر بعد ذلك يبتعد بقواته عن بلنسية في طريق العودة إلى بلاده، أدرك
أنه لا مفر من الالتجاء إلى القشتاليين، وأنهم هم وحدهم الذين يستطيعون إنجاده وإنقاذه.

ودارت عندئذ سلسلة من المفاوضات والمواثيق السرية، بين أولئك الزعماء المخادعين المخاتلين، فبعث القادر إلى السيد خفية عندما اقترب من بلنسية، يرجوه عقد المودة والتحالف بينهما سراً، ودون علم المستعين، وبعث إليه فى الوقت نفسه طائفة من الأموال والتحف الجليلة.

ولما وصل السيد والمستعين
إلى بلنسية، أفضى إليه المستعين بحقيقة نياته، وأنه إنما قدم إلى بلنسية لا لإنجادها
ولكن لافتتاحها، وطلب إليه النصح والعون، ولكن السيد ماطل في مهاجمة المدينة بحجة أن القادر مستظل بحماية ألفونسو، وأن المدينة في الواقع هى من أملاك

ألفونسو وقد أعطاها للقادر، فأية محاولة لافتتاحها تعتبر اعتداء على حقوق الملك ألفونسو نفسه، وأنه لابد قبل إجراء مثل هذه المحاولة، أن يأذن الملك ألفونسو نفسه بذلك، وأخيراً أنه لا يستطيع أن يقوم بعمل ضد مليكه وسيده الطبيعى، أعنى ملك قشتالة.

وهنا يبدو السيد على حقيقته، ويكشف عن خلاله الأصيلة، خلال مغامر لا ذمام له يبيع العدو والصديق معاً، وينتهز الفرصة بأى ثمن، فهو ينصح القادر سراً بألا يسلم المدينة لأحد، وهو يعد القادر والمستعين كل بمعزل عن الآخر

أنه سوف يعاونه على تحقيق بغيته في الوقت الملائم، ويؤكد للمستعين أنه على أهبة

لأن يساعده على أخذ بلنسية، إذا حصل على موافقة الملك ألفونسو، ثم يعتزم السيد أن يقطع علائقه القديمة مع صديقه وحاميه المستعين، ويبعث سراً إلى عمه وخصيمه المنذر بن هود، يعقد معه اتفاقاً بالصداقة والتحالف، وأخيراً يبعث السيد إلى ألفونسو ملك قشتالة، يؤكد له أنه فيما يعمله ويغنمه، إنما هو تابع له، وأن أولئك الفرسان الذين يقودهم في أراضي المسلمين، دون أية نفقة من الملك - إنما هم تحت تصرف الملك، ينزلون ضرباتهم " بالكفرة "، وفى وسعهم أن يحصلوا على شرقى الأندلس بسهولة.

وقد وافق ألفونسو على

(٢٣٦/٢)

رسالة السيد، وأذن له أن يجول بفرسانه حيث شاء في أراضي المسلمين (١)

.

ولم يكتف السيد بذلك، بل رأى بعد أن قام بعدة غارات ناهبة في الأنحاء القريبة، ودرس طبيعتها وأحوالها، أن يذهب بنفسه إلى الملك ألفونسو، ليعقد معه الإتفاق اللازم لإخضاع هذه المناطق، فسار إلى قشتالة، واستطاع أن يحصل من الملك ألفونسو على وثيقة الموافقة، وفيها يصرح للسيد ويؤكد،

بأن كل الأراضي والحصون التي يستطيع السيد أن ينتزعها من المسلمين، تغدو ملكاً خاصاً له، ثم لأولاده وبناته وسائر عقبه من بعده، ميراثاً شرعياً.

وأدرك المستعين خلال ذلك، مدى نفاق السيد وغدره، وانحرافه إلى

العمل لصالحه وصالح قشتالة، فقطع علائقه معه، واتجه إلى محالفة برنجير كونت برشلونة، وكان من ألد أعداء السيد، وعقدت بينهما، أواصر التحالف، وقدم المستعين إلى الكونت أموالا جزيلة، وبعثه إلى محاصرة بلنسية.

ولكن

القادر اعتزم أن يصمد لهذا الحصار الجديد، حتى يعود السيد من قشتالة.

وأخيراً عاد السيد من قشتالة ومعه سبعة آلاف مقاتل، ونزل بجيشه في

أراضي

السهلة، التابعة لابن رزين صاحب شنتمرية الشرق (مايو ١٠٨٩ م) فخرج

إليه

ابن رزين، وتعهد من جديد بأداء الجزية لملك قشتالة، وكان يؤديها قبل موقعة الزلاّقة، واتفق على أن تكون الجزية عشرة آلاف دينار في العام، فقبل السيد عهده، وغادر أراضي السهلة وسار بجيشه صوب بلنسية.

وغدا السيد عندئذ قائد جيش خطير من المرتزقة، أو بالحرى رئيس عصابة ناهبة، تجوب أنحاء الولايات الشرقية طلباً للغنيمة والسلب، وهابه سائر

الأمراء

والحكام في تلك النواحى، وأخذوا جميعاً يرقبون الفرص لمقاومته وسحقه.

وكان أشدهم نشاطاً في ذلك خصمه القديم الكونت برنجير أمير برشلونة،

وكان

الكونت يحاصر بلنسية بقواته منذ حين، والظاهر أنه حين اقترب السيد بقواته من بلنسية، وقعت بينه وبين الكونت معركة هزم فيها الكونت، وأسر مع نفر من بطانته، ولم يطلقهم السيد إلا لقاء فدية كبيرة، ثم انتهى الأمر بينهما إلى التفاهم، ورفع الكونت الحصار عن بلنسية، وعاد بجيشه شمالا إلى برشلونة.

---

.R (١)
.M
.Pidal: ibid, p
.٣٥٤ - ٣٥٢
وقد نقل الأستاذ بيدال هذه الفقرة الأخيرة
المتعلقة برسالة السيد إلى الملك ألفونسو، من أقوال ابن علقمة صاحب تاريخ بلنسية المفقود، الذى نقلت منه شذور كثيرة في التواريخ القشتالية.

(٢٣٧/٢)

وكان السيد قد عسكر بقواته أولا تجاه مربيطر شمالى بلنسية، ثم سار بعد ذلك جنوباً إلى بلنسية، وأخضع في طريقه مربيطر، وأرغم صاحبها - ابن لبُّون -
على أن يؤدى له جزية سنوية قدرها ثمانية آلاف دينار.
ونزل أخيراً بجنده
في " الكُدية " ضاحية بلنسية الشمالية التي يفصلها عن المدينة نهر " طوريا "، ففى الحال بعث إليه القادر بالأموال والتحف، وأبلغه أنه يضع نفسه تحت حمايته، ويؤدى له الجزية، واتفق على أن يدفع له في كل أسبوع ألف دينار، على أن يقوم بحمايته من سائر أعدائه.
وقيل إن الجزية التي ارتضى القادر
أن يؤديها للسيد مقابل حمايته بلغت مائة ألف دينار في العام، وهو مبلغ طائل فى
هذا العصر (١).
وهنا يسوغ لنا أن نتساءل عن مصدر هذه الأموال الوفيرة التي كان يغدقها القادر في كل مناسبة على السيد وغيره، ممن كان يستصرخهم لحمايته.
والجواب
عن ذلك أن القادر ورث عن جده المأمون صاحب طليطلة أموالا طائلة،

وطائفة
عظيمة من الحلى والجواهر والتحف.
وكان ألفونسو ملك قشتالة حينما عاونه
القادر على استرداد عرشه في طليطلة، عندما أقصته الثورة عنه، يرهق
القادر
بمطالبه المالية المتوالية، لما كان يعلمه من غناه الطائل، وكانت سياسة
ألفونسو
ترمى إلى استصفاء أموال ملوك الطوائف بطريقة إرغامهم على دفع الجزية، وغيرها من أنواع الإبتزاز السياسى والعسكرى، وقد رأيناهم جميعاً يسارعون إلى الأداء، ويجمع ملك قشتالة منهم الأموال الوفيرة.
وكان القادر من أكثرهم
ثراء واقتداراً.
وكان يخفى أموالا طائلة حملها معه حينما سار منفياً إلى بلنسية، بعد أن فقد ملكه في طليطلة، وهناك أخفاها بمنتهى الحيطة والحذر، وقد أثارت
هذه الأموال الدفينة فيما بعد شره السيد، واستطاع أن يحصل عليها عقب
دخوله
بلنسية حسبما نفصل بعد.
وخرج السيد من مقره في " الكدية " إلى جبال ألبونت القريبة، حيث كان يحكم عبد الله بن قاسم، وعاث في أراضيه، وأرغمه على أن يدفع له جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دينار، ثم عاد جنوباً وعسكر في بلدة "ركّانة"
الواقعة غربى بلنسية.
وهكذا أخضع السيد لصولته سائر إمارات هذه المنطقة:

---

(١) هذا ما ذكره ابن الكردبوس في روايته السالفة الذكر: Recherches; ٧.

.II

.App, II

(٢٣٨/٢)

بلنسية ومربيطر، وألبونت وشنتمرية الشرق، وفرض عليها جميعاً الإتاوات الفادحة، واستقر بقواته على مقربة منها تتردد بعوثه في أراضيها، وتشعرها بصفة
مستمرة أنها رهينة سلطانه ورحمته.
في ذلك الحين تطورت الأمور في قشتالة، وكان لهذا النجاح الضخم الذى أحرزه السيد على هذا النحو في شرقى الأندلس صداه السيىء في نفس الملك " الإمبراطور " ألفونسو السادس (١) ، وكان السيد قد تخلف عن معاونة ألفونسو
في معركة حصن لييط " أليدو " التي نشبت بينه وبين المرابطين سنة ٤٨١ هـ
(١٠٨٨ م) ، وانتهز خصوم السيد في البلاط هذه الفرصة، فأثاروا نفس الملك
عليه، وصوروا له تصرفه بالعقوق والخيانة، وأوعزوا إليه بمعاقبته. وفعلا أمر
الملك بإخلاء سائر الحصون والدور الخاصة بالسيد، وبالقبض على زوجه وأولاده
الصغار، وذلك لأن القانون القديم كان ينص على تضامن الأسرة في الأمور الجنائية، ولا يسمح بذرة من التهاون أو الرأفة في تهمة الخيانة.
وتطورت الأمور أيضاً في الثغر الأعلى، وشعر المستعين بن هود ملك سرقسطة
بأن المرابطين بعد استيلائهم على مرسية وحصن لييط، أضحوا على مقربة منه، وأضحوا يهددون سلامته وملكه، فعندئذ استغاث بالسيد مرة أخرى، وعقد

معه صلحاً وحلفاً جديداً.
وسار السيد في جيشه إلى سرقسطة، وعسكر على
مقربة منها على ضفة النهر الأخرى، وهنالك عقد محالفة مع ملك أراجون
وأخرى
مع ملك نافار، وكان الغرض من هذه الأحلاف جميعاً هو التعاون على دفع
خطر المرابطين الداهم، وإنقاذ شرقى الأندلس من سلطانهم.
ولبث السيد حيناً
في سرقسطة ينظم شئونها وخططها الدفاعية.
وهذا ما يشير إليه ابن بسام فى
الذخيرة بقوله المسجع: " ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنتزى إلى
وقتنا
هذا على ثغر سرقسطة، بعساكر أمير المسلمين تنسل من كل حدب، وتطلع
على أطرافه من كل مرقب، آسد كلباً من أكلب الجلالقة، يسمى بلذريق
ويدعى
بالكنبيطور، وكان عقالا، وداء عضالا له في الجزيرة وقائع، وعلى طوائفها
بضروب المكاره إطلاعات ومطالع " (٣) .

---

(١) R.
M.
Pidal: ibid, p.
٣٦٠
(٢) R.
M.
Pidal: ibid, p.
٣٦٧ & ٣٦٨
(٣) الذخيرة – القسم الثالث – المخطوط، لوحة ٨ ب و ٩ أ.

وراجع:

.R

.M

.Pidal: ibid ; p

٤١٦ & ٤١٥

(٢٣٩/٢)

ولم يجد ألفونسو ملك قشتالة لمعاقبة السيد، على مطله وغدره وخيانته، وتحطيم

نفوذه البالغ، الذى أخذ يزعجه ويثير حفيظته، خيراً من أن يفتتح بلنسية، التي كان السيد في الواقع سيدها الحقيقى، وكانت أمنع معقل لسيادته ونفوذه، وأخصب مصدر لموارده، فعقد حلفاً مع جمهوريتى جنوه وبيزه، لكى يعاونانه بأساطيلهما من البحر على أخذها، ثم سار في قواته إلى بلنسية، وعسكر فى جُبالة أو "كبولا" من ضواحيها، وطلب من أصحاب القواعد والحصون المجاورة

أن يؤدوا إليه الجزية التي كانوا يدفعونها للسيد، وبعث إلى القادر بأن يحجز الجزية وسائر الإيرادات التي كان يتلقاها السيد.

فلما علم السيد بذلك وهو فى

ظاهر سرقسطة، وبأن ملك قشتالة جاء لينزعه نفس المنطقة التي أعطاه إياها، اعتزم أن يقابل القوة بالقوة، وبعث إلى ألفونسو يعرب له عن دهشته واستنكاره

وعن ثقته بالله، وينذره بأنه لن يصبر على تلك الإهانة بل سينتقم لها، وبأنه سوف يرى كيف أسيء نصحه وتوجيهه (١) .

والواقع أنه لم يمض قليل على ذلك حتى شعر ألفونسو بحرج موقفه. وذلك

ْأن السفن الجنوية والبيزية لم تأت حسبما تقرر، وقد قلت المؤن في معسكره،

وأخذ يعانى الصعاب، فعندئذ أمر برفع الحصار، وغادر بلنسية لدهشة قواده وصحبه، وارتد راجعاً إلى قشتالة.

وما كاد يبتعد عنها حتى أشرفت السفن الحليفة

وكانت نحو أربعمائة.

بيد أنها لم تستطع أن تعمل شيئاً.

فغادرت بلنسية وسارت

إلى طرطوشة، ولكنها استطاعت أن تصمد لها.

وفضلا عن ذلك فقد أراد

السيد أن ينتقم من الملك ومستشاريه، فسار نحو قلهرّة ولوجرنيو، وضرب الأراضي التابعة لرجال البلاط من خصومه، وعاث في أحواز قشتالة، واجتاح منها منطقة شاسعة، وأمعن فيها قتلا وتخريباً (٢) .

فعندئذ رأى ألفونسو أن يعود إلى

سياسة اللين، وأصدر عفوه عن السيد، وكتب إليه بذلك، وبأنه قد رفع الحظر عن أملاكه، وسمح له بأن يعود إلى قشتالة متى شاء، فكتب إليه السيد يشكره ويرجوه ألا يصغى لنصحاء السوء.

وكان ذلك في أوائل سنة ١٠٩٢ م

(٤٨٥ هـ) .

***

---

(١) R.

M.

Pidal: ibid, p.

٤١٨

(٢) رواية ابن الكردبوس السالفة الذكر في: Recherches; V.

II.

.App

II

(٢٤٠/٢)

ْوفى ذلك الحين اشتد الاضطراب في بلنسية، واعتزم البلنسيون أن يحطموا ذلك النير المرهق الذى فرضه السيد على المدينة.

وكان قاضى المدينة أبو أحمد

جعفر بن عبد الله بن جحّاف المعافرى، يتزعم أقوى الأحزاب في المدينة، وهو الحزب المناوىء للسيد والقشتاليين بوجه عام، ويناهض الحزب " الإسبانى "

أو الحزب الذى يلتف حول القادر، وكان يثير في الجموع روح الثورة، ويتطلع إلى انتزاع السلطة، وكان المرابطون قد اقتربوا في ذلك الوقت من بلنسية، باستيلائهم على مرسية ودانية، ففاوض ابن جحاف قائد المرابطين ابن عائشة، ووعده بتسليم بلنسية إذا ساعده على محاربة القادر والسيد، فاستجاب

ابن عائشة لدعوته، وبعث إليه سرية من الجند المرابطين بقيادة أبي ناصر المرابطي، فما كادت تدخل بلنسية حتى اشتد فيها الهرج والاضطراب، وقاد ابن

جحاف جموع الثائرين، وقبض على ابن الفرج مندوب " السيد " في المدينة، واقتحم القصر، وبحث عن القادر حتى عثر به، وكان قد اختفى في بعض حمامات

القصر، ومعه صندوق من الحلى والجواهر الخاصة بزوجه السلطانة زبيدة. فقتل فى

الحال، وحملت رأسه على رمح وطيف بها في شوارع بلنسية، وذلك في اليوم الثالث والعشرين من رمضان سنة ٤٨٥ هـ (٢٨ أكتوبر سنة ١٠٩٢ م) .

واحتوى

ابن جحاف على طائفة عظيمة من الأموال والذخائر والتحف التي كان يحتفظ

بها القادر.

وآلت السلطة بذلك إلى " الجماعة ".

وفى اليوم التالى، الرابع والعشرين

من رمضان، اختير ابن جحاف رئيساً للجماعة، فتولى زمام الأمور، وأخذ يحشد الجند، ويحصن أطراف المدينة، ويستعد للطوارىء (١) .

ولما علم السيد بهذه التطورات المزعجة، سار في الحال في قواته صوب بلنسية، وفرض المغارم والأقوات على سائر الحصون الواقعة في طريقه، ونزل

في " جُبالة " (كبولا) ، وهنالك اجتمع إليه أنصار الملك المقتول (أواخر سنة ١٠٩٢ م) .

وفى الحال ضرب الحصار حول المدينة، بعد أن أحرق ما حولها

من الضياع والمروج، واستولى على معظم الأنحاء القريبة، واقتحم " الكُدية " ضاحية المدينة الشمالية، وفرض عليها سلطانه.

وأنشأ ابن جحاف داخل المدينة

فرقة من ثلاثمائة فارس من المرابطين وغيرهم، لتقاوم الحملات المخربة التي كان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و R.

M.

Pidal: ibid ; p.

يشنها السيد على أحوار المدينة.
وكثر الجدل في الداخل بين مختلف الاحزاب
والطوائف.
وبعث السيد سراً إلى ابن جحاف يطلب إليه طرد المرابطين، ويتعهد له بأن
يتركه ملك بلنسية الوحيد، وأن يمده بالعون والحماية، فجنح
ابن جحاف إلى التفاهم، وأخذ يدبر الأمر، وآثر البلنسيون كذلك التفاهم
والصلح، وانتهت المفاوضات بين السيد وأهل بلنسية على ما يأتى: أن يغادر
المرابطون المدينة آمنين، وأن يعطى ابن جحاف إلى السيد ثمن ما كان
مودعاً
بمخازنه من المؤن وقت مقتل القادر، وأن تؤدى له الجزية السابق تقريرها،
ومقدارها ألف دينار في الأسبوع مع متأخراتها، من وقت أن بدأت الحرب،
وأن تبقى ضاحية الكُدية بيد السيد، وأن يرتد الجيش القشتالى إلى " جُبالة "
ويبقى هنالك ومعه السيد.
وهكذا عقدت شروط التسليم، وعادت بلنسية
بمقتضاها، كما كانت بلداً خاضعاً يؤدى الجزية كما كان أيام القادر (١) .
ولم يمانع المرابطون في عقد الصلح على هذا النحو، لما تولاهم من السأم
في بلد لا تهدأ له ثائرة، وغادروا المدينة بسلام.
وعاد السيد فرابط بقواته فى
" جبالة ".
ولكن سرعان ما نقض عهوده، شيمته التي تلازمه في كل عمل وكل
موطن، وأخذ يتردد في جنده على ضواحى المدينة ويعيث فيها، ويرهق ابن
جحاف بمطالبه المالية، التي لا يرتوى منها شرهه قط، وابن جحاف يعانى
في نفس الوقت من الاضطراب الداخلى، ومن مناوأة الزعماء المحليين،
ولاسيما
بنى طاهر أصحاب مرسية السابقين النازلين ببلنسية، وكان هؤلاء يتصلون
سراً

بالسيد، ويتآمرون معه على ابن جحاف.
ثم طلب السيد من ابن جحاف أن
يأذن له بالنزول مع بعض صحبه في قصر وحدائق " بله نوبه " وهى
ضاحية
بلنسية في الشمال الشرقى، وينزل باقى جنده في " ريوسا " في جنوبها الغربى
تجاه
الرُّصافة، فوافق ابن جحاف مرغماً، وكان السيد يرمى بذلك إلى إحكام
تطويق
المدينة، لاسيما وهو يحتكم من قبل على ضاحية الكُدية.
وعاد السيد بعد ذلك
فاشتط في مطالبه، وطلب إلى ابن جحاف أن يسلم كل موارد المدينة، وأن
يقدم
إليه ابنه رهينة بولائه.
فعندئذ رفض ابن جحاف، وأغلق أبواب المدينة، وكتب
الى ابن عائشة قائد المرابطين يستغيث به، وبعث بنفس الصريخ إلى
المستعين ملك

---

(١) R.
M.
Pidal: ibid ; p.
٤٤٩



سرقسطة، فأرسل إليه يعده خيراً، وكتب كذلك إلى ألفونسو السادس، فبعث
إليه يعده بالعون.
واعتزم ابن جحاف مقاومة السيد إلى آخر لحظة، واستؤنفت

الأعمال العدوانية بين الفريقين، وضرب السيد حول المدينة حصاراً صارماً، وعاث في الأنحاء المجاورة، ولم يدخر وسعاً في قطع الأقوات عن المدينة المحصورة

خوفاً من أن تصمد له حتى يدهمه المرابطون، واستمر الحصار على هذا النحو

عشرين شهراً، حتى بلغ الضيق بالبلنسيين المنتهى، وفتك بهم الجوع أيما فتك، " وأكلوا الفيران والكلاب والجيف " وغدوا كالأشباح هزالا (١) .

وقد وصف

المؤرخ البلنسى المعاصر، محمد بن علقمة في تاريخه الذى سوف نشير إليه فيما بعد، بعض ما قاساه البلنسيون من المحن في تلك الآونة العصيبة، فذكرا " أن رطل القمح

بلغ ثمنه مثقال ونصف، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم، ورطل البقل بخمسة دراهم، وبيضة الدجاجة بثلاثة دراهم، ورطل اللحم بستة دنانير.

وفى ربيع الأول

(٤٨٦ هـ) عظم البلاء، وتضاعف الغلاء، واستوى في عدم القوت الفقراء والأغنياء، فأمر ابن جحاف اقتحام الدور بحثاً عن القوت.

وأعاد استصراخ

ابن هود، ورغبه في المال والبلد مع الأجر في استنقاذ المسلمين من القتل والأسر.

وترمق ساير الناس بالجلود والأصماغ وعروق السوس، ومن دون هؤلاء بالفيرة

والقطط وجيف بني آدم.

وهجم على نصرانى وقع في الحفير فأخذ باليد، ووزّع

لحمه.

وجد الطاغية في حرق من خرج من المدينة إلى المحلة ليلا يخرج الضعفاء، ويتوفر القوت على الأغنياء.

وبان على الناس الإحراق بالنار، فعيث فيهم بالقتل، وعلقت جثثهم على صوامع الأرباض وبواسق الأشجار.

ودخل جمادى الأولى

وعدمت الأقوات بالجملة، وهلك الناس، ولم يبق من ذلك الجم إلا النزر اليسير، وتوالى اليبس واستحكم الوباء.

ولما بلغ الأمر إلى هذا القدر، وابن هود يخاطب

بالتسويف والمطل، اجتمع الناس إلى الفقيه أبي الوليد الوقشى في التكلم لابن جحاف (٢) وعندئذ اجتمع أعيان المدينة، وأرغموا ابن جحاف على مفاوضة السيد في التسليم وعقد الصلح، فأذعن وترك لهم المفاوضة، فذهب وفد منهم لمفاوضة السيد، وتم الاتفاق على أن يبعث البلنسيون رسلهم إلى ملك سرقسطة،

---

(١) الذخيرة لابن بسام، القسم الثالث، المخطوط لوحة ١٩ ب، والبيان المغرب ج ٣

الملحق ص ٣٠٥.

(٢) من أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثر بها المؤلف بخزانة جامع القرويين بفاس.

(٢٤٣/٢)

وإلى ابن عائشة قائد المرابطين في مرسية، في طلب الغوث والإنجاد، وذلك في مدة

خمسة عشر يوماً، وأن يقوم ابن عديس خلال ذلك بالإشراف على المدينة، وأن تسلم الأبواب ليحتلها الروم المحليون، فإذا لم يحضر أحد للنجدة في خلال المدة

الممنوحة سلمت بلنسية بالشروط الآتية:

" أن يبقى ابن جحاف قاضياً للمدينة وحاكماً لها، وأن يؤمن في نفسه وماله

وأهله، وأن يؤمن السكان في أنفسهم وأموالهم، وأن يتولى مندوب السيد الإشراف على تحصيل الضرائب، وأن تحتل المدينة حامية من النصارى المعاهدين
(المستعربين) الذين يعيشون بين المسلمين، وأن يرابط السيد بجيشه في "جُبالة"
(كبولا) وألا يغير شيئاً من شرائع المدينة وأحكامها ".
وعقدت الهدنة على هذه الشروط، وسافر الرسل في طلب النجدة، ولكن مضت الخمسة عشر يوماً دون أن يعود أحد منهم.
ففى صباح اليوم التالى، وهو
يوم الخميس ١٥ يونيه سنة ١٠٩٤ م (٢٨ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ)
(١) ، خرج
ابن جحاف ومعه عدد من أعيان المسلمين والنصارى، ووقعوا عهداً بتسليم المدينة، على أن يؤمن سكانها في أنفسهم وأمواهم، وأن يسلم ابن جحاف إلى السيد سائر أموال القادر.
وفى الظهر فتحت بلنسية أبوابها للسيد إلكمبيادور
وجنده، واحتشد البلنسيون، وهم كالأشباح هزالا، أو كأنهم كالموتى خرجوا يوم الحشر من القبور ليمثلوا أمام الخالق (٢) ، ليشهدوا دخول القشتاليين الظافرين
بلدهم.
ودخل السيد وجنده بلنسية، وفي الحال احتلوا أبراجها خلافاً لشروط المعاهدة، ونزل السيد بالقصر، ثم جمع أشراف المدينة وألقى فيهم خطاباً وعد

---

(١) تختلف الرواية الإسلامية في تاريخ دخول السيد بلنسية.
فيقول ابن بسام وهو معاصر
للحادث أنه وقع في سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) - الذخيرة القسم الثالث - المخطوط لوحة ١٩ ب.

ويوافقه صاحب الذيل في البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٦.
ولكن ابن الأبار يقول لنا إن دخول السيد
بلنسية كان في سنة ٤٨٧ - ١٠٩٤ م (الحلة السيراء دوزى ص ١٨٩
والقاهرة ج ٢ ص ١٢٥) .
وهذه أيضاً رواية ابن الكردبوس في " كتاب الاكتفاء " Recherches, V.
II.
App.
II.
وهذا
التاريخ هو المرجح، وهو يوافق الرواية القشتالية، وبه يأخذ الأستاذ مننديث
بيدال مؤرخ
السيد، فيقول إن دخول السيد بلنسية كان في ١٥ يونيه سنة ١٠٩٤ م.
(Pidal: ibid ; p.
٤٨٥)
(٢) وهو تصوير ابن علقمة مؤرخ مأساة بلنسية، وقد نقلت روايته المفقودة
في التواريخ
القشتالية (Pidal: ibid ; p.
٤٨٤) .

(٢٤٤/٢)

فيه أن يسير شئون المدينة بالعدل، وأن يستمع لظلامات أهلها، وأن يحميهم،
وأن يرد إلى كل ذى حق حقه، إلى غير ذلك من الوعود الخلابة.
ومع ذلك
فقد احتل النصارى معظم دور المدينة وضياعها، ولم يستمع أحد إلى تذمر
أو
ظلامة، وتسلم السيد من ابن جحاف أموال القادر وذخائره، وأبقاه فى

منصبه قاضياً للمدينة، ولكنه شدد عليه في السؤال عما إذا كان قد بقى لديه شيء منها، وطلب إليه الحلف أمام أعيان الشهود من الملتين، فحلف ابن جحاف
بأنه لم يخف شيئاً وليس لديه شيء منها.
وأنذره السيد بأنه إن وجد لديه شيئاً
مما تقدم، فإنه سوف يستبيح دمه، ووافق على هذا العهد أعيان الملتين، المسلمون والنصارى.
وشاءت الأقدار أن يقع السيد بعد ذلك بقليل على مخبأ
الحلى والذخائر التي انتزعها ابن جحاف من القادر حين مقتله، فكان ذلك نذيراً
بنكبته المروعة، التي ترك لنا عنها المؤرخ البلنسى المعاصر، وشاهد العيان السابق
ذكره أبو العباس بن علمقة، صوراً مؤسية مبكية.
ذلك أن السيد أمر في الحال بالقبض على ابن جحاف وأفراد أسرته، وعذبه عذاباً شديداً، ثم أمر بإعدامه حرقاً، فأقيمت له وقدة كبيرة في ساحة المدينة وأحرق فيها بصورة مروعة، ولقى هذا القاضى المجاهد مصيره بشجاعة مؤثرة.
قال ابن علقمة، وكان من شهود المأساة " إن القنبيطور أمر بتعذيبه أى ابن جحاف
فعذب عذاباً شديداً، ثم أمر به فجمع له حطب كثير، وحفرت له حفرة وأقيم فيها، وأصير الحطب حوله، وأوقدت فيه النار فكان يضم النار إليه بيديه ليكون ذلك أسرع لخروج روحه " (١) .
وقال ابن بسام، بعد أن ذكر واقعة
إحراق ابن جحاف: " أخبرنى من رآه في ذلك المقام، وقد حفر له إلى مرفقيه، وأضرمت النار حوله، وهو يضم ما بعد من الحطب بيديه، ليكون أسرع إلى ذهابه، وأقصر لمدة عذابه، كتبها الله له في صحيفة حسناته، ومحا به

سالف
سيئاته، وهم الطاغية يومئذ بتحريق زوجه وبناته، فكلمه فيهن بعض طغاته، فبعد لأى ما لفته عن رأيه، وتخلصهن من يدى نكرائه.
وأضرم هذا المصاب
الجليل أقطار الجزيرة يومئذ ناراً، وجلل سائر طبقاتها حزناً وعاراً " (٢) .

---

(١) أورده البيان المغرب في الذيل ج ٣ ص ٣٠٦.
(٢، الذخيرة - القسم الثالث المخطوط لوحة ١٩ ب.

(٢/٢٤٥)

وأمر السيد كذلك بإحراق جماعة من أعلام بلنسية، ومنهم أبو جعفر البتى الشاعر المشهور (١) ، وبدا السيد عندئذ في ثوبه الحقيقى، ثوب الفاتح المتجبر
والطاغية المنتقم، فمال على البلنسيين، وأذلهم، واشتط في إرهاقهم بصنوف المظالم والمغارم.
وكان من الظواهر المؤلمة يومئذ، أن التف حول السيد رهط
من الخونة المسلمين، ومعظمهم من الأشرار والسفلة، انضووا تحت لوائه، وأخذوا يعيثون في المدينة فساداً، ويعتدون على إخوانهم، يقتلون الرجال، ويسبون النساء والأطفال، وقد ارتد عن الإسلام جماعة منهم، وكان يطلق يومئذ على تلك العصابات المجرمة اسم " الدوائر " (٢) ، وغادر بلنسية كثير من
أهلها المسلمين، واحتل النصارى دورهم وأحياءهم، وغدا السيد، وهو يزاول سلطانه بالقصر، كأنه ملك متوج، وسيد مملكة عظيمة، وغدا باستيلائه على بلنسية سيد شرقى الأندلس كله.
وفى محنة بلنسية يومئذ يقول الشاعر المعاصر أبو إسحاق بن خفاجه:
عاثت بساحتك العدا يا دار..

.

ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردد في جنابك ناظر..

.

طال اعتبار فيك واستعبار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها..

.

وتمحصت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان في عرصاتها..

.

لا أنت أنت ولا الديار ديار

وروعت الأندلس لسقوط بلنسية في أيدى النصارى، كما روعت من قبل بسقوط طليطلة، وتوالى على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صريخ الأندلس، ورسائل أعيانها، تصف ما أصاب بلنسية وشرقى الأندلس من الدمار، وتقطيع

الأوصال، والذل على يد النصارى.

قال ابن بسام: " وتجرد أمير المسلمين

عندما بلغه هذا النبأ الفظيع، واتصل به هذا الرزء الشنيع، فكانت قذى أجفانه وجماع شأنه، وشغل يده ولسانه ".

واعتزم أمير المسلمين أن يسترد المدينة

الأندلسية العظيمة، فسار إلى سبتة وحشد الجند، وندب ابن أخيه محمداً بن تاشفين ليقود الحملة، وكتب إلى حاكم غرناطة المرابطي، وإلى أمراء شرقى

---

(١) وهو أحمد بن عبد المولى البتى نسبة إلى بتة من قرى بلنسية.

وكان من أكابر الأدباء

وعلماء اللغة.

(٢) راجع رواية ابن الكردبوس السالفة الذكر: Recherches; V.
II.
App.
II

(٢٤٦/٢)

الأندلس، أصحاب شنتمرية الشرق، وألبونت، ولاردة، وطرطوشة، أن يجمعوا الجند للسير إلى استنقاذ بلنسية.

وعبرت الجند المرابطية إلى الجزيرة فى
سبتمبر سنة ١٠٩٤ م، أعنى لثلاثة أشهر فقط من سقوط بلنسية، واجتمعت الحشود الأندلسية، وسارت القوات المتحدة صوب بلنسية، فوصلت إلى " كوارت " ثم إلى " مسلاته "، الواقعتين غربى بلنسية جنوبى النهر، في شهر أكتوبر (رمضان ٤٨٨ هـ) ، وصلوا صلاة الفطر في مسلاته، ثم بدأ الهجوم على بلنسية.

وكانت الأنباء قد وصلت إلى بلنسية بمقدم الجيش المرابطي.
فشاع الذعر
بين النصارى، وأمر السيد بأن يجمع من أهل بلنسية، سائر السلاح والقطع الحديدية، وأخرج من المدينة سائر المسلمين الذين يشك في ولائهم.

وتكررت
هجمات المرابطين على المدينة بشدة، ولما رأى محمد بن تاشفين مناعة المدينة
وصمودها الراسخ، ضرب حولها الحصار المطبق.

ولم تمض أيام قلائل، حتى خرج السيد في قواته بالليل، وفاجأ المعسكر الإسلامى، وهاجمه بشدة، فأوقع فيه الاضطراب والذعر، واستولى على غنائم عظيمة من الخيل والسلاح
والعتاد والمؤن، وقتل من المسلمين عدد جم، ثم عاد فامتنع داخل المدينة.

واستمر الحصار طويلا.

وبعث السيد إلى بيدرو الأول ملك أراجون

يستصرخه للغوث، وعقدت بينهما محالفة ضد المسلمين، وكتب أيضاً إلى ألفونسو

السادس.

وتجددت المعارك بين المرابطين والقشتاليين في أحواز بلنسية، واستولى السيد خلالها على مربيطر، وعلى عدد آخر من الحصون.

وفى يناير سنة ١٠٩٧ م

وقعت بين قوات السيد وحليفه بيدرو ملك أراجون، وبين المسلمين، معركة شديدة عند جبل " مندير "، هزم فيها المسلمون، وعاد بيدرو إلى بلاده، وعاد السيد إلى بلنسية.

وفى تلك الأثناء كان جيش مرابطي قد سار من الجنوب نحو أراضي طليطلة وعاث فيها، وهزم قوات ألفونسو السادس عند " كونسويجرا "، وفي تلك الموقعة قتل دون ديجو ابن السيد الوحيد.

وفى نفس الوقت سار ابن عائشة

حاكم مرسية في جيش ضخم إلى أحواز قونقة، وهزم القشتاليين بقيادة ألبارهانيس

ثم اخترق أراضي مملكة بلنسية حتى " الجزيرة "، وهنالك التقى بفرقة من جنود

السيد، فأبادها تقريباً ولم ينج منها إلا عدد يسير فروا عائدين إلى بلنسية.

(٢٤٧/٢)

وكان السيد قد اشتد عليه المرض يومئذ، وهدمه الإعياء، وأدمى قلبه مصرع ولده الوحيد، فتوفى غماً وألماً، وذلك في يوليه سنة ١٠٩٩.

فتولى مكانه

زوجه خمينا الدفاع عن المدينة، واستطاعت أن تصمد أمام هجمات

المرابطين، زهاء عامين آخرين.
وأخيراً بعثت إلى ألفونسو السادس تستصرخ به، وتعرض
تسليم المدينة إليه، فهرع ألفونسو إلى بلنسية في بعض قواته، ودخل بلنسية فى
مارس سنة ١١٠٢ م.
وكانت القوات المرابطية قد اجتمعت قبل ذلك ببضعة
أشهر، تحت إمرة قائدها الأمير أبي محمد المزدلى، تستعد للوثبة الحاسمة، فلما قدم ألفونسو بقواته، اجتنبت لقاءه، وعسكرت في كولبيرا الواقعة على البحر بين بلنسية وشاطبة.
وقضى ألفونسو شهراً في بلنسية، ثم خرج إلى أحواز
كولبيرا، وانتسف زروعها، وهالته ضخامة الجيش المرابطي، فارتد إلى المدينة وهو عازم على إخلائها، ولم يشأ أن يغامر بجيشه مع العدو القوى فى
مواقع نائية.
وغادر بلنسية سكانها النصارى، يحملون أمتعتهم وأموالهم، وخرجت خمينا
زوجة السيد، ومعها ذخائر القادر بن ذى النون، والأموال
العظيمة التي انتهبها السيد خلال غزواته ومغامراته، وقد استولى ألفونسو فيما بعد
على معظمها، ثم خرج ألفونسو وجنده، وخرج معه فرسان السيد يحملون رفات زعيمهم لتدفن في أراضي قشتالة (٤ مايو سنة ١١٠٢ م) .
بيد أنه أمر قبل
خروجه بإحراق المدينة، ولم يغادرها إلا بعد أن غدا معظمها أطلالا دارسة.
وفى اليوم التالى، الخامس من شهر مايو سنة ١١٠٢ م، الموافق شعبان سنة ٤٩٥ هـ (١) ، دخل المرابطون بلنسية وعاد الثغر العظيم بذلك إلى حظيرة الإسلام
مرة أخرى، وعاد السلم يخيم على تلك الربوع، وانهار باختفاء السيد، أكبر

عامل في بث الروع، والاضطراب إلى شرقى الأندلس، ووقفت مغامرات النصارى في تلك الأنحاء مدى حين (٢) .

***

---

(١) يقول صاحب الذخيرة إن استرداد المرابطين لبلنسية كان في رمضان سنة ٤٩٥ هـ، ولكنا باحتساب التوافق بين التاريخين الميلادى والهجرى، نجد أن شهر مايو سنة ١١٠٢ م يوافق

شعبان سنة ٤٩٥ هـ.

ويأخذ ابن خلدون بنفس التاريخ، فيضع استرداد بلنسية في سنة ٤٩٥ هـ (ج ٤ ص ١٦٢) .

(٢) يراجع فيما تقدم، الذخيرة لابن بسام - القسم الثالث المخطوط - لوحة ٢٦ أوب

وكذلك: R.

M.

Pidal: ibid ; p.

٥٠٨، ٥٣٣، ٥٣٨، ٥٣٩ & ٥٨١

(٢٤٨/٢)

والآن وقد انتهينا من تتبع حوادث مملكة بلنسية منذ قيامها في ظل الطوائف وفصلنا بهذه المناسبة أخبار السيد إلكمبيادور، مذ ظهر في كنف بني هود أصحاب

سرقسطة، حتى غلب على شرقى الأندلس، ثم افتتح بلنسية، وحكمها حتى وفاته بضعة أعوام، نود أن نقول الآن كلمة عن شخصية السيد، وعن خلاله.

لقد اختلفت الآراء في تصوير السيد وتقدير بطولته.

فالآداب النصرانية، والآداب القشتالية، بوجه خاص، تحاول أن تجعل منه

مثلا أعلى للبطولة القومية، وتحيط تاريخه بطائفة من الأساطير المغرقة، وتذهب في بعض الأحيان إلى

اعتباره، فضلا عن كونه بطلا قومياً لإسبانيا النصرانية، قديساً يحيط الجلال بسيرته، وتروى لنا أن الناس كانوا على هذا الاعتبار، يحجون إلى مزاره، ويلتمسون البركة من رفاته.

وكان قد دفن أولا في دير سان بيدرو دى كاردينا على

مقربة من برغش، ثم نقلت رفاته بعد ذلك إلى بناء بلدية برغش.

ومما يروى فى

ذلك أن تابوت السيد فتح في أيام الإمبراطور شارلكان، في سنة ١٥٤١، فانتشرت

منه رائحة ذكية، ووجدت الجثة ملفوفة في رداء عربى، ومعها سيف ورمح، وكان الشرق عظيماً في تلك الآونة، فما فتح التابوت حتى هطل مطر غزير، روى جميع أرجاء قشتالة.

وأشد ما تبدو هذه الأساطير في الشعر، وفي الملاحم

والأغانى القشتالية، التي وضع معظمها بعد وفاة السيد بنحو قرن.

ففيها يصور

السيد، بأنه الفارس الكامل، الشهم، الذى لا يقهر في الحرب، وبأنه مثل الوطنية الحقة، وزهرة الخلال والفضائل النصرانية.

ومن أشهر الملاحم التي وضعت

عن السيد، وأقربها إلى عهده، قصيدة أو ملحمة، Mio Cid (سيدى) الشهيرة، التي كتبت بأراضي مدينة سالم بعد وفاة السيد بنحو أربعين عاماً فقط، وهى فضلا عما تحتويه من مختلف صور العصر وحوادثه وعاداته، تقدم لنا صورة كاملة لخلال السيد، وتشيد بوطنيته وإخلاصه، بالرغم من جور مليكه، كما تصف رفقه ولينه، وهو الظافر، نحو المسلمين المغلوبين، وما ينطوى عليه قلبه، وهو الفارس الأمثل، من الحب العائلى، حتى انه كان خلال المعارك، يتصور أعين زوجته خمينا وبناته، متطلعات إليه، إلى غير ذلك من الصور

والنعوت (١) .

---

(١) راجع كتاب الأستاذ بيدال، R.
.M
.Pidal: ibid ; p
٨

(٢٤٩/٢)

بيد أننا إذا جردنا السيد من إغراق الأسطورة، ومن أضواء الملاحم والأغانى، وإذا أردنا أن نحكم على شخصيته من حوادث حياته، فإن الرأى المنزه المجرد من المؤثرات القومية والدينية، يحملنا في الحال على الحكم عليه، وعلى خلاله
بأقسى النعوت الأخلاقية والأدبية.
لقد كان السيد جندياً عظيماً، وقائداً
بارعاً، ما في ذلك من ريب، ولقد أشادت الرواية الإسلامية المعاصرة ذاتها بخلاله
كفارس وقائد مظفر، فيقول لنا ابن بسام مثلا في وصفه ما يأتى: " وكان هذا البائقة وقته، في درب شهامته، واجتماع حزامته، وتناهى صرامته، آية من آيات ربه..
.
وكان – لعنه الله – منصور العلم، مظفراً على طرائق العجم، لقى زعماءهم، ففل حد جنودهم، وقتل بعدده اليسير، كثير عديدهم، وكانت
تدرس بين يديه الكتب، وتقرأ عليه سير العرب، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفه الطرب، وطفق يعجب منها ويعجب ".
ويزيد ابن بسام على ذلك أنه
بلغه أن السيد كان يقول، وقد طما طمعه ولح به جشعه: " على لذريق فتحت

الأندلس، ولذريق يستنقذها " (١) .
ولكن من الحق أيضاً أن نذكر أن السيد، كان إلى جانب هذه الجرأة، والبراعة العسكرية والمغامرات المظفرة، يتصف
بكثير من الرذائل والصفات الذميمة التي تأباها خلال الفروسة، فهو حسبما رأينا
من وقائع حياته التي استقيناها من أوثق المصادر، ولاسيما من أعظم مؤرخيه المعاصرين الأستاذ منديث بيدال، يبدو مغامراً لا مبدأ له ولا ذمام، يسعى إلى الكسب أينما كان، وهو يبدأ حياته في خدمة الملوك المسلمين أعداء أمته ودينه
ثم يخرج عليهم، ويتنكر لهم، وهو يقطع مختلف العهود، ثم ينقضها، متى رآها
عقبة في سبيل أهوائه، وهو يبيع العدو والصديق لكسب المال، ويبدو في معظم
حملاته العسكرية، قاطع طريق، ورئيس عصابة ناهبة، أكثر منه قائد جيش مجاهد منظم، وهو جشع لاقتناء المال، لا يخبو له في سبيل ذلك ظمأ، وهو يناوىء مليكه وأمته، ويخرج عليه غير مرة، ويعيث في أراضي بلاده، وينتهك حرماتها، تحقيقاً لمآربه الشخصية، وأغراضه المادية.
وعلى العموم، فهو
يبدو مغامراً، يجمع في شخصه كل رذائل عصره، وهو بذلك أبعد من أن يبدو بطلا قومياً مثالياً، وأشد بعداً من أن يبدو قديساً خارقاً.

---

(١) الذخيرة - القسم الثالث - المخطوط لوحة ١٩ أوب.

*(٢/٢٥٠)*

والتفكير الغربى نفسه يختلف في تقدير السيد ومنزلته من البطولة، فالعلامة المستشرق دوزى مثلا يخصص لحوادث حياته كتاباً (١) ، وينتهى فيه إلى

أن السيد
ليس إلا جندياً مغامراً يبحث وراء طالعه، ويجمع في شخصه من رذائل
عصره
أكثر مما يجمع من فضائله.
ويجاريه في هذا الرأى العلامة الفرنسى رينان، ويقول " إنه لم يفقد بطل
بخروجه من حيز الأسطورة إلى حيز التاريخ قدر ما فقد
إلسيد ".
ولكن العلامة مننديث بيدال، مؤرخ السيد، يخالف كل هذه الآراء، ويبالغ في
تقدير السيد، ويخصص لتقدير بطولته شذوراً طويلة، ويقول " إن
الشعر والتاريخ يتفقان في شأنه، وأنه بالعكس لا يوجد بطل ملاحم أكثر
لمعاناً في ظل التاريخ " (٢) .
ويخصص ابن بسام، وهو معاصر لمعظم الأحداث التي خاضها السيد،
لشخصية السيد وأعماله، شذوراً كثيرة.
بيد أنه قد كتبت عن السيد، وعن
مأساة بلنسية بالأخص وثيقة عربية مؤثرة، كتبها مؤرخ بلنسى، وشاهد عيان
للحوادث، هو أبو عبد الله محمد بن خلف الصدفى المعروف بابن علقمة،
وقد ولد
ابن علقمة ببلنسية في سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧ م) ، وتوفى بها سنة ٥٠٩ هـ
(١١١٥ م)
وكان أديباً شاعراً.
وقد هزته الحوادث والخطوب المفجعة التي مرت بوطنه
بلنسية، والتي شهدها عن كثب، فألف تاريخاً لحوادث عصره، ولاسيما تغلب
السيد على بلنسية، وما اقترن به من المآسى، أو كما يقول ابن الأبار، إنه "
ألف
تاريخاً في تغلب الروم على بلنسية، سماه "البيان الواضح في الملم الفادح"،
وذلك

قبل سنة ٥٠٠ هـ " (٣) .

وقد نوه بتاريخ بلنسية هذا، الذى ضاع ولم يصلنا، فضلا عن ابن الأبار، وهو بلنسى أيضاً، كثير من المؤرخين اللاحقين، ومنهم صاحب رواية الطوائف الواردة بذيل البيان المغرب، حيث يقول: " وقد

---

(١) كتاب دوزى المشار إليه هو: Le Cid d'aprés de nouveaux documents

(Leyde 1860)

وقد نشر بتمامه في الطبعة الثالثة من كتاب دوزى: Recherches ; V.

II.

p.

١ - ٢٣٣

(٢) R.

M.

Pidal: La Espana del Cid ; V.

II.

p.

٥٩٣ - ٦٠٤

(٣) راجع " التكملة " لابن الأبار ج ١ رقم ٥١٤، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦، وابن الخطيب في " الإحاطة " (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٩١.

وراجع أيضاً: Pons Boigues

Ensayo Bio - Bibliografico sobre los Historiadores y Geograficos Arabigo - Espanoles ؛

(Madrid 1898) p.

ألف ابن علقمة كتاباً في أمرها وحصارها (أى بلنسية) يبكى القارىء ويذهل العاقل "، ثم ينقل عنه قصة القاضى ابن جحاف (١) .

وكذلك ابن الخطيب فإنه

يذكره في مقدمة " الإحاطة "، ضمن تواريخ المدن الخاصة (٢) .

هذا وقد أثبت

البحث الحديث أن التواريخ القشتالية المعاصرة واللاحقة، قد نقلت كثيراً مما ورد

في تاريخ ابن علقمة، ولاسيما تاريخ ألفونسو العالم Cronica General عن السيد وعن حوادث بلنسية (٣) .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦.

(٢) كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ ص ٩١.

(٣) يراجع في تاريخ السيد وحوادث بلنسية: البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧، وأعمال اللأعلام ص ٢٠٣ و ٢٠٤.

والذخيرة، القسم الثالث، المخطوط، اللوحات ١٩ أإلى ٢٦ ب.

وكذلك: دوزى في كتابه المشار إليه: "Le Cid" و Recherches

.sur l'Histoire et Littérature d'Espagne au moyen Age

.V)

.II

.App

. (I – XVIII

وكتاب الأستاذ بيدال السابق ذكره، وهو مؤلف فخم في نحو ألف صفحة.

وأخيراً يراجع كتاب A.

.P

.Ibars: Valencia Arabe ; Vol

.I

.p

٣٣٢ - ٢٢٧

*(٢٥٢/٢)*

الفصل الثالِث

إمارة شنتمرية الشرق

بنو رزين.

نزولهم بأرض السهلة.

كبيرهم هذيل بن عبد الملك.

قيامه بشنتمرية وتلقبه بالحاجب

عز الدولة.

الخصومة بين هذيل ومنذر التجيبى.

هذيل واتباعه لسياسة الحياد.

صفاته وبذخه.

جواريه

وجلساته الفنية.

وفاته وقيام ولده أبي عبد الملك مروان مكانه.

تلقبه بالحاجب جبر الدولة.

حكمه الطويل

وصموده للحوادث.

صفاته بين الذم والمديح.

تأديته الجزية لألفونسو السادس.

نكوله عقب موقعة

الزلاقة.

السيد يغير على أراضيه ويعيث فيها.
اتفاقه مع السيد وعوده إلى دفع الجزية.
ابن لبون صاحب
مربيطر يلتجيء إلى حماية عبد الملك ويسلمه حصنه.
شروط هذا التسليم ونكث عبد الملك بعهوده.
مشاريع عبد الملك نحو بلنسية.
إغارة السيد على أراضيه.
خضوعه وعوده إلى دفع الجزية.
صهره
يحاول اغتياله.
نجاته ثم وفاته.
عبد الملك والشعر.
يحيى بن عبد الملك الملقب بحسام الدولة.
مصانعته
لملك قشتالة وهديته إليه.
استيلاء المرابطين على بلنسية.
زحفهم نحو الثغر الأعلى.
استيلاؤهم على
شنتمرية الشرق وخلعهم لأميرها يحيى.
انتهاء دولة بني رزين.
كانت هذه الإمارة الصغيرة - إمارة شنتمرية أوشنتمرية ابن رزين (١) -
تقع في بسيط سهل خصيب من الأرض، يقع في جنوبى الثغر الأعلى، وفي
شمال
شرقى الثغر الأوسط، عند منابع نهر خالون فرع إبرة، وتحدها من الشرق
سلسلة من الجبال تسمى بنفس الاسم، أى جبال بني رزين، وقد عرف بنو
رَزين

هؤلاء أصحاب شنتمرية الشرق، باسم جدهم الأعلى رزين البرنسى، أحد أكابر رجال البربر الداخلين إلى الأندلس في جيش طارق بن زياد، وهو ينتمى إلى هوارة إحدى بطون قبيلة البرانس البربرية الكبرى، وكان منزل بني رزين بقرطبة، ولجدهم رزين بها آثار كثيرة (٢) ، ثم نزحوا إلى الثغر، ونزلو بأراضي السهلة، وهى التي تتوسطها شنتمرية، واستقروا هنالك سادة وحكاماً. ولما انتثر عقد الأندلس الكبرى إبان اضطرام الفتنة، تطلع كبيرهم يومئذ أبو محمد هذيل بن عبد الملك بن خلف بن لب بن رَزين المعروف بابن الأصلع

---

(١) سميت شنتمرية الشرق تمييزاً لها من شنتمرية الغرب، وهى الواقعة في جنوب غربى ولاية
الغرب الأندلسية على المحيط الأطلنطى، وتشغل مكانها اليوم مدينة فارو البرتغالية، وتعرف شنتمرية
الشرق الإسبانية بمدينة Albarracin وهو تحريف لاسم بني رزين أمرائها أيام الطوائف.

(٢) تاريخ ابن حيان - مخطوط مكتبة القرويين - لوحة ٢٤٥ ب.

*(٢٥٣/٢)*

إلى الاستقلال بما في يده من الأراضي، أسوة بما فعله جاره اسماعيل بن ذى النون، فأعلن استقلاله عن حكومة قرطبة، واستبد بحكم شنتمرية وأعمالها، وذلك في سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، وتلقب بالحاجب عز الدولة. واعترف فى
نفس الوقت بطاعة الخليفة سليمان المستعين الاسمية، وقنع منه سليمان بذلك، وأقره على ما بيده من الأعمال، وحاول الحاجب منذر بن يحيى التجيبى صاحب
الثغر الأعلى، أن يخضعه لصولته، أسوة بما تم له نحو بعض أصاغر أمراء

الثغر، فأبى هذيل ووقف في سبيل أطماعه.

واضطرمت بينهما الخصومة، وامتنع هذيل

بعاصمته المنيعة، وتحالف مع الموالى العامريين أعداء منذر، واعترف معهم بدعوة هشام المخلوع، وقطع دعوة سليمان واستطاع بيقظته، وموقع بلده البعيد عن متناول العدوان، أن يجتنب عوامل الشر، وأن يسير في حكم إمارته آمناً مطمئناً.

وكان له في خصب أراضيه، وانتظام عمارتها، موارد طيبة للجباية، فكثرت أمواله، وغدا ينافس في ذلك جاره إسماعيل بن ذى النون، وكان

مثله في طغيانه وصرامته، وشدة بخله، وكان يتبع سياسة الحيدة المطلقة، ولا يتدخل في أى نزاع أو حلف، مما ينساق إليه زملاؤه أمراء الطوائف، وقد استطاع بهذه الوسيلة أن يحافظ على سلام مملكته، واستطاع بالأخص أن ينجو من ضغط قشتالة ومطالبها في اقتضاء الجزية.

وكما أن الرواية تشيد بطغيان هذيل، وجبروته، وجهله وفظاظته، حتى زعموا أنه قتل والدته بيده، فهى كذلك تقدمه إلينا في صورة أخرى أكثر بهجة وإشراقاً، فتقول لنا إنه كان فتى بارع الجمال، حسن الخلق، جميل العشرة، ظاهر المروءة، لم ير في الأمراء أبهى منه منظراً، ثم تشيد بطلاقة لسانه، وحسن

توصله بالكلام إلى حاجته دون معرفة.

وقد اشتهر هذيل بالأخص بحياته المترفة

الناعمة، ورفيع ذوقه في الفنون، وشغفه باقتناء أجمل وأروع الجوارى والقينات في عصره، حتى لقد ذكروا أنه اشترى جارية الطيب أبي عبد الله الكنانى بعد أن أحجمت عنها الملوك لغلاء ثمنها، ودفع فيها ثلاثة آلاف دينار، وكانت

وحيدة عصرها.

وقد وصف لنا ابن حيان في تاريخه تلك القينة الشهيرة فقال:

" لم ير في زمانها، أخف منها روحاً، ولا أسرع حركة، ولا ألين عطافاً،

ولا أطيب صوتاً، ولا أحسن غناء، ولا أجود كتابة، ولا أبدع أدباً، ولا أحضر
شاهداً، مع السلامة من اللحن في كتبها وغنائها، لمعرفتها بالنحو
واللغة والعروض، إلى المعرفة بالطب وعلم الطبائع والتشريح وغير ذلك، مما
يقصر
عنه علماء الزمان، وكانت محسنة في صناعة الثقاف، والمجادلة بالتراس،
واللعب بالرماح والسيوف أو الخناجر المرهفة، لم يسمع لها في ذلك بنظير "
(١) ، وكان هذيل يقتنى أروع مجموعة في عصره من الجوارى والقينات
البارعات فى
الحسن، وفي الغناء والموسيقى، وكانت " ستارته " أعنى جلساته الفنية أشهر
ستائر ملوك الأندلس.
وقيل عنه اجتمعت لديه منهن مائة وخمسون، وكان لديه
من الوصفاء الصقالبة ستون وصيفاً، لم تجتمع عند أحد من نظائره.
وكان إلى
جانب ذلك، وافر الجود والكرم، فسيح الجناب للقصاد، وعلى الجملة فقد
كان هذيل من أحب أمراء عصره إلى شعبه، وقد استمر في حكم إمارته
الصغيرة
ثلاثة وثلاثين عاماً، مرت كلها في أمن وسلام ورخاء، وتوفى بالسهلة فى
سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٥ م) (٢) .
فخلفه في الإمارة ولده أبو مروان عبد الملك بن هذيل بن رَزين، وكان
في حياة أبيه يسمى حسام الدولة، وتلقب عند ولايته بذى الرياستين الحاجب
جبر الدولة.
وقد حكم أبو مروان مملكة شنتمرية الشرق زهاء ستين عاماً، وشهد طائفة
كبيرة من الأحداث تجتاح هذه المنطقة، ولاسيما في الثغر الأعلى وفى
مملكة بلنسية، وشاء حسن الطالع أن يصمد للأحداث، وأن يبقى في رياسته،

بل أن يوسع نطاقها.

وقد اختلف الرأى في تصوير أبي مروان وخلاله، فنرى
معاصره ابن حيان، يحمل عليه بشدة، وفي عبارات لاذعة، ويقول لنا إنه
" كان سيئة الدهر، وعار العصر، جاهلا لامتجاهلا، وخاملا لامتخاملا، قليل
النباهة، شديد الإعجاب بنفسه، بعيد الذهبة بأمره، زارياً على أهل
عصره، إن ذكرت الخيل فزيدها، أو الدهاة فسعدها وسعيدها، أو الشعراء

---

(١) الذخيرة، القسم الثالث، المخطوط لوحة ٢١ أوب و ٢٢ أوب.
ونقله البيان المغرب
ج ٣ ص ١٨١ - ١٨٤.

(٢) راجع في أخبار هذيل بن رزين: الحلة السيراء (دوزى) ص ١٧٩ - ١٨٢، والبيان المغرب
ج ٣ ص ١٨١ - ١٨٣، والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٨٨، وأعمال الأعلام ص ٢٠٥
و ٢٠٦.
وكلها مشتقة من أقوال ابن حيان على اختلاف في النقل والتلخيص.

*(٢٥٥/٢)*

فجريرها وأسيدها، أو الأمراء فزيادها ويزيدها، أو الكتاب فيه فبديع همذان، أو
الخطابة فقس سحبان، أو النقد فقدامة العلم، أو العلم فليس منه ولا كرامة،
خلى من المعارف، وشعره أهتف من كل هاتف " (١) .

هذا بينما يقدم لنا
عنه ابن الأبار صورة أفضل، مما سمعه من الرواة، فيقول لنا " إن أبا مروان
هذا كانت له نجدة وصرامة وإقدام، قرب جنده من نفسه، وتحبب إليهم،
واختلط بهم، حتى كان لا يمتاز عنهم في مركب ولا ملبس، ووقائعه فى
الثغر مشهورة " (٢) .

ويغرق الفتح بن خاقان كعادته في مديحه ومديح دولته، ويقول لنا إنه كان منتهى فخار قومه، وقطب مدارهم، وإنه رجل " اتخذته البسالة قلباً، وضمت عليه شفافاً وخلباً، لا يعرف جبناً ولا خوراً، ولا يتلو غير سور الندى سوراً. وكانت دولته موقف البيان، ومقذف الأعيان، ترتضع فيه المكارم أخلاف، وتدار بها للأمانى سلاف ".

إلى غير ذلك من العبارات الرنانة (٣) .

ويشاطره

ابن بسام بعض هذا المديح فيقول لنا إن أبا مروان " كان له طبع يدعوه فيجيب، ويرمى بغرة الصواب عن قوسه فيصيب، على ازدراء كان منه بالأمة، وقلة استجداء لمن عنى بالأخذ عنه من الأئمة ".

ويزيد ابن بسام على ذلك أنه

كان شاعراً مجيداً " (٤) .

ولم نعثر في مختلف المصادر، على كثير من التفاصيل، المتعلقة بأخبار عبد الملك بن هذيل وأعماله، خلال حكمه الطويل، وكل ما وقفنا عليه من ذلك

يتلخص في أنه استمر في حكم مملكته، بعيداً عن الأحداث والعواصف التي هزت ممالك الطوائف الأخرى.

بيد أنه اضطر عقب سقوط طليطلة في يد

ألفونسو السادس في سنة ٤٧٨ هـ، أن يؤدى له الجزية أسوة بسائر ممالك الطوائف

فلما وقعت الهزيمة الساحقة على ألفونسو في الزلاّقة، في العام التالى، وهيض جناحه نوعاً، نكل عبد الملك عن دفع الجزية.

وفى تلك الأثناءكانت أعمال

السيد إلكمبيادور ومغامراته في منطقة بلنسية، تزعج سائر الإمارات الإسلامية

---

(١) نقله ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٩.

(٢) الحلة السيراء ص ١٨٥.
(٣) قلائد العقيان ص ٥١.
(٤) الذخيرة، ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٤.

*(٢٥٦/٢)*

المجاورة.
ونحن نعرف أن السيد سار إلى قشتالة ليسوى شئونه مع الملك ألفونسو السادس، وليحصل منه على حق فتح بلنسية، وأنه خرج من قشتالة في ربيع سنة ١٠٨٩ م (٤٨٢ هـ) ، عائداً إلى شرقى الأندلس، ومعه سبعة آلاف مقاتل
واخترق في طريقه أراضي السهلة (شنتمرية) ، وعسكر في " كالاموشا " فى شمالها الشرقى، ولبث حيناً في تلك الوديان النضرة، يجمع محاصيلها، وأقواتها.
ولما شعر أبو مروان بما يهدد مملكته من الخراب والإمحال، قصد بنفسه إلى معسكر السيد، واتفق معه على أن يتركه في سلام، على أن يؤدى الجزية للملك
ألفونسو كما كان الشأن قبل موقعة الزلّاقة، وأن يدفع في الحال إلى السيد بصفته
نائباً عن الملك مبلغ عشرة آلاف دينار.
وعندئذ رفع السيد معسكره، وغادر
أراضي السهلة إلى بلنسية (١) .
ولما اشتدت وطأة السيد على بلنسية والأنحاء المجاورة لها، شعر القائد أبو عيسى بن لبّون صاحب مربيطر (ساجنتو) ، أنه لا يستطيع الصمود لهذا الإرهاق، وأنف من مفاوضة السيد، وآثر أن ينتمى إلى حماية أبي مروان عبد الملك، وأن
يسلمه حصنه، فقبل عبد الملك هذا العرض، وتعهد لابن لبون، بحمايته

ورعايته

وأن يجرى عليه رزقاً كافياً، وتسلم منه حصن مربيطر في نوفمبر سنة

١٠٩٢ م

(أواخر ٤٨٦ هـ) ، ثم سار إلى السيد، وفاوضه في عقد المودة والإبقاء على

الحصن، على أن تكون سائر الحصون الواقعة في أراضيه مفتوحة للبيع

والشراء، وأن تقدم إلى جنود السيد ما يحتاجونه من المؤن، وسار ابن لبون

بعد ذلك فى

أهله وأمواله صحبة عبد الملك إلى عاصمته ونزل في كنفه.

بيد أنه لم يمض سوى

قليل حتى تنكر له عبد الملك، وأخذ في مضايقته والتقتير عليه، وقاسى ابن

لبون

من ذلك حتى كره البقاء، ومما نظمه يومئذ في محنته:

نفضت كفى عن الدنيا وقلت لها..

.

إليك عنى فما في الحق أغتبن

من كسر بيتى لى روض ومن كتبى..

.

جليس صدق على الأسرار موتمن

أدرى به ما جرى في الدهر من خبر..

.

فعنده الحق مسطور ومختزن

وما مصابى سوى موتى ويدفننى..

.

قوم وما لهم علم بمن دفنوا

ولما استولى عبد الملك على مربيطر، ورأى اضطراب الأحوال في بلنسية،

---

.R (١)

.M

.Pidal: La Espana del Cid ; P

٣٥٧ - ٣٥٩

(٢/٢٥٧)

ثابت له فكرة في محاولة الاستيلاء عليها، فنكل عن أداء الجزية المتفق عليها
إلى السيد، وفاوض بيدرو (بطره) ملك أراجون في معاونته على تحقيق
مشروعه، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال، فلما وقف السيد على هذه
التطورات
انقض بقواته على أرض السهلة، وعاث فيها، وانتسف الزروع واستاق
الماشية، وسبى جموعاً كبيرة، وبعث الجميع إلى " جُبالة " على مقربة من
بلنسية حيث
كان معسكره الرئيسى، وعندئذ اضطر عبد الملك مرة أخرى إلى الخضوع
اجتناباً
لهذا السيل المدمر، وصوناً لأراضيه ورعيته (١٠٩٣ م - ٤٨٦ هـ) (١) .
وفى أواخر حكمه، وقد شاخ يومئذ، وقع عليه حادث اغتيال كاد يودى
بحياته.
وذلك أن صهره، زوج أخته، عبيد الله حاكم إذكون الواقعة شمال
شرقى العاصمة، كان يضمر له الشر، ويود إزالته ليحكم مكانه، فدعاه ذات
يوم إلى حفل عقده بحصنه، فحضر ومعه جماعة منهم ابن لبون، فلما تمكن
الشراب من عبد الملك، وثب به عبيد الله وصحبه فطعنوه بسيوفهم، واتفق أن
كانت أخته حاضرة، وهى زوج عبيد الله القاتل، فصعدت إلى شرفة عالية،
وصاحت واقتيلاه، فهرع الناس إلى مكان الجريمة، وألفوا عبد الملك وقد
أثخن جراحاً، وبه رمق، فأرادوا الفتك بقاتله، فأمرهم بالقبض فقط على
عبيد الله وابنه، ثم برىء عبد الملك من جراحه، وخرج دميماً مشوهاً، فأمر

بصهره فقطعت يداه ورجلاه، وسملت عيناه، ثم صلب، وقطعت رجل ابنه.

وتوفى عبد الملك بعد ذلك بقليل في سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) بعد أن حكم نحو
ستين عاماً (٢) .

وكان عبد الملك بن رَزين ينظم الشعر، وكان حسبما يصفه ابن بسام شاعراً مجيداً، وهو وصف يأباه عليه ابن حيان، إذ يصف شعره بأنه " أهتف من كل هاتف ".

ويقول لنا ابن الأبار " إن ضعيف منظومه أكثر من قويه ".

وكان على الرغم من أدبه وشعره، متعسفاً مع الشعراء مقصراً في إجازتهم. ومن
نظمه في الفخر وهو ما يصفه ابن حيان بالسخف:

أنا ملك تجمع فىّ خمس..

.

هى للأنام محيى مميت

هى ذهن وحكمة ومضاء..

.

وكلام في وقته وسكوت

---

(١) R.

M.

Pidal ; ibid ; p.

٤٥٣ - ٤٥٥

(٢) الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٥ و ١٨٦.

والقاهرة ج ٢ ص ١١٤ و ١١٥.

وقوله:

يا رب ليل أطال الهجر مدته..

.

فأيأس القلب عن إدراك منتصفه

ليل تطاول حتى قد تبين لى..

.

عند التأمل أن الدهر من سدفه

وقوله في الغزل:

أترى الزمان يسرنا بتلاقى..

.

ويضم مشتاقاً إلى مشتاق

وتعض تفاح الخدود شفاهنا..

.

ونرى منى الإحداق بالأحداق

وتعود أنفسنا إلى أجسامها..

.

فلطالما شردت على الآفاق (١)

وخلف عبد الملك بن رزين ولده يحيى الملقب بحسام الدولة، وكان أميراً عاجزاً ضعيف العقل، مدمناً للشراب، وكان يسعى إلى مصانعة ملك قشتالة ألفونسو السادس، والتماس مودته، واجتناب سطوته، فبعث إليه بهدية حافلة من الحلى والخيل والبغال، ومختلف التحف النادرة، فكافأه عنها ألفونسو بأن بعث إليه قرداً هدية منه إليه.

فكان يحيى لسخفه وسقم عقله، يفخر باقتناء هذا القرد، ويفخر بأن هاداه ملك قشتالة (٢) .

والواقع أن مُلك بني رزين كان يدنو عندئذ من نهايته بسرعة.

ذلك أن المرابطين كانوا قد اجتاحوا يومئذ شرقى

الأندلس كله، وتوجوا سلطانهم في تلك المنطقة بالاستيلاء على بلنسية فى

شعبان سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، وأخذوا يضعون خططهم للاستيلاء على

قواعد

الثغر الأعلى.

وكان عبد الملك بن رزين.

قد أعلن قبيل وفاته طاعته لأمير

المسلمين يوسف بن تاشفين (٣) ، ولكن هذا الاعتراف لم يكن كافياً لتحقيق

خطة المرابطين في القضاء على سائر دول الطوائف.

ومن ثم فقد تابع المرابطون

زحفهم نحو الشمال، وفي اليوم الثامن من رجب سنة ٤٩٧ هـ (إبريل ١١٠٤

م)

دخل المرابطون مدينة شنتمرية، وخلعوا أميرها يحيى بن عبد الملك بن رزين،

وانتهت بذلك دولة بني رزين الصغيرة بعد أن عاشت زهاء تسعين عاماً، ولم

يبق

من بعدها من دول الطوائف العديدة سوى مملكة سرقسطة، وقد كانت هى

الأخرى تدنو سراعاً من الخاتمة المحتومة.

---

(١) راجع الذخيرة - القسم الثالث - المخطوط لوحة ٢١ أوب، والحلة السيراء

ص ١٨٢

و١٨٣، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨٤ و ٣٠٩ و ٣١٠، وقلائد العقيان

ص ٥٣ - ٥٦، وقد

ورد بها الكثير من شعر ابن رزين.

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١١.

وينسب دوزى هذه الواقعة إلى عبد الملك بن هذيل، ويقول لنا إنه حمل هديته

بنفسه إلى ألفونسو وهو مشرف عل أخذ طليطلة: Hist.

.V

.III

.p

١٢١

(٣) ابن الأبار في الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٢.

والقاهرة ج ٢ ص ١١٠.

(٢٥٩/٢)

الفصل الرابع

إمارة ألبونت

ألبونت وموقعها.

قيام عبد الله بن قاسم بها.

انضواؤه تحت لواء الخلافة الأموية.

إيواؤه

للمرتضى وأخيه المعتد بالله قبل توليهما للخلافة.

وفاة عبد الله وقيام ولده محمد مكانه.

تلقبه بيمن

الدولة.

ولده أحمد بن محمد الملقب بعز الدولة.

وفاته وولاية ولده الطفل.

خلع الأمير الطفل وولاية

عمه عبد الله بن محمد.

حكمه الطويل.

زحف السيد على ألبونت.

خضوع عبد الله واعترافه بطاعة ملك

قشتالة وأداؤه الجزية.

استيلاء المرابطين على ألبونت.
عبد الله بن محمد ومواهبه الأدبية والشعرية.
على مقربة من شنتمرية الشرق، وإلى الجنوب الشرقى منها، كانت تقع إمارة صغيرة أخرى من إمارات الطوائف، هى إمارة ألبونت أو ألبنت.
وتقع مدينة ألبونت (١) هذه، في وسط الطريق بين قسطلونة وقونقة، على مقربة
من نهر طورية في حمى الجبال.
وقد قام بها منذ بداية الفتنة عبد الله بن قاسم
الفهرى، وهو من زعماء البيوت العربية في تلك المنطقة، فحكمها واستقل بها وبما حولها من الأراضي.
وقد كان بنو قاسم هؤلاء من نسل عبد الملك بن قطن
الفهرى، الذى ولى إمارة الأندلس عقب موقعة بلاط الشهداء، ومقتل أمير الأندلس عبد الرحمن الغافقى، وذلك في أواخر سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) (٢) .
ولم يشترك عبد الله في شيء من الحوادث، التي كانت تجرى يومئذ، في شرقى
الأندلس أو جنوبه، نظراً لبعد إمارته عن مصرح الحوادث.
بيد أنه كان من
أنصار الخلافة الأموية، يعترف بطاعتها ويدعو لها، مع طائفة الفتيان العامريين.
وكانت بلدة ألبونت منزل عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر، وأخيه
هشام، يعيشان في كنفه، وتحت رعايته، ومن ألبونت خرج عبد الرحمن حينما رشحه خيران وزملاؤه الفتيان العامريون للخلافة، باسم المرتضى.
ولما قتل
المرتضى في المعركة التي نشبت بين أنصاره، وبين البربر أمام غرناطة، فى سنة ٤٠٩ هـ، لجأ أخوه هشام إلى حماية عبد الله بن قاسم، ولبث في ألبونت

(١) وهى بالإسبانية Alpuente
(٢) المقرى نقلا عن الحجارى في نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨.

(٢٦٠/٢)

حتى اختاره أهل قرطبة للخلافة، وذلك في ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ، وعندئذ تلقب بالمعتد بالله، ولبث مقيماً في ألبونت مدة عامين وسبعة أشهر، وهو يخطب
له في قرطبة.
ثم سار بعدئذ إلى قرطبة، ودخلها في ذى الحجة سنة ٤٢٠ هـ، حيث جددت له البيعة، واستمر في كرسى الخلافة عامين آخرين (١) .
واستمر عبد الله بن قاسم في حكم إمارته الصغيرة، حتى توفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) ، فخلفه ولده محمد بن عبد الله الملقب بيمن الدولة، وحكم ألبونت زهاء اثنتى عشرة عاماً.
ولم تدون لنا الرواية أية حوادث وقعت في عهده.
ولما توفى في سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) ، خلفه في الحكم ولده أحمد بن محمد بن
عبد الله الملقب بعز الدولة، وحكم حتى وفاته في سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) ، فأقام بعض أصحابه للحكم مكانه ولده الطفل محمداً، وكان في نحو السابعة من
عمره، وقام بالوصاية عليه جده لأمه المدعو قاسم، وهو الذى دبر ولاية الأمير
الطفل.
ولكن هذا العمل لم يرق في نظر عبد الله بن محمد عم الأمير الطفل، وأخى والده أحمد، وكان يرى نفسه أحق بالولاية، وتؤازره في ذلك جماعة قوية من الأنصار، فدبروا أمرهم ووثبوا بالوصى قاسم واعتقلوه، وصرف الأمير

الصبى إلى حجر أمه، ولما يمض على حكمه بضعة أشهر، وتسلم عبد الله مقاليد
الحكم وتلقب بجناح الدولة، أو نظام الدولة وفقاً لرواية أخرى، وتزوج من والدة الصبى أرملة أخيه اتقاء لأطماعها ودسائسها، وسار في حكم الإمارة دون منازع.

واستمر عبد الله بن محمد في حكم إمارة البونت أكثر من أربعين عاماً، ولم تقع في عهده الطويل حوادث ذات شأن، إلا حينما غدت هذه المنطقة كلها فريسة لعدوان السيد إلكمبيادور ومغامراته، حسبما فصلنا ذلك من قبل في تاريخ
مملكة بلنسية.

ففي سنة ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) زحف السيد بقواته على إمارة
ألبونت وعاث فيها وخرب أراضيها، واضطر صاحبها عبد الله بن محمد إلى الاعتراف بطاعة ملك قشتالة، وإلى أن يؤدى جزية قدرها عشرة آلاف دينار، وذلك أسوة بما فرض على جاره أبي مروان بن زرين صاحب شنتمرية الشرق.

ولما استولى المرابطون على بلنسية في سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، استولوا

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ و ١٤٥.

*(٢٦١/٢)*

بسرعة على معظم القواعد والحصون الواقعة في تلك المنطقة، ومنها ألبونت.
وفى رواية أخرى أن آل قاسم أصحاب ألبونت استمروا في حكمها حتى سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) (١) .

ولكن الرواية الأولى أرجح فيما يبدو، لأن المرابطين
استولوا على شنتمرية الشرق في سنة ٤٩٧ هـ، وأغلب الظن أنهم استولوا قبل ذلك على ألبونت الواقعة في جنوبها، وذلك في سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) (٢)

.

وكان الأمير عبد الله بن محمد قاسم أديباً شاعراً جيد النثر والنظم، وقد أورد له الحجارى صاحب " المسهب " هذه الأبيات:

خلعت عن الملك لكننى..

.

عن الصبر والمجد لا أخلع

رمانى الزمان بأرزائه..

.

وغيرى من خطبه يجزع

فليس فؤادى بالملتظى..

.

ولا مقلتى حسرة تدمع

ولى أمل ليته لم يكن..

.

فكم ذا يغر وكم يخدع

ومن قوله من قصيدة:

أما لكل نبيه في العلا حيل..

.

تفضى الحقوق بها والمرء منقبض

كن كيف شئت فمن دأبى محافظة..

.

على الذمام وعهد ليس ينتقض

وهمة لم تضق ذرعاً بحادثة..

.

إن الكريم على العلات ينتهض

والحر حر وصنع الله منتظر..

.

والذكر يبقى وعمر المرء ينقرض (٣)

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٥.

(٢) راجع في أخبار إمارة ألبونت: البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ و ١٤٥ و ٢١٥، وأعمال الأعلام ص ٢٠٨.

وكذلك: R.

M.

Pidal ; ibid.

p.

٣٦٠ & ٤٤٨

(٣) راجع في رسائل عبد الله وقصائده: قلائد العقيان ص ١٢٧ - ١٣٢؛ والمغرب في

حلى المغرب ج ٢ ص ٣٩٦ - ٣٩٨.

(٢/٢٦٢)

الكتاب الخامِس

دول الطوائف

في الثغر الأعلى

(٢/٢٦٣)

الفصْل الأوّل

مملكة سرقسطة

حتى نهاية عصر المقتدر بن هود

١ - عهد بني تجيب

مملكة سرقسطة أو الثغر الأعلى.

بنو تجيب وتغلبهم عليه.
مؤامرة عبد الرحمن التجيبى ضد المنصور
وفشلها.
ولده يحيى.
المنذر بن يحيى وإمارته للثغر.
تأييده للخلافة الأموية.
محاربته مع الفتيان
العامريين.
تدخله في حوادث بلنسية.
مسالمته للملوك النصارى.
بذخه وأبهته، مديح ابن دراج له.
ولده يحيى.
منذر بن يحيى الحاجب.
مصرعه على يد سليمان بن حكيم.
الفتنة في سرقسطة.
سليمان
بن هود.
استيلاؤه على سرقسطة وبداية عهد بني هود.
تلقبه بالمستعين.
حروبه مع المأمون بن ذى النون.
استغاثته بملك قشتالة.
استعانة المأمون بملك نافار.
تفاقم العدوان بين الفريقين.
وفاة المستعين.
تقسيمه لمملكته بين أولاده.
الحرب الأهلية بينهم.

استعانته بهم.
مشاريعه العسكرية.
المقتدر وأخوه يوسف المظفر.
السيد إلكمبيادور
في خدمة المقتدر.
استيلاء المقتدر على مملكة دانية.
وفاة المقتدر.
تقسيمه للمملكة بين ولديه.
صفات المقتدر بن هود وخلاله.
شغفه بالعلوم الرياضية.
فخامة بلاطه.
إنشاؤه لقصر الجعفرية
ومجلس الذهب.
كانت مملكة سرقسطة أو الثغر الأعلى أعظم ممالك الطوائف وأهمها، ليس فقط بضخامة رقعتها، ولكن كذلك بموقعها الدقيق الخطر، بين الدول
الإسبانية
النصرانية، بين قطلونية من الشرق، ونافارا أو نبرّه من الشمال الغربى، وقشتالة من الجنوب والغرب، وكانت في الوقت نفسه أقدم الدول الأندلسية المستقلة، وأرسخها جذوراً في الاستقلال.
ذلك أنها كانت بموقعها المنعزل
النائى في شمال شرقى الجزيرة، وابتعادها بذلك عن مجموعة الدول الأندلسية

*(٢٦٤/٢)*

الأخرى، تضطر دائماً إلى مضاعفة الجهود للذود عن حياتها، والدفاع عن استقلالها ضد مختلف الأطماع المضطرمة من حولها.
وكانت مملكة سرقسطة، قبل اضطرام الفتنة وانهيار الخلافة، وقبل أن

تنتظم في سلك ممالك الطوائف، تعرف بولاية الثغر الأعلى، وهو يشمل فى
الجغرافية الأندلسية، مدينة سرقسطة وأعمالها، تطيلة، ووشقة، وبربشتر،
ولاردة، وأفراغة، وطرّكونة، وطرطوشة، ويشغل المنطقة الواسعة الخصبة
التي يخترقها نهر إيبرو (إبرُه) من مصبه عند مدينة طرطوشة، حتى مدخله
عند
مدينة قلهرّة في ولاية نافار، ويخترقها فرعه الشمالى الكبير نهر سجرى
والأفرع
الصغيرة الممتدة منه نحو بربشتر ووشقة، وفرعه الجنوبى خالون حتى قلعة
أيوب
ودَروقة: ففى هذه المنطقة الشاسعة التي تكثر فيها الوديان اليانعة والمواقع
الاستراتيجية، كانت تقوم مملكة سرقسطة مكان ولاية الثغر الأعلى القديمة،
مشتملة على سائر نواحيها.
وقد لبثت ولاية الثغر الأعلى خلال القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)
مسرحاً لمغامرات بني قسيّ زعماء الثغر المولدين، حسبما فصلنا ذلك في
مواضعه
من العصر الأول (١) .
وفى أواخر هذا القرن، في عهد الأمير عبد الله بن محمد، استطاع
بنو تجيب أصحاب دروقة وقلعة أيوب من أعمال الثغر الجنوبية، الاستيلاء
على
مدينة سرقسطة، وذلك على يد زعيمهم أبي يحيى محمد بن عبد الرحمن
التجيبى المعروف بالأنقر.
وأقره الأمير عبد الله على حكم سرقسطة وأعمالها
اكتساباً لولائه، وكان بنو تجيب هؤلاء من زعماء البيوتات العربية العريقة فى
الثغر، واستمر بنو تجيب في سرقسطة، والمنتزون من زعماء المولدين في
باقى
قواعد الثغر مثل تطيلة ووشقة، أحياناً على ولائهم لحكومة قرطبة، وأحياناً

يخرجون على طاعتها، حتى استطاع الناصر أن يقضى على ثوراتهم، وأن يرغمهم على الخضوع والطاعة، بيد أنه عفا عن بني تجيب، ورد زعيمهم محمد
ابن هشام التجيبى إلى منصبه حاكماً لسرقسطة، لما كان يتمتع به من مقدرة إدارية، ولما كان لبنى تجيب في الشمال من العصبة والأنصار.

---

(١) راجع " دولة الإسلام في الأندلس " (العصر الأول) .

*(٢٦٥/٢)*

وفى أيام المنصور بن أبي عامر، شعر بنو تجيب بما يهدد سيادتهم في الثغر
من اتجاه المنصور إلى القضاء على سلطان الأسر العربية، وزعامتها المحلية، فحاول زعيمهم يومئذ وهو عبد الرحمن بن مطرِّف التجيبى، صاحب سرقسطة
أن يسعى إلى إزالة المنصور بالتآمر مع ولده عبد الله.
وقد فصلنا أخبار هذه
المؤامرة فيما تقدم من أخبار الدولة العامرية (١) ، وبينا كيف استطاع المنصور أن
يقبض على عبد الرحمن التجيبى، وعلى عبد الله، ثم قضى بإعدامهما، بيد أنه
مع ذلك ندب لحكم سرقسطة، يحيى بن عبد الرحمن التجيبى استبقاء لولاء الأسرة جرياً على سياسة أسلافه، وذلك في سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) .
واستمر يحيى التجيبى في حكم سرقسطة وأعمالها حتى وفاته في سنة ٤٠٨ هـ
(١٠١٧ م) ، وشهد قبل وفاته اضطرام الفتنة، وانهيار الخلافة، وتمزق الأندلس، وكان جل عنايته في تلك الآونة العصيبة أن يحافظ على بلاده من

عدوان النصارى، وأن يوطد سلطانه في مملكته النائية المنعزلة عن مسرح الحوادث.
ولما توفى، خلفه
ولده المنذر بن يحيى التجيبى.
ويمكننا أن نعتبر المنذر بن يحيى التجيبى أول أمير للثغر في عهد الطوائف.
حكم سرقسطة وأعمالها، وتسمى بالحاجب ذى الرياستين، وتلقب من الألقاب السلطانية بالمنصور، ولما تطورت الحوادث في قرطبة ودخلها على بن حمود بحجة إنقاذ الخليفة هشام المؤيد، ودعا لنفسه بالخلافة، كان المنذر بن يحيى إلى
جانب خيران وزملائه الفتيان العامريين في معارضته ومقاومته.
ولما رشح
هؤلاء للخلافة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر، وتلقب بالمرتضى، وساروا معه هم وأنصارهم في قواتهم لمقاتلة البربر، وخلع على بن حمود، سار
معهم المنذر بن يحيى في بعض قواته، ومعه فرقة من المرتزقة النصارى بقيادة
حليفه الكونت رامون أمير برشلونة، وكان من ضباطه في تلك الحملة رجل كان له فيما بعد أكبر شأن في تطور الحوادث في الثغر الأعلى هو سليمان بن هود.
ونحن نعرف ما أسفرت عنه المعركة التي اضطرمت يومئذ في ظاهر غرناطة بين
القوات الأندلسية، وجيش البربر بقيادة زاوى بن زيرى الصنهاجى، وكيف

---

(١) راجع " دولة الإسلام في الأندلس " (العصر الأول) .

انتهت بهزيمة أهل الأندلس، ومقتل مرشحهم الخليفة المرتضى (٤٠٩ هـ - ١٠١٨ م) (١) .
وعاد المنذر وحلفاؤه النصارى إلى الشمال، وقد أيقن أنه يؤازر قضية خاسرة، وكانت حوادث بلنسية تؤذن يومئذ بأن تفتح ميداناً جديداً لنشاط المنذر.
ذلك أنه لما توفى أميرها الفتى مبارك في أواخر سنة ٤٠٨ هـ، وخلفه في حكمها
الفتى لبيب العامرى صاحب طرطوشة بدعوة من أهلها، ثم شاركه في حكمها مجاهد العامرى صاحب دانية حسبما فصلنا ذلك في موضعه، عاد أهل بلنسية
فسخطوا على لبيب، لوقوعه تحت نفوذ صاحب برشلونة الكونت رامون برنجير، وإفساحه له مجال التدخل في شئونها بصورة ظاهرة، وثاروا عليه، ففر لبيب إلى طرطوشة، واستمر مجاهد في حكم المدينة بالإضافة لحكم دانية.
ولكن أهل بلنسية لم يقنعوا بذلك، واستدعوا لحكم المدينة المنذر بن يحيى، فسار في بعض قواته صوب بلنسية، واستعد مجاهد للقائه، ووقعت بينهما بعض
معارك خشى الناس عواقبها، ولم ينقذ ذلك الموقف إلا ما عمد إليه الفتيان العامريون من الاجتماع، وعقد البيعة لحفيد مولاهم عبد العزيز بن عبد الرحمن
ابن المنصور، وتعيينه أميراً لبلنسية، وذلك في سنة ٤١١ هـ (١٠٢١م) وعندئذ
انسحب مجاهد إلى دانية، وعاد المنذر إلى سرقسطة (٢) .
واستمر المنذر في حكم مملكة سرقسطة ثلاثة أعوام أخر حتى توفى فى سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) .
وكانت تربط المنذر بجيرانه الأمراء النصارى، ولاسيما
رامون بوريل أمير برشلونة علائق مودة وثيقة، وكذلك كانت تربطه مثل هذه

العلائق بسانشو الكبير (شانجه) ملك نافار وولده فرناندو الأول ملك قشتالة، وألفونسو الخامس ملك ليون.

وقد بالغ المنذر فيما يبدو في صداقته لأولئك

الملوك النصارى، حتى أنه نظم في قصره بسرقسطة، حفلا لعقد المصاهرة بين أميرين من أولئك الأمراء، هما سانشو ملك نافار ورامون بوريل أمير برشلونة، حضره الفقهاء والقساوسة وأعيان الملتين، فسخط عليه الناس من أجل ذلك، ورموه بألسنة حداد، بيد أنه قد حقق بهذه السياسة لنفسه مسالمة

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٦ و ١٢٧.

وراجع Dozy: Hist.

V.

II.

p.

٣١٥ - ٣١٨

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٣ و ١٦٤.

*(٢٦٧/٢)*

أولئك الملوك النصارى، وكف عاديتهم عن بلاده، بل لقد استطاع أن يحملهم على اتباع سياسة الموادعة والسلم مع جيرانهم من الملوك المسلمين.

ومن ثم فقد

تمتعت سرقسطة في عهده القصير بفترة من الدعة والرخاء، وغدت باتساع عمرانها

وتقدم أحوالها، شبيهة بحضرة قرطبة الكبرى أيام الجماعة، وأدرك الناس بعد وفاته، بعد نظره وحسن تقديره للعواقب (١) .

وكان المنذر فوق ذلك يعشق الأبهة والبذخ، فملأ قصره الفخم بالجوارى والغلمان والحشم، ونفيس الذخائر والتحف، وكان يتحف أصدقاءه ملوك

النصارى بالهدايا الفاخرة، ويؤكد بذلك مودتهم ورضاهم وكان بين وزرائه
بعض أكابر كتاب العصر، مثل أبي العباس بن مروس من تدمير، وأبى
عامر
ابن أزرق، وابن واجب وغيرهم.
وأنشأ شاعر العصر أبو عمر بن درّاج القسطلى في مديح المنذر حينما وفد
عليه
قصيدته المشهورة التي مطلعها:
ْبشراك من طول الترحل والسُّرى..

.

صبح بروح السَّفر لاح فأسفرا
من حاجب الشمس الذى حجب الدجى..

.

فجرا بأنهار الندى متفجرا
ومنها:
فلئن تركت الليل فوقى داجياً..

.

فلقد لقيت الصبح بعدك أزهرا
وحللت أرضاً بُدلت حصباؤها..

.

ذهباً يرف لناظرىّ وجوهرا
ضربوا قِداحهم علىّ ففاز بى..

.

من كان بالقِدْح المعلّى أجدرا (٢)
ولما توفى المنذر، خلفه ولده يحيى، وتلقب بالمظفر، وحكم سرقسطة
وأعمالها بضعة أعوام أخرى، وتوفى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) .
والظاهر أنه لم

يحكم سياسة الصداقة التي كان يتبعها أبوه مع جيرانه أمراء برشلونة، حيث أغار
صاحبها الكونت رامون بوريل على بعض أطراف مملكته، واضطر أن ينزل له
عن بعض القلاع والحصون.
وخلفه في الملك ولده المنذر بن يحيى، وتلقب بالحاجب معز الدولة.
ولسنا نعرف شيئاً عن أعمال هذا الأمير في المدة التي حكمها، وهى نحو عشرة

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٧٦ و ١٧٧، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣.
وراجع دوزى
.Recherches, V
.I
.App
XVII & XIV
(٢) وهى قصيدة طويلة رائعة.
وقد وردت في ديوان ابن دراج الذى سبقت الإشارة إليه
ص ١٢٤ - ١٣٠.
وأورد لنا ابن بسام في الذخيرة منها مقتطفات طويلة (الذخيرة - القسم الأول
المجلد الأول - ص ٥٦ - ٥٨) .

*(٢٦٨/٢)*

أعوام.
بيد أن لدينا تفاصيل مقتله، وذهاب ملك بني تجيب على يده.
وكان
ذلك في غرة ذى الحجة سنة ٤٣٠ هـ (أغسطس ١٠٣٩ م) حينما نفذ إلى

قصره
في ذلك اليوم رجل من بني عمومته وقواده يدعى عبد الله بن حكيم، جاء
بزعم
السلام عليه، وكان يضمر له السوء منذ بعيد.
وكان المنذر يجلس بين نفر قليل
من خدمه الصقالبة، وليس عليه إلا غلالة، وهو يقرأ في كتاب في يده،
فانقض
عليه وطعنه في عنقه بسكين كان قد أعده، فقطع أوداجه، وفر الخدم في
الحال
ولم يبق منهم إلا خادم واحد شهم حاول الدفاع عن سيده، فصرعه عبد الله
بخنجره ثم أجهز على منذر، واحتز رأسه، وأبرزها من غرفة في القصر
مرفوعة
على عصا، وهو يصيح هذا جزاء من عصى أمير المؤمنين هشاماً، يريد
بذلك
الدّعى الذى نصبه القاضى ابن عباد في إشبيلية، وزعم أنه الخليفة هشاماً
المؤيد، وذلك في سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٥ م) ، واعترف بخلافته عدد من أمراء
الطوائف، ورفض يحيى التجيبى يومئذ الاعتراف به، وتابعه في ذلك ولده
المنذر.
ولما شهد
الناس رأس منذر بهتوا وعقد الذعر ألسنتهم، وأرسل القاتل في الحال إلى
القاضى
والأعيان، فحضروا إلى القصر والقاتل جالس على فراش قتيله، وجثة منذر
مضرجة بدمائها ملقاة إلى جانبه، فأعلن لهم أنه فعل ما فعل في سبيل
الإصلاح
العام، ودعا بالحكم لسليمان بن هود، وقيل بل دعا لنفسه واختاره بنو عمه
للولاية

فانصرف الناس، وقد بيتوا القضاء عليه.

وفى تلك الأثناء كان نبأ مصرع المنذر بن يحيى التجيبى قد ذاع في كل مكان، وهرع خاله إسماعيل بن ذى النون صاحب طليطلة إلى سرقسطة لتدارك الأمر، واشتد الهرج في سرقسطة، وكادت تعصف بها الفتنة، وهجم الناس على القصر
لانتزاع القاتل ومعاقبته، فتحصن بالقصبة، وصمم على الدفاع عن نفسه، بيد أنه
لما أيقن أنه سوف يقع في أيدى مهاجميه لا محالة، جمع ما استطاع من ذخائر
القصر وتحفه، وخرج هارباً من باب خلفى في القصر، ولحق بقلعة روطة أحد
معاقل سرقسطة المنيعة، وكان قد أعدها لذلك بمعاونة نفر من صحبه، وحمل معه
في نفس الوقت أخوين للمنذر، وبعض أعيان منهم وزيره أبو المغيرة بن حزم، فى الأصفاد ليكونوا رهائن لديه، واقتحم العامة قصر سرقسطة ونهبوه وخربوه، وعم الهرج والفوضى.

(٢٦٩/٢)

وفى تلك الآونة ظهر في الميدان رجل، كانت تدخره الأقدار ليقمع الفتنة، وينتزع مقاليد الحكم.

ذلك الرجل هو أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود
الجذامى، وهوكبنى تجيب ينتمى إلى بيت عربى عريق، وجدهم الأعلى هو هود
وهو الداخل إلى الأندلس وينتسب إلى الأزد.

وكان سليمان وقت وقوع الفتنة من
كبار الجند بالثغر الأعلى، فغلب على مدينة لاردة، وقتل صاحبها يومئذ،

وهو أبو المطرِّف التجيبى، ثم غلب على تُطيلة من أطراف الثغر، وكان بها في جمع
من صحبه وقت مقتل المنذر التجيبى، فلما وقف على ما حدث بسرقسطة، هرع
إليها في صحبه، وقيل بل كان وقت وقوع الحادث بمدينة لاردة، وأن أهل سرقسطة هم الذين استدعوه للحضور.
ويقدم لنا ابن خلدون رواية أخرى
خلاصتها أن سليمان بن هود هو الذى ارتكب جريمة سرقسطة، وأن الملك القتيل لم يكن هو المنذر معز الدولة، وإنما كان أبوه يحيى المظفر، وهو الذى
كان يحكم يومئذ، ويضع تاريخ هذا الحادث في سنة ٤٣١ هـ (١) .
ولم يذكر ابن الخطيب واقعة القتل، ويقول لنا إن أهل سرقسطة هم الذين ثاروا بيحيى بن المنذر بن يحيى، وصرفوا طاعتها إلى سليمان بن هود (٢) .
بيد أن
هاتين الروايتين تنقضهما رواية ابن حيان المعاصرة، وهى التي اتبعناها فيما تقدم، وهى رواية يؤيدها صاحب البيان المغرب (٣) .
وعلى أى حال فقد هرع سليمان بن هود في صحبه إلى سرقسطة، واستولى عليها في غرة المحرم سنة ٤٣١ هـ (٢٣ سبتمبر سنة ١٠٣٩ م) وسواء أكان استيلاؤه
عليها نتيجة لدعوة أهلها، واختيارهم إياه لولايتها، أم كان عملا من أعمال القوة
وهو الأرجح، فإن الواقع أنه استولى على مقاليد الحكم دون منازع، وبذلك انتهت رياسة التجيبيين للثغر الأعلى، بعد أن لبثت زهاء قرن ونصف، وبدأت في سرقسطة والثغر الأعلى رياسة أسرة جديدة هى أسرة بني هود، التي
يخصها

ابن الأبار دون غيرها من أسر الطوائف، بغلبة الشجاعة والشهامة عليها (٤)
.

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣.
(٢) أعمال الأعلام ص ١٧٠.
(٣) راجع رواية ابن حيان مفصلة في البيان المغرب ج ٣ ص ١٧٨ - ١٨١، وقد عاد
صاحب البيان فأورد رواية مماثلة: ج ٣ ص ٢٢١ و ٢٢٢.
(٤) الحلة السيراء (دوزى) ص ٢٢٤.
والقاهرة ج ٢ ص ٢٤٦.

*(٢/٢٧٠)*

والتي لعبت في عصر الطوائف، ولاسيما في حوادث الثغر الأعلى وشرقى الأندلس، أعظم دور.

٢ - عهد بني هود

جلس سليمان بن محمد بن هود على عرش سرقسطة في غرة المحرم سنة ٤٣١ هـ
وحكم الثغر الأعلى ما عدا طرطوشة، التي كانت بيد بعض الفتيان العامريين، واتخذ من الألقاب السلطانية لقب المستعين بالله، وظهر منذ البداية بقوة عزمه
وشدة بأسه، فاشتهر أمره، وتوطد ملكه بسرعة، واستمر في حكم مملكته الجديدة ثمانية أعوام.
وكان أهم ما وقع فيها حروبه مع المأمون بن ذى النون.
وكانت المنطقة الواقعة بين المملكتين، من ناحية الجنوب الغربى من مملكة سرقسطة
وناحية الشمال الشرقى من مملكة طليطلة، موضع الاحتكاك بين الفريقين.

وقد
أشرنا فيما تقدم إلى أن بني ذى النون كانوا خؤولة للمنذر بن يحيى آخر
أمراء
سرقسطة من بني تجيب، وهو الذى احتل سليمان بن هود عرشه، فكان ذلك
عاملا
آخر في اشتداد هذه الخصومة.
ووقعت المعارك بين الطرفين أولا حول مدينة
وادي الحجارة، وقد كانت من أعمال طليطلة، فبعث إليها سليمان بن هود
ولده
أحمد في جيش قوى فنازلها واحتلها، وذلك في سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٤ م) ،
وهرع إليها المأمون بن ذى النون في قواته، ونشبت بين الجيشين معارك هزم
فيها
ابن ذى النون، فارتد في قواته إلى طلبيرة، وابن هود يطارده، ويشدد الضغط
عليه، ولم ينج المأمون من هذا المأزق إلا حينما أمر سليمان ولده أحمد
بتركه وشأنه.
وقد فصلنا فيما تقدم من أخبار مملكة طليطلة حوادث هذا النزاع، وبينا
كيف لجأ المأمون على أثر هزيمته إلى فرناندو الأول ملك قشتالة، فاستغاث
به
واعترف بطاعته، وكيف أمده فرناندو بجنده، فعاثت في أراضي مملكة
سرقسطة
وخربتها، وعندئذ التجأ ابن هود بدوره إلى الاستعانة بملك قشتالة، وبذل له
أموالا وتحفاً جليلة، فبعث فرناندو جنوده فعاثت في أراضي طليطلة حتى
وادي
الحجارة وقلعة النهر (قلعة هنارس) .
ورد المأمون على ذلك بأن التجأ إلى غرسية
ملك نافار واستماله بالأموال الجليلة، فأغار على أراضي مملكة سرقسطة

المجاورة له
ورد ملك قشتالة على ذلك بالإغارة على أراضي طليطلة مرة أخرى.
وهكذا
تفاقمت هذه الحرب الأهلية المدمرة بين ابن هود والمأمون " الأميرين
المشئومين

*(٢٧١/٢)*

على المسلمين " وفقاً لقول ابن حيان، وضج لها سائر أهل الأندلس.
واستمر
ملكا قشتالة، ونافار، يعملان بكل ما وسعا على إذكاء هذه الفتنة، فيغير
الأول على أراضي طليطلة لحساب ابن هود، ويغير الثاني على أراضي
سرقسطة
لحساب ابن ذى النون.
، ولم تخمد هذه المعركة الانتحارية بين الأميرين المسلمين
إلا بوفاة ابن هود وذلك في سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) ، وذلك كله حسبما
فصلناه
من قبل (١) .
وقسم سليمان بن هود قبيل وفاته أعمال مملكته بين أولاده الخمسة، فاختص
أحمد بولاية سرقسطة عاصمة المملكة، ويوسف بولاية لاردة، ولب بولاية
وشقة، والمنذر بولاية تُطيلة، ومحمد بولاية قلعة أيوب (٢) ، واستقل كل بحكم
مدينته
وأعمالها.
بيد أن تقسيم المملكة على هذا النحو لم يكن عملا سليماً، وكان بالعكس
نذيراً بالخلاف والحرب الأهلية.
وكان أحمد صاحب سرقسطة وهو الملقب
بالمقتدر من بين إخوته الخمسة أشدهم أطماعاً، وأنشطهم سعياً إلى انتزاع ما

فى
أيديهم.
وقد استطاع بالفعل أن يحتال على ثلاثة من أخوته بالوعيد والختل، وهم
ْلب صاحب وشقة، والمنذر صاحب تُطيلة، ومحمد صاحب قلعة أيوب، وأن
يستولى على مدنهم، ثم سجنهم، وبلغت به القسوة أن سمل أعينهم.
بيد أن
أخاه يوسف صاحب لاردة، وهو الملقب بحسام الدولة وبالمظفر، كان له نداً،
وكان بطلا شهماً، وهو الذى استطاع وحده أن يقف في سبيل أطماعه، وأن
يحبط محاولاته ودسائسه.
وهنا وقعت الحرب الأهلية بين الأخوين، وكان أهل الثغر حينما رأوا
ما صنعه أحمد بأخوته، وما لجأ إليه من الوسائل الغاشمة في اغتصاب
ولاياتهم، قد سخطوا عليه ونادوا بخلعه، وخرجت معظم القواعد عن طاعته،
وانضمت
إلى أخيه، ولم يتبق له سوى سرقسطة.
فأخذ يرقب فرصة للتنكيل بأخيه، وسنحت هذه الفرصة غير بعيد.
ذلك أن مدينة تطيلة، وهى من القواعد التي
انضمت إلى يوسف المظفر، دهمتها المجاعة والغلاء، فاستغاث به أهلها،
فدعا
أهل الثغور إلى جمع الأطعمة والمؤن، فاجتمع منها قدر عظيم، ورأى يوسف

---

(١) راجع في أدوار تلك المعركة البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٧ - ٢٨٣،
وأعمال الأعلام
ص ١٧٨.
وكذلك Dozy: Histoire V.
III.
p.

٧٥ & ٧٤

(٢) تسمى وشقة بالإسبانية Huesca، وتطيلة Tudela، وقلعة أيوب Calatayud

*(٢٧٢/٢)*

أنه لا يستطيع إرسال هذه الأمداد إلى تطيلة عن طريق سرقسطة خوفاً من غدر
أخيه، ففاوض غرسية ملك نافار، وبعث إليه مالا لكى يسمح بمرور هذه المؤن
عبر أراضيه إلى تطيلة، فأجابه إلى طلبه.
وعلم أحمد بذلك فبعث سراً إلى غرسية، يبذل له ضعف الأموال التي بعثها
إليه أخوه، على أن يمكنه من الفتك بقافلة المؤن
حين مرورها داخل أرضه، فاستجاب الملك النصرانى إلى ذلك الإغراء
الدنيء، وتم ما دبره أحمد.
ذلك أن قافلة المؤن، وكانت تتكون من بضع آلاف من
الجند، وعدد كبير من الخيل والدواب، ما كادت تجوز أراضي نافار، شمالى
شرقى تطيلة، حتى دهمتها قوات أحمد المقتدر التي رتبها بممالأة غرسية،
وفتكت بها، وأبيد معظم رجالها قتلا وأسراً، واستولى النصارى على أسلابهم،
وما كان معهم من المؤن، ولم ينج منهم سوى القليل، وكانت واقعة شنيعة تنبىء
عما كانت تنطوى عليه طبيعة أحمد المقتدر من صفات الغدر والاستهتار. وكان
من أثرها، أن ضعف أمر يوسف، وتوطد سلطان أحمد، واشتد بأسه، وهابه
الناس، واسترد القواعد التي كانت تحت يده (١) .
وكانت ضربة المقتدر التالية، استيلاؤه على ثغر طرطوشة.
وكان هذا

الثغر الذى يعتبر مخرج سرقسطة إلى البحر، اذا استثنينا ثغر طرّكونة الواقع على
حدود إمارة برشلونة، والذى كان من أعمال لاردة، كان منذ عهد الفتنة بيد بعض الفتيان العامريين.
وكان أول من استولى عليها منهم وحكمها لبيب العامرى، وكان حازماً قوى البأس، وحاول المنذر بن يحيى التجيبى أن ينتزعها منه
فاستغاث بمبارك صاحب بلنسية فأمده بجنده، ورد عنها المنذر، ولما توفى مبارك
في سنة ٤٠٨ هـ، خلفه لبيب في حكم بلنسية بدعوة من أهلها، ولما اختلف على
ذلك مع زميله مجاهد العامرى، عاد إلى طرطوشة واستمر في حكمها حتى توفى
في ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) ، فخلفه في الحكم فتى آخر من الصقالبة العامريين يدعى
مقاتل، وتلقب بسيف الملك، واستمر في حكمها حتى وفاته في سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) .
فخلفه الفتى يعلى من موالى العامريين أيضاً، ثم حكمها من بعده الفتى نبيل.
وكان المقتدر بن هود أثناء ذلك ينظر إلى سيطرة أولئك الفتيان
الصقالبة على طرطوشة بعين السخط، ويتحين الفرص لانتزاع هذا الثغر

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٣ و ٢٢٤.



الهام من أعمال مملكته.
وأخيراً سنحت هذه الفرصة، حينما اضطرمت طرطوشة

ضد الفتى نبيل بالثورة وزحف عليها المقتدر في قواته فسلمها إليه نبيل في الحال

وخرج عنها، وانتهت بذلك دولة الفتيان الصقالبة بها (٤٥٢ هـ - ١٠٦٠ م) (١) .

***

على أن أعظم حادث أو بعبارة أخرى أعظم محنة نزلت بالمسلمين في عهد المقتدر بن هود، هو غزو النورمانيين لمدينة بربشتر (٢) ، وفتكهم بأهلها أشنع

وأفظع ما سجلت صحف التاريخ.

وقد دون لنا ابن حيان، وكان يعيش في قرطبة

وقت وقوع هذه المحنة، تفاصيلها بإسهاب، وبعبارات مؤثرة مبكية.

ذلك أن

حملة كبيرة من النورمانيين (أو الأردمانيين في الرواية العربية) تقدرها الرواية بعشرة آلاف فارس، بقيادة جيوم دى مونرى، نزلت بشاطىء قطلونية وسارت نحو الشرق مخترقة أراضي مملكة سرقسطة الشمالية.

وقد اختلفت الرواية فى

تكييف ظروف هذه الحملة وفي مصدر قدومها، وفيمن نظمها وقادها.

بيد

أنه يستخلص من مختلف الروايات الخاصة بها، أنها حشدت في ولاية

نورمانديا

الفرنسية، حيث كان النورمان قد استقروا بها قبل ذلك العصر بموافقة ملك فرنسا، وأن أولئك النورمان خرجوا عندئذ في طلب المغامرة والكسب ومعهم

جموع كبيرة

من الفرسان الفرنسيين.

أما قائد الحملة فهو الفارس جيوم دى مونرى.

وكان

جيوم دى مونرى هذا من أكابر فرسان عصره، وقد وفد قبل ذلك على
إيطاليا في أواسط القرن الحادى عشر، وخدم الكرسى الرسولى حتى أصبح
قائد الجيوش الرومانية والبابوية.
أما بواعث قيادته لهذه الحملة، ولماذا قصدت
إلى شاطىء قطلونية، فمما يحيط به الغموض.
على أنه يبدو من جميع الظروف
أنها كانت من الحملات الناهبة التي تستتر بالصفة الصليبية، والتي تقصد
العيث
والنكاية، والغنم والسبى في أراضي المسلمين أينما كانت.
ويؤيد البحث الحديث
هذه الصفة الصليبية للحملة، ويقول لنا إن الذى دفع إلى إعدادها هو البابا
اسكندر الثاني (٣) .
والرواية الإسلامية صريحة واضحة في أن هذه الحملة قد قدمت

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٠ و ٣٠٢، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣.
وكذلك:
.P
.y Vives: Los Reyes de Taifas ; p
٣٨ & ٣٩
(٢) هى بالإسبانية: Berbastro
(٣) Is.
.de las Cagigas: Los Mozarabes p
٤٥٣

من فرنسا.

فهى تقول لنا " إن الفرنج خرجوا من الأرض الكبيرة (أى فرنسا)
إلى الأندلس في جموع كبيرة ليس لها حد، ولا يحصى لها عدد إلا الله،
وانتشروا
على ثغور سرقسطة " (١) ثم إنه ليس من الواضح أيضاً ما إذا كانت هذه
الحلمة
قد عبرت إلى اسبانيا من طريق جبال البرنيه، أن جازت إلى قطلونية بطريق
البحر.

وعلى أى حال فقد نزل أولئك النورمان في قطلونية واجتازوا إلى أراضي
مملكة سرقسطة، إذ كانت تحمى مؤخرتها أرض نصرانية هى مملكة برشلونة.
وقصدوا أولا إلى مدينة وشقة إحدى قواعد سرقسطة الرئيسية، فنازلوها أياماً،
ولما لم ينالوا منها مأرباً غادروها وساروا شرقاً حتى مدينة بربشتر، وهى لا
تقل
عن وشقة أهمية وحصانة.

وتقع مدينة بربشتر على فرع صغير من أفرع نهر إبره بين مدينتى لاردة
ووشقة، في الشمال الشرقى لسرقسطة، وكانت يومئذ من أمتع القواعد
الإسلامية الشمالية.

فنزل عليها النورمان، وضربوا حولها الحصار، وذلك فى
أوائل سنة ٤٥٦ هـ (ربيع سنة ١٠٦٤ م) .

ولم يبادر المقتدر لإنجاد المدينة
المحصورة، إذ كانت من أعمال أخيه يوسف المظفر، فكان ذلك منه جبناً
ونذالة، أدرك عواقبهما فيما بعد، ولم يستطع يوسف نفسه إنجادها، فتركها
لمصيرها.

واستمر الحصار أربعين يوماً، والمسلمون صامدون داخل مدينتهم
الحصينة، وكانت حاميتها تخرج من آن لآخر، وتخوض مع الأعداء معارك
شديدة، ثم ترتد إلى الداخل.

ولما اشتد الضيق بالمدينة المحصورة، وعزت
الأقوات، وقع الهرج والتنازع بين أهلها، وعلم النورمان بذلك، فشددوا
قبضتهم وضاعفوا جهودهم، واستطاعوا بعد قتال عنيف أن يقتحموا المدينة
الخارجية، واحتلها منهم نحو خمسة آلاف دارع، ودافع المسلمون عن أنفسهم
أشد دفاع، وقتلوا من المهاجمين نحو خمسمائة، ثم تحصنوا بالقصبة والمدينة
الداخلية
معولين على الدفاع عن أنفسهم لآخر لحظة، لولا أن حدث حادث عجل
بوقوع
الكارثة.
ذلك أن القصبة كان يمدها بالماء سرب داخلى تحت الأرض متصل بالنهر،
فوقف النورمان على سره من أحد الخونة فهدموه وألقوا فيه صخرة عظيمة،
وانقطع

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٤.
وراجع أيضاً الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٤٠
حيث يقول لنا في كلامه عن بربشتر: " وقد غزاها على غرة وقلة عدد من
أهلها وعدة، أهل غاليش
والروذمانون ".
وغاليش هى فرنسا، والروذمانون هم النورمان.

(٢/٢٧٥)

الماء عن المحصورين، واشتد بهم الظمأ وبدا لهم شبح الموت جاثماً، فبعثوا
إلى
النورمان يعرضون التسليم على أن يؤمنوا في أنفسهم وأولادهم، وأن يخرجوا
من
المدينة دون مال، فوافق النورمان على ذلك.

وفى رواية أخرى أن النورمان
أبوا ذلك، واضطر المسلمون إلى مدافعتهم، حتى اقتحموا عليهم المدينة.
وعلى
أى حال فقد دخل النورمان المدينة دخول الوحوش المفترسة، وأمعنوا في
أهلها
قتلا وسبياً، ولم يطلقوا منها غير قائدها ابن الطويل، وقاضيها ابن عيسى،
ونفر قليل من الأعيان.
وهنا تبسط الرواية الإسلامية القول فيما ارتكبه النورمان من الفظائع، وتقدر
عدد القتلى والأسرى من أهل المدينة بأربعين ألفاً (١) أو بخمسين ألفاً، بل
بمائة ألف في رواية أخرى، وهلك عدد كبير من النساء، حينما تطارحن
على الماء لإرواء ظمئهن، فكبسهم العدو للأذقان موتاً.
ولما خرجت الجموع من
المدينة في ظل الأمان المقطوع، ورأى قائد النصارى كثرتهم، هاله ذلك،
وخشى
أن تأخذ الجموع الحمية، فيهبوا لاستنقاذ أنفسهم، فأمر ببذل السيف فيهم
ليخف
من أعدادهم، فقتل منهم عندئذ ما يزيد على ستة آلاف.
ومات خلال الزحام
كثير من الشيوخ والأطفال، وتدلى كثير من الأسوار اتقاء الزحمة، وامتنع نحو
سبعمائة
رجل بالقصبة، فمات معظمهم عطشاً.
على أن ذلك لم يكن أشنع ما نزل بالمسلمين
بل كانت تنتظرهم فظائع أخرى لا يخلق ارتكابها إلا بأخس المحاربين
وأنذلهم، ونحن نترك القول هنا لابن حيان، يصف لنا بقلمه البليغ طرفاً من
تلك المناظر
البشعة المؤسية:

" ولما برز جميع من خرج عن المدينة بفناء بابها بعد من خفف منهم بالقتل، وهلك في الزحمة، ظلوا قياماً ذاهلين، منتظرين نزول القضاء فيهم، نودى فيهم بأن يرجع كل ذى دار إلى داره ووطنه بأهله، وأزعجوا لذلك، فنالهم من الازدحام، قريباً مما نالهم في الخروج عنها.

ولما استقروا بالدور مع عيالهم

وذرياتهم، اقتسمهم المشركون، فأمر سلطانهم، فكل من صارت في حصته دار

حازها، وحاز ما فيها من أهل وولد ومال.

فيحكم كل علج منهم فيمن سلط

عليه من أرباب الدور بحسب ما يبتليه الله به منهم، يأخذ كل ما أظهره إليه،

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٤.

*(٢٧٦/٢)*

ويقرره عليه فيما أخفى، ويعذبه أشد العذاب، وربما زهقت نفس المسلم من دون

ذلك فاستراح، وربما أنذره أجله إلى أسوأ من مقامه بذلك.

فإن عداة الله يومئذ، كانوا يتولعون بهتك حرم أسراهم وبناتهم بحضرتهم، وعلى أعينهم إبلاغاً فى

نكايتهم، يغشون الثيب، ويفتضون البكر، وزوج تلك، وأبو هذه، موثق بقيد أسره، ناظر إلى سخنة عينيه، فعينه تدمع، ونفسه يتقطع.

ومن لم يرض

ذلك منهم أن يفعله، أعطى من خوله وغلمانه يعبثون فيهم عبثته، فبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة، والحول والقوة لله العظيم ".

واستولى النصارى على مقادير هائلة من السبى والغنائم، ولاسيما النساء والأطفال.

يقول ابن حيان " زعموا أنه صار لأكبرهم قائد خيل رومة في حصته
نحو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً، ومن أوقار الأمتعة والحلى والكسوة
خمسمائة
جمل " ثم يقول بعد ذلك " ولما عزم ملك الروم (يريد قائد النورمان) على
القفول
يومئذ من بربشتر إلى بلده، تخير من بنات المسلمين الجوارى الأبكار والثيب
ذوات الجمال، ومن صبيانهم الأيفاع، والخود الحسان ألوفاً عدة حملهم معه
ليهديهم إلى من فوقه ".
ويقول لنا صاحب الروض المعطار، إنه قد أهدى من أبكار
الجوارى المسلمين وأهل الحسن منهن إلى صاحب قسطنطينية خمسة آلاف،
ويقدرهن ياقوت بسبعة آلاف " بكر منتخبة " (١) .
وربما كان في تلك الأرقام – أرقام القتلى والأسرى والسبايا – مبالغة.
ولكنها
تدل على أى حال، مع ما اقترن بها من الأعمال الوحشية المروعة التي
وصفها لنا
المؤرخ المعاصر، على فداحة الخطب الذى نزل بأهل بربشتر، وعلى مبلغ
تجرد
أولئك الغزاة النورمان من أبسط الصفات الإنسانية، وهو خطب كان حسبما
يصفه ابن حيان " أعظم من أن يوصف أو يتقصى ".
ولما وصلت أنباؤه إلى قرطبة
في أوائل رمضان (٤٥٦ هـ) ، حيث كان يقيم المؤرخ، وذاعت في مختلف
الأنحاء
اهتزت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها، وسادها الاشمئزاز والروع لتلك
الفظائع والشناعات التي لم يسمع بمثلها.
وقد كانت هذه المحنة مادة خصبة لتأملات ابن حيان، ونظراته النقدية
الصائبة، وإليك من أقواله تلك الفقرة التي تدلى بالنذير والنبوءة الصادقة،

وتفيض

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٤٠.
وراجع معجم البلدان لياقوت تحت كلمة بربشتر.

(٢٧٧/٢)

بالتوجع لأحوال عصره.

قال: " قد استوفينا في شرح هذه الفادحة مصائب
جليلة، مؤذنة بوشك القلعة، طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمن قبلهم
من آثاره.

ولا شك عند أولى الألباب، ما أخفيناه مما دهانا من داء
التقاطع، وقد أخذنا بالتواصل والألفة، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادى
عليه، على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لا محالة، إذ قدر الله زماننا هذا
بالإضافة
إلى ما عهدنا في القرن الذى سلخه من آخر أمد الجماعة، على إدراك ما
لحق الذى
قبله، فمثل دهرنا هذا - لا قدس - بهيم الشبه، ما إن يباهى بعرجه، فضلا
عن نزوح
خيره، قد غربل ضمائرهم، فاحتوى عليهم الجهل، فليسوا في سبيل الرشد
بأتقياء، ولا على معالى الغى بأقوياء.

نشأ من الناس هامل يعللون أنفسهم بالباطل، من أول الدلائل على فرط
جهلهم، اغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية نبيهم،
وغفلتهم عن سد ثغرهم، حتى أطل عدوهم الساعى
لإطفاء نورهم، يتبجح عراص دورهم، ويستقرى بسائط بقاعهم، يقطع كل
يوم طرفاً، ويبيد أمة، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم،
لهاة عن بثهم، ما إن يسمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا،

مذكر
لهم أو داع، فضلا عن نافر إليهم أو ماش لهم، حتى كأنهم ليسوا منا، أو
كأن
فتقهم ليس بمفض إلينا، قد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا بالقناء، عجائب فاتت
التقدير، وعرضت للتغيير، ولله عاقبة الأمور وإليه المصير " (١) .
ولما غادر الغزاة النورمان بربشتر بعد اقتحامها، والفتك بأهلها، والاحتواء
على أموالها، تركوا لحمايتها ألفاً وخمسمائة من الفرسان وألفين من الرجالة،
وقيل بل تركوا ألف فارس وأربعة آلاف راجل، واستقدموا إليها كثيراً من
أهلهم وأقاربهم ومواطنيهم، وساروا عائدين إلى بلادهم، وفي ركبهم ألوف
من سبى المسلمين نساء ورجالا، ومقادير هائلة من الأموال والغنائم المختلفة.
بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى وقعت المعجزة.
وكان صدى النكبة قد نفذ

---

(١) نقلنا هذه الفقرة وما قبلها من أقوال ابن حيان وتفاصيل نكبة بربشتر، عن
الذخيرة
القسم الثالث المخطوط لوحات ٣٤ ب إلى ٣٦ ب.
وراجع في ذلك أيضاً البيان المغرب ومعظمه
أيضاً من أقوال ابن حيان السالفة الذكر ج ٣ عى ٢٢٥ و ٢٢٦، وأعمال
الأعلام ص ١٧١.
وكذلك
.Dozy: Histoire V
.III
.p
.Recherches ; 3eme Ed – ٧٩ & ٧٨
.V
.II

.p
٣٥٣ - ٣٣٥
وهو يترجم أيضاً رواية ابن حيان المشار إليها.

(٢٧٨/٢)

إلى الأعماق، واهتز لها أمراء الأندلس قاطبة، وفي مقدمتهم المقتدر بن هود،
وهو الذى شهدها عن كثب، ولحقه من جرائها أكبر وزر، واتجه إليه أشد
اللوم لتقصيره في إنجاد المدينة المنكوبة والدفاع عنها، وهى من أخص قواعد
ثغره.
واستنفر الناس للجهاد، واجتمع من مختلف بلاد الأندلس عدد جم من
المتطوعة والرماة، ساروا إلى الثغر جهاداً في سبيل الله، وبعث المعتضد بن
عباد
نجدة من خمسمائة فارس، وسار المقتدر بن هود في قواته، وقوات الأمداد
المختلفة إلى بربشتر، وذلك في جمادى الأولى سنة ٤٥٧ هـ (ربيع سنة
١٠٦٥ م)
وضربوا حولها الحصار، وامتنع النصارى داخل المدينة، لما رأوه من كثرة
جموع المسلمين، وعالج المسلمون نقب أسوارها المنيعة العالية تحت حماية
الرماة، ونجحوا في إحداث ثغرة كبيرة فيها، ثم اقتحموا المدينة بشدة، فغادرها
النصارى
من الناحية الأخرى، وحملوا على محلة المسلمين، ونشبت بين الفريقين معركة
شديدة
مزق فيها النصارى وهلك معظمهم، وأسر من كان بالمدينة من أهلهم
وأبنائهم، وتقدر الرواية من قتل منهم بنحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل،
في حين
أنه لم يقتل من المسلمين وفقاً لتقديرها سوى خمسين رجلا وهى مبالغة
واضحة، بيد أنه لم يكن ثمة شك على ضوء الظروف المتقدمة في أن خسائر

النصارى كانت
فادحة، وأن خسائر المسلمين كانت يسيرة، وقيل فوق ذلك إنه حمل من سبايا النصارى إلى سرقسطة نحو خمسة آلاف، كما حمل إليها ألف فرس وعدة وسلاح
وأموال كثيرة.
وكان استرداد بربشتر في الثامن من جمادى الأولى سنة ٤٥٧ هـ، بعد أن احتلها النصارى تسعة أشهر (١) .
وبذلك جبر الصدع، ورفعت
المعرة، وأثلجت صدور المسلمين.
وعلى أثر هذا الفتح الجليل اتخذ بطله ابن هود
لقبه المقتدر بالله (٢) .

* * *

وشغل المقتدر بن هود في الوقت نفسه بسلسلة من الوقائع التي اضطرمت بينه وبين جيرانه النصارى.
وكانت مملكة سرقسطة لوقوعها بين الممالك الإسبانية
النصرانية الثلاث، أراجون ونافار وقشتالة، هدفاً مستمراً لأطماع الملوك

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٤١.
(٢) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ٣٦ ب و ٣٧ أ.
والبيان المغرب ج ٣ ص
٢٢٧ و ٢٢٨.

*(٢٧٩/٢)*

النصارى، يبتزون منها الأموال طوراً باسم الجزية، وطوراً يقتطعون بعض أطرافها.
وفى خلال ذلك، يعمل بنو هود على الاستعانة من آن لآخر بالجند

النصارى، وفقاً لمختلف الظروف والأحوال.
وكان فرناندو الأول ملك قشتالة
في سنة ١٠٦٠ م (٤٥٢ هـ) قد زحف على حدود مملكة سرقسطة الجنوبية الغربية، واقتطع منها حصن غرماج، وبعض حصون أخرى، فاضطر المقتدر أن يذعن
لدفع الجزية.
ولما توفى فرناندو في سنة ١٠٦٥، وخلفه ولده سانشو في ملك
قشتالة، وفي حقوق الجزية على سرقسطة، حاول أن يتدخل في شئون سرقسطة
وبعث إليها بقواته في سنة ١٠٦٧ فحاصرتها، اقتضاء للجزية المطلوبة، وكان
يقود الجيش القشتالى يومئذ الفارس ردريجو دياث أو السيد إلكمبيادور، الذى احتل فيما بعد مكانة بارزة في حوادث شرقى الأندلس، فاضطر المقتدر أن يبعث إليه مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، والأقمشة الفاخرة، أداء للجزية المطلوبة، وأن يبعث برهائنه في الوقت نفسه، وبذا رفع الحصار عن سرقسطة (١) .
وكان المقتدر في الوقت الذى تصفو فيه علائقه مع جيرانه النصارى، يستمد العون منهم في مشاريعه العسكرية، وقد يستمد عون أحدهما على الآخر، كما حدث
في سنة ١٠٦٣ م حينما غزا راميرو الأول ملك أراجون أراضي مملكة سرقسطة، فاستغاث المقتدر بفرناندو ملك قشتالة، فبعث إليه ولده سانشو في بعض قواته، ووقعت بين الفريقين تحت أسوار جرادوس موقعة هزم فيها راميرو وقتل، وكان
ردريجو دياث – السيد فيما بعد – يومئذ من ضباط الجيش القشتالى.
ولما خلص عرش قشتالة لألفونسو السادس بعد مقتل أخيه سانشو، عاد يطالب سرقسطة بالجزية التي كانت لأخيه، وكان يطالب بها في نفس الوقت

سانشو راميرز ملك أراجون ونافار، بعد أن ورث عرش نافار، وكان المقتدر
يؤدى الجزية من قبل إلى سانشو ملك نافار.
وكان يستعين في محاربة أخيه
يوسف المظفر صاحب لاردة بجنود من البشكنس (النافاريين) والقطلان،
واستمرت بينهما المعارك حتى انتهت أخيراً بهزيمة يوسف وأسره.
وقد وقفنا على نص رسالة مخطوطة، كتب بها المقتدر إلى صديقه المعتمد

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٩، وكذلك R.
.M
.Pidal: ibid ; p
١٥٩ & ١٦٠

*(٢/٢٨٠)*

ابن عباد وقد كانت بينهما فيما يبدو من لهجة الرسالة صلات ودية وثيقة - يخبره
فيها بقصته مع أخيه المظفر، ويرميه فيها بالظلم والحسد، ومجانبة العدل
والإنصاف، ويقول إنه حاول أن يسلك معه سبيل المودة والتفاهم، فأبى
واضطر إلى مقاتلته
حتى ظفر به واستولى على قاعدته لاردة وألزمه البقاء في قصبة منتشون. ثم يقول
معتذراً عن مسلكه: " وللنفس يعلم الله مما حملنى عليه ارتماض وإشفاق، ولما يؤثره
الرحم من ذلك إزعاج وإقلاق، إلا أنه لم يوجد إلى غير ذلك سبيلا، ولا جعلنى
إلى سواه محيلا، وكان فيما يأتيه أعق، وبما جره القدر إليه بحكم اعتقاده
أحق " (١)
والظاهر أن الحوادث التي يشير إليها المقتدر في رسالته قد وقعت في سنة

٤٧٢ هـ
(١٠٧٩ م) .
وفى بعض الروايات القشتالية، أن المقتدر بعد أن استولى على
أملاك أخيه أعتقله بقلعة روطة، وهنالك استمر في اعتقاله حتى توفى بعد
ذلك
بثلاثة أعوام (٤٧٥ هـ) ، بيد أنه من الواضح أن الصحيح هو ما يرويه
المقتدر
نفسه في رسالته.
ولما أعيت المقتدر الحيل في إرضاء أولئك الملوك المطالبين بالجزية، انتهى
رأيه إلى الاستعانة بخدمات ذلك الفارس القشتالى، الذى عرفه من قبل بين
ضباط
قشتالة محارباً بارعاً، وهو ردريجو دياث دى بيبار، وكان يومئذ قد ساءت
علائقه مع مليكه ألفونسو السادس وأقصاه عن بلاطه، فخرج يبحث عن
طالعه، وهكذا عقدت العلافة بين " السيد " وبين المقتدر، وكان المقتدر أول
من أولاه
رعايته واستخدمه من الملوك المسلمين، وكان ذلك في سنة ١٠٨٠ م قبيل
وفاة
المقتدر بقليل (٢) .
ويجب أن نذكر هنا أيضاً بين أعمال المقتدر العظيمة، استيلاءه على مملكة
دانية
من صهره، زوج ابنته على إقبال الدولة في سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) حسبما
فصلنا ذلك
من قبل في أخبار مملكة دانية.
وقد غدت مملكة سرقسطة بهذا الفتح الكبير تمتد
إلى شرقى الأندلس، وغدت من أعظم ممالك الطوائف رقعة، بل ربما أعظمها
جميعاً.

وقد مهد لها هذا الامتداد إلى شرقى الأندلس، سبيل التطلع إلى مملكة بلنسية

---

(١) وردت هذه الرسالة في المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال
(لوحة ١١٨ و ١١٩) .
(٢) الذخيرة القسم الثالث - المخطوط - لوحة ١٨ ب.
وكذلك: R.
M Pidal: ibid ؛
p.
٢٨٢ & ٢٨٣

*(٢٨١/٢)*

والتدخل في شئونها، حسبما سبق شرحه في موضعه في أخبار مملكة بلنسية، وتوفى أحمد بن سليمان بن هود المقتدر بالله في سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) من
كَلَب شديد أصابه من عضة كب، بعد أن حكم مملكة سرقسطة خمسة وثلاثين
عاماً، وكان قبيل وفاته قد ارتكب نفس الخطأ الذى ارتكبه أبوه بتقسيم مملكته بين ولديه، فخص ولده الأكبر وهو يوسف المؤتمن بسرقسطة وأعمالها، وخص
ولده الأصغر المنذر بلاردة ومنتشون وطرطوشة ودانية.
ومما هو جدير بالذكر أن مملكة سرقسطة كانت في ظل بني هود، لظروفها المترتبة على وقوعها بين الممالك النصرانية، واضطرارها إلى مهادنتها ومصانعتها، تؤثر سياسة التسامح الدينى، وكان النصارى يعيشون في ظل بني هود، في ظروف
حسنة، ويتمتعون بسائر الحريات الفكرية والدينية، وقد شجع هذا التسامح

الذى
أثر عن بني هود نحو رعاياهم النصارى، راهباً فرنسياً، على أن يكتب إلى المقتدر بن هود رسالة يدعوه فيها إلى اعتناق النصرانية، وبعث رسالته المذكورة
مع راهبين من زملائه ليشرحا للمقتدر تعاليم الدين المسيحى ومزاياه (١) ، فاستقبل المقتدر الرسولين برفق وكياسة، ولم يثر لما تضمنته رسالة الراهب من
جرأة وتهجم صارخ، بل عهد إلى العلامة الفقيه أبي الوليد الباجى، وكان يومئذ
يعيش في سرقسطة في كنفه وتحت رعايته، بأن يكتب عن لسانه إلى الراهب رداً، يفند فيه دعاوى الراهب في رسالته، ويبين ما تنطوى عليه هذه الدعاوى من
بطلان وتناقض.
فكتب الباجى رده المشهور على هذه الرسالة، وهو رد مسهب، يفيض منطقاً وبلاغة، وفيه يفند الباجى مزاعم الدين المسيحى، وألوهية المسيح
وغيرها، بقوة، ويشرح تعاليم الإسلام بوضوح، ويدعو الراهب بالعكس
إلى اعتناق الإسلام، وينوه بمعجزة القرآن وروعته، ويدلل ببراعة على بطلان التعاليم المسيحية وتناقضها.
وكان المقتدر بن هود من أعظم ملوك الطوائف.
ويصفه الحجارى فى
المسهب بأنه " عميد بني هود وعظيمهم، ورئيسهم وكريمهم ".
وكان فضلا عن

---

(١) وردت رسالة الراهب الفرنسى في مخطوط الإسكوريال رقم ٥٣٨ الغزيرى، عقب
رسالة ابن غريسة والرد عليها، ودونت من بعدها رسالة أبي الوليد الباجى في

الرد على الراهب
المذكور، وهو رد طويل يملأ خمس عشرة صفحة، وقد نشر الأستاذ دنلوب
.D
.M
Dunlop
نص الرسالتين في مجلة الأندلس Al - Andalus Vol.
XVII, 1952، وقرنهما بترجمة انجليزية.

(٢٨٢/٢)

مقدرته السياسية والعسكرية التي رأيناها تبدو في كثير من أعماله ومشاريعه، وبالرغم مما كانت تنطوى عليه هذه المشاريع والأعمال أحياناً من صفات سيئة، يتمتع بكثير من الخلال البديعة، فقد كان أميراً عظيماً يحيط نفسه بجو من المهابة
والروعة، وكان بلاطه من أعظم قصور الطوائف وأفخمها، وكان يحيط نفسه بطائفة من أشهر العلماء والكتاب في عصره، ومن هؤلاء العلامة الفقيه أبو الوليد
الباجى، ووزيره أبو المطرف بن الدباغ، ووزيره الكاتب اليهودى المسلم أبو الفضل
ابن حسداى السرقسطى، وكان كلاهما من أعلام عصره في البلاغة والأدب.
بل كان المقتدر نفسه من علماء عصره، وكان يشغف بدراسة الفلسفة والرياضة والفلك، وقد كتب كتباً في الفلسفة والرياضة (١) .
وكان قصر المقتدر
وهو المسمى بقصر " الجعفرية "، نسبة إلى كنيته، وهى " أبو جعفر "، من أعظم
وأفخر القصور الملكية في ذلك العصور، وقد اشتهر في تاريخ الفن الإسلامى باسم

" دار السرور "، وكان أروع ما فيه بهوه الرائع الذى زينت جدرانه بالنقوش والتحف الذهبية البديعة، والذى كان يسمى لذلك بالبهو الذهبى، أو مجلس الذهب.

وفيه يقول منشؤه المقتدر:

قصر السرور ومجلس الذهب..

.

بكما بلغت نهاية الطرب

لو لم يحز ملكى خلافكما..

.

لكان لدى كفاية الأرب

ولما سقطت سرقسطة في يد الإسبان شوهت معالم هذا القصر البديع، وأدخلت

فيه تعديلات وتغييرات عديدة قضت على محاسنه وزخارفه العربية.

وما زالت

بقاياه الدارسة تقوم حتى اليوم في قلب مدينة سرقسطة باسم قصر الجعفرية Palacio Aljaferia، وقد شهدناه خلال زيارتنا لسرقسطة، ولم يبق من بنائه الإسلامى سوى بقية مشوهة من مسجده السابق.

وكان المقتدر فوق شغفه بالعلوم، أديباً ينظم الشعر، وقد نسب إليه الحجارى صاحب المسهب قوله:

لست لدى خالقى وجيهاً..

.

هذا مدى دهرى واعتقادى

لو كنت وَجْهاً لما برانى..

.

في عالم الكون والفساد (٢)

---

(١) Dozy: Histoire ; Vol.

III.

p.

١٦٣ - R.

M.

Pidal: ibid, p.

٢٨٢

(٢) راجع المغرب في حلى المغرب (القاهرة) ج ١ ص ٤٣٧.

(٢٨٣/٢)

الفصل الثاني

مملكة سرقسطة

منذ عصر المؤتمن حتى سقوطها في أيدى المرابطين

الصراع بين المؤتمن والمنذر.

معركة قلعة المنار.

حاكم روطة وكمينه للنصارى.

موقف السيد

الكمبيادور.

تحالف المنذر وسانشو راميرز.

السيد ونفوذه لدى المؤتمن.

حملة ابن بسام على بني هود.

وفاة المؤتمن.

صفاته العلمية.

ولده أحمد المستعين.

مسير ألفونسو السادس إلى سرقسطة ومحاصرته

إياها.

يرفع الحصار عند مقدم المرابطين.

حروب المستعين.

تطلعه إلى امتلاك بلنسية وفشل مشروعه.

الخطر على مملكة سرقسطة.

استيلاء ملك أراجون على منتشون.

تهديده لوشقة.

اتجاه المستعين إلى

الاستنجاد بالمرابطين.

سفارته لأمير المسلمين.

استعانته بملك قشتالة.

محاصرة سانشو راميرز

لوشقة.

وفاته ومتابعة ولده بيدرو للحصار.

مسير المستعين وحلفاؤه لإنجادها.

موقعة الكرازة.

هزيمة المستعين وسقوط وشقة.

إستيلاء المرابطين على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية.

استيلاؤهم

على شرقي الأندلس.

استنصار المستعين بالسيد.

انشغال السيد في بلنسية.

إتجاه المستعين إلى

المرابطين.

سفارته الثانية لأمير المسلمين.

وفاة بيدرو ملك أراجون وقيام أخيه ألفونسو مكانه.

مسيره إلى تطيلة.

مسير المستعين لإنجادها.
سقوط تطيلة ومقتل المستعين.
ولده عبد الملك عماد الدولة.
دعوة أهل سرقسطة أمير المسلمين لخلع بني هود.
استصراخ عماد الدولة لأمير المسلمين.
زحف
المرابطين على سرقسطة واستيلاؤهم عليها.
انتهاء حكم بني هود.
التجاء عماد الدولة إلى حصن روطة.
خضوعه لحماية ملك أراجون.
ولده سيف الدولة.
نزوله عن روطة لألفونسو ريمونديز.
سرقسطة
أيام بني هود.
اشتهارها بالدراسات الرياضية والفلسفية.
ابن باجة وحياته العلمية.
أبو بكر الطرطوشى
وكتابه سراج الملوك.
نظريته في عصبية الدولة ورد ابن خلدون عليها.
سرقسطة ومساهمتها في الحركة
الأدبية.
دورها في التبادل الحضارى والثقافى.
دورها في التبادل التجارى.
عادت الحرب الأهلية القديمة التي اضطرمت من قبل بين المقتدر وإخوته الأربعة من جراء تقسيم المملكة، تضطرم من جديد بين يوسف المؤتمن صاحب

سرقسطة، وأخيه الحاجب المنذر صاحب لاردة.
وقد استعان كلا الأخوين في تلك الحرب الانتحارية بالنصارى، فكان
المؤتمن يستعين بصديق أبيه وحليفه من قبل " السيد "، وجيشه من المرتزقة
القشتاليين، وكان المنذر وهو منذ البداية من ألد أعداء السيد، يستعين بسانشو
راميرز ملك
أراجون، ورامون برنجير أمير برشلونة.

(٢٨٤/٢)

ووقعت أول معركة بين قوات الأخوين عند قلعة المنار على مقربة من لاردة،
وكان المؤتمن قد حصن هذه القلعة، وشحنها بالمقاتلة، ولما شعر أخوه المنذر
بخطرها على أملاكه سار في قوة مشتركة من حلفائه، أمير برشلونة وبعض
صغار
الأمراء الإفرنج في شمال قطلونية، وحاصر هذه القلعة، فسار المؤتمن والسيد
في قواتهما لإنجادها، ووقعت بين الفريقين معركة هزم فيها المنذر، وأسر
أمير
برشلونة رامون برنجير (١٠٨٢ م) .
ووقع في ذلك الحين حادث كاد يقطع السيد من جرائه علائقه ببلاط
سرقسطة،
ذلك أن حاكم قلعة روطة التي كان معتقلا بها المظفر، اعتزم الخروج والثورة
بالتفاهم مع سجينه، وأرسل إلى ألفونسو ملك قشتالة يطلب عونه ويعده بتسليم
القلعة، فسار ألفونسو إلى روطة في بعض قواته، وكان المظفر قد توفى
عندئذ
فجأة، فعدل الحاكم عن مشروعه واعتزم أمراً آخر، وبعث ألفونسو بعض
أكابر ضباطه، وعلى رأسهم الإنفانت راميرو أمير نافار لتسلم القلعة، وما
كادوا
يجوزون إلى الداخل، حتى انهال عليهم وابل من الصخور، فقتلوا جميعاً

(١٠٨٢ م)
وعاد ألفونسو، وهو يضطرم أسى وتحرقاً إلى الانتقام.
وكان السيد عندئذ في تطيلة، فلما وقف على هذا الحادث المحزن، هرع فى صحبه إلى ألفونسو يقدم عزاءه، ويلتمس العفو، والإذن بالعود، فعفا عنه الملك
وصحبه معه إلى قشتالة.
ولكن مقامه بها لم يطل.
ذلك أن ألفونسو عادت إليه
هواجسه القديمة نحو السيد، وشعر السيد بتغيره عليه، فغادر قشتالة وعاد إلى سرقسطة، واستقبله المؤتمن بترحاب ومودة.
ويحاول الأستاذ بيدال أن يستدل
بتصرف السيد في هذا الحادث على أنه لم يكن في خدماته لبلاط سرقسطة جندياً
أجيراً، وإنما كانت هذه الخدمات بالعكس نوعاً من السياسة والتدخل على الطريقة القشتالية (١) .
وعاد السيد إلى مهمته القديمة في محاربة أعداء المؤتمن، وخرج مع المؤتمن في قواته، وعاثا في أراضي أراجون، ثم عادا إلى حصن مونتشون.
ورد
سانشو راميرز ملك أراجون على ذلك بالاستيلاء على جرادوس.
وغيرها من حصون
الحدود (ابريل ١٠٨٣ م) .
ثم تحالف المنذر أخو المؤتمن مع سانشو راميرز،

---

(١) R.
M.

.Pidal: ibid ; p
290

(285/2)

وسارا في قواتهما لمحاربة السيد، والتقى الفريقان في أحواز موريلا على مقربة من طرطوشة، فهزم المنذر وحليفه، واستولى السيد على معسكرهما، وعلى كثير
من الأسرى.

واستقبل السيد عند عوده المظفر إلى سرقسطة أجمل استقبال.

وعلا شأن السيد في بلاط سرقسطة، وتوطدت مكانته، واشتد نفوذه على المؤتمن.

فكان لا يبرم أمراً من أعمال الحرب أو السياسة دون مشاورته، وغدا بجيشه الصغير قوة يحسب حسابها، بل غدا كأنه يفرض بحلفه ومعاونته على سرقسطة
نوعاً من الحماية.

وقد أشرنا فيما تقدم من أخبار مملكة بلنسية إلى هذه المكانة الممتازة التي أحرزها السيد في بلاط سرقسطة، وإلى الحملة اللاذعة التي شهرها ابن بسام
من أجل ذلك على بني هود (1) ، كما أشرنا إلى ما كان يجيش به المؤتمن من الأطماع
نحو مملكة بلنسية، وما قدمه من المال إلى ملك قشتالة لأجل معاونته في هذا المشروع
وكيف استطاع أبو بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية بلباقته أن يحبط هذا المشروع
وأن يعقد صلات الود والمصاهرة مع المؤتمن بتزويج ابنته من ولد المؤتمن، أحمد المستعين.

ولم يدم حكم المؤتمن أكثر من أربعة أعوام، إذ توفى في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) .

وكانت وفاته السريعة ضربة قاضية لمشاريعه، فخلفه في حكم سرقسطة وأعمالها، ولده أحمد، وتلقب بالمستعين، وبقى الشق الآخر من مملكة سرقسطة بيد عمه المنذر.

وقد اشتهر يوسف المؤتمن بصفاته العلمية، أكثر من اشتهاره بصفاته الملوكية فكان مثل أبيه المقتدر عالماً رياضياً، وفلكياً ممتازاً، وكتب في العلوم الرياضية، رسالته المسماة " الإستكمال " (٢) ، التي ترجمت إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادى، والتي توصف بأنها ترتفع من حيث قيمتها العلمية إلى مستوى إقليدس والمجسطى.

بيد أن هذه الرسالة الملوكية لم تصل إلينا مع الأسف بأصلها العربى.

خلف المؤتمن ولده أحمد المستعين، ويعرف بالمستعين الأصغر.

وما كاد يبدأ حكمه حتى ألفى نفسه أمام حدث خطير.

ذلك أن ألفونسو السادس ما كاد ينتهى من الاستيلاء على طليطلة وتنظيم شئونها، وذلك في صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو ١٠٨٥ م)

---

(١) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ١٨ ب.

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣.

حتى اعتزم العمل لانتزاع سرقسطة، فسار إليها في قواته، وضرب حولها الحصار، وأقسم أنه لن يبرحها حتى تؤول إليه أو يموت.

وحاول المستعين

أن يرده عن عزمه، وأن يقنعه برفع الحصار، فعرض عليه أموالا جليلة فرفض

ألفونسو، وأصر على أخذ المدينة (١) ، وأذاع عماله في سكان الأراضي المجاورة

أنه سوف يطبق أحكام القرآن، ولن يقتضى منهم الضرائب إلا ما يجيزه الشرع، وأنهم سوف يكونون مثل إخوانهم مسلمى طليطلة موضع عنايته ورعايته.

واستمر ألفونسو على حصار سرقسطة حتى جاءته الأنباء في أواخر صيف ١٠٨٦ م،

(أوائل ٤٧٩ هـ) بمقدم المرابطين، وأنهم عبروا إلى الأندلس، فحاول عندئذ خديعة المستعين، معتقداً أنه لم يعلم بالنبأ العظيم، وبعث إليه يقول إنه يقبل الجزية

التي عرضها، فأجاب المستعين، وكان على علم به، أنه لن يدفع إليه درهماً واحداً (٢) .

وعندئذ اضطر ألفونسو أن يرفع الحصار، وأن يهرع في قواته إلى الجنوب، بعد أن بعث بصريخه إلى أمراء الثغر النصارى ليلحقوا به في قواتهم.

ثم كانت واقعة الزلاّقة، وهزيمة ألفونسو الساحقة، أمام القوات المرابطية والأندلسية المتحدة في رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر ١٠٨٦) ، فضعف أمر قشتالة

والملوك النصارى، وانصرف المستعين حيناً إلى محاربة عمه المنذر صاحب لاردة

ودانية طوراً، ومحاربة ملك أراجون طوراً آخر.
بيد أنه لم يظفر من وراء هذه
المعارك بطائل، وكانت الهزيمة نصيبه في معظم الأحيان.
وأخذ المستعين بعد ذلك يتطلع إلى الاستيلاء على بلنسية، منافساً في ذلك
لعمه
المنذر.
وقد فصلنا فيما تقدم من أخبار بلنسية مشاريع المستعين ومحاولاته فى
هذا السبيل، ومغامرات حليفه " السيد "، وكيف تظاهر في البداية بمعاونته
على
تحقيق مشروعه، ثم أضناه بعد ذلك بمخادعاته وأساليب غدره، وكيف حاول
بعد ذلك أن يستعين بمحالفة برنجيركونت برشلونة على محاصرة بلنسية
وأخذها،
وقد فشلت أيضاً هذه المحاولة، وانتهى الأمر بأن غدا السيد وحده هو
المسيطر
على هذا الميدان، وهو المستأثر بتتبع الحوادث في بلنسية، وترقب فرص
الاستيلاء
عليها، كل ذلك حسبما فصلناه من قبل تفصيلا شافياً.

---

(١) روض القرطاس ص ٩٣.
(٢) R.
M.
Pidal: ibid ; p.
٣٣١

وما كاد المستعين ينتهى من هذه المشاريع الفاشلة، حتى بدا الخطر على
مملكة
سرقسطة داهماً من ناحيتين: ناحية جيرانها النصارى من الشمال، وناحية
المرابطين
من الجنوب.
فأما عن الشمال، فقد بدأ سانشو راميرز ملك أراجون بالاستيلاء
على منتشون في سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ، واضطر المستعين عندئذ أن
ينضوى
تحت حماية ألفونسو ملك قشتالة، وأن يتعهد بأداء الجزية التي أباها من قبل.
ولم تمض بضعة أعوام على ذلك حتى بدت مشاريع ملك أراجون أكثر
خطورة.
وذلك أنه قصد إلى مدينة وشقة، وهى ثانى مدينة في مملكة سرقسطة، وابتنى
إزاءها حصناً، وكان من الواضح أنه يبغى الاستيلاء على هذه المدينة
الهامة.
والظاهر أن المستعين قد أدرك عندئذ أن الاعتماد على معاونة النصارى لا
يحقق له
ما يطمح إليه من السلامة، ورأى أن الاتجاه إلى معاونة المرابطين وهم أبناء
دينه
قد يغدو أنجع، ولو أنه كان يتوجس من نياتهم ومشاريعهم نحو سرقسطة.
ومن
ثم فقد أرسل ولده عبد الملك إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بالمغرب
ومعه
هدية جليلة، وبعث إليه يطلب العون والإنجاد على مدافعة النصارى، وإنقاذ
وشقة، وهى جناح سرقسطة الدفاعى، ودرعها من الشمال.
والظاهر أن
أمير المسلمين قد أدرك من جانبه أهمية الاستجابة لصريخ المستعين، ومنعه

بذلك
من الارتماء في أحضان النصارى ومحالفتهم في النهاية ضد المرابطين،
وأدرك فى
نفس الوقت حكمة الإبقاء على سرقسطة وإنجادها لتبقى بذلك حاجزاً بين
المرابطين
وبين النصارى، فاستقبل عبد الملك بترحاب، وصرفه صرفاً جميلا، ورد على
المستعين بخطاب رقيق، وبعث إلى ولاته في شرقى الأندلس بإرسال المدد
المنشود، وكان يتألف من ألف فارس وستة آلاف راجل من المرابطين.
ولم ير
المستعين في نفس الوقت بأساً من الاستعانة بملك قشتالة، فأمده بفرقة من
جنده
بقيادة الكونت غرسية أردونس الذى تجاور ولايته مملكة سرقسطة.
وفى تلك الأثناء كان سانشو راميرز قد سار إلى مدينة وشقة وضرب حولها
الحصار، مصمماً على ألا يبرحها حتى تسقط في يده.
وكانت وشقة من أمنع
قلاع الثغر الأعلى، فصمدت للحصار بعزم وشدة، ثم توفي سانشو راميرز
فجأة، وذلك في شهر يونيه سنة ١٠٩٤ م (جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ) ،
فاستمر
في متابعة الحصار ولده بيدرو الأول.
وتوالت الأشهر، ووشقة صامدة كالصخرة.

(٢٨٨/٢)

وبعث أهل وشقة في نفس الوقت بصريخهم إلى ملكهم أحمد بن هود
المستعين،
فجهز حشوداً عظيمة، وأعد لها قوافل الميرة الضخمة، وأمده حليفه ملك
قشتالة بفرقة من الجند النصارى فسار المستعين في قواته حتى اقترب من

وشقة،
وكان يظن أن العدو متى رأى حشوده، وآنس وفرتها وحسن استعدادها، يعمد إلى المهادنة ويترك المدينة المحصورة وشأنها، ولكن بيدرو عول بالعكس على
خوض المعركة، فترك الحصار، وسار في قواته لملاقاة المسلمين، ونشبت بين
الفريقين معركة عنيفة، في " الكرازة " الواقعة على مقربة من وشقة، استمرت من طلوع الشمس إلى غروبها، واشتد فيها الطعان من الجانبين، وكثر القتل بين
المسلمين وحلفائهم، وهزم المستعين في النهاية هزيمة شديدة.
وقتل من المسلمين
عدد جم تقدره الرواية باثنتى عشر ألفاً أو نحوها، وكان بين القتلى غرسية أردونس
قائد جند قشتالة، وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه المعركة في يوم الأربعاء أواخر ذى القعدة سنة ٤٨٩ هـ، وتضع الرواية النصرانية هذا التاريخ في ١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٦ م، وهو يوافق بالفعل شهر ذى القعدة، الذى تحدده الرواية
الإسلامية.
وتقول الرواية الإسلامية، إن أهل وشقة لما عاينوا هزيمة المسلمين،
يئسوا من النصرة، والإنقاذ، لم تمض على ذلك ثلاثة أيام حتى حصلوا على الأمان.
وسلمت وشقة للنصارى بعد حصار دام ثلاثين شهراً، ودخلها بيدرو
في موكبه الظافر، وفئ الحال صير مسجدها الجامع كنيسة، وجعلها عاصمة لمملكة أراجون (١) .
هذا عن حوادث الشمال، وأما عن حوادث الجنوب، فقد عبر أمير
المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية في سنة ٤٨١ هـ

(١٠٨٨ م)
وقام بالاشتراك مع قوات الأندلس بمحاصرة حصن لييط، وانتهى بالاستيلاء
عليه.
ثم عاد فعبر إلى الأندلس للمرة الثالثة في سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، وفي
تلك
المرة استولى على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية، غرناطة، وإشبيلية،
وألمرية، ثم

---

(١) نقلنا أقوال الرواية الإسلامية عن معركة وشقة من أوراق مخطوطة من
البيان المغرب
عثرنا بها في خزانة القرويين بفاس.
وراجع في حوادث سقوط وشقة وما تقدمها: أعمال الأعلام
ص ١٧٣، والحلل الموشية ص ٥٣ - ٥٥، وتاريخ المرابطين والموحدين
لأشباخ وترجمة محمد
عبد الله عنان (ص ١٠٤ و ١٠٥) وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣.
وراجع أيضاً: P.
y Vives
.Los Reyes de Taifas p
٤٩ و R.
.M
.Pidal: ibid, p
٥٢٦ & ٥٢٧

(٢٨٩/٢)

بطليوس، واستولت الجنود المرابطية كذلك على مرسية، وأوريولة، كل ذلك
فيما

بين سنتى ٤٨٤ و ٤٨٨ هـ.
وفى أثناء ذلك كان المنذر بن هود صاحب لاردة ودانية،
قد توفى في سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م، وخلفه في الملك ولده الطفل سليمان الملقب
بسعد الدولة، تحت وصاية بني بيطر وهى أسرة قوية ذات نفوذ.
وفى سنة ٤٨٥ هـ
(١٠٩٢ م) سار جيش مرابطي بقيادة الأمير ابن عائشة، واستولى على دانية،
وشاطبة وشقورة.
والظاهر أنه استولى أيضاً على طرطوشة ولاردة بعد ذلك بقليل.
وهنا شعر المستعين بخطر المرابطين الداهم على مملكته، فاتجه إلى حليفه القديم
السيد إلكمبيادور، واستغاث به، وكان السيد قد غدا يومئذ قوة يحسب حسابها
في شرقى الأندلس، وأضحى من جانبه يشعر بنفس الخطر.
أى خطر المرابطين
على مركزه في تلك المنطقة.
فاستجاب إلى دعوة المستعين، وعقد بينهما حلف
جديد، وسار السيد بقواته إلى سرقسطة، وعسكر على ضفة النهر الأخرى،
وهنالك عقد حلفاً آخر مع ملكى أراجون ونافار.
وكان الغرض من عقد هذه
المحالفات كلها، التعاون لدفع خطر المرابطين عن هذا الركن من شبه الجزيرة.
ونحن نعرف أن السيد قد عاد بعد ذلك إلى الجنوب، واستمر في مغامراته
في منطقة بلنسية، حتى تم له الاستيلاء عليها في جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (يونيه
١٠٩٤ م) ، وأن الجيوش المرابطية لبثت تتحين الفرص لاسترداد هذا الثغر

الإسلامى العظيم، حتى تم لها تحقيق مشروعها، ودخلت بلنسية بقيادة الأمير
أبى محمد المزدلى في شعبان سنة ٤٩٥ هـ (مايو سنة ١١٠٢ م) .
وكانت حوادث الشمال قد تطورت في تلك الأثناء، وظهرت نيات سانشو
راميرز ملك أراجون واضحة نحو القضاء على مملكة سرقسطة، وبدأ حصاره
لمدينة
وشقة، وكان المستعين من جهة أخرى قد أدرك أنه لا يستطيع الاعتماد على
محالفة
السيد وعونه، ولاسيما بعد استيلائه على بلنسية، وانشغاله بالمحافظة عليها،
والدفاع عنها، فاتجه إلى المرابطين، وبعث ولده عبد الملك إلى المغرب
يطلب
العون من أمير المسلمين، حسبما فصلنا من قبل.
وقد رأينا كيف هزم المستعين
وسقطت وشقة بالرغم مما تلقاه المستعين من عون حلفائه.
يقول ابن عذارى، إنه على أثر سقوط مدينة وشقة " سما بصر العدو إلى
منازلة سرقسطة، حضرة ابن هود، فخاطب الطاغية، أذفونش بن فرذلند

(٢٩٠/٢)

(ألفونسو السادس) فواطأه على منازلتها، فنزل عليها في جموع لا ترام، وجعل
صاحبها يصعد ويصوب في إعمال الحيلة، وتجنيب تلك الجماعة، ورام
تخذيل
الأذفونش، فأرغبه في المال فأبى وأقسم ألا يبرح عنها حتى يدخلها " (١) .
ولكنا
لم نجد في الرواية النصرانية ما يؤيد أن ملك قشتالة قام في هذا التاريخ (سنة
١٠٩٧ م - ٤٩٠ هـ) بمهاجمة سرقسطة أو حصارها.
والواقع أن المستعين أخذ يشعر من ذلك الحين بأن مصير سرقسطة، قد
أضحى

رهناً بخطط المرابطين وغاياتهم، ولاسيما بعد أن أصبحوا على مقربة من
أراضيه،
ومن ثم فقد رأى في النهاية أن يستبقى مودتهم، وأن يستمر في التقرب
منهم،
والتماس عونهم وحمايتهم.
وفى سبيل هذه الغاية بعث ابنه عبد الملك إلى أمير المسلمين
مرة أخرى (٤٩٦ هـ) ، ومعه هدية جليلة من جملتها أربعة عشر ربعاً من
آنية
الفضة.
وكان أمير المسلمين يومئذ بقرطبة، يعد العدة لإعلان البيعة لولده على
بولاية عهده.
فقبل الهدية، وأمر بأن تضرب هذه الآنية الفضية قراريط مرابطية،
فرقت في أطباق على رؤساء قومه ليلة عيد الأضحى، وحضر عبد الملك
حفل
البيعة، ثم عاد إلى سرقسطة (٢) .
وشعر المستعين بشيء من الطمأنينة، واعتزم أن يخصص جهوده لمقارعة
ملك أراجون ومشاريعه العدوانية، وكان بيدرو ملك أراجون قد توفى يومئذ
وخلفه في الملك أخوه ألفونسو الذى عرف فيما بعد بالمحارب.
وهو الذى تسميه
الرواية الإسلامية " بابن رذمير ".
وكان أميراً مقداماً شديد البأس، ولم يكن قد بقى
من قواعد مملكة سرقسطة الهامة بعد وشقة، سوى مدينة تطيلة، فسار إليها
فى
قواته، وخف المستعين لإنجادها.
ووقعت بين الفريقين معركة شديدة عند بلد
تدعى بلتيرة (فالتيرا) ، فهزم المسلمون، وقتل المستعين، وذلك في رجب

سنة ٥٠٣ هـ (يناير سنة ١١١٠ م) (٣) .

---

(١) هذا ما ورد في الأوراق المخطوطة من البيان المغرب التي سبقت الإشارة إليها.

(٢) ابن الأبار في الحلة السيراء (دوزى) ص ٢٢٥، والقاهرة ج ٢ ص ٢٤٩، وأعمال الأعلام ص ١٧٤.

(٣) تاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ ص ١٤٠؛ وكذلك P. y Vives: Los Reyes de Taifas p. ٤٩.

ويورد ابن الخطيب هذه الواقعة بصورة أخرى فيقول لنا إن المستعين خرج إلى الجهاد في سنة ٥٠١ هـ، وتوغل حتى تطيلة وأرنيط (أرنيدو) وافتتحها، ثم أدركه النصارى عند العودة وهاجموه بشدة، فهزم وقتل (أعمال الأعلام ص ١٧٤) .

(٢٩١/٢)

فخلفه ولده عبد الملك وتلقب بعماد الدولة، وبايعه أهل سرقسطة على شرط أن يترك محالفة النصارى، وأم يخرجهم من جيشه، وتعهد لهم عبد الملك بتحقيق رغبتهم، ولكنه لم ينفذ وعده.

وكانت الحوادث تسير عندئذ بسرعة، وحسن الطالع يؤاتى المرابطين تباعاً، ولاسيما مذ أحرزوا نصرهم الحاسم بقيادة الأمير تميم ابن يوسف بن تاشفين على جيوش قشتالة في موقعة إقليش في سنة ٥٠١ هـ

(١١٠٨ م) ، وهى الموقعة التي أبيدت فيها القوات القشتالية، وقتل الإنفانت الطفل سانشو ولد ألفونسو السادس من حظيته زائدة الأندلسية.

ولما رأى أهل
سرقسطة أن أميرهم عماد الدولة لا يستجيب إلى شروطهم بتسريح قواته من النصارى، كتبوا إلى أمير المسلمين على بن تاشفين، وهو في مراكش، يناشدونه
خلع بني هود، وتسلم سرقسطة، فاستفتى على فقهاءه، فأفتوه بوجوب تحقيق هذه الرغبة، وبعث إلى قائده محمد بن الحاج والى بلنسية، أن يسير إلى سرقسطة.

ولما علم عماد الدولة بذلك، أرسل إلى أمير المسلمين خطاباً مؤثراً يستصرخه فيه،
ويذكره بما كان بين والديهما من أواصر المودة، وأنه لم يصدر منه في حقه أية
إساءة، وأنه من الخير أن يترك سرقسطة على حالها حاجراً بينه وبين النصارى،
فرق على لملتمسه، وكتب إلى قائده أن يكف عنه (١) .

ولكن الأمر كان قد قضى
عندئذ.

ذلك أن عماد الدولة لما شعر بمقدم المرابطين، غادر سرقسطة في أهله وأمواله إلى حصن روطة المنيع، واستقر به ينتظر الحوادث (٢) .

وفى رواية
أخرى أن ابن الحاج حينما زحف على سرقسطة، تأهب عبد الملك لمقاومته، واستنصر بألفونسو ملك أراجون، وأنه وقع بين الفريقين قتال هزم فيه ابن الحاج
وقتل، ثم إن أهل سرقسطة أخرجوا عبد الملك، واستدعوا عامل أمير المسلمين،

فاستولى على سرقسطة وذلك في أواخر سنة ٥٠٣ هـ (٣) .
وفى روض القرطاس
أن ابن الحاج سار من بلنسية إلى سرقسطة، ودخلها في سنة ٥٠٢ هـ.
وأخرج منها
بنى هود وملكها (٤) .

---

(١) الحلل الموشية ص ٧٢.
(٢) راجع: Dozy: Histoire, Vol.
III.
p.
١٥٤
(٣) ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ١٧٥.
(٤) روض القرطاس ص ١٠٤.

*(٢٩٢/٢)*

وهكذا انتهى حكم بني هود في سرقسطة، بعد أن دانت لحكمهم أكثر من سبعين عاماً، منذ انتزع عميدهم ومؤسس دولتهم سليمان بن هود الحكم من آل
تجيب في سنة ٤٣٠ هـ.
وقد عاشت ولاية سرقسطة أو الثغر الأعلى في الواقع،
كوحدة سياسية وعسكرية مستقلة عن الحكومة المركزية أكثر من قرنين، إذا احتسبنا عهد بني تجيب بها.
وهكذا كانت سرقسطة آخر دولة من دول الطوائف
تسقط في أيدى المرابطين.
وتاريخها في الأعوام القليلة القادمة حتى سقوطها فى
يد ألفونسو الأول ملك أراجون في سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) يرتبط بتاريخ

المرابطين.
على أن سقوط سرقسطة، لم يكن آخر العهد ببنى هود.
ذلك أن عماد الدولة
عبد الملك بن المستعين، استقر بقاعدة روطة الحصينة (١) ، الواقعة على
نهر خالون
أحد أفرع إبرُه " الإيبرو " الجنوبية.
وكان بنو هود قد أعدوا هذه القاعدة
وحصنوها، وزودوها بالأبنية الفخمة، لتكون لهم عند الضرورة ملجأ ومثوى،
كلما نزلت بهم نازلة.
واستمر عماد الدولة مقيماً بروطة، وهو يشهد الصراع
المضطرم بين المرابطين والنصارى حول امتلاك سرقسطة.
فلما سقطت في يد
النصارى وضع نفسه تحت حماية سيدها الجديد ألفونسو ملك أراجون (ابن
رذمير)
واستمر على حاله، حتى توفى بروطة في شعبان سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) .
فخلفه
في الإمارة ولده أبو جعفر أحمد بن عبد الملك وتلقب بسيف الدولة
المستنصر بالله،
وكذلك بالمستعين بالله، واستمر في حكمه لروطة، وما حولها من الحصون
والأراضي، حتى حمله ألفونسو ريمونديز ملك قشتالة، وهو الذى تعرفه الرواية
الإسلامية بأدفونش بن رمند وبالسليطين، على التنازل عنها، وعوضه عنها
بقسم
من مدينة طليطلة، نزل فيه بأهله وأمواله، أو ببعض أملاك بجوار طليطلة
أقطعه
إياها، وذلك في سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) (٢) ، وهى حوادث نستوفيها فيما
بعد

في تاريخ المرابطين في شبه الجزيرة.

* * *

---

(١) هى بالإسبانية Rueda

(٢) هذه هى رواية ابن الأبار في الحلة السيراء، ص ٢٢٥.

وراجع ابن خلدون ج ٤

ص ١٦٣، وروايته مضطربة تنقصها الدقة سواء في الوقائع أو التواريخ.

ويضع ابن الأثير تاريخ

تسليم المستنصر بالله حصن روطة في سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) (ج ١١

ص ١٣) .

راجع كذلك:

.P

.y Vives: ibid ; p

٥٠

(٢٩٣/٢)

وقد كانت سرقسطة في عهد بني هود، كما كانت إشبيلية في عهد بني عباد، مركزاً لحركة علمية وأدبية زاهرة، وكان بنو هود من حماة العلوم والآداب، وقد نبغ بعضهم في ميدان التفكير، ولاسيما أبو جعفر المقتدر، وولده يوسف المؤتمن، وقد كان كلاهما من أكابر علماء عصره، في الفلسفة والرياضة والفلك،

حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل.

وقد اشتهرت سرقسطة في هذا العصر بنوع

خاص، أعنى في القرن الحادى عشر الميلادى بالدراسات الفلسفية والرياضية.

وكان من أعلام أبنائها في هذا العصر، فيلسوف من أعظم فلاسفة الإسلام

وعلمائه،
هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة، والذى يعرف في الغرب
باسمه اللاتينى Avempace.
وقد نشأ ابن باجة في أواخر القرن الحادى عشر
بسرقسطة ودرس بها، وعاش فيها حتى مطلع شبابه قبل أن تسقط في أيدى الإسبان
ونبغ في الرياضة والفلك والطبيعة والفلسفة، هذا فضلا عن براعته في الشعر والأدب.
ولما ولى الأمير أبو بكر بن إبراهيم اللمتونى حكم سرقسطة من قبل المرابطين،
ندب ابن باجة لوزارته، واختص به، وأغدق عليه عطفه ورعايته، بالرغم
مما كان يرمى به الفيلسوف من الميول والآراء الإلحادية.
ولما سقطت سرقسطة
في أيدى الإسبان (١١١٨ م) غادرها ابن باجة إلى إشبيلية، ثم إلى شاطبة، ثم
نزح من الأندلس إلى المغرب، وعاش هناك حتى توفى في سنة ١١٣٨ م. وقد
كتب ابن باجة زهاء خمسة وعشرين كتاباً لم يصلنا منها سوى القليل، وترك لنا
عدداً من القصائد الرصينة الجزلة التي تنم روعة خياله ورائق نظمه.
وهو
يعتبر على العموم من أعظم المفكرين والفلاسفة الأندلسين، وقد كان لآرائه
ونظرياته تأثير كبير في تفكير الفيلسوف أبي الوليد بن رشد الحفيد (١) .
ونبغ في سرقسطة أيام بني هود في عهد المستعين بن المؤتمن، المفكر والفيلسوف

السياسى أبو بكر الطرطوشى، نسبة إلى طرطوشة ثغر سرقسطة، وهو صاحب
كتاب " سراج الملوك " الذى يعتبر بموضوعه ونظرياته المبتكرة، من الكتب التي
وضعت أسس السياسة الملوكية في التفكير الإسلامى.
ويشير ابن خلدون إلى هذا
الكتاب في مقدمته ويعتبره من الكتب التي سبقته في موضوعه (٢) .
وقد وضع
الطرطوشى كتابه أثناء إقامته بمصر أيام الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش، وأهداه

---

(١) راجع الإحاطة لابن الخطيب ج ١ ص ٤١٤ - ٤١٦.
(٢) ابن خلدون في المقدمة (بولاق) ص ٣٣.

*(٢/٢٩٤)*

فى مقدمته إلى خلفه المأمون البطائحى، وتأثر في كتابته بتفكير فيلسوف العصر، العلامة
ابن حزم القرطبى، وتوفى الطرطوشى بالإسكندرية سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) .
وقد أوحت ظروف مملكة سرقسطة وأحوالها السياسية والاجتماعية يومئذ،
إلى الطرطوشى بكثير من نظرياته الاجتماعية، ومنها نظرية عصبية الدولة، فإن
الطرطوشى يرى أن عصبية الدولة أو قوتها الحامية، إنما تقوم " على الجند أهل
العطاء المفروض مع الأهلة " أى الجند المرتزقة الذين يتناولون أجورهم كل شهر.
ويعارض ابن خلدون هذه النظرية، ويقول إنها لا تنطبق على الدول في

أولها،
وإنما تنطبق على الدولة في نهاية عهدها، بعد التمهيد واستقرار الملك، واستحكام
الصبغة لأهله، وأن الطرطوشى قد أدرك الدولة الهودية عند هرمها ورجوعها إلى
الاستظهار بالموالى والصنائع، ثم إلى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة،
وأدرك دول الطوائف، وذلك عند اختلال الدولة الأموية، وانقراض عصبيتها من العرب، واستبداد كل أمير بقطره، وعاش في ظل المستعين بن هود بسرقسطة، ولم يكن بقى لهم من أمر العصبية شيء لاستيلاء الترف على العرب منذ
ثلثمائة من السنين وهلاكهم، ولم ير إلا سلطاناً استبد بالملك عن عشائره، وقد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة، وبقية العصبية، فهو يستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة (١) .
والظاهر أن الطرطوشى قد تأثر تأثراً شديداً
بما شهده من اعتماد بني هود في حماية ملكهم على معاونة الجند النصارى، ولاسيما
أيام السيد إلكمبيادور، وسعيهم إلى شراء هذه المعونة بالمال أينما استطاعوا، منذ ابتداء دولتهم حتى نهايتها.
وقدكان ذلك في نفس الوقت شأن كثير من ملوك الطوائف الآخرين، حسبما ذكرنا في أخبارهم.
وكانت سرقسطة إلى جانب كونها مركزاً للعلوم الرياضية والفلسفية في القرن الحادى عشر الميلادى، كباقى عواصم الطوائف الأخرى، مركزاً لحركة أدبية قوية، وقد نبغ بها في ذلك العصركثير من الأدباء والشعراء مثل ابن الدباغ، وابن حسداى، وأبي عمر بن القلاس، وغيرهم، ممن ذكرهم صاحب الذخيرة، وأورد لنا الكثير من نظمهم ورسائلهم.

(١) راجع سراج الملوك للطرطوشى (القاهرة ١٩٣٥) ص ٢٢٩ و ٢٣١،
ومقدمة
ابن خلدون (بولاق) ص ١٣٠ و ١٣١.
وكذلك R.
M.
Pidal: ibid ; p.
٢٨٤ & ٢٨٥

(٢٩٥/٢)

ولعبت سرقسطة بالأخص دوراً كبيراً في التبادل الثقافى والحضارى بين
الأندلس وبين الدول الإسبانية المجاورة، والدول الفرنجية الشمالية، وقد هيأ لها
موقعها بين الممالك الإسبانية على مقربة من جبال البرنيه، أن تضطلع بهذا
الدور
الحضارى الخطير.
ومما هو جدير بالذكر أنها كانت في ذلك العصر، مهبط
الفرسان النصارى من كل جنس، يجدون في بني هود وفي بلاطها الباذخ،
ساحة رحبة، وكانت مركزاً لأشعار الفروسية والشعر الغنائى، الذى كان
ينتشر
يومئذ في أرجاء قطلونية وأراجون ونافار، ومنها كانت تنقل المقطوعات
الغنائية
الأندلسية إلى المجتمعات النصرانية المجاورة، فتؤثر في الملاحم والأناشيد
القومية.
وقد انتقلت هذه المؤثرات، فيما بعد بمضى الزمن عبر جبال البرنيه إلى
جنوبى
فرنسا، ثم إلى غيرها من المجتمعات النصرانية.

ويجب أخيراً ألا ننسى دور سرقسطة المسلمة، في ترويج التبادل التجارى والمهنى بين الشرق والغرب، فقد كانت مملكة سرقسطة بسيطرتها على جزء كبير
من البحر المتوسط، وثغريها الكبيرين طرّكونة، وطرطوشة، تستقبل شطراً كبيراً من تجارة المشرق وتجارة الأندلس والمغرب، وتعمل على تصريفها إلى الأمم الأوربية عن طريق ثغور فرنسا الجنوبية، وثغور إيطاليا.
وكان بنو هود
يجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة، سواء من المكوس أو الوساطة التجارية، وقد
كانوا في الواقع من أغنى ملوك عصرهم، وكان بلاطهم من أفخم قصور الطوائف، وأكثرها روعة وبذخاً، وإن لم تكن لهم شهرة في الجود والبذل، وقد استطاعوا بهذا الغنى الطائل، أن يجتذبوا الفرسان والمرتزقة النصارى لخدمة
سياستهم، واستطاعوا بدفع الإتارات الوفيرة للملوك النصارى، أن يتقوا عدوانهم أطول وقت ممكن، ومن ثم فقد لبثت سرقسطة عصراً طويلا بمنجاة من تلك الغزوات المخربة، التي كانت تنكب بها دول الطوائف الأخرى.

(٢٩٦/٢)

الكتِاب السادس

موقعة الزلاّقة والفتح المرابطيّ

(٢٩٧/٢)

الفصْل الأوّل

نشأة المرابطين

وقيام الدولة المرابطية بالمغرب

أصل المرابطين.

قبيلة لمتونة وحياتها في القفر.
دخولها في الإسلام.
أول ملوكها.
افتراق كلمتها.
الأمير ابن تيفاوت اللمتونى.
مصرعه وقيام الأمير يحيى الجدالى مكانه.
رحيله إلى المشرق.
لقاؤه بالفقيه
أبى عمران الفاسى.
عبد الله بن ياسين.
رحيله مع الأمير إلى الصحراء.
بثه لتعاليم الإسلام بين أهلها.
صرامته وانصرافهم عنه.
مغادرته لهم مع أصحابه وانقطاعه للعبادة.
وفود أعيان صنهاجة إليه.
قيام
جماعة المرابطين.
أطماع عبد الله الدفينة.
تكاثر تلاميذه.
يدعوهم إلى الجهاد.
دعوته إلى اتباع أحكام
الدين.
مقاتلته لقبائل صنهاجة وإخضاعها.
سلطانه الروحى على القبائل.
يحيى بن ابراهيم الكدالى يتولى
السلطة الزمنية.

وفاته وقيام يحيى بن عمر اللمتونى مكانه.

ورعه وفتوحه في الصحراء.

صدى حركة

المرابطين في المغرب.

أحوال المغرب في ذلك العهد.

استدعاء فقهاء درعة وسجلماسة للمرابطين.

مسير

المرابطين إلى درعة والاستيلاء عليها.

استيلاؤهم على سجلماسة.

عبد الله بن ياسين يأمر بإزالة المنكرات.

وفاة الأمير يحيى وقيام أخيه أبي بكر مكانه.

مسير المرابطين إلى بلاد السوس.

يوسف بن

تاشفين يقود الجيش.

افتتاحه لقواعد السوس.

الطائفة البجلية وسحقها.

مسير المرابطين إلى الأطلس.

افتتاحهم لأغمات.

استيلاؤهم على تادلا.

قبائل برغواطة ومذهبها الوثنى.

مطاردتهم ومحاربتهم

على يد بلكين بن زيرى والفتى واضح.

مسير المرابطين لقتالهم.

إصابة عبد الله بن ياسين ووفاته.

قيام أبي بكر اللمتونى مكانه.

بدء الدولة المرابطية.

متابعة حرب برغواطة.

افتتاح مكناسة ولواتة.

أنباء الخلاف في الصحراء.

أبو بكر يندب يوسف بن تاشفين للرياسة ويسير إلى الصحراء.

تقسيم

القوات المرابطية بين الزعيمين.

أبو بكر يصلح شئون الصحراء.

يوسف بن تاشفين ينظم افتتاح

باقى المغرب.

نجاحه واشتداد بأسه.

اختطاطه لمدينة مراكش حاضرة المغرب.

تنظيم يوسف

للجيش.

افتتاحه لمدينة فاس.

مسيره إلى بلاد غمارة.

فقد فاس واستردادها.

عود أبي بكر من

الصحراء إلى المغرب.

تأثره بعظمة شأن يوسف وضخامة ملكه.

لقاء الرجلين.

زينب زوجة يوسف

ودورها في ذلك.

انصراف أبي بكر إلى الصحراء.

يوسف يتم فتح المغرب.

افتتاحه لطنجة.

افتتاحه للمغرب الأوسط.

قيام الدولة المرابطية الكبرى.

يوسف بن تاشفين.

نشأته وخلاله.

يحكم

أعظم إمبراطورية إسلامية في الغرب.

ألقابه وانضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية.

يوسف وشئون

الأندلس.

صريخ ملوك الطوائف إليه.

ظروف هذا الصريخ واختلاف الرواية في شأنه.

أصل

الفكرة ومبعثها.

الإعتراض عليها.

سقوط طليطلة وأثره في إذكائها.

سفارة الأندلس إلى يوسف.

العهود المتبادلة.

مطالبة يوسف بثغر الجزيرة.

يوسف يلبى نداء الطوائف.

مسير الجيوش المرابطية

إلى سبتة.

جوازها إلى شبه الجزيرة.

دعاء يوسف خلال الجواز.

*(٢٩٨/٢)*

يجدر بنا أن نقف الآن قليلا لنلقى بعض الضوء على أصل أولئك المرابطين، الذين شملت دولتهم الكبرى، في النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى،

سائر أنحاء المغرب من لوبية إلى المحيط غرباً، وإلى السودان جنوباً، والذين استجابوا إلى صريخ ملوك الطوائف، وعبروا البحر إلى شبه الجزيرة الإسبانية نصرة للإسلام وبنيه.

إن المرابطين هم من قبيلة لمتونة، ولمتونة هذه بطن من بطون صنهاجة، أعظم القبائل البربرية، وهى بدورها فرع من فروع قبيلة البرانس الكبرى.

وينتمى إلى صنهاجة، عدا لمتونة، عدد كبير من القبائل البربرية مثل مسوفة، ومسراتة، ومداسة، وكدالة.

ووتريكة، ولمطة وغيرها.

وقد لعب الكثير منها

في تاريخ المغرب أدواراً ملحوظة.

وفى بعض الروايات أن صنهاجة، وهى الأم

الكبرى لهذه القبائل ترجع نسبتها إلى العرب اليمانية، وأنها فخذ من ولد عبد شمس

ابن وائل بن حمير، وهى كسائر الروايات المماثلة في أنساب البطون البربرية رواية ضعيفة، تقوم على القصص والأسطورة (١) .

وكانت لمتونة تسكن منذ عصور بعيدة قبل الإسلام في قلب الصحراء، ما بين جنوبى المغرب والسودان.

في تلك المنطقة التي كانت تسمى منذ أيام

الرومان إقليم " موريتانيا ".

وكانت تؤثر حياة القفر على أية حياة أخرى " انتباذاً

عن العمران، واستئناساً بالانفراد، وتوحشاً بالعز عن الغلبة والقهر "، وكانوا يعتمدون في قوتهم على لحم الإبل ولبنها، ولا يعرفون حرثاً ولا ثماراً، ولا يأكلون

الخبز (٢) .

وكان شعارهم " اللثام " ومن ثم فقد عرفوا " بالملثمين "، وقيل في سبب ذلك إنهم كانوا يتخذون في أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب، أو لأنه حدث

ذات مرة في بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات، حتى يحسبن
بذلك في عداد الرجال (٣) ، وقيل بل كانوا يقلدون في ذلك قبيلة حمير التي يدعون
الانتساب إليها.
وذكر لنا أبو عبيد البكرى، في معجمه " المسالك والممالك "، فيما يتعلق بأمر اللثام الذى يلتزمه المرابطون، أن جميع قبائل الصحراء يلتزمون، النقاب، وهو

---

(١) راجع روض القرطاس ص ٧٥.
(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١، وروض القرطاس ص ٧٦.
(٣) راجع الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (١٣٠٦ هـ) ج ١ ص ٩٨ و ٩٩.

*(٢٩٩/٢)*

فوق اللثام، حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه، ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال، ولا يميز رجل من وليه ولا حميمه إلا إذا تنقب.
وكذلك في المعارك
إذا قتل منهم القتيل.
ونزل قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع، وصار
ذلك لهم ألزم من جلودهم، وهم يسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذبان بلغتهم (١) .
وكانت لمتونة، كسائر القبائل البربرية، تدين بالمجوسية، واستمروا على ذلك حتى ذاع بينهم الاسلام عقب فتح الأندلس، وبدأت رياستهم من ذلك الحين تتخذ نوعاً من الملك.
وفى أيام عبد الرحمن الداخل، أعنى في أواسط
القرن الثاني الهجرى، كان ملكهم يدعى تيولوثان بن تيكلان الصنهاجى

اللمتونى، فبسط سلطانه على سائر نواحى الصحراء، وحارب القبائل الوثنية، ونشر
الإسلام بين كثير منها، وفرض الجزية على سائر ملوك السودان المجاورين، وكانت مملكته بالصحراء مسيرة ثلاثة أشهر في مثلها.
ولما توفى في سنة ٢٢٢ هـ، خلفه في الرياسة حفيده الآثر بن بطين بن تيولوثان (٢) ، واستطال حكمه زهاء
خمسة وستين عاماً، حتى وفاته في سنة ٢٨٧ هـ، فخلفه ولده تمييم، واستمر في الحكم إلى أن ثار عليه في سنة ٣٠٦ هـ أشياخ قبيلة صنهاجة وقتلوه. وعندئذ
افترقت كلمة الجماعة، وانقسموا شيعاً، واستمروا دون رياسة جامعة زهاء مائة وعشرين عاماً، إلى أن قام فيهم الأمير أبو عبد الله محمد بن تيفاوت اللمتونى
المعروف بتارسنا، فالتفوا حوله، واجتمعوا على رياسته.
وكان أميراً فاضلا
ورعاً، شغوفاً بالجهاد، فلم يطل أمد حكمه سوى ثلاثة أعوام، إذ استشهد فى غزوة من غزواته ضد بعض قبائل السودان الوثنية.
فولى من بعده صهره الأمير
يحيى بن ابراهيم الجدالى، زعيم قبيلة جدالة أوكدالة، وهى شقيقة لمتونة يجمعهما أب واحد، واستمر على رياسته لصنهاجة، وقيادتها في حروبها ضد أعدائها، حتى سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٥ م) (٣) ، ثم استخلف في الرياسة ولده إبراهيم

---

(١) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب " المسالك والممالك "
لأبى عبيد البكرى والمنشور بعناية المستشرق البارون دى سلان (الطبعة الثانية) ص ١٧٠.

(٢) وردت هذه التسمية في روض القرطاس ص ٧٦.
ولكن ابن خلدون يسميه يلتان
(ج ٦ ص ١٨٢) .
(٣) هذه رواية ابن أبي زرع (ص ٧٧) ، ويوافقه صاحب الاستقصاء (ج ١ ص ٩٩) ، ولكن ابن خلدون يضع نهاية رياسته في سنة ٤٤٠ هـ (ج ٦ ص ١٨٢) .

*(٣٠٠/٢)*

ابن يحيى، ورحل إلى المشرق مع طائفة من زعماء قومه، ليقضى فريضة الحج.
والظاهر أيضاً أن يحيى الكدالى كانت تحدوه في تلك الرحلة مُثل أخرى، فهو قد رأى ما كان عليه قومه من التأخر والجهل بتعاليم الإسلام وأصوله، فرحل إلى
المشرق يطلب العلم إلى جانب قضاء الفريضة.
ولما عاد من المشرق، عرج فى
طريقه على مدينة القيروان، وهنالك التقى وصحبه بالفقيه أبي عمران الفاسى شيخ
المذهب المالكى يومئذ، وتأثروا بوعظه وعلمه.
وشكا إليه يحيى من جهل قومه، وطلب إليه أن يختار له فقيهاً من تلاميذه، يتولى تعليم قومه وتثقيفهم بتعاليم
الإسلام الصحيحة، ولما لم يجد أبو عمران من تلاميذه بالقيروان من يقبل تلبية
هذه الدعوة، بعث معه كتاباً إلى تلميذ من تلاميذه بالسوس الأقصى يدعى
أبو محمد واجاج بن زلوا اللمطى، وكان فقيهاً ورعاً يدرس العلم لتلاميذه فى
رباط خاص أنشأه لذلك، فلما مثل لديه يحيى قرأ خطاب الشيخ أبي عمران على

تلاميذه، فاستجاب للدعوة منهم رجل يدعى عبد الله بن ياسين الجزولى، وكان من أنبه تلاميذه وأكثرهم علماً وورعاً.

وكان قد رحل إلى الأندلس، وأنفق فيها

بضع سنين يدرس في ظل الطوائف، فزاد علماً وتجربة.

فسار مع يحيى إلى

الصحراء، فاغتبطت بمقدمه لمتونة وكدالة، واستقبلوه بمنتهى الحفاوة والتكريم (١) .

- ١ -

وكان عبد الله بن ياسين فقيهاً شديد الورع، والغيرة على تعاليم الإسلام، وكان فوق ذلك خطيباً موهوباً قوى التأثير، فأخذ يبث تعاليم الدين بين أولئك

البدو الصحريين، ويبصرهم بأحكام الإسلام، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

بيد أنه اشتد في مؤاخذتهم، ومطالبتهم بالإقلاع عن تقاليدهم المنافية للإسلام مثل الزواج بأكثر من أربع، وكان من الأمور الشائعة بينهم، وغير ذلك من التقاليد

المغرقة، فأخذوا ينصرفون عنه، ويعرضون عن تعاليمه، لما رأوا من صرامته، وما تكبدهم تعاليمه من المشقة والضيق.

وعندئذ عول عبد الله، وتلميذه وصديقه

الوفى يحيى بن ابراهيم، على انتباذ أولئك البدو الجهلة، والانقطاع إلى العبادة والزهد، في أحد المواضع النائية، وانضم إليه في ذلك سبعة نفر من كدالة

---

(١) روض القرطاس ص ٧٧ و ٧٨، والإستقصاء ج ١ ص ٩٩ و ١٠٠، وابن خلدون

ج ٦ ص ١٩٢.

وراجع الحلل الموشية ص ٩.

ويحيى بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لمتونة.
ويقول لنا ابن خلدون إن عبد الله
ابن ياسين وأصحابه انقطعوا للعبادة في جزيرة يحيط بها بحر النيل من سائر
جهاتها، وهو قول لا يمكن أن ينصرف إلى نهر النيل المعروف لنا، لبعد
النيل عن صحراء المغرب
الجنوبية بمسافات شاسعة، ولكن تفسير هذا الغموض يرجع إلى أن " نهر
النيجر "
كان يظن يومئذ أنه امتداد أو فرع لنهر النيل العظيم، يخترق الأقطار
السودانية
الغربية.
ومن ثم فقد كان نهر النيجر يعرف يومئذ بنهر النيل أو النهر الأعظم، وبهذا
الاسم يسميه الرحالة ابن بطوطة في أقواله عن رحلته في مملكة مالى
السوداء (١) .
وإذاً فإن الموضع الذى انقطع فيه عبد الله بن ياسين وأصحابه للعبادة كان
فيما يرجح
جزيرة تقع في منحنى نهر " النيجر " على مقربة من تنبكتو، وهذا ما يؤيده
وصف صاحب روض القرطاس (٢) .
وعلى أى حال فقد انقطع عبد الله وصحبه للعبادة في هذا الموضع، وابتنوا به
رابطة للصلاة والعبادة، وما لبث أن اشتهر أمره، ووفد عليه كثير من أشراف
صنهاجة ممن آثروا الزهد والعبادة، فعكف عبد الله على تثقيفهم ووعظهم،
وسماهم " بالمرابطين " للزومهم رابطته، وأخذ يعلمهم أحكام الكتاب والسنة
والصلاة والزكاة، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويشوقهم إلى
الجنة، ويحذرهم عذاب النار، ويلهب حماستهم للجهاد في سبيل الله، ومقاتلة
المخالفين

لأحكام كتابه.

وكان عبد الله بن ياسين، حسبما أسلفنا واعظاً موهوباً، وخطيباً ذلقاً مؤثراً، وكان هذا الفقيه الورع، يضطرم في أعماق نفسه بمشاريع وأطماع دفينة أخرى، غير تلقين أحكام الدين، وبث الورع والخشوع في نفوس أصحابه.

ذلك أنه ما كاد يرى كثرة تلاميذه - فقد بلغوا الألف عندئذ - ويوقن بولائهم، وانقيادهم لأوامره، حتى دعاهم إلى الجهاد بصورة عملية، وبعثهم إلى أقوامهم، لينذروهم، ويطلبوا إليهم الكف عن البدع والضلالات، واتباع أحكام الدين الصحيح، ففعلوا ما أمروا به، ودعا كل قومه إلى الرشد والهدى، ومجانبة التقاليد المنافية للدين، فلم يصغ لهم أحد من أقوامهم، فخرج إليهم عبد الله ابن ياسين بنفسه، واستدعى أشياخ القبائل ووعظهم، وحذرهم عقاب الله،

---

(١) راجع رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٣٢٢ هـ) ج ٢ ص ٢٠١ و ٢٠٢ و ٢٠٣.

(٢) روض القرطاس ص ٧٩.

*(٣٠٢/٢)*

ونصحهم باتباع أحكامه، فلم يلق منهم سوى الإعراض والتحدى، فعندئذ قرر عبد الله وصحبه إعلان الحرب على أولئك المخالفين، وكان صحبه يزداد عديدهم كل يوم، حتى بلغوا بضعة آلاف.

وخرج عبد الله بن ياسين لقتال كدالة، فغزاهم في نحو ثلاثة آلاف، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأسلم الباقون من جديد إسلاماً صحيحاً (٤٣٤ هـ - ١٠٤٢ م).

ثم سار لقتال لمتونة، وضيق عليهم حتى أذعنوا للطاعة، وبايعوه على الكتاب والسنة.

وسار بعد ذلك لقتال مسوفة فحذوا في الطاعة والبيعة حذو لمتونة.
وهكذا تعاقب
خضوع قبائل صنهاجة واحدة بعد الأخرى، حتى خضعوا جميعاً.
وكان من
ْتعاليمه أن يضرب التائب مائة سوط حتى يطهر، ثم يلقن تعاليم القرآن
وأحكام
الشرع.
وبسط عبد الله بن ياسين سلطانه الروحى على سائر قبائل تلك
الصحارى، وجعل السلطة الزمنية ليحيى بن ابراهيم الكدالى، وإن كان هو
المستأثر في الواقع بكل سلطة وإليه الأمر والنهى، وجبى عبد الله الأموال من
الزكاة والعشور والفيء، واقتنى الخيل والسلاح، واشتد بأسه، واشتهر أمره
في سائر جنبات الصحراء، وفي المغرب والسودان.
ولما توفى الأمير يحيى بن
إبراهيم، ندب عبد الله مكانه للرياسة الأمير يحيى بن عمر بن تلاكاكين
اللمتونى
ليتولى شئون الحرب والجهاد (١) .
وكان يحيى بن عمر اللمتونى أميراً ورعاً زاهداً، وكان كثير الولاء والطاعة
لعبد الله بن ياسين.
ومما يروى في ذلك أن عبد الله ضربه ذات يوم عشرين سوطاً
لأنه باشر القتال بنفسه مع جنده، ولأن الأمير يجب ألا يعرض نفسه
للمخاطر، وأن يقتصر على حث جنده وتقوية نفوسهم، وحياة الأمير هى حياة
عسكره
وفى موته فناء جيوشه.
وقاد الأمير يحبى عدة حملات، وافتتح جميع جهات
ْالصحراء، وغزا بلاد السودان وافتتح كثيراً من أنحائها.
وكانت حركة المرابطين

وأعمال زعيمهم عبد الله بن ياسين قد أخذت تحدث صداها في قواعد
المغرب.
وكان المغرب يومئذ، قد انقسم بعد انقضاء أمر الأدارسة، وبعد أن لبث منذ
منتصف القرن الرابع مسرحاً لحروب الشيعة وخلفاء قرطبة الأمويين، إلى
ممالك

---

(١) روض القرطاس ص ٨٠، والاستقصاء ج ١ ص ١٠١.

(٣٠٣/٢)

وإمارات عدة، تسودها مختلف القبائل البربرية، ولاسيما صنهاجة وزناته
ومغراوة، وكانت أعظم ممالكهم مملكة زيرى بن عطية الزناتيين وبنيه بعده،
وقد استطالت منذ أيام المنصور بفاس، ومعظم أعمال المغرب الشمالى، حتى
أوائل
القرن الخامس، واستقر بنو يفرن بأعمال الشاطىء في سلا وما يليها، واستقر
بنو خزرون المغراويون بدرعة وسجلماسة وأعمالها، وبأنحاء أخرى في أواسط
المغرب.
واستقرت برغواطة جنوباً بشاطىء المحيط.
وهكذا كان المغرب يقدم
يومئذ بظروفه وإماراته الصغيرة المتفرقة، فرصة طيبة للطامعين والمتوثبين.
وكانت
العناصر الناقمة في تلك الإمارات المستبدة، تتطلع إلى أولئك القوم الجدد،
الذين يضطرمون بالحماسة الدينية وينادون بالإصلاح، والتزام أحكام القرآن
والسنة.
ففى سنة ٤٤٤ هـ بعث فقهاء درعة وفقهاء سجلماسة بكتبهم إلى عبد الله
ابن ياسين، وإلى الأمير يحيى اللمتونى وأشياخ المرابطين، يشكون ما يقع فى
بلادهم من ضروب الظلم والعسف، والخروج على أحكام الدين، ويدعونهم

إلى إنقاذ المسلمين من هذا النير المرهق.
وكانت درعة وسجلماسة يومئذ تحت حكم
بنى وانودين من زعماء مغراوة، وأميرهم يومئذ هو مسعود بن وانودين، فجمع عبد الله بن ياسين أشياخ المرابطين وشاورهم في الأمر، فرأوا وجوب قبول الدعوة والسير إلى غوث أهل المدينتين.
ففى سنة ٤٤٥ هـ خرج المرابطون من
الصحراء على خيولهم في حشد ضخم، وعلى رأسهم عبد الله بن ياسين ويحيى
اللمتونى، وقصدوا أولا إلى مدينة درعة فأخرجوا عنها عاملها، واستولوا عليها واستولوا في أرباضها على خمسين ألف من الإبل من أموال أميرها مسعود ، ونهض
مسعود بن وانودين لرد الغزاة والدفاع عن أراضيه، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة، قتل فيها مسعود، وأبيد معظم جنده، واستولى المرابطون على دوابهم وأسلابهم.
ثم ساروا إلى سجلماسة، فاقتحموها، وقتل من كان بها من
جند مغراوة.
وأمر عبد الله بن ياسين بإزالة المنكرات ورفع المكوس الجائرة، وتفريق الأخماس على المرابطين وفقهاء البلدين، وتطبيق أحكام الدين، وندب لحكم سجلماسة عاملا من اللمتونيين، وكانت هذه بداية الفتح المرابطي للمغرب (١) .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣.
ويضع ابن أبي زرع تاريخ هذه الغزوة في سنة ٤٤٧ هـ
(روض القرطاس ص ٨١) .
وراجع السلاوى في الإستقصاء ج ١ ص ١٠٢.

(٣٠٤/٢)

وهنا يذكر لنا أبو عبيد البكرى، أن عبد الله بن ياسين بعد أن أتم فتح سجلماسة، سار جنوباً وغزا في سنة ٤٤٦ هـ، مدينة أودفست، وهى من أعمال

مملكة غانة السوداء، وبينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين، وبينها وبين مدينة غانة مسيرة خمسة عشر يوماً.

وكان يسكن هذه المدينة خليط من زناتة والعرب، فدخلها المرابطون واستباحوها، وجعلوا جميع ما أصابوا فيها فيئاً (١) .

وفى سنة ٤٤٧ هـ توفى الأمير يحيى بن عمر اللمتونى، فعين عبد الله بن ياسين

مكانه للقيادة أخاه أبا بكر بن عمر.

وكانت الخطوة الثانية في افتتاح المغرب، هى غزو بلاد السوس، ففى ربيع الثاني سنة ٤٤٨ هـ، سار المرابطون نحو جنوب

غربى المغرب قاصدين بلاد السوس، وجعل الأمير أبو بكر على مقدمة جيشه

ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتونى، وهى أول مرة تقدم إلينا الرواية فيها، عاهل

المرابطين العظيم فيما بعد.

وبدأ بغزو بلاد جزولة ثم فتح ماسة، ثم سار إلى مدينة

تارودنت قاعدة بلاد السوس فافتتحها.

وكان بتارودنت طائفة من الرافضة

تسمى البجلية نسبة إلى مؤسسها، على بن عبد الله البجلى الرافضى، وكان قد

قدم إلى تلك الأنحاء أيام عبد الله الشيعى (أواخر القرن الثالث الهجرى) ، ونشر بها

مذهبه، وهو يتضمن كثيراً من التعاليم المثيرة، فقتل المرابطون أولئك
الروافض
وارتد من بقى منهم إلى السنة، ودوخ المرابطون بلاد السوس، واستولوا على
سائر نواحيها، وعين عبد الله بن ياسين لها عمالا من المرابطين، وأمرهم
باتباع
العدل والسنة، والاكتفاء بتحصيل الزكاة والأعشار، وإسقاط ما عدا ذلك
من المغارم الجائرة.
وعبر المرابطون بعد ذلك جبال الأطلس، وقصدوا إلى بلاد المصامدة،
وتوغلوا في جبال درن، وفتحوا وردة وشفشاوة ونفيس، وسائر بلاد منطقة
جدميوه، وبايعتهم قبائل تلك الناحية.
ثم ساروا إلى مدينة أغمات، وكانت
يومئذ لمغراوة، وأميرها لقوط بن يوسف بن على المغراوى، فضربوا حولها
الحصار، ودافع لقوط عن مدينته أشد دفاع، ولكنه لما رأى عبث المقاومة،
فر منها في أهله وحشمه تحت جنح الظلام، والتجأ إلى حماية بني يفرن
أمراء
تادلا.
ودخل عبد الله بن ياسين وجنده المرابطون أغمات في سنة ٤٤٩ هـ، وأقام

---

(١) كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب "
المسالك والممالك "
والمنشور بعناية البارون دى سلان (الطبعة الثانية) ص ١٦٨.



بها نحو شهرين حتى استراح جنده.
ثم قصد إلى بلاد بني يفرن وهاجم قاعدتهم
تادلا واقتحمها، وقتل من بها من بني يفرن، وظفر بلقوط المغراوى فقتله،

وكانت زوجه زينب بنت إسحاق النفزاوية قد اشتهرت بحسنها ونبلها، فتزوجها الأمير أبو بكر اللمتونى.

وبعد أن نظم عبد الله بن ياسين شئون هذه المنطقة

سار إلى تامسنا لمقاتلة قبائل برغواطة.

وكانت هذه القبائل تدين بمذهب تنافى تعاليمه الإباحية أحكام الإسلام، أسسه رجل يهودى الأصل يدعى صالح بن طريف البرناطى نسبة إلى برناط، وهو حصن من أعمال شذونة بالأندلس، ووفد على منطقة تامسنا منذ أوائل القرن الثاني من الهجرة ونشر مذهبه بين أهلها، وهم قوم تسودهم البداوة والجهالة

المطلقة، فادعى النبوة وأنه قد نزل عليه قرآن جديد، كان يتلو بعض سوره، وزعم أنه المهدى الذى يخرج في آخر الزمان، وجعل الصلوات خمساً في النهار

وخمساً في الليل، والصوم في شهر رجب، وأباح لهم الزواج بأى عدد من النساء

إلى غير ذلك.

وكثر عدد أنصاره بمضى الزمن حتى أصبحوا أمة كبيرة يطلق

عليها برغواطة.

وفى بعض الروايات أن برغواطة تنتمى إلى قبيلة زناتة الشهيرة.

ويقول ابن خلدون إنهم من المصامدة من حيث الوطن والجوار، وهم قبائل شتى لا يجمعهم أصل واحد، وإنما هم أخلاط من البربر اجتمعوا إلى مذهب صالح بن طريف (١) .

وأقام هذا الدعى صالح بن طريف لنفسه رياسة وملكاً

في تلك المنطقة، منطقة تامسنا، وشاطىء المحيط الممتد من شمالى أزمور جنوباً

حتى آسفى، وتوارث أعقابه وقرابته الملك من بعده.

واشتهر منهم في أواخر

القرن الثالث أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح، واشتدت شوكته وعظم أمره، وكانت له في البربر وقائع مشهورة.

وحارب ملوك العدوتين

المغرب والأندلس، من الأدارسة وبنى أمية والشيعة، قبائل برغواطة، وحاربهم بلكين بن زيرى زعيم صنهاجة، حينما غزا المغرب سنة ٣٦٨ هـ، ولقيه أميرهم أبو منصور عيسى بن أبي الأنصارى في قومه، فهزم وقتل، وأمعن بلكين فيهم تقتيلا.

ثم حاربهم المنصور بن أبي عامر، وبعث لقتالهم الفتى واضح،

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٩ و ٢١٠، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٣.

*(٣٠٦/٢)*

فأثخن فيهم.

وحاربهم بنو يفرن.

وهكذا استمرت قبائل برغواطة، هدفاً

للعداء والنقمة، حتى كان ظهور المرابطين في أوائل القرن الخامس.

وكان من الطبيعى أن يتجه المرابطون إلى قتال هؤلاء الأقوام الكفرة الوثنيين.

ومن ثم فقد سار عبد الله بن ياسين، وقائده أبو بكر اللمتونى في جموع

المرابطين

إلى أرض برغواطه، وكان الأمير عليهم يومئذ أبو حفص بن عبد الله بن أبي

غفير

ابن محمد بن معاذ، المتقدم الذكر.

ونشبت بين المرابطين وبين البرغواطيين

وقائع شديدة، أصيب فيها عبد الله بن ياسين الجزولى إمام المرابطين،

ومنشيء

طائفتهم، بجراح بالغة توفى منها في نفس اليوم.

وجمع قبيل وفاته أشياخ المرابطين
وحثهم على الثبات في القتال، وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد فى طلب الرياسة.
وكان مصرعه في الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ
(١٠٥٩ م) ودفن في مكان يعرف بكريفلة أوكريفلت على مقربة من تامسنا، وأقيم على قبره فيما بعد مسجد، وما يزال مزاره قائماً معروفاً حتى اليوم.
وفى الحال
اتفق رأى المرابطين على اختيار قائدهم أبي بكر بن عمر اللمتونى للرياسة مكان
إمامهم المتوفى، وهو اختيار أوصى به عبد الله قبل أن يلفظ النفس الأخير (١)
وكان عبد الله بن ياسين فقيهاً شديد الورع والتقشف، شديد الحمية
والتعصب لمذهبه، وقد ألفى في تلك القبائل الصحرية الساذجة، مادة طيبة لبث
تعاليمه، واستطاع أن يذكى في نفوس أولئك المرابطين – أتباعه – تلك الحماسة
الدينية البالغة، التي حملتهم من الصحراء إلى ربوع المغرب، وعاونتهم على انتزاعها تباعاً من أيدى القبائل الخصيمة.
بيد أن عبد الله كان مع شديد ورعه، مشغوفاً بالنساء، يتزوج في كل شهر عدداً منهن ويطلقهن، ويسعى إلى خطبة
الحسان أينما وجدن.
وكان يأخذ ثلث الأموال المختلفة، وهو إجراء يصفه المؤرخ
بالشذوذ (٢) .
وقد ذكر لنا أبو عبيد البكرى في معجمه " المسالك والممالك " بعض
الأحكام الشاذة التي كان يطبقها عبد الله بن ياسين على المرابطين المنضوين

---

(١) روض القرطاس ص ٨٤.
ويضع ابن خلدون تاريخ وفاة عبد الله بن ياسين فى
سنة ٤٥٠ هـ (ج ٦ ص ٢٠٩) .
(٢) روض القرطاس ص ٨٤.

*(٣٠٧/٢)*

تحت إمامته، وفي مقدمتها أخذه الثلث من مختلف الأموال بحجة أن ذلك
يطيب
باقيها، وهو مالا تسوغه الشريعة، من أى مذهب، ومنها أن الرجل
إذا دخل في دعوتهم، وأبدى توبته على سالف ذنوبه، قيل له أنك ارتكبت
في سالف شبابك ذنوباً كثيرة، ويجب أن يقام عليك حدودها، وتطهر
من إثمها، فيضرب حد الزانى مائة سوط، وحد المفترى ثمانين سوطاً، وحد
الشارب مثلها.
وكذلك يفعل المرابطون بمن تغلبوا عليه، وأدخلوه
قسراً في رباطهم، وإن علموا أنه قتل قتلوه، سواء أتاهم تايباً طائعاً، أو غلبوا
عليه مجاهراً عاصياً.
ومن تخلف عن شهود الصلاة مع الجماعة ضرب
عشرين سوطاً، وغير ذلك من الأحكام القاسية التي لا تطبعها سماحة
الإسلام
الحقيقى (١) .
- ٢ -
ونستطيع أن نقول إنه بوفاة عبد الله بن ياسين، وقيام أبي بكر اللمتونى
مكانه في الرياسة، تبدأ الدولة اللمتونية أو الدولة المرابطية.
وهو أبو بكر بن
عمر بن تلاكاكين بن واياقطين.
وكان أول ما عنى به بعد دفن الإمام، هو

متابعة حرب برغواطة، فحشد سائر قواته، وجد في قتالهم، وأثخن فيهم، حتى مزق طوائفهم، وقتل وسبى منهم جموعاً كبيرة، حتى أذعنوا إلى الطاعة وأسلموا إسلاماً جديداً، ونبذوا تقاليدهم الوثنية المثيرة.

وجمع ما استولى عليه

من الأموال والغنائم، وقسمها بين المرابطين، ثم عاد إلى مدينة أغمات، وأقام بها حتى شهر صفر سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) .

ثم غادرها في قوات ضخمة من

صنهاجة وجزولة، والمصامدة، وافتتح بلاد فازاز ومكناسة، وسائر أراضي زناتة، ثم سار إلى مدينة لواتة، وكانت بيد بني يفرن فاقتحمها عنوة وخربها وقتل بها خلقاً كثيراً، وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ٤٥٢ هـ، وعاد بعدئذ إلى أغمات.

ولبث أبو بكر في أغمات بضعة أشهر أخرى، وعندئذ وفد إليه رسول من بلاد القبلة قاعدتهم بالصحراء، ونبأه باختلاف المرابطين هناك، ووقوع الخلاف

---

(١) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، المستخرج من كتاب المسالك والممالك، والمنشور

بعناية البارون دى سلان ص ١٦٩.

*(٣٠٨/٢)*

بين لمتونة ومسوفة، فخشى أبو بكر أن يتفاقم الأمر هناك بين القبائل الشقيقة، وقد كانت الصحراء منبع أمرهم، ومطلع سلطانهم، فقرر أن يعود إلى قومه، ليجبر الصدع ويوحد الكلمة.

فوكل شئون المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين

ونزل له عن زوجته الحسناء زينب بنت إسحاق النفزاوية، بعد أن طلقها، حتى لا تشاطره خشونة الحياة الصحرية، فتزوجها يوسف فيما بعد، وأمره بمتابعة

قتال مغراوة وبنى يفرن وزناتة، ووافق أشياخ المرابطين على هذا الاختيار، لما يعلمونه عن يوسف " من دينه وفضله وشجاعته وحزمه و..

.

وعدله وورعه

وسداد رأيه ويمن نقيبته " (١) .

وقسمت القوات المرابطية عندئذ إلى جيشين، تولى يوسف إمرة أحدهما ليتم به إخضاع المغرب، وتولى أبو بكر إمرة الآخر.

وخرج أبو بكر في جيشه

في شهر ذى القعدة سنة ٤٥٣ هـ (ديسمبر ١٠٦١ م) واخترق بلاد تادلا وسجلماسة، ثم سار جنوباً إلى الصحراء، وهناك قام بإصلاح شئونها، والقضاء على أسباب

الخلاف بين أقوامها، وتوحيد كلمتهم، ثم حشد قوات جديدة، وسار فى جيشه الضخم إلى بلاد السودان، فغزا الكثير من نواحيه، وتوغل فى أراضيه إلى مسيرة ثلاثة أشهر.

وفى تلك الأثناء كان يوسف بن تاشفين، يؤدى مهمته العظيمة في افتتاح باقى أقطار المغرب، فبدأ بذلك بأن قسم الجيش

المرابطي، وقد بلغ يومئذ أربعين ألف مقاتل، إلى أربعة أقسام، اختار لها أربعة

من أقدر قواده، وهم سير بن أبي بكر اللمتونى، ومحمد بن تميم الكدالى، وعمر بن سليمان المسوفى، ومدرك التلكانى، وعقد لكل منهم على خمسة آلاف، وجعلهم في مقدمة قواته، وبعث بهم إلى مختلف أنحاء المغرب، وتولى هو قيادة

بقية الجيش يسير به في أثرهم.

وأخذت تلك الجيوش المرابطية في محاربة القبائل

الخصيمة، ولاسيما مغراوة وزناتة وبنى يفرن، ودوختها وغلبت على سائر أراضيها، وهرعت القبائل يجنح بعضها إلى المقاومة حتى يهزم ويغلب،

ويجنح البعض الآخر
إلى الاستسلام والطاعة.
ولم تمض بضعة أشهر حتى كان يوسف قد غلب على
معظم نواحى المغرب الجنوبية والوسطى، فعاد من غزاته المظفرة إلى أغمات
في أواخر سنة ٤٥٤ هـ، وقد عظم أمره، واشتد بأسه، وذاع صيته في سائر
أنحاء المغرب.

---

(١) روض القرطاس ص ٨٩، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤.

*(٣٠٩/٢)*

وفكر يوسف عندئذ أن يختط لنفسه محلة، تكون قاعدة لجيوشه، ومستودعاً
لذخائره، ووقع اختياره في ذلك على أرض تقع شمال غربى مدينة أغمات،
وكانت
لبعض المصامدة، فاشتراها يوسف واختط بها قصبة ومسجداً، وكان يعمل
في بناء المسجد بنفسه مع الفعلة، فكان ذلك مولد مدينة مَرَّاكُش الشهيرة
(سنة ٤٥٤ هـ - ١٠٦٢ م) .
وكان هذا الاسم يطلق على هذا المكان، ومعناه بلغة
المصامدة، " إمش مسرعاً ".
إذ كان مأوى اللصوص وقطاع الطريق.
واختار
يوسف أن تكون قاعدته في قلب بلاد المصامدة، إذ كانوا أشد قبائل المغرب
قوة وأكثرهم جمعاً، وكانوا قوام جيوشه، ومن جهة أخرى فقد كانت القاعدة
الجديدة تقع في حمى جبل درن من شعب الأطلس.
ونزل يوسف في محلته
بالخيام أولا ودون أن تبنى أسوارها، ثم أقيمت بها القصور والأبنية فيما بعد،
واختط بها الناس وحفرت بها الآبار، على أن مراكش لم يكمل بناؤها وتتسع

رقعتها، ويقام سورها العظيم، إلا في عهد على بن تاشفين ولد يوسف، وذلك في سنة ٥٢٦ هـ.

وقد كان القسم الذى أنشأه يوسف من مدينة مراكش العظيمة، يشمل القسم الذى يعرف بسور الحجر فيما بينه وبين جامع الكتبيين، وهو الذى يعرف اليوم بالسجينة.

وقد غدت مراكش في فترة يسيرة من أعظم المدن المغربية وأجلها، وغدت من ذلك التاريخ، قاعدة الدول المغربية العظيمة، ما عدا دولة بنى مرين، ولعبت في تاريخ المغرب أعظم دور.

وما زالت تحتفظ حتى اليوم بكثير من روعتها وجلالها القديم (١) .

وعمل يوسف في ذلك الحين على تقوية جيشه وحرسه، فاقتنى من العبيد نحو ألفين، وبعث إلى الأندلس فاشترى عدداً كبيراً من العلوج والأرقاء النصارى، وأنشأ منهم فرقة قوية من الفرسان برسم حرسه وحجابته، واشتهرت فيما بعد ببلائها في مواقع كثيرة، واستعان يوسف على نفقاته العسكرية بما فرضه يومئذ على اليهود من ضرائب فادحة اجتمع له منها مال كثير (٢) .

وما كاد يوسف ينتهى من إنشاء حاضرته، وتنظيم جيشه. حتى تأهب لفتح مدينة فاس عاصمة المغرب القديمة، وأعظم مدائنه يومئذ.

وكانت الجيوش

---

(١) راجع في إنشاء مراكش: روض القرطاس ص ٨٩، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٧.

وراجع ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة مراكش.

(٢) الحلل الموشية ص ١٣.

المرابطية، قد تضخمت في تلك الأثناء، وعنى يوسف بتنظيمها، وتجهيزها بالرماة والعدة، والبنود والطبول، ويقال إنها بلغت يومئذ أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة، وجزولة، وزناتة، والمصامدة.

وفى أواخر سنة ٤٥٤ هـ

سار يوسف لافتتاح مدينة فاس، فتلقته قبائلها من زواغة ولماية ولواتة وصدينة

ومغيلة ومديونة وغيرها، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة، انهزمت فيها تلك القبائل، وامتنعت بصدينة، فاقتحمها يوسف، وقتل منها عدة آلاف.

ثم سار إلى فاس، ونازل أولا قلعة فازاز وهى من حصونها الأمامية، ثم زحف على فاس ذاتها، وبها صاحبها معنصر المغراوى، وافتتح حصونها تباعاً، ثم اقتحمها، وذلك في سنة ٤٥٥ هـ، واستعمل عليها عاملا من لمتونة.

وسار بعد

ذلك إلى بلاد غمارة، وغلب على كثير من نواحيها، حتى أشرف على طنجة.

وفى خلال ذلك عاد بنو معنصر المغراوى إلى فاس، فاقتحموها وقتلوا عامل يوسف، واحتلوها، واضطر يوسف أن يعود لمنازلتها، فسار إليها في جيش ضخم، وضرب حولها الحصار بشدة، ثم اقتحمها عنوة، وقتل بها كثيراً من مغراوة وبنى يفرن، وذلك في أوائل سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) .

- ٣ -

ويجب قبل أن نتم الكلام عن فتوح يوسف، أن نعطف على واقعة كان لها أثرها الحاسم في حياة يوسف، وفي مصاير دولة المرابطين، وذلك أن الأمير أبا بكر اللمتونى بعد أن نظم شئون الصحراء، وقضى في غزواته بضعة أعوام، نمى إليه ما وفق إليه ابن عمه يوسف من الفتوح العظيمة، ومن ضخامة السلطان

واستقراره، فقرر أن يعود إلى المغرب ليسبر غور الأمور، وربما جال بخاطره

أن يعزل يوسف، وأن يسترد هو سلطانه، باعتباره أمير المرابطين الشرعى.
ويقول لنا صاحب الحلل الموشية إن مقدم أبي بكر من الصحراء إلى المغرب كان فى
سنة ٤٦٥ هـ، وإنه نزل بمحلته خارج مدينة أغمات، فهرع صحبه إلى مراكش العاصمة الجديدة، لرؤيتها والسلام على يوسف، واستقبلهم يوسف بالترحاب، وأغدق عليهم الهدايا والصلات (١) .
وأدرك أبو بكر مبلغ ما انتهى إليه يوسف
من الضخامة والتوطد، وما يتمتع به من المحبة والنفوذ بين طائفته، وأنه لم يبق

---

(١) الحلل الموشية ص ١٣ و ١٤.

(٣١١/٢)

له أمل في انتزاع شىء مما في يده.
بيد أنه يبدو لنا على ضوء رواية ابن أبي زرع
وابن خلدون أن مقدم أبي بكر إلى المغرب كان قبل ذلك بقليل.
ذلك أن زينب
النفزاوية زوجة يوسف، لعبت دوراً في لقاء الرجلين.
وقد توفيت زينب فى
سنة ٤٦٤ هـ.
وخلاصة هذه الرواية أن يوسف شعر عند مقدم أبي بكر بدقة الموقف، وما يتهدد سلطانه، فاستشار زوجه زينب النفزاوية في الأمر، وكانت إلى جانب جمالها من أعقل نساء زمانها، وأبعدهن نظراً، وكان مذ تزوجها يرجع إليها في عظائم الأمور، ويعتمد على نصحها، وذكائها، وحسن سياستها
فأشارت عليه بأن يستقبل أبا بكر بالجفاء والغلظة، ويشعره بقوة السلطان

والاستبداد، ويلاطفه مع ذلك بالهدايا والطعام والخلع بما يصلح للصحراء.
وسار
يوسف للقاء أبي بكر، فالتقيا بموضع بين أغمات ومراكش.
وشعر أبو بكر
مما أبداه يوسف، ومن تعاليه في السلام عليه وهو راكب فرسه، أنه حريص على سلطانه، مستعد للدفاع عنه، وزهد في التنافس والقتال، وأوصى يوسف باتباع العدل والرفق، ثم ودعه وعاد إلى الصحراء، وقد زوده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة، من المال والخيل والبغال والأسلحة المحلاة بالذهب، والجوارى والثياب الفاخرة والمؤن والدواب، وهنالك استأنف الجهاد والغزو
حتى قتل في بعض غزواته وذلك في سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) (١) .
وقضى يوسف أعواماً أخرى في إتمام فتح المغرب، حتى سيطر على معظم نواحيه، ودوخ سائر قبائله.
وفى سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) نراه وقد أشرف
على طنجة، وانتزعها من يد صاحبها الحاجب سكوت (أوسواجات)
البرغواطى
وهو في نفس الوقت صاحب سبتة.
وكان سكوت من موالى بني حمود، وقد
ولى حكم سبتة في أواخر أيامهم، ثم استولى على طنجة، وقوى أمره في ذلك الركن المنعزل من المغرب، وأطاعته قبائل غمارة، واستمرت ولايته زهاء عشرين عاماً.
فلما زحفت الجيوش المرابطية إلى تلك الناحية، اعتزم سكوت
الدفاع عن ملكه، وكان شيخاً في التسعين من عمره، ولكنه كان فارساً مقداماً.
فالتقى بالمرابطين في وادي منى على مقربة من طنجة، وقاتل حتى قتل ومزق

جيشه، وسقطت طنجة في أيدى المرابطين، واعتصم ولده يحيى بن سكوت

---

(١) روض القرطاس ص ٨٦، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٦.

(٣١٢/٢)

بسبتة.

وفى سنة ٤٧٤ هـ زحف يوسف على المغرب الأوسط، واستولى
على مدينة وجدة، ثم استولى على تلمسان ووهران، واستمر في سيره المظفر
حتى
تونس فافتتحها، واستولى بذلك على سائر شواطىء المغرب وثغوره الشمالية،
وقضى على سلطان سائر الأمراء المحليين الذين كانوا يقتسمون المدن
والثغور
يومئذ، وشمل سلطانه جميع الأقطار الغربية، حتى تونس شرقاً وحتى المحيط
الأطلنطى غرباً، ومن البحر المتوسط شمالا حتى حدود السودان جنوباً (١) .
وهكذا قامت الدولة المرابطية الكبرى، وأقامتها عبقرية رجل واحد، وهو يوسف
بن تاشفين، بعد أن وضع أسسها الأولى فقيه متعصب هو عبد الله
ابن ياسين، واستحالت بسرعة على يد أبي بكر اللمتونى ثم يوسف من بعده،
من زعامة دينية محلية، إلى ملك سياسى ضخم.
وقد ذكرت لنا الرواية عن
هذا الزعيم الموهوب والجندى العظيم بعض معلومات خلاصتها، أنه أبو
يعقوب
يوسف بن تاشفين بن ابراهيم بن ترقوت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة
ابن أمية الحميرى الصنهاجي اللمتونى، فهى بذلك تنسبه إلى حمير، وأمه
حرة
لمتونية اسمها فاطمة بنت سير بن يحيى.

وقد ولد بالصحراء في سنة ٤٠٠ هـ
(١٠٠٩ م) .
بيد أننا لا نعرف شيئاً عن حياته ونشأته الأولى، وتذكره لنا
الرواية لأول مرة في سنة ٤٤٨ هـ، حينما ندبه الأمير أبو بكر اللمتونى
ليكون
قائداً لجيش المرابطين الزاحف لغزو المغرب.
وكان يوسف يومئذ في الثامنة
والأربعين من عمره.
ومن ذلك التاريخ فقط، تتبع الرواية أعمال يوسف
وفتوحه العظيمة المتعاقبة.
وهى التي فصلناها فيما تقدم.
وتنوه الرواية بورع
يوسف وزهده، وبساطته وتواضعه، فقد كان بالرغم مما أتاه الله من بسطة فى
الملك والنعم، آية في التقشف، يرتدى الصوف طول حياته، ولا يرتدى سواه
قط، ولا يأكل سوى الشعير ولحوم الإبل وألبانها.
وكان بطلا شجاعاً حازماً، مهيباً، دائب التفقد لبلاده وثغوره، وأحوال رعيته،
مجاهداً لا يفتر عن متابعة
الجهاد، منصوراً مظفراً في معظم الوقائع التي خاضها، جواداً كريماً عادلا
رفيقاً، ينأى عن إرهاق رعيته بالمغارم المحرمة، ولا يفرض منها إلا ما يجيزه
الشرع، من الزكاة والأخماس والأعشار، وجزية أهل الذمة.
وأما عن شخصه،

---

(١) روض القرطاس ص ٩٣، والاستقصاء ج ١ ص ١١٠.

فقد كان معتدل القامة، أسمر اللون، نحيف الجسم، خفيف العارضين، أكحل العينين، أقنى الأنف، جعد الشعر، رقيق الصوت (١) .

وقد حكم يوسف بن تاشفين، أعظم امبراطورية إسلامية قامت في الغرب الإسلامى، فهو فضلا عن إنشاء الإمبراطورية المغربية الكبرى، ممتدة فيما بين
تونس والمحيط، وما بين البحر وحدود السودان، قد انتهى بعد ظفره في موقعة
الزلّاقة على جيوش اسبانيا النصرانية حسبما نفصل بعد، إلى افتتاح ممالك الطوائف
الأندلسية، وبسط سيادة الدولة المرابطية المغربية على اسبانيا المسلمة، وبذا كانت
تمتد امبراطوريته عبر البحر شمالا حتى سرقسطة في شمال شرقى اسبانيا، وحتى
شنترين وأشبونة في قلب البرتغال.

وكان يوسف بن تاشفين في بداية أمره يلقب بالأمير، فلما فتح المغرب وترامت حدود مملكته، أراد بعض أشياخ المرابطين أن يحملوه على اتخاذ سمة
الخلافة، فأبى واكتفى باتخاذ لقب أمير المسلمين، وناصر الدين، وأصدر مرسومه، بأن يدعى له بذلك اللقب، وذلك في سنة ٤٦٦ هـ (٢) .

وفى أواخر
عهده، بعد أن ملك الأندلس، نصح له الفقهاء أن تكون ولايته من الخليفة لتجب طاعته على الكافة، فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله العباسى ببغداد، سفيراً ومعه هدية جليلة، وكتاب بما فتح الله عليه من الملك، وما أولاه من النصر، وطلب تقليده الولاية، فبعث إليه الخليفة بمرسوم الولاية، والخلع والتشاريف (٣)

ومما يؤكد لنا انضواء يوسف تحت لواء الخلافة العباسية، ذكره في سكته

لاسم

الخليفة العباسى (٤) .

- ٤ -

ننتقل الآن إلى تلك المرحلة الأخرى من حياة يوسف، وهى مرحلة تدخله في حوادث شبه الجزيرة الإسبانية، وهى مرحلة تتخذ في البداية طابع الجهاد في سبيل الله، ثم تنقلب بعد ذلك، إلى موجة جديدة من الفتح المرابطي.

---

(١) روض القرطاس ص ٨٧ و ٨٨، والحلل الموشية ص ١٢.

(٢) الحلل الموشية ص ١٦ و ١٧، وقد أورد لنا نص المرسوم.

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٤٥.

(٤) روض القرطاس ص ٨٨، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨.

(٣١٤/٢)

وقد سبق أن ذكرنا في أخبار مملكتى إشبيلية وبطليوس، ما انتهى إليه أمراء الطوائف.

عقب استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة

ومملكة بني ذى النون في سنة ٤٧٨ هـ.

وتهديده لهم جميعاً بالويل والفناء، من

وجوب الاستنصار بإخوانهم في عدوة المغرب، وإرسالهم بصريخهم المتوالى إلى

يوسف بن تاشفين، لينهض إلى نجدتهم وإغاثتهم.

وقد اختلفت الرواية فى

تفصيل مقدمات هذا الصريخ وظروفه.

والقول المشهور في ذلك، هو أن

سقوط طليطلة، كان هو العامل الجوهرى، الذى حمل ملوك الطوائف، على أن يتجهوا إلى الاستنصار بالمرابطين.

بيد أن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن هذا
الاتجاه يرجع إلى ما قبل سقوط طليطلة بعامين أو ثلاثة، فقد سقطت طليطلة في يد ملك قشتالة في صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو ١٠٨٥ م) ، ولكنا نجد
صريخ
الأندلس يتوالى على بلاط مراكش منذ سنة ٤٧٤ هـ، فقد وفد في ذلك العام على يوسف جماعة من أهل الأندلس، وشكوا إليه ماحل بهم من عدوان النصارى، وطلبوا إليه النجدة والعون، فوعدهم بتحقيق أمنيتهم (١) .
ثم توالى صريخهم
يعد ذلك.
ويحدثنا يوسف بن تاشفين نفسه عما تلقاه من صريخ الأندلس المتوالى في رسالته التي بعث بها عقب موقعة الزلاقة إلى المعز بن باديس أمير إفريقية، فيقول: " ولما بلغنا من استحواز النصارى، – دمرهم الله – على بلاد الأندلس ومعاقلها، والتزام الجزية لرؤسائها، واستيصال أقالمها، وإيطايهم البلاد داراً داراً، لا يتخوفون عسكراً يخرج إليهم، فيبدد جمعهم، ويفل حدهم، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان، ويأسرون النساء والصبيان، فخوطبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز المرة بعد المرة، وألوتنا الأعذار إلى
وقت الأقدار " (٢) .
ويؤيد ابن خلدون هذه الرواية، ويوردها بصورة أخرى، فيقول لنا إن المعتمد بن عباد خاطب أمير المسلمين يوسف، ملتمساً إنجاز
وعده في إنجاد الإسلام في الأندلس، وكاتبه أهل الأندلس كافة من العلماء والخاصة، فاهتز أمير المسلمين للجهاد، وبعث ابنه المعز في عساكر المرابطين إلى سبتة فنازلها
براً، وطافت بها سفن ابن عباد بحراً، ثم اقتحموها عنوة في ربيع الآخر

---

(١) الحلل الموشية ص ٢٠.

(٢) راجع رسالة يوسف عن موقعة الزلاقة، وقد نشرناها في باب الوثائق في نهاية الكتاب.

(٣١٥/٢)

سنة ٤٧٦ هـ، وأسر صاحبها يحيى بن سكوت ثم قتل.
وجاز ابن عباد بعد ذلك، وقصد إلى أمير المسلمين، ولقيه بفاس مستنفراً له في الجهاد، ونزل له عن
ثغر الجزيرة ليكون رباطاً لجهاده (١) .
ويقول لنا ابن أبي زرع، إن أمير
المسلمين لما عاد إلى مراكش في سنة ٤٧٥ هـ عقب فتحه لوهران وتونس، ورد
عليه كتاب المعتمد بن عباد، يعلمه بحال الأندلس، وما آل إليه أمرها من
تغلب العدو على معظم ثغورها، ويسأله الإنجاد والعون، فأجابه يوسف بأنه إذا
فتح الله عليه سبتة فإنه سوف يتصل بهم، ثم يحدثنا بعد ذلك عن الغزوة التي
قام بها ألفونسو في نفس العام، في أراضي إشبيلية وكيف اخترقها بقواته حتى
وصل إلى طريف، وخاض الماء بفرسه قائلا، هذا آخر الأندلس قد وطأته،
وأنه لما استولى على طليطلة اتفق أمراء الأندلس وكبراؤها على الاستنصار بيوسف
وكتبوا إليه جميعاً يلتمسون منه الغوث، وأنهم سوف يكونون معه يداً واحدة
في جهاد العدو.
فلما توالت كتب الأندلس على يوسف بعث ابنه المعز لافتتاح
سبتة، فحاصرها وافتتحها في شهر ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ، فسر بذلك أمير
المسلمين، وسار في الحال بقواته نحو الشمال ليجوز منها إلى الأندلس (٢)
.
وفى

أقوال ابن أبي زرع شيء من الغموض والتناقض في التواريخ.
ولكنه مع ذلك
يؤيد الواقعة الجوهرية، وهى أن اتجاه أمراء الطوائف إلى الاستنصار بأمير المسلمين، حدث قبل سقوط طليطلة ببضعة أعوام، وأن سقوط طليطلة لم يكن إلا عاملا جديداً في تقوية هذا الاتجاه وإذكائه.
وإنه ليلوح لنا أن فكرة استدعاء المرابطين لإنجاد الأندلس، قد خطرت لأول مرة للمعتمد بن عباد حينما اشتد ألفونسو في إرهاقه بطلب الجزية، وأرسل
إليه ابن شاليب اليهودى في اقتضائها، وذلك في سنة ٤٧٥ هـ ووقع عندئذ ما وقع
من بطش ابن عباد برسل ألفونسو، وخروج ملك قشتالة في قواته للانتقام من ابن عباد، واجتياحه لمملكته، وتخريبه لمدنها ومروجها، من إشبيلية جنوباً حتى مدينة طريف، وذلك حسبما فصلناه في موضعه من أخبار مملكة إشبيلية.
والظاهر أن المعتمد قد أدرك عندئذ، وإن يكن متأخراً، فداحة الخطأ الذى

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦.
وقد وهم ابن خلدون في واقعة عبور المعتمد إلى المغرب
وزيارته لأمير المسلمين.
والواقع أن هذه الزيارة تمت بعد موقعة الزلاقة.
(٢) روض القرطاس ص ٩٢ و ٩٣.

*(٣١٦/٢)*

ارتكبه، بخضوعه لملك قشتالة ومحالفته، وأدرك مدى ما تنطوى عليه سياسة هذا الملك القوى من الخديعة والغدر، واعتزم عندئذ أمره في استدعاء المرابطين.

وليس معنى ذلك أن ابن عباد كان ينفرد بهذا التفكير وهذا العزم، فلا شك أن معظم أمراء الطوائف قد جالت بخواطرهم تلك الفكرة، فقد كانوا جميعاً يشعرون بنفس الخطر، وكانوا جميعاً يعانون ضغط ملك قشتالة، وتخريبه لأراضيهم، وجشعه في استصفاء أموالهم باسم الجزية، بيد أن ابن عباد، قد كان كبير ملوك الطوائف، وكان يواجه في نفس الوقت أعظم الأخطار المباشرة

من عدوان ملك قشتالة، وكان حرياً بأن يتقدمهم في اعتناق هذه الفكرة وتنفيذها.

على أن فكرة الاستنصار بالمرابطين لم تكن دون معارضة، فقد كان ثمة بين ملوك الطوائف من يخشى عواقبها ويحذر ابن عباد من مغبة سياسته، وقد أجابهم

ابن عباد بكلمته المأثورة " رعى الجمال خير من رعى الخنازير"، يقصد بذلك أن خير له أن يغدو أسيراً لدى أمير المسلمين يرعى جماله، من أن يغدو أسيراً

لملك قشتالة النصرانى (١) .

ثم كان سقوط طليطلة بعد ذلك بعامين، فكان نذيراً لا شك في خطورته. وإذا كانت فكرة الاستنصار بالمرابطين، قد بدت من قبل لأمراء الطوائف أملا يداعبهم، فقد بدت عندئذ ضرورة ماسة، وبدت بالنسبة للأندلس مسألة حياة أو موت، ومن ثم فإن الصريخ الذى كان يتخذ من قبل صورة الكتب والدعوات الخاصة، يتخذ عندئذ صورته الرسمية، وتشاطر الأندلس كلها، أمراؤها وفقهاؤها وكافتها هذا الاتجاه، ويبعث ابن عباد وزميلاه المتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس، وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، سفارتهم الرسمية إلى أمير المسلمين، على يد أبي بكر عبيد الله بن أدهم قاضى قرطبة، وأبى إسحق بن مُقانا قاضى بطليوس، وأبى جعفر القليعى قاضى غرناطة، وأبى بكر بن زيدون وزير المعتمد (٢) .

وعبر سفراء الأندلس البحر إلى المغرب

وقصدوا إلى أمير المسلمين في مراكش، وكانت وفود الأندلس تتوالى من قبل

---

(١) راجع الروض المعطار ص ,٨٥

(٣) راجع الحلة السيراء ج ٢ ص ٩٩، والروض المعطار ص ٨٦، ونفح الطيب ج ٢

ص ٥٢٦.

وراجع دوزى: Histoire ; Vol.

III.

p.

١٢٤

(٣١٧/٢)

ذلك على يوسف مستعطفة باكية، ترجوه الغوث والإنجاد، فيستمع إلى قولهم، ويعدهم خيراً.

والظاهر أن سفارة الأندلس الرسمية لم تأت لكى تلتمس العون، دون قيد ولا شرط.

وقد وقعت بينها وبين أمير المسلمين مفاوضات أسفرت

عن عهود متبادلة، خلاصتها أن يتعاون أمير المسلمين وأمراء الطوائف في محاربة

النصارى، وأن يؤمن أمراء الطوائف في ممالكهم، وألا تحرض رعيتهم على شيء

من الفساد، ومن جهة أخرى فقد طلب أمير المسلمين عملا بنصح وزيره الأندلسي عبد الرحمن بن أسبط أن يُسلم إليه ثغر الجزيرة، وقد كان يومئذ من أملاك ابن عباد، لكى يكون قاعدة أمينة لعبور جيشه، وقد نزل ابن عباد عند هذه الرغبة، وأمر حاكم الجزيرة ولده يزيد الراضى بإخالائها.

لتكون رهن

تصرف أمير المسلمين (١) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما عمد إليه ملك قشتالة عقب استيلائه على طليطلة، من الكتابة إلى ابن عباد يطالبه بتسليم بلاده، وينذره بسوء المصير، وما كتب به كذلك إلى المتوكل بن الأفطس في هذا المعنى، وإلى ما رد به كل من الأميرين

المسلمين، على الملك النصرانى، وذلك في أخبار مملكتى إشبيلية وبطليوس.

***

وهكذا اعتزم أمير المسلمين أمره، بعد استشارة قومه وفقهائه، وقرر أن يلبى صريخ أهل الأندلس، وأن يبادر إلى غوثهم، ولم يك ثمة شك في أن يوسف

وقومه المرابطون، كانت تحدوهم نزعة الجهاد في سبيل الله، بيد أن أولئك الجند

الصحراويين الذين نشأوا في غمار القفر والبداوة، كانت تحدوهم في نفس الوقت

رغبة في رؤية الأندلس، وما اشتهرت به من الخصب والنعماء، وأن يبلوا حرب

النصارى (٢) .

ومن الصعب علينا في هذا الموطن، أن نستشف نيات يوسف

ْالتي كشف عنها فيما بعد، في افتتاح الأندلس وامتلاكها، بيد أنا نرجح أنه لم يكن

يجيش بمثل هذه النية في البداية، وأنها خطرت له فيما بعد، بعد أن درس أحوال

الأندلس، وأحوال أمرائها.

واستنفر يوسف سائر قواته وحشوده للجهاد،

---

(١) راجع كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢ و ١٠٣،

والحلل الموشية
ص ٣٢ و ٣٣.
(٢) الحلل الموشية ص ٣١.

(٣١٨/٢)

وكان قد تم له يومئذ فتح سبتة، فسار إليها، والجيوش تتلاحق في أثره من الصحراء، وبلاد الزاب، ومختلف نواحى المغرب، وأصلح مرافئها وحشد السفن لعبور قواته، وكان أول ما عبر منها قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة، عبرت إلى ثغر الجزيرة الخضراء، واحتلته وفقاً لما تم الاتفاق عليه، ثم أخذت الجيوش المرابطية تعبر تباعاً، حتى تم عبورها جميعاً إلى شبه الجزيرة.
وفى
في يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣٠ يونيه ١٠٨٦ م)
عبر
البطل الشيخ في بقية قواته.
وما كادت السفن العابرة تمخر عباب المضيق، حتى
اضطرب البحر وتعالت الأمواج، فنهض الزعيم المرابطي حسبما يحدثنا
بنفسه
وسط سفينته، وبسط يديه بالدعاء نحو السماء قائلا: " اللهم إن كنت تعلم أن
فى
جوازنا هذا خيرة للمسلمين، فسهل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك
فصعبه حتى لا أجوزه ".
ثم يقول لنا، إنه ما كاد يتم كلامه حتى " سهل الله
المركب، وقرب المطلب ".
وشاء ربك أن تعبر السفن المرابطية، في ريح
طيبة وبحر هادىء، وأن تصل إلى ثغر الجزيرة في سلام (١) .

________

(١) روض القرطاس ص ٩٣.
وهذا ما ذكره يوسف بن تاشفين نفسه في خطابه بالفتح
إلى المعز بن باديس.
(ويراجع الخطاب المذكور في باب الوثائق في نهاية الكتاب) .



الفصل الثانِي
موقعة الزلاّقة
مسير يوسف بن تاشفين وجيشه إلى إشبيلية.
المعتمد بن عباد يقدم الضيافات والمؤن.
لقاء
الملكين.
زيارة يوسف لإشبيلية.
كتبه إلى ملوك الطوائف للمشاركة في الجهاد.
مقدم أميرى غرناطة
ومالقة ومعز الدولة بن صمادح في قواتهم.
مسير الجيوش المرابطية والأندلسية إلى بطليوس.
مسيرها
إلى سهل الزلاقة.
ألفونسو السادس ومبادرته إلى التأهب للقاء المرابطين.
استعانته بسائر ملوك
النصارى.
مسيره إلى الجنوب للقاء المسلمين.
مواقع الفريقين.
عدد قوات المسلمين والنصارى.
الجيش الإسلامى وأقسامه.

كتاب يوسف إلى ألفونسو.
رد ألفونسو ورد يوسف عليه.
بداية
المعركة.
عنف هجوم النصارى.
ثبات المعتمد بن عباد وجند إشبيلية.
مهاجمة ألفونسو للمرابطين.
اندفاع المرابطين لإنجاد إخوانهم.
تغير وجه المعركة.
مهاجمة النصارى لمعسكر المرابطين.
تطويق
قوات لمتونة وصنهاجة للنصارى.
المعركة الهائلة.
تمزق صفوف القشتاليين.
اشتداد هجوم المرابطين
من الناحيتين.
كثرة القتل بين النصارى.
نزول حرس يوسف الأسود إلى المعركة.
جرح ألفونسو
وفراره.
تقدير خسائر الفريقين.
مسير ألفونسو في فلوله إلى طليطلة.
مبالغة الرواية الإسلامية فى
تقدير خسائر النصارى.
ذيوع أنباء النصر في الأندلس والمغرب.
رسالة يوسف عن الفتح.

لقب
أمير المسلمين وهل اتخذه يوسف عقب الزلاقة.
إحجام يوسف عن مطاردة النصارى وبواعثه.
عود الجيوش الأندلسية إلى قواعدها.
الثناء على المعتمد بن عباد وثباته.
تنويه أمير المسلمين ببطولته.
يوسف يتلقى نبأ وفاة ولده.
إسراعه بالعود إلى المغرب.
ما يقال في بواعث هذه الحركة.
نصر
الزلاقة وطابعه.
المعنى الصليبى الذى ينطوى على لقاء المسلمين والنصارى.
دعوة ألفونسو عقب
هزيمته إلى إنشاء جبهة نصرانية.
شعور المؤرخين المسلمين بخطورة الموقعة وصبغتها الصليبية.
ما قيل
حولها من الأساطير.
أثر الزلاقة ونتائجها الحاسمة.
انتعاش قوى الأندلس.
تحرر ملوك الطوائف
من نير قشتالة.
ارتداد سيل الجيوش النصرانية عن الأندلس.
الإسلام يغنم في اسبانيا حياة جديدة.
نزل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ثغر الجزيرة الخضراء، في يوم
الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣٠ يونيه ١٠٨٦ م) ، وجيوشه
الجرارة تحيط بها من كل صوب.

وما كاد يطأ بقدميه أرض الأندلس، حتى
سجد لله شكراً، ثم أخذ في تحصين الجزيرة، وإصلاح أسوارها وأبراجها، ورتب لها حامية خاصة من جنده، ثم سار في قواته صوب إشبيلية.
وبعث المعتمد بن عباد ولده عبد الله لاستقبال يوسف بالجزيرة، ورتب تقديم المؤن والأطعمة والضيافات للجيش المرابطي، على طول الطريق إلى

(٣٢٠/٢)

إشبيلية، واستعد لذلك استعداداً عظيماً سر به يوسف.
ولما اقترب يوسف من
إشبيلية خرج المعتمد إلى لقائه في وجوه أصحابه وفرسانه، وتعانق الملكان، وأبدى كل منهما لأخيه منتهى المودة والإخلاص، وتضرعا إلى الله أن يجعل جهادهما خالصاً لوجهه، وقدم ابن عباد إلى أمير المسلمين جليل الهدايا والتحف، وقدم المؤن والضيافات الكافية لسائر الجيش القادم، وقرت عينه بما رآه من
ضخامته وروعة استعداده، وأيقن ببلوغ النصر المنشود.
وفى اليوم التالى سار
أمير المسلمين إلى إشبيلية، تلاحقه قواته، وأقام هناك ثلاثة أيام.
وكان يوسف
قد كتب في أثناء ذلك إلى سائر ملوك الطوائف، يدعوهم إلى اللحاق به، والمشاركة في الجهاد في سبيل الله، وكان أول من لبى دعوته منهم عبد الله بن بلقين
صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة، واعتذر المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية
بضعفه وكبر سنه، وتوجسه من عدوان النصارى في حصن لييط (أليدو) ، وبعث
ابنه معز الدولة في فرقة من جنده.

ثم سار أمير المسلمين في جيوشه الجرارة، ومعه ابن عباد في قوات إشبيلية، وقرطبة، وقصدوا إلى بطليوس، فلقيهم
أميرها عمر المتوكل على مقربة منها، وقدم إليهم المؤن والضيافات الواسعة، وأنفق
أمير المسلمين أياماً في بطليوس ينتظر وفود الرؤساء من سائر أقطار الأندلس، بعد أن علم وتأكد لديه أن كل واحد منهم مشغول بمدافعة النصارى (١) .
ولم يلحق
به منهم سوى عبد الله وأخيه تميم ومعز الدولة.
وانتظمت القوات الأندلسية
إلى وحدة قائمة بذاتها يتولى قيادتها ابن عباد، واحتلت المقدمة، واحتلت الجيوش المرابطية المؤخرة، وانتهت الجيوش الإسلامية المتحدة في سيرها إلى سهل يقع شمالى بطليوس على مقربة من حدود البرتغال الحالية، ويمتد مصعداً
نحو قورية، وتسميه الرواية العربية بالزلاقة (٢) .
وكانت أنباء عبور المرابطين إلى شبه الجزيرة، قد وصلت إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة، وهو محاصر لسرقسطة، وذلك في أواخر يوليه أو أوائل أغسطس ١٠٨٦ م (جمادى الأولى سنة ٤٧٩) ، فترك الحصار على عجل،

---

(١) راجع رسالة يوسف إلى المعز بن باديس السابقة الذكر.
(٢) راجع الحلل الموشية ص ٣٣ و ٣٤، والروض المعطار ص ٨٧ - ٩٠، وسهل الزلاقة
يعرف بالإسبانية Sagrajas، وهو يقع على قيد ثلاثة مراحل من شمال بطليوس إلى يسار نهر
جريرو، أحد أفرع وادي يانة.

وتنفس مخنق المستعين بن هود صاحب سرقسطة، وبعث ألفونسو إلى سانشو راميرز ملك أراجون يستدعيه لإنجاده، وكان يومئذ قائماً بحصار طرطوشة، وبعث كذلك إلى أمراء ما وراء البرنيه، وحشد كل ما استطاع حشده من قوات جليقية وأشتوريش وبسكونية (نافار) ، واستدعى قائده ألبار هانيس بقواته من بلنسية، وتقاطر إليه سيل من الفرسان المتطوعة من جنوبى فرنسا وإيطاليا.

واعتزم ألفونسو أن يلقى الأعداء في أرضهم حتى لا تخرب بلاده إذا وقعت به

الهزيمة، وسار على رأس القوات النصرانية المتحدة إلى الجنوب للقاء المسلمين، وهو واثق من تفوق قواته في العدد والعدة، والكفاية الفنية، ولم تصله أنباء

دقيقة عن حالة الجيش الإسلامى (١) .

واستقرت الجيوش النصرانية، في مكان يبعد نحو ثلاثة أميال عن المعسكر الإسلامى، يفصل بينها وبين المسلمين فرع وادي يانة الممتد شمالا في اتجاه نهر " التاجُه " والذى يسمى اليوم " جريرو ".

وجعل ألفونسو على مقدمة

جيشه، قائده ألبار هانيس، وكانت تتألف في معظمها من جنود أراجون، والمتطوعة.

وقد اختلفت الرواية في تقدير قوات المسلمين والنصارى.

وتقدر

بعض الروايات العربية جيش النصارى بثمانين ألف مقاتل، ويقدرها البعض الآخر بخمسين ألفاً أو أربعين ألفاً.

وأما الجيش الإسلامى، فيقدره البعض

بثمانية وأربعين ألفاً، والبعض الآخر بعشرين ألفاً، على أنه يبدو من الروايات المختلفة أن النصارى كانوا يفوقون المسلمين في العدد (٢) .

وكان الجيش الإسلامى، ينقسم حسبما قدمنا إلى وحدتين كبيرتين: قوات الأندلس، وتحتل المقدمة
ويقودها المعتمد بن عباد، ويقود منها المتوكل بن الأفطس قوات الميمنة، ويشغل
أهل شرقى الأندلس الميسرة، وأما القوات المرابطية، فكانت تحتل المؤخرة، وتنقسم إلى قسمين، يضم الأول فرسان البربر من سائر القبائل، ويتولى قيادته
داود بن عائشة أبرع قواد البربر، ويتولى يوسف قيادة الجيش الإحتياطى المؤلف من نخبة أنجاده المرابطين من لمتونة وصنهاجة وغيرهما من القبائل البربرية.
ولبث الجيشان الخصيمان، كل منهما تجاه الآخر لا يفصلهما سوى النهر،

---

(١) R.
M.
Pidal: La Espana del Cid, p.
٣٣١ & ٣٣٢
(٢) راجع الحلل الموشية ص ٣٨، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢، ونفح الطيب ج ٢
ص ٥٢٨، والمعجب للمراكشى ص ٧١.

(٣٢٢/٢)

مدى أيام ثلاثة، والرسل تتجاوب بينهما.
وكتب يوسف قبيل المعركة إلى ملك
قشتالة، عملا بأحكام السنة كتاباً يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام، أو الجزية
أو الحرب (١) ، ومما جاء فيه: " بلغنا يا أدفونش، أنك دعوت إلى الاجتماع

بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك، وما دعاء الكافرين

إلا في ضلال ".

فاستشاط ألفونسو لذلك الخطاب غضباً، ورد على أمير المسلمين بكتاب غليظ يفيض بالوعيد، فاكتفى يوسف بأن رد إليه كتابه ممهورا بتلك العبارة، " الذى يكون ستراه " (٢) .

وحاول ألفونسو خديعة المسلمين في تحديد يوم الموقعة، فكتب إلى المعتمد ابن عباد، يوم الخميس، يقول له إن غدا يوم الجمعة، وهو عيدكم، وبعده السبت يوم اليهود، وهم كثير في محلتنا، وبعده الأحد وهو عيدنا، فيكون اللقاء

بيننا يوم الاثنين، فأدرك ابن عباد ويوسف خديعته، وجاءت طلائع المعتمد في الليل تتنبىء أن معسكر النصارى في حركة وضوضاء وجلبة أسلحة، مما يدل

على استعداد القوم لبدء القتال.

ومن ثم فقد لبث المسلمون على أهبتهم حذرين

متحفزين (٣) .

وقد حدث في الواقع ما توقعه المسلمون، فإنه ما كاد يتنفس صبح اليوم التالى، وهو يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ (٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) (٤) ،

---

(١) راجع رسالة يوسف إلى المعز بن باديس السابقة الذكر.

(٢) الحلل الموشية ص ٣٥ و ٣٨، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٧، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢

(٣) الحلل الموشية ص ٣٩، والروض المعطار ص ٩٢,

وهذا ما يقرره يوسف نفسه فى

خطابه عن الموقعة إلى المغرب (راجع روض القرطاس ص ٩٧) .
(٤) تختلف الرواية الإسلامية في تحديد تاريخ المعركة، فيقول ابن خلكان
(نقلا عن البياسى)
إنها كانت يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٤٧٩ هـ (ج ٢ ص ٤٨٤) ويتفق ابن
الأثير معه في السنة، ولكنه يقول إنها كانت في أوائل رمضان (ج ١٠ ص
٥٣) .
ويقول المراكشى إنها كانت فى
رمضان سنة ٤٨٠ هـ (ص ٧٢) .
ولكن ورد في روض القرطاس (ص ٩٦) ، وفي الحلل الموشية
(ص ٤٠ و ٤١) أنها كانت يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ.
وهذا هو التاريخ الصحيح، وهو الذى يذكره يوسف بن تاشفين في خطابه
بالفتح إلى عدوة المغرب، حيث يقول في ختامه
" وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة الثاني عشر لرجب
سنة تسع وسبعين وربعمائة =

(٣٢٣/٢)

حتى زحف النصارى وابتدأ القتال، واشتبك الجيشان في معركة عامة،
فهجمت مقدمة القشتاليين والأرجونيين التي يقودها ألبارهانيس، على مقدمة
المسلمين المؤلفة من القوات الأندلسية، والتي يقودها ابن عباد.
وكان هجوماً
عنيفاً ردها عن مواقعها، واختل نظامها فارتد معظمها نحو بطليوس.
ولم
يثبت في وجه المهاجمين سوى المعتمد وفرسان إشبيلية، فقاتلوا النصارى
بشدة، وأثخن أميرهم الباسل جراحاً، وتفرق معظمهم من حوله، وكثر القتل في
جند
الأندلس، وكادت تدور عليهم الدائرة، دون أن يتقدم لإنجادهم أحد.

وفى
الوقت نفسه كان ألفونسو قد هاجم مقدمة المرابطين، التي يقودها داود بن
عائشة، وردها أيضاً عن مواقعها.
ففى تلك الآونة العصيبة، دفع يوسف
بقوات البربر التي يقودها أبرع قواده، وهو سير بن أبي بكر اللمتونى
لإنجاد الأندلسيين والمرابطين معاً، ونفذ بقواته إلى قلب النصارى
بشدة، وسرعان ما تغير وجه المعركة، واسترد الأندلسيون والمرابطون
ثباتهم، وعاد الفارون إلى صفوفهم.
واضطرمت المعركة في هذا الجناح رائعة، ترجح بها كفة المسلمين، وكان
ألفونسو، في ذلك الوقت قد تقدم في هجومه، حتى صار أمام خيام
المرابطين، واقتحم الخندق الذى يحميها، ولكن حدث فى
نفس الوقت، أن لجأ يوسف إلى خطة مبتكرة، إذ تقدم في قواته الاحتياطية
من
لمتونة وصنهاجة، وتجاوز النصارى المهاجمين، وقصد إلى المعسكر
النصرانى ذاته، وهاجمه بشدة، وكانت تحرسه قوة ضعيفة، ففتك بها، ووثب
إلى مؤخرة
القشتاليين، وأثخن فيهم من الوراء، وطبوله تضرب حول جيشه فيشق دويها
الفضاء، ثم أضرم النار في محلة القشتاليين، فارتفعت ألسنتها في الهواء، فلما
علم
ألفونسو بما حل بمعسكره، ارتد من فوره لينقذ محلته من الهلاك، فاصطدم
بمؤخرة
المرابطين، ووقعت بين قوات العاهلين معركة هائلة، مزقت فيها صفوف
القشتاليين
ولم يستطع الملك النصرانى أن يصل إلى محلته إلا بعد خسائر فادحة،
وهنالك
استؤنفت المعركة، ويوسف فوق فرسه يصول ويجول، ويحث جنده على

= موافق الثالث والعشرين لشهر أكتوبر العجمى (روض القرطاس ص ٩٨)

.

وهذا التاريخ نفسه

أعنى ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦، هو الذى تضعه الرواية النصرانية للموقعة.

والظاهر أن أصحاب التواريخ

المخالفة لم يطلعوا على كتاب يوسف بالفتح.

وراجع أيضاً: Dozy: Histoire, V.

III.

p.

notes & ١٢٩

(٣٢٤/٢)

الثبات، ويرغبهم في الاستشهاد، ودوى الطبول من حوله يصم الآذان.

وينوه

الأستاذ بيدال بتأثير وقع الطبول وضجيجها في اضطراب القشتاليين، ويقول

إنه لم يسبق من قبل أن عرفت الجيوش الإسبانية، مثل هذا الضجيج الذى

تهتز

له الأرض، ومن جهة أخرى، فقد عمد المرابطون إلى القتال في صفوف

متراصة

متناسقة ثابتة، وهى أيضاً خطة جديدة لهم في القتال، ولم يكن للفرسان

النصارى عهد بمثلها، إذ كانوا معتادين على القتال الفردى.

ومن ثم فقد ألفوا

أنفسهم بالرغم من تفوقهم في السلاح، عاجزين عن مناهضة هذه الصفوف

المتراصة التي تفوقهم بكثافتها وعديدها (١) .

واشتد هجوم المرابطين في نفس الوقت بقيادة سير بن أبي بكر على مقدمة

القشتاليين التي يقودها ألبارهانيس، واستردت جيوش الأندلس كل إقدامها وشجاعتها، وكثر القتل من الجانبين في صفوف القشتاليين.

وكانت الضربة

الأخيرة أن دفع يوسف بحرسه الأسود، وقوامه أربعة آلاف مقاتل إلى قلب المعمعة، واستطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة، وأن يطعنه بخنجره في فخذه

طعنة نافذة.

وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب، وأدرك ألفونسو وقادته

وفرسانه أنهم يواجهون الموت، إذا استمروا في موقفهم، وعندئذ بادر ألفونسو في فل من صحبه وأشرافه إلى التراجع، والاعتصام بتل قريب حتى دخل الليل، فسار وصحبه تحت جنح الظلام، وتقدر الرواية من أفلت مع ملك قشتالة بنحو

أربعمائة أو خمسمائة فارس، معظمهم جرحى.

وكانت صفوف النصارى قد

مزقت عندئذ في كل ناحية شر تمزيق، وتعالت أكوام الأشلاء والجرحى، وطورد الفارون في كل مكان، وهلك كثيرون منهم أثناء المطاردة، ولم ينقذ البقية الباقية من النصارى سوى دخول الظلام، وأمر يوسف بوقف المطاردة. وأمضى المسلمون الليل في ميدان الحرب، يرقبون حركات النصارى، وفى صباح اليوم التالى أخذت فرسانهم في مطاردة المتخلفين، وعمدت قوة أخرى إلى جمع الأسلاب وكانت عظيمة وافرة.

ويشير يوسف في رسالته بالفتح

إلى المعز بن باديس، إلى وفرة الغنائم من الخيل والبغال والحمير والثياب والأوبار

---

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٥، والحلل الموشية ص ٤٢، وراجع أيضاً: R.

.M

.Pidal: ibid ; p

٣٣٩ & ٣٣٥

(٣٢٥/٢)

ويقول لنا إن الفارس الواحد كان يربط معه خمسة أفراس أو أزيد.

وتقول الرواية الإسلامية، إنه لم ينج من الجيش النصرانى سوى خمسمائة

فارس أو أقل، هم الذين فروا مع ملك قشتالة.

وتابع ملك قشتالة فراره مع

فلوله ولم يتوقف إلا عند قورية، على بعد عشرين مرحلة من ميدان الموقعة.

وتضيف الرواية إلى ذلك أن معظم أولئك الفرسان الفارين كانوا مثخنين

بالجراح، فمات معظمهم في الطريق، ولم يصل منهم إلى طليطلة مع مليكهم

سوى مائة (١) .

وهذا هو نفس ما يقرره يوسف في خطاب الفتح الرسمى الذى بعث به إلى

المغرب

حيث يقول: " وتسلل ألفنش تحت الظلام فاراً لا يهدى ولا ينام، ومات

من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة فلم يدخل طليطلة إلا

في مائة

فارس " (٢) .

بيد أنه في رسالته التي بعث بها إلى المعز بن باديس، والتي يصف

لنا فيها معركة الزلاقة تفصيلا ولاسيما الدور الذى قام به مع جنده، يقول لنا،

إنه علم أن الذى انقطع به ألفونسو من عسكره يبلغون نحو ألفى رجل، قد

أثخن

معظمها جراحة، وأنهم انتظروا حتى دخول الليل، ثم لجأوا إلى الفرار.

ثم

تقول الرواية الإسلامية أيضاً إن المسلمين لم يخسروا في المعركة سوى نحو

ثلاثة
آلاف (٣) ، ويقول لنا يوسف في رسالته إنه قُتل من أكابره نحو العشرين، هذا
في حين أن النصارى قد هلك معظمهم.
وتذهب في تقدير خسائر النصارى إلى
حد قولها إنهم بلغوا نحو ثلاثمائة ألف (٤) .
بيد أن هناك أقوالا أكثر اعتدالا، فيروى مثلا أن أمير المسلمين أمر بقطع رؤوس القتلى من النصارى فقطعت
وجمعت، فاجتمع منها تل عظيم، أذن من فوقه للصلاة، واجتمع منها بين يدى
المعتمد بن عباد أربعة وعشرين ألفاً، وأن رؤوس القتلى التي وزعت على قواعد
الأندلس بلغت أربعين ألفاً، وأنه أرسل إلى المغرب أربعين ألفاً أخرى، لتوزع على قواعده.
ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن الروم (القشتاليين)
وكانوا ثمانين ألف فارس، ومائتى ألف راجل، فقتلوا أجمعين ولم ينج منهم
إلا ألفنش في مائة فارس، ومن الغريب أن هذه الأرقام نفسها هى التي وردت

---

(١) روض القرطاس ص ٩٦.
(٢) روض القرطاس ص ٩٨.
(٣) روض القرطاس ص ٩٦.
(٤) الحلل الموشية ص ٤٣.



خريطة:
موقعة الزلاّقة.

فى خطاب الفتح الرسمى الذى بعث به يوسف إلى المغرب (١) .
وهذه كلها
أقوال تحمل طابع المبالغة بلا ريب، وإن كانت الرواية النصرانية تجمع على أن
الموقعة كانت هائلة، وأن خسائر النصارى كانت فيها ذريعة فادحة.
ولا ريب
أيضاً أن خسائر المسلمين كانت عظيمة، وإن كانت أقل بكثير من خسائر النصارى، وليس من المعقول أن تقتصر على ثلاثة آلاف في مثل هذه الحشود
الضخمة.
ذلك أنه في معركة، يطبعها من الشدة والتفانى والحماسة الدينية، ما طبعت به موقعة الزلاّقة، لابد أن تكون الخسائر فيها فادحة من الجانبين، الظافر والمغلوب.
وذاعت أنباء النصر في الحال في سائر جنبات الأندلس، وطيرت إلى سائر القواعد الأندلسية.
واستبشر المسلمون في شبه الجزيرة بما آتاهم الله من عزيز
نصره.
وكتب يوسف بأنباء الواقعة أو بالفتح حسبما يوسم خطابه إلى بلاد العدوة، وكتب رسالته المسهبة عن الموقعة وأوصافها إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية، وهى التي أشرنا إليها فيما تقدم غير مرة.
وتجاوبت أصداء النصر في سائر مدن
المغرب وإفريقية، وعم الفرح والبشر سائر الناس، فأخرجوا الصدقات، وأعتقوا الرقاب.
وقيل إن يوسف اتخذ لقبه " أمير المسلمين " عقب نصر الزلاّقة (٢)

وأن أمراء الأندلس، حينما هنأوه بالنصر أسبغوا عليه هذا اللقب، ولكنا رأينا فيما تقدم، أنه اتخذ هذا اللقب بالمغرب قبل ذلك بأعوام عديدة.

بيد أنه مما يلفت

النظر أن أمير المسلمين وحلفاءه الأندلسيين، لم يحاولوا استغلال نصرهم بمطاردة

العدو داخل بلاده، والزحف إلى أراضي قشتالة، بل ولم يحاولوا السير إلى طليطلة لاستردادها، وهى كانت معقد المحنة التي دفعت ملوك الطوائف إلى الاستغاثة بالمرابطين.

ولو بذل المرابطون هذه المحاولة في الوقت الذى حطم

فيه جيش قشتالة وفتحت حدودها، لكللت بالنجاح بلا ريب.

وقد قيل لنا في ذلك إن ابن عباد نصح لأمير المسلمين بمطاردة ملك قشتالة والقضاء على فلوله، فاعتذر يوسف عن ذلك بحجة أنه يجب انتظار ورود

---

(١) روض القرطاس ص ٩٦ و ٩٧.

وراجع أيضاً أقوال الروايات الإسلامية الأخرى

عن خسائر النصارى في الموقعة، في ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٤، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣١، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣.

(٢) روض القرطاس ص ٩٦.

(٣٢٨/٢)

الفارين من المسلمين أولا، حتى لا يهلكهم النصارى.

ونسبت في ذلك إلى كلا

الرجلين نيات مريبة (١) .

وعلى أى حال فقد وقف نصر المسلمين عند هذا الحد، وتفرق الجيش الإسلامى، فارتد أمراء الأندلس كل إلى بلاده.

ونلاحظ فيما يتعلق بأمراء

الأندلس، وموقف كل منهم خلال المعركة، أن الرواية الإسلامية تخص المعتمد
ابن عباد بتقديرها وثنائها.
فقد انكشفت سائر القوات الأندلسية الأخرى في بداية
المعركة: قوات بطليوس وغرناطة وألمرية، وارتدت منهزمة صوب بطليوس، ولم
تعد إلى الميدان إلا حينما لاحت طوالع النصر.
ولكن المعتمد ثبت أمام القشتاليين
حسبما أسلفنا، وأبلى وجنده الإشبيليون خير البلاء، واثخن جراحاً ولم يغادر
ميدان المعركة، حتى تداركته النجدات المرابطية (٢) .
وينوه أمير المسلمين بثبات
المعتمد وبطولته في ذلك اليوم في خطابه بالفتح إلى المغرب إذ يقول: " ولم يثبت
فيهم (أى رؤساء الأندلس) غير زعيم الرؤساء والقواد أبو القاسم المعتمد بن
عباد، فأتى إلى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح، مريض عنة وجراح، فهنأه بالفتح
الجليل والصنع الجميل " (٣) .
وينوه بذلك أيضاً في رسالته إلى المعز بن باديس
ويذكر المعتمد فيها بعطف وإجلال، ويثنى عليه الثناء الجم.
بيد أنه مما كدر
صفو هذا النصر، أن تلقى أمير المسلمين في نفس هذا اليوم ذاته، نبأ وفاة
ولده وولى العهد الأمير أبي بكر، وكان قد استخلفه في مراكش وتركه مريضاً
بسبتة، فقرر العودة فوراً إلى المغرب، ويؤكد لنا صاحب روض القرطاس
أنه لولا ذلك المصاب ما عاد يوسف بمثل هذه السرعة (٤) .
بيد أنه قيل في ذلك
إن إسراع يوسف بالعود، لم يكن راجعاً إلى وفاة ولده، بل كان يرجع بالأخص

إلى استيائه وتبرمه بما شهده من أحوال أمراء الأندلس، وخلافاتهم فيما بين أنفسهم
وفيما بينهم وبين شعوبهم (٥) .
ومن ثم فقد عاد أمير المسلمين في قواته إلى إشبيلية
فاستراح بظاهرها أياماً، ثم قفل راجعاً إلى المغرب، تاريكاً من جنده ثلاثة آلاف
رهن تصرف المعتمد.

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٩٣.
(٣) روض القرطاس ص ٩٥، والحلل الموشية ص ٤٢، والروض المعطار ص ٩٢.
(٣) روض القرطاس ص ٩٧.
(٤) روض القرطاس ص ٩٨.
(٥) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٧.

(٣٢٩/٢)

ويعلق العلامة المستشرق الأستاذ كوديرا على ذلك بقوله: " إنه كان من
حسن الطالع بالنسبة للنصارى أن يوسف الظافر في الزلاقة، قد تلقى عقب نصره
نبأ وفاة ولده الأمير أبي بكر سير، واضطر أن يعود إلى مراكش تاركاً فكرة
مطاردة الجيش المنهزم، واجتناء الثمرة التي يمكن أن تجنى من مثل هذا النصر
العظيم، وهى الاستيلاء على طليطلة.
وهى فكرة كانت تبدو طبيعية ولكنها لم تكن
قد استقرت في ذهنه بصورة عملية، وذلك بالرغم مما يقوله لنا المؤرخون العرب

من أنه لولا موت ابنه لما غادر الأندلس بهذه السرعة.
وبالرغم من أن المؤرخين
يؤكدون أن هزيمة ألفونسو السادس كانت مروعة.
وأنه استطاع الفرار بمنتهى
المشقة، مع نفر قليل من صحبه، فإن قواته لم تتضعضع، كما يتصور،
بدليل أنه
لم يمض سوى قليل، حتى غدا في ظروف تسمح له بالهجوم، ولكن الحظ
كان
ضده دائماً " (١) .
***
وقد كان يوم الزلاّقة من أيام الإسلام المشهودة في انتصاره على النصرانية.
ومن الواضح أن لقاء الإسلام والنصرانية في سهول الزلاقة، إنما هو صفحة
من
سيرة الحروب الصليبية التي كانت اسبانيا أول مهاد لها.
والتي اضطرمت بعد
ذلك بقليل في المشرق، في الوقت الذى كانت تضطرم فيه في اسبانيا.
فموقعة الزلاقة
تعنى في الواقع أكثر من هزيمة لملك قشتالة، وأكثر من ظفر للمرابطين
وحلفائهم الطوائف.
ذلك أن فورة المرابطين الدينية، التي اجتاحت بوادي
المغرب ومدنه في فترة قصيرة، ثم عبرت البحر إلى اسبانيا لنصرة الدول
الإسلامية
بادىء ذى بدء، وانتزعتها من الطوائف بعد ذلك، كانت عنيفة رائعة، توجست
النصرانية منها، واستشفت في اضطرامها ذلك الخطر الداهم الذى كان غير
مرة
ينذر بمناهضة النصرانية فيما وراء اسبانيا.

وقد جاشت اسبانيا المسلمة بمثل هذه
الفورة بعد موقعة بلاط الشهداء وخلاص النصرانية على يد كارل مارتل (سنة ٧٣٢ م) مرتين: الأولى في عهد الناصر لدين الله، والثانية في عهد الحاجب المنصور، وفي كلتا المرتين، رُدت اسبانيا النصرانية إلى ما وراء الجبال الشمالية
ونفذ الإسلام إلى قاصية اسبانيا.

---

.F (١)
Codera: Decadencia y Desparicion de los Almoravides en Espana
.Zaragoza 1899) p)
٢٤٣

*(٢/٣٣٠)*

وإن تصرف ألفونسو ملك قشتالة عقب الموقعة، ليؤكد هذا المعنى الصليبى، الذى ينطوى عليه لقاء الزلاقة.
فهو قد شعر بأن ذلك التحالف بين الإسلام فى
إفريقية والأندلس، يوشك أن يقضى على اسبانيا النصرانية، وأنه لابد أن يقابله حلف بين قوى النصرانية، ومن ثم فقد بعث برسله وكتبه إلى الملوك والأمراء النصارى فيما وراء البرنيه، يهيب بهم ويحذرهم من الخطر الداهم، وينذرهم بأنهم إذا لم يتداركوه بالعون، فإنه سوف يضطر إلى الصلح مع المسلمين، وسوف يتركهم أحراراً في عبور البرنيه.
وقد ألفت صيحة ألفونسو
صداها في فرنسا، وفي مختلف الإمارات الفرنجية التي حولها، وبادر أمير برجونية
الدوق أودو، وهو صهر ألفونسو، إذ كانت عمته الملكة كونستانس، بحشد

الأمداد، وشاركه في ذلك الكونت دى سان جيل أمير تولوشة.
وهرع إلى
التطوع فرسان من نورماندى وبواتو، ومن سائر أنحاء فرنسا.
وسارت بالفعل
قوى الأمداد صوب اسبانيا.
ولكن ألفونسو حين علم بأن يوسف بن تاشفين قد
عبر البحر في معظم قواته عائداً إلى المغرب، بعث إلى الأمراء الفرنج
يشكرهم، وينبئهم برحيل المرابطين، وأنه لم تعد ثمة ضرورة لمقدمهم (١) .
واقتصرت الحرب الصليبية عندئذ على منطقة الثغر الأعلى، حيث كان
بنو هود أمراء سرقسطة، يواجهون عدوان سانشو راميرز ملك أرجوان،
ومحاولاته المتوالية للاستيلاء على تُطيلة، ووشقة، وطرطوشة، وكانت طوائف
المتطوعة من الفرنج تهرع إلى تلك الحملات الغازية، لتشترك فيها.
ويشعر المؤرخون المسلمون أنفسهم بخطورة موقعة الزلاّقة، وصبغتها
الصليبية، فيحيطون حوادثها بطائفة من الأساطير الدينية.
من ذلك ما قصه
علينا يوسف نفسه في رسالته لمناسبة عبوره البحر، من المغرب إلى
الأندلس، وما دعا به ربه حينما ثارت العواصف في وجه سفنه، وما تلا ذلك
من هدوء
العواصف والموج، وذلك حسبما فصلناه فيما تقدم (٢) .
ومن ذلك أن ملك قشتالة
حينما كان يتأهب لمحاربة المسلمين، توالت عليه الأحلام المرعبة، فرأى ذات
يوم أنه يركب فيلا، قد تدلى بجانبه طبل يحدث صوتاً مرعباً كلما قرعه، وأن
فقيهاً مسلماً من أهل طليطلة، فسر له ذلك الحلم بأنه نذير بهزيمته الساحقة،

---

(١) R.

M.

.Pidal: ibid ; p
٣١٠
(٢) روض القرطاس ص ٩٢.

(٣٣١/٢)

مشبهاً ذلك بما حدث عام الفيل من سحق أبرهة وقد كان يركب الفيل أيضاً
. (١)
ومنه مبالغات الرواية الإسلامية في فداحة خسائر النصارى، ومبالغتها في
نفس
الوقت في قلة خسائر المسلمين مما تقدم ذكره، إلى غير ذلك.
على أن هذه الأساطير والمبالغات لا يمكن أن تثير ذرة من الريب حول
أهمية
هذه الموقعة الشهيرة، ولا تنتقص من شأن نتائجها الحاسمة.
فقد كان من النتائج
العملية المباشرة لنصر الزلاقة، أن عادت إلى اسبانيا المسلمة روح الثقة
والأمل، وأخذت قواها المتخاذلة في الانتعاش والنهوض من عثارها، وأن
عادت إلى
الشعب الأندلسي روح الحماسة الدينية، التي كاد يقضى عليها أمراء الطوائف
بتصرفاتهم المشينة، وتراميهم على أعتاب الملوك النصارى، وتحرر أمراء
الطوائف
من ذلك الخزى الذى لحقهم عصراً بالخضوع لملك قشتالة، ونكلوا عن دفع
المغارم التي كان يقتضيها منهم برسم الجزية.
بيد أن هذه النتائج المحلية الخاصة، لا تعد شيئاً إذا قيست بالنتائج الهامة
البعيدة المدى، التي ترتبت على هذا النصر
الباهر.
ففى سهول الزلاقة ارتد سيل النصرانية الجارف عن الأندلس المسلمة، بعد أن

كان ينذرها بالمحو والفناء العاجل، وغنم الإسلام حياة جديدة في اسبانيا، امتدت إلى أربعة قرون أخرى، ومهدت السبل لسيطرة المرابطين على اسبانيا المسلمة، ومن بعدهم لخلفائهم الموحدين، وجعلت الأندلس، ولاية مغربية زهاء مائة وخمسين عاماً.

وبالرغم من أن حياة اسبانيا المسلمة، لم تكن من ذلك الحين سوى صراع دائم بينها وبين اسبانيا النصرانية، فإنها قد استطاعت أن تتابع نشاطها المنتج، وتقدمها الحضارى الباهر.

---

(١) الحلل الموشية ص ٣٥ و ٣٦.

(٢) راجع في تفاصيل موقعة الزلاقة: روض القرطاس ص ٩٣ - ٩٨، والحلل الموشية
ص ٣٣ - ٤٦، والمعجب للمراكشى ص ٧٠ - ٧٣.
والروض المعطار ص ٧٦ - ٩٤، ونفح
الطيب ج ٢ ص ٥٢٧ - ٥٣١، وابن خلكان ج ٢ عى ٤٨١ وما بعدها،
وابن الأثير ج ١٠
ص ٥٢ - ٥٣.
وراجع أيضاً Dozy: Histoire, V.
III.
p.
١٢٩ - ١٣٠، وكذلك R.
M.
Pidal:
ibid ; p.
٣٣١ - ٣٤٠

الفصل الثالِث

الفتح المرابطي

القسم اللأول

صريخ أهل شرقى الأندلس إلى يوسف.

النصارى يتخذون حصن لييط قاعدة للعدوان.

مسير

المعتمد إلى مرسية وفشله في استردادها.

عبور ابن عباد إلى العدوة واستنصاره بيوسف.

عبور يوسف

إلى الأندلس للمرة الثانية.

كتبه إلى الرؤساء ومسيره إلى شرقى الأندلس.

محاصرة القوات المرابطية

والأندلسية لحصن لييط.

صمود النصارى وعجز المحاصرين عن اقتحامه.

الخلاف بين أمراء الطوائف

وشكاويهم المتبادلة.

القبض على ابن رشيق وتسليمه لابن عباد.

غضب جند مرسية وأثره في المعسكر

المحاصر.

مقدم ملك قشتالة لإنجاد الحصن.

إنسحاب المسلمين وعودة يوسف إلى المغرب.

مقدم

يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة.

مشروعه في الاستيلاء على الأندلس.

بواعث هذا المشروع.

موقف ملوك الطوائف.

محالفة بعضهم لملك قشتالة.
فتاوى الفقهاء في شأنهم.
طمع المرابطين فى
خصب الأندلس.
العامل الدفاعى وأثره.
مسير يوسف إلى طليطلة وارتداده عنها.
مسيره إلى غرناطة.
عبد الله بن بلقين ومحالفته السرية مع ملك قشتالة.
محاصرة المرابطين لغرناطة.
سوء الأحوال داخل
المدينة.
خروج عبد الله وتسليمه لأمير المسلمين.
دخول المرابطين غرناطة.
استيلاؤهم على مالقة.
القبض على عبد الله وأخيه تميم وإرسالهما إلى العدوة.
مقدم ابن عباد وابن الأفطس وجفاء يوسف
نحوهما.
الوحشة بينهما وبين يوسف.
تأهب الجيوش المرابطية لافتتاح قواعد الأندلس.
خطة
يوسف لافتتاح إشبيلية.
فتاوى الفقهاء ضد المعتمد.
المعتمد وملك قشتالة.
أهباته الدفاعية.
استيلاء
سير ابن أبي بكر على طريف.

زحف الجيوش المرابطية على رندة وجيان وقرطبة.
سقوط جيان.
مهاجمة قرطبة واقتحامها.
مقتل حاكمها الفتح بن عباد.
قصة زائدة الأندلسية.
الأسطورة النصرانية
حولها.
الزعم بكونها ابنة المعتمد وزواجها من ألفرنسو السادس.
التفسير الحقيقى للأسطورة.
حقيقة شخصية زائدة.
نصوص تاريخية قاطعة.

عاد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى المغرب عقب موقعة الزلاقة فى شعبان سنة ٤٧٩ هـ، حسبما أسلفنا، ولبث في حضرته مراكش حتى أوائل العام التالى، ثم خرج منها ليطوف بالعمالات، ويتفقد أحوال البلاد، وكانت شئون الأندلس خلاك ذلك ما زالت تلاحقه، وكان أهل الأندلس، قد أيقنوا عقب موقعة الزلاقة، أنه لا سبيل لنجاتهم، وخلاصهم من إرهاق النصارى، سوى الالتجاء إلى عاهل المغرب وأنجاده المرابطين، ومن ثم فقد عادت كتب

(٣٣٣/٢)

أهل الأندلس ووفودهم تترى على يوسف، وتستجير به من عدوان النصارى.
وكان الصريخ هذه المرة آتياً بالأخص من أهل بلنسية ومرسية ولورقة، وكانت شئون شرقى الأندلس يومئذ قد سادها الاضطراب، من جراء تدخل القشتاليين في شئون بلنسية، وسيطرتهم عليها عن طريق صنيعتهم القادر بن ذى النون، وما تلا ذلك من مغامرات السيد إلكمبيادور في تلك المنطقة.
بيد أنه كان ثمة
مصدر آخر للعدوان المباشر في منطقة مرسية ولورقة وبسطة، هو حصن

أليدو
Aledo (وتسميه الرواية العربية حصن لييط) ، وكان ألفونسو السادس قد
بعث في ربيع سنة ١٠٨٥ م، على أثر استيلائه على طليطلة، قواته بقيادة
غرسيه
خمينس إلى الأندلس الشرقية.
لتغير عليها، وتعيث في أراضيها، فاجتاحت
المنطقة الواقعة بين مرسية ولورقة.
ثم عمد القشتاليون، لكى يبسطوا قبضتهم
على تلك المنطقة، إلى إنشاء حصن ضخم، وافر المناعة، في مكان يسمى
أليدو
(لييط) يقع بين مرسية ولورقة، وهو أقرب إلى لورقة، وشحنوه بالسلاح
والمقاتلة، واتخذوه قاعدة للإغارة على أراضي مرسية وألمرية، وبثوا فيها
الرعب
والروع، وعجزت القوات الأندلسية المحلية عن رد عدوانهم، حتى ضج أهل
هذه الأنحاء مما ينزل بهم من صنوف الضر والأذى، وكثر صريخهم
واستغاثاتهم، وتوالت كتبهم ورسلهم على أمير المسلمين في طلب الإنجاد
والغوث (١) .
وكان المعتمد بن عباد، وهو صاحب السيادة الشرعية على مرسية ولورقة،
أشد الناس اهتماماً بإنقاذ تلك المنطقة من عدوان القشتاليين.
وكان ألفونسو عقب
هزيمة الزلاقة قد عزز حامية لييط وضاعفها، وأوعز إلى قائده غرسية خمينس
بأن يشدد الضغط والتنكيل بأراضي لورقة ومرسية انتقاماً من المعتمد، لكونه
قد
خرج عليه، وعمل على استدعاء المرابطين (٢) ، وبلغت حامية هذا الحصن
الضخم
يومئذ ثلاثة عشر ألف مقاتل منهم ألف فارس، وكان يشاطر المعتمد هذا

الاهتمام، المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية، لما كان ينزل بأراضيه من عيث
نصارى أليدو (لييط) ، وكان المعتمد يتوق في نفس الوقت إلى استرداد سلطانه
الحقيقى في مرسية.
وهى يومئذ تحت حكم ابن رشيق الفعلى، فحشد حملة من
جنده، ومن المرابطين الذين تركهم يوسف، وسار أولا إلى لورقة، فامتنعت

---

(١) الحلل الموشية ص ٤٧ و ٤٨، وراجع: R. M. Pidal: ibid ; p. ٣١٩

(٢) روض القرطاس ص ٩٨، وكذلك: R. M. Pidal: ibid ; p. ٣٦١

(٢/٣٣٤)

عليه، فغادرها إلى مرسية.
وضرب حولها الحصار، ولكن ابن رشيق استطاع
أن يكسب المرابطين، وأن يقنعهم بأن يتركوه في سلام، وهكذا فشلت الحملة
وعاد ابن عباد إلى إشبيلية دون أن يحقق أى نجاح (١) .
فاعتزم المعتمد أمره في استدعاء يوسف، للمعاونة في قمع شر حامية أليدو
النصرانية، وعبر البحر بنفسه إلى المغرب مع بعض خاصته، فلقى أمير المسلمين
بوادي سبو، وأفضى إليه بملتمسه، وشرح له ما يلقاه المسلمون في منطقة

مرسية

ولورقة وغيرهما، من عسف النصارى وغاراتهم، وشنيع عيثهم، فوعده يوسف بإجابة ملتمسه، وكان قد تلقى قبل زيارة ابن عباد كثيراً من الكتب، من فقهاء الأندلس وأعيانها، يلحفون في رجاء الإنجاد والغوث، لقمع بغى القشتاليين، والاستيلاء على أليدو مركز بغيهم، وعاد ابن عباد إلى إشبيلية بعد أن اطمأن لوعد يوسف وتأكيداته، وأخذ في إعداد السلاح وآلات الحصار (٢) .

- ١ -

وأوفى يوسف بوعده، وعبر البحر إلى الأندلس في قواته في شهر

ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ (يوليه سنة ١٠٨٨ م) .

فتلقاه ابن عباد في الجزيرة

الخضراء بالمؤن الوفيرة، وبعث أمير المسلمين بكتبه إلى ملوك الطوائف

ورؤسائهم

يستدعيهم جميعاً للجهاد، وأن يوافوه بقواتهم عند حصن لبيط.

وكان يوسف

يبغى بعد الاستيلاء على حصن أليدو، أن يعمل للقضاء على سلطان " السيد "

في منطقة بلنسية، ومن ثم فقد اتجه يوسف عن طريق مالقة صوب شرقى الأندلس، ومعه المعتمد في قواته، وانضم إليه في الطريق تميم بن بلقين

صاحب

مالقة، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة، والمعتصم بن صمادح صاحب

ألمرية، كل في قواته.

ولما وصل إلى ظاهر حصن أليدو، وافاه هناك ابن رشيق صاحب

مرسية في قواته، وعدة من رؤساء الأندلس من شقورة وبسطة وجيان وغيرها. وضرب المسلمون الحصار حول الحصن، وكاد فضلا عن حاميته الضخمة، التي تضم ثلاثة عشر ألف مقاتل، يضم جماعات كبيرة من نصارى هذه

المنطقة

الذين التجأوا إليه.

وسلط المسلمون آلات الحصار الضخمة على الحصن،

---

(١) Gaspar Remiro: Murcia Musulmana ; p.

١٣٤

(٢) روض القرطاس ص ٩٨، والحلل الموشية ص ٤٨.

(٣٣٥/٢)

وضربوه بشدة، ولكن الحصن كان في منتهى المناعة، فلم تنجح الآلات الضخمة

في هدمه أو ثلم أسواره، ورد المدافعون كل محاولة للمحاصرين بمنتهى العنف

والشدة، وامتنعوا داخل حصنهم.

وطال الحصار زهاء أربعة أشهر، والقوات

المحاصرة تحاول اقتحامه، كل جماعة بدورها، والنصارى صامدون، يتساقطون

داخل حصنهم من الجوع والإعياء.

وشعر أمير المسلمين من جراء ذلك بخيبة

أمل مرة، بيد أنه شعركذلك باستياء بالغ لما شهده من أحوال أمراء الأندلس

المشاركين في الحصار، فقد كان الخلاف والوقيعة على أشدهما بين أولئك الأمراء

الطامعين المتنابذين، فكان تميم صاحب مالقة، وأخوه عبد الله صاحب

غرناطة، يشكو كل منهما الآخر، ويتهمه باغتصاب حقوقه في الميراث والسيادة، وكان

ابن عباد والمعتصم بن صمادح يوقع كل منهما في حق صاحبه لدى أمير

المسلمين، ويتهمه بمختلف التهم.

وبرز من بين هذه الخصومات بالأخص خلاف المعتمد
وابن رشيق، فقد شكا ابن عباد ابن رشيق لأمير المسلمين، واتهمه باغتصاب
الولاية منه على مرسية، واتهمه بما هو شر من ذلك، وهو أنه متفاهم مع
ملك
قشتالة سراً، وقد دفع إليه جباية مرسية، وأنه يعاون حامية الحصن في
الخفاء، واهتم أمير المسلمين لتلك التهم، ومال إلى تصديقها، واستفتى الفقهاء
في أمر
ابن رشيق، فأفتوا بإدانته، فأمر بتسليمه لابن عباد على شرط أن يبقى على
حياته.
وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر في المعسكر المحاصر، فإن قادة مرسية
ومعظمهم من أقارب ابن رشيق ورجاله، غادروا المعسكر في جندهم
غاضبين، وقطعوا المؤن التى كانت ترسل إلى المحاصرين من مرسية
وأحوازها، فاختل أمر
المعسكر، ولحق به الضيق والغلاء، وعلم أمير المسلمين من جهة أخرى أن
ملك
قشتالة يسير في قوة كبيرة لإنجاد الحصن، فآثر الانسحاب وعدم الاشتباك مع
القشتاليين في معركة غير مجدية.
وقدم ألفونسو إلى الحصن، فلم يجد بداخله من
المدافعين سوى مائه فارس وألف راجل، ولما رأى أنه لا فائدة من الاحتفاظ
به، وأنه يقتضى لذلك حامية كبيرة، قرر إخلاءه وتقويض أسواره وأبراجه،
وعاد أدراجه، وذلك في سنة ١٠٨٩ م (٤٨٢ هـ) .
واحتل ابن عباد أطلال الحصن
بعد أن غادره النصارى.
ولم ير يوسف بعد هذا الإخفاق مجالا لمحاولات أخرى، فاتجه نحو لورقة،

بعد أن ترك جيشاً مرابطياً من أربعة آلاف فارس تحت إمرة داود بن عائشة ليعمل في منطقة مرسية وبلنسية، وتحرك أمراء الأندلس كل إلى بلده، وسار يوسف إلى ألمرية فالجزيرة، ثم عبر البحر عائداً إلى المغرب، وقد تغيرت نفسه

على أمراء الأندلس (١) .

- ٢ -

ولم يمض عام آخر، حتى أعد يوسف بن تاشفين عدته، للجواز إلى شبه الجزيرة للمرة الثالثة، وكان ذلك في أوائل سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) .

ولم يكن

جوازه في تلك المرة تلبية لدعوة أو استغاثة من أحد، من أمراء الأندلس، كما حدث في المرتين السابقتين، ولكنه عبر عندئذ إلى شبه الجزيرة، وقد انتهى إلى

قرار بالغ الخطورة، هو الاستيلاء على الأندلس.

وقد اختلفت الروايات في تصوير البواعث، التي حملت يوسف على اتخاذ هذا القرار.

بيد أنه يبدو على ضوء مختلف الروايات، أن يوسف قد تأثر منذ

البداية بما شهده من اختلال أحوال أمراء الطوائف، وضعف عقيدتهم الدينية، وانهماكهم في مجالى الترف والعيش الناعم، وما يقتضيه ذلك من إرهاق لشعوبهم

بالمغارم الجائرة، وأدرك أن هذه الحياة الناعمة، التي انغمس فيها رؤساء الأندلس

وشعوبهم اقتداء بهم، هى التي قوضت منعتهم، وفتت في رجولتهم وعزائمهم، وأضعفت هممهم عن متابعة الجهاد، ومدافعة العدو المتربص بهم، وأن الشقاق

الذى استحكم بينهم، ولم ينقطع بعد الزلاقة، سوف يقضى عليهم جميعاً، إذا تركت الأمور في مجراها، وسوف يمهد لاستيلاء النصارى على جميع أنحاء

شبه
الجزيرة في أقرب وقت.
ومن ثم فقد اعتزم أمير المسلمين أمره نحو الأندلس
ونحو أمرائها العابثين المترفين (٢) .
ذلك هو التصوير العام، للبواعث التي حملت يوسف بن تاشفين، على
افتتاح ممالك الطوائف الأندلسية، بيد أنه توجد إلى جانب ذلك بواعث معينة
أخرى، منها أن ملوك الطوائف لما شعروا بتغير يوسف عليهم، توافقوا على

---

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٨ و ٩٩، والحلل الموشية ص ٤٧ - ٥٠.
وراجع:
.Dozy: Histoire, V
.III
.p
١٣٩ & ١٤٠، وكذلك R.
.M
.Pidal: ibid ; p
٣٦٤ & ٣٦٥
(٢) راجع المراكشى في المعجب ص ٨٩.

(٣٣٧/٢)

قطع المدد والمؤن عن عساكره ومحلاته التي تركها بالأندلس، فساءه ذلك
(١) ، ومنها ما وقف عليه يوسف، من رجوع بعض رؤساء الطوائف إلى
مصادقة
ألفونسو ملك قشتالة وممالأته، بل واستعدائه على محاربة يوسف نفسه،
وإمداده لذلك بالأموال والهدايا، وكان هذا بالذات موقف عبد الله بن بلقين
صاحب غرناطة (٢) ، ثم كان فيما بعد موقف المعتمد بن عباد، وقد

عمدكلاهما فى

الواقع إلى تحصين بلاده والاستعداد للدفاع عنها (٣) .

والظاهر أيضاً أن أمير المسلمين لم يتخذ قراره الخطير بافتتاح الأندلس فجأة، ولكنه عمد إلى دراسته ومشاورة الزعماء والفقهاء في أمره، وقد تلقى في ذلك فتاوى

الفقهاء من المغرب والأندلس، بوجوب خلع ملوك الطوائف، وانتزاع الأمر من أيديهم، بل لقد تلقى مثل هذا الرأى من أكابر فقهاء المشرق، وفي مقدمتهم

أعلام كالإمام الغزالى، وأبى بكر الطرطوشى نزيل مصر يومئذ وغيرهما (٤) .

وإذاً فقد التمس أمير المسلمين لتنفيذ مشروعه، سند أحكام الشرع، وتأييد أهل الرأى، قبل الإقدام عليه.

ويمكننا أن نضيف إلى ما تقدم، ذلك الباعث الطبيعى، الذى يضطرم به كل زعيم قوى وكل متغلب، ونعنى شهوة الفتح والتوسع، فلا ريب أن يوسف بن تاشفين وصحبه، وهم أولئك البدو الصحراويون، قد راقهم ما شهدوه من خصب الأندلس ونعمائها، وطيب هوائها.

ومن ثم فإن الرواية تحدثنا

بصراحة عن " طمع يوسف في الجزيرة وتشوفه إلى مملكتها "، وتذكر لنا أنه قال

يوماً لبعض ثقاته؛ " كنت أظن أنى قد ملكت شيئاً، فلما رأيت تلك البلاد (الأندلس) صغرت في عينى مملكتى " (٥) .

اجتمعت هذه البواعث كلها، لتحمل يوسف على فتح الأندلس، وهى بواعث فوق وضوحها، تسجلها لنا الرواية جميعاً.

بيد أننا نستطيع أن نستشف

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧.

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧.
(٣) روض القرطاس ص ٩٩، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠.
وراجع: R.
M.
Pidal:
ibid ; p.
٣٩٤
(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨، وأعمال الأعلام ص ٢٤٧.
(٥) المعجب ص ٧٤.
وراجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠، وأعمال الأعلام ص ١٦٣، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٣.

*(٣٣٨/٢)*

من قرار يوسف باعثاً آخر، لم تفطن إليه الرواية الإسلامية، ولعله من البواعث الهامة، في مشروع عاهل المرابطين، وهو العامل الدفاعى والاستراتيجى.
ذلك أن يوسف أدرك لأول وهلة، أن دول الطوائف الضعيفة المتخاذلة، لا تستطيع في ظل أمرائها المترفين الخانعين دفاعاً عن نفسها، وأنه إن تخلى عنها، فسوف تسقط حتماً في يد ملك قشتالة القوى.
ولم تغب عن يوسف، وهو
ذلك الجندى العظيم، أهمية الصلة الدفاعية والاستراتيجية الوثيقة، التي تربط بين
ضفتى العدوة والأندلس، المتقابلتين على طرفى المضيق، ولم يفته أن يدرك أن
سقوط الأندلس، في أيدى النصارى، معناه سقوط جناح المغرب الدفاعى من الشمال، ومعناه تهديد اسبانيا النصرانية لسلامة المغرب، متى اجنمعت قواها،

وتوفرت لديها وسائل العدوان، ومن ثم فقد قرر أن يبادر إلى احتلال رقعة الوطن الأندلسي، لينقذ الأندلس من هذا الخطر الداهم، وليدعمها ويضاعف أهباتها الدفاعية، ويمكنها من تأدية مهمتها الاستراتيجية في رد عادية العدوان، لا عن نفسها فقط، ولكن عن المغرب أيضاً، ولم ينس أمير المسلمين في ذلك، أن ملك قشتالة استطاع عقب استيلائه على طليطلة، أن يجتاح أراضي الأندلس

الوسطى كلها، منذ نهر التاجه جنوباً حتى أرض الفرنتيرة، وأن يصل إلى ثغر طريف قبالة العدوة.

دون أن يقف في سبيله أحد من ملوك الطوائف، وكان

في ذلك من بوادر الخطر على أرض العدوة القريبة ما فيه.

- ٣ -

عبر أمير المسلمين إلى شبه الجزيرة للمرة الثالثة في أوائل سنة ٤٨٣ هـ، حسبما

قدمنا.

وكان أبلغ ما أهمه عندئذ ما تواتر إليه من أخبار عن الاتفاقات السرية التي يعقدها المعتمد بن عباد، والمتوكل بن الأفطس، وعبد الله ابن بلقين، مع ألفونسو السادس ملك قشتالة للتعاون في رد المرابطين.

واتسمت حملة يوسف

في البداية بطابع الجهاد، حيث سار تواً إلى طليطلة، واجتاح في طريقه أراضي

قشتالة.

ولم يتقدم أحد من أمراء الطوائف يومئذ لمعاونته أو السير معه.

وربما

كان يوسف يرجو أن يسترد طليطلة، فيشفى بذلك جرح الأندلس الدامى، ويكتسب عطف أهل الأندلس جميعاً.

وعاث المرابطون في أحواز طليطلة وخربوا

ضياعها، وانتسفوا زروعها، ثم ضربوا الحصار حول العاصمة القوطية القديمة

(٣٣٩/٢)

وعاصمة قشتالة يومئذ، وكان بداخلها ألفونسو السادس وحليفه سانشو راميرز يقومان بالدفاع عنها، بيد أن المرابطين أيقنوا بعد أن شهدوا أسوارها العالية، وحصانتها الفائقة، بعبث المحاولة، فتركوا الحصار، وارتد يوسف بقواته إلى الجنوب (١) .

وعرج يوسف بجيشه على فحص غرناطة، وكان قد قرر أمره نحو غرناطة وصاحبها عبد الله بن بلقين، بل ونحو أمراء الطوائف جميعاً.

وكان عبد الله

في الواقع مذ عاد من حصار أليدو، ولما شعر به من تغير يوسف، قد عاد إلى استئناف صلاته بألفونسو السادس، عن طريق قائده ومبعوثه في تلك المنطقة

ألبار هانيس، وعقد معه فيما يبدو محالفة سرية لمقاومة المرابطين.

ويعترف

الأمير عبد الله في مذكراته بهذه الصلات، ولكنه يقول لنا إنها لم تكن سوى التزام منه بدفع الجزية لألفونسو، وتعهد من ألفونسو بألا يعترض له بلداً ولا يغدر به (٢) .

ويقول لنا ابن عذارى من جهة أخرى إن عبد الله بن بلقين كان

أول من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين، فنظر في اختيار الآلات وألحق الرماة والرجال، وأعلا الأبراج، وبنا الأسوار، ونصب الرعادات، وملأ بيوت السلاح، وجد في ضرب السهام، ونقل المال والذخيرة، وخرج

المتاع والآنية إلى قصبة المنكب لكونها في غاية المنعة، وعلى ضفة البحر، وعمد إلى مال كثير، وثياب نفيسة، وتحف جليلة، وأعلاق دقيقه، فوجه بها إلى أذفونش، وكتب إليه متطارحاً عليه، مستجيراً به، وأعلمه ان البلد بلده

وأن فيه قايده، فاهتز لذلك الأذفونش، وقبل المال والهدايا، وأقسم بجميع أيمانه، أن يشد اليد عليه في ملكه، ولا يتركه لضيم ولا خصيمة، وأن ينهض إليه بنفسه، ويبذل جهده في نصره، فقويت نفس حفيد باديس بذلك.

وفى ذلك

يقول صفيه وأثيره السمسرى:

صانع أذفونش والنصارى..

.

فانظر إلى رأيه الوبير

وشاد بنيانه خلافاً..

.

لطاعة الله والأمير

يبنى على نفسه سفاهاً..

.

كأنه دودة الحرير

---

(١) روض القرطاس ص ٩٩.

وكذلك R.

M.

Pidal: ibid ; p.

٣٩٥ & ٣٩٤

(٢) كتاب التبيان ص ١٢٥.

وراجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧.

*(٣٤٠/٢)*

دعوه يبنى فسوف يدرى..

.

إذا أتت قدرة القدير (١)
على أن ما استقر في ذهن يوسف، وما نهضت عليه الأدلة، وأكده رسله
يومئذ، هو أن المعتمد بن عباد، وعبد الله بن بلقين وغيرهما من أمراء
الطوائف، قد عقدوا مع ملك قشتالة اتفاقات سرية، يتعهدون فيها بالامتناع
عن معاونة
المرابطين بالمال والمؤن، وبالانضواء تحت لواء ألفونسو وحمايته.
وكان بعض
حشم عبد الله ولاسيما مؤمل مولى جدّه باديس، قد اتصلوا بأمير المسلمين،
وأكدوا له مداخلة عبد الله لملك قشتالة، واهتمامه بتجديد الأسوار وتحصين
المدينة.
ومن جهة أخرى فقد أصدر فقهاء غرناطة فتوى بخلع عبد الله وأخيه
تميم صاحب مالقة، لما يرتكبانه من المظالم والخروج على أحكام الدين،
وأهابوا
بيوسف أن يرغم أمراء الطوائف على اتباع أحكام الشرع وإلغاء المكوس،
والمغارم الجائرة، التي يفرضونها على رعيتهم تعسفاً وظلماً.
وفرض أمير المسلمين على غرناطة شبه حصار، وقام عسكره بحراسة
حصونها الخارجية، حتى لا يأتيها مدد من النصارى، وطلب المؤن
والعلوفات، فبادر عبد الله بتقديمها.
وكانت الأحوال في غرناطة قد ساءت، وشاع الخلاف
والتمرد بين سائر الطوائف، وأدرك عبد الله أنه لا سبيل إلى المقاومة، وأرسل
إلى أمير المسلمين رسله ومعهم بعض المال، فعادوا إليه بأمان يوسف " في
النفس
والأهل دون المال "، كما عرض عليه يوسف أن يختار بلداً آخر لإقامته
غير
غرناطة.
فتمهل عبد الله وقتاً.

والظاهر أنه كان ينتظر عوناً من القشتاليين لم
يتحقق.
وفي خلال ذلك كانت أمه وخاصته يلحون عليه في الخروج إلى أمير
المسلمين، والانقياد لأمره، كأفضل حل للموقف.
ولما اقترب أمير المسلمين
بمحلته من المدينة، واشتد بها الهياج، رأى عبد الله أنه لا مناص من اتباع
هذا
النصح، فسار إلى محلة يوسف، وقدم إليه نفسه، فأصدر له أماناً في نفسه
وأهله، وأمر باعتقاله، حتى يتم ضبط أمواله، وكانت لدى عبد الله وأمه
أموال طائلة، مكدسة منذ أيام جده باديس، وعلى أثر ذلك أقبل الفقهاء
والأعيان
إلى محلة يوسف وبايعوه بالطاعة.
ودخل يوسف مع قادته وجنده مدينة غرناطة
ونزل بقصرها، واستولى على ما فيه من الأموال والتحف الجليلة، وأذاع في

---

(١) نقلت من أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثر بها المؤلف في خزانة
القرويين بفاس.

(٣٤١/٢)

الناس، أنه سوف يحكم بالعدل والرفق وفقاً لأحكام الشرع، ويعمل على إقامة
الخير بينهم، والذب عن حوزتهم، وأنه سوف يرفع عنهم سائر المغارم الجائرة،
ولا يفرض عليهم من التكاليف والالتزامات إلا ما يجيزه الشرع.
وكان خلع
عبد الله بن بلقين بن باديس في اليوم العاشر من شهر رجب سنة ٤٨٣ هـ
(سبتمبرسنة ١٠٩٠) (١) .
وبعث أمير المسلمين في الوقت نفسه سرية من جنده إلى مالقة، فقبض

على صاحبها تميم بن بلقين أخى عبد الله، وحمل مكبلا إلى العدوة، ثم أرسل
إلى
السوس.
وكان الفقهاء قد اتهموه بطائفة من المظالم الشنيعة وطالبوا بخلعه (٢) .
وأخذ عبد الله وأهله أولا إلى الجزيرة الخضراء، ثم نقلوا إلى سبتة، فمكناسة
وأخذوا أخيراً إلى مدينة أغمات، حيث تقرر إقامتهم، وأنزلوا هنالك داراً حسنة،
وعوملوا برفق ورعاية، وعاش عبد الله بأغمات حتى توفى.
وكتب فيها مذكراته
الموسومة بكتاب " التبيان "، وهى التي رجعنا إليها في غير موضع.
وعفا أمير المسلمين
فيما بعد عن أخيه تميم، فسكن مراكش حتى توفى بها في سنة ٤٨٨ هـ (٣)
.
وهكذا سقطت أول دولة من دول الطوائف في أيدى المرابطين، وكان
سقوطها نذيراً باضطرام العاصفة، التي قدر لها أن تجتاح الطوائف جميعاً.
وشعر
المعتمد بن عباد بخطورة هذا النذير، بيد أنه كان من جهة أخرى، ما يزال
يعلل
نفسه بمختلف الآمال الغامضة، وكان قد استقبل يوسف عند مقدمه بالجزيرة
الخضراء، وقدم إليه المؤن والضيافات المعتادة، ويقال إن يوسف وعده عندئذ
بغرناطة متى استولى عليها (٤) .
فلما ظفر يوسف بامتلاكها، سار المعتمد ومعه
زميله المتوكل بن الأفطس إلى غرناطة، فقدما التهنئة لأمير المسلمين بهذا
الفتح.
وظن المعتمد عندئذ أن يوسف سوف ينجز وعده بالنزول له عن غرناطة،
مقابل

---

(١) يراجع في حوادث سقوط غرناطة في أيدى المرابطين: كتاب التبيان أو مذكرات الأمير
عبد الله ص ١٤٧ - ١٦٠، وروض القرطاس ص ٩٩ و ١٠٠، وأعمال الأعلام ص ٢٣٥ و ٢٣٦، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧.
وراجع أيضاً: Dozy: Hist.
V.
III.
p.
١٤١ - ١٤٤، وكذلك
R.
M.
Pidal: ibid ; p.
٣٩٤ - ٣٩٦
(٢) كتاب التبيان ص ١٦٢ و ١٦٣، وأعمال الأعلام ص ٢٣٦.
(٣) كتاب التبيان ص ١٧١، وأعمال الأعلام ص ٢٣٦.
(٤) كتاب التبيان ص ١٦٤.

*(٣٤٢/٢)*

استيلائه على ثغر الجزيرة، ولكن يوسف استقبلهما بجفاء، فانصرفا عنه، وقد أدركا الحقيقة المروعة، وشعرا بأن النهاية المحتومة، قد أضحت على وشك الوقوع.

وعاد المعتمد إلى إشبيلية، وهو يعتزم الدفاع عن مملكته جهد الاستطاعة وأخذ في التأهب، وإقامة التحصينات والأسوار، وساءت العلائق بينه وبين أمير المسلمين بسرعة، وكثرت بينهما الوقيعة والسعايات، ودعا أمير المسلمين
المعتمد إلى لقائه فرفض، وطلب إليه أن يتبع أحكام الشرع، وأن يلغى

المكوس الجائرة، وأن يلتزم الرباط ومدافعة النصارى، فلم يجبه إلى شىء (١)
.
وغادر أمير المسلمين غرناطة، وجاز إلى العدوة في شهر رمضان سنة ٤٨٣ هـ، وفوض إلى قائده الأكبر سير بن أبي بكر اللمتونى شئون الأندلس.
وهنا
تختلف الرواية، فيقال إنه لم يأمر قائده في أمر ابن عباد بشىء، وقيل من جهة أخرى، إنه أمره بمحاصرة ابن عباد في إشبيلية، وأنه متى انتهى من أمر إشبيلية، فليتقدم إلى بلاد ابن الأفطس (٢) .
وقدم أمير المسلمين قائده ابن الحاج
على جيش آخر، وعهد إليه بمنازلة قرطبة، وعليها ولد المعتمد الفتح الملقب بالمأمون، وقدم أبا زكريا بن واسنو على جيش ثالث، وعهد إليه بمحاصرة المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية، وقدم جروراً الحبشى على عسكر رابع
وعهد
إليه بمنازلة يزيد الراضى ولد المعتمد برندة.
وأقام أمير المسلمين بسبتة يجهز
الجيوش والأمداد، ويترقب نتائج أعمال جيوشه في شبه الجزيرة.
- ٤ -
كان من الواضح، على ضوء هذه الأهبات الضخمة، التي اتخذت لمهاجمة قواعد مملكة إشبيلية في وقت واحد، أن يوسف بن تاشفين، كان يرى فى مملكة إشبيلية واسطة عقد الأندلس، وفي أميرها المعتمد بن عباد، عميد الطوائف، فإذا سقطت في يده إشبيلية، كان له ملك الأندلس.
ولم يكن أمير المسلمين تعوزه المبررات في قتال ابن عباد، فقد كان لديه المبررات المادية والشرعية الكافية.
ذلك أنه احتاط للأمر، واستصدر الفتاوى
الشرعية اللازمة، من فقهاء المغرب والأندلس، بأن مسلك المعتمد في
مصانعة

(١) الحلل الموشية ص ٥١ و ٥٢، وروض القرطاس ص ١٠٠، وكتاب التبيان ص ١٦٩.
(٢) روض القرطاس ص ١٠٠، والحلل الموشية ص ٥٢.

(٣٤٣/٢)

النصارى، وتسليم البلاد، والاحتماء بهم، ومسلكه إزاء شعبه في اقتضاء المكوس الجائرة، وغير ذلك مما يخالف أحكام الشرع، ومجاهرته بالمعاصى، كل ذلك مما يفقده أهليته لحكم المسلمين، ويوجب محاربته وخلعه (١) .
أما عن
المبررات المادية، فقد وقعت في يد يوسف بعض المراسلات السرية الموجهة من ابن عباد إلى ملك قشتالة، يستغيث به ويطلب معونته (٢) ، وكان المعتمد
بعد أن رأى جنود قشتالة تجتاح بلاده، وتمعن في تخريبها، دون أن يستطيع دفعاً لهم، وشعر من جهة أخرى بما يضمره المرابطون نحوه من النيات الخطرة، قد أيقن أنه لا معدى له عن الالتجاء إلى ملك قشتالة، والتفاهم معه على دفع
المرابطين عن الأندلس.
وبينما كان المعتمد منهمكاً في أهباته الدفاعية بإشبيلية، كان قائد المرابطين سير بن أبي بكر، يضع خططه النهائية للانقضاض على قواعد مملكة إشبيلية، وقد بدأ في ذلك بالاستيلاء على طريف أقصى ثغورها الجنوبية، وذلك في شوال
سنة ٤٨٣ هـ (ديسمبر ١٠٩٠ م) ونادى فيها بدعوة أمير المسلمين (٣) ، ثم اتجه
نحو الشمال قاصداً إشبيلية، بينما زحفت الجيوش المرابطية الفرعية على رندة وجيان وقرطبة.

فأما رندة فقد حاصرها القائد جرور المرابطي بقواته، وكان

يضطلع بالدفاع عنها يزيد الراضى ولد المعتمد.

وكانت رندة من أمنع القواعد

الجنوبية، فصمد بها الراضى، واضطر جرور أن يقنع بالحصار منتظراً سير

الحوادث.

وأما جيان، فقد زحف عليها جيش مرابطي بقيادة بطى بن اسماعيل

وضرب حولها الحصار.

وهنا يقول لنا ابن الخطيب إن جيشاً من القشتاليين قدم

لإنجاد جيان، تنفيذاً للحلف المعقود بين ابن عباد وملك قشتالة، وإنه نشبت

بين المرابطين والنصارى موقعة أبيد فيها المرابطون (٤) .

بيد أن ابن أبي زرع

يقول لنا بالعكس أن بطى حاصر جيان حتى دخلها صلحاً، وكتب سير

بالفتح

إلى أمير المسلمين، وأمر بطى بالسير بقواته إلى قرطبة (٥) .

وقد ذكرنا من

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨.

(٢) كتاب التبيان ص ١٦٩.

(٣) المعجب ص ٧٥.

وكذلك: R.

M.

Pidal: ibid, p.

٣٩٨

(٤) أعمال الأعلام ص ١٦٣.

(٥) روض القرطاس ص ١٠٠.

قبل وفقاً لرواية صاحب الحلل الموشية، أن القوات المرابطية التي سارت لمنازلة
قرطبة كانت بقيادة ابن الحاج.
وعلى أى حال فقد زحف المرابطون على قرطبة، وبها حاكمها ولد المعتمد، الفتح الملقب بالمأمون، وكان قد اتخذ كل الأهبات
الدفاعية الممكنة، وأرسل زوجه وأولاده وأمواله تحوطاً إلى حصن المدور (١) ، الواقع جنوب غربى قرطبة على ضفة نهر الوادي الكبير، لكى تبقى بمنجاة من الخطر، وحتى تستطيع أن تلوذ عند الضرورة بحماية ملك قشتالة، وقد كان
هذا الإجراء فيما يبدو بإشارة المعتمد أو بموافقته.
والواقع أن قرطبة لم تصمد
طويلا، فقد اقتحمها المرابطون بعنف، وقتل الفتح بن عباد خلال الهجوم مدافعاً عنها، ورفع المرابطون رأسه على رمح.
وكان افتتاح المرابطين لقرطبة
في اليوم الثالث من صفر سنة ٤٨٤ هـ (٢٦ مارس سنة ١٠٩١ م) (٢) .
***

وهنا يجب أن نقف قليلا، لنتناول مسألة تاريخية هامة، غمرتها الأسطورة مدى عصور، ثم ألقى عليها البحث الحديث ضوءه المقنع، تلك هى قصة زائدة الأندلسية.
لقد ذكرت الروايات الإسبانية النصرانية، المعاصرة واللاحقة، أن ألفونسو السادس قد تزوج من ابنة للمعتمد بن عباد تسمى " زائدة " أو أنه قد اتخذها خليلة، وأنجب منها ولده الوحيد سانشو.
وتزيد على ذلك أن المعتمد نفسه، حينما شعر بخطر المرابطين الداهم على مملكته، واستغاث بألفونسو لمعاونته على

دفعه، هو الذى قدم ابنته المذكورة للملك النصرانى، وأنه نزل له عن مواضع
معينة من أراضي مملكة طليطلة، كان قد افتتحها، لتكون مهراً لابنته
المذكورة، وترجع بعض الروايات المتأخرة هذا التصرف من جانب ابن عباد
إلى فرصة
سابقة على مقدم المرابطين، وتقول إنه كان ضمن مغريات الحلف الذى عقده
المعتمد مع ألفونسو عن طريق وزيره ابن عمار، وأخيراً أن هذا التصرف قد
أثار
فضيحة كبيرة في الأندلس، واتهم ابن عباد بالتفريط في عرضه ودينه (٣) .

---

(١) وهى بالإسبانية Almodavar del Rio

(٢) روض القرطاس ص ١٠٠، وراجع: R.
M.
Pidal: ibid.
p.
٤٠٥

(٣) وردت هذه القصة ضمن رواية Pelayo de Oviedo المعاصرة، وقد
نشرت ضمن =

(٣٤٥/٢)

وقد استمرت التواريخ النصرانية تتناقل هذه الأسطورة عصوراً كأنها حقيقة
لا ريب فيها، وتتحدث دائماً عن " زائدة الأندلسية " Zeida la Mora أو
Ceida
وعن ذريتها النصرانية.
ونقول نحن إنه لا توجد بين هذه التفاصيل المغرقة، سوى حقيقة واحدة هى
شخصية زائدة المذكورة، وأنها كانت حقيقة زوجة
أو خليلة لألفونسو السادس، وقد أنجب منها ولده سانشو الذى قتل طفلا فى

موقعة إقليش (٥٠١ هـ - ١١٠٨ م) .
ولكنها لم تكن ابنة للمعتمد بن عباد، ولم يقدمها المعتمد لألفونسو ثمناً لحلفه،
وهذا هو لب الأسطورة كلها.
وهذا هو
وجه الإغراق والتحريف.
ذلك أنه مما لا يسيغه العقل أن يرضى أمير عظيم مسلم
كالمعتمد بن عباد، أن يزوج ابنته من أمير نصرانى أو أن يقدمها له جارية
وحظية، ومهما كان من استهتار المعتمد وتسامحه الدينى، وإذا فرضنا أنه لم
يكن
يقيم في مثل هذا التصرف الشائن، وزناً للاعتبارات الدينية والشرعية، وهو فى
ذاته مما لا يقبله العقل، فمن المستحيل عليه ألا يحسب أعظم حساب لنتائجه
السياسية، وخصوصاً في مثل هذه الظروف الدقيقة التي كانت تجوزها اسبانيا
المسلمة يومئذ، وأقلها أن يضطرم شعبه المسلم بالثورة عليه، وأن يسحقه
ويسحق
أسرته، ومن جهة أخرى فإن المعتمد كان يرمى من جانب خصومه في
الداخل وفى
الخارج بألسنة حداد من أجل استهتاره وتهاونه الدينى، ولم يكن من المعقول
أن
يقدّم بمثل هذا التصرف إلى خصومه سلاحاً جديداً يضعه في صف المارقين
والخوارج على الدين.
أما التفسير الحقيقى لهذه القصة، وهو ما كشفت عنه البحوث والنصوص
الوثيقة، فهو أن زائدة هذه كانت حسبما تقدم زوجة للفتح بن المعتمد الملقب
بالمأمون حاكم قرطبة، وأن المأمون حينما هاجم المرابطون المدينة، أرسل
زوجته
وولده وأمواله إلى حصن المدور، أو أنه حينما اقتحم المرابطون المدينة وقتل
الفتح، استطاعت زائدة أن تلوذ مع أولادها بالفرار، وأن تلجأ إلى حصن

المدور،

---

مجموعة Espana Sagrada للأب Flores (الجزء الرابع عشر) .
وذكرها رودريك الطليطلى فى
روايته التي وردت في: De Rabis Hispaniea، وكذلك لوقا التطيلى في
روايته Cronicon
Mundi على اختلاف في بعض التفاصيل، وذكرها الأب فلوريس في تاريخه
Flores: Reynas Catolicas
ومن المؤرخين المحدثين Modesto Lafuente في تاريخه:  Historia
general de Espana
وراجع ايضاً R.
M.
Pidal: ibid ; p.
٧٦٠ - ٧٦٤ حيث يلخص سائر الروايات المتقدمة.

(٣٤٦/٢)

ثم التجأت إلى حماية ملك قشتالة، حينما اشتد خطر المرابطين على سائر
تلك الأنحاء
وربما كان ذلك بموافقة المعتمد.
ولما كانت زائدة على جانب كبير من الجمال، وكان الملك النصرانى من
جهة أخرى مزواجاً، كلفاً بالنساء، فقد انتهز فرصة
التجائها إليه، واتخذها خليلة ثم تزوجها.
وتقول الروايات القشتالية في هذا
الموطن، إن زائدة كانت تحب الملك النصرانى " بالسماع "، وتتوق إلى
الزواج
منه، وأن المعتمد (بزعم أن زائدة كانت ابنته) قد نزل لملك قشتالة في هذه

المناسبة عن قونقة، ووبذة وإقليش وأوكانيا وكونسويجرا وغيرها من الأماكن، وهى التي كان قد افتتحها من مملكة طليطلة أيام بني ذى النون، وذلك كمهر لزائدة.

وقد يكون المعتمد قد نزل حقاً عن هذه الأماكن وغيرها لملك قشتالة، ولكن ذلك لم يكن سوى بعض ما تعهد به لملك قشتالة كثمن لحلفه وعونه.

ومتى
تقرر أن زائدة، لم تكن ابنته، فإنه لا محل أن يقرن هذا التنازل من جانب المعتمد
بقصة زواج زائدة من الملك النصرانى.

ونقول تتمة لقصة زائدة إنها غدت خليلة
أو زوجة لملك قشتالة، على الأرجح عقب سقوط قرطبة بقليل، في أوائل سنة ١٠٩٢ م، وأنها بهذه المناسبة اعتنقت النصرانية وتسمت باسم " إيسابيل "، وفى رواية باسم ماريا، ونصّر أولادها من الفتح، ومن كان معها من الحشم، ورزق منها ألفونسو بولده الوحيد سانشو، وتوفيت زائدة عند مولد ولدها
سانشو، ودفنت بدير ساهاجون وذلك في سنة ١٠٩٧، أو ١٠٩٨ م.

ولما اجتاح
المرابطون أراضي قشتالة، في أوائل عهد الأمير على بن يوسف بن تاشفين، وسار القشتاليون
لمحاربتهم تحت أسوار قلعة إقليش، بعث ألفونسو بولده الصبى سانشو على رأس الجيش لكى يثير حماسة الجند، فقتل في الموقعة التي نشبت بين الفريقين، وقتل معه معظم أكابر الجيش وقادته، وذلك في سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) .

وتوفى
ألفونسو على أثر ذلك غماً وحزناً (١) .

ولم تذكر لنا الرواية الإسلامية اسم زائدة، ولا شيئاً من قصتها بطريق

مباشر، ولكنها مع ذلك تقدم إلينا الدليل القاطع على حقيقة شخصيتها وصفتها، ولدينا في ذلك نصان كلاهما حاسم في تقرير هذه الحقيقة.
أولهما ما ورد في تاريخ ابن عذارى " البيان المغرب " في أخبار سنة ٥٠١ هـ

---

(١) راجع R.
M.
Pidal: ibid ; p.
٤٩٥، ٤٩٦ & ٧٦٠ - ٧٦٤

*(٣٤٧/٢)*

وهى الموافقة لسنة (١١٠٨ م) عن الحملة التي أرسلها ألفونسو السادس ضد المرابطين لإنجاد قلعة إقليش، وقد جاء فيه: " وفي خلال ذلك وصل إليه (إلى حصن إقليش) ولد أذفونش شانجه من زوج المأمون بن (عباد) التي كانت
تنصرت بنحو سبعة ألاف فارس " (١) .
والثاني نص أورده الونشريسى في كتابه: " المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب " وقد جاء فيه عن موضوع الخوف على الأبضاع والفروج ما يلى: " ومنها الخوف من الفتنة على الأبضاع
والفروج، ومتى يأمن ذو زوجة أو ابنة أو قريبة وضيئة أن يعثر عليها وضىء
من كلاب الأعداء وخنازير البعداء، فيغرها في نفسها ويغرها في دينها، ويستولى
عليها وتطاوعه، ويحال بينها وبين وليها بالارتداد في الدين، كما عرض لِكُنّة المعتمد بن عباد ومن لها من الأولاد، أعاذنا الله من البلاء وشماتة الأعداء " (٢) .

تلك هى الحقيقة حول أسطورة زائدة " ابنة " المعتمد بن عباد، وتقديم أبيها المعتمد إياها زوجة لألفونسو السادس، اكتساباً لمحالفته وعونه ضد المرابطين، وهى أسطورة لبثت عصوراً تمثل في الروايات الإسبانية الكنسية وغيرها كأنها

حقيقة لا ريب فيها.

وقد زاد من غموضها صمت الرواية الإسلامية المعاصرة

واللاحقة.

والظاهر أن المؤرخين المسلمين قد شعروا بما يكتنف هذه القصة من دقة وإيلام للنفوس الكريمة، فآثروا الإغضاء عنها، باعتبارها حادثاً لا أهمية له من الناحية التاريخية.

---

(١) وقع على هذا النص العلامة المرحوم الأستاذ ليفى بروفنسال في أوراق مخطوطة من البيان

المغرب لم تنشر، عثر بها في مكتبة جامع القرويين بفاس، ونشر عنه مقالا عنوانه Zaida la Mora

في مجلة 1934) Hispéris XVIII) فكان ضوءاً جديداً قيماً على هذه الأسطورة.

(٢) وردت هذه الفقرة ضمن فتاوى الونشريسى في كتابه السالف الذكر طبع فاس سنة

١٣١٤ هـ.

ويوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال رقم ١١٤٦ الغزيرى.

وقد نشرت أيضاً

بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية المصرى بمدريد (المجلد الخامس ص ١٨٩) .

الفصل الرّابع

الفتح المرابطي

القسم الثاني

استيلاء المرابطين على أبدة وبياسة وقلعة رباح.

استيلاؤهم على قرمونة.

زحف سير بن أبي بكر

على إشبيلية.

يدعو المعتمد إلى الطاعة.

محاصرته لإشبيلية.

تأهب المعتمد للدفاع.

استغاثته بملك قشتالة.

مسير الجند القشتاليين لإنجاده.

القتال بين المرابطين والقشتاليين.

هزيمة النصارى وارتدادهم.

استماتة

المعتمد في الدفاع.

خصوم المعتمد في الداخل وتفاهمهم مع المرابطين.

نجاح المرابطين في ثلم السور.

محاولتهم الدخول وردهم.

حرق أسطول إشبيلية النهرى.

هجوم المرابطين على المدينة واقتحامها.

المعارك داخل المدينة.

بسالة المعتمد في الدفاع.

استيلاء المرابطين على المدينة.

أسر المعتمد ونهب

قصوره.

أمير المسلمين الرابع إلى الأندلس.
غزو المرابطين لقشتالة وهزيمتهم للنصارى.
يوسف يعقد ولاية
العهد لولده على في قرطبة.
مرض يوسف ووفاته.
وصيته لولده على.
على أثر سقوط قرطبة، استولى المرابطون على أبدة وبياسة وشقورة، فى شرقى قرطبة، وعلى حصن البلاط والمدور في غربها.
وبعث فاتح قرطبة القائد
بطى بن اسماعيل إلى قلعة رباح، وهى قاصية أراضي المسلمين، حملة من ألف
فارس، فاحتلتها.
وهكذا سيطر المرابطون على سائر أراضي الوادي الكبير،

(٣٤٩/٢)

وعلى سائر قواعد مملكة إشبيلية، ما عدا رندة وقرمونة وإشبيلية.
وفى
أوائل شهر ربيع الأول سنة ٤٨٤ هـ، نجد قائد المرابطين العام، سير بن أبي بكر
أمام أبواب قرمونة.
وكانت قرمونة أمنع قواعد مملكة إشبيلية الشمالية، وهى حصن إشبيلية من الشرق، فنازلها سير، ودخلها عنوة في السابع عشر
من ربيع الأول (١٠ مايو سنة ١٠٩١ م).
وأخذ يستعد لمنازلة إشبيلية.
ويقول لنا ابن أبي زرع في هذا الموطن، إن سير بن أبي بكر، حينما أشرف على إشبيلية، وقبل الزحف على قرطبة، كان يعتقد أن المعتمد، سوف يخرج

إليه، ويتلقاه كعادته بالمعاونة والضيافات، ولكنه تحصن بالمدينة ولم يعن
بشأنه، فكتب إليه سير يطلب إليه تسليم البلاد، والدخول في الطاعة، فرد
المعتمد
بالرفض، فضرب سير الحصار حول المدينة، وأخذ في منازلتها ومقاتلة ابن
عباد، ويقدم إلينا ابن خلكان رواية مماثلة، إذ يقول إن يوسف أمر سيراً أن
يعرض
على ابن عباد أن يتحول إلى بر العدوة بأهله وماله، فإن قبل فبها ونعمت،
وإن أبي فينازله، فلما عرض سير ذلك، لم يعطه ابن عباد جواباً، فنازله،
وحاصره أشهراً (١) .
حاصر المرابطون إشبيلية بقوات ضخمة، ولم يشك المعتمد منذ البداية
أنه سوف يخوض مع المرابطين معركة الحياة والموت، فتأهب للدفاع عن
ملكه
وحاضرته بكل ما وسع، واستغاث بحليفه ألفونسو السادس ملك قشتالة.
وكان
ألفونسو قد اهتز لاجتياح المرابطين لمملكة إشبيلية على هذا النحو الصاعق،
وأدرك من جانبه أن المسألة لم تعد تتعلق فقط بمملكة إشبيلية، ولا ملوك
الطوائف
وحدهم، وإنما أضحت مشكلة شبه الجزيرة الإسبانية كلها، ومسألة خطر
اجتياح
المرابطين لها واحتلالهم إياها.
وكانت تجمعه في ذلك مع ابن عباد قضية واحدة، هى قضية دفع خطر
المرابطين عن الوطن المشترك، ومن ثم فقد بادر من فوره
بإرساله حملة قوية بقيادة ألبار هانيس أكبر قواده وأبرعهم، لإنجاد ابن عباد.
وتقول الرواية الإسلامية إن هذه الحملة كانت تتألف من عشرين ألف فارس
وأربعين ألف راجل (٢) ، وتقول الرواية النصرانية إنها كانت تتألف فقط من

---

(١) ابن خلكان في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٧.
(٢) روض القرطاس ص ١٠٠.

(٣٥٠/٢)

ألفى وخمسمائة فارس.
وبعث سير بن أبي بكر لقتال القشتاليين حملة من عشرة
آلاف فارس، بقيادة ابراهيم بن إسحاق اللمتونى، وهى حملة تقدرها الرواية
النصرانية بخمسة عشر ألفاً.
والتقى القشتاليون والمرابطون على مقربة من حصن
المدور، وفي رواية أخرى أن اللقاء كان في بلمة من أحواز إشبيلية (١) ،
ونشبت
بينهما معركة عنيفة، قتلت فيها جموع كبيرة من الفريقين، وانتهت بنصر
المرابطين
وارتداد القشتاليين، وقد أثخن قائدهم ألبار هانيس جراحاً (٢) ، وانهار بذلك
آخر أمل كان يعلقه ابن عباد على معاونة حلفائه القشتاليين.
واستمر حصار المرابطين لإشبيلية زهاء أربعة أشهر، ودافع المعتمد وجنده
عن حاضرتهم أشد دفاع، وصمدت المدينة لهجمات المرابطين ومحاولاتهم،
حتى أنه ينسب لقائدهم سير بن أبي بكر أنه قال " لو أنى أقصد مدينة
الشرك
لم تمتنع هذا الامتناع " (٣) .
وفى خلال ذلك حاول جماعة من أهل المدينة من خصوم بني عباد، أن
يضرموا
الثورة داخل المدينة، حتى يضطرب أمر الدفاع، ويمهد السبيل لدخول
المرابطين، ووقف المعتمد على أمرهم، ولكنه أبي أن يقوم بإعدامهم وفقاً
لنصح قادته، واكتفى بمراقبتهم والتحوط لسعيهم.
وأخيراً استطاع المرابطون

بمداخلة بعض أولئك الخونة، أن يحدثوا ثلمة في السور، عند باب الفرج
على مقربة من النهر (يوم ٥ رجب) .
ووقف المعتمد على الخبر فبادر لتوه في ثلة
من فرسانه، لرد الداخلين من جند العدو، وهو دون درع أو عدة، وليس
عليه سوى قميص يشف عن بدنه، وتلقى المعتمد خلال المعركة التي نشبت
طعنة تحت إبطه من فارس مرابطي، فوثب المعتمد يطاعنه فشقه بسيفه،
ومزقت
تلك الثلة من المرابطين، وأصلحت الثلمة على الأثر.
بيد أنه حدث في عصر ذلك
اليوم ذاته، أن تمكن بعض المرابطين من الوصول إلى أسطول إشبيلية
الراسى
في الوادي الكبير، وأضرموا النار فيه، فهلكت معظم سفنه، وأدرك الناس
عندئذ أن خطط الدفاع عن المدينة، أخذت في الانهيار، وسرى بينهم الرعب،
وبادر كثيرون إلى الفرار، بعضهم عن طريق النهر، والبعض الآخر بالترامى

---

(١) ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ١٦٣.
(٢) راجع روض القرطاس ص ١٠٠ و ١٠١.
وكذلك: R.
M.
Pidal: ibid ; p.
٤٠٧ & ٤٠٨
(٣) كتاب التبيان ص ١٧٠.

(٣٥١/٢)

من شرفات الأسوار، أو الالتجاء إلى القنوات والمغائر، وسيطرت الفوضى
على المدينة، وبدت طوالع النهاية منذرة مروعة.

وفى خلال ذلك كان سير بن أبي بكر، يحشد قواته وينظم الضربة الأخيرة.
ووقعت الضربة الحاسمة في يوم الأحد الثاني والعشرين من رجب سنة ٤٨٤ هـ
(٧ سبتمبر سنة ١٠٩١ م) (١) ، حيث هاجم المرابطون إشبيلية بشدة. واقتحموها
من ناحية الوادي الكبير، وانقضوا عليها كالسيل الجارف، يمعنون فيها سفكاً وتخريباً.
ونشبت بينهم وبين المدافعين عن المدينة معارك محلية عنيفة، وهجمت فرقة من المرابطين على القصر الملكى، فاستقبلهم المعتمد على باب قصره في ثلة
من فرسانه وخاصته، يدافع عن نفسه وملكه حتى اللحظة الأخيرة، أشد دفاع وأروعه، ولكن هذه البسالة النادرة لم تغن شيئاً، وانتهى المرابطون بالاستيلاء على المدينة، وعلى القصور الملكية، وأسروا المعتمد وآله، وقتلوا ابنه مالكاً الملقب
بفخر الدولة بين يديه، ونهبوا قصوره – على قول المؤرخ " نهباً قبيحاً " – واحتووا على سائر ذخائره وأمواله، وساد القتل والعيث والنهب في المدينة الغنية
التالدة.
وكانت محنة مروعة.
وأصدر سير بن أبي بكر أماناً للمعتمد " في النفس والأهل والولد " (٢)
ولكنه أرغمه على مخاطبة ولديه يزيد الراضى وأبى بكر المعتد، ينصحهما بالخضوع والتسليم، وكان الأول حسبما تقدم ممتنعاً برندة، والثاني ممتنعاً بميرتلة
(أو مارتلة) في جنوبى البرتغال.
وكانت رندة بالأخص ما تزال صعبة المنال، نظراً لحصانتها الفائقة، وقد يطول صمودها.

وانضمت " السيدة الكبرى "
أعنى اعتماد الرميكية أم الأميرين إلى زوجها المعتمد، في حثهما على
التسليم
واستعطافهما رحمة بوالديهما.
فأذعن الأميران للرجاء.
فأما يزيد الراضى
المدافع عن رندة، فقد قبل التسليم بعد أن قطع له جرور القائد المرابطي عهده

---

(١) راجع كتاب التبيان ص ١٧٠، وهى رواية معاصرة حيث يضع هذا
التاريخ لسقوط
إشبيلية.
ويوافقه في ذلك ابن أبي زرع (روض القرطاس ص ١٠١) .
ولكن عبد الواحد المراكشى
يضع لذلك يوم الأحد ٢١ رجب ٤٨٤ هـ (المعجب ص ٧٦) .
ويقول ابن الخطيب إن سقوط إشبيلية
كان في يوم الأحد ٢٠ رجب سنة ٤٨٤ هـ (أعمال الأعلام ص ١٦٤) .
ومن المحقق أن الرواية الأولى
هى الراجحة؛ وتوافقها التواريخ النصرانية، وهى تضع لذلك يوم ٧ سبتمبر
الموافق للتاريخ
الهجرى.
(٢) روض القرطاس ص ١٠١.



بالأمان، بيد أنه ما كادت تفتح أبواب المدينة، ويدخلها المرابطون، حتى أمر
جرور بالقبض على الراضى وإعدامه، وانتهاب أمواله، ناكثاً بذلك بعهده
أشنع نكث، وأمر بقتل كل من ظفر به من الأحرار والجند المدافعين (رمضان

سنة ٤٨٤ هـ) .

وأما ميرتلة، فقد أبقى المرابطون على حياة المعتد، وقنعوا

بنهب أمواله (١) .

وتم للمرابطين بذلك الاستيلاء على سائر قواعد مملكة إشبيلية.

وكان يزيد الراضى، ويكنى أبا خالد، أنبه أبناء المعتمد في ميدان الشعر

والأدب، وكان شاعر بني عباد بعد أبيه، وقرينه في نظم القريض الفائق.

وكان

فوق ذلك عالماً أديباً، حافظاً للشريعة، خبيراً بأنساب العرب ولغاتها.

ومن شعره

قوله:

يحل زمان المرء ما هو عاقد..

.

ويسهر في إهلاكه وهو راقد

ويغرَى بأهل الفضل حتى كأنهم..

.

جناةُ ذنوبٍ وهو للكل حاقد

سينهدُّ مبنىٌ ويقفر عامرٌ..

.

ويصفر مملوء، ويخمد واقد

ويفترق الألاّف من بعد صحبة..

.

وكم شهدت مما ذكرت الفراقد (٢)

***

وهكذا سقطت مملكة بني عباد في أشهر قلائل، وخبا نجمها الذى سطع

حيناً في سماء الأندلس وضاء عالياً، ولكنها سقطت أبية كريمة، في مناظر

من

الفروسية الرائعة تخلق بالألى شادوها.
ولم تسقط قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة
على يد عميدها الباسل.
وقد يبدو من رواية " روض القرطاس " أن المعتمد
سلم عاصمته للمرابطين بالأمان مختاراً (٣) .
والحقيقة التي تجمع عليها سائر
الروايات، هى أن المرابطين اقتحموا إشبيلية، كما تقدم، وأخذوها عنوة
في مناظر رائعة من السفك والتخريب، وأن المعتمد بن عباد لم يدخر وسيلة
في الدفاع عن نفسه وعاصمته، وأنه ظل يدافع حتى اللحظة الأخيرة، وحتى

---

(١) المراكشى في المعجب ص ٧٧، وكتاب التبيان ص ١٧١.
ونحن نذكر أن اثنين من
أبناء المعتمد هما عباد بن محمد والفتح الملقب بالمأمون قد قتلا بالتعاقب في
حوادث قرطبة، وكان
هؤلاء جميعاً ابناؤه من حظيته اعتماد الرميكية.
وكان له منها أبناء آخرون، منهم أبو الحسين الملقب
بالرشيد الذى عبر معه إلى العدوة (راجع الحلة السيراء ج ٢ ص ٦٢) .
(٢) الحلة السيراء ج ٢ ص ٧١ و ٧٤.
(٣) روض القرطاس ص ١٠١.



اقتحم الأعداء قصره وأسروه.
وقد انتهت إلينا في ذلك رواية شاهد عيان، هو أبو بكر محمد بن عيسى
الدانى المعروف بابن اللبانة، فهو يصف لنا فى
كتابه " نظم السلوك في مواعظ الملوك في أخبار الدولة العبادية "، مناظر
سقوط

إشبيلية حسبما شهدها بنفسه في قوله: " إلى أن كان يوم الأحد الحادى والعشرون
من رجب، فعظم الخطب في الأمر الواقع، واتسع الخرق على الراقع، ودخل البلد من جهة واديه، وأصيب حاضره بعادية باديه، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه، وترامية على الموت بنفسه، ما لا مزيد عليه، ولا انتهى خلق إليه، فشنت الغارة في البلد، ولم يبق فيها على سبد لأحد ولا لبد، وخرج الناس من
منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم، وكشفت وجوه المخدرات العذارى، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى " (١) .
ويصف لنا الفتح بن خاقان مؤرخ الطوائف، ومعاصرهم تقريباً، منظر الصراع الأخير بين المعتمد ومهاجميه في عبارته المسجعة فيما يلى: " ولما انتشر
الداخلون في البلد، وأوهنوا القوى والجلد، خرج (أى المعتمد) والموت يتسعر في ألحاظه، ويتصور من ألفاظه، وحسامه يعد بمضائه، ويتوقد عند انتضائه، فلقيهم في رحبة القصر وقد ضاق به فضاؤها، وتضعضعت من رجتهم أعضاؤها، فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقاً، وملأتهم فرقاً، وما زال يوالى عليهم الكر
المعاد، حتى أوردهم النهر، وما بهم من جواد، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله وذهاب ملكه وارتحاله، وعاد إلى قصره واستمسك يومه وليلته، مانعاً لخوذته، دافعاً للذل عن عزته..

.

" (٢) .
وأخيراً يقول لنا ابن الخطيب: " وكان دخول إشبيلية على المعتمد دخول القهر والغلبة يوم الأحد لعشر بقين من رجب.
وشملت الغارة، واقتحمت الدور، وخرج ابن عباد وابنه مالك للدفاع، فقتل مالك الملقب بفخر الدولة، وأرهقت

ابن عباد الخيل، فدخل القصر ملقياً بيده " (٣) .

---

(١) نقله نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٣.

(٣) قلائد العقيان ص ٢٢ في ترجمة المعتمد بن عباد.

وقد كتب الفتح كتابه بعد سقوط إشبيلية

بنحو ثلاثين عاماً.

(٣) ابن الخطيب في الإحاطة (القاهرة ١٣١٩ هـ) ج ٢ عى ٨٢.

(٣٥٤/٢)

وهذا ما يؤيده شعر المعتمد نفسه في وصف صراعه مع أعدائه في ذلك اليوم المشهود:

إن يسلب القوم العدا..

.

ملكى وتسلمنى الجموع

فالقلب بين ضلوعه..

.

لم تُسلم القلب الضلوع

قد رُمْت يوم نزالهم..

.

ألاّ تحصننى الدروع

وبرزت ليس سوى القميص..

.

عن الحشا شيء دفوع

وبذلت نفسى كى تسيل إذا يسيل بها النجيع

أجلى تأخر لم يكن..

.

بهواى ذلى والخضوع
ما سرت قط إلى القتال..
.
وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنا منهم..
.
والأصل تتبعه الفروع

ثم يقول لنا الفتح، إن المعتمد لما التجأ إلى قصره، بعد سقوط حاضرته، وتفرق جيشه، وفقد كل أمل في النجاة، فكر في أن يقضى على نفسه بيده، ولكن منعه من ذلك إيمانه المتين، فاستسلم إلى هوان الأسر، وقبض عليه المرابطون وعلى سائر آله وولده ونسائه (١) .

- ٢ -

ويجدر بنا قبل أن نتم الكلام على فتوح المرابطين لممالك الطوائف، أن نتتبع مصير المعتمد بن عباد حتى نهايته.

إن هذه المرحلة الأخيرة من حياة المعتمد، وهى مرحلة مؤسية تنفطر لها القلوب الكريمة، تنتمى إلى الأدب أكثر من انتمائها إلى التاريخ، بما تحفل به من الآثار الشعرية الرائعة، التي نظمها المعتمد عن محنته وآلامه في المنفى. وقد
شغلت هذه المرحلة على قصرها، من صحف التاريخ والأدب، فراغاً كبيراً لم تشغل مثله حياة المعتمد الملوكية كلها.

---

(١) راجع في سقوط إشبيلية: روض القرطاس ص ١٠٠ و ١٠١، وقلائد العقيان ص ٢١
و٢٢، وكتاب التبيان ص ١٧٠ و ١٧١، والمعجب ص ٧٦ و ٧٧، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦
وأعمال الأعلام ص ١٦٣ و ١٦٤، والمقرى ج ٢ ص ٤٥٣، وابن خلكان ج

٢ ص ٤٠ و ٤١، وابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥.
وراجع أيضاً: R.
M.
Pidal: ibid ; p.
٤٠٧ & ٤٠٨، وكذلك
Dozy: Hist.
V.
III.
p.
١٤٤

(٣٥٥/٢)

وإنه لما يثير الدهشة حقاً ما انتهى إليه أمير المسلمين من التحول من تقدير
المعتمد بن عباد، وإكباره والثناء البالغ على شجاعته ونجدته ومروءته، في
كتبه
الرسمية بالفتح، إلى المبالغة في خصومته، والعمل على سحقه، ومعاملته
بأقصى
ما يعامل به عدو.
ويقال في ذلك، إنه فضلا عن البواعث السياسية والعسكرية، فقد لعبت
السعاية والوشاية في علائق الرجلين دوراً لا يحمد، وأثارت في قلب
يوسف أمرّ ضروب السخط والبغض ضد المعتمد.
لم يكن سقوط إشبيلية، وسقوط المعتمد وآله أسرى في أيدى الظافرين خاتمة
المحنة، بل كان بداية محنة أفظع وأبلغ إيلاماً للنفس، هى محنة الاعتقال
والأغلال
والذل والمنفى المروع.
وكان أمير المسلمين قد قرر مصير بني عباد، كما قرر

مصير عبد الله وأخيه تميم صاحبى غرناطة ومالقة، وقد قتل المرابطون من أبناء المعتمد أربعة، هم الفتح المأمون، ويزيد الراضى، والمعتد بالله، ومالك، ولكنهم أبقوا على حياة المعتمد، وذلك فيما يبدو بإشارة أمير المسلمين ذاته، وربما كانت لدى الظافر في الإبقاء على حياته بواعث غير الرأفة به، فما كان

المعتمد بن عباد من أولئك الذين يتهيبون الموت أو يخشونه، بل لقد كان يطلبه

ويسعى إليه، حسبما رأينا.

وربما أراد عاهل المرابطين بذلك، أن يتجرع

المعتمد كأس الذلة إلى نهايتها، وأن يمرغ في التراب، ذلك الذى كان يعتبره قطب الفتنة في الأندلس، وحليف النصارى الخانع، المذنب في حق دينه ووطنه.

وأن يذيقه من العذاب المعنوى أروع ألوانه.

وهكذا انتزع المعتمد بن عباد وآله من قصر إشبيلية المنيف، وأخذوا جميعاً إلى السفن التي أعدت لنقلهم إلى المنفى، وسارت السفن من إشبيلية في نهر الوادي

الكبير في طريقها إلى العُدوة، في مناظر تذيب القلب حزناً وأسى، وضجت جموع الشعب الغفيرة التي احتشدت على ضفتى النهر لوداع المعتمد بالبكاء والنواح

حينما شهدت سيدها وراعيها بالأمس تحيق به وجميع آله، أغلال الاعتقال والذلة، ويغادر موطن سلطانه وعزه إلى مصيره المجهول.

وفى ذلك يقول شاعر المعتمد

أبو بكر بن اللبانة، وقد كان من شهود ذلك اليوم من قصيدة طويلة:

نسيت إلاّ غداة النهر كونهم..

.

في المنشآت كأموات بألحاد

والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا..

.

من لؤلؤ طافيات فوق أزباد

(٣٥٦/٢)

حط القناع فلم تستر مخدرة..

.

ومزقت أوجه تمزيق أبراد

حان الوداع فضجت كل صارخة..

.

وصارخ من مفداة ومن فادى

سارت سفائنهم والنوح يتبعها..

.

كأنها إبل يحدو بها الحادى

كم سال في الماء من دمع وكم حملت..

.

تلك القطائع من قطعات أكباد (١)

وأنزل المعتمد وآله بطنجة، واعتقلوا فيها أياماً.

وهنالك زاره الحصرى

الضرير الشاعر، وألحف في طلب الصلة، ورفع إليه أبياتاً مدحه فيها ولم يراع

في ذلك حرج الموقف.

وأبت على المعتمد أريحيته الملوكية أن يرده، فبعث

إليه بستة وثلاثين مثقالا، وشعراً يعتذر فيه عن ضآلة الهبة، فكانت آخر صلاته

الملوكية.

ثم أخذوا بعد ذلك إلى مكناسة حيث التقوا بعبد الله بن بلقين وأخيه تميم، وكانا ينتظران أمر السفر إلى مقرهما الأخير (٢) ، وهنالك قضيا بضعة

أشهر، قبل أن يرسلوا إلى مقرهم النهائي.

وأخيراً صدر الأمر بتسييرهم جميعاً إلى أغمات، وهى مدينة صغيرة حصينة تقع على قيد نحو أربعين كيلومتراً من جنوب شرقى مراكش، على مقربة من جبال

الأطلس، التي تظلل آكامها الثلوج.

وقد كانت حسبما نذكر عاصمة

المرابطيين الأولى.

وحل المعتمد وآله في أغمات في أواخر منة ٤٨٤ هـ أو أوائل

سنة ٤٨٥ هـ.

وبينما أنزل عبد الله بن بلقين وأسرته داراً حسنة وعوملوا برفق

ورعاية، إذ زج المعتمد وآله إلى قلعة أغمات المنيعة.

وهنالك قضى المعتمد بضعة

أعوام في أغلال الأسر، يتجرع غصص المهانة والذلة، ويلقى عذاب الشهيد المُعَنى.

ولم يكن مقام المعتمد بأغمات معتقلا عادياً، بل كان سجناً شنيعاً بكل معانى الكلمة، ضيق فيه على المعتمد وآله أشد التضييق، ولم يكن يطلق لهم ما يكفيهم من النفقة، فكان المعتمد، وزوجه اعتماد الرميكية التي كانت تسطع في الأندلس بجمالها وخلالها البارعة، وأبناؤه الأمراء وبناته الأقمار، يرتدون الثياب الخشنة (٣) .

وكان بنات المعتمد يشتغلن بالغزل ليعلن والدهن وأسرتهن.

---

(١) راجع هذه القصيدة في قلائد العقيان ص ٢٣، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٢ و ٤٥٣، والمعجب ص ٧٩ و ٨٠.

(٢) كتاب التبيان ص ١٧١.
(٣) كان للمعتمد بن عباد عدد كبير من الولد بنين وبنات.
ومن أولاده الذين تذكرهم الرواية:
الرشيد والمأمون والراضى والمعتد وعبد الله ومالك وأبو هاشم وعبد الجبار وغيرهم ممن لم تصلنا
أسماؤهم.
أما بناته فلم تذكر لنا الرواية شيئاً عن عددهن وأسمائهن سوى بثينة، فقد ذكرها لنا المقرى
بين شاعرات الأندلس (نفح الطيب ج ٢ ص ٤٨٩) .

(٣٥٧/٢)

وهنالك في شعر المعتمد ما يدل على أنه كان مصفداً في قدميه بالأغلال، على
الأقل في أواخر أيام أسره.
ولم تكن هذه المعاملة الشنيعة لأعظم ملوك الطوائف
عفواً، بل كانت مقصودة، بلا ريب، وكانت قسوة لا مبرر لها من الظافر، ولم تكن تتفق في شيء مع ما أثر عن يوسف بن تاشفين، من الفروسية والخلال الحسنة.
وسنرى فيما بعد كيف يفسر هذا الموقف من جانب أمير المسلمين
وكيف تلتمس له الأعذار.
واشتدت وطأة الأسر على اعتماد زوجة المعتمد، ولم تقو طويلا على مغالبة المحنة، فذوت نضارتها بسرعة ثم توفيت، فدفنت في ظاهر أغمات على مقربة
من معتقل زوجها وأولادها، فحزن المعتمد لوفاتها أيما حزن، واشتد به الضنى والأسى.
وقد سبق أن أشرنا إلى ما كانت تتمتع به اعتماد الرميكية أيام مجدها وعزها

في بلاط إشبيلية من منزلة عالية، وأشرنا إلى صفاتها اللامعة من الجمال والسحر
والشاعرية، والمشاطرة في مجالس الشعر والأدب.
على أن هذه الصفات الممتازة
التي كانت تتمتع بها الرميكية، وهذه الحياة السافرة اللامعة في أعظم بلاط لملوك الطوائف، كانت من جهة أخرى مدعاة للطعن في تصرفها وأخلاقها.
فمثلا ينقل إلينا التيجانى الأندلسي عن الحجارى في حق الرميكية ما يأتى:
" وهى التي ورطت المعتمد فيما ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة، حتى كتب
أهل إشبيلية عليه بذلك، وبتعطيل صلوات الجمع، عقوداً، ورفعوها إلى أمير المسلمين، فكان من أمره معه ما كان، وسجن المعتمد بأغمات، وسجنت الرميكية معه، فماتت هنالك قبله " (١) .

---

(١) نقلنا هذه الفقرة عن المخطرط رقم ٥٦٢ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال والمسمى
" تحفة العروس " لأبى عبد الله التيجانى الأندلسي المالكى (لوحة ٢٠٠) .

ويقدم إلينا التيجانى بهذه
المناسبة ملخصاً لقصة بثينة ابنة المعتمد والرميكية، فيقول لنا إن بثينة هذه كانت مثل أمها في الجمال
والذكاء ونظم الشعر.
ولما سقطت إشبيلية، ونهبت قصور المعتمد، كانت ابنته ضمن السبايا، ولم يعثر
لها على خبر، إلى أن كتبت إليهما بأغمات شعراً تقص فيه ما حدث لها، وهو أنها وقعت في يد
تاجر اشتراها على أنها سرية، فامتنعت عليه، وعرفته بحقيقة أمرها، وطلبت إليه أن يتزوجها

زواجاً شرعياً، وكتبت إلى والديها بأغمات الشعر المشهور المتداول، ترجو فيه منهما الموافقة على زواجها
منه.
فسر المعتمد والرميكية بوجودها على قيد الحياة، وكتبا إليها، بالموافقة على رغبتها.
(المخطوط
السالف الذكر لوحة ٢٠١) .
وراجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٨٩ و ٤٩٠.

*(٣٥٨/٢)*

وأذكت المحنة شاعرية المعتمد، وكان القريض عندئذ عزاءه وغذاءه الروحى، فصدرت عنه في معتقله طائفة كبيرة من القصائد المؤسية، وكلها تلهف على سابق مجده، وبكاء على ماضيه، ورثاء لمحنته، فمن ذلك قوله:
أنباء أسرك قد طبقن آفاقا..

.

بل قد عممن جهات الأرض إطلاقا
سارت من الغرب لا تطوى لها قدم..

.

حتى أتت شرقها تنعاك إشراقا
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة..

.

وأغرق الدمع آماقاً وأحداقا
قد ضاق صدر المعالى إذ نعيت لها..

.

وقيل إن عليك القيد قد ضاقا
وقوله:

غريب بأرض المغربين أسير..

.

سيبكى عليه منبر وسرير

وتندبه البيض الصوارم والقنا..

.

وينهل دمع بينهن غزير

مضى زمن والملك مستأنس به..

.

وأصبح منه اليوم وهو نفور

برأى من الدهر المضلل فاسد..

.

متى صلحت للمصلحين دهور

أذل بني ماء السماء زمانهم..

.

وذل بني ماء السماء كبير

فياليت شعرى هل أبيتن ليلة..

.

أمامى وخلفى روضة وغدير

بمنيته الزيتون مورثة العلا..

.

يغنى حمام أو تدن طيور

بزاهرها (١) السامى الذرى جاده الحيـ..

.

ا تشير الثريا نحونا ونشير

ويلحظنا الزاهى (٢) وسعد سعوده..

.

غفورين والصب المحب غيور

تراه عسيراً أو يسيراً مناله..

.

ألا كل ما شاء الإله يسير

وقوله في أول عيد له بأغمات، وقد أبكاه منظر أولاده وبناته:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا..

.

فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعة..

.

يغزلن للناس ما يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة..

.

أبصارهن حسيرات مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافية..

.

كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

أفطرت في العيد لا عادت إساءته..

.

فكان فطرك للأكباد تفطيرا

قد كان دهرك أن تأمره ممتثلا..

.

فردك الدهر منهياً ومأمورا

من بات بعدك في ملك يسر به..

.

فإنما بات بالأحلام مغرورا

(١) الزاهر والزاهى من قصور بني عباد بإشبيلية.

(٢/٣٥٩)

وقوله وقد رأى سرباً من القطا يمر بمعتقله:

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن به..

.

سوارح لا سجن يعوق ولا كبل

ولم تك والله المعيد حسادة..

.

ولكن حنيناً إن شكلى لها شكل

فأسرع فلا شمل صديع ولا الحشى..

.

وجيع ولا عينان يبكيهما ثكل

وقوله في لوم أمير المسلمين على ظلمه:

أبى الدهر أن يقنى الحياء ويندما..

.

وأن يمحو الذنب الذى كان قدّما

وأن يتلقى وجه عتبي وجهه..

.

بعذر يغشى صفحتيه التذمما

ستعلم بعدى من تكون سيوفه..

.

إلى كل صعب من مراقيك سلما

سترجع إن حاولت دونى فتكة..

.

بأخجل من خد المبارز أحجما

وأذكت مأساة بني عباد في الوقت نفسه دولة الشعر في الأندلس، ونظم أكابر شعراء العصر في رثاء دولتهم، والتوجع على أيامهم، طائفة من القصائد

المؤثرة، التي ما زالت تحتفظ حتى اليوم بكل روعتها وحياتها.

وكان أغزرهم

في ذلك مادة، أبو بكر بن اللبانة، شاعر المعتمد المتقدم ذكره، فقد بقى على صلاته ووفائه للمعتمد، وزاره في سجنه بأغمات، ونظم في دولته وأيامه، وفى محنته وأسره، عدة من قصائده الرنانة، يضمها كتاب وضعه في تاريخ

بنى عباد، وأسماه: " كتاب نظم السلوك في مواعظ الملوك " (١) .

واستطال أسر المعتمد وسجنه حتى سنة ٤٨٨ هـ، بيد أنه استطاع في غمر المحنة والبؤس الطاحن، أن يحتفظ بكثير من جلاله السابق، فكان هذا الجلال

يشع في ظلمات سجنه، كما يشع ضوء الشمس إذا أحدق به الغمام (٢) .

وفى

أواخر أيامه صدرت أوامر أمير المسلمين بالتضييق عليه وتصفيده بالأغلال، بسبب ثورة محلية قام بها ولده عبد الجبار في بعض حصون إشبيلية، وكان ممن

أفلت عند سقوطها وذلك حسبما نذكر بعد.

وفى اليوم الحادى عشر من شوال

سنة ٤٨٨ هـ (أواخر أكتوبر ١٠٩٥ م) ، توفى المعتمد في سجنه بقلعة أغمات بعد

---

(١) يراجع بعض هذه القصائد في قلائد العقيان ص ٢٩ و ٣٠، وابن خلكان ج ٢ ص ٤١

وما بعدها، وفي نفح الطيب ج ٢ عى ٤٥٧ و ٤٥٨.

وكذلك في الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٩ - ٦٧.
هذا وقد كتب ابن قاسم الشلبى مجموعاً في أخبار المعتمد ابن عباد أشار إليه
ابن الأبار (الحلة ج ٢
ص ١٣٦) .
(٢) تاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ (الطبعة الثانية) ص ٩٧.

*(٣٦٠/٢)*

اعتقال دام زهاء أربعة أعوام (١) ، وكان سنه عند وفاته سبعاً وخمسين سنة
وبضعة
أشهر.
ودفن بظاهر أغمات إلى جانب زوجه اعتماد الرميكية.
ومما قاله في رثاء
نفسه قبل وفاته، وأوصى بأن يكتب على قبره:
قبر الغريب سقاك الرائح الغادى..
.
حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت..
.
بالخصيب إن أجدبوا بالرى للصادى
بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا..
.
بالموت أحمر بالضرغامة العادى
بالدهر في نقم بالبحر في نعم..
.
بالبدر في ظلم بالصدر في النادى
نعم هو الحق حابانى به قدر..

.

من السماء فوافانى لميعاد

ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه..

.

ان الجبال تهادى فوق أعواد

كفاك فارفق بما استودعت من كرم..

.

رواك كل قطوب البرق رعاد

ويقدم إلينا صاحب البيان المغرب بعض تفاصيل عن ثورة عبد الجبار بن المعتمد

وهى الثورة التي اتخذت ذريعة للتنكيل بأبيه وتصفيده في سجنه بأغمات، وذلك أن

عبد الجبار امتنع بحصن أركش، الواقعة جنوبى إشبيلية وشرقى شريش، في جمع

كبير من أصحابه.

وبعث إلى ألفونسو السادس يطلب عونه، وعلم الأمير سير

اللمتونى فاتح إشبيلية بذلك، فسار إلى أركش، وبعث إلى أمير المسلمين

يخطره بالأمر، فبعث إليه مدداً من الخيل والرجالة، فضخمت الحملة، وأحدقت

بالحصن وضيقت على من فيه، واتصلت الحرب بين الفريقين، وابن عباد

يخرج في قواته من آن لآخر ويشتبك بالمرابطين في معارك دامية، وأصحابه

يتساقطون من حوله تباعاً.

وفى ذات يوم أصاب ابن عباد سهم رماه به أحد

الرماة المرابطين، فاحتمله أصحابه جريحاً، وتوفى لأيام قلائل، فكتم أصحابه موته.

وكان قد مضى على هذه المعارك نحو ستة أشهر، وفنى كثير من حامية

الحصن، واشتد بها الضيق، وعندئذ حاول القادة الأندلسيون الحصول على الأمان، فرفض الأمير سير، واقتحم الحصن أخيراً، وقتل معظم حاميته، واستخرج جثة عبد الجبار من قبرها، واحتز رأسه ورؤوس أصحابه، وحملت

---

(١) ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن وفاة المعتمد كانت في شهر ذى الحجة سنة ٤٨٨ هـ

(الأوراق المخطوطة التي عثرنا بها) .

ويقول ابن الأبار إنها كانت في ربيع الأول سنة ٤٨٨ هـ

(الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٥) .

(٣٦١/٢)

إلى مدينة إشبيلية، وعلقت على أسوارها، ووقعت حوادث هذه الحملة فى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م) (١) .

وهكذا اختتم المعتمد بن عباد حياته الباهرة، في غمر المحنة وظلمات العدم، وتفرق من بعده ولده وآله في مختلف الأنحاء.

ولكن ذكراه لبثت طويلا حية

في المغرب والأندلس، ولبثت محنته وخاتمته مضرب الأمثال في تقلب الجدود

وعبر الدهر.

وبعد وفاته بقليل وفد على أغمات أبو بحر بن عبد الصمد، وقد كان من شعراء دولته وخاصة المتصلين به، وذهب يوم العيد إلى قبره فخر أمامه، وغمره بقبلاته وبلله بدموعه، وأنشد بين الجماهير التي احتشدت من حوله، مرثيته الغراء في المعتمد، ومطلعها هذه الأبيات:

ملك الملوك أسامع فأنادى..

.

أم قد عدتك عن السماع عواد

لما خلت منك القصور ولم تكن..

.

فيها كما قد كنت في الأعياد

أقبلت في هذا الثرى لك خاضعاً..

.

واتخذت قبرك موضع الإنشاد

قد كنت أحسب أن تبرد أدمعى..

.

نيران حزن أضرمت بفؤادى

فإذا بدمعى كلما أجريته..

.

زادت على حرارة الأكباد

فبكى الناس لسماعه أحر بكاء، وهم يطوفون بالقبر طواف الحجيج، وكان منظراً يفتت الأكباد (٢) .

***

وقد أسبغت هذه البقعة التي يرقد فيها ملك إشبيلية، وأمير الشعر في عصره، رقدته الأبدية، شهرة مؤثرة على مدينة أغمات.

ولما ذهبت دولة المرابطين بعد

ذلك بنحو خمسين عاماً، غدا قبر المعتمد بن عباد وزوجه الرميكية في أغمات مزاراً

يحج إليه الوافدون من أنحاء المغرب والأندلس، واستمر كذلك عصوراً.

وفى

سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) زاره الكاتب والشاعر الكبير الوزير لسان الدين ابن الخطيب عند زيارته لمدينة أغمات.

وهو يصفه لنا في كتابه " نفاضة الجراب "، فى قوله: " وزرت بخارجها قبر المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد أمير حمص

---

(١) البيان المغرب من أوراق مخطوطة، عثرنا بها في خزانة القرويين بفاس، وسبقت
الإشارة إليها.
(٢) راجع قلائد العقيان ص ٣٠ و ٣١، وأعمال الأعلام ص ١٦٥ - ١٧٠ حيث يورد
القصيدة كلها.

*(٣٦٢/٢)*

وقرطبة والجزيرة وما إلى ذلك الصقع الغربى رحمه الله.
وهو بالمقبرة القبلية على
يسار الخارج من البلد، قد توقل نشزا غير سام، وإلى جانبه، قبر الحرة
حظيته، وسكن نفسه، اعتماد، إشراكاً لاسمها في حروف لقبه المنسوب إلى
رميك، المتولعة بشأنه معها أخبار القصاص، وحكايات الأسمار، إلى أجداث
من ولديهما
فترحمنا عليه، وأنشدته " (١) .
ويعود ابن الخطيب بعد ذلك في كتابه " أعمال
الأعلام ".
فيصف لنا زيارته للقبر في تلك العبارات المؤثرة: " وهو بمقبرة
أغمات في نشز من الأرض، وقد حفت به سدرة، وإلى جانبه قبر اعتماد
حظيته، مولاة رميك، وعليها وحشة التغرب ومعاناة الخمول بعد الملك، فلا
تملك العين
دمعها عند رؤيتها "، وقد أنشد على القبر أبياتاً يقول فيها:
قد زرت قبرك عن طوع بأغمات..
.
رأيت ذلك من أولى المهمات

ولم لا أزورك يا أندى الملوك يداً..

.

ويا ضياء الليالى المدلهمات

أناف قبرك في هضب يميزه..

.

فتنتحيه حفيات التحيات

كرمت حياً وميتاً واشتهرت علا..

.

فأنت سلطان أحياء وأموات

ما رِىء مثلك في ماض ومعتقدى..

.

أن لا يرى الدهر في حال ولا آت (٢)

وزاره المقرى مؤرخ الأندلس في سنة ١٠١٠ هـ (١٦٠٢ م) ورآه كما ذكر ابن الخطيب فوق ربوة في مكان يغمره النسيان، فوقف أمامه خاشعاً متأثراً (٣) .

وقد انتهزت فرصة وجودى بمدينة مراكش في خريف سنة ١٩٥٦، فزرت أغمات.

وقد غدت مدينة أغمات هذه، التي اشتهرت في التاريخ وفي الأدب لاحتوائها على قبر المعتمد بن عباد، اليوم قرية متواضعة، تقع على مقربة من مراكش، ومن آكام جبال الأطلس الثلجية، وتحيط بها غراس الزيتون والتين البرى، ولا يعدو سكانها ثلاثة آلاف نسمة.

وأما قبر المعتمد، فيقع فى ظاهرها في طلل خرب يحيط به سور قصير، وفي داخله حظيرتان، في إحداهما قبر المعتمد، وقد خرب تماماً ونمت به الأشواك البرية، وعليه كومة من

الأحجار
الصغيرة.
وأما الحظيرة الأخرى فالمفهوم أنها تحتوى على قبر زوجه اعتماد
الرميكية.
وقد ذكرت وأنا أتأمل هذا الطلل الموحش المؤثر، ما ذكره

---

(١) نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.
مخطوط الإسكوريال رقم ١٧٥٥ الغزيرى.
(٢) أعمال الأعلام ص ١٦٤ و ١٦٥.
(٣) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٤٥٨ و ٤٥٩.

*(٣٦٣/٢)*

ابن الخطيب والمقرى من قبل، من غلبة الخمول والعفاء عليه، وشعرت بمثل
ما شعر به كل منهما من الألم والخشوع.
* * *
كانت مأساة المعتمد بن عباد مأساة من أروع المآسى الملوكية، وما زالت
محنة هذا الأمير، تحتفظ إلى يومنا، بالرغم من كر العصور، بألوانها
المشجية، وقد أثارت عطف الرواية الإسلامية وتأثرها البالغ، ويبدو هذا
العطف بنوع خاص في روايات مؤرخي الأندلس والمشرق، وفي كثير منها
يُصور المعتمد شهيد القسوة والعسف، ومنها ما يشدد الحملة على يوسف بن
تاشفين، ويصمه بأقسى الصفات.
فمثلا يقول لنا ابن الأثير في التعليق على أسر
بنى عباد ومعاملتهم: " وفعل أمير المسلمين بهم فعالا لم يسلكها أحد من
قبله، ولا يفعلها أحد ممن يأتى بعده، إلا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة..
.
وأبان

أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولؤم قدره " (١) .

ويقول العلامة دوزى معلقاً على ذلك: " ومهما كانت فضائل يوسف، فإن الشهامة إزاء المغلوبين لم تكن منها، فقد كان تصرفه مع الأمراء الأندلسيين الذين أسرهم قاسياً وبغيضاً ".

ثم يقول، إن المعتمد لم يكن بلا ريب ملكاً عظيماً، بيد أنه ينوه بدقة حساسيته وفيض شاعريته، التي تنعكس عليها أقل الحوادث فى حياته، بل إنا لنستطيع أن نسجل حياة المعتمد وخلجات نفسه، من قصائده، ثم يقول: " ثم إنه، أى المعتمد كان لحسن طالعه آخر ملك أندلسي، يمثل بجدارة وروعة، قومية وحضارة عقلية سقطتا تحت نير البربر الذين فتحوا البلاد.

ولقد لزمه نوع من الإيثار باعتباره آخر فرع لتلك الأسرة العديدة من الأمراء الشعراء، الذين حكموا الأندلس.

وإنا لنأسوا له أكثر مما نأسوا لأى شخص آخر، بل ودون أى شخص آخر، كما تثير آخر زهرة في الموسم. وآخر أيام الخريف الحلوة، وآخر أشعة الشمس الغاربة، في نفوسنا أيما أسى " (٢) .

وقد أسبغت قسوة يوسف نحو أمراء الأندلس، ونحو المعتمد بنوع خاص. على سيرته وعلى خلاله سحباً لم تمحها جميع الأعذار التي انتحلت لتبرير عمله.

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥.

(٢) Dozy: Hist.
V.
III.

(٣٦٤/٢)

وتتلخص هذه الأعذار في أن المعتمد كان بسياسته وتصرفه نحو شئون الأندلس، ومحالفته للنصارى على اخوته في الدين، وتعريضه مستقبل الإسلام للخطر، تحقيقاً لمطامعه الشخصية، يستحق أعظم اللوم، وأنه عوقب بما تقتضيه فداحة
ذنبه.
وقد أدرك المعتمد، عقب سقوط طليطلة، فداحة أخطائه، وأبدى صريح ندمه لما أثم (١) .
على أنه إذا كان حقاً أن المعتمد يحمل بسياسته الأندلسية أمام التاريخ تبعات جسام، فإنه من الحق أيضاً أنه حينما استفحل الخطب، وظهر شبح الخطر على الأندلس المسلمة، كان أول الداعين إلى الوحدة، وإلى طلب الغوث من المرابطين، وأنه لم يبخل في ذلك السبيل بتضحية حصونه التي طلبها
يوسف قبل عبوره إلى الأندلس.
وأنه أبلى في موقعة الزلاّقة أعظم البلاء، وعاون في نيل النصر أعظم معاونة.
كذلك لا ريب أن البواعث التي دفعت
يوسف إلى افتتاح الأندلس وامتلاكها، لم تكن دينية فقط، ولم تكن بعد الزلاقة وحصار أليدو، مجرد جهاد في سبيل الله، بل كانت دنيوية قبل كل شيء، ولم يك ثمة شك في أن الأندلس قد أغرت المرابطين وأميرهم بخصبها وغنائها ونعمائها.
وإنه ليحق لنا بعد ذلك كله أن نتساءل، أى ضرورة بل أى
حكمة اقتضت أن يبطش المرابطون بأمراء الأندلس، وأن يمعنوا فيهم قتلا

وتعذيباً، على النحو الذى اتبعوه، بعد أن استولوا على أملاكهم وأراضيهم (٢) وأى ضرورة اقتضت أن يعامل سيد المرابطين، المعتمد بن عباد وآله بهذه القسوة
المروعة، بعد أن غدوا في يده أيسرى لا حول لهم ولا قوة؟ وكيف سمح أمير المسلمين القوى القادر لنفسه، أن تمتد هذه القسوة إلى الولد الضعاف والنساء والبنات؟ لقد كان المعتمد مثقلا بتبعات أعماله وأخطائه كأمير، وملك من ملوك
الطوائف، أفلم يكن يكفيه فقد ملكه وسلطانه، وأسره واعتقاله، للتكفير عما أثم بسابق تصرفه؟ وماذا كان يضير الظافر لو عامله بشىء مما يقتضيه سابق مكانته
من الرفق والرعاية؟

---

(١) راجع ما ورد في رسالة ابن عباد لألفونسو السادس (ص ٧٦ من هذا الكتاب) .
(٢) قتل المرابطون ثلاثة من أبناء المعتمد بن عباد، هم المأمون والراضى ومالك، وقتلوا
المتوكل بن الأفطس وولديه الفضل والعباس، وقتلوا كثيراً غيرهم من الوزراء والكبراء، في مناظر
من القسوة المثيرة.

(٣٦٥/٢)

هذه تأملات تثيرها في النفس محنة المعتمد بن عباد.
ولا ريب أن هذه
الخاتمة المؤسية التي قدر للمعتمد أن يعانى آلامها المروعة المادية والمعنوية، لحرية
بأن تسبغ عليه ثوب شهيد، يستحق عطف التاريخ، وصفح الأجيال.

ذكرنا فيا تقدم أن أمير المسلمين حينما نظم جيوشه لافتتاح إمارات الطوائف، بعث إلى ألمرية جيشاً بقيادة أبي زكريا بن واسنو (وقيل بل محمد بن عائشة) لمحاصرتها وافتتاحها.

وهنا تختلف الرواية، فيقال إن المرابطين أشرفوا على

ألمرية، وحاصروها، وأميرها المعتصم بن صمادح عليل يعانى مرض موته، وأنه ألقى بهذه المناسبة كلمته المأثورة " نغص علينا كل شىء حتى الموت "، ثم

توفى أثناء الحصار في شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) (١) . وفى رواية

أخرى أن المعتصم توفى قبل مقدم المرابطين، وأنه كان قد أوصى ولده معز الدولة

قبيل وفاته، بأن يترقب مصير إشبيلية، فمتى سقطت في أيدى المرابطين، وخلع أميرها المعتمد بن عباد، فعليه أن يغادر ألمرية فوراً، ويعبر البحر فى أهله وأمواله، إلى العدوة، ويلتجىء إلى حماية بني حماد أمراء القلعة.

وقد نفذ

معز الدولة وصية أبيه، واستطاع أن ينجو بأهله وأمواله، وأن يغادر ألمرية في آخر لحظة، قبل أن يطوقها المرابطون، وأن يعبر البحر إلى العدوة (رمضان

سنة ٤٨٤ هـ) ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل في أخبار مملكة ألمرية (٢) .

ودخل

المرابطون ألمرية على الأثر واحتلوها، فكانت ألمرية بعد غرناطة وإشبيلية، ثالثة

مملكة من ممالك الطوئف.

تسقط في أيدى المرابطين.

وقد ذكرنا فيما تقدم كيف احتل المرابطون مدينة مرسية بقيادة ابن عائشة وذلك في شوال سنة ٤٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٠٩١ م) ، ثم استولوا في العام التالى
(٤٨٥ هـ) على شاطبة وشقورة ودانية.
ونحن نعرف مما تقدم من أخبار مملكة بلنسية، أن المرابطين بدأوا يتدخلون في حوادث بلنسية، ويبذلون جهودهم لتحطيم مغامرات " السيد " في هذه المنطقة، وذلك منذ سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) .
وقد قام الجيش الذى يقوده

---

(١) ابن الأبار في الحلة السيراء ص ١٧٢.
والطبعة الجديدة ج ٢ ص ٨٤.
(٢) ابن الأبار في الحلة السيراء ص ١٧٤، وروض القرطاس ص ١٠١.

(٣٦٦/٢)

خريطة:
الدولة المرابطية الكبرى
عقب افتتاح الأندلس.

(٣٦٧/٢)

ابن عائشة بدوره في ذلك.
ثم قدم إلى شرقى الأندلس جيش مرابطي آخر، أوفر عدة وعدداً، بقيادة محمد بن تاشفين ابن أخى يوسف، وحاصر بلنسية، وفى داخلها السيد، وذلك في أواخر سنة ٤٨٨ هـ.
ولكن مقاومة السيد، ومن
بعد وفاته مقاومة القشتاليين، استطالت بضعة أعوام، ولم يتمكن المرابطون من دخول بلنسية إلا في شهر شعبان سنة ٤٩٥ هـ (مايو سنة ١١٠٢ م)

وذلك
حسبما فصلناه من قبل تفصيلا شافياً في أخبار مملكة بلنسية.
واستمرت الجيوش المرابطية في تقدمها شمالى بلنسية، نحو أراضي الثغر الأعلى، واستولت على إمارة شنتمرية الشرق في رجب سنة ٤٩٧ هـ (إبريل ١١٠٤ م) ، وكانت قد استولت قبل ذلك على إمارة ألبونت الصغيرة.
وفى
سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م) ، وعقب انتصار المرابطين في موقعة إقليش، سار جيش مرابطي بقيادة أبي عبد الله بن الحاج والى بلنسية، شمالا صوب سرقسطة، فدخلها، وأخرج منها بني هود، وبذلك تم للمرابطين فتح شرقى الأندلس
والثغر الأعلى، وانتهت إمارات الطوائف كلها في تلك الأنحاء.
وأما في غربى الأندلس، فإن المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس، شعر عقب استيلاء المرابطين على إشبيلية، أن الدائرة سوف تدور عليه، وكان قبل ذلك قد تقرب من عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين، وبعث إليه برسالته المؤثرة التي أوردناها من قبل، يدعوه فيها لنصرة الأندلس.
ولما استولى
المرابطون على غرناطة ذهب مع المعتمد بن عباد لتهنئة أمير المسلمين، فاستقبلهما
بجفاء، وانصرفا من لديه وقد شعر كلاهما بالخطر الداهم على مملكته.
على أنه
يبدو أن ابن الأفطس استطاع بعد ذلك أن يعمل على توثيق أواصر المودة مع
المرابطين وكبيرهم الأمير سير بن أبي بكر فاتح إشبيلية وحاكمها.
واستمرت هذه
العلائق الودية قائمة نحو ثلاثة أعوام.
ثم بدأ المرابطون الإغارة على أراضي

مملكة بطليوس، وشعر المتوكل بتغير المرابطين نحوه واتجاههم إلى إزالته، ولم يجد
أمامه إزاء هذا الخطر الداهم، طريقاً يسلكه سوى نفس الطريق الذى سلكه ابن عباد من قبل، وهو الاستغاثة بألفونسو السادس ملك قشتالة.
وبذل
ابن الأفطس لملك قشتالة ثمناً لحلفه ومعاونته، ثلاث مدن هامة من أملاكه، هى
أشبونة، وشنترة، وشنترين.
وقد كان لهذا التصرف وقع سىء، إذ انحرف

(٣٦٨/٢)

أهل بطليوس عن المتوكل، وكتب أعيانهم إلى المرابطين يستدعونهم.
وفى
أوائل سنة ٤٨٨ هـ (أوائل ١٠٩٥ م) ، بعث حاكم إشبيلية الأمير سير بن أبي بكر
جيشاً إلى بطليوس لافتتاحها، فاخترق أراضي بطليوس بسرعة، ولم يتمكن ملك قشتالة من تقديم أية معاونة لحليفه المسلم، واضطر ابن الأفطس أن يمتنع
بقصبة بطليوس المنيعة الضخمة.
ولكن المرابطين اقتحموها بعنف، وقبضوا على
المتوكل وولديه الفضل والعباس، واستولوا على أمواله المدفونة بالقصبة، بعد أن عذبوه لكشف مخابئها.
واحتل المرابطون بطليوس، وأخذوا المتوكل وولديه
بحجة تسييرهم إلى إشبيلية، ثم أعدموهم في الطريق (١) .
وكان للمتوكل ولد
آخر هو المنصور، وكان قد بعثه ومعه معظم ذخائره إلى حصن منتانجش

على
مقربة من حدود قشتالة، ليمتنع فيه، فلما علم بما وقع لأبيه وإخوته، سار في
أهله
وأمواله إلى ملك قشتالة، والتجأ إلى حمايته، وأقام بأرضه، واعتنق النصرانية
وفقاً
لبعض الروايات (٢) .
وهكذا انتهت مملكة بطليوس بعد أن عاشت في ظل بنى
الأفطس خمسة وسبعين عاماً، وتم للمرابطين فتح غربى الأندلس كله، كما تم
لهم
من الناحية الأخرى فتح شرقى الأندلس.
وقد أذكت محنة بني الأفطس، كما أذكت محنة بني عباد من قبل، فجيعة
الشعر الأندلسي، ونظم في رثائهم ورثاء دولتهم وأيامهم، وزيرهم الكاتب
والشاعر المبدع، أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، مرثيته الشهيرة، التي
تعتبر من أجل المراثى الأندلسية وأروعها، وهذا مطلعها:
الدهر يفجع بعد العين بالأثر..

.

فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة..

.

عن نومة بين ناب الليث والظفر
ومنها:
فلا تغرنك من دنياك نومتها..

.

فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالى أقال الله عثرتنا..

.

من الليالى وخانتها يد العبر

في كل حين لها في كل جارحة..

.

منا جراح وإن زاغت عن النظر

---

(١) المعجب ص ٤٢، وأعمال الأعلام ص ١٨٦، وراجع: Dozy: Hist.

V.

III.

p.

١٥٢

وكذلك: R.

M.

Pidal: ibid ; p.

٥٠٤

(٢) هذه رواية ابن عذارى في الأوراق المخطوطة التي عثرنا بها بخزانة القرويين.

وراجع

أيضاً أعمال الأعلام ص ١٨٦.

(٣٦٩/٢)

تسر بالشىء لكن كى تغر به..

.

كالأيم ثار إلى الجانى من الزهر

كم دولة وليت بالنصر خدمتها..

.

لم تبق منها وسل ذكراك من خبر

ومنها في رثاء بني الأفطس:

بنى المظفر والأيام لا نزلت..

.

مراحل والورى منها على سفر

سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت..

.

بمثله ليلة في غابر العمر

من للأسرة أو من للأعنة أو..

.

من للأسنة يهديها إلى الثغر

من للبراعة أو من لليراعة أو..

.

من للسماحة أو للنفع والضرر

ومنها:

أين الجلال الذى غضت مهابته..

.

قلوبنا وعيون الأنجم الزهر

أين الإباء الذين أرسوا قواعده..

.

على دعائم من عز ومن ظفر

أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه..

.

فلم يرد أحد منها على كدر

كانوا رواسى أرض الله منذ مضوا..

.

عنها استطارت بمن فيها ولم تقر

كانوا مصابيحها فمذ خبوا عثرت..

.

هذه الخليقة يا ألله في سدر (١)

هذا وقد أجمل لنا مأساة الطوائف شاعر معاصر هو أبو الحسن جعفر بن ابراهيم

المعروف بابن الحاج اللورقى في تلك الأبيات الثلاثة:

كم بالمغارب من أشلاء مخترم..

وعاثر الجد مصبور على الوهن

أبناء معن، وعباد، ومسلمة..

.

والحميريين باديس وذى النون

راحوا لهم في هضاب العز أبنية..

.

وأصبحوا بين مقهور ومسجون (٢)

وعلى أثر الاستيلاء على بطليوس، سارت حملة مرابطية إلى ثغر أشبونة، وكانت تحتله مذ نزل عنه المتوكل، حامية قشتالية بقيادة الكونت ريمون البرجونى

صهر ألفونسو السادس، وهاجم المرابطون أشبونة بشدة واقتحموها، وقتلوا وأسروا معظم حاميتها النصرانية.

وأعيد بذلك هذا الثغر الهام إلى حظيرة المملكة الإسلامية (نوفمبر سنة ١٠٩٤ م) (٣) .

---

(١) تراجع القصيدة بأكملها في المعجب ص ٤٢ - ٤٦، ونشرت ناقصة في أعمال الأعلام

ص ١٨٦ - ١٨٩.

(٢) الحلة السيراء ج ٢ ص ١٠١ و ١٠٢.

(٣) راجع الحلل الموشية ص ٥٥ وكذلك: R.

M.

Pidal: ibid ; p.

٥٠٢

*(٣٧٠/٢)*

ورد ملك قشتالة على ذلك بالقيام بغزوة جديدة لأراضي الأندلس.

ففى سنة

٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) حشد ألفونسو السادس حملة ضخمة، وسار نحو قرطبة، فلما علم أن المرابطين هناك على أهبة شديدة لمدافعته، تحول عنها وسار

إلى قرمونة

وهى حصن إشبيلية الشرقى، فهاجمها واقتحم بسائطها فيما بينها وبين إستجة، واستولى على غنائم وفيرة وسبى جموعاً عظيمة، ثم اتجه صوب

إشبيلية، وعاث

في بسائطها، فامتنع أهل إشبيلية بمدينتهم ولم يخرجوا إلى قتاله حسبما كان يتوقع، فلما يئس من الاشتباك مع المسلمين، سارا في قواته وغنائمه صوب

بطليوس

ثم جاز إلى أراضي قشتالة عائداً إلى قواعده (١) .

- ٤ -

لبث أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حيناً في سبتة، يعنى بإمداد جيوشه الغازية في شبه الجزيرة، ويتلقى أنباء الفتوح المتوالية لقواعد الأندلس، ثم

غادرها

إلى مراكش، بعد أن اطمأن إلى نتائج أعمال البعوث والحملات المختلفة،

وعهد

بشئون الأندلس، إلى كبير قادته الأمير سير بن أبي بكر اللمتونى.

ولم يعد يوسف إلى شبه الجزيرة إلا بعد ذلك بعدة أعوام في سنة ٤٩٦ هـ

(١١٠٢ م) حيث جاز إليها جوازه الرابع.
وفى رواية أخرى أن هذا الجواز
الرابع وقع في سنة ١٠٩٧ م (٤٩١ هـ) (٢) وفي رواية ثالثة، وهى رواية
ابن عذارى أنه وقع في سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) .
وكانت ممالك الطوائف
كلها قد سقطت يومئذ في أيدى المرابطين، ما عدا سرقسطة، التي استولى
عليها
المرابطون بعد ذلك بأعوام قلائل، وآلت اسبانيا المسلمة كلها بذلك إلى
سلطان البربر
وغدت ولاية مغربية، وانهار سلطان العصبيات والأسر الأندلسية إلى حين،
وتوارت العناصر والزعامات المتغلبة، لكى تظهر فيما بعد، وتضطلع ضد
المرابطين بمختلف الحركات والثورات القومية الأندلسية.
واتخذ جواز أمير المسلمين هذه المرة طابع الجهاد من جديد، فجهز جيشاً
قوياً من المرابطين والأندلسيين بقيادة محمد بن الحاج.
وسار هذا الجيش صوب

---

(١) البيان المغرب من الأوراق المخطوطة التي سبقت الإشارة إليها.
(٢) R.
M.
Pidal: ibid ; p.
٥٣٥

(٣٧١/٢)

طليطلة مخترقاً أراضي قشتالة، والتقى بالقشتاليين بقيادة ملكهم ألفونسو على
مقربة
من كونسويجرا، فهزم النصارى هزيمة فادحة، وفر ألفونسو في فلوله

نحوكونسويجرا
والتجأ إليها، فحاصره المرابطون بها بضعة أيام ثم انصرفوا (أغسطس سنة ١٠٩٧ م) .
وقصد يوسف إلى قرطبة، لينجز المهمة التي قدم في الواقع من أجلها إلى الأندلس، وهى أخذ البيعة لولده أبي الحسن على.
وكان قد استقدمه معه هو
وأخوه الأكبر أبو الطاهر تميم (١) ، وكان يوسف قد آثر ولده علياً بولاية عهده، لما آنسه فيه من الورع والنباهة والحزم، وأصدر له عهده بذلك فى سنة ٤٩٥ هـ.
وفى شهر ذى الحجة من سنة ٤٩٦ هـ جمع يوسف بقرطبة أمراء لمتونة وأشياخ المرابطين والفقهاء، وأخذ البيعة عليهم جميعاً لولده على، وكان من شروط تقديم على لولاية العهد، أن ينشىء بالأندلس جيشاً مرابطياً ثابتاً قوامه سبعة عشر ألف فارس، موزعة على قواعد الأندلس، منها سبعة آلاف بإشبيلية، وألف بكل من قرطبة وغرناطة، وأربعة آلاف في شرقى الأندلس، ويوزع الباقى على الثغور (٢) .
وكان من الواضح أن اختيار يوسف قرطبة لأخذ
البيعة بها لولده، يمت بصلة وثيقة إلى صفة عاصمة الخلافة القديمة، وزعامتها
الأدبية السالفة لقواعد الأندلس.
وفى أواخر سنة ٤٩٨ هـ، مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بقصره بحضره مراكش، واستمر عليلا زهاء عام وشهرين، حتى توفى في مستهل شهر محرم
سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر ١١٠٦ م) (٣) .
وقيل بل توفى في ربيع الآخر سنة خمسمائة.
وكانت وفاته بقصره بمراكش، ومن حوله ولداه أبو الحسن على وأبو الطاهر تميم، وأكابر لمتونة، ودفن بالقصر، وأوصى ولده علياً قبيل وفاته بثلاثة

أمور، الأول
ألا يفعل شيئاً لإثارة أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة،
والثاني
أن يهادن بني هود أمراء سرقسطة وأن يتركهم حائلا بينه وبين النصارى،
والثالث
أن يعطف على من أحسن من أهل قرطبة، وأن يتجاوز عمن أساء منهم (٤)
.

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٥.
ويقول ابن أبي زرع إن علياً كان عندئذ بسبتة حيث نشأ (روض
القرطاس ص ١٠١) .
(٢) الحلل الموشية ص ٥٨.
(٣) روض القرطاس ص ١٠١ ويقول ابن خلكان إنه توفى في الثالث من
المحرم سنة ٥٠٠ هـ
(ج ٢ ص ٤٤٨) .
(٤) الحلل الموشية ٦٠.



وهكذا اختتمت حياة البطل المغربى العظيم، بعد أن عاش زهاء مائة عام، وقضى في الزعامة والكفاح زهاء نصف قرن، مذ ندبه ابن عمه الأمير أبو بكر
اللمتونى لقيادة الجيش المرابطي، وقضى في حكم الدولة المرابطية الكبرى بالمغرب مذ دخل مدينة فاس في سنة ٤٦٢ هـ، نحو أربعين عاماً، وحكم الإمبراطورية المغربية الأندلسية الكبرى نحو خمسة عشر عاماً، واضطلع فى المغرب بحروب ومعارك لا حصر لها، وقاد الجيوش المرابطية بالأندلس مراراً

من أجل الجهاد في سبيل الله، وأحرز أعظم انتصاراته في معركة الزلاّقة الحاسمة، وهى بلا ريب ألمع صفحات جهاده وأنصعها.

وقد تناولنا خلال يوسف وصفاته فيما تقدم من سيرته، ونزيد هنا أنه لم يصم حياة يوسف المديدة، ولم يثر سحباً حول خلاله العظيمة، سوى ما جنح إليه من قسوة بالغة في معاملة أمراء الأندلس، وهو ما سبق أن عرضنا إليه.

(٣٧٣/٢)

الكِتابُ السابع

الممالك الإسبانية النصرانيّة

خلال القرن الحادى عشر الميلادىّ

(٣٧٥/٢)

الفصل الأوّل

المملكة الإسبانية الكبرى

في عهد سانشو الكبير وولده فرناندو الأول

الممالك الإسبانية في أواخر القرن العاشر.

نافار وليون وقشتالة.

سانشو الكبير يحتل قشتالة.

ولده فرناندو أول ملوكها.

ألفونسو الخامس ملك ليون.

ولده برمودو الثالث.

استيلاء سانشو الكبير

على ليون.

مصرع برمودو الثالث.

استيلاء فرناندو على ليون.

تقسيم المملكة النصرانية بعد وفاة

سانشو.
الحرب بين راميرو ملك أراجون وأخيه غرسية ملك نافار.
غرسية يحاول اغتيال فرناندو
ملك قشتالة.
إنتقام فرناندو.
الحرب بين الأخوين.
هزيمة غرسية ومقتله.
تعيين ولده سانشو مكانه.
إنهيار الأندلس الكبرى وقيام الطوائف.
تحول ميزان القوى في شبه الجزيرة.
ضعف دول الطوائف.
تنافسها في استعداء الملوك النصارى.
تفوق اسبانيا النصرانية ونهوض سياسة الإسترداد.
غزو فرناندو
الأول لولاية البرتغال.
حصار بازو وسقوطها.
سقوط لاميجو.
تهديد شنترين.
غزو فرناندو
لمنطقة وادي الحجارة.
المأمون بن ذى النون يسترضيه بالمال والخضوع.
غزو فرناندو لمملكة
إشبيلية.
خضوع ابن عباد وتعهده بالجزية.
موافقته على نقل رفات القديسين النصارى.
مسير

فرناندو لغزو قلمرية.

حصارها وسقوطها.

الكونت سسنندو يتولى حكمها.

مسير فرناندو إلى بلنسية

وموقعة بطرنة.

مرض فرناندو ووفاته.

تلقبه بالإمبراطور.

أعماله الإنشائية.

مجلس جويانسا.

قوانينه الكنسية والدستورية.

تنويه الرواية النصرانية بخلال فرناندو وعظمته.

مضينا فيما تقدم، في تاريخ المالك الإسبانية النصرانية، حتى نهاية القرن العاشر الميلادى، أعنى حتى نهاية عهد المنصور بن أبي عامر، ونحاول الآن

أن نتتبع تاريخ هذه الممالك خلال القرن الحادى عشر الميلادى، أعنى خلال الحقبة التي شهدت سقوط الخلافة الأندلسية، وانهيار الأندلس الكبرى، وانتثارها إلى دول الطوائف.

ثم سيرة الطوائف منذ قيامها حتى مقدم المرابطين

إلى شبه الجزيرة، وانهيار هذه الدول الإسلامية الصغيرة.

كانت الممالك الإسبانية النصرانية في أواخر القرن العاشر الميلادى ثلاثاً، وهى نافار (نبرّة) ، ويحكمها غرسية سانشيز، ولد سانشو غرسية الثاني.

وكانت نافار يومئذ أكبر الممالك النصرانية رقعة، إذ كانت تشمل فضلا عن الوطن الأصلى نافار، ولايات كنتبريا، وسوبرابى، ورباجورسا.

ولما توفى

غرسية سانشيز، في سنة ١٠٠٠ م، بعد حكم دام خمسة أعوام، خلفه في الحكم

ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير.

ومملكة ليون، وكان يحكمها برمودو الثاني منذ سنة ٩٨٢ م، واستمر

في حكمها بالرغم من مناوأة أخيه راميرو ومحاربته له، حتى توفى في سنة

٩٩٩ م، وخلفه في الحكم ولده ألفونسو طفلا، وتولى الوصاية عليه الكونت

مننديث كونثالث، أحد أشراف المملكة.

ومملكة قشتالة.

وكانت ما تزال في مرتبة " الكونتية " أو الإمارة، وكان

على حكمها غرسية فرناندز ولد بطلها ومحررها فرنان كونثالث (١) .

ولما توفى

في سنة ٩٩٥ م، خلفه ولده سانشو غرسية فحكم حتى سنة ١٠٢١ م، ثم خلفه

ولده غرسية.

حدث أن قصد غرسية إلى ليون ليتم عقد زواجه بأخت ملكها

برمودو الثالث، فقتل غيلة خلال وجوده بالكنيسة أثناء مراسيم الزواج (١٠٢٨ م)

وقتله أبناء الكونت فيلا، وهو أحد أشراف قشتالة الذى نزعهم غرسية أملاكهم.

وبمصرع غرسية انقطع نسل أسرته، وترتب على ذلك تغييرات عظيمة فى

مصاير الممالك الإسبانية.

ذلك أن سانشو الكبير ملك نافار كان متزوجاً من إلبيرة أخت غرسية، ابنة

سانشو غرسية أمير (أو كونت) قشتالة، فلما لقى الكونت غرسية مصرعه

في ليون، بادر سانشو إلى قشتالة، فاحتلها بصفته وارثاً لعرشها عن طريق

زوجته، وندب لحكمها ولده فرناندو.

وأسبغ عليه لقب الملك، فكان

أول ملوك قشتالة.

وتلقب هو بملك اسبانيا، وانتقم من آل فيلا قتلة غرسية، فأحرقهم أحياء، بالرغم من كونه جنى ثمار جريمتهم بامتلاك قشتالة.
وحكم ألفونسو الخامس مملكة ليون حتى وفاته في سنة ١٠٢٧ م، وغزا أراضي المسلمين المجاورة في شمالى البرتغال، وافتتح بعض نواحيها، وحاصر
مدينة بازو، وأصيب خلال ذلك بسهم مسموم قذفه به أحد الرماة المسلمين، فتوفى متأثراً بجراحه.
وكان أشهر أعماله عقد المجلس الدستورى في سنة ١٠٢٥ م، وفيه وضعت قوانين المملكة التأسيسية، وأصبح العرش وراثياً.
ولما توفى خلفه
ولده برمودو الثالث.
وكان فرناندو ملك قشتالة، قد تزوج من ابنة ألفونسو

---

(١) ويسميه ابن الخطيب في الفصل الذى يخصصه لتاريخ ملوك اسبانيا النصرانية، دون شانجه
قمز قشتالة (أعمال الأعلام ص ٣٢٩) .

(٣٧٧/٢)

أخت برمودو، بيد أن هذه المصاهرة لم تفعل شيئاً لتوثيق علائق المملكتين، وبالعكس فإن سانشو الكبير وولده فرناندو، كانا يريان في تلك المصاهرة وسيلة لانتزاع عرش ليون.
على أن سانشو لم ينتظر سير الحوادث لتحقيق هذا
الاحتمال، بل سار في قواته إلى ليون وافتتحها، وأعلن نفسه ملكاً عليها، وفر برمودو ليرقب الفرص لاسترداد عرشه.
ولما توفى سانشو الكبير ملك نافار، أوملك اسبانيا، في سنة ١٠٣٥ م.
استطاع برمودو أن يسترد جزءاً من أملاكه وأن يقيم بلاطه، وثارت بينه وبين

صهره فرناندو ملك قشتالة الحرب، واستمرت مدى عامين، ثم كان اللقاء الحاسم بينهما في موقعة تامارون في سنة ١٠٣٧ م وفيها لقى برمودو مصرعه.

ونظراً لوفاته دون عقب، فقد استولى فرناندو على مملكة ليون بحكم المصاهرة

والوراثة، وغدا ملكاً على مملكة قشتالة وليون الموحدة.

وانتهى بمقتل برمودو

الثالث نسل ملوك اسبانيا النصرانية، منذ أيام القوط، ومذ قامت مملكة أشتوريش وجلِّيقية وليون في أواخر القرن الثامن الميلادى، كما انتهى من قبل نسل أمراء قشتالة.



وكان سانشو الكبير، قد قسم المملكة قبيل وفاته، بين أبنائه الأربعة، فخص فرناندو كما هو بملك قشتالة وليون وجليقية، وغرسية أكبر أولاده

بالوطن الأصلى نافار، ممتداً من غرب البرنيه إلى منابع الإيبرو، وخص ولده غير الشرعى، راميرو، برقعة ضيقة تمتد بحذاء نافار من باب شيزروا جنوباً.

وتسمى بمملكة أراجون، وولده كونزالو، بمنطقة صغيرة أخرى

في أواسط البرنيه، وهى ولاية سوبرابى ورباجرسا.

وهكذا غدت الممالك

الإسبانية النصرانية، بهذا التقسيم أربعاً، وهذا عدا إمارة برشلونة الفرنجية الواقعة في شمال شرقى إسبانيا، وقد كان يحكها رامون برنجير الأول عميد آل برنجير.

وكان من جراء هذا التقسيم أن بدأت سلسلة جديدة من الحروب الأهلية بين الملوك الإخوة، وبدأت الحوادث باختفاء مملكة سوبرابى الصغيرة.

ذلك أن أميرها كونزالو قتل غيلة أثناء عوده من الصيد (١٠٣٨ م) ، فاختار

أهل سوبرابى أخاه راميرو أمير أراجون، ليخلفه في حكم الولاية، وبذا اتحدت الإمارتان في مملكة واحدة، ولم يعارض راميرو أحد من إخوته، إذ كان فرناندو ملك قشتالة مشغولا بتنظيم مملكته الكبيرة وتقويتها، وكان غرسية ملك نافار، غائباً يحج إلى رومة، وفضلا عن ذلك فقد كان شعب سوبرابى هو

الذى اختار راميرو وآثره.

يقول المؤرخ لافونتى: وكأنما كان روح الطمع والحسد والمنافسة، متاصلا في أسرنا الملوكية، ولم يفعل سانشو الكبير بتقسيم المملكة سوى أن زاد جراثيم

الشقاق والموت (١) .

ذلك أن راميرو لم يقنع بالاستيلاء على ولاية سوبرابى، بل أخذ يطمح إلى الاستيلاء على مملكة نافار نفسها.

ولما كانت موارده وأهباته قاصرة عن تحقيق

مشروعه الكبير، فقد عقد مع جاره المسلم ابن هود أمير سرقسطة، حلفاً أمده بمقتضاه ببعض قواته، ثم زحف راميرو في قواته المتحدة من النصارى والمسلمين إلى نافار، واقتحم حدودها فجأة، ولكن قلعة تافالا اعترضت سيره المظفر.

ولم يكن غرسية يتوقع من أخيه مثل هذا الاجتراء، فحشد قواته

على عجل، خلال الوقت الذى استغرقه حصار القلعة، وسار إلى تافالا، فانقض بقواته على الجيش المغير تحت جنح الظلام، وكانت مفاجأة أخذ بها الأرجونيون، فساد بينهم الاضطراب، ومزقت صفوفهم قبل أن يستعدوا للقتال ولم يتمكن راميرو من الخلاص إلا بصعوبة ففر ناجياً بنفسه مع نفر من صحبه، وأبيد معظم جيشه قتلا وأسراً، وقتل كذلك معظم حلفائه المسلمين، ووقعت

هذه الموقعة الحاسمة فيما يبدو سنة ١٠٤٢ م.
ولجأ راميرو إلى شعب الجبال الوعرة في سوبرابى خشية المطاردة، بيد أن غرسية قنع فيما يبدو بنصره والقضا على جيش أخيه، ولم يحاول مطاردته داخل
بلاده، وأنفق راميرو بضعة أعوام في تنظيم شئونه، والنهوض من عثرته، وأنشأ جيشاً جديداً، وسوف نراه فيما بعد يخوض معترك الحوادث مرة أخرى.
ثم اتخذت الحوادث وجهة أخرى، وانتقل ميدان الصراع إلى الجانب الآخر من اسبانيا النصرانية بين نافار وقشتالة.
وكان غرسية ملك نافار، وهو أكبر

---

(١) Modesto Lafuente: Historia general de Espana
V (Madrid 1861).
II.
p.
٤٣٣

(٣٧٩/٢)

إخوته، ينظر بعين الغيرة والحسد إلى فوز أخيه الأصغر فرناندو بحكم هذه المملكة
العظيمة الشاسعة، مملكة قشتالة وليون، ويرى أنه أحق بملكها وأجدر، وكان يعول في تحقيق أمنيته على وسائل الغدر والغيلة، ولم يكن فرناندو في البداية يشك
في ولاء أخيه أو صدق نياته، لاسيما وقد حارب إلى جانبه في معركة تامارون
ضد برمودو ملك ليون، ومن ثم فقد وضع غرسية، مشروعه لاغتيال أخيه، وذلك بأن تظاهر بالمرض، وبعث إلى أخيه يبلغه أنه مريض على فراش

الموت.

وأنه يرجو رؤيته للمرة الأخيرة، فبادر فرناندو إلى تلبية هذه الرغبة، بيد أنه قد نمى إليه خلال سيره، حقيقة الكمين الذى دبر لاغتياله، فارتد مسرعاً إلى برغش، وقد أضمر لأخيه الغادر أسوأ النيات.

ولم يفطن غرسية إلى أن أخاه قد

وقف على حقيقة أمره.

ثم جاء دور فرناندو في تدبير الانتقام من أخيه، فدعاه إلى زيارته في برغش بعد ذلك بأعوام قلائل، فسار إليه غرسية دون أية

ريبة، ولكنه ما كاد يصل إلى أراضي قشتالة، حتى قبض عليه وزج إلى

إحدى

القلاع، بيد أنه لم يفقد شجاعته، ولم يلبث أن استطاع الفرار من معتقله، فعاد إلى نافار، معولا على الانتقام.

وهنا لم يكن مناص من وقوع الحرب بين الأخوين، وقد بدأ غرسية بالفعل بالإغارة على أراضي قشتالة ولم يلتفت إلى تحذير أخيه.

ثم اعتزم أن يحاول الضربة

الحاسمة.

فعقد حلفاً مع أخيه وعدوه القديم راميرو وحشد كل ما استطاع من

الجند والعدة، وأمده حليفه المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بفرقة من جنده.

ونفذ بجيشه القوى إلى أراضي قشتالة، واثقاً في شجاعة جيشه.

وكان أخوه

فرناندو في تلك الأثناء يحشد من جانبه سائر قواته من قشتالة وليون.

واستمر

غرسية في سيره حتى وصل إلى سهل أتابوركا، الواقع على مقربة من شرقى برغْش، وحاول فرناندو مرة أخرى أن يجتنب الحرب مع أخيه، فبعث إليه اثنين من كبار الأحبار، يحاولان إقناعه بعقد الصلح وحقن الدماء، فصرفهما غرسية بخشونة.

وفى فجر اليوم الأول من سبتمبر سنة ١٠٥٤ م، اشتبك
الجيشان في معركة عنيفة، وقاتل غرسية بشجاعة فائقة، بيد أن االخلل ما
لبث
أن دب إلى جيشه، إذ غادرته عدة كبيرة من الفرسان الناقمين إلى المعسكر
الآخر، وشن فرسان ليون في نفس الوقت على النافاريين هجوماً عنيفاً،
وأصابت غرسية،

(٢/٣٨٠)

وهو يقاتل في قلب المعمعة طعنة قاتلة، فسقط من جواده وأسلم الروح في
الحال، بين يدى كاهنه، فانتثر شمل النافاريين، وركنوا إلى الفرار، وأغضى
فرناندو
عن مطاردتهم، وقصر أمر المطاردة على حلفائهم المسلمين، فمزقوا قتلا
وأسراً.
وأمر فرناندو بأن يحمل جثمان أخيه بمنتهى التكريم، وأن يدفن في ناجرة فى
الكنيسة التي أنشأها هناك، وأعلن في الحال اختيار ولده الصبى سانشو
مكانه
ملكاً على نافار، وأعلن الملك الجديد من جانبه طاعته لعمه الظافر، الذى
شاء أن
يبقى له على تراث أبيه، ولم يقتطع فرناندو شيئاً من أراضي نافار سوى
بعض
النواحى الواقعة على ضفة الإيبرو اليمنى (١) .
- ٢ -
في الوقت الذى كانت فيه الممالك الإسبانية النصرانية تضطرم على هذا
النحو
بنار الحرب الأهلية، ويسقط ملوكها الأصهار والإخوة صرعى خلافهم
وأطماعهم، كانت اسبانيا المسلمة من جانبها قد استحالت إلى أشلاء ممزقة،

وقامت بها أكثر
من عشرين دولة من دول الطوائف.
وبينما كانت الخلافة تحتضر في قرطبة
وتتردد أنفاسها الأخيرة بين الشريدين من بني أمية، وبين المتوثبين من بني
حمود، كان أمراء الطوائف ومعظمهم حديث عهد بالرياسة والسلطان،
يضطرمون
بأطماعهم الوضيعة، ويجعلون بمنازعاتهم وحروبهم الأهلية الصغيرة، من
الأندلس مسرحاً لفتنة غامرة لا يخبو أوارها ولا يستقر قرارها، والواقع أن
المصير الذى ترجت فيه الأندلس الكبرى على يد الطوائف وحروبهم
الانتحارية، كان أتعس بكثير مما انحدرت إليه اسبانيا النصرانية من حروب
أهلية محدودة
النطاق والمدى، ولم تلبث أن أسفرت عن تماسك المملكة النصرانية، ووحدتها
ونهوضها.
ولقد كان من رحمة القدر فقط.
أن أتيح لهذه الدويلات الإسلامية
الصغيرة أن تحتفظ بحياتها، وأن شغلت عدوتها الخالدة اسبانيا النصرانية عن
مطاردتها والقضاء عليها، بخلافاتها وحروبها الداخلية في تلك الفترة، أعنى
في النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى.
منذ بداية هذا القرن، حدث في شبه الجزيرة انقلاب حاسم في ميزان

---

(١) راجع في تفاصيل هذه الحوادث: M.
.Lafuente: ibid; V
.II
.p
٣٨٢ – ٣٨٣
وكذلك R.

.M

.Pidal: La Espana del Cid; p

١٢٢ - ١٢٣

(٢/٣٨١)

القوى السياسية والعسكرية، فبعد أن كانت اسبانيا المسلمة، منذ أيام الناصر حتى نهاية عهد المنصور، تحتفظ بتفوقها العظيم على اسبانيا النصرانية، وتكاد تخضعها لصولتها، ويترامى ملوكها على أعتاب الخلافة القرطبية، ويؤدون
لها الجزية في معظم الأحيان، إذا بها بعد انهيار الخلافة، وقيام دول الطوائف
الهزيلة المتنابذة، تفقد كل منعة وكل مقدرة حقيقية على الدفاع، ويتسابق ملوكها
إلى خطب ود الملوك النصارى، والالتجاء إليهم، واستعدائهم على محاربة بعضهم البعض.
وقد كان الملوك النصارى، يبادرون إلى انتهاز هذه الفرص، حتى في فترات ضعفهم وتفرقهم، ويتخذونها وسيلة للتفوق العسكرى، والغنم المادى.
وقد بدأت سياسة الاستعداء هذه للملوك النصارى منذ بداية الفتنة ذاتها، حيث نرى الأحزاب المتنافسة على اجتناء سلطان الخلافة، تستمد عون النصارى، على نحو ما فعل الفتى واضح ومحمد بن هشام المهدى في الاستنصار بأمير برشلونة، وسليمان بن الحكم والبربر، في استدعاء سانشو غرسية أمير قشتالة.
على أن هذا
التنافس في استعداء الملوك النصارى، والاستعانة بهم، يتسع نطاقه تباعاً، ويغدو على يد ملوك الطوائف، حسبما رأينا في أخبارهم، ضرورة سياسية

وعسكرية
يلجأون إليها بطريقة مستمرة منتظمة.
وقد استغل الملوك النصارى هذه الظاهرة
أعظم استغلال، حتى غدا ملوك الطوائف، في الواقع آلات مسخرة فى
آيديهم، ووصل هذا الإذلال إلى ذروته، حسبما رأينا، على يد ألفونسو
السادس
ملك قشتالة.
على أن ذلك لم يكن دون تمهيد من جانب القوة المادية، فقد استطاعت
إسبانيا
النصرانية، أن تمهد لتفوقها السياسى والعسكرى في شبه الجزيرة، منذ أواسط
القرن الحادى عشر، بسلسلة من الغزوات والفتوحات العظيمة، التي تبلورت
على أثرها سياسة الاسترداد الإسبانية La Reconquista، وغدت ظاهرة
قوية
وعاملا حاسماً، في ميدان الصراع بين اسبانيا المسلمة وبين اسبانيا
النصرانية.
وقد بدأت هذه السياسة على يد فرناندو الأول ملك قشتالة وليون، وهو
الذى تعرفه الرواية الإسلامية بفرذلند، فإنه ما كاد ينتهى من الصراع الداخلى
الذى نشب بينه وبين إخوته، حتى تأهب لغزو أراضي المسلمين.
وفى سنة
١٠٥٧ م، عبر في قواته نهرى دويرة وتورمس، ونفذ إلى ولاية لوزيتانيا

(٣٨٢/٢)

(شمالى البرتغال) ، وهى قاصية أراضي المسلمين من الشمال الغربى،
وكانت
هذه المنطقة المنعزلة النائية تابعة لمملكة بطليوس، بيد أنها كانت لبعدها
تكاد

تكون مستقلة بشئونها، وتعتمد في الدفاع على نفسها، فاجتاحها فرناندو وعاث
فيها، واستولى على بعض الحصون، ثم قصد إلى مدينة بازو Vizeu،
وضرب حولها الحصار.
فدافع عنها أهلها المسلمون أشد دفاع وأعنفه، وأبدى
الرماة المسلمون، كما أبدوا من قبل أيام أن حاصرها ألفونسو الخامس، براعة
عظيمة في إصابة العدو، حتى اضطر النصارى إلى ارتداء دروع مثلثة،
واضطر
فرناندو إلى إنشاء فرقة من حملة المقالع، وانتهى القشتاليون بأن اقتحموا
المدينة
بمنتهى العنف، وأمعنوا في أهلها قتلا وأسراً.
وكان من بين الأسرى، ذلك
الرامى الماهر، الذى أصاب بسهمه المسموم ألفونسو الخامس من قبل ذلك
بثلاثين عاماً، فأمر فرناندو به فسملت عيناه وقطعت يداه ورجلاه، وعذب
حتى أسلم الروح.
ثم سار فرناندو بعد ذلك إلى لاميجو (لميقة) الواقعة شمال
بازو، وكانت حصينة عالية الأسوار، فاقتحمها واستولى عليها بعد ذلك
ببضعة
أشهر، وقتل معظم أهلها وأسرهم، واسترق الأسرى من أهل المدينتين، وأسكن
بهما النصارى.
ولم يتحرك ابن الأفطس صاحب بطليوس، وهو صاحب السيادة
على تلك الأنحاء، ليقينه باستحالة الدفاع عنها، وذلك حسبما أشرنا إليه من
قبل
في أخبار مملكة بطليوس.
وقد سبق أن أشرناكذلك فيما تقدم إلى الحملة التي بعث بها فرناندو ضد
مدينة شنترين الواقعة في شمالى أشبونة على نهر التاجه، وكيف اضطر ابن
الأفطس

عندئذ إلى أن يتعهد بأن يدفع إلى قشتالة جزية قدرها خمسة آلاف دينار.
وكان فرناندو يطمح إلى أن يخضع ملوك الطوائف جميعاً، ولاسيما ابن عباد وابن ذى النون، وهما يومئذ أقوى أولئك الملوك وأعظمهم شأناً.
ومن ثم فقد
خرج في جيشه في سنة ١٠٦٢ م، إلى انحاء مملكة طليطلة الشمالية الشرقية، وأغار
على مدينة سالم، وأوسيدا، وطلمنكة، ووادي الحجارة، وقلعة النهر (ألكالا دى هنارس) وعاث في بسائطها تخريباً وسبياً.
فاستغاث أهل هذه الأنحاء بالمأمون
ابن ذى النون صاحب طليطلة، وجمع المأمون مقادير كبيرة من الذهب والفضة
والأقمشة الفاخرة، وسار بنفسه إلى معسكر الملك النصرانى، وقدم إليه الهدايا،

(٣٨٣/٢)

وأعلن اعترافه بطاعته، وتعهده بأداء الجزية، فقبل فرناندو المال والعهد، وعاد متقلا بالغنائم والتحف.
وفى العام التالى، خرج فرناندو فأغار على أراضي مملكة إشبيلية، وخرب بسائطها، واضطر المعتضد بن عباد، أن يحذو حذو المأمون، وأن يقصد إلى فرناندو ومعه هدية جليلة من الأموال والتحف، يناشده المودة والسلم، على أن يؤدى له الجزية، فأجابه فرناندو إلى رغبته، وطلب إليه أن يمكنه من نقل رفات
القديسة خوستا، وكانت هذه القديسة قد استشهدت أيام الإمبراطور دقلديانوس ودفنت في إشبيلية، فوعد ابن عباد بتحقيق رغبته، وأرسل فرناندو إلى إشبيلية بعثة من أكابر رجال الدين للقيام بهذه المهمة، ولكنها لم تستطع الاهتداء إلى قبر هذه القديسة، وعندئذ زعم أحد أعضائها، وهو الأسقف ألفيتو، أنه قد

ظهر له القديس إسيدورو، وقد كان من أساقفة إشبيلية أيام القوط، وقال له إن رفات القديسة خوستا يجب أن تبقى في مكانها لحماية إشبيلية، وعرض أن تحمل

رفاته هو، وكشف عن مكان وجودها، ووجدت بالفعل رفات هذا القديس في المكان المحدد، فحملت إلى ليون ودفنت هنالك باحتفال فخم، في الكنيسة التي سميت من ذلك التاريخ باسمه، أعنى بكنيسة سان إسيدورو، وكان ذلك في أوائل ديسمبر سنة ١٠٦٥ م (١) .

وكان فرناندو على أثر إخضاعه لملوك بطليوس وطليطلة وإشبيلية لصولته، وأرغامهم على دفع الجزية، قد وضع خطته للاستيلاء على مدينة قُلُمرية، وهى

أعظم القواعد الإسلامية، في شمال غربى البرتغال، بيد أنه رأى قبل مسيره أن

يستمد العون والبركة، من القديس ياقب، فقصد إلى مزاره بشنت ياقب، وقضى به ثلاثة أيام في صلوات ودعوات وخشوع، ثم سار إلى قلمرية فى جيش ضخم، وضرب حولها الحصار (يناير سنة ١٠٦٤ م) .

وقد سبق أن

عرضنا إلى حصار قلمرية، وأشرنا إلى ما تقصه الرواية الإسلامية، من أن راندة، قائد الحامية الإسلامية، غادر المدينة سراً مع أهله بتفاهم مع فرناندو، وأن

ابن الأفطس قضى فيما بعد بإعدامه جزاء له على خيانته، وترك ابن الأفطس

قلمرية إلى مصيرها كما فعل بالنسبة لبازو.

بيد أن أهل قلمرية دافعوا عن أنفسهم

---

(١) راجع: M.

Lafuente: ibid ; V.

.II

.p

٣٨٩ & ٣٨٨

وكذلك R.

.M

.Pidal: ibid ; p

١٣٥

(٣٨٤/٢)

أشد دفاع.

واستمر الحصار حولها زهاء ستة أشهر، حتى نضبت أقوات الجيش

المحاصر نفسه، وكاد يرفع الحصار.

ولكن رهبان دير لورفان القريب، أمدوه

بمؤنهم المخزونة في الجبال.

وأخيراً نجح القشتاليون في إحداث عدة ثغرات فى

أسوار المدينة، واضطر قائد المدينة إلى طلب الأمان، واتفق على أن يسمح

لأهلها بأن يخرجوا مع نسائهم وأولادهم، تاركين أموالهم للفاتح، ولكن الجند

المدافعين رفضوا هذا الاتفاق، واستمروا في الدفاع حتى نفدت سائر الأقوات،

وعندئذ اقتحم القشتاليون المدينة، وأسروا من المدافعين، ومن أهل المدينة،

أكثر من خمسة آلاف، ودخل فرناندو قلمرية في اليوم الحادى عشر من

يوليه، ومعه الملكة دونيا سانشا، ورهط من الأساقفة ورجال الدين (١) .

وعهد بحكم

المدينة إلى رجل كان له فيما بعد شأن في صوغ السياسة القشتالية نحو

الطوائف، هو الكونت المستعرب سسنندو دافيدس، الذى تعرفه الرواية

الإسلامية بششنند.

وكان حسبما أسلفنا في أخبار مملكة إشبيلية من أهل هذه المنطقة، وأسر في

حداثته
في غارة قام بها القاضى ابن عباد ضد ابن الأفطس، وربى في البلاط
العبادى وأعجب
المعتضد فيما بعد بمواهبه، وقربه واستخدمه في السفارة بينه وبين فرناندو، ثم
غادر
إشبيلية بعد ذلك، والتحق بخدمة البلاط القشتالى (٢) ، وقربه فرناندو وأولاه
رعايته لما كان عليه من معرفة تامة باللغة العربية، والدين الإصلامى،
وأحوال
المسلمين وعاداتهم.
فحكم سسنندو قلمرية بكفاية، ونال احترام النصارى، والمسلمين على السواء،
وكان يلقب عندئذ " بالوزير " على النمط الإسلامى، وفى
عهده نمت قلمرية، وأنشئت بها عدة صروح فخمة.
وفى بعض الروايات أن
سسنندو لم يكن حاكماً لطليطلة على أثر افتتاحها، حسبما تقدم ذكره في
موضعه، وأنه بالعكس استمر حاكماً لإقليم قلمرية حتى توفى سنة ١٠٩١ م
(٣) .
وتضع الرواية الإسلامية تاريخ سقوط قلمرية في سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م)
متفقة في ذلك مع الرواية النصرانية، بيد أنها تختلف معها في بعض
التفاصيل.
وقد سبق أن عرضنا فيما تقدم من أخبار مملكة بطليوس، إلى أقوال الرواية

---

(١) راجع في حوادث فتح قلمرية M.
Lafuente: ibid ; V.
II.
p.
٣٨٤ & ٣٨٥

وكذلك R.

M.

Pidal: ibid ; p.

١٤٩ & ١٤٥

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩.

(٣) I.

de las Cagigas: Los Mozarabes, p.

٤٦١

(٣٨٥/٢)

الإسلامية (١) وأشرنا إلى ما عمد إليه فرناندو من إجلاء سائر المسلمين عن الأراضي
الواقعة في شمال البرتغال بين نهرى منهو ودويرة.

ونحن نعرف مما تقدم في أخبار مملكة بلنسية، أن فرناندو، خرج في قواته في أوائل سنة ١٠٦٥ م، أعنى بعد استيلائه على قلمرية ببضعة أشهر، قاصداً إلى
بلنسية، يبغى افتتاحها، وأنه اخترق في طريقه أراضي مملكة سرقسطة الجنوبية، وعاث فيها معاقبة لأميرها المقتدر بن هود لتخلفه عن دفع الجزية، ثم ضرب الحصار
حول بلنسية.

ولكنه لما رأى صعوبة الاستيلاء عليها نظراً لمناعة أسوارها، وأهبة أهلها، تظاهر بمغادرتها، وانسحب بقواته إلى مكان قريب منها. وعندئذ خرج
البلنسيون دون تحوط، وفاجأهم القشتاليون في بطرنة وهزموهم هزيمة شنيعة حسبما
فصلنا ذلك في موضعه.

وكان فرناندو قد شعر حينئذ بالمرض، فآثر العودة إلى ليون، وهنالك احتفل بدفن رفات القديس إسيدورو في أوائل ديسمبر.

وكان في الواقع مرض موته، ذلك أنه لم تمض أيام قلائل على ذلك، حتى توفى في السابع والعشرين من ديسمبر

سنة ١٠٦٥، ودفن في نفس الكنيسة التي دفن فيها القديس، والتي غدت من ذلك الحين مدفناً لملوك قشتالة.

وكان فرناندو الأول من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية، وفي عهده أحرزت اسبانيا النصرانية تفوقها الواضح على اسبانيا المسلمة، ومهد حكمه الملىء بالوقائع

المظفرة لمجد الملوك اللاحقين، وقد أسبغت عليه الرواية لقب الكبير El Magno، وكان يسمى نفسه بالإمبراطور، ويدعى لنفسه مركز التفوق والسيادة على ملكى

نافار وأراجون.

وفى عهده اتسعت رقعة مملكة قشتالة اتساعاً عظيماً، ودفعت

حدودها إلى الجنوب والشرق والغرب على حساب المملكة الإسلامية،

واقتطعت منها كثيراً من البلاد والحصون.

وقد كانت غزواته، بالرغم مما ينسب

إليه من التقى والورع، تتسم بنزعة دموية مروعة، تبدو واضحة في قسوته وفظاعته في معاملته المدنيين من أهل البلاد الإسلامية المفتوحة، وسفك دمائهم

دون تمييز ولا حرج، واسترقاقهم جملة.

وقد اشتهر فضلا عن غزواته وفتوحه

المظفرة، بأعماله الإنشائية والدستورية، فقد جدد مدينتى ليون وسمورة،

---

(١) راجع سقوط قلمرية في البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨ و ٢٣٩، وأعمال الأعلام ص ١٨٤.

وكانتا قد خربتا منذ غزوات المنصور بن أبي عامر.
وأنشأ في ليون عدة صروح
وكنائس فخمة، ما زالت تزدان بها حتى اليوم.
وفى سنة ١٠٥٠ م، دعا إلى
عقد اجتماع كنسى تأسيسى في " جويانسا " اعتبر في نفس الوقت مجلساً نيابياً
"كورتيس "، وشهدته الملكة والأشراف والأساقفة، وصدرت عنه عدة أصول
كنسية ودستورية، كان لها أكبر الأثر في صوغ النظم التأسيسية لمملكة قشتالة
فيما بعد.
ومنها أن يُعمل في جميع الكنائس والأديار بدعوة القديس بندكت، وأن
يحرم على رجال الدين حمل السلاح والزواج، أو شهود مآدب الزواج. وحصلت
الكنيسة على امتيازات كثيرة، منها أنه لا يمكن الاستيلاء على أملاكها
بالتقادم، وأن المتهم بجريمة ما، إذا صار على قيد ثلاثين خطوة من عتبة الكنيسة، أضحى
تحت حماية القضاء الكنسى، وهو أثر من آثار التشريعات القوطية القديمة، وأن
القوامس (الكونتات) يجب عليهم هم ونوابهم في القضاء الجنائى، أن يحرصوا
على تحرى العدالة والحق، وفقاً لأحكام الشرائع القوطية، وأن تطبق في مملكة
ليون قوانين ألفونسو الخامس المسماة Buenos Fueros (القوانين الطيبة)
وفى مملكة قشتالة لوائح سانشو المسماة Benefactorias وأن يقضى على
المجرمين والعصاة بفقد الشرف والمناصب وبالنفى من الكنسية، وصدرت كذلك

عدة لوائح للتمييز بين النصارى والمسلمين واليهود الذين يقيمون في المملكة
. (١)

وتنوه التواريخ الإسبانية بخلال فرناندو، وعظمة عهده، ومقدرته كسياسى
ومحارب، وتنوه بالأخص بتقواه وورعه.
وفائق رعايته للكنيسة، وشغفه
بإنشاء الكنائس والأديار وتجميلها، والإغداق عليها، واهتمامه بنقل رفات
القديسين من أراضي المسلمين إلى الأراضي النصرانية، وهى ترى على
العموم
أن مملكة قشتالة وليون المتحدة، قد وصلت في عهده إلى درجة من الاستقرار
والأهمية والتفوق، لم تصل إليها من قبل قط (٢) .

---

(١) راجع تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباخ (ترجمة محمد
عبد الله عنان)
الطبعة الثانية ص ١٣ و ١٤.
(٢) M.
Lafuente: ibid, Vol.
II.
p.
٤٨٥ - ٤٨٨

(٣٨٧/٢)

الفصل الثانِي
إسبانيا النصرانية عقب وفاة فرناندو الأول
ألفونسو السادس وبداية عهد الإسترداد
تقسيم فرناندو للمملكة بين أولاده.
غزو سانشو ملك قشتالة لنافار وهزيمته.

غزوه لمملكة
ليون.
الحرب بينه وبين أخيه ألفونسو.
هزيمة ألفونسو وأسره.
فراره والتجاؤه إلى المأمون ملك
طليطلة.
المأمون يرحب به ويكرم وفادته.
أقوال الرواية النصرانية في ذلك.
ألفونسو يدرس خطط
الاستيلاء على المدينة.
تطور الحوادث.
غرسية ملك جليقية واضطراب مملكته.
استيلاء سانشو على
جليقية والتجاء غرسية إلى ملك إشبيلية.
استيلاء سانشو على تورو مدينة أخته إلبيرة.
محاولته انتزاع
سمورة من أخته أوراكا.
مصرعه تحت أسوارها.
استدعاء الأشراف لأخيه ألفونسو.
مغادرة ألفونسو
لطليطلة.
عهده للمأمون بمسالمته وولده.
تنويه الرواية النصرانية بكرم المأمون ونبله نحو مضيفه.
مسير ألفونسو إلى برغش.
حلفه ببراءته من مقتل أخيه.
يغدو ملك قشتالة وليون وجليقية.

يدبركميناً
لأخيه غرسية.
مساعدة ألفونسو للمأمون ضد ابن عباد.
وفاة ألمأمون وولاية حفيده القادر.
ألفونسو
يتحلل من عهوده ويضع الخطة للاستيلاء على طليطلة.
إغارته على أراضيها وتخريبها.
القادر يلتجىء
لحماية ألفونسو ويؤدى له الجزية.
قيام الثورة في طليطلة.
فرار القادر.
وعوده بمعاونة ألفونسو.
المعتمد بن عباد وتحالفه مع ألفونسو.
مضى ألفونسو في إرهاق طليطلة وافتتاحها.
الطابع الصليبى لهذا الفتح.
طليطلة حاضرة اسبانيا النصرانية.
الأسقف برنار عميد الكنيسة
الإسبانية.
مؤامرته لإزالة المسجد الجامع.
تحويل الجامع إلى كنيسة جامعة.
سقوط طليطلة وأثره
في ميزان القوى.
أثره في تحول ملوك الطوائف.
موقعة الزلاقة وما بعدها.
عود الطوائف إلى
تفرق الكلمة.

عدوان السيد والقشتاليين.
عبور أمير المسلمين للمرة الثانية.
حصار حصن لييط
وما اقترن به من حوادث.
إنسحاب المرابطين.
محاولة ألفونسو الاستيلاء على بلنسية وفشله.
انتصارات المرابطين في منطقة بلنسية.
وفاة السيد واستيلاء المرابطين على بلنسية.
إستيلاء ألفونسو على
شنترين.
موقعة إقليش.
هزيمة القشتاليين ومقتل سانشو ولد ألفونسو.
البابوية وتدخلها في اسبانيا.
سعيها إلى فرض سيادتها الروحية.
الأسقف برنار ودوره في ذلك.
إسبانيا والحروب الصليبية.
صفة الملك الوراثية.
نظام الإقطاع وخواصه.
تنظيم ألفونسو لأسس التشريع.
ألفونسو ووراثة
عرشه.
مجلس ليون وقراراته في ذلك.
مملكة أراجون.
مملكة نافار.
سانشو ملك نافار ومصرعه.
سانشو راميرز ملك أراجون.

استيلاؤه على منتشون وحصاره لوشقة.

وفاته وقيام ولده بيدرو

مكانه.

سقوط وشقة.

بيدرو الأول وصفاته.

وفاته وقيام أخيه ألفونسو مكانه.

إمارة برشلونة.

الكونتات الفرنج.

آل بوريل أمراء برشلونة.

خلفاؤهم آل برنجير.

رامون برنجير الكبير

وأعماله.

الصلات بين بني هود وآل برنجير.

المستعين بن هود والكونت برنجير.

رامون برنجير الثالث.

*(٣٨٨/٢)*

- ١ -

عمد فرناندو قبيل وفاته إلى تقسيم مملكته الكبيرة بين أولاده الثلاثة، فاستدعى لذلك الغرض مجلساً من الأساقفة والأشراف (١٠٦٤ م) وانتهى فيه إلى تقسيم المملكة على النحو الآتى غير معتبر في ذلك بما حدث من قبل حينما

قسمت المملكة

على يد أبيه سانشو الكبير.

فخص سانشو ولده الكبير بقشتالة، وحقوق الجزية على مملكة سرقسطة، وخص ألفونسو بليون وأشتوريش، وحقوق الجزية على مملكة طليطلة، وخص أصغرهم غرسية، بجليقية والبرتغال، وقد ضما إلى مملكة واحدة، وحق الجزية

على مملكتى إشبيلية، وبطليوس، وأعطى حق الإشراف على الأديار في سائر

المملكة لابنتيه دونيا أورّاكا، ودونيا إلبيرة، وخصت أوراكا بمدينة سمورة الحصينة، وخصت إلبيرة بمدينة تورو وأماكن أخرى على نهر دويرة.

ومن المحقق أن تقسيم المملكة الإسبانية على هذا النحو، بعد اتحادها في عهد

فرناندو، كان عملا خاطئاً، وكان نذيراً بعود الحرب الأهلية.

وقد استمر

الوئام المكبوت بين الإخوة في ظل الملكة سانشا عامين آخرين، فلما توفيت في سنة ١٠٦٧ م، بدت نذر الصراع الجديد واضحة في الأفق.

وكان سانشو، قبل أن تضطرم المعركة بينه وبين إخوته، قد وجه اهتمامه إلى ميدان آخر.

وكان يحكم نافار يومئذ سانشو ابن عمه غرسية، ويحكم أراجون

سانشو ابن عمه راميرو، ففكر سانشو ملك قشتالة أن يحاول الاستيلاء على مملكة

نافار، أو ينتزع على الأقل أعمالها الواقعة على ضفة الإيبرو العليا.

ولكن ملكا

نافار وأراجون شعوراً منهما بنياته العدوانية، عقدا خلفاً لمقاومته.

فلما سار

لمحاربتهما، رداه بنجاح وهزماه في موقعة فيانا (سنة ١٠٦٧ م) .

وكان من

جراء ذلك أن فقد سانشو أراضي نافار التي كان قد أحرزها أبوه في موقعة أتابوركا.

وفى العام التالى عقب وفاة الملكة سانشا، سار سانشو في قواته وهاجم

أراضي مملكة ليون، فسار أخوه ألفونسو لرده، والتقى الاثنان في بلادنتادا على نهر

بسيرجا (يوليه سنة ١٠٦٨ م) فهزم ألفونسو، وارتد مسرعاً إلى ليون، واضطر أن ينزل لسانشو عن بعض الأراضي المجاورة لقشتالة.
ثم عاد سانشو فغزا مملكة ليون واخترقها حتى الغرب، ووقع اللقاء بين الأخوين هذه المرة في جولنجار أو جلبياريس، الواقعة على نهر كريون، فهزم

(٣٨٩/٢)

القشتاليون.
وفروا تاركين خيامهم، وأغضى ألفونسو عن مطاردتهم حقناً
للدماء.
وكاد سانشو يرتد أدراجه، لولا أن تقدم منه أحد فرسانه.
ونصح
له بأن يجمع جنده، ويعيد الكرة، في الفجر تحت جنح الظلام، بعد أن اطمأن الليونيون إلى نصرهم، وخبت همتهم، وكان صاحب هذا النصح هو الفارس
ردريجو دياث.
الذى عرف فيما بعد بالسيد، وهى أول مناسبة يردد التاريخ
فيها اسمه.
واستجاب سانشو لهذا النصح، فاستجمع جنده، وهجم في الفجر
على الليونيين وهم نيام، فدب إليهم الاضطراب والذعر، وقتل الكثير منهم أثناء النوم، وفر ألفونسو، والتجأ إلى كنيسة بلدة كريون، فقبض عليه وزج إلى حصن برغش، ودخل سانشو بجيشه ظافراً إلى مدينة ليون (يوليه سنة ١٠٧١ م)
وهنا تدخلت دونيا أوراكا، وكانت تحب أخاها ألفونسو، وسعت إلى
إنقاذه من الأسر.
فاستجاب سانشو إلى رجائها، وقبل الإفراج عن ألفونسو، بشرط أن يرتدى حلة الرهبان، وأن يقيم في دير ساهاجون، فاضطر ألفونسو
إلى القبول، ولجأ إلى الدير، وهنا دبرت أخته أوراكا فراره من الدير، فسار إلى

طليطلة والتجأ إلى ملكها، المأمون بن ذى النون (١) .
فاستقبله المأمون
بمنتهى الترحاب والإكرام، وعامله كأخيه حسبما تقول الرواية النصرانية،
وأنزله داراً بجوار قصره، وأعد كل ما يلزم لراحته، وخصص له داراً
أخرى خارج المدينة ذات رياض وحدائق للتنزه فيها، والاجتماع بصحبه
النصارى، ولاسيما مستشاره فرناندو أنسوريز، وكان يعيش معهم في أحسن
الظروف وأكرمها (٢) .
وإليك كيف يصف الأستاذ بيدال استقبال المأمون لضيفه: " استقبل المأمون
الملك المغلوب بإكرام، بعد أن قطع له العهود اللازمة لسلامته.
وأنزله داراً
ملحقة بالقصر الملكى ذاته، تشرف على تحصينات المدينة تجاه قنطرة "
القنطرة ".
وهكذا كان الملك المنفى يعيش بعيداً عن ضجيج المدينة المسلمة، وكان
بوسعه
أن يتريض في حدائق الملك الشاسعة الواقعة في الناحية الأخرى من القنطرة
داخل المنحنى الكبير الذى يحتضنه نهر التاجُه ".

---

(١) لم يفت الرواية الإسلامية الإشارة إلى هذه الحوادث، وهى تسمى دير
ساهاجون، " بسفقند ".
راجع أعمال الأعلام ص ٣٣٠.
(٢) M.
Lafuente: ibid ; Vol.
II.
p.

ويشير الأستاذ بيدال بعد ذلك إلى أقوال الرواية العربية عن فخامة قصر
المأمون، وزخارفه البديعة وحدائقه الغناء، وروعة الحفلات التي تقام به،
ومجالس العلماء الأعلام التي كانت تعقد به، وتجعل من طليطلة يومئذ مركزاً
من
أهم مراكز الثقافة الإسلامية.
ثم يقول: " إن النفى الذى كان يعانيه ألفونسو بين
هذه الفخامات كان كأنه مقصود من العناية، حسبما يقول لنا مؤلف " تاريخ
سيلوس ".
كان ملك ليون المخلوع يختلط بالسكان المسلمين، ويتريض في جنبات المدينة
الحصينة، ويفكر من أى الأماكن، وبأى نوع من أدوات الحرب يمكن
اقتحامها " (١) .
حرصنا على إيراد هذه الأقوال، لنستطيع أن نتأمل على ضوئها فيما بعد،
تصرف ألفونسو السادس، نحو ولد حاميه والمحسن إليه، ونحو مملكة
طليطلة.
ومما له مغزى عميق، ما يقصه علينا صاحب رواية دير سيلوس السالفة
الذكر من أن ألفونسو، استمع ذات يوم، وهو متظاهر بالنوم، إلى حديث
المأمون مع وزرائه في كيفية الدفاع عن طليطلة، واحتمال مهاجمة النصارى
لها
واستيلائهم عليها، وكيف يمكن ذلك وبأية وسيلة.
وقد أجاب بعضهم أن النصارى
لا يستطيعون الاستيلاء على مدينة بمثل هذه الحصانة، إلا إذا أنفقوا سبعة
أعوام
على الأقل، في تخريب أحوازها وانتساف مؤنها، ويضيف صاحب هذه
الرواية، أن ألفونسو انتفع بوقته في دراسة خطط المدينة والاحتمالات التي

تمكنه

من تنفيذ مشروعه العظيم في الاستيلاء عليها (٢) .

وقضى ألفونسو في منفاه، ببلاط الملك المسلم، تسعة أشهر من يناير حتى أكتوبر سنة ١٠٧٢، وهو مغمور بكرم مضيفه ورعايته، إلى أن شاءت الأقدار أن تتطور الحوادث في قشتالة، وأن يتألق نجمه مرة أخرى.

ذلك أن سانشو لم يقنع بما تم له من الاستيلاء على مملكة ليون، بل أراد ْأت ينزع أخاه الصغير غرسية مُلْك جليقية، وكان سير الحوادث في جليقية، مما يعاون على تحقيق غايته.

ذلك أن غرسية أساء السيرة، وبالغ في إرهاق الشعب بالضرائب، وانصاع في ذلك لتوجيه وزيره وصفيه برتولا، وفوض إليه كل شيء في الدولة.

فسخط الأشراف لذلك، ودبروا مقتل الوزير الطاغية بحضرة مليكه ذاته، فاستشاط غرسية غضباً، واشتد عسفه وكثرت

---

(١) R.
M.
Pidal: ibid ; p.
١٧٦ & ١٧٧

(٢) M.
Lafuente: ibid ; Vol.
II.
p.
٣٩٧

مظالمه حتى ضاق به الشعب ذرعاً، فلما سار سانشو في قواته إلى جليقية، ألفى
غرسية نفسه في مأزق حرج، ولم يستطع أن يحشد سوى قوة صغيرة، وأبى
جيرانه المسلمون معاونته.
والتقى بجيشه الصغير مع أخيه قرب شنترين، فهزم
هزيمة شديدة، وقتل معظم أصحابه، ووقع أسيراً في يد أخيه، ولم يفرج عنه
إلا بعد أن أقسم بالخضوع والطاعة، وعندئذ سار في نفر من صحبه إلى
إشبيلية، والتجأ إلى أميرها (أواخر سنة ١٠٧١ م) .
ولم يبق بعد ذلك خارجاً عن سلطان سانشو، سوى مدينتى سمورة، وتورو
اللتين تحكمهما أختاه أوراكا وإلبيرة.
وكان سانشو يحقد على أختيه لعطفهما
على أخيه ألفونسو، ويخشى دسائسهما ومساعيهما الخفية، فعول على الاستيلاء
على المدينتين، وحاول في البداية أن يحقق غرضه بالمفاوضة، فعرض على
أختيه أن يعوضهما عن المدينتين بأملاك أخرى، فرفضتا ولم تحفلا بوعيده.
وعندئذ سار في قواته، واستولى أولا على قلعة تورو، ولم تبد صاحبتها إلبيرة
كبير مقاومة، ولكن أوراكا صممت على الدفاع عن سمورة، معتمدة فى
ذلك على مناعة المدينة، وعلى معاونة طائفة قليلة من الجند المخلصين، وعلى
رأسهم الفارس الباسل آرياس كونثالث.
وحاول سانشو أن يقتحم المدينة أولا، ولكنها امتنعت عليه، فضرب حولها
الحصار، واستمر حيناً، وهو يهاجمها من
آن لآخر.
وفى ذات يوم نفد إلى معسكره فارس، وطلب مقابلته لينبئه عن أحوال
المدينة المحصورة.
وما كاد الفارس يراه حتى طعنه بحربته وأرداه مضرجاً بدمائه، وفر إلى

المدينة هارباً.

ولم تكن هذه الجريمة بعيدة عن تدبير أخته الجريئة أوراكا، وكان ذلك في ٦
أكتوبر سنة ١٠٧٢ م.

وفى الحال سرى الذعر إلى المعسكر القشتالى، وانفض عنه الجند الليونيون
والجلالقة، إذ كانوا يقاتلون رغماً عنهم، وحمل القشتاليون جثمان مليكهم
القتيل، ودفنوه في دير " أونيا "، وهكذا سقط سانشو صريع أطماعه وبغيه،
بعد أن
حكم ثمانية أعوام فقط، وقد سمى بالقوى El Fuerte لجرأته وشجاعته.

واجتمع الأشراف في برغش، وأجمعوا على استدعاء ألفونسو ليتولى
الحكم مكان أخيه، بشرط واحد هو أن يقسم بأنه لم يشترك بأى حال في
تدبير
مقتل أخيه سانشو، وبعثوا إليه رسلهم في طليطلة.

وبعثت إليه كذلك أخته

(٣٩٢/٢)

أوركا، رسلها على عجل، بالخبر سراً، قبل أن يقف عليه المأمون بن ذى
النون.

وهنا تختلف الرواية، فيقال إن ألفونسو حينما وقف على النبأ أخفاه عن
المأمون، وحاول أن يغادر طليطلة خلسة، خشية أن يرغمه المأمون على أن
يقطع عهوداً
ضارة، ففطن المأمون إلى محاولته وأراد اعتقاله، ولكنه نجح في الفرار، وهذه
رواية ضعيفة.

والحقيقة، وهى ما تؤيده الروايات الوثيقة، هو أن ألفونسو أبلغ
النبأ في الحال إلى المأمون، فأعرب له المأمون عن سروره وغبطته، وأبدى
له
استعداده لإمداده بكل ما يرغب من مال وخيل أو غيرها، ولم يطلب إليه

سوى صداقته، وأن يقطع له عهداً بأن يحترم مملكته، وأن يعاونه ضد خصومه

المسلمين، وأن يسرى هذا العهد بعد وفاته بالنسبة لولده الأكبر، فقطع له ألفونسو ما شاء من عهود، وقدم المأمون إليه طائفة من الهدايا الجليلة، وصحبه

مع أكابر مملكته في موكب فخم حتى وصل إلى حدود بلاده (١) .

يقول المؤرخ لافونتى: " وكان للمأمون ولد آخر أصغر من أخيه لم يشمله هذا العهد، لسبب لا نعرفه ".

ثم يعلق فيما بعد على تصرف المأمون نحو ضيفه

بقوله: " إن ما أغدقه المأمون على ألفونسو من ضروب الرعاية والإكرام وقت محنته، يباين كل التباين تصرف أخيه سانشو نحوه، فهذا يسجن أخاه في حصن

أو دير.

وهذا الأمير المسلم، يتلقاه في قصره، ويعامله كولده، ويخصص بستانه لرياضته.

ولما خلا عرش قشتالة بممالكه الثلاث، عاون ألفونسو بكل

سخاء وإكرام، ليسير إلى تلقى العروش التي كانت في انتظاره، ولم يطلب منه لقاء ذلك شيئاً سوى صداقته.

إن تصرف المأمون على هذا النحو يكشف لنا عن

العواطف الكريمة التي يجيش بها هذا الجنس العربى ".

- ٢ -

سار ألفونسو إلى سمورة حيث اجتمع بأخته أوراكا، وبمن وافاه هنالك من الأساقفة والأشراف من ليون وجليقية، وبحث الوسائل التي تكفل له اعتلاء

عرش قشتالة دون صعوبة.

ذلك أن معظم الأشراف وأغلبية الشعب، كانت

تنسب مقتل سانشو جهاراً إلى أوراكا، ناصحة ألفونسو، وملهمته، ومن ثم فإنه

---

(١) راجع: M.

Lafuente: ibid ; Vol.

II.

p.

٣٩٨ - ٤٠٠

وR.

M.

Pidal: ibid ; p.

١٨٩ & ١٩٠

(٢) M.

Lafuente: ibid ; Vol.

II.

p.

٤٣٨

(٣٩٣/٢)

لما وصل ألفونسو إلى برغش، واجتمع بأشراف المملكة وكبرائها، طلبوا إليه أن يقسم بأنه لم يشترك بأية صورة في تدبير مقتل أخيه سانشو.

فنزل ألفونسو

عند رغبتهم.

بيد أنه لما انتظم الجمع في الكنيسة التي تقرر أداء القسم فيها، لم يجرأ أحد من الأشراف أن يتولى تحليف الملك، وعندئذ تقدم منه الفارس ردريجو دياث

(السيد فيما بعد) ، قائد أخيه سانشو ومستشاره، وتولى تحليفه اليمين بنفسه،

فلما أداها، عقب ردريجو بقوله، إنه يطلب إلى الله، إن كان ألفونسو كاذباً، أن يسلط عليه خائناً يقتله كذلك الذى اغتال أخيه سانشو.
وقد خلفت جرأة
" السيد " هذه في نفس ألفونسو أثراً لا يمحى، ولم يصف قلبه لهذا الفارس فيما بعد
قط، حسبما بينا من قبل في حياة السيد، وعلائقه مع مليكه ألفونسو (١) .
وهكذا غدا ألفونسو ملك قشتالة، كما غدا من قبل ملك ليون وجليقية
(ديسمبر سنة ١٠٧٢ م) ، وعادت المملكة الإسبانية الكبرى إلى تماسكها ووحدتها
كما كانت في عهد أبيه فرناندو.
ولم يمض قليل على ذلك، حتى عاد أخوه غرسية
ملك جليقية السابق من منفاه في إشبيلية معللا النفس، بعوده إلى العرش، فدعاه
ألفونسو بإشارة أختهما الماكرة أوراكا، إلى مقابلته للتفاهم، ولكنه ما كاد يصل إلى مكان اللقاء حتى قبض عليه، وزج إلى حصن " لونا " (فبراير سنة ١٠٧٣ م)
وهناك أنفق بقية حياته، سبعة عشر عاماً، حتى توفى سنة ١٠٩٠ م.
وتحدثنا الرواية النصرانية، بأن ألفونسو ما كاد يعتلى العرش، حتى أراد أن يعرب عن عرفانه للمأمون بن ذى النون، وذلك بأن أعانه في حربه. ضد
ابن عباد، وأمده ببعض قواته، وسار معه إلى قرطبة وعاث في أحوازها، واستطاع المأمون بذلك أن يستولى على قرطبة.
وربما كان ألفونسو قد أعان المأمون
ببعض قواته في غاراته على قرطبة، ولكن المأمون استولى على قرطبة بطريقة
أخرى دبرها مبعوثه حكم بن عكاشة (١٠٧٥ م) حسبما فصلنا ذلك في

موضعه، ولم يشترك القشتاليون في شيء من تلك الحوادث.
ولم تمض بضعة أشهر على ذلك حتى مرض المأمون وتوفى، فخلفه في
حكم
طليطلة، حسبما تقول الرواية النصرانية، ولده هشام القادر، والظاهر أن
هشاماً
هذا لم يحكم سوى بضعة أشهر ثم توفى، أو أنه خلع لشدة ولائه للنصارى،
بيد أن

---

(١) R.
M.
Pidal: ibid ; p.
١٩٣ & ١٩٨ و M.
Lafuente: ibid ; Vol.
II.
p.
٤٠٤

(٣٩٤/٢)

الرواية العربية، وهى أرجح في نظرنا، تقول إن الذى خلف المأمون، هو
حفيده الملقب بالقادر (١) ، وهو ما يدل على أن هشاماً توفى قبيل وفاة أبيه
المأمون.
وعلى أى حال فإن الرواية النصرانية، تحاول أن تلتمس من ذلك عذراً يقيل
ألفونسو من العهد الذى قطعه لحاميه والمحسن إليه، بأن يصون مملكته وألا
يعتدى
عليها، لأن هذا العهد كان قاصراً على المأمون وابنه الأكبر.
أما القادر فهو

حفيده، وهو لم يدخل ذلك العهد (٢) .

والواقع أن ألفونسو السادس، لم يعد له شغل شاغل، مذ توفى المأمون، سوى غزو طليطلة، والاستيلاء عليها، بل إن هذا المشروع، يرجع حسبما تؤكده لنا ذلك رواية رهبان سيلوس، التي سبق ذكرها، إلى وقت إقامته بطليطلة، وانتهازه تلك الفرصة لدراسة خطط المدينة، ومواقع الضعف فى تحصيناتها، وطرق مهاجمتها، وهى إقامة تقول لنا الرواية المذكورة كأنما اختارتها العناية.

ومن ثم فإن ألفونسو لم يتورع عن تنفيذ خطته، في غزو مملكة طليطلة وإرهاقها، فنراه منذ سنة ١٠٧٨ م يحشد العدة والمؤن، ويغير على أراضي طليطلة

ويعيث فيها سفكاً وتخريباً، وينتسف خضراءها وزروعها، وقد استمر على هذه الغزوات المخربة في الأعوام التالية، واستولى خلال ذلك على مدينة طلبيرة، ثم استولى على سائر المنطقة الواقعة بين طلبيرة ومجريط.

وفى خلال ذلك كان القادر يعانى في حكم مملكته صعاباً، ويسود الاضطراب في مدينة طليطلة، وتتوالى فيها الأحداث المزعجة على نحو ما فصلنا من قبل فى

أخبار مملكة طليطلة.

ولما شعر القادر بأنه عاجز عن أن يواجه سيل هذه الغزوات

المخربة، اضطر أن يلوذ بحماية ألفونسو، وأن يؤدى له الجزية، وأن يسلمه عدداً من الحصون القريبة من الحدود.

كل ذلك وملك قشتالة مستمر في إرهاقه

بطلب المال والأراضي، والقادر يواجه داخل طليطلة سخط شعبه وتبرمه.

وأخيراً اضطرمت طليطلة بالثورة، واضطر القادر أن يلوذ بالفرار، وأن يلتمس غوث ألفونسو وعونه على رده إلى عرشه، فأجابه ألفونسو إلى ما طاب تمكيناً

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦١، وأعمال الأعلام ص ١٧٩.
(٢) M.
Lafuente: ibid ; Vol.
II.
p.
٤٠٤

(٣٩٥/٢)

لقبضته منه، وأمده بقوة من جنده، وأخضعت المدينة الثائرة، وجلس القادر
على عرضها مرة أخرى، تحت ظلال الحراب النصرانية، وذلك في سنة ٤٧٤
هـ
(١٠٨١ م) .
وهنا نضجت خطة ألفونسو في الاستيلاء على طليطلة، وأخذ يعد معداته
الأخيرة.
وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، لما رأى اشتداد ساعد ألفونسو
وغزواته الكاسحة نحو الجنوب، وخشى أن يتحول نحوه هذا التيار
المخرب، وأن ينزعه ألفونسو، ما استولى عليه من أراضي طليطلة الجنوبية،
قد عقد معه
حلفهما المشهور الذى يتعهد فيه بأداء الجزية، وبأن يترك ألفونسو حراً في
مشروعه
ضد طليطلة، ويتعهد ألفونسو من جانبه بأن يساعده على سائر أعدائه
المسلمين، وهو الحلف الذى زعمت التواريخ النصرانية، بأن المعتمد قد رأى
أن يدعمه
بتقديم ابنته " زائدة "، زوجاً لألفونسو.
وهى قصة أثبتنا بطلانها وسخفها فيما تقدم
من أخبار المعتمد.

وشعر ألفونسو بحق أن طليطلة قد أضحت تحت رحمته، ولم يبق عليه إلا أن
يتم خطته التمهيدية من تخريب أراضيها وإعدام أقواتها، وقد استمر على تنفيذ
هذه الخطة المدمرة زهاء أربعة أعوام، مذ عاد القادر إلى عرشه في سنة
١٠٨١ م، كل ذلك وملوك الطوائف جميعاً إلا واحداً منهم هو أمير بطليوس
الشهم، يشهدون اقتراب النكبة جامدين، إما بدافع الأثرة والخوف أو عدم الاهتمام
والتخاذل، حتى حم القضاء، وسقطت المدينة الأندلسية التالدة في يد ألفونسو
السادس في فاتحة شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ (٢٥ مايو ١٠٨٥ م) .
وقد سبق أن
تناولنا حوادث سقوط طليطلة وما تلاه، مفصلة في أخبار مملكة بني ذى
النون، فلا حاجة بنا إلى التكرار، وإنما نود فقط أن ننوه هنا بالطابع الصليبى لحصار
طليطلة وافتتاحها، فقد اشترك فيه إلى جانب جنود قشتالة وليون، جند من
أراجون، ومتطوعون ومغامرون من فرنسا وغيرها، قدموا للاشتراك فى
مشروع يهم النصرانية كلها.
وقد عادت طليطلة منذ افتتاحها عاصمة لإسبانيا النصرانية، كما كانت أيام
القوط، وردت إليها صفتها القديمة كمركز رئيسى للكنيسة الإسبانية، وهى ما تزال
تحتفظ حتى يومنا بهذه الصفة، وعين لرياستها الأسقف برنار الفرنسى، عميد دير

(٣٩٦/٢)

ساهاجون، وذلك بنفوذ الملكة كونستانس، وهى فرنسية برجونية الأصل.
وكان لتعيين هذا الراهب لرياسة الكنيسة الإسبانية، تأثير شديد في تطور طقوسها

وتقاليدها.
وكان من أول الأعمال التي دلت على بغيه وتعصبه، اعتداؤه على مسجد
طليطلة
الجامع.
وكان من عهود التسليم التي قطعها ألفونسو على نفسه، أن يحتفظ المسلمون
بمسجدهم الجامع لأداء شعائرهم إلى الأبد.
بيد أنه ما كاد يمضى شهران على
التسليم، حتى دبر هذا القس بتحريض الملكة كونستانس المتعصبة مؤامرته
لإزالة الجامع.
وكان رجال الدين من النصارى يغصون بالأخص بعظمة الجامع وروعته،
هذا
بينما كانت كنائس المدينة كلها صغيرة متواضعة.
وعبثاً حاول الكونت ششنندو
حاكم المدينة أن يثنى القس عن غيه، وأن يبين له سوء العاقبة في مخالفة
العهود
المقطوعة على هذا النحو.
وانتهز برنار فرصة غياب الملك في ليون، واقتحم
الجامع في جمع من الفرسان وحطم المحراب، وأمر بإقامة الهياكل.
وفى اليوم
التالى عقد بالجامع قداساً حافلا، فهاج المسلمون وماجوا، ولولا وجود حامية
قشتالية كبيرة بالمدينة لاستحال هياجهم إلى ثورة مدمرة.
وعلم الملك بذلك
الحادث، فارتد من ليون على عجل، وهو يضطرم غيظاً وسخطاً، إذ كان من
سياسته أن يحترم العهود المقطوعة ولو إلى حين، تفادياً من سخط المسلمين،
واضطرام القلاقل.
وتظاهر الملك بأنه سوف يعاقب القس والملكة بالحرق، وعندئذ تدخل

المسلمون والتمسوا إليه العفو عنهما، ولعلهم كانوا يأملون بذلك أن ويستردوا جامعهم.

ولكن هذا الأمل الخلاب لم يتحقق، واستمر العمل في تحويل الجامع إلى كنيسة جامعة.

وفى يوم الأحد ١٨ ديسمبر سنة ١٠٨٥) ١٥ شعبان سنة ٤٧٨ هـ) دشنت الكنيسة الجديدة في حفل ضخم شهده الملك والأشراف ورجال الدين، وانتخب فيه برنار مطراناً (١) .

---

(١) ورد تاريخ تحويل جامع طليطلة إلى كنيسة في أوراق مخطوطة لم تنشر من كتاب البيان المغرب لابن عذارى، عثر بها الأستاذ ليفى بروفنسال ونقله العلامة الأستاذ بيدال في كتابه La Espana del Cid (ص ٣٠٧ و ٣٠٨) . وقد تناول ابن بسام حادث تحويل الجامع إلى كنيسة في عبارته المسجعة (الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣١ و ١٣٢، ولكنه وهم في تاريخ الحادث فجعله في ربيع الأول سنة ٤٩٨ - ١١٠٤ م، وربما كان ذلك راجعاً إلى تحريف فى المخطوط إذ وضعت عبارة سنة " ثمان وتسعين وأربعمائة "، وهى في الحقيقة " ثمان وسبعين ".

(٣٩٧/٢)

- ٣ -

كان الاستيلاء على طليطلة بلا مراء أعظم أعمال ألفونسو السادس، بل كان أعظم عمل قام به ملك نصرانى، مذ قامت المملكة الإسبانية النصرانية في شبه

الجزيرة في أواخر القرن الثامن الميلادى.
وقدكان لسقوط طليطلة أعمق الآثار في ميزان القوى في شبه الجزيرة، وبه توج تفوق اسبانيا النصرانية السياسى والعسكرى، واتخذ ملك قشتالة على أثره لقب الإمبراطور، ودخلت سياسة الإسترداد Reconquista في طور جديد
يبدأ من الناحية الأخرى من نهر التاجُه.
بيد أنه كان من آثاره أيضاً أن استيقظت
اسبانيا المسلمة من سباتها، وأدرك ملوك الطوائف، حقيقة موقفهم، وعاقبة بغيهم واستهتارهم، وخطورة تنابذهم وتفرقهم، وشعروا بخطر الفناء يهدد مصايرهم جميعاً، وجنحوا عندئذ إلى الاستعانة بإخوانهم فيما وراء البحر، وكان
أن استجاب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى صريخهم، وعبر إلى شبه الجزيرة
في جيوشه المرابطية.
وفى ذلك الوقت بالذات كان ألفونسو، عقب استيلائه على
طليطلة، قد سار إلى سرقسطة وحاصرها، ليرغم أميرها المستعين بن هود على
دفع الجزية، فلما سمع بمقدم المرابطين، غادرها مسرعاً إلى الأندلس ليلقى أعداءه الجدد.
ثم كانت موقعة الزلاقة (رجب ٤٧٩ هـ - أكتوبر سنة ١٠٨٦ م)
وإحراز الجيوش الإسلامية المتحدة لنصرها الباهر على الجيوش النصرانية المتحدة، وسحق قوات ألفونسو السادس، وانسحابه في فلوله القليلة مهيضاً مغلوباً، وذلك
كله حسبما فصلناه في مواضعه بإفاضة.
بيد أن يوسف اضطر عقب الموقعة أن يغادر الأندلس إلى المغرب لوفاة ولده وخلفه الأمير سير.

وتنفس ألفونسو الصعداء حيناً، وأخذ يجمع أشتات
جيشه من جديد، ووفد عليه عندئذ سيل من المتطوعة النصارى النورمان
والفرنسيين وغيرهم، شعوراً منهم بطابع المعركة الصليبى، ولم يمض سوى
قليل، حتى استرد ألفونسو ثقته بنفسه، وشعر أنه يستطيع لقاء أعدائه في
المبدان
من جديد، وكان ابن عباد وغيره من أمراء الطوائف قد انتعشوا عقب نصر
الزلاقة، وأغار المعتمد بقواته على أراضي طليطلة، وانتزع منها عدة أماكن.
بيد أن أمراء الطوائف لبثوا مع ذلك على تنابذهم وتفرقهم، يتربص كل بأخيه،

(٣٩٨/٢)

ولم يستطيعوا أن يؤلفوا من أنفسهم جبهة متحدة ضد النصارى.
ومن ثم فقد
استمر السيد إلكمبيادور في عيثه ومغامراته في منطقة بلنسية، واستمر
القشتاليون من
قاعدتهم المنيعة في حصن لييط (أليدو) الواقع بين مرسية ولورقة، وهو الذى
ابتنوه
قبل ذلك ببضعة أعوام، يرهقون هذه المنطقة بغاراتهم المتوالية.
وعلى ذلك فقد
استصرخ أمراء الطوائف، أمير المسلمين للعبور إليهم وإنجادهم مرة أخرى.
وعبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية في سنة
٤٨١ هـ
(١٠٨٩ م) ، وانضم إليه ابن عباد صاحب إشبيلية، والمعتصم صاحب
ألمرية، وتميم بن بلقين، صاحب مالقة، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة، وابن
رشيق
صاحب مرسية، كل في قواته، وهم الذين تقع أملاكهم جميعاً في شرق
الأندلس (١)

وتعرض لعدوان القشتاليين في تلك المنطقة.
وضرب المسلمون الحصار حول
حصن لييط، وكان يدافع عنه ألف فارس واثنا عشر ألف راجل من النصارى، ولكن الحصن كان في منتهى المناعة، فلم تنجح آلات الحصار الضخمة في هدمه
أو ثلم أسواره، وطال الحصار زهاء أربعة أشهر، والقوات المحاصرة تحاول اقتحامه، كل جماعة بدورها، والنصارى صامدون، يتساقطون داخل حصنهم من الجوع والإعياء.
وفى أثناء ذلك كان الخلاف والوقيعة على أشدهما بين أمراء
الأندلس المشاركين في الحصار، ولاسيما بين ابن عباد وابن رشيق، فقد شكا ابن عباد، ابن رشيق لأمير المسلمين، واتهمه باغتصاب ولاية مرسية منه، وأنه تفاهم سراً مع ألفونسو، ودفع جبايتها إليه.
واقتنع أمير المسلمين بوجاهة
هذه الشكوى، واستفتى الفقهاء في أمر ابن رشيق، فأفتوا بإدانته، فأمر بتسليمه لابن عباد على شرط أن يبقى على حياته.
وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر في المعسكر
المحاصر، فإن قادة مرسية، ومعظمهم من قرابة.
ابن رشيق وصحبه، غادروا
المحلة في جندهم غاضبين، وقطعوا المؤن التي كانت ترسل إلى المحاصرين من
مرسية وأحوازها، فاختل أمر المعسكر، وعمه الضيق والغلاء.
وعلم أمير
المسلمين من جهة أخرى أن ملك قشتالة، يسير في قوة كبيرة لإنجاد حصن لييط، فآثر الانسحاب وعدم التعرض للقشتاليين.
وقدم ألفونسو إلى الحصن، فلم يجد
به من المدافعين سوى مائة فارس وألف راجل قد برح بهم الجوع، ولما رأى

(١) يلاحظ أن المعتمد ابن عباد كان يدعى حق السيادة على مدينة مرسية منذ افتتحها ابن
عمار وابن رشيق باسمه وبمعاونة جنده.

(٢/٣٩٩)

أنه لا فائدة من الاحتفاظ به، وأنه يقتضى لذلك حامية كبيرة، أخلاه وقوض أسواره وعاد أدراجه، وذلك في سنة ١٠٨٩ م (٤٨٢ هـ) .
وترك أمير المسلمين فى
شرق الأندلس قوة كبيرة، بقيادة ولده الأمير ابن عائشة، ليقوم بافتتاح مرسية وبلنسية، والقضاء على سلطان " السيد " في تلك المنطقة، وعاد إلى المغرب، وقد تغيرت نفسه على أمراء الأندلس، لما رآه من اختلال أحوالهم، وسوء تصرفاتهم، ووضيع أهوائهم وأطماعهم (١) .
وخاض ألفونسو بعد ذلك ضد المسلمين عدة وقائع أخرى، ففكر في الاستيلاء على بلنسية لكى يحرم " السيد " من الاستيلاء عليها، وسار إليها بالفعل وحاصرها في سنة ١٠٩٢ م (٤٨٥ هـ) ، معتمداً في ذلك على معاونة سفن جنوة
وبيزة اللتين عقد معهما حلفاً لهذا الغرض، ولكنه فشل في مشروعه، وأرغم على ترك الحصار حينما عاث السيد في أراضي قشتالة.
ثم استولى السيد بعد ذلك
على بلنسية (١٠٩٤ م) ، ولم يمض سوى قليل حتى سار المرابطون لإنقاذها وضربوا
حولها الحصار، وسار جيش مرابطي آخر إلى أحواز طليطلة وعاث فيها وهزم
القشتاليين، وسار جيش ثالث إلى قونقة وهزم قوات ألفونسو التي يقودها ألبارهانيس.

في خلال هذه الوقائع التي رجحت فيها كفة المرابطين على قوات
ألفونسو السادس، توفى " السيد " خلال حصار بلنسية، واستغاثت زوجه
خمينا
بألفونسو، فسار إلى بلنسية ودخلها في مارس سنة ١١٠٢، ولم يعترض
المرابطون
سبيله استعداداً للموقعة الحاسمة.
ولكنه لما رأى ضخامة الجيوش المرابطية، خشى العاقبة، وغادر بلنسية مع
خمينا وسائر القوات النصرانية، ودخلها المرابطون
في شهر مايو سنة ١١٠٢ م (٤٩٥ هـ) ، كل ذلك حسبما فصلناه من قبل
في أخبار
مملكة بلنسية.
وسار ألفونسو في قواته إلى مدينة شنترين من أعمال ولاية الغرب واستولى
عليها سنة ١٠٩٣ م (٤٨٦ هـ) .
وقد وقع ذلك فيما يبدو خلال غزو المرابطين
لمملكة بطليوس، التي كانت شنترين من أعمالها، ونحن نعرف أن بطليوس
سقطت
في أيدى المرابطين في صفر سنة ٤٨٧ هـ (مارس ١٠٩٤ م) .

---

(١) راجع في حصار حصن لييط، الحلل الموشية ص ٤٩ و ٥٠، وروض
القرطاس
ص ٩٩، وكتاب التبيان للأمير عبد الله ص ١١٠ - ١١٣، وأعمال الأعلام
ص ٢٤٧.
وراجع
أيضاً Dozy: Histoire ; V.
III.
p.

١٣٩ & ١٤٠ و R.

M.

Pidal: ibid ; p.

٣٦٤ & ٣٦٥ & ٤٠٩

*(٤٠٠/٢)*

وكانت آخر معركة هامة خاضها ألفونسو السادس مع المسلمين هى موقعة إقليش، وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قد توفى يومئذ (سنة ٥٠٠ هـ) وخلفه ولده على.

وقد عبر عقب توليته إلى شبه الجزيرة الإسبانية في أوائل
سنة ١١٠٨ م (٥٠١ هـ) معتزماً أن يستأنف الجهاد ضد النصارى، وعهد بالقيادة إلى أخيه الأكبر تميم أبي الطاهر، فسار الأمير تميم في جيش ضخم، واخترق أراضي قشتالة، ولكن حالت دون تقدمه قلعة إقليش Uclés المنيعة، فضرب حولها الحصار في الحال، فبعث ألفونسو، وقد عاقته الشيخوخة عن
أن يقود جيشه بنفسه، قواته لإنجادها، وبعث معها ولده الوحيد سانشو وهو الذى رزق به من " زائدة " حظيته أو زوجه المسلمة المتنصرة، لكى يثير حماسة
الجند، وكان صبياً في الحادية عشرة من عمره.

ووقعت بين المرابطين وبين
القشتاليين أمام حصن إقليش موقعة شديدة، حدث خلالها أن ازدلف الأمير الصبى إلى قلب المعمعة، وشاء القدر أن تصيبه طعنة قاتلة، وقتل معه مؤدبه
الكونت غرسية دى قبره مدافعاً عنه، فدب الخلل إلى الجيش القشتالى وركن إلى الفرار، وقتل المرابطون منه مقتلة عظيمة، يقدر من زهق فيها بنحو عشرين

ألفاً (٢٩ مايو سنة ١١٠٩ م) (١) .
وكان نصراً عظيماً أعاد ذكريات الزلاّقة، وكان أشد ما فيها وقعاً في نفس الملك النصرانى، فقده لولده الوحيد وولى عهده، وانقطاع نسله بذلك.
والواقع أن ألفونسو لم يعش طويلا بعد هذه الصدمة
المؤلمة، فتوفى في ٢٩ يونيه سنة ١١٠٩ م، بعد أن حكم المملكة النصرانية المتحدة
سبعة وثلاثين عاماً، وحوادث المرحلة الأخيرة من حياته أكثر ارتباطاً بتاريخ المرابطين، ولكننا حرصنا على استعراضها بإيجاز، استكمالا لسياق الحوادث.
ولابد لنا قبل أن نختتم الكلام على عهد ألفونسو السادس، أن نتحدث عن أعماله وإصلاحاته الداخلية، وقد شملت هذه الإصلاحات جوانب هامة في بناء
المملكة النصرانية والمجتمع الإسبانى، وذلك من الناحيتين الدينية والدنيوية.
ففى أواخر القرن الحادى عشر، وفي عهد ألفونسو السادس بالذات، نوضع الأسس الأولى، لنفوذ البابوية وسلطانها على اسبانيا والملوكية الإسبانية، وهو سلطان تأثل بمضى الزمن، وما زال يحتفظ حتى اليوم بكثير من رسوخه

---

(١) راجع روض القرطاس ص ١٠٤.
وتاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ ص ١١٧ و ١١٨.



وقوته.
وقد توالت بعثات الكرسى الرسولى إلى الملوك الاسبان في هذا العهد، تسعى إلى فرض سيادته الروحية، وإلى إلغاء الطقوس القوطية المنسوبة للقديس إسيدورو واستبدالها بالطقوس الرومانية.
وبذل دير ساهاجون البندكتى، ورئيسه الراهب برنار الفرنسى عندئذ، أعظم

الجهود لتحقيق أغراض البابوية.

وقد سبق أن أشرنا إلى الدور الذى قامت به الملكة كونستانس زوجة ألفونسو الأولى، وهى فرنسية من بيت برجونية، في تأييد الراهب برنار واختياره مطراناً للكنيسة الإسبانية، عقب افتتاح طليطلة.

وحصل برنار بعد ذلك على

مرسوم بابوى بتعيينه في ذلك المنصب الخطير، ووضع في معظم الأسقفيات رجالا

من مواطنيه، وملأ دير ساهاجون بالرهبان الفرنسيين، وذلك رغم مناوأة الأحبار

الإسبان وسخطهم.

وهكذا استطاعت البابوية أن تفرض رياستها الروحية على

اسبانيا، وبالرغم من أن ألفونسو كان يعارض كثيراً من الرغبات البابوية، فإنه كان يجل الكرسى الرسولى ويوليه أعظم مقام.

وفى عهد ألفونسو أيضاً وقعت حوادث الحرب الصليبية الأولى بالمشرق، ولكن البابا أوربان الثاني أصدر مرسوماً يحرم على الإسبان أن يشتركوا في هذه

الحرب الصليبية، لأن أعداء النصرانية، أعنى المسلمين، يهددونهم داخل أرضهم، ولأن لديهم في شبه الجزيرة وقوداً كافياً لإضرام نار الحرب المقدسة، وكانت ظروف الحرب المستمرة بين النصارى والمسلمين، قد حملت رجال الدين أنفسهم على أن ينزلوا هذا الميدان، فكان شأنهم شأن الأشراف والكونتات

يسيرون في معظم الأحيان مع الملك، ويقاتلون في الصفوف، بل ويقودون الحملات أحياناً.

وقد كان الملك وراثياً في قشتالة فقط.

أما في باقى الممالك النصرانية، فكان

المفروض أن يختار الأشراف مليكهم، وكان الملك في سائر الممالك

الإسبانية، يجمع بين سلطات الحرب والسلم، وقيادة الجيوش، ورياسة القضاء، يعاونه

في ذلك رهط من رجال الخاص Palatini، وكانت أسماء المناصب معظمها مشتق من النظم القوطية.

وكان نظام الإقطاع ما يزال عندئذ متغلغلا في تكوين المجتمع الإسبانى، ويقوم على مراتب متعددة، أرفعها مرتبة الدوق أو الوالى، وهو الذى يُقطع

*(٤٠٢/٢)*

ولاية بأسرها مثل جليقية أو أشتورية.

وتليها مرتبة الكونت أو القومس، وهو

الذى يُقطع منطقة معينة، ثم أصحاب المنح الصغيرة، وهم البارونات أتباع القومس.

وكان هذا النظام عسكرياً، في جوهره، تقترن مراتبه المدنية بالرتب العسكرية، فالدوق يتولى قيادة جيش الولاية، ويقود القومس فرقته، وتتكون من البارونات فرق الفرسان، والفارس هو أدنى مراتب النبل، بيد أن الفرسان كانوا قوام الجيش، وعليهم تتوقف مصاير الحرب، وكان الجند المشاة يتكونون من أتباع البارونات، ومن حشم الدوقات والقوامس.

وكان العرش يخوض معارك دائمة مع أولئك النبلاء الإقطاعيين، وكان يضطر في أحيان كثيرة إلى مهادنتهم والإذعان لمطالبهم، فكانوا بذلك يفوزون بالولايات والرياسات رغم إرادة العرش.

وإلى جانب ذلك كان يقوم هيكل الإقطاع الزراعى على نفس الأسلوب المتدرج، فيقطع كبار الملاك المزارعين الأحرار، أجزاء من الأرض يزرعونها على أن يؤدوا للمالك نصف الدخل أو ثلثه على الأقل، ولم تكن هذه المنح الزراعية تحدد بوقت معين، بل كان الزارع يعتبر نفسه مالكاً للأرض، ثم تؤول من بعد وفاته إلى

أولاده يزرعونها بنفس الطريقة، بيد أنه كان ملزماً

بالإقامة فيها، فإذا غادرها إلى ناحية أخرى فقد الحق في استغلالها.
وكان عدد الأرقاء في ذلك العصر، الذى كثرت فيه الحروب، وكثر فيه السبى والأسر كثيراً، وكانت هذه الجماهير الغفيرة من المسلمين الذين يؤسرون فى
الغارات أو الحروب المختلفة التي تشنها الجيوش النصرانية على الممالك الأندلسية، يقضى عليهم دائماً بالرق، ويلزمون بأشق الأعمال الزراعية وغيرها، ولا يمنحون
الحرية إلا باعتناق النصرانية.
وأما عن التشريع، فقد نظم ألفونسو السادس العدالة، وألغى حق " القوة " وهو العرف الذى كان يسمح للقوى بأن يقتضى بنفسه وبالعنف ما يزعم أنه حق له
وفرض على الدوقات والقوامس، أن يعاقبوا مرتكبى الجرائم، فوضع بذلك حداً لجرائم الفرسان الناهبين، وعيث القتلة واللصوص في سائر أنحاء المملكة.
وكان يشترك في وضع القوانين عظماء المملكة وأكابر رجال الدين الأشراف، وتعقد اجتماعاتهم عندئذ في صفة هيئة تشريعية أو برلمان " كورتيس " Cortes،

*(٤٠٣/٢)*

تحت رياسة الملك، وكان القانون العام المطبق في ذلك العصر هو القانون القوطى
(قانون ألاريك) معدلا بما صدر من تشريعات جديدة كانت تعرف " بالقوانين الطيبة " Buenos Fueros.
وكان من المقرر أن كل إنسان حر في أن يدافع عن
نفسه أمام القضاء، وله أن يختار محامياً أو وكيلا للدفاع عنه.
أما اليهود فلم يكن

لهم حق الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم، وفقاً لقانون أصدره ألفونسو.

وأخيراً

فقدكان الميراث يجرى أيضاً وفقاً للقانون القوطى، وهو يسوى في الحقوق بين البنين والبنات.

وكانت وراثة العرش أهم مشكلة واجهت ألفونسو قبل موته، فهو لم

ينجب من زوجاته المتواليات من البنين سوى ولده سانشو، ولد زوجته أو حظيته

زائدة المسلمة التي تنصرت باسم ماريا أو اليزابيث، والتي أتينا على قصتها فيما تقدم

من أخبار بني عباد.

وقد قتل هذا الإبن حسبما أسلفنا في موقعة إقليش، فعندئذ

اعتزم ألفونسو أن يسند وراثة عرشه إلى ابنته أورّاكا، التي كان قد رزق بها من زوجته الملكة كونستانس الفرنسية، وزوجت بالكونت ريموند البرجونى عند مقدمه إلى اسبانيا.

ثم توفى وترك لها ولداً، هو ألفونسو ريمونديس.

ولكنه رأى

أن يقوى جانب العرش، ووحدة المملكة، بتزويجها من ألفونسو الأول ملك أراجون ونافار، فاستدعى نواب المملكة (الكورتيس) إلى الاجتماع في ليون، ومثل فيه الأشراف والأساقفة وحكام الولايات ورجال الدين والفرسان، وأصدر قراراته بشأن وراثة العرش، وخلاصتها أن تكون أوراكا وارثة لعرش

قشتالة وليون وأشتوريش، وأن يمنح ولدها ألفونسو ريمونديس مملكة جليقية، مع بقائها تحتت سلطان قشتالة، وأن يمنح الكونت هنرى صهر ألفونسو إمارة البرتغال كتابع لعرش قشتالة، فإذا لم تعقب أوراكا من زواجها بألفونسو ملك أراجون، فإن المملكة كلها تؤول إلى ولدها ألفونسو ريمونديس أعنى إلى حفيد ألفونسو السادس.

وعهد بتربية الطفل الملكى إلى عمه أسقف فيين، والكونت ترافا، ومنح إمارة

جليقية، تحت وصايتهما، على أن تكون له دون
نقض أو رجوع.

---

(١) رجعنا في تلخيص أعمال ألفونسو وإصلاحاته الداخلية إلى " تاريخ
المرابطين والموحدين "
لأشباخ (ص ١٢٠ - ١٣٥) .

*(٤٠٤/٢)*

نافار وأراجون
رأينا في بداية هذا الفصل كيف هلك غرسية ملك نافار في موقعة أتابوركا
التي نشبت بينه وبين أخيه فرناندو (سنة ١٠٥٤ م) ، وكيف اختار فرناندو
مع ذلك سانشو ولد أخيه الملك القتيل ليخلفه على عرش نافار، على أن
يكون
تحت طاعته.
وكان يحكم أراجون في ذلك الوقت، الملك راميرو بن سانشو الكبير، وكان
في بداية حكمه قد حاول غزو مملكة نافار وانتزاعها من يد أخيه غرسيه،
ولكنه هزم كما رأينا، ومزق جيشه، واضطر أن يلجأ إلى السكينة حيناً ليعنى
بتنظيم شئونه والنهوض من عثاره.
ولما قتل أخوه غرسية، وتولى ولده سانشو
الحكم مكانه، لبث محافظاً على حياده وسكينته نحو جارته نافار، ولكنه وجه
عدوانه نحو مملكة سرقسطة، وحاول غزوها، فاستنصر أميرها المقتدر بن
هود، بفرناندو ملك قشتالة، فأمده ببعض قواته، ونشبت بين الفريقين فى
جرادوس معركة هزم فيها راميرو وقتل (١٠٦٣ م) .
فخلفه على عرش أراجون ولده سانشو، المعروف بسانشو راميرز.
ولما توفى
فرناندو ملك قشتالة حاول ولده سانشو أن يستولى على مملكة نافار، وكان

شانشو ملك نافار، شعوراً منه بأطماع ملك قشتالة، قد عقد حلفاً مع جاره
سانشو راميرز، فلما سار سانشو لمحاربتهما، استطاعا أن يقفا في وجهه، وأن
يهزماه
في موقعة فيانا (١٠٦٧ م).
واستمر سانشو ملكاً على نافار اثنين وعشرين عاماً، وفي عهده توطد مركز
نافار بين جيرانها، وأقر المقتدر بن هود صاحب سرقسطة لها بدفع الجزية
فى
سنة ١٠٦٩ م، وعقد مع سانشو حلفاً لمعاونته في حربه ضد خصومه سواء
من
المسلمين أو النصارى.
وجدد هذا التحالف في سنة ١٠٧٣ م.
ولم يمض قليل
على ذلك حتى قتل سانشو في كمين دبره أخوه ريموند وأخته أرمزندة، وذلك
في سنة ١٠٧٦ م، فسخط الشعب النافارى لتلك الجريمة أيما سخط،
واستدعى
سانشو راميرز ليعتلى عرش نافار.
ولكن ريموند استغاث بألفونسو ملك قشتالة، فسار إلى نافار من ناحيتها
الغربية، وسار إليها سانشو راميرز من ناحيتها الشرقية، وتفاهم الملكان على
اقتسامها، بالرغم من وجود ولدى الملك القتيل القاصرين.

(٢/٤٠٥)

فاستولى سانشو على الجزء الواقع في منطقة البرنيه، وفيه العاصمة بنبلونة،
واستولى ألفونسو على القسم المحاذى لنهر إيبرو، وبذلك اختفت مملكة نافار
المستقلة
إلى حين، بعد أن استطاعت أن تذود عن استقلالها عصوراً بإصرار وبسالة،
ونمت مملكة أراجون، واتسعت رقعتها اتساعاً كبيراً، وبدأت تلعب دورها

العظيم في شمال شرقى الجزيرة الإسبانية.

واتجهت أطماع سانشو راميرز بالأخص إلى جارته الإسلامية الجنوبية، أعنى مملكة سرقسطة، فقام بمحاصرة مونتشون وأخذها في سنة ١٠٨٩ م، ثم سار لحصار وشقة أمنع قواعد مملكة سرقسطة الشمالية وحاصرها، ولكنه توفى بعد قليل تحت أسوارها، فتابع ولده وخلفه بيدرو الأول الحصار، واستغاث المستعين بملك قشتالة فأمده ببعض قواته، وسار لإنجاد المدينة المحصورة، ووقعت

بينه وبين بيدرو معركة شديدة في الكرازة، فهزم المستعين وحلفاؤه القشتاليون هزيمة شديدة، وسقطت وشقة بعد ذلك بأيام قلائل في نوفمبر سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) حسبما فصلنا ذلك من قبل في موضعه من أخبار مملكة سرقسطة.

وفى العام التالى سار بيدرو في قواته لمعاونة حليفه السيد إلكمبيادور ضد المرابطين، ووقعت الهزيمة على المرابطين في " منديز " قرب بلنسية.

واستمر بيدرو الأول على عرش أرجون حتى وفاته سنة ١١٠٥ م، وكان ملكاً شجاعاً مقداماً، وهو الذى مهد بافتتاحه لوشقة وبربشتر إلى القضاء على مملكة سرقسطة، وسقوطها فيما بعد في يد أخيه وخلفه ألفونسو، وكان ورعاً متعصباً، لا يكاد يفتح مدينة إسلامية، حتى يحول في الحال مساجدها إلى كنائس، ويغدق الصلات الوفيرة على الكنائس والأديار.

ولما كان ولده الوحيد

قد توفى قبل وفاته، فقد خلفه على عرش أراجون أخوه ألفونسو الأول الأرجونى

المعروف بالمحارب، وهو الذى قدر له، فيما بعد بزواجه من أورّاكا ابنة ألفونسو

السادس ملك قشتالة، أن يحكم سائر الممالك الإسبانية، وأن يغدو من أعظم ملوك اسبانيا.

إمارة برشلونة

إلى جانب الممالك الإسبانية النصرانية، التي تقوم في النصف الشمالى من شبه
الجزيرة الإسبانية، كانت تقوم في الركن الشمالى الشرقى مما يلى جبال البرنيه،

*(٤٠٦/٢)*

إمارة نصرانية أخرى، هى إمارة أوكونتية برشلونة.
ونحن نعرف أن برشلونة
كانت أول ثغر عظيم يفقده المسلمون في شمالى شبه الجزيرة، وقد افتتحها شارلمان
(كارل الأكبر) في سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) أيام الحكم بن هشام، وجعلها قاعدة
الثغر القوطى أو الثغر الإسبانى، الذى أنشأه فيما وراء البرنيه، حماية لحدود فرنسا
الجنوبية.
وكان ملوك الفرنج يعينون حكام هذا الثغر في البداية من الأشراف
أو الكونتات الذين ينتمون إلى أصل قوطى أو فرنجى.
ولما ضعفت مملكة الفرنج
وتخلت عن حماية الثغر وإمداده، وشعر أولئك الكونتات بقوتهم، ونأيهم عن
الحكومة المركزية، أعلنوا استقلالهم، وانقسم الثغر إلى عدة إمارات أوكونتيات
صغيرة كان أهمها إمارة برشلونة.
وكان يحكمها في أواخر القرن العاشر آل بوريل، وفى عهدهم غزاها
المنصور بن أبي عامر، واقتحمها وخربها، وذلك في سنة ٣٧٥ هـ
(٩٨٥ م) ، ولكنه لم يحاول الاحتفاظ بها.
ولما سقطت الدولة العامرية واضطرمت
الفتنة في قرطبة، سعى واضح الصقلبى في الاستعانة بأمير برشلونة الكونت

رامون بوريل، وزميله كونت أرقلة، فسار معه لمقاتلة البربر لقاء أموال جزيلة، واشترك إلى جانب المهدى محمد بن هشام في المعارك التي وقعت يومئذ (٤٠٠ هـ - ١٠١٠ م).

ومنذ أوائل القرن الحادى عشر نرى برشلونة تحت حكم آل برنجير، وقد حكمها مؤسس هذه الأسرة الكونت رامون برنجير الكبير من سنة ١٠٣٥ إلى سنة ١٠٧٦ م، وفي عهده اتسعت رقعة الإمارة، وضمت إليها أرقلة وشرطانية (١)، ثم ضم إليها ولاية قرقشونة الفرنجية، في الناحية الأخرى من جبال البرنيه، وذلك بشرائها من ابنتى صاحبها الكونت روجر الثالث.

وكان لضم هذا الجزء من أراضي لانجدوك إلى إمارة برشلونة نتيجة هامة، هى إعادة الصلة بين الثغر القوطى القديم، وجنوب فرنسا، والتمهيد بذلك لنزوح الفرسان الفرنج المغامرين، الذين تحدوهم روح صليبية، ويحدوهم البحث وراء طالعهم، والتحاق جموع كبيرة منهم بالجيوش النصرانية التي تقاتل المسلمين في شبه الجزيرة.

وكان من أهم أعمال الكونت برنجير الأول، هى إصلاحاته القضائية، فقد استدعى في سنة ١٠٦٨ م جمعية من الكبراء في برشلونة، وأصدر هذا البرلمان قانوناً جديداً سمى " بعرف برشلونة " Usages de Barcelona ليطبق إلى جانب القانون القوطى القديم.

---

(١) أرقلة هى بالإسبانية Urgel، وشرطانية هى: Cerdana

ولما توفى رامون برنجير الأول خلفه ولداه برنجير ورامون في حكم الإماره
معاً وفقاً لوصيته.
ولكن الخلاف ما لبث أن نشب بينهما، وانتهى الأمر بالاتفاق
على أن يتسمى كل منهما بكونت برشلونة، وأن يتناوبا الحكم كل ستة أشهر.
وفى سنة ١٠٨٢ م، قتل رامون غيلة، واتجهت الشبهة في ذلك إلى أخيه.
وقام
برنجير بحكم الإمارة منفرداً بالأصالة عن نفسه، وبصفته وصياً على ولد
أخيه
القاصر رامون الثالث.
وكان بنو هود أمراء سرقسطة، وهم جيران إمارة برشلونة، يعتقدون فى
مقدرة الفرسان القطلان أبناء هذه الولاية، ويحصلون على معاونة آل برنجير
من
آن لآخر.
وقد لعب أمراء برشلونة في ذلك الوقت الدور الذى لعبه معظم
الملوك النصارى، في معاونة الأمراء المسلمين، سواء ضد أبناء دينهم
المسلمين
أو ضد النصارى أنفسهم.
وقد أشرنا إلى ما وقع من ذلك في كثير من المواطن فى
أخبار مملكة سرقسطة ومملكة بلنسية.
وكان أبرز دور قام به آل برنجير في ذلك هو
استعانة المستعين بن هود بالكونت برنجير في مشروعه لافتتاح بلنسية.
وكان الكونت
يضطرم بغضاً نحو " السيد " ومشاريعه.
فسار في قواته لمحاصرة بلنسية، ولبث
على حصارها وقتاً، حتى اقترب " السيد " بقواته من المدينة، وتبادل السيد
والكونت بعض رسائل التحدى المهينة، وأخيراً وقعت الحرب بينهما، فهزم

الكونت وأسر، ولم يطلقه السيد إلا لقاء فدية كبيرة، ثم وقع التفاهم بينهما، وترك الكونت حصار المدينة وعاد بقواته (١٠٩٠ م) .

ومما هو جدير بالذكر أن الكونت برنجير، اشترك قبل ذلك بقليل مع قوات ألفونسو السادس، في موقعة الزلاّقة (١٠٨٦ م) إلى جانب باقى الملوك النصارى، إيماناً منهم جميعاً، بأنهم يقاتلون في معركة صليبية عامة.

واستمر الكونت برنجير في حكم إمارة قطلونية حتى سنة ١٠٩٢ م، ثم ترك الحكم لابن أخيه الفتى رامون برنجير الثالث، وسافر حاجاً إلى المشرق، فحكم

رامون الإمارة بكفاية، وقاوم غزوات المرابطين فيما بعد بنجاح.

(٢/٤٠٨)

الفصل الثالِث

النصارى المعاهدون

النصارى المعاهدون.

مركزهم وأحوالهم في ظل الحكومة الإسلامية.

أحوالهم في ظل الطوائف.

مصانعة أمراء الطوائف لهم.

تمتعهم بالتسامح في شرقى الأندلس.

أحوالهم في مملكة سرقسطة.

عدم

ولائهم للحكومات المسلمة.

مداخلتهم للملوك النصارى ومعاونتهم ضد المسلمين.

صدى هذا الموقف

في دول الطوائف.

استدعاؤهم ألفونسو الأرجونى لغزو الأندلس.

قيامه بالغزوة المنشودة.

فتوى
الفقهاء بخيانة المعاهدين ووجوب تغريبهم.
ظهور مجتمع المدجنين في القواعد الإسلامية المفتوحة.
يجدر بنا بعد أن تحدثنا عن تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية، أن نعرض في شيء من التفصيل إلى موقف النصارى المعاهدين وأحوالهم في عصر الطوائف، وهو العصر الذى سرى فيه الانحلال السياسى والعسكرى إلى اسبانيا المسلمة، ومزقتها الحروب الأهلية، وتطاولت عليها الممالك الإسبانية النصرانية.
ونحن نعرف
أن النصارى المعاهدين، كانوا منذ عهد الإمارة يكونون أقليات ذات شأن في القواعد
الأندلسية الكبرى، مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وبلنسية وسرقسطة.
وكانت هذه
الأقليات النصرانية تعيش آمنة مطمئنة، في ظل الحكومة الإسلامية، تزاول نشاطها وشعائرها بمنتهى الحرية.
ويتمتع النابهون من أبنائها بعطف الخلفاء وثقتهم
وتقديرهم، ويشغل الكثير منهم مناصب هامة في الإدارة وفي القصر.
وقد أشرنا
فيما تقدم من أخبار الأمراء والخلفاء إلى كثير من أولئك النصارى البارزين.
وكانوا
إلى جانب اللغة العربية التي يتقنها الكثير منهم، يتكلمون لغتهم الرومانية الأصلية
Romance، وهى اللغة التي كانت سائدة يومئذ في الممالك الإسبانية النصرانية، وكان يعرفها كثير من أكابر الصقالبة في البلاط الأندلسي، وبعض أكابر
المسلمين من الوزراء والكتاب.

وكانت هذه اللغة هى لغة النصارى المعاهدين
المكتوبة، التى يستعملونها في مخاطباتهم ومعاملاتهم داخل المجتمع
الإسلامى، الذى يعيشون فيه.
وكان المسلمون يستعملون أحياناً بعض عبارات هذه اللغة
الرومانية، وهى التي يسمونها " اللطينية " ولاسيما في بعض الرسائل العلمية
(١) .

---

(١) R.
M.
Pidal: Origines del Espanol, p.
٤١٨ & ٤٢١

(٢/٤٠٩)

فلما انهارت الخلافة، وانهارت معها الحكومة المركزية، وقامت دول الطوائف،
طرأ تغير ملحوظ على أحوال النصارى المعاهدين.
وبالرغم من أن هذا التغير
لم يكن دائماً ضد مصالحهم أو حرياتهم، فإن مصايرهم وأحوالهم أضحت في
كل
دولة من دول الطوائف، تتوقف على ظروف تلك الدولة، وعلى سياسة
حكومتها
المحلية.
ونستطيع أن نقول إن النصارى المعاهدين لقوا على وجه العموم في مختلف
دول الطوائف نفس المعاملة الكريمة التي كانوا يلقونها في ظل حكومة
الخلفاء، بل لقد كان في ظروف بعض هذه الدول، ما يحملها على اتباع
سياسة خاصة، تتسم باللين والمصانعة نحو رعاياها النصارى، ولما عصفت
ريح الحرب الأهلية

بقرطبة، عقب انهيار الخلافة اضطربت أحوال المعاهدين بها، وقد كانوا يعطفون على الجهة العامرية، ويخشون من عسف البربر وطغيانهم، فلما بسط البربر
سلطانهم على عاصمة الخلافة، أخذت جموع كبيرة منهم تغادر قرطبة في أثر
الفتيان العامريين إلى شرقى الأندلس.
ولما قامت دولة بني جهور في قرطبة، بذلت حكومة الجماعة جهدها لتأمين المعاهدين وحمايتهم، وندب أبو الوليد
ابن جهور وزيره الشاعر الكبير ابن زيدون، " للنظر في شئون أهل الذمة في بعض
الأمور المعترضة " (١) .
ولم تقتصر هذه العناية بشئون النصارى المعاهدين على حكومة قرطبة، بل لقد كانت معظم دول الطوائف الأخرى، تبذل جهوداً خاصة لتأمين المعاهدين وحمايتهم، وكسب مودتهم.
وكانت بواعث هذه السياسة الودية واضحة، فى
الظروف التي كانت تجوزها دول الطوائف يومئذ.
فقد كانت مملكة قشتالة
النصرانية تملك زمام التفوق العسكرى، وكان ملك قشتالة ألفونسو السادس يرهق دول الطوائف بإغاراته المتوالية، ومطالبه المالية المغرقة، وكان ملوك الطوائف يتسابقون إلى خطب مودته، واتقاء شره، وكان منهم من يستعديه على جيرانه المسلمين.
وكانت الأقليات النصرانية في القواعد الأندلسية، فى
مثل هذه الظروف تعتبر مكامن للخطر والدسائس، وكان ملوك الطوائف يحملون
بذلك على مصانعتها ومداراتها.
وكان بنو عباد في مقدمة أولئك الملوك الذين

عملوا على حماية المعاهدين وكسب مودتهم، وقد كانوا أشد ملوك الطوائف سعياً

---

(١) في " إعتاب الكتاب " لابن الأبار (مخطوط الإسكوريال) اللوحة - ١٦.

*(٢/٤١٠)*

إلى محالفة ملك قشتالة، واتقاء عاديته، وكان للنصارى المعاهدين في بلاطهم مكانة وظهور.
ومنهم شعراء مثل ابن المرجرى الإشبيلى، وابن مرتين.
وكان
قائد ابن عباد في فتح قرطبة، وهو محمد بن مرتين، من أصل نصرانى، وبنو عباد هم الذين احتضنوا الكونت سسنندو في حداثته، وساعدوه على الظهور ورفعوا مكانته في بلاطهم، وأولوه ثقتهم، واستخدموه في أخص مهامهم السياسية (١) .
وكان بنو مناد البربر ملوك غرناطة يصطنعون اليهود في البداية، فلما أشتدت وطأتهم على صنهاجة.
وانتهت إلى البطش بهم (سنة ٤٥٩ هـ - ١٠٦٦ م) .
جنح أمير غرناطة عبد الله بن بلقين حفيد باديس، إلى اصطناع النصارى، واضطر بضغط الظروف إلى محالفة ملك قشتالة، أو بعبارة أخرى إلى الانضواء تحت حمايته وتأدية الجزية له.
وتمتع المعاهدون في غرناطة بالحماية
والرعاية، وازدهرت أحوالهم واشتد ساعدهم، واتخذ الأمر عبد الله في بطانته، عدة من أكابر النصارى القشتاليين.
يعاونونه في شئون الحرب والإدارة ومنهم
عدة من أكابر الفرسان (٢) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتمتع به النصارى المعاهدون في شرقى
الأندلس
ولاسيما في مملكة دانية من ضروب الرعاية والتسامح.
وقد كان الفتيان الصقالبة
الذين سيطروا على شرقى الأندلس من أشد الرؤساء تسامحاً نحو المعاهدين.
وكان
مجاهد العامرى صاحب مملكة دانية والجزائر.
ثم ولده على إقبال الدولة من
بعده، كلاهما يبدى نحو رعاياه النصارى منتهى العطف والتسامح، وقد
يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى ما يقال عن " أصل مجاهد النصرانى " وإلى
أن
زوجته كانت نصرانية، وكذلك ولده على، فقد نشأ في حداثته بين نصارى
ْسردانية، وتخلق بأخلاقهم واعتنق دينهم، قبل أن يعتنق الإسلام بعد عوده
من
الأسر، بيد أنه يجب أن نلاحظ إلى جانب ذلك، أن هذا التسامح نحو
النصارى
كان حسبما بينا في موضعه، سياسة متقررة لحكومة مجاهد وولده على،
وأنهما
استطاعا بواسطة هذه السياسة المستنيرة، أن يجتنبا عدوان الملوك النصارى،
وأن تتمتع مملكة دانية في ظلهما بفترات طويلة من السلام والرخاء.
وثمة مملكة أخرى من ممالك الطوائف، كانت ظروفها تدعو إلى مزيد من

---

(١) Isidro de las Cagigas: Los Mozarabes (Madrid 1947)
.T
.II
.p

٤٢٧

.Is (٢)

.de las Cagigas: ibid ; T

.II

.p

٤٩٣

*(٢/٤١١)*

التسامح نحو رعاياها النصارى: تلك هى مملكة سرقسطة، فقد كانت بموقعها بين الممالك النصرانية الأربع، قشتالة ونافار، وأراجون وبرشلونة، وكونها تعتبر بهذا الوقع حاجزاً بين اسبانيا المسلمة، والممالك النصرانية من ناحية الشمال

الشرقى، ثم بكونها تضم بين سكانها أقليات نصرانية كثيفة، كانت لذلك كله تجد نفسها مدفوعة بحكم الواقع والظروف إلى اتباع سياسة الاعتدال والتسامح نحو رعاياها النصارى، وقد كانت هذه المنطقة في الواقع وهى منطقة الثغر الأعلى

منذ أيام بني قسيّ وبنى الطويل وغيرهم من زعاء المولدين، ميداناً خصباً لالتقاء العناصر المسلمة والنصرانية وامتزاجها بقوة، وكانت بذلك مهداً لظهور المعاهدين، ومشاركتهم بقسط بارز في الحياة السياسية والاجتماعية.

وكان

بنو تجيب حكام الثغر الأعلى، ومن بعدهم بنو هود أصحاب مملكة سرقسطة.

يبسطون

رعايتهم وحمايتهم على النصارى المعاهدين.

وكان بنو هود بالأخص يشعرون

بدقة مركزهم بين الممالك النصرانية، وتحفز هذه الممالك دائماً إلى التدخل

فى

شئون مملكتهم وضغطها عليهم لاقتضاء الجزية، أو لاقتطاع بعض مدنهم وحصونهم، ويحاولون بسياسة التسامح المطلق نحو رعاياهم النصارى، أن يجتنبوا الدسائس والاضطرابات الداخلية، وأن يغنموا حياد الملوك النصارى وجنوحهم إلى المهادنة.

وكان المقتدر بن هود.

وهو أعظم ملوك سرقسطة

من أشد أنصار هذا التسامح، وكان بين وزرائه المقربين وزير نصرانى هو أبو عامر بن غند شلب Gundisalvo، وكان أديباً شاعراً.

أجل وقعت فى

سرقسطة في سنة ١٠٦٥ م في عهد المقتدر مذبحة للنصارى، وذلك على أثر

عدوان النورمان الشنيع على مسلمى بربشتر، وكان فيه من الروع والإستثارة ما فيه.

بيد أنه كان حادثاً مستقلا، ولم يلبث أن استدركت عواقبه.

وقد رأينا

من جهة أخرى كيف كان بنو هود، يعتمدون على محالفة جيرانهم من الملوك النصارى، ويحشدون المرتزقة النصارى في جيوشهم بصفة مستمرة، وكيف كانوا أول من استخدم السيد إلكمبيادور، واعتمدوا على محالفته زمناً (١) .

بيد أن هناك حقيقة يجب التنويه بها، وهو أن النصارى المعاهدين، بالرغم من هذه الرعاية والحماية، وهذا التسامح، التي كان يتبعها نحوهم ملوك الطوائف،

---

(١) Is.

T ; de las Cagigas: ibid.

II.

.p
٤٤٨، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٤، ٤٦٢ & ٤٦٣

(٤١٢/٢)

سواء لبواعث كانت ترغمهم على اتباعها، أو لسياسة مستتيرة كانوا يؤثرونها، لم
يشعروا قط بعاطفة من الولاء نحو تلك الحكومات المسلمة، التي كانت تبذل
وسعها لحمايتهم واسترضائهم، بل لبثوا دائماً على ضغنهم وخصومتهم لها وتربصهم
بها.
ينتهزون أية فرصة للإيقاع بها، وممالأة الملوك النصارى، ومعونتهم بكل
وسيلة على محاربتها، وتسهيل مهمتهم في غزوها والتنكيل بها.
ولدينا في تاريخ
الطوائف من ذلك أمثلة لا حصر لها.
ففى قلمرية وافتتاحها (٤٥٦ هـ -
١٠٦٤ م) لعب النصارى المعاهدون - وقد كانوا كثرة هذه المنطقة - دوراً
بارزاً في معاونة الجيش القشتالى المحاصر، وعاونه رهبان دير لورفان القريب
من قلمرية بمؤنهم المختزنة، وسهلوا له بذلك الصمود، حتى اضطرت المدينة
المحصورة إلى التسليم (١) .
ودأب النصارى المعاهدون في طليطلة أيام القادر بن
ذى النون على تدبير الدسائس، وبث الفتن والاضطرابات داخل المدينة،
والاتصال المستمر بألفونسو السادس وأعوانه، ومؤازرة الناقمين من المسلمين.
ضد الحكومة القائمة، والعمل بذلك على تحطيم كل جبهة للمقاومة الحقيقية، وانتهى
الأمر بتذليل السبيل لألفونسو السادس لمحاصرة المدينة المفتوحة.
ولعب النصارى

المعاهدون في بلنسية مثل هذا الدور داخل بلنسية، لمعاونة السيد في
مغامراته
المتوالية لمحاصرة المدينة والاستيلاء عليها.
وهكذا كان النصارى المعاهدون، فى
كل موطن وكل فرصة، يعملون ما وسعوا لتحطيم تلك الممالك الأسلامية
التي
تقوم بحمايتهم ورعايتهم، والتمهيد بذلك للقضاء عليها وسقوطها في أيدى
الملوك
النصارى.
وهذا ما يعبر عنه الأستاذ بيدال بقوله: " إن نجم المعاهدين قد بزغ
ثانية عقب انحلال الدولة الأندلسية وقيام دول الطوائف الضعيفة، واستطاعوا
أن يؤدوا خدمات جليلة لقضية النصرانية والاسترداد النصرانى (٢) .
ومن ثم فإنا نجد، عقب سقوط طليطلة، واشتداد روح العدوان من جانب
إسبانيا النصرانية، شعور التقاطع والريب، ينمو ويشتد ضد جماعات النصارى
المعاهدين في مختلف القواعد الأندلسية، وترتفع أصوات الفقهاء بالاشتداد فى
معاملتهم، وتجريدهم من كثير من ضروب الحرية والتسامح، التي كانوا
يتمتعون
بها من قبل.
ومن ذلك مثلا ما دعا إليه ابن عبدون في رسالته عن الحسبة وهى

---

(١) راجع: Is.
.de las Cagigas: ibid ; T
.II
.p
٤٥٥
(٢) R.

.M

.Pidal: Origenes del Espanol, p

٤٢٤

(٤١٣/٢)

التي وضعت في بداية العهد المرابطي، من أنه " يجب أن يقطع ببلاد الإسلام ضرب النواقيس " وأنه نظراً لفساد أخلاق القساوسة، يجب أن يؤمروا بالزواج كما في ديار المشرق، ويجب ألا يترك في دار القسيس امرأة ولا عجوز ولا غيرها، كما يجب أن تمتنع النساء الإفرنجيات من الدخول إلى الكنيسة إلا في يوم فضل أو عيد، ويجب ألا يباع من اليهود أو النصارى كتاب علم إلا ما كان من شريعتهم، لأنهم يترجمون كتب العلوم، وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم، وهى من تواليف المسلمين، كما يجب أن يمنع الأطباء اليهود أو النصارى من معالجة المسلمين (١) .

فهذه الدعوات وأمثالها، إلى التشدد في معاملة المعاهدين، لم تكن إلاّ صدى لمواقفهم المتسمة بالعدوان والخيانة.

وكانت تلقى في ظل الحكم المرابطي، المتسم بروح التزمت الدينى قبولا.

وقد بلغ اجتراء المعاهدين وخيانتهم ذروتها، حينما عملوا على استدعاء ألفونسو المحارب ملك أراجون، لغزو الأندلس، ووعدوه بأن ينضموا ألوفاً إلى جيشه متى اخترق الأندلس.

وقام ألفونسو بالفعل بالغزوة المنشودة، فخرج من سرقسطة في سبتمبر سنة ١١٢٥ م (٥١٩ هـ) ، فى

عهد أمير المسلمين على بن يوسف، واخترق الأندلس، من الجانب الشرقى ماراً بقرب بلنسية ودانية ومرسية، وهو يعيث في بسائطها، والمعاهدون يحشدون
في جيشه من كل صوب، واستمر في سيره حتى وادي آش، ووصل إلى ظاهر
غرناطة في شهر يناير من العام التالى (١١٢٦ م) ، ولكنه أدرك أنه لايستطيع
أن ينال منها مأرباً.
وهنالك بعث إلى زعيم المعاهدين بغرناطة يلومه لتقصيرهم فى
معاونته، فردوا عليه بأنه هو الذى أضاع الوقت في زحفه الطويل سدى، ثم
أخذت القوات المرابطية بقيادة الأمير أبي الطاهر تميم تلاحقه وترهقه
باستمرار، وهو يتجول بقواته في شمال غرناطة، ووقعت بينه وبين المرابطين في مارس
(١١٢٦ م) في فحص الرنيسول موقعة هزم فيها المرابطون.
بيد أنه لم يستطع
الاستفادة من نصره، فاستمر في زحفه جنوباً، واخترق هضاب البشرّات حتى
شاطىء البحر المتوسط، ثم عاد إلى الشمال، وقد خسر كثيراً من جنده بسبب
الإعياء والوباء.
وكان من أثر هذا العدوان الجسيم، أن قرر أمير المسلمين، وفقاً لفتاوى

---

(١) رسالة ابن عبدون في الحسبة ص ٥٥ و ٥٧.



الفقهاء، تغريب النصارى المعاهدين، لأنهم نقضوا العهد وخرجوا عن الذمة.
وأبعدت منهم بناء على ذلك عن الأندلس ألوف عديدة، فرقت في مختلف أنحاء

إفريقية (١) .
وثمة ظاهرة أخرى برزت في أواخر عهد الطوائف، وترتبت على سقوط
طليطلة وغيرها من القواعد الأندلسية القديمة في يد القشتاليين، ثم سقوط
سرقسطة
وأعمالها بعد ذلك بقليل في يد ملك أراجون (٥١٢ هـ - ١١١٨ م) .
فإلى ذلك
الحين كانت المشكلة العنصرية والدينية.
تنحصر في جانب واحد، وهو أقليات
النصارى المعاهدين التي تعيش في القواعد الأندلسية تحت الحكم الإسلامى.
ولكن تبرز من ذلك الحين مشكلة عنصرية دينية مقابلة، هى مشكلة الأقليات
المسلمة التي بقيت في القواعد الأندلسية المفتوحة تحت الحكم النصرانى،
وأولئك
هم المدجّنون، (Mudéjares) الذين يبدأ ذكرهم في التواريخ
الأندلسية، منذ أوائل القرن السادس الهجرى (الثاني عشر الميلادى) ، والذين
تزداد جموعهم تباعاً كلما سقطت قاعدة أندلسية جديدة في أيدى النصارى
(٢) .

---

(١) راجع الحلل الموشية ص ٧٠ و ٧١.
وكذلك R.
M.
Pidal: Origenes del
Espanol, p.
٤٢٥ و F.
Codera: Decadencia y Disparicion de los Almoravides،
p.
١٥ & ١٦

(٢) تحدثنا عن أحوال المدجنين بإفاضة في كتابنا " نهاية الأندلس " وهو العصر الرابع من
كتاب دولة الإسلام في الأندلس (الطبعة الثالثة) ص ٥٥ - ٦٧.

(٤١٥/٢)

خاتمة

خَواصّ عَصْر الطوائفْ

االسياسية والاجتماعيّة والحضاريّة

(٤١٧/٢)

- ١ -

الخواص السياسية

الآن وقد انتهينا من أخبار ممالك الطوائف، واستعراض الأحداث التي مرت بها، منذ إنشائها حتى سقوطها، وتقديم زعمائها وملوكها، في صورهم السياسية والأدبية، ووصف قصورهم وخططهم، نرى لزاماً علينا أن نستعرض خواص هذه الحقبة من تاريخ اسبانيا المسلمة، وهى حقبة فياضة بالأحداث والمحن المثيرة، وأن نستعرض خواص مجتمع الطوائف، وأحواله المادية والأدبية
والاجتماعية.

لقد شغل عصر الطوائف من حياة الأمة الأندلسية نحو ثمانين عاماً، وكان عصر تفكك وانحلال سياسى واجتماعى شامل، بالرغم مما كان يبدو في بعض
نواحيه من جوانب براقة.

والواقع أن هذه الدول الصغيرة، التي قامت على
أنقاض الأندلس الكبرى، والتي كانت تتسم بسمة الملك، وتزعم لنفسها الاستقلال

بشئونها، كانت تنقصها من الناحية النظامية، عناصر الدولة المستقرة، ولم تكن
- إذا استثنينا القليل منها - سواء برقاعها الإقليمة، ومواردها المادية، تستطيع
الحياة بمفردها، أو تستطيع الاستقلال بشئونها السياسية أو العسكرية، وإنما
كانت دول الطوائف أقرب منها إلى وحدات الإقطاع، وإلى عصبة الأسرة
القوية ذات العصبية، أو الجماعة القبلية في حالة الإمارات البربرية، ومن ثم فإنه
لم تكن بها حكومات منظمة بالمعنى الصحيح، تكون مهمتها الأساسية، أن تعمل
لخير الشعب ورخائه، وصون الأمن والنظام، وإنما كانت بها أسر أو
زعامات، تعمل قبل كل شيء لمصلحتها الخاصة، ولرفعة شأنها، وتنمية ثرواتها، وتدعيم
سلطانها وبذخها.
وكان الشعب في ظل هذه الأسر أو الزعامات القوية، لا حساب
له، وليس عليه إلا أن يخضع لما يفرض عليه من مختلف المغارم والفروض، التي
يستخدمها الأمير لإقامة بلاطه الفخم أولا، ثم لحشد الجند الذين هم سياج ملكه

(٤١٨/٢)

وسلطانه، وأخيراً لتنفيذ مشاريعه السياسية والعسكرية، وهى لا تخرج غالباً
عن مهاجمة زميله وجاره الأضعف منه، وانتزاع ما في يده، وقلما تتجه إلى
القضية الكبرى، قضية الدفاع عن الأندلس ضد عدوها الخالد، الدائب
لمقارعتها وتحطيمها، ونعنى اسبانيا النصرانية.
ولقد كان ملوك الطوائف في ذلك أسوأ قدوة.

كانوا ملوكاً ضعافاً في وطنيتهم، ضعافاً في دينهم، غلبت عليهم الأثرة والأهواء الشخصية إلى أبعد الحدود، ونسوا في غمارها وطنهم، ودينهم، بل نسوا حتى اعتبارات الكرامة الشخصية، واستساغوا لأنفسهم أن يتراموا على أعتاب الملوك النصارى، وأن يستعدوهم
بعضهم على بعض، لا في سبيل قضية محترمة، ولكن لاقتطاع بلدة أو حصن من
مملكة شقيقة، أو التنكيل بأحد الأمراء المجاورين وقد انتهى أمراء الطوائف فى
ذلك إلى درك، يستحق أن يوصف بأقسى النعوت، ويكفى أن نستعرض فى ذلك.
موقف ملوك الطوائف إزاء نكبة طليطلة، وتخاذلهم جميعاً عن انجادها وقت أن حاصرها ملك قشتالة وصمم على أخذها، وهم جميعاً – إلا واحداً منهم
هو أمير بطليوس الشهم – ينظرون إلى استشهاد المدينة المسلمة، جامدين لا يطمعون إلا في رضاء ملك قشتالة، وفي سلامة أنفسهم.
وقد كان ملك قشتالة
يعاملهم حسبما رأينا في غير موطن، معاملة الأتباع، ويبتز منهم الأموال الطائلة، باسم الجزية، ويعامل رسلهم وسفراءهم معاملة الخدم، ويكفى أن نتلو في ذلك
ما سطره ابن بسام في الذخيرة، من وصف مثول سفراء ملوك الطوائف لدى ملك قشتالة، وقت نزوله أمام طليطلة، وهى على وشك التسليم إليه، وما كان يتسم به موقفهم من المذلة والخنوع، وفقد كل كرامة قومية (١) .
ولم يكن ملوك الطوائف في سياستهم الداخلية، وإزاء شعوبهم، أفضل موقفاً، ولا أكرم تصرفاً.
فقد كانوا طغاة قساة على رعيتهم، يسومونهم
الخسف، ويثقلون كواهلهم بالفروض والمغارم لملء خزائنهم وتحقيق ترفهم

ويذخهم.
ولم يكن يردعهم في ذلك رادع، لا من الدين، ولا من الأخلاق.
وقد كانت سياستهم الداخلية هذه، مثل سياستهم الخارجية، موضع السخط من شعوبهم، والطعن المر من معاصريهم من الكتاب والمفكرين.
وقد صدرت

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ و ١٣٠.

*(٤١٩/٢)*

للفيلسوف ابن حزم، وهو من أعظم مفكرى عصر الطوائف، عن فتنة الطوائف، ودولها، وأمرائها المستهترين، ومجتمعها المنحل، وحكوماتها الباغية، طائفة
من الأقوال والأحكام الصادقة، وردت في رسالته المعنونة " التلخيص لوجوه التخليص ".
وهى عبارة عن ردود على بعض أسئلة في شئون دينية وفقهية، وجهت إليه من بعض أصدقائه، ومنها سؤال يتعلق بأمر الفتنة، وآخر عن وجه السلامة في المطعم والملبس والمكسب، وتتضمن هذه الأقوال من النظرات الثاقبة، والأحكام القاطعة، ما يدمغ مجتمع الطوائف بشدة وقسوة، وهى مع سلامة
منطقها، وعدالتها، مما يبعث إلى النفس أشد ضروب الأسى والألم، فهو يصف
لنا فتنة الطوائف وتصرفات ملوكها على النحو الآتى:
" وأما ما سألتم من أمر هذه الفتنة، وملابسة الناس بها، مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض، فهذا أمر امتحنا به، نسأل الله السلامة، وهى فتنة سوء، أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى، من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب.

وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه، أولها عن
آخرها، محارب لله تعالى ورسوله، وساع في الأرض بفساد.
والذى ترونه
عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من
ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية، والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيهم، فلا تغالطوا أنفسكم، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزيفون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم " (١) .
وقد كان الفقهاء في الواقع، في هذا العصر الذى ساد فيه الانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية، أكبر عضد لأمراء الطوائف في تبرير طغيانهم وظلمهم،

---

(١) نشر الأستاذ ميجيل آسين بلاثيوس M.
Asin Palacios بعض مقتطفات من هذه الرسالة
في مجلة الأندلس.
.Al - Andalus (ano 1934) , p
.٣٧ - ٣٥
ثم نشرت الرسالة بعد ذلك كاملة ضمن
مجموعة رسائل أخرى لابن حزم بعنوان " الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى " (القاهرة
سنة ١٩٦٠) ، ص ١٣٩ - ١٨٥.

وتزكية تصرفاتهم، وابتزازهم لأموال الرعية، وقد كانوا يأكلون على كل مائدة، ويتقلبون في خدمات كل قصر، ليحرزوا النفوذ والمال، ويضعون خدماتهم الدينية والفقهية لتأييد الظلم والجور، وخديعة الناس باسم الشرع، وقد انفسح لهم بالأخص في ظل دول الطوائف مجال العمل والاستغلال والدس،
واحتضنهم
الأمراء الطغاة، وأغدقوا عليهم العطاء.
ولم يفت مؤرخ العصر أبو مروان
ابن حيان، أن ينوه بهذا التآلف والتضامن بين الأمراء والفقهاء.
في تأييد الظلم
والفساد.
والخروج على أحكام الدين، وإليك ما يقوله لنا في ذلك:
" ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا في صنفين كالملح: فيهم الأمراء والفقهاء قل ما تتنافر أشكالهم، بصلاحهم يصلحون، وبفسادهم يفسدون، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لا كفاية له، ولا مخلص منه، فالأمراء القاسطون، قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذياداً
عن
الجماعة، وجرياً إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم.
وخابط في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم، آخذاً بالتقية في صدقهم " (١) .
وقد قاسى الشعب الأندلسي في ظل طغيان الطوائف، كثيراً من ضروب الاضطهاد والظلم، ولم يكن ذلك قاصراً على متاعب الفوضى الاجتماعية الشاملة، التي كان يعيش في غمارها، وانقلاب الأوضاع في سائر مناحى
الحياة، وتوالى
الفتن والحروب الداخلية، ولكنه كان يقاسى في نفس الوقت من جشع أولئك

الأمراء الطغاة، الذين كانوا يجعلون من ممالكهم ضياعاً خاصة، يستغلونها بأقسى الوسائل وأشنعها، ويجعلون من شعوبهم عبيداً يستصفون ثرواتهم، وثمار
كدهم، إرضاء لشهواتهم في إنشاء القصور الباذخة، واقتناء الجوارى والعبيد، والانهماك في حياة الترف الناعم، والإغداق على الصحب والمنافقين، هذا فضلا عن حشد الجند، لإقامة نيرهم، وتدعيم طغيانهم.
وقد ترتب على ذلك
أن انهارت المعايير الأخلاقية، واختلط الحق بالباطل، والحلال بالحرام، ولم يعد
الناس يعتدون بالوسيلة، بل يذهبون إلى اقتضاء الغاية، وتحقيق الكسب بأى الوسائل.
وقد شرح لنا الفيلسوف ابن حزم طرفاً من هذه الفوضى الاجتماعية

---

(١) الذخيرة القسم الثالث - المخطوط لوحة ٣٤ ب.
ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٤.

(٤٢١/٢)

والأخلاقية، ووصف لنا إلى أى حد كان يذهب أمراء الطوائف، في إرهاق شعوبهم بالمغارم الفادحة، وإليك ما يقوله في ذلك:
" وأما الباب الثاني.
فهو باب قبول المتشابه، وهو في غير زماننا هذا
باب جديد لا يؤثم صاحبه، ولا يؤجر، وليس على الناس أن يبحثوا عن أصول
ما يحتاجون إليه في أقواتهم ومكاسبهم، إذ كان الأغلب هو الحلال، وكان الحرام مغموراً.
وأما في زماننا هذا وبلادنا هذه.

فإنما هو باب أغلق عينيك، واضرب بيديك، ولك ما تخرجه إما ثمرة وإما جمرة.

وإنما فرقت بين زماننا هذا

والزمان الذى قبله، لأن الغارات في أيام الهدنة لم تكن غالبة ظاهرة كما هى اليوم، والمغارم التي كان يقبضها السلاطين، فإنما كانت على الأرضين خاصة، فكانت

تقرب مما فرض عُمر على الأرض.

وأما اليوم فإنما هى جزية على رؤوس

المسلمين، يسمونها بالقطيعة، ويؤدونها مشاهرة، وضريبة على أموالهم من الغنم

والبقر والدواب والنحل، يرسم على كل رأس، وعلى كل خلية شيء ما، وقبالات ما يؤدى على كل ما يباع في الأسواق، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد، هذا كله ما يقبضه المتغلبون اليوم، وهذا هو هتك الأستار، ونقض شرائع الإسلام، وحل عراه عروة عروة، وإحداث دين جديد، والتخلى من الله عز وجل ".

ويحمل ابن حزم بعنف، على استهتار أمراء الطوائف بأحكام الدين، وما اتسموا به من ضعف الإيمان والعقيدة، ويؤكد لنا أنهم لو وجدوا في اعتناق النصرانية، وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم، لما ترددوا في اعتناقها، ونحن نقتبس هنا عباراته اللاذعة المؤسية معاً:

" والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم، لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى، فيمكنونهم من حُرَم المسلمين وأبنائهم ورجالهم، يحملونهم أسارى إلى بلادهم، وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحشرهم معهم آمنين، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً، فأخلوها من الإسلام، وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه " (١) .

---

(١) راجع أقوال ابن حزم التي نشرت بعناية الأستاذ بلاثيوس في مجلة

"الأندلس":

.Al – Andalus, (ano 1934) p

٣٧ وفي الرسالة التي سبقت الإشارة إليها ص ١٧٣ – ١٧٧.

*(٤٢٢/٢)*

ونحن لا نستطيع أن نتهم ابن حزم، وهو فيلسوف عصره المتزن، البعيد النظر، النافذ الملاحظة، بالمبالغة والتحامل، وهو قد شهد بنفسه أحداث العصر، وفضائح ملوك الطوائف، وأصدر عليها تلك الأحكام القاسية، التي نراها ماثلة

في غير موضع من تعليقاته على حوادث عصره (١) .

وقد توفى ابن حزم فى

سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) .

وممالك الطوائف في إبان قوتها وعنفوانها، وقبل أن

تنحدر إلى ما انحدرت إليه فيما بعد من الإنحلال المعنوى الشامل، وقبل أن يتهالك

أمراؤها في الترامى على أعتاب ملك قشتالة، وينحدرون على يديه إلى أسفل درك

من الذلة والمهانة.

ولو شهد الفيلسوف هذه المرحلة الأخيرة من انحلال ممالك

الطوائف، لكان بلا ريب في تعليقاته وأحكامه أشد قسوة وعنفاً.

- ٢ -

الخواص العلمية والأدبية

على أنه لمما يلفت النظر حقاً، أن ممالك الطوائف، كانت خلال هذا الانحلال

الشامل، تبدو في أثواب لامعة زاهية.

وإذا لم يكن يسودها النظام والاستقرار دائماً، فقد كانت في الفترات القليلة التي

تجانب فيها الحرب الأهلية، تتمتع بقسط لا بأس
به من الرخاء، وتغمرها الحركة والنشاط.
وكان ملوك الطوائف.
بالرغم من
طغيانهم المطبق.
ومن الصفات المثيرة التي كان يتصف بها الكثير منهم، من حماة
العلوم والآداب.
وإنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف، أن يكون معظم
الملوك والرؤساء من أكابر الأدباء والشعراء والعلماء، وأن تكون قصورهم
منتديات
زاهرة.
ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون، وأن يحفل هذا العصر بجمهرة
كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء الممتازين.
ومنهم بعض قادة الفكر الأندلسي، والفكر الإسلامى بصفة عامة.
ولنبدأ الحديث في ذلك عن قصور عصر الطوائف وأمرائه.
فلقد كانت
هذه القصور المنتثرة في رقعة الوطن الأندلسي الكبرى، وكل منها يدعى
السيادة
على مدن ورقاع محدودة، تسطع ليس فقط بفخامتها وروعتها وبذخها، ولكن
كذلك بأمرائها ووزرائها وكتابها.
الأدباء والشعراء.
وقد ازدهر الشعر الأندلسى

---

١١) تراجع تعليقات ابن حزم على بعض فضائح عصره في " نقط العروس "
ص ٨٣.

بالأخص في عصر الطوائف، وبلغ في ذلك مدى لم يبلغه في أى عصر
آخر.
ويعلل الأستاذ نِكِل ذلك بأنه يرجع بالأخص إلى ما كان يتسم به هذا العصر
من
حريات، ترتب عليها الإغضاء عن كثير من القيود الدينية، ولاسيما ما تعلق
منها
بتحريم الخمر، وحجب المرأة، وإلى ذيوع العلاقات الغرامية بين الجنسين (١)
كان ملوك الطوائف حسبما تقدم، يتسمون بضعف الإيمان والعقيدة،
والاستهتار
بأحكام الدين، وكان الكثير منهم يجاهرون بالمعاصى، وارتكاب الأمور
المحرمة، وهو ما يسجله عليهم الفيلسوف ابن حزم فيما تقدم من أقواله.
وقد كانت قصورهم
المترفة الأنيقة، كما تزدان بمجالس الشعر والأدب، تحفل في الوقت نفسه
بمجالس الأنس والطرب، والنساء والغلمان والخمر، وهى أمور تشغل حيزاً
كبيراً في آداب العصر وشعره.
وكانت مجتمعات الطوائف المرْهقة المنحلة، تتأثر بهذه الروح الإباحية،
وتجنح إلى اجتناء المتعة المادية والملاذ الحسية بمختلف
ضروبها، وكان هذا الانحلال الشامل يجتاح يومئذ سائر طبقات المجتمع
الأندلسي.
على أن النهضة الأدبية والفكرية التي امتاز بها عصر الطوائف، ترتفع مع
ذلك فوق مستوى هذا الانحلال وتبرز قوية وضاءة.
ولقد كانت هذه القصور
المترفة المرحة نفسها، أكبر مبعث لهذه النهضة، وكان أولئك الملوك
المستهترون

أنفسهم دعاتها وحماتها، وكانت قصور الطوائف تتنافس في هذا الميدان

وتتسابق، شعوراً منها بما تجتنيه من وراء ذلك من فخار ومجد، وما تسجله روائع

المنظوم والمنثور من ذخر وذكر.

وكان من بين هذه القصور ثلاثة امتازت

بنوع خاص، بمشاركتها في النهضة الأدبية والشعرية، هى بلاط بني عباد

بإشبيلية، وبلاط بني الأفطس ببطليوس، وبلاط بني صمادح بألمرية.

كان بنو عباد، وهم كما رأينا، أعظم ملوك الطوائف قوة وجاهاً وملكاً، من

أعظم رواد هذه النهضة الأدبية والفكرية التي سادت هذا العصر، وقد سبق

أن أشرنا إلى ما امتازت به هذه الأسرة النابهة من نبوغ في ميدان الشعر

والأدب، وقد برز منهم بالأخص المعتضد بن عباد، وولده المعتمد، وترك لنا كلاهما طائفة

كبيرة من روائع نظمه.

ويمتاز شعر المعتضد بنزعة إلى الفخر والمجد وشهرة

---

(١) الشعر الأندلسي: A.

.R

:Nykl: Hispano - Arabic Poetry: (Baltimore

.p ،١٩٤٦



الجود.

أما المعتمد بن عباد فقد كان بلا ريب من أعظم شعراء عصر الطوائف، إن

لم يكن أعظمهم جميعاً.

ويرى الأستاذ نكل أنه " أبرز ممثل للشعراء الأندلسيين

العرب في النصف الثاني للقرن الحادى عشر " وأنه " يتزعم هذا العصر بشخصيته
المتسمة بالفروسية، ويعتبر أسطع نجم في باقة النجوم الكبرى لملوك الطوائف الآخرين " (١) .
وقد ترك لنا المعتمد بنوع خاص طائفة من أروع القصائد التي
نظمها أيام مجده، ثم بعد ذلك خلال محنته.
في التلهف على ماضيه والبكاء على
مصيره، وقد أوردنا فيما تقدم مقتطفات من شعره، في مختلف المناسبات والأحداث.
وكان بنو عباد فضلا عن مواهبهم الأدبية والشعرية الرفيعة، يجمعون فى
بلاطهم، وهو أزهى قصور الطوائف في هذا المضمار.
جمهرة من أكابر شعراء
العصر وكتابه، سواء برسم الوزارة أو الكتابة أو الانتظام بين صحب الأمير
ومستشاريه، أو لمجرد الرعاية والحماية.
وكان من هؤلاء حسبما أسلفنا شعراء
عظام مثل أبي بكر بن عمار الشاعر الذكى المبدع، وقد أتينا على أحداث حياته
فيما تقدم، وأبى الوليد بن زيدون الذى يصفه الأستاذ نكل بأنه " شاعر عظيم
للحب "، ويعتبره مثلا " لأبدع نموذج للأسلوب العربى الكلاسيكى.
وفى وسعنا
أن نقارنه بالمتنبى والبحترى ".
وقد قارن العلامة دوزى، ابن زيدون في حياته الغرامية بالشاعر اللاتينى
تيبولوس في حبه " لدِلْيا "، ولكن الأستاذ نكل لا يقر هذه المقارنة إلا من حيث
الناحية الغرامية، وعنده أن المظاهر الشعرية تختلف بين الشاعرين الأندلسى
واللاتينى، " كما تختلف الأزهار لوناً وعطراً " (٢) .

والواقع أن حب ابن زيدون
لولادة بنت الخليفة المستكفى (٣) ، كان أعظم حدث في حياته، وكان أعظم وحى
لروائع شعره.
وكانت ولادة ابنة جارية نصرانية، وكانت ناصعة المحيا، زرقاء العينين، حمراء الشعر، رائعة الحسن.
ويصفها ابن بسام بقوله: " وكانت فى

---

(١) A.
R.
Nykl: ibid ; p.
١٣٠ & ٧٢
(٢) A.
R.
Nykl: ibid ; p.
١٠٩
(٣) وهو محمد بن عبد الله بن الناصر لدين الله.
تولى الخلافة في ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ
باسم المستكفى بالله، ثم خلع وفر من قرطبة في ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ
(١٠٢٥ م) واغتاله
في الطريق بعض أصحابه.

*(٤٢٥/٢)*

نساء أهل زمانها، واحدة أقرانها حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها،

ويتهافت
أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب، وطهارة أثواب.
على أنها، سمح
الله لها وتغمد زللها، طرحت التحصيل، وأوجدت للقول فيها السبيل، بقلة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها " (١) .
وهام ابن زيدون في شبابه بولادة
أيام خدمته لبنى جهور، وتوثقت علائقه بها مدة من الزمن، ونظم في حبها طائفة من أروع قصائده، ثم ساءت العلائق بينهما، وهجرته ولادة وهو يستعطفها بقصائد مؤثرة.
وكان ينافسه في ودها رجل من سراة قرطبة يدعى
أبو عامر بن عبدوس تزوجته ولادة فيما بعد، وانتهى الأمر بأن زج ابن زيدون
إلى السجن إما لريبة علقت بولائه لابن جهور، أو نتيجة لمكيدة دبرها له خصمه
ومنافسه ابن عبدوس.
وقد وجه ابن زيدون إلى منافسه وخصمه ابن عبدوس
هذا، رسالة لوم وتقريع، تفيض بألوان مؤلمة من التهكم والتشبيهات، والمقارنات، وينعته في أولها " بالمصاب بعقله، المورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره ".
ثم يفيض
في وصفه وتشبيهه بأسلوب ساخر مقذع، وقد اشتهرت رسالة ابن زيدون هذه، واعتبرت من الطرائف الأدبية وعملت لها شروح عديدة (٢) .
ثم فر ابن زيدون
من سجنه، وغادر قرطبة إلى إشبيلية وذلك في سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩ م) والتحق

ببلاط المعتضد بن عباد، وخدمه وعلت مكانته لديه.
ولما توفى المعتضد استمر
في خدمة ولده المعتمد، وتوفى في سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) .
وقد ترك لنا
ابن زيدون ثروة كبيرة منوعة من نظمه الرائق، ومنها قصائد تعتبر من أروع
ما يحتويه الشعر الأندلسي (٣) ، وفيها يبلغ النسيب ذروة الإبداع الروحى
والحسى،

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٧٦.
(٢) ومنها شرح مخطوط لابن نباته المصرى عنوانه " سرح العيون في شرح
رسالة ابن زيدون "
يحفظ بالمتحف البريطانى برقم Or.
٨٥٧٨ وقد طبع هذا الشرح بمصر غير مرة.
(٣) راجع في حياة ابن زيدون وشعره: الذخيرة، القسم الأول المجلد الأول ص
٢٨٩ -
٣٧٦، وقلائد العقيان ص ٧٠ - ٨٣.

(٤٢٦/٢)

وكان لحبه لولادة بلا ريب أعمق تأثير في نفسه وروحه، وهو تأثير يشيد به
النقد
الحديث.
يقول الأستاذ نكل " وبغير هذا التأثير كان شعر ابن زيدون يبقى
ناقصاً بعضاً من أثمن جواهره " (١) .
وإلى جانب هذين الشاعرين العظيمين، ابن عمار وابن زيدون، كان بلاط
إشبيلية يضم طائفة أخرى من أكابر شعراء العصر، منهم أبو بكر محمد بن
عيسى

الدانى المعروف بابن اللبانه وأصله من دانية، كما يدل على ذلك اسمه، وبرع
في الشعر منذ صباه، واتخذه وسيلة للتكسب والعيش، وتجول بين قصور
الطوائف
يمتدح ملوكهم.
ثم اتصل ببلاط إشبيلية، وغدا شاعر المعتمد الأثير لديه، وقد
نظم في مديحه كثيراً من قصائده.
ولما ذهبت دولة المعتمد، ونفى أسيراً إلى
المغرب، زاره أبو بكر بأغمات، وله في دولة المعتمد وأيامه، وفي محنته
وأسره، قصائد كثيرة، وله كتاب في تاريخ بني عباد سبقت الإشارة إليه.
ولحق في أواخر أيامه بجزيرة ميورقة، ومدح صاحبها مبشر العامرى وحظى
لديه.
ومنهم عبد الجليل بن وهبون، وهو صديق ابن عمار ومرثيه، وأبو الحسن
الحصرى، وأصله من القيروان.
وقد خدم المعتضد ثم المعتمد، وتوفى بطنجة
سنة ٤٨٨ هـ.
ومنهم شاعر فذ من الوافدين على الأندلس، هو عبد الجبار
ابن أبي بكر بن محمد الأزدى الصقلى المعروف بابن حمديس، وقد ولد
بسرقوسة
سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ، ولما غزا النورمان صقلية في سنة ٤٧١.
(١٠٧٨ م)
سار إلى تونس ثم إلى إشبيلية والتحق ببلاط المعتمد، ونظم في مديحه كثيراً
من
القصائد، وظهر بروعة افتتانه ولاسيما في شعره الوصفى.
ولما أسر المعتمد زاره
في أغمات وأقام لديه مدة، ثم سار ابن حمديس بعد ذلك إلى المهدية وخدم
ملكها

وتوفى سنة ٥٢٧ هـ - (١١٣٢ م) .
وأما عن الكتاب الذين خدموا في بلاط إشبيلية، وازدهروا في ظل بني عباد، فقد أشرنا إلى الكثير منهم، خلال حديثنا عن أخبار مملكة إشبيلية، وإنما أردنا
أن نخص الشعراء بالذكر هنا لما كان لبنى عباد في هذا الميدان من رياسة ومواهب
عالية، ولما كان لدولة الشعر في ظلهم من رعاية خاصة، وقد كان بنو عباد

---

(١) A.
R.
Nykl: ibid ; p.
١١٩

(٤٢٧/٢)

أوفر أمراء الطوائف عناية بالحركة الأدبية وإمدادها بالبذل الوفير (١) . ولم يكن
يجاريهم في ذلك أى بلاط آخر من قصور الطوائف.
وكان بنو الأفطس، ملوك بطليوس، كذلك من حماة الشعر والأدب، وكان
بلاطهم ولاسيما في عهد عميدهم المظفر، وولده عمر المتوكل، ملاذاً لطائفة
من أعظم شعراء العصر، وفي مقدمتهم وزيرهم الشاعر والكاتب الكبير أبو محمد
عبد المجيد بن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، وبنو القبطرنة الثلاثة
أبو بكر وأبو محمد وأبو الحسن أبناء عبد العزيز البطليوسى، وقد كانوا أيضاً
من وزراء بني الأفطس، ومن شعرائهم المجيدين.
وقد ذكرهم ابن بسام في الذخيرة

ووصفهم بأنهم من " أسرة أصالة، وبيت جلالة، أخذوا العلم أولا عن آخر، وورثوه كابراً عن كابر، ثلاثة كهقعة الجوزاء، وان أربوا عن الشهر في السنا والسناء " ووصفهم ابن الخطيب بأنهم " كانوا عيوناً من عيون الأدب بالأندلس، ممن اشتهروا بالظرف والشرف والجلالة ".

وقد برع ثلاثتهم في النظم والكتابة، وكتبوا بعد بني الأفطس لعاهل لمتونة، يوسف بن تاشفين.

ومن نظم أبي محمد

قوله:

هلم إلى روضنا يا زهير ولح في سماء المنى يا قمر

وفوِّق إلى الأنس سهم الأخا..

.

ء فقد عطلت قوسه والوتر

إذا لم تكن عندنا حاضرا..

.

فما يغصون الأمانى ثمر

وقعتَ من القلب وقع المنى..

.

وحُزت من العين حسن الحَوَر

ومن شعر أبي بكر قوله:

ْيا أخى قم تر النسيم عليلا..

.

باكر الروض والمدام شمولا

في رياض تعانق الزهر فيها..

.

مثل ما عانق الخليل خليلا

لا تنم واغتنم مسرة يوم..

.

إن تحت التراب نوماً طويلا (٢)

وأما ابن عبدون فقد اشتهر بالأخص بمرثيته الشهيرة لبنى الأفطس عقب ذهاب دولتهم، وهى قصيدته المعروفة " بالعبدونية "، وقد أتينا على ذكرها فيما

تقدم.

ويصفها الأستاذ نكل بأنها " مزيج مدهش من الشعور العميق، والمتانة

---

(١) نفح الطيب (عن رسالة الشقندى) ج ٢ ص ١٤٠.

(٢) راجع كتاب " الإحاطة في أخبار غرناطة " (القاهرة ١٩٥٦) ص ٥٢٧ - ٥٣٠.

*(٤٢٨/٢)*

التاريخية ".

وكان المظفر بن الأفطس نفسه من أكبر أدباء عصره وأغزرهم مادة، وقد اشتهر بكتابه أو مصنفه الأدبى والتاريخى الكبير المسمى " بالمظفرى " والذى قيل إنه كان يحتوى على مائة مجلد مليئة بالأخبار والفنون الأدبية (١) .

وكذا كان

ولده عمر المتوكل عالماً وشاعراً كبيراً.

وكان يجتمع في بلاط ألمرية حول بني صمادح، جمهرة من أقطاب الشعر والأدب، في مقدمتهم أبو عبد الله محمد بن عباد المعروف بابن القزاز، وأبو الفضل جعفر بن شرف، وابن الحداد الوادي آشى وغيرهم، ممن سبق أن ذكرناهم في أخبار مملكة ألمرية.

وقد كان ابن القزاز من أهل مالقة وكان

أبرع الوشاحين في عصر الطوائف.

ووصفه ابن بسام " بأنه من مشاهير الأدباء

والشعراء، وأكثر ما ذكر اسمه وحفظ نظمه في أوزان الموشحات ".

وقيل

في حقه " كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز ".

ومن أشهر موشحاته:

بدر تم..

شمس ضحا..

.

غصن نقا..

مسك شم

ما أتم..

ما أوضحا..

.

ما أورقا..

ما أتم

لا جرم..

من لمحا..

.

قد عشقا..

قد حرم (٢)

وأما ابن شرف، فهو جعفر بن محمد بن سعيد بن شرف الجذامى القيروانى،

أصله من القيروان وبها ولد سنة ٤٤٤ هـ.

ولما اضطرمت فتنة العرب في إفريقية

غادرها إلى الأندلس واستوطن برجة.

وكان من أعظم شعراء عصر الطوائف، وكان فوق ذلك أديباً موهوباً وله

مؤلفات في الأمثال والأخبار والآداب.

وتوفى

سنة ٥٣٤ هـ (٣) .

وأما ابن الحداد، فهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد
القيسى.

وكان من أكابر الشعراء، وقد قضى معظم حياته في بلاط ألمرية حسبما
تقدم ذكره.

وهو الذى وجه إليه ابن غرسية رسالته الشهيرة في تفضيل العجم
على العرب.

وكان بنو صمادح، كبنى عباد أسرة شاعرة موهوبة، وكان المعتصم
من أكبر شعراء عصره، وكذلك كان ولداه يحيى الملقب برفيع الدولة، وأبو
جعفر
الملقب برشيد الدولة، وإبنته أم الكرام، من الشعراء الموهوبين.
واشتهر منهم

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٦ و ١٤١.

(٢) ابن خلدون في المقدمة (بولاق) ص ٥١٩، والذخيرة القسم الثاني من
المجلد الأول
ص ٢٩٩.

(٣) ترجمته في الصلة رقم ٢٩٨.

(٤٢٩/٢)

بالأخص رفيع الدولة، وكان أشعرهم جميعاً (١) .

ويجب ألا ننسى أن العلامة
اللغوى والجغرافى الكبير، أبو عبيد البكرى قد عاش حيناً في ألمرية، تحت
كنف
المعتصم ورعايته، ووضع في ظل هذه الرعاية موسوعته الجغرافية الشهيرة
وبعض

كتبه الأخرى.
وهو أبو عبيد عبد الله بن أبي مصعب عبد العزيز بن أبي زيد محمد
ابن أيوب بن عمرو البكرى.
وهو سليل أسرة من الأمراء حكمت ولبة، وجزيرة
شلطيش حيناً، واستمرت رياسة أبيه بها حتى سنة ٤٤٣ هـ، حينما أجلاه عنها
المعتضد بن عباد.
ودرس أبو عبيد على ابن حيان، والحافظ ابن عبد البر، وأبى العباس العذرى
وغيرهم من أقطاب العصر.
وله عدة مؤلفات قيمة في مقدمتها
موسوعته الجغرافية المسماة المسالك والممالك، وكتاب معجم ما استعجم، وهو
قاموس
لغوى جغرافى، وكتاب اللآلىء في شرح أمالى القالى، وكتاب أعلام نبوة نبينا
محمد.
وكان البكرى من أقطاب الأدب في عصره، وكان آية في التبحر واللغة
ومن أساتذة الأنساب والأخبار، وأهل الضبط.
وتوفى البحرى في سنة ٤٨٧ هـ (٢)
وقال ابن الأبار: " وكان أبو عبيد البكرى من مفاخر الأندلس، وهو
أحد الرؤساء الأعلام، وتواليفه قلائد في أجياد الأيام " (٣) .
بيد أنه مما تجب ملاحظته أن هذه الرعاية لدولة الشعر والأدب، لم تبلغ فى
القصور البربرية مبلغاً كبيراً، فلم تزدهر النهضة الأدبية في ظل بني ذى
النون بطليطلة
ولم تجتمع في بلاطهم سوى قلة من الأدباء والشعراء، وإن كان قد نبغ في
ظلهم
بعض العلماء البارزين في الفلك والزراعة.
وكذلك لم تشهد غرناطة في ظل بني مناد
البربر أية نهضة أدبية ذات شأن.

أما قصور الطوائف في شرقى الأندلس، وفي سرقسطة، فكان لها شأن
خاص في رعاية الحركة الأدبية والشعرية بوجه عام.
وكان بلاط سرقسطة، شأنه
شأن بقية قصور الطوائف يسبغ رعايته على عدد من أكابر الشعراء والكتاب،
وكان في مقدمة هؤلاء، أبو عمر أحمد بن محمد درّاج القسطلى، وهو من
أبرز
شعراء عهد انهيار الخلافة وبداية عهد الطوائف.
ولد بقسطلة الغرب سنة ٣٤٧ هـ
من أصل بربرى وتوفى سنة ٤٢١ هـ، وكان في شبابه من كتاب المنصور بن
أبي عامر

---

(١) الحلة السيراء (دوزى) ص ١٧٦.
والقاهرة ج ٢ ص ٩٢.
(٢) ترجمته في الصلة رقم ٦٣٢.
(٣) الحلة السيراء ج ٢ ص ١٨٥.

*(٢/٤٣٠)*

وشعرائه، وذاع اسمه بين ألمع شعراء الطوائف، ومدح عدداً من أمرائهم،
ولاسيما الفتيان العامريين أمثال مجاهد ومظفر ومبارك وخيران، ثم التحق
ببلاط
سرقسطة، ومدح المنذر بن هود ثم ابنه يحيى.
وقد وصفه الثعالبى في يتيمة
الدهر، بأنه كان بين شعراء الأندلس، كالمتنبي بين شعراء المشرق، وقد ترك
لنا ابن درّاج ديوان شعر ضخم يضم عدداً كبيراً من أروع القصائد في مختلف
الأغراض (١) .
وقد اشتهر ابن دراج كذلك ببلاغته في الترسل، وأورد لنا

ابن بسام في الذخيرة طائفة من رسائله إلى جانب ما أورده من منظومه.
وقد
أوردنا نحن فيما تقدم شيئاً من نظمه.
وكان من بين أمراء سرقسطة في الوقت
نفسه، بعض الأدباء والعلماء البارزين، وهؤلاء سوف نذكرهم خلال حديثنا
فيما يلى عن النهضة الفكرية العامة في عصر الطوائف.
- ٣ -
إلى جانب هذه النهضة الأدبية والشعرية الزاهرة، يمتاز عصر الطوائف بنبوغ
جماعة من العلماء الأفذاذ الذين يرتفعون إلى الذروة، في تفكيرهم ومستواهم
العلمى
الرفيع، وفي مقدمة هؤلاء العلامة الفيلسوف أبو محمد على بن حزم، وقد كان
آية عصره في نضوج الذهن ودقة البحث، وعمق التفكير.
ولد بقرطبة في سنة
٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) في أواخر عهد المنصور، وكان أبوه أحمد بن حزم من
وزراء
المنصور المقربين، ثم وزر من بعده لابنه عبد الملك.
وقضى ابن حزم حداثته
أيام الفتنة بقرطبة، ثم تجول حيناً في ألمرية وبلنسية في كنف الفتيان
العامريين، وكان مثلهم يؤيد قضية الخلافة الأموية، ولما هدأت الأحوال نوعاً
عاد إلى
قرطبة، وتابع دراسته في المسجد الجامع.
وبرع ابن حزم بالأخص في الفقه
والعلوم الدينية والشرعية، وأصول المذاهب والنحل، وفي المنطق والفلسفة
واللغة، والمعرفة بالسير والأخبار.
وتولى الوزارة في شبابه للخليفة المستظهر الأموى، ثم نزح
إلى شاطبة، وهنالك كتب كتابه " طوق الحمامة "، وهو دراسة نفسية تحليلية

بديعة
للحب وبواعثه وأشكاله، ومنه نعرف فضلا عن ذلك، الكثير عن حياة
الفيلسوف،

---

(١) نشر هذا الديوان بدمشق سنة ١٩٦١ بتحقيق الدكتور محمود على مكى.
وتراجع
ترجمة ابن دراج في ابن خلكان ج ١ ص ٥١، وفي بغية الملتمس.
الترجمة رقم ٣٤٢.
وأورد له
الدكتور مكى في صدر الديوان ترجمة طويلة (ص ٢١ - ٨٠) .

*(٤٣١/٢)*

وعن منازل أسرته وعن خطط قرطبة المعاصرة.
وكتب بعد ذلك عشرات من الكتب
والرسائل في مختلف الموضوعات الفقهية والفلسفية والتاريخية.
منها كتاب " الإحكام
لأصول الأحكام "، وكتاب في الإجماع ومسائله على أبواب الفقه، وكتاب فى مراتب العلوم، وكتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل، ومنها كتاب " جوامع السيرة "، وهو عرض لسيرة الرسول وغزواته وذكر أصحابه، ومن روى عنه، وذكر نبذ من فتوح الإسلام بعد الرسول، و " جمهرة أنساب العرب " وهو وثيقة جامعة لأصول القبائل العربية وأنسابها، ومن نزل منها بالأندلس، و " نقط العروس " وهو يتضمن سلسلة من النوادر والحوادث، والمقارنات والنظائر التاريخية الفريدة.
وإذا كان ابن حزم يصف لنا التاريخ بأنه
" علم الأخبار "، ويعتبر علم النسب جزءاً من علم الخبر، فإنه يحق لنا بعد
الذى

تقدم من ذكر كتبه، أن نعتبره مؤرخاً بكل معانى الكلمة.
على أن ابن حزم
لم يكن مع ذلك مؤرخاً عادياً، بل كان بالعكس مؤرخاً من طراز خاص، بل ومن
طراز نادر، من طراز أولئك المؤرخين الذين تعتبر كلماتهم، عن حوادث عصرهم وشخصياته، أحكاماً لا تقبل الجدل.
وقد عاش ابن حزم في عصر فياض
بالاضطرابات والأحداث المثيرة، هو عصر انحلال الخلافة الأندلسية، وقيام دول الطوائف، وشهد الكثير من أحوال هذا العصر وتقلباته، ومن تصرفات أمراء الطوائف، ومثالبهم، وبغيهم، واستهتارهم، وهزت هذه الأحداث مشاعره إلى الأعماق، ومن ثم كانت أقواله وأحكامه الصادقة التي أصدرها في حق الطوائف، والتي نقلناها فيما تقدم.
بيد أن ابن حزم يشتهر بنوع خاص سواء فى
الشرق أو في الغرب، بكتابه الجامع " الفصل في الملل والأهواء والنحل ".
ويشيد البحث الحديث بابن حزم، وروعة علمه وتفكيره، ويخصص له العلامة الإسبانى آسين بلاثيوس كتاباً يتناول فيه حياته وكتابه " الفصل " ويعتبره " مفكراً
وعالماً لاهوتياً، ومؤرخاً ناقداً للأديان والمدارس الفلسفية الدينية ".
ويعتبره الأستاذ نكل " أديباً وشاعراً وفقيهاً، ومؤرخاً سياسياً وعالماً أخلاقياً " (٢).

---

(١) A.
Asin Palacios: Abenhàzm de Cordoba y su Historia de las Ideas religiosas.
(٢) A.

.R

.Nykl: ibid ; p

٧٣

(٤٣٢/٢)

وكان ابن حزم بالأخص داعية من أشد دعاة المذهب الظاهرى، وقد غلبت هذه النزعة على سائر بحوثه الفقهية والكلامية، واعتبر حجة هذا المذهب وإمامه

في عصره.

وكان يتشدد كل التشدد في تطبيقه على العقائد، والأحكام، وهو لا يأخذ في تفسير الأحكام إلا بالكلمة المكتوبة، والحديث الثابت، ويعتبرهما حاسمين، في صوغ الأحكام.

وقد اشتهر باعتناقه لهذا المذهب حتى أن أنصاره سموا فيما بعد " بالحزمية " نسبة إليه.

وقضى ابن حزم حياة فكرية عميقة خصبة.

وأثار في الوقت نفسه، بآرائه ونظرياته الأصولية والدينية من حوله خصومات كثيرة، واتهمه البعض بالمروق والزندقة، وأحرقت كتبه في إشبيلية بأمر المعتضد

ابن عباد (١) .

ونزح في أواخر حياته إلى دار أسرته بقرية منت ليشم من أعمال لبلة، وهنالك توفى في شعبان سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) (٢) .

وكان من أقران ابن حزم الذين طرقوا مثل ميدانه في التفكير الدينى والشرعى، العلامة أبو الوليد الباجى، وهو سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب التجيبى الباجى

الحافظ.

ولد بمدينة بطليوس غربى الأندلس سنة ٤٠٣ هـ ودرس في قرطبة، ثم

سافر إلى المشرق ودرس حيناً بمكة ثم في بغداد، ولما عاد إلى الأندلس عاش

حيناً في بلاط ميورقة، وحيناً آخر في كنف المقتدر بن هود، واشتهر بردوده على

ابن حزم، وكان قرينه في غزارة العلم وسعة المعرفة.

وقد وصف بأنه من أئمة

المسلمين.

وتوفى في سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) .

ومن شعره:

إذا كنت أعلم علماً يقيناً..

.

بأن جميع حياتى كساعة

فلم لا أكون ضنيناً بها..

.

وأجعلها في صلاح وطاعة (٣)

ونبغ إلى جانب ابن حزم عالم ومفكر جبار آخر، هو العلامة اللغوى الأعمى

أبو الحسن على بن سيده، المتوفى في سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) .

وكان آية في الحفظ

---

(١) ترجمته في جذوة المقتبس ص ٢٩٠ – ٢٩٣، وفي وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٢٨ – ٤٣١.

(٢) في شهر مايو (من ١٢ – ١٨ منه سنة ١٩٦٣) نظم بمدينة قرطبة مهرجان رسمى فخم

للاحتفال بذكرى مرور تسعمائة عام على وفاة العلامة ابن حزم " القرطبى " وأقامت له بلدية قرطبة

تمثالا بالحجم الطبيعى أمام باب إشبيلية على مقربة من الجامع.

وأقيمت كذلك لوحة تذكارية لابن حزم

بالإسبانية، أمام مدخل كنيسة سان لورنتسو التي أقيمت مكان الجامع الذى

كان يتوسط بلاط مغيث

وهو الحى الذى عاش فيه ابن حزم.

ونظمت بهذه المناسبة عدة ندوات دراسية، وطائفة من الحفلات

الفخمة.

وقد كان مؤلف هذا الكتاب من شهود هذا المهرجان التاريخى العظيم.

(٣) ترجمته في الصلة رقم ٤٥٣.

(٤٣٣/٢)

وقوة الذاكرة، وقد عاش بدانية في كنف أميرها العالم مجاهد العامرى، وانقطع

إليه، ولما توفى مجاهد، توجس من ولده على إقبال الدولة، فغادر دانية إلى

بعض الأنحاء المجاورة.

واشتهر ابن سيده بكتابه " المحكم " وهو قاموس لغوى

ضخم، وكتاب " السمار ".

وكان من كتاب الموسوعات أيضاً العلامة اللغوى الجغرافى أبو عبيد البكرى

الذى سبق ذكره.

وقد اشتهر بمعجمه اللغوى الجغرافى المسمى " معجم ما استعجم

من أسماء البلاد والمواضع "، وهو مؤلف انتفع به الملك ألفونسو العالم في

تاريخه

العام له Cronica General

ويخص العلامة الأستاذ مننديث بيدال كتابى " الفصل " لابن حزم و "

المحكم "

لابن سيده بالذكر، وينوه بنفاستهما، ويقول: " إن النضوج العقلى اللازم

لإخراج

كتاب في تاريخ الأديان، أو قاموس للفكر المتشابهة، على مثل النمط الذى

كتبت
به هذه المصنفات الإسبانية الإسلامية، لم تصل إليه أوربا حتى القرن التاسع
عشر " (١) .
ومن أولئك العلماء الممتازين أيضاً العلامة ابن عبد البر، وهو أبو عمر
يوسف
ابن عبد الله النميرى القرطبى، ولد سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) ، وقضى شطراً
من حياته في دانية وبلنسية وشاطبة، ثم لحق أخيراً ببلاط بني الأفطس
ببطليوس
وعينه المظفر بن الأفطس قاضياً لأشبونة، ثم شنترين، وتوفى في سنة ٤٦٣
هـ
(١٠٧١ م) .
وكان من أوفر كتاب عصره علماً ومعرفة، وأشهر مؤلفاته كتاب
" بهجة المجالس وأنس المُجالس " ويمتاز شعره بالرصانة والأنفة.
وقد خدم ولده
أبو محمد عبد الله بن عبد البر في بلاط بني عباد، حسبما تقدم ذكره في
موضعه (٢)
ويمكننا أن نذكر ضمن هذا الثبت من العلماء الأعلام، أميرين من أمراء
الطوائف، هما مجاهد العامرى صاحب دانية، وأبو عبد الرحمن محمد بن
أحمد
ابن طاهر صاحب مرسية.
وكان مجاهد من أكابر علماء عصره في اللغة وعلوم
القرآن، وكان بلاطه مجمعاً لطائفة من أشهر علماء العصر، وفي مقدمتهم
ابن
عبد البر، وابن سيده وذلك حسبما تقدم ذكره.
وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر،

---

.R (١)
.M
.Pidal: ibid ; p
٨١
(٢) نفح الطيب (عن رسالة ابن حزم في ذكر علماء الأندلس) ج ٢ ص
.١٣١

(٤٣٤/٢)

كذلك من أعظم علماء الأندلس وكتابها أيام الطوائف، ويشيد معاصره ابن
بسام
حسبما تقدم بذكره وذكر أدبه في الذخيرة، وينوه بجمال رسائله وروعتها.
وقد وقفنا
على نص صك من إنشائه بتقديم صاحب أحكام على بعض جهات مرسية أيام
رياسته لها يقول فيه: " قلدت فلاناً وفقه الله النظر في أحكام فلانة، وتخيرته
لها بعد ما خبرته، واستخلفته واثقاً بدينه، راجياً لتحصنه، لأنه احتاط فعلم،
وإن أضاع فأثم، فليقم الحق على أركانه، وليضع العدل، وليسر بين
خصومه، وليأخذ من الظالم لمظلومه، فعف في الحكم عند اشتباهه، وبعده
عند اتجاهه، ولا تقبل غير المرضى في شهادته، ولا تعرف سوى الاشتغال
من علاته، ولتعلم
أن الله مطلع على خفياته، وسلام يوم علاماته " (١) .
هذا وقد كان عصر الطوائف، فضلا عن هذه النهضة الأدبية والفكرية
الشاملة، يمتاز كذلك بازدهار الدراسات العلمية الممتازة.
وقد نبغت فيه طائفة
من أكابر الرياضيين والفلكيين، الذين كانت بحوثهم فيما بعد مستقى خصباً
لاقتباس

الغرب.
وكان من هؤلاء أبو اسحق ابن ابراهيم بن يحيى الزرقالى القرطبى صاحب الجداول الفلكية الشهيرة أصله من طليطلة، ويعرف في الغرب باسم Azarquiel

وقد ذاعت جداوله الفلكية، ذيوعاً عظيماً، وكانت في كثير من المواطن أصح من غيرها من الجداول القديمة، وتوفى الزرقالى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) .

وأبو القاسم أصبغ بن السمح الغرناطى المتوفى سنة ٤٣٨ هـ (١٠٣٨ م) ، وكان بارعاً في الهندسة والفلك، وله كتب قيمة في الهندسة وزيج فلكى.

وأبو الوليد هشام الوقشى، وكان أبرع علماء عصره في الهندسة والفلسفة والنحو واللغة، وتلميذه أبو القاسم سعيد بن أحمد الطليطلى صاحب كتاب " طبقات الأمم " وهو تاريخ للعلوم.

وقد كانت الجداول الفلكية التي وضعها أولئك العلماء المسلمون فيما بعد، أقيم مرجع لألفونسو ملك قشتالة في اقتباس جداوله.

وقد اشتهر ألفونسو العالم بالأخص باعتماده على مصادر العلوم الأندلسية، ولاسيما في عصر الطوائف، واقتباسه تقاليد العلماء الأندلسيين في هذا العصر، الذى سبقه بنحو قرنين.

وكانت سرقسطة، وطليطلة، وقرطبة، من أعظم مراكز

---

(١) أورده ابن عبد الملك في " الذيل والتكملة " - الجزء الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس.

الدراسات الفلسفية والرياضية في القرن الحادى عشر الميلادى.
وكان المقتدر بن
هود وولده المؤتمن، من العلماء المبرزين في الفلسفة والرياضيات والفلك.
وكتب
المؤتمن رسالته " الإستكمال " في الرياضية.
وأثارت بحوث هذين الأميرين
العالمين إعجاب الدوائر العلمية في العصور الوسطى (١) .
كانت هذه الجمهرة الحاشدة من الأدباء والشعراء والعلماء، التي حفل بها
عصر
الطوائف تملأ قصور الطوائف، وتعيش في كنف أمرائها، سواء بطريق
الخدمة فى
الوزارة أو الكتابة أو القضاء أو غيرها.
أو في ظل الصحبة والرعاية المجردة لأولئك
الأمراء.
وكان أولئك العلماء والأدباء، ينتقل معظمهم من دولة إلى أخرى، ومن قصر
إلى قصر، وفقاً للأحوال والظروف، إذ كانت هذه القصور جميعاً
تتنافس في اجتذاب أعلام الكتاب والأدباء إليها، وفي رعايتهم والإغداق
عليهم، وكان بعضهم ينقطع إلى أمير بذاته، ويعيش في كنفه وتحت رعايته،
وكان
بعضهم يستحوذ على سياسة الدولة، ويسيرها وفق رأيه، أو يخوض غمار
الدسائس
والفتن فيذهب ضحية تدخله.
وقد كان ابن عباس وزير زهير العامرى، وأبو عبد الله البزليانى وزير
المعتضد بن عباد، وابن عمار وزير ولده المعتمد، أسطع أمثلة لأولئك الوزراء

المغامرين، وقد دفع كل منهم حياته ثمناً لمغامراته.
وكان من آثار ازدهار الحركة الفكرية في عصر الطوائف، ذيوع المكتبات
العامة والخاصة ذيوعاً يلفت النظر.
ذلك أن كل مدينة أندلسية غدت عاصمة
لمملكة كبيرة أو صغيرة.
وكان أمراء الطوائف يتنافسون في اقتناء الكتب النفيسة
والنادرة، وقد كانت تنهال على شبه الجزيرة من سائر أنحاء العالم الإسلامى.
وقد
لبثت قرطبة بالرغم مما أصابها من آثار الفتن والحروب الأهلية، مركز العلوم
والدراسات الممتازة، وبقيت بالرغم مما أصاب المكتبة الأموية الكبرى من
التبديد المؤلم، مثوى لكثير من المجموعات النفيسة الخاصة.
وكانت إشبيلية، حاضرة بني عباد، هى الثانية بعد قرطبة، في تقدم العلوم
والثقافة، وكانت
تحتوى، فضلا عن مكتبة بني عباد الملوكية العظيمة، على عدد كبير من
المكتبات
الخاصة.
وكانت ألمرية أيضاً من الحواضر التي اشتهرت بمكتباتها القيمة.
وكان

---

(١) يراجع في تفاصيل النهضة الفكرية في عصر الطوائف رسالة ابن حزم
عن الحركة العلمية
بالأندلس، وقد نشرت في نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٦ وما بعدها، ورسالة
الشقندى وقد نشرت أيضاً
في نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨ وما بعدها.
ويراجع أيضاً.
.R

.M

.Pidal: ibid ; p

٨٤ - ٧٩

(٤٣٦/٢)

الوزير أحمد بن عباس وزير زهير العامرى، فضلا عن علمه الغزير، من أعظم

هواة الكتب، ويقال إن مكتبته العظيمة كانت تضم أربعمائة ألف مجلد.

واشتهرت

بطليوس في ظل بني الأفطس بتقدمها العلمى والثقافى.

وكذا كانت طليطلة في ظل

بنى ذى النون مركزاً عظيماً للبحوث العلمية.

واشتهر بنو ذى النون كذلك بجمع

الكتب، وكانت لديهم مكتبة عظيمة.

وكانت توجد غير المكتبات الملكية، مكتبات كثيرة أخرى خاصة وعامة، في

سائر القواعد الأندلسية.

وكان لهذه

الثروات المكتبية، تأثيرها بلا ريب، في تقدم الحركة الفكرية والثقافية، في عهد الطوائف (١) .

وقد امتدت هذة النهضة الفكرية والأدبية التي ازدهرت في عصر الطوائف

إلى عهد المرابطين.

وقد كان أولئك المرابطون يتسمون بالخشونة والبداوة، ويضطرمون بالأفكار

الرجعية العتيقة، ويمقتون مظاهر الحضارة الأندلسية الرفيعة، فركدت في

ظلهم دولة التفكير والأدب، وانفرط عقد الحلقات الأدبية

الزاهرة، التي كانت تحفل بها قصور الطوائف، ومع ذلك فقد بزغت في

عهدهم

بعض أضواء مستمدة من تراث عصر الطوائف، وظهرت فيه عدة من الشخصيات
اللامعة، مثل أبي القاسم خلف بن عباس القرطبى الطبيب الأشهر المتوفى سنة ٥١٦ هـ
(١١٢٢ م) ، وابن باجّة الطبيب الفيلسوف المتوفى سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٩ م) .
وأبو بكر الطرطوشى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، والفتح بن خاقان المتوفى
سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ، وابن بسام الشنترينى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) .
بيد أن ظهور هؤلاء العلماء والأدباء الأعلام في هذه الفترة لم يكن إلا أثراً من آثار
النهضة الفكرية في عصر الطوائف.

***

وقد حظى عصر الطوائف، بعدة من أكابر العلماء والأدباء والمؤرخين الذين عنوا بتاريخه وتدوين حوادثه وخواصه، وتاريخ أعلامه.
وفى مقدمة هؤلاء
الفيلسوف ابن حزم.
وبالرغم من أن ابن حزم لم يكن مؤرخاً بالمعنى الصحيح لعصر

---

(١) راجع في ذلك فصلا للأستاذ خوليان ربيرا عنوانه: Bibliofilos y Bibliotecas
في كتابه Disertaciones y Opusculos en la Espana Musulmana.
وراجع الإحاطة لابن
الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ، ج ١ ص ٢٦٧.

الطوائف، إلا أنه يقدم لنا في رسالته المسماة " نقط العروس "، وفي بعض رسائله
الأخرى، طائفة من الوقائع والملاحظات الصادقة عن عصر الطوائف وشخصياته، أشرنا إليها واقتبسنا منها فيما تقدم.
ثم المؤرخ الكبير أبو مروان حيان بن خلف
ابن حيان، وقد ولد بقرطبة سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) وتوفى بها سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، وكان أبوه خلف بن حيان من وزراء المنصور بن أبي عامر. وبرع
ابن حيان في الأدب والرواية حتى غدا من أعلامها وخاصة محققيها، وكانت نشأته
الأرستقراطية، وعلائق أسرته بالأوساط العليا، تتيح له حسن الاطلاع والوقوف على شئون الدولة، ودراسة مختلف التيارات السياسية.
وشهد ابن حيان
في شبابه سقوط الدولة العامرية، وما تلاه من ترنح الخلافة الأموية ثم سقوطها، وقيام دول الطوائف في بداية القرن الخامس الهجرى، وتولى هو الوزارة
لبنى جهور، وشهد سقوط دولتهم، وخصص لها كتاباً من كتبه.
ولا ريب أن
هذه الأحداث المثيرة، التي مزقت وحدة الوطن الأندلسي، قد أذكت مخيلة ابن حيان، وصقلت قلمه، وأمدته بكثير من التعليقات الصائبة، والملاحظات النقدية القوية، التي نراها ماثلة في معظم ما كتبه عن حوادث عصره.
وأعظم آثار ابن حيان كتابه " المقتبس في تاريخ رجال الأندلس " أو " المقتبس في أخبار أهل الأندلس ".

وهو تاريخ ضخم للأندلس حتى
عصره أى عصر الطوائف.
وقد انتهت إلينا منه عدة قطع مخطوطة (١) .
وقد ضمنه
ابن حيان، عن عصر الطوائف وأحداثه التي شهد الكثير منها بنفسه، أقيم الروايات وأنفسها، وأحفلها بالتعليقات النقدية.
وكتب ابن حيان غير المقتبس، كتابه " المتين " وهو أيضاً تاريخ للأندلس تبالغ الرواية في ضخامته، ولكن
لم يصل إلينا شيء منه.
وكتاب المآثر العامرية، وهو أيضاً كتاب ضخم يقص
فيه ابن حيان سيرة المنصور ابن أبي عامر وغزواته، ولكنه لم يصل كذلك إلينا.
وأسلوبه التاريخى يتسم بروح علمى ونقدى بارز.
ويشيد ابن بسام بمجهوده
التاريخى، وينقل عنه شذوراً ضافية، ولكنه يحمل عليه لمواقفه المتناقضة أحياناً

---

(١) يوجد منه جزء كبير مخطوط عن عهد عبد الرحمن الناصر بالخزانة الملكية بالرباط، وقطعتان مخطوطتان أخريان بخزانة القرويين الكبرى بفاس، وقطعة صغيرة مخطوطة بمكتبة أكاديمية
التاريخ بمدريد.
وهذا عدا الجزء الذى نشره المستشرق اللإسبانى الأب ملشيور انتونيا (باريس سنة ١٩٣٧) .
(راجع في ذلك كتابى دولة الإسلام في الأندلس – الطبعة الرابعة ص ٧ – ٩) .

بين المديح والذم، والتقدير والانتقاص، وذلك حسبما أشرنا إليه في موضعه فى
أخبار دولة بني جهور (١) .
وجاء بعد ابن حيان تلميذه أبو عبد الله الحميدى
المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) .
وقد عنى في معجم تراجمه (٢) ، بترجمة
كثير من العلماء والأدباء، والفقهاء والمحدثين، في عصر الطوائف. وكتب
المؤرخ والأديب الكبير أبو الحسن على بن بسام الشنترينى معجمه التاريخى والأدبى
الضخم بقرطبة، عقب انتهاء عهد الطوائف بقليل، في سنتى ٥٠٢ و ٥٠٣ هـ.
وقد عاصر ابن بسام، قبل أن يغادر موطنه مدينة شنترين البرتغالية نحو
سنة ٤٨٠ هـ، قبيل استيلاء النصارى عليها بأعوام قلائل (٣) ، أواخر عهد
الطوائف، وأوائل عهد المرابطين، وعاش وقتاً في إشبيلية، ثم غادرها إلى
قرطبة، حيث كتب مؤلفه.
ويعتبر كتاب " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة "، وهو مؤلف ضخم يحتوى
على أربعة مجلدات أو أقسام كبيرة، من أهم وأنفس
مصادرنا عن الطوائف سواء من النواحى التاريخية أو الأدبية أو الاجتماعية. وبا لرغم
من أن الصفة الأدبية تغلب عليه، بما يورده من تراجم أكابر الأدباء والكتاب
والشعراء، ومن منثورهم ومنظومهم، فإنه مع ذلك يتضمن طائفة كبيرة من
الفصول والشذور التاريخية، المنقولة عن ابن حيان وغيره من المؤرخين
المعاصرين، أو المكتوبة بقلم ابن بسام ذاته.

ويصارحنا ابن بسام في مقدمته بالدافع النفسى
الذى دفعه إلى تصنيف " الذخيرة "، وهو أنه رأى انصراف أهل عصره وقطره إلى أدب المشرق والتزود منه والإعجاب به، وإهمال أدب بلدهم، فأراد بوضع الذخيرة، وجميع ما تضمنه، من رائق المنثور والمنظوم، أن يبصر أهل الأندلس
بتفوق أدبائهم، وروعة إنتاجهم، وأن الإحسان ليس مقصوراً على أهل المشرق.
ومن الواضح أيضاً أن ابن بسام أراد أن يعارض بكتابه محاسن أهل الجزيرة أى جزيرة الأندلس، أديب المشرق الكبير أبي منصور الثعالبى صاحب

---

(١) راجع الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ٨٤ و ٨٥ و ١١٣.
(٢) وهو المسمى " جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ".
وقد صدرت منه طبعة جديدة
بالقاهرة في سنة ١٣٧٢ هـ.
(٣) راجع الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٨.
وقد سقطت شنترين في يد ألفونسو
السادس ملك قشتالة في سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) .

(٤٣٩/٢)

" يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر "، فالذخيرة واليتيمة بذلك صنوان يدعو
كل منهما إلى تذوق محاسن قطره.
ونجد إلى جانب ابن بسام كاتباً أديباً ومؤرخاً آخر، هو الفتح بن خاقان
المتوفى سنة ٥٢٩ هـ (١٠٣٤ م) صاحب كتابى " القلائد " و " المطمح ".
وقد أورد
لنا في " القلائد " (١) تاريخ طائفة كبيرة من أمراء الطوائف ووزرائهم من

الكتاب
والشعراء والقضاة، يقدمهم إلينا في أسلوب مسجع، يغلب عليه التكلف، ويتضمن مع ذلك نبذاً وحقائق تاريخية هامة، وكذا في المطمح أو " مطمح الأنفس ومسرح التأنس " فقد تحدث عن طائفة من الأعيان الذين تناولهم فى القلائد، وتحدث عن غيرهم بنفس الأسلوب المسجع.
ونجد أخيراً شاعراً
وكاتباً كبيراً، هو أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، وزير بني الأفطس والراثى لدولتهم، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وهو الذى سبق ذكره، يقدم لنا في رسالته عن " القضاء والحسبة " صوراً هامة عن شئون القضاء والحسبة، وما يتعلق بها من أحوال الناس والمجتمع في عهد الطوائف، تبدو فيها روح النقد
والتشاؤم، وهو ينوه في رسالته بما كان يجرى في إشبيلية، حيث كان يقيم، من ضروب الفساد، ويدعو إلى الكف عن أموركانت تجرى في عهده، منها ألا يدخل النساء المسلمات الكنائس المشفوعة تحوطاً من فسق القساوسة، وألا تقرع
النواقيس في بلاد المسلمين، إذ هى لا تضرب إلا ببلاد النصارى، وألا يبيع النصارى واليهود كتب العلوم الإسلامية لأنهم يترجمونها وينسبونها إلى أعيانهم، وألا يتولى الأطباء اليهود والنصارى علاج المسلمين.
إلى غير ذلك مما سبق أن أشرنا
إليه.
ومما جاء في ختام رسالته قوله: " وبالجملة فإن الناس قد فسدت أديانهم وإنما..
.
الدنيا الفانية والزمان على آخره.
وخلاف هذه الأشياء، هو ابتداء
الهرج، وداعية الفساد، وانقضاء العالم.

ولا يصلح ذلك إلا نبي بإذن الله.

فإن

لم يكن زمن نبى، فالقاضى مسؤول عن ذلك كله، ومن كان في عون المسلمين، كان الله في عونه، فعليه أن يصرح بالحق، ويجرى إلى الإصلاح والعدل

---

(١) هو كتاب " قلائد العقيان " وقد طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٣ هـ.

(٢/٤٤٠)

والتخلص، وينظر لنفسه، فعسى يتخلص، والله بعزته يسدده، ويوفقه للخير..

.

" (١) .

- ٣ -

الخواص الفنية

وكما ازدهرت العلوم والآداب في عصر الطوائف، فكذلك ازدهرت الفنون والصناعات، وكانت قصور الطوائف مثوى للفنون الجميلة، ومظهراً حياً لكل ما تمخض عنه ذلك العصر من زخرف وترف وإناقة، وكانت بالأخص منتديات

زاهرة للموسيقى، وما يتبعها من الغناء.

وكان معظم أمراء الطوائف من عشاق

الموسيقى يتنافسون في اقتناء القينات الحسان البارعات في العزف والغناء، ويبذلون

في ذلك الأموال الطائلة، حتى لقد بذل أحدهم، وهو هذيل بن رزين صاحب شنتمرية الشرق ثلاثة آلاف دينار ثمناً لإحدى هؤلاء القينات، وكان في قصورهم

منهن أسراب وأسراب، ولاسيما في قصور بني عباد بإشبيلية، وبنى ذى النون بطليطلة، وكان المعتضد بن عباد يعشق الموسيقى، ويصحب الموسيقيين معه أثناء

حملاته الحربية.

وكذلك ازدهرت الزراعة بالأندلس في عصر الطوائف.

ونحن نعرف

ما امتاز به أهل الأندلس من البراعة في الفنون الزراعية، وكيف حولوا وديان الأندلس إلى مهاد ورياض نضرة، وكيف اتخذت فنون الزراعة على أيديهم طابعاً علمياً واضحاً.

وقد كان أهل الأندلس في الواقع من أنبغ الشعوب في فلاحة

الأرض وتربية الماشية، وغرس الحدائق.

وتنظيم طرق الرى والصرف، ومعرفة

أحوال الجو، وكل ما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات، وكانت مزارعهم وحدائقهم، مضرب الأمثال في الجودة والتنسيق والنماء.

ويرجع ازدهار الزراعة فى

عصر الطوائف إلى شغف ملوك الطوائف بإنشاء الحدائق والبساتين اليانعة، وتربية

الغراس والزهور النادرة.

وقد ظهر في عصر الطوائف، عدد من علماء النبات

---

(١) نشرت رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة ضمن مجموعة تتضمن ثلاث رسائل فى

الحسبة، نشرت بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال، وصدرت ضمن مطبوعات المعهد الفرنسى للآثار

بالقاهرة.

والزراعة، ولاسيما في طليطلة وإشبيلية، حيث كانت حدائق بني ذى النون في الأولى، وحدائق بني عباد في الثانية، تشغل مساحات واسعة، وتتطلب عناية الخبراء الممتازين.

وكان من علماء النبات والفلاحة البارعين في طليطلة

ابن وافد الطبيب المشهور، وكان يشرف على حدائق بني ذى النون.

وأبو عبد الله بن بصّال العالم الزراعى، الذى عاش في أواخر القرن الحادى عشر

الميلادى.

وقد اشتهر ابن بصّال بتجاربه العلمية الناجحة في توليد الغراس، ومكافحة الآفات الزراعية، وكتابه " الفلاحة " الذى انتهى إلينا، وهو المشتق من دراساته وتجاربه العملية، يشهد ببراعته وتفوقه في هذا الميدان.

ولما سقطت طليطلة في أيدى النصارى، غادر ابن بصّال طليطلة إلى إشبيلية، وعهد إليه هنالك بالإشراف على بساتين بني عباد.

وكان من هؤلاء

العلماء أيضاً أبو عمر أحمد بن محمد بن حجاج، وقد عاش في إشبيلية، وألف كتاباً في الزراعة اسمه " المقنع " لم يصل إلينا.

وأبو عبد الله محمد

ابن مالك الطغنرى، وهو غرناطى عاش في أواخر القرن الحادى عشر، وتتلمذ على ابن بصّال، ووضع كتاباً في الفلاحة سماه " زهر البستان ونزهة الأذهان ".

وكان منهم بقرطبة ابن لونكو الذى عاش في النصف

الثاني من القرن الخامس الهجرى، وكان أيضاً من تلاميذ تلك المدرسة الزراعية

الزاهرة.

وقد توفى في سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤) (١) .
وأما عن الصناعات، فقد كانت كذلك في عصر الطوائف رائجة زاهرة، وكانت تشمل كثيراً من الصناعات الهامة مثل صناعات الحديد والنحاس والزجاج والنسيج.
وكانت صناعة النسيج بالأخص، من أهم وأشهر الصناعات أيام الطوائف، وكان بمدينة ألمرية وحدها، خمسة آلاف منسج، تنتج أفخم وأجمل أنواع الأقمشة.
وكانت السفن من مختلف ثغور المشرق، ومن الثغور الإيطالية، تقصد إلى ألمرية وغيرها من الثغور الأندلسية
محملة بالسلع من كل ضرب، ثم تعود محملة بالسلع الأندلسية.
وكانت دول الطوائف ذات الثغور، مثل إشبيلية وألمرية، وبلنسية ودانية وسرقسطة، تجنى من التجارة الخارجية أرباحاً طائلة.

---

(١) راجع مقدمة كتاب الفلاحة لابن بصّال المنشور بعناية المستشرق الإسبانى Millas Vallicross
الأستاذ محمد عزيمان (تطوان ١٩٥٥) .

(٢/٤٤٢)

والخلاصة أن دول الطوائف تقدم إلينا ذلك المزيج المدهش من الضعف والقوة، ضعف البناء السياسى والعسكرى، وقوة التراث المادى والحضارى، ومن الانحلال الاجتماعى الشامل، والتقدم الفكرى اللامع.
وقد كان أبرز ما في ذلك المزيج المتناقض، ضعف الروح الدينية والوطنية، بصورة لم تعرفها

الأمة الأندلسية في تاريخها من قبل قط، بل ولم تعرفها فيما بعد، حتى في
أسوأ
عصور الفتنة، والتفكك السياسى والعسكرى، التي كان يقابلها من الناحية
الأخرى فترات قوة وتفوق من جانب الممالك الإسبانية النصرانية.
ولكن الأندلس
لم تبد قط في أية فترة من هذه الفترات تجاه اسبانيا النصرانية، مثل ما أبدته
أيام
الطوائف من التخاذل والاستسلام، ومن ضعف العقيدة الدينية والوطنية، ومن
إهدار لمقتضيات الكرامة القومية، فعصر الطوائف وحده هو الذى يقدم
إلينا تلك الخواص المؤلمة، التي تتناقض في مجموعها وفي تفاصيلها، مع
طبيعة
الأمة الأندلسية، ومع ما اتصفت به طوال تاريخها، من الشجاعة والشهامة
والإباء، والتفانى في الذود عن الدين والوطن.
وفى وسعنا أن نلمح في تاريخ الإمارات والجمهوريات الإيطالية في عصر
الإحياء، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كثيراً من آثار تلك الخواص
التي غلبت على عصر الطوائف بالأندلس.
فهنالك الأمراء الطغاة، والحروب
الأهلية الطاحنة، تمزق وحدتها وتفرق كلمتها.
وهنالك استعداء العدو الخارجى
كل منها على الأخرى، ثم التخاذل في الدفاع عن الوطن.
وهنالك الانحلال
الدينى والأخلاقى والاجتماعى الشامل.
ونجد إلى جانب ذلك كله نهضة علمية
وأدبية.
وفنية زاهرة، من أروع ما عرفته إيطاليا في تاريخها، يرعاها الأمراء
الطغاة، ويمدونها بالبذل الوفير.

وهنالك أخيراً تجارة وصناعات رائجة.
ورخاء
شامل، وحياة كلها متعة واستهتار.
ولا ريب أن هذا التماثل في الخواص بين
العصرين، يرجع إلى حد كبير، إلى التماثل بين ما كان يجوزه كل منهما من
الظروف السياسية والاجتماعية.

(٤٤٣/٢)

االوثائق والملحقات

(٤٤٥/٢)

- ١ -
رسالة كتب بها الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله
تميم بن المعز بن باديس بالمهدية.
يصف فيها بلاد الغرب، وجوازه للأندلس
للجهاد بها، وهزيمته للأذفونش أمير النصارى في رجب سنة تسع وسبعين
وأربعمائة.
(منقولة عن المخطوط رقم ٤٤٨ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال (Fol.
R٤٩.
- V٥٣.
) وهو مخطوط
ناقص من أوله ولا عنوان له) .
" الحمد لله الذى من علينا بالإسلام، وفضلنا بمحمد عليه السلام، أحمده
حمداً
يوجب المزيد من آلايه، والسبوغ من سر الله ونعمائه.
كان من قضايه جل شأوه، وتقدمت أسماؤه، لما أراد قمع المردة الطغاة من

زناتة وغيرهم في بلاد المغرب، سبّب لنا إليهم المطلب، فقفونا آثارهم، وأخلينا منهم ديارهم، وكذلك نفعل
بالقوم الظالمين، فقومنا الدّين، ومهدنا بها المسلمين، فصفت لنا ضمائرهم، وخلصت
إلى ألله تعالى نياتهم، وسرايرهم، حتى وصلنا طنجة الركاب، وأذقنا برغواطة سوم العذاب، ففتح الله لنا وبها، وهو خير الفاتحين، وأسرع الحاسبين، لا إله غيره وهو أرحم الراحمين.
ولما بلغنا من استحواذ النصارى، دمرهم الله، على بلاد الأندلس ومعاقلها، وإلزام الجزية لرؤسائهم، واستيصال أقالمها، وإيطايهم البلاد داراً داراً، لا يتخوفون عسكراً يخرج إليهم، فيبدد جمعهم، ويفل حدهم، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان، ويأسرون النساء
والصبيان.
فخوطبا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز، المرة بعد
المرة، وألوتنا الأعذار إلى وقت الأقدار، ولم نجد للجواز باباً، ولا لدخول البحر أسباباً، فانضم لنا منهم الريس الأجل المعتمد على الله، المولاّ بنصر الله، أحسن الله في كل الأمور عونه، وأقر بكل صالحة عينه، فعزمنا على الغزو، وجوزنا للعدو أسوداً ضارية، وسباعاً عادية، شيباً وشباناً، بسواعد قوية، وقلوب في سبيل الله نقية، قد عرفوا الحرب وجربوها، فهى المهم وهم بنوها، يتلمظون تلمظ الفهود، ويزءرون إليها زءر الأسود، فشحنا بهم القوارب،

(٤٤٦/٢)

وأوسعناهم على ظهور المراكب، فخرجنا في مرسى الجزيرة الخضراء من دياره، وفقه الله، ففزع الناس من كل أفق إليهم، ووفدوا من كل قطر إليهم، متعجبين من هيأتهم، محتقرين لزيهم ونغماتهم، لا يروعهم منهم حاشى الخيل والدرق، وهم مع ذلك لا ينالون إلا بعد جف الريق ومسح العرق، وقدروا أنهم طعم للسيوف، وغرض للحتوف، وسعد للأرماح، ونهب للسلاح، فكل

استصغرهم، والجميع منهم احتقرهم، وتبلغ إلينا أخبارهم وأقوالهم، وتنتهى إلينا أفعالهم، ثم اتبعناهم جيشاً بعد جيش، بخيول كالفحول، عليها الكهول، وعدد من كل أمرد، على أجرد، يتسابقون إلى اللقاء في الفضاء، تسابق الحين
والقضاء.
ومع هذا كله إن أهل الأندلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا، وإزاحة غمتهم بسببنا، وعساكرنا تتزيد، وجوازنا يتأكد، وكان آخر من
جاز منا ومعنا، قطعة من صنهاجة بني عمى، فعسر البحر حينئذ للجواز، واضطربت في الأمواج، فاستصرخنا البارى تعالى جده، وعظم اسمه، إن، كان في جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهل علينا، فما استكملت من كلامى، حتى
سهل الله المركب، وقرب المطلب.
فخرجنا من الحين في مرسى الجزيرة
الخضراء المذكورة، والتأم شعبتنا مع من جاز من عسكرنا، فعملنا على السير، وكان قد تقدم إلينا بالعدوة من قبل الأدفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها
بالجواز إلينا إذا عجزنا عنه، وفرقنا منه، نعطوه المراكب، ونسلموا إليه الشوانى والقوارب، ليرد علينا ويقاتلنا في مأمننا، فلم نلتفت إليه، ولاعرجنا عليه.
ووصلنا أيدينا بالريس الأجل المعتمد على الله المؤيد بنصر الله، واستوثقنا منه غاية الاستيثاق، وبنينا معه على اللحاق بهم، والورود عليهم، ونحن في ذلك
كله لما نقل إلينا، وورد علينا من رؤساء الأندلس، مستبطئين سريرة المخبتِين، لابسين قسوة الصالحين، وقلوبنا شتى، حتى لحقنا إشبيلية حضرته، عمرت ببقايه، وقد تجمع له من جنوده أعداد، ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله أجناد، فصرنا إلى مدينة بطليوس، وأقمنا بها أياماً منتظرين لوفد الرؤساء من

جميع أقطار
الأندلس، فأخبرنا وصح عندنا أن كل واحد منهم مشتغل مع قطعة كثيرة من النصارى، قد تغلبوهم على حصونهم، وأذلوهم في بلادهم، وأضعفوهم، وشجعوهم على مر ادهم، فحمدنا الله تعالى، ودعونا بتيسير المراد، واستنقاذ

(٤٤٧/٢)

العباد.
فجمعنا عساكرنا وسرنا إليه، وصرنا إلى قفل قورية من بلاد المسلمين صرفها الله، فسمع بنا، وقصدنا قصدنا، وورد ورودنا، واحتل بفنائها منتظراً لنا، فبعثنا إليه نحضه على الإسلام، ودخوله في ملة محمد عليه السلام، أو ضرب الجزية عليه وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه، كما أمرنا الله تعالى، وبين لنا في كتابه، من إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون، فأبا وتمرد، وكفر
ونخر، وعمل على الإقبال علينا، وحث في الورود علينا، فلحقنا وبيننا وبينه فراسخ، فلما كان بعد ذلك، برزنا عليه أياماً، فلم يجبنا، فبقينا وبقوا، ونحن نخرج الطلايع إليه، ونتابع الوثوب عليه، وبنينا على لقايه يوم الخميس لإحدى
عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة.
فلما كان يوم الجمعة ثانية، ورد علينا بكتايب قد ملأت الآفاق، وتقلبت تقلب الحتوف للأحداق، قد استلموا
الدروع للكفاح، وربطوا في سوقهم الألواح، وبطونهم ملأ من الخمور، يقدرون أن الدائرة علينا تدور، ونحن في أخبيتنا صبيحة اليوم المذكور، كل منا ساه وجميعنا
لاه، فقصد أشدهم شوكة، وأصلبهم عوداً، وأنجدهم عديداً، محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله، وفقه الله، عماد رؤساء الأندلس وقطبهم، لا يقدرون

عسكراً إلا عسكره، ولا رجال إلا رجاله، ولا عديداً إلا عديده، وداود من
أصحابنا منا إلى إزايه، فهبطوا إليه لفيفاً واحداً، كهبوط السيل، بسوابق
الخيل، فلما كان معه من جنده ومن جميع الطبقات، الذين كانوا يدخرون
من قبله الأموال والضياع، استكت آذانهم، واضطربت أضلاعهم، ودهشت
أيديهم، وزلزلت أقدامهم، وطارت قلوبهم، وصاروا كركب الحمير، فرّوا يطلبون
معقلا يعصمهم، ولا عاصم إلا الله، ولا هارباً منه إلا إليه، فلحقوا من
بطليوس بالكرامات، لما عاينوا من الأمور المعضلات، وأسلموه
أيده الله، وحده في طرف الأخبية، مع عدد كثير من الرجالة والرماة، قد
استسلموا
للقضاء، فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرايس، يعظمون الكنايس، فحبسهم
حيناً وحده مع من إليه ممن ذكرناه، وبسطوا منهم الأرض، ولم يبق من الكل
إلا البعض، ولجأ في الأخبية، بعد أن عاين المنة، وتخلصه الله بنيته في
المسلمين
وبلغه أمنيته، بعد أن وقف وقفة بطل مثله، لا أحد يرد عليه، ولا فارس
من فرسانه وعبيده يرجع إليه، لايروعه أحد منهم فيهزم، ولا يهابهم فيسأم،

(٤٤٨/٢)

ثم قصدت كتيبته سوداً كالجبل العظيم أو الليل البهيم، عسكر داود وأخبيته،
فجالوا
فيها جولاناً، وقتلوا من الخلق ألواناً، واستشهد الكل بحمد الله وصاروا إلى
رضوان الله، ونحن في ذلك كله غافلون، حتى ورد علينا وارد، وقصد إلينا
قاصد، فخرجنا من وراء الشعب، كقطع اللهب، بجميع من معنا، على الخيل
المسومة العراب، يتسابقن الطعن والضراب، فلما رأونا، ووقعت أعينهم
علينا، ظنوا أن الدائرة فينا ولدينا، وأنا طعم أسيافهم ولقاء رماحهم، فكبرنا
وكبر الكل معنا، مبتهلين لله وحده لا شريك له، ونهضنا للمنون الذى لا بد
منه

ولا محيص لأحد عنه، وقلنا هذا آخر يومنا من الدنيا، فلنموتوا شهداء، فحملوا
علينا كالسهام، فثبت الله أقدامنا، وقوى أفئدتنا، والملائكة معنا، والله تعالى ولى النصر لنا، فولوا هاربين، وفروا ذاهبين، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ولا ضربة تثخنه، وأضعف الرعب أيديهم، فطعناهم بالسمهرية دون الوخز بالإبر، وضاقت بهم الأرض بما رحبت، حتى أن هاربهم لا يرى غير شيء إلا ظنه رجلا،.
فتكت فيهم السيوف، على رغم الأنوف، فو الله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها، وعلى البيضات فتبريها، وزرقوا
الرجالة منا على خيلهم الرماح، فشكوهم بها فرمحت بهم، فما كنت ترى منهم فارساً
إلا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار، الكل يجر عنانه، كأنه معقل بعقاله، ونحن راكبون على الجواد الميمون، العربى المصون، السابق اللاحق، المعد للحقائق، وما منا إلا من له جرناز فيه سيفان، وبيدنا الثالث، عسى أن يحدث من حادث، فصاروا في الأرض مجدلين، موتى معفرين، وقد تراجع ْالناس بعد الفرار، وأمنوا من العثار، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم، يقطعون رؤوسهم، وينقلون بإزاء المحلات، حتى علت كالجبال الراسيات، عدد لا يقدر، ومدد لا يحزر، والتجريد فيهم، والأيدى متعاودة لبطونهم، واشتأصلنا أكابرهم، وحللنا دون أماطيهم وأمانيهم، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.
ْوانقطع من عسكرهم نحو ألفى رجل أو أقل، والأذفونش فيهم على ما أخبرنا، قد أثخنوا جراحاً بإزاء محلاتهم، يرتادون الظلام للهروب في المقام، والله لقد
كان الفرسان والرجالة يدخلون محلتهم، ويعثرون في أخبيتهم، وينتهبون أزودتهم
وهم ينظرون شزراً نظر التيوس إلى شفار الجازرين، إلى أن جن الليل وأرخى

*(٤٤٩/٢)*

سدوله، ولوا هاربين، وأسلموا رحايلهم صاغرين، فكم من دِلاص على البقاع ساقطة، وخيول على البقاع رابضة، ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراس أو أزيد.

وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك.

وأما الثياب والمتاع فناهيك، والأسرة بأوطية الحرير، والثياب والأوبار عدد ليلهم، ولا يكلون في الانتقال، ولا يسئمون من شريط الأموال، ولحقوا قورية ومنها حيث ألقت رحلها

أم قشعم، فصححنا ضمائرنا، وأخلصنا للمعتمد على الله نياتنا وسرايرنا، ورجعنا

بحمد الله غانمين منصورين، لم يستشهد منا إلا الفرقة التي قدر الله عليها بذلك، وقدرنا أن الكل منهم هلك لقلة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى، وتراميهم

للشهادة، قدس الله أرواحهم، وكرم مثواهم وضريحهم، وجعل الجنة ميعاداً بيننا وبينهم، وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلا ممن شهدت نجدته في المغرب، وانقلبت خير منقلب.

ولحقنا إشبيلية حضرته عمرت ببقايه، وأقمنا عنده أياماً، ورفعنا عنه مودعين لا تودع قاطع، ولا يمنعنا منه متى أحب مانع، ولحقنا الجزيرة

الخضراء، ونحن نريد أشياء أسأل الله تمامها وإنجازها، وأن يسهل المراد ويوفقنا

للسداد، ومتى تنفس منهم متنفس، وأرجح إلى أحدهم نفس، يذكرون ما لقوا، ويتذاكرون ما بقوا، وسنستدرجهم من حيث لا يعلمون، ولا وأملى لهم إن كيدى متين، حتى لا يبقى على أديم الأرض منهم حى، ولا يحس منهم أنسى.

والحمد لله رب العالمين على ما قضى وخول وأعطى، وهذا كله منّاً منه

علينا لا منّاً عليه، وصلى الله على محمد خاتم النبيين، وقائد الغر المحجلين إلى جنات الله النعيم، وآله الطيبين، وسلم تسليما، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ".

(٤٥٠/٢)

- ٢ -

بعض " فصول " الكتاب الذى بعث به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى بلاد العدوة عقب موقعة الزلاّقة.

(منقولة عن كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس - طبعة بسالة ص ٩٦ - ٩٨).

" أما بعد حمد الله، المتكفل بنصر أهل دينه الذى ارتضاه، والصلاة على سيدنا محمد أفضل رسله، وأكرم خلقه وأسره، فإن العدو الطاغية، لعنه الله، لما قربنا من حماه، وتوافقنا بإزائه، بلغناه الدعوة، وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب، فاختار الحرب، فوقع الاتفاق بيننا وبينه، على الملاقات في يوم الاثنين الخامس عشر لرجب، وقال الجمعة عيد المسلمين، والسبت عيد اليهود، وفي عسكرنا منهم خلق كثير، والأحد عيدنا نحن، فافترقنا على ذلك وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه، وعلمنا أنهم أهل خدع، ونقض عهود، فأخذنا أهبة الحرب لهم، وجعلنا عليهم العيون، ليرفعوا إلينا أحوالهم، فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة الثاني عشر من رجب المذكور أن العدو قد قصد

بجيوشه نحو المسلمين، يرا أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين، فنبذت إليه أبطال

المسلمين، وفرسان المجاهدين، فتغشته قبل أن يتغشاها، وتعدته قبل أن يتعداها، وانقضت جيوش المسلمين في جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت

عليهم وثوب الأسد على فريسته، وقصدنا برايتنا السعيدة المنصورة في سائر

المشهدة المنتشرة، ونظروا إلى جيوش لمتونة نحو ألفنش، فلما أبصر النصارى
رايتنا المشتهدة المنتشرة، ونظروا إلى مواكبنا المنتظمة المظفرة، وأغشتهم بروق
الصفاح، وأضلتهم سحائب الرماح، ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح، فالتحم النصارى بطاغيتهم ألفنش، وحملوا على المسلمين حملة منكرة، فتلقاهم المرابطون بنيات خالصة، وهمم عالية، فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح بالطعن والضرب.
وطاحت المهج، وأقبل سيل الدماء
في هرج، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج، وولى ألفنش مطعوناً في إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه في خمس مائة فارس من ثمانين

(٤٥١/٢)

ألف فارس ومائتى ألف راجل، قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل، وتخلص لعنه الله إلى جبل هنالك، ونظروا النهب والنيران في محلته من كل جانب، وهو من أعلى الجبل ينظرها شزراً، ويحيد عنها صبراً، ولايستطيع عنها دفعاً، ولا لها نصراً، فأخذ يدعو بالثبور والويل، ويرجو النجاة في ظلام الليل، وأمير المسلمين بحمد الله قد ثبت في وسط مواكبه المظفرة، تحت ظلال بنوده
المنتشرة، منصور الجهاد، مرفوع الأعداد، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد، فقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها، وتصطلم ذخائرها وأسبابها، وتريه رأى العين دمارها ونهبها، وألفنش ينظر إليها نظر المغشى عليه، ويعض غيظاً وأسفاً على أنامل كفيه، فتتابعت البهرجة الفرار رؤساء الأندلس المنهزمين نحو بطليوس والغار، فتراجعوا حذاراً من العار، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد، أبو القاسم المعتمد بن عباد، فأتى

إلى
أمير المؤمنين، وهو مهيض الجناح، مريض عنة وجراح، فهنأه بالفتح
الجليل، والصنع الجميل، وتسلل ألفنش تحت الظلام فاراً لا يهدى ولا ينام،
ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربع مائة فلم يدخل
طليطلة
إلا في مائة فارس، والحمد لله على ذلك كثيراً.
وكانت هذه النعمة العظيمة، والمنة الجسيمة، يوم الجمعة الثاني عشر لرجب
سنة تسع وسبعين وأربع مائة، موافق الثالث والعشرين لشهر أكتوبر العجمى
."

(٤٥٢/٢)

- ٣ -
رسالة لابن (إسحق) عن المقتدر بالله إلى ابن عباد يعرفه بأمر أخيه صاحب
لاردة.
(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال Fot.
(V - 119R١١٨
" سيدى، وأعلى عددى، وأقوى عمدى، وأزكى ذخرى لأبدى، ونعمة الله
المستطيلة بيدى، المناهضة بعضدى، ومن أطال الله بقاه في عز رفيع
المراتب، وحرز منيع الجوانب، إذ أحكام الفتن، وحوادث الزمن، لا تزال
تحل على كل ما لا يقع بإيثار، ولا يجرى على حكم واختيار، فرب كريهة
لا يلقى المرء عن اقتحامها معدلا، ومساءة لا يزال عن التزامها مرحلا،
وقديماً
جَدّ الجفاء العقوق، وأبطل التجنى الحقوق، وقد يخرج الحليم، ويتغيس الحميم،
وتقطع الرحم، وتنبذ الذمم، لاسيما عن مجاذبة ما يمنع الحسد، باتراً أواصر
الإخاء والإجمال، وتحاسد القرابة داء قديم، وخلق في الناس معلوم، وإنى
أيدك الله، بليت من المظفر أخى بظالم لا يؤمل منه إنصاف، ومتحمل لا

تستنزله

ألطاف، وحاسد لا يرجى استرضاؤه، وموجب لنفسه حقاً لا يوجب مضاؤه، إذا سألته نصفة أبدا منه أنفه، وإن سمته عدلا مال إلى الجور ميلا، وإن خفضت له جناح الذل، أوطأنى جهر الجفا، وإن أقبلت عليه بناظر الود، أول من صفحة

الإبداء، وإن استدنيته شحط، وإن استرضيته سخط، وإن حكمته تشطط، وإن أغضيت له تسلط، وأنا في أثناء ذلك كله أحاوله على أخلاقه، وألبسه على أخلاقه، وأستمع منه بغير مستمع، وأرفع منه بغير مرفع، وعقارب مضرته تدب، وعواصف معرته تهب، وأذاه قاصد إلى في خاصتى، ومفسد على بطانتى، لا يألو في مساءتى سعياه اجتهاداً، ولا آلو إلى مسرته تأنياً وانقياداً، آخذاً بالحجة عليه، وتقدماً بالجميل إليه، وطمعت أن تكون نظرة تريه مواقع ظلمه، وتعرفه جور حكمه، ولا يزداد إلا اغتراراً، ولا يبدى إلا استكباراً إلى أن سولت له نفسه أموراً كان فيها اضطلاع الإسلام، وحاول أحوالا تمامها هادية..

.

ورام معاجلتى بالتي ليحس فيها استبقاء، ولا بعدها بقاء، وسألنى مع هذا الاجتماع بى ليسوسنى..

.

الإذعان إلى مطالبه، والموافقة في مذاهبه، فأجبته

(٤٥٣/٢)

رجاء أن تكون المشافهة تستلبه، والملاطفة تلينه وتغريه فأبى إلا..

..

.

وانبساطاً.

فلما رأيته عن سوء معتقده غير..

..

.

وعن فساد رأيه غير راجع، وغرنى

جماحه، وأعوزنى استصلاحه، ونقلنى عن سجيتى بكره، وكدر صفوى من كل وجه، راجحت في أمره بين أن أرضى الله عز وجل في قطيعته بالنظر لعباده، والحماية لبلاده، فما أطمع..

..

..

..

وطأ نواحيها، وأمنع ممن رامه، وأدفع عنه من أراد اهتضامه، وأن أبتهل..

..

برحم عن نفسى، فرفع الله

عن ذلك منزلتها، وبسط عليه مقدرتها، فرأيت النظر في قطع مضرته أولى، والسعى في حسم علته ومعرته أحمى، فأنفذت ذلك بعد استخارة الله تعالى فيه، وألزمته البقاء بقصبة منتشون، وللنفس يعلم الله مما حملنى عليه

ارتماض وشفاق، ولما يؤثره الرحم من ذلك إزعاج وإقلاق، إلا أنه لم يوجد إلى غير ذلك سبيلا، ولا جعلنى إلى سواه مخيلا، وكان فيما يأتيه أعق، وبما جره القدر إليه بحكم

اعتقاده أحق، وقد يستسهل المرء المكاره ما لم يجد عنها مذهباً، ويركب حد السيف إذا لم يجد سواه مركباً، والله يشهد لقد طوى جوانحى مما ساقنى إليه على

لواعج مزعجة، وخرق منضجة، وكتابى هذا من لاردة، وقد استقرت

بحمد الله على الدعة أسباب قريرها، واتصل بجميل عونه تدبيرها، وتقضى أبقاك الله وكيد ما بيننا مقاسمتك الحال، وتعرفك المبدى منها والمآل، فإنك الشريك في الحلو والمر، والقيم في النفع والضر، وفي خلال هذا أعزك الله ما وردنى ابن فلان خاصتك سلمه الله بكتابك الكريم، المشتمل على أحفل

البر، والمقتضى لأجزل الشكر، ووقف به من حقائق الأحوال لديك على كل ما بسط

أملى، وأكد جدلى، وعظمت نعم الله..

..

..

وقد صدر أبقاه الله متحملا من

صحة ودى، وثبات عهدى، وارتباط عقدى،..

..

الأحوال عندى ما يطلعك

من ذلك كله على الجملة الكافية والجلية الشافية ".

*(٤٥٤/٢)*

- ٤ -

رسالة خاطب بها أبو عامر بن غرسية

أبا عبد الله بن الحداد يعاتبه فيها ويفضل العجم على العرب

وكتب بها من لاره

(منقولة عن مخطوط الإسكوريال رقم ٥٣٨ الغزيرى لوحة ٢٦ - ٢٩)

سلام عليك ذا االروى المروى الموقوف قريضه على حللة بجانة، أرش اليمن، بزهيد الثمن، كأن ما في الأرض إنسان الا من غسّان، أو من آل ذى حسان.

وإن كان القوم أقنوك، وعن العالم أغنوك، على حسب المذكور، فلما هذا الإعمال للكور، وترك الوكور.

وقل ما تأخذ الشعرة فى

الرحيل إلا عن الربع المحيل، ولو أن القوم خلطوك بالآل، لما أحوجك إلى الخبط في الآل.

مه مه، من أحوجك إلى ركوب المهمة وثقف، وودك

لا نقف، على من اضطرك إلى الايغال، وباعك بيع المسامح بك لا المغال، وعوضك من الأندية، يجوب الأودية، ومن المآلف بقطع المتالف، وحملك على مخالفة الحَصان، ومحالفة الحِصان، ووكلك بمسح الأرض، ذات الطول والعرض، فإذا يممت تبالة، تتباله، وصرت ضغثاً على إبالة، تتعلل ة باليمين، ضنا بالعلق الثمين.

أأحسبك أزريت، وبهذا الجيل البجيل ازدريت، وما دريت، أنهم الصهب الشهب، ليسوا بعرب، ذوى أينق جرب، أساورة أكاسرة، مُجد نُجد بُهم، لا رعاة شويهات ولا بهم، شغلوا بالماذى

والمرّان عن رعى البعران، وبجلب العز، عن حلب المعز، جبابرة قياصرة، ذوو المغافر والدروع، للتنفيس عن روع المروع، حماة السروح، نماة الصروح، صقورة، غلبت عليهم شقورة، وشقورة الخرصان، لكنهم خَطَبة بالخرصان.

ما ضرهم أن شهدوا مجادا..

.

أو كافحوا يوم الوغى الأنداد.

..

..

..

..

..

..

..

أن لا يكون لونهم سوادا

أرومة رومية، وجرثومة أصفرية.

نمتهم ذوو الأحساب والمجد والعلى..

.

من الصهب لا راعو غضاً وأفان

من القوم الملس الأدم، لم تُعرق فيهم الأقباط، ولا الأنباط، حسب حرىّ، ونسب سرىّ، أمكم لأمنا كانت أمة، إن تنكروا ذلك تلفوا ظلمة، ولا تهايل، في التكايل، فما سسنا قط قرودا، ولا حكنا برودا، ولا لكنا عرودا، فلا تَهاجر، بني هاجَر، أنتم أرقاؤنا وعبدتنا، وعتقاؤنا وحفدتنا، منَنَّا عليكم بالعتق، وأخرجناكم من ربق الرق، وألحقناكم بالأحرار، فغمطتم النعمة، فصفعناكم صفعا، يشارك سفعا، اضطركم إلى سكنى الحجاز، وألجأكم إلى ذات المجاز، رُزُن، رُصُن.

جمال ذى الأرض كانوا في الحياة وهم..

.

بعد الممات جَمال الكُتْب والسير

ْإذا قامت الحرب على ساق، وأخذت في اتساق، وقرعت الظنابيب، وأشرعت الأنابيب، وقلصت الشفاه، وفغر الهدان فاه، وولى قفاه، ألفيتهم ذمرة النماس، عند احمرار الباس، الطعن بالأسل، أحلى عندهم

من العسل.

مستسلمين إلى الحتوف كأنما..

.

بين الحتوف وبينهم أرحام

من أمنياتهم، حلول منياتهم، لهم على القدمة اليدان، على التنائى والتدان.

من الألى غير زجر الخيل ما عرفوا..

.

إذ تعرف العُرب زجر الشَّاء والعكر

بُصُرٌ صُبر، تزدان بهم المحافل والجحافل، قيول على خيول، كأنها
فيول، كواكب المواكب، نجوم الرجوم، من العجم، ضراغمة الأجم، بنو غاب،
منتفون من كل عاب، لم تلدهم صواحب الرايات، بل تبجحت
عليهم سارة الجمال، ربة الآيات، شُمخ، بُذخ، بررة أقيال، جررة
أذيال.

بخ بخ، أحلتهم سيوفهم سِطة الأرضين، فما قنعوا بذلك ولا رضين، حتى
دوخوا المشارق والمغارب، واستوطنوا من المجد الذروة والغارب.

بضرب يزيل الهام عن سكناته وطعن كتشهاق العفا هَمَّ بالنهق

شرهوا برنات السيوف، لا بربات الشنوف، وبركوب السروج، عن

(٤٥٦/٢)

الكلب والفرُّوج، وبالنفير عن النقير، وبالجنائب عن الحبائب، وبالخب عن
الحب، وبالسليل عن الشليل، وبالأمر والذمر، عن معاقرة الخمر والزمر،
وباللقيان عن العقيان، وعن قنيان القيان، طِياتهم خطياتهم، وغلاتهم، آلاتهم
وحصونهم، حصنهم أقيال، آباؤهم من بين الأنام أقتال، أولئك قومى إن بنوا
شيّدوا البنى..

.

وإن حاربوا جدّوا وان عقدوا سدّوا

وُضُحٌ رُجح، لا حفزة عكر، ولا قفزة أكر، ملوك جلة، لا محرِقوا جلة، ندس،
غنوا بالإستبرق والسندس.

عن البيت المقيظ

المشتى، المجموع من النعيجات الست.

بسل لا حراس مسل، ولا غراس

فسل، مُلَّك لقاح، ليس منهم في ورد ولا صدر شرّاب دَرِّ اللقاح، بل
شرابهم النبيذ، وطعامهم الحنيذ، لا زهيد الهبيد في البيد، ولا مكون الوكون،
ولا منهم من احتشا، بمذموم الكُشا، ولا في سائر الاحفاش، من وليد

وناش، من اغتذى بالأحناش.
فلا يقعقع لهم بالشِّنان، ولا يوعوع لهم
بالشنآن، فكف أيها الشان، فلهم عظيم الشان.
واليد الطولى إذ تخلصوكم
من أكف الحبشان، صنيع منيع.
ومنة لايشوبها منة، فيالها منحة، لكنها أعقبت محنة، إذ صادفت كفرة،
لاشكرة، إيهاً إذ تأبطتم تيهاً، معشر البداة العداة.
اعتقدتم غِلاًّ، فاستثرتم صلا.
أما علمتم ان الدولة
النوشروانية، والمملكة الأزدشيرية، بقروا أجوافكم، وخلعوا أكتافكم، ثم عطفوا
ورأفوا، وملكوكم الحيرة بعد عظيم الحيرة، قللا ذللا.
تتخيرون البنات عند
البيات مبهورات لا ممهورات.
فبرم من ذلك غسّانكم ونُعمانكم، وكان برمه سببا
لدرء أمانكم، فأصبح بعد جر الذيول، مدوساً بأخفاف الفيول؛ والكرام
بنو الأصفر، الأطهر الأظهر.
عطفتهم عليكم الرحم الإبراهيمية، والعمومة
الإسماعيلية.
فسمحوا لكم من الشام بأقصى مكان، بعد ما كان، من سيل
العرم ما كان، يؤدى نعمانكم وغسانكم لقروم الأعاجم، الإتاوة على الجماجم.
هذى المكارم لا قعبان من لبن..
.
شيبا بماء فعادا به بعد أبوالا
مهلا بني الأماء، عن الغمز والإيماء، فنحن عُرق غُرق، فى الأنساب
الصميمة، والأحساب العميمة، فمن يهولنا أو يروعنا،

وقد رسخت في المجد أصولنا وفروعنا، ومن يطولنا، وكل الورى قد
شمله فضلنا وطولنا:
شرفٌ ينطح النجوم بروقيه..

.

وعزٌّ يقلقل الأجيالا
حُلُم، عُلُم، ذوو الآراء الفلسفية الأرضية، والعلوم المنطقية الرياضية، كحملة
الاسترلوميقى.
والموسيقى، والعَلَمة، بالارتماطيقى، والجومطريقى، والقومة بالألوطيقى
والبوطيقى، ما شئت من تدقيق، وتحقيق، حبسوا
أنفسهم على العلوم البدنية والدينية، لا على وصف الناقة الفدنيّة، فعلمهم
ليس بالسفساف، كفعل نائله وإساف.
أصغر بشأنكم، إذ بزق خمر، باع الكعبة أبو غبشانكم، وإذ أبو رغالكم قاد
فيل الحبشة إلى حرم الله
لاستيصالكم.
أزيدك أم كفاك وذاك أنى..

.

رأيتك في انتحالك كنتَ أحمق
فلا فخر معشر العربان الغربان، بالفديم، المفرِّى للأديم، لاكن الفخر
يابن عمنا، الذى بالبركة عمّنا، الإبراهيمى النسب، الإسماعيلى الحسب، الذى
انتشلنا الله تعالى به وإياكم من العماية والغواية، أما نحن فمن أهل
التثليث وعبادة الصلبان، وأنتم من أهل الدين المليث وعبادة الأوثان، ولاغرو
أن كان منكم حبره وسبره، ففى الرغام يلقى تبره، والمسك
بعض دم الغزال.
لله مما قد برا صفوة..

.

وصفوة الخلق بنو هاشم

وصفوة الصفوة من بينهم..

.

محمد النور أبو القاسم

بهذا النبى الأمى أفاخر من تفخّر، وأكابر من تقدم وتأخر، الشريف السلفين، والكريم الطرفين، الملتقى بالرسالة، والمنتقى للأداء والدلاّلة، أصلى عليه عدد الرمل، ومدد النمل، وكذلك أصلى على واصلى جناحه، سيوفه ورماحه، أصحابه الكرام، عليهم من الله أفضل السلام.

يابن الأعارب ما علينا باس..

.

لم أحك إلا ما حكاه الناس

هذا:

ولم أشتم لكم عرضا ولاكن..

.

حَدوَت بحيث يُستمع الحداء

*(٤٥٨/٢)*

ثم أجح بشاعر غسّان، لا ساسان في هذا العيد بالوعيد، وأحر فى في هذا الفصل بعدم الوصل.

لقد غَم آخرك، لكن بالرغم أخرك

إذ أضربت عن مديح، علقنا الربيح، معز الدولة، شهمنا الرئيس وسهمنا النفيس

قَيل الأمم، وسيل الأمم، معنى المعانى، ومغنى المغانى، ذى الرياسة الساسانية، والنفاسة النفسانية، فاذهب يا غثّ المذهب، وابتغ في الأرض نفقا، أو في السماء مرتقى، فهده أليّة، جلبت عليك بليّة، أو حُك

من البسيط المديد، ما تستجير به من بطشنا الشديد، إذ نحن معشر الموالى، لا نوالى، إلا من هو لعظيمتنا موالى، وحذار حذار ان تقرع سن الندم، ولات حين مندم، قبل أن تجمع ذنوبك على ذنوبك، وكُربك في كَرَبك، فمن أبصر أقصر، وما حرّف، من صديقه خوّف.

فلا تتبشع ممضَّ العتا..

.

ب يلقاك يوما بلقياه لاق

فإن الدواء حميد الفعال..

.

وإن كان مُرًّا كريه المذاق

يا معتقل علم الشعر، والمستقل بقلم النظم والشعر:

قد استحييت منك فلا تكلنى..

.

إلى شىء سوى عذر جميل

وقد أنفذت ما حقى عليه..

.

قبيح الهجو أو شتم الرسول

وذاك على انفرادك قوت يوم..

.

إذا أنفقت إنفاق البخيل

وكيف وأنت علوىّ السجايا..

.

وليس إلى اقتصادك من سبيل

وقد يقوى الفصيح فلا تقابل..

.

ضعيف البر إلا بالقبول

وإن الوزن وهو أصح وزن..

.

يقام صَغَاه بالحرف العليل

فإن يك ما بعثت به قليلا..

.

فلى حال أقل من القليل

نجزته من كلام المعرى

والسلام عليك ما سبح الفَلَك وسبّح المَلَك، ورحمة الله وبركاته.

(٤٥٩/٢)

دول الطوائف

جدول تاريخى مفصل

دولة بني جهور في قرطبة

أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ٤٢٢ - ٤٣٥ هـ: ١٠٣١ - ١٠٤٤ م

أبو الوليد محمد جهور ٤٣٥ - ٤٥٧ هـ: ١٠٤٤ - ١٠٦٤ م

عبد الملك بن محمد بن جهور ٤٥٧ - ٤٦٣ هـ: ١٠٦٤ - ١٠٧٠ م.

..

..

..

..

..

..

.

المعتمد بن عباد يستولى على قرطبة سنة ٤٦٣ هـ

دولة بني عباد في إشبيلية

القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ٤١٤ - ٤٣٣ هـ: ١٠٢٣ - ١٠٤٢ م

عباد بن محمد المعتضد ٤٣٣ – ٤٦١ هـ: ١٠٤٢ – ١٠٦٩ م

محمد بن عباد المعتمد ٤٦١ – ٤٨٤ هـ: ١٠٦٩ – ١٠٩١ م.

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

إشبيلية تسقط في أيدى المرابطين

دولة بني الأفطس في بطليوس

عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور ٤١٣ – ٤٣٧ هـ: ١٠٢٢ – ١٠٤٥ م

محمد بن عبد الله المظفر ٤٣٧ – ٤٦١ هـ: ١٠٤٥ – ١٠٦٨ م

يحيى بن محمد المنصور ٤٦١ – ٤٦٤ هـ: ١٠٦٨ – ١٠٧٢ م

عمر بن محمد المتوكل ٤٦٤ – ٤٨٨ هـ: ١٠٧٢ – ١٠٩٤ م.

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

بطليوس تسقط في أيدى المرابطين

دولة بني يحيى في لبلة

أبو العباس أحمد بن يحيى ٤١٤ – ٤٣٤ هـ: ١٠٢٣ – ١٠٤٢ م

محمد بن يحيى عز الدولة ٤٣٤ – ٤٤٣ هـ: ١٠٤٢ – ١٠٥١ م

فتح بن خلف ناصر الدولة ٤٤٣ – ٤٤٥ هـ: ١٠٥١ – ١٠٥٣ م.

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

.

لبة تسقط في يد المعتضد بن عباد

دولة بني مُزين في باجة وشلب

الحاجب عيسى محمد..

.

– ٤٣٢ هـ:..

.

- ١٠٤١ م

محمد بن عيسى عميد الدولة ٤٣٢ - ٤٤٠ هـ: ١٠٤١ - ١٠٤٨ م

*(٤٦٠/٢)*

عيسى بن مُزين المظفر ٤٤٠ - ٤٤٥ هـ: ١٠٤٨ - ١٠٥٣ م

محمد بن عيسى الناصر ٤٤٥ - ٤٥٠ هـ: ١٠٥٣ - ١٠٥٨ م

عيسى بن محمد المظفر ٤٥٠ - ٤٥٥ هـ: ١٠٥٨ - ١٠٦٣ م.

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

شلب تسقط في يد المعتضد بن عباد

دولة بني البكرى في ولبه وجزيرة شلطيش

عبد العزيز البكرى عز الدولة ٤٠٣ - ٤٤٣ هـ: ١٠١٢ - ١٠٥١ م.

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

.

ولبة وشلطيش تسقطان في يد المعتضد

دولة بني هارون في شنتمرية الغرب

سعيد بن هارون ٤١٧ – ٤٣٣ هـ: ١٠٢٦ – ١٠٤١ م

محمد بن سعيد المعتصم ٤٣٣ – ٤٤٣ هـ: ١٠٤١ – ١٠٥١ م.

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

.

شنتمرية الغرب تسقط في يد المعتضد

دولة بني ذى النون في طليطلة

إسماعيل بن ذى النون الظافر ٤٢٧ – ٤٣٥ هـ: ١٠٣٦ – ١٠٤٣ م

يحيى بن إسماعيل المأمون ٤٣٥ – ٤٦٧ هـ: ١٠٤٣ – ١٠٧٥ م

يحيى بن إسماعيل بن يحيى القادر ٤٦٧ – ٤٧٨ هـ: ١٠٧٥ – ١٠٨٥ م.

..

..

..

..

..

..

..

..

..

طليطلة تسقط في يد ألفونسو السادس

دولة بني مناد في غرناطة

زاوى بن زيرى ٤٠٣ – ٤١٠ هـ: ١٠١٣ – ١٠١٩ م

حبوس بن ماكسن ٤١١ – ٤٢٨ هـ: ١٠٢٠ – ١٠٣٧ م

باديس بن حبوس المظفر ٤٢٨ – ٤٦٥ هـ: ١٠٣٧ – ١٠٧٣ م

عبد الله بن بلقين ٤٦٥ – ٤٨٣ هـ: ١٠٧٣ – ١٠٩٠ م.

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

المرابطون يستولون على غرناطة

دولة بني برزال في قرمونة

محمد بن عبد الله بن برزال ٤٠٤ - ٤٣٤ هـ: ١٠١٣ - ١٠٤٢ م

عزيز بن محمد المستظهر ٤٣٤ - ٤٥٩ هـ: ١٠٤٢ - ١٠٦٧ م.

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

قومونة تسقط في يد ابن عباد

دولة بني دمّر في مورور

نوح بن أبي تزيرى الدمرى ٤٠٣ - ٤٣٣ هـ: ١٠١٣ - ١٠٤١ م

(٤٦١/٢)

محمد بن نوح عز الدولة ٤٣٣ - ٤٤٥ هـ: ١٠٤١ - ١٠٥٣ م

مناد بن محمد عماد الدولة ٤٤٥ - ٤٥٨ هـ: ١٠٥٣ - ١٠٦٦ م.

..

..

..

..

..

..

..

..

..

موررور تسقط في يد ابن عباد

دولة بني خزرون في أركش

محمد بن خزرون عماد الدولة ٤٠٢ - ٤٢٠ هـ: ١٠١١ - ١٠٢٩ م

عبدون بن محمد بن خزرون ٤٢٠ - ٤٤٥ هـ: ١٠٢٩ - ١٠٥٣

محمد بن محمد بن خزرون القائم ٤٤٥ - ٤٦١ هـ: ١٠٥٣ - ١٠٦٨ م.

..

..

..

..

..

..

..

.

أركش تسقط في يد ابن عباد

دولة بني يفرن في رندة

هلال بن أبي قرة اليفرنى ٤٠٦ - ٤٤٥ هـ: ١٠١٥ - ١٠٥٣ م

باديس بن هلال ٤٤٥ - ٤٤٩ هـ: ١٠٥٣ - ١٠٥٧ م

أبو نصر فتوح بن هلال ٤٤٩ – ٤٥٧ هـ: ١٠٥٧ – ١٠٦٥ م.

..

..

..

..

..

..

..

..

..

.

رندة تسقط في يد ابن عباد

مملكة ألمرية

١ – خيران العامرى ٤٠٥ – ٤١٩ هـ: ١٠١٤ – ١٠٢٨ م

زهير العامرى ٤١٩ – ٤٢٩ هـ: ١٠٢٨ – ١٠٣٨ م

عبد العزيز المنصور ٤٢٩ – ٤٣٣ هـ: ١٠٣٨ – ١٠٤١ م

٢ – معن بن صمادح ٤٣٣ – ٤٤٣ هـ: ١٠٤١ – ١٠٥١ م

محمد بن معن المعتصم ٤٤٣ – ٤٨٤ هـ: ١٠٥١ – ١٠٩١ م

أحمد بن محمد معز الدولة ٤٨٤ هـ – ١٠٩١ م.

..

..

..

..

..

..

..

..

.

المرابطون يستولون على ألمرية

مملكة مرسية

١ - خيران العامرى ٤٠٣ - ٤١٩ هـ: ١٠١٢ - ١٠٢٨ م

زهير العامرى ٤١٩ - ٤٢٩ هـ: ١٠٢٨ - ١٠٣٨ م

أبو بكر بن طاهر ٤٢٩ - ٤٥٥ هـ: ١٠٣٨ - ١٠٦٣ م

أبو عبد الرحمن بن طاهر ٤٥٥ - ٤٧١ هـ: ١٠٦٣ - ١٠٧٨ م

(حكم بنو طاهر باسم عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية وولده عبد الملك)

.

..

..

..

..

..

..

..

..

..

المعتمد بن عباد يستولى على مرسية

(٤٦٢/٢)

٢ - ابن عمار ٤٧١ - ٤٧٣ هـ: ١٠٧٨ - ١٠٨١ م

ابن رشيق ٤٧٣ - ٤٨٤ هـ: ١٠٨١ - ١٠٩١ م.

..

..

..

..

..

..

..

..

..

..

المرابطون يستولون على مرسية

مملكة دانية والجزائر

١ – مجاهد العامرى الموفق ٤٠٠ – ٤٣٦ هـ: ١٠٠٩ – ١٠٤٤ م

على بن مجاهد إقبال الدولة ٤٣٦ – ٤٦٨ هـ: ١٠٤٤ – ١٠٧٦ م

٢ – المقتدر بن هود صاحب سرقسطة ٤٦٨ – ٤٧٤ هـ: ١٠٧٦ – ١٠٨١ م

المنذر بن هود ٤٧٤ – ٤٨٣ هـ: ١٠٨١ – ١٠٩١ م.

..

..

..

..

..

..

..

..

..

.

المرابطون يستولون على دانية

مملكة بلنسية

الفتيان مظفر ومبارك ٤٠٠ – ٤٠٨ هـ: ١٠٠٩ – ١٠١٧ م

لبيب العامرى ٤٠٨ – ٤١١ هـ: ١٠١٧ – ١٠٢١ م

عبد العزيز المنصور ٤١١ – ٤٥٢ هـ: ١٠٢١ – ١٠٦١ م

عبد الملك بن عبد العزيز ٤٥٢ – ٤٥٧ هـ: ١٠٦١ – ١٠٦٥ م.

..

..

..

..

..

..

..

.

المأمون بن ذى النون يستولى على بلنسية

نائبه أبو بكر بن عبد العزيز ٤٥٧ – ٤٧٨ هـ: ١٠٦٥ – ١٠٨٥ م

عثمان بن أبي بكر ٤٧٨ –..

.

هـ: ١٠٨٥ –..

.

م

القادر بن ذى النون ٤٧٨ – ٤٨٥ هـ: ١٠٨٥ – ١٠٩٢ م

القاضى ابن جحّاف ٤٨٥ – ٤٨٧ هـ: ١٠٩٢ – ١٠٩٤ م

السيد إلكمبيادور والقشتاليون ٤٨٧ – ٤٩٥ هـ: ١٠٩٣ – ١١٠٢ م.

..

..

..

..

..

..

..

..

..

.

المرابطون يستولون عل بلنسية

إمارة شنتمرية الشرق

هذيل بن عبد الملك بن رَزين ٤٠٣ - ٤٣٦ هـ: ١٠١٢ - ١٠٤٥ م

عبد الملك بن هذيل ٤٣٦ - ٤٩٦ هـ: ١٠٤٦ - ١١٠٣ م

يحيى حسام الدولة ٤٩٦ - ٤٩٧ هـ: ١١٠٣ - ١١٠٤ م.

..

..

..

..

..

..

..

.

المرابطون يستولون عل شنتمرية الشرق

إمارة ألبونت

عبد الله بن قاسم ٤٠٠ - ٤٣١ هـ: ١٠٠٩ - ١٠٣٩ م

محمد بن عبد الله يمن الدولة ٤٣١ - ٤٣٤ هـ: ١٠٣٩ - ١٠٤٢ م
أحمد بن محمد عز الدولة ٤٣٤ - ٤٤٠ هـ: ١٠٤٢ - ١٠٤٨ م
عبد الله بن محمد جناح الدولة ٤٤٠ - ٤٩٥ هـ: ١٠٤٨ - ١١٠٢ م.
..
..
..
..
..
..
..
..
المرابطون يستولون على ألبونت
مملكة سرقسطة
١ - المنذر بن يحيى التجيبى ٤٠٨ - ٤١٤ هـ: ١٠١٧ - ١٠٢٣ م
يحيى بن المنذر المظفر ٤١٤ - ٤٢٠ هـ: ١٠٢٣ - ١٠٢٩ م
المنذر بن يحيى معز الدولة ٤٢٠ - ٤٣٠ هـ: ١٠٢٩ - ١٠٣٩ م
٢ - سليمان بن هود المستعين ٤٣١ - ٤٣٨ هـ: ١٠٣٩ - ١٠٤٦ م
أحمد بن سليمان المقتدر ٤٣٨ - ٤٧٤ هـ: ١٠٤٦ - ١٠٨١ م
يوسف بن أحمد المؤتمن ٤٧٤ - ٤٧٨ هـ: ١٠٨١ - ١٠٨٥ م
أحمد بن يوسف المستعين ٤٧٨ - ٥٠٣ هـ: ١٠٨٥ - ١١١٠ م
عبد الملك بن أحمد عماد الدولة ٥٠٣ -..
.
هـ: ١١١٠ -..
.
م.
..

..

..

..

..

..

..

..

..

.

المرابطون يستولون على سرقسطة

(٢/٤٦٤)

ثبت المراجع

- ١ -

تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر (بولاق) .

تاريخ ابن الأثير (الطبعه الأهلية ١٣٠٣ هـ) .

وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) .

نهاية الأرب للنويرى.

(القسم التاريخى، ومعظمه لا يزال مخطوطا) .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (الطبعة الأهلية ١٣٠٢ هـ) .

البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى

(الجزء الثاني المنشور بعناية العلامة دوزى (١٨٤٩) والثالث المنشور بعناية

الأستاذ ليفى بروفنسال (باريس ١٩٣٠) .

الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (القاهرة ١٣٠٦ هـ) .

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنترينى (المجلدات الثلاثة

المنشورة بعناية كلية الآداب بجامعة القاهرة وما نشر منه في موسوعة دوزى

عن بني عباد Hist.

Abbad، والقسم المخطوط المنوه عنه فيما بعد.

كتاب الصلة لابن بشكوال (ضمن المكتبة الأندلسية، والقاهرة سنة ١٩٥٥ م)

التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار القضاعى (ضمن المكتبة الأندلسية) .

بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس للضبى (ضمن المكتبة الأندلسية والقاهرة ١٩٥٥ م) .

الحلة السيراء لابن الأبار القضاعى (القسم المنشور بعناية العلامة دوزى ليدن ١٨٤٧ م) .

والأصل الكامل المخطوط المنوه عنه فيما بعد.

(وطبعة القاهرة الصادرة بتحقيق الدكتور حسين مؤنس (١٩٦٤ م) في مجلدين) .

جذوة المقتبس لأبى عبد الله الحميدى (القاهرة) .

المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى (القاهرة ١٣٣٢ هـ) .

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع الفاسى المنشور بعناية المستشرق كارل تورنبرج (أبسالة ١٨٤٣ م) .

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (طبع تونس) .